النوبة رواق إفريقيا

للعلامة
وليام ى. آدمز

ترجمة وتقديم
محجوب التجانى محمود

النوبة
رواق إفريقيا

(المؤلف الحائز على جائزة ملفيل ج. هيرسكوفتش من جمعية الدراسات الإفريقية فى ١٩٧٨)
ناشر الأصل بالانجليزية ألن لين – مطبعة جامعة برنستون (١٩٧٧)
هذه الترجمة للطبعة الثانية (١٩٨٤)

رقم الإيداع
٨١٨٨ / ٢٠٠٤م

الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 17 - 1403 - 1

الطبعة الأولى
القاهرة - ٢٠٠٤

تصميم الغلاف + التصميم الداخلى
جميل مدبولى
مكتب : *THREE APPLE* - Tel : (202) 7834376

شركة مطبعة الفاطيما إخوان
تليفون : ٧٧٥٠٠٢٤ القاهرة - مصر



البروفسور وليم آدامز وزوجته نتى آدامز



عن المؤلف
البروفسور وليم آدامز*
Prof. william Y Adams

- من مواليد ١٩٢٧ لوس انجلوس- كليفورنيا / الولايات المتحدة الأمريكية .
- تحصل على شهادته الجامعية عام ١٩٤٨ - علم الإنسان Anthropology من جامعة كليفورنيا وقطع دراسته فوق الجامعية عام ١٩٥٠ من جامعة كليفورنيا لضيق ذات اليد ، والتحق بوظيفة بائع فى متجر يقع فى محمية نافاهو للهنود الحمر فى أريزونا ، وعاد وتحصل على الدكتوراه فى علم الإنسان من جامعة أريزونا عام ١٩٥٧ .
- رغم أن تخصصه الأصلى يتعلق بالإنسان الحى Ethnology إلا أنه شارك فى حملات تنقيب آثار قبائل الهنود الحمر فى جنوب غرب الولايات المتحدة ، وفى الفترة من ١٩٥٧ الى ١٩٥٩ قاد حملات إنقاذ الآثار فى المناطق التى كانت ستغمرها إقامة سد جلين كانيون Glen Canion على امتداد نهرى كلورادو وسان جوان فى أريزونا .
- عام ١٩٥٩ عرضت عليه اليونسكو مهمة مساعدة حكومة السودان لإنقاذ الآثار فى المنطقة السودانية المغمورة نتيجة قيام السد العالى بأسوان ، وهي المهمة التي امتدت لسبعة أعوام قام خلالها والفريق الذى يقوده بإكتشاف وتسجيل ما يزيد عن ألف (١٠٠٠) موقع أثري، وقام بعمليات التنقيب فى أكثر من مائة وخمسين (١٥٠) موقعاً منها . وقد عمل خلالها مستشاراً علميا لمصلحة الآثار السودانية ومديرها المرحوم ثابت حسن، ومن بعده المرحوم نجم الدين محمد شريف .
- عام ١٩٦٦ إلتحق بجامعة كنتاكى كأستاذ كرسى علم الإنسان Anthropology حتى تقاعده عام ١٩٩٢ ؛ ترأس خلالها قسم علم الإنسان على مدى فترتين .
- عاد إلى السودان عام ١٩٦٩ يقود فريقاً من جامعة كنتاكى لإجراء حفريات أثرية في كلوبنارتي (جزيرة كُـلُـبُ) "Kulub' n ' arti " عند حدود بحيرة النوبة إلي الجنوب ، ثم عاد مرة أخرى بعد عشرة أعوام ليجرى الحفريات فى مقابر كلوبنارتى.

- أثناءها ارتبط وانغمس فى مشروع تنقيبى بريطانى كبير فى " قصر إبريم " فى النوبة المصرية شرق بلدة عنيبة النوبية المصرية . وفيما بين الأعوام ١٩٧٢ و ١٩٨٤ نشط فى العمل بمشروع قصر إبريم حيث عمل رئيساً ومديراً لموقع التنقيب للأعوام ١٩٧٨ و ١٩٨٠ على التوالى .

- ومنذ تقاعده عام ١٩٩٢ إنشغل بروفسور آدامز وزوجته "نتى" Netti Kessler Adams بإعداد ونشر تقارير حفرياتهما النوبية . وكتبا مؤخراً كتابين حول عمليات التنقيب فى كل من " كلوبنارتى" و"قصر إبريم" فى طريقها الى النشر قريباً .

- ألّف بروفسور أدمز (٨) ثمانية كتب آثارية ، ونشر أكثر من مائتين وخمسين (٢٥٠) بحثاً ومقالة ومذكرات تناول ما يزيد عن نصفها التاريخ والحضارة النوبية، إلا أن كتابه " النوبة : رواق إفريقيا" يعد من أهم كتبه علي الإطلاق.

- البروفسور آدامز عضو مؤسس فى " الجمعية العالمية للدراسات النوبية " وشارك فى جميع مؤتمراتها العامة ، كما شارك فى جميع مؤتمرات جمعية الدراسات المروية. وهو الآن عضو شرف مدى الحياة فى جمعية البحوث الآثارية السودانية في المملكة المتحدة ، كما أنه حاصل على عضويةٍ مدى الحياة فى جمعية الدراسات السودانية في الولايات المتحدة الأمريكية .

- وكما تعلم لغة نافاهو للهنود الحمر فى مطلع شبابه وكانت وسيلة تخاطبه مع أفراد القبيلة فى تعامله معهم ، فإن البروفسور آدامز يتحدث النوبية بطلاقة يحسده عليها كثير من شباب النوبيين فى الداخل ومناطق الاغتراب، رغما عن نوبيتهم أبا وأما ثم أبا عن جد .

- وقد تفضل البروفسور آدامز - الذى كان يتابع عن قرب واهتمام قيام مركز الدراسات النوبية والتوثيق في القاهرة وبداية أعماله - بقبول ليس فقط للعضوية الشّرفية مدى الحياة فى المركز ، بل فى عضوية لجنة العُلماء والإستشاريين بالمجلس (اللجنة الإستشارية العليا) . وقد تشرف المركز بإستجابة البروفسور آدامز فى أريحية وتواضع العلماء بأن يكون أحد أوائل رعاة المركز Patron ثم تنازله عن حقوقه المادية كمؤلف يُعتبر بمثابة الأب الروحى ، إن استَعَرنا التعبير أو الإسم "Godfather" ، لمركز الدراسات النوبية والتوثيق .

(*) تعريف مركز الدراسات النوبية والتوثيق للمؤلف ، بتصرف - المترجم .

عن النوبـة : رواق إفريقيـا

*NUBIA : CORRIDOR TO AFRICA

بعد كتاب " النوبة : رواق إفريقيا " *Nubia : Corridor to Africa* " تأليف البوفسور وليام ي . آدامز *Prof. William Y. Adams* أستـاذ علم الإنسان *Anthropology* بجامـعة كنتـاكى ـ ولاية كنتـاكى بالولايات المـتحـدة أهم وأشمل كـتاب عن تاريـخ النوبة والسودان منذ نشـأة الحضـارة الإنسانيـة حتى بداية العهـد الوطنى . والكتاب يقـرب من الألف صفحـة من القطع المتوسط ويحـمل بين دفتيه عدداً كبـيراً من الخرائط والرسومات البيـانية والتوضيحـية ، كما يحتـوى على صور عـديدة لمواقع الآثار والـحفريات فـى السودان منذ بدايتـها الأولى إنتـهاءً بحـملة اليونسـكو العالمـية لإنـقاذ آثار النوبة من عـام ١٩٥٩ إلى ١٩٦٩ ، وهى الحـملة التى ترأسها في السودان مولف الكتاب البروفسور آدامز.

ومنذ صدور طبعته الأولى عام ١٩٧٢ إحتل الكتاب مكـانته العلمية والأكاديمية المنفردة إذ صار المصدر الأول لتاريخ النوبة والسودان ، وتخاطفت طبعته الأولى الجامعات والمعاهد والمراكز الأكاديمـية ذات الصلة إذ جاء نتاج تلكم الأعوام المتـصلة من البحث والتنقيب التي تم فـيهـا تسجـيل ورصد مـا يزيد عن الألف مـوقع للآثار فى النوبة السـودانية . وتم التنقـيب الفعلى فـيمـا يزيد عن المائة وخمـسين مـوقعاً منهـا أصدر عنها البـروفسـور آدامز فيـضاً من الكتابات والأبحاث تلخصت كلها فى كتـابه " النوبة : رواق إفريقيا " الصادر عام ١٩٧٢ وقد ضربت شـهرة الكتاب الآفـاق إذ حمل نظريات حديثـة فى علم الآثار الميـدانية وعلم تداخل الحضارات وجدت قبولاً وانتـشاراً علمياً منقطع النظير بحسبانه يجمع كل تـخصصات مؤلفة ومجـالات بحثه ومنهـا دراسات مـشابهة عن حـضارة وثقافـة الهنود الحمـر فى جنوب غرب الولايات المتحدة حيث عاش فى إحدى المحميات لما يزيد عن العشرة أعوام .

بصدور الـكتاب إحتـل البروفسـور آدامز مكانـته العلمـية المـرموقة كـأحد علمـاء علم الأنسـان والآثار وصـار أكـثـرهم شـهرة لـعلمـه الغـزير وعطائه الثـر . ونال الكتـاب جـائزة هيرسكوفتش من "جمعية الدراسات الإفريقية" *Herskovits Prize* للعام ١٩٧٨ بوصفه أحسن كتاب صدر عن إفريقـيا للعام ١٩٧٨ رغماً عن أن للمؤلف ثمانية كـتب وما يزيد عن المائتين وخمسين (٢٥٠) بحثاً ومقالة ومذكرات يتناول ما يزيد عن نصفها التاريخ والحضارة النوبية ، إلا أن كتاب "النوبة : رواق إفريقيا" يعتبر أهم كتبه على الأطلاق وذلك بشهادة كل المشتغلين والمتهـمين بالتاريخ والثقافـة النوبيين بما ينقل من تطور نظرى فى غايـة من الأهمية بأسلوب

(*) إركى ، ١٩٩٦ ، الطبعة الأولى
إصدارية مركز الدراسات النوبية والتوثيق ، القاهرة ، ص ٣٠ ـ ٣٢

ومنهج علمى دقيق ، كما أن المؤلف نفسه يفتخر بهذا الكتاب الذى يقول عنه أنه إنجاز عمره ومولوده الذى لا يحب سواه بمقداره .

وقد صدرت الطبعة الثانية المنقحة عام ١٩٨٤ وهى تضم ما استجد من معلومات من واقع الحفريات النوبية قام هو ببعض منها فى كلوبنارتى (جزيرة كُلُب *Kulub' n' arti*) فى النوبة السودانية ، ثم " قصر إبريم " فى النوبة المصرية ، والمعلومات التاريخية الصادرة عن حفريات مماثلة فى مصر والسودان . والبروفسور آدامز ظل وما يزال شديد الحماس لترجمة الكتاب إلى العربية لإحساسه - حسب قوله - بضرورة أن يعرف النوبيون خاصةً والسودانيون عامةً عظمة تاريخهم وحضارتهم ، وأهمية دورهم المتميز فى التطور الإنسانى والثقافى والمعرفى ككل .



Anthropology
211 Lafferty Hall
Lexington, Kentucky 40506-0024

23 June 1991

Dr. Mahgoub El-Tigani Mahgoub
c/o Mohammed A. Mahgoub
P.O. Box 5706
Makkah
Kingdom of Saudi Arabia

Dear Dr. Mahgoub,

As-Salam Aleikum!

I am indeed delighted to here that you want to go on and finish the translation of "Nubia" which Dr. Gamal started. It has always been a dream of mine that the book should someday be available to the Sudanese people in their own language. And of course I would be most pleased to have the work dedicated to Dr. Gamal himself; I can't think of anything more fitting.

I look forward to hearing from you about the matter of publication, and I will be looking into matters from this end.

With heartiest good wishes,

Bill Adams

لقَد ظلَّ حُلْمي الدائِم ، أن يُتَاح للسُودانيين ، يَوماً ما ، هذا الكِتاب ؛ يَقرأونه بِلغتهم ، مَا من ذلك بُد .

ويليام آدمز

٢٣ يونيو ١٩٩١

في رسالة خاصة للمترجم

UNIVERSITY OF KENTUCKY
DEPARTMENT OF ANTHROPOLOGY

211 Lafferty Hall
Lexington, KY 40504-0024

Tel: (606) 257-2710
Fax (606) 323-1959

16 August 2003

To whom it may concern:

I am both the author and also the copyright holder for the book, *Nubia, Corridor to*

William Y. Adams

William Y. Adams

إهداء الترجمة العربية

إلى روح المعلم

جمال محمد أحمد

إبن سرة شرق ،

سفير السودان :

الكاتب العربي ، والمفكر الإفريقي الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير المترجم

النوبة: رواق إفريقيا

- ١ -

كتب البروفسور ويليام ي. آدامز: " هذا الكتاب فى وضعه السليم تاريخاً للنوبة أكثر منه تاريخا للسودان " ...

وحقاً، مع ذلك، أن الكتاب ـ بسلامة وضعه ـ يعد تاريخاً للسودان أوسع منه تاريخاً للنوبة، فالنوبة بحق هى مدخل البلاد وصدرها الوحيد المنفتح على العالم المعروف إلى عهدٍ كان ولا يزال قريباً ... والرواق المؤدى بإفريقيا إلى مرافئ البحر الأبيض المتوسط، بحيرة الحضارات المأثورة.

يقترح المؤلف فى هذا المجلد الجامع أن يحكى " القصة القديمة للنوبة فى طريقة جديدة: حكاية متواصلة للتطور الثقافى لشعب بمفرده، وليس المهم فيها، جيئة ممثلين بأعينهم أو ذهابهم "، تقطع هذه الصفة من عمر الزمان مائة ألف عام أفصحت بعض آثارها عن عمر سكانها، ولعلها تزيد عن ذلك دهراً.

ولأن النوبة أضحت مولجاً لتاريخ حضارى عريق، استنّ المؤلف منهجاً فارق به علماء الآثار والتاريخ القديم لمنطقة النوبة: ذلك أنه يقدم وجهة نظر " متمركزة حول النوبة " فى محل النظرة الواحدة " المتمركزة حول مصر الفرعونية خاصة "، والتى رآها منعكسة على معظم رفقائه العلماء ذوى الإختصاص فى هذا المضمار. إنه يوقن أن " الرؤية المتمركزة حول النوبة، وإن لم تكن أفضل دقة، فانها على الأقل أحسن ملاءمة للنوبيين " الذين يعتزم قص قصتهم إنه بقولٍ صريح، يريد أن يوفيهم حقهم.

فمن بعد كرمة "حضارة العصر الفضى " ـ إذا جازت تسميتها إلى «العصر الذهبى للحضارة الأسرية فى النوبة» كما دعاها الأستاذ آدامز، يستقرئ المؤلف أحداث التاريخ سياقاً ومعنى ومضموناً، ليؤكد أن أجداد الأمة السودانية ـ على ما كان بينهم وبين المصريين القدماء من تواؤم سكانى وحضارى يصعب فصمه ـ كانت لهم حضارتهم الخاصة بهم قطعاً، « إنبعاثاً ناهضاً ذا قيمة ثقافية وأهمية سياسية ». وبتحليله العلمى الأخّاذ، يستدل البروفسور من المادة الأثرية، نصاً وصرحاً، معالم ساحرة لتطور الحياة فى النوبة القديمة، ممتدة من جنوب مصر وشمال السودان وأواسطه إلى منطقة سنار الحالية، شاطراً فى منطق ودليل هيئة الحكم فى هيكل الدولة ومسيرة ملوكها وتطور أيدولوجيتها، ومثبتاً بما لا جدال فيه شخصية النوبة المستقلة، والقوانين الإجتماعية التى خضع لها تطورها، لا سيما علاقة «التحضر والتوسع الإقتصادى والنهوض البرجوازى للطبقة الوسطى» بمركزية الحكم الملكى واستبداده، ثم البروز الساطع فى قصة الحضارة السودانية العتيقة لتصاعد حرية المعتقد والعبادة منذ آلاف السنين ـ جنباً إلى جنب ـ مع نهوض الحرية الإقتصادية وتداعى الهيمنة الإدارية والسياسية للصفوة الحاكمة وكهنوتها الدينى؛ وبالتالى عمق التمييز بين الدين والدولة فى الحضارة السودانية منذ أقدم العصور، وارتباطه الوثيق بالتقدم الحضارى والثقافى للسودانيين.

يطرح آدامز منهجه تحليلاً فكرياً مبيناً على أسس من " دائرية الثقافة "، وإيمان يقوم على البينة

والموضوعية ؛ فيرى من خلال ذلك تفرد الشعوب ، وعالمية الحضارات . إلى « النعمة المستحدثة » التى تمرغت فى ديباجها حضارات قديمة وأخرى حديثة ، ويقول : " إن مسلك المصريين القدماء من العنجهية المبالغة يعود إلى حد ما إلى النعمة المستحدثة ، إذ أن نهوضهم نفسه من الحياة الوحشية إلى الحضارة كان خاطفاً " . ثم يخلص من ذلك بتوثيق علمى إلى تقارب ثقافات العصر الحجرى الحديث فى مصر والنوبة وأجزاء أخرى فى إفريقيا . ويذكر آدامز فى تعديد عوامل نمو وارتقاء مصر الفرعونية ، وبحسم ، أن " الحروب الأوروبية لفيليب الثانى كانت ممولة بفضة المكسيك ، كما كانت قوة مصر فى آسيا ممولةً بالذهب النوبى " يشد من عضدها فى إفريقيا العنصر النوبى بنفس القدر أو يزيد قليلاً ؛ وما زال دأبه إلى أن تولى بنفسه حكم مصر والنوبة قروناً عديدة ... إن مؤلِّف آدامز يمرّغ عنجهية الحضارات القديمة فى تربة التاريخ العفراء ، مبيناً بجلاء سجالها ، وكاشفاً فى جرأة وعلم تحيزاتها الجوفاء .

" لم يكن مركز النوبة الفريد أرضيةً لتلاقى العالمين ليتحدى حتى انفتاح تجارة القوافل ، فى الألف الأخيرة قبل الميلاد ؛ ولم يُطاول إلا حين افتُتح عصر الكشوف العظيم سواحل إفريقيا فى القرن السابع عشر . فى البداية ، ولقرون طويلة فيما بعد ، كانت النوبة إفريقيا إلى الحد الذى كان فيه العالم الخارجى معنياً . على طول التخوم الصحراوية ، المكان الوحيد الذى يمكن للمقيمين على شاطئ البحر الأبيض المتوسط أن يروا فيه بارقةً من عالم آخر ، وراء الأفق الجنوبى " .

لقد رأى علماء أمثال بدج إن آثار السودان " لم تكن فى الحقيقة سوى عمل يقوم به الأجانب ." البروفسور ويليام ي . آدامز يرد عليهم بقوله " من السخرية أن العام الذى شهد وجهة نظر بدج المتشائمة شهد كذلك استهلال البحث الآثارى فى النوبة الذى كان سيثبت أنها خطأ فادح" ، والإستعمار الغاشم هو من طَمَسَ حضارتها العريقة وأطال غفلة العلماء عنها وتحيزها الأعمى بشأنها ردحاً طويلاً. فالحضارة الكوشية استمرت ما يزيد على الألف عام ، وتعتبر بحساب الزمن أطول فترةً من الحضارة المصرية والقوى الأشورية والفارسية والمقدونية ؛ وظل فراعنتها يتوجون قرناً من بعد قرن بعد الميلاد . ومثلما برعت فى القتال واشتهرت بالنبال ، إنتقلت منها زراعة القطن وربما صناعة الحديد ، وازدهرت خارج الحدود المحلية مِلامسةً البحر الأبيض المتوسط وأعماق القارة .

بالرغم من كل هذا التكريس للنوبة لا يتبنى آدامز أياً من التيارات الفكرية والأيدولوجية المحدثة التى عمت الساحة منذ خمسينيات هذا القرن ، والتى تؤسس على العنصر الإفريقى بمحض اللون وحده دعوةً شاملة لمراجعة العلاقات القارية والدولية ، وتهدف لإعادة تدوين التاريخ بما يقيم ميزاناً جديداً للحياة الإفريقية والعالمية . لم يكن ليرفض بقوة " إستعلاء " أغلبية علماء الآثار المصرية الفرعونية على حضارة النوبة القديمة ، فيما واصلوا به سلوك الفراعنة أنفسهم بشكل أو بآخر ، ليستبدله قبولاً " بإستعلاء " جديد للعنصر الإفريقى على غيره من الشعوب والأجناس . إن رأيه الأجلى هو التعايش السلميّ والحقوق المتبادلة على قدم المساواة بين الأفراد والجماعات ، وبين الثقافات والحضارات ، والإختيار بين ذلك دونما إكراه . وهو رأى يدرك إدراكاً عميقاً أهمية النظر والتمعن فيما يحوى المؤلف من تحليل ، وتفسير ، ونقد ، وتقويم ـ ليس طرحاً نظرياً مسبقاً ـ لذلك أكد هوية النوبة الثقافية وملامحها ، والتى عبر مؤلفه السائح فى غياهب القــرون يلقى الضوء على "حضارتها ورخائها" فى العصور ، عهداً عهداً.

-٢-

يستمد السودان أكبر الأقطار العربية والإفريقية مساحةً وأقدمها تاريخاً وحضارة ـ تراثه وشواهق مآثره من آثار النوبة وتاريخها . فلنمر على بعض ذلك بإيجاز نأمل أن يكون ثاقباً ، قطوف من الكتاب ...

«مصر الفرعونية وكوش النبتية كانتا حضارات محدودة النطاق ؛ وكانت مصر البطلمية (البطليموسة)* وكوش المَرَوِيّة تعبيرين إقليميين لحضارة عالمية ... مروى ، الأسطورة التى قدمها للتاريخ « هيرودتس واسترابو » وصادقها « جيمس بوس » عام ١٧٧١م ، لغتها المنسابة طلاسم لم تُفَك رموزها بعد» . إنها عقدة التاريخ القديم ؛ أهراماتها تَواصُلٌ من التطور العنيد ؛ " تقدم أكبر مجموعة من الأهرامات فى أى مكان من الوجود ؛ أجبر مندوبوها على السفر إلى ساموس البعيدة ، على ساحل تركيا ، ليلتمسوا السلام فى البلاط الإمبراطورى بشرط أن يحقق السودانيون السلام، فألغوا جزية الرومان " ؛ وذلك مما حققه آدامز . جاس أجداد السودان العالم القديم ، سفارة وسلاماً. وقد عاصروا حروبه ، وخبروا عداواته ، قوة وقياماً . عاشوا عصرهم وما أنكرهم ، ولا ينكرهم إلا طامع أو ناقم ... دولةٌ لألف عام بلا انقطاع . تواصل منها « بلانةُ و « قسطل » ، وإن " تعلقا فى فراغ تاريخى " ثقافةٌ فريدة بتيجانٍ مرصعة ، وزينة فضّيّة لا تُضَاهى رقياً .

تهارقا ، التالى لآخر فرعون « إثيوبى » [فيما يعتبر المؤرخون القدامى أعضاء الأسرة النوبية الحاكمة في النيل « أثيوبيين »] هو «النوبى الوحيد الذى ذكر اسمه فى الأناجيل ؛ الأول ، والوحيد فى الأسرة المالكة النوبية الذى اتجه بجدية من مهمة الفتح إلى مهام ترسيخ الحكم . وعندما مات تهارقا " كان لا يزال مستحوذاً على الأقاليم المصرية فى مصر العليا التى كان حكمها أبوه وجده آنفاً " .

بعنخى الذى أنجبه ، ظلت مآثره آخذة بإعجاب الكتاب والمؤرخين لتلك الأزمان السحيقة ... ومن ذلك فروسيته ، وحلمه ، وابتهاجه بالخيل ، وترفعه عن البطش بالأسرى ، وتسامحه ضمن صفات رفيعة أخرى . أما فتحه لمصر " فهو وثيقة إنسانية ... بمستوى غير عادى " .

ويذكر آدامز مشدداً أنّ صناع الحضارة من النوبة كانوا رجالاً أقوياء ، إحتاج إليهم الكهنوت فى الكرنك وجبل البركل ، عقب إنهيار إمبراطورية مصر التوسعية وما خلفته من فراغ فى السلطة بكل من النوبة ومصر العليا ، ولا ينتمون إلى « العنصر المتمصر » من سكان وادى النيلُ . ثم يُعدِدُ خصائص تفردهم ، ومنها أن صروح النوبة المعمارية تتميز بتفرّد وغرابة أحيانا " والدفوفة واحدة من أكثر الهياكل غرابة فى النوبة ، وهى الوحيدة من نوعها فى الوجود" و " لإستكمال صورة الأبهة الهمجية يمكن القول : إن عدد القرابين البشرية فى المدفن التلى المجهول فى كرمة يبلغ ٣٢٢ قرباناً ، بلغت ٤٠٠ قبل النهب ـ أى أكبر عدداً مما وجد فى أى مدفن لأية حضارة " .

لقد كان على مثل تلك النزعات والممارسات أن تمضى فى الزمان عصوراً قبل أن تجد العناصر الخَيرة ، فى المسيحية ثم فى الإسلام ، مراقد سامية أزالت فى كنفها مبالغات الطاغوت ، وأنشأت أشكالاً من صروح الثقافة والحضارة ، إلا أن الدائرة تعود فى العصر الإقطاعى بطغيان جديد ومواجهة مستحدثة . ومافتئ التاث النوبى متعلقاً بشئ من بقاياه ، يورد المؤلف من سجاياها الأمثلة والنماذج .

أما أمهاتنا نساء النوبة ، كما كتب بورخارت فى السنوات الأخيرة للعصر الاقطاعى ، "فجميعهن على خلق حسن ... والأعظم فضيلة " ؛ وما جاء عنهن قبل ذلك العصر بفضلهن غير مُخلّ .

-٣-

" حوى تحضُر مروى درجة من التمايز الإجتماعى والتخصص الإقتصادى يصعب تكراره قبل القرن العشرين " ، ولقد عُرف النوبيون بتلاقح ثقافتهم مع ثقافات الحضارات العالمية ... وسيمر القارئ على حمّامات رومانية ، ومعاصر ، ومواد بنائية جيرية ومسحوقة مِحمّرة اللون ، جنباً إلى جنب مع الكتابة الإغريقية وطرائق الدفن المصرية والأساليب السودانية ؛ وسيجد وصفاً طويلاً لمنتوج الفخار النوبى " بمكانة المشرّف فى متاحف العالم ، وبأذواقه المحلية المحافظة " . ولا

(*) بدلاً عن البطليموس والبطالسة، أخذنا بالبطلمى والبطالمة لتطابقها مع نطقها الأصلى Ptolemy – المترجم.

يستبعد البروفسور آدامز صناعة زجاج محلى ، وإن لم يعثر على أجهزة صنعه بعد فى النوبة . فحين دخلت المسيحية ، تناثرت أضواؤها على المبانى والفنون والآداب . ولما دخل الإسلام ، إنتشرت أنواره قاطبة ، وبلغ مكتشف الفن منها خزفاً مصقولاً وخطاً عربياً ممسوقاً بالآى الحكيم ، منزهاً عن الشرك ، مطهراً من التضليل .

إنتقلت خصال " أرض النبال " ، كما كان يسمّيها المصريون القدماء وفق ما أنبأت به نقوش الرموز الهيروغليفية ، اخذةً « رماة الحدق » إلى المسيحية بما حملت من نسق روحى ومعانٍ جديدة فى التسامح والفضائل المكتسبة ، تفتّت إستعلاء الفراعنة وإزدراء الأباطرة للشعوب والأفراد ، إرتقاء بالدين وتطور مراحله .

قادت الزعامات الدينية والملكية فى النوبة شعائر الإيمان ، وتعهدتها بالرعاية صروحاً تذكارية لعبادة الآلهة ومدافن « كرمة » فى العصور الوثنية ؛ ثم الكنائس والأديرة وصوامع النسّاك والزّهاد المسيحيين ؛ إنتهاء بالشهادتين وقيام الممالك والمشيخات الإسلامية ومنشآتها التعليمية . وكانت الثقافة السودانية تتخلل هذه الممارسات والعقائد .. بناء للأهرامات وصياغةً للنصب والمسّلات والنحوت ، وعمارةً للصروح بعد الأضرحة ، وتعلقا بالطرق الصوفية قديمها وحديثها ، بين خصائص عديدة أخرى . فى كل هذا النسيج الدهرى العتيق للنوبة مغزل وخيوط ...

- ٤ -

عاشت الأديان السماوية متآخية على مدى القرون فى بلاد السودان القديم ، جاذبةً بذلك السمو لمن لا دين له . " فليس ثمة بينةٍ على عدواة صريحة للمسيحية من ناحية الحكام النوبيين المتأخرين أو رعاياهم . فالكنائس لا تظهر علامات على سلب أو إحتقار ... كثير منها محفوظ فى جودة ؛ بعكس ذلك ... إن المسيحية إستكانت ، بعد إنتشار الإسلام ، ليس إلى الضغط الخارجى للإسلام ... وإنما نتيجةً لضعفها التنظيمى والروحى الخاص بها " . إلى هذا خلص البروفسور آدامز بعد فصول دقيقة أودعها تاريخ المسيحية فى السودان إلى خلاصةٍ ذات شأنٍ ومعنى - ويثبت فى مؤلفة القيّم كيف ظلت النوبة ملاذاً للمسلمين ، والأقباط المسيحيين من قبلهم ، وحيث استقبلت قبل ذلك جمعاً من الملكانيين والوحوديين مذاهب مسيحية متصارعة أما الفن النوبى المسيحى فشهيد عليه " أرقى فن حائطى لإفريقيا المسيحية " الموجود فى كاتدرائية فرس .

وملمحًا إلى وفرة المدوّن التأريخى للنوبة في العصور الوسطى ، مقارنةً بأى فترة سابقة ، يؤكد آدامز فى رصانة بليغة : " أن هذا الظرف يرجع غالباً إلى الإستقصاء الفكرى والطلعة العريضة التى ميّزت زمناً مجتمع الإسلام العليم ، جاءت معرفتنا بالشخصيات والأحداث معظمها من تقارير المؤرخين والجغرافيين العرب . كانوا أفضل علماً وأقل تحيزاً من معظم رواة الأزمان السابقة ... كانوا أقل ميلاً من سابقيهم لنظرة الإستعلاء على الإفريقيين ، وفى سردهم غير العاطفى إستقامة ، وقد اكتسى النوبيون - يبدو لأول مرة فى التاريخ - شخصية لأخوةٍ فى الإنسانية ، عاديين لا تتخطّفهم العيون " . وضرب آدامر الأمثال على سعة أفق المعاملات الإسلامية فى النوبة المسيحية . وكتب فيما يبدو ثناء عن إتفاق البقط التجارى ، وفتوى قاضى المسلمين بحرية النوبة فى أراضيهم ، إذ لا يصح شرعاً إعتبارهم عبيداً لملكهم ، وكتب أيضاً صوراً عديدة أخرى تبرز الإحترام العميق الذى تبادله المسلمون مع النوبيين المسيحيين قبل إنتشار الإسلام فى بلادهم .

- ٥ -

تناول الأستاذ ويليام آدامز الهجرة وآثارها فى النوبة منذ أقدم الفترات الزمنية ، مدلياً برأى جهير حول الإستعراب ، عقب تدفق القبائل العربية . وقال : " لم يفقدوا دياناتهم فحسب ، وإنما لغتهم النوبية أيضاً ، وهؤلاء الناس هم الذين يُسمّون اليوم « قبائل الجعليين العربية " ، " الجيرة الجنوبية

للنوبيين الحقيقيين " . إنه لرأى مثير ، جدير بالتأمل ، يضاف إلى ما يخص به المؤلِّف من آراء وأفكار لعلها على غير ما ألف قراء كثر للتاريخ والآثار ، وأخبار العصور السالفة . ومما كشف النقاب عنه أن المسيحية بقيت منها ممالك حتى الغزو العثمانى ، مثل مملكة دوتاو ؛ إن « علوة » ربما حُكمت حُكماً إسلامياً قبل تدميرها بتحالف الفونج مع العبدلاب ؛ وإن العبدلات ورثوا "علوة" عنوة ، ثم نافسهم الفونج من بعد ذلك وتقاسموا السلطان نحو ما جرى فى السيرة . على أنه يثبت للنوبيين من قبل ذلك كله بقاءهم السلالى والثقافى ـ عنصراً متميزاً ـ منذ باكورة العصر الحجرى الأول ، دافعاً عنهم غلواء الذوبان فى الأجناس المجاورة إلى أن عصفت الأنساب العربية ـ فيما رآه اختلافاً ـ بخصائصهم الحقة .

بيد أن عروبة السودان الشمالى خاصةً ليست مما يصح نقصانه ببنية المادة التاريخية نفسها ؛ وقد أفاض آدامز فى مراجع تمحيصها من عرب وفرنجة على حد سواء : وهى عروبة تغلغلت عروقها وأعرافها فى أعماق السودان الجهوية بقبائلها الأصلية المتفردة ، لادماء يوزن سائلها ، ولا ملامح ترسم تقاسيمها ، إنما نسبٌ وثقافة ممتزجة مهما كان حكم الماضى بقسمتها ، فذلك مما يقف عزم الأصحاء على عدله فى الحاضر ؛ وفى ذلك كله وفرة لأهل السودان . فمن ظهور أجدادهم عرباً وأفارقة ، وتمازج الخؤولة والعمومة ، بزغت أجيال وأنظمة من السياسة والإجتماع ، وكان لها مع جيرتها فى كافة الإتجاهات مدار ، وكانت قبائل العرب التى أحاطت بالنوبيين هى " السندان الذى صُهر عليه مجتمع ما بعد النصرانية " ـ إنصهاراً ما انفك يسيل على جنبات الوطن السودانى ، لجيرة الشمال صدارةً وجدارة ؛ ولو تُرك على رحًى ثقافته المنسابة لأخرج مزيداً من بدائع الحضارة ، فليس ثمة حرج على السودانيين إن ولعوا بأنسابهم ، وتعلق المسلمون منهم بما يقربهم منها بشرف بيت النبوة ، وقد جعل الخالق خاتمتها فى بيت عربى .إلا أنه لن يبقى لأحدٍ من زهو النسب بحق شئ من ذلك : " فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى " كما قال سيدنا النبى صلى الله عليه وسلم تصديقاً للقرآن المجيد " يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفُوا إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم إنَّ اللّه عليمٌ خبيرٌ " (الحجرات ـ ١٣) .

- ٦ -

عبر تطور الإقتصاد والسياسة ، والمراعاة الحتمية لإنتقالات العبادة من الأصنام إلى التوحيد ، يصل البروفسور آدامز إلى " أن النظام الإقطاعى فى قاعه كان واحداً دنيوياً ؛ فسلطة الصفوة العسكرية الطاغية لم تتوسد كتاباً مقدساً ، لكنها قامت على تركيب معقد من الإلتزامات القانونية والتعاقدية فى هذه الدنيا ... ما لخلاصٍ فى الآخرة ».

من ثم يمضى فينتهى إلى أن "الحكومة الدينية قاست من العجز التقليدى للأنظمة الإستبدادية . إن بإمكانها أن تدير الشؤون الإقتصادية والسياسية للدولة فى حدودٍ كافية للغاية ، لكنها لم تستطع أن توفر الشؤون الدفاعية بإقتدار . ويكون لزاماً عليها أن تطوف لإيجاد منقذ عسكرى فى أوقات الإضطرابات . وإذا أملت الضرورة ، فتسليمه نصيباً معتبراً من السلطة . هكذا كان الأصل التاريخى للأنظمة الإستبدادية ، بالمعنى الإغريقى للكلمة " . يتحدث الأستاذ آدامز هنا عن الكهنوت المصرى إبان تضعضع الإمبراطورية المصرية ، وهيمنة العسكرية النوبية . إن للصورة فى صفحات الزمان عودة يطالعها الماضى القريب والحاضر المعاش ، فى أكثر من مجتمع ، على اختلاف المسميات والأشخاص والوقائع .

- ٧ -

فى إشارة بليغة ، يشهد الكتاب على حقيقة " إمبراطورية الإسلام وحضارته العُظميّين " فى الصحراء الكبرى تغلغلاً ناجحا فى إفريقيا المجهولة . ثم أورد البروفسور آدامز عبارات عن "حضارة

الإسلام القتالية " التى أعادها الإقطاع فى العصور الوسطى ، و "بإلحاق كل أنواع الشعوب غير العربية عملاء للقبائل العربية المختلفة التى سادتهم بالقوة " ، وعن " الضريح ذى القبة البيضاء ... رمزاً أرفع أهمية وقيمة من المسجد بالنسبة للسودانيين فيما قال تريمنغهام " . وذكر أن من آثار البقط " إنعطاف النوبيين نحو تجارة الرق " .

إنها مداخل لقضايا تتعلق بشبهاتٍ حول الدين ، وتاريخ تفاعل المسلمين مع تراكيب السلطة والثقافة التى كان عليهم معالجتها ، وهذه ننهض إلى تناولها بإيجاز ، مؤمنين أن الإسلام ما قاتل إلا مُعتدىً عليه أو مُستنصراً لحق وعدل ؛ إن القبائل العربية عرفت من صنوف العزل والطرد فى ظل أنظمة متعددة تفتقت عنها الفتوحات الإسلامية مالا تسعه مجلدات ، وقد أتى الأستاذ آدامز نفسه على بعضها فى حديثه عن أجداد السودانيين من العرب المطرودين جنوباً من مصر ، قبل أن تزول مملكة أجدادهم من النوبة فى المقرة المسيحية تماماً . ولم تكن " حضارة " الإسلام مصنوعة من سكان الصحراء ولأجلهم ، دون مساس بما أسهموا به من ريادة وقيادة . لكنها انطلقت من نور إلهى جبار ، فعمت العالمين بدواً كانوا أم حضراً .

أما حضارات العرب والعجم وثقافاتهم فإنها لا تماثل الإسلام ـ القرآن والسنة ـ إلا بمقدار ما تلتزم منه قولاً وفعلاً . وعلى ذلك ، لا يعادل أى ضريح ، بيتاً من بيوت اللّه ؛ وما القبة المقامة لبشر بمسجد ولو تعدت مئذنته طولاً . فما جاوز ذلك ، فإنه وزر على الداعى قبل الأتباع معنىً أبلغ منه شكلاً . أما الثقافة والدين فليسا بشئ واحد . ولعل الأستاذ آدامز فى سياق تحليله لسيرة الإسلام فى السودان كان على علم بذلك حين نَوَّه بدور علماء الدين خاصةً فى تمييز الخطأ من الصواب . والحق أبلج : فما وُجدت بينة المدافن المتسعة فى النوبة المسلمة سوى نقشاً لراحل على شاهد ؛ الضرائح وما علت والقباب وما حوت ، ستورها ورسومها ، لا يأمر بها دين " لا يكسو الحجارة والطين " ، كما قال خاتم المرسلين .

الحديث كذلك واجب حول انعطاف النوبة نحو الرق . لقد احتوت إتفاقية البقط تبادلاً بين المسلمين والمسيحيين سلعاً تُقبل برقٍ يُرسل . وقيل إن التبادل كان مأموراً بين قاهر ومقهور ـ وهو مالم يسنده وصف للمعارك أو ما تبعها من علاقات على وجه التدقيق ـ فلو كانت البقط إنتصاراً ، لما بقى من النوبة ملك ليعاهد ويستقبل ، أو يملك حقاً ليرفض أو ليقبل .

كان الرق فى وادى النيل قديماً قدم الإنسان نفسه بالحرب وقوانين الغاب . ولعب دوراً فى بناء الصروح وإنجاز الأعمال الضخمة ، ومع ذلك كان درجات : الفلاحون يجعلون من الرعاة أرقاء ، وقادة الجيوش والكهنوت الدينى يستعبدون الفلاحين ، والملوك يجنون فوق كل شئ فوائض الإنتاج ، يلبسونها حلية وتيجاناً مرصعة .... تسيل بين أحجارها البراقة آلام المقهورين ومعاناة الفقراء .

لقد حرَّم الإسلام كل ذلك ، وأخرج للرق روافد تزيل آثاره بعد أن قوض أركانه ، وجعل من الإنسان " خليفةً فى الأرض " ، مفضلاً فى الكفارة على أقل الخطايا فك الرقاب ... وما على الدين من حرج إن ظلَّ الإنسان تاجراً للكهنوت والرق بقوانين من صنع تجارته ورأسماليته ، وسياساته اللاإنسانية الخرقاء .

-٨-

قبل أن نستعرض دروس النوبة كما تعلمها الكاتب ، من الأهمية بمكان تضمين بعض ما أكده من دور خطير للآثار فى توسيع المعرفة بالعمران وحقائقه الإجتماعية الجوهرية ، وما يتصل بها من شتى العلاقات والإرتباطات. " إن وفرة الصروح الملكية – وبهاها لا يكفى دليلاً لتقويم الحضارات القديمة ـ يتحتم أن تبرز بصورة أكثر وضوحاً ومباشرة من خلال عملية التنقيب في مواقع المدن " . وإنها لدعوة أصلية من الخبير الدولى ، الذى أُنيط به واجب إدارة الحملة العالمية لإنقاذ آثار النوبة

تحت مظلة اليونسكو ومصلحة الآثار السودانية سبع سنوات متصلة فى السودان لرفع ستائر التاريخ .

أما القبائل الجنوبية فقد كتب عنها آدامز قائلاً : " ليست جزءاً من قصتنا " ، لكنه يُصَرّح فى وضوح معهود عنه " إنها ظلت تمثل هدفاً رئيساً وإشكالاً أساسياً للحكومات السودانية " ربما بدءاً بدولة مروى ؛ مطالع القرون الوسطى ، " بلغت بعثة نيرون مشارف جنوب السودان ... وما أعاق تقدمها سوى السدود " التى أعاقت فيما بعد تقدم حضارة القرن العشرين بأغوارها ، إذ أضافت سياسات التنمية ومركزيتها دون تطوير الأقاليم سدوداً من الآثار السالبة . والحق يقال : ما على الجنوب حرج إن تجذّر نسبة بحضارات خط الإستواء ، وعلى الشمال أن يؤكد بلا منٍ أو أذىً تلاقح الحضارة ، وحق الثقافة ، ووحدة التاريخ والنضال ؛ فالتاريخ لا يزال قيد الكشف وإنْ لم تبرز آثاره بعد ، والقريب منه تمازج لا ريب فيه ... لا يجب أن تُجهل فيه الأدوار .

أما دعوة الأستاذ آدامز لتنقيب المزيد من الآثار النوبية شمالها وجنوبها فمن الأهمية بمكان ، وهى على حدٍ سواء يتيقظ لها الإحساس القومى الأصيل بين السودانيين فى الغرب والجنوب ، وما تخفى بطون أرضهم الممتدة من خفايا وأسرار ، وربما لأنها تحمل تغييراً جذرياً لمعظم ما نعلمه اليوم عن التاريخ فى شمال السودان . وتكفى الإشارة هنا إلى علاقة الفونج اللصيقة بالشلك والنوبة - فضلاً عن تحالفهم مع العبدلات والمجموعة العربية من ورائهم - وهى علاقة وثقى ولو أنها قيد لمزيد من البحث والإستقصاء . إن آدامز يُرَجّح إنتماء أصول الفونج إلى الشلك ، لذا فإنه يقصد " بسلطنة الفونج السوداء " ما اصْطُلِحَ عليه بالسلطنة الزرقاء - صراحة ووضوحاً - مُغَلِباً سبق العبدلاب إسقاط علوة وحكمها قبل الحلف السنارى ... وتدعى مترجمة كما تقتضى أمانة النقل ، ويستريح إليها تحقيق المؤلف (السلطنة السوداء) .

-٩-

أعطى آدامز قسطاً كبيراً من اهتمامه لدروس النوبة . فلم يترك القلم حتى أبدع فى صياغته محصلةً نظرية وفكرية جديرةً بالتفكير والتمعن الجاد فى قضايا الفكر الإجتماعى الراهن ، كما تعالجها الأنثروبولوجيا (الأصول الإنسانية) والإثنولوجيا (الأصول الثقافية) والإجتماع والإقتصاد السياسى ، إضافةً إلى التاريخ والآثار - وهى منظومة متداخلة فى تكامل من الحقيقة الإجتماعية ، يغذى بعضها بعضاً فى التراث الإنسانى وإبداعه الحضارى الخلاق ...

كذلك تطرق إلى تشوهات نظرية الهجرة ، وما هى بمفسر أوحد للتمازج الثقافى ، وما هى بدافعةٍ قدم وتواصل الإرث ، وما ينقطع عنه من مظاهر ومضامين . فالهجرة « لم تتظاهر أبداً بوعى كنظرية عامة للشرح التاريخى » فيما يقول الأستاذ : " إن عملية إرتقاء التطور الثقافى كنموذج تطورى لا تقف بإنشاء حضارة العصر البرونزى " ؛ بل إنه فى حالة النوبة لم يكن هناك عصر للنحاس أو البرونز سابقاً لعصر الحديد كما يرجح علماء ، إنما عَكَسَ الإرتقاء التطورى مجراه بالأيديولوجيا ، ما سار فى خطٍ واحدٍ طائعاً ينصاع وراء حضارة ما ، تابعاً لا إدارة له . يقطع آدمز بهذا الفصل الطريق على استخفاف البعض بالأصالة .

أما محددات نظرية الحتمية ، فلا تجد مصداقية لدى ويليام ي آدمز فى النمط الكلى لتاريخ النوبة . ويجد أصدق منها التطور التلقائى ، بتركيز على السببية الداخلية فى أخذ الشعوب ما يروقها ويلائمها من حضارة " عمليةً ما ، غير متبدلةٍ من النُضج الفكرى " .

لقد درس آخر تماسك للإنتشار الثقافى تأكيداً لأثر العوامل الداخلية للتغير الإجتماعى والحضارى للشعوب بما يتعدى النفوذ الخارجى للحضارات الوافدة ، دون أن يستبعد نفوذها على الإطلاق ؛ لكنه يضع لنظرية " دائرة الثقافة " مكاناً علياً فى فكرة . إنها نظرية تفسر الإنتشار الثقافى

فى عالم مجزأ ما بين أناس حضاريين وجيرتهم الأدنى حضارة . هكذا يشاهد التاريخ وعلاقات الشعوب والدول تندرج فى ممراته قائمة ، هاجعة . نعود هنا لترسيخ بيان ما خلص إليه آنفاً من أن "مصر البطلمية (البطليموسية) وكوش المروية تعبيران إقليميان لحضارة عالمية " فكل الذى سبق ذلك من أنظمة فرعونية فى مصر والنوبة سواء بسواء " حضارة محدودة النطاق " . ما أرغد النوبة ترقد حين يذهب مستعمرها ، وتشقى حين يغدو .

واقع الدورات أن "أحداثا دائرية متوالية الوقوع لا تجليها النظرية الحتمية لأنها ضيقة الحدود...، وإلا فكيف تفسر السمات المشتركة بين كرمة وبلانا وبينها ألفا عام من الزمان ؟ !" - ما كانت خطأً مستقيما فى الزمان ؛ كانت دولة تدور .

-١٠-

للأيدولوجية مركز رئيس الدور " فنحن ما نفعل " ... خلا أن آدمز يرى دراسته للنوبة تكشف أن " الإنســان هو مــا يفكر " . لا أخـاله إلا بهـذه الرؤية يكتب أن " المـهـدي كـان وطنيـاً هيـأ الأرض للأيدولوجية السائدة فى القرن العشرين ... وأبعد درجةً بمراحل من المصريين الذين سبقوا أو البريطانيين الذين لحقوا . حاول المهدى أن يطهر نفاية الإقطاع والقبلية وأن يُوّحد أقوام السودان المتعددة فى تطلع مشترك ومصير واحد ... إنه أبو الإستقلال " إن أيدولوجية الدولة المهدية هى العقيدة الإسلامية ودولتها الوطنية هى الجهاد فى سبيلها .

الأسلوب ، والأهمية المحددة لمصير العنصر الفنى فى التواصل الثقافى ، آخر درس ألمع إليه البروفسور آدمز فيما يرى أنه تعلمه من النوبة فهو يرى تواصلاً لا ينقطع فى الأسلوب الفنى والإرث الثقافى من خلال الفخار والدفن الجنائزى ، والرموز الكتابية ، وما شابه ذلك ، يرتبط بموجهات أيدولوجية متميزة غير وثيقة الإرتباط بتطورات إجتماعية أو ثقافية إقتصادية ، لتحتم نشوءها - إن الإنسان يفكر حراً ذا إرادة ... خيطاً - لا كخيط العنكبوت - يجعل من كوش ونبتة وكرمة فى غياهب القدم عقداً منظوماً من الهوية المستقلة لسودان ما انفك ثائراً ...

فى حوالى ثمانمائة صفحة فى الأصل الإنجليزى للمؤلف الأمريكى ، تحال إلى جزئين بالعربية ، كأنما يوعز الكاتب أن النوبة « فكرة أصلية » صمدت عبر العصور أمام رياح التغيير ، وعواصف التعرية المجتاحة للبيئة والمجتمع . لقد أزالت هذه بفعل الحضارات والثقافات المتدافعة قدراً بالغاً من بناءاتها الوصفية وسماتها المميزة ، وما بقى منها إلا شئ من الهياكل والصروح ، وبعض من مخلفات القبور وتحف المدافن ، وما فى باطن الأرض سرّ لعله أعظم وأخفى . لكن الفكرة باقية ، ولو تخلى عنها حملتها بالدم والإرث ، ولا يحملون منها الآن إلا قليلا من لغة . وقد بيّن المؤلف أن أقوى عامل فكرى أعملته المسيحية آنفاً ، ثم ورث الإسلام كامل النوبة .

ينتصر عمل البروفسور آدمز لبقاء الفكرة وخلودها على المادة المندثرة ... جهداً ثميناً ، برؤية صافية تنم عن رصانة عميقة فى المنطق والتفكير ، اللازمين لقراءة التاريخ واستيعاب دروسه الخالصة . أياً كان ذلك ، فهو يأخذ من حقائقه المادية متشوقاً لكشف المزيد ... يكفى أن اللغة المروية صنو للأترورية الإيطالية القديمة ، إختراعات محجوبة لما تزل ؛ يأخذ ما يحتاجه دونما مغالاة ، أو إفتئات . كتابه عن النوبة قصة ، سلسلة أحداث مترابطة ، فصول من الواقع . إنه إتجاه يتسق ، فيما نرى بدورنا ، مع ما نص عليه إلتزام المؤلف بالحقيقة الممحّصة . فلقد ذهب الرجل يبحث عن " إنسان بدائى " كما درج على ذلك علماء الأنثروبولوجيا ، فوجد " طفولة الحضارة ومراهقتها " .

-١١-

فى المؤلِّـف معين لا ينصب للفلكلور السودانى وعشاق جذوره . لَدَى منه موقف ، وعلاقة، رأيت ان أسجل منها شيئاً .

جاء فى الكتاب ذك لحظائر الأفيال فى الحضارة المروية التى اجتذبت قرطاجة والبطالمة حتى شيّد بطلمي حظيرة للحيوانات الوحشية فى مكان ما يجاور سواكن الحديثة لتشحن إلى بلاده . أما العلاقة فهى ما يتداوله أهل السودان عن « أدَّاب الفيلة » ـ أى الذين يروّضون الفيلة ـ فلربما غاص الإسم فى تراث الأجداد العتيق ، وقد أثبت التاريخ لهم هذا السبق العجيب .

كذلك كان الأسد لدى الأجداد فى مروى معبوداً ؛ والسبع لدى العرب رمز بدوره للبأس والملك . يتعانق الرمز بين النوبة والعرب ، وصلاً ثقافياً غير ذى قطع .

أما ديانة النوبة القديمة فربما كانت أول ما مارست تكويناتهم الإجتماعية ، وقد ظلت سائرة الإيمان حتى بلوغ الإسلام أرض شعبها . أخذت من ديانات الجوار والعالم القديم ، تتابع ما يترك ، ولا تتخلى . لا جرم أن كهنة آمون حفروا فى كل رابية على النيل معبداً أو نقشاً . . . وفى الحضارة الكوشية المروية قبل الميلاد وبعده بقرن أو يزيد من الزمان ، إخترع الإيمان النوبى لنفسه معبوده الذى لا يوجد له نظير فى العبادات القديمة قبل أن ينزل وحى السماء من الواحد الأحد ... إخترقت النوبة أصنام القدم بأبادماك : ثلاثة(*) رؤوس أسدية .

ـ ١٢ ـ

لعل مما يتقاسمه المؤلف من جهة ، والمترجم من جهة أخرى ، فى جهد الكتاب ، عبء التأمل ونَوء التفكير ، عزماً ماضياً من أجل المعنى الثاقب للكلمة الأصلية بالكلمة البديلة . على أن أشق ما يقع على الكاتب أنه يصنع ويرفع بناء لغوياً موازيا ـ إن لم يكن مرادفاً ـ للصرح الحقيقى الذى أرساه المؤلف وأقامه بلغته الأصلية إنه التمعن المرير فيما قصد إليه المؤلف وأراده ذلك الذى يضاعف من عناء الكاتب ويملك عليه أوقاته، بعقله يفك عقل آخر ... لا غرو أنه يؤلف جديداً دون أن يفقد القديم مادته وابتكاره . وفى ذلك ، لا تقل متعة المشقة ذرةً للكاتب عن المؤلف ، بل لعل الأول يظهر بعض ما أسرّ الثانى .

لا نضع من جهتنا فيما ورد آنفاً إلا شيئاً من المحاولة التى عمدنا بها إلى معالجة هذا المؤلف ، نجد منها على وجه الخصوص علامات مضيئة من الأمل العميق ، والهدف الروحى السامى نحو بلاد خالدة وأقوام تليدة ... من خلال رواق واحد ، فسيح الأفق ، من الحقوق العامة .

إن أثمن درس قد يخرج به الكاتب ، ترسماً لما أصدره المؤلف من دروس عن تاريخ النوبة ، لا تفارق علامات بعينها : فكرة السيرة الذاتية لمسيرة حياتية عن قوم فى أمة مستقلة الثقافة . ما من حدود قاطعة بحيث تأبى التمازج مالا تجرى حياة دونه . فالخالق جعل من الناس « شعوباً وقبائل لتعارفوا » وما بعد ذلك من قول ، طمس الهوية ، واستهوان الطوية ، والدوس على خصائص الإستقلال لا يناقض إلا حكمة التعارف ـ الفطرة والحرية والحق الموهوب : حركة حقوق الإنسان بأكملها كما تتناقلها السنة وتفرضها مواثيق ودساتير فى عالم اليوم، وهي واضحة جلية فى محكم التزيل من لدن العليم الخبير. ليت الأدعياء ممن يتشدقون يتثبتون بالعمل كتسابقهم بالقول .

السيرة الذاتية للنوبة كما قصّها علي لسانها العالم الإنسان وليام ى. آدمز تعكس إصراراً فى مسيرة النوبة الحياتية على ممارسة حقوق الشعب الأساسية : التمتع بالحياة في الإقليم والمساهمة الوافرة في تنميته وتطويره ، والانفتاح من موقع النوبة علي العالم من حولها.

لقد خاض أهل النوبة ما قُدِّر لهم في ذلك تاريخاً حافلاً بالصراع وبكافة أشكاله السياسية والإقتصادية والإجتماعية، وتخيروا من طرائقه الثقافية ما اتسق مع إرثهم ومكونه الحضاري الفريد عبر رواق من الإتصال، والهجر ، والهجرة، فالإنقطاع، ثم الوصل تارة أخري ، يشكلون بتجربتهم الخاصة مُدَّونهم الزمني وسجله التاريخى الطويل .

(*) هم أربعة رؤوس لكنها تظهر ثلاثةً من الرسومات ، للضرورة الفنية فيما يبدو – المترجم.

تلاحمت معالم تلك الصورة الغنية بالأحداث والمواقف مع أنباء العالم الكبري التي تفاعلت معها النوبة أيما تفاعل: الإسلام ، ومن قبله المسيحية، ومن قبلها عوالم الوثنية وحضارات الرومان وفارس، ومن قبلها الإغريق، وترويها في عمر الزمان الآشورية والفرعونية، وما فقدت النوبة فكرتها ! هؤلاء قوم غزوا مصر وأعادوا من جديد سلطان عبادتها، ثم عادوا إلى مسقط رأسهم، وما ذابوا...

النوبة كذلك ما أذابت نفسها إلا باختيارها... عندما استدامت بعد غزو مصر حكم فرعونها وآمونها... وعندما اعتنقت المسيحية قروناً وأنشأت ممالكها... وعندما دخلت الإسلام وأدخلت العروبة وأصبحت أصولها العرقية ترفد منها الفروع والأنساق الحضارية والثقافية، عادات وأعرافاً لشمال السودان بأكمله، وتلامس جنوبه عمقاً وأطرافاً ...

ذلك كان درساً عن السيرة الذاتية لمائة الف عام أو تزيد. وهل يقف الزمان عن دوران دولابه، أم أن مزيداً من التفاعل يقبل ويدبر، أو يسيل ويجمد؟!

إن إرسال البصر يرتد تصوراً جريئاً حاسماً - ما استرسل آدمز فيه إذ أوقف عمله للنوبة وحدها- وأضحت النوبة كياناً آخر وأصولاً أخرى، هى السودان بأغلب شماله وأواسطه ،وستمضى مسيرتها في التاريخ كياناً أكبر، وأصولاً أعرق عندما تعانق في السودان جنوبه، إختياراً وثقافة مستقلة: نواميس الرواق التى أملت تاريخه ربما تنبسط فسيحةً أمامها نواميسُ رواقٍ من أعماق قارتها...

-١٣-

كلمات غالية عن مستقبل النوبة ، لا أرى من خلالها ما يأمله آدمز من «توحد» النوبيين. ولكننى أميل إلى الإتفاق معه على أنهم يذعنون لأيدولوجية العالم دون أن تُخمد ثقافتهم. إنصـهر فى أمة السودانيين نوبتها ؛ وفى مصر .. لا يوجد حقيقة مانع يحرِّم إنصهارهم . إن الإنغلاق على ثقافة محلية لا يحول دون صهره إلا امتناع الوسائل وتعنت الأساليب ... والناظر إلى مستقبل النضال المشترك بين القوى الراغبة فى تحولات الحياة الإجتماعية فى وجهة أعلى تقدماً وأرقى إنسانيةً بوسعه أن يرى بوضوح تجمع الطاقات وتراكمها واستعداداتها القوية للتمدد والإنطلاق من تحت رماد الإهتمام المحدود . يترامى بتلك الرؤية أفق جديد واعد لأهل النيل ...

من هنا ، لا أتفق مع آدمز فى وصفه حركة ٢٦ يوليو ١٩٥٢ وثورتها الاجتماعية " بالطغمة العسكرية "، مثلما لا أتفق مع وصفه الأنصار " بالدراويش " ، أو المهدية " بالعصيان " ، فهى ثورة شعبية كاسحة .

وقد صنَّف آدمز الثورة المهدية " حشداً من الدراويش " و " حركة دينية " ومن ذلك قوله فى تصنيفها : " غير أن كلاً من حركة الجيش المصرى عام ١٩٥٢ ، التى أطلقت الشعب المصرى من إساره وإن تخطى سيرها وفارقت نوعاً ما مسيرته ؛ وحركة الإمام المهدى عام ١٨٨١ ـ التى حررت الشعب السودانى من أغلال التركية وإن تحولت إلى سطوة رعوية ـ لا تقل آثارهما وما أحدثاه فى مجتمعى النيل الكبيرين من تحولات نافذة، عن خصائص الثورة وعملياتها وأهدافها الكاملة : هدم نظام وإنشاء آخر مجتمعاً ودولة... " .

ما على الجيش المصرى حَرَجٌ ، ولا على المهدى ، إن حَقَّقا شيئاً .. فقد أخرج الزمان بصراع القُوَى، وحَسَم التاريخ شيئاً آخر ... فمن ذا يُفلحُ الجزءَ ، حين الكُلُ لا يَصلُ ؟

-١٤-

بقيت إشارة هامة إلى اتجاه يتبدى فى المؤلف الضخم ، يبدو فيه رأى لآدمز يكاد أن يصير رؤيةً إستراتيجية .. نلمس أنه يؤكد ثمة ضرورة " لإبتعاد" الشقيق المهيمن عن أخيه الأصغر كى يستطيع أن ينمو ويتطور .

لا أقاسم آدمز الإتجاه . فالماضي ودروسه لا يجب أن تؤخذ مرآة تعكس الحاضر وتحدد كل المستقبل. ولئن كان الماضي كما طرحه في إبداعه التأليفي شحنة من تسلسل غير متكافئ ، فإن للحاضر شروطه وقواه . وهي قمينة بإعداد صيغة أوفر عدلاً وندية ، وأفضل تقدماً... وأيدولوجيات العالم، وحقائقه الإقتصادية والسياسية ، وما بلغته القوى الإجتماعية في شطري وادي النيل تؤكد مجال النضال المشترك. ومن زاوية الثقافة والحريات والذاتية المستقلة أرى مساهمة البروفسور آدمز العظيمة أبرز وأهم، فعلى أساس تلك الملامح وديناميات‌ها ، يصل مالم يعدل فيه آنفاً بما يجب أن يوفى حقه لاحقاً .

-١٥-

إلتزمنا ما أمكن تقريب مقاصد المؤلف ، وتقمصنا ما اقتضى الأمر تأليفه . يمثل ذلك نهج أستاذ الترجمة السودانية الحديثة جمال محمد أحمد الذي يعتليّ هامة الإهداء العربي ، مثلما يعتلي الأستاذ رايزنز هامة الإهداء الأصلي ، وهو اختيار فاقنا فيه حماساً العالم ويليام آدمز مؤلف الكتاب . ولا عجب ، فإن مآثر جمال في الكتابة والترجمة ظل نبراساً على مر الأجيال ... إبن سُرة شرق ، مفكر العروبة ، وكاتب إفريقيا ، وسفيرها السوداني الضليع .

سيجد القارئ بسبب الإلتزام بالنص الأصلي جملةً من عبارات الترجيح : [ما يبدو ؛ وعبارات الرجاء ـ ربما ولعل] ، ومرد ذلك على الفور إلتزام المؤلف بالأسلوب العلمي الصارم في التقويم والتقدير بمقضى البينة – نصيةً أو أركيولوجية ـ والنأي عن الوثوق حين يكون الشك أولى ، لا سيما وهو ينقد نظريات ويجادل أخرى ـ حيثما دعت الحاجة ـ ليسد فرا غاً زمنياً لا يقل في فترات بعينها عن عشرات القرون .

إن جميع الإضافات التي تطلبتها الترجمة في سياق النص أشرنا إليها في هامش النص . وسيجد القارئ مسميات بالعربية لإصطلاحات غربية سعى بها أصحابها من علماء الآثار والتاريخ لتقريب ما تبّدى لهم من بنايات وهياكل . وكان من رأينا أن يطلق على ما توّعر منها وأطنب مثل « البناء العُلوي فوق قبور كرمة » كلمة ضريح ـ بسطا وإيجازا . ذلك أنها كانت أمكنة مقدسة تضم أرواح الملوك فيما آمن أهلها إبان تلك الأزمنة السحيقة ، ولايكفي نقلها للشرح من القواميس «ركاماً ترابياً » وحسب . الضريح في زعمنا أقرب ما يكون إلى الوجدان السوداني القديم الذي ما فتئ يشيد الضرائح فوق قبور الوجهاء ، على انطواء العصور ، ثقافة لا تصح دينا؛ إلا أننا عدلنا عن ذلك عقب تصنيف الدكتور أسامة عبد الرحمن النور حيث يدعو القبور في المدافن الإسلامية ضرائح . أما أبنية القبور في الحضارة النوبية القديمة فتدعى مدافن تلية . على كل حال، لايُفتي ومالك في المدينة.

أما الإختراع الفكري الشيق للبروفسور آدمز عن تواصل الحياة ما قبل التاريخ آفاقا ثقافية، بدلاً من إعتبارها حلقات لجماعات تجول بين العصور بلا رابط أو واصل، على نحو ما رأى أكثر أقرانه من علماء الآثار ودراسة التاريخ، فقد رأينا إمكانية نقله إلي العربية بمصطلحات جديدة : ثقافة المجموعة الأولي للأفق (أ) كما أسماه آدمز، وثقافة المجموعة الثالثة للأفق (ج)، وثقافة المجموعة المجهولة للأفق (س) . أما الجماعة (ب) في الأفق (أ)، فهي أكثرها غموضاً وإفتقاداً وحاجة للكشف الآثاري لتوسطها فكرياً بين ثقافة المجموعة الأولى وثقافة المجموعة الثالثة. والهم أن كل هذه المجموعات الثقافية متصورة بقدر ما توفر للبروفسور آدمز من تحليل علمي كمراحل في كل متصل . ولقد شاورت الأستاذ آدمز مشاورة شخصية في المسميات العربية التي جئنا بها في الترجمةً حول الآفاق وطرحها مجموعات ثقافية، ، وانشرح بها صدراً .

لم نجد ما يقنع لإعتبار « البربرية» مرادفةً « للهمجية والتخلف وانعدام التمدن» على نحو ما اتبعته قواميس بالمكتبات . فالنعوت ذاتية لا تتماشى موضوعيا مع سياق المعنى بدقةٍ في المؤلف. لذا اقترحنا " أقل حضارة " بدلاً من « البربرية» إيفاء للمعنى وتوخيا للعدل في تصريفه . وعلى ذلك المنوال ، توالى نسيجنا لعدة مصطلحات ترد في حينها ، خاصة بالمؤلف .

سـألنى مـرة ضـابط المطار فى مطار جدة الدولى عن الصـور التى يزدان بهـا غـلاف الرواق الخـارجى . وكان يود إستطلاع معانيها ، وما ترمز إليه زخارف البيت النوبى ، وغيرها من الرموز بالغلاف . وحثيما قادنى الترحال ، تواترت نفس الأسئلة من ضباط المطارات ، والطلاب ، والأساتذة، والمسـافرين وغيرهم . ويقودنى ذلك الآن إلى تسجيل لبضع كلمـات عن الثروة الثـقافية التى قام بإنتاجها فى الرواق الأستاذ ويليام آدمز بتقديمه للعالم ما حمله مؤلفه عن الحضارة النوبية .

حينما كنت أدرس قائمة الفراعنة النوبيين فى الأسر القديمة ، كان من الصعوبة بمكان إجراء ترجمة لأسمـائهم دون حصول على توجيه نوبى . إن الدكتور على عثمان يعتقد أن لغة المحس هى الاكثر تمثيلاً للغة النوبية القديمة . وبما أنه لم أتمكن من محادثة مَنْ له إلمام بتلك اللغة اثناء إقامتى فى غرب إفريقيا والولايات المتحدة ، قررت أن أستخدم كدليل لنطق أسماء الفراعنة النوبيين أغانى المحس بإعتبارها مصدراً محتملاً يستعان به فى نطق الأسـماء الخاصة بالملوك والملكات . وقام الأسـتـاذ عبد الإله النوبى فى كندا بإرسـال أشرطةٍ لأغانى من المحس ودنقـلا . وبإستـمـاعى إلى الأغانى وأنغام الطنبور الشجية إستطعت أن أصل إلى أوزان وتوقيت إيقاعى للأسماء النوبية الطويلة، وهى تسير على هذا المنوال : *تا ـ تا تا ـ تا ـ تا تا ـ تاتا* ويرجع ذلك تكراراً . ومن ثم قرات ، كمثال : *ت ـ كيرى ـ ديا ـ امانى ، أمانى ـ تا ـ ارا ـ كيدى ، تا ـ تا تا ـ تا ـ تاتا ـ تاتا* ، وهكذا دواليك نبتكرها طريقةً لقراءة أسماء الفراعنة النوبة .إن هذا التوجه هو الذى أعاننى على كتابة الأسماء . وقد وافق البروفسور آدمز على تلك الطريقة عند مراجعة الأمر معه بالهاتف محادثةً مع مقره فى كنتاكى ، بإنشراح .

أضـاءت تلك الطريقة فكرةً لمعت فجأة فى ذهنى ، ولما لا نستعين بطنبور المحس لقراءة الخط المروى الذى لم تفك طلاسمه بعد ؟! لعلنا نستعين مباشرة بالفنان النوبى الشعبى، إضافةً إلى جهود علماء اللغة وأساتذة الأنثروبولوجيا ومنهم ريتشارد لوبان، الذى يحوى مؤلفه الجديد عن النوبة(*) جدولاً نادراً يقارن فيه الخط المروى وما قد تعنيه كلماته المنقوشة بنبرات لغوية صوتية معينة .

ومن أشد ما يُرَوِع القارئ فى الرواق ، نظرية آدامز القائلة بأن النهريين الحاليين فى شمـال السودان هم بعينهم ورأسهم سكان النوبة منذ أقدم الأزمان ، بصرف النظر عن التعدد العرقى الهائل الذى أصـاب المنطقـة (من غرب افريقيـا ، والاثيـوبيين ، والمصـريين ، والعرب ، والأوروبيـين ، والآسـيويين ، وغيرهم) عبر التاريخ وإلى الحاضر . حقيقـة مذهلة أخرى تتعلق بتحليل آدامز للحضارة النوبية بإعتبارها نتاجاً لشق واحد فى مصر والسودان .

أما أكثر الحقائق ترويعا بالنسبة للمؤلف ككل فهى بالتاكيد تلك المعرفة الكبيرة والمثابرة الهائلة الخلاقة التى عالج بها ويليام آدمز حقب التاريخ ومراحله المفقودة فيما يخص الوجود السكانى ، ونمو السكان ، وأنشطتهم ، والحضـارة منذ ما قبل التاريخ إلى الستينيات بالقرن العشرين . فيا له من جهدٍ علمى رائع ! ويالها من متعة فكرية للقارئ ! ولسوف تتواصل فى كل مرة يُطَّلع فيها على الرواق .

كان ذلك عرضاً سريعاً لبعض ما يثير هذا العمل السامق ، رفيع المستوى ، من الأدب والبحث الغربى عن النوبة بشقيها المعلومين اليوم فى مصر العليا وشمال السودان . لقد تجاوزت النوبة فى التاريخ ذلك التقسيم الحديث ، ولا مست آثارها أعماق القارة فى مروى وما بين النيلين ، وعالجها آدمز نوبةً واحدة المساحة والحركة ، عديدة الأقوام والأنساب ، غنية الثقافة ، صافية المزاج لا تستقصى على الجدة والإبتكار ، " قصةٌ مفتوحة للإضافة " ...

(*) انظر ص 429 من مؤلف البرفسور ريتشارد لوبان :
Historical Dictionary of Ancient and Medieval Nubia, The Scarecrow Press, inc., Lanham, 2004 – المترجم.

وجدنا كتاب النوبة ممتعا ، مهيبا بما وسع فيه المؤلف علماً بالبحث والتدقيق ، وما كرّمه به عشرات العلماء والبحاثة ذوى الإختصاص والمراس من تدارس وانتقاد ، تجسيداً لما للنوبة من مكانة باسقة ، وتجسيماً لمسؤولية التعرف على ماضيها العريق عن قرب ومعرفة ، وحَفْزاً لأولى النُهى من كل مشرب كي ينقبوا عن آثار الأمة السودانية الموؤدة فى باطن الثرى ، وقد علم المجتمع الأثرى المحلى والدولى من طلائع أطلالها ما فتن فى الماضى البعيد الكتاب والشعراء والفنانين . ليس عجباً أن الكتاب مُنح جائزة هيرسكوفيتش القّيمة للدراسات الإفريقية عام ١٩٧٨ من جمعيتها الدولية .

-١٧-

أعد البروفسور وليليام ي . آدمز كتاب النوبة خلال ثلاث سنوات من العمل ، وذلك ضمن عشر سنوات من الإشراف على إنقاذ آثار النوبة فى منطقة السد العالى ، والعمل الميدانى تنقيبا عن الآثار فى مواقعها الجغرافية المختلفة . وقد تمكن من صياغة قصة متكاملة الفصول للنوبة القديمة ، مع تسليمه بأن القصة تعتريها فجوات لا يوجد أثر لملئها بعد على صعيد الواقع العملى .

أما ترجمة هذا الكتاب إلى العربية ، فاستغرقت ما يقارب الثلاث سنوات فى عمل متواصل ، شملت سنين طويلة أخرى من المراجعة والتدقيق ... ظل فيها « الرواق » متنقلا معى من مكان لآخر - السودان والحجاز ومصر والقامبيا والولايات المتحدة .

إن الفضل في فكرة الترجمة يعود بادئ ذى بدءٍ إلى المؤلف نفسه الذى خاطب في شأنها الأستاذ جمال محمد أحمد ، رحمه الله ، ولم يمهله القدر فيترجم الكتاب . وابتدر الدكتور على عثمان المشروع ثانيةً ، فأمدنى بعطفه المعهود بنسخةٍ من الكتاب أياماً باكرة من عام ١٩٩١ في الخرطوم . ثم أردف إهتمامه بضرورة الترجمة بإتفاق مع المؤلف والمترجم معاً منذ ذلك التاريخ ، وتابع الإتفاق لاحقاً عام ١٩٩٤ عندما صار مُنَسقاً لمركز الدراسات النوبية والتوثيق الوليد في القاهرة ، ومديراً لأبحاثه . وكنت أعتزم الذهاب إلى مكة المكرمة تلكم الأيام من عام ١٩٩١ بصحبة الحبيبة أمى أنزل الرحمن عليها رضوانه . وفي المدينة المقدسة تبادلت الرسائل مع البرفسور آدمز في جامعة كنتكى ، وقد وافق حالاً على مشروع الترجمة ، مُشيراً في إحدى رسائله إلى كتابةٍ مُطَوّلةٍ تلقاها من الدكتور على ، مؤيدةً لإتفاقنا السالف في الخرطوم.

نقتطف في هذه المناسبة **فذلكة تاريخية** لقصة الترجمة من مجلة إركى (الطبعة الأولى ، القاهرة) التى أصدرها مركز الدراسات النوبية والتوثيق عام ١٩٩٦ :

فى عام ١٩٨٤ زار السودان البروفسور آدامز بعد صدور الطبعة المنقحة الثانية للكتاب لمقابلة الدبلوماسى ورجل الدولة والمفكر النوبى المرحوم جمال محمد أحمد ليناقشه فى أمر تولى الأخير ترجمة الكتاب إلى العربية إذ كان الأستاذ جمال آنها رئيساً لإتحاد الكتاب السودانيين . وكدأبه فى الأهتمام بالشأن النوبى ، وافق الأستاذ جمال بحماس شديد على القيام بترجمة الكتاب حيث عَبّر الأديب النوبى الفذ عن إحساسه بالشرف والفخر إذ تعهد إليه مهمة ترجمة الكتاب لما للكتاب فى نفسه من حب وتقدير عظيمين ، ولما له من أهمية ليس فقط لقارئ التاريخ وعلم الإنسان والإجتماع ، بل لقُراء الفلسفة وعلوم الحضارة الأنسانية قاطبة . وعاجلت المنية الأستاذ جمال إذ رحل عن دنيانا فى أكتوبر١٩٨٦ دون أن يُقدر له ترجمة الكتاب . فكان فقداً كبيراً وجللاً عظيماً للنوبيين خاصة وللسودانيين أجمع . وكتب بروفسور آدامز مرثية عظيمة فى المرحوم جمال قائلاً إن ترجمة الكتاب أضحت ذات أهمية أكبر ، ومُعّبراً عن إصراره على ضرورة تكملة مشروع المرحوم جمال وإهداء الترجمة لروحه الكريمة ، مكلفاً جمعية الدراسات النوبية ممثلةً فى شخص الدكتور على عثمان محمد صالح ، ومخولاً إياها إنجاز المشروع .

عملا بذلك تم إسناد مشروع ترجمة الكتاب إلى الدكتور محجوب التيجانى ، لتميزه فى الترجمة ومعرفته الدقيقة للنظريات العلمية المستخدمة لدى علماء علم الإنسان والإجتماع وإدراكه لأهمية الجانب النظرى لكتاب البروفسور آدامز فى إلقاء الضوء الكاشف على الجانب العلمى ، ليتم الفهم الأشمل والأدق لفصوله العديدة . بنهاية عام ١٩٩٢ إنتهى الدكتور محجوب التيجانى من ترجمة الكتاب وسلمه إلى الدكتور على عثمان محمد صالح الذى بعد أن أجرى القراءة الأولى للتصحيح سافر به إلى لكزنجتون - كنتاكى ، وقضى شهرى نوفمبر وديسمبر ١٩٩٣

بدعوة البروفسور أدامز وضيافته فى جامعة كنتاكى حيث تمت المراجعة الدقيقة للترجمة من حيث توافق الصياغة الأدبية العربية للمادة العلمية ، وتمت إجازته من قِبَل البروفسور أدامز بقرار بتخويل المركز التصرف فى حقوقه كمؤلف على نحو يخدم أهداف المركز ويعمل على استمرارية نشاطه . وما كان هذا الأمر بالغريب على البروفسور وليم آدامز إذ جاء متسقاً مع ما عهد فيه من عطاء وبذل فى مجال الحضارة والثقافة النوبية، وما يحتله من مركز مرموق فى الأوساط العلمية الدولية ذات الشأن (*) .

وفى القاهرة ، فاتحنا الدكتور أسامه عبد الرحمن النور مدير مصلحة الآثار السودانية فى أمر المراجعة الآثارية للترجمة وإعداد مقدمة للكتاب : ومع إنه لم يتيسر له القيام بذلك العمل، فقد تكرم مشكوراً بمقترحات عديدة إلى نهاية الفصل الثالث حول عدد من المصطلحات الآثارية وشرح عبارتها فى تدقيق عليم .

-١٨-

وبعد ،

يشرفنا أن نتقدم بالتقدير أوفره لمركز الدراسات النوبية والتوثيق فى القاهرة ، وبصفة خاصة الدكتور على عثمان محمد صالح منسق المركز ومدير أبحاثه ، الذى تفضل بالإتفاق مع المترجم عام ١٩٩٤ على أعمال الترجمة .

ولقد قام السيد البشير جمعة سهل بجمع مخطوط الترجمة فصَحَّحه المترجم وأعاده له لمتابعة عملية الطبع، وأسهم صديقى البروفسور مايبويا موناتابلا أستاذ الدراسات الإفريقية بجامعة ولاية تنسي وقرينته السيدة نفرتيتى مكيدا، الأمريكية نوبية الأصل، بإعادة تصوير مجموعة الكتاب الفوتغرافية، فلهم شكرى الجزيل لما أسهموا به نحو إعداد الكتاب للطباعة فى منتصف التسعينات. ومع ذلك الجهد الصدوق، لم يُقدر **للرواق** أن يرى النور، وقد أدركه بلا طبع قرنٌ جديد .

إننى لايفوتنى أن أسجل الصعوبات الكؤود التى حالت دون صدور **الرواق** عام ٢٠٠٢ فيما أُعلن للحضور الكريم نبأ طبعه الوشيك فى مؤتمر الدراسات السودانية فى الولايات المتحدة الأمريكية، وتقبله الجميع وفى مقدمتهم البروفسور وليام آدامز بالإستحسان. فلقد تعسرت جهود الطبع سنين طويلة خلال ١٩٩٢ - ١٩٩٦ وبعدها إلى عام ٢٠٠٢ . ودعانى الأمر إلى إعادة تجهيز العمل منذ ٢٠٠٢ برمته إذ شَق علىّ أن أرى مولودى الحبيب موؤداً. ومن ثم، عاودت الإتصال مجدداً بالمؤلف أدمز الذى وافق على الفور لما نويت عليه، مباركاً ما عزمت من تولى لشئون طبع **الرواق** بشخصى بكل ما يقتضيه ذلك العمل من إعداد مجدد للأصول، ومراجعة دقيقة للنصوص، وإنفاق مالى، وترحال عبر القارات لمواقع النشر. وهاهو **الرواق** طباعةً كاملةً فى مُجلد واحد، أنيقةً جذابةً بما يليق بالنوبة وتاريخها السحيق. ولعل الطبعة التالية تضيف ما يستجد ويُستحدث من أبحاث آثارية وتاريخية .

إننى أكن الشكر والعرفان لجامعة ولاية تنسى Tennessee State University التى أتشرف بعضوية هيئة تدريسها لما أعانتنى به من منحة بحثية لعام أكاديمى كان لى خير مُعين على مشاق إعداد **الرواق** للطبع . فللجامعة العريقة إدارةً ومركزاً للأبحاث Faculty Support Center ومديرته د. ج. باميلا برج - سيمس ، و د. أسكار ميلر رئيس قسم الإجتماع ، و د. ويليام لوصن عميد كلية الآداب والعلوم و د. أغسطس بانكهد نائب رئيس الجامعة للشئون الأكاديمية خالص الإعتزاز والإمتنان .

وفى هذا، أتشرف بتقديم أوفى تقدير للسيد جميل مدبولى عبدالوهاب، الفنى المصرى القدير الذى شاطرنى هموم إعداد المجلد جامعاً له، ومشرفاً على شئون طبعة، وقائماً على إخراجه معى وتجهيز رسومه وخرطه وصوره فى دقة وفن ومحبة لرائعة أدمز الجليلة فى القاهرة الجميلة؛ ولسان حالنا أن **النوبة - رواق إفريقيا** لهى مولود نيلنا العريق لكل قارئ بالعربية، مثلما أنها مولود أدمز

(*) مما اعتزمه المركز في ذلك الوقت أيضاً " إضافة ما استجد من معلومات وما استحدث من نظريات عن تاريخ الحضارة النوبية بعد الطبعة الإنجليزية الثانية للكتاب عام ١٩٨٤ " ، وهى خطة لم يتيسر للمركز القيام بها - المترجم .

الفريد بالإنجليزية .

مسؤولية الترجمة هى بالطبع مسؤولية المترجم بحذافيرها ، إضافة إلى العمل على إخراج الأشكال والتصميمات بما يلزم من ضبط وتأكيد .

وعليّ، عملاً بأخلاق المهنة وتقاليد الكتابة والترجمة، أن أعلن مسئوليتى الكاملة عن ترجمة **الرواق** وتقديمة بكل فخر إلى القارئ الكريم .

إهداء الترجمة مرفوع بكل اعتزاز إلى روح أستاذنا المغفور له جمال محمد احمد إبن سَرّة شرق ، سفير السودان ، الكاتب العربى ، والمترجم والمفكر الإفريقى الإنسان .

وأحّب تقدير نزجيه إلى البروفسور ويليام آدمز ، أستاذ الأنثروبولوجيا وعلم الآثار فى جامعة كنتاكى فى الولايات المتحدة الذى تكرم بالسماح لترجمة مؤلفه المرموق رافداً بازخا للمكتبة السودانية الفتية وحفظاً أدبياً لذلك الجزء الخالد من تراث السودانيين منذ أقدم العصور .

-١٩-

قبل أن أبرح ساحة التقديم ، أخص بالمودة والشكر العميق كل من ساعد فى تسهيل هذا العمل بالتشجيع عليه . وأذكر فى هذا المقام الأصدقاء البروفسور ريتشارد لوبان والبروفسور كارولاين فلوهر ـ لوبان ، أساتذة الدراسات السودانية البارزين، وأبناء النوبة المجاهدين الكاتب سليمان بخيت والسفير نور الدين منان والمهندس بابكر سيد احمد . كما أكنُ تقديراً خاصاً لشقيقتى نعمات وزوجها إبراهيم الجاك وأسرتهما الكريمة على ما قدموه لى من عون ورعاية حقة ، وللعديد من الاخوة والأصدقاء معهم فى المملكة العربية السعودية حين أقمت بينهم عام ١٩٩١ ، ضيافة وإكراماً ، ومن بينهم الدكتور يحى عبد الرحيم ، وأحمد بخيت ومحمد حماد وقريناتهم الكريمات ، وسليمان العطا ، وأحمد على ، ومحمد عبدالله محمود ، والدكتور أحمد عبد الرسول ، والدكتور جعفر البدرى وأسرهم المضيافة . لقد حولوا بتشجيعهم وإهتمامهم الكتاب موضوع الترجمة إلى مشروع قومى عام لكل السودانيين. فأضفوا على العمل نكهةً خاصةً وهيبةً وطنيةً محببة ، كما العديدين من الأهل والأصدقاء فى مصر والسودان والولايات المتحدة والمملكة المتحدة ، ومنهم عادل عبد اللطيف وعوض خوجلى وجاره عثمان أم الشهيد مصطفى وآل محمد الحسن الحسين ومحمد صدقى ، والأسرة جمعا، ومجموعة ناشفل المهندس على النصرى والدكتور رفعت بدوى والسيدة حرمه والمهندس حمزه والدكتور عبدالله قسم السيد والدكتوره سكينه والدكتور حسن ميرغنى والسيد قاتلواك ثاك رئيس الجالية السودانية في تنسى والإخوة المهندس عبدالرحيم وبخيت الكامل وأسرهم والأبناء غسّان عمر وعصام صديق بين آخرين عديدين ، والآل بحى السيد المكى فى عاصمة بلادنا الوطنية ، أم درمان ، القادمين زماناً من هوارة دنقلا و دراو ، و إنقرياب بربر والجزيرة ، وبنى ركاب ـ أهل **الرواق** وما لهم من عرقٍ في كل ركنٍ يكاد ، ومَنْ إنساناً غير إفريقى كان ؟!

وأخيراً ، لأمنا الحاجة « فاطمة » ودعواتها الحارة فى رحاب مكة المكرمة بأجوائها الروحية العبقة وأبينا الحاج « التجانى » الذى غرس فى وجدانى حب القراءة والكتابة منذ الطفولة الباكرة ، ولأسرتى الصغيرة زينب ورشا وأنجى وأمنا الحاجة « عائشة » ودعواتهم الحارة فى المنفى بمصر الشقيقة ، ولحفيدى الحبيب كريم وأبيه الإبن ناصر أقدم أزكى باقات الحب والوفاء . فقد شملنى الجميع بالدفع والتقدير لإنجاز هذا العمل العزيز ... فلله درهم !

نسأله سبحانه وتعالى أن يسبغ شآبيب رحمته على أمهاتنا وآبائنا الأكرمين ، وأن يكلأ بالسلام والتقدم سوداننا الحبيب . آلا بالله وحده التوفيق ، وله التكبير والحمد والتسبيح ، إنه لإلهنا الأعلى ، فنِعم المولى ، ونِعم النصير .

مكة المكرمة ١٢ ربيع الأول ١٤١٢ هـ

مُراجَعةً فى القاهرة ٢ أغسطس ١٩٩٣ م

وناشفيل ١٤ أغسطس ١٩٩٧ ـ ٢٠٠٣م

محجوب التجانى محمود

محتويـــات

رقم الصفحة

محتويــات

رقم الصفحة

محتويـــات

رقم الصفحة

الفصل الخامس

ظل الحضارة : ثقافة المجموعة الأولى النوبية

الفصل السادس

المثال الرعوى ثقافة المجموعة الثالثة النوبية

الفصل السابع

المـد الصاعد للإمبريالية : مصر فى النوبة ، ٢٢٠٠ - ١٨٠٠ ق.م

رقم الصفحة

محتويــات

الجزء الثاني
الأسرات والإمبراطوريات

الفصل الثامن
الإنتقال للإمبراطورية : مملكة كرمة النوبية

الفصل التاسع
ولاية كوش : النوبة فى ظل الدولة المصرية الجديدة

محتويـــات	رقم الصفحة

محتويـــات

رقم الصفحة

الفصل الثالث عشر

نهاية الإمبراطورية : ثقافة المجموعة المجهولة

الجزء الثالث

حضارات القرون الوسطى

الفصل الرابع عشر

بداية جديدة : تنصير النوبة

الفصل الخامس عشر

التاج والصليب : حضارة النوبة المسيحية

الفصل السادس عشر

العصر الإقطاعى : إضمحلال الأنظمة الملكية المسيحية وسقوطها

محتويـــات	رقم الصفحة

محتويـــات

رقم الصفحة

الفصل العشرين X

دروس النوبة

الهوامـش

إهداء المؤلف الأصلي

إلى ذكرى جورج أندرو رايزنر

عالم المصريات العظيم

عالم إنقاذ الآثار الرائد

أبو الدراسات النوبية

محتويات

تمهيـــد

الجزء الأول - بدايات قبلية

٦ - المثال الرعوى : ثقافة المجموعة الثالثة النوبية

التسلسل الزمنى والتاريخ ؛ الحضارة المادية لثقافة المجموعة الثالثة ؛ المعيشة : الخيال والواقع ؛ المركّب الجنائزى ؛ ملامح المجتمع النوبى ؛ ملخص تفسيرى .

٧ - المد الصاعد للإمبريالية : مصر في النوبة ٣٢٠٠ - ١٨٠٠ ق .م.

نمط الإمبريالية المصرية ؛ الصناعات المعدنية في الدولة القديمة ؛ قلاع الدولة الوسطى ؛ الأهمية السياسية للقلاع ؛ المناجم والمحاجر في الدولة الوسطى ؛ الإطاحة بالقلاع ؛ ملخص تفسيرى .

الجزء الثانى - الأسرات والإمبراطوريات

٨ - الإنتقال للإمبراطورية : مملكة كرمة النوبية

خصائص ثقافة كرمة ؛ موقع كرمة ؛ الجبّانة الملكية ؛ معضلات التأويل والتسلسل الزمنى ؛ مواقع كرمة في الشمال ؛ ثقافة « القبر الجامع » ؛ ملخص تفسيرى .

٩ - ولاية كوش النوبة في ظل الدولة المصرية الجديدة

غزاة وبناة ؛ المراكز « الحضرية » ؛ التنظيم السياسى والإقتصادى ؛ صناعة الذهب ؛ ماذا آلت إليه حالة النوبيين ؛ ماذا آل إليه المصريون ؛ ملخص تفسيرى .

١٠ - العصر البطولى : إمبراطوية نبتة النوبية

الإصطلاح والتسلسل الزمنى ؛ سر الأصول النبتية ؛ الخلافة الملكية ؛ فتح مصر ؛ آخر الملوك النبتيين ؛ المعابد والمدن ؛ الجبّانات الملكية ؛ دهماء الرعية ؛ المجتمع والإقتصاد النبتى ؛ ملخص تفسيرى .

١١- مجرى الإمبراطورية الجنوبى : الحضارة المروية بأراضى السهل

أصول مروى ؛ ملوك وصروح ؛ النقوش الملكية ؛ مدن أراضى السهل ؛ الديانة المروية ؛ مجتمع الجنوب المروى وثقافته .

١٢ - إنبعاث نهضة الشمال : عودة الإستيطان البطلمى ، والرومانى ، والمروى في النوبة السفلى

فيلة وعبادة إيزيس ؛ المحافظة الرومانية ؛ المحافظة المروية ؛ حياة المدينة والقرية ؛ الفنون والصناعات ؛ العادات الجنائزية ، ملخص تفسيرى .

١٣ - نهاية الامبراطورية : ثقافة المجموعة المجهولة

إضمحلال مروى وسقوطها ؛ العصر المظلم وثقافة المجموعة المجهولة ؛ آثار ثقافة بلانة ؛ المدافن الملكية ونظام بلانة الملكى ؛ المعتقدات والديانة في العهد ما بعد المروى ؛ إشكالية النصوص التاريخية ؛ التاريخ ما بعد المروى في الجنوب ؛ ملخص تفسيرى .

الجزء الثالث - حضارات القرون الوسطى

١٤ - بداية جديدة : تنصير النوبة

تحول النوبيين ؛ خصائص المسيحية النوبية ؛ المدونات الكتابية ؛ النوبة المسيحية والعالم الإسلامى.

١٥ - التاج والصليب : حضارة النوبة المسيحية

عروض معاصرة للنوبة في العصور الوسطى ؛ تنظيم دول القرون الوسطى ؛ الديانة والكنيسة ؛ الفن والأدب الديني ؛ المدن ، القرى ، والمساكن ؛ الفنون الدنيوية ؛ المجتمع النوبى وإقتصاده في القرون الوسطى ، ملخص تفسيرى .

١٦ - العصر الإقطاعى : إضمحلال الأنظمة الملكية المسيحية وسقوطها

المعطيات الأثرية ؛ العصر الإقطاعى في مصر ؛ ضمور المقرة وسقوطها ؛ خلفاء المقرة ؛ نهاية علوة ؛ مغيب المسيحية ؛ ملخص تفسيرى .

١٧ - سنذان الإسلام : الهجرات العربية وتعريب النوبيين

الهجرات العربية ؛ إستعراب النوبيين ؛ الأثر النَّسَبى ؛ إنتشار الإسلام ؛ سيرة الإسلام السوداني؛ المعطيات الأثرية ؛ النوبة في نهاية العصر الإقطاعى ؛ ملخص تفسيرى .

١٨ - عودة للولاية : السودان في ظل حكم الفونج ، والأتراك ، والمصريين

إتحاد سنار ؛ عصيان الشايقية المسلح وتداعى الفونج ؛ الحكم العثمانى في الشمال ؛ عودة الإستعمار المصرى ؛ النظام الإستعمارى ؛ أوج تجارة الرقيق ؛ المهدية : ختام لعصر القرون الوسطى ؛ ملخص تفسيرى .

خاتمــــة

١٩ - إرث الغرب : النوبة والسودان في القرن العشرين

الحكم البريطانى في السودان ؛ السودان منذ الإستقلال ؛ إندثار النوبيين السودانيين ؛ النوبيون في مصر ؛ برنامج التهجير ؛ تهجير النوبيين في السودان .

٢٠ - دروس النوبة

تشوهات نظرية الهجرة ؛ إنتمائية نموذج تطورى ؛ محددات النظرية الحتمية ؛ تماسك الإنتشار الثقافى ؛ واقع الدورات الحضارية ؛ الدور المركزى للأيدولوجية ؛ أهمية الأسلوب ؛ تلخيص وإسترجاع .

شكر وتقدير

الشكر والتقدير للإذن بالنقل راجع إلى المؤلفين والناشرين للمؤلفات الآتية:

ف. وندورف، النوبة فى عصر ما قبل التاريخ

F. Wedort, ed, Prehistory of Nubia,
The Southern Methodist University Press, Dallas, Texas, 1968.
Copyright, The Fort Burgwin Reseach Center, 1968.

ي . ب . امرى ، مصر في النوبة

W.B. Emery, Egypt in Nubia, Hutchinson, 1965.
Cppyright, W. B. Emery, 1965.

ج. س . تريمنغهام، الإسلام في السودان.

J. S. Trimingham, Islam in the Sudan,
Oxford University Press, 1949.
Copyright, J.S. Timingham, 1949.

أ. مورهيد النيل الأبيض

A. Moorehead, The White Nile,
Harper & Row Publishers, Inc., New York, 1960 and Hamish Hamilton, 1960 .
Copyright, Alan Moorehead, 1960, 1971.

الشكر والتقدير مرفوعان أيضاً إلى ن. ب . ميليت للسماح بالنقل من رسالته للدكتوراه، النوبة المروية، المقدمة إلى جامعة يل في ١٩٦٨ .

يود الناشرون أن يتقدموا بالشكر لكل أولئك الذين منحوا الإذن لإستعمال الصور الفوتوغرافية . والشكر والتقدير مقدمان في قائمة الصور.

قائمـــة الصـــور

(١) أ ـ جروف النيل الخصبة [السهل الفَيضى] في النوبة السفلى (البعثة الإسكندنافية المشتركة)

ب ـ الصحراء النوبية المقفرة (البعثة الإسكندنافية المشتركة)

(٢) أ ـ قرية نوبية حديثة في منطقة دلقو (ف . هنكل)

ب ـ واجهة منزل نوبى بكامل زينتها (ف ـ هنكل)

(٣) أ ـ جماعة من النوبيين المعاصرين (ف . هنكل)

ب ـ حفريات أثرية ، ود بانَقا (ركس كيتنق)

(٤) أ ـ رسوم صخرية من العصر الحجرى الحديث ، عبكة (اليونسكو ، ركس كيتنق)

ب ـ فَخار ملون من ثقافة المجموعة الثالثة [الأفق أ] (هـ . أ . نوردستروم)

(٥) أ ـ قرية مُحَصنة من ثقافة المجموعة الثالثة [الأفق ج] ، وادى السبوع (المعهد الفرنسى للآثار الشرقية)

ب ـ فَخار نموذجى – للمجموعة الثالثة [الجماعة ج] ولكرمة (البعثة الإسكندنافية المشتركة) شلال سمنة من الجو (مصلحة المساحة ـ حكومة السودان)

(٦) منظر جوى لشلال بوهين وخرائب الحصون

أ ـ تحصينات في بوهين : السور المتّرس من الداخل (ركس كيتنق)

ب ـ مجرى سحب القوارب في مرقسة (ج. فيركوتر)

(٧) أ ـ الدفوفة السفلى (الغربية) في كرمة (ف . هنكل)

ب ـ الهيكل الطوبى للمدفن ك ٣ ، والدفوفة العليا (الشرقية) ، كرمة (متحف الفنون الجميلة ، بوسطن)

(٨) أ ـ معبد رمسيس في أبو سُمبل (ف . هنكل)

ب ـ معبد رمسيس من الداخل ، أبو سُمبل (ف . هنكل)

(٩) أ ـ معبد أمنُحتب الثالث في صلب (ف . هنكل)

ب ـ جبل البركل ، ويُرَى معبد آمون في المقدمة (ف . هنكل)

(١٠) أ ـ معبد آمون في نبتة ، كما يشاهد من قمة جبل البركل (فرتز هينتز)

ب ـ أهرامات نورى النبتية (ف . هنكل)

اللوحة العظيمة لبعانخى (متحف القاهرة)

(١١) أ ـ سهل البطانة أو « جزيرة مروى » وخرائب المصورات في المقدمة (فرتز هينتز)

ب ـ المجموعة الشمالية للأهرامات ، مروى «البجراوية» (ف . هنكل)

(١٢) أ ـ أهرامات منقوشة الأركان ، مروى «البجراوية» (ف . هنكل)

ب ـ حجرة دفن مزخرفة ، مروى (ف هنكل)

(١٣) أ ـ « كشك » ومعبد الأسد في النقعة (ف ـ هنكل)

ب ـ تمثال مروى ضخم على الأرض ، جزيرة أرقو (ف. هنكل)

(١٤) أ ـ خرائب الفناء الخارجى لمعبد إيزيس في فيلة (ي . امري : مصر في النوبة)

ب ـ القلعة المُحصنة في قصر إبريم (ج . م . بلملى)

(١٥) أ ـ « القلعة » المروية في كارانوق (متحف جامعة بنسلفانيا)

ب ـ موقع لقرية مروية في الشوكان (ج . جاكيه)

(١٦) أ ـ معصرة خمر مروية ، مينارتى (ويليام ي . آدمز)

ب ـ لوحة حجرية تحمل نقشاً باللغة المروية ، مروى «المدينة الملكية» (ف . هنكل)

(١٧) أ ـ بقايا قرية من الفترة البلانية ، مينارتى (ويليام ي . آدمز)

ب ـ المدافن التلية في قُسطل قبل التنقيب (ي . امرى : مصر في النوبة)

ج ـ انية فَخارية نموذجية من بلانة (ويليام ي . آدمز)

د ـ محتويات حجرة القرابين في بلانة (ي . امرى : الكنوز النوبية)

هـ ، ي- تيجان بلانة المجوهرة (ي . امري : الكنوز النوبية)

(١٨) أ ـ بقايا قرية مسيحية نوبية ، دبيرة غرب (ب . ل . شينى)

ب ـ خرائب كنيسة نوبية من العصر الوسيط (القرون الوسطى)

(١٩) أ ـ رسم حائطى لملك نوبى في حماية العذراء ، فرس (ف . هنكل)

ب ـ رسم حائطى لأسقف نوبى ، فرس (هـ . رومانوفسكى ، منحة من ك . ميغالوفسكى)

ج ـ رسم حائطى في فرس يبين شدراك ، ميشَيل ، وأبيد نقو (ف . هنكل)

(٢٠) أ ـ موقع قرية دفاعي من العصور الوسيطة المتأخرة ، ديفنارتى (ف . هنكل)

ب ـ قلعة من العصور الوسيطة المتأخرة ، كولبنارتى (ف . هنكل)

(٢١) أ ـ قبور من فترة ما بعد المسيحية ، جبل عدّا (ن ـ ب . ميليت)

ب ـ قبة في مشو ، بالقرب من كرمة (ف . هنكل)

ج ـ قبة المهدى في أم درمان (ف . هنكل)

(٢٢) أ ـ إغراق وادى حلفا القديمة (ف . هنكل)

ب ـ منظر لشارع في خشم القربة (حلفا الجديدة) ١٩٦٥ (أندريا كروننبرج)

قائمة الأشكال

(كل الخرائط والتصميمات ، والرسومات مبينة كأشكال مُرقمة بالتتالى في كل الكتاب)

قائمة الجداول

رقم الصفحة

تقديـــم

فكرة هذا الكتاب يرجع تأريخها إلى فترة السنوات السبع التى قضيتها في النوبة (١٩٥٩ - ١٩٦٦) ، مديراً لعمليات الإنقاذ الآثارى لليونسكو ومصلحة الآثار السودانية . إننى آمل أن يقبل هذا الكتاب كمساهمة في حملة الآثار النوبية التذكارية - وهو عودة متواضعة لإستثمار الوقت والجهد الذى لم تبذله اليونسكو وحدها ، إنما العالم بأسره ، لدراسة آثار النوبة والحفاظ عليها .

عشرات من الرجال والنساء من كل جنسية - رصفائى في الحملة النوبية - أسهموا في هذا الكتاب . ليس الأمر لأنهم مسؤولون عن مدخله النظرى ؛ كثيرون منهم سوف لا يتفقون ، وقد اختلفوا ، بحماس دافق مع أفكارى ، وإننى لآمل في مواصلة الحوار . نفس هؤلاء قاموا كيفما اتفق الحال بتنفيذ العمل ، ووفروا المعطيات التى جعلت من الممكن لى أن أقدم تقديرى الخاص للتأريخ النوبى . وحيث أن غلبةً من العمل الآثارى الراهن الذى استدعى ضرورته سد أسوان العالى لم ينشر بعد ، فقد كان من خلال الإتصالات الشخصية والمراسلة أننى كنت متمكناً من أن أبقى *على صلة* ، وأن أضم في كتابى نتائج آخر عمل . إن شكرى القلبى يذهب ، إذن : إلى كل أولئك العلماء في الآثار النوبية ، وعلماء اللغة والمؤرخين الذين لا تسمح لى المساحة بأن أدعوهم فرداً فرداً .

مع هذا ، لزامٌ علىَّ أن أسدد الديّن بالإسم لمجموعة صغيرة من العلماء الذين كنت موصولاً بهم صلة وثقى بوجه خاص على مدى السنين ، والذين كانت مساهمتهم في عملى على أعلى مستوى . بين هؤلاء أعد ريكاردو كامينوس ، سرجيو دونادونى ، ي . ب . امرى الذى كان حياً بيننا منذ عهد قريب، روبرت أ . فرنيا ، أندرياس كرونتبرج ، كازيميرز ميخالوفسكى ، ج . مارتن بلملى ، تورجنى ساف - سودربرج ، بيتر شينى ، بروس تريقر ، جين فيركوتير ، وأندريا فيلا . أمسيات قضيت في معسكراتهم ، وفى مواطنهم بأوروبا وأمريكا ، ما فتئت لقاءات فكرية سامية مثلما أنها ظلت خبرات شخصية ممتعة . لقد كان الارتباط بهؤلاء وغيرهم من الرجال أثناء قسطٍ من كل موسم هو الذى جعل السنين في وادى حلفا ما لعمرك محتملةً فحسب ، ولكنها حية الذكرى .

إننى أدين بقدر من العرفان لا يمكن حسابه لمصلحة الآثار السودانية ومديريها ، ثابت حسن ثابت ونجم الدين محمد شريف ، للدعم والتشجيع المستمر لعملى . عاماً بعد عام وجدا الموارد للإبقاء على مسيرتى في الميدان ، حتى في أزمان الانقطاعات الخطرة والأزمات المالية والسياسية . إن علىَّ أن أشكر كذلك أصدقائى الآخرين بين ظهرانى مصلحة الآثار ، وعلى وجه الخصوص فريتز هينكل ، والمساعدين المتعاقبين الذين ابتعثتهم لىَّ اليونسكو ، جان فيروورس ، هانس - آك نوردستروم ، وتونى ميلز . إنه ليأخذ قدراً أعظم من كتاب لأسدد ما أنا مدين به لهم جميعاً . اليونسكو أيضاً تستحق شكرى ليس عن دفع مرتبى لسبع سنوات وحسب ، لكن لأنها أغمضت عينيها تأدباً عن الأنشطة الآثارية التى ما كانت جزءاً من واجباتى الرسمية . فلئن لم يتأتى بالمرة إعطاء جزاء رسمى على عملى الحقلى ، فإن تقديراً صامتاً كان مع ذلك مما لا يمكن الإستغناء عنه .

ليس ضروريا بالنسبة لى أن أنقل هنا الأعمال المنشورة الوفيرةً القيمةً التى ارتكزت عليها . إن عديداً منها جرت مناقشته بغزارة في الفصول التى تلى ، وجميعها مذكور بما فيه الكفاية في الحواشى والهوامش بآخر الكتاب . حواشى كل فصل على رأسها فقرة أفردت فيها ذكراً خاصًا لأشد المصادر أهميةً مما اعتمدت عليه في ذلك الفصل . أما المصادر المنشورة فإنها قد ألحقت بالطبع بقدر عظيم من الملاحظة الشخصية عن قرب ، وبالاتصالات الخاصة التى نقلت كذلك في الهوامش .

إننى مدين دينا خاصاً للرصفاء العديدين الذين كانوا من العطف بما يكفى ليرسلوا لى ، تقدمة

على النشر ، نسخاً مخطوطة من مساهماتهم الأخيرة لدراسة النوبة وتأريخها . إن بلوغ هذه الأعمال ـ وبعضها ذا أهمية أولى ـ مكّنني من تقديم صورة أشد مواكبة بمراحل مما كان سيتاح لى على أساس المصادر المنشورة وحدها . العناوين المتعددة التى أشير إلى أنها ، تحت الطبع ، في الحواش شهادة لحجم التعاون العلمي من النوع الذى حصلت عليه .

عاليا فوق شكرى وما وراءه للمعلومات التى أمدونى بها ، عليَّ أن أعبر عن عرفانٍ إضافى أعمق لأولئك الرفقاء الذين اطَّلعوا وعلقوا على مسوداتى في مجرى إعدادها . بارزاً بينهم تورجنى ساف ـ سودربرج ، بروس تريقر ، وحين فيركوتر ، الذين قرأوا العمل في كليته . أما الأقل أهمية بمعنى كمى لا أكثر فمساهمات أولئك الذين اطَّلعوا على أجزاء من المسودة : فرد وندورف (الفصل الرابع) ، روى كارلسون (الفصلين الرابع والخامس) ، دايفد أوكونور (الفصول الخامس إلى الثامن) ، هـ. س. سميث (الفصول الخامس إلى التاسع) ، برايان هايكوك الذى كان لوهلة بين ظهرانينا (الفصول العاشر إلى الثامن عشر) ب . ل . شينى (الفصول العاشر إلى السادس عشر) ، فريتز هينتزه (الفصلين العاشر والحادى عشر) ، السير لورنس كيروان (الفصول الحادى عشر ـ السادس عشر) ، ن . ب . ميليت (الفصول الثانى عشر إلى السادس عشر) ، يوسف فضل حسن (الفصول السادس عشر ـ الثامن عشر) ، وروبرت أ . فرنيا (الفصلين التاسع عشر والعشرين) ؛ إننى لأرتاب إن كان أى كتاب في التأريخ ، بالنسبة لمادة موضوعة ، قد لاقى جماعةً من النقاد أعلى تفاضلاً أو أوسع وعياً قبل نشره . إن تعليقاتهم واقتراحاتهم أثرت العمل إثراء عظيماً ، إضافةً إلى أنها أغنتنى عن أخطاء لا حصر لها من الحذف والتنصيب ؛ إن أياً ما يبقى من نواقص بكل تأكيد الام عليه أنا ولا يعود عليهم . كذلك يجب علي أن أشكر قلين دانيال لقيامه بتشجيعى على كتابة المؤلف ، على الرغم من أن كلاً منا لم يتوقع مسبقاً عبء العمل الذى ينطوى عليه .

الشكر يشمل كل هؤلاء الذين أمدوا في كرم كتابى بالتوضيحات التصويرية الفوتوغرافية : دوس دنهام ، فريتزهينتزه ، جين جاكيت ، ركس كيُتنق ، أندرياس كروننبرج ، كازيميرز ميخالوفسكى ، ن. ب. ميليت ، هانس ـ آك نورد ستروم ، دايفد أوكونور ، ج . م . بلملى ، سيرج سونيرون ، تورجنى ساف ـ سودربرج ، ب . ل . شينى ، جين فيركوتر ، جان فيرورس ، وقبل الجميع فريتز هينكل .

شكرى يغدو كذلك للفتيات في المكتب ، تيريزا فريمان ، مارسيا مونتغمرى ، وفيرجينيا سلاترى ، اللاتى بصبر ومعاناة أعملن المحراث في مسودتين من المخطوط ، وإلى جامعة كنتاكى لتفريغهن وقتاً وجهوداً للعمل في كتابى .

أما زوجتى ، نتى ، فإنها شريك كامل في هذا كما في أى إضطلاع أخر . إن كل الذين يعرفونها ، أو الذين يعلمون حياة المعسكر في النوبة ، سوف يدركون مدى ما ساهمت به .

تقديـــم (١٩٨٤)

عندما أكملت المخطوط الأصلي لهذا الكتاب ، قبل حقبة من الزمان تقريباً ، كانت الحملة العظيمة لأنقاذ آثار النوبة قد بلغت نهايتها لوقت وشيك وحسب لقد افترضت إنه تكون هنالك غفوة في حجم العمل الآثارى ، كما كانت هناك بعد حملات الإنقاذ السابقة في ١٩٠٧ - ١٩١١ و١٩٢٩ - ١٩٣٤ . إنه لمما يجزى أن يبلغ بعدم صحة تنبؤى فبالرغم من أن الجزء الشمالى من النوبة قد دمر إلى الأبد بامتلاء خزان أسوان ، تابع مالا يقل عن ست عشرة بعثة ، تمثل عشرة بلدان مختلفة ، العمل الآثارى في أجزاء أخرى من السودان منذ ١٩٧٥[١] . أضف إلى هذا أن الحفريات في قصر إبريم ، الموقع الرئيس الأخير في النوبة المصرية الذى لم يدمر ، لا تزال تواصل أعمالها إلى اليوم الحاضر [٢] .

إن نفقات الطبع تحول دون أى مراجعات لنصى الأصلى في هذا الوقت ، إلا أن الناشرين سمحوا لى في عطف بصفحات إضافية قليلة لأذكر بعضاً من أهم الكشوف والتطورات منذ ١٩٧٥ . وفى المناقشة التى تلى ، تشير الأرقام بين الأقواس إلى صفحات في نصى الأصلى تأثرت بالتطورات الجديدة .

فترات ما قبل التاريخ (الفصل الرابع) . واحد من أهم وأقيم التطورات في السنوات القريبة كان اكتشاف ما يبدو أنه مواقع زراعية في مصر الجنوبية ، تاريخاً يرجع إلى ما يبلغ ١٨٫٠٠٠ عاماً . إنها تسبق في الحدوث بعدة آلاف من السنين الأصول المفترضة لزرع القمح والشعير في « الهلال الخصيب» [٣] . إن البّينة على الزراعة في هذه المواقع ليست قطعية على وجه التمام ، وهى لما تزل غير مقبولة من كل العلماء . فإذا وُفّرت بمزيد من البحث ، ستقتضى يقيناً مراجعة كبرى في فهمنا لما قبل تاريخ وادى النيل المتأخر ، وفى الحقيقة كل الشرق الأدنى .

شغلت بقايا العصر الحجرى الحديث تنبه مالا يقل عن خمس بعثات في السودان منذ ١٩٧٥ . كانت هناك حفريات رئيسة في المواقع النهرية بالكدر والكدادة ، شمال الخرطوم ، ومسوح في الصحارى إلى الشرق ، والغرب والجنوب [٤] . وقد محصت أن ثقافة الخرطوم الحجرية الحديثة كانت رائجة الإنتشار للغاية في كل من شرق النيل وغربه في الألف الخامسة قبل الميلاد . أما الحفريات البولندية الموسّعة والمتواصلة في مواقع الحفر بالكدرو وفقد أضافت إضافة عظيمة إلى إدراكنا لهذه الفترة الثقافية . إن من الثابت الآن أن سكان الخرطوم في العصر الحجرى الحديث كانوا يعتمدون في التنقل على البقر المستأنس للمعيشة ، وعلى الضأن والأغنام لمدة اقل[٥] . دفنوا أمواتهم بين حصور مستوطناتهم ، في جنائز ضيقة القبور مصحوبة دائماً بفخار وقرابين أخرى .

شرق النيل ، ليس بموازاة النهر نفسه ، افسح عصر الخرطوم الحجرى الحديث الطريق لثقافة متأخرة تدعي تقليد البطانة ، تدل على صفتها مواقع قرى كبيرة ، مصنوعات فخارية برتقالية وبنفسجية متميزة ، وجنائز عليها علامة في السطح مدافن تلية بحجارة مستديرة . هذا التقليد يبدو أنه معاصر لثقافة المجموعة الأولى و/ أو المرحلة المبكرة لثقافة المجموعة الثالثة في النوبة السفلى . في نفس الوقت فإن اثراً محلياً من العصر الحجرى الحديث ، على شئ من الإختلاف ، تطور على طول محاذاة النهر كما تعكس ذلك الحفريات الفرنسية في الكدادة . إن الفّخار يبين بعض الإنجذابات لثقافة المجموعة الأولى النوبية ، ويعتقد أنه معاصر له في التاريخ [٦] .

الانطباع الذى جُنى حتى الآن هو أن ثقافة العصر الحجرى الحديث في الخرطوم ، التى كانت ذات مرة واسعة الإنتشار في السودان ، تمت في الألف الرابعة قبل الميلاد لتقاليد ثقافية محلية

متنوعة . واحد من هذه ، عبكة ، كان قد جرى التعرف عليها مسبقاً . في النوبة الشمالية تركت هذه الثقافات المتأخرة في العصر الحجرى الحديث بدورها المجال لثقافة المجموعة الأولى ، في حين أنه في المناطق الأبعد جنوباً ربما ظل بعضها متشبثاً بالبقاء إلى وقت متأخر كالأزمان المروية .

ثقافة المجموعة الأولى وثقافة المجموعة الثالثة (الفصلين الخامس والسادس) . أهم التطورات فيما يتعلق بهاتين الثقافتين سالبة . ما عُثر على أثر لأى منهما في المساحة إلى الجنوب من بحيرة النوبة ، ظاهر لذلك أن هاتين كانتا ثقافتين مصريتين هامشيتين ، أصبحتا محليتين . بالجنوب البعيد في السودان ، أخذت مكانهما ثقافات العصر الحجرى الحديث الأكثر بدائية كما وصفت في الفقرة السابقة .

على أساس البينة التى نقب عنها آنفاً في قسطل ، دفع بروس ويليامز النظرية الثورية إلى الأمام من حيث أن مؤسسات الملكية الفرعونية تأصلت في ثقافة المجموعة الأولى النوبية قبل ظهورها في مصر نفسها [٧] ، مع ذلك ، فإن البَيِّنة على هذا نوعاً ما هشة ، ما وجدت بعد قبولا واسعاً [٨] .

ثقافة كرمة (الفصل الثامن) جانباً ربما عن التحقيقات ما قبل التاريخية ، ما يزال أهم عمل آثارى أجرى في السودان منذ ١٩٧٥ ذلك المتعلق بثقافة كرمة . إن موقع كرمة نفسها ظل قيد التحقيق من بعثة سويسرية منذ ١٩٧٧ . لقد أماط المنقبون اللثام عن موقع ممتدٍ لمدينة لها منازل من الطوب الطينى كثيفة التجمع ومطمورات مستديرة للحبوب مقارنةً بالتى وجدت في المرحلة المتأخرة لثقافة المجموعة الثالثة بعيداً صوب الشمال [٩] . إكتشاف هام آخر هو مركب من مبانٍ تلاصق البرج العظيم *للدفوفة* الغربية . إنه لمما يبدو الآن أن *الدفوفة* نفسها كانت في الأصل معبداً ، ولم تُملأ إلا مؤخراً ببناء صلب لتتيح أرضية مهيئة لتركيب أكث علواً [١٠] . آثار الدولة الجديدة(*) والإحتلال النبتى أزيل عنها الغطاء كذلك في كرمة [١١] .

أما الجَبانات غير الملكية في كرمة ، التى نقَّبها رايزنر قبل ١٩١٦ ، فقد نُشرت أخيراً في ١٩٨٢[١٢] . ومما له أهمية أكثر ، مع ذلك ، العمل الذى أنجزته بعثة فرنسية في جَبانة كرمة الكبرى بجزيرة صاى [١٣] . على أساس هذه وغيرها من المواد المنشورة طورت بريجيت قراتين تسلسلاً زمنياً عاماً لثقافة كرمة ، التى قسمتها إلى أطوار باكرة ، وسطى ، مأثورة ، ومتأخرة . هذه تتعاصر على وجه غير دقيق مع ثقافة المجموعة الأولى ، والمرحلة المبكرة لثقافة المجموعة الثالثة ، والمرحلة المتأخرة لثقافة المجموعة الثالثة (المرحلة الوسيطة الثانية) ، وبداية التمصير (الأسرة الثامنة عشرة) ، بالترتيب [١٤] . هذا التتابع والتأريخ العام يبدو أنه أيدته الحفريات في كرمة [١٥] .

المدى الجغرافى الكامل لثقافة كرمة لا يزال مدركاً بمستوى فقير للغاية ، على أن شقوق فخار تشبه فخار كرمة عثر عليها الآن في سهل البطانة [١٦] وفى دلتا نهر القاش ، بالقرب من الحدود الأثيوبية [١٧] .

الإحتلالات الفرعونية (الفصلين السابع والتاسع) . قام هـ . س . سميث بنشر بينة نصوصية جديدة تشير إلى حضور مصرى متواصل في قلعة بوهين بين الدولتين الوسطى والجديدة . إن الموظفين الرسميين المقيمين يعتقد أنهم كانوا في خدمة حاكم كرمة ، كما كان سيدهر في تاريخ متأخر[١٨] . نحو الجنوب البعيد كشف الغطاء الآن عن جزء كبير من قلعة الدولة الجديدة في جزيرة صاى ، إلا أنه لم يتوفر بَعْدُ عنه تقرير تفصيلى .

الفترة النبتية (الفصل العاشر) . ما انفك التنقيب مستمراً هناك في وحول المعابد بجبل البركل ، غير أنه لم يُبَلَّغ عن نتائج أخاذة للغاية بعد [٢٠] . بعيداً في الشمال ، تم حفر جَبانة نبتية واسعة مجاورة لعبرى [٢١] . أنماط القبر وأمتعتها شبيهة بشكلٍ قريب بتلك التى حفرت مسبقاً من

(*) يشار إلى الدولة الجديدة بالدولة الحديثة ايضاً فى تراجم أخرى – المترجم.

قريفيث في صنم [٢٢] . القبور النبتية في منطقة عبرى هى الأكثر شمالية فيما وجد حتى الآن ؛ إنها البقايا النبتية الوحيدة المكتشفة في مسحٍ لأكثر من ٥٠٠ موقع بين دال وعبرى [٢٣] .

الفترة المروية (الفصلين الحادى عشر والثانى عشر) . الحفريات في موقع ـ مدينة مروى كشفت في ١٩٧٥ و ١٩٧٦ عن بقايا لأربعة معابد صغيرة ، ما كان ثمة ارتياب في شأنها آنفاً [٢٤] . بعد فجوة امتدت لعدة سنوات ، تكاد الحفريات في مروى تستأنف بينما يكتب هذا . في كرمة [٢٥] وفى عبرى [٢٦] ، جَبانتان تعودان إلى تأريخ مروى سحيق القدم وقد غَلّتا من أنواع غير معهودة في السابق . إن شقوقاً قليلة في نفس النماذج الفَخارية وُجِدت في مستويات السطح البطلمى (البطليموسى) (*) والرومانى بقصر إبريم [٢٧] . هذه هى المادة الآثارية الأولى التى بأى حالٍ ملأت الفراغ بين الإحتلالات النبتية والمروية المتأخرة في النوبة الشمالية .

لازلو توروك أخرج دراستين هامتين للتنظيم الإقتصادى والسياسى المروى ، بناء على مصادر نصوصية [٢٨] . إن الدليل يقوده لأن يتحدى وجهة نظرى القائلة بأن النوبة الشمالية كانت غير محتلة في العهود النبتية والمروية الأولى ، بالغم من غياب أى بقايا أثرية [٢٩] .

الإحتلال البطلمى والرومانى (الفصل الثانى عشر) . الحفريات في قصر إبريم عَدَّلت بمستوى معتبر صورتنا عن النشاط البطلمى والرومانى في النوبة السفلى . ظاهر الآن أن أسوار التحصين الرئيسة بقصر إبريم شُيدت من قبل البطالمة ، حوالى أو قبل عام ١٠٠ م ، وقد شُغل المكان بعد ذلك من حامية بطلمية حتى مجئ الرومان عام ٣٠ ق . م . لقد صان الرومان ووسعوا التحصينات ليس مرةً بل في أوقات عديدة ، وإنه ليبدوا أنهم مكثوا على احتلالهم أكثر من قرن . على نحو مطرَّد عقب إعادة القلعة إلى الإدارة المروية ، ربما حوالى ١٠٠ م ، هنالك بينة على مستعمرة أو حامية رومانية بالموقع حتى وقت متأخر لمدى بعيد [٣٠] .

لجيهان ديسانجس عمل كتابى هام جديد ، يمسح المصادر المأثورة المتوافرة عن النوبة والسودان [٣١] .

ثقافة بلانة (الفصل الثالث عشر) . أخرجت الحفريات بقصر إبريم كماً هائلاً من المواد من فترة بلانة التى لا تزال تحت الدراسة . على أساس أنواع الفَخار من الممكن الآن أن تُقسم الفترة ككل إلى أربعة أطوار فرعية لمدة تبلغ حوالى خمسين عاماً [٣٢] . لابد أن يبرهن ذلك على إعانة ضخمة لتأريخ قبور بلانة المتعددة التى كانت قد حفرت مسبقاً .

الفترة المسيحية (الفصول : الرابع عشر حتى السادس عشر) استُؤنفت الحفريات منذ وقت حديث في سوبا ، عاصمة علوة في القرون الوسطى ، التى ظلت الآن في تقدم متقطع لعشرين عاماً [٣٤] . في كلبنارتى ، صدرت عن حفر الجَبانة المسيحية معلومات هامة حول أحوال السكان وأمراضهم في القرون الوسطى [٣٥] .

أخرج الأب جوفانى فنتينى كتابين لهما فائدة عظيمة لدراسة السودان في القرون الوسطى . *المصادر الشرقية الخاصة بالنوبة* (جمعية الدراسات النوبية ، هايدلبرج ووارسو ، ١٩٧٥) يحتوى تراجم لما كان على أكثر من ١٣٠ مؤلفاً عربياً أن يذكروه عن النوبة بين ٥٥٥ و ١٧٠٠م . ثم *المسيحية في السودان* وهو عمل أوسع عمومية ، يتبع تأريخ كلٍ من المسيحية والجهود البشرية في القرون الوسطى بالماضى القريب .

الفترة الإسلامية (الفصل السابع عشر) . الحفريات بقصر إبريم نتجت عنها قبل مدة وجيزة ثروة لكل من البينة الآثارية والنَّصية من الفترة الإسلامية ولما كان هذا الموقع محتلاً من

(*) أنظر المقدمة : بدلاً عن البطليموسى والبطالسة ، أخذنا بالبطلمى والبطالمة لتطابقها مع نطقها الأصلى Ptolemy – المترجم.

حامية عثمانية ، كيفما ، فإن ما عثر عليه ذا صلة محدودة بإدراكنا للتاريخ الأعم شمولا للسودان . إن معظم النصوص تشير إلى شؤون عسكرية أو تجارية [٣٦] .

قدّم على عثمان تاريخاً مثيراً للإهتمام عن مملكة كوكا اللاحقة للقرون الوسطى ، في أرض عبري - دلقو النهرية ، التى ثابرت على البقاء حتى الفتح التركى عام ١٨٢٠ . وقد وجد عدة إيحاءات بالتواصل مع مملكة دوتاو في القرون الوسطى المتأخرة [٣٧] .

الفترة الحديثة (الفصل التاسع عشر) . طلاب شعبة الآثار بجامعة الخطوم أعدوا دراسات « عِرقية أثرية » لصنع الفخار وحرف يدوية محلية أخرى في السودان . لسوف تعين النتائج بقدر عظيم على تفسير المواد التى أستعيدت أثرياً .

الحياة الإحتفالية النوبية ، الذى حرره جورج ج . كنيدى (بركلى ، ١٩٧٨) دراسة هامة حول الديانات الشعبية للنوبيين ، من قبل ومن بعد تهجيرهم . *النوبيون المصريون* تأليف حسين أ. فهيم (سولت ليك سيتى ، ١٩٨٣) أول دراسة موسعة عن كيفية تلاؤم النوبيين المصريين مع محيطاتهم الجديدة منذ التهجير .

السودان الجنوبي . شهدت السنوات بدءاً بعام ١٩٧٥ أول نشاط أثارى ممنهج الإجراء في الجزء الجنوبى من السودان . بين ١٩٧٧ و ١٩٨١ أجرت بعثة بريطانية مسوحاً وتنقيباً نصياً في مواقع محلية كثيرة بالمحافظات الإستوائية وبحر الغزال . لقد وجدت البعثة عدداً كبيراً من المواقع ، تتفاوت في الوقت من العصر الحجرى الحديث المبكر إلى الماضى القريب . إن البقايا المماثلة بصفة عامة للثقافات ما قبل التأريخية التى عُرفت آنفاً من يوغندا وكينيا ، لا تحمل شبهاً لأيٍ من الثقافات المعلومة للسودان الأوسط والشمالى [٣٨] .

خلال نفس السنوات ، حفرت إلسى كلُبى موقعين على مرتفع في محافظة أعالى النيل . بيد أنهما كانا قرى للشلك ترجع إلى فترة الفونج [٣٩] .

ملحق . يسرنى أن أقرر أن هذا الكتاب مُنح جائزة ملفيل ج . هيرسكوفيتش من جمعية الدراسات الإفريقية في ١٩٧٨ . بيد أن الأوفى جزاء الحقيقة التى مؤداها ، وأمضى ما بها ، أننى دُعيت « نوبياً فخرياً » من منظمة تدعى جمعية الحفاظ على إرث النوبة الثقافى . إن قبول الناس الذين جرت دراستهم لعالم الأصول الإنسانية هو الوسام الأعلى .

هوامش التقديم

١ ـ التقارير الأولية لأغلب هذه البعثات ستوجد في نيام أكوما Nyame Akuma ، نشرة الأنباء للآثار الإفريقية التى تنشر في كلجارى (وفيما بعد في أدمنتون) ، البرتا ، كندا . وفيما عدا حالات خاصة سوف لا تنقل هذه التقارير مفردة في النص الحالى .

٢ ـ التقارير الأولية في نيام أكوما وفى مجلة الآثار المصرية

Journal or Egyptian Archaeology, vols. 63,65, 69 .

٣ ـ انظر فرد وندورف وروملد شيلد تأريخ ما قبل الصحراء الكبرى الشرقية

Prehistory of the Eastern Sahara (New York, 1980), pp. 273-80

وفر وندورف ، روملد شيلد ، وأنجيلا أ . كلوس في : العلم

Science 82, vol. 3, No. 9, pp. 68 -73.

٤ ـ للمسح الذى أُجرى في الغرب أنظر عباس س . محمد على في الأنثرويولوجيا الراهنة

Current Arhropology, vol. 22 (1981), pp. 176. 8 .

للمسوح إلى الشرق والجنوب أنظر نيام أكوما المرجع نفسه (بالحاشية ١) .

٥ ـ أنظر بخاصة ٍليش كرزيزنياك في الدراسات النوبية ، إعداد بلملى

Nubian Studies (Waminster, 1982) , pp. 151- 4 .

٦ ـ أنظر على وجه الخصوص فرانسيس قيس في مصلحة أثار السودان

Francaise de Recherche Archéologique, Rapport Annuel d'Activité, 1978-1979, pp.15-16 .

٧ ـ أنظر الآثار Archaeology , vol. 33, no. 5 (1980), pp. 12 - 21 .

٨ ـ للمناقشة أنظر و. ي . آدمز «شكوك حول الفراعنة المفقودين »

Joumal of New Eastern Studies (in press).

٩ ـ أنظر شارلس بونيه في جنافا

Genava, vol. XXVl (1978), pp. 107 -34 ; Vol. XXVIII (1980), pp. 31- 72; Vol. XXX (1982), pp. 29-70.

كذلك شارلس بونيه في بلملى (الحاشية ٥) ، pp. 45 - 56

١٠ ـ أنظر بوجه خاص شارلس بونيه في جنافا

Genava Vol. XXX (1982), pp. 44 - 6.

١١ ـ أنظر شارلس بونيه في جنافا

Genavs. Vol . XXVI (1978), pp. 116 - 20; Vol. XXVIII (1980),p. 59.

وفى نيام أكوما

Nyame Akuma, No. 22(1983), pp.23-4.

١٢ ـ دوس دنهام ، حفريات بكرمة

Excavations at Kerma, Part VI (Boston, 1982)

١٣ ـ أنظر خاصة بريجيت قراتين في

Cahiers de Recherche de L'Institut de Papyrologie et d'Égyptologie de Lille, No.3 (1975). pp. 43- 66; No. 6 (1981), pp. 132 - 48 .

١٤ ـ بريجيت قراتين Les Cultures Kema (Lille, 1978)

١٥ ـ شارلس بونيه في جنافا Genava. Vol. XXVIII (1980) , pp. 50- 58

١٦ ـ أنطونى ماركس وآخرين في نيام أكوما Nyame Akuma No. 21 (1982),pp.39-40

١٧ ـ ردولفو فاتوفش ومارسيلو بيبرنو في نيام أكوما Nxame Akuma No - 19 (1981), pp. 29-30

١٨ ـ هـ . س . سميث « قلعة بوهين : النقوش »

(Egypt Exploration Seciety, Excavation Memoir 48, 1976), pp. 80 - 85.

١٩ ـ أنظر جين فيركوتر

Cahiers de Recherche de l' Institut de Papryologie et d'Égyptologie de Lille, No. 1 (1973). pp.7-38.

وأنظر مايكل عزيم ، نفس المرجع ، العدد الثالث (١٩٧٥) ، pp.91-126

٢٠ ـ أنظر سيرجيو دونادوني وسرجيو بوستيكو في «دراسات مروية » إعداد نيكولاس ب . ميليت وألين ل . كلى (Meroitica 6, 1982), pp.291-301.

٢١ ـ أندريا فيلا

La Prospection de La Vallée du Nil au Sud de La Cataracte de Dal, 12 (1980)

٢٢ ـ نفسه ، P. 169

٢٣ ـ أندريا فيلا ، المصدر السابق ، 11 (1979), pp. 7 -8, 37

٢٤ ـ أنظر نيام أكوما Nyame Akuma No. 9 (1976). p. 44

٢٥ ـ شارلس بونيه في جنافا Vol XXVI (1978), pp. 123- 5

٢٦ ـ فيكتو فرناندز رسالة الأخبار المروية

Meroitic Newsletter No. 20 (1980), pp. 13-22 and pls I-IV

٢٧ ـ أنظر و . ي . أدمز « الإحتلال البطلمى والرومانى بقصر إبريم » ، في

Cahiers de Recherche di l' Institut de Papyrologie et d'Égyptologie de Lille, No. 7 (in press)

٢٨ ـ الأعباء والمناصب الإقتصادية في النوبة المروية

(Études Publiées par les Chaires d'Histoire Ancienne de L'Université Loránd E..otvos de Budapest, 26 1979) .

الإقتصاد المروى ومصادره المكتوبة : مسح للمعلوم والمتوهم (ماجستير قبل الطبع)

٢٩ ـ الإقتصاد المروى ، المرجع السابق (ماجستير قبل الطبع) ،4- pp.63

٣٠ ـ أنظر أدمز ، المرجع المشار إليه (الحاشية ٢٧) ، ومثله « بريمس [إبريم] والتخوم الأثيوبية »

في Journal of the American Research Center in Egypt (in press)

٣١ ـ Collection de L' École Française de Rome, 38 (1978).

٣٢ ـ انظر و . ي . أدمز « من الفخار إلى التأريخ : تحديد زمن الرواسب الآثارية من البينة الخزفية» ، ورقة قرئت في مؤتمر العمل حول إستعمال المناهج العددية في دراسة الثقافة المروية ، فيرستنبرج .Furstenberg, GDR, October 11, 1983

٣٣ ـ انظر نيام أكوما

Nyame Akuma No. 20 (1982), pp. 50 - 53, and No. 22 (1983), pp. 30 - 33.

٣٤ ـ لتقرير حديث أنظر ستيفان جاكوبليسكى في بلملى ، المصدر السابق (الحاشية ٥) ، pp - 116 - 26 .

٣٥ ـ أنظر دنيس فان جرفن في نيام أكوما . Nyame Akuma No. 15 (1979), pp. 53 - 5

٣٦ ـ أنظر و . ي . أدمز وجون الكسندر في مجلة الآثار المصرية

Joumal of Egyptian Archaeoloy, Vol, 69 (in press).

٣٧ ـ على عثمان في بلملى ، المصدر السابق (الحاشية ٥) ، pp. 185 -205

٣٨ ـ انظر نيام أكوما

Nyame Akuma No. 14 (1979), pp. 52-6; No. 16 (1980), pp. 37-40; and No. 18 (1981), pp. 48-50.

٣٩ ـ انظر نيام أكوما

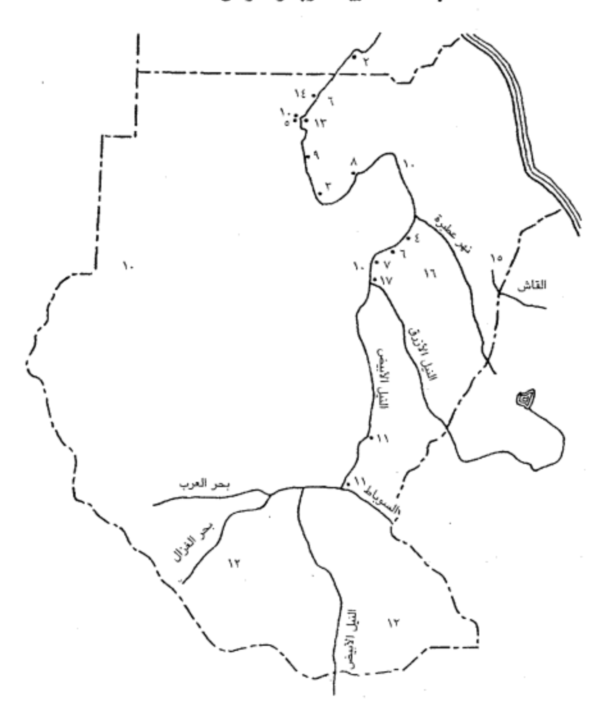
Nyame Akuma No. 15 (1979), pp. 63-70; and No. 21 (1882) , pp. 36-8.

المفتاح

السنوات	الجنسية	منطقة العمل	الفترات والبقايا
١-١٩٥٧-ح*	إيطالى/ فرنسى	صدنقا	معبد من الدولة الجديدة . جَبانة مروية
٢-١٩٦٣-ح	بريطانى/أمريكى	قصر إبريم	قلعة من العصر الفرعونى إلى الإسلامى
٣-١٩٦٤-ح	بولندى	دنقلا العجوز	موقع مدينة وكنائس مسيحية
٤-١٩٦٥-ح	كندى/سودانى	مروى	موقع مدينة ومعابد مروية
٥-١٩٦٩-ح	فرنسى	جزيرة صاى	قلعة وجُبانات فرعونية حتى الإسلامية
٦-١٩٦٩ ٧٥	فرنسى/سودانى	دال إلى عبرى	مسح؛ كل الفترات
١٩٧٦-ح	فرنسى/سودانى	منطقة شندى	أساسا مواقع للعصر الحجرى الحديث وجَبانات مروى
٧-١٩٧١-ح	بولندى	الكدرو	مستوطنة وجَبانة من العصر الحجرى الحديث
٨-١٩٧٣-ح	إيطالى	جبل البركل	معابد نَبتية ومروية
٩-١٩٧٤-ح	سويسرى	كرمة	موقع مدينة كرمة، معابد وجَبانات
١٠-١٩٧٥-ح	سودانى	(متنوعة)	مسوح؛ كل الفترات
١١-١٩٧٦-٨٢	سودانى/نرويجى	محافظة أعالى النيل	مواقع الشلك من فترة الفونج
١٢-١٩٧٧-٨١	بريطانى	الإستوائية وبحر الغزال	مسوح وحفريات إختبارية؛ فترات متنوعة
١٣-١٩٧٨-ح	أسبانى	منطقة عبرى	جَبانات من كرمة، ونبتية، ومروية
١٤-١٩٧٩	أمريكى	كولبنارتى	جَبانات مسيحية
١٥-١٩٨٠-ح	إيطالى	دلتا نهر القاش	مسح؛ مواقع للعصر الحجرى الحديث أساسا
١٦-١٩٨٠-ح	أمريكى	سهل البطانة	مسح وحفريات إختبارية؛ مواقع من العصر الحجرى الحديث أساساً
١٧-١٩٨١-ح	بريطانى	سوبا	موقع لمدينة مسيحية

ح* : للوقت الحاضر

البعثات الآثارية للنوبة والسودان منذ ١٩٥٧



المقدمـة

تملك مصر ، على الحد الأسفل من النيل ، أطول تأريخ مدون في العالم ، أما إفريقيا الداخلية ، على منابع نفس النهر ، فما لها فيما يكاد سوى تأريخ قصير . تتراوح النوبة ، الأرض الواقعة بينهما ، لـ ٥٫٠٠٠ عام بين التأريخ والعصور المظلمة . إن أقدم مدون مكتوب من النوبة ربما بدأ تأريخه من الألف الرابعة قبل الميلاد ؛ وانتهى آخر عصر مظلم في ١٨١٣ .

السيرة المنقطعة لتأريخ النوبة المدون تعكس أكثر من أى شئ آخر إهتمام العالم الخارجى المتضارب وغير المستيقن بهذه الأرض القَصِّية الجافية . ولآلاف السنين عاملتها مصر كنوع من إحتياطي الصيد الخاص لقنص الإنسان والحيوان . فإذا سيق مؤرخون أو كتّاب مصريون علَى مضض لذكرها ، تحدثوا عنها بالألفاظ المحَطة التى تُخْتَزن لـ " فصائل أقل لا يحيطها القانون " . قلما نصادف إسم كوش (لقباً عتيقاً للنوبة) في النصوص الهيروغلوفية غير مقرون بالنعت " تعس " أو "مقيت " [١] .

نوعاً ما ، أسدى النوبيون لأنفسهم عدلاً أفضل عندما بدأوا بعد ٢٫٠٠٠ عام في كتابة تأريخهم الخاص . ولم تكن منشوراتهم الملكية برغم ذلك أمضى إعلاما من منشورات معلميهم المصريين . إنها ملأى بنفس المزاعم البالغة في تمجيد الذات والإنتصارات المختلفة التى تربطها بالفراعنة . وقد كُتبت بنفس الرموز الدخيلة ولا يميزها نوبياً عن غيرها سوى أسماء الممثلين .

تُرك لهيرودوتس (ورُبما سلفه هيكاتيوس) أن يجلب وجهة نظر جديدة لدراسة النوبة وأهلها . كان من مصر والنوبة للإغريقى واسع العينين ، غريباً على حد سواء ، داعياً للتنبيه على حد سواء ، وقديماً بالمثل فلئن كان " أبو التأريخ " ليس أول كاتب في التأريخ النوبى حقيقةً ، فقد كان على الأقل أول من أخذه بجدية ، وحاول أن يبلّغ عنه بموضوعية [٢] .

أسرت أرض النوبة العليا النائية ، بحيوانها الغريب وسكانها ذوى البشرة الداكنة ، خيال الأغاريق والرومان الملتهب بالبطولة والمغامرة كما لم تفعل بالمصريين أبداً . لقد كتب هومر نفسه "إنهم أقسى أمة ، وأشد الرجال عدلاً ؛ المفضلون من الآلهة . إن أسمى المقيمين بالأولمب يرتحلون إليهم ، ويشاركون في ولائمهم ؛ وقرابينهم هى الأغلب تقبلاً من كل تلك الضحايا التى يستطيع البشر تقديمها لهم " [٣] . بنفس القدر في أوج فلسفة الشك الهيلينية ، إزدهرت كل أشكال الأساطير الرائعة حول مصادر النيل ، كما وقع في أزمان القرون الوسطى حول مملكة برسترجون . إن ديودورس الصقلى ، المؤرخ الإغريقى المتأخر والمعاصر للوكريتيوس (٥٠ ق . م . تقريباً) ، هو الذى سجل ونقل إلى الأجيال التقليد الذى كان جارياً آنذاك أن النوبة كانت الموطن الأصلى للمصريين ومنبع الحضارة نفسها [٤]

فى العصور الوسطى ، أعطى إفتتاح القوافل عابرة الصحراء لعرب شمال إفريقيا نظرة أجلّ واقعية ونثرا من جيرتهم الجنوبية . هناك العديد من العلماء الإسلاميين المتميزين بينهم ابْن خلدون العظيم [٥] ، إستجمعوا تواريخ وجغرافية النوبة . بضعةٌ من هذه ترجمت إلى لغات أوروبية حتى القرن التاسع عشر ، مع ذلك ، فبعضها غير مترجم إلى هذا اليوم . وإلى ١٥٠ عاماً مضت ، كانت المفاهيم الأوروبية حول النوبة لا تزال إلى حد كبير مشتقةً من المأثورات العاطفية لهيرودوتس وديودورس .

الإحتلال النابليونى القصير لمصر ، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ ، فتح أراضى النيل للدراسة الأوروبية . زار بورخارت [٦] ، كايو [٧] ، وهوسكنز [٨] النوبة وكتبوا عروضاً مفصلة ومستبصرة لسكانها وثقافتها . أما رحلة ريتشارد لبسيوس صانعة العصر في ١٨٤٢ ـ ١٨٤٤ ، بما نتج عنها من عمل

لإثنى عشر مجلداً في التحف النوبية والمصرية [٩] ، فقد وضعت النوبة على الخريطة التأريخية لكُل الزمن . في هذه الأثناء فتح الإكتشاف وحل الرموز للنصوص الهيروغليفية طوال القرن التاسع عشر مدخلاً جديداً كل الجدة للتأريخ النوبي .

كانت صورة الأرض الجنوبية التى خرجت من النصوص المصرية متعارضةً في جوانب غفيرة وعلى نحو محيط بتلك التى تحدرت من المؤلفين القدماء آنفاً . فالنوبة ، فيما يبدو ، ما كانت سوى محافظة على التخوم فقيرة وغير جديرة بالحضارة ، مُستغلة ومضطهدة من المصريين وفق ما شاؤوا ، لذهبها ، وعاجها وعبيدها في المبدأ والأساس . ومع تطور حقل علم الآثار المصرية ، وبلوغ المؤرخين موضع الإعتماد بإطراد على النصوص الهيروغليفية وبمستوىً أقل على المصادر القديمة ، تأصل سلوك المصريين القديم نحو النوبة في عقولهم ، إلى أن طغى كلياً بنهاية القرن على المفهوم القديم للنوبة كنبعٍ دائم للحضارة . في ١٩٠٧ ، عندما نشر واليس بدج أول تأريخ حديث للمنطقة ، كتب :

تخيل كثير من علماء الآثار أننا سوف نجد في السودان أطلالاً لبيانات وصروح خالصة سوف تمكنهم من إعادة تأريخ موصول للقطر ، لكن شيئاً من هذه المسوح والإستطلاعات التى أجريت من قبل رحالة قدامى ومحدثين لم يتمخض عنه إيجاد لأى خرائب لم تكن .... بحقٍ ، عملاً لأجانب [١٠] .

من السخرية ان نفس العام الذى رأى نشر وجهة نظر بدج المتشائمة شهد كذلك إستهلال البحث الآثارى في النوبة الذى كان سيثبت أنها خطأ فادح . ذلك هو مسح النوبة الآثارى العظيم ، أول حملة إنقاذ منظمة من العالم ، دعا إلى ضرورتها بناء خزان أسوان . إن أول مديريها جورج أ . رايزنر ، الذى بدأ بذلك إشتغالاً دام طوال الحياة سيجعل اسمه فيما بعد بارز العلاء بين دارسي التأريخ النوبى .

لاقى المسح الآثارى كائنا في الحال بقايا لم تكن من أصلٍ مصرى ؛ كانت من الكثرة بمكان حتى أن رايزنر تعّرف بنهاية الموسم الأول على مالا يقل عن أربعة مراحل ثقافية نوبية ما كان لها معادل مصرى . ولأن التأريخ لم يوفر أى أسماء لهذه الثقافات (أو الناس ، كما اعتبرهم رايزنر) ، فقد أعطاها توصيفات أبجدية - «أ» ، «ب» ، «ج» ، و «س» - لا تزال معروفةً بها على الذيوع لستين عاماً لاحقة . فإن لم تكن وجه الدقة قد سمحت لرايزنر " ليعيد بناء تأريخ موصول للقطر " (في عبارة بدج) ، فإنها على الأقل بالفعل علّت معظم العصور المظلمة في التأريخ النوبى ، بين فصول من الإستعمار أو النفوذ المصرى [١١] .

في إتجاهه للمسح الآثارى للنوبة ، وفى تحقيقاته الأخيرة عن الجبانة الملكية النوبية ، أضاف رايزنر مالا يمكن قياسه إلى الصورة الكالحة للتأريخ التى كان بدج قادراً على جمعها من مصادر وثائقية . إن فترات الثقافة التى عرفها ، وترتيب خلافتها ، بقيت الإطار المعيارى لكل دراسات التأريخ النوبى منذ بداية أيامه ، تماماً كما ظل تسلسل مانثيو الزمنى للأُسرات الفرعونية إطاراً معيارياً لكل دراسات التاريخ المصرى القديم [١٢] . إلا أن رايزنر كان بوسعه كذلك أن يكتب أن :" «النوبة البائسة» كانت في البدء جزءاً من مصر . ما كانت إلا ذيلاً للقطر الاكبر بعد الأسرة الأولى ، ويصعب أن يعدو تأريخها سرداً لإستخدامها أو تجاهلها من مصر " [١٣] .

ترأس رايزنر مسح النوبة الآثارى أثناء الموسم الأول فحسب من مواسمه الأربعة ، ومن بعده تولى المسح س . م . فيرث . كان هناك مسح آخر من حجم ومدة مقارنين بين ١٩٢٩ و ١٩٣٤ ، حين كان سد أسوان الأصلى قد تمت توسعته . عملت بعثات خاصة عديدة أيضاً بالنوبة في الفترة ما بين المسحين ، ولمدى أقل بعد المسح الثانى ، حتى أحدث إندلاع الحرب العالمية الثانية إيقافاً للعمليات الآثارية على النيل . ما كان حتى إعلان سد أسوان العالى أول مرة ، في ١٩٥٩ ، أنها أعيد مدارها

على أى مقدار يُماثل معدل ما قبل الحرب (١٤) .

إن المسحين الأول والثانى للنوبة تذكاران ولا سابق لهما في الحقيقة ، لكن حجمهما متواضع إذا ما قورن ببعثة الإنقاذ النوبية للأعوام ١٩٥٩ ـ ١٩٦٩ ، التى كانت رهناً لدعاية ساحقة النجاح من منظمة الأمم المتحدة للتعليم والعلوم والثقافة (يونسكو) . وبالرغم من أن الأولية كانت بالضرورة ممنوحةً للحفاظ على صروح مشتهرة سلفاً ، فإن أكثر من أربعين بعثة ، تمثل أغلب أمم العالم الصناعية ، اشتغلت بكشوف أثارية صرفة في مصر والسودان . أُنفق أكثر من مليون دولار للمسح والحفر وحدهما . يقيناً ليس من جهد يقارن لتحقيق وإستعادة الماضى بُذل بأى مكان آخر بالعالم في وقت بهذا القصر أبداً . إن تقارير التحقيقات التى جرت مؤخراً في النوبة بدأت الآن وحسب في الظهور ، إلا المنشورة آنفاً ضاعفت من حجم الأدب الموجود في التأريخ النوبى .

مذهل في واحد من المعانى كيف أن العمل اللاحق قليلاً أضاف ، أو حذف ، من التركيب الأصلى لرايزنر . ما من فترات ثقافية أُضيفت إلى التى اكتشفها بنفسه ، وما جرت ثمة مراجعة لتعاقبها. إنه لجزاء دائم لنبوغ رايزنر أن مشروعاً كان هو قادراً على اقتراحه خلال أشهر قليلة من ولوجه الحقل يظل جديراً بالصمود لإختبار تنقيب لاحق بستين عاماً. إن مؤلف ي . ب . امرى مصر *في النوبة* (١٥) ، أكثر عمل شائع قريب عن التأريخ النوبى (والعمل الوحيد الذى يأخذ بتوسع من نتائج الحملات الراهنة) ، يكاد يحتفظ على إطلاقه بالتركيبة الرايزنرية . وبينما أن وفرةً من المادةً الوصفية جديدة ، فإن الأجزاء النظرية والتحليلية ل مصر *في النوبة* كان بالإمكان أن تُكتب من رايزنر نفسه .

صحيح كذلك لسوء الطالع أن عمل رايزنر ، وأقربه تُلُواً، يبدو أنه يؤيد تنبؤ بدج أن علماء الآثار سوف لا يكون بمقدورهم أن يعيدوا إنشاء تأريخ موصول الحلقات للنوبة . فسر رايزنر طوال حياته التأريخ النوبى بقدر كبير على أساس مجئ وذهاب أقوام مختلفة : ناتج ذلك سلسلة من مناظر منقطعة الوصل يؤديها ممثلون مُختلفون ، فإذا كانت هناك أى شعيرة من الإستمرار في صورته عن النوبة ، فهى مصرية كانت ، ما واحدة أصيلة . هذا الرأى ظل مُتقبَّلاً بالتقريب من كل خلفاء رايزنر ، وإنه لمتضمن في العنوان مصر *في النوبة* (١٦) .

ربما وقع الرأى « العَرَضى» للتأريخ النوبى الذى طرحه رايزنر للإعتبار ، وتبناه معظم خلفائه ، تحت نفوذ ثلاثة عوامل . بادئ ذى بدء ، كانت « النوبة » في مطلق القرن العشرين تعنى لكل الأغراض العملية النوبة السفلى ؛ كأنما لم تكن هنالك معرفة منظمة عن منطقة ما وراء الشلال الثانى . ولابد من التسليم أن المنطقة الشمالية لا يبدو حقيقةً أنها كان لها تأريخ منقطع الوصل من الإستيطان والتطور الثقافى . عقب نصف قرن من التحقيق المكثف إلى اليوم ، هنالك أجزاء مفقودة في المدون الأثارى تُلقى على عاتقنا أن نفكر من زاوية التخلى وإعادة الاحتلال . مع هذا ، بوسعنا الآن أن ندرك أن أغلب هذه الحركات السكانية ما كانت أكثر من هجرات غدواً ورواحاً بين النوبة السُفلى ، وأن الأقوام التى أعادت توطنها بالمقاطعة الشمالية من فترة لأخرى في معظم الحالات الحفدة المباشرون لأولئك الذين غادروها آنفاً .

إضافة إلى هذا ، دفع الغياب العام للمعلومات الآثارية في زمن من رايزنر العلماء لأن يعتمدوا إعتماداً مثقل الكاهل على المدّون النّصى للتأريخ النوبى ، وهو بدوره واحداً غير واصل العطاء . إن العصور المظلمة تتناوب فيما بينها مع فتراتٍ من التأريخ المدون ، وعندما تستأنف القصة دائماً ما تُمنح رأياً جديداً أو متغيراً نوعاً ما عن النوبة وأهلها . في هذه الظروف يمكن للخيال في سهولةٍ أن يصور إنقطاعاً رئيساً إحلالات سكانية ، أو فتراتٍ من التخلى مواكبة للفترات التى يُفتقد عنها الإعلام التأريخى .

بإفساح المجال للعاملين المتقدمين ، محتمل كذلك أن نظريات رايزنر ومعاصريه تكشف عن أثر

معين مترسب من الفكر التاريخي ما قبل العلمي ، كان لا يزال شائعاً على أيامهم ، كما جرى قروناً سالفة ، يُعزى التغير الثقافى آلياً بشكلٍ أو بآخر لمجئ أقوام جديدة ، كأنما هنالك علاقة ثابتة بين الناس وثقافاتها [١٧] . إن توضيحات مماثلة طُبقت في زمنٍ واحداً أو ثان لتاريخ مصر ، سومر ، طروادة ، الصين ، المكسيك ، وفى نفس الوقت تقريباً على كُل منطقة أخرى تعرض توالياً لثقافات تاريخية أو أثرية بدون حلقات وصل بادية للعيان . هكذا عندما صادف رايزنر أنواع القبور الغامضة «أ» ، «ب» ، و «ج» في شلال ، إتخذت صورةً في ذهنه مسبقةً بالبداهة ، كجماعات متميزة من الناس بدلاً عن مراحل متعاقبة في التطور الثقافى لنفس القوم . أما رفيقه عالم التشريح إليوت سميث ، الذى كانت موضوعيته دائماً تدفع جانباً بسعيه الدائب من أجل نظريات تاريخية معينة ، فكان قادراً على أن يجد فروقاً عنصرية إضافة إلى ذلك ، في البقايا الهيكلية من مجموعات قبور مختلفة تعرف عليها رايزنر [١٨] . هنا ، فيما يبدو ، بينة لا سبيل لتخطئتها عن غدوات ورواح أقوام ذات هوية مستقلة . (كما سَيُرى في الفصل الثالث ، لم تصمد الفروق التشريحية التى عرضها إليوت دليلاً أمام إختبار إعادة الفحص الحديث) .

خمسون عاماً من التحقيق المكثف ملأت كثيراً من الصدوع في الصورة التى كان رايزنر متمكناً من رؤيتها . بنفس المستوى ، أينما بقيت أجزاء مفقودة ، فمن الواضح الآن أن المتشابهات الثقافية بين أى حالتين متعاقبتين في التاريخ النوبى يتعدى وزنها لمدى بعيد الإختلافات . وبالمنظور العريض المتوفر لنا ، لم يعد من الضرورى أن نجلب أقواماً أجنبية لتعلل الفروق الخفية نسبياً بين « الجماعة - أ» و «الجماعة - ب » أو بين المرويين و « الجماعة - س» ، إذ بإمكاننا أن ننظر إليهم كمحصلة لعمليات سارية مألوفة من التطور الإرتقائى وانتشاره . ورغم هذا فإن النظرة «العرضية » للتاريخ تثابر على البقاء - ربما بإطراءٍ لرايزنر أثبت منها للبينة المتوفرة الآن .

ما يُفتقد في دراسة التاريخ اليوم ، ليس قدراً كبيراً الحقيقة التاريخية مثل ما تفتقد به وجهة نظر مدركةٍ ومتماسكةٍ حولها لترتب الحقائق المعروفة . وجهة مثل هذا الرأى ممنوحة لعقلى الأنثُروبولوجي من منظور التطور الإرتقائى الثقافى . وبلا تحدٍ جاد للبينة التاريخية ، بناء عليه ، أو (بإستثناءٍ واحد) للتسلسل الزمنى للفترات الثقافية المختبرة على مر الزمن لرايزنر سواء بسواء ، فإننى أقترح في هذا المجلد أن أحكي القصة القديمة للنوبة في طريقة جديدة : حكاية متواصلة للتطور الثقافى لشعب مفرد ، الجيئة والذهاب فيه لممثلين معينين ليست بذى بال . وقعت الهجرات هنالك لا شك في ذلك ، لكنها كانت في القسط الأكبر هجرات بين النوبة : ترتيبات معادة لأقوام تتلقى كلها عن مخزونٍ مشترك من التقليد والخبرة الوطنية الأصيلة . مثل هذه الجيئة والذهاب أحدثت إضطراباً مؤقتاً لكنه ، فيما أعتقد ، ما بدل أبداً العملية الماضية للتطور الإرتقائى الثقافى بشكلٍ دائم.

وجهة نظرى تختلف عن وجهة نظر رفقاء وأسلاف كثيرين في جوانب بالمثل . إن دارسى التاريخ النوبى من بدج ورايزنر إلى امرى كانوا في الغالب الأعم علماء للآثار المصرية ، إشتغالهم بالنوبة ناتج فرعي ، كيفما كان ، لإلتزامهم الرئيس بمصر وحضارتها . كأنه لا مناص عليهم أن يطالعوا التاريخ النوبى كإنعكاس (شاحبٍ عادة) للأحداث والأحوال في القطر الشمالى أساساً ، وأن يقيموا آراءهم على المتشابهات بقدرٍ أرسخ من نظر الإختلافات بين النوبة ومصر . لربما أمكن أن يقارن مسلكهم هذا في إنصافٍ بالرأىٍ الإنجليزى المألوف تجاه الإيرلندى .

على سبيل تبيان الفروق ، ما كان لى تدريب في الآثار المصرية ولى خبرة شخصية قليلة في القطر الشمالى ، في حين أننى أقمت سبع سنوات في السودان ، وأعدت زيارته مرات عديدة مذاك ، وقد نذرت ما اقره إلتزاماً حياتياً لدراسة ثقافاته وتاريخه . النتيجة أننى أقدم وجهة نظر « متمركزة حول النوبة » في محل الواحدة « المتمركزة حول مصر» التى أراها مرتسمةً على معظم رصفائى .

فإذا استطعت أن أرسم النوبة في ألوانٍ أكمل وأسطع مما كان معتاداً عمله ، فإن هذا يتم جزئياً على حساب الأحداث والشخصيات في مصر بإخضاعها لبوصلةٍ لها خلفية من بُعْدَين . ربما في يوم ما يقدر تثمين غير متحيز للعلاقات المصرية النوبية من واحدٍ متعاطفٍ بنفس القدر وملم على نحْو متكافئ بكل من الشعبين (رغم أنني لست مقتنعاً بأن مثل تلك الموضوعية التامة ستكون أسهل عما هى عليه في حالة إنجلترا وإيرلنده) ؛ وفى هذه الأثناء أوقن بأن الرؤية " المتمركزة حول النوبة " ، وإن لم تكن أفضل دقة ، فإنها على أقل تقدير أحسن ملاءمة للنوبيين الذين أعتزم أن أقص قصتهم .

لكوني لست عالما في المصريات أو اللغويات ، فإنه صحيح كذلك إنني لا أملك قدرةً في اللغات القديمة ولغات القرون الوسطى ، وهذا هو النقص الأعظم بلا شك في كتابى بالبرغم من أن البينة النصية حيوية لقصتى في نقاط جَمَّة ، فإنه واجب عليَّ أن آخذ في كل حالة من تراجم لا أستطيع أن أحكم على مصداقيتها . من الجانب الآخر ، أعتقد كعالم آثار متمرس مثلما أنني دارس للثقافات المقارنة ، أن بوسعي أن " أقرأ " الأشياء في المدون الآثارى التى يستعصى إدراكها على أغلب علماء اللغويات . وعلى أيِ حال فإننى أضع ثقةً أسمى في البينة الآثارية عما أضع في البينة النَّصية للوصول إلى إستنتاجاتى التاريخية الخاصة بى ، هذه بدورها تعلل بعض الفوارق بين وجهة نظرى في التاريخ النوبى وبين زملائى .

رغما عن أن مدخلى للمعطيات النوبية جديد في نواحٍ عديدة ، فقد تفاديت ما أمكن ذلك الإغراء بتدبيجها بمصطلحات جديدة أو مشاريع تصنيفية . لقد كانَ ضرورياً لى أن أعيد توصيف «جماعات» رايزنر أ ، ب ، وج " كآفاق "(*) لكى أؤكد إيماني بأنها لا تمثل سكاناً منفصلين ، لكننى فيما عدا ذلك قانع بأن ألزم التوصيفات الأبجدية المكرسة الآن فوق التقليد . لقد نصبت من فوق التعاقب الثقافي القديم لرايزنر تقسيماً من أربعة أجزاء يتداعى إلى فترات قبلية ، أسرية ، بالقرون الوسطى ، وحديثة ، لكنها وصفية أكثر منها كلمات مصنفة . مع ذلك ، ربما أن أولئك الذين هم أقل إحتراماً للتقليد الموروث يفضلون المصطلحات الثقافية الجديدة التى اقترحت في مؤلف بروس تريقرُ *التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى* [١٩] . أما التقابل ما بين أطوار الثقافة ، ومراحلى ، والمراحل التى اقترحت أصلا من رايزنر فمبين بالجدول الأول .

بعض الأفارقة والإختصاصيين في الشئوون الإفريقية ربما سيخبو أملهم في كتابى . ففى حين أن لى تعاطفاً على قدر مع الولع الأيديولوجى الجارى بالقارة الجنوبية ، فإنه ليس مكانى أو مقصدى أن أروج دعاية لحركاتٍ قومية أو عنصرية . بالتالى ، فقد استهنت نسبياً "بأفاريقية" النوبيين . إن صالحهم فيما أعتقد ليست له أى علاقة بلون جلدتهم أو بالقارة التى يعيشون فيها ؛ إنهم بمحض وجودهم الخاص قوم رائعون يملكون تاريخاً رائعاً . ولئن كنت أتحسر على الميل الباكر لعلماء الآثار المصرية أنهم لا يرون في النوبيين شيئاً أكثر من مهربين من الدرجة الثانية ، فإننى على صعيد واحد أنبذ الجهود لوضعهم جانباً ما بتصنيف تاريخى آخر " أفارقة " أو " سُودا " . على نقيض ذلك إنه لأملى المُحَبب أن قراء هذا الكتاب ربما يقاسموننى تقديري لهم ومن أجلهم ، ليس من أجل أى ضوء يمكن أن يعكسه آخرون عليهم ، أو يعكسونه هم على آخرين .

نادراً ما أشرت إلى النوبيين كـ " سُود " ، ليس بسبب أى حساسية عنصرية لكن لأنهم صاروا سوداً في فترات متقطعة فحسب . بذاك لا أعنى أن لون بشرتهم وملامح وجوههم قد تغيرت بشكل فائق الأهمية في الفترة التاريخية ؛ إننى أؤمن في الحقيقة أنهم ظلوا باقين بدرجة كبيرة مثلما كانوا منذ الأزمان الأولى . بيد أن العنصر يقع في عين حامله إلى مدى بعيد ؛ أمراً يُحسَب للتعيين

(*) ترجمت آفاق إلى ثقافات، عليه يعتبر الأفق أ، ثقافة المجموعة الأولى، وهلم جرا، حسب نظرية آدمز. وقد أشرت إليها في النص على أنها المجموعة الأولى في تتابع يتصل مراحلاً، بدلاً من الجماعة أ إلخ – تسهيلاً حيثما ورد ذلك مناسباً – المترجم.

الجدول الأول

تسمية مقارنة للمراحل الثقافية النوبية وفقا لمؤلفين مختلفين (*)

آدمز (١)		رايزنر (٢)	تريقر (٣)	تواريخ
حديث	وسيطى	*	†	
إسلامى				١٥٠٠
مسيحى		القبطى	نوبى متأخر: المسيحية	
++ثقافي المجموعة		الجماعة – س	بلانة	٥٠٠
مروى		بطلمى – رومانى إثيوبى ↑	المروية	م
نبتى			البطلمية – الرومانية	
الدولة الجديدة			النبتية	ق.م.
الدولة الجديدة	أسرى	الدولة الجديدة	الدولة الجديدة	١٠٠٠ ١٥٠٠
++ كرمة		§	†	
ثقافة المجموعة الثالثة (الأفق ج)		الجماعة – ج	نوبى أوسط: IV الجماعة–ج (الدولة الجديدة) III الجماعة–ج (الوسيطة الثانية) II الجماعة–ج (الدولة الوسطى) I الجماعة–ج (الوسيطة الأولى)	٢٠٠٠
ثقافة المجموعة الأولى (الأفق أ)	++ قبلى	الجماعة – ب الجماعة – أ	نوبى مُبَكر: III الجماعة ب II الجماعة–أ (أول الأسر) II ب جماعة–أ(قبل الأسر) I1 جرزى	٢٥٠٠ ٣٥٠٠
الحجرى الحديث		*	الحجرى الحديث	

(١) مذكرات ومدونات السودان Sudan Notes and Records, Vol. XLVIII (1967), p.5

(٢) قارن امرى Egypt in Nubia, p.44

(٣) منشورات جامعة يل فى الأنثروبولوجيا
Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), p.46

* غير مُضَمَّنة فى صيغة رايزنر

† غير مُضَمَّنة فى صيغة رايزنر

‡ مرحلة إنتقالية

§ أرَّخ رايزنر خطأ معاصرة كرمة للدولة الوسطى

(*) عدلنا مسميات آدمز إلى ثقافة المجموعة المجهولة، وثقافة المجموعة الأولى، وثقافة المجموعة الثالثة بدلاً عن الأفق أ والأفق ج بالترتيب. وبالنسبة لرايزنر ابقينا على اسماء جماعاته الهجائية كما هى مع الإشارة إليها على أنها المجموعة الأولى إلخ وفقا لترتيب آدمز حيثما ورد ذلك بما يناسب النص. واستبدلنا البطليموس بالبطلمي لقربها من الأصل – المترجم.

الإجتماعي أكثر منه بيولوجيا ، تغيرت أوصافه الدالة عليه من عصر لآخر ومن مكان إلى آخر . ولأصير دقيقاً من الناحية الفنية فإن النوبيين في الغالب ذوي لون بني متدرج ؛ إن الواحد ربما بوسعه ، ويمكنه ، أن يشاهدهم إما « سُوداً » أو « بيضاً » وفقاً لتحيزات زمنه ومزاجه . لقد كانت هنالك قطعاً فترات كانوا فيها خاضعين للتحيز والطمع نتيجةً للون بشرتهم الداكنة ، وحينما تكون مناداتهم "سُوداً" ذات معنى في السياق الحاضر مجتمعياً . وهنالك أزمة كانوا فيها كذلك خاضعين لنفس الإتجاهات والمعاملة ليس بسبب لون بشرتهم لكن لأنهم أناس أقل حضارةً لا يكتبون ، أو لأنهم كانوا مسيحيين محاطين بمسلمين . وظلت هنالك عهود أخرى حينما انضم النوبيون إلى جيرتهم الشمالية في قمع وإستغلال الأقوام الأسود حلكة بإفريقيا الداخلية ، وحينما يصير أجلى معنى للعلاقات الإجتماعية أن يدعوا " بيضاً " حاولت بدلاً من أضفاء أى إصطلاح عنصرى عليهم ، أن أصفهم في كُل مرحلة من تاريخهم طبقاً لإتجاهات الزمان السائدة .

ربما سيجد زملائى علماء الأصول الإنسانية الثقافية إشباعاً ذاتياً من كتابتى إلى هذا المدى، يحسون أننى قدمت آخر الأمر المدخل المقارن والمستقرأ لسلكنا إلى خوضنا ميداناً ظل مسيطراً عليه ردحاً طويلاً من علماء المدارس الإنسانية والإختصاصيين . كلما طالعوا المزيد ، سوف يجدون مع ذلك، أن للتأريخ في النوبة قدراً مماثلاً لهم على الأقل لتعليم الأنثروبولوجيا علم الأصول الإنسانية على نحو ما للعكس . وبالرغم من أنه صحيح أننى ، كأنثروبولوجى يحسن صنعته ، أنظر للتأريخ النوبى برسم أساسى في حوق التطور الإرتقائى الثقافى ، فإن المراحل التطورية الإرتقائية الفعلية التى تعرفتُ عليها ، والتى أوقن أنها مطبقة بعيداً ما وراء حدود النوبة ، هى بالتقريب مراحل لمؤرخ أقرب منه عالماً للأصول الإنسانية ، وسوف لا أتوسع عميقاً في هذا الموضوع هنا ؛ إن فصلىَ النهائى مكرس بصفة رئيسة لمناقشة حدود النظرية الأنثروبولوجية كما طُبقت على التأريخ النوبى .

لم أتهيأ في الأصل لأكتب هذا الكتاب لجماعة الأنثروبولوجيا والآثار المصرية ، أو لأى من أُولى الإختصاص العلمى الآخرين الذين تخاطبهم الفقرات السابقة أساساً ، إنما قصدى أن أرتّب تأريخاً نوبياً معروفاً - ليس غير - في صيغة مفهومة للجمهور العام ، أو على الأقل لذلك القسم الذى أشعلت إهتمامه الدعاية المسبقة على حملة إنقاذ أبو سُمبل والسد العالى . على أننى وجدت ، في المرحلة الراهنة من معرفتى ، أن ما بإستطاعتى أن أكتب كتاباً شعبياً برمته ، مع علمى في كل هذه الأثناء بأن رصفائى في المهنة يتفحصون خطاى . من أجلهم (وأحياناً لإصرارهم)أدخلت مقاطع من المناقشة ، والمحاورة ، وأحياناً العراك المباشر الذى ما كنت أملك فكرةً لضمه أصلاً ؛ محصلة ذلك أن القارئ العادى ربما يرى في أوقات من " الغسيل القذر " للدراسة التأريخية أقوى مما يرغب في رؤيته . غير أننى حاولت في كل العمل ألا يزيغ بصرى عنه بالمرة ، بل حاولت بدلاً من ذلك الوصول إلى مصالحة معقولة ما بين اهتماماته ومصالح الدارسين المهذبين . يقيناً أن هذا أكثر صعوبة من أى عمل كتابى حاولته آنفاً ؛ سيخبر الزمن وحده مدى نجاحه

ليس من المقصود بأى معنى أن يصبح كتابى « الكلمة الأخيرة » في التأريخ النوبى ؛ والحقيقة إننى آمل ألا تكون هنالك أبداً " كلمة أخيرة " . فبالرغم من أن امتلاء بحيرة ناصر قد وضع نهاية دائمة للعمل الآثارى في النوبة السفلى ، عدا قصر إبريم ، فإن كثرة من المادة التى نقبت في الستينيات من عام ١٩٦٠ لا تزال قيد الدراسة ، وتظهر طازجة مع كل تعزيز من مطبوع جديد بصائر نافذة . في نفس الآن يمكن للحفريات المتواصلة في النوبة العليا ، وقصر إبريم في النوبة السفلى ، أن تدر إكتشافات في أى وقت تبدل الصورة التى قمت بعرضها تبديلاً . والحق يقال ، إن كشوفاً بقصر إبريم في ١٩٧٢ و ١٩٧٤ [٢٠] جعلت من الضرورى إجراء إضافات هامة للفصل الثالث عشر والفصل السادس عشر في مرحلة الإعداد للطبع . أخيراً ، فإنه لو أصبحت الحقائق الآثارية كلها محتواة أو أنها كانت كذلك ، يبقى تفسيرها بتأكيد موضعاً للجدل أجيالا قادمة .

من أجل القارئ العام تلافيت إستعمال الإصطلاحات الفنية باستثناء المقدار الذى يوضحها في النص ، وحيثما يكون ضرورياً إدخال مناقشةٍ عصية على الفهم حاولت أن أبينها بقيمتها وأهميتها بعبارات تأذن للعامة بمتابعة المجادلة . وأخيراً ، أخفيت هوامشى (الضرورية لأولئك الزملاء الذين لهم الحق وحسب إنما الواجب ملقى على عاتقهم ليطلبوا مصدر حقائقى وأفكارى) في ظهر الكتاب ، حيث لا تتدخل مع القراءة الطبيعية.

إن كتابى ، بالرغم من إعتراضى على الهوية (العرضية) للمؤخين الأوائل ، هو نفسه عَرَضى إلى مدى ما توصف به كل مرحلةٍ تالية للتاريخ النوبى في فصل منفصل ومكتفٍ بذاته . هذه الفصول كتبت بهذه الكيفية حتى يصير من الممكن قراءتها بشكل عام على حدة من أولئك الذين ينحصر إهتمامهم في فترات محددة من التأريخ .

لسوف تكون ثروة من الأسماء المربكة والغريبة التى يعج بها هذا التأريخ ، فيما أقترح ، جاذبةً للبعض وُمَنفرةً للبعض الآخر . ولأن شغلى الشاغل هو أن أصل وأثير إهتمام جمهور غير مهنى ، فقد حاولت كلما أمكن ذلك ، أن أستعمل أبسط والصق الهجاءات الصوتية قرباً من الأسماء الصحيحة ، على الرغم من أن هذه سيُعترض عليها في بعض الحالات من أصفياء فقه اللغة .

تمهيـــد

الفصل الأول

الرواق النوبى

ألهمت مصر الإنسان على الدوام مساعى صروحية ، شيدت الدولة القديمة الأهرامات والدولة الوسطى قلاعاً ضخمة ؛ والدولة الجديدة معابد وقبوراً مخفية ؛ والأغاريق أقاموا أعظم مكتبة للعالم وأطول منارة . إن الإنسان الحديث ، وهو إسمياً أرفع منفعة في مطامحة ، يعلن على الملأ خلوده بسدود هائلة ، مغرقاً بضربةٍ واحدة كُلا من الطبيعة وإنجازات ماضية في عرض مستهتر للتفوق الفنى . إن ما يليق ولا شئ غيره لزمننا هذا أن صرحاً واحداً من أعظم صروح القرن العشرين هذه يجدر به أن ينهض ثانيةً في وادى النيل ، حيث يمكن له أن يتنافس في بهاء مع عجائب صروح الماضى القريب . يقول سد أسوان العالى ، الذى بنته روسيا هدية لمصر وتوبيخاً لأمريكا ، للقرن العشرين "تمعن أعمالى ، أيها القوى ، وليُصبك اليأس !" (١) .

السد العالى رائعة هندسية . مائتا قدم علواً وأكثر من ثلاثة أميال طولاً ، بوسعه أن يختزن أربعة تريليون قدماً مكعباً من الماء في بحيرة تمتد بعيداً إلى باطن الأطراف الداخلية لإفريقيا . تحت تلك البحيرة تلاشت أرض قديمة بأقاصيصها ، معروفة في فجر التاريخ بأرض كوش ، لهيرودوتس ومعاصريه بإثيوبيا ، ومنذ عهود القرون الوسطى بالنوبة .

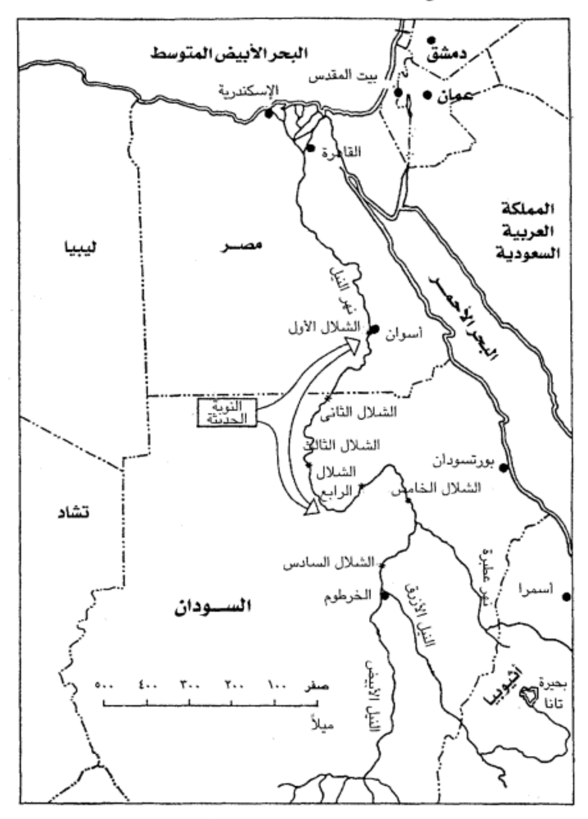
ما هى ، أو ماذا كانت النوبة ؟ أُلقى السؤال دائماً في سنوات قريبة ، حيث أن السد العالى ، بنفس العمل الذى دمرت به النوبة ، جعل اسمها مشهوراً حول العالم ، غير أنه ليس إسماً موجوداً على الشيوع في الخرائط إذ أنه ما من هوية سياسية أو إدارية مثله. إن الأرض المعروفة بالنوبة تقع اليوم جزءاً في مصر وجزءاً في جمهورية السودان ، لكنها تشكل لكل قطرٍ قسماً صغيراً وحسب .

القارئ المتحرى بما فيه الكفاية ليبحث عن النوبة على خريطة إفريقيا عليه أن يبدأ بتحديد مصب نهر النيل ، في أقصى ركنٍ شمالى للخريطة (الشكل رقم ١) . متتبعاً مجرى النيل صوب الجنوب ، أو نحو المنبع ، لسوف يجتاز في التو الحدود بين مصر والسودان . وربما تملكته دهشة وراءها بالضبط ، إذ يكتشف أن مجرى النيل هو منحنٍ على شكل «S» عظيم الإتساع - وهو واحد من أكبر التعرجات في العالم. هنا ، ولو بأى مكان ، يمكنه أن يجد اسم « النوبة» مطبوعاً في الخريطة . سيلاحظ أيما حالةٍ أن الخط يمثل النيل مُقَاطَعاً على مسافات منتظمة في معظم الأحيان بخطوط عرضيةٍ قصيرة تدعى « الشلال الأول » ، « الشلال الثانى» ، « الشلال الثالث» ، وهلم جرا حتى السادس . هذه الشلالات - وكل واحد منها بالفعل متتاليةٌ من جنادلٍ خاطفة السرعة - تمسك بمفتاح شخصية النوبة الخاصة : أولاً ، لأنها تعيق أو تمنع الملاحة على النهر ، وثانياً لأنها تنبئ عن صفحة أرضية لأخاديد ضيقة ونتوءات صخرية . هنا حالتان تختلفان إختلافاً شاسعاً عن أحوال مصر الدهرية ، على حد سواء ، فإن النوبة كذلك ، بمعنىً دقيق ، نتاج لشلالات النيل .

لكيما نفهم طبيعة النوبة ومصيرها ، يجب أن يقوم الواحد حقيقةً برحلة إلى أسوان ، في مصر العليا . إن المسافر الذى يفعل . ذلك سوف يكافأ ليس بجلال السد العالى وحده ، إنما ببعض من أشد المناظر الخلابة على النيل كذلك . إن تنبهه يحتمل أن يأخذه في البداية الشلال الأول ، ركاماً فوضوياً من الصخور والأخاديد تتكسرها هنا وهناك جزر خضراء ، وتشاهد القوارب الشراعية

شكل رقم ١

موقع النوبة الحديثة بالنسبة للأقطار المجاورة



تتهادى بين الجزر ، على أنه لا توجد حركة أعلى النهر أو بأسفل إتجاهه .

تحت الشلال وعلى طول الضفة اليمنى للنيل تقع أسوان المزدحمة ، في السابق قرية هاجعة لكنها الآن تنزُّ بالصناعة . حاشية خضراء من أشجار النخل تبرز حافة الماء ؛ تحتها مباشرة ، يذكرنا تجمع للقوارب أن هذه هي مقدمة الملاحة على النيل المصرى . مواجهةً لأسوان تطل جزيرة فيله الكبيرة ، بخرائب مدينتها القديمة وفنادقها الحديثة الفاخرة . وراء النهر وعبره ، قمم من حجارة رملية تهبط مباشرةً من هضبة الصحراء إلى ضفة النهر . إن خطها الأفقى تتكسره سلسلة من مدافن صخرية مرئية بلا مراء ، صروح أسياد أسوان الأوائل .

شمال المدينة ، تتراجع القمم المطوقة مسافةً من حافة النهر. بينها ، ممتداً بعيداً للأفق ، يقع الوادى العظيم الذى لألف مضت كان مرادفاً لمصر عملياً . إن السطح المنبسط ، سندسى الخضرة ، مجزأ إلى مربعات ومستطيلات بصفوفٍ من أشجار النخيل وبالماء الرقراق لآلاف المجارى والقنوات . وبالرغم من أن الوادى يظهر دائماً مهجوراً في سكون الظهيرة ، فلسوف تعلن الحياة والنشاط عن وجودهما بكل مكان في ساعات الصباح والمساء .

المنظر إلى الجنوب يمنح مناقضة مذهلة . ما من وادٍ هنا لنهر . يكاد يقول الواحد ألا وجود لنهر. يغيب النيل عن النظر كأنه يغوص بالمرة بين متشابكٍ من قمم ومنحدرات صخرية ؛ بل إن السد الذى لا يبعد سوى بضعة أميال ، يُخْفَى عن النظر . خضرة النبات وصفرة رمال الصحراء - اللونين اللذين يسودان صفحة الأرض بكافة أرجاء مصر الأصلية (*) - يفتقدان على السواء بينما ينظر الواحد جنوبياً من أسوان . فما يظهر في مكانهما شئ غير السواد الرمادى الشاحب ، للغرانيت العارى .

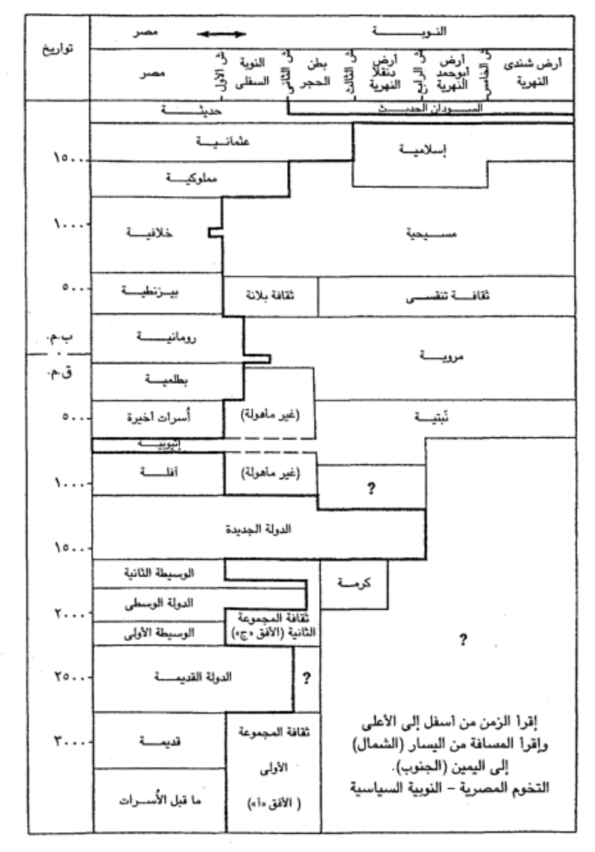
لا غرو ، إذن ، أن أسوان تدل على التخوم سحيقة القدم لحضارة مصر الفلاحية . إن الأرض ما وراء الشلال الأول قدمت إغراءات قليلة لأى من الفلاحة أو التجارة ، وكان المصرى العادى من السعادة بما يكفى ليتركها في أيدى شاغليها القدامى قدم الزمن : سلالة صلبة ، بنية البشرة تختلف في المظهر ، والحديث ، والعادة على حد سواء عن المصريين .

فيما عدا ذلك ، كيفما مضت الحال ، كانت قرينة حكام مصر الطامحين . منذ أقدم العهود كانت لهم تطلعاتهم التوسعية الإمبريالية ، والنوبة ، أقرب جار مأهول ، كانت على الدوام يكاد ، أول ضحاياهم . هكذا كانت التخوم الثقافية الثابتة منذ الأزل أى شئ عدا أنها مستقرة كحدود سياسية (قارن الشكلين رقم ٢ و ٣) . أجيال من الفراعنة المحاربين دفعت الأملاك الإمبريالية بعيداً تجاه مجرى النيل جنوبياً في بحثهم عن الذهب ، والعاج ، والعبيد ؛ والنوبيون يقاسون سواء بسواءٍ مع المصريين من نُير التوسع . بيد أن الفلاح المصرى ظل في عناده ، لصيقاً بجذر تربته القديمة ، وولج مستعمرون قلائل النوبة إبان صحوة الجيوش المنتصرة . إن أولئك الذين فعلوا ذلك تصرفوا وفق إمرة لا ترد للفرعون ، وكانوا فيما هو واضح قريرين بما يكفى ليرجعوا إلى مصر في نهاية مدة خدمتهم . منزوعةً هكذا من أى دعم محلى ، ما كان ممكناً إجراء فتوحات مصر للنوبة إلا بقوة السلاح وحده ، وتمويلها بأى ثروة أو جزية تُجبى من أرض خشنةٍ وسكان لا يذعنون لسلطان . وبما لا ميحص عنه ، ما استدام رخاء لهذه المصلحة إلا بما ظلت إرادة الفرعون وأمواله ممدودين به . أما لدى أول استضعافٍ لحاميات السلطة الملكية فيهرع الإداريون والمستعمرون قافلين على متن النهر عبر تخوم أسوان ، بينما يثور عامة النوبيين الناقمين على أثر أقدامهم ويسرعون في الرحيل عدة مرات أو مادون ذلك . كان لابد أن تعاد القصة على الأقل خمس مرات في المسيرة الطويلة للعلاقات المصرية - النوبية (الشكل رقم ٢) .

(*) المقصود مصر الأم شمالي أسوان، أو مصر بإستثناء النوبة فيما لاحظ الدكتور أسامة عبد الرحمن - المترجم.

شكل رقم ٢

التسلسل الزمنى للمراحل الثقافية المصرية والنوبية



لماذا النوبة ؟

التناقض الظاهر للتـاريخ النوبي هو أن هذه الأرض الجرداء جذبت الدخلاء وأقصـتهم على صعيد واحد منذ البداية . فالمصريون في العصر الفرعوني غزوا المنطقة مرة وراء أخرى ، إلا أنهم قلما أشاروا إليها دون النعت "تعيسة" أو " مقيتة " [٢] . أما قمبيز ، الفاتح الفارسي لمصر ، فبلغ عنه هيرودوتس أنه صعد بالنيل إلى بُعدٍ كالشلال الرابع ، لكنه كاد يفقد جيشه وحياته معاً في زحفه القافل . ووصل جيش روماني نبتة واجتاحها سلباً ونهباً في القرن الأول قبل الميلاد ، على أن نيرون أعرض عن ضمّ النوبة إلى الأملاك الرومانية ، وتخلى ديوقليتانس علاوةً على ذلك عن الأقاصي الشمالية التي كانت مصر قابضةً عليها منذ زمن سحيق . أما الجيوش العربية ، التي أزالت النصرانية في أماكن أخرى من وجه إفريقيا الشمالية ، فقد بلغت قُبالة دنقلا خلال عشر سنوات من وفاة محمد [*] ـ وهناك خلصت إلى معاهدة تركت النوبة في أيدٍ مسيحية لـ ٨٠٠ عام أخرى . إن صلاح الدين ، قاهر ريتشارد *قلب الأسد* ، وفاتح مصر وسوريا ، صرف كل فكرةٍ لإضافة النوبة إلى نطاق نفوذه بعد أن أوجز الغزوات المفاجئة اختصاراً . وفي إطار القرن الماضي تخلت بريطانيا العظمى في أوج قوتها الإمبريالية عن كل السودان لحشدٍ ثائر من الدراويش [**] مسلح في الغالب بالمدى والرماح ، خمسة عشر عاماً ، بعد ذلك كان عليها أن تنفق عامين ومبلغاً ضخماً من المال لتكسبه من جديد .

إن سخرية الأقدار التي توجب التاريخ النوبي ، ظلت مع ذلك ، محفوظةً للقرن العشرين لقد أقلع حكام مصر في الحال ، وقد أمّنوا سيطرتهم على النوبة السفلى بمعاهدة في عام ١٨٩٩ ، بمشروع مخطط لبناء السد الذي سوف يمحو في النهاية هذه المنطقة ، التي طالماً شغف بها وحازها بثمن فادح آباؤهم الأولون . الدوديكاسخينون [***] القديمة (أناي ١٠٠ ميل شمالي النوبة) ، التي أمسكت مصر بزمامها كطريقٍ لمناجم ذهبها الصحراوية عدة قرون ، إندثرت خلال سنوات قليلة بعد إكمال سد أسوان المنخفض في سنة ١٩٠٧ . وتبعها معظم ما بقي من النوبة المصرية عندما جرى توسيع السد الأصلي في سنة ١٩٢٩ . تدمير النوبة السفلى ، وقسط بالغ من النوبة السودانية بالمثل ، سيزول نهائياً بإرتفاع المياه إلى مستواها الكامل وراء سد أسوان العالي في السبعينات من عام ١٩٧٠ . وفي هذا الوقت جمعت الأمم الصناعية بأوروبا وأمريكا ، التي أسهمت بأغلب رأس المال لبناء سدود أسوان ، مبالغ إضافية طائلة في جهدٍ محموم لإنقاذ صروح ماضي النوبة من الدمار

أثار التهكم على إنفاق الملايين لدمار النوبة وإنفاق أكثر من هذا المبلغ على آثارها العتيقة تعليقات جملةٍ من بلدان العالم [٣] . فوق هذا ، تساءل قليل من المراقبين المفكرين عن شرعية كلٍ من الإنفاقين . وفي قلب هذا التناقض الظاهري تقع حقيقة حيوية أن النوبة في الأزمان الحديثة خسرت الأهمية التي ارفدتها طويلاً مكاناً فريداً في التأريخ .

وفي حنايا نفسها ، ما انفكت النوبة بصفة دائمة أرضاً حارة ، جافة وقاحلة ذات موارد شحيحة واستعداد معيشي محدود ، فقيرة كما كانت ولا تزال ؛ مع هذا ، منحها وادي النيل بين أسوان والخرطوم ، لمدة ألف عام ، الطريق المعتمد الوحيد عبر الحاجز الصحراوي العظيم بالصحراء الكبرى ، والصلة الوحيدة بين العالم الحضاري وإفريقيا ، وإلى المدى الذي تتلاقى وتمتزج فيه الثقافات ، والمنتوجات ، والقوى المندفعة للسود والبيض ، بمرور الزمان ، فإنها التقت وامتزجت هنا . إن مركز النوبة الفريد كأرضية لتلاقي العالمين لم يكن ليُتَحدى حتى انفتاح تجارة القوافل عابرة الصحراء الكبرى في الألف عام الأخيرة قبل الميلاد ، ولم يتوار في نهاية المطاف حتى افتتاح عصر

(*) النبي محمداً صلى الله عليه وسلم – المترجم.

(**) أنصار المهدية – المترجم.

(***) الدوديكاسخينون – حرفياً يعني الإقليم الثاني عشر – المترجم.

الكشوف العظيم سواحل إفريقيا في القرن السابع عشر .

بداية ، ولقرون كثيرة فيما بعد ، *كانت* النوبة إفريقية إلى الحد الذى كان فيه العالم الخارجى معنياً . المكان الوحيد على طول التخوم الصحراوية الذى كان بإمكان المقيمين على شاطئ البحر الأبيض المتوسط أن يمسكوا فيه ومضةً عن عالم آخر وراء الأفق الجنوبى . وللمصريين القدماء ، بنفس القدر إلى زمن هيرودوتس وسترابو ، كانت كوش وإثيوبيا عملياً مترادفتين مع منطقة النيل الأوسط . بينما كان باقى إفريقيا السوداء مجهولاً .

الموارد التى شبقت بها مصر وجيرانها بالبحر الأبيض المتوسط رغبةً في النوبة كانت بالضبط تلك الموارد التى من أجلها استعّرت رغبة الرجل الأبيض في إفريقيا . وكانت في جزء منها معدناً ، وفى جزء آخر حيواناً ، لكنها فوق كل شئ : كانت موارد بشرية . والنوبيون كانوا أول الفرائس في عملية للإستغلال إنتشرت في أزمان لاحقة فوق القارة الإفريقية بكليتها.

أول الأمر وجد النوبيون بلا شك دور الرجل الأسود في عالم الرجل الأبيض ضاراً مثلما وجدت كل الأجناس السوداء في كل مكان . إن تجاورهم اللصيق بمراكز الحضارة الأولى ، كيفما اتفق الحال ، قدم منافع إستحوذتها سلالات أصلية قليلة في أزمان لاحقة . وبعد فترة مبدئية من الإخضاع والإستغلال الشامل ، كانوا قادرين على أن يمتصوا قدراً كبيراً من حضارة جيرانهم ، وبفعلهم هذا تمكنوا من سلخ أنفسهم عن العالم البدائى الكلى لإفريقيا السوداء دون أن تكون إفريقيا نفسها ؛ صارت النوبة منطقة إنتقال ، أو على الأصح منطقة الإنتقال ، ما بين العالم الحضارى وإفريقيا . أما الشريط الأخضر الضيق لوادى النيل الأوسط ، من الخرطوم إلى أسوان ، فكان هو الرواق الذى من خلاله مرّ الرجال ، والأشياء والأفكار من عالم واحد إلى الآخر ، والذى بينه تلاقو وامتزجو . وأصبح المقيمون في هذا الدهليز رجالاً وسطاء بكل مُعنىً من المعانى - عرقياً وثقافياً وكذلك إقتصادياً . وبقيت وضعيتهم الفريدة بين العالمين الأسود والأبيض مثابرةً حتى الأمان الحديثة

النوبة إذن في قسم محافظة للثقافة ، وفى قسم محافظة تأريخية ، وفى قسم محافظة جغرافية - جرى فيها تشكيل المصير الإنسانى طرائق دقيقة ومتميزة بتركيب فريد من المنافع التأريخية والمضار البيئية . إنها ، على وجه التحديد ، ذلك الجزء من إفريقيا الأصلية التى لم تستعمر أبداً بوضع مستديم من قبل أقوام أجنبية لكنها ظلت دائماً أسيرةً لنفوذهم . منذ فجر التأريخ إتكأت على تخوم الحضارة ، دون أن تتحرك أبداً تحركاً كاملاً عبرها .

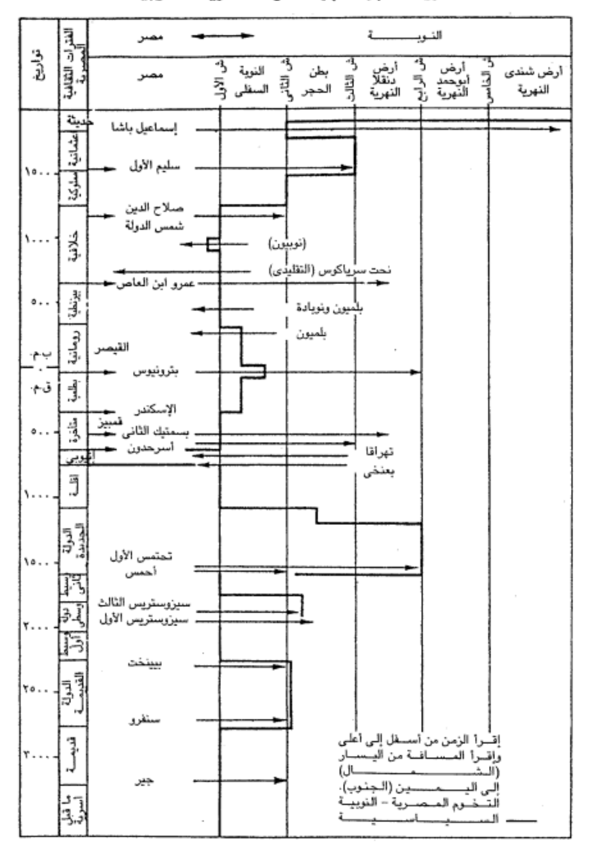
حدود النوبة ؟

الحد الشمالى من النوبة معرف بحدة ، كما ظل دائماً مثل الشلال الأول نفسه [٤] . الحدود الشرقية والغربية على قدم المساواة معلمان بصفاء ، لأنه لا شئ يعدو حدود الزراعة والإقامة ، ميلاً أو ميلين على كل جانب من النهر العظيم . وراء تلك الرقعة الضيقة تنبسط صحراء لا ماء فيها (الصورة ١ - ب) وهى إما قيعة بلا حياة على الإطلاق ، أو مأهولة ببدو غير نوبيين تأريخياً أو ثقافياً ، بالأطراف العليا من النوبة ، بالرغم من أنهم (مثل المصريين) لعبوا دورهم في التأريخ النوبى .

الحد الجنوبى ، أو الأعلى للنوبة هو الذى يصعب تحديده . فإذا سَلّمنا أن النوبة محافظة ثقافة ، أهلها ليسوا بمصريين لكنهم ظلوا واقعين في دائرة نفوذ الثقافة المصرية على نحو موصول ، حينئذ علينا أن ندرك أن مدى ومثابرته ذلك النفوذ كانا مختلفين في أزمنة مختلفة في التأريخ . لذا ، بمعنىً ما ، كانت للنوبة تخومٌ جنوبية متنقلة . كان النمط العام واحداً للإمتداد صوب الجنوب منذ أول تعريفٍ للحضارة ، في الألف الثالثة قبل الميلاد ، حتى قيام البداوة الرعوية في الألف الأولى بعد الميلاد . أثناء ذلك الزمن إنتشر النفوذ المصرى جنوباً من الشلال الثانى للنيل (إبان الدولتين

شكل رقم ٣

الغزوات الكبرى عبر الحدود المصرية - النوبية



القديمة والوسطى) إلى الشلال الرابع (فى الدولة الجديدة) وفى نهاية الطوف حتى ملتقى النيلين الأزرق والأبيض (الخرطوم الحديثة) على الأقل بحلول العصر المسيحى . إن نهوض البداوة الرعوية ، وبوجه الدقة مجئ عشائر من المهاجرين العرب ، خلق أول ضغط - معاكس للإنتشار الأبعد للحياة الحضارية الجلوسية ، وفى أزمان قريبة كان هنالك إنسحاب تدريجى نحو الشمال للتخوم النوبية - العربية ، ولهذا اليوم أضحت ثانية أسفل الشلال الرابع (بشكل رقم ٨ والشكل رقم ٩) .

إن كان لى أن أجمل تعريف النوبة في بضع كلمات ، فهى أرض شلالات النيل : ذلك الجزء من وادى النيل ، جنوب مصر مباشرة ، الذى تقيم به أقوام أفارقة في الأصل والحديث لكنهم مأخوذن بشدة بنفوذ الثقافة المصرية وثقافة البحر الأبيض المتوسط . إن الخصائص العرقية الخاصة بالنوبيين ، ومسألة أصلهم ، سوف تناقش في الفصلين القادمين .

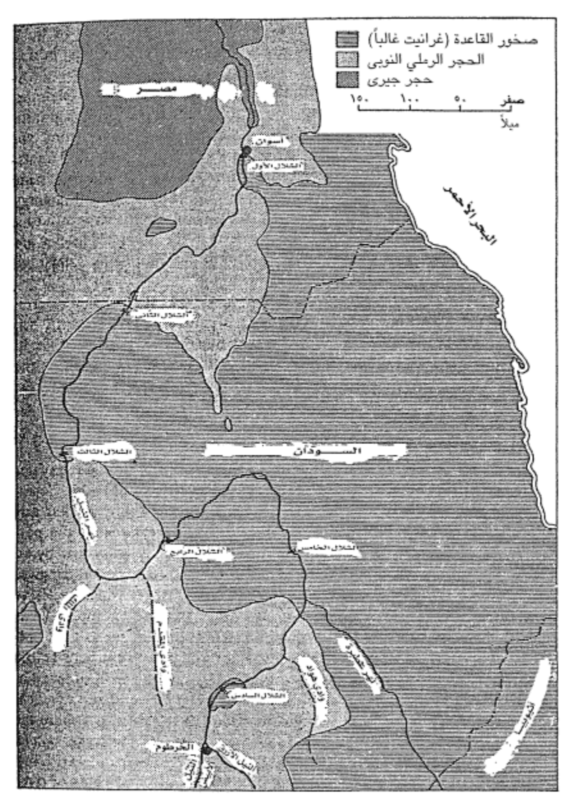
من الضروى أن نشير قبل ولوج الأشياء إلى أن التعريف الجغرافى المرن للنوبة الذى أعطيته هنا ، والمتضمن في مدخلى الثقافى بصورة حيوية للتاريخ لا يتماثل بالضرورة مع استعمال كتّاب أُخر . وللدقة بسبب العلل التاريخية التى ذُكرت آنفاً ، ليس هنالك إتفاق عام فيما يتعلق بحدود النوبة سواء في أزمان حديثة أم قديمة . ولأن الكلمة واحدة لغوية من الناحية الفنية ، أعملها بعض الكتاب - على كل فترات التاريخ - للمنطقة وحدها التى يقطنها اليوم متحدثون بالنوبية ، بين أسوان في الشمال والدبة في الجنوب (الشكل رقم ٨) ؛ إنه لأمر حقيقى - كذلك في تقارير أثرية باكرة متعددة - أن تميل « النوبة » لأن تمثل تلك المساحة التى أجرى فيها عمل أثرى منظم خطةً وإجراء ؛ أى النوبة السفلى . في هذا العمل كافةً ، مع ذلك ، سوف أتّبع التعريف العريض الذى قدمته مسبقاً .

تقسيمات جغرافية

تقسم ممارسة تقليدية النوبة إلى جزئين غير متساويين : النوبة السفلى ، ممتدة من الشلال الأول إلى الثانى ، والنوبة العليا ، جنوبى الشلال الثانى . هذا التمييز يتوافق بشكل لصيق مع التقسيم الحديث بين مصر وجمهورية السودان (الشكل رقم ١) ، لكنه في جوانب أخرى أشمل معنىً تاريخياً منه جغرافياً . بينما النوبة السفلى في الحقيقة منطقة متجانسة لمدى واسع طوبغرافياً من ناحية الوصف التفصيلى للتضاريس والسمات السطحية ، تحتوى المنطقة البعيدة الأكبر للنوبة العليا بين ظهرانيها تشكيلة من البيئات ، بعضها مشابهة للنوبة السفلى والبعض الآخر مختلف بقدر ملحوظ . من وجهة نظر التضاريس الطوبغرافية يجب أن نتحدث عن خمسة أو ستة أجزاء من النوبة ، ليس جزئين وحسب .

يمسك علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) بالمفتاح لتعددية النوبة الطوبغرافية . في طول مجراه الأسفل يقاطع النيل ثلاثة تكوينات سطحية رئيسة جيرية ، وحجرية رملية ، ومجموعة من الصخور النارية الصلبة (« صخور القاعدة» للشمال الإفريقى) الغرانيت مكونها العمادى (الشكل قم ٤) . إن الوادى العظيم لمصر الأم مشتق من الجير ؛ ومطوق بقمم جيرية ، والصحراء العارية ، على كل جانب منه هضبة جيرية ، فوقها أكوام من الرمال تذروها الرياح في معظم الأمكنة .

أميالاً قليلة شمال أسوان ، في جبل سلسلية ، يفسح الجير الطريق للحجر الرملى النوبى البنى - الأصفر الخشن الذى يغطى مساحةً شاسعة للصحراء الشرقية ، ممتداً جنوباً حتى ملتقى النيلين وغرباً عبر ليبيا . ويربض تحت هذا الراسب السطحى ثقيل التعرية مع خفته نسبياً غرانيت أشد صلابة وتكوينات أخرى لصخور القاعدة في كل مكان . وفى مناطق مرفوعة تركيبياً تظهر صخور القاعدة في السطح ، حيثما أجهزت التعرية تماماً على الترسبات القائمة من فوقها ، لربما تبقى حيةً بين فينة وأخرى في جبل صحراوى معزول .



شكل رقم ٤

طبقات الأرض السطحية فى النوبة (مُبسطة)

من الخرطوم إلى أسوان ، تقاطع النيل يتتالى لمناطق الغرانيت ومناطق الحجر الرملى ، كما هو مبين في (الشكل رقم ٤) . هذه الظرفية ترجع جزئياً إلى التوزيع عبر المنتظم للتكوينين ، لكنها بقدر اكبر تعود إلى المجرى الذى لا يمكن التنبؤ به للنهر نفسه فيما يبدو . ينعطف النيل في «أبو حمد » بعد انسياب مستمر نحو الشمال من أصله في المرتفعات الإفريقية الشرقية ، في تغير مفاجئ للجنوب الغربي لـ ١٧٥ ميلاً ، قبل أن يستأنف مجراه المألوف للبحر . إن المنحنى المستحصل المتثنى على شكل «S» يضاعف بالتقريب طول النهر في السودان الشمالى ، وقد لعب دوراً معتبراً في تحديد المصير لمسيرة التاريخ النوبى أما من النواحى الطوبغرافية فإنه يعنى أن النيل ، بعد دخوله منطقة غرانيت بالقرب من مدخل الرافد عطبرة ، يعود إلى حوض من الحجر الرملى بالشلال الرابع . مستأنفاً جريانه صوب الشمال بالدبة ، يدلف إلى منطقة غرانيت ثانية بجوار الشلال الثالث ، قبل أن يخرج مرة أخرى إلى داخل حجر رملى بالشلال الثانى .

كما في كل الصحارى ، حددت التعرية بصورة تكاد تكون مطلقةً ما لصفحة الأرض النوبية من صفة . إن أنماط التعرية المختلفة بشكل ملحوظ للتكوينين ، الحجر الرملى والغرانيت ، هى التى أنتجت الإختلافات الرئيسة في البيئة النوبية . التكوينات البركانية النارية لصخور القاعدة صلبة ومقاومة ، هنا تحل التعرية أساساً على طول الصدوع والشقوق ، والتضاريس السطحية لمناطق الغرانيت واحدة لمضايق وسلاسل تلال من الحجر ، مفصولة بوديان ضيقة ، عميقة . أما حوض النهر فهو ضيق ، منحدر الجنبات ، تتقطعه جزر وشلالات متعددة ، وهنالك إمتدادات أرضية كبيرة الحجم قليلة العدد لتربة غرينية .

ولإبراز الفروق ، فإن الحجر الرملى النوبى ناعم ومتراصف في طبقات أفقية ؛ تصدر التعرية سلسلة من المدرجات الممهدة بشكل أو آخر ، مقاطعةً على فترات ببقايا منعزلة منبسطة الرأس من التكوينات العليا ، وقطعاً من *الوديان* العريضة المنحلة (الصورة ١ ـ ب) . حوض النيل في مناطق الحجر الرملى عريض ومتدفق ، وهنالك سهل فيضى غرينى متواصل بالتقريب ، على الرغم من أنه بوجه عام ليس واحداً عريضاً للغاية ، على طول ضفة واحدة أو كليهما (الصور ١ ـ أ) . وفى مساحات من التضاريس المنخفضة ، أصبحت قنوات مهجورة في النهر حيضاناً إضافية من الطمى المترسب إلى جانب الوادى الرئيس .

على العموم ، يبلغ المتوسط لمعدل تدرج الإنحدار للنيل قدماً واحداً لكل عشرة أميال في مناطق الحجر الرملى ، مقابل قدم واحد لنصف الميل بمناطق الغرانيت . إن التغيير السريع المفاجئ لمعدل التدرج حيث يعبر النيل من تكوين واحد إلى الآخر مسؤول عن معظم شلالات النيل الكبرى . يعلم الشلال الرابع المرور من الغرانيت إلى الحجر الرملى بالقرب من « كريمة » ؛ يناظر الشلال الثالث « بكرمة » عودة دخول النهر إلى داخل الغرانيت ، ويدل الشلال الثانى بوادى حلفا على رجوعه إلى حوض الحجر الرملى مرةً ثانية . كل من الشلالين السادس والأول يرتبطان بنتوءات صخرية منحصرة من الغرانيت في مناطق يسودها الحجر الرملى .

وتقسيمات النوبة الفرعونية وفق التضاريس الطوبغرافية الرئيسة للنوبة ، التى سوف نعتبرها الآن كلاً على حدة ، موسومة هكذا بطريقة عامة (بإستثناء واحد يجدر ذكره) بالشلالات الرئيسة « المرقمة » للنيل . هذه التقسيمات الفرعية في ترتيب وفق إتجاه منبع النهر هى النوبة السفلى ، *بطن الحجر* ، أرض عبرى ـ دلقو النهرية ، أرض دنقلا النهرية ، أرض أبو حمد النهرية ، وأرض شندى النهرية (الشكل رقم ٥) .

النوبة السفلى

تمتد النوبة السفلى من الشلال الأول إلى الشلال الثاني ، وتقع اليوم بأجمعها تقريباً بين حدود مصر . (كونها النوبة الأقرب لسد أسوان ، تكاد تقع كلها تحت الماء ، بحيث أن أي عمارات وصفية حولها يجب أن يعبر عنها بشكل سليم بفعل الماضي) . هذه المنطقة يبرزها ـ بالمغايرة عن الوادى العظيم لمصر الأم ـ نتوء صخرى من الغرانيت آخرج الشلال الأول ، يمنح صفحة الأرض جنوب أسوان الوجه الحائل الذى قمنا بوصفه فيما مضى . إن هذا العرض ـ على وجه التخصيص ـ لصخور القاعدة ، كيفما انتهى ، واحد مقيد جداً ، يمتد في إتجاه الجنوب فحسب إلى أن يبلغ « بوابة كلابشة » ، بعد خمسة وثلاثين ميلاً جنوب أسوان . من هنا إلى الشلال الثاني هنالك فسحة غير مقاطعة وعموماً على استواءٍ للحجر الرملى النوبى ، خلالها شق النهر أخدوداً عريضا ، ضحلاً . بينما السهل الفيضى ليس متصلاً على طول أى من ضفتى النهر ، لكن هنالك رواسب طميّة ممتدة بوجه خاص على مداخل الوديان الأكبر ، التى كانَت فما مضى تدعم تسلسلاً منتظماً من قرى فلاحية صغيرة (الصورة ١ ـ أ) . إن المجرى نفسه عريض ، رائق ، وسهل الملاحة ؛ كل أنواع الحرف النهرية كانت تحاك معاً بين الشلال بأعلى الشلال الأول ، ووادى حلفا ، أسفل الشلال الثانى . هكذا كانت النوبة السفلى ، وهى جغرافياً أقرب إلى مصر ، أيضاً أشد ما تماثلها طوبغرافياً . لا عجب أن هذه المنطقة مفردةً أغرت الإستعمار المصرى ، أو على الأقل الإستغلال المصرى ، خلال معظم تاريخها ، وبذا فإنها مطروحة جانباً ثقافياً وتاريخياً عن بقية النوبة (كما هى كذلك اليوم سياسياً) .

أرضية الوادى في النوبة السفلى منحصرة عموماً بين مرتفعات شديدة الإنحدار تتفاوت علواً من ١٠٠ إلى ٣٠٠ قدم . وبسبب الطبيعة الرخوة للحجر الرملى النوبى ، فإنها قلما تقرب من اتخاذ زاوية رأسية فيما عدا الحالات التى يقوم النيل مباشرةً بقطعها سفلياً . والمرتفعات المنحدرة إلى غرب النيل ، على وجه الدقة ، مبتلعة في محلات كثيرة تحت كثبان هائلة متساقطة من رمال الصحراء الذهبية ، التى يمكن أن تمتد بعيداً إلى ضفة النهر نفسها . ينطلق خارج النيل سطح متموج من الرمل الأصفر العادى إلى الأفق في كل الإتجاهات . ثم إنه يقاطع متعارضاً في هيئة منتظمة من *الوديان* الحافة الرافدة للنيل ؛ محفورة بشكل متعاقب عميقاً إلى باطن الهضبة الجيرية كلما اقتربت من النهر الرئيس ، حتى تظهر في مداخلها كأخاديد جانبية تتفرع بعيداً من أخدود النيل الرئيس . وتعارض إنتظام سطح الصحراء كذلك بقايا منبسطة الرأس من تكوينات أعلى ، تقف في بعض الأحيان *جبالاً* معزولة ؛ وأحياناً أخرى في سلاسل موصولة من المرتفعات شديدة الإنحدار . بالرغم من أن هذه الملامح تفرز سلسلة تلال معينة لما يعد خلافها صفحة أرضية موحدة ، فإنها لا تقترب في أى مكان من مقاييس الجبال الحقيقية ، كما أن أعلى قمم ربما تكون ٥٠٠ قدم فوق أرضية الصحراء المحيطة .

بطن الحجر

الفسحة المسالمة والرخية في إعتدال بالنوبة السفلى تنقطع فجأةً بالشلال الثانى للنيل ، للجنوب من وادى حلفا مباشرة . بل إن وجه النهر وصفحة الأرض هنا أشد إنفلاتاً مما يقدمه الشلال الأول . فعلى مسافة إثنى عشر ميلاً تعترض سير النيل مئات من الجزر الصغيرة وصخور الغرانيت المتلألئة، فينحرف إنسيابه الجليل المعتاد إلى متاهةٍ من قنوات سريعة وجنادل متهاوية . وتعد الملاحة في إتجاه مجرى النهر جنوباً بمركب شراعى أو بخارى مستحيلة ؛ إذ لا يمكن أن تُجّر القوارب خلالها إلاّ بأعظم مخاطرة من ناحية الضفاف ، ولا يجرى ذلك إلا أثناء أعلى موسم لفيضان النيل ..

تمتد صوب الجنوب لمائة ميل من الشلال الثانى رقعة *بطن الحجر* " نواة الصخر " ، أكثر قحولةً وحيلولةً من بين كل البيئات النوبية . هنا يمكننا بصعوبة أن نفرق بين الشاطئ والصحراء ،

حيث أنهما متماثلان في أماكن عديدة . إن صفحة الأرض المضطرمة سلاسل تلال وأخاديد غرانيتية جرداء تشخص هذا الجزء من النوبة من ضفة النهر نفسها ؛ والراسب الغرينى ليس كسهل فيضى مستمر ، لكنه يكون جيوباً وجداول محرزة ليس إلا . حقولاً وقتية صغيرة تحتضن الضفاف حيثما توفرت مثل تلك التربة ، وخلال اشرطة طويلة لا يشاهد نبات طبيعى أو مزروع . فالمجرى الضيق وضفاف النهر المنحدرة تجعل الزراعة صعبة ولو وجدت رواسب الغرين ، بسبب الفوارق الأقصى بين مستويات النيل العالية والمنخفضة . وفى إرتخاء الموسم ربما يصير سطح المجرى خمسين قدماً أو أشد إنخفاضاً أسفل الحقول المجاورة منذراً بإستحالة عملية الزراعة في هذه الأحوال من غير عون الرافعات الحديثة .

فى كافة جنبات *بطن الحجر* ليس النيل ضيقاً وحسب لكنه سريع . وخلال موسم إنخفاض المياه في «سمنه» يعتصر إنسياب النهر على إطلاقه خلال « أنبوبة » يصعب أن تتعدى ١٠٠ قدم في عرضها ، وثمة أماكن جمة أخرى ليست بأوسع عرضاً . الجزر والمخاضات لا حصر لها ؛ وتتكسر مجرى النيل سلاسل منحدرات كبيرة عشر مرات كل ١٠٠ ميل . الملاحة طول المدى ، لا سيما ضد التيار (أى من مصر إلى النوبة) ، مستحيلة في موسم إنخفاض الماء وصعبة ومحفوفة بالمخاطر في أفضل الأوقات . التجارة والسفر عبر هذه المنطقة أغلبه كان تفضيلاً لمشاق الضفة على عسرة النهر .

لا غرو ، إذن أن *بطن الحجر* أخفقت في جذب الإستعمار المصرى ، ولأجيال خدمت كدروع يُتاح لثقافات النوبة العليا وراءها أن تتطور بنهجها الخاص . دام ذلك لأكثر من ألف عام بعد التغلغل المصرى الأول قبل بذل أى جهد لإستغلال الأرض فيما وراء الشلال الثانى ، وحتى حينها كانت السيطرة السياسية المباشرة للفراعنة قصيرة الأجل . أنشأ إختراق " الستار الغرانيتى " مع ذلك ، صلةً ثقافية بين سكان النوبة العليا وسكان مصر ، جَسَّدت نفوذاً بالغاً في مسيرة التاريخ النوبى مذّاك الوقت وما أعقبه .

فى قرون متأخرة ، أصبحت طبيعة *بطن الحجر* غير المنتجة حاجزاً بدورها للتوسع الشمالى للثقافة الإسلامية ، التى كانت قد أُدخلت ونشرت مبدئياً من بدو رعاة . لقد كانت منطقة الشلال الصخرى ، بخلاف المناطق ذات الخصوبة والرخاء في إتجاه الجنوب ، هى التى صَمَدَ بها فيما يبدو آخر الفلاحين النوبيين المسيحيين أمام مدّ الإسلام .

بعيداً عن حافة النهر ، وصف وجه *بطن الحجر* بأنه « قمرى » . إن إستطلاعات حديثة الوقوع ربما ألقت الشك على سلامة هذا التشبيه ، غير أن المنطقة تتقاسم بالتأكيد مع السطح القمرى مظهراً لإنعدام الحياة وفقدان الشكل نحو ما يوجد في اماكن قليلة على الأرض . إنها ليست بحراً من الرمل، مثل صحاى مصر والنوبة السفلى ، ولا صحراء جبلية مثل صحارى آسيا وأمريكا . إنها تبدو، على الأرجح ، مزيجاً متلبكاً لا رسم له من الجلمود ، سلاسل التلال ، أصابع الصخر ، ووديانا حادة ، دونما أى علامات مميزة . فوق مساحات شاسعة لا يعدو النتوء الأقصى مائتى أو ثلثمائة قدم إلا فيما ندر ، ورغم ذلك فإن الفضاء المستوى قليل بحق .

تعكس الصور الفوتغرافية الجوية خروجاً صارخاً عن المألوف في *بطن الحجر* . نتوء التضاريس السطحية ليست أقل ظهوراً وحدةً غرب النيل عنها إلى شرقه ، ولكن اللون السائد لسطح الأرض أخف بشكل ملحوظ . إن كلاً من الظرفين نتج من الحقيقة القائلة أنه في كل النوبة تهب الريح من الشمال كأنها في تواصل ، في حين أن مجرى النيل في *بطن الحجر* يتجه من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى . تحمل الرياح الجنوبية ، وهى تعرى في وضع مقيم هضبة الحجر الرملى العارية بالنوبة السفلى ، حملاً ثقيلاً من الرمال الغليظة الصفراء في الإتجاه الجنوبى ، لتغمر معظم *الوديان* والمساحات الممهدة إلى شمال النهر وغربه . وبين ثنايا هذا البحر الأصفر تبرز سلاسل تلال وعقد

غرانيتية معزولة ؛ أطرافها الجنبية تعلّمها كثبانٌ ساحبةٌ ضخمةٌ ، أميالاً في الطول.

بما أن الرمل النوبى الثقيل ينتقل بالتدحرج بدلاً من التحليق في الهواء ، فإن حاجز النيل المائى يحول دون انتشاره الإضافى جنوباً بما يعادل الطريقة التى يمنع بها جهاز إطفاء الحريق إنتشار النار . بذلك فإنه ليست ضفة النهر الشرقية وحدها (أى الجنوب الشرقى) خاليةً من الغطاء الرملى ، الذى ابتلع قدراً معتبراً من الشفة الغربية ، إنما كذلك كل جزائرها . إن لونها السائد هو الرمادى حالك الغرانيت ، يتناثر هنا وهنالك سهولاً صلصالية مترسبة .

يعتنق درب المركبات الحديث عبر *بطن الحجر* (طريقاً ، بالمجاملة) الضفة الشرقية للنيل قبل مقدم الحركة الدائرة بالعجلات ، يتبع خطاً لسكة حديدٍ عسكرية [المنشأ] قصيرةَ الأجل . مع ذلك ، وجد المسافرون بالبر سيراً أيسر على الرمل منه على الصخر فيما يظهر ، حيث ظلت الضفة الغربية تاريخياً هى طريق القوافل الرئيس على طول النيل . (ولا يزال مُتّبعاً من الاف الإبل التى تساق سنوياً نحو الشمال من غرب السودان إلى مصر للذبح) . ليس بالمصادفة وحدها ، في ما هو محتمل ، بناءاً عليه ، أن أغلب البقايا الأثرية الكبرى في كلٍ من النوبة السفلى *وبطن الحجر* موجودة على الضفة الغربية للنيل . (على سبيل الإيضاح ، تسبّب الغطاء الرملى أغلب الأمر في أفضل ما تم من حفظٍ للبقايا الأثرية على الضفة الغربية) .

أرض عبرى ـ دلقو النهرية

لعل شلال دال ، حوالى ١٠٠ ميل جنوب وادى حلفا ، يؤدى في أريحية دوره كمُعْلّم على الحد الجنوبى *لبطن الحجر* . إن رقعة وادى النيل بين هذه النقطة وبين الشلال الثالث (كرمة) ، مسافة ١٢٠ ميلاً ، تقدم شيئاً خارجاً عن العادة . إنها الإستثناء الوحيد للنمط العام من مناطق الغرانيت العارية التى تُتَبَادل مع مناطق حجرٍ رملى أغزر إنتاجاً . وفى أرض عبرى ـ دلقو النهرية لا تزال صخور القاعدة تحت الأرض مكشوفةً في السطح ، لكنها تأخذ تضاريس سطحية ذات سمة مختلفة للغاية عن *بطن الحجر* المجاورة . إن مُتشابك التلال والوديان يُزاح جانباً لأطرافٍ غليظة مستديرة طويلة ، معزولة ، مفصولة بسهول صلصالية عريضة . هنا كما في أى مكان ، السهول مدفونة إلى غرب النهر بقدر واسع تحت رمل أصفر . إن أطول قمم ، في منطقة فركة ، تعلو أكثر من ١٫٠٠٠ قدم فوق القطر المحيط ؛ هذا هو الجزء الوحيد من وادى النيل بين الخرطوم والبحر الذى به شئ مثل وجه جبلى . مع هذا ، فإن متوسط معدل إنحدار النهر بين كرمة ودال أقل من أى مكان آخر في النوبة (الشكل رقم ٦) . ولا تُسبب الملاحة إشكالاً للمراكب الصغيرة ، بالرغم من بعض الجنادل الصغرى .

في كثرة من أرض عبرى ـ دلقو النهرية ، كما في أرض دنقلا النهرية إلى الجنوب ، ما من مرتفعات شديدة لتوسم الحدود بين وادى النهر والصحراء . إن رواسب التربة النهرية الغرينية المزروعة تفسح المجال لمنحدرات حصباوية متدحرجة ، أو لكثبان على الضفة الغربية ، دونما أى نهوض حاد في المرتفع . ومع أن السهل الفيضى ، مُعَارَضاً هنا وهناك بجبالٍ في طرف النهر ، فإنه عريض ومزروع بكثافة في أماكن غفيرة ، على وجه الدقة في الضفة الشرقية ، حيث يكون خاليا من الرمل . ويدعم الجزء الشمالى من هذه المنطقة ، بالقرب من المركز الإدارى لعبرى ما يقرب من صفٍ متوالٍ من القرى الفلاحية المأهولة بالسكان .

ولابد أن المناظر العريضة والنهر المنفتح لأرض عبرى ـ دلقو النهرية كانت ترحاباً لأولئك الذين عبروا سلاسل التلال *ببطن الحجر* . وربما لهذا السبب ، شَيّد فاتحو النوبة المصريين معابد وصروحاً أخرى بين عبرى وكرمة أكثر من أى منطقة مقارنة بها في النوبة العليا . في هذا وجوانب أخرى كثيرة ، تشكل أرض عبرى ـ دلقو النهرية بصفاء إمتداداً لأرض دنقلا النهرية إلى الجنوب ،

وليس *لبطن الحجر* صوب الشمال ، على الرغم من قربها الجيولوجي اللصيق بالأخيرة . ربما يمكننا لذلك أن نعتبر شلال دال ، على الحد الشمالي من أرض عبري - دلقو النهرية ، التخوم الحقيقة للنوبة العليا ، تاركين *بطن الحجر* كنوع من أرضٍ إنتقالية بلا صاحبٍ لا تنتمي على نحو سليم لأي من النوبة العُليا أو النوبة السُفلى .

أرض دنقلا النهرية

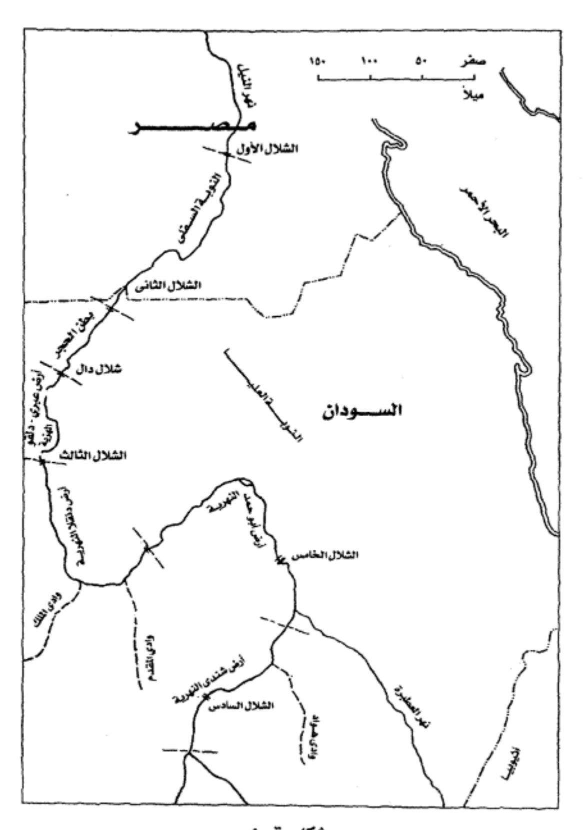
تمتد هذه لأكثر من ٢٠٠ ميلاً ، من الشلال الثالث إلى الرابع ، وتغطي النصف الغربي من منحنى التثنى «S» العظيم على طول النيل الأوسط . هنا يكون السطح مرة ثانية الحجر الرملي ، إلا أن المرتفعات الشديدة والكتل المستديرة للنوبة السفلى غائبة . والحقيقة ، أن التضاريس الأرضية في أرض دنقلا النهرية ، كما في غَلَبَةٍ من الأرض الممدودة بعيداً إلى الجنوب ، تكاد تكون بلا ملامح . لا تعيقها كثبان ، وتمتد الأرض المهيأة للزراعة ميلاً أو أكثر على كل جانبٍ للنهر . هنالك إضافة إلى ذلك أحواض مغمورة كبيرة ، مثل التي بكرمة والتي تمثل حياضاً مهجورةً للنيل لا تزال صالحة للزراعة الموسعة .

في أغلب الأحيان ، لا يبدو الخط الفاصل بين الوادي والصحراء للعيان إلا كفارقٍ ما بين الأخضر والأصفر البني . تبدأ الصحراء حيثما تتوقف الفلاحة . وهو توقف يعتمد ، في معظم الحالات، على محددات طوبغرافية مطلقة بمستوىً اقل مما يعتمد على حدود الطموح والبراعم البشرية . آلاف الأفدنة التي أضحت صحراء الآن كانت مزروعة زماناً أو آخر في الماضي : والخطوط التمهيدية للحقول والقنوات لا تزال مرئيةً بصفاء في الصورة الفوتغرافية الجوية .

هذه المناطق الطوبغرافية النوبية التي تعد أقل إستعطافاً للبصر هي إلى جانب تلك الأشد إنتاجاً بهامشٍ معتبر . وما الطمي الراسب أبعد إمتداداً وتواصلاً غير منقطع هنا بأعلى من أي مكان آخر ، لكنها إضافةً إلى ما تقدم الجزء الوحيد من النوبة الذي بوسعه أن يستند إلى فيضان مستوى للنيل شبيه بالذي أغنى تربة مصر السفلى لآلاف السنين . فوق هذه الإعتبارات ، النهر نفسه عريض ، رابض ، وصالح للملاحة دونما تعويق من الشلال الثالث إلى الرابع . لا تزال الحركة التجارية في أرض دنقلا النهرية بالتقريب تتحرك بالباخرة النيلية والقارب الشراعي في الوقت الحاضر .

وبما لا دهشة فيه ، صارت أرض دنقلا النهرية بمضي الزمن قلب النوبة القديمة : مصدر أغلب رخائها ومهد حضارتها الأصلية الأولى . وبالرغم من أن الفاتحين والمستعمرين استوطنوا في النوبة السفلى في ظل الدولتين القديمة والوسطى ، فلم يتخذ غرس الحضارة بحق جذراً جنوبي أسوان حتى حلول الوقت الذي أُضيفت إليه أرض دنقلا النهرية لأملاكهم . وفي قرون متأخرة ، إلى جوار الطرف الأعلى من أرض دنقلا النهرية أنشأ أعاظم الملوك النوبيين كرسيّ قوتهم الذاتية ، ومن هنا ركبوا حروب الفتح التي جعلتهم فراعنةً لمصر زماناً بالمثل . هنا أيضاً نُصِّبت مملكة « المقرة » العظيمة بالقرون الوسطى عاصمتها ، في المدينة التي أسبغَت على المنطقة إسمها .

بدخول أرض دنقلا النهرية من الشمال ، نجتاز ما وراء حزام الصحراء الخالي على إطلاقه من هطول الأمطار . وتسجّل مدينة دنقلا الحديثة حوالي بوصة واحدة من نزول المطر سنوياً في أشهر منتصف الصيف (الشكل رقم ٧) . ومع أن هذا التساقط الكسول ليس بذي أثرٍ في الصحراء العارية ، فإنه يدعم نمواً للنبات يتوسط على طول الوديان الضحلة العريضة التي تتموج فوق أسطحها . تلتحق بأشجار السنط الشوكية ، القرمة ، بعد الانسياب السطحي للمياه في الصيف ، نِسَباً مقدرة من العشب . من هنا لا يُحتاج تِرحالٌ صوب الجنوب بأي مدى لأن يحتضن ضفاف النيل - بوجه دقيق منذ إدخال الجمل في الـ ٢٫٥٠٠ عام الأخيرة . تعبر الدروب البّرية أرض السهل للجنوب الشرقي



شكل رقم ٥
تقسيمات التضاريس السطحية فى النوبة

والجنوب الغربي من أرض دنقلا النهرية ، ينضم واحد للنيل في إتجاه منبعه ، والثاني يقود المسافة للمراعي العظيمة في غرب السودان وما وراءه . فوق هذه الدروب لم تأتِ القوافل التجارية وحدها إنما أيضاً البدو الغزاة ، الذين لعبوا دوراً متقطع الحدوث لكنه هامٌ في تاريخ النوبة العليا ، ولا يزالون يظهرون إلى اليوم بإنتظامٍ على طول ضفاف النيل .

أرض « أبو حمد » النهرية

يدل الشلال الرابع ، بالقرب من كريمة ، علي حد أرض دنقلا النهرية الخصبة . وللنصف الأول من الفترة التاريخية يُوسَم أيضاً ، إلى المدى الذى تذهب إليه معرفتنا ، حدّ النوبة نفسها . وراء منطقة أخرى من الغرانيت العارى الذى وإن كان طوبغرافيا أقل وعورةً من *بطن الحجر* ، فإنه قطعاً ليس أكثر إنتاجاً . إنه اليوم أقل رقعةً مأهولة بالسكان للنيل بين الخرطوم والبحر ، ويُستَخدم بنفس القدر للرعى كما للفلاحة .

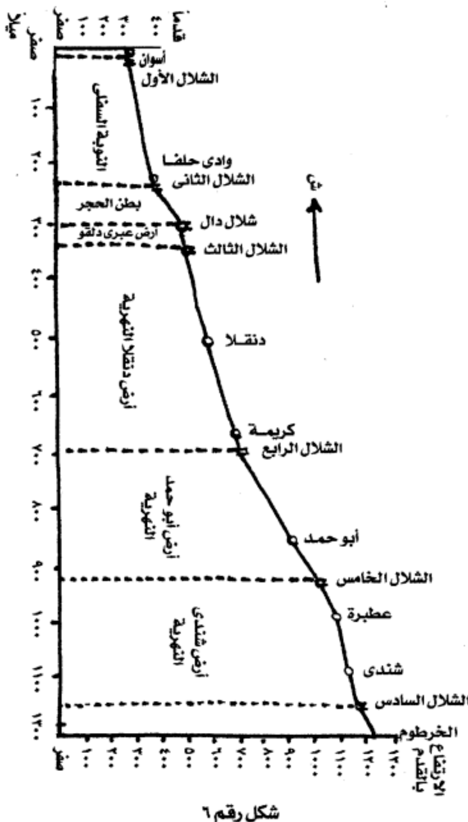
فى أرض « أبو حمد » النهرية ، كما في كل مناطق الغرانيت ، يعطِّل مجرى النيل بالشلالات ، وضحالةٍ ، وجزرٍ لا عدد لها . هنا ، مع هذا ، أضافت أحداث الجغرافيا حائلاً للملاحة . فمجرى النهر الجنوبى نحوَ الغرب بين «أبو حمد » و «الدبة » يعنى أنه في هذه المنطقة ، وبها وحدها ، إتجاه الريح والتيار السائد شئ واحد . ليست الممارسة العادية للحركة النيلية صوب الجنوب والإنسياق شمالاً بإمكانيةٍ عملية في أرض « أبو حمد» النهرية وربما يكون الترحال صوب الشمال سريعاً بحق ، بيد أن الملاحة دون وسيلة قوية ناحية الجنوب لا يُسأل عنها عادة .

لئن حال الشلال الثانى دون الإنتشار الجنوبى للقوة المصرية لألف عام ، فإن الشلال الرابع كان له أثر مماثل في الألف التالية . حقاً لم تمتد السيطرة المصرية التامة أبداً وراء أرض دنقلا النهرية ، وما جرى غرسٌ لحضارة نبتة المتمصرة نهاية الأمر بأرض شندى الخصبة ، فوق الشلال الخامس ، حتى حوالى ٥٠٠ قبل الميلاد . في قرون العصر المروى (تقريبا ٣٠٠ ق . م. إلى ٣٠٠ م) ، مع ذلك ، فاقت ثروة المنطقة الجنوبية وقوتها ما كان بأرض دنقلا النهرية نفسها .

إنها حقيقة موحية أن هنالك صروحاً مروية أخاذة في أرض شندى النهرية وأرض دنقلا النهرية (مثلما هو كائن في أرض عبرى - دلقو النهرية) ، على أنه ما من شئ بالمرة في أرض « أبو حمد » النهرية الداخلة بينهما . لم يتبع النهر سبيل الترحل بين المنطقتين مطلقاً بكل الإحتمالات ، لكنه اتخذ طريق القوافل الراهنة اليوم عبر سهل بيوضة . فإذا كان الأمر كذلك فإن انتشار الحضارة وراء الشلال الرابع فيما هو مفترض كان عليه أن يلبث منتظراً لتطور تجارة القوافل البرية ، في القرون الزخيرة قبل الميلاد . ولربما يبين هذا أنه لا تُشَخَّص أرض « أبو حمد » النهرية في أهميةٍ بأى مرحلة للتاريخ النوبى ؛ إنها بالقدر نفسه محرومة من البقايا المهمة من الحضارة النبتية - المروية ومن الفترة المبكرة لممالك القرون الوسطى . إن مآثرها الظاهرة الوحيدة تنتمى إلى عصر الإقطاع العسكرى للقرون الوسطى ، عندما وفرت هذه المساحة ، لجزرها المتعددة التى لا يسهل الوصول إليها ، ملاذاً متقناً لأرباب حرب ضوارٍ .

أرض شندى النهرية

القسم الجنوبى الذى سنختار أن ندعوه النوبة يمتد من حوالى مدخل نهر عطبرة إلى ملتقى النيلين الأزرق والأبيض . وأرض شندى النهرية مماثلة في معظم الوجوه لأرض دنقلا النهرية ، عدا أن صخور الغرانيت ألصق بصخور القاعدة لمدى واسع بالسطح ، تلج خلاله جبالاً متعددة ونتوءات محلية متسعة . ينفرج أكبرها على جانبى النيل أميالاً قليلة شمال الخرطوم ، أخرجت خانق السبلوكة



شكل رقم ٦

رسم جانبى تخطيطى لوادى النيل من الخرطوم إلى أسوان

التكبير الرأسى بمقدار ٢,٤٠٠ مرة

العميق والشلال السادس . وبإستثناء ما بين خانق السبلوكة هنالك تقريباً راسب طميّ متواصل على طول كلٍ من ضفتى النهر ، وقرى الفلاحة متعددة ومأهولة تماماً .

فى أرض شندى النهرية نكون قد دخلنا السودان الحقيقى ـ حزاماً من أرض عشبية شبه صحراوية وأشجار شوكية متناثرة تمتد طوال الطريق عبر إفريقيا جنوب الصحارى . في هذه المنطقة يشكل البدو الرعاة في كثرة بالغة جزءاً من النظر الإنسانى ؛ يعسكرون خلال جزء من كل عام بأعداد كبيرة على طول وادى النيل ، وراء حدود الزراعة بالضبط .

مثل أرض «أبو حمد » النهرية ، ما كانت أرض شندى النهرية مكتشفةً إلا بمستوى غير مكتملٍ من علماء الآثار . مع ذلك ، فإنها تحتوى عدداً من مواقع لصروح هامة ومشهورة كانت موضع تحقيق مبعثر منذ بداية القرن العشرين . كلّ من هذه المواقع المعلومة حتى الآن يبدأ تاريخها إما من الفترات النبتية المتأخرة والمَروية (بالتقريب ٥٠٠ ق . م . إلى ٣٠٠ م) أو من الفترة المسيحية الأخيرة (تقريباً ١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ م) ، وجميعها قائم إلى الشرق من النيل . إن مروى لمدىً متقدم هى الأشد إشتهاراً ، كان اسمها معروفاً لنا من كتابات هيرودوتس وسْترابو قبل وقت طويل من اكتشاف موقعها الفعلى ، وقد أعطت إسمها للثقافة المروية . هنالك مدائن مروية خَرِبة أخرى ، بعضها لا يزال غير منقب ، ليس فقط على ضفاف النيل ؛ وإنما على أرض المؤخرة الجافة بين وديان النيل والعطبرة ـ ما يسمى بـ "جزيرة مروى" . (وهى ليست جزيرة بالفعل لكنها سهل عريض محاط من ثلاثة جوانب بالأنهار) .

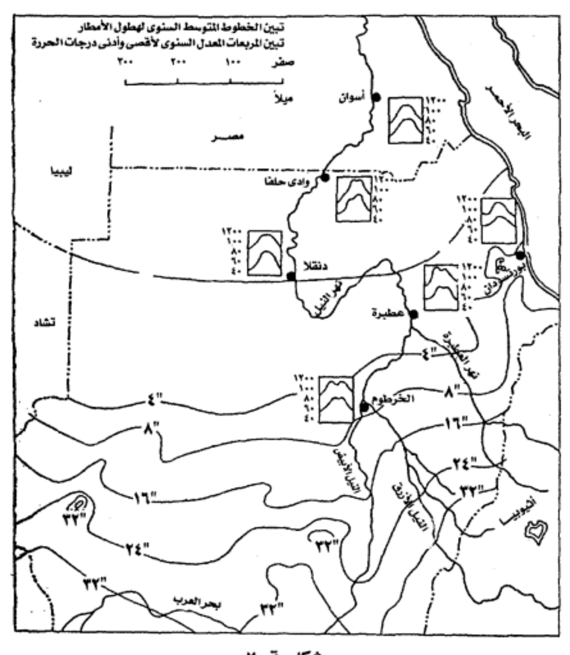
حتى هذه الأثناء ما من مواقع أثرية معلومة في الضفة الغربية للنيل ، وقد اكْتُشِفت بضعة مدافن مَرَوية معزولة وحيدة في إتجاه الجنوب من الخرطوم . مع ذلك ، ربما لا يعكس هذا شيئاً أكثر من غياب الكشف الأثرى السليم . نبقى على جهلٍ في الوقت الراهن بالحدود النهائية التى تغلغلت إليها الثقافة المتمصرة إلى داخل إفريقيا ؛ ويمكننا أن نقول شيئاً واحداً إن المعرفة الأثرية والتاريخية المنسقة خطةً وإجراء تقف عند حد ملتقى النيلين (الخرطوم الحديثة) . يمكننا ، لذلك ، أن نأخذ هذه النقطة كحدٍ جنوبى للنوبة ، دونما استبعاد لإمكانية أنه قد يسعنا الأمل يوماً لأن نشمل مساحاتٍ لا تزال بعيدة إلى الجنوب .

المنـــــاخ

" تتمتع " النوبة ، إن كانت تلك هى الكلمة السليمة ، بواحدٍ من أشد المناخات تطرفاً على ظهر الأرض . في وادى حلفا ، على الحدود بين النوبة السفلى والعليا ، متوسط الحرارة اليومى من مايو إلى سبتمبر حوالى ٩٠ درجة ؛ ويزيد الإرتفاع اليومى تقريباً عن ١٠٠ درجة ، وربما يبلغ فوق ١٢٠ درجة (الشكل رقم ٧) . الشتاء ، من نوفمبر إلى مارس، معتدل ، بمتوسط حرارة يومية بين ٦٠ و ٧٠ درجة ، ونوبات البرد العرضية تتناوب عندما يسقط مقياس الحرارة بالتقريب إلى درجة التجمد [٥] .

يخفف آثار حرارة الصيف نوعاً ما غياب الرطوبة . والنصف الشمالى من النوبة – من أسوان إلى دنقلا – لا مطر فيه لكل الأغراض العملية . يسقط الرشاش لفترة دقائق قليلة محلياً بشكلٍ مبعثر في الشتاء والصيف ، ربما ينقضى جيل قبل أن يهطل المطر ثانية بنفس الموقع . والرطوبة قلما تتعدى ٢٠ في المائة في الشتاء ، و ١٥ في المائة في الصيف .

يلاقى جنوب دنقلا نظاماً مختلفاً نوعاً ما . يوجد موسم " مطرى " حسن التعريف من ثمانية إلى عشرة أسابيع ، في يوليو وأغسطس . وحجم النزول الحقيقى صغير ، يتزايد كلما ذهب الواحد صوب الجنوب من حوالى بوصفه في دنقلا إلى سبع بوصات في الخرطوم . مع هذا ، فإن الأجواء القائمة دائماً والرطوبة العالية ، بالنهار والليل معاً ، تضيف إضافةً عظيمة لتنغيص موسم الصيف .



شكل رقم ٧

المناخ فى النوبة ووسط السودان

كما أن الفترة الحارة الخانقة ، التى تعقب الأمطار مباشرةً غير سارة على وجه التدقيق .

وتُعدّ الريح مكدّراً آخر دائم الحدوث في البيئة النوبية . فعلى كل الصحراء الشرقية تهب الرياح من الشمال طوال العام ويندر أن يتفاوت إتجاهها أعلى من ٤٥ درجة . وتبرز كثبان هائلة متدحرجة على جوانب نتوءات الصحراء المحمية من الريح ، متجهةً بالفعل إلى الجنوب ، تشهد بقوة الرياح واتجاهها الثابت على السواء . إن ريحاً وطيدة بسرعة ١٠ إلى ١٥ ميلاً في الساعة من الأمور المعتادة ، بيد أن عواصف شديدة تصل إلى مدى ٥٠ ميلاً في الساعة تهب على الأقل مرةً في الشهر ، وتكثر الأحيان التى تزاول في خلالها في المرة الواحدة يومين أو ثلاثة أيام . تلتقط الرياح العابرة حوضَ النيل حمولة من الرمل النهرى الدقيق والطمى المسحوق سرعان ما تتساقط على أى واحد وأى شئ على طول ضفة النهر الشرقية (الجانب المحمى من الريح) . وتجلب رياح الشتاء كتلاً من الهواء البارد من باطن الصحراء ، وبإمكانها أن تجعل الحياة غير مريحة بما يدعو للدهشة في المساكن النوبية الكبيرة غير المغطاة ، غير المكيفة . أما رياح الصيف فهى أوسع رحابة ، لأنها بشكل عام تُعْلِم عن حلول تيار منعش . في معظم الأحيان ، تكون أنواء طقس الشتاء مكروهةً من النوبيين لأنها أشد من تطرف الصيف ؛ والمطر على وجه التخصيص يرتعبون منه بسبب الضرر الذى يلحقه بمنازل الطين وبناءات أخرى .

طوال العام ، يجرى الطقس النوبى في دوائر مقدارها أسبوع أو أسبوعين مُدةً . وتصبح نوبة معتدلة في الشتاء ، أو حارة في الصيف ، أشد دفئاً في كل يوم تالٍ حتى تتوقف فجأة بزوبعة للريح خارجة من الشمال . تثابر الرياح العاصفة ، القوية ، يومين أو ثلاثة ، ثم تسكن . فيوماً أو يومين من الطقس المعتدل الهادئ نسبياً ، يتبعه إنعطاف ثانٍ دافئ عندما تبدأ الدائرة ثانية .

ظلت الرياح السائدة عاملاً نشطاً وهاماً في البيئة النوبية في كافة جنبات التاريخ . في الجانب المفيد ، تجعل من الممكن الملاحة على النيل نحو الجنوب ولو في وجه تيار عنيف . على طول النهر العظيم فما عدا المنحنى المعكوس ما بين أبو حمد والدبة يتعاكس إتجاه التيّار مع مهب الرياح ، بذا يعين على الملاحة في كلٍ من الإتجاهين . وفي مناطق الشلال تظل النسمة السارية ضرورية لعبور النهر ؛ فدونها تصبح المركبة غير العملية (النُـقُر) المستخدمة في النوبة العليا تحت رحمة التيار ، عُرضة لأن تدفع إلى حيث المخاضات والجنادل . لذا تتوقف كل الحركة النهرية بهذه المناطق في الأيام النادرة نسبياً التى تسكن فيها الرياح .

الآثار المؤذية للريح يمكن أن تُشاهد في الإطباق الدائم للكثبان على الأراضى الزراعية ، وبوجه الدقة في إتجاه الريح على الضفة الغربية للنيل . ليست الحقول وحدها ، إنما البيوت بالمثل تُبتلع مرات عديدة ، وذلك لأن أى بناء لا يشيد على موقع محمى يبدأ في الحال تراكم الكثبان على طول جانبه الشمالى والغربى . وفى النهاية ، فإن وزن الرمل المنقول في مواجهة حيطان الطين غير المدعومة يجعل المساكن خطرةً للغاية مع استمرار الإقامة . ونتج عن هجرة الكثبان التخلى عن قرىً كثيرة جداً ، علاوة على أرض مفلوحة كبيرة ، في الماضى القريب . هذه العملية المبتلية للسكان ، هى بالطبع منفعة لعالم الآثار ، لأنها تعنى أن البقايا القديمة على الضفة الغربية للنيل محفوظة أجود حفظ بمستوىً غير عادى أكثر الأحيان . إن المنازل تكون مدفونةً في بعض المرات حتى رؤوس سقوفها قبل أن تؤدى الريح مع الزمان عملها في التعرية . إضافةً إلى ذلك ، فإن الضرورة اللازمة للصيانة وإعادة البناء تجعل طبقات المواقع السكانية على الدوام متماسكة جلية في روعة .

كان مناخ النوبة الغليظ المستحكم رادعاً بلا شك لمعظم الغرباء . وبينما أنه لم يحم المنطقة من الغزو المتكرر ، يمكن أن يكون في جزء مسؤولاً عن المدة القصيرة لمعظم الإحتلالات الأجنبية نسبياً ، وانعدام الإستعمار الدائم . ومن جانب آخر لم يكن المناخ النوبى مؤذياً بأى معنىً مطلق للإستيطان أو الإنتاجية ، أو هاماً للغاية بنفس القدر لهما . إنه النيل ، ناهضاً بمرتفعات من مسافة ٢٫٠٠٠ ميل

بالجنوب البعيد ، الذى يجئ بكل من الماء والتربة الضروريين للحياة في النوبة . ما من شئ مطلوب من البيئة المحلية سوى موسم تام من الطول بما يكفى للإنتفاع من هذه المصادر الدخيلة . لا النوبة ولا مصر يسهمان بنقطة من الماء للنيل ، ولا بفدانٍ من ترابهما لضفافه .

إذا كان النيل هو القسمة الرئيسة للمرأى النوبى ، فإنه لا يعد واحداً غير متبدل بأى حال من الأحوال . إن التضارب السنوى في الحجم بين موسم إنخفاض الماء وموسم الماء العالى هائل ، يبلغ في الحقيقة زيادة تربو على ١٠٠٠ر١ بالمائة . الحد الأدنى المألوف لحوالى ٦٠ مليون قدم مكعب في اليوم يُبلغ في مستهل مايو ؛ ويرتفع هذا لما يقرب من ٨٠٠ مليون قدم مكعب في اليوم بداية سبتمبر[٦].

إن إرتفاع النيل وانخفاضه ، مُجدِّداً بالطمى في كل عام مساحات كبيرة الإتساع من الأرض أمرٌ معروف ، وقد استُخْدِم كقاعدة لواحدٍ من أقدم تقاويم التاريخ . بصرف النظر عن ذلك ، فإن النظام الطبيعى للنيل زائغ في جوانب كثيرة . وفقاً لفيركوتر ،

.... في حال كان الفيضان نافعاً لمصر ، يمكنه أن يصير كذلك بلاء . حيث ارتفاع النيل مفاجئ ، حاد ؛ فإذا تُرك لنفسه يقتلع التيار العاتى كل شئ يعترض مجراه . والأهم من كل شئ ، أن الفيضان لا يمكن الإعتماد عليه بالمرة : صحيح ، أنه يصل كل عام ، لكنه لا يمكن الإعتماد عليه . ثلاث مرات من بين كل عشر مرات يكاد لا يرفد كمية الماء الضرورية للزراعة . وفى السبع الباقية يجئ قليلاً جداً أو وفيراً للغاية [٧] .

إن « السنوات السبع السمان والسبع الضعاف » في زمن يوسف [٨] هى أشهر حالة للتقلب غير المتوقع للنيل ، غير أن سرد الأب اليسوعى " جيرونيمو لوبو " يُجَسد الحالة نفسها من عدم الإستيقان بالقرن السابع عشر من عصرنا . متحدثاً عن المقياس بالقاهرة حيث كان جريان النيل يُقاس سنوياً ، كتب :

على أسوار هذا البرج ، من السفح فأعلى ، وضعت علامات أو درجات ؛ وطبقاً للعادة القديمة ، كلما غُطيت كثرةٌ أو قلةٌ من هذه بالماء ، يوعز القضاة بإعلانها على الملأ كل ليلة في الشوارع ، ومعرفة الدرجات التى فاضها النيل في ذلك اليوم قد تصبح عامة . يبدأ هذا الإعلان في نهاية يوليو ، ويتواصل في اغسطس كله ، عندما يكون ارتفاع أو إنخفاض النهر على وجه الدقة مراقباً بالدرجات ، وهكذا تخمّن وفرة العام . وعندما لا يغطى الماء ست عشرة درجة ، ينبئ عجزها عن الخوف من المجاعة ؛ مرتفعةً نحو خمس وعشرين ، كلما صعدت صارت الآمال في موسم مثمر أدعى : فإذا اجتازت ذلك العدد ، تناهبتها مخاوف جديدة من الموت إذ لا يسمح لهم الماء بالزرع ، أو بتخزين حصادهم . ولا تمر هذه الأشهر دون بعض الإضطراب والقلق ، فالطقس في كل مكان يخضع لعدم الإنتظام ، لذا فإن المطر في بعض الأحيان غزير جداً ، وأحياناً أخرى قليل جداً ، مما يدعو لتغيير المحصول [٩] .

عبر آلاف السنين ، أُهِّل النيل المصرى وتم إخضاعه بالمصدات وعمليات التحويل ـ والخزانات ؛ إن العملية لا تزال سائرة اليوم . ويبقى النيل النوبى ، الذى لا يمكن التنبؤ به بنفس القدر ، غير مُطَوع حتى القرن العشرين . وتحيط بالفلاح النوبى إلى اليوم جملةٌ من المتقلبات التى واجهت المصريين في فجر التاريخ .

لا يفيض النيل النوبى في العادة فوق ضفافه ، فيما عدا مناطق مثل لتى وكرمة حيث يمكنه أن ينسكب إلى داخل قنواته المهجورة . إن الفيضانات المتباعدة التى تحدث بالفعل بلاء لا مخفف له ، تجرف المساكن والحقول على السواء . ويقال إن أقرب فيضان عظيم ، في ١٩٤٦ ، دمر ٩٠ بالمائة من بيوت القرى التى تلتف بوادى حلفا .

رغم أن النهر يستطاع عادة أن يحسب بقاؤه بين ضفافه ، فإن الإختلاف في المستوى بين النيل العالى والنيل المنخفض هائل ـ وعلى نحو الدقة في مناطق الغرانيت حيث المجرى ضيق وعميق . تترك الحقول التى تقع في نطاق بضعة أقدام من طرف الماء في موسم الفيضان مرتفعةً وجافةً

بمعنى الكلمة، وفى بعض الأحيان تعلو خمسين قدماً فوق النهر ، في موسم إرتخاء النهر . والرى صعب أو مستحيل حتى بالوسائل البسيطة للقوة الرافعة - إنساناً كانت أم حيواناً - السائدة تقليدياً بوادى النيل . يقدر أن عجلةً لرفع الماء يسوقها ثور (*ساقية*) بوسعها أن تروى أربعة أو خمسة أفدنة في فترة واحدة أثناء موسم إرتفاع الماء ، لكنها لا تتعدى ثلث تلك المساحة في الموسم الأشد إنخفاضاً [١٠] . أما الرافعة بالقوة البشرية (*الشادوف*) فهى بالمقارنة أقل إستخداماً في النوبة ، كما أنها غير ذات إقتدار لرفع ما يكفى لجلب الماء بمعظم أنحاء السهل الفيضى . يلى نقص التربة نفسها ، صعوبة رفع ماء الرى فوق ضفاف النهر العالية ، المنحدرة ، حيث ظلت العامل العمادى الذى يحول دون التنمية الإقتصادية للنوبة طوال التاريخ

ينتقل النيل النوبى من فترة لأخرى فيما بين حوضه الضيق غير مقيد بأرصفة أو تدابير للتحكم في الفيضان . في هذه العملية ، يمكن للراسب الغرينى الشحيح بالمنطقة أن يُعاد توزيعه جزئياً ، بينما تجرف الفيضانات الطمى من إحدى ضفتى النهر ترسبه بعيداً صوب الشمال ، ربما قباله الضفة المواجهة . تُكّون جزائر جديدة من زمن لآخر ، وتَخْفَى الجزر القديمة عندما تجف المجارى التى فصلتها أنفاً عن الضفاف . (جزر متعددة بالطبع جرى فصلها من الأرض الرئيسة في موسم علو الماء وحده) . تتبع هذا بما لا محيص عنه إنتقالات السكان . وإننا لنجد بقايا قرىً كانت ذات مرة مزدهرة حيث لا توجد هنالك اليوم أرض صالحة للزراعة لتدعمها ، أو نجد مساحات من الحقول العريضة وقرىً رخيةً حديثة دون بقايا أثرية .

تحت وطأة هذه الظروف السائدة في أكثر بلاد النوبة ، تعد المعيشة الزراعية هشةً بالضرورة . والإنحدار لبضعة أقدام في مستوى سطح النيل قد يجعل الرى مستحيلاً لمساحات كبيرة ، وربما يأخذ نصف الأرض الصالحة للزراعة أو ما يزيد على ذلك خارج الإنتاج في سنة معينة . بإستطاعة سلسلة من سنوات الفيضان المنخفض أن تخلص بما لا معدى منه إلى نزح سكانى على الإجمال . ولسوف تُرْقَب هذه العملية أكثر من مرة في مسيرة التأريخ النوبى ، إذ أن سقوُط الأمطار في مرتفعات إفريقيا الشرقية كان أبعد ما يكون عن حالة الثبات . إن النوبيين ، وهم محصنّون اقتصادياً من مشاق مناخهم الكائن ، أمسوا بدلاً عن ذلك تحت رحمة تقلبات مناخية آلافاً من الأميال إلى الجنوب .

ويؤثر التقلب السنوى لمستوى النيل كذلك على الملاحة النيلية . من بين الشلالات الثلاثين أو تزيد بين أسوان والخرطوم ، كلها عدا ثلاثة (الأول ، الثانى ، والرابع) يمكن تجاوزها ولو بصعوبة ، إبان إرتفاع النيل . ومع نزول النيل ، رغم ذلك ، تبرز مئات الصخور والضحالات في مناطق الغرانيت ، وتصبح الملاحة لمسافات بعيدة مستحيلة . فالقوارب متعددة اليوم في كل من *بطن الحجر* وأرض أبو حمد النهرية ، لكنها خلال معظم العام لا يمكنها أن تستعمل إلا لعبور النهر .

نعلم من كتابات رسمية أن تبادلاً سلعياً مصرياً موسعاً على ظهر المراكب النهرية إجتاز *بطن الحجر* أثناء الدولتين الوسطى والجديدة . ومالم يكن متوسط إنسياب النيل أعلى بغزارة عما هو عليه اليوم (إمكانية متميزة خلال الدولة الوسطى ، كما سنرى) ، يمكننا أن نطمئن تماماً أن هذه البعثات لابد أنها كانت منحصرة في الأشهر بين يوليو وأكتوبر .

النبـــات

بيولوجياً ، تقسم البيئة النوبية على وجه مهيأ للغاية إلى الحياة في نطاقين : شاطئ النهر والصحراء . إن إلنبات على طول ضفة النهر من الصعب أن يؤثر عليه خط العرض ؛ فهو لكل الأغراض العملية واحد من الخرطوم إلى أسوان . أما الصحراء ، مع ذلك ، فإنها تدعم النبات حيثما استقبلت هطول المطر فحسب . ويصعب أن يُدْعَى شمال دنقلا نطاقاً حياتياً على الإطلاق [١١] .

أشجار النخيل يصح أن تخدم كعلامة تجارية لوادى النيل بأجمعه . من الخرطوم إلى القاهرة ، هنالك محلات قليلة لا يُرى فيها على الأقل جمع من هذه الأشجار مطلاً على النهر . ومع أنها بشكل ملائم شجرة أليفة (ومصدر محصول النوبة النقدى الوحيد) ، تتواجد أشجار النخيل بكثرة وتبدو لما ينالها من رعاية قليلة جزءاً من البيئة الطبيعية . صفوفاً من حقول مزروعة ، أو هُدبة غير نَسِقة على طول النهر ، ولكن في أمكنة غرست كذلك حدائق كثيفة .

تطل نخلة الدوم الصغيرة ، ذات الفروع المنخفضة ، أصلاً بالنوبة والسودان ، وهى أقل وفرة بكثير من أشجار النخيل اليوم ؛ هذه الأشجار تنمو مفردة أو في تجمعات صغيرة ، متناثرة على طول الهامش الصحرواى ؛ وقلما توجد بالقرب من الماء . إن النواة الصلبة ، البيضاء للدوم كانت ذات مرة المادة العمادية التى تستعمل في صنع الزرائر ، ولكنها اليوم لا قيمة لها تجارياً . مع ذلك ، فإن جذع الدوم ، وهو بقدر معتبر أصلب من جذع شجرة النخيل ، يزود المساكن النوبية بأخشاب السقف .

معظم الأشجار الأخرى الموجودة بالنوبة أعضاء لعائلة السنط واسعة الإنتشار ، ومنها تنبت على الأقل ستة أنواع . هذه الأشجار الشوكية ، ذات الأوراق المتباعدة فيما يرجح مبعثرة في حدائق ومرابط مفترحة على طول السهل الفيضى حيث لا تكون الأرض قد جرى تنظيفها للفلاحة . إن قيمتها الأساسية كعلف للأغنام والإبل . أما خشب أغلب السنط شيوعاً فيدعى أكاسيا أرابيكا ، ويعتبر المصدر الأساسى لخشب القوارب ولأبواب المساكن ونوافذها .

تشكل أشجار الطرفاء أجَمات متشابكة غزيرة بمحاذاة النهر شديدة الإنحدار وفى مساحات الكثبان المتجاورة . إن أبسطة من براعم الطرفاء الجديدة تنبثق كل عام تحت مستوى المنسوب العالى للماء مع انحسار النيل ، لتجرف مع التيار ليس إلا ، في موسم الفيضان التالى . وتنمو أشجار عديدة أخرى وشجيرات صغرى بشكل متباعد في النوبة ، على أنه ما من شئ منها يسهم مساهمة ذات أهمية ومعنى للبيئة سواء كان ذلك إقتصادياً أم جمالياً .

وعدا الأشجار ، يكون أغلب النبات الذى يرى على طول ضفاف النيل نباتاً مزروعاً من نوع أو آخر . سوف يوصف هذا في صفحات قادمة (الفصل الثانى) . إن أقساماً غير مزروعة من السهل الفيضى دائماً ما تكون عارية بوجه كلى ، أو أنها لا تدعم إلا شجيرات منخفضة النمو . مع هذا ، فإن عشباً ، خشناً ، مسمارى النتوء ينمو بكثافة على طول الضفاف شديدة الإنحدار لمجارى النهر ، وأينما استطاع أن يجد نداوة غيرها . تهيئ الغروس اليافعة علفاً هاماً للحيوانات الأليفة . بيد أن النبات مكتمل النمو شوكى وغير مأكول .

فى مناطق الشلال بالنوبة ، دغلٌ من سيقان البردى يمكن أن يشاهد على حافة الماء إبان النيل المنخفض . كان هذا النبات مرة على وفرة في محاذاة النهر بطوله ، لكنه الآن اندثر من مصر ومعظم النوبة السفلى حاصلاً للفلاحة المكثفة لواجهة الشواطئ .

يتكون أغلب نبات الصحراء النوبية ، متى توافر وجوداً من أنواع ، وأعشاب خشنة ، وشجيرات ضاوية النمو . أما مداه الذى تدعمه الصحراء فمحكوم في كليته بهطول المطر ، يزداد بالتدريج المستمر من الشمال إلى الجنوب جنباً إلى جنب مع نزول الغيث نفسه . وهضبة الحجر الرملى التى تلاصق النوبة السفلى خالية تماماً من النبات الدائم ، على أن عواصف مطرية محلية تخرج محصولاً قصير الأجل من الغيث في كل مكان تقريباً . وفى جنوب وادى حلفا ، توجد أشجار السنط المتناثرة إضافة إلى رقع من العشب في بعض من الوديان الأكبر *ببطن الحجر* ، وهى تجمع المطر الجارى على سطح الأرضْ من مساحة كبيرة للغاية .

فى أرض دنقلا النهرية ، علاوةً على أرض شندى النهرية ، يمكن أن يوجد تبعثر منظم بشكل حسن للسنط وكذلك رقع موسمية جيدة من العشب في كل وديان الصحراء بالتقريب ، وبمرور الوقت

الذى تبلغ فيه الخرطوم تصبح غطاء متواصلاً فوق أرض السهل إلى شرق النهر وغربه . هنا لا غير ، يعثر البدو على معيشة مؤمّنة ؛ وقد ظلوا عنصراً هاماً في السكان قروناً طويلة .

حيـاة الحيـوان

تصف رسوم الصخر النوبية من العصر الحجرى الحديث والفترات التاريخية الباكرة على قدم المساواة تنوع حيوانات الصيد الكبيرة ، بما في ذلك الفيل ، وحيد القرن ، فرس البحر ، الزراف ، وربما الجاموس . حلّت إقامة بشرية مكثفة مذاك محل كل هذه المخلوقات . ومن الأعضاء الكثيرين لعائلة الوعل البرى الذى صال وجال ذات مرة في وادى النيل الأسفل ، فإن الباقي الوحيد على قيد الحياة اليوم هو غزال تومسون الصغير ، وأفراد منعزلة من هذه الأنواع ربما تُصَادف في وديان الصحراء إلى مدى ثلاثين ميلاً من النيل ؛ إنها تنحدر بالليل لتطعم وتشرب على طول ضفة النهر . ابن آوى ، والثعالب ، والضباع بشكل متكرر ، تقود وجوداً متشابهاً في الخفاء بين الصحراء والزرع . جانباً عن هذه الكوانس آكلة الفضلات ، فإن ذوات الثدى الوحشية الوحيدة الأخرى في النوبة هى القوارض التى تقيم تحت الأرض مصاحبةً للسكنى الإنسانية في كل مكان . أما الحيوانات الأليفة ، وهى جزء هام من الساحة منذ الأزمان المبكرة ، فسوف يناقش وضعها في الفصل القادم .

حياة الطير وافرة في النوبة موسمياً ، وثمة أنواع مهاجرة جمة تتبع وادى النيل . وأغلب دالة مميزة للطيور الكبرى هى الأوز البرى ، الذى دائماً ما يُرى أزواجاً تتهادى فوق سطح الماء مباشرة . الكركى وابن الماء كذلك شائعان على ضفاف النهر . أما الصقور فهى الأكثر تعدداً من كوانس النوبة ؛ إنها تُحلّق عادةً على تُخوم المستوطنات البشرية . والهدهد المخطط في حيويةٍ بالألوان هو الأشد أخذاً من الطيور الصغرى ، يسير وئيداً مزهوا وسط الحقول ، حانياً رأسه باستمرار . أما الغربان والعصافير فإنها تهاجم المساحات المزروعة وتلحق ضرراً فادحاً بمحاصيل الحبوب .

وهناك أكثر من أربعين نوعاً من السمك معروفة في النيل ، كلها مأكولة بالتقريب . وفرخ النيل عالية القدر لنكهتها تفرداً وإنصافاً . تعكس الآثار أن صيد السمك كان في مرة نشاطاً معيشياً نوبياً هاماً ، لكنه على سبيل المقارنة موضع لممارسة قليلة اليوم . وثمة حيوانات مائية أخرى بالنيل ، زواحف مائية كبرى (ورل) وتماسيح ، بالرغم من أن الأخيرة تصبح نادرة شمال الشلال الثالث . ولا تزال تصطاد تجارياً بالجنوب النائى لجلودها .

أما الزواحف البرية فأقل إنتشاراً بمراحلٍ في النوبة عنها بالمناطق الأشد رطوبة إلى الجنوب . هنالك ثعبانان سامان ، الكوبرا والحية ذات القرن ، وثعابين أخرى غير سامة ، لكنها لا تشاهد دائماً . إن الزواحف نادرة بالمثل بإستثناء الوزغ - الضب - المنقط الذى يسكن البيوت ويظهر على حيطان كل مسكن نوبى خلال موسم النمتى (انظر أدناه) .

يجوس الذباب المنزلى حول كل مستوطنة وحظيرة للحيوان ، لكنه ليس بالأعداد الفادحة التى توجد أحياناً في مصر . إن ذبابة (التسى تسى) غائبة مما يدعو للغبطة ، والبعوض لا يمثل إشكالاً ، على أن مكانها ، مع ذلك ، تحتله حشرة أخرى متعلقة بوجه خاص بالنوبة هى (النمتى) . إنها مخلوق طائر قارص ، دقيق ، تحلق أسراباً على طول ضفة النهر في سحب طنانة ، كثيفة أثناء أشهر الربيع من كل عام . والنمتى الأسود ، أو نمتى دنقلا ، الذى يوجد بصورة رئيسة بين الشلالين الرابع والثالث ، له لدغة مُلهبة ، مما يجعل من الضرورى ان تحمى الأجزاء المعرضة من البشرة . وفى قمة إرتفاع موسم النمتى ، يلبس المقيمون في أرض دنقلا النهرية الذين يتوجب عليهم أن يغادروا الأبواب قناعاً من الشاش يشبه جورباً فوق الرأس والرقبة . بعض الدناقلة يجعل من الضرورة غير المبهجة مناسبة لإستعمال الأسطع من المواد الملونة في " قناعات النمتى " كوسيلة إضافية للزينة الشخصية

، بالرغم من أنها تخفى على وجه التمام تقاسيم الوجه .

النمتى الأخضر ، أو نمتى حلفا ، الموجود أساساً في *بطن الحجر* والنوبة السفلى ، يحوم بكثافة أشد من أبناء عمومته السود . بخلاف نمتى دنقلا ، يوجد داخل البيوت بمقدار ما يوجد خارجها فيكون وباء في كل دار نوبية خلال أشهر الربيع . وبالرغم من أنه لا يقرص أو يلسع ، فإن مجاورته تسبب كرد فعل حساسية شديدة لأشخاص عديدين . إعتاد بعض سكان وادى حلفا أن يقيموا في الصحراء ، أميالاً من النهر ، أسابيع عديدة كل عام كيما يتفادوا الآثار الأسوأ للنمتى [١٢] .

والعقرب مقيم آخر غير سار بالنوبة . إنها توجد بشكل رئيس في مناطق الإقامة ، ودائماً ما تصنع مسكنها في شقوق السقف . إن غزو العقارب وحشرات سامة أخرى سبب للتخلى المؤقت أو الدائم عن المنازل . ومما يدعو للسعادة أنه ما من واحد من الأنواع العديدة التى توجد في النوبة يملك لدغة قاتلة . وقرص العقارب ، بخلاف لدغات الثعبان ، ليس سبباً للعناء البالغ بين سكان المنطقة.

البلهارسيا ، أشد إيذاء من أى شكل للحياة ذُكر حتى الآن ، وهى ديدان دقيقة طفيلية على أوعية الدم تسبب فقدان الدم وتتلف الخلايا . " الحمى الزاحفة " ، كما يسمى المرض في الأوساط الشعبية ، ظلت لعنة جانسة في طول وعرض المناطق الحارة ، وربما أنها ليست سائدة في أى مكان أكثر من وادى النيل . إن اليرقة التى تسبب هذه العلة الفتاكة تنشأ في حالة زحف مائى بطئ ، ثم تسبح بحرية في الماء الراكد حتى تجد سانحة لتغزو مجرى الدم الإنسانى ، حيث تبدأ في مهاجمة الكبد وأعضاء أخرى ، ويبدأ هزال تدريجى وتليف عضوى ، قد يتواصل لعشرين عاماً أو تزيد .

لقد قدر أنّ ٥٠ بالمائة من سكان مصر الفلاحين يقاسون من البلهارسيا . والرقم بالنسبة للنوبة يحتمل ألا يكون عالياً ، بسبب جريان النهر السريع وغياب قنوات الرى ، لكن المرض منتشر بما لا شك فيه . والملاريا ، والسل ، والتراكوما أسقام أخرى شائعة في النوبة اليوم .

الموارد الطبيعيـــة

إنتاج النوبة الزراعى المحدود ليس بمقدوره أبداً أن يفعل أكثر من إطعام سكانها أنفسهم . إن الموارد التى كانت المنطقة من أجلها مشتهاةً بموالاة ، ومغزوة مجدداً ، لم تكن ضروريات إنما كانت سلعاً مترفة : الذهب ، والعاج ، والأرقاء . بالرغم من أن شيئاً من هذه السلع لم يتأصل بالضرورة بين حدود النوبة ، فقد كان عليها أن تمر خلالها في طريقها لمصر . وجلبت الحركة في الموارد الطبيعية القليل من البؤس لأهل النوبة قروناً طويلة ، ولكن بمضى الزمن إنقلبوا سماسرة وسطاء ، وكانوا قادرين على اشتقاق ربح معتبر من السمسرة .

وبما يكفى لإثارة الغرابة ، كان النحاس السلعة التى يتضح أنها اجتذبت الأجانب أولاً إلى النوبة . ويبدو أن أقدم مستوطنة مصرية معروفة جنوب أسوان ، في بوهين (بالقرب من الشلال الثانى) كرست لصهر خام النحاس ، الذى كان يشحن وقتئذ عن طريق النهر بالمركب . أما المصدر الفعلى للخام فلم يكتشف أبداً . لربما كان قد نفذ سريعاً ، إذ أن عملية الصهر إستمرت لقرنين فقط [١٣] وربما أنه كان يوجد بعض إنتاج للنحاس بوادى العلاقى [١٤] ، في النوبة السفلى ، ولكن في أغلب تاريخها كانت النوبة مستورداً ولم تكن مُصدِّراً للنحاس والبرونز .

والذهب ، مع ندرته ، هو المعدن الوحيد الذى يوجد في معظم النوبة . تقع جيوب من خامته هنا وهناك في كافة أرجاء المنطقة الشاسعة حيث يَتَبَدى المركب البركانى لصخور القاعدة ، في مصر والسودان معاً . والهضبة الصحراوية من وادى النيل إلى البحر الأحمر مبقعة بعشرات من المناجم

وحفر الإستطلاع المهجورة [١٥] ، إذ كانت للفراعنة شهية شرهة للذهب.

أما الأوفر تعدداً وأشد إنتاجاً من مناجم مصر فكانت ملقاة على طول وادى العلاقى وروافده ، بين النوبة السفلى والبحر الأحمر . إنها تقع في الصحراء بعيداً إلى شرق وادى النيل المأهول ، ولم تكون جزءاً من النوبة ، بيد أن موقفها كان له عبء هام على التاريخ النوبي . بادئ ذى بدء ، ألزمت مصر بأن تسيطر على وادى النيل إلى مبلغ يصل مدخل وادى العلاقى في إتجاه الجنوب ، سبعين ميلاً جنوب أسوان ، كى تُبقى طريق القوافلُ الرئيس مفتوحاً إلى المناجم . ثانياً ، ربما وضعت طلباً مقدراً على النوبة كمصدر للعمل بالمناجم ، بالرغم من أن هذا ليس مثبتاً على التحديد بالمدوّنات التاريخية .

إن عدداً من أعمال الذهب الأقل انتاجاً كانت مبعثرةً في موازاة وادى النيل نفسه ، بصورة رئيسة في *بطن الحجر* . ولدى المصادر المكتوبة النزر اليسير لتذكره عنها بالنظر لما تقوله عن مناجم الصحراء ، لكنها مثبتة إثباتاً جيداً من الناحية الأثرية . يقع تجمع منتج على وجه الدقة من المناجم في دويشات ، جنوب سمنه ؛ وتوالى نشاط التعدين بشكل متباعد حتى أزمان حديثة .

الحجارة النارية دقيقة التعريق منتوجات نوبية غير عضوية هامة أخرى في الأزمان القديمة . وكان غرانيت أسوان الوردى ، مع أنه شديد الصلابة والثقل للعمل كمادة عادية للبناء ، عالى القيمة للإنشاءات المفردة مثل الأعمدة ، المسلات ، والنصب . ولأن إستخدام الغرانيت عملى محصور في الصروح الملكية ، كان الطلب بالضرورة محدوداً ومقابلاً في يسر بالمحاجر في الضاحية المباشة لأسوان . ونوعاً ما كانت المقاطع في الصحراء غرب توشكى (النوبة السفلى) التى يجئ منها الدوريت المحبذ للتماثيل الملكية في الدولتين القديمة والوسطى أكثر نأياً [١٧] .

خلال أوج الحضارة المصرية والنوبية كان هنالك تنقيب موسع للحجر الرملى في أجزاء عديدة من النوبة لبناء المعابد المحلية ، إلا أن هذا ما كان أبداً هاماً وقيماً كصناعة للتصدير .

والحيوانات الوحشية كانت وافرة على طول وادى النيل بأجمعه ، وقد أشبعت قدراً من الرغبات والحاجات البشرية . إلا انه بانتشار الزراعة وتكثفها في النوبة السفلى ، إختفت حياة الحيوان المتأصلة بالتدريج ، وبدأت مصر أكثر فأكثر تعتمد على النوبة في المنتوجات الحيوانية التى لم تعد متوفرة بين حدودها . بين هذه كان بيض النعام وريشه ، وأنواع متعددة من الجلود ، وحيوانات حية لتسلية البلاط الفرعوني ، وفوق كل شئ ، العاج .

نعلم بالمقارنة القليل عن تنظيم تجارة مصر في العاج ، مع أنها مذكورة بإستمرار في نصوص تتصل بكوش . إن البعثات العسكرية المصرية فيما يبدو انتهزت الفرصة لتجمع العاج وتُوغلت داخل النوبة العليا ؛ أما إنهم حصلوا عليه من الوطنيين أو من المصدر الأصلى فأمر غير جازم . ولو كانت هناك أى تجارة للعاج في الفترات الزمنية ما بين الغزوات ، لابد أنها بالضرورة ارتكزت إلى حدٍ ما على ممولين نوبيين . كانت الأفيال ترعى على الأقل في الشمال زمناً حتى الشلال الخامس (٢٫٠٠٠ عاماً مضت)؛ لقد كان السكان المرويون بالنوبة العليا في ظاهر الأمر هم الذين روّضوا في البداية الفيل الإفريقى كحيوانٍ للحرب . واليوم توجد الأفيال في المناطق الإستوائية وحدها بالسودان ، بعيداً إلى جنوب النوبة .

إندثار قنص الوحوش من مصر كُرِّر في النوبة ، ربما بمعدل بطئ . وأصبحت النوبة ببساطة ، بدلاً عما كانت عليه كممول أساسى للمنتوجات الحيوانية ، مركزاً للشحن تمر عبره في طريق النوبة صوب الشمال . وكيفما قضى الحال ، تواصلت التجارة في أهميتها حتى أصبحت تفرض عليها الضريبة ، أو تُنهب مراتٍ ، من قبل الساكنين على طول النيل الأوسط .

ما حقٌ بشأن قنص الحيوان كان واقعاً بالمثل بشأن صيد الإنسان . النوبة فوق كل اعتبار أخر

كانت مصدراً للرقيق لمصر الفرعونية . فأعداد الأسرى لابد أنها كانت هائلة ، ولو أنها مبالغة في بعض ألواح الفتح ممعنٌ بها . كانت تجارة الرق قطعاً هدفاً أولياً للحملات العسكرية المصرية المتعددة في مواجهة النوبة ، وإنه لجدير بالذكر أن هذه العمليات ظلت باقيةً ، بذريعةٍ واحدة أو أخرى ، ردحاً طويلاً بعد أن أُخضعت المنطقة إسمياً وضُمَّت لمصر نفسها . في أزمانٍ متأخرة أضحى النوبيون بدورهم غزاةً للرقاب مثلما كانوا تجاراً فيها ، والقبائل الأكثر بدائية ضحايا رئيسة بعيداً جنوب النيل.

إستمرت حركة الرق عبر النوبة في إكتساب الأهمية زمناً طويلاً بعد غروب الشمس عن مصر الفرعونية . لقد كانت الموضوع الرئيس لمعاهدة التجارة بين مصر والنوبة ، التى أُبرمت في ٦٥٢م ، وظلت نافذة طوال العصور الوسطى [١٨] . كذلك كانت الاعتبار الرئيس الذى حدا مصر لإعادة فتح السودان في بداية القرن التاسع عشر ، فالتدخل اللاحق لبريطانيا العظمى ، وأخيراً عصيان المهدى المسلح الذى ابتلع القطر في نهاية القرن [*].

(*) لم يستخدم المؤلف عبارة " الثورة المهدية " ، إنما وَصَفَها بالعصيان – المترجم.

الفصل الثانى

سكان الرواق

مَنْ النوبيون ؟ لا يمكننا أن نتحدث عنهم ببساطة أنهم سكان رواق النيل ، إذ أن هذه الأرض ندر ما كانت حكراً مطلقاً لأى شعب . إن الفاتحين الغرباء ، والتجار الدخلاء والمغامرين ، والبدو الأصدقاء والأعداء على السواء مسحوا الأكتاف دائماً مع سكان النوبة الفلاحين الأصليين ، وقد أسهموا غير قليلٍ في تأريخها الثقافى والسلالى بالمثل . مع ذلك ، فإن الفلاحين النهريين المستقرين ، المنحدرين بكل الإحتمال من سكان النوبة الأوائل ، هم الذين سنُعنى بهم في كل هذا الكتاب ، والذين نَصِفُهم كنوبيّين .

بإمكاننا أن نفرق النوبيين الحديثين عن بعض جيرانهم على أسس عرقية ، وعن آخرين على أسس ثقافية ، والدليل العرقى غامض . سنكون ملزمين في كثير مما أمضاه التاريخ بإستعمال الإصطلاح «نوبى» بحس ثقافى ، ونشير إلى الأقوام الفلاحية المستقلة بوادى النيل فيما يتلو أسوان (١) الذين تأثرت ثقافاتهم بقوة ، ولو أنها لم تُشتَق أصلاً من مصر ، بجيرتهم المصرية . ولا يسعنا دائماً أن تجزم بالصفة السلالية ، أو العرقية ، أو اللغوية لهؤلاء الناس ؛ ربما لأنهم يختلفون إلى حدّ ما من منطقةٍ لأخرى ومن عصر لآخر . مع ذلك ، فإن معرفتنا بهم جرت في المقام الأول من خلال ما تبقى من مأثورهم الثقافى (أى عَبر علم الآثار) ، وهنا نرى دليلاً من تواصل عام للتطور طوال التأريخ النوبى ، بغض النظر عن غدو ورواح أقوام معينة على وجه التخصيص . إنه بهذا الخيط المستمر من التطور الثقافى ، بدلاً عن أحداث التأريخ *بمحض ذاتها* ، يكون عناؤنا مُنصبّاً بالدرجة الأولى .

" النوبى " اليوم ، مع ذلك ، أقل معنىً كإصطلاح ثقافى مما كان عليه في الماضى ، إذ أن توسع الزراعة والتبنى العام للإسلام قد أزالا تدريجياً الفوارق الثقافية بين النوبة وأقوام أخرى من فلاحى السودان . فالكلمة تعنى اليوم ، في مصر والسودان ، معنىً أشد تقييداً ، لتوصيف أقلية عرقية ثقافية معلومة ذاتياً ومحددة تحتل النيل بين الشلالين الأول والرابع . هؤلاء الناس متميزون سلالياً عن أغلبية المصريين ، مع أنهم ليسوا كذلك متميزين من أقوام سودانية أخرى ، بفضل نسبتهم العالية بقدرٍ وافر من الدم الزنجى . إن ما يفصل بشكل رئيس ما بين النوبيين الحديثين وبين جيرانهم الجنوبيين هو لغتهم ، التى تنتمى إلى عائلة إفريقية قديمة (سودانية شرقية) سابقةٍ لدخول الإسلام والعربية . أما المقيمون على النيل ما وراء الشلال الرابع إلى الجنوب ، فغير متميزين عرقياً من النوبيين ، وكانوا فيما مضى متحدثين باللغات النوبية أيضاً ، لكنهم اليوم يتحدثون العربية وحسب . هؤلاء الناس لم يعودوا مُعْتَبرين ، وهم لا يعتبرون أنفسهم ، نوبيين . وباختصار : النوبى باقٍ على قيد الحياة محاطاً من كل الجوانب بالعربية (الشكل رقم ٨ والشكل رقم ٩) . ومن الأهمية مع ذلك إدراك أن الناس الذين ندعوهم والذين يدعون أنفسهم نوبيين ليسوا بالأحفاد الوحيدين للنوبيين بالأمس ، وأن مرتع سكناهم في اليوم الحاضر لا يشكل أكثر من نصف النوبة التى عاشها القدامى . برغم هذا ، فإنهم النوبيون المعلنون ذاتياً في الوقت الحاضر الذين تحتفظ ثقافتهم في إكتمالٍ ممكن بكل ما ظل باقياً من الماضى ما قبل الإسلام ، والذين يُسَلِّمون بحس معين من الهوية مع السكّان الأوائل للمنطقة (٢) . إن هؤلاء الناس هم الذين سنوليهم إهتماماً في المقام الأول ، إذ يمثلون آخر ما أُنتج من العمليات التأريخية التى جرى اعتبارها في هذا الكتاب . هذه الثقافة

الحاضرة لديها الكثير لتخبرنا به حول نوبة الماضي ، وسوف نكون ملزمين بأن نتجه إلى البنية العرقية والسطحية مرةً أخرى في سعينا لإعادة بناء الثقافات من الأزمان الباكرة .

ربما يبلغ عدد النوبيين اليوم ٢٠٠٫٠٠٠ فرد يعيش منهم حوالى الربع بمصر ، والبقية في السودان . لقد شكلوا قبل بناء سدود أسوان ما يقارب كتلةً سكانية متواصلة على طول وادى النيل بين أسوان في الشمال والدبة ، بسفح منحنى النيل العظيم ، في الجنوب كانت هنالك ، مع ذلك ، جيوب لمستوطنين غير نوبيين بين «قلب الأرض» النوبية . كذلك كانت هنالك ، ردحاً طويلاً قبل أن تجعل السدود من الهجرة الخارجية ضرورة ، مستعمرات متناثرة لنوبيين يعيشون وراء حدود وطنهم ، في مصر والسودان .

الخصائص الجسمانية

زائر القاهرة أو الاسكندرية سوف يلاقى أعداداً معتبرة من النوبيين ، عمالاً بالمطاعم ، وخدماً وسائقين لعربات الأجرة . فاذا قان ملامح وجوههم وألوان بشرتهم البنية كالقهوة الممزوجة بسكان مصر من ذوى البشرة الفاتحة لربما ظنهم بأىٍ ذى بدء زنوجاً . وإن الزائر للخرطوم ، عاصمة السودان ، سوف يلتقى كذلك كثيراً من النوبيين ليسوا كعمالٍ بالمطاعم وسائقى عربات الأجرة ، إنما في كل مستوى للمجتمع والحكومة إلى درجةٍ تشمل وزراء بمجلس الوزراء . وعندما ينظر لملبسهم ومسلكهم ، ويقارنهم بالسودانيين الجنوبيين والغربيين الأشد حلكة والذين يُكَوِّنون غالبية سكان الخرطوم العاملين ، ربما يكاد يعدهم بشكل أساسى عَرَباً .

إن وصفهم بأنهم زنوج وعرب صحى إلى حد ما حيث يملك النوبى نسبةً أعلى بكثير من المصرى دماً إفريقياً ، ربما تبلغ ٥٠ بالمائة من تركيبه الوراثى الكلى . والنوبيون في نفس الوقت أعظم إسلاماً على وجه التمام من كل سكان السودان ، بنفس القدر الذى يتعلقون فيه بلغة أم إفريقية خالصة . وهم في اللباس والسلوك يتبعون الأعراف المتبعة في الزمان لعَالَم العرب (قارن الصورة ٣ - أ) .

نوبيوا اليوم - يختلفون قليلاً عن اناس آخرين كثيرين في السودان الشمالى . يعرضون توليفةً قديمة ، ثابتة من العناصر الإفريقية الزنجيّة وقوقازية البحر الأبيض المتوسط . أغلب لون شائع للبشرة بنى خفيف فأوسط - هو لون الهنود الأمريكيين الشماليين أو البولينيزيين تقريباً ، لكنه من غير الطابع البرونزى . ويتفاوت الأفراد بدرجةٍ معتبرة في اللون ، كيفما كان ذلك ، فلقد وقع تزواج متداخل دائم من جانب واحد مع رقيق حالك من الجنوب ، ومن الجانب الآخر مع مصريين وأقوام أوروبية من مناسبة لأخرى كانوا يحرسون تخوم الإمبراطورية العثمانية .

وبعيداً عن لون البشرة ، فإن السلالة الإفريقية معلنة على الملأ كأشد ما تكون بروزاً عليه في شكل شعر النوبيين ، وكأنه دائماً مكشوط أو معقود . الشفاه المقلوبة بطناً للظهر شائعة ؛ لكنها ليست شاملة بأى حال . وكثيرين من النوبيين يملكون الملامح الحادة ، المعقوفة المميزة للعربى الأصيل . أما تشطيب الوجه الممارس من قبل اقوام كثيرة بالسودان ، فلا يرى إلا لماماً بين النوبيين في حالة الجماعة بأقصى الجنوب (الدناقلة) . الشطوب محصورة على الخدين ، تأخذ في أكثر الأحيان شكل ثلاثة متوازية ، أفقيةً على كل خد . وثمة أنماط أخرى أفقية قصيرة ثلاثة ، أو في شكل الحرفين H أو T .

غالبية الأفراد في قوامهم وبنيتهم يعتبرون وسطاً . فالنوبيون في المتوسط ربما يطولون بوصة على المصريين ؛ وهم بمستوى ملحوظ أقصر من العمالقة النيليين في السودان الجنوبى . والسمة المفرطة مثمّنة ، إلى نقطة ما ، كعلامة للجمال في النساء وإشارة لرغد العيش للرجال ، بحيث

يصادف الواحد كثرةً عظيمة من الأفراد على بناء متين ، بوجه الخصوص وسط أولئك المعمرين منهم . إجمالاً يميل النوبيون اليافعون للرشاقة وقوة البنية . على أنه قلما تُشَاهد الرشاقة المتناهية لسكان جنوب السودان [٣] .

الصفات الثقافية

أما في الجانب الثقافي فقد امتص نوبيو اليوم معظم المآثر الإسلامية لجيرتهم الشمالية بينما احتفظوا ببعض صفات أصلية بقدر متكافئ . ومع أنهم يعتزون إلى حد ما بهويتهم العرقية المتميزة ، يعتبر كل النوبيين أنفسهم إضافةً إلى ذلك عرباً ، ويمكن لمعظمهم أن يتتبع تحدره من النبى أو من واحدٍ من الخلفاء الأوائل ، كما ينبغى على المسلم التقى [*] . والعربية هى اللغة الثانية لأغلب السكان الذكور ، واللغة الوحيدة المكتوبة . يحتمل أن ٥٠ بالمائة من الرجال النوبيين بوسعهم أن يقرأوا ويكتبوا على الأقل بضع كلمات ـ والعربية وسط النساء النوبيات أقل شيوعاً بكثير ، والكتابة تكاد لا توجد .

كغيرهم من الأقوام الإفريقية ، تحول النوبيون في الحقيقة منذ أمدٍ قريب للغاية إلى الإسلام . وعلى غير ما عليه جيرانهم ، مع ذلك ، ما كانوا وثنيين ، فلقد كانوا مسيحيين طوال العصور الوسطى ، وقبل ذلك إتّبعوا مُتواليةً من ديانات الدولة ذات الأصل المصرى . بالتالى لا يصادف الواحد في الثقافة النوبية المتبقيات الحية البدائية تأصلاً التى تُرى بارزةً للغاية في غرب السودان أو نيجيريا . وهنالك بدلاً عنها بقايا حية من القرون الوسطى المسيحية والمصرية القديمة علاوةً عليها .

النوبى في عالم اليوم بأىِ حالٍ كان ، عربى الثقافة بمقدار ما عليه *الفلاح* المصرى . حقيقة ، ويبزّه في بعض الجوانب ثقافةً عربيةً ، إذ أن ثقافته ظلت سواء بسواء أقل تغيراً بالنسبة لأثر النفوذ الغربى . وربما يكون ذلك هو الفارق الثقافى المتفوق بين مصر والنوبة اليوم . لقد تم تحويل الأرض الشمالية تدريجياً وإن كان حتمياً إلى أمةٍ حديثة ، جرى تصنيعها جزئياً ، بينما السودان متعلق ، قدراً ما ، بتقاليد إسلام القرون الوسطى . والإنسان النوبى ، خلافاً للمصرى ، غالباً ما نراه لابساً *الجلابية* العربية المأثورة والعمامة ، (الصورة ٣ ـ ١) تفضيلاً على اللبس الغربى ، ويحفظ نساءه في عزلة بتشدد غامر . والنسوة النوبيات لا يأخذن بالحجاب فعلياً ، لكنهن على الدوام يلبسن خارج الأبواب جلباباً خارجياً أسود فضفاضاً ، (*توباً*) فوق الرأس والأكتاف ، يُجْذَب هذا على الأقل بتلقائيةٍ ليستغشى الفم عندما يقترب غريب . والنوبيون كذلك بشكل بادٍ للعيان أكثر تنبهاً لصلواتهم اليومية من جيرتهم المصرية ويقومون ـ على الأقل علناً ـ بجهدٍ مخلص للمحافظة على صوم *رمضان* .

اللغـــة

الصفة الوحيدة للنوبيين الحديثين التى تظل إفريقية كليةً بما لا خطأ فيه هى حديثهم الأصلى . واللهجات النوبية تنتمى إلى العائلة السودانية للغات التى كانت موزعةً على نطاق واسع متواصلةً على كثيرٍ من بُلدان شمال شرق إفريقيا . وتشكل النوبية جماعةً فرعية متميزة بين العائلة السودانية ، لا

(*) الشائع بين المسلمين في شمال السودان الإنتساب إلى الأنساب العربية بشكلٍ عام ، والقبائل العربية خاصةً ذات الصلة الأقرب بالبيت النبوى الشريف . ويميل بعضهم إلى إدعاء نسبٍ مباشر بالبيت الشريف ؛ وهناك قلة من العائلات وثيقة الصلة عرقياً بآل البيت ، ومن هؤلاء أولياءُ لطرقٍ صوفية معروفة مثل الطريقة الميرغنية الختمية . أما أغلبية المسلمين السودانيين فربما يقيمون رابطتهم بالعروبة على حقائق التراث اللغوى الثقافى المتجذر فى البلاد أساساً ، ويُرجعون رابطتهم الروحية بالبيت النبوى الشريف كاسمى عائلة عربية مسلمة على أساس الحديث النبوى المعروف «النبى جَدُّ كُلِّ مُسلمٍ» الذى يُعلى من شأن القرابة الدينية على الناحية العرقية – المترجم.

تملك قرابة لصيقة سوى ببعض اللغات المعزولة في غرب السودان . والأشد بعداً عنها من حيث القرابة لغات الشلك ، النوير ، الدينكا ، الماساى ، وقبائل روحانية(*) أخرى في جنوب السودان وأقطار مجاورة . إن الحقيقة القاضية بأن اللغات النوبية ليست لها قرابات لصيقة بأى مكان آخر (مع الإستثناءات التى ذُكرت للتو) تُعَقد مسألة تتبع الأصول للنوبيين ، كما سنرى في صفحات لاحقة [٤].

يُقسم نوبيو وادى النيل إلى ثلاث جماعات ناطقة : *الكنوز* (مفردها كنزى) بالشمال ، *المحس* في المركز ، *والدناقلة* (مفرد ، *دنقلاوى*) في الجنوب . اللهجات الشمالية والجنوبية منها متبادلة الفهم ، بما يكفى لإثارة الإستطلاع ، ويقال : إنها تُكَوِّن لغةً واحدة (دنقلا - كنوز) ، في حين أن اللهجة المحسية التى تقع بينهما متميزةً بشكل مرموق . النوبيون المحس ملزمون بالتحدث مع الجماعتين الأخريتين بالعربية ، كما يفعلون الشئ نفسه مع الأقوام غير النوبية . والعربية إلى جانب ذلك هي اللغة الوحيدة المكتوبة اليوم ، مع أنه في العصور الوسطى وُجِدت صيغةٌ قديمةٌ من اللهجات المحسية (النوبية العتيقة) مكتوبة .

إجمالاً اللغات النوبية توفر لناطقيها حساً بالهوية الخاصة ، لكن إختلافات اللهجة فيما يبدو غير مدركةٍ بنفس الطريقة . يميل النوبيون أفراداً لتعريف أنفسهم بالمنطقة - كدناقلة أو أسوانيين - بدلاً عن اللهجةً ، محسيةً أو كنزية .

الحياة في النوبة

على مسافة ٢٫٠٠٠ ميل من الخرطوم إلى البحر ، يصير وادى النيل في الغالب الأعم أرضاً من قرى الطين والحقول الصغيرة . وإلى درجةٍ ما يتقاسم *الفلاحون* المصريون ، النوبيون ، والعرب السودانيون على السواء حياة المزارع الفلاح القديمة مدى الدهر ، المشدودة للأرض . بين ذلك الإطار المتعنت ، مع هذا ، هنالك فروقٌ في نمط الحياة والنشاط الإنسانى ؛ وهى فروق تعود إلى التنوع البيئى من ناحية وإلى الخلفية التاريخية والثقافية من ناحية أخرى . ولا تزال الحياة في النوبة تتميز بملامح لا يتوفر مثلها في مصر أو وسط السودان .

ربما يكون أغلب وجه مرئى مميّز للثقافة النوبية هو البيت النوبى ، إنه كبير وفسيح بدرجةٍ لا تُجَارى بمصر ، أوأى مكانٍ آخر في السودان . فالمسكن الحديث المألوف ، فيما عدا بالشمال البعيد ، مبنىٌ من *الجالوص* (لبنٌ أو طين مرصوص في صفوفٍ أفقية بكثافة قدم واحد تقريباً) ، ويتكون من حجرات واسعة عديدة تحيط بفناء مفتوح . حجرة واحدة ، قريبة من واجهة الدار ، سوف تكون دائماً مزخرفةً بوجه خاص ومؤثثة لإستقبال الضيوف . وحجرة أخرى ، عادةً إلى جوار مؤخرة البيت ، ترفع أرضيتها وسقفها لقدمين أو ثلاثة أقدام فوق الغرف ببقية الدار ، وتُجْعَل غير مسورة في جانب إتجاه الريح (شمالاً) . هذه الحجرة ، المصممة لقبض النسيم ، تخدم كشُرفة مسقوفة للراحة وتجاذب أطراف الحديث أثناء موسم الحَرور . وثمة حجرات أخرى تؤدى الدور المطلوب لإعداد الطعام ، والنوم ، وتخزين الحبوب والممتلكات ،وحظائر للاغنام [٥] . المقيمون العاديون بأى دارٍ أزواجٌ مع الأطفال ، بالرغم من أن والدى الزوج وأشقاءه أو أخواته ممن لم يتزوجوا بعد ربما يعيشون فيها ، فإذا كان لرجل زوجتان (وهو أمر نادر ، بالمقارنة في النوبة اليوم) ، فلكل واحدةٍ منزل منفصل .

وهناك ملمحٌ يسترعى النظر في منزل النوبى الحديث ، واجهته ذات الزخرف الرائع تحيط

(*) قصد المؤلف غير واضح من كلمة Pagan (وثني) التى يشيع فهمها على أنها تعنى عَبَدة الأوثان أو من لا دين لهم . إن من أهل السودان من لا يعتنق ديناً سماوياً معروفاً ولكنهم يؤمنون بأديان إفريقية قديمة يشار إليها بالمعتقدات الكريمة في دساتير السودان . ورأينا لذلك أن نترجم الكلمة إلى «روحانية» بدلاً عن «وثنية» منعاً لرجم تلك المعتقدات بأى وصف يستهين بحقوق أهلها فى حرية الإعتقاد الدينى – المترجم.

بالمدخل الرئيس ، وتفتح مباشرةً إلى داخل فناء البيت . وفي مساكن المحس والدناقلة ينقش السطح الطيني المنبسط للواجهة بأنماط هندسية مُفَصلة في نحت نافر خفيف ؛ إضافةً إلى ذلك تُمسح أحياناً كثيرة بالجير الأبيض (الصورة ٢ ـ ب) . تُضفي أطباق الصيني المغروسة في الرسوم طابعاً زخرفياً ضافياً . بمفردها أو في جماعةٍ ، ربما تثبت داخل الحائط فوق كل باب في الدار . وفي الشمال ، لمِساكن النوبيين الكنوز في العادة رسومٌ متعددة الألوان ، ربما تُدَثر حائط البيت الأمامي برمته بدلاً من الزخرف المنقوش [٦] .

قد تكون السقوف من عروق النخيل المفصومة (*الجريد*) مغطاةً بالطين ، أو ربما تكون في بساطةٍ عشباً أو حصائر منسوجةً ، تُسجَى على كتل خشبية من السُنط والنخيل . وما فتئ الكنوز النوبيون في الشمال يفضلون سقف الطوب المعقود الذي يعود للأزمان القديمة والقرون الوسطى . وتصنع الأرضيات من طين معجون صلب ، ومعظم البيوت مبنية في شكلها العام بفتحاتٍ لنوافذ مستطيلة متعددة ، لكن هذه غالباً ما تسد بالطين في المعتاد ، فيما عدا كوة بالأعلى ، ذلك أن مغالق النوافذ غالية الثمن ولابد أن تشترى في العادة من النجارين المتجولين . كيفما الحال ، فإن الإستقبال ، أو غرفة الضيوف على الأقل في معظم المنازل تهيأ بمصاريع ذات مفصلات لامعة الطلاء معظم الأحيان . الأبواب عادة ثقيلة وحسنة الصناعة ، وهي من ثلاثة ألواح ثقيلة الوزن مشدودة الوثاق بمسامير محلية الصنع . إنها غير مغلقة ، وكلها ترتكز على مسندٍ رأسي مثبت على أعلى الحائط ، قائماً على حجر محوري مجوف من أسفله . أما القفل فهو مزلاج خشبي زلق ثقيل ، والأبواب الأمامية مجهزة بأقفال خشبية حاذقة من صنع الدار ، تحمل مكرراً زينة محفورة [٧] .

قطعة الأثاث الشائعة الوحيدة في المساكن النوبية هي *العنقريب* ، أي سرير وطني صميم مصنوع من الحبل المفتول أو عروق النخل المشققُ ممدودة علي قالب خشبي ، مع رجل في كل ركن ، وربما يوجد العديد منها بكل غرفة ، لأنها تُحال موائد ومقاعد بمقدار ما أنها أسرّة . كذلك تشاهد في المناسبات مناضد ذات ثلاث أرجل مصنوعة من ألواح الحديد . ومعظم المنازل لها مسطحات مرتفعة (*مساطب*) ، مبنية بالطين بمحاذاة بعض الأسوار بين الحجرات وفي الفناء الرئيس على السواء . وتودع الملابس والأمتعة الشخصية في صناديق أو أوعية محكمة .

يختلف البيت النوبي الكبير في الوقت الحاضر اختلافاً بيّناً عن مساكن مصر الأصغر كثيراً والأشد ازدحاماً وعن منازل وسط السودان [٨] . إنه ، مع ذلك ، تطور بادئ الجدّة ، أدخل إلى النوبة من الجنوب أو الغرب في الأزمان الحديثة [٩] . لقد انتشر فيما يظهر بإتجاه الشمال من الشايقية إلى النوبيين الدناقلة والمحس [١٠] ، لكنه لم يتبين من الكنوز في الشمال . إن منازلهم الملَبدة ، المعقودة كنصف دائرة من الطوب الطيني (بدلاً عن *الجالوص*) تحفظ التقاليد المعمارية للنوبة في القرون الوسطى .

كذلك يُرى في كل قرية مظلات مستطيلة خفيفة تعرف *بالراكوبة* (حرفياً ، « قابلة للنقل ») ، مصنوعة من حصائر من القش موثوقةً إلى هيكل من أعمدة رأسية وأفقية . تأتي الراكوبة في تشكيل من الأحجام والأشكال ، معتمدة في ذلك على عدد الحصائر والأعمدة المتوفرة وغرضها المقصود . إنها تقوم بدور مظلات صيفية مؤقتة بالقرب من الحقول ، وفي بعض الأحيان كمظلات للحيوان .

مثل كل شعوب الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ، يفضل النوبي الإقامة في القرية . إن قراه ، مثل بيوته ، تفتقد الضيق والكثافة التي تميز مصر (قارن الصورة ـ ١) . قد تتفاوت القرية النوبية في الحجم من منزلين أو ثلاثة إلى عدة مئات من المساكن ، وتقوم أساساً على مقدار مساحة الأرض المفلوحة والموجودة محلياً . في أشد الأماكن المأهولة على قدم المساواة ، مع ذلك ، نادراً ما تبنى البيوت في تلاصق مع بعضها البعض مباشرة . والبنايات الأعلى من طابق غير معروفة . وتتناثر في المناطق الفقيرة مثل *بطن الحجر* المنازل غالباً في تجمعات صغيرة للغاية ، وفي أحيان بعزلةٍ كاملة

علاوة على ذلك ، في حين أنه بالأماكن الاكثر رخاء تكون صفاً متواصلاً في تطوح على طول جانبى النهر . في هذه الأمكنة من العسير عادة أن يُحدد أين تبدأ قرية ما وتنتهى الأخرى . وتقام المنازل عادة وراء الحقول مباشرة ، على الهامش ما بين الصحراء والسهل الفيضى . حثيما كان متاحاً تشغل أرضاً مرتفعة ، لتخرج عن لُجة الفيضان [11] .

وتتشابه المبانى تقريباً في القرية النوبية المألوفة ، إقامةً خاصة بأجمعها . يدير أصحاب الحوانيت ، إن كان منهم أحد ، العمل في حجرة واحدة أو أكثر بين ظهرانى مساكنهم العادية . القرى الكبرى وحدها لها متاجرٌ متخصصة ودور لشرب الشاى ، ومساجد صغيرة .

ما من حاجة للقول ، أن المريحات والمنافع العامة الحديثة لا توجد في النوبة ، خلا قبضة يدٍ من المراكز الإدارية . فدورة الحياة والنشاط تترافق وثيقاً مع ساعات النهر ؛ وما يُقْتَضى من ضوء بعد انسدال الظلام يؤخذ بشكل رئيس من مصابيح الجاز (الكيروسين) . والفحم هو الوقود الأول لإعداد الطعام وللحرارة ، مع أن مواقد الجاز مستخدمة أيضاً . إن المساكن النوبية عليلة الهواء مصممة تصميماً جيداً كى تبعد حرارة الشمس ، لكنها يمكن أن تكون باردةً برودة غير مريحة في الشتاء . ولأنه ليست هنالك مدافئ والخشب قليل ، فالدفاع الوحيد قبالة البرد هو أن يلتف الإنسان في ملابس دافئة ، وربما يستجمع كوماً صغيراً من الفحم . ويميل النوبيون لأن يقبلوا حرارة الصيف القارحة بإذعان طيب مرح ، لكنهم يجأرون بالشكوى من نوبات الشتاء الباردة ، صارخين في إحتجاج وسخط . إن النيل ، بالطبع ، هو المصدر العمومي للماء ؛ وحمل الماء (غالباً في صفائح الجازولين سعة خمسة جالونات موزونة على الرأس) إلتزام في المقام الأول للبنات النوبيات .

أينما وجدت المنازل ، فالحقول وحدائق النخيل غير بعيدة أبداً . تقدم مساحات بالنوبة مفضلة قليلاً ، مثل أرض دنقلا النهرية ، مناظر من حقول عريضة ، متماوجة جديرة بالوادى العظيم لمصر نفسها . والأنشدُ ميزةً بكثير رُقعٌ صغيرة غير منتظمة من الزرع على طول ضفة النهر ، مفصولة بمدٍ عريض من الكثبان أو المرتفعات الصخرية . كل مساحة مزروعة تشكل متاهةً من مواقع مستطيلة دقيقة مرتبة على طول شبكة من قنوات صغيرة (الصورة ١ ـ أ) ، وتتغذى جميعها من واحد أو أكثر من ساحبات المياة التى يجرها الثور (*السواقى*) . وقد تسهم عائلات عديدة في بناء وتشغيل ساقية ؛ ولكل حقوقٌ في الماء معروفة بدقة تعتمد على مساهمتها بالمواد والعمل . هذا النمط عالى الشكلية من التبادل ربما كان قوةً تكاملية في المجتمع النوبى منذ إدخال الساقية قبل ألفى عام .

تميل الحيازات في الأرض المروية لأن تكون صغيرةً عبر الوراثة ، إضافة إلى ذلك أصبحت شديدة الإنشطار . إن فرداً ربما يملك حقولاً في ضاحيات مختلفة عديدة ، وفلاحاً هميماً ربما يفلح حقولاً إضافية مستأجرة من جيرانه . أحياناً كثيرة جداً ، رغماً عن ذلك ، يكون المستأجرون من غير النوبيين ، وأحياناً من غير السودانيين ، فالنوبيون يفضلون دور المالك على دور المستأجر . وبسبب الحيازات المنشطرة تصون العائلات مساكن في قرى مختلفة عديدة تنتقل حولها من حين لآخر .

ولوصف الفلاحة النوبية الحديثة ، لا يمكننى أن أفعل أحسن من نقل عمل بروس تريقر المرموق *التأريخ والإستيطان في النوبة السفلى* [12] .

هنالك ثلاثة أنواع من الأرض القابلة للزراعة في وادى النيل : أرض *السلُّوكة* ، وأرض *الساقية والشادوف* ، وأرض الحياض . الحوض منخفض ، ويقع عادةً ما بين الحواجز الطبيعية للنهر والصحراء ، التى توجه إلى داخلها مياه الفيضان (لدى ارتفاع منسوب النيل) والتى يمكن تصريفها بعد أن تكون الأرض قد غُمرت تماماً . وتوجد في مصر أحواض كبيرة تقسم في العادة إلى أقسام صغيرة ، وتمرر الماء من الحياض الأعلى إلى الأدنى بعد الإبقاء عليها لفترة من الوقت محددة أنفاً . أما الحياض بين الخرطوم وكرمة فأصغر وأبسط من المصرية ؛ لكل واحدة قناة مغذية ، ومجرى تصريف واحد أو أكثر ، تقسيمات داخلية قليلة . تسمح الحياض بالإستعمال الفاعل للماء لكنها

تتطلب تنظيماً وتعاوناً بين أعداد كبيرة من الفلاحين .

وأراضي الساقية حقول ، لأكثر الأحيان تعلو على منسوب إرتفاع الماء ، وتُروي بساحبة للماء يجرها الثور تسمّى *الساقية* . وبعض هذه الحقول طبيعية ؛ وأخرى شيّدت بجهد جهيد بالطمى المجروف من رواسب طبيعية على جانب الوادى والساقية ـ التى ادخلت في مصر بالأزمان الإغريقية ـ مبنية من الخشب وتشتمل عجلةً بمتاريس معلاة افقياً على محور افقى يعلو على مدد للماء . ويبرز عمود افقى من الجزء الأعلى للمحور يُعقل إليه حيوان أو إثنان لعناء الخدمة . هذه العجلة تدفع عجلةً أخرى رأسية كبيرة شُدّت عليها سلسلةً من القواديس أو صفائح الجازولين على حبل لا نهاية له . وعندما يدفع الثور العمود ، يمتلئ كل إناء بدوره ويحمل إلى قمة العجلة حيث يفرغ إلى حوض مبنى من الحجارة والتراب ، ينقل الماء إلى الحقول . وربما يجرى تشغيل هذه السواقى بأزواج من الثيران وبعضها يظل في العمل عشرين ساعة في اليوم ، ويتعهد الثيران بالرعاية عادةً صبى يافع .

بوسع أرض الساقية أن تقيم محاصيل ثقيلة تزرع في العادة بكثافة . ولكيما يحافظ على تدفق المياه ويُرشد إتجاهها ، تُقسم الحقول إلى حياض مغمورة صغيرة مفصولة عن بعضها البعض بأسوار ترابية صغيرة . وأرض الساقية يمكنها أن تدر إلى ٣٥٠ مكيالاً من القمح للفدان (١٣) . ولا تزيد الحيازة الكلية التى تُسقى بالساقية في المعتاد عن ١٠ أفدنة (الفدان يقل شيئاً ما عن الأكر) ، يجرى العمل فيها بحوالى الثلث في المرة الواحدة . تتفاوت المساحة التى يمكن ريّها وفقاً للإرتفاع الذى يجب أن ترفع إليه الماء . ولدى إرتفاع النيل رفعةً من مترين ، قد تروى الساقية ٤ أو ٥ فدادين ؛ خلال الشتاء ، عندما يمكن الرفع حتى ٨ أمتار ، لربما تسقى ٥ر٢ فداناً فحسب ، وأثناء الصيف الباكر عندما يكون النهر منخفضاً والتبخير عالياً ، يمكن أن تسقى فداناً واحداً إلى ٥ر١ فداناً . فإذا كان السهل منخفضاً وعريضاً ، فإن السواقى الواقعة بعيداً إلى الوراء من النهر ربما تجذب الماء من بئر . على امتداد شرائط النهر الخصبة ، يمكن أن توجد السواقى على مسافات لكل ٣٠٠ ياردة .

الساقية غير فاعلة كوسيلة للرفع ، إذ أن جزءاً حسن الإعتبار من الماء المرفوع مفقود ، ويجب أن يذهب نصف المحصول بالتقريب لتغذية الثيران التى تجر الآلة ، مالم يتوفر علف طبيعى . فإذا لم تكن التربة مغمورة تصبح إما مالحة أو مغطاة بالرمل بما يدعو لأن تغطى دائماً بسماد ترابى من المدرجات الكامنة دون مقدرة للرى الرافع على بلوغها . هذه التربة تسمى *سبخاً* . إن فائدة الساقية الرئيسة أنها يمكن أن تصنع من مواد محلية وإصلاحاتها قليلة ، والإصلاحات الكبرى يمكن إيجادها بسهولة . ولكونها وحدة محتواه ذاتياً فإنها ملائمة بشكل مثالى للإستعمال في حيازات الأرض الفردية الصغرى .

الشادوف دُوِّن ذكرُه بمصر أولاً في الدولة الجديدة . وهو لا يعدو أن يكون أكثر من رافعة بثقل موازن لها قادوس على إحدى طرفيها ـ سهلة التركيب والتشغيل باليد . يمكنها أن ترفع الماء إلى علو ٣ أمتار ، إلا أنه كلما زاد علو الرافعة ، تقل الضربات التى يمكن أن تحرز في الدقيقة . وبرفعه مترين يمكن للشادوف أن يسقى حوالى نصف فدان ، وهو يستعمل عادةً لرى رقع الخضروات أثناء موسم الفيضان (١٤) .

على الجزء الخصيب من السهل الفيضى تتكون *أرض السلوكة* من ضفاف وجزر النهر التى تستقبل بللاً يكفى أثناء الفيضان النيلى السنوى لإنتاج محصول ، دون أن تحتاج إلى نداوة إضافية... ويتفاوت حجم أرض [السلوكة] وتضاريسها في المساحة من عام لآخر متى انزاحت الضفاف أو الجزر بعيداً أو ترسبت تربة جديدة . ينحصر زرع *السلوكة* في موسم إنبات مفرد ، يتطلب جهداً أدنى ويغل مدى عريضاً من المحاصيل بأقل تكلفة (تأخذ اسمها من حقيقة أن المحاصيل المزروعة هنا لابد أن تنبت مفردة بعصا حافرة ، أو سلوكة ، بدلاً عن الزرع المبثوث كما في حالة أرض الساقية . ومحاصيل العلف منتوج هام لأرض السلوكة) . وتفلح الأسر رقعاً صغيرة من أرض السلوكة على مسافة معقولة من مساكنها ، في الأماكن التى تندر فيها الأرض الصالحة ....

يمتد موسم الزرع (*الشتوى*) في الشتاء من نوفمبر حتى مارس وهو الوقت الذى تشجع فيه الأحوال المعتدلة على نمو القمح والشعير . يقول بوركهارت : بعد الفيضان مباشرة أنبت الفلاحون الدخن (الذرة كما يسمى محلياً)، الذى وفرت سيقانه العلف لبقرهم لباقى العام . ثم انبتت الشعير ، الفول ، التبغ ، العدس ، البسلة ، والبطيخ . أما

القمح فقيل إنه كان نادراً . محاصيل الصيف (*الصيفية*) كانت اقل وفرة واشتملت بصورة رئيسة على الذرة ، وخفضت محاصيل اخرى خوفاً من ان النهر بما يبدأ ثانية في الفيض قبل أوانه ويتلف المحصول قبل حصاده . اما المحاصيل المعمرة مثل الحراز (الخروم) وأشجار الفاكهة فكان لزاماً الإبقاء عليها قيد الحياة خلال هذا الموسم . البلح ، المانجو ، والموالح كذلك تتطلب رياً حتى تبلغ جذورها سطح الماء الباطنى . خلال موسم الفيضان (*الدميرة*) من اغسطس إلى نوفمبر تخرج حقول الساقية وحدها الغذاء . أما الذرة الشامية والفول فهما من المحاصيل الرئيسة [١٥] .

ما من وصف للزراعة النوبية يصير مكتملاً دون ذكر لزراعة البلح . وفق كلمات حسن دفع الله ، مأمور مقاطعة وادى حلفا السابق :

وقتما يفكر الواحد في النوبة ، فإن الوجه الرئيس الذى يأخذ بمجامع العقل هو «أشجار البلح» ، حيث يجد النوبيون في أشجار بلحهم تعويضاً من السماء لشح أرضهم . فهى أغلى ما يتعهدونه بالرعاية من ممتلكاتهم ، وهدية لا ثمن لها من الطبيعة . إنها العمود الفقرى لإقتصادهم المحلى والمصدر الوحيد المعتمد عليه للعائد النقدى . في الحقيقة ، إنها العلامة الوحيدة للثروة ، وهى موضوع التباهى بين الأجيال الكائنة والإستثمار المثمر لأطفال المستقبل . لكل قرية ، وكل دار وكل فرد تقريباً شجرة نخيل مملوكة أو مشاركة في شجرة. وضفة النهر بأكملها محفوفة بغابات من أشجار النخيل . وفى بعض الأماكن يصبح النخيل من الكثافة بحيث أن العين لا تستطيع أن تثقب السور العريض من جذوعها لترى ما يقع وراءه [١٦] .

ربما لم تتغلغل شجرة في تاريخ البستنة عميقاً بهذا المثل إلى باطن الحياة الإجتماعية والإقتصادية كما شجرة البلح في النوبة . إنها تمس جوانب كثيرةً للغاية من حياة السكان ، وتُرقب آثارها في كل مكان . منافعها منوعة ومعتبرة ، وما من شئ منها يضيع . وتباع أشجار البلح للعائد النقدى وتحقق أسعاراً طيبة . وبالإمكان تأجيرها ، فوجود شجرة بمحضها تأمين إقتصادى . تسحب العائلات حاجاتها اليومية من تجار القرية على الحساب وطالما أن هنالك أشجاراً للبلح ، فإنهم لعلى يقين أن مالهم سيعود بلحاً أو نقداً . وتدفع أشجار البلح كذلك هدايا في مناسبات الزواج . ويفتل النوبيون من غصونها الحبال ، ويصنعون الطباق المجدولة ، والسلال ، والحصائر . ومنها يقومون بعمل ممسحة خشنة لأغراض الإغتسال ولتنظيف أوانى طعامهم . كذلك فإنها تطعم الحيوانات وتُستَخدم وقوداً [١٧] .

بالرغم من الثناء الحار الذى تقدم إيراده ، تجدر ملاحظة أن أشجار البلح النوبية كثيراً ما يجرى تقليمها بطريقة تفتقد النظام ولا تحظى إلا بتعهد قليل مما لا تبلغ به إلا جزئيةً من إستعدادها للحمل . ولربما يعكس هذا في قسط منه النفقة والمشقة لتسويق المحصول في الأنحاء الأشد نأياً في القطر [١٨] .

ويتبدى فارق هام ما بين الفلاح النوبى والمصرى في إعتماد النوبيين على تربية الحيوان بقدر أعظم بكثير . نقتطف ثانية من تريقر [١٩] :

البقر ، الضأن ، والأغنام تربى قطعانها ، فاليوم تربية الحيوان أقل أهمية بدرجة طفيفة وحسب من الزراعة . إن النوبيين يستخدمون كلاً من اللبن والزبدة ، ومع أن البقر لا يستعمل (في المعتاد) ليحرث الحقول ، فإنه يُحتاج إليه لسوق الساقية . اناس كثيرون يملكون الحمير ، وهى الوسيلة الشائعة للنقل ، ولكن قلة تملك إبلاً . الدجاج والحمام عامة ، والكلاب مع إنها مكروهة تحفظ لتحرس المساكن ولا توجد الجياد والخنازير على صعيد فعلى .

فى عام ١٩٦٢ كانت قرية «دوكى دور» الصغيرة بسكان يبلغون بالتقريب ٢٠٠ نسمة تمتلك ٢٩ بقرة ، ١٠٠ ضأن ، ٦٠ لكل من الأغنام والحمير ، وعدة مئات من الدجاج . وفى الأزمان الأولى كانت الحيوانات قادرةً على الرعى في العشب أو ما تبقى من نبات السهل الفيضى خلال معظم العام .

تعداد عام ١٩٦٣ للثروة الحيوانية في النوبة السودانية (أى ذلك الجزء الذى كان مصيره أن يغمره الفيضان بخزان أسوان) سجلت قوائمه : ٢,٨٣١ بقراً ، ١٩,٣٣٥ ضأناً ، ٣٤,١٤٦ أغناماً ،

٨٦ جياداً ، ٣,٤١٥ حميراً ٦٠٨ إبلاً ، ٣٤,٥٨٣ دجاجاً ، ٢٧,٥٢٠ حماماً ، و١,٥٦٤ بطاً في مساحة يكاد لا يتعدى مَنْ بها ٥٠,٠٠٠ ساكن بشرى (٢٠) .

ليس بالمستطاع تأريخياً أن يُستهان بأهمية العنصر الرعوى في الحياة النوبية . لقد كان الأساس الأسبق للحياة المستقرة ، وتوالى دوره يشكل إستكمالاً أو بديلاً للفلاحة في كل الأزمان اللاحقة . فقيرةً كما هى ، لذلك ، فإن القاعدة الإقتصادية للنوبة رغم كل هذا أكثر مرونة وأكثر تعددية من الفلاح (المصرى) ، ومن المحتمل أنها أنقذته في أزمان من السخرة والمجاعة . في حين تَحَمّل المصرى عصوراً من الطغيان بسبب الحاجة إلى أى وسيلة للخلاص ، كان بمقدور النوبى أن يتخلى عن السعى وراء الزراعة وقد فعل أزماناً ونكص إلى أسلوب رعوى للحياة عندما أخفقت الموارد الطبيعية أو الإستقرار السياسى . إن فترات التدخل الفجائى من هذا النوع ، مشتملةً على هجران مؤقت للحياة المستقرة ، تفسر فيما هو محتمل بعضاً من التجاويف الغامضة في السجل الآثارى للنوبة .

وبالتأكيد ، يُعَد غياب الخنازير عن النوبة الحديثة إنعكاساً لإجتياح المعتنق الإسلامى للسكان . أما غياب الجياد فأكثر مَدعاةً للدهشة ، إذ انه في القرون الوسطى كان النوبيون خيالة مشهورين ، مثمّنة حيواناتهم من العرب أنفسهم . وكيفما مضى الحال ، فالوسيلة الأعم للنقل المحلى اليوم هى الحمار للترحل بطول الضفاف ، والمركب الشراعى لعبور النهر .

بما أن هنالك درباً عادياً بموازاة ضفةٍ واحدة للنيل ، فإن العائلات التى تعيش على الضفة المقابلة ملزمة بأن تملك ، أو أن تملك الوصول ، للمراكب الشراعية لكيما تحصل على البضائع المختلفة التي تصل النوبة الآن بالبر . وفى النوبة السفلى ، كما بمصر الأم ، كان الشكل السائد للمركب صنعةً لموازنة قالب خشبى إنكماشى ، برسم أوروبى . وفى ما وراء الشلال الثانى ظل هنالك مجال *النقر* القديم قدم الدهر . كان جهماً من كتل خشبية عريضة لكنه باهر الخدمة يُصنع محلياً من أشجار السنط . وأغلبية *النقر* من المراكب الصغيرة لعبور النهر وحسب ، غير أن بعض المراكب تبلغ خمسين قدماً في طولها ، وتحمل شحنات تجارية بين الخرطوم وأرض شندى النهرية (٢١) .

وتتفاوت نوعية النقل بعيد المدى من جزءٍ لآخر بالنوبة . ففى المياه الصافية بالنوبة السفلى يُنقل كلُّ شئ تقريباً بالمركب فيما مضى ، وتحمل المراكب كذلك معظم الشحنات وكثيراً من المسافرين عبر أرض دنقلا النهرية ، بالرغم من أن هنالك درباً على طول الضفة الغربية للنيل على نفس النحو . في أرض عبرى ـ دلقو النهرية *وبطن الحجر* ، يتم النقل السالك الوحيد عن طريقٍ وعر للغاية وأحياناً بطريقٍ لا يمكن عبوره يحتضن في أماكنٍ ضفة النهر وفى أمكنةٍ أخرى يتبع مجرى متعرجاً يخترق الصحراء أميالاً عديدة شرق النيل . وعلى هذا الشريان الحياتى غير المستيقن تمر شاحنات ثقيلة الحمولة تحمل محصول البلح النوبى للتسويق بوادى حلفا ، جالبةً بعودتها تلك البضائع المصنعة (الأوانى ، القماش ، الأغذية المعلبة ، إلخ) التى تعتمد عليها المنطقة . حتى وقتٍ قريب للغاية ، حملت قوافل الإبل كذلك جزءاً من هذه التجارة . وفى أراضى شندى وأبو حمد النهرية . يتبع خط سكة حديدية ضفة النهر ناقلاً معظم الحركة السائرة .

بالرغم من أن أغلبية السكان النوبيين هم بالضرورة فلاحون يملكون الأرض ، فإن المنطقة توفر معيشةً عادية ، فوق ذلك ، لقلةٍ من خواص الصناع . وسط هؤلاء بناةٌ للمنازل ، وفنانون لتزيينها ، ونجارون ، وصانعو مراكب ، وبناة للسواقى ، وحدادون . وبما أن الطلب في أى مساحة معينة قابلٌ للتحديد ، فإن غالبية الصناع يتأتى عليهم أن يمارسو حرفهم إما على أساس وقت إضافى أو كتجار متجولين .

أصحاب الحوانيت يعتبرون نوعاً ما أكثر عدديةً من الحرفيين ، وبشكلٍ معتبر أكثر مجلبةً

للإحترام في المخطط الإجتماعي النوبي وتكاد كل قرية بأي حجم أن تتباهى على الأقل بمتجرٍ واحد صغير ، وربما لا يكون هذا المتجر أكثر من حجرة منفردة في منزل المالك بقدرٍ صغير من القماش ، وعلب الثقاب والأواني ، والشاي والسكر . إن صاحب المتجر في أكثر الأحيانْ فلاح بالمثل ، وقلما تتعدى القيمة الكلية لقائمة بضاعته بضعة مئات من الدولارات . وتوجد أنواع أخرى من أصحاب الأعمال بالنوبة من وقت لآخر وتشمل : شاغلي مقاهي الشاي والقهوة ، وسائقي الشاحنات وأصحابها ، وملاك القوارب التجارية ، والتجار الممولين الذين يقرضون أحياناً ملاك القوارب والشاحنات ، والمتاجر . أما المصارف المالية فتكاد لا توجد . بيد أن إقراض المال يضطلع به على نطاقٍ واسع ومربح أفراد أثرياء كثيرون . وتستثمر الإدخارات في الملكية العقارية والبضائع .

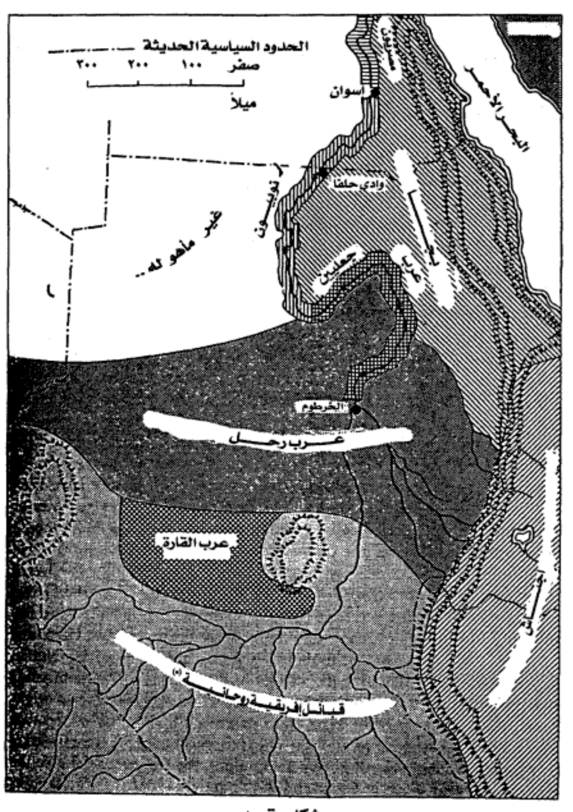
مع أن النوبة في غالبها أرضاً للقرى ، قادت مقتضيات التبادل السكني والحكومة الممركزة في أزمانٍ مختلفة من التاريخ إلى نمو المدن وما كان مصطلحاً عليه بنفس القدر في الأزمان القديمة مدائن . بلغ عدد سكان مروى في الأزمان المأثورة ودنقلا العجوز في العصور الوسطى عدة آلافٍ في الإحتمال ، بالرغم من أنهما انمحقا مذاك إلى خراب . المراكز « الحضرية » للأزمان الحديثة - الدر وعنيبة بالنوبة المصرية ، وادى حلفا ودنقلا العرضَى [22] في السودان - ذوات تطور قريب للغاية ، يقترن بالأنظمة الإستعمارية والقومية للقرنين التاسع عشر والعشرين . هذه الأماكن لا تشمل دواوين ومعينات حكومية وحسب ، وإنما أعمالاً خاصة مثل الفنادق والمطاعم ، ومحطات تموين الوقود ومحلات الصيانة ، والمصنوعات التجارية ، والأسواق (شوارع *السوق*) مصطفةً بكل أنواع لأعمال القطاعي الصغير . كانت المراكز «الحضرية» في الحاضر كما في الماضي بالضرورة جيوباً أجنبية بين ظهراني النوبة ؛ وكان أشدّ مسؤوليها أهمية وكثيرٌ من مقيميها الآخرين غير نوبيين (أنظر أدناه).

إستمر وادى النيل حتى الحقبة الثانية من القرن العشرين ، كما بأزمان باكرة ، في مد صلة السودان العمادية بالعالم الخارجي . إن المسافرين إضافةً إلى شحناتهم ساروا بالخط الحديدى من القاهرة إلى الشلال ، أميالاً قليلة جنوب أسوان على مدخل الشلال الأول . من هنا انتقلوا إلى بواخر النهر للرحلة إلى وادى حلفا ، بأسفل الشلال الثاني . ثم يذهبون من وادى حلفا مرة ثانية بالخط الحديدى إلى الخرطوم ، عبر الخط الصحراوى الذى أنشئ أصلاً من أجل حملة كتشنر لإعادة الفتح في ١٨٩٨ .

إن وادى حلفا وأسوان ، كونهما انقاط الشحن الرئيسة في تجارة النيل ، تفوقاً بما لا مهرب منه في تطورهما على المجتمعات الأخرى في النوبة أو قربها ، لمدى بعيد . قبل غمره في ١٩٦٤ ، كان لوادى حلفا والقرى المتناثرة حوله سكان يبلغون ٢٠٫٠٠٠ نسمة [23] ، بما في ذلك عدد كبير من الصناع ، وأصحاب الحوانيت ، والتجار ، والموظفون المدنيون . إن التهريب علاوةً على الأعمال المشروعة كان مصدراً أولياً للدخل بهذا المجتمع الحى ، إذ أن العملة الصعبة وقيود الإستيراد في مصر الناصرية ولّدت ميداناً خصباً للتجارة الخفية . في سوق وادى حلفا ، بوسع الواحد أن يحصل على كل نوعٍ للأدوات الكهربائية ، ساعات اليد ، وبضائع أخى غير مقصودة أبداً لعملاء محليين .

الأقـوام غيـر النوبيـة

كما ذكرنا مسبقاً ، ما كانت النوبة وقفاً محصوراً على النوبيين إلا نادراً إن لم يكن مطلقاً . فالحكام الأجانب والتجار ، والبدو الرحل ، والمهاجر المقيم كانوا دائماً وما انفكوا إلى اليوم جزءاً من المسرح النوبي . والأفراد المهاجرة سواء بسواء كادوا على الدوام ، عاجلاً أو آجلاً ، أن يُستوعبوا إلى داخل السكان الأصليين ، لكنهم في بعض الأحيان مكثوا بمقدار قرن أو إثنين أقلياتٍ غير متمثلة [24].



شكل رقم ٨

الجماعات السكانية الرئيسة فى النوبة والمناطق المجاورة

(*) أنظر الهامش السابق - المترجم .

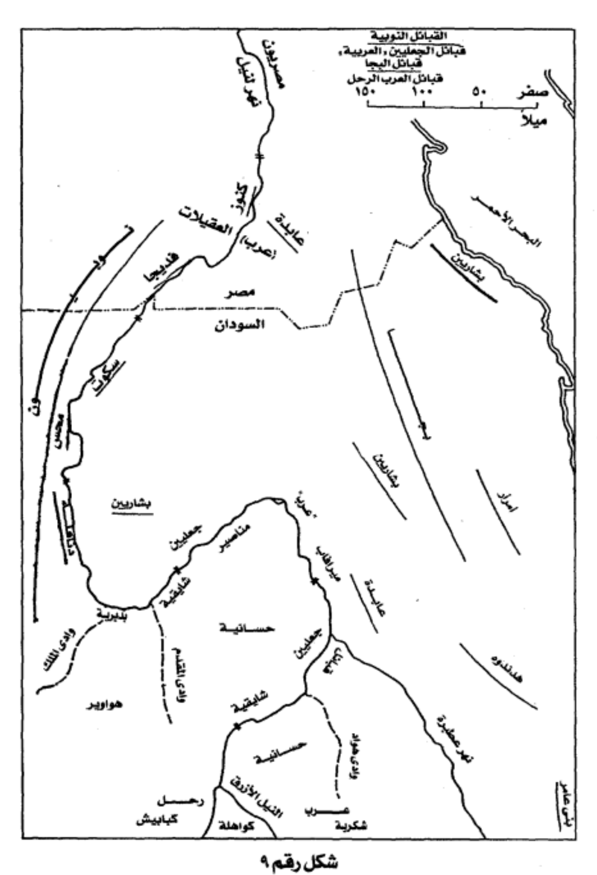
لربما كان أغلب الزوار وأحياناً المقيمون الأجانب في النوبة ، البدو الرعاة في تلال البحر الأحمر . لأن الصحارى التى تلاصق حدود النيل مباشرةً جرداء للغاية ، فيما عدا الجنوب القاصى ، لتقدم أى مستوى من المعيشة للناس أو الحيوانات ، ما اختبرت مصر أو النوبة التعايش الحميم ولا الصراع الدائم بين الصحراء والزرع الذى كان سمةً مميزة لأجزاء أخرى في الشرق الأوسط . بصرف النظر عن ذلك ، فإن المرتفعات الأعلى بالقرب من ساحل البحر الأحمر ، من خمسين إلى مائتى ميل شرق النيل ، دَعَّمت ردحاً طويلاً سكاناً بداة . طوال التاريخ ظهر هؤلاء الناس بطريقةٍ متقطعة بوادى النيل (غزاةً ومستوطنين) . وبعد ١٢٠٠ ميلادية سبَّبت الهجرة واسعة النطاق للعرب البداة إلى مصر والسودان إنتشاراً سريعاً للحياة الرعوية عبر السودان الأوسط أيضاً ، لتؤثر عميقاً في الحضارات النهرية العتيقة .

وهنالك قومان رئيسان من البداة لعبا دوراً في التاريخ النوبى : البجا والعرب . والأسبق ذكراً ، الذين خلدهم كيبلنق أنهم « فزى - وزى» (أشباح غامضة) ، هم السكان الدهريون لتلال البحر الأحمر (قارن الشكل رقم ٨) ؛ إن لغتهم الحامية (أو الكوشية) تصلهم بأقوام أخرى سابقة للعربية في معظم إفريقيا الشمالية . ويمكن أن يتعرف على البجا كأحفاد *للمدجاى* [٢٥] ، شعب ظهر في النصوص المصرية في وقت باكر يعود للأسرة السادسة (تقريباً ٢٤٠٠ق . م) [٢٦] . ولشئٍ من الحماية من غارات النهب التى يشنونها ، شَيّد فراعنة الدولة الوسطى سلسلةً من القلاع الهائلة على الحدود بين النوبة السفلى والنوبة العليا . المدجاى تُذكر في تشكيلةٍ من النصوص في مصر الأثرية ، وتكاد دائماً ترتبط بالحروب أو الغارات . فلئن كان بوسعهم أن يشكلوا قلقلةً موسمية لحكام مصر البعيدين ، فإن تهديدهم لفلاحى النوبة الذين لا يملكون دفاعاً لابد أنه كان وافراً للغاية . مع هذا ، نجد في أزمانٍ متأخرة أن النوبيين والبجا اقاموا في بعض الأحيان علاقةً مشتركة لمهاجمة النقاط الخارجية للتخوم الجنوبية لمصر ، على وجه التدقيق في الفترات غير المستقرة من العصر الرومانى المتأخر والعصور الوسطى .

وبالرغم من سمعتهم القتالية فقد ظلت أقوام البجا بدائية الحياة وروحانية المعتقد(*) حتى العصر المسيحى وتجولوا أغلب الأمر جماعاتٍ في حجم العائلة ، رعاةً لقطعان صغيرة جداً وباحثين عن الكلا بثبات . طبقاً لتريمنغهام ، « يعرضون صفات مجتمع أبوى ، الوحدة فيه هى العائلة . لم يكونوا صانعى تحركات إجتماعية منظمة عظيمة مثل قبائل العرب ....» [٢٧] ربما خلخلوا السلم عبر أزمان ، في النوبة ، إلا أن مستوى تقنيتهم البسيطة لم تشكل تهديداً دائماً لأمن سكان الوادى . يبدو نقيض ذلك أن تعايشاً سلمياً ساد بين البدو والفلاحين ، ما خرق إلا بشكلٍ متقطع . وربما أن بعض جماعات البجا ، كانت خاضعةً ، وتدفع الجزية ، لإمبراطوريتى نبتة ومروى النوبيين ، واستقرت جماعات من البجا من فترة لأخرى وسط النوبيين وتبنت حياتهم الجلوسية . وأسهمت هذه الملامسة على مر القرون مساهمةً غنيةً في المجرى الغالب ؛ إن لم يكن ، في ثقافة سكان وادى النيل [٢٨] .

وتعتبر قبيلة العبابدة لصيقة الإقتران بمستوىً دقيق بالنوبة ، حيث كان مرتعها الأصلى ذلك القسم من تلال البحر الأحمر الذى يقع مباشرةً إلى الشرق من النوبة السفلى (الشكل رقم ٩) . وقد وجدت قرى لقبائل العبابدة في الماضى القريب بأماكن مختلفة في النوبة المصرية ، مبعثرةً بشكل أو آخر بين قرى النوبيين . أما المهاجرون فقد تقبّلوا فيما كاد أن يكون تقبلاً كاملاً أسلوب الحياة الزراعى الذى انتهجه جيرانهم ، لكنهم لم يخسروا بعد حديثهم القديم أو إحساسهم بالهوية المنفصلة [٢٩] . تتعلق جماعات عبابدة أخرى بحياة بدوية كانت تقيم موسمياً بالنوبة ، راعيةً لقطعانها بامتداد تخوم النيل جزءاً من كل عام ، في مصر وفى السودان معاً [٣٠] .

(*) أنظر الهامش السابق - المترجم .



شكل رقم ٩
قبائل النوبة والمناطق المجاورة

ما يبدو توازناً راسخاً بين الفلاحين النوبيين ورعاة البجا هو حصيلة إنقلاب جذرى في العصور الوسطى ، عندما بدأ الغرب البداة في التدفق إلى داخل السودان (قارن الفصل السابع عشر). إن كثيراً من هؤلاء الناس هاجروا منذ أمد بعيد من شبه الجزيرة العربية وسوريا إلى مصر العليا ، ومنها أُخرجوا بسياسة المماليك المعادية بخُشونةٍ للبدو ، زاحفين جنوباً بإختراق تلال البحر الأحمر ، وتسللوا وتزاوجوا في البداية مع قبائل البجا ، التى جرى تحويلها في العملية سريعاً للإسلام . من هنا انعطف مدّ الهجرة صوب الغرب إلى النيل ، وفيما وراءه لكردفان ودارفور (قارن بالشكل رقم ٨١) ، وبمضى الوقت أضحى العرب والبجا المستعربة سائدين سياسياً في مملكة المقرة النوبية القديمة (دنقلا) ، بحاصلٍ في تحويل عائلتها المالكة من المسيحية إلى الإسلام في القرن الرابع عشر . إن مد الهجرة العربية نتج عنه في نهاية المطاف إستعرابٌ أكثر كمالاً للنوبيين الجنوبيين (بأعالى الشلال الرابع) إضافةً إلى ذلك ، لم يفقدوا ديانتهم فحسب إنما لغتهم النوبية أيضاً . هؤلاء الناس هم الذين يُدْعَون اليوم قبائل الجعليين " العربية " ، الجيرة الجنوبية للنوبيين الحقيقيين (الشكل رقم ٨) . " هذه القبائل " كما يذكر تريمنغهام " لا تملك إلا بالنسبة الأصغر من الدم العربى ، ولا يمكن تمييزها عرقياً من الدناقلة (النوبيين) ، ومن الأحسن أن تصنف معهم " (٣١) .

فى أزمان حديثة ، وُجدت جيوبٌ غير متمثلة من عرب حقيقيين ومن نوبيين مستعربة معاً بين حدود النوبة . في الشمال ، إستوطن عدة مئات من عرب العقيلات (أو عليقات) حول المحرقة ، فشكلوا فاصلاً بين النوبيين الناطقين بالكنزية والمتحدثين بالمحسية (٣٢) . في *بطن الحجر* ، وصارت قرية امبكول مأهولةً بأجمعها «بعرب» الشايقية (النوبيين سابقاً) (٣٣) . إن كلاً من الجماعتين ، وقد كانوا فيما مضى مُلاكاً للإبل ، جاؤوا النوبة في الأصل ليعملوا في تجارة القوافل ، ومنذ أن أجهز تطور مُعينات النقل الحديث على معيشتهم التقليدية أو على الأقل قام بتقويضها ، ما كانت لهم سوى خبرةٌ قليلة فيما عدا الأخذ بالحياة المستقرة للفلاحين ملاك الأراضى الزراعية أو مستأجريها .

إن الأكثر أهميةً اليوم من البدو ، التجار والموظفون الأجانب الذين يكونون جزءاً كبيراً من السكان في مدن النوبة القليلة . في عام ١٩٦٠ ، شمل سكان وادى حلفا البالغين ٠٥٦ر١١ فرداً منهم ١١٩ ر٣ فرداً مصنفين « أجانب » . من هذا العدد كان الجميع باستثناء ٩٠ مصرياً ـ معظمهم من الأقباط . يقيم أجانب آخرين شملوا ٥٨ من شرق إفريقيا ، ثلاثة من شمال إفريقيا ، واحداً من غرب إفريقيا ، واحداً أثيوبياً ، عشرة لبنانيين وسوريين ، وسبعة هنود (٣٤) . الجماعات الأخيرة في معظمها عاملةٌ بالتجارة ، بينما كان المهاجرون الأفارقة في المقام الأول مزارعين مستأجرين يفلحون قطعاً زراعية صغيرة إستأجروها من النوبيين . أما في النوبة المصرية ، فكان عدد كبير من المصريين بمصر العليا (*صعايدة*) عاملين إما فلاحين أُجراء أو مشاركين في المحصول (٣٥) .

إشتهرت دنقلا طويلاً « بسوقها الأبيض» ، مما يعنى أن تجار المدينة ـ مع أنهم مواطنون سودانيون في الغالب ـ بيض البشرة بوضع ملحوظ للغاية مقارنة مع المقيمين في المقاطعة المحيطة بهم . إنهم في الحقيقة مصريون خُلّص الأصلِ بالتقريب ، ويقال : إن وجودهم بدنقلا يرجع إلى الوقت الذى أُخرج فيه حكام المماليك من مصر وهربوا إلى النوبة في مطلع القرن التاسع عشر .

أقليةٌ أخرى لا تندثر إلا بالتدريج تكوّن أحفاد الرقيق الماضى . وقبل تحريم الرق في بداية القرن الحالى إمتلك عدد كبير من النوبيين أرقاء على نطاق صغير . كانوا من أصلٍ سودانى جنوبى في الغالب الأعم . يحيا أحفادهم اليوم بقسط رئيس في ، أو بالقرب ، من المدن الكبرى ، حيث يعملون كعمالٍ أو فلاحين أُجراء ؛ وقلة منهم تملك أرضاً . وبالرغم من أنهم الآن مسلمون ناطقون بالعربية ، يتواصل وضعهم بلون صبغتهم شديدة الحِلكة وسلالة الرق المعروفة عنهم . ولا يعتبرون قرناء زواج مرغوباً فيهم من النوبيين ، وما استُوعبوا إلا ببطءٍ شديد في داخلِ السكان السائدين . وقد أماطت دراسة قريبة العهد ومتبصرة للغاية لقريةٍ سودانية شمالية اللثام عن أن أحفاد الرقيق لا

يستمرون في معاناة الإعاقات الإجتماعية وحسب ، ولكنهم ليسوا مُحررين تماماً بأى شكلٍ من الأشكال مما أُلزموا به نحو أسيادهم السابقين [٣٦] .

الهجرة الخارجية

إذا كانت أعداد الأجانب قد جاءت أزماناً لتستوطن في النوبة ، فقد كانت هنالك في كافة جنبات الفترة التاريخية هجرةٌ خارجيةٌ مقدرة للسكان الأصليين على حد سواء ، أو على الأقل لذكورهم الأقوياء . خدم النوبيون في أزمان قديمة في جيوش الفراعنة ، وإلى جانب ذلك بالخدمة المنزلية في بلاطات مصر . وبعضهم كان دونما شك من الرقيق ، لكن اخرين بدا أنهم هاجروا طوعاً إلى القطر الشمالى في بحثٍ عن معيشة أكثر أمناً أو حياةً أكمل مما كان متاحاً من موارد النيل الشحيحة . وتوحى كل البينة بأن نمط هجرة العمل النوبى (الذى كان فيما يظهر قد أُنشئ مبكراً زمن الأسرة المصرية السادسة [٣٧]) يتواصل بلا اعتراض حتى أزمانٍ حديثة . إن خلفاء مصر الفاطميين إعتمدوا في القرون الوسطى إعتماداً ثقيلاً على الفرق النوبية لتدعيم حكمهم ، بينما في القرن الخامس عشر ، وثانيةً في القرن التاسع عشر ، قيل أن النوبيين سيطروا على الروابط المهنية لعمال التشييد ، والمراقبين ، وسماسرة الرقيق في القاهرة [٣٨] . وما من معلومةٍ محددة متوافرة في الأزمان المبكرة ، إلا أنه يبدو محتملاً أن كثيراً من المهاجرين النوبيين كانوا ـ كما الآن ـ يتركون أسرهم في الوطن لرعاية القطعان والحقول القديمة ، عائدين إلى النوبة لزياراتٍ موسمية ربما ليتقاعدوا هناك في أعمارهم المسنة .

هيأت بدايات التصنيع ونمو المدن في القرن التاسع عشر سوانح كثيرةً جديدة للعمل النوبى المهاجر ، وارتفع النزوح إلى فيضان جارف عقب تدمير بناء سدود أسوان الأولى لكثير من الموارد الأصلية للنوبة المصرية . قدّر (فرنيا) في عام ١٩٦٤ انه كان هنالك نوبيون مصريون يعيشون خارج موطنهم يبلغ عددهم ضعف المقيمين فيه [٣٩] . وبالرغم من أن الموارد الإنتاجية للنوبة السودانية لم تكن متأثرةً بسدود أسوان الباكرة ، فإن نمط هجرة العمل كان متقدم النشاة هنا إضافة إلى ذلك : سجل تعداد عام ١٩٦٠ للمنطقة المحيطة بوادى حلفا ٢٧٫٤٢٢ مقيماً و١٤٫٤٣١ غائباً [٤٠] . وأصبحت النوبة في القرن العشرين بقسم كبير منها أرضاً للنساء ، والأطفال ، والشيوخ ، حيث غادر الذكور الأقوياء إلى الخارج سعياً وراء العمالة . وفي مراكز مصر والسودان الحضرية إكتسب النوبيون (ولا يزالون محتفظين بما كسبوا) إحتكاراً فعلياً لمهنٍ عديدة للخدمة ، بما في ذلك على الأخص مهن الطاهى ، وعامل المطعم ، وخادم المنزل ، ومراقب العُمال . ويعود المهاجرون كل عام أو عامين لزيارات مختصرةٍ لأسرهم ، ويرسلون مالاً وهدايا من الخارج في كثيرٍ من الأحيان ما بين تلك الأوقات .

وسواء في القاهرة أم في الخرطوم ، يستمسك العامل المهاجر بحسه بالهوية العرقية وبالالتزام نحو ذويه . ومع أن إقاماتهم ربما تكون مبعثرةً على مستوى واسعٍ في أرجاء المدينة ، فإن النوبيين في الخارج ينضمون إلى «روابط القرى» التى تُبقى علاقاتهم حيةً مع بعضهم البعض ومع مجتمع الوطن . إن بعض هذه المظمات درسها أندرياس والترود كروننبرج في سنة ١٩٦٣ ، وهى موصوفة منهما كما يلى [٤١] :

يتّحد النوبيون العاملون بالخارج في جمعيات لها مصلحة مشتركة بموطنهم الأصلى . وهذه الجمعيات وسيلة لنقل الروابط الإجتماعية التى تعتمل في *البلد* (القرية) إلى محل كسب الأجر ، وتمد المهاجرين الباحثين عن العمل بالأمن الإجتماعى الضرورى . كذلك فإنها تسهم في الإستقرار الإقتصادى والإجتماعى *للبلد* ، ولها ميل للإسراع بالتقدم والتنمية الإقتصادية في مجتمع الوطن من خلال جمع المال للمشاريع التعاونية مثل الطواحين ، المستشفيات ، المدارس ، والرى الرافع . هكذا تزيد التنمية الحديثة بدرجةٍ معينة أهمية روابط

المنطقة المحلية وأهمية المعمرين كوجوه متميزة في كل منطقة محلية مع أنهم أقل ظهوراً للعيان . إن الإحساس بكينونة جماعة مفردة تتقاسم نفس العادات تتضاعف في الأجواء الأجنبية ، وكذا يفعل تماسك الناس من المنطقة المحلية الواحدة .

بالرغم من أن تقسيمات *البلد* هي أساس الجمعيات النوبية في أماكن كسب الأجر ، فهناك علاقة ما بين الموقف الإيكولوجي (*) في *البلد* ، وكثافة سكانها ، والجمعيات : إن لم يكن هنالك أناس بما يكفي من *بلد* واحد ، فإن الرجال من *بلدين* أو أكثر سوف يتحدون في جمعية واحدة . أرض الحجر مساحة جغرافية كبيرة جداً بسكان قليلين عدداً . أما *البلاد* شمال وادي حلفا فمأهولة نسبياً وتحتل مساحة صغيرة نسبياً . لذلك فإن كل *بلد* بالتقريب شمال حلفا له جمعية تتعلق به في أماكن كسب الأجر .في حين إن أرض الحجر لها بالضبط جمعية واحدة في الخرطوم . لكنها متينة التنظيم بحيث أن هناك تظاهراً أقرب وسط أعضائها من *البلاد* المجاورة ، أكثر مما هو كائن بين أولئك القادمين من بلاد أنأى مسافة.

ولإعادة تكييف حدود *البلد* معقباتها في الجمعيات بالخارج . فعندما انفصمت عكشه بعيداً عن سَرّة غرب ترك رجال عكشة العاملون في الإسكندرية والقاهرة جمعية سَرّة غرب ، وأوجدوا جمعيةً لشأنهم ، ثم إن كلاً من الجمعيتين ولجتا إلى منافسة ، وتحاول كل منهما أن تسهم بمزيد من المال *لبلدهم* أكثر من الأخرى . أسرعت جمعية سَرّة غرب بجمع المال لمشروع ري رافع كيما تبرهن أنها لم تعتمد على مساهمات رجال عكشة . وقبل الإنفصال ، جمعت ٣٠٠ جنيه سوداني في ثلاث سنوات ، بينما جمعت بعد فض الشركة ٥٠٠ جنيه سوداني في شهرين فقط و٣٠٠ جنيه سوداني إضافي في ثلاثة شهور أخرى . وكان هذا كافياً لشراء طاحونة ورافعة إلى جانبها

إضافة إلى الهجرة الخارجية المؤقتة للعمال بالأجرة ، كانت هنالك إعادة دائمة لإستيطان العائلات النوبية ، بل قرىً بأجمعها في بعض المرات ، من قبل أن يجعل تدمير موطنهم من ذلك ضرورةً للكثيرين . إن قرى عديدة في ضاحية الخرطوم الحديثة تنحدر جزئياً أو بأكملها من مهاجرة نوبيين . خلافاً للأفراد المهاجرة ، تزاوج أولئك القرويين الذين أعادوا توطنهم مع أناسٍ محليين بحرية ، وفقدوا لغتهم النوبية وكل إحساس آخر بالهوية الخاصة (٤٢) .

من الجانب الآخر ، لاذ نوبيون كُثُر في عنادٍ بأرضٍ أسلافهم الصخرية حتى من بعد أن أنهى فقدان حقولهم أي فرصةٍ لإنتزاع معيشة منها . وعندما أُنشئ سدّ أسوان المنخفض ، إختارت معظم قرى النوبة المصريين أن «يظلوا منغرسين في ثبات »، معيدين البناء على مستويات أعلى بمحاذاة الشاطئ الصخرية للبحيرة الممتلئة حديثاً . إن غياب أشجار أو زرع نابت أفاض عليهم مظهراً إنفرادياً مهجوراً ، وكانوا لثلاثة أجيال يُدعمون بقسطٍ كبير من أموال العاملين الغائبين من سكانهم الذكور . وفي وقت أكثر قرباً رفض عدد معتبر من السودانيين النوبيين أن يقبلوا الأرض الجديدة التي عُرضت عليهم في وسط السودان ، محبذين أن يأخذوا فرصهم على طول شواطئ بحيرة ناصر المملوءة حالياً . وآخرون تقبّلوا الأراضي المخصصة لإعادة التوطين في «حلفا الجديدة » (أنظر الفصل التاسع عشر) قاموا بتأجير أراضيهم إلى مقيمين ورجعوا إلى مزارعهم القديم .

مع هذا ترك بناء السد العالي غالبية النوبيين بالنوبة السفلى بلا اختيار سوى السعي لديار جديدة . وإن أولئك المقيمين في مصر لم يُمنحوا في الحقيقة خياراً للبقاء في أرضهم القديمة ؛ أُغلقت المقاطعة بأجمعها بين أسوان والحدود السودانية دون الإقامة . ثم منحت الحكومة المصرية مواطنيها النوبيين أراضي جديدة وديارا جديدة في كوم أمبو ، على مسافة قصيرة شمال أسوان . أما النوبة السودانيون من أهالي المنطقة المنكوبة فقد هُجروا في مكان أكثر نأياً عن الوطن ، على امتداد أعالي نهر عطبرة ليس بعيداً عن الحدود بين السودان وأثيوبيا . هنا هيأت الحكومة حيازات أرض جديدة متسعة ورتلاً كاملاً من قرىً أُنشئت لأول مرة ، كل قرية تحمل إسم واحدةٍ من القرى المغمورة بالنوبة القديمة : حلفا الجديدة ، فرس الجديدة ، سَـرة الجديدة ، وهلمّ جرّا . ولا يزال

(*) علاقة البيئة بالأحياء – المترجم.

الوقت مبكراً جداً لقياس الأثر الكامل لهذا الغرس المنقول على أم المجتمع والثقافة النوبية ، بيد أن بعض مناقشة عنه سوف يُعثر عليها في الفصل التاسع عشر .

ملامح المجتمع النوبى

تبيّن المناقشة السالفة خمس صفات للمجتمع النوبى الحديث مهمة لفهم التاريخ النوبى . أولاً ، إنه مجتمع مفتوح للفلاحين المقيمين مُلاكاً أو مُستأجرين ارجع منه واحداً مُغلقاً أو قبلياً . ومع أن النوبيين لهم حِسٌ قوى بالتميز العرقى ، فإنهم لا يحاولون صونه عن طريق الحدود الجغرافية ، ولا يستبعدون الأجانب من حويتهم . إن الدخلاء ، غرباء في الحديث والمظهر وأحياناً في الدين فضلاً عن ذلك إستطاعوا أن يقيموا بينهم على قدم المساواة أفراداً أشدّ تقبلاً للنفوذ الخارجى وللتغير الثقافى عما ظلت عليه المجتمعات القبلية المسدودة لأقوام جنوب السودان .

ثانياً ، المجتمع النوبى ليس مُرتّباً طبقياً بشكل ملحوظ على أساس خطوط مهنية ، لكنه لا يزال لحدٍ قائماً على طوائف عبر خطوط عرقية . وفى القمة صفوة صغيرة من تجار وموظفين مدنيين مصريين (وفي حالات محدودة للغاية سوريين أو لبنانيين) ؛ وبالقاع أحفاد الرقيق الماضى ، ومعظمهم من أصل جنوبى سودانى .

ثالثاً ، يشتمل الإقتصاد النوبى تركيبةً من الفلاحة المعيشية ، تربية الحيوان ، وإنتاج البلح التجارى . هذه القاعدة المعيشية المركبة ، بالرغم من فقرها ، أسبغت على النوبيين تكيفاً ومرونة معينةً في وجه كل من البلاء الطبيعى والقمع البشرى ، ومكّنتهم من البقاء على قيد الحياة والرخاء مرات كثيرةً في بيئة غير واعدة .

رابعاً ، المجتمع والإقتصاد النوبى تكاملا مع مجتمعات وإقتصاديات السكان المجاورين زمناً طويلاً من ناحية جزئية ، واعتمدا عليها . ويصدق هذا فيما يتعلق بالمصريين وبدو الصحراء .

وأخيراً ، قلّما كان ظل مصر غائباً عن الأرض . فاذا هَبَّ البدو أحياناً لـلإغارة ، جاء المصريون ليحكموا . وعندما تزاوجوا مع النوبيين ما كان ذلك ليُستوعبوا في بوتقة سكان محليين ، كما في حالة البدو ، إنما لتزيد سيطرتهم عليهم . إن التركيز الغامر لرأس المال والتجارة في قبضة تجار مصريين بوادى حلفا ودنقلا في عام ١٩٦٠ لا يكشف إلاّ حالةً مافُتئت طاغيةً في النوبة منذ بداية التاريخ .

الفصل الثالث

التاريخ وعلم الآثار في النوبية

نعلم أن النوبة كانت على الأقل محتلةً بصورة منقطعة منذ العصر الحجرى ، لكننا لا نستطيع أن نستيقن أنها كانت دائماً موضع إقامة من نفس القوم . ما من صفات سلالية أو لغوية أو ثقافية نستطيع مراقبتها في السكان الحديثين يمكن تتبع أثرها بإستمرار خلال التاريخ . بَيِّنة الحديث النوبى مفقودة قبل العصور الوسطى ، والَبيِّنة العرقية ، كما أعيد إنشاؤها مبدئياً من بقايا الهياكل البشرية ، غامضة في أفضل الحالات . وتبدو الثقافة النوبية مُبَينة لتطور متواصل بدرجة عالية من البداية إلى النهاية ، إلا أن هناك إعتراضات كافية في القصة بحيث أن الخُلوص إلى شعب مفرد بأى حال من الأحوال لا يسمو على الجدل .

تفسير التأريخ النوبى الذى تنامى في مطلع هذا القرن ، والذى لا يزال كامناً وراء معظم النظرية الحديثة ، يطرح أن المنطقة كانت مأهولةً بأُناس متعاقبين غدوهم ورواحهم مسؤول بقدر كبير عن تغيرات الثقافة في التاريخ النوبى . وكما اقترحتُ في المقدمة ، إن هذا الرأى مفهوم بالنظر إلى المعرفة المحدودة (ويتعلق حجمها بالتقريب بالنوبة السفلى) التى وُجدت في الحقبة الأولى من القرن العشرين ، لكنها لم تعد صامدةً في ضوء البينة الحديثة . في المنظور الأوسع للنوبة الذى توافر لنا الآن ، يمكننا أن نصور عمليةً متواصلة من التنمية الثقافية ، غير مهم فيها هوية ممثلين يتمتعون بأى وضع خاص . علينا ، لذلك ، أن نقدر بإيجاز كيف ولماذا تطورت النظرية السابقة للتأريخ ، وأين انحرفتْ في تأويل البَيِّنة الموجودة ؟

صورتنا للتأريخ النوبى اليوم مستمدةٌ من مصدرين : وثائق تأريخية وبقايا أثرية . إن الطبيعة المتناوبة ، ذات التميز الملحوظ للتأريخ النوبى المدون ، بتبادلها الفترات الموثقة والعصور المظلمة جعلت من تلك الأرض الملتقى الأوفى لعالم اللغة ولعالم الآثار « الخربة » . كل واحدٍ منهما ملزم بأن يدرس على الأقل لدرجةٍ ما نتائج الآخر إضافة إلى مناهجه ؛ إستجمعا معاً صورة لتطورٍ ما كان بمقدور أيٍ منهما أن يأمل في تحقيقها وحيداً .

ومع ذلك إن علم الآثار بكليته ربيب للقرن العشرين في النوبة . وكل ما عُرف عن تاريخ الأرض الجنوبية قبل ذلك الزمن عُلم من المدونات النصوصية - مصنَّفة أغلبها من غير - نوبيين ، بلغات أجنبية ، أحياناً كثيرةً من مصدر ثانوى بعيد . ومن مثل هذه المادة نُسقت المحاولة الأولى لتأريخ شمولى للنوبة في بداية القرن العشرين .

المصادر التأريخية

مؤلف واليس بدج *السودان المصرى* (١) ، المكتوب لإحياء ذكرى إستعادة القطر من الدراويش(*) ، لابد أنه يخدم نقطة إنطلاقٍ لأى مناقشة للمصادر النصوصية في التأريخ النوبى . فلأنه كُتب بالضبط من قبل إستهلال علم منظمٍ منهجياً للآثار ، وهو لذلك مجموع على إطلاقه من مصادر حرفية ، تعكس حكاية بدج على وجهُ الدقة كلاً من مدى وحدود المادة التأريخية في شأن النوبة . إن

(*) انصار المهدية - المترجم.

المعتادين على التفكير عن " إفريقيا الأشد ظُلمةً " ربما تصيبهم الدهشة من المعرفة التى امتلكها القدماء بدقة ؛ أما أولئك الذين يتوقعون العثور على تأريخ موصول فلا يملكون سوى تلقى صدمة التجاويف الهائلة في المدون .

أدى بدج عملاً متقناً وواعياً بمستوىً جديد بالذكر ليلملم شظايا المصادر المبعثرة عن النوبة وهى كائنة في نصف دستة من اللغات . *والسودان المصرى* لا يزال ، بعد ستين عاماً لاحقة ، الجسد المكّون للمادة النّصية في التأريخ النوبى . تقع المصادر من حيث الترتيب الزمنى واللغوى في ست مجموعات:

١ ـ النصوص المصرية الهيروغليفية ، من الأسرة الثانية إلى الأسرة العشرين .

٢ ـ النصوص النوبية الهيروغليفية للفترة النبتية .

٣ ـ أعمال تأريخية وجغرافية من مؤلفين قدماء

٤ ـ تواريخ القرون الوسطى الكنسية .

٥ ـ تواريخ وجغرافية العرب بالقرون الوسطى .

٦ أعمال رحالة أوروبيين في الفترة الحديثة الباكرة .

فيما عدا ما بالمجموعتين الثانية والسادسة فإن عدد المصادر الأولية صغير بالطبع . معظم الأعمال القديمة والوسطى مكتوبة بمصادر ثانوية نائية للغاية ، وقد أطلق مؤلفوها في بعض المرات لخيالهم العنان ليمدهم بما افتقدوه من معلومات في مصادرها الحقيقية الأصلية .

النصوص المصرية

تظهر كوش وأسماء مصرية قديمة أخرى للنوبة في عدد غزير من النصوص الهيروغليفية والمنسابة ، لكنها في مجموعة كثيرة منها موضع لا يتعدى إشارة عابرة . طوال ٣٠٠٠ عاماً باكملها من العلاقات الفرعونية ـ النوبية هنالك بالكاد نصف مائة من النصوص التى تعنى بكلياتها أو حتى بشكل أساسى بالشؤون النوبية [٢] . لقد قُصد منها كلها بالطبع الإحتفال بإنتصارات ومغانم مصر أو المصريين أكثر من نقل أى وصف موضوعى للأرض الجنوبية ، وقيمتها الرئيسة موجهةٌ لإعادة إنشاء التأريخ السياسى والإقتصادى . لجوانب أخرى للحياة النوبية لزامٌ علينا أن نقرأ ما بين السطور ـ ممارسةٌ مريبة دائماً ، تتضاعف إرتياباً حينما تنأى الأسطر نفسها عن الصفاء .

إن أقدم مُدَون تأريخى معلوم يتصل بالنوبة ينتمى فيما يكاد لفجر التأريخ نفسه . تمثلاً مرسوماً ، وُجد على نتوء صخرى بالقرب من الشلال الثانى ، يُحّى بشكل ظاهر ذكرى نجاح عسكرى لفرعون الأسرة الأولى جير (أو زَير) على عدو محلى [٣] . نحوتٌ أخرى ، وجدت بمصر ، تحّمل ذكراً موجزاً لبعثات عسكرية إلى النوبة في الأسرتين الثانية والثالثة ، ومنذ فترة لاحقة لمدى يسير هنالك رسوم خطية للمكتشفين والمنقبين من أماكن متنوعة بالصحارى النوبية . من الأسرة السادسة يجئ نصان طويلان لسيرة حياتية يسردان عمليات عسكرية وتجارية معاً في السودان . إنهما أشد تفصيلاً بكثير من أى شيئ سابق ، ويتيحان أول رؤية لنا إلى باطن الأحوال الثقافية في الأراضى الجنوبية .

يقرب الا يكون هنالك مدون كتابى للعلاقات المصرية ـ النوبية خلال المرحلة الإنتقالية الأولى (الأسر السابعة إلى العاشرة) [٤] . شَنَّت الأسرة الحادية عشر فيما يبدو حرباً متقطعة الحدوث في الجنوب ، واضعةً المرحلة لفتح وإحتلال النوبة السفلى من قبل الفراعنة الأوائل للاسرة الثانية عشر . إن عروض حملاتهم ، وإعلانات السيادة المصرية ، هى الوثائق العمادية في أمر النوبة في الدولة الوسطى . بعد الأسرة الثالثة عشر يصمت المدون ثانيةً لزمن معتبر ، حتى تكرر قصة الغزو

والإستغلال بشكلٍ يبدو حرفيا في ظل الدولة الجديدة .

نصوص الدولة الجديدة (الأسر الثامنة عشر حتى العشرين) مُدّون كئيب للعمليات العسكرية في مواجهة سكانٍ يظهرون بلا دفاع . ليس أقل من ثمانية ملوك يزعمون أنهم فتحوا أو أعادوا فتح أجزاء من النوبة ، مع أن المدى الأثرى يشير إلى إحتلالٍ مصرى متواصل كبيراً كان أم يسيراً (٥) . بعض هذه البعثات ما كان بالإمكان أن تصير سوى غزوٍ للإسترقاق ، متخفية بفلالة تتذرع بإستعادة زمام النظام المدنى . يسجل آخر مُدّون نَصى للحكم المصرى في النوبة إستلام جزية في عهد رمسيس التاسع . قروناً عقب زمانه هنالك صمت آخر ، حتى أخذ النوبيون أنفسهم بأطراف القصة .

يمكن الحصول على أخبار إضافية حول النوبيين الأوائل من بَيّنة الرسوم للمعبد المصرى وتصاوير مقبرته . إنها تبين في أكثر الأحيان أسارى وخدماً من الأراضى الجنوبية ، يدركون بسهولةٍ من ملامحهم وفى حالة الرسوم الملونة ، من لون بشرتهم . يمكننا أن نتعلم منهم شيئاً عن مظهر وملبس الناس ، والأدوار التى كان بوسعهم شغلها في النظام الإجتماعى المصرى .

النصـوص الهيروغليفيـة النوبيـة

النوبيون ـ أو على الأقل ـ الملوك النوبيون إغتنموا سانحةً في النهاية ليدونوا رؤيتهم الذاتية للتأريخ بعد فتحهم لمصر في القرن الثامن قبل الميلاد . كحكام للأرض الشمالية ورثوا جهاز الدعاية المنمقة الذى مضى بإمرة الفراعنة دائماً ، وما كانوا مُبطئين في إستعماله . فلئن كانت إعلاناتهم ووقائعهم الملكية يصعب أن تختلف في الأسلوب أو المادة عما كان للفراعنة الأوائل والمتأخرين فإنها على أقل تقدير تعرض ـ لأول مرة في التأريخ ـ وجهة نظر مؤيدة للنوبيين . كانت بالرغم من ذلك مخطوطةً من كتبة مصريين باللغة والحروف المصرية ، ولابد أنها خاطبت في جزءٍ منها جمهوراً مصرياً : وكثير منها ما كان وثائق « نوبية » بالمرة ، لكنها وقائع حكام نوبيين سيصيرون حكاماً لمصر . إنها تخبرنا أبعد من ذلك عن الحياة في موطن النوبيين مما تخبر به النصوص المصرية لأزمان أخرى .

من وجهة نظر التأريخ السياسى ، من الجانب الآخر ، تملك نصوص الفترة النبتية (عصر الحكم النوبى في مصر والقرون التالية مباشرةً) على الأقل نفس القدر من الإهتمام مثلما تطورت عليه وقائع عهود سابقة . بارزةٌ بينها لوحة بعنخى ، الذى فتح مصر ، وتهارقا ، الذى خسرها . من القرنين اللذين أعقبا تهارقا هنالك ثلاثة نقوش ملكية بطولٍ معتبر ، كلها تسترجع أحداث عمليات عسكرية داخل السودان ولو أن ملوك نبتة احتفظوا باللقب الفرعونى المأثور «سيد الأرضين» (أى مصر العليا والسفلى) ، فليست هناك بَيّنة أنهم قاموا بأى جهدٍ عملى لتأكيد وجوده بعد زمن تهارقا . إن نَصْب نستاسن ، الذى يؤرخ الآن حوالى ٣٣٦ ق . م. هو آخر نص متماسك تأريخياً من أصل نوبى . لا توفر لنا النقوش المتأخرة إلا قليلاً من أسماء الحكام ، ولا يمكن ترتيبها في نفس الوقت بتعاقب باد.

إنه من حسن الطالع في حسٍ واحد أن الملوك النبتيين إختاروا اللغة المصرية وحروفها لوقائعهم الملكية ، لأنه يعنى أننا يمكننا أن نقرأها دونما شقة . من الجانب الآخر فإننا محرومون من أى دالةٍ على الحديث النوبى الأصلى ، وعلى الهوية العرقية وقرابات السكان من ثم . في أزمان لاحقة تطورت في الحقيقة لغة مكتوبة أصلية خالصة (المروية) ، غير أنها حتى هذا المدى غير مُدْرَكة لعلماء العصر . لا يبدو أنها لصيقة الصلة باللغة النوبية أو أى لغةٍ حاضرة اليوم . لقد وُظفت في عددٍ محدود من النقوش الصروحية ، لكنها أُعملت أحياناً لنذور أو قداسات قصيرة وربما لنصوص تجارية .

المؤلفون القدامى

المغامرون والمستوطنون الأغاريق كانوا عديدين في مصر ، ردحاً طويلاً قبل الإسكندر مرتزقةً في الجيش المصرى ، إصطحب بعضهم الفرعون بسمتيك الثانى في بعثةٍ للنوبة في القرن السادس قبل الميلاد . إن الرسوم الخطية التى تركوها في معبد أبو سُمبل ، وفى مكانٍ واحد أو مكانين آخرين [٦] ، أول دليل لنا على الدخول إلى النوبة من أى أوروبى .

زيارة هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد تُعْلِم عن نقطة تحولٍ في تدوين التاريخ النوبى والتاريخ المصرى إضافةً إليه . «أبو التاريخ » لم يرتحل أبداً بشخصه وراء أسوان ، لكنه من المسافرين والتجار إستجمع وصفاً جغرافياً دقيقاً (بالنسبة له) مثيراً للعجب عن الأراضى بعيداً بأعلى النيل [٧] . تستقر معرفتنا للمملكة المروية في قسطٍ منها إلى هذا اليوم على بّينة هيرودوتس ، بالرغم من أنه لم يرها مطلقاً . إن عمله هو الأقدم بقاء عن التاريخ والجغرافيا النوبية التى تطرح أى ادعاء سواء بالشمولية أم الموضوعية ، مع أنه ربما يكون مسبوقاً بالسرد المفقود لهيكاتيوس .

لا غرو ، بالنظر إلى شُح المادة المصرية ، أن معظم العروض المأثورة للنوبة أقوى في الجغرافيا والأصول العرقية عما هى عليه في التاريخ . كثير من مؤلفيها نسخوا بفيضٍ من هيرودوتس ؛ أضافت قلةٌ فحسب تفصيلاً إضافياً ذا أهميةٍ وقيمة . من بين هؤلاء كان سترابو [٨] (الذى نسخ وصفه الجغرافى للنوبة في جزء كبير من عملٍ ضائع لـ إيراتوستين) ، ديودورس سايكولوس [*] [٩] ، وبلينيوس [**][١٠] . إضافةً إلى وصفهم للأرض والناس ، هؤلاء الكتاب هم مصادرنا العمادية للعلاقات البطلمية - النوبية والرومانية - النوبية . قريباً من نهاية الفترة القديمة ، أعطانا ثلاثة كتاب صورة عرُضية للأحوال الفوضوية السائدة في النوبة عقب تحلل الدولة المروية . إن السرود المبهمة والمتناقضة أحياناً لبريسكوس [١١] ، أوليمبيودورس [١٢] ، وبروكوبيوس [١٣] مصادر قيمة في التاريخ السياسى ، لكنها أسهمت كذلك بأوفى نصيب في الضباب المحيط بمسألة (الجماعة - س) [***] النوبية ، التى ستُناقش بتوسعٍ في صفحاتٍ قادمة (الفصل الثالث عشر) .

وثيقة واحدةٌ تقف متفردةً فيما بين المدونات « القديمة » للنوبة . إنها إعلان نصرٍ في القرن السادس لـ سلكو ملكاً نوبياً بعينه ، نقوش في يونانية بدائية غير نحوية على حجارة معبد كلَابشة [١٤] . بالرغم من حجمها المحدود ولغتها غير الدقيقة ، فهى النص التاريخى المتعمد الأخير للسلطة النوبية نزولاً لأزمان حديثة .

التواريخ الكنسية

مؤرخان مبكران للكنيسة ، جون الأفسوسى [١٥] وجون البكلارومى [١٦] ، وآخران متأخران ، يوتيخيس [١٧] وميخائيل السورى [١٨] ، كتبوا عن تحول النوبة للنصرانية في القرن السادس . تختلف عروضهم في عددٍ من النقاط الهامة ، كاشفةً عن تحيزٍ لواحدة أو أخرى من الطوائف الأرثوذكسية المتنافسة آنذاك . مثل النصوص المأثورة الأخيرة ، أثاروا مناظرات لا تزال بيننا . إن مثل الضوء الذى ألقوه منحصر بقدر كبير في القرن الأول للنوبة المسيحية ، إذ أنه بعد فتح العرب لمصر فقد العالم الخارجى النظر للمسيحية على النيل حتى نهاية العصور الوسطى .

(*) ديودورس الصقلى - المترجم.

(**) بلينى - المترجم.

(***) ثقافة المجموعة الثالثة - المترجم.

علماء العرب في العصور الوسطى

الأعظم من المؤرخين العرب ، قُدامى أو مُحدثين ، كان ابن خلدون (أواخر القرن السابع عشر). إن سرده [١٩] ليس ، مع ذلك ، أفضل مصدر بالقرون الوسطى للتأريخ أو للجغرافية النوبية . ذلك الشرف يعود إلى معاصره ، المقريزى الجغرافى ، الذى لا يزال عمله الرئيس لسوء الطالع ينتظر الترجمة إلى الإنجليزية. مؤلف المقريزى *الخطاط* : ليس مصدراً أصلياً هاماً فحسب ؛ لكنه يحتفظ كذلك بمقالة طويلة من زائر أصلى ، ابن سليم الأسوانى ، الذى فقد ما عدا ذلك سرده لنوبة القرن العاشر [٢٠] . إن أعمالاً مهمة أخرى للمسعودى [٢١] والعمرى [٢٢] تجمع التأريخ والجغرافيا . إنها توفر ترتيباً زمنياً لأحداث العلاقات النوبية مع الخلافة الإسلامية ، وفيما بعد مع الأسر الإنشقاقية في مصر . عمل جغرافي خالص هو *كنائس وأديرة مصر وبعض البلاد المجاورة* ، ينسب لأبو صالح مُعْيَن ، «الأرمينى» [٢٣] .

هبط الظلام على النوبة ، بالقدر الذى تعنى به المصادر العربية ، مع الفتح العثمانى عام ١٥٢٠ . مع هذا ، يبدو محتملاً أن المصادر الخطية لفترة القرون الوسطى المتأخرة بعيدة عن النفاد . الوثائق العثمانية ، حوليات الإستكشاف البرتغالية والجِنْوية (*) ، العروض التجارية ومجلات لرحالة مجهولين ربما تلقى كلها مزيداً من الضوء على فترة تظل حتى الآن واحدةً من أحلك الفترات في التأريخ النوبى [٢٤] .

أوائل الرحالة المحدثين

فى نفس العام الذى اختفت فيه النوبة وراء « الستار العثمانى» ، قُدمت أرض أثيوبيا المجاورة للوعى الأوروبى خلال البعثة التبشيرية الأولى من بعثات برتغالية عديدة في هذا الزمن . لهذا ، يأتى ذلك الضوء الخافت كما نجد بالنوبة من الجنوب بدلاً عن الشمال . إن سرود الآباء اليسوعيين [٢٥] لديها القليل لتذكره حول الأحداث على النيل ، لكنها تكاد تساوى جميع ما نملك عن ملتهم .

بداية القرن الثامن عشر إعتلى النيل رحالتان جسوران ، الفرنسى بونسيه [٢٦] والألمانى كرمب [٢٧] ، من القاهرة ، الأول إلى حد بلغ إثيوبيا والثانى إلى بُعدِ سنار . قريباً من نهاية القرن صعد جيمس بروس [٢٨] عَبْرَ نفس الطريق . كل هؤلاء اسرعوا بإختراق ما عدُّوه أرضاً غير مضيافة في النيل الأعلى ، وقد تركوا لنا خطوطاً عريضة عاجلة من المناظر على امتداد الطريق فحسب . لقد كان الرحالة الدارسون العظماء الذين ساروا في صحوة فتح محمد على هم الذين أدخلوا العصر الحديث في التأريخ النوبي . بارزاً بينهم كان بورخارت [٢٩] وادينغتون وهنبرى [٣٠] ، وكاليود [٣١] لينانت دى بلفوند [٣٢] وجيلاً من بعد ، هوسكنز [٣٣] ولبسيوس [٣٤] . إن عروضهم الضخمة الموضحة بغزارة هى نقطة البداية لتأريخ موصول للنوبة يمتد متحدراً لأزماننا الحالية .

المصادر الآثارية

حفنة الحفريات التى نُفذت في النوبة من قبل عام ١٩٠٧ لم تكن عمليات تصفية صُممت لتكشف عن نقوش هيروغليفية ، تثبيتات معمارية ، أو إصطياد كنوز معلومةً بحذافيرها [٣٥] . لكل الأغراض العملية بدأ علم الآثار متسقاً خطةً وإجراء مع جورج أ . رايزْنر والمسح الآثارى الأول للنوبة ، الذى جعله ضرورياً توسيع سد أسوان الأصلى (المبنى ١٨٩٨ . ١٩٠٢ ؛ توسع أولاً في ١٩٠٨ ـ ١٩١٠) . في ذلك الوقت كان تحدى إنقاذ الآثار (أى التنقيب المنهجى المنظم غير المتحيز بالنسبة لكل المواقع المهددة بالدمار) ما كان له سابق . أُلزم رايزنر بتطوير منهجه أثناء مسيرة عمله ؛ وجدت بعض إجراءاته ـ مثل إستخدام نماذج معيارية لتدوين المعطيات ـ مذاك قبولاً عالمياً .

(*) نِسْبَةً لِجِنَوة ، أى البُندقية – المترجم.

المسح الآثاري الأول

دام المسح الآثاري الأول في الميدان لأربعة مواسم ، من ١٩٠٧ إلى ١٩١١ ، واستطلع الكشف خمسة وتسعين ميلاً من وادي النيل بين شلال ووادى السبوع (الشكل رقم ١٠) . كان المسح موجهاً في الموسم الأول من ج .أ . رايزنر وفى المواسم الثلاثة اللاحقة من س. م. فيرث . بحسابه الذاتي نُقب ١٥١ جَبانة وما يزيد على ٨٠٠٠ قبراً فردياً . حوالى نصف دستة من المواقع فحسب بخلاف جَبانات جرى تحقيقها ، وواحدٌ منها لا غير نُقب بشئ من الإتقان . جدولة أعمال المسح بالمواسم معروضة في الجدول الثاني . هذه النتائج، وعلى وجه أشَدّ من التدقيق أعمال الموسم الأول ، هى قاعدة المعطيات التى بُنيت عليها إعادة إنشاءات رايزنر وكل ما أعقبها للتأريخ النوبى .

تبرز خاصيتان في عمل المسح الآثاري الأول : أولاً : لقد كان مكرساً لبقايا جنائزية بما يكاد إبعاداً للبّينة الآثارية الأخرى ، وثانياً : إنه وضع تأكيداً ثقيلاً مختل التناسب على تحقيق المراحل الأولى للتأريخ النوبى . كُلاً من الطرفين كان لحدٍ ما مقصوداً . إن رايزنر وفيرث لم يرتابا مطلقاً في أن البّينة الحرفية الكتابية سوف تؤثث الصورة الرئيسة للمراحل التأريخية المتأخرة ، وكان إختيارهم لمواقع التحقيق قائماً على قاعدة معقولة هى التركيز على أقل الفترات إشتهاراً . علاوةً على ذلك ، كان لا يزال من المأخوذ به في عام ١٩٠٧ أن القاعدة الأولى لكل علم الآثار ـ وبنفس القدر إنقاذ الآثار ـ هى إستعادة المواد المنقولة (دالة يمكن عرضها). كان التنقيب وتدوين المواقع الحية عملية عَرَضية وثانوية أغلب الأمر . (هنالك ، رغم هذا ، مسح معمارى ونقوش لمعابد النوبة السفلى جرى في نفس الوقت ؛ أنظر بأدناه) . عَبّر فيرث مرة أو مرتين عن أسفه أن ضغط الوقت لا يسمح لفرقه الميدانية بأن تفحص بعض المدائن الخَربة التى لاحظوها على امتداد الطريق [٣٧] ، لكنه لم يعتبر أبداً بجدية أن التحقيق التفصيلى عن هذه المدائن قد يُمنح الأولية على الحفر المتواصل للقبور والجَبانات التى كانت أنواعها قد اشتهرت بحلول ذلك الوقت . نفس مدرج الأولويات كان سيبنى من علماء اثار متأخرين ، وقد أثّر عميقاً على مدخلنا للتأريخ النوبى مروراً بيومنا الحالى . وكمحصلة ، فإننا نعلم المزيد عن كيفية موت النوبيين الأوائل أكثر مما نعلم كيف أنهم عاشوا .

تعرض معالجة الآثار المسيحية القديمة ضوءاً جانبياً مثيراً للإهتمام عن عمل المسح الآثارى الأول . في الأسابيع الإفتتاحية التمهيدية نَقّب فريق رايزنر ١.٦٢٥ قبراً باكملها في جَبانة مسيحية بالقرب من شلال ـ عدداً من القبور أكبر بكثير مما جرى التنقيب عنه فيما بعد بأى جَبانة لأى فترة [٣٨] ، لقد كانت بالطبع خاليةً من اى قرابين ، حيث أن وضع المواد في القبر ما كان وجهاً للممارسةً الجنائزية المسيحية . وبعد هذه المعرفة العملية المحبطة لم يفتح المسح أبداً أى عدد مهم من القبور المسيحية ثانيةً ، وبمجئ آخر المواسم لم يُدَون وجودهم بمنهجية منظمة علاوة على ذلك .

كانوا ، مصحوبين ببقايا إسلامية ، مُلحَقِينَ بفترةٍ فقيرة جداً وقريبةً للغاية لا تثير أى اهتمام . وبسبب أن الآثار النوبية المسيحية لم تكن «آثاراً جنائزية» على وجه الدقة ، لم يسهم المسح الآثارى الأول ولا المسح الآثارى الثانى بأى شئٍ ذى قيمة وأهمية لإدراكنا عن طور تلك الأعوام التسعمائة من التأريخ النوبى .

إن الإنجاز الباهر للمسح الآثارى الأول كان من غير سؤال هو اكتشاف وتعريف « الجماعات » غير المدونة ، أ، ب ، ج ، وس ، وترتيبها إلى جانب الثقافات المعروفة تأريخياً عن النوبة في تعاقب منظم . في حس ما ، كان هذا مُحققاً بما يكاد في المستهل . إن بقايا للفترات الأربع كلها (وفى الحقيقة لكل فتْرةٍ في التأريخ النوبى تقريباً) تُصَادف في الجَبانة رقم ٧ بشلال ، التى اسُتكمِل حفرها في إطار الأسابيع العشرة الأولى للحملة المبدئية [٣٩] . والجَبانة السابعة ربما أمكن وصفها لذلك بقاعدة المعطيات النهائية التى تقوم عليها كل التواريخ الحديثة للنوبة .

نُشرت تقارير أولية لعمل المسح في شكل *نشرات* صغيرة ، ظهرت في غايةٍ من التعجل أثناء وبعد كل موسم . « جماعات » أ ، ب ، وج كانت قد تُعرِّف عليها آنفاً (كأنواع قبور فحسب) في أوائل *النشرات* ، والتتالي الكامل للفترات (المُعــرَّفة الآن على وجه التحديد بجماعات سكانية) إقتُرح رسمياً في الصفحات الإفتتاحية *للنشرة* الثالثة ، المطبوعة في ١٩٠٩ (٤٠) . وبعد عام ، في الأول من *تقارير مسح النوبة الآثارى* المعرّفة (لحملة ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨) ، كرَّس رايزنر تعريفاً ومناقشة ممدودين لكل من المراحل الثقافية النوبية (٤١) . لقد كُرر ذلك وأُكمل لتأريخه من فيرث في كلٍ من الثلاثة *تقارير* الأخيرة ، إلا أن أسس هذه المراحل بقيت على حالها ، لا تخالف جهد رايزنر المبدئي .

تجب الإستزادة أنه لا *النشرات ولا التقارير* بأى حس تعد سروداً شاملة لعمل المسح الآثارى الأول . في بعض المواقع لم توصف ابداً في شكل طباعي ، وفي حالات كثيرة أخرى نبقى على جهلٍ بمدى ما أُنجز أو مالم يتم إنجازه . في الحقبة الأولى من القرن العشرين كان التسليم بالتوثيق والنشر كأجزاء حيوية من مهام عالم الآثار بادئاً فحسب . ثم أُقيمت دراساتٌ معمارية ونقوشية للمعابد الفرعونية والبطلمية ـ الرومانية المتعددة في المنطقة المهددة ، مساوقةً للمسح الآثارى ، لكنها مستقلة عنه . وقد تولى هذا العمل أ . م . بلاكمان ، هـ . فوتير ، وس . رويدر ، وُنشر في سلسلةٍ من المجلدات تحت العنوان *الجماعى معابد النوبة الغريقة* (٤٢) .

بعثــات رائـدة أخــرى

خمس بعثات أخرى ولجت الحقل النوبى فيما بين عام أو عامين من المسح الآثارى الأول . أما بعثات جامعة بنسلفانيا ، جامعة أكسفورد ، وأكاديمية فينا للعلوم فقد عملت في النوبة السفلى ، بإتجاه مصعد النهر من المساحة المهددة من السد الوطئ . بعيداً صوب الجنوب ، بدأت بعثة مروى في إزاحة الغطاء عن المدينة الملكية الشهيرة بذلك الإسم ، واستطلعت حفريات (ولكم) بقايا ما قبل تأريخية في الجزيرة بين النيلين الأزرق والأبيض (٤٣) . باستثناء بعثة فينا ، دعمت كل هذه الحفريات عمل المسح الآثارى في جانبين مهمين . أولاً أعطت تنبهاً للبقايا الآثارية ، حياتية اليفة وصروحية تذكارية ، أشدّ بكثيرٍ مما فعل المسح . ثانياً ، كانت كلها معنيةً بقدرٍ معتبر للغاية ببقايا الفترة المروية ، التى حدث أنها غير ممثلة في الشمال الأقصى للنوبة ومن ثم لَم تظهر في عمل رايزنر وفيرث . بعثات أكسفورد وبنسلفانيا قامت كذلك بعمل أول مساهمة ذات قيمة وأهمية لدراسة الآثار النوبية المسيحية ، مرةً ثانية على أساس آثارى أكثر منه مخلفات جنائزية . خلال نفس السنوات كان المعمارى سومرس كلارك يقوم بمسح للبقايا المسيحية بين الخرطوم والقاهرة ، مؤلفه *الآثار المسيحية القديمة في وادى النيل* (٤٤) هو العمل الرائد في هذا الميدان .

فى ١٩١٣ عاد رايزنر إلى النوبة بعد غياب لعدة سنوات كمدير لبعثة هارفارد ـ بوسطن . هذه البعثة ، الممولة شراكةً من جامعة هارفارد ومتحف بوسطن للفنون الجميلة ، امُنت رخصةً للتنقيب بلغت حد احتكار فعلي للبقايا الآثارية الهامة في السودان الشمالى . خلال الثمانية عشر عاماً التالية نُفذت تحقيقات تقريباً في كل المواقع الصروحية التى يرجع تأريخها إلى الفترات الأسرية في التأريخ النوبى (فرعونية ، نبتية ، ومروية) . إن عمل البعثة يقع تحت ثلاثة عناوين رئيسة :

١ ـ تنقيب المركز التجارى المصرى العظيم والجّبانة الملكية النوبية في كرمة . أُنجز هذا بين ١٩١٣ و١٩١٦ ونُشر في دراسات هارفارد الإفريقية (٤٥) . إن معرفتنا لثقافة كرمة المتميزة (قارن بالفصل الثامن) ما انفكت قائمةً بما يقرب من الإنحصار على هذه التقارير .

٢ ـ تنقيب لعديد من القلاع الهائلة في منطقة الشلال الثانى ، المشيّدة أصلاً في الدولة الوسطى ووُسِّعت في ظل الدولة الجديدة . هذا العمل أُجرى بشكلٍ متقطع طوال سنوات عدة ، تحت مديرين

الجدول الثانى

ملخص لحفريات المسح الآثارى للنوبة، ١٩٠٧ - ١٩١١

الموسم	١٩٠٧–١٩٠٨		١٩٠٨–١٩٠٩		١٩٠٩–١٩١٠		١٩١٠–١٩١١		الاجمالى	
الفترة	قبور	مواقع	قبور	مواقع	قبور	مواقع	قبور	مواقع	قبور	مواقع
مسيحية	٢٠٤٤	٢٥	٤٢	٩	٨٣	١	٤٨	٤	٢٢١٧	٣٩
الجماعة–س[1]	١٢٤	١١	٥١	٦			٢٤٣	١١	٤١٨	٢٨
بطلمى–رومانى	٦٢٩	١٨	١	٩	٣٨١	١	٧٨	١١	١٠٨٩	٣٩
الدولة الجديدة	٩٩	١٣	١١٣	١٣	١٣٨	٧	٤٤٤	٣٠	٧٩٤	٥٣
الجماعة–ج[2]	٤٠١	١١	٣٨٥	١١	٤٧٤	٦	٣٥٥	١٦	١٦١٥	٤٤
الجماعة–ب[3]	٣٤٧	٩	٦٦	٩	١	١	١	٢	٤١٥	٢١
الجماعة – أ[1]	٥١٨	١٨	٣٧٧	١٥	٥٦٤	٨	٢٣٢	١٣	١٦٩١	٥٤
إجمالى	٤١٦٢	*٦٠	١٠٣٥	*٣٦	١٦٤١	*١٩	١٠٤١	*٤٢	٨٢٣٩	*١٥١

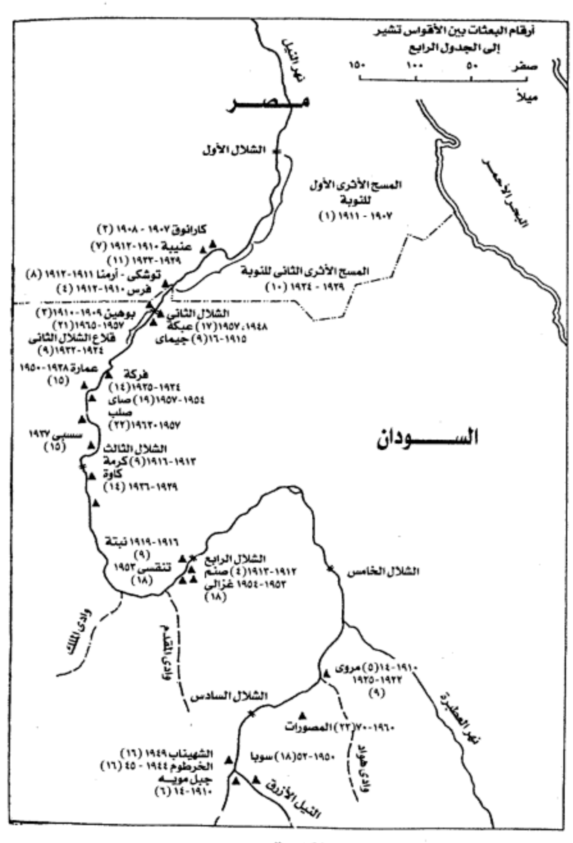
* هذه إجماليات لمواقع فردية، معدودة كلاً على حدة فيما تم التحقيق عنه في كل موسم. وهى لا تساوى جملة المواقع المذكورة فى العواميد التى تعلوها مباشرة. وبما أن كثيراً من المواقع احتوت قبورا شاملة لأكثر من فترة واحدة، فهى مكررة الذكر فى الجدول.

١– المجموعة المجهولة – المترجم

٢– المجموعة الثالثة – المترجم

٣– المجموعة الثانية – المترجم

٤– المجموعة الأولى – المترجم



شكل رقم ١٠

التنقيب الآثارى في النوبة، ١٩٠٧ - ١٩٦٠

مختلفين . لم تظهر النتائج إلا منذ وقت وشيك للغاية وحسب ، في المجلدين المعنونين *قلاع الشلال الثانى* (٤٦) .

٣ ـ تنقيب الجّبانات الملكية النَّبتية والمروية ، ومعابد مرافقة معينة ، بجوار كريمة وفى مروى . هذه كانت دونما شك عمل رايزنر *الطليعى* في السودان . ومنه أعاد رايزنر إنشاء التعاقب الملكى للاسر النبتية والمروية الذى لا يزال الإطار الأساسى للتسلسل الزمنى لمناقشات هذه المرحلة من التاريخ النوبى . مرةً اخرى ، لم تُنشر النتائج الملموسة الرئيسة حتى مضى وقت طويل بعد موت رايزنر ، في رتلٍ من المجلدات الموضحة في روعة أعدها دوس دونهام ولُقبت جمعاً *جبانات كوش الملكية* (٤٧) .

الحفريات في السودان ما كانت سوى جزء ثانوى من عمل بعثة هارفارد ـ بوسطن . ومنذ بدء تنظيمها في ١٩٠٥ حتى وفاة رايزنر بما يقرب من أربعين عاماً لاحقة ، إستُحوذ اهتمام البعثة أولاً وبأعظم قدرٍ في تنقيب مقبرة الدولة القديمة بالجيزة ، في ظل الأهرامات الكبرى . أُجريت العمليات العسكرية في السودان بتواكب على أفضل ما بوسعها . أكثر الأحيان أُنجز العمل في النوبة مؤخراً في الموسم ، بعد انتهاء الحفريات في مصر . كانت التنقيبات النوبية كيفما قضى الحال أكبر كتلةٍ تم إنجازها في النوبة لعمل آثارى منسق ، ولسوف تشكل نتائجها دائماً العمود الفقرى لدراسات التاريخ النبتى ـ المروى (٤٨) .

المسح الآثارى الثانى

توسيع ثاني لسد أسوان الأصلى مدّ مياه النيل المحجوزة بعيداً بمصعد النهر حتى بلغ التخوم السودانية ، جعلَ ضرورياً قيام المسح الآثارى الثانى للنوبة بين ١٩٢٩ و ١٩٣٤ (الشكل رقم ١٠) . هذه العملية ، التى اداها ي . ب . امرى و ل . ب . كيروان ، كانت مشابهةً لسالفتها في كلٍ من مناهجها وفى نتائجها . ثانيةً ، أُلقى تأكيد ثقيلٌ على البقايا الجنائزية ؛ حُققت ٧٦ جَبانة وحوالى ٢.٤٠٠ قبراً فردياً جرى استقصاؤه . إن جدولةً جامعة لمحصلة المسح الآثارى الثانى معطاة بأدناه : إضافةً إلى عمله في الجّبانات ، أدى المسح الآثارى الثانى تنقيباً مُتقناً لقلعة الدولة الوسطى والدولة الجديدة في كوبان ومواقع الجماعة ـ ج(*) والمدن المروية في وادى العرب . كان الإنجاز الباهر الحقيقى (غير المتوقع تماماً) للمسح مع هذا هو اكتشاف لجبانات الملكية الكبرى « للجماعة ـ س»(**) واستطلاعها في بلانة وقسطل . إن التقرير المنشور في هذين الموقعين (٤٩) وحده يشكل كتلة أكبر قدراً من التقرير المعد بشأن ٧٤ موقعاً آخر تحرت عنها البعثة (٥٠) . تصادفاً ، مَثَّلت هذه التقارير ـ حسنة التنظيم والتوضيح ـ الدفعة المنهجية الرئيسة للمسح الآثاري الثاني مقارنةً مع سابقتها.

كذلك كان جزء من حملة الإنقاذ للاعوام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٤ عمل ج . أ شتيندورف في عنيبة ، ومسح البقايا المسيحية من طرف أوقو مونير دى فيلار . شتيندورف قام بأكثر تحقيق إستكمالاً مما اضطُلع به إلى الآن لبقايا الجماعة ـ أ والجماعة ج (٥١) . وقام مونير دى فيلار بمسح مُمّحص ، كتابى وآثارى معاً ، لمادة تتعلق بالنوبة المسيحية ، ناتجةً في المجلدات الأربعة *النُوبة في القرون الوسطى*(٥٢). لقد كان بمقدوره من مصادر وثائقية أن يستجمع تاريخا موصولاً بمنطقية للفترة المسيحية ، على أن توليفه الموعود للمادة الآثارية لم يتحقق أبداً وبالرغم من أن أجزاءه التحليلية والتفسيرية أولية ، *النوبة في القرون الوسطى* بصرف النظر عن ذلك ما فتئ الجسد الأساسى لأى دراسة للآثار النوبية في القرون الوسطى .

(*) المجموعة الثالثة – المترجم.

(**) المجموعة المجهولة – المترجم.

الجدول الثالث

ملخص حفريات المسح الآثارى الثانى للنوبة، ١٩٢٩ - ١٩٣٤

الفترة الزمنية	عدد القبور	عدد المواقع
مسيحية	١٧	٩
الجماعة – س[1]	١٧٨	٢٠
مروية (*)	٥٨٥	٢٩
الدولة الجديدة	٤٠٥	١٨
الجماعة – ج[2]	٩٧٥	٢٨
الجماعة – ب[3]	٤	١
الجماعة – أ[4]	٢١٨	١٥
إجمالى	٢,٣٨٢	٧٦+

* هذه تأخذ مكان القبور البطلمية – الرومانية التى حُفرت بالمسح الآثارى الأول. التخوم الرومانية – المروية اتسقت إتساقاً مقرباً للنقطة التى كان قد انتهى إليها المسح الأول وبدأ فيها المسح الثانى (وادى السبوع).

+ هذا هو الإجمالى الحقيقى للمواقع التى عَدّها وحققها المسح، وليس جملة ما هو وارد بالعمود أعلاه، ذلك حيث أن مواقع المراحل المتعددة مذكورةٌ فى قوائمٍ تزيد على مصنف واحد.

١- المجموعة المجهولة – المترجم

٢- المجموعة الثالثة – المترجم

٣- المجموعة الثانية – المترجم

٤- المجموعة الأولى – المترجم

الجدول الرابع
التسلسل الزمنى لبعثات النوبة، ١٩٠٧ - ١٩٥٨
(أنظر أيضا الشكل رقم ١٠)

رقم	المؤسسة والقطر	المدير	السنوات	المساحات المشغولة*	العمل الرئيس أو البقايا المحققة	مطبوعات†
١	المسح الآثارى للنوبة (مصر)	رايزنر فيرث	١٩٠٧- ١٩١١	شلال - وادى السبوع (ن س)	حفريات - مسح	ASN
٢	مصلحة الآثار المصرية	بلاكمان وآخرين	١٩٠٧- ١٩١١	شلال - وادى السبوع (ن س)	نقوش المعابد	TIN
٣	جامعة بنسلفانيا، بعثة أ ب. كوكس (الولايات المتحدة)	ماك إيفر وولى	١٩٠٧-١٩٠٨	عمدا - عِنيبة (ن س)	مدينة الجماعة-ج؛ بقايا مروية وبقايا الجماعة-س	EBC
			١٩٠٨-١٩٠٩	منطقة فرس (ن س)	كنائس مسيحية	EBC
			١٩٠٩-١٩١٠	بوهين	قلمة فرعونية	EBC
٤	حفريات جامعة أكسفورد (المملكة المتحدة)	جريفيث	١٩١٠-١٩١٢	منطقة فرس (ن س)	معابد فرعونية؛ مواقع مروية إلى المسيحية	LAAA
			١٩١٢-١٩١٣	صنم (أ د)	معبد وجّبانة نَبْتيين	LAAA
٥	جامعة ليفربول (المملكة المتحدة)	ڤارستنق	١٩١٠-١٩١٤	مروى (أ ش)	مدينة ومعابد نَبتية ومروية	LAAA مروى
٦	حفريات ولكم (المملكة المتحدة)	ولكم	١٩١٠-١٩١٤	جبل مويه (س أ)	قرى وجّبانات لعصر غير مؤكد	WES
٧	بعثة سيجلين (ألمانيا)	شتيندورف	١٩١٠-١٩١٢	عنيبة (ن س)	قلمة فرعونية؛ جّبانات الجماعة ج	
٨	أكاديمية ڤينا للعلوم (النمسا)	جنكر	١٩١١-١٩١٢	توشكى- أرمنا (ن س)	جّبانات لكل الفترات	AWW
٩	بعثة هارفارد - بوسطن (الولايات المتحدة)	رايزنر	١٩١٣-١٩١٦	كرمة (أ د)	مستعمرة فرعونية، جّبانات كرمة	HAS
			١٩١٥-١٩١٦	جيماى (ب أ)	جّبانات لفترات زمنية مختلفة	HAS
			١٩١٦-١٩١٩	نُبتة (أ د)	مقابر ومعابد نبْتية ومروية	RCK, BT
			١٩٢٢-١٩٢٥	مروى (أ ش)	جّبانات مروية	RCK
			١٩٢٤-١٩٣٢	بطن الحجر (ب أ)	قلاع فرعونية	SCF
١٠	مصلحة الآثار المصرية	امرى كيروان	١٩٢٩-١٩٣٤	وادى السبوع أدِيندان (ن س)	مسح - حفريات	MAN
١١	مصلحة الآثار المصرية	شتيندورف	١٩٢٩-١٩٣٣	عِنيبة (ن س)	الجماعة أ، الجماعة-ج وجّبانات فرعونية	MAN
١٢	مصلحة الآثار المصرية	م. دي ڤيلار	١٩٢٩-١٩٣٤	كل النوبة	حصر للبقايا المسيحية	MAN

رقم	المؤسسة والقطر	المدير	السنوات	المساحات المشمولة*	العمل الرئيس أو البقايا المحققة	مطبوعات†
١٣	المعهد الشرقى بشيكاغو (الولايات المتحدة)	ستانفورد أركل	١٩٢٩-١٩٣١	كل النوبة	بقايا العصر الحجرى القديم	OIP
١٤	بعثة جامعة اكسفورد (المملكة المتحدة)	جريفيث، كيروان	١٩٢٩-١٩٣٦ ١٩٣٤-١٩٣٥	كاوة (أ د) فركة (أ ع)	معابد فرعونية ونُبتية قبور الجماعة س	كاوة فركة
١٥	جمعية إستكشاف مصر (المملكة المتحدة)	بلاكمان فيرمان سيتى	١٩٣٧ ١٩٣٨-١٩٣٩ ١٩٤٧-١٩٥٠	سيسبي (أ ع) عمارة (أ ع)	مدينة ومعبد فرعونى معبد فرعونى	JEA JEA
١٦	مصلحة الآثار السودانية	أركل	١٩٤٤-١٩٤٥ ١٩٤٩	الخرطوم (س أ) الشهيناب (س أ)	بقايا العصر الحجرى الوسيط بقايا العصر الحجرى الحديث	EK Shah
١٧	جامعة الخرطوم (السودان)	مايرز	١٩٤٨، ١٩٥٧	عبكة (ب أ)	بقايا العصر الحجرى الحديث	كوش
١٨	مصلحة الآثار السودانية	شينى	١٩٥٠-١٩٥٢ ١٩٥٣ ١٩٥٣-١٩٥٤	سوبا (س أ) تنقسى (أ د) غزالى (أ د)	مدينة مسيحية وكنيسة قبور الجماعة - س دير مسيحى وكنيسة	SASOP كوش SASOP
١٩	البعثة الآثارية الفرنسية	فيركوتر	١٩٥٣-١٩٥٤ ١٩٥٤-١٩٥٧	كور (ن س) جزيرة صاى (أ ع)‡	مدينة فرعونية حصن فرعونى؛ جَبّانات لكل الفترات	كوش كوش
٢٠	مصلحة الآثار السودانية	ثابت	١٩٥٥	دبيره (ن س)	قبر فرعونى	كوش
٢١	جمعية إستكشاف مصر (المملكة المتحدة)	امرى	١٩٥٧-١٩٦٥	بوهين (ن س) §	حصن فرعونى	كوش JEA
٢٢	جامعة بيزا (إيطاليا)	شيف جورجينى	١٩٥٧-١٩٦٣ ١٩٦٤	صلب (أ ع) صدنقا ¶ (أ ع)	معبد فرعونى معبد فرعونى؛ جَبّانة نُبتية ومروية	SS كوش
٢٣	جامعة همبولدت (ألمانيا) D.D.K.	هنتز	١٩٥٧-١٩٥٨ ١٩٦٠-١٩٧٠	البطانة (س أ) المصورات (أ ش)	مسح إستطلاعى مدينة مروية	كوش كوش
٢٤	مصلحة الآثار السودانية	فيركوتر	١٩٥٨-١٩٦٠	ودبانقا (أ ش)	قصر ومعبد مروى	Syrie

* الإختصارات لمناطق النوبة كالآتى: أ ع، أرض عبرى - دلقو النهرية؛ أ ح أرض أبو حمد النهرية؛ ب أ، بطن الحجر؛ س أ السودان الأوسط ؛ أ د ، أرض دنقلا النهرية ؛ ن س ، النوبة السفلى ؛ أ ش ، أرض شندى النهرية . أنظر الفصل الأول.

† لشرح الإختصارات ولمراجع كاملة أنظر المذكرات ، ص :

‡ العمل فى جزيرة صاى إستؤنف فى ١٩٦٩.

§ أصبحت هذه البعثة جزءاً من حملة إنقاذ النوبة أنظر الجدول الخامس، البعثة رقم ب-١٠.

¶ حفريات لا تزال جارية.

بعثـات متأخـرة

غَمْر النوبة السفلى ، مدموجاً بكساد إقتصادى عالمى ، إستجلب خفضاً متنبأ به في النشاط الآثارى بالثلاثينيات من عام ١٩٣٠ . أوقفت بعثات هارفارد - بوسطن في ١٩٣٢ ، مع أن البعثة لم تُصَنَّف رسمياً حتى بعد سنوات متأخرة . رغم ذلك ، أحيا ق . ل . جريفيث بعثات أكسفورد في ١٩٢٩، وتواصلت من بعد وفاته من قبَل ل . ب . كيروان . نحو نهاية الحقبة عالجت جمعية إكتشاف مصر الجليلة صاحبة الباع الطويل في واجهة العمل الميدانى بمصر ، أول دخول لها في داخل الميدان النوبى بسلسلة من الحفريات في منطقة عبرى - دلقو النهرية . كان هذا العمل بالضرورة موقوفاً خلاف الحرب العالمية الثانية ، لكنه استأنف سيره بين ١٩٤٧ و ١٩٥٠ .

نشاط أجنبى آخر قليل توالى في النوبة أثناء السنوات الباكرة ما بعد الحرب . في قسم مُلئ الفراغ ببعثات محلية من كلية غوردون التذكارية (جامعة الخرطوم لاحقاً) ومصلحة الآثار السودانية . بمستهل ١٩٥٠ إفتتحت مصلحة الآثار سلسلةً من الحفريات السنوية المنظمة فوضعت المرحلة للقسم النشط المتأخر الذى كان علي المصلحة أن تلعبه في حملة إنقاذ السد العالى . في هذه الأثناء أُستعيد الإهتمام الخارجى تدريجياً . شرعت بعثة فرنسية في العمل بجوار وادى حلفا في ١٩٥٢ ، وفى ١٩٥٧ بدأ مالا يقل عن ثلاثة جماعات خارجية ، من بريطانيا العظمى ، ألمانيا ، وإيطاليا ، تنقيباً واسع النطاق في السودان [٥٣] . من بعد عامين ، أطلق إعلان سد أسوان العالى حملة الإنقاذ الكاسحة الثالثة في النوبة ما بين ستين عاماً .

حملـة السـد العالى

المسحان الأثريان الأولان للنوبة حُملا على الترتيب من مصلحة المساحة المصرية ومصلحة الآثار ، بإعتماد من وزارة المالية في كل حالة . إن المطالب التى خَلّفها السد العالى ، مع هذا ، كانت مما يقع فوق موارد كل من الحكومتين المصرية أو السودانية . في هذه الظروف ، قررت منظمة الأمم المتحدة للتعليم ، والعلوم ، والثقافة (يونسكو) بناء على نداء يهيب بضمير العالم أن تتبرع بموارد علمية ، فكرية ، ومالية نحو الحفاظ على صروح النوبة المهددة . فإذا لم تتماشى نتائج هذا المسعى في النهاية تماماً مع الوعد البراق الذى طرحه دعائيو اليونسكو ، فإن إضافتهم تظل قائمةً لسجل من الإنجاز لم يسبق له مثيل في التنقيب والحفظ على حد سواء .

كانت مقتضيات حملة السد العالى مختلفةً في عدة وجوه عما فرضته المشروعات السابقة المخططة للإنقاذ . ولأن خزان أسوان القديم كان قد أُفرغ خلال جزء من كل عام ، فإن المعابد المغرقة وصروحاً أخرى للنوبة السفلى كانت لا تزال شاهدةً أثناء أشهر الصيف ، ما كانت إعادة وضعها ضرورة معتبرة . أما السد العالى من الجانب الآخر فهو سيصنع بحيرة دائمة ، وأى شيئ مغطى بالمياه يفترض خسرانه إلى الأبد . لقد كان ضرورياً بسبب ذلك أن يخطط لإقتلاع ونقل ، وإعادة تركيب على أرض أعلى إرتفاعاً لبعض خمسة وثلاثين معبداً رئيساً وجملة من صروح ضخمة أقل . إنقاذ أبو سمبل الذى لا يوجد له شبيه كان بالطبع هو الأشد سعاراً للخيال الأعظم غلاء بما لا حد له من هذه التعهدات ، بيد أن الحفاظ على ثلاثين أو نحو ذلك من المعابد كلف ، بتقدير إجمالى ، ما يعادله أو أكثر .

كانت حملة السد العالى على غير ما كان عليه حال الحملات السابقة ، برنامج للحفظ في المقام الأول ، تحديها الأكبر ملقىً عاتقه على المهندسين بدلاً من علماء الآثار . رغماً عن هذا كان حجم النشاط الآثارى هائلاً . في إستجابة لنداء اليونسكو كان هناك «إندفاع ذهبى» بالفعل للآثاريين إلى ضفاف النيل ، أكثر من أربعين بعثة اقامت نقاط مراقبة لدعاويها بمصعد النهر ومنحدره . (في

زحمة الإندفاع الأول كانت هناك إضافةً إلى ذلك إدعاءات متنافسة ومجادلات حول الحدود) . القوائم المعدة للبعثات مكتملة العدة والعتاد (الجدول الخامس) لا تستنفد بأى حال من الأحوال قائمة المساهمات لحملة النوبة الأثرية ، إذ أن عدة أمم ومؤسسات أرسلت بالمثل بعثات فنية لتعين أعمال اليونسكو والحكومتين المصرية والسودانية . على وجه العموم لا يزيد مجموع الآثار التى حققت في النوبة ١٩٥٩ على كل ما استقصى من كل الفترات السابقة فحسب ؛ إنما يحتمل كذلك أنه أعظم مما كان سيُتَحرى عنه في القرنين أو الثلاثة قرون القابلة دون إستثارة من السد العالى .

مستحيل هنا أن نفعل أكثر من تعديد البعثات المختلفة التى عملت في النوبة المصرية والسودانية في السنوات العشر الأخيرة (الجدول الخامس) . إن تقاريرهم المنشورة قد بدأت لتوها الآن في الظهور ، وسوف تمضى سنون قبل أن يكون بإمكاننا قياس مساهمتهم الكاملة في دراسة التاريخ النوبى . وبالنظر إلى قاعدة المعطيات المعتبرة التى أتاحها عمل سابق ، مع ذلك ، ومما لا يثير دهشةً ، أن الحملة الأثرية الحالية لم ، وما كان بمقدورها ، أن تدر نتائج بنفس القدر الذى أدركه أسلافها . إن قانون تناقص الغلة الحدى يؤدى مفعوله في الآثار بمدى ما يقوم به في أى ميدان آخر للإجتهاد . حملة السد العالى أمدت بضعةً من القطع التى ما فُتئت مفقودةً من الصورة النوبية ، لكن إنجازها العمادى هو إلقاؤها مزيداً من الضوء على كل جزءٍ منها . بشكلٍ مفهوم ، جعلت أغلب إضافات وفيرة في تلك الفترات التى تكون البداية والنهاية للتاريخ النوبى (ما قبل التاريخ وبالقرون الوسطى) إذ أنها متجاهلة بقسط كبير من المسوح المبكرة .

بالرغم من أن اليونسكو وَلدّت الدعاية وجمعت معظم المال لحملة إنقاذ النوبة ، فإن التنظيم والإدارة الفعلية لهذا العمل المعقد تُرك للحكومتين المعنيتين . على نحو مختلف جرى تطوير إستراتيجيات مختلفة في الحالتين . قسمت الحكومة المصرية النوبة السفلى جميعها إلى حصص جغرافية من نفس الحجم بالتقريب ، وأذنت للبعثات أن تلتقط وتختار من بينها على أساس من يصل أولاً يُخْدَم أولاً . إن البعثة كانت بطبيعة الحال مسؤولة عن التحقيق في كل شئ هام في نطاق مقاطعتها المختارة . أما إغراء إمتيازات التنقيب اللاحقة في جبّانات المدن القديمة بالنوبة السفلى فأكد أنه حتى حصص النوبة الأقل وعداً لم تكن في حاجةٍ لطالبين . وبرؤية العمل المتسع الذى أُجرى آنفاً بالمسوح الأولى ، والمواقع التى دمرتها الغمرات السابقة ، فإن الحاجة في معظم النوبة المصرية كانت لِتقصٍ تفصيلى لمواقع مختارة قليلة أكثر من كشفٍ إضافى عام .

إختلف الموقف في النوبة السودانية عنه بمصر في جانبين . أولاً : ما كانت هنالك مسوح سابقة لتوفر قاعدةً لمعطيات مقارنة بأى طريقة كالتى في مصر . ثانيا : ما كان باستطاعة مصلحة الآثار السودانية أن تعرض للمشاركين في الحملة النوبية توقعات بإلتقاطات غنية لاحقة في أجزاء أخرى من القطر . قررت مصلحة الآثار لذلك أن تأذن لأصحاب إمتيازات التنقيب الأجانب أن يحصروا أنفسهم في مواقع من إختيارهم الخاص ، وفى نفس الوقت ، أن تنظم من مواردها الذاتية مسحاً مماثلاً للمسوح الباكرة في النوبة المصرية . أغراض هذا المسح كانت ، أولاً : أن يجد ويعرف أى بقايا جديرة بالتنقيب من بعثات أجنبية ، وثانياً : أن يدعم عمل البعثات الأجنبية بالتنقيب عن أى شئ غير مطلوب من قِبَلِهَا .

مسح النوبة السودانية ، الذى نُظم في بداية عام ١٩٦٠ بعون من اليونسكو ، إستكشف في نهاية المطاف الإمتداد الكامل لوادى النيل بين الحدود المصرية ومدخل الخزان المقترح (حوالى ١٠٠ ميل) ، مكتشفاً لما يزيد على ١٠٠٠ موقع ، ومنفذاً بعض التنقيب في أكثر من ثلثها [٥٤] . في يقظة فرقة المسح ، أو في حالات قليلة قبلها ، أخذت بعثات أجنبية حوالى ١٨ إمتيازاً للتنقيب في النهاية (الشكل رقم ١١) . ومع أن إقليمهم غطى أقل من ربع المساحة الكلية المهددة للنوبة السودانية ، فقد شمل معظم مواقع الصروح وكثيراً من الجبّانات الكبرى . إضافةً لذلك ، كانت هنالك

الجدول الخامس
البعثات الآثارية للنوبة ١٩٥٩ - ١٩٦٩

مرتبة من الشمال إلى الجنوب

[أنظر الشكل رقم ١١]

١. النوبة المصرية

رقم	منطقة الكشف	الهيئة والقطر	العمل الرئيس أو الآثار تحت التحقيق
١–١	دابود	المركز البولندى لآثار البحر الأبيض المتوسط	معبد فرعونى
١–٢	دهميت	المتحف المصرى فى تورين (ايطاليا)	خرائب فرعونية
١–٣	كرتسى – طايفى	المعهد الشيكوسلوفاكى للمصريات	قلعة رومانية؛ موقع فرعونى
١–٤	خوردهميت – بيت الوالى	المعهد السويسرى – المعهد الشرقى بشيكاغو (الولايات المتحدة)	جبّانات الجماعة – س
١–٥	بيت الوالى	المعهد الشرقى بشيكاغو (الولايات المتحدة)	معبد فرعونى
١–٦	سبقورة	جامعة ميلانو (إيطاليا)	مدينة مسيحية محّصنة
١–٧	كوبان – المحرقة	جامعة ميلانو (إيطاليا)	خرائب فرعونية؛ مدن مسيحية
١–٨	دكة – وادى العلاقى	اكاديمية لينغراد للعلوم (الإتحاد السوفيتى)	بقايا الجماعة – أ و الجماعة – ج
١–٩	سيالة	جامعة ڤينا (النمسا)	مسح – حفريات
١–١٠	شيمة – وادى السُبوع	المعهد الفرنسى – المعهد السويسرى	قرية للجماعة – ج؛ خرائب فرعونية؛ كنائس
١–١١	وادى السُبوع	مصلحة الآثار المصرية	معبد فرعونى
١–١٢	عمدا	المعهد الألمانى	الجماعة–ج وخرائب فرعونية

تابع الجدول الخامس

تابع أ. النوبة المصرية

رقم	منطقة الكشف	الهيئة والقطر	العمل الرئيس أو الآثار تحت التحقيق
أ-١٣	كورسكو – قصر إبريم	المتحف المصرى فى تورين (إيطاليا)	مسح – حفريات
أ-١٤	توماس	جامعة استراسبورغ (فرنسا)	الجماعة-ج وجبّانات فرعونية؛ قرية مروية
أ-١٥	عافية	المسح الأثارى الهندى	بقايا الجماعة-أ والجماعة-ج
أ-١٦	شيخ داؤد	البعثة الأسبانية القومية للنوبة	قلعة مسيحية
أ-١٧	عنيبة	جامعة القاهرة (الجمهورية العربية المتحدة)	جبّانات فى كل الفترات
أ-١٨	قصر إبريم	جمعية إستكشاف مصر (المملكة المتحدة)	قلعة وجبانات مروية إلى العصور الوسطى
أ-١٩	مسمس	البعثة الأسبانية القومية للنوبة	جبّانة مروية
أ-٢٠	توشكى – أرمنا	بعثة بنسلفانيا – يل (الولايات المتحدة الأمريكية)	جبّانات لفترات مختلفة؛ مدينة مروية إلى العصر المسيحى
أ-٢١	تاميت	جامعة روما (إيطاليا)	مدينة وكنائس مسيحية
أ-٢٢	عبدالله نرقى	جامعة ليدن (هولندا)	مدن وكنيسة مروية ومسيحية
أ-٢٣	جبل عدّا	جامعة الاسكندرية (الجمهورية العربية المتحدة)	مسح حفريات
أ-٢٤	جبل عدّا	المركز الأمريكى للبحوث فى مصر	مدينة وجبّانات مروية إلى العصور الوسطى
أ-٢٥	قسطل	المعهد الشرقى بشيكاغو (الولايات المتحدة الأمريكية)	مسح – حفريات
أ-٢٦	بلانة	مصلحة الآثار المصرية	مقابر الجماعة – س

تابع أ. النوبة المصرية

رقم	منطقة الكشف	الهيئة والقطر	العمل الرئيس أو الآثار تحت التحقيق
أ-٢٧	قصر الوز	المعهد الشرقى بشيكاغو (الولايات المتحدة الأمريكية)	دير مسيحى
أ-٢٨	(كل المنطقة)	البعثة المشتركة لما قبل التاريخ (الولايات المتحدة الأمريكية)	بقايا ما قبل التاريخ
أ-٢٩	(كل المنطقة)	جمعية إستكشاف مصر (المملكة المتحدة)	مسح إستطلاعى

ملحوظة : المسوح شمال أسوان التى أجرتها بعثة يل لما قبل التاريخ والمتحف القومى الكندى غير مضمّنة فى هذه القائمة.

ب. النوبة السودانية

رقم	منطقة الكشف	الهيئة والقطر	العمل الرئيس أو الآثار تحت التحقيق
ب-١	فرس غرب- جيماى غرب	مصلحة الآثار السودانية	مسح- حفريات، لكل الفترات
ب-٢	فرس شرق - جيماى شرق	البعثة الإسكندنافية المشتركة	مسح- حفريات، لكل الفترات
ب-٣	فرس غرب	المركز البولندى لآثار البحر الأبيض المتوسط	كنائس مسيحية وقصر
ب-٤	عكشة	البعثة الأرجنتينية الفرنسية	معبد فرعوني؛ مدينة مسيحية
ب-٥	سرّة شرق	المعهد الشرقى بشيكاغو (الولايات المتحدة)	قلعة فرعونية؛ مدينة وكنائس مسيحية
ب-٦	سرّة غرب	البعثة الإسكندنافية المشتركة	مقبرة فرعونية
ب-٧	دبيرة غرب	جامعة غانا	مدينة وكنائس مسيحية
ب-٨	أرقين	البعثة الأسبانية القومية للنوبة	جبّانات لكل الفترات

تابع الجدول الخامس

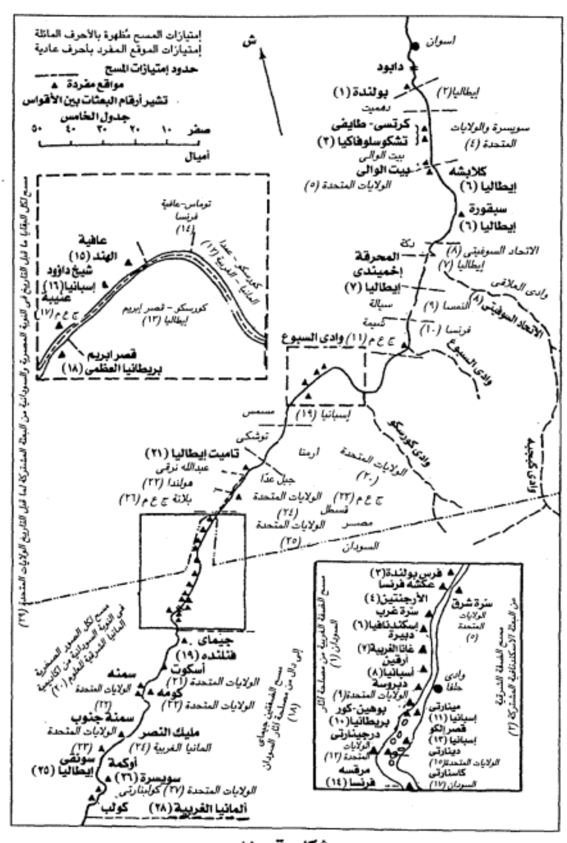
تابع ب. النوبة المصرية

رقم	منطقة الكشف	الهيئة والقطر	العمل الرئيس أو الآثار تحت التحقيق
ب-٩	دبروسة غرب	متحف جامعة كولارادو (الولايات المتحدة الأمريكية)	بقايا ما قبل التاريخ؛ الجماعة -س ومدن مسيحية
ب-١٠	بوهين	جمعية إستكشاف مصر (المملكة المتحدة)	قلعة فرعونية
ب-١١	مينارتي	مصلحة الآثار السودانية	مدينة وكنيسة مروية إلى العصر المسيحى
ب-١٢	دورجنارتى	المعهد الشرقى بشيكاغو (الولايات المتحدة الأمريكية)	قلعة فرعونية
ب-١٣	قصر إيكو	البعثة الأسبانية القومية للنوبة	كنائس مسيحية
ب-١٤	مرقمة	البعثة الفرنسية للآثار	قلعة فرعونية؛ مدينة وجبّانات
ب-١٥	دابينارتي	جامعة كاليفورنيا (الولايات المتحدة الأمريكية)	قلعة فرعونية
ب-١٦	أبكانارتي	البعثة الأسبانية القومية للنوبة	مدينة مسيحية مُحَصنة
ب-١٧	كاسا نارتي	مصلحة الآثار السودانية	مدينة مسيحية
ب-١٨	جيماى - دال	مصلحة الآثار السودانية (اليونسكو)	مسح - حفريات
ب-١٩	جيماى - مرشد	البعثة الفنلندية للنوبة	مسح - حفريات
ب-٢٠	مرشد - دال الضفة الغربية	جامعة كولارادو (الولايات المتحدة الأمريكية)	مواقع ما قبل التاريخ
ب-٢١	اسكوت	جامعة كاليفورنيا (الولايات المتحدة الأمريكية)	قلعة فرعونية ؛ مدينة مسيحية
ب-٢٢	سمنة - كومة	جامعة براون (الولايات المتحدة الأمريكية)	معابد فرعونية

تابع الجدول الخامس

تابع ب. النوبة المصرية

رقم	منطقة الكشف	الهيئة والقطر	العمل الرئيس أو الآثار تحت التحقيق
ب-٢٣	سمنة جنوب	المعهد الشرقى بشيكاغو (الولايات المتحدة الأمريكية)	قلعة فرعونية ؛ جَبّانة مروية
ب-٢٤	مليك النصر	المعهد الألمانى (المانيا الإتحادية)	خرائب مسيحية
ب-٢٥	سونقي غرب	جامعة روما (إيطاليا)	كنيسة مسيحية
ب-٢٦	عكاشة - أوكمة	جامعة جنيف (سويسرا)	مسح - حفريات كنائس مسيحية
ب-٢٧	كولبنارتى	جامعة كنتكى (الولايات المتحدة الأمريكية)	قرى مسيحية
ب-٢٨	كولب	المعهد الألمانى (المانيا الإتحادية)	مدينة مسيحية مُحَصنة
ب-٢٩	(كل المنطقة)	البعثة المشتركة لما قبل التاريخ (الولايات المتحدة الأمريكية)	بقايا ما قبل التاريخ
ب-٣٠	(كل المنطقة)	الأكاديمية الألمانية للعلوم (المانيا الديمقراطية)	رسوم ونقوش صخرية



شكل رقم ١١

إمتيازات التنقيب فى النوبة، ١٩٦٠ - ١٩٧٠

تُظهر المربعات تكبيراً لمناطق عِنيبة ووادى حلفا

تولته مصلحة الآثار . قامت جماعة إسكندنافية بكشف ممحص لقسم واحد من النوبة السودانية وفى نفس الآن نَقّبت كل المواقع الكبرى بينها . مسوحٌ متخصصة أخرى لكلّ الإقليم كُرست لتدوين النحوت والرسوم الصخرية وللتحقيق في بقايا العصر الحجرى .

بسبب مركزه الفريد تجاه ما تبقى من مسؤولية ، كان ضرورياً لمسح النوبة السودانية أن يظل لصيق الملامسة بعمل البعثات الأخرى ، يدعمه حيثما دعت الضرورة . حُفظ سجلٌ وثائقى مركزى لسنوات عديدة في وادى حلفا ، دُونت فيه نتائج عمل كل بعثة في مسيرة تقدمها . في عمله الخاص إرتأى مسح مصلحة الآثار أن يركز على تلك الفترات وتلك الأنواع من البقايا التى لم تلق تنبهاً من البعثات الأخرى ، مؤكداً بذلك أنه في ختام الحملة النوبية ستجمع الأجزاء المختلفة لنسق ما من الكل الموصول . مبدئياً خلال هذه الإستراتيجية من الدعم ، أضحى مؤلف هذا الكتاب خبيراً في دراسة بقايا الحياة ، والمرحلة المسيحية من التاريخ النوبى (السجل الوثائقى لوادى حلفا - الذى نقل الآن للخرطوم - أدى إلى جانب هذا مساهمةً وفيرة في كتابة هذا المؤلف) .

الحاضر والمستقبل

بينما كان السد العالى يسدل الستار على كتاب النوبة ، كان يفتح في نفس الوقت فصلاً جديداً في دراسة آثار النوبة العليا . عبر مشاركتهم في حملة الإنقاذ أخذ علماء آثار كثيرون أول نظرة لهم على الأراضى المولجة لجنوب الشلال الثانى ؛ يتولى عديد منهم الآن إمتيازات تنقيب في أجزاء أخرى من السودان . المدائن المروية بالمصورات ومروى ، العاصمة القديمة للقرون الوسطى بدنقلا ، معابد صلب وصدنقا وقلعة صاى العظيمة وُضعت كلها تحت حفر التنقيب في الأعوام البادئة منذ حملة السد العالى ، وبعثات أخرى تُتَوقع للنوبة العليا (**) . إن الإهتمام بهذه المنطقة التى أخذ تجاهلها وقتاً طويلاً يمكن أن يتضاعف حينما يصير معلمها الآثارى أكثر إشتهاراً وحسب - وعندما يزول بديل العمل في النوبة السفلى . قارئ هذا الكتاب يجب أن يكون مهيأ لإضافات مهمة للقصة في أى وقت .

إجمالاً يمكن لعلماء الآثار أن ينظروا القهقرى لإنجازاتهم في النوبة بإفتخار كبير . إن المُدَون الذى تمكنوا من كشفه في ثلاثة أرباع قرن أكثر إكتمالاً لمدىً بعيد في طرائق كثيرة من الذى قدمه التاريخ الموثق في عام ١٩٠٠ . غير أنه لا تزال هنالك تجاويفُ هائلة . الإستطلاع المنهجى ، ومن ثم المعرفة المنظمة ، ما انفكت محصورة في تلك المساحات التى دُمرت بسدود أسوان المتعاقبة - النوبة السفلى و*بطن الحجر* موسعةً ومفصلة ، كما بيّنه الإحتلال في هذه المناطق ، لكنها ليست مكتملةً بأى حال . فصولٌ باكملها - ما يُسمى « ثقافة المجموعة الثانية » (*) ، الفترة النبتية ، وبنفس القدر فترة القرون الوسطى الأخيرة - تبدو مفقودة .

ربما جاز لنا أن نقدم صورةً مصغرة لتاريخ التنقيب في النوبة مع الملاحظة بأنه هنا كما بأى مكان آخر في العالم سار التحرى الميدانى خلال ثلاث مراحل ، ويمكن بشكلٍ مريح توصيفه «كعشوائى» ، «انتقالى» ، و «شمولى» . الفترة العشوائية موصوفة لِغُنْم مهتبل وغير علمى تماماً بحثاً عن *القطع الفنية* أو الكنوز . لقد كان ذلك هو المصير التعس للصروح القديمة في كل الأجزاء التى يمكن بلوغها من العالم ؛ إن مثل هذه الأنشطة في النوبة قليلة من باب الرحمة . فإلى القرن العشرين كانت المنطقة نائيةً قصية وغير مستقرة للغاية لتجذب أى أحد سوى أصلب عشاق للتحف .

بدايات علم الآثار هلّت بشائرها بالتنقيب المتزايد منهجيةً وعناية لمواقع قليلة متخيرة ، عادةً من بعثات كبيرة مكتملة التجهيز والإعداد وعلى رأسها علماء مهنيون (ليسوا بالضرورة منقبين مدربين) . إن المواقع التى أفردت للتنبه في المرحلة " الإنتقالية " هى بالتقريب دائماً الصروح الإمبريالية الفنية

(*) " الجماعة - ب " فى النص الأصلى - المترجم.

العظيمة - فوق كل شئ المعابد الملكية ، والقصور ، والقبور . مثل هذه البقايا تحفظ بالتأكيد الثقافة الخاصة بصفوةٍ منعمة لا لغيرها . إن تنقيبها يسهم بما لا يحصر قياسه في دراسة تاريخ الفن والتأريخ الأسرى ، لكنه في نفس الوقت يؤسس صورةً غير كاملة ومن جانب واحد للتطور الثقافى لشعب بأكمله .

تبدأ الآثار " الشمولية " عندما ينعطف التنبه من بقايا الصروح العظيمة لمواقع صغرى وأقل إلهاباً للفكر ، ويُبذل جهد يعرض المنطقة لأخذ عينات لمواقع من كل نوع ولكل فترة تاريخية . من مثل هذه القطع الصغيرة تنشأ صورةً كبيرة بالتدريج للثقافات والتواريخ الثقافية لأناس بأجمعها .

بأنحاء كثيرة من العالم ، لم تُبْلَغ المرحلة الشمولية للتحقيق الآثارى بعد . في قلةٍ ، جاءت للساحة لاحقة لإنقاذ المواقع الصروحية ، على مبدأ *مالا يوجد افضل منه* . وفى الغالبية العظمى من الحالات حيث تنامى علم الآثار الشمولى ، مع ذلك ، فرضت على عالم الآثار بمتطلبات الإنقاذ . ربما سيدرك منقبو المستقبل ظهور علم آثار إنقاذى في الحقب التى تتلو الحرب العالمية الثانية كواحدٍ من أشد التطورات ثوريةً في تاريخ سلكهم . في نطاق الجيل الحاضر أدى هذا المدخل الشمولى المُحْدَث للتنقيب - الذى جُعل ضرورياً بالتفجر العظيم لنشاط البناء في سنوات ما بعد الحرب - إلى زيادات قيمة ومهمة ، وأحياناً لمراجعات جذرية ، في معرفتنا للتاريخ الثقافى في أنحاء كثيرة بالعالم . إن التحرى عن بعض المناطق الضخمة التى دمرتها السدود والخزانات قد اضطرنا لأن نفكر عن الثقافة والتاريخ ، بعض المرات لأول حين ، في تعابير فضفاضة بدلاً عن التفكير عنهما بإصطلاحات الموقع ، المدينة ، أو الأسرة الأكثر إتفاقاً وحصراً [٥٦] .

لسوف يدرك القارئ أن أغلبية أعمال التنقيب التى أُجريت في النوبة قبل ١٩٦٠ تنتمى إلى المرحلة الثانية أو الإنتقائية للتطور الآثارى . يَصدُق هذا على وجه الخصوص بالنسبة لبعثة هارفارد - بوسطن ، التى يُشكل عملها في وجوهٍ كبيرة العمود الفقرى لعلم آثار النوبة العليا نزولاً لليوم الحاضر . بالرغم من أن البعثة تقبض إمتياز تنقيب يغطى السودان الشمالى بأكمله ، وقد كانت نشطة في الميدان كل عام تقريباً من ١٩١٣ إلى ١٩٣٢ ، كادت أن تنحصر بكليتها في القلاع والمعابد والمدافن الكبيرة في النوبة العليا . ولمدىً بعيد كانت كذلك كانت الحفريات لست بعثاتٍ رئيسة أخرى دخلت الميدان خلال النصف الأول من القرن العشرين .

إذا كان تنقيب النوبة في قسط وافر من النوع الانتقائى ، لابد أن يُدرك أيضاً ، مهما كان من شأنه ، أن نفس هذه المنطقة بحس واحد هى مهد علم الآثار الشمولى . وعلى نحو ما ذُكر آنفاً ، كان المسح الآثارى الأول (١٩٠٧ - ١٩١١) حملة الإنقاذ الأولى في العالم ، وقد أرست المعيار للغلبة التى أعقبتها . إن إكتشاف رايزنر الوصف الثقافى المفصل " لثقافات " المجموعة الأولى ، والثالثة ، والمجهولة (*) ، التى استُخرجت في مدى أشهر قليلة من إبتداء الحملة ، يقف مثالاً للكيفية التى يمكن أن يضيف بها التحقيق الشمولى للصورة غير المكتملة التى تبزغ من دراسة منحصرةٍ بأجمعها في البقايا الصروحية .

رغما عن النتائج الموفقة المستحصلة من المسح الآثارى الأول ، ما كانت هناك بالمقارنة سوى متابعة قليلة . فحالما استُكمِلت عملية الإنقاذ نكص علماء الآثار (بمن فيهم رايزنر نفسه) على أعقابهم عائدين إلى ولعهم بالمواقع الصروحية ، ولنصف القرن التالى كان برنامج التنقيب الشمولى الوحيد الذى طُبق في النوبة هو ذلك الذى جُعل ضرورياً بتوسعة سد أسوان (المسح الآثارى الثانى ، ١٩٢٩ - ١٩٣٤) . تهديد السد العالى تمخض عنه بالطبع قدرٌ عظيم أكثر تنسيقاً من العمل منذ ١٩٦٠، كما تمت ملاحظة ذلك آنفاً . جدير بالذكر ، بغَض النظر عن ذلك ، أنه إلى اليوم ما من مسح أو تنقيب شمولى أُجرى بأى جزءٍ من النوبة عدا تلك المساحات التى غُمرت من سدود أسوانٌ المتعاقبة ، والتى أُغلقت حاليا قُبالة كل تحقيقٍ إضافى . هذه النقطة ذات أهميةٍ جوهرية لإستيعاب

(*) الجماعات أ ، ج ، س – المترجم.

بعض التجاويف في التاريخ الذى سيلى .

أثراً لذلك ، بلغ علم الآثار النوبية المرحلة الشمولية في النوبة السفلى *وبطن الحجر* لا غير . في كافة أرجاء المنطقة الشاسعة جنوب شلال دال بحذافيرها ـ أرض الداخل القديمة للحضارات النوبية ـ لم نتقدم وراء المرحلة الإنتقائية [٥٧] . يمكننا ، لذلك ، أن نقدم صورةً من التطور مكتملةً منطقياً وحسنة الإتزان لتلك الثقافات والفترات الثقافية التى حدث أنها ممثلة جيداً في الجزء الشمالى من النوبة وحدها . معالجَتنا لثقافات النوبة العليا ـ وهى بعض من الأكثر أهميةً في تاريخ القطر ـ يجب أن تكون أغلب الأحيان خطوطاً عامة وتخمينية . هذه بدقةٍ خاصة سوف تظهر لِقُرّاء الفصلين العاشر والحادى عشر ، المشتغلين بفترة تاريخية تبدو النوبة السفلى أثناها متناقضة السكان بمستوى كبير.

المسألة العرقية

علاوةً على البَيِنة النَّصية والآثارية ، أسهمت البقايا الهيكلية البشرية للنوبيين بأهميةٍ في كثيرٍ من الجهود السابقة لإعادة إنشاء التاريخ النوبى. عندما نُظم المسح الآثارى الأول للنوبة ، وافق سير قرأفتن إيليوت سميث ، عالم تشريح مرموق كان يعيش في القاهرة ، على أن يضطلع بالتحليل ووصف البقايا الهيكلية البشرية التى يكشف عنها الغطاء . إصطحب البعثة الأولى في الميدان ، وقام بعمل قياساتٍ وملاحظات دقيقة على العظام في *موضعها الأصلى* . أما تلك التى كانت محفوظةً بما يكفى (جماجم في المقام الأساسى) فقد نُقلت من ثم وأرسلت إلى القاهرة لمزيدٍ من الدراسة الموسعة . عدد الجماجم التى جُمعت بهذه الطريقة لم يَرْقَ أبداً لأكثر من خمسة عشر أو عشرين بالمائة من التى استُعيدت من العتمة ، حيث أن أغلب جنائز النوبة السفلى كانت في حالةٍ سيئة من الحفظ .

إيليوت سميث ، مثل رايزنر ، كان ملزماً بأن يترك المسح بعد الموسم الأول، على أن عمله ومناهجه تولاهما دوقلاس ديرى ، مبدئياً تحت إشراف سميث ، في الحملات اللاحقة . نشرت تحليلاتهما التشريحية جنباً إلى جنب مع النتائج الآثارية الخالصة في كلٍ من *النشرات* الأولى للمسح الآثارى ، وبشكل أكمل في *تقارير* ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ [٥٨] . النمط الذى استنه سميث وديرى إتُبعت خطاه كذلك جيلاً متأخراً من قبَل أحمد بطراوى في دراسته للبقايا التشريحية من المسح الآثارى الثانى .

ما كان لإيليوت سميث وديرى من مشقةٍ في التعرف على اختلافات عرقية دلالةً ومغزى بين الهياكل البشرية من أنواع القبور النوبية المتنوعة . إعتقدوا أن أناس «المجموعة الأولى » ، متماثلين مع المصريين ما قبل الأسرات ، في حين استبصروا في « المجموعة الثانية » تياراً زنجياً أشد قوةً بكثير . هذا المرَكب لا يزال يُوْمَن بحضوره ، مع تخفيفٍ شديد ، في « المجموعة الثالثة » ـ حالةٌ قادت كلاً من إيليوت سميث ورايزنر لتصوير هجرة ثانية من الشماليين إلى داخل السودان في هذا الزمن . نفس المدمج العرقى شوهد في المجموعات السكانية التالية إلى زمن « المجموعة المجهولة » ، حينما كان هنالك تدفقٌ زنجى كثيف . كانت هذه الإختلافات التشريحية ـ فيما يبدو بيّنة على هجرات عرقية ـ هى التى قادت رايزنر إلى أن يُعَرِف أنواع القبر النوبى بجماعات سكانية متميزة ، والتى بهذه الكيفية تمكن وراء مجمل التفسير « متعدد ـ الطبقة » للتاريخ النوبى .

إن عمل سميث وديرى التشريحى قد يوجه له النقد على أسس معينة ـ حتى بأفضل النوايا وتحت أفضل الشروط ، كانت المناهج المتوفرة لهما في بداية القرن العشرين بُدائية وذاتية بمستوىً عال . إن تاكيداً ثقيلاً أُرسى على عددٍ ضئيل من السمات المميزة ، مثل الدليل الرأسى الذى كَثُر سوء استعماله ، وكثير منها كان ملامح مورفولوجية (متشكلة) لا يستطاع إثباتها بالقياس . وربما أن الأحَد خطورة من بدائية المنهجية ، النزعة العنصرية المتضمنة باكورة التشريح المقارن . لقد كانت في جوانب كثيرة علماً ـ زائفاً ، تَعَمد تفريق الأشكال الحية للإنسان كأنما كانت أنواعاً جَليّة للحيوان أو النبات . كانت إستراتيجيتها أن تتعرف على وتحدد الفروق المتماسكة بين سلالاتٍ مدركة حدسياً ، متجاهلةً التماثلات ـ ودونما اعتبار للسؤال المتعلق بما إذا كانت «السلالات» نفسها لها أى سريان

كمفاهيم للنوع . كانت هذه صرخة نائية عن دراسة اليوم العملية لديناميات السكان .

تسليماً بالمناهج والفرضيات السائدة في ١٩٠٧ ، يتساوى أفضل علماء التشريح المقارن إذ يسعهم أن يجدوا في تأييدها المادى أى نظريات تاريخية يرغبون في اليقين بها . وقع هذا بما لا يدعو للتساؤل في حالة سميث، ديرى ، ورايزنر . لابد أن يُسَلّم أيضاً بأن وجهة النظر العنصرية التى تقاسمها بالتقريب كل الدراسين الأوائل للتاريخ النوبى تدين العصر أكثر من الرجال . ربما أن إيليوت سميث كان أكثر متحدث بارز منهم ، مؤكداً في إحدى تقاريره أن " ... أصغر صب للدم الزنجى يُجّسِد ذاته حالاً في تبلد المبادرة وإعاقة النمو اللاحق لفنون الحضارة " [٥٩] ، يبدو أن نفس الإعتقاد يمكن أن يوجد مُعّبراً عنه بطريقة أو أخرى في كتابات معظم معاصريه . ما كان ، فضلاً عن كل شئ ، حتى مُضّى جيل لاحق أن مفاهيم التفوق والتدنى العرقى أُخضعت لسؤال جدى [٦٠] .

أعملت الأنثروبولوجيا الطبيعية خطوطاً قيمة في الجيل الفاصل بين المسحين الأول والثانى للنوبة. إمتلك أحمد بطراوى في دراسته للمادة الهيكلية البشرية من مسوح امرى ـ كيروان ، المزية المتمثلة في منهجية أشد تصفية وذهن أقل إنحيازاً بكثير مما امتلك سلفه على حد سواء . أخفقت دراساته في معظم الحالات أن تبرهن على خلاصاتها ، وبصفة دقيقة فيما يختص بالمسألة العرقية . لقد كان نفوذ إيليوت سميث ، رغم ذلك ، من الهيمنة بحيث أن بطراوى إمتنع عن تحدى نظرياته التاريخية حتى عندما جادل أساسها التجريبى . نتائجه الخاصة المنشورة تصدر مقدمتها نوعاً ما تعبيراً متردداً من النقل لنظريات سابقيه [٦١] ، مما يبدو مُنَاقِضاً بقدر كبير في الفقرات الأخيرة لعمله.

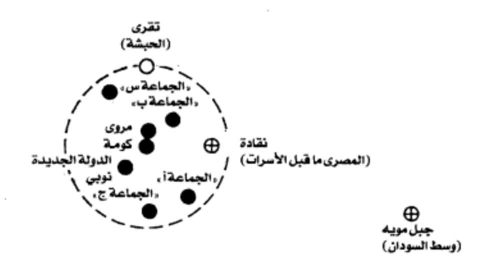
كان بطراوى أكثر إستقامةً بعد حقبة تلت ، عقب أخذه نظرةً ثانية ليس على عمله الخاص بمفرده ، إنما على المسح الآثارى الأول إلى جانبه . في مقال نُشر في *مجلة المعهد الأنثروبولوجى الملكى* (١٩٤٦) [٦٢] تخلى صراحةً عن فرضية التعددية العرقية واعترف بالسكان النوبيين الأصليين (أى بدون المستعمرين المصريين) غديراً وراثياً قريراً غير عادى بما يدعو للتأمل من البداية إلى النهاية . كذلك اعترف بأن « الفشل في التفريق بصفاء ما بين إنجازات السكان وأوصافهم البيولوجية الموروثة سَبّب ربكةً كثيرة في الكتابات الأنثروبولوجيةُ . إن الأدب الذى يعالج التاريخ العرقى لمصر (والنوبة) يتيح مثالاً غير عادى لخطر تقدير العلاقات البيولوجية من بيّنة ثقافية» [٦٣] . هذا التحذير من الخطأ الذى طال الزمن على أوانه ، ظاهراً في مجلة قليلاً ما يستشيرها المؤرخون ، ذهب يكاد غير مُكْتَرثاً به على الإطلاق . كنتيجة ، لا تزال نظرية الأعراق المتعددة معنا بكثرة وفيرة ، مثالاً في صفحات مؤلف أمرى القريب مصر *في النوبة* . مدعمةً بشبكة من الخيالية التاريخية التى نُسجت حولها ، تظل النظرية باقية بعد ردح طويل من هدم ركائزها التجريبية .

لقد رأى بطراوى في المراجع عن التاريخ العرقى النوبى تأييداً إضافياً من الدراسات المقارنة للمواد الهيكلية البشرية في جبل مويه التى اضطلع بها موخرجى ، وراو ، وتريفور . مستخدمين طقماً معقداً من المصنفات الإحصائية ، إحتسبوا درجات من العلاقة بين جزء من عشرين مجموعةً سكانية إفريقيـة ، بما في ذلك زنوج « أنقياء» إضافة إلى نوبيين ، وإثيوبيين ، مصريين . في تركيبهم تخرج الجماعات النوبية السبعة (أى كـل أولئك الذين درسهم في الأصل سميث وديرى ، ومؤخراً بطراوى) كتجمع متميز وبشكل لصيق متجانس وراثياً ، مفصولاً فصلاً عريضاً عن الجميع عدا اثنتين من الثلاث عشـرة جماعـة المتبقّيـة التى أجريت المقارنة معها (الشكل رقم ١٢) [٦٤] . مثل بطراوى ، خلصوا إلى أن الجماعـات النوبيـة تمثل غديراً متفرداً قليل الإختلاف وراثياً . وما فتئ ، الأكثر قرباً ، دراسةً لسـمات الأسـنان (سلّم بها في وقت لاحق أنها وجه الدقة مؤشـرات وراثية حساسة) فشلت في عرض أى اختلافات هامة ذات معنى ما بين ثقافة المجموعة المجهولة المروية ، والجماعات السكانية المسيحية [٦٥].

أحدث ما نشر عن البقايا التشريحية النوبية هو تحليل فاقن نيلسن عن مادة الجماجم ، من فترات تأريخية مختلفة عديدة ، أزالت عنها التراب البعثة الإسكندنافية المشتركة للنوبة السودانية بين

الجيزة
(الأسرات المصرية المتأخرة)

سدمنت
(الأسرة التاسعة المصرية)



أسوان
(الزنوج المصريين
فى عصر الأسرات)

إيبو
(نيجريا)

فرناند ڤاز
(الڤابون)

الكمرون

بدارى
(المصرى ما قبل الأسرات)

شانتى

تايتا
(كينيا)

تتلا
(الكنغو)

جماعات نوبية قديمة

مجموعات سكانية قديمة أخرى

أقوام حديثة

درجة القرابة العامة متضمنة وفق المسافة. لاحظ أن كل الجماعات النوبية تقع فى نطاق الدائرة المنقطة - أقرب كثيراً إلى بعضها البعض منها إلى أى أقوام غير نوبية فيما عدا المصريين ما قبل الأسرات فى نقادة والتقرى الحديثين والحبشة.

شكل رقم ١٢

القرابات السلالية بين أقوام النوبيين القدماء وسكان إفريقيا القدامى والحديثين

١٩٦١ و١٩٦٤ [٦٦] . من دراساته وجد المؤلف تأييداً محدوداً لكثير من النظريات السالفة لإيليوت سميث وديرى ؛ أى ، أنه وجد اختلافات هينة لكنها متماسكة بين السكان في كل مرحلة متعاقبة للتاريخ النوبى ، إن تشخيصه لهذه الإختلافات بتعبير عرقى يقع ، مع هذا ، على أنأى درجة مفارقة لـ سميث وديرى :

فيما يختص بمسألة الأثر الزنجى في النوبة بوجه عام ، يجب أن يُقرر من هذه الإختبارات أن سكان المجموعة الثالثة أسفر تشخيصهم عن مميزات زنجية قليلة جداً ، أو غير موجودة . كانت السلسلة الفرعونية من غير مميزات زنجية . لم يكن حتى مجئ السلسلة المروية أن بداية مزيج زنجى توجد ، إلا أنه في المجموعة المجهولة وحدها يمكن للواحد أن يتحدث عن سمات زنجية عامة أشد تميزاً ، أياً كان ذلك فإن الجماعة لا يمكن وصفها بأى حال زنوجاً [٦٧].

من الصفاء أنه في ذهن فاقن نيلسن أن زنجياً تمثل بعض نوع من طراز " نقى " وهو شئ لا يوجد بطبيعة الحال أبداً في النوبة أثناء الفترة التاريخية . إن المؤلف ، في كل الأحوال ، حَذِرٌ بشكل سليم ، من إرجاع إختلافات وراثية يسيرة لهجرات أو إحلالات سكانية ؛ إنه يميل لأن يراها كنتيجة لتطور إرتقائى مألوف ومحصلةً للإنسكاب الوطيد ، التدريجى لدم جديد (أحياناً من الجنوب ، وأحياناً من الشمال) في داخل السكان النوبيين [٦٨] . دراسةٌ أخرى أجريت وشيكا بيّنت ، بدورها ، إنه ربما كانت هنالك تعددية كثيرة بين السكان النوبيين أثناء فترات معينة من التاريخ مثلما كان كائناً بين فترة واحدة وما تلاها [٦٩] .

ثلاثة أجيال من الدراسات التشريحية كأنها تركتنا حيثما بدانا : إلماماً بأن النوبة كان لها دائماً سكان إفريقيون أو أفارقة جزئياً ، مختلفون عن سكان مصر ، علماً كذلك أن هذه لا تدعنا أكثر حكمة حول التاريخ السياسى ، الإجتماعى ، أو الثقافى للقطر . لا يمكننا بالنسبة للوقت الراهن أن نقوم بأفضل من أن نشهر تحذير بطراوى بأن « يُمّيز بصفاء ما بين منجزات السكان وصفاتهم البيولوجية الموروثة » [٧٠] . علينا أيضاً أن نذكر أن غياب البرهان التشريحى لا يستبعد مطلقاً إمكانية الخلاصة الشرعية الوحيدة وهى أنه لكى نعلم شيئاً حول اللغة والمجتمع ، يجب علينا أن ننظر إلى بَينة اللغة والمجتمع ، لا إلى بَينة علم الأحياء .

التاريــخ اللغــوى

اللغة هى المصدر الأول للهوية الذاتية لمعظم بنى الإنسان . وسط الأقوام البدائية هنالك ترافق لصيق بين جماعات اللهجة وشبكات القرابة ؛ في مجتمعات أشد تعقداً يُتعَرف بشكل مماثل على الدول القومية باللغة أحياناً كثيرة . هكذا دائماً ما تبدأ مساعينا لإكتشاف الأصول والقرابات الإجتماعية للأقوام الأولى بمحاولة لإيجاد أى لغة كانوا ينطقون .

إن البينة المباشرة للغة مفتقدةٌ بالتأكيد لكل الفترة ما قبل التاريخية . إنه إختراع الكتابة ذلك الذى يعطينا أول دالة على الحديث . في الحضارات القديمة ، مع ذلك ، ما كانت العلاقة بين اللغة المكتوبة واللغة المتحدثة بالضرورة لصيقة ، وقد كان على عدد صغير من الأنساق الكتابية ، أن تتساوق مع عدد كبير من الناس قروناً كثيرة . أما أولئك الذين قاموا بتطوير كتابة لأنفسهم فقد استعاروا اللغة المكتوبة لجيرانهم . هذه الظاهرة بوجه الدقة باديةٌ في النوبة حيث استُعمل مالا يقل عن ست لغات مكتوبة أزماناً مختلفة في التأريخ . من الخمسة التى بمقدورنا فك حروفها ـ هيروغليفية ، إغريقية ، قبطية ، نوبية قديمة ، وعربية ـ تقارب واحدة فحسب لغةً أصلية متحدثاً بها . يُعتقد أن لغة سادسة لم تُفَك حروفها بعد ، هى المروية ؛ كانت أصلية بسبب إفتقادها العلاقة مع أى لغة معروفة ، إلا أن هذا بالطبع يظل إفتراضياً .

لن نعلم أبداً أى لغات نُطِق بها خلال الفترة القليلة ، ما قبل الكتابة للتأريخ النوبى . مع هذا ،

فإن التجانس الثقافى الوثيق لثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة ، مصحوباً بكثافة السكان المنخفضة ، يحمل إحتمالاً معتبراً أن لغةً مفردة كانت مستخدمة في كافة جنبات المنطقة ، التى عُثر بها على هذه البقايا الثقافية . حضارة الأُسرات ، مع ذلك ، مدت تخوم النوبة بعيداً خارجها ، يكاد يكون مؤكداً إلى داخل الحِمى ، جماعاتٍ لغويةٍ متعددة . من أزمان الدولة الجديدة وما أعقبها يجدر بنا فيما يحتمل ، أن نصور على الأقل تشكيلةً من اللهجات ، إن لم تكن لغات مستقلة تماماً على وجه الكمال ، على امتداد أجزاء متفرقة من النيل .

الموقف اللغوى في النوبة الحديثة يحتمل تماثله مع كثير من الماضى . الناطقون باللهجات الأهلية الثلاث ، إضافة إلى المستعمرين غير النوبيين وسطهم ، يوظفون لغةً مكتوبة مشتركة ، إجنبية على قدم المساواة عنهم جميعاً . درسان مهمان يمكن إستقاؤهما هنا . أولاً : إن إستعمال لغة مكتوبة بمفردها في كل أنحاء المنطقة لا يتضمن بالضرورة لغةً مفردة متحدثاً بها . ثانياً : إن اللغة المكتوبة ربما لا تكون اللغة الأم لأيٍ من الجماعات التى تستخدمها .

سَبّبت علاقة النوبى الحديث باللغات الأولى للمنطقة صعوبة دائمة . فالإفتقاد الظاهر للتمثل باللغة المروية التى لم تُحَل رموزها بعد ، مترافقاً ببّينة الاختلاف السلالى كما يَستدل بها إيليوت سميث ، أدى إلى افتراض ذائع الإنتشار أن لغة اليوم الحاضر جاءت إلى النوبة مع الغزاة الزنوج من « المجموعة المجهولة » الذين حلوا محل أسلافهم المرويين أو قاموا بإحتوائهم . إن القاعدة التشريحية لهذه النظرية تبين مُذاك أنها زائفةُ ؛ علاوةً على ذلك ، ليس لدينا طريقة في الحقيقة لنعرف أى لغة كان مُتحدثاً بها من المقيمين المرويين في النوبة السفلى . ربما نرجح أن اللغة المكتوبة التى تداولوها من وقت لآخر كانت لغة قبيلة حاكمة بعيداً إلى الجنوب (أى بمروى) ، ومختلفةً للغاية عن حديثهم اليومى[٧١] . وإذا كانت البيّنة اللغوية ستعين على إزاحة الغطاء عن التاريخ الإجتماعى للنوبة ، أصبح لزاماً علينا ألا نحل طلاسم اللغة المروية وحسب لكن علينا كذلك أن نكشف ـ زيادةً على ذلك ـ من تحدث بها . في هذه الأثناء تتركنا بيّنة اللغة ليس أكثر حنكةً ، تأريخياً ، عما تفعل بيّنة العرق .

إشكالية التركيب

ونستون تشرشل، بتبصر معهود، تحدث عن « مجراف عالم الآثار، يصحح ويوّسع دراسة المؤرخ »[٧٢] . تبدو العبارة ملائمةٌ في دقة للنوبة حينما نقارن صورة التاريخ التى قدمها واليس بدج في ١٩٠٧ بالتى كان بإستطاعة رايزنر، مُعاناً بكشوفه الأثرية ، أن يعرضها بنفس القدر عامين قابلين. الا أن هنالك فارقاً ما بين " تصحيح " و " توسيع" دراسة المؤرخ ، وتتجسد هذه بدورها في الحالة النوبية. أن مؤرخى النوبة من بدج ألى إمرى إعتمدوا على علم الآثار في المقام الأول لتوسيع رأيهم التاريخى، بدلاً عن تصحيحه. ولأنهم كانوا قد تلقوا تدريبهم الأوفى كعلماء ومؤرخين، فقد أسندوا للبنّية الأثارية دوراً ثانوياً أكثر منه دوراً تكميلياً مُستَحقا .

أوصاف المجموعة الأولى ، والمجموعة الثالثة ، والمراحل الأخرى غير الموثقة من التاريخ النوبى تستند بالضرورة على الكشوف الأثرية . في نفس الوقت قلما تُسّلم أوصاف كثيرة للأطوار الفرعونية ، والمروية ، والمسيحية بوجود سجل آثارى . أنه التمنع دون الرجوع إلى علم الآثار ، بإستثناء حالة العجز التام للمدونات النّصية ، ذاك الذى لا يُضفى على دراسات نوبيةٍ كثيرة نوعيةً عرّضية الأحداث وحسب إنما مفككة الأوصال . في لحظةٍ واحدة يبدو أننا ندرس تأريخا سياسياً وإجتماعياً . في اللحظة التالية ندرس تأريخاً ثقافياً ، بينما نتأرجح جيئةً وذهاباً ما بين المدون النّصى والإصطناعى .

هذا الفارق متأصل إلى حدٍ ما في البّينة . إن علم الآثار والتاريخ المدون لا يقدمان لنا آراء عن جوانب مختلفةً جداً للحياة فحسب ، إنما يتيحان لنا على حد سواء مقاييس مختلفة للهوية والعلاقات . الآثار يمكنها فقط أن تزودنا بالمنتجات الملموسة غير الذاوية للثقافة ، وما يسعنا أن نقرأه منها عن

العادات والمعتقدات التى يحملها صانعوها في نطاق هذا الحوق المحدود . على أننا نُطّبق معايير للهوية والقرابة من إبتكارنا - مؤسسةً في المقام الرئيس على استطاعتنا لأن نتعرف على أنماط متميزة . هكذا ننسب أهمية غامرة ، لنوعيات الفخار والممارسات الجنائزية ، كقياسات للهوية، دونما اعتبار لما إذا كانت لها أى أهمية وعياً بالناس الذين قاموا بخلقها . وبالقدر الذى يمكننا به أن نعيد به إنشاء التاريخ ، بمقارنة بقايا فترةٍ واحدة ببقايا فترةٍ أخرى ، نعيد بالطبع إنشاء تطور الثقافة وحدها ، لا تطور الإنسان .

بمجئ نصوص مكتوبة نبدأ في مشاهدة التاريخ من خلال عيون المشاركين فيه ، أو على الأقل المراقبين له . إن منظور الثقافة في جوهريته ربما لا يكون أعرض من المنظور الذى يقدمه لنا علم الآثار ؛ الحق إنه دائماً أضيق . ميادين كثيرة الثقافة ، على وجه الدقة الميادين المادية والتقنية ، بقيت على حالتها دون تدوين ، " عالقة بمرحلة ما قبل التاريخ " زمنا طويلاً من بعد إختراع الكتابة . ولم يشغل الأوائل من كتاب التاريخ أنفسهم بعموميات عريضة لكنهم عُنُو بأناس معينين وبأحداث ذات خصوص . على قدم المساواة عندما تحدثوا عن « أقوام » بدلاً من «أناس» ، تَحدثوا في تعابير عرقية ، غير ثقافية . إن المجتمعات التى كانت مهمةً لهم كانت مجتمعات لغة ، وقانون ، وتقليد إجتماعى ، ما كانت مجتمعات ثقافة مادية وتجارة مثل التى أُلزمنا بمعالجتها في علم الآثار . وإلى المدى الذى تسير فيه وراء تدوين أحداث ، بمَحْضِه ، ترفدنا المُدَونات النَصية تأريخاً إجتماعياً وعرقياً ، بينما تمنحنا الآثار تأريخاً ثقافياً (٧٣) .

علم الآثار والتاريخ النَصى يمكنهما بشكل بائن ويجدر بهما أن يكملا بعضهما بعضاً . معاً يمكنهما أن يؤسسا صورةً أكثر إستكمالاً للحياة في أى وقت في التأريخ عما بإستطاعة أى مصدر منهما بمفرده . مع هذا ، ليس بوسعهما أن يُستَخدما بالتناوب ، كما كان معمولاً به في النوبة ، كي يُخرجا قصةً متماسكة ومتواصلة لأى من التطور الإجتماعى أو الثقافى . سابقاً أو لاحقاً على الواحد أن يختار ما إذا كان سيدع المدون النَصي أم المُدون الآثارى ليحمل العبء الرئيس للقصة ، وما إذا كان سيكتب لذلك تأريخاً إجتماعياً أم ثقافياً .

ما كانت لواليس بدج مثل تلك الخبرة في ١٩٠٧ . مُفتقداً للمُدون الثقافى على نحو ما تكشف لنا من خلال الآثار ، كان مؤلفه *السودان المصرى* بالضرورة تأريخاً إجتماعياً وعرقياً ، مع أنه واحد غير مكتمل للغاية . برغم ذلك لم تر النور سوى مادة نصية إضافية قليلة جداً منذ زمانه ، بخلاف ما يختص بشأن الفترة المسيحية ، بحيث أننا لسنا أفضل إعداداً لنكتب تأريخاً إجتماعياً اليوم . علاوةً على هذا ، يبدو غير محتمل أن كثيراً من التجاويف سوف تُملأ أبداً . التداول المتواصل لتوصيفات رايزنر الهجائية شهادة بليغة لإفتقادنا الإخبار العرقى والإجتماعى الصلب بالنسبة لفترات كثيرة في التاريخ النوبى . نظرية عن الإنقطاع العرقى ربما تبقى معنا كذلك لكل الوقت ، لسوف لاتثبتها الآثار وحدها أو تدحضها .

لئن كنا لا نزال غير قادرين أن نسمى أقواماً نوبيةً كثيرة بأسمائها السليمة ، فإننا كيفما قضى الأمر حققنا تقدماً متصلاً في دراسة تطورهم الثقافى عبر علم الآثار . قصة الدراسات النوبية في القرن العشرين *كأعلى ما تكون عليه* قصة للسدود العظيمة الثلاثة ، والمشروعات المخططة للإنقاذ الآثرى الذى تناسل منها . عبرهم لهم نمتلك فحسب بُيِّنتنا التامة للمراحل غير الموثقة من التأريخ النوبى ، إنما كتلة من تفصيل مقارن وغير مدون في أكثريته فيما يتعلق بثقافات المراحل المعلومة تأريخياً . بكلمات أخرى ، لا نزال نملك نصوصاً لفترات منتقاة دون غيرها في التاريخ النوبى ، بيد أننا نمتلك الآن آثاراً لكل الفترات بالتقريب . ما بوسعنا أن نفعله الآن ، لذلك ، أن نرفع الآثار إلى مكانها اللائق بها ، نَدعها تخبر عن قصة متواصلة من التطور الثقافى من أزمان ما قبل التأريخ إلى الحاضر .

الجـزء الأول

بدايات قَبَلية

الفصل الرابع

العصورالحجرية

لقد رأينا من قبل أن هيرودوتس وأغلب معاصريه نظروا بلا تدقيق « لأثيوبيا » على أنها منبع كل الحضارات . وحالما فتحت أحاجي القدم المجال للتحري العلمي لفترة ما قبل التاريخ ، بشكل أو آخر ، جنح الرأى المدروس إلى رأى معاكس بقوة . لقد لاءم مفهوم القرن العشرين للتفوق الأوروبي الاعتقاد بأن « القارة المظلمة » كانت دائماً مقاومة لعملية التطور الإرتقائي . الآن تبدأ الإكتشافات الرائعة للإنسان الأول في شرق وجنوب إفريقيا في تصويب وجهة النظر هذه المتمركزة عرقياً ، وقد نهض إهتمام جديد في فترة ما قبل التاريخ الإفريقي كنتيجة لذلك . لقد بدأت تتراءى كأنما لم يكن القدماء على خطأ تام بغض النظر عن أى اعتبار آخر .

فى ملازمتها للإفتقاد العام للإهتمام بفترة ما قبل التاريخ الإفريقي ، أعادت المسوح الأثرية الأولى للنوبة تنبهاً نادراً لبقايا العصر الحجرى . أيقن رايزنر وفيرث فعلياً أن مصريين مهاجرين في الألف الرابعة ق .م . (الآباء الأجداد بـ « مجموعتهم الأولى » كانوا أول سكان للمنطقة . ما كان حتى مُضى جيل لاحق أن الإستطلاع الأول لمرحلة ما قبل التاريخ ، الذى قام به ساندفورد وأركيل هو الذى كشف عن حضور ثقافات تحمل الخصائص الحقيقية للعصر الحجرى [1] . كيفما تم ذلك ، كانت البقايا المكتشفة قليلةً وغير ذات أهمية ، وبدا أنها تؤيد الإنطباع المهم بالهامشية الثقافية .

أَحْدَث علم آثار ما قبل التاريخ دفعاتٍ هامة في كل من المنهج والنظرية منذ الحرب العالمية الثانية. بتدقيق خاص ، أدت العلاقات الودية ما بين مؤرخى ما قبل التاريخ والجيولوجيين المختصين بالعصر الحجرى الأولى إلى رأى أشد إدراكاً بكثير للإرتقاء التدريجي بالنسبة للبيئة . هذه التطورات ، مقرونةً بالإعتراف المتنامي بإفريقيا كواحدةٍ من أوائل الساحات للتطور الإنساني ، أكدت أن بقايا العصر الحجرى سوف تلقى تنبهاً أكثر إحتراماً بكثير أثناء حملة إنقاذ النوبة عنها في أى من سابقاتها . أكبر بعثة مفردة في الميدان بين ١٩٦١ و١٩٦٦ كُرست بكليتها لدراسة ما قبل التاريخ ، وأربع جماعات أخرى كذلك أدت عملاً هاماً في هذا الحقل [2] . فإذا كانت جهودهم الهادفة لم تمح على وجه التمام الإنطباع السالف بالتخلف النوبي في أزمان ما قبل التاريخ ، فقد ألقت الضوء على أقل تقدير على متتالية طويلة من الثقافات الأصلية التى سبق تاريخ حدوثها الفعلى ، وربما كانت أقدم وجوداً ، من تلك التى اكتشفها رايزنر .

أياً كان الأمر ، يظل التحقيق الذى أُجرى لفترة ما قبل التاريخ النوبية سائراً في طفولته الأولى إلى اليوم [3] . حصر الإستكشاف المنظم الممنهج بقدر كبير الضاحية المباشرة لوادى حلفا : أكثر من عشر صناعات للعصر الحجرى التى تم تحديدها هنا ، ثلاثة أو أربعة لا يعرف غير أنها ممثلة في مناطق أخرى [4] . حتى في إطار المعسكر المحدود لمنطقة وادى حلفا لم تكن النتائج المستحصلة من بعثات مختلفة متّفقةً إتفاقاً مطلقاً ، لم ينشأ إصطلاح معيارى بشكل مكتمل وصفياً وتصنيفياً بعد . وكما هو معتاد في المراحل الأولى للتطوير النظرى ، حَلّ الخيال في بعض المرات مكان بيّنة الإنتشار الدامغة كقاعدةٍ للنظريات الباحثة في الأصول التى هى أكثر تمايزاً في الإبتكار عنها في الإحتمال . فلتعليل وجود تقاليدٍ لمصنوعات حجرية على وجه الدقة حذاء النيل ، قُدمت لنا نظريات للهجرة بعيدة المدى بَوَاقِيَ بمستوىً صارخ للنظريات التى صاغها رايزنر من قبل ستين عاماً ، حينما

كانت دراسة الفترات التاريخية النوبية في نشأتها الباكرة وضعاً متماثلاً . مرةً ثانية ، تحتوى هذه الإنشاءات المعدة للتاريخ الإجتماعى من بيّنةٍ ثقافية (أى إصطناعية) فرضياتٍ لعلاقة ثابتة بين المجتمع والثقافة ليس في الإستطاعة تبيانها (قارن المقدمة) . ولكيما نؤكد بالضبط الإفتقاد إلى روابط سلوكية معلومة نشير في العادة إلى بقايا إنسان العصر الحجرى على أنها « صناعات » أو «مركبات» بدلاً من الإشارة إليها كثقافات .

إن أشد عمل حاسم في الوقت الراهن عن فترة ما قبل التاريخ النوبى هو مجلدان *ما قبل التاريخ النوبى* [٥] ، مقرراً بالتفصيل " نتائج البعثة المشتركة لما قبل التاريخ " . حدد المؤلفون بعض أربعة عشر أو خمسة عشر صناعةً للعصر الحجرى ، تتراوح في الزمن من العصر الحجرى القديم إلى المدخل المباشر للتاريخ المُدَون ، وسلّموا بسلسلةٍ من العلاقات ذات التسلسل الزمنى والتاريخى فيما بينها إلى جانب مُرَكباتٍ ثقافية خارجية فوق ذلك (أنظر الشكل رقم ١٢) . لو كان هذا العمل قائماً بحق الأولية لا غير فإنه لابد أن يؤجَر كنقطة إنطلاقٍ لدراسات القابل " لما قبل التاريخ النوبى " ، مثلما أدت صياغة رايزنر المبتدرة « للمجموعات » الهجائية دورها كنقطة إنطلاقٍ لدراسات الفترات النوبية المتأخرة . يقيناً زيادةً على ذلك ـ أنه ، مع تنامى معرفةٍ أبعد مدى ، ستكون هنالك إضافات ومراجعات هامة لهذا الجهد الريادى لتصنيف ثقافات العصر الحجرى النوبى .

لئن لم تُبلَغ بعدُ إتفاقيةٌ كاملةٌ بشأن ثقافات النوبة قبل التاريخ وعلاقاتها ، فإن هناك بالمثل حيرةً فيما يتعلق بطبيعة البيئة التى ترعرعت فيها . إن المُدون الجيولوجى يشير إلى تبدلات معتبرة الأهمية للمناخ في شمال إفريقيا ، كما في بقية العالم ، طوال العصر الحجرى قديم (أى أثناء المليونى عام الأخيرة أو نحو ذلك) . في أوروبا وأمريكا الشمالية تُستَجلى هذه التضاريات في تناوب عصور الجليد وفترات دافئة ؛ وكان هنالك تناوب في إفريقيا لفترات مثقلة لرطوبة " غزيرة المطر " وفترات جافة . بأى صورة جاءت ، ما من إتفاقٍ عامٍ في أمر المدة النسبية لفترات النداوة والجفاف . يعتقد بعض علماء الجيولوجيا (علم الأرض) أن أوضاع الصحراء اليوم شبيهة بالصحراء الكبرى خلال معظم تأريخها ، بحث أن الإستعداد الكامن للإستيطان الإنسانى ، فيما عدا أثناء الفترات « المطيرة » الموجزة ، كان محصوراً بدرجة عالية بوديان قلةٍ من الأنهار البارزة كالنيل [٦] يرتئى آخرون ، بطريقةٍ أو أخرى ، أن فتراتٍ أشد طولاً عندما كانت شمال إفريقيا أرضاً للسافانا الملتّفة او غابات ـ دعوةٌ مضيافة أكثر منها حائلاً لإستقرار الإنسان [٧] . هنالك إضافةً إلى ذلك عدم إتفاقٍ فيما يتصل بتَعرية الصحراء الكبرى القديمة . يَعُد بعض الأساتذة النيل ، كما نعرفه الآن ، كنهر يافع نسبياً ، يعود تاريخه إلى مالا يتعدى خمسة وثلاثين أو أربعين ألف عام [٨] ، في حين يَدّعى آخرون له قدماً أعظم بكثير [٩] . جلىّ للعيان ، أن فهمنا للمقيمين الأوائل من البشر في النوبة سوف يبقى نوعاً ما محجوباً حتى نملك صورةً أضفى للبيئة الطبيعية التى انتقلوا إلى أحشائها .

يصير تخطياً للحدود بالنسبة لى أن أحاول توليفةً مفصلّة لما قبل تأريخ النوبة في وقت لم يتفق فيه الخبراء أنفسهم عليها بعد . لقد تعمدت بحق أن أتجاهل هذه المرحلة التكوينية للتطورية الثقافية برمتها ، وأن أبدأ أقصوصتى بأقدم ثقافات نوبية لفترة العصر الحجرى الحديث ، أى ، في أعتاب الحياة الجلوسية . كيفما جرى ذلك ، فالتطورات الثقافية السحيقة القدم والتى سبق وأدت إلى تبنى الزراعة وإلى الحياة المستقرة هى الآن على الأقل مدركةٌ بقدرٍ كاف كى تبدو مستحقة لأن يُخاطر ببضع كلمات من التعليق العام عليها .

أخفقت مسوح ما قبل التاريخ النوبي في إبداء أى اثر لهؤلاء الرجال ـ القردة الأولين الذين اتخذت بقاياهم مؤخراً مثل هذه الأهمية في شرق وجنوب إفريقيا . في الوقت الراهن يظهر أن المنطقة الصحراوية الكبرى لم تكن جزءاً من الساحة الإفريقية التى ربما نشأ فيها الأسلاف القدامى للجنس البشرى . بحلول الوقت الذى بدأ فيه الإنسان الأول في شمال شرق إفريقيا ، ربما ٧٠٠٠٠ عاماً ماضية ، كان قد انهمك عميقاً في المراحل التجريبية لصنع العدة وكان ينتج ويستخدم تركيبةً متميزة من الأدوات الحجرية . هذه الأدوات ، التى بالإمكان أن يُعثر عليها اليوم فوق انحاء كثيرة بأوروبا ، وإفريقيا ، وآسيا الغربية ، معروفة جميعاً بالصناعة الآشولية .

إذا كانت النوبة بيئةً خاصة ، في إنتاج النهر والصحراء ، لا يمكننا بالتالى أن نتحدث عن المقيمين الأوائل بمنطقتنا كنوبيين ، إذ أنه ليس جازما أن أياً من الصحراء أو النهر كما نعرفهما الآن كانا موجودين في زمانهم . إلتُقطت الأزمان الحجرية الآشولية في كافة جنبات الصحراء الكبرى ، مُقترحةً أن صانعيها عاشوا في واحد من هذه الفترات الرطبية نسبياً عندما ازدهرت الصحراء سافانا وغابات ، عارضة منبتاً جذاباً لصيادى وملتقطى ثمار العصر الحجرى [١٠] .

أىُ طرازٍ من الرجال جال هذه الصفحة الأرضية « ما قبل النوبية » التى لا تقع في علمنا ، إن بقاياهم الهيكلّية البشرية لم تبلغ النور بعد . فإذا كانوا مشابهين لصناع الأدوات الآشولية في مكان آخر ، فمن المحتمل أنهم كانوا من *فصيل ثنّى التكوين* : رجالاً حقيقيين ، لكنهم ما بلغوا بعد *فصائل* الأنواع الحديثة . كانت أدواتهم الحجرية في غالبيتها أدواتٍ كبيرةً قواطع ثنائية الوجه ، تشمل « الفأس اليدوى » الآشولى المتميز . الفطرة غير المتخصصة لهذه الأدوات تمنح مؤشراً قليلاً لإستعمالها المقصود . ثانيةً عن طريق موازاتها بمناطق أخرى ذائعة الصيت ، يمكن فيما هو محتمل أن يفترض أن الآشوليين من شمال إفريقيا عاشوا بصيد حيواناتٍ متوسطة الحجم ، مُدّعماً بإلتقاط نبات برى . مثل هذه الحالة من المعيشة تُملى ما يتأتى بالضرورة حياةً مهاجرة ، ربما في فرق صغيرة . ومساكن الآشوليين ما كانت أكثر من معسكرات مؤقتة دونما أى نوع من النباتات إلا بصعوبة . ومهما كان الأمر ، فلم توجد اغلب أدوات الآشوليين المعروفة من منطقة النوبة في أمكنةٍ مناسبة للمعسكرات لكنها في مقالع الحجر حيثما صنعت .

وجدت البقايا الآشولية على طول امتداد المجرى المنخفض للنيل ، من الخرطوم إلى الدلتا ، وعُثر على فؤوس يدوية منعزلة في كل جزء من شمال إفريقيا [١١] . كان هذا بوضوح تقنيةً حجرية واسعة الإنتشار وغير متمايزة للغاية يتقاسمها قسم كبير من البشرية ، من رأس الرجاء الصالح إلى الجزر البريطانية ، ثم إلى الشرق بُعداً حتى وادى الجانج . في الوقت الحالى يمكننا أن نتعرف على فروق صغيرة فحسب بين الصناعات الآشولية لشمال شرق إفريقيا ومصنوعات مناطق أخرى ، وربما افترضنا تشابهاً عاماً للحياة والمعيشة على بسيطة كثير من العالم المأهول .

فى العصر الحجرى القديم الأوسط ، ربما ٥٠٠٠٠ عام إنقضت ، أفسح آشوليو النوبة الطريق لرتلٍ من الصناعات التى تميزت بوفرة أعظم قدراً تشكيلةً من الأدوات مصنوعةً من بلاط حجرى ، والإندثار التدريجى للفؤوس اليدوية . هذه الصناعات تبدو ، مثل أسلافها ، بقايا لأناس صيادين ـ جامعين للثمار على غير تخصصٍ نسبياً ، غير انه ليس بالإمكان أن يُحدد ما إذا كانُوا الأحفاد المباشرين للآشوليين أم انهم كانوا قادمين جدداً للمنطقة . بعض صناعات العصر الحجرى النوبى القديم الأوسط على قُربى بشكلٍ معترف به بالموسترية المشهورة في أوروبا ، وشمال إفريقيا ، وآسيا الغربية ، في حين أن صناعات أخرى تبين قرابات مع ثقافات العصر الحجرى المعاصرة للغابات الإفريقية المركزية (سانجوان ولوبامبان) . إن التعايش الظاهر لصناعاتٍ مختلفة في نفس الوقت يبدو أنه يومئ إلى مشاطرة أقوامٍ ذوى أصل مختلف للبيئة النوبية ، خلال جزء من العصر الحجرى

القديم الأوسط . ومع إقتضاء الزمن ، بطريقة أو بأخرى ، يبدو أن وسائلهم الفنية لصنع الأدوات على تفاوتها إنصبّت في أثرٍ نوبى شائع ومحدود الخصائص [١٢] .

العصر الحجرى القديم الأعلى

فوق كثير من أنحاء العالم يعلم العصر الحجرى الأعلى ظهور كُلٍ من رجال (*نوع الإنسان العاقل*) وثقافاتٍ شقائق بما يمكن التعرف عليه لأنواع أزمان تاريخية . في النوبة ، شهدت هذه المرحلة على قدمٍ وساق خروج بيئة مثل الكائنة اليوم . أضحت الصحراء الكبرى (ليس ضرورةً للمرة الأولى) صحراءً لا ماء فيها ، بين جنباتها بزغ وادى النيل على أنه الواحة العمادية والرواق الأساسى عبر الصحارى .

عدد صناعات العصر الحجرى القديم الأعلى وتعدديتها التى جرى تحديدها في النوبة تتناقض بشكلٍ صارخ مع التوحد الثقافى البادى لأزمان سالفة . أقرُّ وندورف ورفقاؤه بعشر مركبات حجرية مختلفة من فترة الـ ٢٥.٠٠٠ عام ما بين العصر الحجرى القديم الأعلى والنهاية الأخيرة للعصر الحجرى (الشكل رقم ١٣) [١٣]. لا يبدو أنها تمثل تعاقباً موحداً للتطور ؛ نقيضاً لذلك ، فإن بعض صناعات العصر الحجرى المتأخرة لها قراباتٍ مع الجنوب ، وبعضُ منها مع الشمال ، وبعضها الآخر مع الغرب . على أساس هذه المؤشرات سلّم وندورف بسلسلةٍ من الهجرات في مرحلة ما قبل التاريخ إلى بطون النوبة ، ملحقةً بتعايش لفترات طويلة من الزمن لجماعات سكانية متميزة بين نفس البيئة [١٤] .

إن أحوال الصحراء السائدة في أزمان العصر الحجرى القديم الأعلى تعّبر عن درجةٍ ما تحمل على الإقناع بالإقتراح القاضى بأن إناساً من مناطق مجاورة متنوعة ربما دُفِعوا لإيجاد ملاذٍ بإمتداد النيل ، أو على الأقل لشمله في إقليم صيدهم خلال مواسم غير مواتية . تغاضياً عن ذلك لا نعلم بعد على نحوٍ قاطع أن صناعات حجرية مختلفة مؤشر على جماعات مختلفة من الناس . إن نفس القوم ربما ينتجون أدوات مختلفة ، لتؤدى وظائف مختلفة ، بضاحياتٍ لا تبعد إلا أميالاً قليلة عن بعضها البعض [١٥] . معاكساً لهذا ، فإن أقواماً مختلفة وغير ذات قربى ربما تنتج بنفس القدر أدوات متماثلةً عندما تُتاح لها نفس الموارد البيئية ؛ سيما إن كانت لهم سانحة أنفاً ليرصدوا أنشطتهم ويتبادلون المعرفة . إن المكّون الفنى في الأدوات الحجرية المقطوعة ليس عظيماً للغاية بحيث يمكننا أن نفترض ، *على بداهة* ، أن أقواماً مختلفة سوف تتفرد فرديتها في أساليب مختلفة ، كما نفعل ذلك بما اعتدنا عليه في حالة الفخار ومصنوعات أخرى أكثر تقدماً [١٦] . لذا فإنه من الميسور نسبياً لنا أن نُقّر بعلاقاتٍ بين مجموعات من الأدوات (خاصةً إذا استعنّا بالتحليل الإحصائى) ، لكننا لا نجرم أبداً بماهية العمليات التاريخية التى تعلل تمثلاتها . ربما تصير بيّنة على انتشار الأفكار ، أو الأشياء ، أو هجرة الأفراد أو قبائل بأكملها ، أو ربما تضحى حالاتٍ من التطابق العَرَضى .

طارحين جانباً الفوارق الفنية الواسعة ما بين الثقافات النوبية للعصر الحجرى القديم الأعلى ، فإن لها تشابهاتٍ عريضةً معينة تشير إلى تكيف تخصصى متزايد لبيئة النيل . هذا التكيف أسماه وندروف «التكيف النيلى» ، وقد وصف ملامحه بالعبارات الآتية :

منطقة الثقافة النيلية النوبية تبدأ في البروز وقتاً قصيراً عقب البّينة الأولى بأن النظام الحديث للنيل قد أنشئ . إن أهم عنصر في تنمية منطقة الثقافة النيلية النوبية كان هو التكيف مع البيئة المصغرة لوادى النيل ... ما أُنجزُ هذا التكيف حتى كانت النتيجة ثباتاً عاماً للسكان . وقعت بعض الحركات بأعلى النيل وأسفله ، وندر وقوعها ما وراءه .

التكيفات مع البيئة النيلية جليةٌ في وجوه كثيرة للمواد الآثارية ... النقلة من رمل حجر خراسانى وصخور دهرية عتيقة إلى صخر صوانى نيلى وحصى عقيقى في صنع الأدوات مثال ممتاز . إنها منعكسة للنظر أيضاً في

المرحلة	التاريخ ق.م.	الصناعات
العصر النوبى الحجرى	٣,٠٠٠	أبكان — شمركيني — خرطومى متعدد
العصر النوبى الحجرى الأخير	٥,٠٠٠ / ١٠,٠٠٠	أرقيني — كادان — سبيلى — بلانى — جيميني — حلفاوى
العصر النوبى الحجرى الأعلى	١٥,٠٠٠ / ٢٠,٠٠٠ / ٢٥,٠٠٠	خرموسى ؟
العصر النوبى الحجرى الأوسط		الموستيرى النوبي: النوع أ — النوع ب ؟ ; العصر النوبى الحجرى الأوسط القديم — موستيرى سنيني ؟
العصر النوبى الحجرى الأول		أشولى من نوع خور أبو عنجة: متأخر — أوسط — أولى

تتضمن الأسهم مدة الصناعات خلال الزمن. إقرأ الزمن من أسفل إلى الأعلى

شكل رقم ١٢

تطور التسلسل الزمنى للصناعات النوبية ما قبل التاريخ

تغير بإستغلال البيئة ، خصوصاً في ظاهرة تخفيض المحاجر ومحلات العمل بعيداً عن المواقع الحياتية .

التكيف النيلى واضح كذلك في الإقتصاد المختلط المؤسس على صيد حيوانات السافانا الكبيرة والحيوانات المائية ، وعلى الإنقطاع من السمك الوافر بالنيل . إن صيد الأسماك هام على وجه الدقة ، ويبقى مهما وذا معنى ولوجاً للفترة التاريخية . غياب البيّنة بشأن الإستفادة من هذا المورد وسط "السبليين" مؤشر قوى أن "السبليين" لم يتأصلوا بين البيئة النيلية المصغرة .

بالقرب من نهاية العصر النوبى الحجرى الحديث ، إرتّقت الوسائل الفنية لتسمح بالإستعمال الفعال للحبوب البرية التى نَمّت بإمتداد النيل ، ومن ثم لتجعل من الممكن إستغلال مصدر جديد وغنى للغذاء . ما من بّينة ، كيفما مضى الحال ، أن الإنتفاع من الحبوب ، الذى حدث في وقت باكر للغاية في النوبة بالمقارنة مع باقى أنحاء الشرق الأدنى ، قاد إلى نماء محلى لانتاج الغذاء .

هذه الانماط الإقتصادية كُشف عنها النقاب في هوية المجتمعات وتوزيع المستوطنات . منذ البداية كانت المجتمعات صغيرةً ومضمومة ، ربما لا تتجاوز عشرين فرداً إلا فيما ندر . ويُظهر معظمها حجم عائلة ممتدة صغيرة لها ديار متميزة عديدة . أما تركيب هذه الجماعات فمتضمنٌ إضافةً لذلك بالتجمع المُقيد بما يتراوح بين مساحتين لأربعة للسكن تُكّون موقع الإقامة المألوف . يحتمل أن كل مساحة سكنية كانت مستخدمةً ضمن دار بمفردها .

أغلب الإقامات تبدو وجيزة ؛ مواقع الحلفاويين وحدها كانت مُتبّنَةً على استعمال متواصل . كثير من المواقع ، مع ذلك ، استُخدمت مُجّدداً إفتراضياً لأن تلك الضاحية إمتلكت بعض المزايا بوجه دقيق - على الأقل موسمياً .

يبدو السكان كانما مكثوا عدديا في ثبات إلى ما يقرب من إنتهاء العصر الحجرى الحديث ... مع الكادانيين هنالك زيادةٌ مرموقة في عدد من المواقع ، مع أن حجم المجتمعات لا يتغير بأهمية ذات قيمة . غير معلوم ما إذا كانت هذه الزيادة الظاهرة في السكان جاءت نتيجةً لوسائل فنية أشد فعالية للقنص وصيد الأسماك ، أو أن إرتقاء موارد الغذاء الجديدة من الحبوب الأرضية مسؤولة عنها . وأياً ما أدّى منهما إلى زيادة السكان ، برغم ذلك ، هنالك بيّنة أن سكان وادى النيل النوبى كانوا متنافسين مع بعضهم البعض بشكل متزايد ، كما يتضح في التكرار العالى للوفيات العنيفة التى عُثر عليها وسط الهياكل البشرية في فناء القبور بجبل صحابه .

من الواضح أن الأحداث الثقافية لما قبل التاريخ التى برزت في النوبة قامت بوضع هذه المنطقة جانباً عن شمال إفريقيا وشرقها . إن الوجوه المميزة للصناعات النوبية واضحةٌ في المراحل الأولى للتكيف النيلى ، وهى تثابر على البقاء في كل مكان [١٧] .

هنا ثانيةً ، نجد بدايات تأريخ ثقافى نوبى متفرد .

كما ذكر وندروف ، تبدو صناعة السبليين في العصر الحجرى القديم الأعلى ممثلةً لإستثناء جزئى عن النمط العام للتكيف النيلى . البقايا السبلية نوعاً ما موزعة توزيعاً عرضانياً في كلٍ من النوبة ومصر العليا ؛ حقيقةً هذه واحدة من صناعات العصر الحجرى القديم القليلة في النوبة وقد كانت معروفةً قبل بداية أقرب حملة للإنقاذ . التقنية الحجرية تنتمى بالضرورة للعصر الحجرى القديم الأوسط ، ولذلك السبب فإن الثقافة عُين لها تأريخ باكر من مكتشفيها الأوائل [١٨] . يبدو هذا في خطل الآن ؛ المواقع السبلية التى اكتشفتها " البعثة المشتركة لما قبل التاريخ " أُرجع تأرِيُخها إلى الألف العاشرة قبل الميلاد [١٩] . في مثل هذا التأريخ المتأخر تمثل الثقافة حالةً خارجة عن المألوف في تميز وإثارة للدهشة . لم تختلف الأدوات وحدها لكن المادة الموظفة (رمل حجرى خراسانى تفضيلاً على الصخر الصوانى والعقيق) مفارقةً لتلك التى كانت لصناعات العصر الحجرى القديم الأعلى ، كما فُعل بالإقتصاد لغياب أى ما يُوحى بصيد الأسماك أو الصيد المائى عنه . وإذا ثبت التأريخ المقترح بحسم ، فإن ما يُوعز به وندورف من تدخل لصيادين بدائيين يبدو مثيراً للإقناع بمستوىً عال. لربما أنهم صمدوا بالنسبة لجيرانهم الأشد تقدماً في الوسائل الفنية بمقدار ما يفعل

السكان الأصليون في الزمن الحديث مع قبائل البانتو بإفريقيا الوسطى .

كطريق للحياة ، وصل العصر الحجرى القديم الأعلى بلا شك ذروته في ثقافات الصيد شبه - القطبية ذات التخصص العالى في أوروبا ، بأدواتهم رفيعة القطع ، ووفرة العظام والعاج ، والنحت الرائع . هذه التطورات ما أُزيح عنها الغطاء إلا بشكل باهت جنوب ساحل البحر الأبيض المتوسط . معظم إفريقيا وآسيا دارت دورةً أشد تدرجاً في إتجاهً التخصص الثقافى ، محتفظةً بإستعمال كثير من الوسائل الفنية للعصر الحجرى القديم الأوسط حتى نهاية العصر الحجرى . إن مثير التطورات في الشمال النائى كان محسوساً بالتأكيد ، مع هذا ، وعُثر كذلك على عدد من أنواع الأدوات تدل على متأخرة العصر الحجرى الأوروبى القديم (هنا يُدعى عادةً العصر الحجرى القديم الأعلى) في الصناعات النوبية لهذا الزمن .

فنياً ، نهاية العصر الحجرى القديم يعلم عنه ظهور كثير من أدوات حجرية قزمية (ميكروليثية) ، مستجمعةً في أكثر أنحاء العالم . كانت هذه حيوياً موضوعات للخشب أو العظم ، مُرَوسة أو مُطَرقة الأطراف بأحجار صوانية حادة . بعضها دونما ريبة كان سهاماً ؛ بعضها الآخر مِدى ، ومناجل ، وربما مكاشط . في أوروبا والشرق الأدنى تزامن حدوث هذا المدخل الجديد لصنع الأدوات مع التخلى عن صيد الحيوان الكبير وبداية حياةٍ شبه جلوسية مستقرة ، ذات تخصص ، تقوم على صيد الأسماك ، صيد المستنقع ، والإستجماع الواسع للحبوب البرية - تكيفاً هيأ المرحلة لثورة العصر الحجرى الحديث الحاصلة . ولأنهم مصحبون بتغير إيكولوجى إنتقالى متميز ما بين طرائق الحياة بالعصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث ، فإن الصناعات الحجرية القزمية لأوروبا والشرق الأدنى جرى إعدادها فيما كان معتاداً عليه لمرحلةً وسيطة من الإرتقاء تسمى بمرحلة العصر الحجرى الوسيط .

التقنية الحجرية القزمية إنتشرت بمضى الوقت من أوروبا والشرق الأدنى لإفريقيا ، إن لم تكن قد نبعت فعلياً هناك . إن الحجارة القزمية (الصوان الدقيق الذى خدم كأطرافٍ ونقاط قاطعة) هى أوفر وجه من بين كل صناعات ما قبل التأريخ بالنوبة الأشد تأخراً من حيث الزمن . هنا ، مهما جرى الحال ، (بإستثناءٍ هام سيذكر لاحقاً) لا تبدو موصولةً بأى تغير إيكولوجى على قدر ما من الأهمية والمعانى . إن تكيف القنص وصيد الأسماك بقى صفةً للنوبة حتى نهاية أزمان ماً قبل التأريخ . يحتمل لهذا السبب ، أن وندروف يعطى للصناعات الحجرية القزمية النوبية التوصيف الجمعى (العصر الحجرى النوبى الختامى [٢٠] ، أحياناً يُدعى كذلك « العصر الحجرى القديم اللاحق ») بدلاً عن « العصر الحجرى الوسيط» .

يمكننا أن نرقب في العصر الحجرى القديم الأعلى بدايات ذلك التحفظ الإيكولوجى الذى يدل على هوية إفريقيا ، بما في ذلك مصر ، خلال كل التأريخ اللاحق . ربما بسبب أن قطعان الحيوان الكبيرة التى اندثرت في أماكن أخرى بنهاية العصر الحجرى ظلت باقيةً بوفرة في القارة الجنوبية ، كان الإنسان بطيئاً في تكييف أنماطه المعيشية مع لونية الحياة بالعصر الحجرى الحديث جديد النمو ولو كان متقبلاً لكثير من إختراعاتها التقنية . إن قصة الحضارة الإفريقية كانت ولا تزال على نطاق واسع واحدةً لإختراعات فنية وإجتماعية مطهمة لقاعدة معيشية بدائية نسبياً .

مدافن العصر الحجرى

بيَّنا أن معطيات النشاط الإنسانى في النوبة ترجع إلى ما يزيد عن ١٠٠٠٠٠ سنة ماضية ، لا نجد حتى مجئ نهاية العصر الحجرى البقايا الأولية للإنسان نفسه . إن الطابع المتنقل وغير المحدد للحياة المبكرة ما قبل التاريخية صد بتشبثٍ أى طقوس جنائزية متواصلة كما عاكس بالتأكيد أى نموٍ

لجبّانات كبيرة . وإن تطور حياة شبه ـ جلوسية مستقرة فيما هو محتمل ، بالقرب من نهاية العصر الحجرى ، هو الذى جعل في الإمكان الإستعمال المستمر لمواقع محلية معينة للتصرف في الموتى . ثلاثة من مثل تلك الجبّانات بلغت الأضواء في مسيرة حملة الإنقاذ الراهنة . وبالرغم من أن أياً منها لا يمكن تأريخه بدقة ، فإن غياب قرابين الفخار (وجهاً يكاد يكون عالمياً للجنائز في العصر الحجرى الحديث) يجعل من المستيقن بالفعل أنها تسبق في الحديث إرتقاء الفن الخزفى .

جبّانات العصر الحجرى الثلاث المعلومة إحتوت بالترتيب ٥٨ ، ٣٩ ، ١٩ هيكلاً بشرياً [٢١] . دُفنت بأجمعها في حفر بيضاوية ضحلة بوضع منحنٍ ، مع دفع الرُكَب كثيراً أو قليلاً على زوايا قائمة نحو الجسد ووضع الأيدى بالقرب من الوجه . أغلبية الأفراد إنكبوا على جانبهم الأيسر ، إلا أن هذا لم يكن شاملاً ، ما كان هنالك توجهٌ متماسك في إتجاه واحد أو غيره . إثنان من الجبّانات إشتملتا قبوراً مُرَكبة : إثنان ، ثلاثة ، أو حتى أربعة أفراد مدفونون في نفس الوقت بنفس القبر . جديرٌ بالذكر أن نفس عادات الدفن بقيت صفةً للنوبة حتى مجئ حضارة الأسرات .

لم يُعثر على أشياء في قبور العصر الحجرى مما يمكن تفسيره بقرابين جنائزية . مع هذا ، فإن الجبّانة الأكبر ، بجبل صحابة (جوار وادى حلفا) ، كانت على غير المعتاد موضعاً للملاحظة نسبةً لحضور ١١٦ مصنوعاً حجرياً بين الرديم الترابى للقبور . إن وجود بعض من هذه ربما كان عَرضياً ، على أن قلةً منها وُجدت بالفعل مُودعةً مع عظام الأموات . هذه ، مقرونةً ببَيّنة الإصابة بجراح على كثيرٍ من العظام ، تشير ألى احتمالٍ مؤداه أن كثيراً وربما أغلب الأفراد المدفونين بجبل صحابة كانوا ضحايا لصدام ما قبل التاريخ . فإذا كان الحال كذلك يُضاف بُعد جديد لصورتنا عن المجتمع النوبى في هذا الزمان [٢٢] .

جسمانياً ، هؤلاء النوبيون الأوائل المعروفون لم يمثلوا بالتأكيد سكان الأزمان التاريخية . كانوا طوالاً أشداء ، بتقاسيم حادة وذقون بارزة . إنتموا إلى تلك السلالة الكرو ـ ما قنونية من *الإنسان العاقل* التى كانت منتشرةً في أوروبا وشمال إفريقيا في نهاية العصر الحجرى . أقرب متمثل لهم مجموعات سكانية إفريقية أخرى من العصر الحجرى الوسيط وعصره الحديث الذى تم العثور على بقاياه في المغرب والجزائر [٢٣] . من الممكن أن هؤلاء الجنوبيين كان لهم نفس لون الجلدة الداكن مثل الأفارقة اليوم ، إذ أن هذا يُعتبر بصفة عامة تلاؤماً شائعاً لأقوام المنطقة الحارة .

الإنتقال إلى الحياة المستقرة

ميز مؤرخو ما قبل التاريخ في القرن التاسع عشر العصر الحجري الحديث عن العصر الحجري القديم بوجود أدوات من حجر أرضي وفخار. لقد تعرف العلماء في فترة متأخرة علي أن الأهمية الحقيقية لهذه الإختراعات لا تقعُ في تقنيتها إنما تكمن في إستعمالها، حالات كثيرة، لإعداد وتخزين المنتجات الزراعية. وبإيجاز، نجد في أزمان العصر الحجري الحديث، ربما ١٠.٠٠٠ عاماً ماضية، أن الإنسان استغنى نهائياً عن إعتماده على وجود الطبيعة وبدأ في إنتاج غِذاءه بنفسه. نوعاً وفي مكان ما – ربما في أمكنة عديدة كائنما في وقت واحد – تعلم أن يكاثر كلاً من النباتات والحيوانات لإستعماله الخاص، محققاً بذلك تحكماً في مصيره ما حلم به أباؤه السابقون الذين نُسل من أصلابهم. خلال بضعة آلاف من السنين – كأنها بين قرون – تحول المجتمع الإنسانى بما يفوق الإدراك، ما كانت الحضارة نفسها أبعد مدىً من قطع خطوةٍ واحدة. أعطى قوردون تشايلد، أحد أشد مؤرخي القرن العشرين الثقافيين إستبصاراً لهذا التحول إسم «الثورة الزراعية» أو «ثورة إنتاج الغذاء» [٢٤].

يبدو أن النشاطين التوأمين للفلاحة وتربية الحيوان تطوراً في نفس الوقت تقريباً بشكل وثيق؛ لا

تزال هناك بعض الحيرة وسط العلماء أيهما جاء أولاً بالفعل[٢٥]. متى ارتقى نموهما، سار الإثنان يداً بيد؛ كذلك يمكن أن كل الفلاحين الأوائل بالعصر الحجرى الحديث إحتفظوا بقلةٍ من الحيوانات المستأنسة. بمرور الوقت، مع ذلك، إنتشر حفظ القطعان ما وراء حدود المناطق الخصبة حيث كانت الزراعة ممكنة؛ هنا نشأ الرعي البدوى أو شبه البدوى فرعاً متخصصاً«لثورة إنتاج الغذاء».

كان تحول العصر الحجرى الحديث أشد حالةً وألهب إثارةً للخيال في جنوب غربي آسيا، لاسيما مناطقها المرتفعة. قريً متينة البناء يزيد عدد من فيها على الف ساكن، منتجةً ومبادلة لكل أنواع السلع الفاخرة، تبعث أينما كانت فرقاً من الصيادين المهاجرة لا غيرها تجول قروناً قليلة سابقة لتوها. لهذا ولأسباب أخرى مال الرأى السليم طويلاً لأن ينظر لمرتفعات الشرق الأدنى على أنها الموطن الأصلى للثورة الزراعية[٢٦]. إن أحوال الصحراء السائدة بالصحراء الكبرى تظهر مبدئياً كأنما منعت نشرها في القارة الإفريقية، حيث تمسكت بالبقاء إقتصاديات الصيد والإلتقاط زمناً بعيداً بعد إنشاء حياة القرية المستقرة في الشرق الأدنى. مُستهلاً ربما بالألف السادسة قبل الميلاد، كيفما تم ذلك، كانت هنالك إستراحة غير متوقعة: أمطار هطلت بغزارة أوجدت نباتات البحر الأبيض المتوسط المألوفة فوق مناطق كانت بلا حياةٍ لألف عام. ثم ما أسرع ما شرع القحط فيها، إلا أن عودة أوضاع الصحراء ما كانت مكتملةً إلا بصعوبة حتى بداية الأزمان التاريخية. لقد كانت فيما يبدو خلال «المرحلة الرطبة للعصر الحجرى الحديث» أن طريقة الحياة بإنتاج الغذاء كانت قد أُقيمت بشكلٍ دائم في إفريقيا. وفي مسيرة القرون إنتشرت تدريجياً فَعَمت القارة بأسرها، حتى لم يبق الا البوشمان البدائيون بصحارى جنوب إفريقيا نموذجاً لأسلوب الحياة ما قبل الزراعة[٢٧] .

تأثيرات العصر الحجرى الحديث التى ظهرت في إفريقيا أثناء « المرحلة الرّطبة » يبدو أنها كانت من نوعين متميزين ، كلاهما هام في تأريخ النوبة . إشتمل واحد منهما على إنشاء إقتصاد زراعى أساساً على النيل الأسفل ، كما تدل على ذلك مثالاً ثقافات الدلتا في العصر الحجرى الحديث (الفيوم ومريمدا) بمصر السفلى والبدارى بمصر العليا . أما الثانى فكان الإنتشار الذى وقع في نفس الآن فيما يظهر للبداوة فوق إمتداداتٍ شاسعة للصحراء الكبرى المأهولة من جديد [٢٨] . هذان الطريقان المملوءان بالحياة إلتقيا واندمجا في رواق النيل ، صاغ تداخلهما جزءاً كبيراً من تأريخ النوبة في أزمانٍ لاحقة .

الأصل الأسيوى للإقتصاد الفلاحى المصرى يبدو مما لا جدال فيه [٢٩] ، فمستبقات البداوة الإفريقية أقل يقيناً بكثير . البقر الذى نجد بقاياه في مواقع للعصر الإفريقى الجليدى الباكر الحديث ليس سلالةً أسيوية بحكم التعرف ؛ ربما يمثل حالةً من الإستئناس الأصيل لأنواع محلية [٣٠] . تناوباً مع ذلك ، ربما أن الحياة الرعوية بلغت شرق إفريقيا من شبه الجزيرة العربية عن طريق مضيق باب المندب ، أو لعلها انتشرت صوب الجنوب من سيناء على طول مرتفعات البحر الأحمر ، كما فعلت بداوة الرُحّل في العصور الوسطى .

يعقب إشكالية الأصول المستقرة في شمال ـ شرق إفريقيا إضافةً لذلك الظهور الأول للفخار (مؤشراً للحياة المستقرة) متقدماً على كل من الزراعة وتربية الحيوان . إن إستخدام الآنية الفخارية واحد من اكثر وجوه الحياة في العصر الحجرى الحديث إنتشاراً ، لكنه في جنوب ـ غرب اسيا سار قروناً قليلة من بعد الإستئناس الأولى للنباتات والحيوانات . أقدم مواقع للعصر الحجرى الحديث في الشرق الأدنى (وربما كذلك في البلقان) تفتقد لتلك البقايا الخزفية وتنتمى إلى « ما قبل الفخار » أو « ما قبل العصر الحجرى الخزفى الحديث » قصير الأجل .

فى النوبة تعاقب هذا التطور كان معكوساً . إن ما يُدعى ثقافة الخرطوم في العصر الحجرى الوسيط ، التى اكتُشِفت سنوات قليلة ماضية في وسط السودان ، تعرض صناعة حجرية قزمية مألوفة مصحوبة بفخار راقٍ بما يثير الدهشة ، غير أنه لا توجد بَيّنة لأى من إستئناس النبات أو الحيوان [٣١]

. هنا ، كما في أحيان كثيرة كذلك ، يبدو أن إفريقيا كانت أكثر تقبلاً لإختراعات تقنية خالصة منها التطورات البيئية التى تسببت في مجنها ، فإن الأصل الأجنبى لصناعة فخار الخرطوم في العصر الحجرى الوسيط غير جازم ، إذ أنه ليس له سوابق معروفة سواء بالوطن أم خارجه . ربما أنها تمثل حالةً واحدة مزادة لإختراع الفخار المستقل ـ مستثاراً على سبيل الإمكان بالإلمام بمصنوعات مماثلة في مكان آخر (٣٢) . في الوقت الحاضر يجعل غياب تواريخ الكربون المشع أى نوعٍ من الإرتباط التاريخى للعصر الحجرى الوسيط بالخرطوم أمراً عسيراً .

ثقافة الخرطوم في العصر الحجرى الحديث توحى بتلاؤم عالى التخصص لأحوال النداوة السائدة . عاش الناس فيما يبدو معسكراتٍ كبيرة شبه دائمة ، مع أنها بدون مساكنٍ مبنية ، بموازاة ضفاف الأنهار والحفائر . كان جزء كبير من حياتهم مستمداً من صيد الأسماك ومن قنص فئران الأعشاب طويلة السيقان وغيرها من خواص القنص الصغير في بيئة مستنقعية . هذا التشكل من أشكال الوجود يقترح مرتعاً قريب الشبه بما هو كائن اليوم بمستنقعات جنوب السودان . إن وفرة الغذاء الطبيعى مثبتةٌ بقدرة سكان الخرطوم في العصر الحجرى الوسيط على انتهاج حياة مستقرة (ومن ثم صنع وإستعمال الفَخّار) دونما أى من الزراعة أو تربية الحيوان . ما من جَبَاناتٍ بهذه الفترة عُثر عليها ، بيد أنه عند اكتشاف موقع " الخرطوم الأولى " كان عددٌ من الأفراد قد دفن بين المستوطنة ـ ممارسةٌ أخرى دلالةً على أقوام المستوطِنة باكورة العصر الحجرى الحديث (٣٣) . طريقة الدفن ، في وضع منحنٍ بحفر بيضاوية ضحلة لا تختلف عن الطريقة المتّبعة من قِبَل الأقوام النوبية الأولى والمتأخرة على السواء .

بقايا العصر الحجرى الوسيط في الخرطوم وُجدت على رقعةٍ ذات اعتبار بشرق النيل وغربه . صناعة الحجر المرافقة لها ذات توزيع أوسع إنتشاراً بكثير ، وهى مماثلةٌ بشكلٍ لصيق للصناعات الحجرية الدقيقة في كلٍ من شمال ـ غرب إفريقيا وكينيا (٣٤) . بل إن فخار الخرطوم في العصر الوسيط الغامض والذى يبدو متأصلاً له شبيهٌ في الغرب البعيد بالصحراء الكبرى ، مع أنها ربما تمثل تشتتاً لاحقاً لنفس الفكرة (٣٥) .

فى معظم الجوانب ، للعصر الحجرى الوسيط في الخرطوم نكهةٌ إفريقية متميزة بدلاً من نكهة شرق أدنية . كما رقب ديزموند كلارك " الصحراء الكبرى في هذا الوقت لابد أنها كانت ملتقىً لأقوام من شمال وأواسط إفريقيا . هؤلاء الناس كانوا كثرة أم قلة أهل قنص وصيادى أسماك مستقرينً تركزوا بالبحيرات الدائمة ، والمنخفضات ومجارى المياة الكائنة آنذاك ، وعاشوا في مستوطناتٍ لها أكوام نفايات من التى طُبِّعت عليها الخرطوم الأولى ، تفرجيت ، وتامايا مليت " (٣٦) . وتجدر الإشارة إلى أن البقايا الهيكلية البشرية التى وُجدت في كلٍ من المواقع المحلية التى دُعيت أسماؤها بعاليه تبين بما لا تخطئه العين صفاتٍ إفريقية . ثقافياً ، وربما كذلك وراثياً ، كان أولئك الناس هم الأسلاف المباشرين للنوبة الحاليين (٣٧) .

العصر الحجرى النوبى الحديث

فى وسط السودان خُلِّف العصر الحجرى الوسيط في الخرطوم ، ربما حوالى ٣٥٠٠ ق .م (٣٨) بصناعةٍ مشتَقة تُدعى العصر الحجرى الحديث في الخرطوم (أحياناً تسمى بالمثل ثقافة الشهيناب على أثر موقع إكتشافها (٣٩)) . إن تواصلاً مباشراً بين الثقافات الأولى والمتأخرة يوحى به فخارهم ، وصناعاتهم الحجرية لصيقة التقارب . كلّ من الجماعتين صنع فخاراً بنياً غير ملون مزخرفاً في تنميق برسوم مضغوطة وحفورة ، تشمل مرات كثيرة مجمعات من خطوط منقوطة ومتواصلة . إقترح أ . ج . أركيل أن هذه نُفذت بشوكة سمك العجل (٤٠) .

إن أهم وأقيم تحديث يُروى في العصر الحجرى الحديث في الخرطوم هو حضور ماعز أليفة صغيرة ، من فصيلة الشرق أدنى فيما هو ممكن مع أنه ليس مستيقناً . بعبارة أخرى ، كان إنتاج الغذاء من هذا النوع قد ارتَقى في نهاية الشوط بأعالى النيل في هذا الزمان ، يكاد يكون بنفس القِدَم مع نهوض الحضارة نفسها في مصر وبلاد ما بين النهرين . على قدم المساواة الآن . وكيفما اتفق ، يصعب أن يكون إقتصاد النوبيين مُحُولاً : صناعة العصر الحجرى الحديث في الخرطوم تستنطق إعتماداً ثقيلاً متواصلاً على صعيد الأسماك وقنص المستنقع ، وربما مع رعى قطعان الماعز كدعم عرضى في البداية ليس إلا . بمعظم الأوجه لا تزال الثقافة تقدم المثال على التكيف النيلى في أقصى مراحل تخصصها . هنالك متشابهات متضمنة للإتصال مع ثقافات الفلاحين بالعصر الحجرى الحديث عصر (الفيوم والبدارى) ، إلا أن هوية الثقافة الجنوبية تظل بما يدعو للملاحظة متميزةً وإفريقية بالضرورة [٤١] . بالبينة على الزراعة ما تنفك مفتقدة .

إقتصاد القنص وصيد الأسماك الماثل منذ ردح طويل إستمر بوضوح في إتاحة معيشة أكثر من كافية ، على الأقل بإمتداد النيل الأعلى . إن البقايا الثقافية من الشهيناب ومواقع أخرى في وسط السودان ترفد إنطباعاً مذكوراً من الرخاء والترف . العقود وأدوات أخرى للزينة من حجر الأمازون ، العقيق الأحمر ، العظم والصدف ، رؤوس هراوات من الحجر الرملى ، قداديم ، ورؤوس فأسية ، والفخار ، كلها وُجدت في كثرة عظيمة [٤٢] . بالرغم من أن تجفيف الصحراء الكبرى ربما كان مرةً ثانية حثيثاً ، ما كانت هنالك عودة كاملة لأوضاع الصحراء بعد ، ذلك أن بقايا العصر الحجرى الحديث في الخرطوم عُثر عليها على مساحات لا حياة فيها الآن لمدى بعيد [٤٣] .

ثمة بقايا مشابهة من ناحية الأنواع المصنّفة للعصر الحجرى الوسيط والعصر الحجرى الحديث في الخرطوم توجد كذلك في الجزء الشمالى للنوبة ، على الأقل إلى مبلغ الشلال الثانى . إنها لا تُبيِّن قُرباً وثيقاً من الصناعات النوبية نهاية العصر الحجرى الحديث لهذه المنطقة ، وهى لذلك يُعتقد أنها تمثل تدخلاً من مكانٍ لآخر [٤٤] . تمَّ التنقيب عن عشرة مواقع بالتقريب للعصر الحجرى الحديث في الخرطوم (تدعى « متباين الخرطوم » من قبل وندورف وصحبه) ، وفى منطقة وادى حلفا أثناء حملة الإنقاذ الأخيرة [٤٥] .

ومع أن مواقع العصر الحجرى الحديث في الشمال تُظهر بعض التماثل لتلك المجاورة للخرطوم، فليس هنالك نفس الإقتراح بالرخاء والوفرة على غرار ما يُعد وصفاً دالاً على البقايا الجنوبية . إن أدوات الزينة المتعددة إضافةً إلى الأدوات المصنوعة من الخشب (القداديم والرؤوس الفاسية) التى وجدت بالشهيناب لم يُعثر عليها في النوبة السفلى . أحوال الصحارى ربما كانت أكثر تقدماً في الشمال ، كما هى اليوم ، وتناقصت موارد القنص بالتالى . الأنشطة الإقتصادية لأناس العصر الحجرى الحديث في الخرطوم وبالنوبة السفلى لسوء الطالع ليست مُتَضَمنةً في صفاء بالبقايا التى اكتُشفت حتى الآن . لا عظام للحيوان الوحشى أو المتأنس أو أى بيّنة محددةٍ لصيد الأسماك ، جاءت إلى النور بعد . وبالنسبة للمواقع التى تقع بعيداً عن ضفاف النيل ، مع ذلك ، من العسير أن يُتَخيل أى نشاطٍ معيشى بخلاف رعى القطعان أو قنص الصيد الصغير .

كلٌ من المواقع المعروفة للعصر الحجرى الحديث في الخرطوم بالنوبة السفلى معسكرات صغيرة وغير دائمة . شقٌ من أرضيةٍ طينية مُجَيّرة وُجدت في مكان واحد [٤٦] ، ونفاية مواقد خشنة في مكان آخر [٤٧] ، غير أنه ما من شئ ليُنبئ عن بناء هياكل دائمة . ثانية ، يشير غياب الجبّانات إلى نمطٍ متنقل من الإستيطان . إجمالاً ، توحى بقايا العصر الحجرى الحديث في النوبة السفلى بحياةٍ أغلظ وأشد تضييقاً من التى تمتع بها سكان الشهيناب .

هنالك بيّنة في منطقة وادى حلفا لثقافةٍ ثانية للعصر الحجرى الحديث ، إصطُلح عليها بالعبكى من وندورف وصحبه [٤٨] . الصناعة الحجرية المرافقة ، على غير ما عليه « متباين الخرطوم » ، تبدو

من أصل محلي ومأخوذة من صناعة الكادان في العصر الحجرى الحديث . فخار عبكة من الجانب الآخر يبين تماثلات مُعَممة لفخار مصر في العصر الحجرى الحديث . الأوانى غالبيتها رقيقة الحواف للغاية ، قِداحاً نصف كروية منبسطة ، ذات شقوق حمراء بين فينةٍ وأخرى . وعلى الرغم من أن زخرفاً ثلماً يظهر أحياناً ، ليس هنا شيء مقارناً بالرسوم المعقدة التى تميز العصر الحجرى الحديث في الخرطوم . بصرف النظر عن هذا ، فإن العثور الموسمى على فخار عبكة في مواقع الخرطوم وبالعكس يوحى بالمعاصرة بين الصناعتين .

فى مناقضةٍ لبقايا العصر الحجرى الحديث في الخرطوم ، تقع كل المواقع المعروفة لثقافة عبكة بالقرب من النيل الحالى ، وتقدم بيّنة تعلق إعتماداً ثقيلاً على صيد الأسماك . طبقاً لجويل شاينر :

إقتصاد عبكة ، وفقاً لبيّنتنا ، ربما كان مؤسسا تأسيساً ثقيلاً على صيد الأسماك ، بعض الصيد والإلتقاط لابد أنه لعب دوراً ، مع أن البّينة المباشرة شحيحة . توجد حجارة السحن ، مع إنها ليست عديدة ... لو كانت هنالك إختلافات ذات قيمة ومعنى في النشاط الموسمى ، فإن تلك الأنشطة كانت تمارس من موقع دائم منفرد إلى حد ما . ستة من عشرة مواقع عبكية موضوعة على مدار أمتار من مواقع ممكنة للشراك المنصوبة للسمك [٥٠] .

حتى الآن (اللحظة) ، فإن مواقع عبكية بالعصر الحجرى الحديث معلومة من منطقة الشلال الثاني و *بطن الحجر* وحسب [٥١] . وجانباً عن الفوارق المتماسكة في التقنية الخزفية والحجرية . هنالك القليل لإجراء مفاضلةٍ بينهما وبين مواقع العصر الحجرى الحديث في الخرطوم . كلاهما كان بالضرورة معسكرات دونما أى بيّنة لنباتات دائمة أو حتى مساكن مهيأة بعناية أو أرضيات للحياة عليها في معظم الحالات . برغم هذا ، إكتسبت بعض مساحات لإقامة مواقع عبكة في منطقة الشلال فائدة كبيرة من الحماية التى تكفلها الطبيعة نتوءاتٍ وجلمودا . أما مدى وعمق راسب الإقامة في هذه الأمكنة فُيوحى بسكان أكبر عدداً وطريقة حياةٍ أكثر استقراراً عما تفعل بقايا عصر الخرطوم الحجرى الحديث في نفس المساحة .

بمعايشة صناعتين ، واحدة منحصرة بضفاف النهر والأخرى منتشرة بشكل أكثر ، من المغرى أن يُشاهد تكوين هذه الثنائية الزراعية - الرعوية التى تعد دالةً مميزة للغاية على الشرق الأدنى المتأخر. لعل مثل هذا الفرض يفسر على السواء الفقر البادى لبقايا العصر الحجرى الحديث في الخرطوم بالشمال ، بافتراض أن سكان الخرطوم كان قدومهم متأخراً بعد أن استولى العبكيون على أفضل أجزاء الوادى . بصرف النظر عن ذلك هنالك إعتراضات مريعة على أى تأويل بهذا المنوال . فالذى يبدو هو أن العبكيين كانوا بشكل رئيس صيادى أسماك بدلاً من فلاحين وإننا نعلم أنه على الأقل في الجنوب كان صيد الأسماك كذلك مصدراً مهماً لمعيشة سكانِ الخرطوم . بنفس المستوى فإن المعاصرة بين الأثرين ليست مما يقع فوق الجدل ، حيث أن التواريخ الفعلية مفتَقَدة . يمكنهما بشكلٍ محتمل الوقوع أن يمثلا تطورات متوالية ، مع تأكيد أن العبكيين هم الآخيرون . إن الثنائية على أى حالٍ لم تعد ظاهرةً في ثقافة المجموعة الأولى التى أعقبتها ، وكل من مأثر عبكة والعصر الحجرى الحديث في الخرطوم تبدو توليفة ممتزجة في هذه الثقافة النوبية الباكرة للفترة التاريخية (قارن بالفصل الخامس) .

فن ما قبل التاريخ

ما من وصفٍ كامل لحياة ما قبل التاريخ يكون كاملاً في شمال إفريقيا من غير أن تُذكر النحوت الصخرية التى تمثل تعبيرها الفنى . تصويراً للحيوانات ، بتكرار أقل للناس ومنتوجاتهم ، توجد محفورةً (أو ملونة من وقت لآخر) على نتوءات صخرية في كل أنحاء الصحراء الكبرى وما وراءها . تنوع الأساليب والتقليعات اللونية يشهد بتأريخ فنى طويل .

تاريخ البقايا النقوشية دائماً ما ينطوى على مشاق ، إذ أنها نادراً ما تقترن بفضلات الإقامة . مع هذا ، فإن أصل ما قبل التاريخ لكثير من الفن الصخرى في الصحراء الكبرى ـ يبدو مما لا جدال فيه ـ كثير من الرسومات توجد في أمكنةٍ غير مسكونة منذ طور النداوة في العصر الحجرى الحديث ، والنبات الموصوف خمدت جذوره منذ عهد طويل في الجزء الشمالى من إفريقيا . الأكبر والأحسن تطبيقاً للرسوم يبدو على عددٍ من الأسس ما كان أبكر زمناً . إن تمثلها الفنى للوحات الكهوف المجدلينية العظيمة في فرنسا وإسبانيا صارخ للغاية بحيث تُقترَح صلةً تاريخية معها عن طريق مضيق جبل طارق [٥٢] . في أزمانٍ متأخرة يبدو الفن النقوشى كأنما شهد تدهوراً في الأسلوب بالتدريج ، ربما مرافقاً لتداعى إندثار الصيد الثقيل نفسه . مع هذا ، فإن ممارسة النحوت والرسوم الصخرية بقيت على قيد الحياة متحدرةً إلى داخل أزمانٍ تاريخية ، ولا تزال ممارسةُ اليوم من البوشمان الصيادين في الصحارى الجنوبية من إفريقيا .

المحفورة الصخرية وافرة على طول امتداد وادى النيل ، على الأقل من الخرطوم إلى الدلتا . ما يقرب من ألف مجموعة من الصور بُلِّغ عنها من بعثة مفردة في مناطق الشلال الثانى و *بطن الحجر* [٥٣] . وإنها فيما هو ظاهر يرجع تأريخها لكل الفترات ، من فترة ما قبل التاريخ إلى الماضى ذى القرب الوشيك . تبين رسوم ما قبل التاريخ حيوانات الصيد المألوفة في السافنا التى توجد اليوم بأواسط وجنوب إفريقيا (إفتراضياً توجد كذلك في النوبة إبان الزمن الذى رسم فيه) ، بينما البقر هو الموضوع المفضل لمعظم الفترات المتأخرة . هنالك أيضاً عدد من الرسوم الرئيسة ، مثل مركب بصَاريةٍ ومجداف للقيادة ، إشتقاقاً مصرياً لا تخطئه العين في أنحاء الصحراء الكبرى توجد رسوم مماثلة للمركب ، يُرى أنها ترتبط بمعتقداتٍ جنائزية محددة [٥٤] .

بالرغم من أن الصور الصخرية النوبية الأشد قِدَماً ترجع بالتأكيد لما قبل التاريخ ، لكنها لا تنتمى للطور التمهيدى . ما وُجد شئٌ يُقَارن من مرحلة بناء الصروح لفن الصحارى الصخرى في وادى النيل بالرسوم الحركية من النوع المجدلينى في الصحراء الكبرى الوسطى والغربية . إن الحيوانات ممثلةٌ دائماً في نماذج مصغرة جداً ، الحركات والسكنات جامدة وشكلية .

واحد من أكثر المعثورات وأشهرها لفن ما قبل التاريخ النوبى وجد في عبكة ، يرتبط وثيقاً ببقايا إستيطانية لصناعات الكادان والعبكان بالعصر الحجرى القديم الأعلى والعصر الحجرى الحديث[٥٥]. مئات من الرسوم الفردية نُحتت على مجموعةٍ من الجلمود الغرانيتى مبعثرةً فوق أفدنة عديدة ، بعضها في تجمعات كثيفة والأخرى معزولة (الصورة ٤ ـ أ) . أكبرُ جمع مفرد إحتوى أكثر من خمسين حيواناً إلى جانب رسوم أخرى لا حصر لها . مع أن بعض المجموعاتُ ذات الشكلين أو الثلاثة أشكال كانت قد أُجريت بصُفاء في نفس الوقت ، ما كان هناك جهد حقيقى بالنسبة لمنظر المنشأ ، وكان تجاور أشكال كثيرة فيما هو واضح عَرَضياً . هنالك بعض التنصيب الفوقى الذى جاء مؤخراً على رسوم سابقة ، إلا أنه لا يوجد ما يوحى بأن الرسوم الممسوحة ، التى أوجدت في تعمدٍ ، تُشَخص أياً من الفن الكهوفى في الصحراء الكبرى الغربية أو المجدلونى [٥٦] .

الحيوان الذى يمكن التعرف عليه وسط الصور الصخرية في عبكة يشمل الزراف الوعل ، الغزال، التيتل ، الحمار الوحشى ، الفيل ، فرس البحر ، وحيد القرن ، النعام ، والأرنب . يدعو للإستطلاع ، بالنظرإلى النشاط المعيشى المفترض للناس الذين عاشوا في عبكة ، أنه ما كانت هنالك رسومات للسمك ، مع أن رسماً شبه تجريدى واحد ربما يكون فخاً للسمك [٥٧] . هنالك زيادةٌ على ما ذُكر انفاً صيادون بالنبال والسهام ومعهم كلاب ، وأشكال إنسانية أخرى متنوعة . أفضل هذه الأشكال منفذ بعناية معتبرة ، لكنه لا يشتمل أياً ما يُرَحب بحياةٍ أو حركة . علاوةً على هذا يوجد عدد كبير من رسوم تجريدية خالصة . لا يتعدى علو الرسوم الفردية عشر أو إثنتى عشرة بوصة .

موانع الإقامة في عبكة يرجع تأريخها بين ٧٠٠٠ و ٤٠٠٠ ق . م [٥٨] ربما أن الرسوم هنا تبدو

من أوائل الطُرُز الموجودة في النوبة ، يحتمل أن هذه كذلك تُرّسخ التأريخ لدخول الفن الصخرى إلى جوف وادى النيل .

ملخص تفسيرى

تأريخ النوبة في العصور الحجرية تميزت سماته بالإرتقاء التدريجى لبيئة من نوع الواحات ، وبتلاؤم متزايد التخصص للسكان الأصليين مع موارد تلك البيئة . كان هذا « التلاؤم النيلى » من النجاح بمكان لدرجة أنه مضى طويلاً غير متأثر بالتغير المناخى أو بتطور طرائق حياتية أكثر تقدماً في المناطق المجاورة . جَمْعُ النبات الحَبِّى ، الذى كان في الشرق الأدنى عينةً على ثورة ثقافية وإجتماعية ، ما كان في النوبة أبداً أكثر من ملحق غذائى لا أهمية له . لم يكن للإدخال المتأخر للحيوانات الأليفة ولا للنمو المستقل للفخار فيما يصح إمكان حدوثه أى أثر تحويلى هام ، على المجتمع النوبى . جعل الطور المطير للعصر الحجرى الحديث من الممكن نشر حياةِ فلاحة الشرق أدنى في باطن مصر ، لكنه على النيل الأعلى كان من أثره الأساسى أن يُغنى إقتصاد القنص - صيد الأسماك - الإلتقاط الذى أُحسن إنشاؤه من قبل . وفى النهاية ، تبدو الحياة الجلوسية المستقرة كأنها ما جاءت عن طريق نماءٍ في إنتاج الغذاء إنما عبر الإنتاجية غير العادية للقنص وصيد الأسماك إبان الطور الرطيب للعصر الحجرى الحديث . ما كانت حياة الفلاحة مقامةً آخر الحلقة في النوبة حتى نهاية العصر الحجرى ، عندما كانت مصر وسومر في ذلك الحين على أعتاب الحضارة . تنتمى تلك القصة بشكلٍ سليم إلى المجموعة الأولى من الفترة التأريخية .

الفصل الخامس

ظل الحضارة
ثقافة المجموعة الأولى النوبية

فى الألف الرابعة قبل الميلاد جعل نفوذ الحضارة المتنامية في الشرق الأدنى نفسه محسوساً بصورة نهائية في إفريقيا . على طول النيل الأسفل كان هنالك توسيع لمجتمع ، وإسراعٌ بخُطى الحياة، وترقيةٌ للفنون التى وضعت الأساس لبزوغ الدولة الفرعونية قريباً من نهاية الألف الرابعة . وبالظهور المصاحب للكتابة الهيروغليفية ، نجد أنفسنا بشكل مفاجئ في الفترة التاريخية . إن صورتنا في الحال عن الحياة والمجتمع في مصر أوسع مساحةً وأعلى كمالاً منها في أى فترة سابقة.

يُلقى فجر التاريخ في مصر ظلالاً خافتة على الأرض الواقعة إلى الجنوب في أحسن الحالات ، وقد بقيت في العصر الحجرى الجديد على أميه قروناً طويلة . من حوليات الملوك والمسؤولين المصريين نمسك خيوطاً زائلة وأحياناً غامضة عن النوبة ، بيد أنه للحصول على إثبات راسخ عن الثقافة وتطورها ، علينا أن نعتمد إعتماداً كلياً على الآثار . ما استطعنا حتى مجئ ، حضارة الأسرات نفسها إلى النوبة ، بعد ١.٥٠٠ عام ، أن ننشئ أى نوع من الصور عن الحياة اليومية في الأرض الجنوبية من إثبات نصىّ .

فترة الحضارة الناهضة في مصر معاصرة بصفة خاصة لثقافة المجموعة الأولى في النوبة . هذه هى الجماعة القديمة لرايزنر - الأولى في الثقافات غير المدُونة التى اكتشفها منذ ستين عاماً مضت في شلال ، والتى عَرّفها بأنها أسبق إقامةً في النوبة . مُلاحظاً تمثّل فخار « المجموعة الأولى » لفخار المصريين ما قبل عهود الأُسرات ، مثلما لاحظ الغياب البادى لبقايا أقدمَ زمناً في النوبة ، إرتأى رايزنر بما هو مفهوم للغاية هجرةً في إتجاه الجنوب من مستوطنين مصريين إلى أرض لم تكن مأهولةً من قبل [1] . إن تأريخه للنوبة ، وتواريخ عديدة أخرى أعقبته تبدأ لذلك بإقامة « المجموعة الأولى » .

« المجموعة الأولى » كمُركّب ثقافى متميز أثبته في إتقان عمل آثارى منذ أيام رايزنر . وفى الجانب الآخر يمكننا أن ندرك اليوم أن كثيراً من أفكار رايزنر فيما يتعلق بأصول الجماعة - أ ، أى ، « المجموعة الأولى » وعلاقاتها ، لم تكن صحيحة . إن ثقّل البيّنة الحديثة يخبر أن كلاً من الثقافة والمجتمع كانا نوبيين لا جدال ، وكانا على مقربةٍ من الأزمان الأولى والمتأخرة ثقافةً ومجتمعاً في نفس المساحة . بداية الأمر ، تبدو الآن مستبينة ، أن ثمة علاقة وُجدت مع أثر عبكة في العصر الحجرى الحديث ، وربما كذلك مع ثقافات أخرى للنوبة السفلى في العصر نفسه [2] . في النهاية ، يظهر التمييز المفترض بين « المجموعة الأولى » (*) و « المجموعة الثانية » (**) زائفاً بكليته . هنالك حلقات وصل وفيرة على حد سواء مع « المجموعة الثالثة » (***) التى تُطّالع دائماً على أنها أشد

(*) الجماعة أ فى النص الأصلى - المترجم .
(**) الجماعة ب فى النص الأصلى - المترجم .
(***) الجماعة ج فى النص الأصلى - المترجم .

تأخراً في الزمان . لذلك يبدو من الأفضل أن تتفادى المضامين الإجتماعية لكلمة «جماعة» ويُتحدث بدلاً منها عن أفق ثقافي عريض ، يغطي كُلاً من « المجموعة الأولى » و « المجموعة الثانية » : ثقافة المجموعة الأولى، بسبب الإفتقاد لإسم أفضل .

دفاعاً عن فرضية رايزنر الأصليةُ ، فإن النفوذ المصري في ثقافة المجموعة الأولى النوبية يصعب أن يُهول من شأنه . الابتداعات الثقافية الرئيسة إلى جانب الأحداث التأريخية الكبرى لهذه الفترة كلها بالتقريب مما يمكن رد أثره مباشرة أو غير مباشرة إلى المصريين . إنها ظل الحضارة الحاضر أبداً في الشمال ذلك الذي يفاضل النوبة هذا الزمان عن كل الفترات الأولى . مبدأ الأمر ، مع ذلك كان انتشار الأفكار والأشياء ، ليس حركة الناس ، هو الذي دفع تطورات ثقافة المجموعة الأولى للتحرك . المصريون أنفسهم جاءوا من بعد ، بنتائج مختلفة . ستكون المغامرات الإستعمارية لمصر في النوبة (إستلافاً للعنوان الذي أطلقه أمرى) [٣] موضوع فصول لاحقة (قارن على الأخص الفصلين السابع والتاسع) .

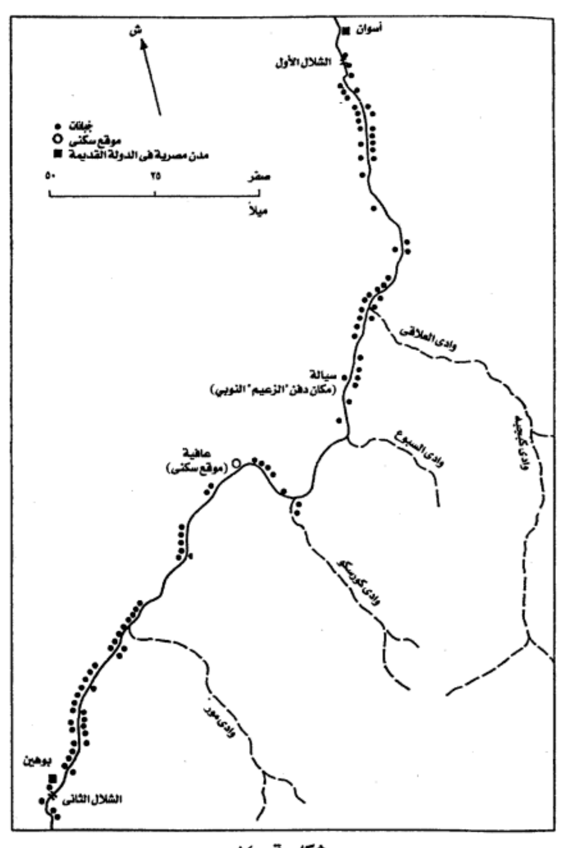
جانباً عن ثروةٍ من الأفكار والمواضيع المستحيلة ، تميز أربع خصائص أصلية ثقافة المجموعة الأولى عن أسلافها بالعصر الحجري الحديث : الزراعة المحددة للنبات الحَبي في بدايات معمار محلي ، صنع فخار أسوأ وأحمر متميز ، وممارسة إيداع قرابين مادية مع الموتى . الأوليان من هذه الخصائص أثبت حدوثهما منذ وقت متأخر ليس إلا . وعلى أساس القبور ، وفوق كل شئ الفخار الموجود بها ، حدد رايزنر منذ وقت طويل خصائص « المجموعة الأولى » وأعاد إنشاء تاريخها الإجتماعي .

مواقع ثقافة المجموعة الأولى وُجدت بكثرةٍ في كافة أرجاء النوبة السفلى (الشكل رقم ١٤) [٤] . أما المدى الذي امتدت إليه جنوباً هذه الثقافة التي تُعد أول ثقافة طالها النفوذ المصري في النوبة ، فيظل ، في الوقت الراهن ، غير محدد . وُجدت ثُلةٌ من مواقع ثقافة المجموعة الأولى في المسح الذي أكمل منذ مدة وجيزة *لبطن الحجر* [٥] ، بيد أن أثراً أبعد مكاناً في الجنوب ، يشمل بضعة قبور ، بُلِّغ عنه لحين وشيك من ناحية صادنقا في أرض عبرى - دلقو النهرية [٦] . ثقافة المجموعة الأولى يظهر هكذا أنها بشكلٍ معتبر موزعة بإتساع أكبر من أي صناعة للنوبة السفلى سبقتها في العصر الحجري الحديث ؛ ربما يجدر بنا لذلك أن نعدها نموذجاً لعدد من تقاليدٍ محلية مختلفة ، كلها تستجيب لنفوذ شائع من الشمال . يجب أياً ما كان أن يُؤكد أنه بالنسبة للوقت الحالي تنحصر المعرفة المنسقة عن ثقافة المجموعة الأولى في النوبة السفلى فعلياً .

الفخار والتأريخ

يبدو الفخار مغالى فيه في تعريفنا للمراحل الثقافية النوبية المتأخرة بشكلٍ يجعل من المحتمل أن تُذكر كلمة حول دوره العام في الآثار . حجم المسافة المكرسة لمناقشة أواني الفخار في التقارير الآثارية قد تؤدي بالقارئ العادي لأن يستنتج أن صنعها كان العناء الأساسي لأقوام ما قبل التاريخ . قليلٌ من علماء الآثار يؤمنون عن وعي بهذا ، مع أنهم في مساعيهم لإعادة إنشاء التأريخ من بَينة مادية ينسون أحياناً أن ما يكون هاماً لهم ربما لم يكن مهماً لصانعيه . هنالك بصرف النظر عن ذلك أسباب وجيهة لإكتراثنا بالفن الخزفي ، بعيداً للغاية عن أي إعتبارات لأهميةٍ وظيفية .

هنالك إتفاق عام أن الفنون - تلك التعابير من الثقافة التي غلب تحررها من إملاءات الضرورة - هي أشد المؤشرات حساسيةً للتقليد الثقافي في جوهره . يصدُق هذا فوق كل اعتبار آخر على الفنون الشفوية ؛ إنه بلغتها ، وأدبها ، وأسطوريتها نتعرف على هوية الثقافات والحضارات في عصرنا الذي نحياه . ومما لا يدعو للغبطة أن هذه التعابير ليست محفوظةً لنا من ثقافات الأزمان ما



شكل رقم ١٤

توزيع مواقع معروفة لثقافة المجموعة الأولى (الأفق أ)

قبل التاريخية . إننا ملزمون بأن نستعيد الخُطى ، من ثم ، على آثار الفن الواحد الذى ارتقى بسعةٍ في مجتمعات العصر الحجرى الحديث والتى هى محفوظة بنفس القدر على نحو شمولى وافر : ذلكم هو فن تشكيل وزخرفة الأوانى الفخارية . ما كان بأى حس فناً خالصاً ، غير أنه حتى في أغلظ المصنوعات ، هنالك إختيارات للقالب ، واللون ، ومعالجة للسطح لابد أن تكون مؤسسةً على اصطفاء جمالى ، أو بكمات أخرى على تقليدٍ مأثور . عجزاً عن إيجاد تعبيرات أكثر إتفاقاً وإعلانا عن الهوية الثقافية ، أصبحت أشكال الفخار بالنسبة لعالم الآثار ، لذلك ، « إمضاءات » لشعوب ما قبل التاريخ .

قيمة الفخار كدليلٍ معيارى للهوية الثقافية جرى إظهارها من خلال خبرةٍ على مدى قرن في الميدان . في أى موقع مسلماً به يمكننا أن نرقب أن الخزفيات ليست أكثرَ توفراً لدرجة تعلو على بقايا ثقافيةٍ أخرى وحسب ؛ إنها على قدم المساواة أكثر وحدة ، أشد تماسكاً ، فوق كل شئ أحُد تميزاً من رسوم المساكن ، والأدوات ، والمنتجات غير الهالكة الأخرى التى تُكون بقسطٍ كبير السجل الأثرى . كذلك فإنها تتغير بشكل وطيد ، في كلٍ من الزمن والمسافة . نفس التقاليد الزخرفية سوف يُشرك فيها كل أعضاء المجتمع أو التجمع في العادة ، لكنها قلما تتقاسمها في كليتها مجتمعاتٍ أو تجمعات أخرى، كما أنها لا تثابر على البقاء على مدى فتراتٍ طويلةً من الزمان . بل إنه حيثما يكون هنالك ، نفوذاً شائعاً ومشتركاً بينها ، فإن مساوى الصيغة الدارجة (أو توفر المواد) ستفرض الإحساس بها في أشكال متفاوتة محلية ، وإبداعاتٍ تترى بين حين وآخر . ونتيجة لذلك ، يمكن « لثقافات » ما قبل التاريخ أن تكون دقيقةً للغاية ومتباينة في صلابة بفَخارها حتى عندما تتشابه في كل الجوانب الأخرى .

أهمية الفخار بالطبع تصنيفية أكثر منها وظيفية ـ نقطة يغض العلماء الآثار طرفهم عنها مرات عديدة . إن نفعها لنا كأداةٍ تصنيفية ليس مؤشراً على أهميتها بالنسبة لصانعيها ، فلربما كانت قطميراً أو شيئاً طفيفاً . لا يُصنع قلبُ أى نسق ثقافى ولبابه بالضرورة من تلك الأوجه التي تميزه أغلب الأمر أكثر من الأنساق الثقافية الأخرى . إنَّ أشكال الفَخار في الحقيقة تهئ بحق قاعدةً لا غِنَىً عنها للتمايز بين البقايا الآثارية في الزمن والمسافة ، بينما تخبرنا على وجه المقارنة بالقليل عن رقة صانعيها وتطلعاتهم .

لأن الوصف العلمى لابد أن يبدأ بتعريف ، هنالك دائماً إغراءً بتركه لينتهى به . وعندما يحدث هذا يصير المتميز ، على نحو تلقائى آلى ، هو القيِّم الأهم . في ميدان علم الآثار ، أصبح الفَخار الذَنَب الذى يؤرجح كَلْبَى الثقافة والمجتمع التوامين ـ عطفةٌ نرقبها المرة تلو الأخرى في دراسة التاريخ النوبى . خدمت الإختلافات والتشابهات في الفن الخزفى والهامة بمستوىً رئيس لتقدير التسلسل الزمنى في المواقع كقاعدة لإعادة إنشاء التاريخ الإنسانى ـ أكثر الأحايين على حساب بَينة ثقافية أكثر قيمةً وأهمية وظيفياً . لو كان رايزنر ، كمثال مُستغرقاً في التعابير الثقافية خلاف الفَخار لكان قد رقب قطعاً أن التشابهات بين جماعاته ا ، ب ، ج(*) ، تفوق الإختلافات نسبةً تقدر عشرةً إلى واحد ، ولما كان على نحو الإحتمال ينظر لها كجماعات سكانية محددة . مرة ثانية ، لو كان مقصده غير مسلطٍ على متماثلات فَخار محددة بعينها ، لما كان مُعّرفاً « المجموعة الأولى » النوبية بالمصريين ما قبل عهود الأُسراتُ [7] . كلتا الحالتان انطلقتا بجدله من شيئية الفَخار إلى كينونة الناس ، ما تجاهل فحسب وجوهاً أخرى للثقافة لكنه نسىَ ، كما فعل علماء آثار كثيرون ، أن الفنون والأفكار متى خُلقت تملك حياةً وتاريخاً ينتميان لذاتهما ، مُستقِّلين عن الصانعين . « للأفكار أجنحة » كما تمعن السير مورتيمر ويلر [8] ؛ تستطيع أن تطّوق الأرض في بضع سنين بينما يظل مبتدعوها متجذرين بحزم في وطنهم .

النوبيون أصحاب ثقافة المجموعة الأولى صنعوا أوانى فخارية من عُدّة أنماط مختلفة ، بعضها

(*) أى المجموعات الأولى والثانية والثالثة – المترجم .

مشتقٌ بصفاء من موروث عبكة في العصر الحجرى الحديث [٩] . الأوانى التشخيصية أو « التوقيعية» لهذه الفترة كيف جاءت قِداحاً وجراراً لها سطح خارجي ، مصقول ، وجوف وحافة سوداوان لامعان . هذا الأثر يبدو كانما أُخرج أولاً بمسح لسطح الأوانى غير المحروقة بمسحوق حجر الدم . ثم في ختام الحرق ، يُوضع مع اتجاه حافة رأسه للأسفل على موقدٍ من أوراق الشجر أو العشب بينما لا يزال ساخناً مُحمّراً [١٠] والناتج تلطخ أو إسوداد للحافة والجوف . إن القاعدة ربما اكْتشِفت في البداية عَرَضاً ، لكنها سرعان ما طُبقت عمداً للأثر الجمالي .

الفخار ذو الرأس الأسود يبدو أنه صُنع في وقتٍ واحد أو آخر من ناحية أقوام كثيرة في العصر الحجرى الحديث بكل من شمال إفريقيا وجنوب آسيا . أول مستخدميه (وربما مخْترعيه الأصليين) في وادى النيل هم البداريون ما قبل التاريخ بمصر العليا ، مع أن الصنعة أضحت أكثر شعبيةً سواء بسواء في الفترة الأمراتية (نقادة الأولى) [١١] . حُملت الفكرة صوب الجنوب بواسطة الرحالة النوبيين أو المستوطنين المصريين ، وسرعان ما استحوذت إعجاب الأقوام ما وراء أسوان . تقع أقدم مواقع نوبية للفخار أسود الرأس في أقاصى الشمال بأجمعها ، منبئةً أن الفكرة كانت في بدايتها بطيئة الإنتشار ، مع أن رايزنر أرجعها بترجيح إلى هجرة المصريين أنفسهم المتجهة في تدرج إلى الجنوب [١٢] . هنالك ـ أياً كان الأمر ـ فوارق قائمًة نوعاً ما منذ البداية بين فخار النوبة أسود الرأس وفخار مصر ، وهى فوارق تومئ إلى انتشار فكرةٍ بدلاً عن هجرة أناس [١٣] . بحلول المرحلة المتأخرة من المجموعة الأولى بلغت على الأقل جنوباً حتى منطقة عبرى ـ دلقو ، وقد أخذت بها كل الأقوام السكانية الأصلية ما بين ذلك المكان وأسوان .

حالما أُنشئت في النوبة ، تشبّث تقليد الفخار سوداوى الراس بالبقاء طويلاً بعد ذبوله في مصر . ما فُتئت أوانى من هذا النوع تُصنع على نطاقٍ صغير في الفترة الأخيرة ما قبل الأسرات التى أعقبت الأمراتية في مصر ، غير أن الفن ذهب ريحُه تماماً ببداية الأزمان التاريخية . بقى محبوباً في النوبة لمدة ١.٥٠٠ سنة أخرى ، حتى تخطته سلع الدولة الجديدة المصرية صُنع العجلة . هذه الظاهرة من « البقاء الهامشى » سوف نرقبها مرات ومراتٍ في التأريخ النوبى وفوق كل شئ بالرجوع إلى رسوم الفَخار .

الحياة اليومية في ثقافة المجموعة الأولى

معظم الإختلافات الثقافية بين ثقافة المجموعة الأولى وأسلافها بالعصر الحجرى الحديث ، مثل الفخار ، لها أهمية وقيمة في التسلسل الزمنى أكثر منها وظيفية . كما بمصر المعاصرة كانت المُحدثات الكبرى في ثنايا الثروة والترف أكثر منها في ظروف الحياة اليومية . المعيشة ، الإسكان ، والفنون المحلية قليلاً ما تغيرت ، بينما يمكننا أن نُدرك في إرتقاء المجتمع والإقتصاد إستمراريةً لتلك العملية المتدرجة من «الإناخة » لا غير ، التى تُشخّص النوبة طوال الفترة ما قبل التاريخ . « ثورة » العصر الحجرى الحديث التى حَوّلت مجتمع الشرق الأدنى بضعة قرون كانت هنا عمليةً ممدودة لتطور إرتقائى لا يزال بعيداً عن الكمال في ثقافة المجموعة الأولى .

مواقع ثقافة المجموعة الأولى أكثر تعدداً بشكل مطلق من مواقع فترات سابقة ، مما يوحى بزيادةٍ في السكان . يبقى مع ذلك أن أكبر مستوطنة يحتمل أن يكون عدد سكانها قد بلغ أقل من مائة فرد ، حيث قدر تريقر أقصى سكان النوبة السفلى بأجمعها بـ ٨.٠٠٠ إنسان [١٤] . الجّبانات والفخار الوافر يشيران إلى حياةٍ أشد استقراراً مما كان ممكناً في أزمانٍ أولى للعصر الحجرى الحديث ، إلا أنه مازال هناك إنعدام للتجمعات الكبيرة . أماكن السكن في ثقافةُ المجموعة الأولى كانت في أغلبيتها معسكراتٍ موسمية أو مؤقتة ، رغم أن بعضها ربما كان يعاد شغله بصورة متقطعة للأجيال .

مباهجهم الطبيعية يصعب تفوقها على ما أُتيح للعصر الحجرى الحديث أو أزمان العصر الحجرى الوسيط بنفس القدر . يصف تريقر موقعاً فوق رابية من ثقافة المجموعة الأولى الباكرة في العبارات الآتية (١٥) :

ما كانت هنالك اثار لأسوار بأى مكان على الموقع ، لكن ستة عشر كوماً من الفضلات كانت مبعثرةً بلا نظام على وجه التدقيق فوق مساحة حوالى ١٠٠ قدم مربع . بمقدار معادل في القرن الأخير ، كيفما اقتضى الحال ، عاشت عائلات كثيرة في النوبة العليا بمساكن مصنوعة من حصائر مثبتة على أعمدة . جرار (مصرية) عديدة وُجدت في المواقع ، تبّين أنها كانت مستخدمةً في الحياة اليومية إلى جانب دفْن الجنائز . في نفاية المعسكر عُثر على لوحات تلوين أردوازية ، حجارة للمسح ، ورؤوس فأسية حجرية إلى جانب فأس نحاسى ثقيل . عظام السمك وبيض النعام ، وعظام الحيوانات لم يتم التعرف عليها حيثُ وُجدت بالمثل . توحى عظام السمك أن النهر لابد أنه كان مصدراً هاماً للغذاء في هذا الزمان ، كما يُحتمل أنه ظل كذلك أثناء فترة العصر الحجرى الوسيط آنفاً . حوالى مائة ياردة إلى الجنوب ، وجد رايزنر جُبانةً صغيرة إعتقد أنها كانت مُصاحبةً للمعسكر . ما كان هنالك سوى سبعة عشر جسداً في هذه الجّبانة

إذا كان هذا الموقع نموذجياً بأى حال ، فإن المجتمع النوبى (للمرحلة المُبّكرة من ثقافة المجموعة الأولى) لابد أنه كان صغيراً للغاية ، محتوياً على مالا يتعدى حِفنةً من العائلات النوبية . يظهر الموقع معسكراً مؤقتاً أشد منه موقعاً مستديماً للسكن . هذا المعسكر على وجه التدقيق يبدو مُتخلياً عنه بصورةٍ غير متوقعة ، وإلا فإنه من غير المحتمل أن مادةً غالية بهذه القيمة العالية يُتّخلى عنها . بالرغم من ظهور أحوالٍ ، غير مستقرة ، بدوية بالفعل ، في هذا الموقع ومواقع حياتية متأخرة ، هنالك بيّنة أخرى تُوحى إستقراراً أقوى بشكل معتبر . على نحوٍ دقيق هنالك جنائز ثانوية في عددٍ كبير من القبور يبدو أنها دفنت في وقتٍ ما بعد الجنائز الأصلية . يبدو هذا مؤشراً على أن عُصبة أو عائلة كان بمقدورها أن تستخدم نفس المقبرة على مدى فترةٍ طويلة من الزمن . ربما أن كلاً من هذه الجماعات إتجهت حيثما تبقى إلى جوار قسم محدود من النهر ، نوع حياة يتزايد في تساوقه مع اعتماد جزئى على الزراعة بأقل تقدير ، بدلاً عن التجوال البدوى . بما أن الإقامات كانت هشة فإن المستوطنات يمكن تحريكها أحياناً كثيرة في يسر . وخلال معظم العام ربما كانت المعسكرات موضوعةً بإمتداد حافة النهر ، ما كان إلا إبّان فترة الفيضان أن سكانها تراجعوا إلى طرف السهل الفيضى .

من بين الأربعين موقعاً حياتياً أو أكثر لثقافة المجموعة الأولى الذى تم تحقيقه إلى الآن ، تَعْرِض ثلاثة فحسب بقايا لا خطأ فيها من البنايات (١٦) . أكبر هذه المواقع وأحسنها حفظاً ، بالقرب من عافية نقّبت عنه بعثة هندية في ١٩٦٢ . وصفه يجئ كما يلى من تريقر : (١٧)

فى المواقع (أ ٥) ، جوار عافية ، إكتشف مسحٌ ١٩٦١ موقعاً مساحته على الأقل ٨٠×١٥٠ متراً ، مثل بعض المواقع في مصر ما قبل الأسرات ، إمتّد عبر مرتفع لمنحدر صحراوى عريض الواجهة بين واديين . وُجدت آثار الأسوار حجريةً خشنة في أرجاء الموقع ، مكوّنة مساكن تحتوى ما يبلغ ست حجرات ... أزال البريطانيون الغطاء عن بقايا مسكنٍ من حجرتين في الطرف الشمالى من الموقع . كلا الحجرتين كانتا مستطيلتين ولهما أبواب خارجية تواجه الشمال . الأسوار الداخلية ووجوهها الخارجية بُنيَا من موادِ بناء جافة ؛ الفضاء بَيْنَ بَيّن ملئ رملاً وطيناً . وكانت الأركان الخارجية اكثف من بقية السور ومستديرةً إستدارة خفيفة ، كلا الحجرتين لهما أرضية من طين .

المساكن الحجرية لثقافة المجموعة الأولى هى أقدم نماذج للمعمار في النوبة ، لكنها في أفضل الحالات ما كانت أكثر من أكواخ . تُوحى الوفرة في حفر تثبيت الأعمدة بأن الأعمدة كانت لا تزال تلعب دوراً هاماً في بنائها . ربما بدأت أسوار الحجر ببناء خارجى أضيفت إلى منزل من عشب أو قصب . بمقتضى الندرة البالغة للبقايا الهيكلية : فإن العشب أو القصب وحده لابد أنه كان كافياً للأغلبية العظمى من المنازل (١٨) .

الفنون المحلية الأصلية لثقافة المجموعة الأولى تُبّين بالمثل تقدماً قليلاً على ما كان منها

بالأزمان الفائتة . الفَخار ، حجارة السحن ، أدوات القطع ، وكل أنواع السلع المنزلية بطبيعة الحال أكثر عدداً ، بالنظر إلى الحياة الأكثر إستقراراً في ثقافة المجموعة الأولى . لكن هذه المصنوعات المحلية ما كانت ، في معظم الأحيان ، أرفع مستوىً بشكل ملحوظ من منتجات أزمان العصر الحجرى الحديث . إستثناء واحد يجب مع كل ذلك أن يُجْرَى في حالة العثور على أوانى فخارية ملونة من نوع معين ، فلربما أصدرها أول إختصاصيي النوبة في صُنع الفخار (انظر « التطور الثقافى في ثقافة المجموعة الأولى » بأدناه) . هذه الأوانى ، مثل موضوعات الصنع المصرية التى تبدو في قبور ثقافة المجموعة الأولى ، نادرةٌ بما فيه الكفاية لتعتبر سلعاً للترف بدلاً عن ممتلكات يومية . كانت الزراعة بشكلٍ قاطع ممارسة على أساس منظم أكثر بكثير في ثقافة المجموعة الأولى منها في أزمان سابقة ، على أنه مرةً ثانية كان الفارق كمياً أشد منه نوعياً . وحتى ذلك الحين كانت الفلاحة غير معانةٍ بدفعات تقنية مثل قوة الحيوان والمحراث .

أما الأنشطة المعيشية لثقافة المجموعة الأولى فمُثبتة بمستوى ضعيف للغاية ، جزئياً لأن علماء الآثار في النوبة ما تنامى لديهم تقدير للإيكولوجيا الثقافية إلا منذ وقت وجيز . بقدر متكافئ ما كانت ممارسة الزراعة ، مع أنها استُنتِجت منذ وقت طويل ، مقامةً على وجه التحديد من مُقدم الحفريات ب عافية في عام ١٩٦٢ . وُجدت هنا أخيراً حبوب قمح متفسخة ، والشعير ، والبرسيم ، والبسلة ـ المحصول المُركب المألوف للعصر الحجرى الحديث في الشرق الأدنى [١٩] . ولابد أن زراعة هذه المحاصيل قد فَرضت على نوبييً ثقافة المجموعة الأولى أن يرتادوا حياةً أكثر إستقراراً مما أُنيط بأجدادهم . إن حالة إفتقاد المستوطنات للتواصل المستمر لا تزال تشير رغم ذلك إلى أن الزراعة كانت بعيدةً عن توفير قاعدةٍ كاملة للمعيشة . يقيناً إن صيد الأسماك ظل مهماً ، وربما القنص إلى جانبه .

دور تربية الحيوان في ثقافة المجموعة الأولى يبقى سؤالاً صعباً ـ أكبر قطعةٍ مفقودة في لغزنا ـ طالما أن هذه الفترة على سبيل الدقة لا تزال موضعاً للإعتبار في التأريخ . كانت الأغنام المستأنسة تحفظ سلفاً من سكان العصر الحجرى الحديث بالشهيناب [٢٠] ، بالرغم من أن وجودها في النوبة السفلى لم يؤُسس على وجه حازم بعد . رعاية القطعان كانت عناءاً مركزياً للنوبيين في ثقافة المجموعة الثالثة ، التى أعقبت ثقافة المجموعة الأولى . منطقياً ، إذن ، يجدر بثقافة المجموعة الأولى[*] أن تكون حلَقةً للوصل بين هذين التطورين ، والفترة التكوينية لتلك التقاليد الرعوية المأثورة شديدة البروز في ثقافة المجموعة الثالثة . مثلُ هذه الفرضية تُلقى جانباً من الدعم في الحقيقة التى مؤداها أن كساءات الجلد شائعة في قبور ثقافة المجموعة الأولى [٢١] ، وأن كُلاً من البقر والضأن مذكورين كغنيمةٍ من النوبة في نصٍ مصرى من الأسرة الرابعة [٢٢] .

إقتراح بأن تربية البقر كانت النشاط المعيشى الرئيس لثقافة المجموعة الأولى دفعه منذ وقت قريب عالم الآثار الروسى باريس بياتروفسكى ، على أساس حفرياتٍ بِ خور داؤد في النوبة السفلى . طبقاً له :

> ... المستوطنة التى نُقِّبت كانت المكان الذى يُحضر إليه الرعاة اللبن كى يجرى تشغيله ، و .. يُنقل منتوج اللبن بعد ذلك إلى الضفة المقابلة للنيل حيث تقع المستوطنات والحقول الرئيسة . حقيقة أن الرعاة كانوا أحياناً كثيرة ملزمين بإستعمال المراكب أمر مُبيّن بنحوتٍ صخرية لبقر منقولٍ عبر النهر ، وكذلك بالحضور في المقابر ، مصحوباً بتماثيل صغيرة لأبقار ذات قرون ، ونموذج طينى لقارب . المستوطنة الأسرية الأولى ب خور داؤد تمثل نوعاً جديداً من الإستيطان المصرى العتيق قائماً على تربية البقر . هذه المستوطنة مثل منطقة تربية البقر بجمعائها ، لم تجذب الإنتباه ، ومع ذلك فدور تربية البقر في عملية التكوين الطبقى وإقتصاد مصر ... كان مُعْتَبراً [٢٣] .

(*) المقصود بما فيها ثقافة المجموعة الثانية ، اى الجماعة ب فى تقسيمات رايزنر الهجائية القديمة – المترجم.

في مكان آخر ، يسلم المؤلف أنه " ما كانت هناك عظام حيوانات ليُعْثَر عليها في وسط بقايا الفيضان " [٢٤] ، بالرغم من أن الشعير ونوعين من القمح كانت موجودة . إضافةً إلى ذلك ، دلت القبور وصور الصخور بطريق غير مباشر على أنها لا تنتمي إلى خور داؤد وإنما إلى مواقع أخرى ، وربّما لآفاق زمنية أخرى . المنطق على إطلاقه بالنسبة لدور البقر في ثقافة المجموعة الأولى (الذى تواصل لصفحات عديدة) هو بحق نموذجٌ مأثور للجدلية الماركسية ، المؤسسة ليس على بَيِّنة تجريبية لكن على تماثلٍ مفترض مع بلاد ما بين النهرين السالفة . مثل هذا التماثل لا يسرى إلا إلتماساً من تلك النظريةُ الجامدة لمتوازية التطور الإرتقائي التى هى واحدةٌ من الثوابت المقدسة للأيديولوجية الماركسية . لقد رُفضت لعدم دقتها منذ وقت طويل من قِبَل أساتذة يرغبون في منح بعض السماح لتغيرات الجغرافيا وأحداث التأريخ . في أرض كانت ، في ٣٢٠٠ ق .م ، تتقدم آنفاً نحو حالتها الحديثة من القابلية للزراعة [٢٥] ، يُبَيِن الإقتراح القاضى بعمليات تجارية لإنتاج ألبان في خور داؤد نبذاً إجمالياً للحقيقة الأيكولوجية ويبدو أنها حالة لإنتصار الأيدولوجية على الحس العام .

حتى هذه اللحظة ، تحقق لممارسة تربية الحيوان في ثقافة المجموعة الأولى تأييد تجريبى قليل ، بضعة عظام لقطعان أليفة حُددت في مواقع لهذه الفترة إلى هذا الحد فحسب [٢٦] . بالرغم من أن بوسعنا منطقياً أن نستقرئ حضورها ، لا يمكننا أن نقطع بمدى مساهمتها في الغذاء النوبى أثناء الفترة التأريخية الأولى . من الجانب الآخر فإن العثور على عدة مئات من عظام الغزلان في موقع لمعسكر بِ *بطن الحجر* ، مؤرخاً حوالى ٣٠٠٠ ق . م ، يبين أنه على الأقل في هذه الرقعة المحلية غير المنتجة بقى قنص الصيد البرى هاماً من الناحية الإقتصادية . في نفس الموقع كانت هنالك خمسة شقوق عظيمة لا غير ربما كانت لبقر ، لاعينة لضأنٍ أو ماعز [٢٧] .

بمضاهاة الفن والعادات الجنائزية لثقافة المجموعة الأولى مع ما كان منها بثقافة المجموعة الثالثة ، بمقدورنا على الأقل أن نجزم بأن البقر ، إن وُجد ، لم يجد نفس الأهمية الأيدولوجية التى أُوليت له في أزمان متأخرة . إن إشكالات الأصل والقيمة المهمة لإستئناس البقر ولتقديمه سوف تُناقش فيما بعد في الفصل التالى .

المركب الجنائـــزى

بوجهٍ عام ، لا تلمح لمواقع السكن في ثقافة المجموعة الأولى إثراء في الحياة مقارنةً بأزمان ماضية إلا بصعوبة . عندما ندير أعطافنا للجّبانات ، برغم ذلك ، تواجهنا صورة مختلفة إختلافاً شاسعاً . بالرغم من أن حفر القبر ووضع ما يضمه بين جنبيه غير متغيرين منذ العصر الحجرى الحديث ، هنالك الآن فيضٌ من القرابين الجنائزية ، كثير منها أجنبى الصنع . مباشرةً أو بطريق غير مباشر ، تعكس قبور الأفق أ ثلاث مستجدات متميزة : عناء متنام بالحياة الآخرة ، تراكم لثروة طائلة في صيغة سلع ترفيّة ، وأعظم أهمية من كل ذلك . إنشاء علاقات تجارية مع الحضارة الصاعدة بمصر .

جَبانات ثقافة المجموعة الأولى كانت بؤرةً لإهتمام خاص لعلماء الآثار منذ إكتشافها الأول وتُركت قبور قليلة لهذه الفترة بلا تنقيبٍ تركاً معلوماً . بالتالى يمكننا أن نتحدث بإطمئنان أبعد مدىً بكثير ، عن الممارسات الجنائزية بأفضل مما نتحدث به عن ظروف الحياة اليومية في هذه الفترة الزمنية من التاريخ . القبور في «المجموعة الأولى » غَلّت ثروة من السلع المادية ، كثير منها لم يُعثر عليه أبداً في المواقع السكنية الفقيرة أو الجرداء ، مما يجعلنا غير قادرين على أن نتناول أى دورٍ لعبته في هذا العالم .

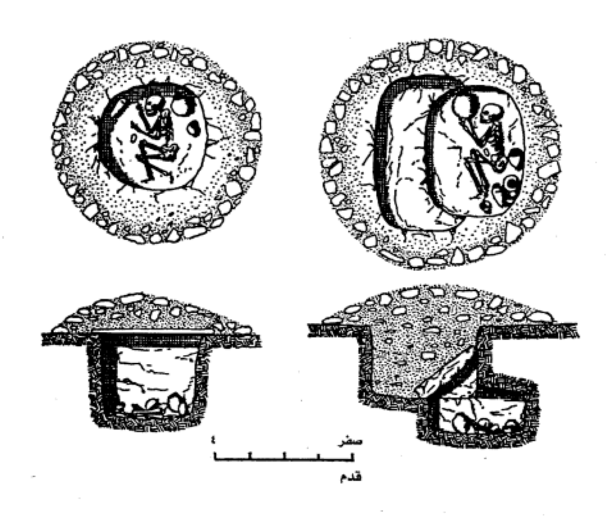
ما يزيد عن مائة جَبانة من ثقافة المجموعة الأولى تم التحقيق بشأنها الآن [٢٨] . أكبرها تظل

«موقع الإكتشاف» (الجبّانة السابعة) في شلال ، إحتوت ٦٦ قبراً من ثقافة « المجموعة الأولى » وفوق المائة منسوبةٌ « للمجموعة الثانية » [٢٩] . مع ذلك ، كما سنرى ، فإن معظم القبور من المجموعة الثانية ليست لها ملامح تتباين بصفاء . أكبر رقم لقبور تم التعرف عليها بتحديدٍ قاطع في أى جبّانة واحدة في ثقافة المجموعة الأولى هو ١١٧ [٣٠] ، في حين أن العدد العادى يقع بين ٣٠ و٨٠ . لقد لاحظنا آنفاً أن الجبّانات أحياناً كثيرة تُبيّن نمطاً من الإستعمال المتقطع على مسافة فترات طويلة من الزمن ؛ كثيرٌ منها في الحقيقة بقى مستعملاً خلال ثقافة المجموعة الثالثة .

عادات الدفن في ثقافة المجموعة الأولى موصوفة كما يلى من ى . ب . امرى [٣١] :

إستعمل أناس في ثقافة المجموعة الأولى عند دفن موتاهم نوعين من القبور : واحد كان حفرةً بيضاوية بسيطة، مستديرةً تقريباً ، مقطوعةً بعمق ٠.٨٠ متراً والآخر ، أقل شيوعاً ، كان نوعاً من قبر بفجوة جانبية : غرفةً مدفونة على جانب واحد ، مقطوعة لعمقٍ متوسط ١.٣٠ متراً (قارن الشكل رقم ١٥) .

أُسجّيت الأجساد في وضعٍ منطوٍ على الجنب الأيمن مع إتجاه الرأس عادةً إلى الغرب . تحيط بالجسد مواد للإستعمال اليومى مثل أوانى الفخّار ، حجارة صحن المرمر ، لوحات للتلوين من المرمر والرمل الحجرى ، قاذفات



شكل رقم ١٥

أنواع المقابر فى ثقافة المجموعة الأولى

إرتدادية من الخشب ، ومثقبات النحاس . تزين الجسد مجوهرات بسيطة ، مثل أساور من الصدف ، حبات عقود من العقيق الأحمر ، وحجر دهني من استيت أزرق صقيل ، ومحار . الفَخار على العموم . أرفع تصميماً وصنعةً على السواء ، ويُظهر تنوعاً مُعتبراً في القالب والصنعة . أكثر الأنواع شيوعاً كانت جَراراً كبيرةً قرنفلية السطح لإحتواء السوائل ، جراراً كبيرةً مستديرة حمراء السطح لها قاعدة مُستَدِقّة لحفظ الطعام ، وقِداحاً عميقة التجويف وأكواباً حمراء لامعة رقيقة السطح ، سوداء مصقولةً في الداخل ومعادة التلوين الزُخرفي بالخارج ، يُعتاد ذلك تقليداً لأعمال السلال ؛ إن أواني من هذا النوع ربما استُعملت لأغراض الأكل .

الغالبية العظمى من قبور ثقافة المجموعة الأولى غير مُصَاحَبة بأى بنايات أو علامات على سطح الأرض ، وقد اعتُقد طويلاً أن النوبيين بهذه الفترة لم يثبتوا بعد ممارسة بناء ركام أو هياكل عُلوية فوق القبر . إن أثراً وُجد مُؤخراً في النوبة المصرية ، كيفما اتفق ، يقضى بعض التعديل لهذا الرأى . بَلَّغ المكتشف هـ . س . سميث أنه " في الجَبانة ٢٦٨ بـ تنكالة غرباً ، التى لبعدها من أى وادٍ وكونها على مستوىً مرتفع نسبياً ما كانت متأثرةً بغمر المياة مثل معظم الجَبانات في ثقافة المجموعة الأولى ، وُجدت (أ) مدافن تَلّية مبنية من أطوافٍ من الحجر الجاف غير مُسَوّى على مدخل القبر ، أو ما يقرب من شكل دائرى ؛ (ب) مكاناً للقرابين مشَيَّداً من حجارةٍ مستقيمة موضوعة بزوايا قائمة على المدفن النيلى الذى يحتوى فَخار القربان ؛ (ج) شيئاً ما ، كان باعتبار لكل الإحتمالات ، نُصُبَاً غير مكتوب للقبر " [٣٢] . كل هذه المجريات تسبق في الحدوث الممارسات الجنائزية الشائعة في ثقافة المجموعة الثالثة ، وتدعم فوق ذلك إقتراح التواصل بين الفترتين . الغياب العام للهياكل العلوية في ثقافة المجموعة الأولى ربما يرجع بسبب ذلك للتدمير الذى ألحقته بها التعرية الطبقية ؛ عملية مقترحة ايضاً بالضحالة غير المألوفة لعريش القبر .

ثروة السلع التَرفية المدفونة مع نوبييّ ثقافة المجموعة الأولى ، لأناس من العصر الحجرى الحديث ، مثيرة للعجب . في نفس الوقت تحتوى أفقر القبور (باستبعاد قبُور ثقافة « المجموعة الثانية» ، التى سيكون علينا أن نُقَدِر وضعيتها عما قليل) مواد قليلة مثلها ، أشد ما يلاحظ منها المجوهرات ، وهى فيما يظهر قلما ورثها الأحياء . الحاجات الشائعة للزينة ، من صُنع مصرى غالباً ، كانت خرزاً من الفايانس (أو حجر جيرى مُدَّثر بصاقل أزرق أخضر) ومَحَاراً ، وأنوَاعاً مختلفة من الحجر ، ومعلقات ، وقماقم من الفايانس والحجر وأمشاطاً من العاج ، وأساور من العاج والصدف . أمتعة أخرى مصرية الصنع في القبر شملت أدوات نحاسية وكمياتٍ مدهشة من الفَخار صنع العجلة .

تبايناً مع القبور في ثقافة « المجموعة الأولى » ، فالقبور في ثقافة « المجموعة الثانية » ، إما أنها خالية خلواً من القرابين أو أنها تحتوى سلعاً بسيطة قليلة ، معظمها من صنع محلى . آمن رايزنر أن هذه انتمت إلى عصرٍ متأخر وأناس مختلفين ، لكنها في الحقيقة غير متباينة عن القبور في ثقافة «المجموعة الأولى » فيما عدا فقرها . هنالك سبب للإعتقاد ، لهذا ، أن ثقافة « المجموعة الأولى» وثقافة « المجموعة الثانية » ربما كوّنا في الواقع الطبقات الإجتماعية الأعلى والأدنى لنفس السكان ، الفارق بينهما إجتماعى ـ إقتصادى أكثر مما يعد تسلسلاً زمنياً . إن كان الأمر كذلك ، فإنه يقول شيئاً كثيراً حول المدى الذى اندفع إليه أنفاً التمايز الإقتصادى ، وربما بقدرٍ متساوٍ ، التمايز الإجتماعى ، في فجر العصر التاريخى .

في الطرف الآخر من القبور في ثقافة « المجموعة الثانية » عدد من جنائز ثَرية بعين الدقة مثل واحدة نَقَّبها فيرث بالقرب من سيالة ، ووصفها كما يلى تريقر [٣٣] :

بعض من فكرة عن ممتلكات زعيم نوبى يمكن اكتسابها من الجَبانة ١٣٧ جنوب سيالة بالضبط ، تلك التى اعتبرها فيرث مكاناً لدفن مثل ذلك الرجلُ وعائلته . إن القبور ، مع كبرها ، كانت من قالب معهود لكل القبور في النوبة خلال هذا الزمن . إحتَوت حُفَراً مستطيلةً بأركانٍ مستديرة محفورة في الطمى ومسقوفة ببلاطات من الرمل الحجرى ذات أبعادٍ مقدّرة أحياناً كثيرة . كان كل قبر قد استُعمل لجنائز عديدة ، يبدو أنها أجريت أزماناً مختلفة .

المصنوعات الموجودة في واحدٍ من القبور شملت أواني حجرية عديدة ، عدداً كبيراً من فؤوس النحاس الثقيلة ، سبائك قضيبية وأزاميل ، مغرفة مصنوعة من أردواز معصوب ، لوحتان للألوان ضخمتا الحجم على شكل مزدوج لطائر ، رأس أسد من بلوراتٍ لمرْوٍ وردى مغطىً بصاقلٍ أخضر ، مرآة من معدن المايكا ، وهراً واتان ذواتاً مقابض مكسوة بالذهب . وسلسلة من الحيوانات ، مصورة على شكل جانبى منخفض على مقبض الهراوة الصغرى ، مشغولة على نفس طراز الحيوانات التى وجدت على لوحاتٍ للتلوين من عهد حكم الملك نرمر . أرّخ هيلين كانتور هذه المقبرة بالجزء الباكر من الأسرة (المصرية) الأولى ....[٣٤]

مضامين لفظ « زعيم » تتطلب بعض التأهيل . إن التقنية البدائية نوعاً ما والمجتمع الذى كشفت عنه البقايا المادية للنوبيين الأوائل تجعل من غير المحتمل إنجازهم لأى شئ يقرب من ملكية وراثية كما نفهم معنى ذلك اللفظ الآن . ويحتمل ، مثل الأقوام البدائية ، إنهم استمروا محكومين مدةً طويلة للغاية بمؤسسات القرابة . فإذا تولى فرد أو عشيرة سلطة أكثر رسمية ، فلعلها كانت سلطة من النوع المقيد (وبالإختيار مجدداً) الذى نتهيأ للعثور عليه وسط فلاحي أو رعاة العصر الحجرى الحديث ، والذى يمثله اليوم « زعماء المطر » للقبائل النيلية بأعالى النيل [٣٥] .

من الممكن كذلك ، أياً كان الأمر ، أن الفرد المدفون في سيالة ما كان قائداً سياسياً بالمرة . ربما أنه لم يكن شيئاً يعدو وسيطاً ناجحاً بمستوىً غير عادى في التجارة النوبية ـ المصرية النامية ـ واحداً من « سماسرة الثقافة » يظهر بصورة منتظمة ، ويجنى السلطة سريعاً ، عندما تصل ثقافات أجنبية مبلغ الإحتكاك . أو لعله كان قائداً لقوات مرتزقة في خدمة المصريين (مهنة إتُبعت من نوبيين كثر ـ في وقت قريب) . واستمد ثروته مكافأة من أوليائه . رَجّح هذه الإمكانية المقترحة وجود الهراوات في قبر سيالة ؛ وهى علائم مصرية تقليدية للإمرة العسكرية . أيا كانت الظروف ، يمكننا أن نتأكد أن قسماً عظيماً من ثروة « زعيمنا » النوبى القديم وسلطته تتبعه إلى القبر . إنها ١.٥٠٠ سنة أخرى قبل أن يكون بمقدورنا أن نبصر زخارف مزركشة لنظام ملكى وراثى أصيل في النوبة السفلى .

التطور الثقافى لثقافة المجموعة الأولى

يمنح وجود السلع التجارية المصرية في ثقافة المجموعة الأولى قاعدةً لتأريخ المواقع الأثرية المفتقدة في كل الأزمان الأولى . للمرة الأولى يمكننا أن ندرس النمو والتغير ما بين المجموعة الثقافية نفسها ، ليس بين مجموعة ثقافية وما يليها وحسب . إن رايزنر وفيرث منذ البداية فاضلا بين أطوار «المجموعة الأولى » ما قبل الأُسرات وأوائل الأُسرات ، مستخدمين الإصطلاحات المنطبقة على مصر المعاصرة . أما تريقر فسار خطوة إضافية وقسم الفترة « النوبية الأولى » إلى أربعة أطوار ، آخرها [المجموعة الثانية] أى « الجماعة ـ ب » المعروفة لرايزنر قديماً والتى سنناقشها في الحال [٣٦] .

إشكالية التأريخ والتسلسل الزمنى تظل رغماً عما مضى ذكره إشكالاً معضلاً ـ دونما غِبْطَةٍ هى أشد صعوبة مما يدركه معظم خبراء الدراسات النوبية القديمة . قليلٌ جداً من مشاريعنا للتسلسل الزمنى للفترات الباكرة من التأريخ النوبى تقوم على بيِّنة ثابتة النتائج في العادة مثل تواريخ طبقات الأرض السطحية والكربون المشع . وسواءاً بسواء ، حيثما يتهيأ وجود أسطح حية (كما في بعض مواقع لمعسكرات في ثقافة المجموعة الأولى) ، لا يكون ممكناً أن تُمَيز البقايا المنشطرة فوقها عن بعضها البعض . الكتلة الأكبر لمادتنا الثقافية تأتى من الجبّانات ، وهى ليست على طبقات أياً أدركت . القبور لا تؤرخ فيما جرت العادة عليه بقرابتها لبعضها البعض إنما بالمواد التى يعثر عليها فيها .

تؤرخ القبور النوبية للفترات التأريخية الأولى في الغالب بمواد صُنعت في مصر . ولا تؤرخ هذه بدورها بأى مقياسٍ مطلق من العمر ، لكن بسلسلةٍ من الحسابات المُبدعة الأصيلة ، التى اضطلع بها

لأكثر من ثلاثة أجيال ماضية عالم المصريات القديمة العظيم فلندرز بنزاى [٣٧] هذه « التواريخ المتتالية » صمدت لإختبار الزمن صموداً مرموقاً للغاية ، إلا أن قاعدة المعطيات التى بُنيت عليها كانت واحدةً صغيرة ، وهى بالتأكيد ليست دلائل غير قابلة للخطأ في شأن التسلسل الزمنى النسبى على وجه الدقة [٣٨] . إنطلاقة الخيال الضرورية لجعلها لائقةً للمعطيات الأثرية النوبية تقترح أن أقل ما يمكن عمله تجاهها وجوب أن يعاد فحصها بعناية .

حتى في ظل أفضل الظروف ، لابد أن يُعالج بالحذر تاريخ القبور من محتوياتها . إن هذا بكل دقةٍ هو ما يصدق في حالة السلع الترفية المستوردة ، التى ربما تكون محفوظةً من الأحياء لفترات طويلة من الزمن من قبل إيداعها مع الأموات . لذا ، فإن وجود نوع معلوم آنفاً من المواد في طراز قبر معين سلفاً لا يثبت تعاصرهما ، بالرغم من أن الإمكانية تزداد بعددُ مثل هذه المترافقات . من الناحية الأخرى ، فالحقيقة التى مؤداها أن نوعاً بعينه من المواد لا يوجد أبداً في نوع بعينه من القبور ليس برهاناً على الإطلاق أنهما ليسا متعاصرين . لربما أنها تعكس عارضاً في إمداد السلع ، أحوالاً إقتصادية متغيرة ، أو ببساطةٍ تلميحاً متغيراً لما سوف يحتاج إليه في العالم الآخر أو لا يحتاجه .

الإختلافات بين القبور « ما قبل الأُسرات » وقبور « الأُسرات الأولى » لثقافة المجموعة الأولى ، بمثل ماهى عليه ، تبدو حسنة الإنشاء . إنها تُرى بشكل رئيس في الحجم والحذق الأعظم درجة للسلع المصنعة مصرياً في الفترة الأخيرة ، عاكسة الإزدهار العظيم للصنائع في فجر الحضارة الفرعونية . النوبيون أنفسهم ، إضافةً لذلك ، قاموا بتطوير نوعية جديدة من الفَخار تمثل واحدةً من أسمى منجزات فنهم الخَزفى . إن الأوانى في معظمها قِداح كبيرة ، أحياناً عريضة منخفضة وأحياناً عميقة ، بقاع مُدَوّر . أما الحواف فهى إستثنائياً صلبة ورقيقة ، أسطحها مصقولة بمستوى عال . أشد وجه تشخيصى ومتميز لهذه السلعة هو استعمال رسوم هندسية بالأحمر على خلفية برتقالية ، كلا اللونين مستخرجان بإستخدام (حجر الدم) بتركيزات مختلفة (الصورة ٤ ـ ب) . إنه هذا الوجه ذلك الذى أسبغ على الفَخار المزخرف في ثقافة المجموعة الأولى إبّان مرحلتها الأخيرة إسم « سطح الحجر الدّمى المبرقش » [٣٩] . إنها ليست شائعة ، وربما كانت منتوجاً لجماعة صغيرة من الإختصاصيين [٤٠] . تواصل صنع الفخار مُسْوّد الرأس بنفس الأشكال كما كان من قبل بطريقة أو بأخرى . كثير من الأوانى الحمراء ـ فوق ـ البرتقالية لها دواخل سوداء كذلك .

فى المراحل الأخيرة لثقافة المجموعة الأولى (أو ربما يجدر بنا أن نقول إبّان إفتقادها) يبدو أن نظرية التسلسل الزمنى القائمة خاطئةً بوضوح . ما من حاجيات مصرية مما يعود تأريخه إلى عهد متأخر عن الأسرة الثانية وُجدت في قبور « المجموعة الأولى » النوبية ، فأصبح لذلك تطبيعاً إتفاقياً أن تُعلَّمَ نهاية « المجموعة الأولى » في تساوق مع نهاية الأسرة الثانية ، أو حوالى ٢٨٠٠ ق . م. يترك هذا فترة لستة قرون ـ قابلة للمقارنة دون تدقيق مع الفترة الممتدة بين أزمان البلانتاجيين وأزماننا ـ قبل حدوث الإحتلال اللاحق للنوبة المثبت بالتحديد في ثقافة المجموعة الثالثة . لقد كان بسبب ملء هذا الفراغ المربك إن رايزنر إقترح « المجموعة الثانية » في الأصل .

« المجموعة الثانية » الخيالية

«المجموعة الثانية» مثل أبناء عمومتها الهجائيين (*) ، تعرفنا عليها أولاً في مجموعة من القبور بالجّبانة رقم ٧ بالشلال . إنها الوحيدة من جماعات رايزنر الثقافية التى لم تجد مؤازرةً في عمل آثارى لاحق . وبينما عَيّن رايزنر وفيرث في المسح الآثارى الأولى ٢١ موقعاً و ٤١٥ قبراً «للمجموعة الثانية» [٤١] ، وجد إمرى وكيروان بعد جيلٍ ثلاثة مواقع فقط وقبضةً من القبور التى أرجعوا نَسّبها

(*) كما ذكر آنفاً ترجمنا مجموعات رايزنر من «الجماعة ا» إلى «المجموعة الأولى» و «الجماعة ب» إلى «المجموعة الثانية» وفقا لنظرية آدمز ، وهلم جرا — المترجم.

لهذه الفترة . ما من بعثةٍ أخرى ، آنذاك أو من بعد ، وجدت مادة لا جدال فيها من «المجموعة الثانية». ولأنه يجب أن يكون هناك شيئ ما لملء الفراغ الكبير بين ثقافتي المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة ، واصل معظم علماء الآثار كيفما اقتضى الحال تقبلهم لها من حيث المبدأ مع إخفاقهم في التعرف عليها في حقيقة الأمر . باكراً كعام ١٩١٥ ، مع ذلك ، إقترح جونكر [٤٢] أن الناس في «المجموعة الثانية» ما كانوا سوى القرابة الفقيرة لأولئك المنتمين إلى «المجموعة الأولى» ، وقد لقيت هذه الفكرة تأييداً معتبراً أثناء الحملة النوبية مؤخراً [٤٣] .كضربة قاضية للفرد الأصلي ، راجع هـ . س . سميث بالتفصيل بَيِّنة رايزنر وفيرث ، وقد اكتشف أن أكثر من ربع القبور الكائنة في «مجموعتهما الثانية» كانت خاليةً من اية بقايا ، بينما ثلاثون على الأقل إشتملت إيداعات حيوانية بدلاً من أي حشر إنساني[٤٤] . من القبور الباقية المحتوية على قرابين من نوع أو آخر ، وُجد أن بعضها ينتمي إلى ثقافة المجموعة الأولى والبعض الآخر من ثقافة المجموعة الثالثة ، في حين أن العدد الأكبر ببساطةٍ غير قابل للتحديد بسبب النهب المتزايد أو غياب مواد مميزة. لم يُخْرَج بمعيارٍ إيجابي مُفرد «للمجموعة الثانية».

منهج فيرث لتصنيف القبور موصوف هكذا من سميث :

تبدو مبادؤه كالآتي : في جَبانات المجموعة الثالثة ، اطلق اسم « المجموعة الثانية » على أي قبر ظهر له بناء على طبقات سطحية أو نوع للقبر سابق « للمجموعة الثالثة » ، شريطة الا يكون محتوياً على أمتعة قبرٍ مميزة : في الجَبانات ما قبل الأُسرات وجَبانات المجموعة الأولى عُزى « للمجموعة الثانية » أي قبر إعتبر انه بَيِّن علاماتٍ للتآكل[٤٥] .

مقالة سميث بشأن « المجموعة الثانية » يجب أن تقرر قراءتها على الآثاريين . إنها تكشف بجلاء كيف أن مصطلحاً ـ نوعياً باعثاً على الريبة أحكم وثاق نفسهِ تدريجياً بالخيال عندما برهن على أنه دَرَجٌ تصنيفي مفيد . هذا هو بدقةٍ تامة ما فعلته « المجموعة الثانية » لرايزنر وفيرث : في وقتٍ واحد بعينه ملأت الفراغ المحرج بين « المجموعة الأولى » و« المجموعة الثالثة » ، وأتاحت نعتاً للقبور غير المُصنّفة . مفهوم « المجموعة الثانية » كممثل لمرحلة تسلسل زمني منفصلةٍ كان بالطبع ، مُدّعماً ببيّنة التميز العرقي الذي طرحه إيليوت سميث ؛ بيِّنةٌ نعترف الآن أنها زائفة (قارن المسألة العرقية » ، الفصل الثالث) .

يجب الا يفترض أن أياً من قبور « المجموعة الثانية » لرايزنر لا ينتمي لفترة الوقت التي عينها له . لدينا أسباب طيبة (بينها نصوص مصرية) للإعتقاد بأن النوبة لم تكن مهجورةً بكليتها بين ٢٨٠٠ و ٢٢٠٠ ق . م . كذلك للإعتقاد ان هذا كان زمناً لفقرٍ معتبر نتيجةً للمسلك العدائي والإستغلالي المتفاقم لمصر . في الدولة الشمالية نفسها هنالك إنحسار ملحوظ للثروة في قبور عامة الناس حتى عزّز الفراعنة قوتهم في الأسرة الثالثة [٤٦] . فلئن كانت « المجموعة الثانية » يُكّونها الأعضاء الأفقر وحدهم بين « المجموعة الأولى » ، لربما أنهم بأي بقية كانت أصبحوا متعددين بشكل مُضاعف في عدد السكاّن مع إنكماش حجم التجارة وتصاعد الغزو للإسترقاق [٤٧] . في هذه كما في مناطق كثيرة أخرى ، لذلك ، ما كانت نظريات رايزنر بلا أساس . إن خطأه يكمن في إجراء تفاضلٍ نوعي لما هو مجرد خلافٍ كمي .

إنه الإنقطاع الزمني الطويل المفترض بين « المجموعة الأولى و « المجموعة الثالثة » ذلك الذي يشكل في النهاية الأساس الخاطئ عن « المجموعة الثانية » . لو لم يكن هنالك مثل ذلك الفراغ ، ما كانت هناك حاجة *لإختلاق بلا سبب* لمثله . نظرةً فاحصة ، مع ذلك ، تُوحي بأن الفجوة الزمنية للبّينة نفسها ربما كانت خياليةً في جزء منها . فالنظرية القائلة بأن نوبييّ ثقافة المجموعة الأولى ظلوا باقين بما لا يتعدى الأسرة المصرية الثانية قابلة للتساؤل علي ركنين . أولاً ، إن أنواع الفَخّار ومعايير أثارية أخرى للأسر المصرية الأولى ليست محددةً ومؤرخةً بدقة في تُربتها الأصلية على حد سواء .

والأشد أهمية ، كما ذكرنا من قبل ، أن البَنية السالبة لا تُكوِّن أبداً قاعدةً لتاريخ إيجابى . إنه ليظهر عياناً بياناً أن النوبة في الفترة التاريخية القديمة كانت تشارك في شبكةٍ عامة لتجارة مصرية عريضة ، وإنه بعد الأسرة الثانية لم يعد ذلك من الحقيقة شئ . كذلك مما هو مؤكد إنه في فترات متأخرة كثيرة شاركت النوبة في شبكة تجارة محلية مركزة بأسوان لا غير ، أمدت أحياناً كثيرة سلعاً مختلفة للغاية عن السلع الدائرة في بقية مصر ، وربما كانت مُصَمَّمةً على وجه التحديد للتجارة النوبية . في اكثر المرات خلّدو التقاليد الأولى لمصر توقيراً لتحفظ الجنوبيين عليها ، تماماً مثلما تظل دولارات ماريا تريزا الفضية مصنوعة من القوى الأوروبية للتداول في إثيوبيا وشرق إفريقيا .

رايزنر نفسه أقّر بالإمكانية التى تابعتُ مناقشتها . في الأول من *تقارير المسح الآثارى للنوبة* كتب :

إذ ما اعتبرت الحقائق ، يتضح على الفور أن الجّبانات التى اقتَرحُ تاريخها لفترة الأُسرات الأولى تملك ، في أغلب الأحيان ، صفات فترة ما قبل الأُسرات أو الأسرة الأولى الباكرة ؛ والواضح أن كثيراً من القبور ترجع لذاك التاريخ . لكنه واضح بقدر متساوٍ فيما يتعلق بوقوع أشكال الفَخار أ . د . ٥ ، وانواع وأوضاع الدفن ، والأحجبة والعقود ، والأوانى الحجرية ، أن هذه القبور *ربما تكون في جزء منها اشد تأخراً زمنياً* (تأكيده بنفسه) . إن إستمرارية الفَخار مُسْوَد الرأس متخللاً كل الجّبانات حتى الإمبراطورية الحديثة ، والإستعمال المتواصل لبعض رؤوس المدقات وفؤوس ملحقة بهذه القبور ، وقوة الإستمرار المجّسدة في بدايتها للثقافة النوبية إلى فترة الهكسوس . كل هذه الإعتبارات تجعل من المحتمل أن الفخار ومواد كثيرة أخرى من الفترة المتأخرة ما قبل الأُسرات في النوبة تواصل إستعمالها طويلاً عقب التطور السريع في مصر مما جعلها أشياء للماضى . نقطةُ واحدة أخرى تُقَّوى هذا الإستنتاج . العدد العظيم من القبور بهذه الفترة عند مقارنته بالقبور التى تمثل فترات أخرى، مثل الإمبراطورية الحديثة .. في هذه الحالة يبدو ضرورياً بالنسبة لى أن تُفْسَح لهذه القبور فترة معادلة لأى من الفترات العظيمة الأخرى ، إحتمالاً من آخر فترة ما قبل الأُسرات إلى نهاية الأسرة الثالثة (٤٨) .

إعتراض إضافى على نظريات التسلسل الزمنى الإتفاقى ترفعه التواصلات الثقافية بين ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة ، التى تجعل مسافة ٦٠٠ عام بينهما أمراً غير محتمل . ما من واحدٍ ، يقارن المركّبين الثقافيين *إجمالاً* بوسعه أن يرتاب منطقياً أنَّهما يمثلان مرحلتين في مسلسلٍ من الإرتقاء . الإختلافات بينهما من نسقٍ أدنى بكثير ، على سبيل المثال ، من الفروق الماثلة ما بين الفترات المسيحية الأولى والمأثورة في نوبة القرون الوسطى . والمبالغة وحدها في تأكيد أن الفّخار نفسه (الذى يُبّين تواصلاتٍ كثيرة) هى التى قادت إلى الإيحاء بفارقٍ عرقى بين أقوام ثقافي المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة .

على صعيدٍ واحد فإن الأشد إيحاءاً من المتواصلات الثقافية ، ذلك الإنتظام الذى سعى به القوم في ثقافة المجموعة الثالثة وأعادوا شغل كلاً من معسكرات وجّبانات أسلافهم (٤٩) ما كانت هنالك ضرورة عملية لهذا ؛ مواقع المعسكر وأماكن الدفن المناسبة متعددة على طول جّبانات وادى النيل . أما إعادة الإقامة فلا يقبل إدراكها إلا كمحصلة لتقاليد مثابرة البقاء للإقامة أو المِلْكِيّة ، وهى يقيناً لم تكن لتبقى حيةً بعد فوات قرون . إن مطلق الجهد لأن تكتشف مواقع سابقة عقب مسافة طويلة من الزمن ربما كان من شأنه أن يُقّدر ، بالنظر إلى الغياب العام للبقايا الهيكلية .

بإيجاز ، يمكننا أن نتفق مع النظرية القائمة إلى المدى الذى نتصور به سكان نوبيين (المجموعة الأولى) عاشوا حياة ثباتٍ ورخاء في زمن الأسرتين المصريتين الأولى والثانية ، فقراً سريعاً (مصحوباً ربما بهبوطٍ بالغ في السكان ، من خلال الهجرة الخارجية أو الإسترقاق) موازٍ لزمن الدولة القديمة (المجموعة الثانية) ، وعودة مفاجئة للرخاء في نهاية الأسرة السادسة (المجموعةً الثالثة) . لا يمكننا ، مع هذا ، أن نَعُدّ هذه التغييرات وقفاتٍ في تسلسل التاريخ الثقافى النوبى ، كما لا نستطيع أن نعزوها إلى هجرات عرقية . لربما جئ بها عن طريق تطويقٍ مصرى ثم انسحابه (أنظر بخاصةٍ

الفصل السابع) ، غير أنه يبدو الآن من غير المحتمل أنها تكشف عن أى تغيير في الهوية الأساسية للسكان النوبيين .

مع مراعاة الحجج السابقة ، يجب التأكيد على أن الفراغ الثقافى والزمنى بين ثقافتى المجموعتين الأولى والثالثة ــ الفراغ الذى تُرك عندما قمنا بإزالة « المجموعة الثانية » ، كمرحلة تسلسل زمنى متميز ـ لا يمكن ملئه كُليةً على أساس البّينة الكائنة . ما من شئ نوبى يُستطاع رد تأريخه بأمان للأُسرات الثالثة ، أو الرابعة ، أو الخامسة [٥٠] ' وحلقات الوصل الفعلية بين فَخار « المجموعة الأولى » و « المجموعة الثالثة » ، لم يُزل عنها الحجاب بعد [٥١] . علينا لذلك أن نتمتع بالإمكانية البادية في أن النوبة السفلى هُجرت بقدّر كبير من ناحية سكانها الأصليين ـ ربما نتيجة لطاغوت مصرى في زمن الدولة القديمة ، وأن الإنتقّال الثقافى بين ثقافة المجموعة الأولى وثقافة المجموعة الثالثة إتّخذ سبيله في مكانٍ ما بالنوبة العليا ، وإنه كانت هنالك عودة للهجرة إلى الداخل من الجنوب في الوقت الذى انسحب فيه المصريون من النوبة السفلى [٥٢] . تناوياً مع ذلك ، ربما يُقترح أن التدهور البيئي والضغط المصرى ردا النوبيين على أعقابهم مؤقتاً لمعيشةٍ رعوية وبدوية تركت آثاراً اثرية قليلة [٥٣] . يبدو هذا كأنما حدث مرة أو مرتين في تاريخ نوبى لاحق ؛ وفى وقتٍ أقرب حدوثاً لدى إنتهاء العصور الوسطى (الفصل السابع عشر) . إنه ليُؤمل أن إجابات لهذه الأسئلة تأتى في المقابل عندما يبدأ كشف آثارى ممنهج الخطة والإجراء في النوبة العليا .

ظل مصـــر

عناؤنا إلى اللحظة مرتبطٌ بالتطورات الثقافية والإجتماعية لثقافة المجموعة الأولى ، التى يمكن تتبعها معاً في جزء معتبر قيد أحداثٍ محلية سابقة . ولأننا الآن في الفترة التاريخية ، كيفما كان الحال ، لدينا بعض مُدَون لأحداثٍ وشخصيات فعلية بالإضافة إلى البيّنة الآثارية للثقافة والمجتمع . بمقدورنا لذلك أن نطالع هذا الزمن كفصلٍ في التأريخ النوبى إلى جانب أنه أفق التطور الثقافى . فإذا تبيّنا وجهة نظر المؤرخ سنجد منظورنا عن النوبة مُبّدلاً بقدرٍ معتبر ، لصيقاً بمنظور رايزنر إلى مدىً بعيد .

ما يميز ثقافة المجموعة الأولى النوبية وكل الفترات المتأخرة عن العصر الحجرى الحديث وكل الفترات الأولى هو ظل مصر وحضارتها الماثلين أبداً . هذا النفوذ المحول يتراءى سواءً بسواء قبل مبتدأ الفترة التأريخية . يمكننا أن نرقب كذلك ، أياً ما كان ، أن النفوذ المصرى ما كان مبذولاً بنفس الطريقة أو إلى نفس الدرجة طوال الزمن الذى استغرقته ثقافة المجموعة الأولى . لقد بدا مصدراً لثروةٍ ورخاء لم يُسمَع بمثله في أزمان سالفة ؛ تناهى تعريضاً للأخطار ثم آفةً للخراب والدمار في آخر المطاف .

يشير عدد من النصوص الهيروغليفية المصرية إلى النوبة في زمان ثقافة المجموعة الأولى . تساوياً مع ذلك من قبَل إختراع الكتابة ، يُثبت الحضور المصرى في الجنوب الحجم المعتبر للسلع ذات الصنع المصرى في المواقع النوبية للفترة الأخيرة لما قبل الأُسرات . هذه الشهادة البكماء كما هو معتاد أشد إخباراً فيما يختص بالعلاقات اليومية بين الشعبين من السِّجل النصّى ، وسوف نفحصه أولاً .

بقدرٍ متعادل ، تحتوى قبور « المجموعة الأولى » الأقدم (الموصوفة «بما قبل الأُسرات الأولى» من رايزنر وفيرث) كميات وفيرةً من الفخار ذى الصنع المصرى . إنها برغم تلك الإتاحة الأعظم بلوغاً لهذه الثروة المجلوبة ، تُباين بشكلٍ رئيس طور الأسرة الأولى عن طور ما قبل الأُسرات في ثقافة المجموعة الأولى : أُلقى التأكيد بطبيعة الحال على عدة النحاس ، والأوانى الحجرية المنحوتة ، وزينة

العاج الفاخرة كأوضح أمثلة على الأثر المصرى في ثقافة المجموعة الأولى . وعلى ما بها من تميز بوصفها مثلاً لهذه السلع التَرفيَة المصرية ، لربما أمكن تهويل أهميتها الإقتصادية . الحجم الكلي للنحاس ، والعاج ، والحجر المنحوت الذى وُجد في مواقع « المجموعة الأولى » يقيم بصعوبة شحنة كاملة لواحدة من السفن الشراعية الكبرى في تلك الفترة . وفيما يتعلق بالكتلة المشحونة ، فإن الفّخار المصنوع بالعجلة يشكل ما يفوق ٩٥ بالمائة من الصادرات المصرية للنوبة أثناء ثقافة المجموعة الأولى . هذه الأوانى العادية بدلاً عن السلع الترَفَية ، توفر القياس الحقيقى للتبادل السلعى المصرى ـ النوبى في فجر التاريخ .

قليل جداً من الآنية المصرية التى عُثر عليها في مواقع ثقافة المجموعة الأولى من سلع الترف . الفّخار المصنوع من ناحية النوبيين أنفسهم – على سبيل التدقيق عقب إرتقاء « السلعة الحديدية الحمراء المبرقشة » ـ كان أرفع درجةً في النوعية الجمالية وكان سخياً في كميته بالتأكيد . لم يكن هنالك ـ في الحقيقة ـ سببٌ ليفترض أن النوبيين في ثقافة المجموعة الأولى لاقوا حاجةً لإستجلاب آنية فَخارية لأنفسهم . يبرز ذلك إحتمالاً أن الأوانى الأجنبية خدمت ، كما قام بذلك دائماً فخار مصرى عظيم العدد ، كأوعية شحنٍ للحمولات السائلة والجامدة . ويُستَدل على ذلك بالحجم الكبير للأوانى المستوردة وغلَبة السلع المصرية الأطول عمراً ، مع أنها أقل زُخرفاً .

توحى كمية الفخار المستورد في ثقافة المجموعة الأولى وتنوعه بأن التجار المصريين لابد أنهم كانوا زواراً مداومين للنوبة على مدى فترةٍ طويلة من الزمان . ربما أن أول رجالٍ للأعمال موضع الحديث كانوا من الجّوالة ربابنة القوارب وأرباب القوافل من أسوان ، إذ أننا لا نملك بيّنة على مصلحة ملكية في التجارة النوبية خلال الأسرات المصرية الأولى (قارن الفصل السابع) . يبدو من غير المحتمل أن تجاراً كثيرين خاطروا بتجارتهم وراء الشلال الثانى ، أو حاولوا إقامة محطةٍ تجارية دائمة بين النوبة . المحتمل أنهم كانوا قنوعين بالتعامل مع ممولين محليين على امتداد طريقهم ـ ربما أمكننا أن نتعرف وسطهم على « الزعيم » النوبى المدفون في سيالة . قد يفترض الواحد منهم أن التجارة في السلع الغالبة تحركت في المقام الأول على طول النيل ، كما ظلت حركة التجارة في كل الفترات اللاحقة ، لكن ساف ـ سودربرج إستخرج الحقيقة الغريبة أن المصريين في الدولة القديمة فَضلّوا قوافل الحمير لنقل كل شئ عدا السلع الأثقل (٥٤) . ربما أن الشلال الأول انبرى في هذا الزمن ردعاً للتجارة النهرية ، إذ أن الفرعون مرنر أمر بتطهير قناةٍ خلاله صَوّبَ انسدال الستار على الدولة القديمة (٥٥) .

ما هى أنواع السلع المتبادلة في التجارة النوبية ؟ لا يحتمل أنها كانت منتجات الغذاء الشائعة في كلٍ من القطرين : الغلال ، الجبن ، والجعة . لحسن الطالع أن بحوزتنا نصاً تجارياً من الأسرة السادسة يذكر تصدير دهان ، وعسل ، وملابس ، وزيت « لإمتاع النوبيين » (٥٦) . كل هذه مواضيع متجددة الحدوث في التجارة المصرية ـ النوبية في أزمان متأخرة ، لكن الأهم أن وسطها أدوات التجميل والزيت ، الذي أَلِفَتْ الأقوام الإفريقية أن تدهن به أجسادها ردحاً طويلاً .

ما أعطاه النوبيون في المقابل أقل جزماً . لم يُكْتَشف « ذهب كوش » بعد ، وعندما تم ذلك إتخذ المصريون خطوات حالية لإحتكار إنتاجه وإمداده في قبضة أيديهم (الفصل التاسع) . العاج والرقيق والمُصَدّرات التقليدية الأخرى للنوبة ، ربما برزت من قبل إلى حد ما في التبادل السلعى لثقافة المجموعة الأولى ، مع أنه يبدو أن سكان النوبة السفلى بعددهم المبعثر الصغير كانوا قادرين إما على تنظيم تجارةٍ واسعة النطاق في منتجات المناطق الحارة أو الإمداد بأى عددٍ وافرٍ من الرقيق . ويمكن أيضاً ، كما اقترح بروس تريقر ، أن النوبيين الأوائل لم يكونوا على شُغل بالتجارة على الإطلاق ، لكنهم كانوا يتقبلون السلع المصرية مكافأةً على خدمات عسكرية أُديت في القطر الشمالى . الفقر البيّن عقب الأسرة الثالثة قد يمثل بهذه الكيفية الزمن الذى انعطف فيه الفرعون من التجنيد

الطوعى إلى الإسترقاق القهرى للصفوف النوبية (٥٧) تجدر الإشارة إلى أنه فيما يختص بهذه النظرية يعد توزيع السلع المصرية رائج الإنتشار ومتساوى الجمع بما يبعث على الدهشة في قبور « المجموعة الأولى » ، أشد إيحاءاً وأكثر إلهاماً بنتائج التجارة السلمية عنه بعسكرة الإرتزاق (٥٨) .

ربما أن حجم التبادل السلعى المصرى ـ النوبى بلغ قمته في الأسرة الأولى ، التى يبدو أنها ترسم ذروة الرخاء النوبى في ثقافة المجموعة الأولى . لقد ذكرنا من قبل أنه ما كانت هناك بضائع من صنع مصرى مؤرخة من بعد الأسرة الثانية ، وأن رايزنر امن بأن توقفاً تاماً حدث للتجارة في زمن « مجموعة الثانية » توجد أسباب لجعل هذه العبارة مبالغاً فيها ، خلا أن نقصاً معتبراً في كمية الصادرات المصرية للنوبة ونوعيتها جلّى قطعاً في ثقافة المجموعة الأولى خلال مرحلتها الأخيرة . فإن كان في ذلك الأمر شيئاً ما ، فهو إشارة إلي البضائع المستعملة ومنتجات المصادر الإقليمية التى كان المصريون المتأخرة يعبئونها للجنوب ، على غرار ما اعتادت الأمم الصناعية الحديثة عليه من إغراقٍ للأسواق الإفريقية والأمريكية اللاتينية بمنتجات فائضةٍ بَطُل إستعمالها آنفاً .

الفقر في ظل الدولة القديمة المصرية ما كان محصوراً في النوبة . قاسى مزارعو القطر الشمالى حرماناً يكاد يكون مساوياً ، إن كانت أمتعة القبر تعادل أى مقياس للثروة المتراكمة . إن السبب في كلٍ من الحالتين يبدو واحداً ، تَرَكُّز الثروة والتجارة في أيدى الفراعنة (٥٩) . أُنجز ذلك في مصر بالضرائب المهلكة ، وفى النوبة بإزالة الأعمال الوطنية الصميمة. لزامٌ علينا في قص هذا الجانب من العلاقات المصرية ـ النوبية أن نتجة للنصوص الهيروغليفية لمصر الغابرة ودولتها القديمة .

السجل النصّى

يُعّين أقدم نص معروف عن النوبة سلفاً شكل الأشياء القادمة . في ناتىءٍ صخرى قريباً من الشلال الثانى (جبل شيخ سليمان) حُفُر اسم الملك جير من الأسرة الأولى (٦٠) ونص قصير نصفه رسم والآخر هيروغليفى (٦١) . " هذا التمثيل يُبيّن زعيماً نوبياً موثوقاً إلى المقدمة بواجهة سفينة مصرية . شكلٌ آخر إلى الشمال يحمل النبل المقوس وهو الرمز الهيروغليفى التقليدى للنوبة السفلى وأمواتاً مَسْجِّية في الماء تحت القارب . المنظر كما هو بادٍ يُحّى ذكري لفتح قريتين أو منطقتين كما



شكل رقم ١٦

نحت الملك جير فى جبل الشيخ سليمان

يدل عليها طائر وعلامة غير معلومة ، بالترتيب " [٦٢] .

بإعتباره مُدوناً لحدث مُعيّن بدقة لا يرقى انتصار الملك جير إلى شيء كثير . يكاد لا يوجد هنالك مبنى دائم من طرف واحد من النوبة إلى طرفها الآخر ، والسكان النوبيون في النوبة السفلى قد لا يملأون قاعةً كبرى للمحاضرات في عالم اليوم [٦٣] . لربما أحاط المصريون بالسكان المقيمين زوجاً من القرى المبنية بالعشب وقتلوا بضعة من الجوالة بمنأى - شيئاً ما حدث مرات كثيرة في التاريخ لا يكاد يستحق ذكراً . فأي إدعاء بالإخضاع يصير بأي حال من الأحوال بلا معنى إن لم يصاحبه جهدٌ وإنفاقٌ لإنشاء حامية ، وهو مالم يضطلع به فرعونٌ ما لأجيال قادمة . وبغض النظر عن ذلك ، لنحت الملك جير أهمية رمزية كنبأ دالٍ على دور مصر التاريخي في النوبة .

المرجعان النصيان التاليان للنوبة عسكريان في صفتهما . على لوحة إنتصار مهمشة يظهر الملك خا - سخم من الأسرة الثانية منتصراً على عدو يُحتمل أن رمزه الهيروغليفي يُعرّفه كنوبي . وجد النُصب التذكاري في مصر ، والإجراء ، إن كان قد وقع أبداً ، يمكن بالطبع أن يكون قد حدث إما على تربة مصرية أو نوبية [٦٤] . والملامح التي يبدو أنها لا تشبه الشخصية المحاربة للنوبيين الأوائل تجعل وقوع غزو من مصر غير جائز .

نحت الملك سنفرو من الأسرة الرابعة يُعد أكثر تحديداً ، وهو محتوى في حجر باليرمو الشهير [٦٥] . طبقاً للنص « إجتاحت » جيوشه النوبيين وجلبت للدار ٧٠٠٠ سجيناً و ٢٠٠٠٠٠ رأساً من البقر . هنا ليس لدينا شيءٌ غير مدون عن غزو إسترقاقي عالي النجاح ، ربما تذرعاً بإنتقام عسكري . وعلى حدٍ سواء إذا ضُخمت هذه الأعداد بمغالاة ، كما هي أحياناً كثيرة في المباهاة المصرية ، ما من هدفٍ عسكري خالص يمكن له أن يبرر عملياتٍ بمثل هذا النطاق . التأثير على النوبة لابد أنه كان مزلزلاً . فمثل هذه الحملة وأُخر على طرازها بالإمكان جداً أن تضع حداً للحياة المستقرة جزئياً في ثقافة المجموعة الأولى ، بإرغام النوبيين إما على التراجع خارج مرمى الجشع المصري أو بتبني مزاج معيشي أشد هروبيةً وبداوةً خلاف ذلك . كلا من النكوصين ربما ينتج عنه الفراغ البادي في السجل الآثاري بين ثقافتي المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة . يستحق الذكر مهما كان من أمرٍ أنه إذا اقتربت من الصحة نسبة الحيوانات التي غُنمت إلى نسبة الناس فيما زعم سنفرو (حوالي ٣٠ إلى ١) ، فإن البداوة الرعوية لابد أنها كانت قد ارتقت في النوبة إبان عهد سنفرو . ما من قوم مستقرين يرعون مواشي بمثل هذا الحجم في وادي النيل .

في زمن سنفرو وجدت على الأقل مستوطنة من قَبَل على التراب النوبي . كانت هذه هي « مدينة الدولة القديمة في بوهين » [٦٦] أسفل الشلال الثاني بالضبط وقريباً من منظر « إنتصار » الملك جير منذ أربعمائة عام سابقة . سيضحي نفس المقام بؤرة لتركز النشاط المصري قروناً قادمة . هناك بعض أدلة ، في شكل طوب طيني كبير بحجم غير عادي ، ربما شيده المصريون هنا في وقت باكر كالأسرة الثانية ، لكن هذا غير مستيقن [٦٧] . في الأُسرات الرابعة المتأخرة وباكورة الخامسة كانت هنالك بالتأكيد مستوطنة ذات رقعةٍ معتبرة ، محاطةً بسور حجري وخندق . هذه التدابير شاعت في تجمعات قديمة كثيرة ، بما في ذلك قرى ما قبل الأُسرات في مصر ، وهي ليست بالضرورة بيّنة على أن الأعداء كانوا بالضاحية . بعض آنية غيرَ مميزةٍ سلفاً ذات رؤوس سوداء ، وأخرى يدوية الصنع (فَخاراً من المجموعة الثانية ، وفقاً لأمري) [٦٨] عُثر عليها في الموقع ، مقترحةً أن التجمع اشتمل على قلةٍ من نوبيين أتباعاً لمعسكر . مع ذلك ، لأسباب جرت مناقشتها أنفاً ، من المستحيل أن يُقدر حجم السكان الأصليين بالنوبة السفلى في هذا الزمن .

المصريون في بوهين إبان الأُسرات الرابعة والخامسة جرى توظيفهم غالباً في صهر وتنقية خام النحاس ، من مصدر غير معلوم إلى الآن . سوف توصف هذه الأعمال بإكتمالٍ في فصل قادم (الفصل السابع) . حوالي نفس الزمن كان مصريون آخرون يستخرجون معدن الدايوريت من

الصحراء غرب النوبة السفلى [٦٩] لإستعمالة في التماثيل الملكية . العثور على عددٍ من نُحوت الأُسرات الرابعة والخامسة على ضفاف النيل بالقرب من توشكا غرب يُوحي بأن هذه هى نقطة الإنطلاق لقوافل الدايوريت ، بالرغم من أنه لم توجد بقايا مستودع للشحن العابر [٧٠] . عمليات التعدين في كل من بوهين والصحراء يبدو أنها وصلت نهايتها قبل الأسْرة السادسة .

نهاية أخر فترةٍ للدولة القديمة جاء نص طويل يسرد مخاطرات تاجر مصرى في النوبة . إنه السيرة الذاتية الجنائزية لحرقوف ، مسؤول مهم في عهدى مرنر وبيى الثانى ، وهو أول نص مصرى عن النوبة يكون بالضرورة تجارياً أرجَح منه طابعاً عسكرياً [٧١] . يَدّعى حرقوف أنه قاد أربع بعثات تجارية منفصلة إلى بطون البلاد الجنوبية ، ويؤسس قدراً عظيماً من المعلومات حول أهلها ومنتجاتها . أياً ما اتفق ذلك ، تنتسب حكايته بصفاء لزمن مختلف ، وبالإمكان كذلك أنها تتصل بأقوام مختلفة عن هؤلاء الذين ظللنا نناقش شؤونهم في هذا الفصل . إنها تُؤَول بتقديرٍ سليم قصة ثقافة المجموعة الثالثة .

فى حس واحد ، تبدو كل النصوص الهيروغليفية المصرية واصفةً لنوبة مجهولة عن النوبة المعلومة لنا أثرياً . جزءٌ من هذا يُعْزَى لسمعة المصريين ذائعة الصيت في المبالغة ، وجزء لجهل المكتشفين الأوائل بأرض قليلة الشهرة ، وجزء ربما للميل العام لحياكة قصة محبوكة . الأحاجى التى عاد بها المصريون الأوائلُ من النوبة ، والتى يحتمل أن تكون قد ألهمت كثيرين حَمْلاتٍ لاحقة ، تُذكر فيما يدعو للشك بالأساطير التى نشرها *الفاتحون* الأوائل للعالم الجديد نعلم الآن كيف أن القليل يُبْطِنُه تطريز بعض هذه المنسوجات .

ملخص تفسيرى

تمثل ثقافة المجموعة الأولى تلك المرحلة من التطور الثقافى الذى بدأ النوبيون به الإنتقال المصيرى من رجال قبائل إلى مزارعين . رغماً عن أن معيشتهم ، وتقنيتهم ، وظروفهم المادية تغيرت قليلاً من أزمان العصر الحجرى الحديث ، فقد جُذبوا إلى مدار لنظام من العلاقات التجارية مع مصر فُقِدَت جزئياً من خلالها إستقلاليتهم الثقافية منذ الأزمان الأُولى ، مَا استُعيدت أبداً بالكامل . أما مؤسساتهم السياسية فظلت مستقلةً أثناء هذه الفترة ، على أن المرحلة كانت قد أُرسيت عبر التداخل الإقتصادى لإستعمارية أزمانٍ لاحقة .

أثر مصر ، بدايةً ذا نفع وإستنارة ، نما بتزايدٍ قمعياً (كما فعل بحدٍ متكافئ *للفلاح المصرى*) مع تعزيز الفرعون لقوته وتوسيعه لطموحاته . حتى نهاية الأسرة الثانية كان مشغولاً بوجه عام في دائرة حدوده ، وانتعشت التجارة مع الجنوب بينما النوبيون يمدون جيرتهم الشمالية إما بسلع المناطق الحارة أو بجنود مرتزقة . في ظل الدولة القديمة جمع الفرعون مصادر الإمداد والوسائل المحركة للتوزيع في قبضة يده ، وانتهى الرخاء النوبى . ومرات كثيرة عبر التبادل السلعى التجارى ، أفسحت التجارة الطريق للغزو ثم للإخضاع . كان على القصة أن تستعاد في الدولة الوسطى وثانيةً في الدولة الجديدة . مثل معظم البشر ، نادراً ما اقتنع المصريون بأن عليهم أن يدفعوا ما بوسعهم دفعه مقابل ما كان بمقدورهم حيازته دونما عناء بقوة السلاح ، لعل ميزان القوة فرض عليهم أن يتعاملوا بشروطٍ تجارية مع إمبراطوريات حوض البحر الأبيض المتوسط ، لكنهم مع الجنوبيين الذين لا يقاومون أحنوا هاماتهم للتجارة في الغالب عندما كان تنظيمهم العسكرى مُهَتك الأوصال . وهكذا سار الأمر ، إن أعظم فترات الرخاء للنوبة كانت في العادة فتراتِ أعظَم ضعفٍ لمصر .

الفصل السادس

المثال الرعوى
ثقافة المجموعة الثالثة النوبية

القرون الأخيرة للألف الثالثة قبل الميلاد شهدت تطورين قَيمين هامين وربما كانا متصلين : الإضمحلال والإنحلال المؤقت لنظام الملكية المصرى الموحد ، والعودة المفاجئة للسكان والرخاء في النوبة السفلى . تَبَدت علامة الحدث الأخير بظهور « المجموعة الثالثة » أو ، على نحو ما أفضل تسميتها ، ثقافة المجموعة الثالثة ، تكيفاً ثقافياً متميزاً وقريراً في رعوية كان عليه أن يظلَّ باقياً ما يقرب من ألف عام . نظر إليه رايزنر ، المكتشف الأصلى « للمجموعة الثالثة » كنوع من النهضة ، على أثر الفقر والنكوص الثقافى المفترض « للمجموعة الثانية » . لمرة واحدة ، مع ذلك ، لم يَنسُبَ التطور الجديد لنفوذ أجنبى . في أول *تقرير المسح الآثاري النوبي* كتب " وهو كأنما أسرَعت به فترة من الرخاء في الثقافة النوبية القديمة (ثقافة المجموعة الأولى) إلى بوتقة نشاط لنفسها ، فأخرجت ما يمكن أن يُسمى بتأكيد الثقافة النوبية *الأسمى* :" [١] منظومةً بصياغة مختلفة إختلافاً خفيفاً ، بلغت العملية الطويلة للإرتقاء الثقافى في الفترة القبلية أوْجَها في ثقافة المجموعة الثالثة : الأغلب تفرداً نوبياً بين كل الثقافات . هذا الرأى يبدو متماسكاً بدرجة كلية مع البينة الآثارية كما نعرفها اليوم .

بينما اتفق معظم العلماء مع رايزنر فيما يختص بالهوية « النوبية » المتمايزة في ثقافة المجموعة الثالثة ، جادل كثيرون في أصلها الأهلى بغض النظر عن ذلك . أشاروا إلى الإبتداعات الثقافية التى لا شك فيها « للمجموعة الثالثة » ، في مواضيع مثل الفَخار وأنواع القبر ، وفوق كل شئ للإدخال المفاجئ فيما يبدو اقتصاداً رعَوياً من قِبَل القادمين الجدد . في البقايا الهيكلية البشرية أيضاً ، بدا أن هنالك بيّنة دالة على وجود عَنصر قوقازي في « المجموعة الثالثة » [٢] . تركيب المحُدثات السلالية والثقافية المفترضة أدى ، كما هو معتاد إلى التعرف على هوية « المجموعة الثالثة » كقوم جُدُد مهاجرين للمنطقة . وبما أن معظم صفاتهم الثقافية لم تكن مصرية ، في حين أن سِمَاتهم الوِراثية كانت إفتراضياً غير إفريقية ، صار للشرق والغرب وحدهما أن يصبحا مصادر جهوية ممكنة للقادمين الجدد .(*) حاول عدة أساتذة أن يتتبعوا أثراً لصلة مع ليبيا حيث توجد بيّنة لِمُركّب البقر في الفترة التأريخية الأولى [٣] . آخرون ، مهما كانت الأحوال ، قنعوا في بساطة بالحديث عن " قوم المجموعة الثالثة الغامضين " [٤] .

لا يمكن أن يوجد شك أن ثقافة المجموعة الثالثة . تراءت أولاً بفُجائية شديدة في النوبة السفلى ، مُعَقبةً لفترة من عدة قرون عندما كانت المنطقة مُقفَرة ثقافياً وربما عديمة السكان على نطاق واسع . كيفما اتفق الأمر ، لا يبدو « سر » أصلها ، من وجهة نظر المؤرخ الثقافى ، عظيماً جداً . فلقَد ذكرنا سلفاً (الفصل الثالث) أن الفرق العرقى المفترض ما بين «المجموعة الأولى» و «المجموعة الثالثة»

(*) اى أن عدم إحتمال أصلهم من الشمال (مصر) والجنوب (إفريقيا في إتجاه الجنوب) يُقوّى من إحتمال أصلهم من ناحية غرب إفريقيا أو شرقها – المترجم.

أبطله البحث مؤخراً . وإذا اعْتُبِرت على وجهٍ صحيح ، فإن الفوارق الثقافية بين «القومين» صغيرة نسبياً على حد سواء ، ومن نوع تطورى إرتقائى أكثر منه ثورياً . وبلا مساس بتباعدهما اليسير فإن قبور ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة وفَخارهما يشبهان بعضهما البعض بصورةٍ إستثنائية تدعو للملاحظة ؛ متشابهتان لمدىً بعيد بحيث أن صلةً ثقافية قريبة بينهما يصعب أن تخضع للمساءلة . أخذاً بالحقيقة القائلة بأنه ربما كانت هناك قرون عدة تائهة ما بين آخر بقايا معلومة لنا من ثقافة المجموعة الأولى وأوائل البقايا التى نعرفها لثقافة المجموعة الثالثة ، فإن التعجب لا يكمن في أنها مختلفةٌ وحسب ، ولكنها تختلف بدرجةٍ طفيفة للغاية . نهائياً ، تكاد رعوية ثقافة المجموعة الثالثة - وهى افتراضياً الإبتداع الثقافى الرئيس لهذه الفترة - أن تكون على اليَقين تخيلاً أكثر منها حقيقة ، كما سوف نرقب في التو . وما دام هناك تحولٌ ما ثقافى مقرونٌ بإدخال البقر إلى النوبة ، فقد كان تحولاً دقيقاً في المحيط الأيدولوجى عنه في المحيط المادى .

بإختصار ، غير قابلٍ لتفكير المؤرخ الثقافى ، أن " قوم ثقافة المجموعة الثالثة الغامضين " هم أىُ أناس عدا أحفاد القوم في ثقافة المجموعة الأولى وأسلافهم في العصر الحجرى . كانوا بوجهٍ قاطع مهاجرين مقبلين للنوبة السفلى ، إلا أنهم مهاجرون بكل الإحتمالات من منطقةٍ مجاورة ، لا من غيرها حيث كانت العملية الفعلية للإنتقال الثقافى من ثقافة المجموعة الأولى إلى ثقافة المجموعة الثالثة تتبوأ مكانها . عَياناً على نحو ما تظهر هذه على أرضياتٍ إستنتاجية ، كيفما كانت ، من الضرورى أن يُؤكد أن التأييد التجريبى لا يزال مفتقداً. فنوعية الفَخار والقبور في الفترة الإنتقالية التى يتأتى عليها أن تصل ما بين المراحل الأولى والمتأخرة من الطور القبلى النوبى تبقى قيد الإستكشاف - ذلك فيما هو مفترض ، عندما يُتَخذ إستطلاع منظم الإجراء في النوبة العليا [٥] .

التسلسل الزمنى والتاريخ

« الأعراض » الآثارية لثقافة المجموعة الثالثة النوبية فخار أسود لامع برسوم هندَسية محفورة ، وقبور بهياكلٍ عُلوية ، سقوفاً حجَرية مستديرة . إعتُقِد - أصلاً - أن هذه السمات أُدخلت في البداية إلى حوق النوبة السفلى في زمن الفترة المصرية الإنتقالية الأولى ، أو حوالى ٢٢٥٠ ق . م [٦] . في ثقافة المجموعة الأولى أُسس التأريخ كُلياً على سلع تجاريةٍ مصرية وُجدت في القبور النوبية ، وهو بعيد عن إعتباره كتأريخ نهائى . هنالك عدد من الأسباب اليوم للإعتقاد بأن الظهور الأول للثقافة الحديثة كان مُعاصراً للأسرة السادسة المصرية ، أو نوعاً ما أسبق مما كان مفترضاً في الأصل . وُجدت أختام مصرية للأسرة السادسة في أعداد معتبرةٍ بقبور من « المجموعة الثالثة » ويقال أن فَخار « المجموعة الثالثة » يقع في مرافقةٍ مع فَخار الدولة القديمة إبّان مرحلتها الأخيرة في مصر [٧].

ربما أن الأدعى إطمئناناً من المعثورات الآثارية أن مُعطيات نصوص السيرة الحياتية المصرية تحمل نَوء هذه النقطة المحورية في التأريخ النوبى . صوب نهاية الدولة القديمة سافر مسؤولان مهمان هما أونى وحرقوف ، بعيداً إلى جوف النوبة ؛ لربما لا نعلم أبداً مدى ما قطعاه بالتحديد من مسافةٍ بالداخل [٨] . في سرد سيرتهما الحياتية أعطيانا صورةً لأرض رَغدة ومأهولة على نحو جيدٍ بالسكان ، وهى سرود متماسكة بدرجةٍ أعلى للغاية مع البقايا الآثارية لثقافة المجموعة الثالثة من أى معرفة قليلة نملكها عن ثقافة المجموعة الأولى في مرحلتها المتأخرة . يبدو أنهما في كل مكانٍ قابلاً مجتمعا وإقتصاداً وطَنيين على رخاء ، وكانا مُلزمين بمعاملتهما بإحترام أكثر مما طرحه أى مُغامر مصرى سابق [٩] . كُلاً من أونى وحرقوف إقتضى الحال أن يُؤمِّنا تآزرُ " زعماء " محليين في أعمالهما التجارية - إستحداثاً بارزاً في العلاقات المصرية - النوبية . لقد كان إبّان نفس الأسرة السادسة أن الحاكم المصرى لأسوان إكتسب أهميةً وسلطات خاصة " محافظاً للبوابة الجنوبية " [١٠] ؛ مؤشراً إضافياً على الرخاء والأهمية المتنامية للنوبة . هنا ، إذَن ، دليل وثائقى لذلك " الإسراع إلى بوتقة

نشاطٍ عن طريق فترة من الرخاء " التى قرّنها رايزنر ببداية ثقافة المجموعة الثالثة [١١] .

بالرغم من أن أصل ثقافة المجموعة الثالثة لا يمكن بعد أن يُرْجَع إلى هجرة أجنبيةٍ إلى الداخل ، لربما أن عاملاً خارجياً قد ساهم ، أياً كان الأمر ، في إعادة تعمير الثقافة النوبية والعودة للإقامة في النوبة السفلى . ذلك العامل كان بكل الإحتمالات هو تداعى الإمبريالية المصرية . لقد ذكرنا في آخر فصل أن حظوظ النوبة نهضت في أكثر الحالات وسقطت في تناسبٍ عكسى مع حظوظ جارتها الشمالية . فحينما غاصت مؤسستهم السياسية والعسكرية في إنفراط عقد النظام ، صار المصريون مُلزمين للتعامل بشئ مثل الشروط المتكافئة مع الجنوبيين ، وأن يدفعوا بأمانة للسلع التى كانوا ازماناً أخرى يستحوذونها في سرُورٍ نهباً .

الأسرة الرابعة (أول طور للدولة القديمة ، التى شهدت بناء الأهرامات الكبرى) تبرز كإحدي قمم الحكم المطلق في التاريخ المصرى . وإذا كان شاهد القبور موضعاً للتصديق ، فإن كلاً من النوبيين والمصريين عانوا نتيجةً للتركيز المتزايد للثروة في حفنةٍ من الأيدى في هذا الزمن [١٢] . في الأسرات الأخيرة للدولة القديمة ، مع ذلك ، يوجد دليلٌ على إضعافٍ تدريجي للسلطة الفرعونية . إن الدفع الجهادى للتوسع الإمبريالى استنفَد جهده ، وظهرت دولةٌ أكثر سِلماً وإن كانت أقل إحتداماً . لطالما أن النوبة مَعنية ، ما من شئ متضمن لهذا التغيير أشد من المباينة ما بين نحت الأسر الرابعة لِسنفرو ، بمباهاته بأسر ٧٠٠٠ رجل و ٢٠٠٠٠٠ حيوان ، ونحت الأسرة السادسة لحرقوف في تدوينه لتفاوض أُجرى بعنايةٍ وإستقامة مع « زعماء » نوبيين . لقد كان في الأسرة السادسة ، أيضاً ، أن المصريين تَخلّوا عن مستعمراتهم النوبية المستديمة الوحيدة في النوبة ، بوهين ومقالع معدن الدايوريت [١٣] . تهاوت السلطة المركزية للدولة بأجمعها بعد وقت قصير ، ولزمن ما تفَرق فراعنةً متنافسة بأماكن مختلفةٍ بالقطر . هنا ، في إضمحلال الإمبريالية المصرية ، يتحتم أن يُوجد بالتأكيد مفتاح واحد لإعادة إحياء الرخاء النوبى .

بعد أن أُنشئت ، ثابرت ثقافة المجموعة الثالثة على البقاء في النوبة السفلى لشئ مثل ٨٠٠ عام . خلال هذا الزمن ، كما بكل الأزمان في الفترة التاريخية ، ما كان ظل مصر غائباً أبداً عن الأرض الجنوبية . إلا أنه صعب بما يثير الدهشة أن تُصاغ صورةٌ صافية لعلاقات مصرية - نوبية في ثقافة المجموعة الثالثة ، إذ أن الدليل الآثارى والنصّى لا يُعطى صورةً متماسكة . البقايا الثقافية للنوبيين أنفسهم تشير فحسب إلى استمراريةٍ لتلك العملية المتدرجة من الإستقرار والتمصر التى تظاهرت مُسبقاً طوال ثقافة المجموعة الأولى . لو لم يكن لنا أى شاهد خلا قبور « المجموعة الثالثة » وقراها ، لَصُعبَ علينا فيما يُناط بنا أن نتوقع إمكانية أى شئ خلاف صلةٍ سليمة وغير مقطوعةٍ بين النوبيين والمصريين ، أثناءها جاء المذكورون بدايةً شيئاً فشيئاً ليقلّدوا الأخيرين في عادات حياتهم وأعرافهم .

الدليل المصرى ، النصّى والآثارى معاً لا يمنح وحسب صورة مختلفة بشكلٍ متباعدٍ جداً للعلاقات المصرية - النوبية ، لكنها صورة واحدة متقلبة بعنف . إننا نرى تجارةً رخية في بعض الأزمان مُتجاهلةً تجاهلاً كبيراً في أزمان أخرى ؛ مسافات زمنية من السِلم تُجهَض بإنتهاباتٍ مصرية ، وبنفس القدر فصلاً واقعياً لـ ٢٠٠ عام من الإحتلال العسكرى تحت الدولة الوسطى . وفى أزمانٍ أخرى نجد النوبيين يعملون كمسؤولين مُوَقّرين في خدمة الفرعون بالوطن والخارج على السواء . ما تَرك شئٌ من هذا ، مع ذلك ، أى أثرٍ في السِجّل الآثارى للنوبيين أنفسهم . ليست هنالك زيادات أو إنتقاصات مفاجئة في حجم سلع التجارة بقبور « المجموعة الثالثة » لِتَسِمْ السياسة المصرية ، وليس هنالك إنقطاع مُدْرَك في الإقامة بقُرىً أو جبّاناتٍ يمكن أن يشير إلى تفكك مؤقتٍ في المجتمع النوبى .

فى البقايا المادية لثقافة المجموعة الثالثة من الممكن أن نعرف ثلاث أو أربع مراحل تنموية ، على أسسٍ مُصنّفة ، خلا أن التغييرات في كل حالة تجئ من نوع تدريجى وتطورى إرتقائى [١٤] . لعل

الواحد يفترض أن نفوذاً ثقافياً مصرياً ربما بلغ قمته في الزمن الذى كانت فيه النوبة السفلى تحت سيطرةٍ مباشرة (حوالى منتصف ثقافة المجموعة الثالثة) ، لكن هذه ليست هى الحالة بأى حال . بدلاً عن ذلك ، تُبَيِّن كل مرحلة متعاقبةٍ لثقافة المجموعة الثالثة درجةً أعلى من التبصر أشد مما أجرى في المرحلة السابقة . إنه بسبب هذا الفارق الذى لا يزال غير مفهومٍ بإكتمال ، يبدو الأفضل ترك البقايا الآثارية النوبية لتحكى قصتها عن الإرتقاء الثقافى في الفصلُ الحالى بينما نحتفظ للفصل التالى بتأريخٍ لأنشطة مصريةٍ مواكبة لحدوثها في النوبة .

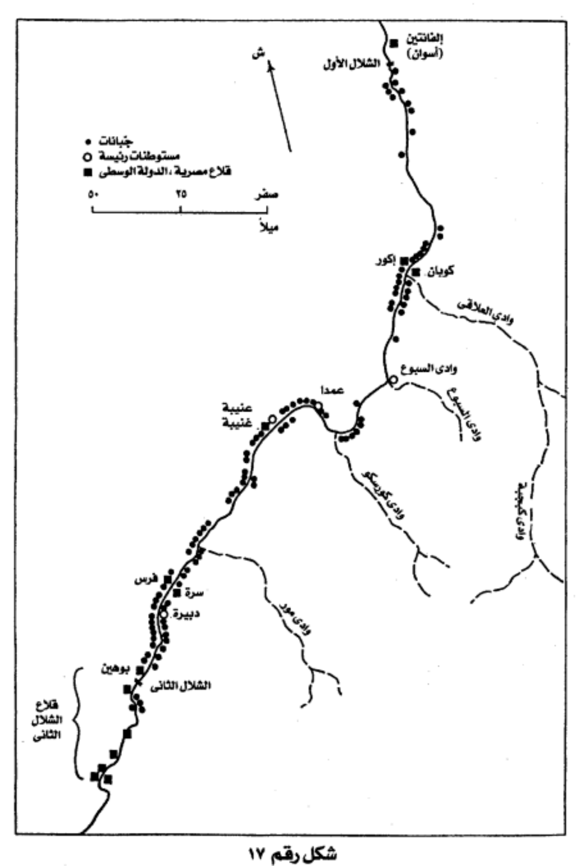
الحضارة المادية لثقافة المجموعة الثالثة

على نَحْوٍ ما سنرقب عما قليل ، إن أهم تحولاتٍ لثقافة المجموعة الثالثة قد يكون حدوثها قائماً في الدوائر الإجتماعية والأيدولوجية . التغيرات المادية ، مع أنها قاعدة للتعرف الآثارى على هذه الفترة ، أجْلى كمياً منها كيفياً . مرةً ثانية ، تُبيِّن المواقع السكنية تحسناً وظيفياً قليلاً على مثيلاتها في الأزمان السابقة . هنالك زيادةٌ متدرجة في الحجم وربما في مدة بقاء المستوطنات ، إلا أنه لم يتَعرف على حياةٍ لقرية مكتملة النمو لتُقَارن بقرى الشرق الأدنى حتى وقت متأخرٍ في ثقافة المجموعة الثالثة . يقدم تريقر الوصف المعمم الآتى للمواقع السكنية في هذه الفترة :

جميعها كانت قرىً مفتوحة أو مواقع لمعسكرات . حمل معظمها آثاراً لأسوارٍ حجرية ، توحى بأن السكان ككلٍّ كانوا قد شرعوا في الإقامة في قُرىً دائمة بشكل أو آخر بحلول هذا الزمن . في عِنَيْبَة ، حفر الكسندر لانقسدورف موقعاً على طبقات لقرية . في المستوى الأدنى وجد ثلاث دوائر لخيام ، قطر كل واحدة ٤ إلى ٥ أمتار . في كلٍ منها عمود مركزى ومكان لإيقاد النار نوعاً ما على بعدٍ من المركز ، وحول محيط الخيمة سلسلة من أعمدة أصغر . لا تواجه المداخل إلى الخيام المختلفة إتجاهاً واحداً . وجد لانقسدورف آثاراً لجلودٍ كانت سقفاً للخيام . وبالرغم من أن جزءاً يسيراً وحسب من الموقع حُفر إلى هذا المستوى ، يبدو أن كل خيمةٍ وقفت منفصلة عن البقية . إحتوى المستوى الذى يعلو مباشرةً هذه الخيمة مساكن شبه - سفلية تحت الأرض ، إشتملت أجزاؤها الدنيا على ألواح مستقيمة من الحجر مثبتة إلى بعضها البعض ومغطاة بطين وقطع صغيرة من الحجارة . عوضاً عن دُعامة مركزية ، يقيم السقفَ تركيبٌ معقد من العارضات الخشبية . كان المدخل في شكل حجرة مفصولة صغيرة تنفرج عن منظرٍ مباشرٍ للداخل . القرية مقامة من منازل من غرفة واحدة وبناءات عبارةً عن تجمعات لحجراتٍ عديدة منحنية الأضلاع أو دائرية . المنازل ذات الغرفة الواحدة بُنيت بعناية ، على أنه ما من بَيِّنة تقترح أنه كان هنالك أى نوع لهيكلٍ لإقامة الطقوس . واحد من المنازل الدائرة قطره ٦ أمتار وبداخله ثلاث مدافئ ، مُرَتَبةٌ في صف . المنازل المجَمَّعة تصل إلى ١٧ متراً في الطول واحتوت سبع أو ثمانى غرف وفناءات . في مكان آخر بالنوبة وُجدت منازل مماثلة . بينها مساحات خاصة للمطامير وأعمدة لربط الحيوانات . لا تتراءى القرى كأنما كانت كبيرة ، وبالرغم من أن هناك ميلاً ملحوظاً لكل منزل لأن يكون موضعه على مسافةٍ ما من الأخرى ، ما كانت المنازل موزعةً بنظام دقيقٍ(١٥) .

يضم موقع عِنيبة مستوىً ثالثاً أعلى له حجرات صغيرة مستطيلة من طوب طينى . ومع أن تأريخاً لكل المستويات الثلاثة غير مؤكدة ، هنالك تعاقب إرتقائى مرئى ، بادئاً بخيام ، متقدماً لأكواخ شبه سفلية ، ومنتهياً بمنازل مستطيلة على النهج المصرى في السطح . تسلسل زمنى إرتقائىٌ مماثل، مع أنه لا يقع بين موقع مفرد ، صادفته البعثة الإسكندنافية المشتركة في النوبة السودانية . يصفه ساف - سودربرج :

ثلاثة منازل للمجموعة الثالثة تم تنقيبها ... واحد ... مخرب تماماً ، لكنه بدا من النوع العادى بأسوار من الألواح القائمة والشكل الدائرى للحجرات . هذا هو النوع الموجود ، مثالاً ، في عِنيبة وعمدا .

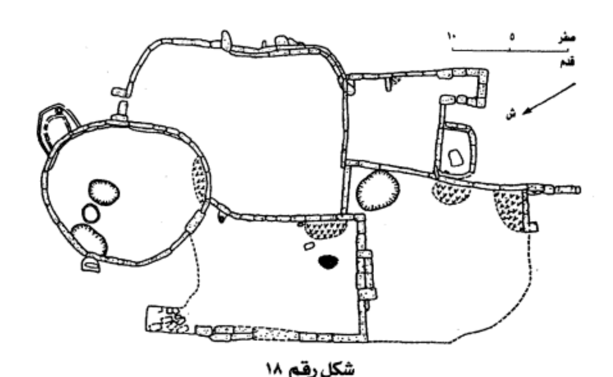


شكل رقم ١٧

توزيع المواقع المعروفة فى ثقافة المجموعة الثالثة (الأفق ج)

منزل اخر .... كان جيد الحفظ على سبيل المقارنة ، خصوصاً جزؤه الذى كان مبيناً على غرار أسلوب المجموعة الثالثة الأكثر تقليدية بألواح قائمة . إنه حجرة مستطالة بأركان دائرية وذات اهتمام خاص إذ أن الأجزاء العليا من الأسوار مُصانة ، مشيدةً على البناء من فوق الألواح القائمة على القاعدة . تتلو هذه الغرفة بناءات من الطوب ـ حجرةٌ مستطيلة بأسوار مستقيمة ومخزن في شكل قبة ، نوع ذائع الصيت من الصور المصرية لمخازن الغلال ومبانٍ مماثلة (قارن الشكل رقم ١٨) . في هذه الحجرات يُستعمل الطوب بنفس طريقة الألواح القائمة ، غير مُضْجَع أفقياً ، كأنما لم يكن البناء معتاداً بعد على الطريقة السليمة لإستعمال الطوب .

منزل المجموعة الثالثة ، الثالث ... الذى نقبته البعثة كان مبنياً بدقة كمنزل مصرى حكماً بما تَبَقى . الحجرات مربعة بحيطان عادية من الطوب النَّئ على قواعد من الحجر ولولا خزف المجموعة الثالثة لكان المنزل معدوداً على وجه حسن بناية مصرية (١٦) .



شكل رقم ١٨

مسكن لثقافة المجموعة الثالثة (الأُفق ج) ، دبيرة

آخر هذه المساكن الثلاثة يعود بصفاء لطور متأخر عالى التمصر في ثقافة المجموعة الثالثة . إضافات الطوب للمنزل الثانى الأكبر يمكن أن تُعتبر كذلك راجعةً لفترة متأخرة . الطوب النَّئ (غير المحروق) وجه ثابت للغاية في القبور الأخيرة من ثقافة المجموعة الثالثة (انظر أدناه) . بالرغم من أنه ظل طويلاً مادة البناء الشائعة في مصر ، إستُعمِل من النوبيين أولاً بطريقة عشوائية وغير منّسقة لمدى بعيد ، كأنه نوع آخر من الحجر أياً ما كان عليه . ما كان حتى مجئ إستعمار المصريين في الدولة الجديدة ، أن مبنى الطوب أصبح متطوراً بدرجة مكتملة ومنسقة . عقب ذلك ظل واسطةً للبناء النوبى النموذجى نزولاً إلى نهاية العصور الوسطى .

أول إقتراحين " للحضرية " أو على الأقل النواة الدفاعية (*) ، مُجسد في قريتين مسورتين

(*) المقصود الإقامة المتحضرة في مجمعات صغيرة لأغراض دفاعية – المترجم.



شكل رقم ١٩

قرية مُحَصّنة ، من ثقافة المجموعة الثالثة « الأفق ج » ، وادي السبوع
(المقياس والوجهة غير مشمولين)

يرجعان للمرحلة الأخيرة من ثقافة المجموعة الثالثة ، كلاهما في الشمال البعيد من النوبة . في وادى السبوع ، حوالى مائة منزل مُجّمعة بكثافة بين سور حائطى متين من بناء حجرى جاف مرصوص (الشكل رقم ١٩ ؛ الصورة ٥ ـ أ) . إن التشييد ورسم المنازل لصيق الشبه بما هو كائنٌ في المستوى الثانى في عِنَيبة ؛ هنالك على قدم المساواة بناياتٌ من حجرة واحدة مستديرة وتجمعات لحجرات عديدة غير منتظمة الشكل . معظم الأسوار الباقية على قيد الحياة ألواح حَجرية قائمة الإرتكاز ، على أن بقايا محروقة متفَحمة من البناءات العُلوية الخشبية وُجدت سواءاً بسواء . السور المحيط ، مقام من كتل حجرية كبيرة مُراكمة بلا انتظام ، في حوالى متر واحد سُمكاً في القاعدة ويقف عُلواً من مترين في بعض الأماكن . إنه يشكل نصف دائرة حول الجانب الغربى للقرية ؛ أما في الجانب الشرقى فمحمى بمنحدر شديد يقع مباشرةً علي النيل . السور الحائطي تتخلله ثلاث بوابات ، اكبرها علي الجانب الغربي ، وهو محمي إضافةً لذلك بأسوار درئية و« بيت للحراسة » . هنالك كذلك إثنان وثلاثون فتحةً للنبّالة على مسافات منتظمة بَجلاء على امتداد السور . إستلهام هذه التدابير جاء لا ريبة فيه من القلاع المصرية العظيمة التى شُيِّدت بين النوبة في المرحلة الوسطية من ثقافة المجموعة الثالثة (انظر الفصل السابع) ، بالرغم من أن التشغيل بوادى السبوع كان محلياً ، بلا سؤال . إن الموقع مؤرخ من المنَقبين بما يعود إلى فترة تعقبُ مباشرةً التخلى عن القلاع المصرية ، أو حوالى ١٨٠٠ ق . م (١٧) .

مُشَابهةً من جوانب عديدةٍ للقرية بوادى السبوع ، مع أنها تبين إرتقاءاً معمارياً إضافياً ، تقع المستوطنة المُسَورة في (عمدا) التى نُقِّبت قبل أكثر من ستين عاماً مضت من بعثة إكلى ب. كوكس (الشكل رقم ٢٠) . ان المساكن مُجَمعة بكثافةٍ شديدة في عمدا حتى أن المنَقبين عاملوا المستوطنة كبناية مفردة " قلعة " ، كما دعوها (١٨) .

لقد فُكر أصلاً في تاريخها بدءاً بالأسرة الثامنة عشر أى الدولة المصرية الجديدة ، إلا أن

آخرين اقترحوا لبنائها الأول تاريخاً أسبق بكثير [١٩] . وربما صح كل من الإقتراحين إذ أن رسم مستوطنة عمدا يُوحى بأنها ذات تاريخ طويل على الأرجح . هنالك بعض بقايا من مبان ، إلى جانب شريحة من سور حائطى ، غير منتظمة بدرجة عالية وتذكر بوجه عام بوادى السبوع . مع ذلك ، فإن حجرات أكثر عددًا لها أسوار أشد إستقامة وإنتظاماً ، مدعومة بأكتاف داخلية ، وهنالك إستعمال معتبر لفواصل الطوب . السور الحائطى حول النصف الجنوبى من القرية ، مع أنه لا يزال بناء حجرياً خشناً ، مستقيم ومنتظم بمستوى غير عادى يدعو للملاحظة ، ومدعوم في ركن واحد ببرج أو بتحصين بارز . هذا الإنتظام في التشييد يشير بما لا خطأ فيه إلى الوصاية المصرية ، ويُوحى بأن آخر فترة للبناء في عمدا تنتهى بحق وحقيق إلى فترة متأخرة جداً ومتمصرة من ثقافة المجموعة الثالثة ، كما اقترح أصلاً المنقبون .

مثل كل القرى الأخرى من ثقافة المجموعة الثالثة ، إشتملت مستوطنة عمدا عدداً من هياكل مستديرة متباينة على الفور عن حجرات المعيشة العادية . إن هذه المبانى أينما وجدت ، قابلة لأن يكون لها مدخل صغير للغاية ، أو ألا تكون لها فتحة مطلقاً في القسم الأسفل الذى يظل باقياً من الأسوار . بالتالى ، فإن تأويل ساف ـ سودربرج بإعتبارها مخازن للغلال يبدو مما يحمل على الإقناع بمستوى عال [٢٠] . كيفما اتفق ، يذكر تريقر أن بعض الحجرات الدائرية في عِنِيَبة إحتوت مدافئ ، لذا لابد أنها كانت قد صُمّمت للإقامة البشرية [٢١] .

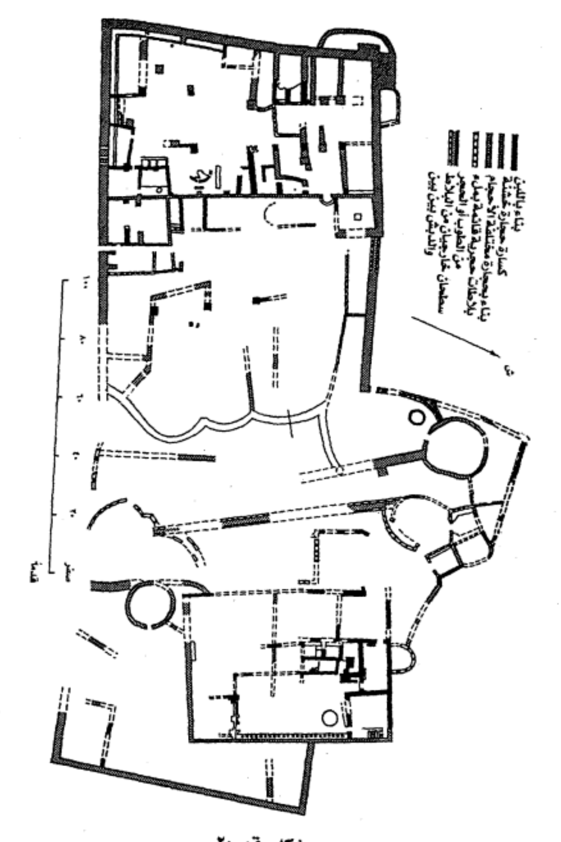
الفنون المحلية المعتادة في ثقافة المجموعة الثالثة مختلفة قليلاً عن سابقاتها في أزمان سالفة . لا يزال الفّخار مسوّد الرأس مُستخدماً بوفرة ، مع أن بعض أشكال جديدة تفضل عليه . الإبتداع الخزفى الذى أضحى " إمضاءاً " لهذه الفترة يتكون من أوانى سوداء لامعة سطوحها الخارجية مغطاة بزخارف هندسية ، محفورة . وبعد الحرق تمسح الرسوم بجير أبيض أو بطَلق ، حتى تعطى المظهر لخطوط بيضاء ملونة رفيعةً جداً على خلفيةٍ سوداء ، بدلاً عن الزُخرف المحفور (الصورة ٥ ـ ب) بعد إدخاله ، امتلك هذا التقليد فوقاً عن ذلك شعبيةً عاشت زماناً طويلاً . الفّخار الأسود بالزخارف المحفورة والمملوءة بالأبيض ما فتئ يُصنع في الأزمان المروية . وعلى الرغم من أن سلع ثقافة المجموعة الثالثة ، مثل سلع ثقافة المجموعة الأولى ، بلغت مستوىً عالٍ من الإمتياز الجمالى ، فإنها كانت لا تزال تصنع يدوياً بجمعائها ـ ربما من قِبَل النساء ـ زمناً طويلاً من بعد أن تُبنيَت عجلة صانع الفّخار في مصر المجاورة .

شاهد الملابس وأدوات الزينة توفرها جنائز ثقافة المجموعة الثالثة ، وإلى حد ما كذلك الأشكال الإنسانية غير الدقيقة التى كانت تُحفر أحياناً كزخرف في قدور « المجموعة الثالثة » [٢٢] . أعطى تريقر الوصف العام التالى :

> معظم اللباس في هذا الزمن مصنوعٌ من الجلد . يلبس الرجال عادة إزاراً إلى الركبتين ، وصنادل ، وقبعة . القماش لا يوجد في المألوف إلا كلُفافة لمرايا النحاس . كانت أغلب المجوهرات مصنوعةً بالدار من الصدف ، والعظم ، أو الحجر ، مع أن الصدف يجئ من وقت لآخر من بُعدٍ يبلغ البحر الأحمر . تجارة عقود الصينى ليست غير شائعة ، إلا أن المعدنيات خاصةً الأسلحة المعدنية نادرة [٢٣] .

الحقيقة القاضية بأن القماش المغزول موجود وحسب كغطاء لأدوات النحاس المستوردة يوحى بأنه كان مجلوباً . الجلّى أن فن النسّاجين ما كان مُتَبَنَياً بعد من النوبيين ، الذين كانوا ، مثل شعوب إفريقية أخرى كثيرة إلى الأزمان الحديثة ، على قناعةٍ بلبس الجلود .

يبدو أنه كانت هنالك تقلبات ذات اعتبار في حجم التجارة المصرية أثناء ثقافة المجموعة الثالثة ، بالرغم من أنها لم تنقطع مسيرتها بصورة كاملة أبداً . وعلى الإجمال ، تحتوى قبور هذه الفترة حوالى نفس كمية السلع المستوردة وتشكيلتها كما كان جارياً في قبور ثقافة المجموعة الأولى



شكل رقم ٢٠

قرية مُحصنة من ثقافة المجموعة الثالثة (الأفق ج المتأخر)، عمدا

السابقة. أنماط الفخار وأشكاله المجلوبة في الفترتين متشابهة كثيراً. مع ذلك، فإن تعويض النحاس بالبرونز جعل من الممكن تصنيع أعمال معدنية أرفع مستوىً وينعكس هذا في الحضور الموسمي لمواد مثل المرايا والمدى في قبور ثقافة المجموعة الثالثة .

المعيشة : الخيال والواقع

كما رأينا في الفصل الخامس، ليس مؤكداً إستمداد النوبيين في ثقافة المجموعة الأولى أى جزء في معيشتهم من رعى البقر. ولقرون لاحقة، مع هذا، لم يُرع البقر بأعدادٍ مقدرة وحسب ولكنه كان بؤرةً رئيسة للإهتمام الثقافى . هذا الإستحداث البادى لاقى تنبهاً فائقاً من المؤرخين أكثر من أى وجه آخر لثقافة المجموعة الثالثة، وقد أدى إلى اعتقاد عريض لانتشار أن " القادمين الجدد " كانوا قوماً رعويين . عَبّر امرى عن الرأى العام في هذا الخصوص :

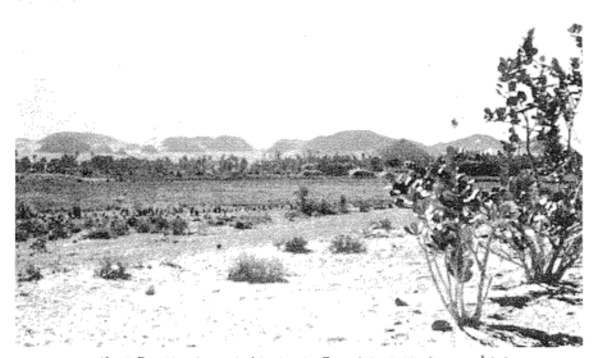
المدى الذى كرست به المجموعة الثالثة نفسها للزراعة غير معلوم بأى درجةٍ من اليقين، فلم يُعثر على أى معداتٍ لفلاحة التربة في هذه القبور. لكنهم كانوا بوجه قاطع ملاكاً للبقر على نطاق واسع: توجد مرات كثيرة نماذج طينية خشنة من البقر، والضأن والأغنام في مستوطناتهم ، ومع جنائزهم: تُرسم هذه الحيوانات دائماً كزخارفَ في فخارهم وتتضح في رسومهم الصخرية التى تكاد تنتمى لهم بالتأكيد. النوبة اليوم لا تملك المرعى لتربية البقر ولا يمكننا سوى الإنتباه، إلى أن الأحوال المناخية كانت مختلفة جداً عندما رعى قوم المجموعة الثالثة قطعانهم من المواشى على ضفاف النيل قبل ٤٠٠٠ عام من الماضى (٢٤) .

طيف النوبيين القدماء الذى قدمه امرى وآخرون يُذَكر بشكلٍ صارخ بوصف عالم أنثروبولوجي حديث للنوير ، قبيلة بأعالى النيل :

... في سويداء قلوبهم كانوا رعاة، العمل الوحيد الذى يبتهجون له هو رعاية البقر. إنهم لا يعتمدون على البقر في كثيرٍ من ضرورات الحياة وحسب، لكنهم يملكون مطالعة الراعى للعالم. البقر أعز ما يمتلكون وهم يخاطرون عن طيب خاطرٍ بحياتهم ليدافعوا عن قطعانهم أو لإستلاب قطعان جيرانهم. تُعنى أغلب انشطتهم الإجتماعية بالبقر *وَتَرقّب البقرة* أفضل نصح يمكن تقديمه لأولئك الذين يرغبون في فهم سلوك النوير (٥٢) .

أما أن النوبيين في ثقافة المجموعة الثالثة مَثَّلوا مصدراً عظيماً بملكيتهم للبقر، وأنه ربما أغدق عليهم أغلى صيغةٍ للثروة، فمن الصعب أن يُرتاب فيه. فلقد حُصر فنهم النقشى لحوالى ألف سنة بقدرٍ كبير في تمثلاتٍ لبقر، وجواميس، وأنشطة رعوية، كأنما رسموها على أى سطح توفر لهم : نتوءات الصخر، شواهد القبر، أوانى الفَخار (الشكل رقم ٢١)، وحيطان البيوت المهجورة. كذلك دفنوا في جَبّاناتهم نماذج طينية للبقر ، وفي بعض الأحيان جماجم لحيوانات مذبوحة. بيد أنه لايبدو آمناً أن يُخَلَص من هذا الشاهد الى أن رعاية البقر كانت هى القاعدة لإقتصاد المعيشة النوبية. إن البقر يمكنه إن يخدم كثروةٍ وبؤرة للنشاط الإجتماعى والطقوسى دون أى مساهمةٍ ذات قيمة أواعتبار في الغذاء ، كما يجري الحال عليه وسط أقوام كثيرة في أواسط أفريقيا اليوم . بأماكن أخرى وفى أزمان أخرى كانت الخيول والإبل بالمثل غاليةً، دون أن تشكل مصدراً هاماً للغذاء.

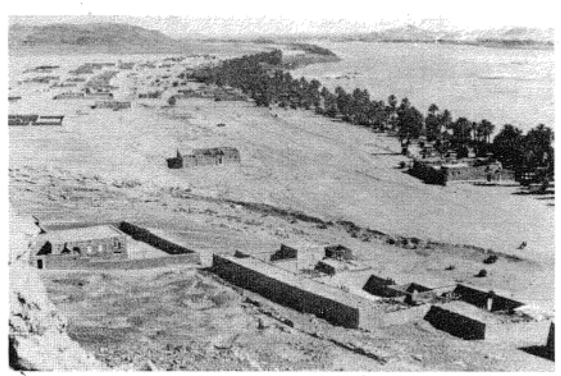
الإنطباع بالحياة الرعوية، المكتسب في المقام الأول من فن ثقافة المجموعة الثالثة، غير مُساند بأى بَينه آثارية مباشرة أخرى. مواقع القرى، الفخار الوافر، والجَبانات الواسعة كلها تشير إلى حياة أكثر استقراراً جلوسياً وحضرية منها بأى زمن سالف ؛ حياة يصعب أن تتماسك مع الإعتماد الممدود على تربية الحيوان . فإذا صار تفسيرنا للمنازل المستديرة من الجانب الآخر ، على أنها صوامع للغلال تفسيراً صحيحاً (أنظر بعاليه)، لايمكننا دون صعوبة أن نرتاب في أن الزراعة كانت تغل فوائض وفيرة في ثقافة المجموعة الثالثة ، وأنها كانت القاعدة الرئيسة للمعيشة النوبية . شاهد إضافى في هذا الإتجاه تتيحه المستوطنات المُسوَّرة في وادى السبوع وعمدا التى كانت تضم بينها صوامع للغلال دونما حظائر للحيوان مما يمكن التعرف عليه .



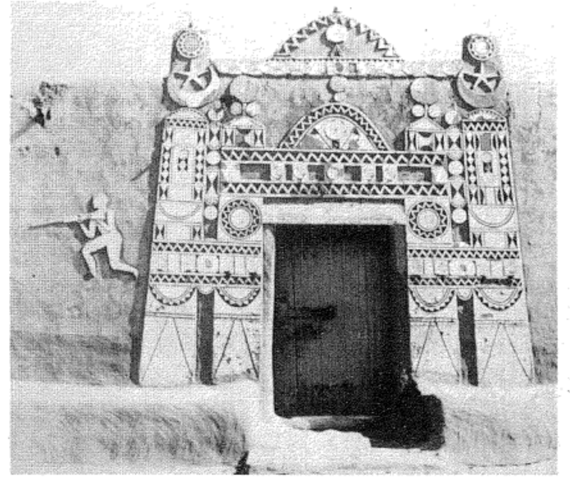
(١) أ - جروف النيل الخصبة [السهل الفيضى] في النوبة السفلى



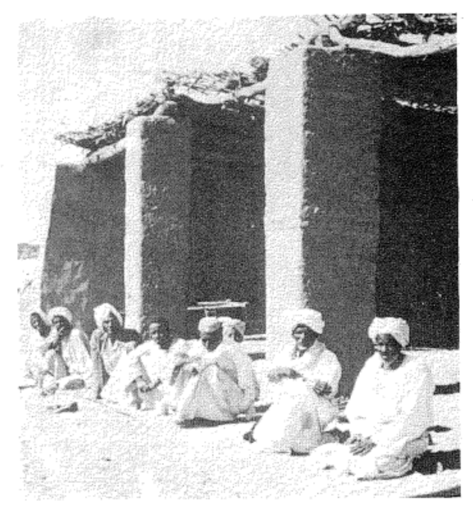
(٢) ب - الصحراء النوبية المقفرة



(٢) أ - (الصورة الأعلى) قرية نوبية حديثة في منطقة دلقو



(٢) ب - واجهة منزل نوبى بكامل زينتها



(٢) أ- جماعة من النوبيين المعاصرين



(٣) ب - حفريات أثرية ، ود بانقا



(٤) أ- رسوم صخرية من العصر الحجرى الحديث ، عبكة



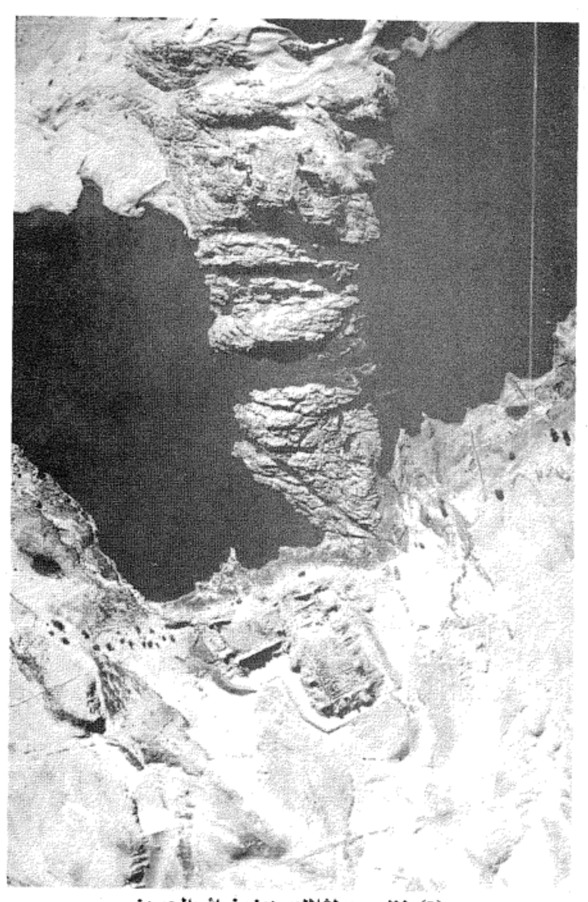
(٤) ب - فخار ملون من ثقافة المجموعة الثالثة [الأفق أ]



(٥) أ- قرية مُحصنة من ثقافة المجموعة الثالثة [الأفق ج] ، وادى السبوع



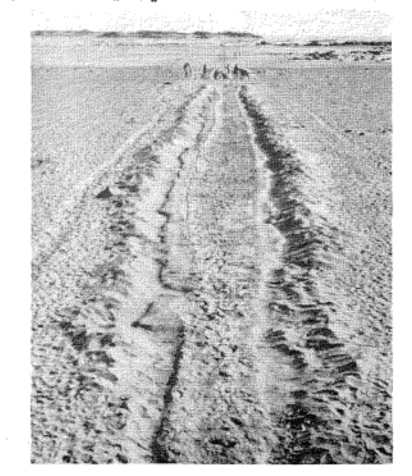
(٥) ب - فخار نموذجى - للمجموعة الثالثة [الجماعة ج] ولكرمة



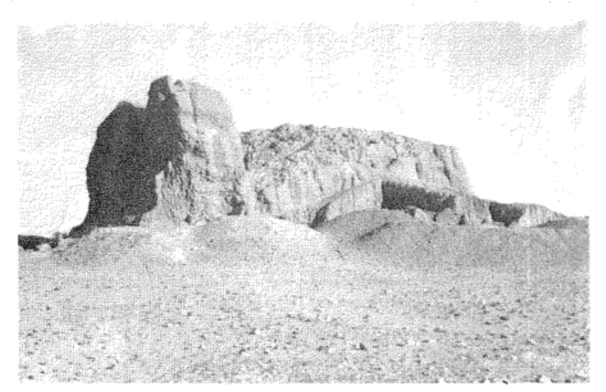
(٦) منظر جوى لشلال بوهين وخرائب الحصون



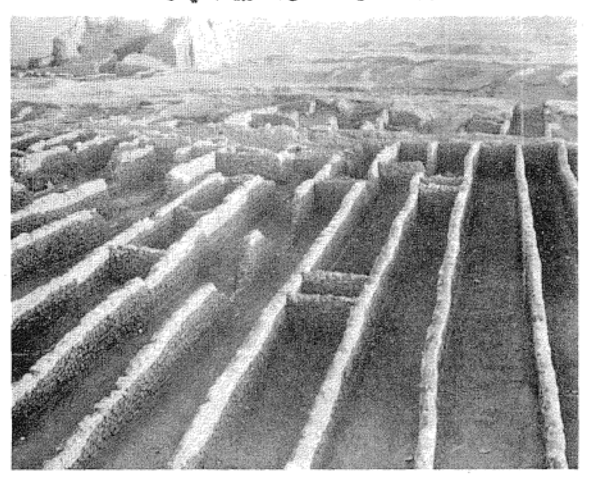
(٦) أ- تحصينات في بوهين : السور المترّس من الداخل



(٦) ب - مجرى سحب
القوارب في مرقسة



(٧) أ- الدفوفة السفلى (الغربية) في كرمة



(٧) ب - الهيكل الطوبى للمدفن ك ٣ ، والدفوفة العليا (الشرقية) ، كرمة



شكل رقم ٢١

رسوم تصويرية (جرافيتي) على أوانى من ثقافة المجموعة الثالثة (الجماعة ج)

يلقى شاهد مناخى مزيداً من الشك على فرضية الإنتشار الواسع للحياة الرعوية في ثقافة المجموعة الثالثة . في زمن طويل قبل هذا الوقت كان الطور الرطب للعصر الحجرى الحديث (قارن الفصل الرابع) قد بلغ نهايته ، والأحوال السائدة فوق الصحراء الكبرى مماثلةً لأوضاع اليوم بالضرورة (٢٦) . المعيشة الممكنة الوحيدة للإنسان والحيوان قائمةً على ضفاف النيل ، حيث يُتَطلب اليوم إثنان إلى أربع فدانات لتقيم أود بقرة واحدة . أخيراً كشف تحليلٌ شامل لعظم الحيوان أُستُعيد من موقع في *بطن الحجر* ، يعود تأريخه إلى ١٦٠٠ ق. م، أن ٦ بالمائة فقط عظام بقر، ٤٠ بالمائة عظام ماعز وضأن، و٥٤ بالمائة عظام غزال (٢٧) . يبدو أن الصيد في هذه المنطقة كان لا يزال أشدّ أهميةً من أنواع أخرى لتربية الحيوان .

الظاهر ، إذّن، أن نوبيّي ثقافة المجموعة الثالثة لا تجدر مقارنتهم مع النوير إنما بجيرانهم الشلك ـ قوماً (مثل آخرين كُثُرٌ في شرق إفريقيا) يُعِدُون ثروتهم في البقر لكنهم يشتقون معظم معيشتهم من الزراعة (٢٨) . فإذا كان هذا التفسير صائباً، فعلينا من ثم أن ننظر بلا جدوى للقطعان الهائلة التى توقع رؤيتها امرى وأركيل (٢٩). إن العبارة التى تقول " إنهم كانوا مُلاكاً للأبقار على نطاق واسع " (٣٠) ، ربما يجب أن تعدّل لتقرأ "إنهم تطلعوا لكى يُصبحوا مُلاكاً للبقر على نطاق واسع" لغالبيتهم كانت مثالاً ، لا يمكن تحقيقه أبداً . إن نوبيى ثقافة المجموعة الثالثة أياً كان الحالُ يجوز أنهم كانوا أول شعبٍ إفريقى يُنمّى تلك التركيبة الواسعة من الأنظمة الإجتماعية والطقوسية الممركزة حول رعاية البقر ، وهو أمر شديدُ الوضوح في شرق إفريقيا ووسطها في الوقت الحاضر .

المركب الجنائزى

الإستغراق في الحياة الآخرة ، المرئى آنفاً في القبور الخاصة بثقافة المجموعة الأولى ، يتجسد في تزايدٍ خلال ثقافة المجموعة الثالثة النوبية . هنا ، كما يُري في جوانب كثيرةٍ أخري للثقافة ، يمكننا أن نُدرك إستمراريةً لمأثورات سابقة وفى نفس الوقت نتعرف على النفوذ الأيدولوجى المتنامى لمصر . في ملامحها السُفلية ، هناك فرق طفيف بشكلٍ مقارنٍ بين القبور التابعة لثقافتي المجموعة

الأولى والمجموعة الثالثة . إنما ممرات رأسية بسيطة ، بيضاوية أو مستطيلة بأركان مستديرة ، يَضَّجع فيها الجسد على جنبه الأيمن في وضع مُنقبض أو مُتَقلص جزئياً (الشكل رقم ٢٢) . يتجه الراس إلى الشرق عادةً ، على أنه ليس هنالك قاعدة توجيهية ثابتة بصرامة . وتوضع أوانى الفخار وقرابين أخرى بنظام لا دِقَّة فيه بين طيات القبر ، حيثما وجد مجالٌ بين الجسد وَجنَبات الممر .

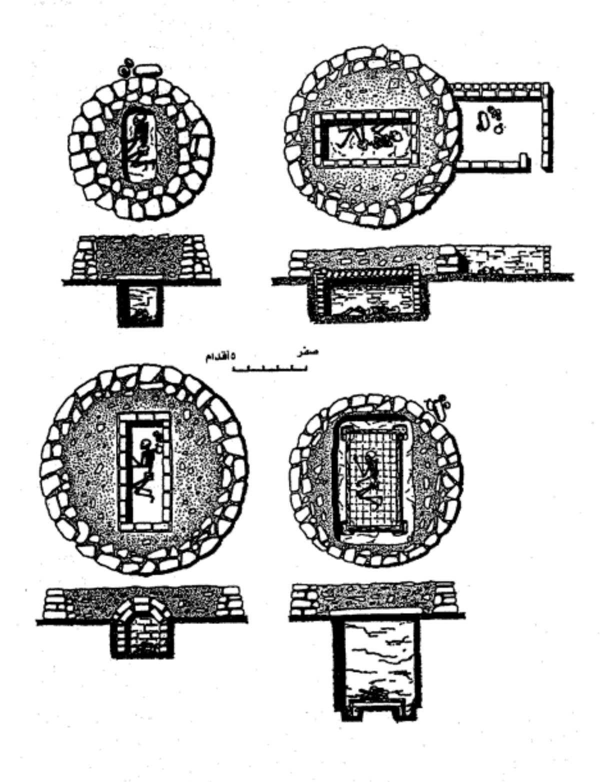
اكثر ملامح مميزة لقبر « المجموعة الثالثة » توجد فوق الأرضية . حلقةٌ من بناء حَجرى جاف مغروز ، حوالى ثلاثة أقدام في الإرتفاع وخمسة عشر قدماً في قطرها بوجهٍ عام ، بُنِيَت حول قمة ممر القبر . داخل الهيكل البنائى مُلِئ بالحصا أو الرمل ، وفى بعض الأحيان يُغَطى في القمة بألواح حجرية منبسطة ، حتى يكون مدفناً تلياً . وبما أن الجنائز في هذه الفترة تكاد أن تكون منهوبةً بشكلٍ ثابت ، كيفما تم ذلك ، فإن الإمتلاء الداخلى للمدفن التلى نادراً ما يوجد كما كان انفاً بلا مساس .

فكرة ترك علامةٍ على القبور في السطح ، عن طريق نُصبٍ شاهدٍ أو مدْفَن تلى، فكرة موغلة في القدم وبالغة الإنتشار . إنها تتراءى في فجر التاريخ بكلٍ من مصر وبلاد ما بين النهرين . نحو ما ذكرنا في الفصل الخامس ، هنالك الآن شاهد على أن بعض المدافن التلية بُنيت في النوبة إبّان ثقافة المجموعة الأولى ، بالرغم من أن الغالبية العظمى من قبور هذه الفترة ليست لها علاماتُ سطح باقية . وسواء كان بناء مثل هذه البناءات غير شائع ، أم أن غالبيتها دُمِّرت بتعريةٍ لاحقة ، لم نعلم أبداً ، مع ذلك، في ثقافة المجموعة الثالثة ، إن كانت ممارسة إشهار القبور عامةً في كافة أرجاء النوبة . بقيت طوال الدهر مُذاك ، برغم أن التقليد الدقيق لاشهار القبر تفاوت بقدرٍ عظيم من فترة لأخرى .

ليس اكيداً ما إذا كانت المدافن التلية في ثقافتي المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة قد قُصد بها التذكار أساساً، أو أن تكون حائلاً دون النهب . فإن كان القصد الأخير هو الإعتبار العمادى، إذن، مثل اى حَيْطَة اخرى شاملةً وبالغةً كالأهرامات الكبرى، ما كان مُفلحاً . في طول جَنبات وادى النيل (وعلى امتداد معظم العالم القديم بحق) يصعب ان يكون هناك شئٌ مثل قبرٍ غير منهوب في أى من الفترات التاريخية عندما كانت الثروة تُدفن بإنتظام مع الموتى . كان نهب القبور في جلاءٍ صناعةً بروليتارية عظمى ، ربما مانحة لمزارعى العالم القديم المتجذرين في الأرض واحداً من آمالهم القليلة للهروب من حياة الفقر وَضنك العيش مدى العمر . لا جَرَمَ انه بعد قرون وألفيةٍ من الحَرَز الخَفى ، يُعد العثور على قبرٍ غير ممسوس في الوقت الحاضر يوماً سامق الأهمية لعالم الآثار . وكنتيجةٍ نحصل على وَمضات موسمية وعرضية فحسب من الطائفة الجنائزية الكاملة للحضارات القديمة ؛ علينا أن نقنع أنفسنا في أغلب الحالات بالقدور المكسورة وبالأشياء الصغيرة ، وغيرها من الغرائب والإنتهاءات التى غض اسلافنا عنها الطرف أو عاملوها بإزدراء .

قبور ثقافة المجموعة الثالثة ، بما في ذلك مدافنها التلية ، تبين دليلاً أصفى في جانب تغيير التسلسل الزمنى عما يُبَيّن اىُ وجهٍ آخر للثقافة (قارن الشكل رقم ٢٢) . إن أقدم قبور كانت، كما قد يفترض، تشبه القبور في ثقافة المجموعة الأولى أشَدّ شبه . ممر القبر دائرى كأعم ما كان عليه ، والبناء العُلوى صغيرٌ نسبياً مع انه جيد البناء . في أزمان متأخرة أصبح الرُكام الفوقى بشكلٍ متزايد كبيراً لكنه مُشَيد بعنايةٍ أقل . القُدور وقرابين جنائزية أخرى وُضعت في بعض المرات قُبالةَ قاعدة المدفن التلى بدلاً عن - أو إضافة إلى - جوف القبر . ربما تكون القرابين الخارجية شاهداً على ولائم لإحياء الذكرى أو احتفالاتٍ عُقِدت في تواريخ لاحقة ، مثلما كان شائعاً في الشرعة الجنائزية المصرية . وفى الأيام الأخيرة من ثقافة المجموعة الثالثة بُنيت حجراتٍ مستطيلة من الطوب النَئ في مواجهة الجوانب الشرقية للبنايات العُلوية لبعض القبور ، لِوضع القرابين عليها [٣١] .

دارت ممرات القبور تدريجياً من شكل دائرى إلى مستطيل . بحلول المرحلة الوسيطة من ثقافة المجموعة الثالثة وُجدت في بعض المرات مصفوفةً بألواح حجريةٍ قائمة في إستقامة أو بطوب نئٍ، لابد انه كان مُغطىً بخشب أو بلاطات إضافية . كانت الفكرة - بوضوح - أن يُحفظ الجسد بين غرفة مهواة ،



شكل رقم ٢٢

تطور أنواع القبور فى ثقافة المجموعة الثالثة، (الأفق ج)

مثلما كان النهج الممارس طويلاً في مصر وغيرها . هذه الطريقة من الدفن بلغت أكمل تطور لها في ختام ثقافة المجموعة الثالثة ، عندما أُسجي الجسد بين غرفة طوبية مستطيلة مغطاه بعرش طُوبي. تبرز الحافة العليا للسقف في المألوف فوق سطح الأرض ، لكنها تُطوى بين مِلء المدفن التلى .

دُفنت الأضاحي من الحيوانات دائماً بين الجّبانات الأخيرة في ثقافة المجموعة الثالثة . هياكل لضأن ، وماعز، وغزلان وكلاب وُجدت أحياناً بين نفس ممرات القبر مثل الإبداعات البشرية ، وفى بعض الأحيان في حُفر ضحلة ، منفصلة لها . دُفن البقر خاصةً كذلك ، مع انه أقل عدداً من الضأن والأغنام، ومُثِّل بالرؤوس وحدها . وبينما عُثر على هياكل لخروفين أو ماعز في قبور كثيرة ، توجد رؤوس البقر عادةً بتجمعات ستة أو أكثر ، مرافقةً لأكبر القبور وأغناها [٣٢] . الواضح في المرّكب الجنائزى ، كما في الحياة ، أن البقر مثَّل الثروة بينما مثلت الحيوانات من الفصائل الأدنى قوام المعيشة . بعض الجّبانات في المرحلة المتأخرة من ثقافة المجموعة الثالثة تشمل شواهد حَجرية قائمةً عليها رسوم محفورة لبقر [٣٣] . يمكن لهذه أن تمثل محاولةً من النوبيين «ليأخذوا كعكتهم ويلتهمونها بالمثل»؛ أى، أن يقوموا بصنع قُربان رمزى للبقر من أجل الموتى دون أن يحرّموا الأحياء منها بالفعل .

ملامح المجتمع النوبي

فى الجّبانات الأولى من ثقافة المجموعة الثالثة تُبَين قبور على سبيل المقارنة تفاوتاً قليلاً في الحجم والثروة ، بما يقترح أن المجتمع النوبى في هذا الوقت كان لا يزال بالضرورة ديمقراطياً تسوده مفاهيم المساواة في الحقوق والميزات الإجتماعية والسياسية والإقتصادية . بمضى الوقت يمكن أن يُرْقَب تبايناً متزايداً بين القبور ، ربما إنعكاساً لفوارق متنامية في الثروة والسلطان . هذا الإنعطاف موسوم بدقةٍ في الفترة الوسيطة الثانية ، التى تبّعت إنسحاب الحكم المصرى المباشر من النوبة السفلى (أنظر الفصل الرابع) [٣٤] . ما هناك بيّنة في أى وقت ، مع ذلك، لترتيبٍ طبقى إجتماعى واضح القّسمات على غِرار ما هو قابل للنظر المتمعن في جّبانات مصر الفرعونية . الإختلافات ما بين أغنى القبور النوبية وأفقرها كميةٌ أكثرَ منها نوعية ، ليس هنالك إنفصال طبيعى جامد بين الإثنين . صورتنا ، من ثم ، لابد أن تكون لمجتمع تُحدد دلالته فوارقٌ متزايدة من الثروة والسلطة ، لكن هذه الفوارق التى تجول به لم تتخذ شكلاً في مُميزات إجتماعية مورثة .

الفوارق الإجتماعية أقل بروزاً على حد سواء في البقايا السكنية لثقافة المجموعة الثالثة . لقد حاول امرى أن يُعلل هذه الحالة كما يلى :

مساكن المواطنين الأثرياء ربما يُتَّخير مكانها في مساحات الأرض الخصيبة بالقرب من ضفاف النيل وبالتالى تنمحى دونما أثر بسبب الفلاحة المكثفة لمثل تلك الأرض الغالية . وهكذا ما بقيت على قيد الحياة سوى المستوطنات المتواضعة للطبقة الأكثر فقراً الواقعة على حافة الصحراء وهى لا تقدم سوى إنطباع لأناس يَحيون أوضاعاً في غاية البدائية ؛ ذلك في حين أن صفة كثيرٍ من القبور تشير إلى أن مثل هذا (الرأى) لمْ يكن دالاً على الواقع بأى حال[٣٥].

يبدو محتملاً ، رغم هذا ، أن بناة المساكن الواسعة - إن كان هنالك مثلها - ربما تحملوا معاناةً خاصةً ليجعلوا موقعها على أرض عَالية أو بارزة ، بعيداً عن مبلغ فيضانات النيل الدورية . إن إيضاحاً أكثر قدرةً على الإقناع بالبقايا السكنية عليه أن يفترض أن كل النوبيين الأوائل، مثل معظم الأقوام القبلية ، تقاسموا بشكلٍ أو آخر مِعياراً مادياً عاماً للمعيشة ، وأن فوارق الثروة والسلطة إنعكست على المكانة الإجتماعية وفى مُترفات مثل الصروح الجنائزية بدلاً عن ظروف المعيشة اليومية . لا نحتاج سفراً بعيداً إلى جنوب النوبة لنجد أقواماً لا يزال ينطبق عليهم ذلك الحال .

لا تواجهنا في السِّجل الآثاري للنوبة السفلى البوارق المعهودة للنظام الملكى : لا قصور ولا قبور مَلكية ولا شعارات مَلكية متفقاً عليها . غير أن النصوص المصرية من الأسرة السادسة وما تلاها تغص مراجع لحكام نوبيين. قام أونى بتأمين عون زعيم الواوات في بناء صنادل خشبية [٣٦] ؛ وفي واحدةٍ من بعثاته للأراضي الجنوبية وجد حركوف "ملك " يام في حربٍ مع « ملك » تيمه [٣٧] ؛ في مناسبة أخرى زُود بدليل من "ملك" يام بينما كان يرتحل عبر أراضى ملكٍ غريم [٣٨] . الفرعون مرنر في زيارة رسمية لأسوان تَقَبّل ضيافة حكام مدجاى، إرتت، وواوات [٣٩] . ما يقرب من عشر مقاطعات أو تزيد قليلاً موصولة الذكر مع «زعماء» بمحتوىً واحد أو آخر . معظمهم كانوا فيما يتراءى في النوبة السفلى ، مع أن أماكن إقامتهم لا يمكن أن تُثْبَت بتحديد [٤٠] .

جانباً عن بيّنة النصوص هنالك أسباب مُستنبطة أخرى ، للإعتقاد بأن المجتمع النوبى في ثقافة المجموعة الثالثة كان يسير في ظل سيطرة سياسية تزداد شكلاً رسمياً . لشئ واحد ، تظاهر السكان على أنهم كانوا أكبر حجماً سكانياً عنهم في أى زمن سابق ، وأنهم إزدادوا عدداً طوال فترة ثقافة المجموعة الثالثة . وفى نهايتها ، قَدر تريقر سكان النوبة السفلى بحوالى ١٧.٠٠٠ إنسان أو ثلث الرقم الحديث [٤١] . تَشَعب أسماء الأماكن في النصوص المصرية يحمل كذلك إيحاءاً بالتعددية العرقية أو المحلية ، تصاحبه إمكانية التنازع . خارجاً عن مثل هذه الظروف تنبعث مؤسسة القرابة دائماً . إلا أن شاهد الآثار يجعل من الواضح أننا لا نستطيع التفكير في وجود « ملوك » في النوبة بنفس الحس الذى نفعله في مصر المعاصرة لها ، والحقيقة أن الحرف الهيروغليفى الذى أجرى به المصريون توصيف الحكام النوبيين ما كان نفس الحرف الذى طَبّقوه على فراعنتهم. في الجنوب ، كما في مجتمعات قبلية بوجه عام ، كانت السلطة السياسية فيما هو محتمل لا تزال مقيدة بإعتبارات للقرابة والطقوس ، وكانت مقيدةً بتأكيدٍ جغرافى - ربما في قرىً منفردة على حد سواء . في إصطلاح النظرية السياسية الحديثة ، كان الحكام النوبيون في ثقافة المجموعة الثالثة رؤساء لقرىً أو زعماء، ما كانوا ملوكاً [٤٢] .

فى غياب معطيات من الماضى أكثر تحديداً ، ربما يجب علينا أن نأخذ نموذجنا للنوبة القديمة من المجتمع والكيان السياسى لقبائل حديثة معينة في أعالى النيل : أقوامٌ لا تفترق ظروفهم المادية إفتراقاً عظيماً عن ظروف النوبيين الأوائل ويتقاسمون إشتغالهم بالبقر المُستغرق فيه محدداً . الأداة العمادية للحكومة وسط هولاء الناس هى " نسق العُصبَة القطاعية " الذى يُوصل به كل المقيمين في القرية معاً عن طريق شبكةٍ من إلتزامات القَرابة [٤٣] . يمتد هذا "النسيج القرابى" ما وراء القرية، كيفما اتفق؛ المقيمون بالقرى المجاورة ، وفى الحقيقة كل أعضاء القبيلة ، يمكنهم أن يَدّعوا مقياساً من القرابة بفضل تحدرهم المفترض من سَلَفٍ مشترك . إن القيادة السياسية تُمارس بقسطٍ وافر ، وأحياناً بوجه كلى، من الرؤساء المعترف بهم من عائلات وعشائر ، يجلسون معاً إذا دعت الضرورة كمجلس للحكم . فإذا وُجدت أيُ سلطة ممركزة إضافية ، فإنها تكون قابلةً للإيداع في شخص «زعيم للمطر» ووظائفه طقوسية مثلما أنها سياسية [٤٥] . يمنحنا إيفانز - بريتشارد وصفاً بليغاً لمثل هذا النسق بين ظهرانى الشلك:

أكواخ الشلك ... كأنما تتسلسل ، تماثل حَبات عُقودٍ على خيطٍ بإمتداد الضفة الغربية للنيل ... إنها زراعية ومستقرة كأعلى ما يكون ذلك عليه، إذ أن مواجهتها للنهر بطوله تمنحها ماءاً ومرعى كافيين في موسم الجفاف للأبقار القليلة ... التى يملكونها بالمقارنة [مع غيرهم] .

الأكواخ ... مَبنيَّة بمقدار ١٠٠ ياردة إلى ميل أو نحوه جانباً عن بعضها البعض على أرض مرتفعةٍ موازية للنهر ، تتباين في الحجم من واحد إلى خمسين داراً ... كل كوخ مشغول بأعضاء عائلة ممتدة، أو عشيرة صغيرة، بزوجاتها، وديار هذه الجماعة مُرتّبة في شكل حدوة حصانٍ غير دقيقة الرسم تحيط بحظيرة بقر عامة ، تأوى الحيوان إليها في حالة الأمطار ، وتُستعمل كمنتدى في كل المواسم ... رب كل كوخ، وهو أيضا رأس لعشيرته في المستوطنة التى تكون جزءاً منها، يمثل الكوخ في مجلس المستوطنة ويتقبل من ثم رداء شرفٍ من الملك أو من زعيم

المستوطنة (٤٦) .

جدير بالذكر أن الشلك كان لهم حتى وقت قريب " ملك " قبلى، لكنه لم يكن يحيا في دولة ظاهرة، ولم تدفن عظامه في قبر مَلَكى عظيم . كانت جنازته بحق "شأناً عشائرياً أكثر منه قومياً" (٤٧). عن طريق المماثلة ، لا يمكننا بوجه كلي أن نستبعد إمكانية وجود نظام ملكى ممركز في ثقافة المجموعة الثالثة ، لا لشئ إلا لأنه لم يترك أثراً في السجل الآثارى .

وسط الأقوام البدائية ، سارت الزعامة القوية يداً بيد مع تطور عالٍ في القتال . إن الرأى العلمي إنقّسم بحَذَرٍ رغم ذلك فيما يتعلق بالإستعداد القتالى للنوبيين الأوائل . وصفهم امرى "كسلالةٍ غير عدوانية من ملوك البقر الجلوسيين" ، وأشار إلى الغياب الموحى بالأسلحة عن قبور ثقافة المجموعة الثالثة (٤٨) . غير أن آخرين أمعنوا النظر في أن النوبيين في هذا الزمن كانوا ذوى قيمة كقوات مرتزقة في مصر (٤٩) ، وأن هناك إقتراحات وفيرة عن ظاهرة النزاع المحلى في نصوص السيرة الذاتية لحرقوف (٥٠) . يجوز أن يضاف أنه ما من شئ على صعيد فعلى يماثل وجود «سلالة غير عدوانية من ملوك البقر» في القارة الإفريقية اليوم ؛ فكل القبائل التى تملك الأبقار متورطة في دورة متواصلة من غزو البقر ما بين القرى وما بين القبائل . إن هذا الإستعداد الحربى الشديد يجدر بنا على الأقل أن ننسبه إلى النوبيين القدماء على حد السواء .

شاهد ملهب للخيال أشد مما مضى بكثير من البأس العسكرى النوبى نجده في السلسلة العظيمة من القلاع التى دُفع حكام مصر لبنائها في النوبة خلال فترة الأسرة الثانية عشرة ، موازيةً بطريقة أو أخرى للفترة الوسيطة من ثقافة المجموعة الثالثة . فإذا كانت هذه المبانى الشاهقة قد قُصد منها أن تُخضع النوبيين في النوبة السفلى وترهبهم ، مثلما اقترح بعض الكتاب (٥١) ، فإن الأخيرين ذكراً لابد أنهم كانوا بحق وحقيق خصماً مهولاً محكم التنظيم . بيد أنه ما من شئ في بقاياهم الأثريّة يُبّرر مثل هذا الرأى . الإحتلال المصرى للأسرة الثانية عشرة سبقه رَتلٌ من الإغارات على حِمى النوبة (٥٢) ، إلا أن هذه فيما يبدو حملاتٍ للنهب أكثر منها عملياتٍ حربيةٍ أصيلة في مواجهة مقاومة منظمة . وحالما أُنشئت الحاميات المصرية في النوبة السفلى ، قلقل وجودها مَسرى الحياة الأهلية نوعاً ما بحيث لا نستطيع أن نستيقن أى قبور ومستوطنات «للمجموعة الثالثة» تنتمى للمسافة البالغة ٢٠٠ عاماً من الإحتلال المصرى وأيها يرجع تأريخه لأزمانٍ باكرة ومتأخرة (٥٣) . هذه الإعتبارات ، مصحوبةً بطبيعة وموقع القلاع نفسها ، تلهمنى بأن بناءها عَجّلَ به عدو أبعد مدىً وأقوى شكيمة - سؤال سيؤخذ بطوله في الفصل القادم . ومادام أن النوبيين في النوبة السفلى معنيين ، يبدو أنهم عاشوا قرنين تحت خضوعٍ تام للمصريين دون أن يكون لهم - عدا ذلك - الكثير ليتخذوه نحوهم .

ملخص تفسـيرى

إستـأنف المجتمع النوبى في ثقافة المجموعة الثالثة العمليات التدريجية للنمو والإستقرار الجلوسي التى ظلت عاملةً منذ بداية العصر الحجرى بالرغم من أنها اعتُرضَت إبّان المرحلة المتأخرة من ثقافة المجموعةالأولي . ما من تقدم ثقافى ثورى كان معلماً لبداية الفترة الحديثة ، أو أى طور لاحق من مدتها البالغة ٨٠٠ عام . لقد كأنت هناك رُجعى مفاجئةً للرخاء ، وتبدو هنالك إعادةً بالجملةً للإقامة في النوبة السفلى ، لكن الإبتداعات التى تفاضل ثقافة المجموعة الثالثة في مرحلتها الباكرة عن ثقافة المجموعة الأولى كانت قليلة وغير هامة . كانت هنالك تحديثا على درجةٍ أعظم من الأهمية في وقت متأخر من الفترة مثل إدخال الطوب النئ وتشييد أول قرىً وتحصينات نووية . بنهاية ثقافة المجموعة الثالثة ، أنجز النوبيون في آخر المطاف نوع حياة القرية المستقرة التى ارتَقت في الشرق الأدنى آلافاً سابقة من السنين .

المعيشة خلال ثقافة المجموعة الثالثة كانت فيما هو جلي مؤسسةً علي زراعة الحبوب ، مُدّعمةً إلى حد ما بتربية الحيوان والقنص وصيد الأسماك . بمجئ الجزء الأخير من الفترة كان الفلاحون ينتجون فوائض بما يكفى لإستدعاء تعزيز وتحصين المستوطنات حيطةً من الهجوم ، سواء من نوبيين أمثالهم أم من أعداء خارجين . تراكم البقر المستأنس في أعدادٍ مقّدرة أصبح رمزاً للثروة ، مع أن مساهمته في الإقتصاد المعيشي ربما لم تكن كبيرةً فيما يحتمل . لقد كان مع ذلك بؤرةً رئيسة لنشاط دينى وإجتماعى بإحتمالٍ عالٍ، وبذلك يمثل تحديثاً آيدولوجياً هاماً لثقافة المجموعة الثالثة .

ثم كان هنالك رخاء متزايد جعل من الممكن نشوء تراكمات معتبرة في الثروة الفردية ومعها فارقٌ متنام بين الغنى والفقير . مع ذلك، فهو حال مجتمع منساب وإقتصاد غير مؤكد دون التخصص المهنى والإحتكار الدائم للثروة والسلطة في أيدٍ قليلة . في كافة الأبعاد المتعلقة بثقافة المجموعة الثالثة لا نجد شاهداً واضحاً لتباينٍ طبقى أو خروجاً لأرستقراطية . قادة البّدنة والقرية كانوا في بعض الأحيان أقوياء بما يكفى لكسب إعترافٍ مصرى ، غير انه ليس هنالك اقتراح بأن سلطتهم تعدت المحلية ، ولعلها كانت مُكّيفة بإلتزامات تقليدية للقرابة والطقوس . إن التهديد بتدخل مصرى أو إنفاذه ربما اجتمع مع أحوال إقتصادية وإجتماعية بدائية لتحول دون ظهور نظام ملكى ممركز في النوبة السفلى أثناء أى زمن في ثقافة المجموعة الثالثة .

الأعمال الإستعمارية المصرية المحصورةُ بدايةً في النوبة السفلى ، سرّعان ما وجدت حقلاً أكثر خِصباً للإستغلال بعيداً صوب الجنوب (انظر الفصلين السابع والثامن) . بعد ذلك كان عناء مصر الرئيس في المنطقة الشمالية ببساطة هو أن تبقى طرق تجارتها مفتوحة للنوبة العليا والصحارى . إستحصل السكان في ثقافة المجموعة الثالثة اهميةً صُغرى وحسب في المشروع العسكرى المصرى، مع إنهم ربما أدوا بعض الضرائب وأعمال السُخرة أثناء فترة الإحتلال العسكري المصري ، وكانوا في كل الأزمان سُوقاً لبعض من السلع المصّنعة بقيمةٍ أرخص في القطر الشمالى . كانوا بذلك فرائس موسمية لحملات النهب، بالتحديد تحت ظل الفراعنة المحاربين في الأسرة الحادية عشرة وباكورة الأسرة الثانية عشرة .

وبينما أضحت الثقافة المادية للنوبيين مُتّمصرة بشكلٍ متزايد خِلال ثقافة المجموعة الثالثة ، تَخَلّفت مؤسساتهم الإجتماعية والسياسية . إلى اليوم الذى باتوا فيه رعّية صَميمةً للفرعون ، ظلت نظرة النوبيين ديمقراطية وقبليةً بحيوية .



الفصل السابع

المد الصاعد للإمبريالية
مصر في النوبة، ٣٢٠٠ - ١٨٠٠ ق.م

"كوش البائسة" ، النعت صفة التكرار في نصوص الفتح المصرى ، يعّبر في بلاغة عن الإزدراء الذى دائماً ما أحست به أقوامٌ حضارية نحو جيرتهم الأقل حضارة . شئٌ من نفس المسلك منقول في عبارة القرن التاسع عشر " إفريقيا الأحلك " . السواد الإفريقى ، كما تصوره أصلاً الفيكتوريون ، كان أمراً يتعدي كونه لوناً للبشرة ؛ لقد كان ظُلمةً للعقل على السواء ومن هنا تضمن التبرير "مهمةً حضارية" لأوروبا – حقيقةً كانت في جانب منها ، وفي جانب آخر ذَريعةً لإستعمار مُستَغِل. الإيماء المتكرر بما لاداعي له للتخلف النوبي هيأ للمصريين القدماء ، أيضاً علي نفس النَحو ، إستغلال جيرتهم الإفريقية بحسٍ من التبرير الأدبي.(*)

من أول نظرة يبدو الإعتقاد المصرى بتفوقهم مُستدعيً بمنجزاتهم المادية. وفى حين كان الفرعون محاطاً بكل نوع من أنواع الترف ، ورفع رعاياه بعضاً من أكثر الصروح في التاريخ صموداً لصالحه ، ما تَغَيرت أحوال الحياة في النوبة إلا قليلاً منذ العصور الحجرية . بغض النظر عن ذلك ، فإن مسلك المصريين ينضح إلى حد ما من العنجهية المبالغ فيها بسبب *النعمة المستحدثة* ، إذ أن نهوضهم نفسه من الحياة الوحشية إلى الحضارة كان وجيز الوقوع وخاطفاً . الثقافات الأولى من العصر الحجرى الحديث في النوبة السُفلى - بدارية ، وفيومية، ومريمدية - يصعب القول أنها كانت أكثر تقدماً من ثقافات النوبة وأجزاء أخرى من إفريقيا . ربما كانت فلاحة المصريين أكثر إتساقاً على وجه التدقيق مما فعل النوبيون ، لكنهم كانو بقدرٍ متساوٍ جهلاء بحياة القرية التى تضج بالنشاط والتبادل السلعى المتنامى في الشرق الأدنى المعاصر . وحتى صوب نهاية أزمان ما قبل التاريخ ، في الفترات الأمراتية والجرزية (أو نقادة الأولى والثانية) ، لم يكن هنالك إسراعٌ معين للحياة على امتداد النيل الأسفل . أصبحت المستوطنات أكبر وأكثر دواماً ، أُدخل مِعمار الطوب النَّئ ، إرتقى جمالياً وكذا فنياً بصنع الفَخار والغَزْل ، وَبلغت أدوات النحاس مبلغ الإستعمال في نفس الوقت الذى بلغ فيه قطع الحجر ونحته ذروتهما من الإمتياز الفنى . بدأت مصر أخيراً في سبق بقية إفريقيا وإن تحقق ذلك الشموخ في المحيط المادى الذى ما كان له أبداً أن يُعتزل [١] .

فى مصر ، بمدىً يبعد كثيراً عما بالنوبة ، أدى تنامى الثروة السكانية إلى نمو القوة السياسية وتعزيزها أصبح الزعماء الصغار أرباباً لحروب إقليمية ، ينافسون للسيطرة على أقاليم أكبر فأكبر . في تدرج، ربما على أنقاض عدة أجيال، تغلب قادة أُسرات تينيس في مصر العليا على غرمائهم وبسطوا هيمنتهم من أسوان إلى البحر . في ذلك الإنجاز وُلِدت الدولة الفرعونية وحضارة البلاط الملكى في مصر . لربما كانت إرتقاءاً طبيعياً لا مَحيص عنه بالنظر إلى الإنسجام الثقافى اللصيق (واللغوى إفتراضياً) الذى يبدو أنه سِمَة مميزة للمصريين في العهود الأولى [٢] .

أما إن الحضارة المصرية كانت متأثرة بنموذَج حضارة ما بين النهرين فيبدو مما لا جدال فيه .

(*) فَضّلنا وصف التبرير بالأدبي – وليس بالأخلاقي ، لأن عنصرية الفكتوريين وإستغلال الإستعمار للقارة الأم إفريقيا ونقد المؤلف الحازم لما حاق بالنوبيين من إساءة تجعل من التبرير كما هو حقيقة – أمراً غير اخلاقي – المترجم.

على أنه حتى في ذروتها كانت الحياة على النيل شيئاً نائياً في بُعده عن الإنتقاض الصاخب عالمي الأفق (الكسموبوليتانى) في الشرق الأدنى . بقيت مصر لأكثر من ألف عام أرضاً لقطر من الولايات ، دون مدنٍ عظمى وما بها من حياة تجارية وإجتماعية معقدة [٣] . أعلى هذا المنظر الريفى الرعوى يترأس الزعيم القبلى الأعظم ، وآل بيته الولاية . فإن كان في مقدور أكثر الملوك الفرنسيين خُيَلاء أن يتباهى بقوله " الدولة ، إنها أنا " ، يكاد في وسع الفرعون أن يؤكد " الحضارة ، إنها أنا " .

ليس هنالك إنجاز لا يحمل دمغة الحاكم للحضارة المصرية في أى ميدان من ميادين الإجتهاد إلا بصعوبة : جنوداً، ومعلمين، وصنّاعاً، ورجال دولة كانوا على حد سواء خُدامه الشخصيين. وبنفس القدر، ما سارت المنتجات الوفيرة والآخذة بالألباب للصنعة المصرية ، في غالبيتها ، لأماكن الأسواق، لكنها ذهبت لتزيين مقابر الملوك والنبلاء .

فى البداية لم يسترح الصرح الشامخ للبهاء الفرعونى على هيكل معقد . ما كان صون البهرجة الشاملة لحضارة البلاط جارياً بالتبادل السلعى والصناعة إنما بإقتصاد زراعى أُبيرَ بصلابةٍ ، الفرعون والنبلاء كانوا أكثر من انتفع به . طبقاً « لمصادر رسمية » (أى لنصوص السيرة الحياتية للملوك والنبلاء) إستفاد المزارعون كذلك من إحتوائهم في حوق نظام إقطاعى : صاروا مستحقين للحبوب من مستودعاتها الملكية في أزمان المجاعة ، وللعمل في الصُروح الملكية وأعمال أخرى للدولة خلال موسم الخمول الزراعى . توفير الأمن الإقتصادى ظل تسويغاً ذاتياً مأثوراً للأنظمة الإستبدادية ، كيفما اتفق الحال ، وإننا لعلى حريةٍ لنتسائل ما إذا كان *الفلاحون* المصريون قد قدّروا على صعيد الواقع العملى المنافع التى استمدوها من العمل بالسُخرة . بتقديرٍ نهائى لا يبدو أن مستواهم المعيشى اليومى تحسّن بإخضاعهم للسلطة الفرعونية : القبور العادية في الدولة القديمة تكاد تخلو من القربان، في نفس الوقت الذى كانت القبور الملكية والنبيلة تبلغ فيه بروجها السّنية .

بالنسبة للرجل في الحقل ، كان الفرق ما بين العصر الحجرى الأقل حضارة والمدنية ظِلاً أكثر منه مادةً محسوسة ـ ظِلاً للوصاية أحياناً لكنه في معظم المرات بلاط قمعى لحاكمٍ إستهتارى ، ينهال في طرائق مختلفة على المصريين وعلى النوبيين . جلب للفلاح أماناً إقتصادياً منْ لونٍ ما ، لكنه كان ذا ثمنٍ فادحٍ لا نهاية له في تحميله أعباء الجندية وهلكه بالضرائب . للنوبى عُرِضَت سوانح موسعةً للتجارة ، لكنّها مصحوبةٌ بإبتلاءات تتحين النهب والإسترقاق . قروناً من الإخضاع للفرعون حوّلت الشعبين إلى تلافيف من البروليتاريا الداخلية والخارجية للإمبراطورية المصرية ، ركوناً لعبارة أرنولد توينبى الأخاذة [٥] .

نمط الإمبريالية المصرية

حالما أُقيم الحكم الفرعونى مَكِنَةً، أصبحت سياسة مصر الخارجية متماثلةً مع مؤسساتها الإستبدادية الأخرى . فبينما كان يُحصّل على المواد الخام المطلوبة من وقت لآخر عبر تبادل سلعى سلمى ، زحفت جيوش الفرعون أكثر الأحيان قُدُماً واستولت على ما تشتهيه من أراضى الجوار . وفيما عدا الشعوب المراوغة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، قلّما ربحت أممٌ أجنبية طويلاً من الحركة مع مصر القديمة .

كانت الإمبريالية المصرية ـ إقتصادياً وسياسياً ـ عاملاً مستمراً في التاريخ النوبى لأكثر من ٢٠٠٠ عام من تأسيس الدولة الفرعونية حتى قرون تحللها النهائى . خلال ذلك الزمن تقلب مدى النفوذ المصرى وكنهه تقلباً مُعتبراً ، كاشفاً عن قوة أو ضعفٍ نسبيين للفرعون إلى جانب مصلحته الإستهوائية تجاه أنواع متنوعة من سلع الترف . الأطوار الرئيسة الثلاثة للقوة الإمبريالية ـ الدولة القديمة، والوسطى، والجديدة ـ شهدت كل واحدة منها مرحلةً مختلفة من التطور الإستعمارى في

النوبة . إلى درجة صارخة ، تعادل هذه المراحل التوسع الإستعمارى للقوى الغربية بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر .

الدولة المصرية القديمة كانت عصراً من الإستكشاف، مُشَخصاً في البداية بحملات إعارة وتجارة متباعدة وغير منسقة إلى داخل الأراضى الجنوبية . ومع حُسبان لإستثناءات صغيرة (ستذكر فيما يلى أدناه) ما بُذل جَهدٌ لِمد سيطرة سياسية مصرية أو لإنشاء علاقات ودية مع الأقوام النوبية ، عدا بعض الزعماء في التخوم ربما بضاحية أسوان المباشرة (٦) .

الدولة الوسطى فترةً من إحتكار تجارى مسلح، يعمل عبر واحدة أو أكثر من محطات تجارية مقامة في الداخل . عناؤها الرئيس لم يكن إخضاعاً لإقليم أو للسكان الوطنيين ، وتُرك الإنتاج (خلاف حالة المعادن) في أيدٍ نوبية . الحيوان ومنتجات الغاباتْ ، التى ربما كانت لا تزالُ أعظم أهمية من المعادن في هذه الفترة ، إستُحصلت من خلال التمويل من ممولين وطنيين ، بما يعنى بكل الإحتمالات حكاماً محليين . لم يكن هنالك حركة ذات قيمة أو أهمية للمستوطنين المصريين في جوف الأراضى الجنوبية . أياً كان الأمر، كُرُس جهدٌ عسكرى ضخم لحماية طرق التجارة إلى الجنوب ، وتأمين إحتكار مصرى كامل للتجارة على امتدادها . هذا النوع من الإمبريالية الإقتصادية يُذكر بقوة بكلٍ من تجارة الفراء الفرنسية في كندا وبالمراحل الأولى للإمبراطوريات البرتغالية والهولندية وليدة البحار في الشرق، بموانيها " ذات المصنع " على سواحل إفريقيا ، والهند ، والجزر الهندية .

وفى النهاية ، رأت الدولة الجديدة توسيع الإمبريالية من المجال الإقتصادى إلى السياسى . مَدّت السيرة المصرية المباشرة فوق الإقليم النوبى وأهله، طاردةً أو مُخضعةً الحكام الوطنيين الذين كان المصريون من قبل على قناعة بالتعامل معهم . التحكم في إنتاج المواد الخام ، وربما كذلك الزراعة ، إنتقل مباشرةً لقبضة المصريين ، وأضحى النوبيون بدورهم *فلاحين* . هنا ، إذن، إستعمار مكتمل النطاق وإنشاء لإقتصادٍ « مزروعات» ، مقارنا بمراحل متأخرة للإستعمار الأوروبى في أنحاء كثيرة من العالم .

المنتوجات الإفريقية التقليدية التى استُغِلَت القارة من أجلها منذ زمن دهرى سحيق كانت الذهب، والعاج، والعبيد . أول القائمة المذكورة وثانيها، أياً كانا ، يصلحان وحدهما لترؤس قائمة طويلة من منتجات المعدن والحيوان التى برزت في مقدمة التجارة الإفريقية . يمكننا أن نُدرك على أفضل وجهٍ نمط التوسع الإستعمارى المصرى في الألف الثانية ق . م، جنباً إلى جنب مع توسع القوى الأوروبية في الماضى القريب ، إذا ما اعتبرنا موارد إفريقيا تحت ثلاثة عناوين أكثرَ عُمومية : موارد حيوانية، وموارد بشرية ، وموارد معدنية . اكتُسبت هذه الموارد تقليدياً بثلاثة طرائق مختلفةً علي الأرجح، الأول بالتجارة ، والثانى بالإغارة ، والثالث بالإستعمار . لعب الطلب المتضارب للأشكال الثلاثة من هذه السلع من ثم دوراً ما في الطبيعة المتغيرة للعلاقات المصرية ـ النوبية وسوف نقدّرها في إيجازٍ هنا وفق التسلسل الزمنى لتطورها .

منتجـــات الحيـــوان

يحتمل أن المنتجات الحيوانية كانت أسبق السلع تحركاً من النوبة إلى مصر . وكما رأينا في الفصل الخامس ، فإن القبور ممعنة القدم في ثقافة المجموعة الأولى النوبة تقدم شاهداً على تجارة مزدهرة مع مصر، حتى من قبل توحيد الدولة الفرعونية. في هذه الأيام الأولى غير المعقدة ما كان هنالك بالتأكيد إنتاجٌ منظم للذهب، ومن غير الجائز، أن المجتمع والإقتصاد السائدين في مصر ما قبل الأُسرات كان لهما مجال كبير لطلب الرقيق النوبى . إننا نُتْرَك لنسلّم، لذلك، بأن منتجات برية إختفت مؤخراً من وادى النوبة السفلى، كانت مواد عمادية لتبادل مصر السلعى الباكر مع الجنوب.

وفيما ذكر قاردينر بين المنتجات الإفريقية البارزة علي سبيل الإحتمال في هذه التجارة، منتجات كانت عاجاً، وأبنوساً، وبخوراً، وزيتاً عطرياً، وجلود نمور [٧] . في أيام أخيرة صدرت أنواع أخرى كثيرة من الجلود وبيض النعام وريشه، وعام فرس البحر من أوعر مناطق النوبة .

التجارة النوبية الأسبق، الجارية قبل قيام دولة مصرية قوية ، تنامت ـ فيما يُرَجح على يد أصحاب الأعمال الخاصة . كمثل ما كتب رايزنر : " السوق المحلى وَالَى سيره ـ تلك العملية المتعبة التى تَعْبُر فيها السلع النهر صعوداً ونزولاً عن طريق تبادلات بين التجار الذى لا يتراوحون إلا من سوق محلى واحد إلى الثانى جيئةً وذهاباً . المتبَادلات من سوق لآخر يمكن إستقراؤها بنفس القدر من أزمان ما قبل الأسرات وتجرى اليوم بين القرى النوبية . بعض تجار اليوم الحاضر يتراوحون على قدم المساواة من أسوان إلى حلفا ، وقوفاً بكل القرى» [٨] .

قدرٌ عظيم من التجارة الخاصة في منتجات الحيوان والغابات ربما سار حمله في كل أزمان التاريخ النوبى ، وبالتحديد إبّان تلك الفترات (مثل الفترات الوسيطة الأولى والثانية) عندما كانت الحكومة المركزية من الضعف بحيث لا تقوى على فرض إحتكار . ومهما مضى الأمر ، فإن البعثات التجارية الجنوبية العظيمة التى نملك عنها تدويناً من الدولة القديمة وما أعقبها، كانت بأجمعها منظمةً من ناحية الفرعون أو لمصلحته . بالتركيز المتضاعف للثروة في أيدٍ قليلة ، ربما مثَّل الملك وخواص بلاطه السوق الحقيقى الوحيد لسلع الترفية الأغلى من الجنوب . هكذا، مثل غالبية تجارة مصر الخارجية ، باتت التجارة النوبية أعمالاً مَلكية بدرجة كبيرة إن لم تكن مطلقة .

الرقيـــق

يحتمل أن نحت الملك جير في الأسرة الأولى ـ وهو أقدم وثيقةٍ في التاريخ النوبى ـ مما يدل بالمصادفة على استهلال تجارة الرقيق [٩] . وسواء كان وقوع الأسرى البشريين هو الذى جَذَب هذا الفرعون الباهت إلى داخل الأراضى الجنوبية ، أم لم يكن ، فقد كان الأسرى جزءاً من مغانم حُملت، إذ يُبَين مكتوبه المنحوت بجبل شيخ سليمان أسيرين علي الأقل موثوقَين إلى جانب القتلى الذين يفوقونهم عدداً . في معظم النصوص العسكرية اللاحقة التى تخاطب النوبة إلى زمن الدولة الجديدة يظهر الأسرى بعددٍ متكاثر . واضح أنهم كانوا باعثاً رئيساً لعمليات عسكريةٍ مصرية في الجنوب . مثل هذه العمليات مُدَونة من الأسرات الأولى، والثانية ، والرابعة، والسادسة، والحادية عشرة، والثانية عشرة، والثالثة عشرة، والثامنة عشرة، والتاسعة عشرة ، والعشرين [١٠]، أو بكلماتٍ أخرى أينما كانت قوة الفرعون في أشدّها . أياً ما كان الغرض الظاهرى لهذه الحملات ، يحتمل أن كل واحدة منها أحدثت كناتج جانبى محصولاً مُعتبراً من الأسرى.

بعض العبيد النوبيين إستُحوذ عليهم بلا شكٍ من خلال التبادل السلعى (أى، إستُرقوا من جانب النوبيين أنفسهم ثم هاجروا بهم للمصريين)، لكن العدد الأعظم يبدو أنه أُسر مباشرةً من قِبَل جيوش الفرعون . يمكننا لذلك أن نفترض أن تجارة الرقيق كانت عملاً مَلكياً لمدى عريض، إن لم تكن إحتكاراً . أما ما كانت عليه أهميتها الإقتصادية والإجتماعية فصعب تقديره . عدد الأسرى المزعومين في بعض نصوص الفتح يُشكل أكبر مبالغةٍ مهولة بما لا ريبة فيه؛ كمثالٍ يقرب أن يتساوى سجناء سنفرو البالغ عددهم ٧,٠٠٠ كما ادّعى إبّان الأسرة الرابعة مع العدد الكلى المقّدر لسكان النوبة السُفلى في ذلك الزمان [١١]. كذلك لم يكن عمل الرقيق أبداً مُنْشَطاً ذا قيمة أو أهمية للإقتصاد المصرى . من الجانب الآخر ربما كان امتلاك عدد كبير من العبيد النوبيين المسَخرين للخدمة المنزلية رمزاً هاماً للمكانة بالنسبة للنبلاء المصريين، على غرار ما كان عليه بوجه عام أزماناً لاحقة لملوك ونبلاء شرقيين . أكثر من أى شئ آخر، رغم ذلك، ربما كانت هنالك حاجة للعبيد النوبيين

لتعزيز صفوف الجيش المصرى نفسه [١٢] . إن نفس الإعتبار كان سيقود إلى استعباد النوبة في مصر في وقت قريب كالقرن التاسع عشر (قارن الفصل الثامن عشر)

المــوارد المعدنيـــة

تَملَّكت الفراعنة المصريون المتأخرة شهوة مُستَعِرة للذهب ، فأصبح الأهم والأشد مداً للعيون من بين كل المنتجات من الأراضى الجنوبية. «ذهب الواوات» (ربما النوبة السفلى) و «ذهب كوش» (النوبة العليا) تُترسم خطوطهما مجَدداً في وقائع الدولة الجديدة [١٣]. مع ذلك، ليس هنالك مؤشراً على أن هذه الصناعة كانت متطورةً في إتساع قبل مجئ الدولة الجديدة . إننا نعلم الآن ، أن تعدين الذهب في النوبة سبقه تعدين النحاس وتنقيب الدايوريت ، اللذين بدأ كلٌ منهما في زمنٍ مبكر كالدولة القديمة.

كل من العمليات التعدينية في النوبة ، سواء اكانت تعديناً أم تنقيباً ، يبدو أنها كانت أعمالاً للدولة المصرية منّظمةً ومشرَفاً عليها من مسؤولين مصريين، مع أن النوبيين ربما كانوا يوفرون قوة العمل غير الماهرة . النحوت التى عُثر عليها في مناقب الدايوريت وفى كثيرٍ من مقاطعات التعدين لا تترك شكاً أن المسؤولين الذين أشرفوا عليها كانوا مسؤولين لدى الفرعونٌ مباشرة [١٤] . هنا إذن عمل يشتمل قدراً معيناً من الإستعمار الصريح : هيئة ذات تخصص من المشرفين ، مستكشفين ومُنَقِبين مهرة ، وإفتراضياً قوة عسكرية قادرة على حمايتهم من وطنيين يضمرون العداء .

وبإيجاز طُورت ثلاثة أنماط مختلفة من الصناعة الإستخراجية في النوبة القديمة تحت إستشارةٍ مصرية ، كل واحدة مستقلة بطريق مختلف نوعاً ما. حُصِل على منتجات الحيوان الوحشى والغابة عبر تجارةٍ أصلية جيئةً وذهاباً يُفترض أنها كانت متبادلة النفع. لقد كان ذلك التبادل السلعى فيما يحتمل هو الذى أتاح عرض معظم السلع المصرية التى استقرت في أيدى النوبيين. الأرقاء، من جانبٍ آخر، إستُعبدوا بحملات إغارةٍ ما عادت على النوبيين شيئاً سوى المعاناة والحرمان. أخيراً، إستُحصِلت الموارد المعدنية عبر أعمالٍ مصرية مباشرةً موظّفةً على تربةٍ نوبية، جاءت نفعاً بخساً للسكان الوطنيين للمرة الثانية .

فى كافة الفترة الفرعونية، كانت صورة العلاقات المصرية - النوبية التى خرجت من النصوص الهيروغليفية واحدة كأنها بلاء بلا شفاء. سلّم الفراعنة دائماً لأنفسهم بعدالة حكمهم في أرضهم [١٥]، لكن أياً منهم لم يُباه أبداً بإقامة عدالة للنوبيين. سوى أنه من الضرورى أن يُدرك أن الوقائع الملكية والرسمية لا تحكى القصة كلها . شرِكاً مع معظم الإمبرياليين مَجُد المصريون القاهر وَعيّروا التاجر؛ كانت إنتصاراتهم فى ميدان المعارك، وليس في السوق هى التى حفلوا بها وهولوا من شأنها على وجه الترجيح .

عندما نعتبر محتويات القبور النوبية في ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة، ينعكس لنا جانب آخر من الصورة . فيما عدا ما وجد ربما في المرحلة المتأخرة من ثقافة المجموعة الأولى، تبعث غزارة السلع مصرية الصنع في هذه القبور على الدهشة . إن سجلاً خاطفاً لعدد ١.٤٨٤ قبراً «للمجموعة الثالثة» حققها المسحان الآثاريان الأول والثانى في النوبة (انظر الفصل الثالث) يكشف أن نصفها بالتقريب كان قد احتوى مادةً أو إثنين من أصلٍ أجنبى. العقود، والغوايش، وأدوات تجميلٍ أخرى كانت عظيمة الشيوع ، توجد في ٥٢٨ من ١.٤٨٤ قبراً، أو أكثر من ثلث الجملة. قبر واحد من بين كل خمسة قبور إحتوى بالمثل واحداً أو أكثر من أوانى الفَخار مصرية الصُنع. هناك لوحات دهانية الألوان ، وأوانى مرمرية، وأدوات مُشكّلة من النحاس والبرونز، اقل إنتشاراً، لكنها لا تزال باديةً للعيان. ولأن الغالبية العظمى من قبور المجموعة الثالثة، كانت منهوبة نهباً ثقيلاً، وإن المحققين

في حالات كثيرة أجروا تصفيةً للبناء العُلوى وحده ولم يجروا تصفيةً على ممر القبر، يبدو أن النسبة الأصلية للبضائع مصرية الصنع ربما كانت لا تزال عالية . هذه السلع بكل تأكيد ما جاءت إلى النوبيين هدايا، ولا يُحتمل أنها كانت تُستقبل دائماً كتعويض للعمل. الأكثر إحتمالاً، أنها تتضمن دفقاً متواصلاً لتجارة سليمة، متبادلة بين مصر والنوبة طوال معظم الفترة الفرعونية، على الرغم من تقلبات الحظ السياسى والحظ الإجتماعى .

فى الفصلين السابقين عالجنا وجوهاً مختلفةً للتجارة والإغارة المصرية ، وآثارها على المجتمع والإقتصاد النوبيين. في هذا الفصل يبقى علينا أن نعتبر الشاهد على الإستعمار المصرى الصريح في النوبة خلال ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة - انشطةً لم يُكشف عنها لأى مدىً سواء في السجل الهيروغليفى أو في البقايا الآثارية للنوبيين المعاصرين. إن معرفتنا لها تأتى من مجموعةٍ أخرى من البقايا الأثرية لا قُربى بينها، تركها مصريون جاءوا ليعيشوا ويعملوا في النوبة .

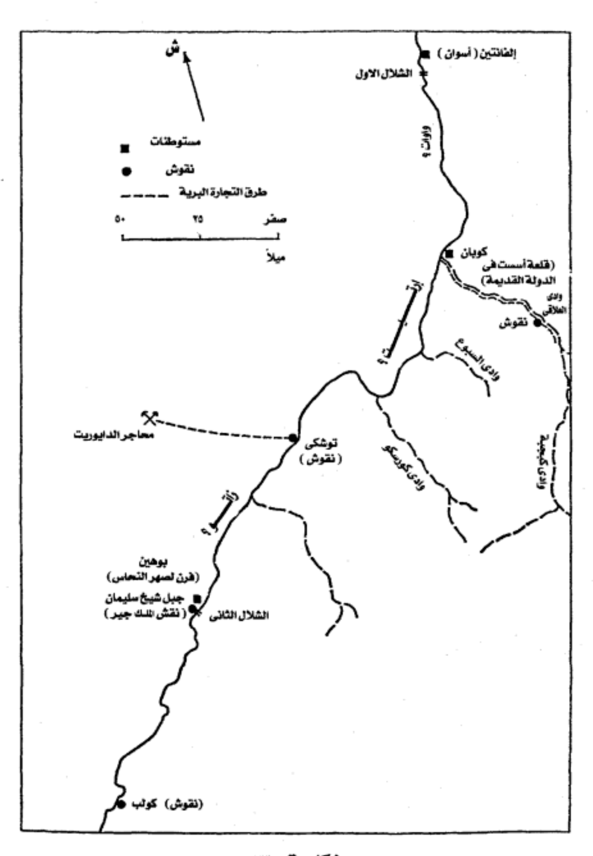
الصناعات المعدنية في الدولة القديمة

الدايوريت، صخرة متبلورة صلبة سوداء اللون رماديته، كانت المادة المفضلة للتماثيل والنُّصُب في الأُسرات المصرية الأولى. لقد تحُصل عليها من مصادر عديدة، واحد منها موقعه في الصحراء النوبية حوالى أربعين ميلاً غربى أبو سمبل . وفقاً ل كيز :

ما بوسع المستكشف القديم أن ينجزه يظهر في إعادة الإكتشاف الحديث للمكان الذى جاء منه في الأسرة الرابعة الدايوريت المستعمل لتماثيل شفرن في معبده الجنائزى وربما كذلك الكتل المرصوفة في معبد سيبس الجنائزى. أسمت فرق العمل هذا المكان تورية "مكاناً لنصب فخ سيبس"، كما لو كان واحة خصيبة . إنه يقع في الصحراء الليبية التعيسة ... شمال غرب أبو سمبل ولا يبعد كثيراً عن درب القوافل الذى قاد من أسوان عن طريق واحة دنكل إلى نخلة و (غرب السودان) . المكان مُعْلّم برجم من الحجارة . تحمل اللوحة الموجودة هناك أسماء سيبس وجدفرى مبرهنةً أنه كان مُستَغلاً من قبل في زمن صمُت فيه الأثر (بأسوان) . على مقربة يقع منجم لمعادن الجَمَشْت . إن درب النقل الذى لا يزال في الإمكان تمييزه يبلغ النيل في جيرة توشكى، إلى الشمال قليلاً من أبو سُمبل (الشكل رقم ٢٣) . من هنا بالنهر إلى الجيزة مسافة تمتد لأكثر من ٧٥٠ ميلاً [١٦] .

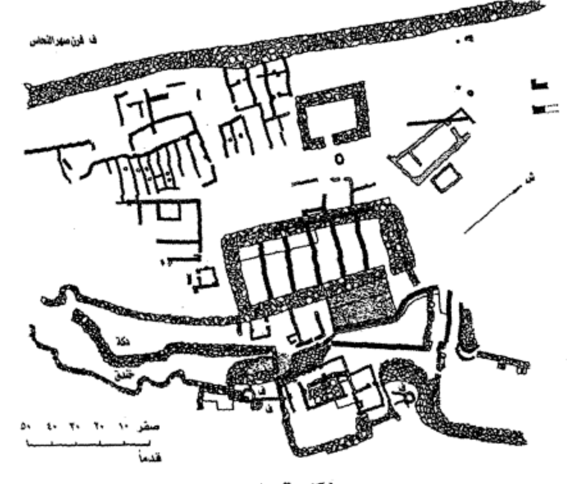
ما وُجد أثراً لمستوطنة مصرية دائمة سواء في المحاجر أم على ضفاف النهر بتوشكى، مع أن شظايا جرَّة أختام طينية ولوحة حَجرية، يعود كلاهما لتاريخ الدولة القديمة، وُجدا في المكان المذكور [أي توشكى] [١٧]. ومع أخذ الطبيعة المتقطِّعة للطلب على الدايوريت ، يبدو محتملاً بما فيه الكفاية، أن نشاط التنقيب ما كان يجرى إلا موسمياً لفتراتٍ مختصرة نسبياً، بعثاتٍ ترسل على وجه الخصوص لذلك الغرض .

سابقاً لأقرب حملة أثَّرية، كان المسلّم به عامةً أن النشاط المصرى في النوبة إبّان الدولة القديمة قُيدت حركته عدا عطفاتٍ محدودة علي فترات، للتجارة، أو الإغارة، أو التنقيب . نعلم الآن، مع ذلك، أنه أنشئت مستعمرة مصرية واحدة على الأقل على تربة نوبية خلال الأسرتين الرابعة والخامسة . وتوجد في بوهين على الضفة الغربية للنيل أميالاً قليلة في إتجاه مجرى النهر من الشلال الثانى ، بقايا موقع لمدينةٍ ذات حجم كانت محاطةً بسور حجرى ضخم غير دقيق البناء. كانت المبانى متناسبةً، مُشَيّدات مستطيلة من حجر وطين نئ، مصرية بمستوىً مُدرك في خصائصها ومختلفةً للغاية عن أى شئ حاوله النوبيون حتى قرون لاحقة. بعضها كان فيما يبدو إقامات سكنية، بينما أخرى مشاغل للعمل لا تخطئها العين (الشكل رقم ٢٤) . ومع أنها خَرِبة لأقصى حد، مثل البقايا المتعاصرة لثقافة المجموعة الأولى النوبية ، بالإمكان أن تؤرخ مدينة بوهين في عصر الدولة القديمة بالنسبة لكل من الفخار الموجود بها وسدّادات الجِرار الطينية التى تحمل شعارات مَلَكية لعدة فراعنة



شكل رقم ٢٣

بيان الأنشطة المصرية فى النوبة السفلى على عهد الدولة القديمة



شكل رقم ٢٤

تصميم لجزء من مدينة فى الدولة القديمة، بوهين

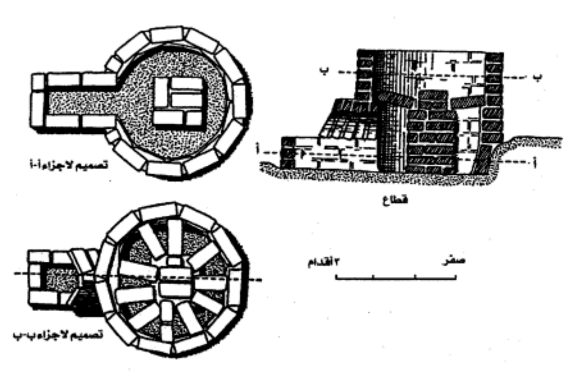
من الأسرتين الرابعة والخامسة . عكست الحفريات فيما وراء المستوى الرئيس للإحتلال آثاراً لمبانٍ أقدم في آنٍ واحد، يمكن أن يعود تأريخها إلى عهد بعيد كالأسرة الثانية [١٨] .

بينما كان حضور مستعمرة مصرية في بوهين في الدولة القديمة مثاراً للدهشة، فإن الغرض الذى من أجله أنشئت يُعد أشدّ بعثاً على الإندهاش . لننقل من تقرير المنقّب :

ثُبّتت بلاطات حجر خشنة في أرضياتٍ لحجرات من النوع الصغير ، لإستعمالها في سحق الخام ، مقرونةً مع بقايا لبواتق فخارية وقوالب للصّب، تبين إننا كنا نُصّفى مساحةً من المدينة كانت فيما هو واضح مصنعاً لتشغيل المعدن . أيدت هذا نفاية الفحم الحجرى والنحاس مصحوبةً بقطرات من نحاس نقى تتدلى من البواتق ....

... تحت مترٍ واحد من الرمل المطروح أمّطنا اللِثام عن هيكلٍ حَجرى حسن البناء بأسوار واقفة على ١.١٥ متراً من الإرتفاع. على كل جانبٍ منها ، بمستوىً لا يزال منخفضاً، إكتشفنا ثلاثة أفران جيدة الحفظ كان يُصهر بها خام النحاس [١٩] .

كانت الأفران هياكل أسطوانيةً من الطوب، مفتوحة السقف، حوالى ٣ أقدام قطراً و٣ أقدام علواً . في النقطة التى تنتصف ما بين قاعدة الأسوار وقمتها، تسمح أرضية مثقوبة من الطوب النَّئ، تقف على عمود مركزى من البناء، لبواتق الصّهر بأن توضع مباشرة على النار في الغرفة السُفلى (الشكل رقم ٢٥) . كما يأذن ممر مُغَطى يقود إلى الغرفة السفلى بإيقاد الفرن وتنظيفه (يكفى للدهشة أن هذه الفّتحات كانت موجهةً في كل حالة بعيداً عن الريح ، ولذلك لا يمكن أن تكون قد خدمت لتزيد من التيار الهوائى على النار) . إن قمائن للفّخار مزدوجة في غرف الحرق مماثلة التصميم لأفران بوهين كانت تُستعمل في النوبة طوال الفترات ما بعد الفرعونية [٢٠]، وربما لا تزال تُري في أعمال الخزف في القاهرة القديمة .



شكل رقم ٢٥

فرن لصهر النحاس من الدولة القديمة في بوهين

يوجز البروفيسور امري، المكتشف، إكتشاف بوهين كما يلي :

١ ـ كانت المدينة مستعمرةً مصرية خالصة، إذ بالرغم من أن «المجموعة الثانية» النوبية حاضرة ، فإن ٩٥بالمائة على الأقل من شقوق الفخار مصرية. (٢١) .

٢ ـ كان شغل النحاس واحداً من صناعاتها، ولذا ربما نستنتج أن رواسب هذا المعدن يمكن أن توجد في مكانٍ ما في السودان الشمالي .

٣ ـ كانت خدمة إرسال مَنَظَّمة للغاية مصونةً مع مصر طوال الأسرتين الرابعة والخامسة، حكماً على ذلك من تكتل البَرْدِي في جُرة الأختام .

٤ ـ ... أسماء الملوك التالية تُعْرف عليها بالأختام وشقوق الفخار المكتوبة : خفرع، منقرع، أوسركف ، سهورع، نفراركارع ، نسرع (٢٢) .

أول مستوطنة مصرية دائمة في النوبة كرست ، إذَن، لإنتاج النحاس وليس للذهب الذى أطل ببروزٍ عالٍ في تأريخ نوبى لاحق . حتى هذه اللحظة يقف واحداً من الحالتين المعروفتين لتعدين النحاسَ في النوبة . أما الثانى فيمثله منجم في الصحراء شرق كُبَّان، في الشمال النائى للنوبة، الذى يُعتقد أن تأريخه لا يرجع إلى عهدٍ بعيد كالدولة القديمة (٢٣) . في الزمن الحاضر ليست هنالك رواسب معروفة للنحاس في السودان الشمالي، ويبقى مصير الخام المذاب في بوهين سراً . والمفترض أنها كانت تُسْتَجلب من نقطةٍ ما في الصحراء الغربية ، ربما على مسافة معتبرة من النيل، لأقرب نقطة على ضفة النيل حيث الطاقة والماء وفيرين للصهر .

يُكَوِّن موقع مستوطنة بوهين نفسه شيئاً من اللغز . إنها مقامةٌ على بُعد أميال قليلة من الشلال الثاني، الذى يدل على مطلع الملاحة الفعالة في النوبة السفلى ، إلا أن الشاطئ الصخرى غير المحمى في بوهين لا يمنح مرسى مُحبذاً على وجه التدقيق للمراكب الصغيرة . إرساءٌ أفضلُ متاح على أميال قليلة صوب الجنوب، في السفح المباشر للشلال . وهذه تبدو مكاناً أكثر منطقيةً للتعبئة وتفريغ الشُحنات المنقولة بالبر من الجنوب. ربما أن بوهين كانت آخرمحطة لطريق صحراوى كان خام النحاس يُجلَب إليه من مصدره داخل البلاد إلى النيل ، غير أنه جدير بالذكر أن الموقع بقي مهماً لزمن طويلٍ بعد توقف صناعة النحاس. إن نفس الضاحية في الدولة الوسطى كانت موقعاً لواحدٍ من أكبر القلاع التى شيدها المصريون في النوبة على الإطلاق ، ثم أُضيفت لها معابد كثيرة خلال حكم الدولة الجديدة ، ومؤخراً كذلك من قبل الفرعون النوبي تهارقا. بوهين إذَن كانت مكاناً ذا أهميةٍ للمصريين طوال تاريخ مخاطراتهم الإستعمارية في النوبة ، لأسبابٍ يُحتمل أن تكون قد فقدت الآن إلى الأبد . وربما أن أهميتها الأخيرة كانت رمزية ، إحياءاً لذكرى المستوطنة المصرية الأولى في تربة نوبية.

الكشوف المبدئية للنحاس والدايوريت في النوبة يمكن أن تكون قد جاءت نتيجة استطلاع موّسع ومنظم لا غير . إن صيادى المعادن في الدولة القديمة إنطلقوا بجلاءٍ بعيداً وراء المنحصرات المعتادة في النوبة السفلى، ذلك أن نقوشهم عُثر عليها في جنوبَ ناءٍ مثل كولب في *بطن الحجر* (٢٤) وفى وادى العلاقى بالصحراء الشرقية (الشكل رقم ٢٣) (٢٥) . مؤلفو نقوش كولب حُدِدت هويتهم على أنهم «كتبة المستكشفين»، وإثنان من «مراقبى المستكشفين»؛ وأولئك الذين كانوا في وادى العلاقى يُدعَون «زعماء للقوافل» . تجعل الألقاب واضحاً أن كل هذا الكشف كان أعمالاً للدولة . وتوحى النقوش ، كما تفعل دلائل أخرى كثيرة، أن المصريين جالوا الديار بحريةٍ ودونما مضايقةٍ فوق مساحات كبيرة من النوبة أول «عصر الكشوف».

المدى الذى تأثرت به حياة النوبيين في ثقافة المجموعة الأولى بحضور مستعمرات مصرية أواسطهم عسير على القول . وطبقاً لنظريةٍ تقليدية فإن الدولة القديمة في مراحلها الأخيرة كانت زماناً

للفقر والنقص السكاني جزئياً في النوبة السفلى (انظر الفصل الخامس) ، بحيث أن عدد النوبيين الذين احتكوا مباشرةً بمستوطنات أجنبية ربما كان صغيراً. إن قبضة اليد من شقوق «المجموعة الثانية» الفخارية (أى الأنواع الأفقر من خزف ثقافة المجموعة الأولى) التى وُجدت في بوهين تُوحى بأن عمالاً وطنيين أو خدماً قلة فحسب وُظفوا في المعسكر ، ولم يكن هنالك جمع لمعاليق خارج السور. إفتراضياً، ربما كان العمال النوبيون يُجرى تشغيلهم في أعمالٍ هى الأشدّ وضاعةً لإستخراج ونقل الخام، إلا أنه مرةً ثانية ربما لم تكن الأعداد المطلوبة كبيرة . السور الدفاعى الذى يحيط بمستوطنة بوهين يوحى من الجانب الآخر أن المنطقة المجاورة ما كانت مهجورة على الإطلاق .

إجمالاً، لا يبدو جائزاً أن عمليات التعدين المصرية في توشكى وبوهين كان لها نفوذ كبير على الحياة النوبية المعاصرة . بإعتبار نطاقها المحدود، من غير المحتمل لأبعد مدىً إنه كان لها دور بشأن النقص السكانى الجارى آنذاك في النوبة السُفلى. فإن كان أى نشاط للمصريين مسؤولاً عن ذلك التطور ، فإن أشدّ الإحتمالات أنه كان الغزو الإسترقاقى الذى شنه خا ـ سخم وسنفرو (قارن الفصل الخامس).

ما وُجدت أسماء لفراعنة الأسرة السادسة سواء بمستوطنة بوهين أو مناقب الدايوريت في الصحراء الغربية [٢٦] . كان هذا زمن إستضعافٍ واضح للسلطة الفرعونية ، ولعل الحصّالة الملكية ما كان بمقدورها أن تقدم مثل تلك الأعمال المكلفة على تربة أجنبية . أياً كان الأمر ، لقد جاءت مخاطرة مصر الأولى كقوة إستعمارية إلى نهايتها قبل وقت معتبر عما فعلت الدولة المصرية الموحدة نفسها . نصوص الأسرة السادسة لِ أونى وحرقوف ، كما أوردنا في الفصل الخامس ، مُدوناتٍ لتجارة بين قوىً ذات سيادةٍ ما كانت للفتح ولا للإستعمار .

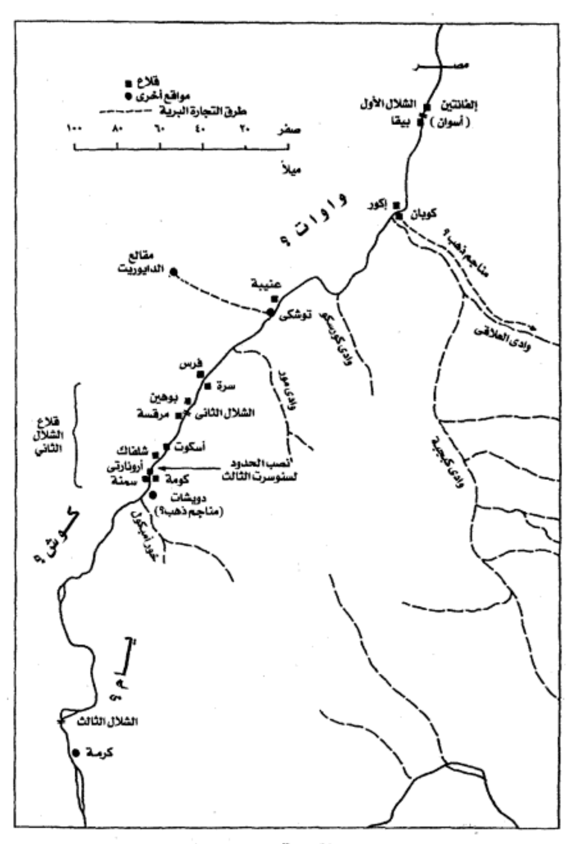
قلاع الدولة الوسطى

لفترة من مائتى عام في ختام الألفية الثانية ق . م . لم يكن لمصر حكومة مركزية فعّالة . إن إستهتار ملوك الدولة القديمة إندمج فيما هو بّين مع سلسلة من الآفات الطبيعية [٢٧] ليستنفد قوة الدولة وثروتها، خالصاً إلى انشقاق أمراء محليين في أنحاء مختلفة من القطر . تولت أربع «أُسرات» قصيرة الأجل (الأُسرات السابعة إلى العاشرة) زمام الحكم في أجزاء مختلفة من مصر خلال المرحلة الوسيطة الأولى ، التى تدخلت بين الدولتين القديمة والجديدة(*) . من وجهة نظر السُجل الحِرَفى يُعَد هذا واحداً من أظلم العصور في التاريخ المصرى؛ فقد ترك صروحاً قليلة في مصر، ولا شئ بالمرة في النوبة. والمعروف أن أرباب الأُسرات المحليين كانوا على شُغلٍ شاغل ، يتناحرون فيما بينهم، ما وجدوا وقتا لمغامرات إستعمارية في الجنوب .

إن ضعف مصر ربما أسهم بقدر واسع في إعادة الرفاهة النوبية في بداية ثقافة المجموعة الثالثة. فكرة ما للعلاقة المتبادلة بين المصريين وجيرانهم ينقلها نص هيروغليفى من المرحلة الإنتقالية الأولى، مُعرباً في أسى أن "اجانب أصبحوا في كل مكان *شعباً*" [٢٨] . النوبيون ما كانوا يعملون مرتزقةً في الجيش المصرى وحسب (كما كانوا كذلك في الفترة الأخيرة من الدولة القديمة) ، لكنهم كانوا يستقرون في ثبات ويكتسبون مراكز ذات شأن في القطر الشمالى، كما يتضح من نقوشهم الجنائزية التى وُجدت بالقرب من جبلين في مصر العليا [٢٩] . الحجم المعتبر لسلع من صنع مصر في القبور الأولى «للمجموعة الثالثة» ربما يمثل مكافآت لخدمة عسكرية في الشمال؛ إنه يُثبت في كل الظروف العودةَ الخاطفة للرخاء النوبى .

فى الجزء الأخير من المرحلة الوسيطة الأدنى كانت المراكز الرئيسة للقوة قائمةً في مصر في حوض الفيوم ، حيث حكمت الأسرة التاسعة والأسرة العاشرة ، وفى طيبة (الأقصر الحديث) بمصر

(*) انظر الشكل رقم (٢) ، تمهيد – المترجم.



شكل رقم ٢٦

الإستعمار المصري في الدولة الوسطى

العليا . قرنٌ من الحرب المتقطعة إنتهى بانتصار أرباب الأُسرات الجنوبية وإعادة إنشاء حكم موّحد تحت الأسرة الحادية عشرة الطيبية . وبالنسبة لمعظم فترة ال ١٠٠٠ عام التالية كانت مصرُ تُحكم من طيبة . الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة ، المعلومتان جمعاً بالدولة الوسطى، تمثلان الذروة الثانية للقوة الإمبريالية في التاريخ المصرى، وإليها يشار أحياناً بعصر مصر الإقطاعى (٣٠) .

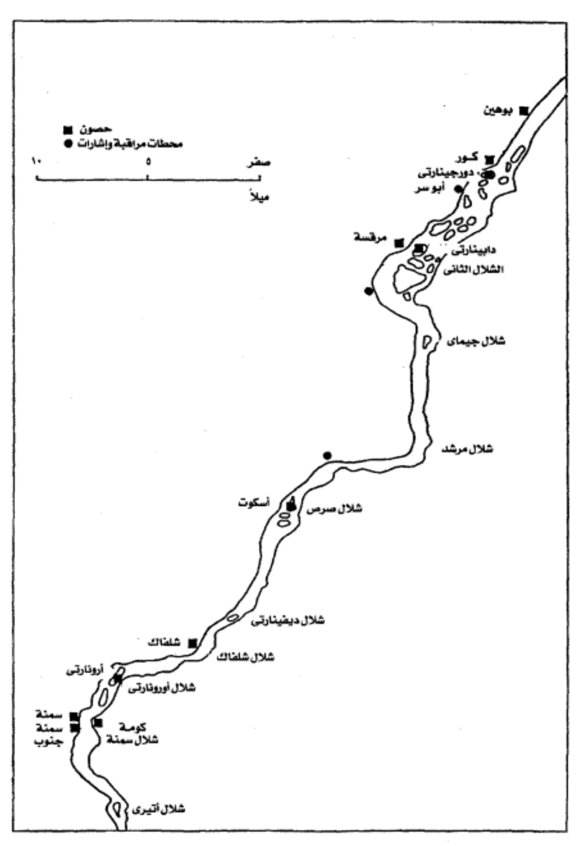
كان فراعنة الأسرة الحادية عشرة مستغرقين فيما يبدو في إعادة النظام إلى بلادهم بصورة رئيسة . هنالك إقتراحات بحملات عسكرية بعيداً في الجنوب إلى الشلال الثانى خلال العهود المتأخرة للأسرة ، لكنها تبدو صغيرةً حجماً ومدةً (٣١) . لقد وقع ، في كافة الأوضاع، تحت الأسرة الثانية عشر الأكثر أمناً والأشد عسكرة أن المد الكامل للإمبريالية المصرية في النوبة اقبل كَرّةً أخرى. إن حملاتٍ كبرى إضطُلع بها أثناء العهدين الأولين للأسرة الثانية عشر أحيت ذكراها في عدد من النقوش الهيروغليفية . النصوص لا تترك شكاً فيما يتصل بطبيعة ومقصد العمليات المصرية : " جئنا لنطيح بالواوات"؛ " إننى أحضرت ... كل البلاد التى في النوبة تحت قدميك، أيها الإله الطيب"؛ "حياتهم إنقّضت" ؛ "النار في خيامهم"؛"غلالهم أُلقى بها في غياهب النيل" بعض عباراتٍ مألوفة وجدت بها ، في صيغة التمثلات واسعة الإنتشار لأسرى مغلولين (٣٢) .

تفترق نصوص الفتح للأسرة الثانية عشرة قليلاً في المادة عن النصوص التى تُحى ذكرى غزوات الرقيق من جانب خا ـ سخم وسنفرو في المملكة القديمة . إن ما جرى بعدها ، كيفما اتفق ، ما كان له سابقة في تاريخ العلاقات المصرية النوبية . غير قانعين بمغنم الأراضى الجنوبية ، شرع الفراعنة في تحصين النيل في *بطن الحجر* الشمالية بحلقةٍ من أعتى التحصينات التى ما شُيدت في أى وقت مضى في العالم القديم (الشكل رقم ٢٦؛ الصورة ٧ ـ أ) . أربعة آلاف سنة من بعد بنائها، وثلاثة آلاف عام بعد هجرانها النهائى، لا تزال الأسوار الطينية لهذه الأطلال الماردة ماثلة، في أماكن، فوق ما يعلو على أربعين قدماً على رمل الصحراء . مع أبو سُمبل ، ينهض ترتيبها بين أشمخ صروح للأعمال المصرية في النوبة أو بأى مكان آخر . بيد أنه بينما أُنقذ أبو سُمبل ، بما يعود بالثناء على اليونسكو والعالم، اختفت القلاع دونما أثر تحت مياه النيل .

المجموعة الأكثر أخذاً للإنطباع والأكثر تركزاً لقلاع الدولة الوسطى ، هى ما يسمى بقلاع الشلال الثانى ، البالغ عددها عشر إنشاءات كبرى (٣٣) . إحتّل مداها على طول النيل مسافةً تزيد على أربعين ميلاً ، من بوهين في الشمال إلى سمنة في الجنوب . كلها عدا واحدةً من القلاع كانت على الضفة الغربية للنهر أو على جُزر يمكن بلوغها من الضفة الغربية . في سمنة وحدها كان هنالك إنشاء على الضفة الشرقية ، مواجه مباشرة لقلعةٍ أكبر بالغرب (للتوزيع الجغرافى لقلاع الشلال الثانى أنظر الشكل رقم ٢٧) .

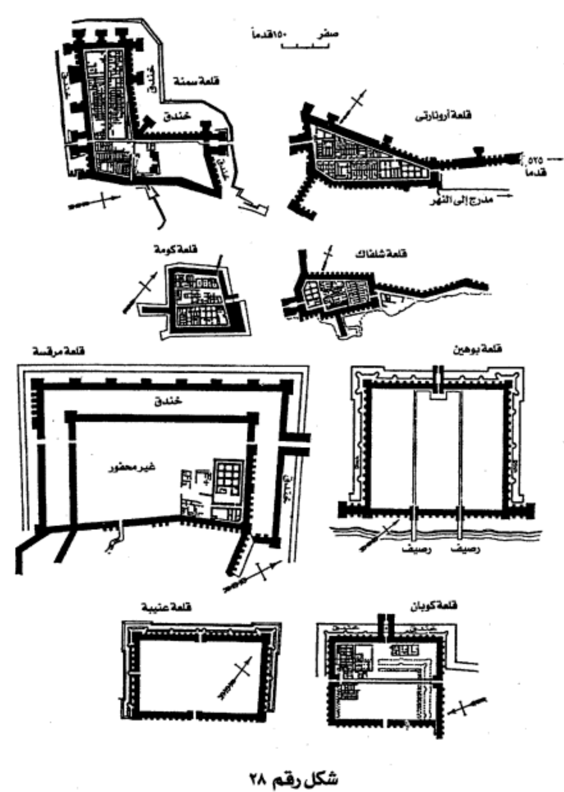
قلاع الشلال الثانى بنيت فيما يظهر على مدى فترةٍ تربو على ما يقرب من المائة عام، في عهود سنوسرت الأول، سنوسرت الثانى، وسنوسرت الثالث (٣٤) . لقد تم تصورها بجلاء على أنها تشكل مركباً مفرداً ، ولعلها كانت تحت إمرّةٍ موحدة (٣٥) . تشابهات الرسم تُوحى أن عُدّة من الحصون صمِمَت عن طريق نفس المهندس المعمارى كأنما شُيدت في وقتٍ واحد (الشكل رقم ٢٨) (٣٦) .

تعطى بردية وُجدت في معبد رمسيس (الرمسيسيوم) بطيبة في ١٨٩٦ م أسماء سبع عشرة قلعة مصرية من الدولة الوسطى في فترتها الأخيرة (٣٧) . من هذه يتضح أن الثمانى الأوائل هى قلاع الشلال الثانى ، وسبعاً منها معّرفة بالاسم تحديداً . أما النعوت التى تعكس الوحشية وتؤكد العداء فيحمل بعضها ـ "دحر السيتاى" (٣٨) ، "إزاحة النبال" ، "دحر الإنو" "تحجيم الأرياف" ، "دحر المدجاى"ـ بصفاءٍ تعكس الرؤية الذاتية لمصر الأسرة الثانية عشرة (٣٩) . جدير بالذكر ، مع ذلك ، أن قلعتىّ أكين وبوهين الشماليتين مُنِحا أسماءاً لأمكنةٍ محلية عادية ، موحية أن هذه كانت ضاحيات مألوفة للمصريين منذ وقت سابق ولذلك ما كانت ثمة حاجة لإعادة تسميتها .



شكل رقم ٢٧

قلاع الشلال الثاني



شكل رقم ٢٨

رسوم تصميمية أولية لقلاع الشلال الثانى

بوهين ، أبعد قلاع الشلال الثاني شمالاً ، أدت في أزمان متأخرة دور الرئاسة الإدارية لكل المجموعة [٤٠] . لقد حُدد موقعها أميالاً عدة أسفل قاعدة الشلال ، وأقل من نصف ميل من المدينة المهجورة طويلاً ، التي كانت أول مستعمرة لمصر على تربة نوبية . الحفريات في بوهين أُجريت في فواتح السنوات الأولى من ١٩٠٠ من بعثة جامعة بنسلفانيا [٤١] ، ثم لما يقارب العشر سنوات في الخمسينيات والستينيات من لدن جمعية بريطانيا العظمى لإكتشاف مصر [٤٢] . إنها للمدى البعيد أكمل ما شمل التنقيب من مواقع للقلاع و (إلى الآن) أتمها تقريراً، ويمكن أن تخدم في توضيح ملامح المجموعة ككل . في كلمات المنقّب :

إنها تشتمل على سلسلة موسعة من التحصينات بُنيت على مُخَطط مستطيل، ١٧٢ في ١٦٠ متراً (٥٦٠ × ٥٢٥ قدماً بالتقريب) ، يحيط مدينةً تحتوى إقامات سكنية ، وثكنات، ومحلات للعمل، ومعبداً، وقصراً للحاكم . تنقيب هذا الصرح العظيم أُكمل وكشف عن نموذج مطروح بعناية لتخطيط مدينة مستطيلة لها طرق شريانية ممهدة لكل واحد منها نظام تصريفه المستقبل. على الجانب النهرى للقلعة ، تقود بوابتان ضخمتان بالأسوار إلى أرصفة الحجر مباشرةً ومنها تُعبأ السفن بالجزية ومنتجات التجارة من النوبة المقهورة . محتويات القبور التى اكتُشفت خارج المدينة ، وحالة المساكن بينها ، تعطى بيّنة كافية على مستوى معيشي مُترف الثراء على صعيد واحد في هذا المربط الأمامى لمصر الاستعمارية .

النظام الدفاعى المتسق الذى يحيط بهذه المدينة الصغيرة مكّون من سور طُوبى ضخم، سُمكه ٤.٨ متراً (١١ قدماً) وارتفاعه ١١ متراً (٣٦ قدماً)، تتخلله على بونٍ في واجهته الخارجية الأبراج المستطيلة المطلة المعتادة . في قاعدة السور متراس ممهد مع فتح للنار ، يحميه سورٌ منخفض ذو فتحات يتدلى من فوق خندقٍ جاف حوالى ٩ أمتار (٣٠ قدماً) عرضاً و٧ أمتار [٢٣ قدماً] عمقاً . على الجانب الآخر يعتلى جدار الخندق الخارجى عبر طريق ينسدل ضيقاً وهو مشغول بالطوب ، ينهض وراءه مُنحَدر من المستوى الطبيعى . تطل على الخندق من جانبه الداخلى أبراج مستديرة بنظام من الفتحات الثلاثية لها طاق مفردة ، يستطيع النّبالة من خلالها أن يسددوا نيراناً متقطعة تغطى بصورة مكتملة كل الخندق (أنظر الصورة ٧ ـ أ) . أما أقوى جزء محصن من البناء فهو البوابة العظمى المشيدة في مركز السور الغربى الذى يواجه الصحراء ومنها تنطلق دروب التجارة الطويلة المؤدية إلى المناجم والمقالع . كانت البوابة مُغلقة بأبوابٍ مزدوجة، من خلفها جسر خشبى متحرك يمكن جذبه إلى الوراء على بكرات . البوابة والجسر كانا متخاصرين بحائطين ناتئين يمتدان من فوق الخندق الجاف ، يشكلان مِعْبَراً ضيقاً ينبغى على أى قوة مهاجمة أن تشق لعبوره طريقها متعرضةً لوابلٍ من القذائف من راجمات الجوانب الثلاثة . وبنفس القدر، إذا ما انطلقت الفرقة المهاجمة كاسرةً للبوابة ، فإن الصعوبات سوف لا تنتهى، إذ أنها ستجد نفسها في مربع مسدود بمخارج لا تفضى إلى الولوج للمدينة . إلا من خلال دروب ضيقةٍ تقع مباشرة تحت الحيطان لأسوار التحصين، وبذا يقعون تحت وابل نيران المدافعين مرةً أخرى [٤٣] .

تهز بوهين الخيال لا لحجمها ٣٠٠٠٠ مها فحسب إنما لتعقد دفاعاتها . أبراجاً ، منافذ ، خندقاً، جسراً متحركاً، منحدراً مُحَصناً ـ كل العناصر المأثورة بالفعل لتحصينات القرون الوسطى حاضرة في هذا الصرح الذى بُنى منذ ٣٠٠٠ عام ماضية في الصحراء النوبية . لدرجةٍ أعظم أو أقل، إستوعب نفس الجوانب في معظم القلاع الأخرى بالدولة الوسطى [٤٤] .

أميالاً عشراً إلى جنوب بوهين، تحرس قلعة مرقسة [٤٥] الأكبر الطرف الأعلى من الشلال الثانى بقدر متساو [٤٦] . مُواجهةً لها بقطع القناة الرئيسة للنيل تبرز قلعة الجزيرة دابينارتى ، التى تبدو كأنما لم تكْتمل أو تُحتّل أبداً [٤٧] . ثانيةً إلى الجنوب البعيد تطل المعاقل المعزلة لأسكوت [٤٨] وشلفاك [٤٩] ، وكلاهما بُنى على قمم صخرية عالية فوق النهر . أخيراً، كان الطرف الجنوبى من السلسلة موسوماً بجمع من أربعة قلاع منفصلة (سمنة، كومة [٥٠]، سمنة جنوب [٥١]، وأورونارتى [٥٢]) تحيط بشلال سمنة ـ أكثر ممر مزموم على طول مجرى النيل بأجمعه (الصورة ٦). لقد كان في هذه النقطة التى يسهل التحكم عليها ، فيما هو ظاهر، أن المصريين اختاروا أن يقيموا حدود سيادتهم في الدولة الوسطى .

شُيِّدت خمس قلاع إضافية عى الأقل إلى شمال مجموعة الشلال الثانى، بين النوبة السفلى (الشكل رقم ٢٦) (٥٣). وهى كذلك تبدو راجعةً في تاريخها مبدئياً إلى عهد سنوسرت الأول. إنها لم تشكل تجمعاً وثيقاً مثل قلاع الشلال الثانى، كلنها كانت متناثرةً بشكلٍ عريض؛ معظمها كانما جُعل موقعه قريباً من المساحات الرئيسة لإقامة الوطنيين . كل القلاع الشمالية كان لها رسم مستطيل رتيب، والدفاعات الخارجية متماثلة في الخطة لقلاع بوهين . التدابير الداخلية، عدا كوبان (٥٤)، كانت من الخراب بما لا يتيح معالجتها بأى تفصيل .

معظم القلاع المصرية تعرّضت لتجديدٍ مُوّسع خلال كل من الدولتين الوسطى والقديمة، حتى إن الملامح الداخلية التى وجدها المنقبون لم تعكس بالضرورة الخطة الأصلية . القلعتان اللتان بيّنا أقل دليل على التبديل كانت شلفاك وأورونارتى . وفى بوهين، رغماً عن أن المبانى لها تاريخ طويل ومعقد، تدقيقاً، عانى المنّقب معاناةً خاصة في إعداد الرسم الأصلى ومفاضلته بتعديلات لاحقة (٥٥). يبدو من هذه التحريات أن كل قلاع الدولة الوسطى كانت في الأصل مقّسمةً إلى "أرباع"، تحتوى حجرات تخزين ومشاغل، وأحياء سكنية وثكنات، ومرابع للضباط. كل قلعة كانت هكذا تجمعاً مضموماً في ذاته . أما أعظم إنتظام متناسب فكان بادى الدمج في التصميم الأصلى للقلاع : شوارع ومصارف مستقيمة بإتقانٍ ومقننة المسافة، وحجرات موحدة في الحجم والرسم. في سنوات قادمة، كما الحالة في مرات كثيرةً، أُجريت مفارقاتٍ عن "الخطة النموذجية" الأصلية تحقيقاً لدواعى الراحة والدُعة.

حفريات تمت منذ فترة بسيطة بقلعة مرقسة كشفت ، من بين تفاصيل كثيرة أخرى ، الترسانة التى كانت تُصنع بها الأسلحة وتُخّزن . هنا وُجدت "قوالب" حَجرية كانت تُشَدُّ عليها دروع جلدية دبغاً وتشكيلاً، وعدد من مقابض خشبية متقاطعة مكتملة الصنع للدروع، وكميات من خام الخشب والجلود المدبوغة لصنع دروع إضافية . أكثر من خمسة وسبعين رمحاً ومزراقاً أُسندت بعناية حول حيطان الحجرة؛ الأعمدة الخَشبية، تحلّلت منذ زمان طويل، غير أن الرؤوس على حالها غير ممسوسة. ما صُنعت من المعدن، حتى في هذا التاريخ المتأخر من العصر البرونزى، إنما من حَجر صوانٍ مقطو . النوعية الممتازة من الأشغال الحجرية تستدعى ذكراً لأفضل قِطعٍ من الصوان بمصر ما قبل الأُسرات. حجرة مجاورة أخرجت عدداً كبيراً للغاية من رؤوس لسهام حَجرية على شكل هلالى (٥٦). بشكلٍ بائنٍ، ما كان مُعتبراً كضرورةٍ في هذا الزمن أن تُمّون الحامياتُ الإستعمارية بآخر صيحةٍ في عَالَم الأسلحة .

إننا نعلم من حيث المقارنة قليلاً عن التنظيم العسكرى لحاميات التخوم. يعتقد امرى أن تركيبها في أزمان الدولة الوسطى كانما كان مصرياً خالصاً (٥٧)، وعلى ذلك الأساس، أعطانا صورةً قائمة بتوسعٍ على معرفتنا بتنظيم الجيش في مصر :

بينما كان الجُندى الخاص يُدعَى ببساطة «عضواً بالجيش» ، كانت هناك تشكيلة من ألقاب الرتب لصفوف الضباط، مثل «لواء»، «قائد قوات الصدمة» ، «قائد المجندين»، أو «معلم المحتجزين» . كان هنالك أيضاً « كاتب الجيش » الذى أدى وظيفته في مصلحة ضابط التموين ، و «كاتم أسرار الملك في الجيش» ـ الذى يشير بتأكيدٍ إلى وجود سلكٍ للإستخبارات ملحقاً بقيادة الوحدات الكبرى .

جيش الدولة الوسطى تَكّون بشكلٍ مطلق من مشاة يضمون تشكيلاً من النّبالة ، وقاذفى المقاليع ، والرّماحة وحَمَلة الفؤوس، الذين يلبسون لباساً خفيفاً، لطبيعة تدريع الجسم دفاعياً كما نعلمه نحن . يلبس الجندى قماشاً من الكتّان وأحياناً أربطةً منسوجة فوق الاكتاف قاطعةً للصدر ، لتعطى بعض الحماية من قطعات السيف ، لكنه اعتمد غالباً في الدفاع عن الجسم على دروع من جلد الجاموس المدبوغ تبدو متفاوتةً في الحجم طبقاً لما إذا كان صاحبها مُنتَمياً لمشاةٍ ثقيلة أو خفيفة (٥٨).

يعتقد آخرون أن الحاميات النوبية منذ البداية شملت أعداداً مهمة من المجندين الوطنيين، وأن الإعداد والتنظيم العسكرى ما كان بالضرورة نفس ما شملته مصر المعاصرة (٥٩) . إن حجم الحاميات في أكبر القلاع جرى تقديره من ٣٠٠ (٦٠) إلى ٣٠٠٠ (٦١) فرد؛ وفي ظل أحوال عادية من الإحتلال يبدو الرقم المنخفض أكثر واقعيةً بإعتبار (٦٢).

مجموعة قلاع الشلال الثانى، من بوهين إلى سمنة، كان قطعاً تحت إمرةٍ مُوّحدة في زمن الدولة الجديدة (٦٣)، لكن هذه مُثبّتة بصفاء أقل في الدولة الوسطى . كان هنالك ، مع ذلك ، نظام لإتصال بصرى بين القلاع الرئيسة في المجموعة . من أورونارتى، القيادة العامة للتجمع الأبعد جنوباً (٦٤)، كان من الممكن أن تُرى بإتجاه مصعد النهر إلى سمنة وكومة ونحو مجرى النهر نزولاً إلى شلفاك. أسفل شلفاك، حيث المسافة بين القلاع أعظم، أُنشئت نقاط للمراقبة والإشارات على بعض المرتفعات شديدة الإنحدار غرب النهر . خمسة من مثل هذه المحطات إكتُشفت في مسوح الستينيات الأثّرية (٦٥) في كل مكان أكواخ حَجرية خشنة تحتوى فَخاراً مصرياً خالصاً، إقامات مؤقتة للحرس بوضوح. نقطة مراقبةٍ واحدة جنوب مرقسة حمّلت كذلك آثاراً لمصطبةٍ دائرية من الطوب، ربما قُصد منها بناء نيران الإشارة .

أفضل نقاط المراقبة حفظاً تجثم على صخرة أبوسر، ضاحية اشتهرت في أزمان قريبة بالمنظر الرائع لرؤية شمولية من أعلى الشلال الثانى بكامل طوله . إن النيران التى أُشعلت هنا يمكن أن تُشاهد في بوهين شمالاً ومرقسة جنوباً . أعداد كبيرة للغاية من الأكواخ وُعدة كتابات وُجدت بأسفل قمة الصخرة تماماً، حوالى ٢٠٠ قدماً فوق ضفة النهر مباشرة . وتحتها خُططت قاعدة القمة الصخرية بما يزيد على ٣٠٠ نحتٍ إضافى يُحىٍّ ذكرى مرور تجار ، وأصحاب قوارب ومسؤولين في الدولة الوسطى (٦٦) .

الأهميـة السياسـية للقـلاع

يكتب امرى أن "إكتشاف التحصينات المعّقدة والموّسعة في بوهين يُبّين أن الفاتحين المصريين في الأسرة الثانية عشر كانوا يمسكون بزمام إقليمهم الذى اكتسبوه حديثاً في مواجهة عدو حسن التنظيم ما كان بأسه العسكري مُتَجاهلا بأى حال من الأحوال " (٦٧) . حقيقةً، تتضمن أسماء الحصون عُدة أعداء كامنين : السيتاى، " النبالة "، الاتو، "الأرياف"، والمدجاى . بعض هؤلاء لم يَكُنْ - بوضوح - أقواماً نهرية، وليس منهم بالضرورة من تُعرف هويته بين نوبيِّى ثقافة المجموعة الثالثة . وكما شاهدنا من قبل (الفصل السادس)، لا يبدو أن النوبيين في النوبة السفلى شكّلوا تهديداً لأى من الأمن أو المصالح الخارجية لمصر في أى زمن كان .

ما من شئ في المدّون الباقى على قيد الحياة للعلاقات المصرية - النوبية يبدو على قدر كامل من الكفاية ليعللّ قلاع الشلال الثانى. لم يُقصد منها ببساطة أن تسترهب أهل النوبة السفلى وتُبقُ عليهم في خُضوع (٦٨)، فالعدد الأكبر منها بُنى في أكثر الأجزاء نأياً وجفاءً، بعيداً عن مراكز السكان في ثقافة المجموعة الثالثة . ولا يحقق الخضوع بالتوسع في تدابير دفاعية على أى حال، إنها في التحليل الختامي علامة ضعفٍ أكثر منها قوة . لربما تبعث على الإحترام، لكنها لا تُشعل الرَهبة . أزماناً أدنى قرباً ضُمت عَدَن لأطول من قرن، وجبل طَارق لأكثر من قرنين، تحدياً لجُيرة معادية، لكنْ الإثنين أخفقا بدرجةٍ ملحوظة في إرهاب المناطق المحيطة. وفى النوبة القديمة، ربما أن اقتحاماتٍ للسلب من أسوان حُققت من وقتٍ لآخر بدرجةٍ أكبر لإخضاع السكان الوطنيين بأقوى مما أحدثته كل التحصينات العاتية للدولة الوسطى.

كذلك ليس من الممكن إعتبار قلاع الشلال الثانى ببساطةٍ أبعد مرابط دفاعية خارجية لمصر.

إنه لحقٌ أن فراعنة الأسرة الثانية عشرة طرحوا ادعاءاً على النوبة السفلى، لكن غرضهم ما كان قطعاً أن يَحموا بهذا الإدعاء أياً من مصر أو النوبة نفسها من هجوم يُقبل من الجنوب . كرأى سليم ما كانت الحصون دفاعات إقليميةً أبداً، ذلك أنها تحتضن ضَفّة النيل وبالإمكان أن يُجتاح جانبها من أى غزاةٍ أولى عزم. مع ذلك، لا يوجد دليلٌ بأى مكان على أى محاولةٍ من المصريين لجوب أو حماية أجنابهم الصحراوية [٦٩].

قلاع الشلال الثانى تُدرك وظائفها من زاوية علاقاتها بالنيل وحسب، وبتحديدٍ أكبر بشلالات النيل. كلها تقع في أو بالقرب من جنادل *بطن الحجر* الكبرى : أماكن يتوجب أن تُنقل عبرها الشحنات النهرية من مراكب أكبر إلى قوارب أصغر ، أو ربما تفرغ حولتها إلى ظهور حمير للنقل البرى ، في حين تُسحب المراكب نفسها بجهدٍ جهيد خلال أو حول الجنادل. من هذه الظروف يبدو منطقياً أن يُستدل على أن الحصون صُمِمت بصفةٍ رئيسة لتقدم العون للتجارة النهرية ، وفى نفس الوقت لتحميها في تلك النقاط حيث كانت أقوى ما تكون عُرضةً للهجوم عليها من الضفة [٧٠] . إنها، باختصار، جبال طارق، العَدنيات، وقنالات السويس لتجارة النيل. لربما أن الحاميات جُنّدت للخدمة العسكرية، لكن أهم أنشطتها اليومية كانت فيما هو محتمل شحن وتفريغ حمولات السفن.

ويستحق الذكر أنه كان هناك ميناء حَسَن الإعداد وتسهيلات لإيداع السلع بكلٍ من مرقسة ٧) وبوهين [٧٢]، موضوعة بالترتيب في مقدمة ومؤخرة السلسلة الرئيسة للجنادل التى تكوّن الشلال الثانى . هذه التسهيلات كانت تُقام في كل حالةٍ على مسافةٍ ذات اعتبار من الطوق الرئيس المحّصن ، وكانت هى نفسها ثقيلة التحصين، إلا أنها تبدو كأنما كانت مراكز كبرى للنشاط المصرى إبّان الدولة الوسطى. إفتراضياً أتاحت الإحاطات التحصينية العظيمة ملاذاً وحمايةً موسمية للقوات العاملة، عندما تَبذل نشاطها اليومى الرئيس على ظهور السفن .

يُجّسم إكتشاف تم مؤخراً في مرقسة بشكلٍ أكثر وضوحاً الوظيفة الأولية لقلاع الشلال الثانى. مباشرةً على مجرى النهر من مرقسة يقع جندول كابوكا، الأعسر من بين ما يزيد على ٢٠٠ جندول تُشكل الشلال الثانى، ومكاناً فقدت فيه قواربٌ عديدة على مدار القرن الماضى . هنا، على الصحراء الرملية المنبسطة غرب النيل، وجدت البعثة الآثارية الفرنسية بمرقسة بقايا طريق منحدر خَطُه الطين عرضه ياردتان وطوله ميلاً ونصف ، كانت تُسحب المراكب عليه حول أسوأ الجنادل (الصورة ٧ - ب). كان يبقى على الطين بشكلٍ سافرٍ بينما عمليات السحب تتقدم، ذلك أن بصمات أقدام عارية إلى جانب علاماتٍ لقواعد أحد المراكب كانت مرئيةً بصفاءٍ على طول الأثر . ويُعتَقد الآن أن هذا كان أسلوباً شائعاً إستعمله المصريون لنقل تماثيل كبيرة وكتل بنائية، بالرغم من أن إستخدامها كوسيلةٍ لعمليات تموين السفن لم يُسّجل من قبل [٧٣] .

رؤيةٌ إضافية ثاقبة لطبيعة المصالح المصرية في منطقة الشلال الثانى توفرها مسلة "الحدود" التى نُصبت في سمنة بإسم سنوسرت الثالث . مترجمةً تُقرأ :

الحدود الجنوبية، مقامةً في سنة ٨، في ظل جلالة ملك مصر العليا والسفلى، خاكعرع سنوسرت الثالث الذى منح الحياة إلى أبد الآباد ؛ لكيما يمنع أى زنجى أن يعبرها، عبر النهر أو بالبر، بسفينةٍ أو أى جموع من الزنوج ؛ فيما عدا زنجى يكون عليه أن يأتى ليتاجر في أيكن (مرقسة)، أو مبعوثاً . كل شئ طيب يجب أن يُفعل لهم، لكن دونما سماح لسفينة من الزنوج بالمرور بِ هيح [٧٤]، ذهابا بمجرى النهر، إلى الأبد [٧٥] .

الرسالة هنا صافيةٌ في إتقان. ليس هنالك صلصلة للسيف؛ عناء الملك إقتصادى خالص [٧٦]. الحدود تغلق ببساطةٍ إلى الأبد في وجه كل تجارة لسفن أجنبية؛ مالم تكن محدودة السير للشحن الناقل بإتجاه مجرى النهر المباشر لمرقسة شمالاً. هنا، فوق كُل شك، يوجد الجّد المشيّب لكل تلك المراسيم المتعلقة بإحتكار التجارة والتى لعبت دوراً كبيراً في التاريخ الإستعمارى نزولاً لأزمان حديثة . إنها تخدم

مرةً أخرى لتجّسد فتوى جون ستيوارت مل أن التوزيع عملية سياسية ، لا إقتصادية (٧٧).

قلاع الشلال الثاني كانت ، إذَن، الدفاعات ونقاط الجمارك في آن واحد لتجارة النيل. ما كانت وظيفتها أن تحفظ النوبيين تحت السيطرة، إنما كانت بشكلٍ واضح لإبقاء النيل تحت هيمنة مصرية. أن نظائرها لألف عام لاحقة تُرى في القلاع بإمتداد الراين والدانوب، وأخيراً في "الحصون" التى استعادت ظهورها في النوبة في الفترة المتأخرة من العصور الوسطى. (لسوف يتملك سنوسرت العجب بما يتعدى أى قياس لو علم أنه بعد ٣٠٠٠ عام سوف ينشئ ملوك النوبة أنفسهم حاميات في *بطن الحجر* في مواجهة التجارة المصرية، ويعلنون على الملأ إحتكارهم التجارى في كلمات تُذكّر تذكيراً صارخاً بكلماته؛ انظر الفصل الخامس عشر) . تمكين قلاع التخوم المصريين ليراقبوا تحركات السكان الوطنيين تُثبتها كذلك سلسلةٌ من التجريدات من حامية سمنة عُثر عليها في طيبة (٧٨)؛ وعلى أى حال، ليس هنالك سبب لإفتراض أن هذا هو الغرض العِمادى للقلاع أو أنه يوفر أى إيضاح لحجمها المريع .

إذا كنا قد حددنا في صِحّةٍ أهم وظيفة لقلاع الشلال الثانى، فثَّمة لوازم طبيعية هامة عديدة تُتّبع. أولاً : لابد أنه قد وُجد آنفاً في الأسرة الثانية عشر حجم عظيم جداً من التجارة ما بين مصر والأراضى الواقعة جنوب سمنة لأن المصريين كانوا على مثل ذلك العناء المقيم للتحكم فيه وحمايته . ثانياً : إن بعض سكان الصحراء أو النوبيين في النوبة العليا لابد أنهم قاموا بإنماء عادةٍ للنهب والسلب على "القوافل" النهرية ـ مؤشراً آخر محتملاً على حجمها وثروتها . ثالثاً : وضع "حدود" المصريين في سمنة ، والجهد المبذول لإنقاذ إحتكار التجارة فيما يقع شمال هذه المنطقة فحسب ، يتضمن ما يعنى أن الأصول الجنوبية لتجارة النيل لم تكن تحت إدارة مصرية مباشرة. أخيراً ، إن غياب قلاع مصرية بالشلالات ما وراء سمنة (إعترافاً بأنها ليست على خطورة مثل الشلالات البعيدة صوب مجرى النهر) تطرح إمكانية أن النيل فيما وراء سمنة جنوبا كان في قبضة قومٍ أخرى. فإذا صح ذلك، كانت هذه تجارة دولية صميمة .

ماذا كانت طبيعة ومصدر هذه التجارة المنتعشة، التى لعبت دوراً بمثل هذا الإتساع في تشكيل سياسة مصر الخارجية إبّان الدولة الوسطى؟ أمعن تريقر النظر حين قال "بما أن المنطقة بين كرمة وسمنة يكتنفها الخطر وهنالك قبائل جَوالة وراء النهب في الصحراء الشرقية ، فإنه مما لا يقف دليل عليه أن هذه الحركة النهرية تكّونت من أفراد يجلبون للشمال من مناسبة لأخرى منتجات ليتاجروا مع المصريين. إن الأكثر قبولاً أنها تألفت من أسطولٍ منتظم يبتعثه ملك كوش، الذى ربما كان وريثاً لحاكم يام وهو مَنْ تاجر معه حرقوف" (٧٩).

فى زمنٍ سحيق كالدولة القديمة، ذكرنا أن إهتمام الفرعون إنعطف من قبل من الأراضى غير المنتجة بإمتداد تخومه المباشرة إلى المراعى الخضراء بأعالى النهر البعيدة . إن الهدف العمادى لكلٍ من أربع البعثات الكبرى لحرقوف لم يكن المناطق المألوفة إرتيتٍ و واوات لكنها أرض يام الأكثر نأياً ورخاء . إنه لمما يدعو للريبة أن هذه الصلة الرابحة كانت مصونة خلال السنوات المضطرية للمرحلة الإنتقالية الأولى، بيد أن إستعادتها تبدو كأنها كانت المرمى الرئيس لفراعنة الدولة الوسطى الذن فتحوا النوبة السفلى وأقاموا فيها الحاميات .

اسم يام لم يُسمع عنه أبداً عقب الدولة القديمة ، وموضعها المحدد ربما لا يُعرف أبداً. إنها ربما كانت تقع أو إنها لا تقع إلى جنوب الشلال الثانى (٨٠) . من الجانب الآخر يمكن تقريباً أن يقطَع بأن المصدر الرئيس لتجارة مصر الخارجية في الدولة الوسطى يُحّدد في موقع كرمة ، ليس بعيداً عن الشلال الثالث . هنا في أزمان لاحقة كان مقعد أهم زعيم أوتقراطى حكم على الإطلاق في النوبة ما بعد الفرعونية ، وهنا ايضاً بقايا مركز لتجارة مصرية (٨١) . كرمة، إذَن، هى القطعة المفقودة في لغزنا : المفتاح لسياسة مصر الإستعمارية في الدولة الوسطى . أما مكان كرمة في التاريخ النوبى

فسوف يُعالج بطوله في الفصل القادم .

كان إخضاع النوبة السفلى لسيطرة الأسرة الثانية عشرة، بالتالى جارى الحدوث في آن واحد بكل الإحتمالات لتأمين الشلالات وطريق التجارة الجنوبية . لقد كان واحداً من تلك الحالات العديدة لإحتلال عسكرى مرسوم بالقدر الأكبر لا لإستغلال إقليم تم فتحه إنما لتوفير عازلٍ في مواجهة أقوام أشد مراساً من ورائه : ربما، في هذه الحالة - النوبيين في النوبة العليا أو بدو الصحراء [٨٢]. على غرار ما شاهدنا من قبل، يبدو العبء المصرى كأنما أُلقى على رقاب النوبيين القرويين الذين عاشوا بين الإقليم المحتل عبئاً خفيفاً، إن كانت بقاياهم الأثرية وسيلةً دقيقة للقياس [٨٣]. بغض النظر عن ذلك، فإن بعض القلاع التى بنيت إلى الشمال من بوهين، والتى لا ترتبط بشكلٍ واضح بجنادل أو عوائق طبيعية ، لا يمكن إلا أن تكون مقصودةً لإخضاع وإدارة الوطنيين. وهذا حَرِّى بالتصديق ببالغ الدقة بالنسبة لقلعة عنيبة، الواقعة في منتصف سهل عريض وخصيب مبقع في كثافة ببقايا « المجموعة الثالثة» [٨٤]. كوبان، حصن آخر تربع على مدخل وادى العلاقى، ربما كان في الأصل متعمداً كنقطةٍ لتموين الحركة وإدارتها على امتداد درب الصحراء الذى قاد إلى بعضٍ من أغنى مناجم مصر ومحاجرها (أنظر بأدناه)، لكنه يمكن أن يكون إلى جانب ذلك قد خدم كمركز إدارى محلى [٨٥] . قلاع النوبة السفلى في فرس [٨٦] وسرّة [٨٧] أصعب في التعليل؛ إنها بعيدة بالمثل عن الشلالات ، وعن مسالك التجارة البرية ، وعن مراكز معروفة للسكان النوبيين [٨٨]. إننا لا نعلم، وربما لن نعلم أبداً، أية إعتبارات عَجّلت بالإحتلال والتحصينات المصرية لهذه الأماكن .

بينما يمكننا على أسس متنوعة، أن نفسر المواقع لكل قلاع الدولة الوسطى عدا قلةً منها، ما من شئ قيل حتى الآن يبدو كافياً ليفسر حجمها وتعقيدها الجسيمين. لسنا مُلمين في أى مكانٍ بالمسرح النوبى « برجالٍ يضاهون هذه الجبال». إنه لشئ مذكور أنه في أزمانٍ قادمة، عندما كانت مصر مهددةً تهديداً حقيقياً من قِبَل أعداء أكثر قوةً بكثير في كلٍ من الشمال والجنوب، ما كانت التدابير الدفاعية التى تبنيها مقارنة ولو من طرف ناءٍ بقلاع الدولة الوسطى .

إن أى محاولة لتعليل وجود القلاع على أرضية الإنتفاع الحَربى وحسب [٨٩] يبدو محاولةً بلا طائل كمثل تعليل الأهرامات بحاجةٍ ما للتصرف في الأموات. كلاهما نموذجٌ للمغالاة المادية التى هى صفةٌ للحضارة المصرية . حالما اتُخِذ القرار لبنائها ، تسترسل البقية وراءه بدفع من العادة . على المدى الطويل ، ربما يصير حجم الحصون أقل عكساً لإرادة الفرعون منه راجعًاً إلى عجزه عن تحجيم طموح مهندسه المعمارى - مراساً غير غريبٍ على ملوك يرعون .

النهج المتصلب لتصميمها، إلى جانب تاريخ تمجيدها الطويل، يجعل واضحاً أن القلاع لابد أن تُعَد في المقام الأول صروحاً. التناسب الشكلى للبروج والمنافذ يحمل مقارنات للتجميل الخارجى لمعبدٍ أوكاتدرائية، أرجح منه تحدياً عسكرياً معروفاً عن تلك الأزمان . إن القلاع هى الصيغة المختارة للتعبير الذاتى عن الحضارة العسكرية للدولة الوسطى في مصر، مثل الأهرامات للدولة القديمة ، والكرنك للدولة الجديدة . أما أنها شُيدت في النوبة وليس بمصر فحَدَث ظرفى لا يؤثر على وظيفتها الرمزية الأساسية . لقد "أظهرت العَلَم" للنوبيين، لكنها كذلك، وربما بقدر أكثر أهمية، بينته لفرعون نفسه، وللذرية . (ربما نذكر بين قوسين أن كلاً من رمسيس الثانى في الدولة الجديدة وجمال عبد الناصر في الأزمان الحديثة تَبِعاً مثال الدولة الوسطى في تشييد أعلى صروحهما جنوب أسوان) .

لا يمكن للقيمة الكاملة للقلاع أن تُدرك إلا بالنسبة لأزمانها. لم تكن الدولة الوسطى عصراً للإنتعاش الخلاق لنفس المدة التى كانت عليها الدولة القديمة والدولة الجديدة؛ لقد كانت فترة إستقرار عبر ميسور يتبع قروناً من الفوضى . كان مضمون الأزمان يَقِظاً، حَذِراً، وسُلطوياً، وشعارها القانون والنظام [٩٠]. القلاع العظيمة كانت التجسيد الطبيعي لتلك الأفكار .

المناجم والمحاجر في الدولة الوسطى

بالرغم من أنها لم تكن البؤرة الرئيسة لتنبه مصر في الدولة الوسطى، ما كانت النوبة السفلى بلا موارد إنتاجية إجمالاً. فرضاً يمكن جَبى حجم معين من ضريبةٍ أو جزية من المقيمين الأصليين، وربما يمكنهم أن يجُندوا للعمل في المناجم والمقالع المصرية. مناجم الدايوريت غرب توشكى تبدو كأنما أُعيد فتحها في مستهل حكم الأسرة الثانية عشرة . وكأنما أُجرى تشغيلها بتقطع حتى نهاية الدولة الوسطى (٩١). صُخور الجمشت عُدِّنت كذلك في نفس المنطقة العامة (٩٢). يدوِّن مكتوب من زمن أمنمحت الثانى إن فرقة عملٍ متجهة لمحاجر الصحراء تكونت من ٢٠ "مسؤولاً ديوانياً"، ٥٠ صائغاً، ٢٠٠ من قاطعى الحَجر، ١٠٠٦ عاملاً، ١٠٠٠ بغلٍ للتعبئة، وعددٍ غير محدودٍ من الحراس(٩٣).

صهر النحاس في بوهين لم يُستأنف في الدولة الوسطى، لكن منجماً بأبو سيال، في الصحراء شرق قلعة كوبان يُعتقد أن تاريخه يعود لهذا الزمن . يسجل مفتشٌ من عهد سنوسرت الأول أن مسؤولاً معيناً اسمه حورس كان مأموراً من الملك ليجمع «نحاساً من أرض النوبة» (٩٤). وُجد كومٌ كبير من الجُفاء بـ كوبان نفسها يمثل خاماً من منجم أبو سيال؛ مع ذلك، فإن بقايا الأفران وأكوام الخبث تبّين أن قدراً طيباً من الصَهْر كان يجرى مباشرةً في المنجم (٩٦) .

إنتاج الذهب النوبي تنامى أساساً تحت ظل الدولة الجديدة ، لكن هنالك بضع إقتراحات على اقل تقدير بأنه سابق التأصل. بين المئات من نحوت المعدِّنين والمستكشفين التي عُثر عليها في مقاطعات تعدين الذهب النوبى (قارن الفصل التاسع)، ثلاثة لا غير يمكن نسبتها، نوعاً ما يتردد ، إلى الدولة الوسطى (٩٧). كيفما اقتضى الحال، تُقرر لوحة للدولة الوسطى من إدفو أن صاحبها "عاد بذهبٍ وخادمات من جنوب كوش" (٩٨). لربما أن الأكثر إقناعاً من هذه البّينة المباشرة عن نشاط تعدينَ الذهب البيّنة غير المباشرة الممثلة في قلعة كوبان العظيمة، التى أقيمت بصفةٍ أولية فيما يكاد يقينا لتحكم مسار الحركة بإمتداد وادى العلاقى ـ مسيل الماء الصحراوى الذى أدى إلى أغنى حقل ذهب في النوبة (٩٩). ميزانٌ متناهى الصغر من النوع الذى استعمل تقليدياً في مصر لوزن الذهب وُجد في قلعة سمنة، فيما يظهر طابعاً للدولة الوسطى (١٠٠). قد يوحى حضوره أن المصريين في سمنة كانوا يشترون الذهب في كميات صغيرة من ممولين وطنيين، ربما استحصلوه من النتوءات القائمة بدويشات، أميالاً قليلة بمصعد النهر. كان هذا مركزاً رئيساً آخر لإنتاج الذهب في الدولة الجديدة (١٠١)، لكن النشاط هنا أيضاً غير مشهود عليه بصفاءٍ في أزمان سابقة. في كل الأحوال، يبدو واضحاً أن حجم إنتاج المعادن ما كان بوسعه أن يتيح التسويغ الأكبر لإحتلال مصر للنوبة السفلى خلال الدولة الوسطى إلا بصعوبة .

الاطاحــة بالقــلاع

بلغ الحكم الموّحد في مصر نهايته في الأسرة الثالثة عشرة؛ خلال المرحلة الوسيطة الثانية (الأُسرات الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة) تقّسم القطر مرةً ثانية بين شرائح متحاربة. بقيت الأُسرات الباهتة الثامنة والرابعة عشرة معاً لما يزيد علي قرنٍ بقليل. في هذه الأثناء ولج دُخلاء من آسيا (الهكسوس) منطقة الدلتا وانشأوا مملكةً لهم. حكموا كفراعنةِ الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة. حفظ الحكم المصرى شبه المستقل مكانته في طيبة بالجنوب، لكن الأُسرات الطّيبية كانت ملزمة بدفع جزية لجارتها الأقوى والسماح لتجارة الهكسوس بالمرور عبر إقليمها.

وبينما كانت مصر مجزأةً بهذا الشكل، تضاعفت قوة النوبة وثروتها قُدماً بخطىً سريعة. بحلول ١٧٠٠ ق. م. كانت هنالك ثلاث قُوى كُبرى على النيل في مكان القوة الواحدة السابقة ، مُعَجلةً بتذمر الحاكم الطيبى : "يوجد زعيم في أفاريس [بالدلتا] وآخر في كوش : أجلس أنا مُتّحداً مع أسيوى ونوبى، كل رجل يمتلك شريحته من مصر هذى" (١٠٢). ميزاناً للقوة غير ذى يسر أبقى عليه حلف بين

الملكين النوبى والهكسوس، يستدعى ذاكرة التحالف التاريخى بين فرنسا وإسكتلندة ضد إنجلترا . أقيمت علاقات إقتصادية وسياسية إضافةً لذلك بين كرمة والهكسوس (١٠٣)؛ واضح أن السيطرة على التجارة النوبية الرابحة إنتقلت من أيدى فراعنة طيبة إلى حوية غُرمائهم الشماليين .

ما الذى حدث للمخاطر الإستعمارية المصرية في النوبة السفلى خلال هذه الأزمان المختلفة؟ يتراءى أنها لم تأت إلى نهايةٍ حالية، إذ أن حاميات توالى صَوْنُها في العديد من القلاع على الأقل خلال العهود الأولى للأسرة الثالثة عشرة . وهناك مراقبة ما ظلت ترابط على تحركات النوبيين، كما هو مُبَيّن في «تجريدات سمنة» التى يعود تأريخها فيما يبدو لباكورة الأسر الثالثة عشرة (١٠٤). بدخول الوقت الذى كان فيه حكم الهكسوس قد أُقيم بحزم في الشمال، أياً كان الأمر، يصبح جازماً أن السيطرة المصرية في النوبة كانت قد أدركت حدها (١٠٥) .

نتيجة إكتشافاته في بوهين، أشاع ي . ب . امرى الفكرة القائلة بأن قلاع الدولة الوسطى "أُطيح بها" و "دمرت بالنار" (١٠٦) . هذه الخلاصة لا ترتكز على أى نصوص معاصرة إنما تتكئ على شاهد أثَرى لحرقٍ وخراب. وكما سبق لى أن كتبت في مكان آخر، مع ذلك، يحتمل أن تكون البَيّنة الآثارية للحرب غامضة: إن معظم المواقع في مجرى الزمن طالها الدمار من قوة إتلافٍ واحدة أو أخرى، وبعد مرور قرون أو ألف عام قلما يصير ممكنا أن يُفَرِّق عمل الإنسان اليدوى عن عمل الطبيعة (١٠٧) .

فى بوهين كان هنالك شاهد لا شك فيه على حدوث الحرق بين مستويات إحتلال الدولتين الوسطى والحديثة، وأبرز ما يكون عليه في ضاحية البوابة الغربية "قصر القائد" ، على أن مطالعة هذا الأثر كشاهد على الصراع المسلح تتطلب تخيلاً مُعتبراً. علامات النار في "قصر الحاكم" غالبيتها في مستوى الأرضية ، ومن غير المحتمل أن تكون ناتجةً ببساطة عن حريق السقف، الذى كان إفتراضياً الجزء الوحيد القابل للإشتعال في البناية. إنها تبدو كأكثر ما يكون عليه الحال وكأنها نار أُشعلت عمداً بين البناية، وهى مالا يمكن إجراؤه إلا بصعوبة إذا ما كانت العداوة في ازدياد. لربما كانت عملاً لإتلاف رمزى، إما أنه نُفذ من قبل المصريين المنسحبين أو من ناحية النوبيين عقب حيازتهم للقلعة المهجورة .

شئ واحد يبدو مستيقناً: ما من هجوم ضد هذه القلاع كان حليفه النجاح في وجه دفاع منظم الإتساق . سواء تُغلب على قوة صغيرة أو أجلاها مهاجمون نوبيون، أعتقدَ أنه يمكن التسليم بإطمئنان على أن كتلة الحاميات كانت قد سُحبت من قبل. فليس متوقعاً أن الفرعون الطيبى، مُحَاطاً به على نحو ما كان عليه في الشمال، كان بوسعه نشر أى عددٍ من الرجال والإمدادات لإحتلال متواصل للنوبة. كذلك يبدو على الأقل في الإمكان إن الإجلاء مضى في سلام، وأن النيران في بوهين وسمنةً (١٠٨) أُوقدت من المصريين المتراجعين أنفسهم ، وإتلاف إمدادات غير قابلةٍ للنقل وبنايات سابقة للجلاء، في نهاية الأمر، إجراءً عسكرى مألوف (١٠٩).

إن الأوضاع التى تَصَادف وجودها في بوهين ومرقسة تشير إلى ثُغرة ذات وزن بين إحتلالَى الدولة الوسطى والدولة الجديدة. لقد كان هناك تدهور في المتاريس، وكذلك تراكمٌ كبير للرمال بينها، بحلول الوقت الذى أُجرى فيه تجديد المبانى في الأسرة الثامنة عشرة . إلا أن القلاع لم يكن ليُتخلى عنها تماماً أثناء المرحلة الوسيطة الثانية. حضور المتسللين النوبيين بحصن دورجينارتى يُستدل عليه بنحوت جواميس على بابٍ وضمادته (١١٠). الإحتلال عن طريق التسلل مقترحٌ بالمثل في أسكوت(١١١). أما الأشد إيحاءاً بقدرٍ مضاعف، رغم غموضه ، فمجموعة من لوحات هيروغليفية وُجدت في بوهين ، يبدو أنها تشير إلى أنه في وقتٍ ما أثناء المرحلة الوسيطة الثانية كان المعتقل المصرى السابق محكوماً من قِبَل عائلة مصرية لصالح حاكم النوبة (ويعنى في الإفتراض كرمة) (١١٢). لوحة سبدهر ، أطول المجموعة ، تقرأ في جزء منها : "كنت قائداً جسوراً لبوهين، ولم يفعل أى قائد أبداً ما فعلته أنا : بنيت معبد حورس ، رب بوهين، لإرضاء حاكم كوش" (١١٣). نُصُبٌ آخر يعطى الملك النوبى اسماً، جاعلاً في بيان أنه بحقٍ حاكم وطنى وليس الفرعون الموصوف بإصطلاح "حاكم كوش" (١١٤) .

بينما حَل ملك كرمةَ فيما يبدو ـ على ذلك النحو ـ محل الفرعون سيداً على النوبة السُفلى خلال الجزء الأخير من المرحلة الوسيطة الثانية، ما كان النفوذ المصرى من ثَّم قد أفضى إلى نهاية . إن حجم السلع التجارية في القبور الأخيرة لثقافة المجموعة الثالثة أعظم منه بأى فترة سابقة، والنفوذ المصرى أوضح الآن بنفس المستوى في ظهور معمارٍ من الطوب النَّئ وفى التمصير المتزايد لعادات الدفن (قارن الفصل السادس) . التبادل الفعال بين مصُر والنوبة لم يرتكز بشكلٍ جَلى ، على الرغم من الإعتبارات المناقضة، على سيطرةٍ مصرية على الشلالات : لقد ازدهر حجمه في ظَل السيطرة النوبية .

ملخص تفسيرى

يعود تاريخ مصلحة مصر الإستعمارية في النوبة إلى زمن في الماضي يقارب تأسيس الدولة الفرعونية. أثناء القرون الأولى، مع ذلك، لا يبدو هنالك مخطط سياسى او إقتصادى مكتمل الظهور نحو البلاد الجنوبية. أنشطة إستغلالية متنوعة بدأت خلال الفترة القديمة والدولة القديمة ، لكنها كانت في أغلبها ذات طبيعةٍ متفرقة وغير منّسقة . أخذ العبيد والسبايا سار بالغارات العسكرية من مناسبةٍ لأخرى، وكان هناك إستكشاف وتنقيبٌ في الصحارى النوبية. بوهين وحدها كانت بها مستعمرة مصرية دائمة غُرست على تربة نوبية، بادياً لصهر خام النحاس المستحصل في مكانٍ ما داخل الصحراء . ما من شئ بمُوحى، أياً كان الأمر، أن مستعمرة بوهين كانت مركزاً إدارياً، أو أنَّ أى جهد منظم بذل في الحقيقة لمد سلُطة الفرعون على سكان النوبة السفلى. الظاهر أن الوطنيين كانوا قلةً شديدة وضعفاً أكيداً في أزمان الدولة القديمة بمــالا يشكل تهديداً للمصريين .

بمجئ الدولة القديمة في مرحلتها المتأخرة ، كان الفرعون قد أصبح على علم مُسبق بأراض أغنى تقع إلى الجنوب من النوبة السُفلى ، ومُذاك الوقت إلى ما تلاه تَّركزت السياسةُ المصرية علىُ إنماء التبادل التجارى مع البلاد الجنوبية . بعثات كبرى إبان العهود الأخيرة للأسرة السادسة عادت ومعها كل أنواع المنتجات الغريبة من أرض يام، التى يحتمل وقوعها في النوبة العليا .

التبادل السلِعى مع الجنوب البعيد ربما اعتُرضت مسيرته أثناء السنوات المضطربة للمرحلة الوسيطة الأولى، لكنه استأنف عمله في بداية الدولة الوسطى . بحلول الأسرة الثانية عشرة بلغت التجارة مع النوبة العليا نِسَباً جعلت منها عُرضةً للنهب الضارى من النوبيين في النوبة العليا أو أقوام الصحراء . ومن أجل أن تُؤَمن درب التجارة الجنوبية ، وكذلك لتؤكد إحتكاراً مصرياً للتجارة ، حَصّنَت فراعنة الأسرة الثانية عشرة أكثر النقاط تعرضاً للنهب في منطقة الشلال الثانى بسلسلةٍ من مرابط عسكرية هائلة ، خدمت في نفس الوقت كمحطات جمركية للتخوم. لقد قُصِد بها أن تُظهر العَلَم مرفوعاً في الأراضى الجنوبية، لكنها كانت ـ مع ذلك ـ بحسٍ أكبر، الصروح المعمارية الكبرى لعصر عسكرى .

ومع بناء القلاع ، تولى الفرعون إدارةً سياسةٍ صريحة للنوبة السُفلى. كانت هذه عملية إستيلاء خُططت بالدرجة الأولى لتحمى المصالح التجارية المصرية ، ما كان لها سوى أثر مرئى قليل على حياة الفلاحين النهريين في ثقافة المجموعة الثالثة . كيفما اقتضى الحال، إستأنفت إستخراج المعادن وتعدين النحاس على نطاق صغير، وأعملت جبايات الوطنيين دون شك .

دُمرت وَحْدَة الدولة المصرية مرةً ثانية خلال الأسرة الثامنة، وكان الحاكم المحلى في طيبة ضعيفاً للغاية ومستغرَقاً للغاية في داره دون تمكين لقبضته على النوبة . أما آخر الحاميات الجنوبية فسُحبت أو أُجليت من عامة الوطنيين، ثم سقطت القلاع في حالةٍ من التصدع الجزئى. على أنه بصرف النظر عما ذُكر آنفاً، والت التجارة إزدهارها، بشكلٍ بيُن تحت حماية الملك النوبى في كرمة، وظل ذلك الإزدهار قائماً ردحاً طويلاً من بعد رحيل الحاميات المصرية .

الجـزء الثانـى

الأُسرات والإمبراطوريات

الفصل الثامن

الإنتقال للإمبراطورية
مملكة كرمة النوبية

أيام تجارة القوافل المروية، كانت ثروة وسلطة الممالك في غرب إفريقيا أسطورية. ولكن عندما بدأت مراكب التجارة الأوروبية في القرب من موانئ غرب إفريقيا إبّان عصر الكشوف، وجدت المقاطعات الساحلية فقيرةً ومختلفة ثقافياً، لا يعدو حكامها أكثر زعماءٍ صغار. أما الممالك العاتية، فقد علموا أنها تقع في السهل وأراضي السافانا بالداخل البعيد . وفيما بعد كانت السياسة التى اهتدت بها القوى الإستعمارية هى أن تُنشئ علاقاتٍ مع الممالك العظيمة في أرض الداخل، ثم تسيطر عليها في آخر المدار .

كانت تجربة مصر في النوبة القديمة مماثلة. في البدء كان الفرعون مُلماً بالأراضي الفقيرة وحدها التى تقع مباشرةً وراء حدوده، ولم يكن سكانها ولا مواردها تسّوغان جهداً إستعمارياً إلا بصعوبة . ثم علم مؤخراً أن أرض أكثر غنىً تقع وراءها. فوّجه إهتماماً متزايداً نحو النوبة العليا وحكامها؛ وأصبحت العلاقات معهمُ مفتاحاً للسياسة المصرية حيال الجنوب، وللهيمنة عليه في نهاية الأمر.

من هم السكان الجنوبيون، الذين جّرد ثروتهم وسلطتهم جيرانهم في النوبة السفلى لهذا الحد؟ حتى هذا الوقت يمكننا أن نعطى إجابةً غير مكتملة للغاية، وحسب . النوبة العليا لم تُكتشف بعد على نهج عظيم، وقد حُصر العمل الآثارى في حفنةٍ من المواقع والمدافن التذكارية. إن أياً من هذه لا يمكن تأريخُها بوجه حاسم إلى زمن أسبق من المرحلة الإنتقالية الثانية. لا نعلم لذلك شيئاً محّققاً عن أصول سكان النوبة العليا، ولا ندرك إلا قليلاً عن ثقافتهم ولو في أوجها .

بحوزتنا بيّنة عن وجود ثقافة ومجتمع ناجعين في النوبة العليا لألف عام . فمنذ الدولة القديمة في مراحلها المتأخرة لدينا عرض حرقوف عن أرض يام، التى لم يكن موقعها محدداً، لكن يصعب وجودها بأى مكان آخر سوى النوبة العليا . من الدولة الوسطى حصلنا على بيّنة غير مباشرة لكنها مع ذلك ملهمةٌ بوجود تجارةٍ واسعة النطاق مع الجنوب كما تثبت قلاع الشلال الثانى ذلك. غير أننا لم نتمكن أثّرياً من معرفة ثقافة يجوز لها التماشى مع كل من يام والملكة النوبية موضع التخمين في النوبة العليا والتى تبادلت معها التجارة الأسرة الثانية عشرة المصرية ، إلا في وقت لاحق، ربما عقب التخلى الأولى عن القلاع. هذه الثقافة معروفة لنا أساساً من موقع واحد مثير، هو كرمة، التى أخذت منها إسمها [١].

كما سنلاحظ في الوقت الحاضر ، إن التواريخ الموضوعة لبداية ونهاية ثقافة كرمة غير محددة. مع ذلك، يبدو ثَمة شكٍ قليل أن قمة نهوضها وقعت خلال الفترة التى سيطر فيها الهكسوس على مصر ؛ أى خلال الجزء الأخير من المرحلة الوسيطة الثانية. كان سكان كرمة، وقتذاك، معاصرين لثقافة المجموعة الثالثة في مرحلتها الأخيرة . يصعب لذلك إبداء تعجبٍ لما اكتشف منَ تقاسم الثقافتين لكثير من الخصائص، وبما يشير بكل إحتمال إلى سلف واحد .

خصائص ثقافة كرمة

لم يتم التعرف بعد على مواقع سكنيةٍ لأهل كرمة؛ نستقى معرفتنا في الوقت الحاضر عن الجوانب الأصلية النقية لثقافتهم من المدافن بصفة مطلقة. مرة ثانية، نُلزم بأن نتعرف ونُميز ثقافتها عن طريق فَخارها وعادات دفنها أساساً (قارن الفصل الخامس) .

أهل كرمة، مثل النوبيين في النوبة السفلى، صنعوا فَخاراً من أنواع عديدة. أما أكبر الأوانى الإستهلاكية وألفها إستعمالاً فتكاد تكون غير مميزة عن أوانى ثقافة المجموعة الثالثة .كذلك فإنهم صنعوا قِداحاً سوداء لامعة ذات زُخرف محفور مملوء باللون الأبيض، يوازى مرة أخرى تقليد النوبيين في النوبة السفلى . في كرمة، مع هذا ، شَكل مثل هذا الفَخار النسبة الضئيلة من المُركّب الخَزفى. أغلب سلع الترفيه كثرةً وتميزاً في إناء أحمر، أسود الرأس، خاضع للتقليد النوبى العام لكنه يحقق، على أيدى قوم كرمة، دِقةً في الصُنع لم يسبق لها مثيل أبداً في فخار ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثانية . إن صناعة أوانى كرمة رفيعة المستوى للدرجة التى جعلت مكتشفها، رايزنر، يعتقد خطأ أنها قد صُنعت على العجلة (وإنها لذلك كانت في الحقيقة إنتاجاً للصناع المصريين، حيث أن عجلة الصانع لم تكن معهودة آنذاك للنوبيين) [٢].

أفضل فخار كرمة ذو رأس أسود له جدارٌ رفيع لأقصى حد وأطراف حادة، يذّكرنا بصنعة ثقافة المجموعة الأولى المعروفة بالأوانى « الحديدية المبرقشة» (الفصل الخامس). إن الأوانى لها باطن وأطراف سوداء حالكة السواد، لامعةٌ مصقولة، وإلى الأسفل تمتد رقعة السواد عادة نحو بوصة على السطة الخارجى للإناء . أما السطح الخارجى الأسفل فهو أحمر غامق . في معظم الأحوال يُفصل الجزء الأسود العالي والجزء الأحمر بأسفل الإناء بلونٍ أبيض معدنى. هذا الملمح لا يوجد في أى من مصنوعات النوبة ذات الرؤوس السوداء، وقد صار أصلها والغرض منها موضوعاً لنقاش طويل [٣] .

أكثر شكل نموذجى في مصنوعات كرمة مُسوّدة الرأس إناء مستدير القاع، قدحٌ عريض الفم (الشكل رقم ٢٩)، ليس له شبيه في صناعات الفَخار في النوبة السُفلى . هذه الأوانى توجد "متداخلة" مع بعضها البعض في تجمعات في أى قبر من قبور كرمة بالتقريب، يبلغ عددها أحياناً عشراتٍ في القبر الواحد . إنها من الشيوع بحيث أن المصنوع مُسوّد الرأس ككل يوصف في بعض المرات بأنه "صناعة كأس كرمة". مع ذلك، فإنه يوجد في أشكال مختلفة أخرى مثل الطاسات نصف الكروية وفى شكلٍ مميز لقارورةٍ أنبوبية (الشكل رقم ٢٩) .

الممارسات الجنائزية في كرمة تتقاسم الكثير مع ممارسات ثقافة المجموعة الثالثة. فالحفرة الأصلية للقبر يغلب أن تكون مربعاً ضحلاً أو حفراً مستطيلاً له أركان مستديرة (الشكل رقم ٢٩). يوضع الميت على شقه الأيمن، في وضع منقبض يواجه الشمال. تتوفر القرابين الجنائزية فيما بين القبور . ومن العادة تُرتّب أدوات الزينة وغيرها من الأمتعة الشخصية بجوار الميت، بينما تُصفّ أوانى الفَخار التى تحوى الطعام والشراب على حيطان الحجرة. وتُجمع الكبوش الضحايا في أدوم الحالات مع الجنازة . وبعد الدفن ، يغطى القبر بتلٍ مستدير من التراب موسوم الطرف بحلقةٍ من الحجارة يُعزّزها صف من رؤوس الثيران حول الحافة الجنوبية من متراس التل .

بينما تنتمى الممارسات الواردة بأعلاه إلى تقليد عام ربما كان منتشراً في طول النوبة وعرضها تُميز خمسة خصائص مدافن كرمة من جنائز النوبيين في النوبة السفلى :

جنــازة الســرير

يكاد في كل قبر لم يتعرض لنهبٍ غير معروف في كرمة، أن توجد الجنازة الرئيسة مُضّجعة على سرير محلى الصنع (عنقريب) من النوع الذى ما انفك مُستخدماً في النوبة (انظر الفصل الثانى).



شكل رقم ٢٩

نموذج لقبر من كرمة وقرابينها الجنائزية

هذه العادة تُصَادف في ندرةٍ شديدة فحسب في قبور ثقافة المجموعة الثالثة (٧). إنها، أياً كان ذلك ، تملك تاريخاً لاحقاً في النوبة، كما سيُرى في فصول قادمة .

فخار كرمــة

الأواني المصنوعة للتجارة من فخار كرمة مُسوُد الرأس المميز توجد عَرضاً في قبور لا تنتمي إلى كرمة في النوبة السُفلى أو حتى في مصر، لكنها ملمح يكاد يكون شاملاً علي العموم لقبور كرمة الأصلية، ويوجد عادةً في تجمعات كبيرة .

المدافن التلية القبابية

الركام التُرابي المستدير، أو مِتراس القبر، وجه شائع لجنائز النوبيين في النوبة العليا والسفلى . فكما شاهدنا في الفصل السادس ، مع هذا ، فإن متراس « المجموعة الثالثة » النموذجي أسطواني

الشكل، حيث شُيد بين حائط رأسى متماسك البناء . شكل متراس القبر في كرمة قبابى، ينحدر للأسفل من قمةٍ منخفضة إلى سطح الأرض في كل الإتجاهات. أما حَلقة الحجارة التى تجد المتراس فتعلو بضع بوصات فحسب؛ وهى للتحلية الزخرفية أساساً وربما لتحمى حَواف المتراس من التعرية . العيد من قبور كرمة تحيط بها حجارةٌ سوداء اللون، بينما سطح المتراس بين حلقة الحجارة مُغطىً بحَصباء بيضاء أو صفراء . متاريس قبور كرمة متفاوتة جداً في الحجم أكثر من متاريس القبور في ثقافة المجموعة الثالثة ؛ إن أكبرها أضخم بقدرٍ كبير من أيٍ ما وُجد في النوبة السفلى .

أضاحى الكبوش

تضم القبور بين الفينة والأخرى ضحايا حيوانية ـ ضأناً وأغناماً بصفةٍ رئيسة ـ بل إنها أكثر من ذلك توجد في حُفر مستقلة للتضحية ، بين جَبانات ثقافة المجموعة الثالثة. إنها تكّون ملمحاً مطابقاً لجنازة كرمة، ويحدث دائماً بين أرجاء القبر نفسه. تقع في العادة مباشرةً أمام العنقريب الذى يرقد عليه الميت؛ في حالة أو حالتين، وُضعت الضحايا على قدم العنقريب نفسه. وعُثر على عددٍ بلغ في الكثرة ست حيوانات قرابين بنفس القبر .

إن الأشد تمييزاً من كل ما تقدم :

الضحايا البشرية

هنالك عدد يثير الدهشة من قبور كرمة ـ على الأقل القبور التى يعود تأريخها إلى أوج المملكة ـ يحتوى أجساداً لواحد أو أكثر من ضحايا قربانية تَمَّ دفنها في نفس الوقت الذى دفن فيه "سيد" القبر. لقد وُجدوا بنفس القدر في جَبانة مرقسة الصغيرة غير المثيرة، التى ستجرى مناقشتها مؤخراً، لكنها توجد في كرمة أكثر توافقاً ووفرة . إحتوى العديد من القبور الأصغر والمتواضعة نسبياً مُحتفظات قربانية واحدةً أو أكثر، بينما نجد أن أضخم القبور الملكية ربما أُودع فيها أربعمائة قربان. خلص رايزنر من أوضاع الأجساد إلى أنهم دُفنوا أحياء وماتوا اختناقاً [٥] .

الفروق الشكلية بين ثقافة المجموعة الثالثة وثقافة كرمة هى، كما سيرى ذلك، من نوع طفيف نسبياً . فالإثنان على أقل تقدير "بنات عم ثقافياً"، وربما على أفضل الوجوه إنقسما من سلفٍ واحد في ثقافة المجموعة الأولى [٦] . إن أشدّ الفروق قيمةً وأهمية بينهما، مع هذا، لا تُشاهد في الشكل غالباً بمثل ما ينطوى عليه مقياسا وكثافة تطورهما النسبى. ولكيما يُقدر هذا الفرق من الضرورى أن نتبصر الموقع الأثّرى العظيم لكرمة، الذى لا يعدله آخر في النوبة السفلى .

موقــع كرمـــة

كرمة الحديثة قرية هائمة يقطنها عدة آلاف من السكان وتقع على ضفة النيل الشرقية بأقصى الحد الشمالى من امتداد دنقلا ـ أخصب منطقة في النوبة العليا (انظر الفصل الأول). إن السهل الفيضانى هنا ليس عريضاً بشكلٍ إستثنائى فحسب، ولكن المساحة المتوفرة للزراعة تتسع إتساعاً متعاظماً بوجود قناة سابقةٍ في النيل، ما يُسمى بحوض كرمة، التى يغمرها الفيضان سنوياً عندما يعلو النيل. هذه واحدة من الأماكن القليلة في السودان التى يمكن أن يُمارس فيها ري الحياض الطبيعي، من الطراز الذى يُشخّص مصر القديمة . هنا، على مرأى من القرية الحديثة، يبدو أثر أول مقعد للسلطة الأوتقراطية في النوبة القديمة .

حُفر الموقع الآثارى لكرمة بين ١٩١٣ و ١٩١٦ بواسطة جورج أ. رايزنر، وكان أول عمل رئيس

إضطلّعت به بعثة هارفارد ـ بوسطن في السودان . لقد تم الإبلاغ عنها إبلاغاً مكتملاً اكثر من أى من حفريات رايزنر النوبية اللاحقة (٧). رغم هذا، فإن مساحاتٍ كبيرة من الموقع لم تُستكشف أبداً ، وهنالك جزءٌ معتبر من المادة المنّقبة لم يُنشر بعد .

موقع كرمة حققه رايزنر إشتمل على مساحتين رئيستين. فحوالى ميل ونصف من ضفة النيل، ليس بعيداً وراء صف المنازل الحديثة، كانت هنالك كتلة عظيمة متآكلة من الطوب الذئ تعرف محلياً *بالدفوفة* الغربية أو السفلى (تعبيراً نوبياً لأى أطلالٍ من الطوب لا تزال قائمة). وعلى بعد ميلين من الشرق البعيد، عبر سهل صلصالى منفتح (يقع الآنَ غالباً تحت الزراعة)، كانت هناك جّبانة كبيرة أيضاً بقايا بناء طُوبى ثانٍ، *الدفوفة* العليا .

أما *الدفوفة* الغربية، التى استرعت أولاً إنتباه رايزنر، فهى واحدة من أكثر الهياكل غرابةً في النوبة، الوحيدة من نوعها في الوجود. ،كما شُيدت أصلاً، فقد كانت كُتلةً صلبة مستطيلة من الطوب النَّئ يبلغ طولها اكثر من ١٥٠ قدماً وعرضها ٧٥ قدماً، وربما انها تشمخ لإرتفاع أعظم باعتبار أن ٦٠ قدماً لا تزال قائمة (الصورة ٨ ـ ١) . بين هذه الكتلة الصلبة لم تكن هنالك شقق داخلية؛ إنما بقايا لا غير لمدرج سلالم ضيق متعرج يؤدى في صفاء إلى قمة الهيكل (الشكل رقم ٣٠) . المدّرج بين المبنى يبدأ من ارتفاع بُعلوٍ فوق الأرض بمقدار بضعة أقدام؛ ثم يواصل نحو الأسفل من سطح الأرض بمقدمةٍ تتجه غرباً منْ ناحية الكتلة الرئيسة للمبنى. في أول طابق جُعل المدرّج واسعاً ليكون نوعاً من غرف الحراس ـ المساحة الوحيدة في نطاق كتلة الطوب الصماء التى يمكن وصفها كغرفة.

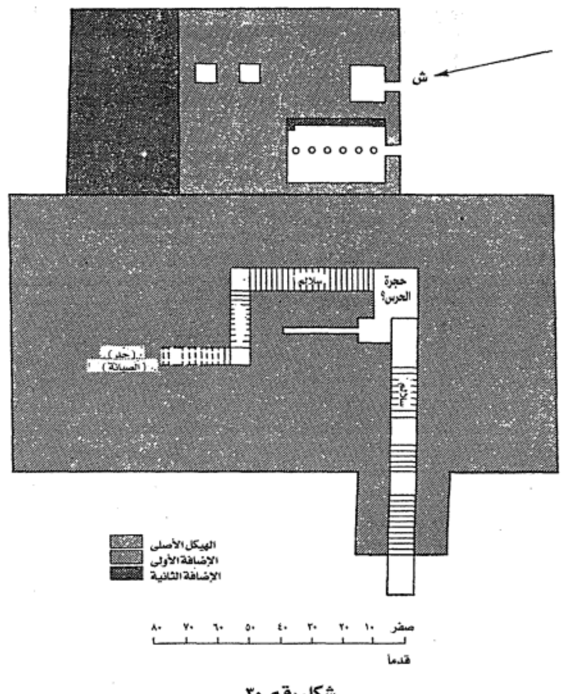
عقب البناء الأصلى *للدفوفة* السفلى، أُضيفت زيادتان أضفتا مسحةً بارزة على وجهه الشرقى. إن كليهما، مثل البناء الأصلى، طوب صلب بالتقريب، وربما ان كُلاً منهما نهض حتى الإرتفاع الكلى للهَيْكل الأصلى ليوسع السطح المرتفع في قمة البناء. مع هذا ، فإن اول واكبر الإضافتين يحتوى غرفتين صغيرتين، أدخلا من خلال مداخل الأبواب في مستوى الأرض، وأيضاً عمودين رأسيين ليست لهما فتحات جانبية (الشكل رقم ٣٠) .

سمة بناء *الدفوفة* الطُوبى مصرية بما لا يدعو لخطأ. إنها تشترك مع قلاع الدولة الوسطى بالنسبة للإستعمال المنظم لرباط الخشب : اعمدةٌ ضخمة ، مُجزأة بخشونة وموضوعة افقياً على البناء الطوبى بزوايا قائمة في وجه الحائط (٨) . إن *الدفوفة* قطعاً ليست قلعة، مع هذا، وهى لا تحمل في الحقيقة تمثلاً لأى بناء آخر معروف عن المعمار المصرى .

الوجه الغربى *للدفوفة* مُجاورٌ بتجمع غير منتظم من حجرات الطوب التى بدت كأنما أُعيد تشييدها وتم توسيعها مرات عديدة . هنا وللمرة الثانيةً تُوحى الإستقامة والتساوى المتناهى للأسوار بعمل مصرى. أما الحثالة الوافرة التى وُجدت بين هذه الحجرات الغربية فإنها تؤثث الدليل الحقيقى الوحيد لتاريخ ووظيفة *الدفوفة* السفلى . الأغلب وضوحاً شقوق مقدارها ٥٦٥ ختماً طينياً دامغا من طرازٍ مصرى، ثُبتت على أوان ، وسلال، ونوْعاً ما من حاوٍ خشبى. هنالك ايضاً بقايا شقوق لمواد كثيرة من صنع مصرى، مثل قوارير مرمرية للدهان (يحمل خمسة وعشرون منها اسم فرعون الدولة القديمة ببيى الأول)، وأواني اخرى حّجرية أكبر منها ، وأواني فّخارية ومن الصينى، وعقود وبلورات حّجرية وخرز لصنع العقود، وقطع من البرونز. وفيما عدا قوارير الدهان فإن هذه المواد كانت في الغالب أنواعاً من الدولة الوسطى أو متأخرة عنها ، طبقاً لرايزنر (٩) .

كذلك كان ممثلاً في الحثالة *بالدفوفة* الغربية أشكالاً مختلفة من المواد الخام :

بينما تُعّد الأختام الدامغة بطريقةٍ ما دليلاً على الأنشطة الإدارية للإحتلال المصرى ، تقف المواد الخام والمنتجات التى لم يكتمل إنتاجها دليلاً على الأنشطة التصنيعية. إن المواد الخام التى عُثر عليها تحتوى على كتل عديدة من *الكرياك* المستعمل لتلميع الفّخار ؛ وكتل من لون أحمر يُستعمل في غسلٍ أحمر لتغطيش الفّخار، وكتلة



شكل رقم ٣٠

خريطة للدفوفة السفلي (الغربية) فى كرمة

كبيرة وكتلٌ صغيرة عديدة من أكسيد النحاس الذى يُستعمل لتلوين مصنوعات الصينى وغيرها من اللمعيات ، وكتل من الراتينج، وكتلة من المايكا لزخارف المايكا، وعدة رواسب كبيرة من بلورات الصخر وحصيات من العقيق الأحمر من نفس المواد، كالتى عُثر عليها في حبات الصخور، وشقوق بيض النعام التى صُنعت منها حبات في شكل أقراص صغيرة. حصى كثيرة مصنوعة بلمعة خضراء عُثر عليها أيضاً، وكانت قد استُعملت جبيرةً لصقل مصنوعات الصينى. أما حصى الصقل للفّخار والمحار الصّدفي لكساء قوالب الفَخار ، فقد وُجد بأعداد صغيرة. وهنالك كميات من كؤوس الشرب الكبيرة ذات اللون الأسود غير مكتملة الصنع أو التى لم يُحسن حرق رؤوسها، وبعض أوانى الصينى التى أُسيئ حرقها، وحبات كثيرة إكتمل صنعها جزئياً، عديد منها يظهر أنه تكسر أثناء الصقل، كلها تم رصدها . جماع الإثبات هو أن صنع الفَخار، والصينى، والكوارتزيت المصقول، والعقود، وزخارف المايكا *بالدفوفة* السفلى تواصلت خلال فترة ... جبّانة *الدفوفة* العليا وأخرجت نفس أنواع المادة التى تماثل ما وجد بتلك الجبّانة .

... إن نقاطاً عديدة لم يتحدد مصيرها بالبّينات المتوفرة لدينا . بالرغم من ذلك، فإن النقطة الرئيسة تبرز ناطقةً بأن الدفوفة كانت مركزاً لعمل تجارى ذى اعتبار، سواء أكان ذلك العمل تخزيناً أم غيره ، لسلع قيمة بشكل أو اخر. لكن بلا شك كانت هنالك أنشطةً أخرى مثيرةً للإهتمام ـ التجارة في المنتجات القادمة من الأراضى الأبعد جنوباً، واستلام وتصريف البضائع من وإلى مصر [١٠] .

هنا بالتاكيد واحد من المخازن الكبيرة أو "المصانع" التى انبعثت منها تلك التجارة العظيمة في النيل، والتى لاقت مصر مثل تلك المعاناه لتحمى مرورها بمجرى النهر شمالاً.

أما أن *الدفوفة* السفلى قد خُطط لها وشُيدت تحت إشراف مصرى فيبدو مُشاهداً من طبيعة البناء الطُوبى. مع هذا، فمن الخطأ أن يُفترض أن أصل التجارة النوبية في النوبة العليا كان في قبضة مصرية . لربما أن المستعمرة المصرية الدائمة في كرمة كانت صغيرةً للغاية، حيث أنه لم يُعثر هنا على قبور مصرية صميمة، في حين أن القبور المصرية سائدةً في كل قلاع الشلال الثانى . إن المصريين المقيمين في *الدفوفة* كانوا ـ من المحتمل ـ في معظم الحالات كتبةً، يدونون وصول الشحنات وترحيلها وربما أشرفوا على عمل جماعة من الصنّاع الحرفيين المحليين الذين يصنعون الخرز والصينى على الطراز المصرى للسوق المحلى. وكما تُبين الأدلة المستقاة من الجّبانة الشرقية (انظر أدناه) ، فقد عاشوا وعملوا تحت رعاية حاكم محلى كان هو القوة المتحكمة الحقيقية على تجارة النيل[١١] .

كل التفسير الفائت مؤسسٌ على معثورات بين الحجرات الغربية *للدفوفة* السفلى. إنها لا تفعل شيئاً لتشريح الكتلة العظيمة الصّماء من البناء الطويل بأكمله الذى يعلو فوقها . لقد ظل هذا معتبراً عُرفياً كنوع من التجهيز الدفاعى، ودُعى الهيكل بأكمله نقطةً تجارية محصنة [١٢]. إلا أن *الدفوفة* العظيمة لا تعْنى شيئاً كتحصين؛ إنها لا تحمى سوى نفسها ، ولا تحوى شيئاً. فبينما يمكن للتجار ومسؤولى الدولة المقيمين أن يتخذو سطحها الأعلى ملجأً من الهجوم، فإنه من الصعب تخيل بنايةٍ أشد عُرضةً للحصار منها . إن باب خروجها الوحيد يمكن إحتجازه بحفنةٍ من الرجال المسلحين، وسوف ينخفض عدد شاغليها عطشاً خلال بضعة أيام .

إلى مبلغ عشرة أو إثنى عشر قدماً كثافةً ، يجوز في الحقيقة أن يكون حجم أسوار الطوب مؤشراً على طبيعتها الدفاعية . ما وراء تلك النقطة، مع هذا، لا يُجنى شيئٌ من الكتلة المضافة إلى البناء. كثافة الأسوار، بالنسبة إلى المساحة المحاطة، يمكن أن تُنسب بإضطراد إلى مُتطلب وظيفى واحد لا غير: الإرتفاع. فبإعطاء ذلك الإعتبار، يبدو ظاهراً لى أن *دفوفة* كرمة قد خُططت كبُرج مراقبةٍ عاتى، يرتفع ربما إلى ضعف أو ثلاثة أضعاف الإرتفاع الذى بقى إلى الآن .

عرض مثل ذلك الهيكل لا يصعب تصوره . فإذا كانت الشُحنات المُحّملة، كما هو مقترح ، لا

تصل إلا على فترات غير منتظمة الوقوع، وفى قوافل كبيرة [١٣]، فإنه دونما شك يكون من النافع للملك وضباط بلاطه أن يعلموا أول الأخبار عن وصول المراكب، حتى تكون جماعات التفريغ والشحن جاهزةً لهم ولكى يسبقوا المنافسين من أصحاب الأعمال الخاصة. وحيث أنه لا توجد جبالٌ في ضاحية كرمة، فإن موقعاً عالياً لا يمكن إنشاؤه إلا اصطناعياً [١٤]. إقراراً، لا يعلل هذا الإضافات بالوجه الشرقى من *الدفوفة* ـ إنه سر ربما لا يُكشف عنه أبداً .

الجّبانـة الملكيــة

تُغَطى الجّبانة الشرقية الكبرى في كرمة مساحةً ربما تبلغ ميلاً من حيث الطول ونصف الميل عرضاً . تشمل بكل الإحتمالات بضعة آلاف من القبور، بالرغم من أن أجزاء ضخمة منها لم يتم مسحها إلى اليوم. عدد القبور المحفورة من قبل رايزنر أثناء مواسم عمله الثلاثة غير عدد في أى من تقاريره، لكن يمكن لها فقط أن تكون نسبةً من الجملة . بين القبور المحفورة، هناك ٣٨٨ تم الإبْلاغ عنها بلاغاتٍ فردية [١٥]؛ وهنالك أخرى، على وجه الخصوص بالجزء الشمالى من المقبرة لا يزال غير مبلغ عنها .

الملامح الحيوية للممارسة الجنائزية في كرمة كانت متماثلةً بالفعل في كل قبر تم حفره، وتتماشى مع الخطة العامة التى سبق لنا وصفها آنفاً . أثاث القبر أيضاً كان متوافقاً بشكل ملحوظ التكوين إن لم يكن في الكمية . مع ذلك ، فقد عُثر على تغيرية ساحقة في الحجم الكُلى ودرجة التعقيد في قبور كرمة. إنه على ذلك الأساس في المقام الأول قام رايزنر بتقسيمها إلى أربع جماعات : مدفن تلى عظيم، مدفن صغير ، مدافن إضافية ، وقبور مستقلة .

المدافــن التّليــة العظمــى

يصل عدد المدافن التلية العظمى إلي ثمانية أمثلة ليس إلا، وقد رُتبت بشكلٍ أو آخر في صفٍ على الحافة الجنوبية من الجّبانة . هذه الهياكل ليس لها مثيل وسط الصروح الجنائزية في النوبة . أكبرها يبلغ بالتقريب ٣٠٠ قدم قطراً، وإن أرجاءه الداخلية لأشدُّ إمتداداً بكثير مما تمتد فيه أرجاء أى هرم مصرى بالداخل [١٦]. ولإستكمال صورة الأُبهة الهمجية يمكن إضافة أن عدد القرابين البشرية في المدفن التلى المجهول بكرمة ـ يبلغ ٣٢٢ بالعّد الحقيقى، وربما أنها بلغت ٤٠٠ قبل النهب [١٧]ـ أكبر من أى ما وُجد بأى بناية لقبرٍ معروف لأى حضارة كانت .

الأحوال الداخلية المتضمنة بالمدفن التلية العظمى يصفها رايزنر على النحو الآتى :

يقع المدفن الرئيس على الجانب الجنوبى للقبر، عادةً على سرير، على الجانب الأيمن، مع ثَنى الأرجل بخفةٍ من الركبتين، ووضع اليد اليمنى تحت خد واليد اليسرى على أو بالقرب من الكوع الأيمن . وكان الجسد فيما يبدو مُدَثَّراً بالكِتان، مع الأسلحة وأدوات الزينة الشخصية المعتادة. وعلى السرير وُضع، كقاعدةٍ، سند خشبى للرأس، ومروحة من ريش النعام، وزوج من صنادل الجلد الخام . إلى جوار قدم السرير أو عليها أُلقيت كذلك أدوات معينة للزينة ومعدات برونزية. بالقرب من السرير وحول جدران الحفرة رُتب عدد كبير من أوانى الفّخار .

المدفنة الرئيسة وأثاث القبر شغلا حَيزاً صغيراً فحسب من مساحة أرضية القبر. أما باقى المساحة فاحتلتها أجساد بشرية، تتراوح من واحد إلى إثنى عشر أو أكثر عدداً، وأجسام كبوش من واحد إلى ستة. مواقع هذه الأجساد البشرية لا تَتبع بصرامةٍ أى قاعدة بعينها؛ فالأغلبية كانت على الجانب الأيمن؛ ومنها ثانيةً تقع أغلبيةً مع اتجاه رأسها شرقاً؛ لكن يكاد كل وضع ممكن أن يكون موجوداً. مدى التضييق يتفاوت أيضاً بالمثل ـ من وضع الجسد الرئيس نصف الممتد إلى أضيق حشرٍ ممكن توضع الأجساد فوق بعضها بعضاً . إن بعضها كان على الظهر والآخر على البطن. الأيدى عادة فوق الوجه أو على الحلق، أحياناً مثنيةً مع بعضها البعض، وأحياناً قابضةً

على الشعر. في حالات قليلة لا غير شوهد شخص يرقد كما يفعل الزعماء، ولكن في عددٍ من الحالات شُوهد تعديل لذلك المسلك .

يظهر جسد الزعيم دائماً مغطىً بجلد، يكون في الغالب جلد ثور، وفى بعض الحالات على الأقل كان الجلد مغطياً للقرابين إلى جانب ذلك . لزامٌ أن يتذكر علماء الآثار المصرية إنه في رسالة أمنمحت الثالث لِ سنوه، الملك، بعد أن وعد سنوه بدفنٍ مصرى أميرى، يمضى فيقول : "لا تدع موتاك يأخذون مكاناً بأرضٍ أجنبية، لا تدع البدو يقومون بإعداد مراسيم جنازتك، لا تَدَعْ لنفسك أن توضع في جلد كَبْش" [١٨] .

أكبر ثلاثة من المدافن التّلية العظمى، تعرف بالثالثة، والرابعة ، والعاشرة ، لها خواص معينة خاصة بها . في كل من هذه الحالات أُسبِغت على كتلة المدفن التلى غلظةٌ معينة عن طريق "بنايةٌ-كُبري" ذات أسوار طوبية بالغة الطول، مستقيمة، غرضها الوحيد فيما يبدو أن توفر نوعاً من الهيكلة للحفرة (قارن الصورة ٨ - ب) . يجرى ممر طويل ، غير منكسر عبر العرض الكلى لكل حفرة، بينما الأسوار الباقية للبناية الكُبري تنبعث منها على زوايا قائمة . أما غرفة الدفن الرئيسة فتنفتح مباشرةً على الجانب الجنوبى للممر بالقرب من مركز المدفن التلى (الشكل رقم ٣١) . القرابين المدفونة وُجدت بصورة أولية بين الممرات المعارضة ، التى استدل رايزنر بناءاً عليه أنها كانت ممرات قربانية .

المدافن الإضافيـــة

المدافن الإضافية قاسم مشترك لكل المدافن التلية العظمى عدا اثنين، وكذلك بضعة من المدافن التلية الصغيرة . إنها ليست لها حفر للقبور على شاكلتها، لكن أُدخلت من خلال سطح للمدافن التلية القائمة في وقتٍ ما بعد إكمالها . إن طبيعة هذه القبور وتوزيعها يبينان أنها لم تكن ببساطةٍ تدخلات عشوائية من قبل ذُريةٍ لا تحترمها ، ذلك حيث أنها وُضعت في عنايةٍ بشكلٍ يتفادى قلقلة غرفة الدفن الرئيسة أو إتلاف الأسوار الأساسية . وفى المدفن التلى الثالث ، صنعت غرف القبر لكل المدافن الإضافية بوضع أسوار قصيرة فاصلة بين الأسوار الرئيسة للبناية الكبرى بغرض إنشاء غرف صغيرة من الطوب (الشكل رقم ٣١). لقد إقترح رايزنر أن مدافن كرمة بأحجامها الضخمة قُصد منها أن تترك مساحةً لمثل تلك المدافن عمداً . أما أكبر عددٍ منها تصادف وجوده بأىٍ من المدافن فكان ١٠٢. [١٩] وبالرغم من أن المدافن الإضافية ليست بها بناءات فوقية خاصة بها، فهى ثَرة في ذاتها بمستوى ملحوظ، وكثير منها مُصطحبٌ بقرابين بشرية .

المدافن الصغـرى

هذه تمثل أنواعاً أصغر حجماً من المدافن العظمى، وليست بها ممرات للضحايا أو بناءات كُبري من الطوب. وتوجد تكاد في كل حالة غرفة مستطيلة أو مربعة محفورة في الطمى، وتحتوى القبر الأساسى، وأمتعته، وقبوراً مفردةً للضحايا إن وُجدت. المدافن في هذه الحالات تظل أضخم بكثير مما هو مطلوب لتغطية القبر العادى، ويتراوح محيطها بين حوالى ٧٥ إلى ما يزيد على ١٥٠ قدماً . مع ذلك، قليل منها يحتوى قبوراً إضافية . عثر على المدافن الصغرى بشكل غير منتظم في أنحاء متفرقة من جبّانة كرمة، ولكنها كانت مُجمّعة بطريقةٍ واضحة في الطرف الجنوبى، مجاورةً بالقرب من المدافن العظمى.

القبــور المســتقلة

ذلك وصف قدّمه رايزنر للقبور التى لم تملك بناية فوقية أو أن بها مدفنة ذات اتساع كافٍ لتغطية القبر وحسب. إن بعضاً من افقر (وربما اقدم؟) هذه القبور ينطوى على حفرةٍ بيضاوية الشكل اكثر منها قبراً مستطيلاً، مثل قبور ثقافة المجموعة الأولى (الفصل الخامس). وفى حالة القبور ضئيلة الحجم كانت المعدات المألوفة لجنائز كرمة متواجده بإنتظام ومشتملةً علي:

.... حفرة مستطيلة مفتوحة، تحتها مرقد للجنازة، مصحوباً بقربان بشرى واحد أو أكثر مُدَثَراً بسترات من قماش أو أردية جلدية، وكبش، ومدية من نوع كرمة الخاص بها، ومسند للرأس، ومروحة، وزوج من الصنادل، وعدد من الكؤوس مُسوَدّة الرأس، وطباق، وقدور، وعدد من قداح الأمتعة أخرى.[٢٠]

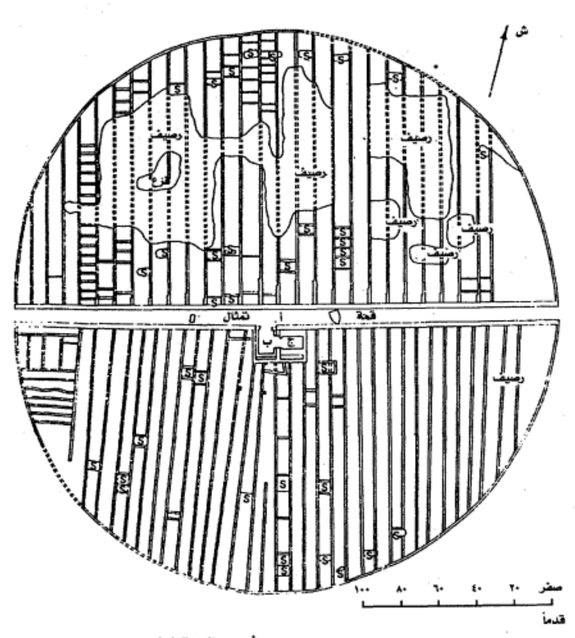
وُجدت القبور المستقلة في كل جزء من جَبانة كرمة . مبعثرةً في الطرف الجنوبى حول المدافن التلية الأكبر مساحة وفي وسطها، في حين أنها في الشمال كانت تبدو التكوين الوحيد للقبور الموجودة. لاحظ رايزنر أن قرابين الأضاحى الحيوانية كانت أغلب توفراً في القبور الشمالية، حيث حلّت محل القرابين البشرية لحدٍ كبير .

المبانـــى الجنائزيـــة

إضافةً إلى مدافنها التلية العظمى والصغرى، إحتوت جَبانة كرمة بقايا لبنايتين ضخمتين تُذكران في بعض الجوانب *بالدفوفة* السفلى العظمى. إن إحداهما، وهى لا تزال مُنتصبةً لإرتفاع معتبر، تُعرف في الحقيقة بالدفوفة العليا أو الشرقية . أما ثانى بنايتى الجَبانة فقد وُجدت في حالةٍ أكثر تعريًة، لكنها كانت قريبة الشبه في خطتها من الأولى. فكلاهما اشتمل على غرفتين طويلتين موصولتين بممرٍ ضيق بينهما وممر ثانٍ للخارج. وأُقيم صفٌ من الأعمدة إلى أسفل المركز في كل غرفةٍ فيما يبدو سقفاً من الأعمدة المتعارضة (الشكل رقم ٣٢). إن كلا الهيكلين له أسوار طوبية ضخمة، تتعدى ٣٠ قدماً في كثافتها . أحدهما ـ ويفترض أنه الأسبق ـ [٢١] نما بالتراكم الطبيعى بدءاً بنواةٍ أصغر، بينما الثانى تم بناؤه منذ البداية مُتَّخذاً شكله النهائى. المبنى الذى يبدو أنه الأسبق إحتوى كذلك مدرج سلالم داخلى ضيق يؤدى إلى طابق أعلى أو إلى السقف . وتحمل الحجرات الداخلية لكلٍ من البنايتين بُقايا زُخرف مرسوم بالأحمر، والأسود، والأصفر. أما الرسوم فإنها مصرية في الأسلوب والموضوع بما لا تجدر تخطئته، مُبَيِّنةً مناظر لنشاطٍ إنسانى وحيوانى مألوف. البنايتان العظميتان تقعان بجوار الطرف الجنوبى لجَبانة كرمة، في كل حالة إلى شمال أحد أكبر المدافن التلية بالضبط. إن رايزنر، لأمرٍ مُستبعد، خلص إلى أنهما غرف لإعداد الجنائز مرتبطةً بالمدافن التلية العظمى، ولربما أدت كل واحدة منهما خلال فترة طويلة من الزمان مهمتها في وصلٍ لعدة جَبانات متعاقبة. الغرف الداخلية نُهبت نهباً تاماً منذ القدم، على أن كتلةً كبيرةً من الأشياء المكسرة التى اعثر عليها البحث بالضاحية ربما أفرغها الناهبون مما احتوت. إن عدداً ضخماً من أختام الطين ، مشابهةً في الطراز والتاريخ للتى وُجدت في *الدفوفة* السفلى، أوحت إلى رايزنر أن إحدى مبانى الجَبانة قد أُقفلت بالأختام، ثم أُعيد فتحها مرات عديدة [٢٢] .

كما *بالدفوفة* السفلى، تلهم الأسوار العاتية لغرف تحضير الجنائز (؟) بإرتفاع غير عادى. ربما أن قممها كانت محطات مراقبة لحراس الجَبانة. إن مراقبةً تجرى على جَبانة ضخمةً كهذه بسطحها المموج بالمدافن التلية الكبيرة والصغيرة ، ربما كان مهمةً صعبة على مستوى الأرض ـ لا ريب البتة .

لقد وُجدت غرفاً لتحضير الجنائز (؟) أصغر بكثير، مرتبطة بستة من المدافن التلية الصغرى في كرمة . كانت هذه غرفاً مُربعة، صغيرة من الطوب مَبنية على طرف المدفن التلى، على طول جانبه الجنوبى بطريقة أو أخرى. من المفترض أنها كانت مخصصةً لوضع المقتنيات التذكارية التى تعقب



أ الرواق الرئيس
ب ، ج غرف الدفن الرئيسة
S مواقع قبور ثانوية

شكل رقم ٣١

خريطة لهيكل البناء الطوبى الداخلى فى المدفن التلى ٣ ، كرمة

قفل القبر، بالرغم من انها كلها قد نُهبت كثيراً منذ القدم. مثل هذه الغرف تقترن بمدافن كثيرة في ثقافة المجموعة الثالثة إبّان مرحلتها المتأخرة في النوبة السفلى، لكنها فيما يبدو كانت وجهاً غير عادى لممارسة الدفن بكرمة .

معضلات التأويل والتسلسل الزمني

إن تأويل رايزنر لموجودات كرمة يقدم مثالاً على عبقريته الحَدسية في افضل حالاتها وأسوأها. بتحليلٍ تفصيلى أُعد بعنايةٍ مدموجاً بشطحات خيالية، أعاد تصميم كلاً من الهوية والتأريخ لموقع كرمة بتأكيده المعهود المُعتّد بوثوقه. لقد كانت، فيما خلص إليه، مستعمرةً من المصريين المتنوبين في الدولة الوسطى، وكُرسياً لأول ولاة مصريين في كوش [٢٣]. من هذا يستنتج أن الهيمنة المصرية على النوبة العليا سبق لها أن أُنشئت في الدولة الوسطى، وهو إستنتاج لا يمكن بخلاف ذلك أن يؤخذ من السجل النّصى أو الأثرى .

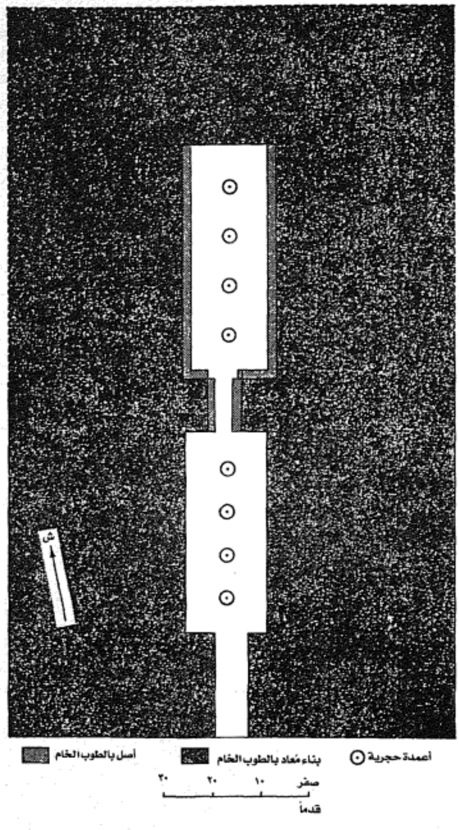
تفسير رايزنر أُسس لدرجة كبيرة على مواضيع قليلة مؤرخة ومعرفة فيما وُجد بجّبانة كرمة. إن الأبرز وسطها تمثالا الغرانيتي بالحجم الطبيعى للأمير المصرى حبزفا وزوجته سنوى، اللذان وُجدا في المدفن التلى الثالث العظيم، إن هذين الفردين كانا معروفين من قبل معرفةً جيدة من معثورات في أسيوط بمصر الوسطى، ويمكن إرجاع تأريخهما إلى حكم سنوسرت الأول في بداية الأسرة الثانية عشرة. الكشف عن هذين التمثالين قاد رايزنر لأن يخلص إلى أن المدفن التلى الثالث كان مكان دفن حبزفا نفسه، وأنه (بالنظر إلى حجم مدفنه التلى وبهائه) لم يكن أى إنسان آخر سوى والى كوش. تبع ذلك بالتالى، أن المدافن التلية العظمى المجاورة كانت لخلفائه في منصب الوالى .

علماء آخرون للآثار المصرية أسرعوا بتحدى رأى رايزنر [٢٤]. فقد أشاروا إلى أن مقبرة حبزفا (المسلّم بعدم إكتمالها) كانت معروفةً آنفاً من أسيوط، إن المدفن في تربةٍ أجنبية كان أمراً ممقوتاً من قبل مسؤولى الدولة المصرية، وإن طقوس الدفن الأجنبية تضاعف من ذلك المقت، وإنه على أى حال فقد احتوى المدفن التلى الثالث مادةً يعود تاريخها إلى أنظمة حكم متأخرة أكثر من عهد حكم سنوبرت الأول. واقتُرح أن التماثيل المنحوتة [٢٥]، مثلها في ذلك مثل عدد كبير من المواد مصرية الصنع الأخرى مما وُجد بكرمة، كانت رموزاً للمكانة الغابرة لعصرٍ عَفى عليه الزمان بمصر ، قام تجار مغامرون بإفراغ حملها للملوك النوبيين حسنى النوايا والمدركينً لمكانتهم .

إن ربع القرن الذى انقضى منذ حفريات رايزنر أحدث أثراً يسيراً لإجلاء سر كرمة [٢٦]. وحتى يشرع في علم آثار منهجى النَّسق في النوبة العليا، هنالك الكثير مما سيبقى غامضاً مثلما ظل عليه الحال منذ ١٩١٦. وبسبب الأهمية الحرجة لكرمة بالنسبة لأى تفسير للتاريخ النوبى الأخير، مع هذا، يبدو من المرغوب فيه هنا أن نُعيد تقدير بعض المسائل التى أُثيرت عن موقع كرمة وثقافتها .

حجم وأهمية الوجود المصرى

يبدو مما لا جدال فيه أن ثمّة مصريين وُجدوا في كرمة . على أنه يكاد يتساوى مع ذلك أن رايزنر بالغ قطعاً في تقدير عددهم ودورهم. إن هذا يرجع في جزء منه إلى تفسيره للتماثيل المجلوبة، التى ذكرناها لتونا، كذلك لإعتقاده الخاطئ أن فَخار كرمة ذا الرأس الأسود، صُنع بالعجلة، وإنه كذلك كان عملاً لصُنّاع مصريين [٢٧]. وفى الحقيقة فإنه كان سيتطلب مستعمرةً كبيرة من صُنّاع الفَخار لتزويد كمية القِداح التى وُجدت في جَبانة كرمة. مع هذا، فإن تحقيقاتى التى أجريتها طرحت ما اقنعنى مفاده أن الأوانى كانت مصنوعةً باليد، لذلك أنجزها صُنّاع فَخارٍ وطنيين فيما يكاد يكون يقيناً.



شكل رقم ٣٢

خريطة للدفوفة العليا (الشرقية)، كرمة

سيتفق معظم العلماء اليوم مع جنكر وساف - سودربرج (٢٨). أن الجنائز في كرمة لم يكن من الممكن أن تكون لمصريين . ماذا، إذن، يبقى دليلاً على وجود المصريين ؟ يمكننا أن نشير بدرجات متفاوتةٍ من الثقة لمعمار *الدفوفة* ، البناء الطُوبى بين أضخم المدافن التلية (٢٩) ، والرسوم بغرف تحضير الجنائز، والمصنوعات والتبادل السلَعى الذى أُجرى في المحطة التجارية، وبعض الأمتعة المتميزة في القبر مما وجد في الجّبانة. الدليل الأخير يجب رغم ذلك أن يُقدر بدرجة معينة من الحَيطة.

جدير بالذكر إقتطاف نص لتريقر في هذا الخصوص :

بالرغم من أنها متأثرة تأثراً ثقيلاً بوسائل المصريين الفنية في الصُنع والرسم، فإن كثيراً من المادة التى أُنتجت في كرمة تعكس تقليداً ثقافياً محلياً . كمثال على ذلك، فإن تصميم ونجارة الأَسِرة التى تم العثور عليها مصرية الصنع بشكلٍ مألوف، لكن العديد منها له قوائم أرضية مُرَصعة في أسلوبٍ غير مصرى . مماثل لذلك، أشكال المايكا التى صُنعت لتطَّرز على أغطيةٍ من الجلد فهى ليست مصرية . خناجر النحاس التى وُجدت منها ١٣٠ قطعة، نوعٌ محلى متميز ويختلف عن النوعية المصرية المأخوذة على وجه القياس، وتُحاكى الأعمال المعدنية أشكال الفَخار المحلى . ومع أن كثيراً من هذه المادة قد فُسر على أنه إخراج لصناع مصريين ، يكيفون أنفسهم مع الأذواق المحلية ، من الممكن إلى جانب ذلك أن الصناع المحليين إكتسبوا الإلمام بالوسائل الفنية المصرية للصناعة وإنهم بعد ذلك قاموا بتطبيقها وفق إصطلاحهم الثقافى الخاص (٣٠).

لا يشير أى مما ذكر آنفاً بالضرورة إلى وجودٍ سُكانى مصرى كبير . إنما ندرك فيه اللمسة المصرية بصفاء، وهذا الوجود على المستوى الإدارى فحسب : في رسم الهياكل الطوبية العظيمة، وفى الإشراف على الإنتاج والتبادل السلعى الحرفى . إن صفوةً مصرية صغيرة ، تشرف على التجارة الوطنية وصناعتها بالإنابة عن ملك نوبى، يعلل أفضل تعليلٍ الحقائق الآثارية في كرمة كما نعلمها الآن(٣١).

تعريف الموقع

فى جّبانة كرمة ، ليس بعيداً عن *الدفوفة* العليا، وجد رايزنر شقوق لوحة هيروغليفية وصفها وترجمها كما يلى :

بالأعلى كان قرص شمسى ذو أجنحة عليها ثعبان أريوس بكل جانب . تبعت ذلك ثمانية خطوط لنقش هيروغليفى يرجع تأريخه إلى اليوم الأول من الشهر الأول للموسم الثالث (شهر بشونه) من السنة الثالثة والثلاثين لأمنمحت الثالث : "السنة الثالثة والثلاثون ، الشهر الأول من الموسم الثالث، اليوم الأول تحت صاحب الجلالة ملك مصر العليا والسفلى، نيماترا، ابن رع، أمنمحت، الحى للأبد. قائمة الطوب التى وصلت إلى سنب - *تا* والتي هي كائنة في أنبوى - أمنمحت (أسوار أمنمحت) ... بفعل الأمير الوارث، الصديق الوحيد، الذى ابتعثه سيده لما له من قيمة في زيادة حدوده وبسبب إمتياز تخطيطه ، المستشار إنتف، إبن سميب، عندما كان في صحبة جماعة من فيلة ٣٠٥ . ٣١ (أو ٣٠٠ - ٣٥)" (٣٢).

عَرّف رايزنر على الفور "أسوار أمنمحت" (إسم مكان غير معروف خلاف ذلك في الحوليات المصرية) بالمستعمرة في كرمة . مسيراً إلى أن ٣٥٠٠٠ طوبة سوف لا تذهب بعيداً جداً لبناء أى من الهياكل المعلومة هناك ، فقد رجح الأمر إضافةً لذلك في أن إنتف بوسعه فقط أن يقوم بترميمات لمبنى قائم أنفاً - يفترض أنه *الدفوفة* الأعلى المجاورة . من هنا تلا ذلك أن الهيكل العظيم سبق تشييده من قبل حكم أمنمحت الثالث . وكان جائز الإستدلال أيضاً أن مدينةً أطلق عليها اسم على أثر ملك مصرى (إسم يتناقض بشكل ملحوظ للغاية مع أسماء قلاع الشلال الثانى) كانت مدينةً مصرية .

مطالعةً للأمر بواقعية ، فإن تفسير لوحة إنتف يقدم كل أنواع الصعوبات. فليس هناك أحد يعرف ما تَعْنيه سنب ـ *تا* ، حيث أن الكلمة لا تقع في أى نص آخر. وأياً ما كانت ، فلما كان واجباً على إنتف أن يُحيّى، في صيغةٍ تُحفظ عادةً للمغامرات البطولية، ذكرى استلام شحنة من الطوب كافية لبناء متواضع فحسب ؟ ولما يجب أن يشحن الطوب، على أى حال، بينما كان من الممكن صنعه في الموقع بأى مكان في وادى النيل ؟ إن التسويغ الوحيد لنقل مثل هذه السلعة الرخيصة وغير المجزية سوف يجرى في حالات يكون فيها التشييد مُتطلباً فيما لا يمكن توفيره من مصادر الماء أو الطين ـ شروطاً لا تسود في كرمة .

بينما أن أسراراً عديدة متعلقةً بلوحة إنتف ربما لا تُكشف أبداً ، فإن نفس *التنير* ينسحب بالتأكيد على هذا الكشف مثلما ينطبق على التماثيل المنقوشة المختلفة كبيرها وصغيرها في كرمة . إن نُصب تمثالٍ بعينه، بعد كل هذا، كان أحد رموز المكانة الرفيعة منذ القدم ، ولربما كان ملك نوبى أمى مقتنعاً أشد الإقتناع بأسر إعجاب رعاياه الأميين بنموذج مستعمل مثله. وإذا كانت لوحة إنتف قد أُحضرت من مكان آخر، مع هذا، فإنه لا تعريف "أسوار أمنمحت" ولا تأريخ الدولة الوسطى بالضرورة ينطبقان على كُرمة (٣٣) .

تأويـل الجّبانــة

إذ سَلّمنا، كما يفعل معظم العلماء الآن ، بأن عادات الدفن في كرمة عادات نوبية لا عادات مصرية ، يصعب علينا بصرف النظر عن ذلك أن نتجنب دون مشقةٍ الخلاصة التى مُؤداها أنها تمثل جماعةً من أفراد أو عائلاتٍ على ثراء وقوة غير عاديين. يحتمل أن يكون موقفنا سليماً إذا عَرّفناها كأول جّبانة ملكية في التاريخ النوبى . بالرغم من أن ترتيب تطورها غير مُستيقن (٣٤) ، فإن معظم المدافن التلية من الصعب أن تمثل أى شئ سوى سلسلةٍ متوالية؛ إذ لا يمكن التفكير في تواجد فردين أو أكثر من هؤلاء الأفراد الأقوياء معاً في نفس الوقت والمكان .

فى حين أننا في حضرة سلطة شديدة التركيز ومتزايدةً في تكافؤ، لا نستطيع بعد أن ندرك وجود مجتمع طبقى. فالفوارق بين أعظم وأقل مدافن كّميةٌ أساساً أقوى منها نوعية ؛ إضافة إلى ذلك، فإن القبور كلها بشكل أو آخر مخلوطةٌ مع بعضها البعض في نفس الجّبانة ، ولا نستطيع أن نرسم خطاً حاداً بين المدافن التلية العظمى وما يقل عنها، فالعديد منها يجوز أيضاً أن يكون قبوراً لملوك في عهود متواضعة . القبور الإضافية تُمَثل، فيما هو مفترض ، أعضاء مهمين في دار الملك ممن كان مسموحاً لهم بالحياة بعده ولكنهم يرغبون في تجديد إرتباطهم معه في الحياة الآخرة .

أما التناقض بين القبور الإضافية والجنائز القربانية فيوحى بأنه بينما أن الأولى ربما كانت حفائظ مَلكيةً هامة، فإن الأخيرة كانت على الأرجح عبيداً. فإذا كان الحال كذلك ، فإن حيازة الرق لابد أنها تطورت على نطاق واسع إبّان أوج مملكة كرمة، وربما أنها أيضاً استُثيرت بالنموذج الذى مارسه الفراعنة، كما كان قَبضُ الأرقاء المتزايد من قبل ملوك غرب إفريقيا في القرن الثامن عشر ناتجاً متفرعاً من عقودهم مع تجار الرقيق الأوروبيين . إن الوجود الظاهر لأعدادٍ كبيرة من العبيد مؤشر واحد من مؤشراتٍ عديدة علي أن أهل كرمة كانوا سلالةً مُحاربةً أشد بكثير مما كان عليه أبناء عمومتهم في النوبة السُفلى .

مشكلات تسلسل الأحداث الزمنية

مشكلة مبدئية تخص العلاقة المؤقتة لجزئى موقع كرمة. كرباط عام بينهما، كيفما تم ذلك، أمامنا العمل الطوبى *للدفوفتين* العليا والسفلى، والأختام الطينية العديدة (وأغلبها يعود تأريخه للهكسوس)

التى وُجدت في كل من المكانين، والمصنوعات المختلفة التى تم حملها للمحطة التجارية حيث شابهتها بضائع عُثر عليها في قبور الجّبانة . إنه يبدو منطقياً في أى حالة أن يفترض ـ كما فعل رايزنر ـ أن مبانى الطوب والمدافن التلية العظمى تمثل قمةً واحدة من الثروة والقوة .

التاريخ المطلق لأوج كرمة مشكلة أقسى صعوبةً لمدى بعيد . لقد أُسس إعتقاد رايزنر الأصلى في تاريخ دولة وسطى تأسيساً يكاد يكون تاماً على تماثيل حبزفا وسنوى، ولوحة إنتف، ومواد قليلة أخرى من صنع مصرى . فإذا تَعرفنا، مع هذا ، على أن مادةً من تاريخ متأخر قد وُجدت في نفس المدافن التلية ، وأن كل المادة النقوشية التى وُجدت في كرمة قد تمثل بضائع مستعملة إستُجلبت في تاريخ متأخر، فإنه لا تبقى هنالك قاعدةٌ صلبة لتاريخ دولة وسطى. إنما تبقى البّينة الإستدلالية الخاصة بقلاع الشلال الثانى وحدها، مشيرةً إلى وجود نوع ما من مركز القوة بعيداً صوب الجنوب، والتمثلات المُحّددة لعمل *الدفوفة* الطوبى لبناءات القلاع .

الأجدر بالذكر من الحجارة المنحوتة تلك الأختام الطينية الدامغة التى توجد في كل من *الدفوفة* السفلى وجّبانة كرمة. إن غالبيتها العظمى ترجع إلى فترة الهكسوس . وقد تعرف رايزنر بنفسه على ذلك، لكنه تغلّب على الصعوبة المُكتنفة في الأمر جزئياً بافتراض أن طراز الخِتم الذى يُحّدد عادةً بالمرحلة الإنتقالية الثانية يجب في الحقيقة أن يكون قد جرى تطويره في وقت سابق [٣٥]. إن خلاصته ـ مع هذا ـ لم يؤيدها عمل لاحق في مصر . وإذا أُخذت الأختام ككل مع خطوط أخرى للإثبات، في كل من كرمة وغيرها من الأماكن ، فإن أفضل تاريخ إحتمالاً لأوج عظمة كرمة يبدو مواكباً لقمة قوة الهكسوس في مصر السُفلى، القرن السادس عشر قبل الميلاد [٣٦] .

من الجائز بالطبع أن تُمثل المدافن التلية العظمى فَصلاً قصيراً فحسب من تاريخ أشّد طولاً. إعتماداً على السكان في مستوطنة كرمة. فإن آلاف القبور في الجّبانة الشرقية يمكن أن تمثل إقامةً لعدة قرون، أو أنها يمكن أن تنتمى بكليتها إلى فترة أكثر قِصراً. تتجسد درجةٌ معينة من التغيير الثقافى بين القبور في الأجزاء الجنوبية والشمالية من الجّبانة؛ إنها تُبرز علامتها في ناحيةٍ بقلة الجنائز القربانية في الشمال. أما افتراض رايزنر فقد انصّب على أن الجّبانة نمت من الجنوب إلى الشمال، وأن التغيير الذى طرأ عليها مَثّلَ عمليةً لجعلها نوبية وإفقاراً بمستوى عال [٣٧]. أياً كان ذلك، لا يمكن إستبعاد إمكانية النمو في الإتجاه الآخر . في ضوء معرفتنا العامة بالعلاقات المصرية ـ النوبية، تبدو فترة طويلة من النمو الذى يؤدى إلى قمة إزدهار كرمة أكثر إحتمالاً مما تبدو عليه فترة طويلة من الإضمحلال الذى يعقبها (قارن الفصل التاسع). إن علينا، رغم هذا، أن نسّلم بأن مساحة الزمن الذى تمثله جّبانة كرمة وثقافة كرمة قد لا يكون طويلاً . فالثقافة كما نعلمها الآن تُبدى تغييراً تطورياً اقل كثيراً من بدايته إلى نهايته، مما تُبدى ثقافة المجموعة الثالثة في النوبة السفلى (الفصل السادس).

مواقع كرمة فى الشمال

بقى موقع كرمة، بعد حفرها بزمن طويل، الممثل الوحيد على قيمة ثقافتها . وقبل وقت قريب، مع هذا، وُجدت مواقع قليلة أخرى بين ما يفترض أنه "إقليم كرمة" . لا تزال مواقع أخرى مما عثر عليه في مكانٍ بأقصى اتجاه الشمال، تضيف في ظروف خاصة بعداً إضافياً لمسألة كرمة .

ولئن كانت قصة كرمة مقبولةً على أنها معاصرة لثقافة المجموعة الثالثة في مرحلتها المتأخرة، إذّن لابد أن يكون بينهما في مكانٍ ما هنالك حد ثقافى أو منطقة إنتقالية. إن المكان المنطقى للنظر فيه إلى مثل تلك الحدود هو سمنة ، حيث أنها كانت الحّد الذى اختاره حكام النوبة السفلى في الدولة الوسطى [٣٨] . يجد هذا الغرض، غم أنه ليس مؤيداً بشكلٍ مكتمل، مؤازرة مُقدرة من المسح الآثارى

الذى اختُتم من فترةٍ وجيزة في *بطن الحجر*. جَبانات ثقافة المجموعة الثالثة وُجدت بما لا يبعد عن جنوب السَّرات وحسب، عشر أميال شمالى سمنة [٣٩]. في المنطقة التى تقع جنوب سمنة مباشرة، كُشف عن عدد من جَبانات كرمة (٤). مدافن كرمة وُجدت أيضاً إلي الشمال من سمنة، لكن تحت أحوال خاصة معيّنة سوف يجرى وصفها في الحال .

إقليم كرمة، إذَن، امتد إفتراضاً من مكانٍ ما فوق كرمة بالجنوب إلى سمنة في الشمال. بكل الإحتمالات، كان هو الأرض الأصلية لكوش، كما ظهرت الكلمة أولاً في نصوص الدولة الوسطى [٤١]. في نطاق هذا الإقليم جرى التحقيق في جَبانتين هامتين بالإضافة إلى "موقع الإكتشاف" . المحطة التجارية بجزيرة صاى (كرسى محلى هام للسلطة خلال معظم التاريخ النوبى الأخير) ضخمة؛ وربما توازى في ضخامتها جَبانة كرمة نفسها. هنا أيضاً بعض المدافن التلية شديدة الضخامة، مع أن أياً منها لا يقارب أبعاد أكبر المدافن التلية الملكية في الجنوب. المحطة التجارية في صاى حُفرت جزئياً بين ١٩٧٠ و١٩٧٢ ؛ وُجد أن القبور وما حوت متماثلةٌ في كل جانبٍ مع المدافن التلية الصغرى في كرمة ما عدا الغياب الظاهر للمدفونات القربانية [٤٢] .

لقد حُفرت جَبانة بأكملها في كرمة تشمل عدة مئات من القبور في أكمة *بطن الحجر* حيث تم إنجاز العمل لتوه، وليس هنالك تقرير توفر نشره بعد . إن معظم المعثورات تتساوق فيما هو واضح مع نمط كرمة المتوقع [٤٣]، لكن المنَقّب يعتقد أن قبوراً عديدة تمثل تقليداً ثقافياً إفتراقياً : جماعة أجنبية ربما كانت تحيا في علاقة تبادلٍ وثيق رغم إختلافها مع سكان كرمة الغالبين [٤٤].

شمال سمنة، بُلّغ عن جَبانات لكرمة أو عن قبور منعزلة في السَّرات [٤٥]، وعبكة [٤٦]، ومرقسة [٤٧]، وأبو سر [٤٨]،وبوهين [٤٩]، وعنيبة [٥٠]، وكوبان [٥١]. من هذه القبور ، حُفرت الجَبانة في مرقسة التى شملت إثنين وعشرين قبراً ، حفراً كاملاً . لقد وُضعت القبور بالقرب من أسوار القلعة الكبرى، نوعاً ما في *وادٍ ناءٍ* بعيداً عن المدافن المصرية الرئيسة. كانت كل القبور صغيرةً نسبياً لكنها في جوانب أخرى عرضت المرّكب الجنائزى المطابق لكرمة. وكانت هنالك أربع حالات على الأقل لقرابين بشرية [٥٢] .

فى سفح صخرة أبو سر، منتصف الطريق بين مرقسة وبوهين وُجد تجمع خفيف لسبعة من أشباه قبور كرمة. ومع ذلك كانت هناك إختلافات عن ممارسة الدفن المألوفة. فقد وُضعت الأجساد إما على اليمين أو يساراً بالجنب، دون توجه منتظم، ولم تكن هناك آثار لأَسِرَّة. إن المدافن التلية، إن كانت قد وُجدت أصلاً، دمرها التآكل [٥٣] .

جنائز كرمة المعهودة شمال سمنة لها صفة محددة شائعة بينها. فأغلبيتها العظمى مرتبطةٌ بالقلاع المصرية الكبرى، أو في حالة أبوسر، بنقطة مراقبةٍ مصانة في توافق مع القلاع (الفصل السابع). تبدو الخلاصة مما لا يمكن الهروب منه أنه في مكانٍ ما أثناء تاريخها كانت القلاع تدار جزئياً بقوات كرمة، التى جاءت أو أُحضرت من موطنها البعيد لذلك الهدف.

كيف كان الوقت والظروف المتعلقة بإحتلال كرمة للقلاع؟ إن كل المعثورات المعلومة تشير بما لا خطأ فيه إلي وقتٍ متأخر في المرحلة الإنتقالية الثانية ـ بإفتراض أنها كانت مواكبةً لأوج كرمة نفسها. يقع هذا نظرياً بين الاحتلالات المصرية الرئيسة للقلاع . مع ذلك يبدو من غير المحتمل أن الكرميين كانوا هم المحتلين الوحيدين لهذه الهياكل العظيمة . من الصعب على إثنين وعشرين رجلاً أن يُديروا المتاريس في مرقسة، ويبدو أن أتباع كرمة في القلاع الأخرى كانوا لا يزالون جماعةً صغيرة . يمكن أيضاً أن تكون هناك قبورٌ مصرية في مرقسة وغيرها مما يعود تاريخه إلى نفس فترة مدافن كرمة.

الإثبات المتوفر يوحى بأنه ،أثناء فترة الهكسوس، كانت قلاع النوبة السفلى تُدار بكوادر

صغيرة، من مسؤولي الدولة المصرية تُدَعمها بضعة قوات من الوطنيين. إلا أننا نعرف أن أوامر الملك المصري في طيبة لم تكن تمتد وراء أسوان ، وأن الحاميات في النوبة لم تكن لذلك تابعةً له . الخلاصة المعقولة الوحيدة هي أن كلاً من المسؤولين والرجال القائمين بالحراسة كانوا في خدمة ملك كرمة. يبدو هذا الأمر مثبتاً أيضاً في لوحة سبدهر (قارن الفصل السابع) : "لقد كنت قائداً جسوراً لبوهين، و ... إنني بنيت معبد حورس، رب بوهين، لإرضاء حاكم كوش" (٥٤). فالظاهر ، بإختصار انه في أثناء رفعة سلطانهم حل حكام كرمة محل الفرعون نفسه كأعلى أسياد للنوبة السُفلى وتجارتها (٥٥). كانت هذه الحالة من الشؤون بلا شك هي التي أثارت ولي العهد الفرعوني في طيبة ليبث شكواه الشهيرة "إنني أجلس متحداً مع آسيوي ونوبي، كل رجل ممتلك شريحةً من مصر هذي" (٥٦).

ثقافة "القبر الجامع"

جماعة واحدة أخرى من البقايا الآثارية، معاصرةً لفترة كرمة، تتطلب الذكر في هذا الفصل. هذه هي « القبور الجامعة » (كما تُدعى لأن حفرة القبر تحتفظ بخاصية التكوين البيضاوي الضحل المميز للأزمان الأولى في النوبة) تحدث على تباعد في كلٍ من النوبة السفلى ومصر . بالرغم من أنها تعرض خصائص نوبية معَممة ، وأحياناً تجزى في وسط جَبانات « المجموعة الثالثة »، فإن القبور الجامعة تتباين وفق عددٍ من الأسس عن القبور المألوفة في ثقافة المجموعة الثالثة في مرحلتها الأخيرة، ويظهر أنها تمثل إدخالاً أجنبياً في مصر والنوبة السفلى على السواء (٥٨). لقد فُكر مرة أنها تبين روابط قريبة من كرمة، وعلى أساس ذلك إقتُرح أنها في الحقيقة جنائز لجنودٍ من المملكة النوبية في النوبة العليا الذين كانوا قد خدموا في البلدان الشمالية (٥٩). إن تحليلاً أكثر تفصيلاً إقتُرح مع ذلك أن القبور الجامعة تفترق على قدم المساواة عن «المجموعة الثالثة » ودفونات كرمة، ويُعتقد الآن أنها تمثل جماعةً سكانية نوبية ثالثة (٦٠) يُعَرفها ساف ـ سودربرج بالمدجاي الرهيب في النصوص المصرية (٦١). هذه، فيما يبدو، لم تكن جماعاتٍ نهرية ولكنها جماعات بدو من الصحراء الشرقية، الذين ربما باعوا خدماتهم كمرتزقة لكلٍ من ملك كرمة وللفرعون. ويُستيقن الآن أن كل القبور الجامعة المعلومة يعود تأريخها إلى فترة الهكسوس (٦٢)، عندما كانت قوة كرمة في قمتها سواءً بسواء.

ملخص تفسيري

بينما كانت ثقافة المجموعة الثالثة تنمو ببطءٍ وسلام في النوبة السفلى، بَزَغت ثقافة أشدّ حيوية وحركة في الأراضي الأكثر تفضيلاً نحو الجنوب . الجوانب المادية لثقافة كرمة وثقافة المجموعة الثالثة متماثلةً على العموم ، ويحتمل أنها نبعت من أصلٍ واحد، لكنّ ثروة كرمة وقوتها جَرِدت لحدٍ بعيد ما امتلكه النوبيون من ذلك في النوبة السفلى. إن كرمة في أوجها أصبحت ملكية مطلقة ذات موازنات مريرة، في حين أن المؤسسات الإجتماعية لثقافة المجموعة الثالثة لم تتقدم ابداً وراء نظام لعصبةٍ قطاعية ربما أنها افتقدت اي سلطة مركزية . التناقض بينهما يمكن أن يُشَابه بالتناقض بين باقندا ذات السلطة الإستبدادية الطاغية وبين النوير الذين هم أكثر ديمقراطية، في أزمان حديثة : إنهم أناس متصلون ثقافياً ، لكنهم يعرضون مستويات مختلفةً للغاية من التطور السياسي .

تقدم النوبيون في النوبة العليا على جيوانهم أنفاً بحلول نهاية الدولة القديمة يبدو واضحاً من التقارير المصرية عن أرض يام. وبمقدم الدولة الوسطى كانت قيمة التجارة المصرية مع النوبة العليا كافيةً لإيقاظ طموح الفرعون كي يبذل جهداً محسوساً لحمايتها والسيطرة عليها، كما تبرهن على ذلك قلاع الشلال الثاني. إلا انه مع هذا لا يمكننا آثارياً التعرف على مصدر كل هذا الإهتمام والنشاط في النوبة العليا إلى تأريخ لا يزال متأخراً. فالمدافن المَلكية التلية العظمى والصروح المعمارية لكرمة

فيما يظهر تنتمى إلى المرحلة الإنتقالية الثانية، عندما كانت قوة النوبيين تنمو بالنسبة لحالة الضعف والإنقسام الجارية في مصر .

إن الثروة إن لم تكن قوة كرمة نفسها إعتمدت في صفاء على تجاور لمنافع إقتصادية وثيقة مع مصر، وعلى وجه الخصوص مصر السفلى . التجارة مع الدلتا هى التى جُعلت ألملك النوبى والنبلاء مزّودين بسلع الترف المستجلبة، والتى حرضتهم ليتركوا طريق التجارة مفتوحاً نحو الشمال بإنشاء حاميات صغيرة في القلاع المصرية السابقة في النوبة السفلى. ومن أجل صون هذه التجارة وتمديدها، ربما اضطلّع الملك النوبى بمشاريع عسكرية وتجارية مكثفة في الأراضى التى لم تزل بعيدةً صوب الجنوب .

أشرفت صفوةٌ من مسؤولى الدولة المصريين على المصنوعات وتجارة كرمة والتصدير إنابةً عن الحاكم الوطنى. لقد كانوا، مع هذا ، أشخاصاً تجاريين أكثر منهم عسكريين أو سياسيين. مملكة كرمة كانت مستقلةً، ذاتية الحكم، وقادرة ليس فقط على حماية إقليمها وإنما ، في غياب السلطة المصرية، على الإحتفاظ بهيمنةٍ غير مشدّدة على النوبة السفلى بالمثل . تعرض صورة كرمة في الألفية الثانية قبل الميلاد موازيات عديدة بمملكة داهومى في القرن الثامن عشر، إعتمدت ثروتها وقوتها على الأسلحة النارية التى أمدتها بها القوى الأوروبية في مقابل الرقيق، الذى كان يُسلّم "لعواملهم" المقيمة في ميناء وايده الضخم للرق (٦٣) .

تمثل كرمة خُطوةً إنتقالية بين مراحل قبلية وأُسَرية للتطور الثقافى النوبى. إن مؤسساتها المادية وإلى حدٍ ما مؤسساتها الإجتماعية على حدٍ سواء هى مؤسسات الفترة القبلية، وهى تختلف إختلافاً يسيراً في مادتها عن الثقافتين النوبيتين للمجموعة الأولى والمجموعة الثانية في النوبة السفلى. مع هذا فإن ملكها الإستبدادى الذى يُفترض أنه صاحب حقٍ إلهى وتجارتها التى نظمتها الدولة يشكلان خطوة أولى، طويلة في إتجاه الطريق نحو الإمبراطورية . ولو قيض للثقافة أن تنمو بلا مضايقة ، فإن مجتمعاً طبقياً، وإقتصاد مزارعين، وحكومة بيروقراطية، وكل "المباركات" الأخرى للحضارة الإمبراطورية كان من المحتّم أن تتبع ذلك زمنياً .

فيما ال إليه الأمر، أُعيقت مسيرة النمو الطبيعى الصميم لنظام إمبريالى في السودان من المصريين (الفصل التاسع). بإقصائهم الحكام الوطنيين جانباً، أنشأوا هيمنتهم الخاصة بهم من الشلال الأول إلى الشلال الرابع. إن المركّب الحضارى الكامل للنوبة بهذه الكيفية ليس نتاجاً للتطورات الثقافية المحلية، لكنه كان غرساً من مصر. ولقد مضت عدة قرونٍ مؤخراً قبل أن تتحقق إمبراطورية نوبية أصيلة ـ لكنها إذ جاءت ـ تدين بالكثير لتراث كرمة .



الفصل التاسع

ولاية كوش
النوبة في ظل الدولة المصرية الجديدة

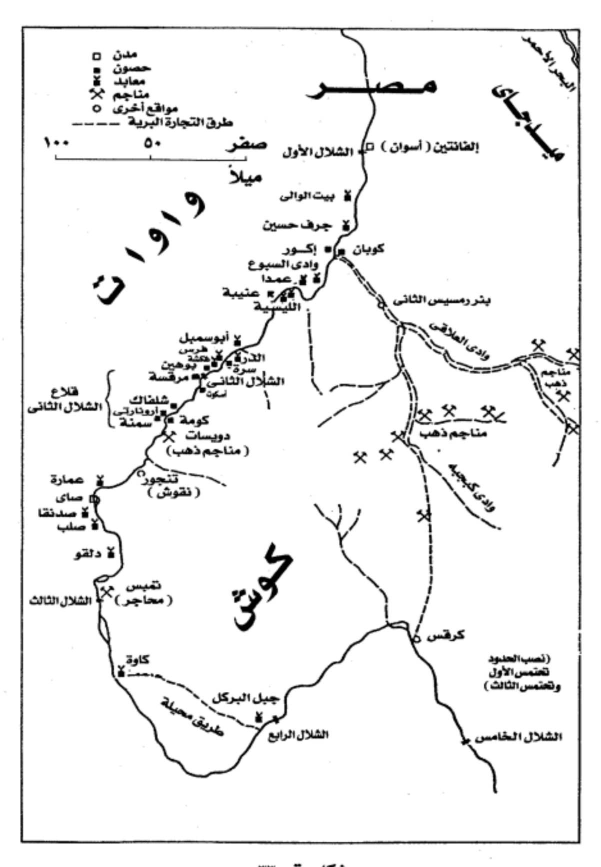
الأحداث المقحمة لحكم الهكسوس في مصر شخّصها جون ويلسون أنها "الإذلال العظيم" (١). إنه إذلال لابد أن يكون حاداً - على وجه الخصوص - "للفراعنة" السابقين الذين واصلوا احتفاظهم بإستقلال هش في طيبة. بينما وقعت الأراضي المصرية السابقة شمالهم وجنوبهم تحت سيطرة الأجانب. لأجيالٍ عديدة كان على ملوك الأُسرات بطيبة أن يتحملوا الدوس على كبريائهم، يدفعون الجزية للهكسوس من حينٍ لآخر، ويسمحون بمرور حر لتبادلهم السلعي مع كرمة . وفي كل تلك الأثناء كانوا يتحينون لوقتهم، ينتظرون سانحةً لقلب الموائد . أعاد كاموس، آخر حاكم للأسرة السابعة عشرة في طيبة بصفاء موضوع إستعادة الإقليم السياسي للسيطرة المصرية : "لا يُستريحن رجل، أفسده استبعاد الآسيويين. لسوف أوثقه بالأغلال على سفينة، وأبعج أمعاءه، فإن رغبتي هي إستعادة مصر وأن أُجهز على الآسيويين" (٢).

الطرد التدريجي، الذي بدأه كاموس، بلغ نهايته المنتصرة في ظل وريثه أحمس، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة البارزة وأعظم إمبراطورية لمصر. بعد حصار طويل أقصى الغرباء عن عاصمتهم الكائنة في الدلتا وأُجبروا على الإنسحاب للأراضي الآسيوية التي ربما جاء منها أسلافهم أصلاً. إن إنبثاق لحظة المطاردة شنتها الجيوش المصرية عبر سيناء ثم إلى داخل فلسطين، حيث أُجبر الهكسوس في سلسلةٍ من المعارك العنيدة على الجلاء من مواقعهم الحصينة الواحد تلو الآخر، وسحقت قوتهم في آخر الأمر (٣). في ختام الحملة وجد أحمس نفسه سيداً ليس فقط على مصر لكن على مقاطعات فسيحةٍ من فلسطين وسوريا وإفريقيا على السواء .

ما رجع أحمس منتصراً من حملاته الآسيوية حتي وجّه إنتباهه للنوبة، الحليف الأخير للهكسوس (قارن الفصل الثامن). لقد كانت حملةٌ تنويرية في العام الثاني والعشرين من حكمه كافيةً لإستعادة الإقليم المصري السابق للنوبة السُفلى، وقد لاقت فيما يبدو مقاومةً قليلة من القوات المحلية أو القوات التي تدعمها كرمة. أُعيد إحتلال قلعة بوهين، بُدئ في معبد هنالك، وعُيّن حاكم مصري دائم في عهد الحكم التالي كان عليهِ أن يصير أول والٍ لكوش (٤).

الفراعنة المحاربون الذين خَلَفوا أحمس - أمنحُتب الأول وتحتمس الأول والثاني والثالث الأوائل - ناضلوا بوعي لمد تخوم الإمبراطورية بكلٍ من آسيا وإفريقيا . إخترقت جيوشهم النوبة بعيداً فيما وراء حدود الإستكشاف السابق، مما أدى في النهاية إلى إنشاء سيادةٍ مصرية في إتجاه مصب النهر إلى الشلال الرابع وربما بعده. لوحات "الحدود" لتحتمس الأول وتحتمس الثالث وُجدت وراء أبو حمد، ليس بعيداً عن الشلال الخامس، حيث يعيد الطريق الصحراوي العظيم من كورسكو إلتصاقه بالنيل (الشكل رقم ٣٢) (٥). مثل نحت سنوسرت الباكر في سمنة (الفصل السابع)، قُصد بهذه فيما هو محتمل إعلان إحتكار مصري - للتجارة البرية في هذه الحالة - عبر الطريق الصحراوي العظيم .

كانت آخر حملةٍ رئيسة للغزو والضم قد اضطُلع بها في عهد تحتمس الثاني. بُلغ عن غارات إسترقاق متخفيةٍ في زي حَملات تأديبية، من وقت لآخر حتى نهاية الدولة الجديدة، ولم يكن لها شأن كبير مع ذلك بالأحداث السياسية خلال العهود الأخيرة (٦) . كانت النوبة طبقاً لكل الأغراض العملية



شكل رقم ٣٣
الإستعمار المصرى في الدولة الجديدة

إقليماً مصرياً، وسكانها رعايا مصريين. فلما تمت حيازة هذا الإقليم الواسع المدر للثروة ـ الذى يساوى في حجمه مصر نفسها، ويزيد كثيراً في مساحته على الأملاك الإمبراطورية، في آسيا ـ تهيأ الفرعون لحكمه وإستغلاله، وتمصيره في عاقبة الأمر. وفى النهاية تعدى نجاح هذه المساعى ما كان متوقعاً ، وظل الأثر محسوساً في مصر لقرون تالية.

غــزاة وبنــاة

كان فراعنة الدولة الجديدة من بين بُناة التاريخ العظماء. إن مغامراتهم في آسيا أدّت بهم لإحتكاك مباشر مع حضارات القدم العظيمة ، وفتحت أول نافذة حقيقيةٍ لمصر على العالم الخارجي . أفسحت إدارة المحافظات التقليدية الطريق لنظرةٍ جديدة أكثر عالمية. والمحّصلة، كما هو معتاد، إستثارة هائلة للفنون الصروحية. فالمعابد الضخمة في الدولة الجديدة ربما لم يُقصد بها أن تؤثر على المصريين وحدهم ، ولكن على كل العالم المتحضر. إن عدد هذه الصروح، بكلٍ من مصر والنوبة، يتعدى كثيراً جملة النُصب التذكارية الباقية من كل العصور الأخرى .

كان الفراعنة الأوائل من الأسرة الثامنة عشرة يتملكهم إشتغال بالميدان العسكرى دون إقامةٍ لمشاريع مخططةٍ لتشييد رئيس. كانوا قانعين بداية الأمر بإعادة الإحتلال وصيانة القلاع الموجودة في النوبة. بُدئ في هذا العمل آنفاً كما يبدو في عهد أحمس، وقد نفّذ على نطاق واسع بشكل معتبر في ظل تحتمس الأول وتحتمس الثانى. لربما كان تبرير الأولية الأعلى التى مُنحت لتجديد القلاع منصّباً على أساس أن قبضةً حازمة يُحتاج لها في الإقليم الذى أُعيد فتحه من جديد، لكنها ربما كانت أيضاً عملاً رمزياً خُطط له لإستعادة المكانة المصرية، حيث أن القلاع كانت وقد بقيت رموزاً عمادية للحكم المصرى في النوبة . الترميمات في حالات كثيرة يمكن أن تُفسر كإبرازٍ للوجه ليس إلا؛ تمثلاً لذلك، فإن "الأسوار الخارجية" التى أُضيفت للتحصينات العاتية المبّينة من قبل في بوهين ومرقسة ما كان بوسعها أن تخدم أى هدف سوى استعادة واجهة سالفة. جدير بالذكر أيضاً أن القلاع التى جُددت تجديداً كثيفاً كانت هى التى يتوجب عليها أن تقوم بدور مراكز إدارية رئيسة فحسب : كوبان، عنِيبة، سرّة وبوهين. قلاع الشلال الثانى جنوب بوهين، التى كانت ذات مرة المفاتيح الإستراتيجية للسيطرة على النوبة ، أصابها اهتمام قليل نسبياً .

مع اندفاع السيطرة المصرية بعيداً في إتجاه مصب النيل، تم إنشاء مستوطنات جديدة وراء مدي القلاع القائمة. معظمها تم تسويره، على نهج المبانى القديمة، لكن دفاعاتها افتقدت بوضوح التعقد و "الصرحية" الملموسة في تحصينات النوبة الوسطى. ترتيباتها الداخلية، في طائلة ما تمّ التحقيق بشأنه، لا تُوحى بحاميات مدن عالية النظام (الشكل رقم ٣٤). من الجانب الآخر، فإن المعبد الحّجرى صفة غالبة لكل المستوطنات الجديدة، وقلاع النوبة السفلى التى أُعيد شغلها على حد سواء [٧]. إن تغييراً متنوع الظلال السياسية يلاحظ بدقة هنا : المعبد بدأ في الحلول محل القلعة كرمزٍ أساسى للحكم المصرى .

بدأت بناية المعابد على نطاقٍ واسع في النوبة على عهد تحتمس الثانى، الذى أكمل إخضاع القطر . منذ دخول عهده وما تلاه من عهود إضمحلت بشكلٍ يدعو للملاحظة بناية التحصينات وصيانتها، وبعض المدن الأخيرة التى أُنشئت في النوبة العليا، في كاوة وجبل البركل، ربما لم يجر تسويرها . علاوةً على ذلك، بحلول الأسرة الثامنة عشرة مؤخراً أقام العديد من المستوطنات القديمة أسوارها الدفاعية الخاصة بها . في كوبان، وعنِيبة، وبوهين، يمتد خليط غير متجانس من المنازل الخاصة بعيداً وراء أبراج القلاع . وبينما تصير التحصينات أقل أهميةً شيئا فشيئاً، مع ذلك، فقد اضطُلع ببناء المعابد على نطاق توسعى بمستوىً متزايد، وبلغ قمته في عهد رمسيس الثانى .

كانت هنالك "موجتان" رئيستان لبناء المعابد في النوبة خلال الدولة الجديدة . تربط الأولى بعهود حكم تحتمس الثانى وتحتمس الثالث، وإلى مدى أقل ترتبط بخلفائهم الخمسة المباشرين. إن التحتمسيين هم الذين قاموا ببناء المعابد في قلاع عديدة بالشلال الثانى، وبذا أُدمجت التعابير الصروحية القديمة والحديثة معاً للسيادة المصرية ."برغم أنها صغيرة شُيدت المعابد التحتمُسية أغلب الأحيان تشييداً متيناً وهى بسيطة في تصميمها بأناقة. أما معابد سمنة وكومة (وقد أعيد تركيبها في الخرطوم) فهى بين أبقى الأمثلة الكاملة لمعمار الأسرة الثامنة عشر بأى مكان [8] .

مع انحصار الأنشطة البنائية للتحتمسيين الأوائل بالقدر الأكبر في مستوطنات القلاع القديمة، إشتّق الفراعنة المتأخرون في الأسرة الثامنة عشرة أساساً جديداً بإنشاء المعابد والمستوطنات المسّورة مع بعضها البعض في إقليم النوبة العليا الذى كان بكراً من قبل. إن أمنحتب الثالث، الذى يعّد عهد حكمه أعلى أبهُة فرعونية، شيّد في أرض عبرى - دلقو النهرية معبداً رائعاً لنفسه وآخر لزوجته. وفى نفس المساحة العامة قام خلفه "الفرعون الصابئ" إخناتون، ببناء مدن معبدية في سسبى وكاوة (الشكل رقم ٣٣) . وشّيد توت عنخ آمون، أحد آخر الملوك في الأسرة الثامنة عشرة، معابد صغرى تتخلل المستوطنات القائمة في فرس وكاوة .

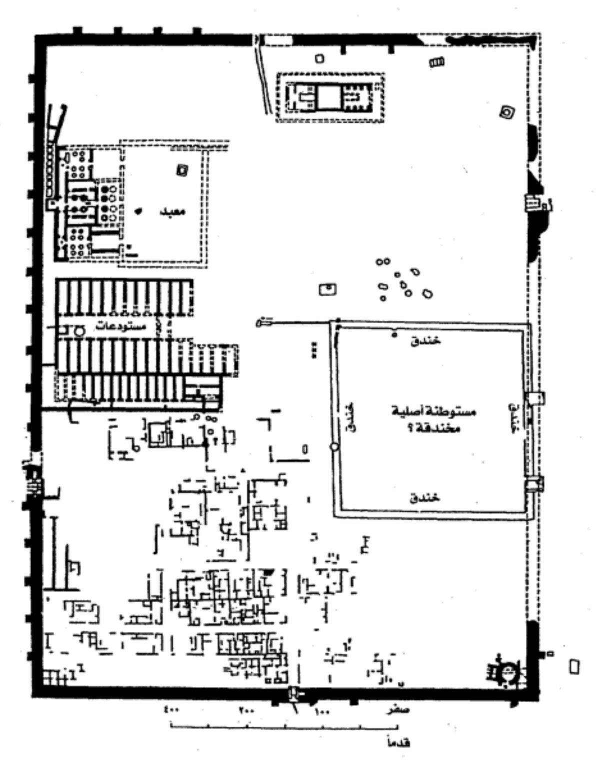
لما حَلَّ عهد إخناتون، كان الدفع الرئيس للتوسع الإستعمارى المصرى قد استُهلك بوضوح. ما أُوجدت مدنٌ جديدة بعد إنقضاء حكمه، وكان بناء المعابد لخلفائه المباشرين على نطاق ضيق للغاية. إن الفوضى السياسية التى صدرت نتيجةً لمحاولته تبديل ديانة الدولة في مصر أضعفت القطر لنصف قرن ، وقادت إلى سقوط الأسرة الثامنة عشرة .

الموجه العظيمة لبناء المعابد في النوبة تبدأ وتنتهى فعلياً بعهد رمسيس الثانى، رابع ملك في الأسرة التاسعة عشرة وآخر وجه بارز حقيقةً في تاريخ مصر القديم. في مصر، كما في النوبة، أنشأ هذا الملك المتباهى بأمجاده معابد أكثر وأضخم من كل مما قام به أسلافه معاً. وفى حين أن ابوسُمبل هو أبرز الصروح الباقية، فإنه ليس إلا واحداً من عشر معابد رمسيسية جنوبى أسوان. في الرسوم المنحوتة بأبو سُمبل والعديد من المعابد الأخرى، يُرسَم رمسيس راكعاً في خضوع لإله - وهو منظر إتفاقي في زُخرف المِعبد المصرى - إلا أنه في هذه الحالات كان الإله موضع التقديس هو رمسيس نفسه! كفعل خُيَلائى لابد أن لهذا موازيات قليلة في التاريخ [9] .

التجديد العظيم لعهد رمسيس موضعه المعبد المقطوع من الصحراء. هذه التركية المعمارية جرى تطويرها في نطاق محدود آنفاً، على الأقل فيما يعود إلى زمن التحتمسيين، سوى أن كل المعابد الفخمة المقتطعةً من الصخر في النوبة من عمل رمسيس الثانى . بالإضافة إلى النموذج الذى لا يوجد له شبيه في أبو سمبل، كانت هنالك معابد صخرية لرمسيس في الدر، وادى السبوع، جرف حسين، وبيت الوالي، وكلها تقع شمال أبوسُمبل في النوبة السُفلي (الشكل رقم ٣٣)، حيث منحت المنحدرات العالية نسبيا من الحجارة الرملية نفسها لنمط هذا المعمار المتميز. وراء أبو سُمبل، في فرس، وعكشة، وعمارة، وجبل البركل، كان على رمسيس أن يُقنع نفسه بمعابدٍ ذات بناء أكثر اعتياداً

وُصف أبو سُمبل بأنه أى شئ من قطعة رائعة المستوى إلى "مثير هائل للإحتقار" [10]. إن تفرده، مع هذا، وراء أى جدال. وإعجاب المكتشف بورخارت المحير، عندما ساقته الأقدار في ١٨١٣ إلى مقربة من البناية الضخمة المدفونة، مدوّن في مجلته :

حيث أننى، فيما أعتقد، قد شاهدت كل الآثار في أبو سُمبل، كنت أحاول الصعود للجانب الرملى من الجبل بنفس الطريقة التى نزلت بها آنفاً؛ وعندما استدرت لحسن الحظ في إتجاه يميل ناحية الجنوب، أُخذت بما كان لا يزال ظاهراً من أربعة تماثيلٍ ضخمة للغاية ومقطوعة من الصخر؛ ... إنها تنتصب في مكانٍ خفّى عميق، محفورةً في



شكل رقم ٣٤

رسم تخطيطى لمدينة مسورة من عهد الدولة الجديدة ، سسبى (دلقو)

الجبل. لكنه مما يدعو للأسف العظيم، أنها الآن مدفونةٌ بكاملها تحت الرمال، التى تُدفع نحو الأسفل هنا بإجتياح. إن الرأس بأكمله، وجزءاً من الصدر وأيدى أحد التماثيل مع ذلك فوق السطح؛ ومن التمثال المجاور له قلما يظهر أى جزء، الرأس مكسور، والجسم مغطىً بالرمال إلى ما فوق الاكتاف؛ ومن الثانى ظهرت قبعات الرأس وحدها. من الصعب أن نحّدد ما إذا كانت هذه التماثيل في وضع جلوس أو قيام؛ إن ظُهُورها تابعة لجزء من صخرة، تتقدم عن الكتلة الرئيسة، ويمكن أن تمثل شيئاً من كرسى ، أو ربما تكون محض عمود للتدعيم. أما الرأس الذى يطل فوق السطح فإن له أكثر مظهر شبابى مُعّبر، أقرب ما يكون إلى نموذج إغريقى للجمال، من أى منظرٍ مصرى أبصرته من قبل؛ حقيقة، لولا لحية خفيفة مُستطالة، لأمكن أن يُعَد رأساً لأثينا [١١].

إن إزالة مئات من أطنان الرمل، منذ زيارة بورخارت، جعلت في الإمكان تقديم امرى لوصفٍ أدقَ تفصيلاً للمعبد :

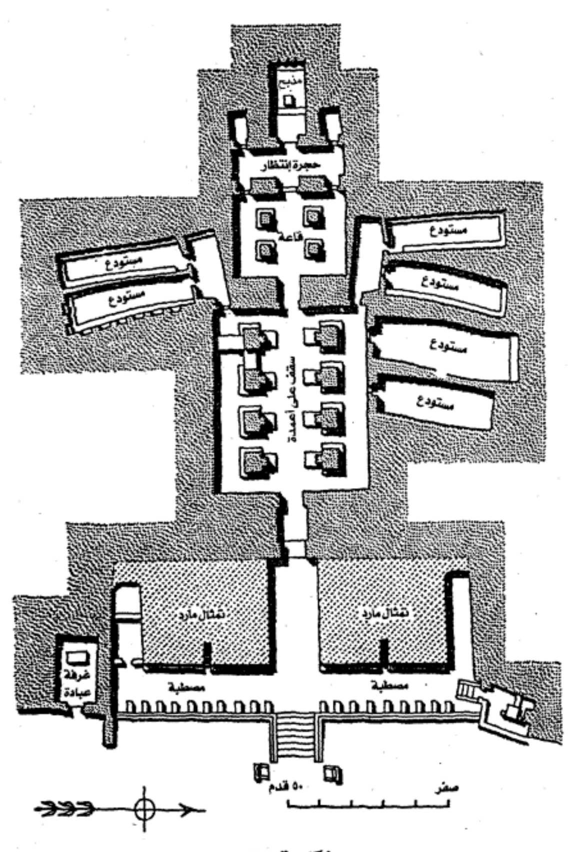
الملامح الرئيسة لشكل المعبد الخارجى هى أربعة تماثيل ضخمة للملك نُحتت من الصخر الحى جانب التل (الصورة ٩ ـ أ). إن الأشكال الجالسة ، اثنان على كلٍ من طَرَفى المدخل ، أطول من ٦٥ قدماً إرتفاعاً، وتمثل رمسيس لابساً لتاج مصر المزدّوج. على جانبىّ كل تمثال، بين الأقدام، أشكال للملكة نفرتارى وبعض الأطفال الملكيين، وهم أنفسهم مُمثّلون بتماثيل من حجم عظيم ولكنها مصّغرة بالنسبة للبناء الضخم. إن كلاً من الجماعات الأربعة تقف على قاعدة عاليةٍ منحوت عليها في أشكال مستطالة رمسيس وجماعات من الأسرى الآسيويين والزنوج؛ بينما العروض التى تشبه الصناديق وهى ما أقيم عليه البناء الضخم مزخرفةٌ بجماعات متآلفة تمثل إتحاد الأرضين . الواجهة التى تمثل خلفية للبناية منحوتة في شكل بوابة ذات عرض بارز يُزّينة صف من القرود، ترتفع أيديهم لعبادة الشمس البازغة. وفوق المدخل إلى بهو المعبد تمثال لإله الشمس برأس النسر رى ـ هارمشيس ...

يقود المدخل المؤدى إلى المعبد مباشرةً إلى القاعة الكبرى، ومن ملامحها الرئيسة صفان لأربعة أعمدة مربعة على واجهاتها أشكال ضخمة بارزة للملك، الذى يُمّثل ثانيةً وهو يلبس التاج المزدوج ويمسك بالصولجان المتدلي ذى المقبض المنحنى (الصورة ٩ ـ ب) . أما أعمدة القاعة الكبرى وأسوارها، التى تبلغ ٣٠ قدماً في إرتفاعها ، فهى مُغطاة بالمناظر والنقوش التى تتصل بالإحتفالات الدينية ومغامرات الملك العسكرية في حروبه مع الهيتيتس في سوريا، والكوشيين في السودان، ويحّلى السقف رسم متآلف من الأشكال المستطالة وصقور لها أجنحة ممطوطة .

في الأسوار الشمالية والغربية للقاعة، أبواب تقود إلى سلسلة من الغرف التى ربما أستُعملت كغرف لإجتماعات ومخازن للكهنة (قارن الشكل رقم ٣٥). إن الرسوم المنقوشة على الحيطان مكرسة بأجمعها لمواضيع دينية.

أما الباب المركزى في السور الغربى فيعطى مجالاً لقاعة أصغر، سقفها مدعوم بأربعة أعمدة مربعة، هنا مرة ثانية رسوم الحيطان كلها دينية تماماً في كنهها. وراء هذه القاعة غرفة إنتظار لأداء العبادة، لها ثلاثة أبواب في السور الغربى، إثنان يقعان على جانبيها يؤديان لحجرات غير منقوشة وإلى الغرفة المركزية على المحور المباشر للمعبد، وتقود لمكان العبادة . وفى السور الغربى لمكان العبادة صفٌ من أربعة تماثيل جالسةً في نحتٍ على الصخر الحى . هذه هى الآلهة الأساسية للمعبد : بتاح، آمون، رمسيس نفسه، ورى ـ هارمشيس . أمامهم ، في مركز الغرفة، مذبح صغير غير منقوش، فهنا في هذا المكان لابد أنه كانت ستقدم الضحية وتوضع القرابين، عندما ينير شعاع الشمس الطالعة مكان العبادة في الفجر [١٢].

على خلاف من سبقه من الفراعنة ، كان رمسيس مُشّيداً للمعابد على وجه الخصوص، فلم يكن بانياً للمدن. وفى حين أن معابد التحتمسيين والأمنحتبيين كلها بالتقريب مرتبطة بالمستوطنات القائمة أو بمستوطنات جديدة، فإن بعض إنشاءات رمسيس، خصوصاً في النوبة السفلى، يبدو أنها تحمل علاقة بسيطة بمراكز موجودة للسكان والنشاط. هنالك في الحقيقة دليل شافٍ على أن الإستثمار الإستعمارى للنوبة كان قد بدأ في الإضمحلال إبان عهد رمسيس (أنظر أدناه). إن الفرعون المصاب



شكل رقم ٣٥

خريطة لداخل معبد مشتق من الصخر، أبو سمبل

بداء العَظَمة، ربما لإستبصاره نهاية عصره الإمبريالي، يبدو انه صار أشدّ أكتراثاً بتخليد اسمه أكثر من تجديد نظام مصر الإستعماري .

كان رمسيس الثاني كانه لويس الرابع عشر في التاريخ المصرى . إن بذخيات حكمه الطويل لم تستنفد الدولة المصرية تماماً، على أن *انغماسه* ربما أمكن أن يُستنبأ به آنفاً من خلفائه. فقد تُركوا دون طاقةٍ أو موارد لمواصلة مشروعه التعميري للجنوب. ما حاول أحدهم ذلك. ومرت بالتقريب ٥٠٠ سنة بعد رمسيس الثاني، قبل أن يتم بناء معبد آخر في النوبة.

تذكيراً بأهم النقاط بإختصار، تعرض الأنشطة المعمارية لفراعنة الدولة الجديدة في النوبة ثلاثة مراحل رئيسة. العهود الباكرة للأسرة الثامنة عشر وهى فترة من إعادة الفتوح وتركيز السلطة، موسومة بإعادة إحتلال وتوسيع للقلاع القائمة، وبأول تأسيس لمستوطنات محصّنة جديدة في النوبة العليا . أما الأسرة الثامنة عشرة المتأخرة، كفترة ترسيخ وإستعمار، فشهدت بعض بناءٍ إضافي للمدن في الجنوب، لكن الأهم من ذلك بناء المعابد في كلٍ من المستوطنات القديمة وما أنشئ منها إنشاءاً جديداً. إن فترة رمسيس ، عندما كان السكان والإقتصاد النوبيين في إضمحلال بدأ من سابق، تشخصها موجة ثانية من بناء المعابد التي خُططت أساساً لتمجيد الفرعون، وليست لها سوى علاقة بسيطة بظروف الحياة اليومية في النوبة.

المراكــز الحضريــة :

هيأت مجمعات المعابد والمراكز الإدارية للدولة الجديدة نوعاً ما من نواةٍ لحياة إجتماعية وسياسية كانت تفتقر إليها النوبة في السابق، ربما بإستثناء الحياة في كرمة. لقد كانت في الغالب موضوعةً في مقاطعات مكتظة بالسكان كبداية؛ وبعد إنشائها مالت كلٌ من المستوطنات المصرية والوطنية للتجمع حولها. ديمغرافية النوبة في ذلك الوقت وما تلاه، وإن لم تكن أبداً "حضرية" على وجه الدقة، كانت على الأقل نواةً، على نهج الإستيطان في الشرق الأدنى [١٣] .

لقد كان توزيع الإستعمار المصري لإستيطانه ولصناعته في النوبة بعيداً عن الإنتظام. فالجزء الشمالي من النوبة السفلى كان فقيراً نسبياً في الموارد، وقدم إغراءات قليلة للإستعمار نفسه . أما التحكم فيه، مع هذا ، فكان حيوياً لإستغلال أهم مناجم الذهب المصرية، والتى كان الوصول إليها يتم عن طريق النوبة السفلى ووادى العلاقى. إن قلعة كوبان، التى تقع في فم الوادى، كانت النقطة الجوهرية في هذه العملية. أصبحت خلال الدولة الجديدة مركزاً لمجتمع كبير، إحتوى أيضاً سهل دكة الخصيب عبر النهر. ومع هذا الإستثناء، رغم ذلك، هنالك بقايا قليلة من نشاط الدولة الجديدة في النوبة الشمالية عدا معابد رمسيس الصخرية في بيت الولي، وجرف حسين ووادى السبوع [١٤].

بمقارنتها مع المنطقة الكائنة مباشرةً نحو الشمال، كان النصف الجنوبي من النوبة السفلى خَصِباً ومأهولاً بالسكان بشكل إستثنائي؛ لقد كان مركزاً للقوة والثروة أوقات عديدةً في التاريخ النوبى (قارن الفصل الأول) . إن أكثر من ثلث الصُروح الباقية على قيد الحياة وثلثى القبور المعروفة منذ إحتلال الدولة الجديدة للنوبة ممركزة في رقعة من خمسة وسبعين ميلاً من وادى النيل بين عِنيبة والشلال الثانى. أما العاصمة الإدارية لكل المنطقة فكانت بوضوح قلعة عِنيبة، التى ربما كانت في بعض الأزمان موقعاً لإقامة ولاة كوش [١٥]. إن أماكن أخرى، ربما أنها مركز إدارية محلية، مواقعها سرّة وبوهين، بالقرب من الشلال الثانى. في كل من المكانين، كما في عِنيبة، أُقيمت من جديد أسوار قلعة الدولة الوسطى وجرى توسيعها.

بنيت معابد هامة في عمدا والليسية، ليس بعيداً عن عِنيبة، ووضع معبدان بين أسوار القلعة في بوهين . مع هذا، فإن أهم مركز دينى في النوبة السفلى لم يكن موقعه قائماً بأيٍ من المستوطنات

الإدارية الرئيسة وإنما في فرس، ثلاثين ميلاً شمال الشلال الثاني. لقد كانت هناك منشأة عسكرية صغيرة هنا خلال الدولة الوسطى، لكنها لم يُعاد إستخدامها بعد إعادة الفتح، ويبدو أن المكان كانت له اهمية سياسية أو عسكرية ضئيلة في ظل الدولة الجديدة. كيفما كان الحال، فإن خمسة معابد على الأقل شُيدت في فرس والضاحية المباشرة لها بواسطة حكام مختلفين من الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . يبدو أن هناك إختلافاً وظيفياً بين هذه المنشآت ، التى تقع في قطر مفتوح إفتراضياً لنشر شعائر الدولة المصرية وسط النوبيين، والمعابد بين أسوار القلعة نفسها، التى ربما كانت جزءاً لا ينفصم من الآلة الإدارية. أهمية فرس ترجع بجلاء رجوعاً يكاد تاماً للتقليد الأصلى للوطنيين، وقد ظلت مركزاً دينياً هاماً زماناً طويلاً بعد أن رحل المصريون أنفسهم عن النوبة (قارن الفصل الثانى عشر والفصل الخامس عشر).

بينما مُدت السيادة المصرية صوب الجنوب فيما وراء *بطن الحجر* فقدت منطقة الشلال معظم أهميتها الإستراتيجية. إن الأنشطة المصرية فيها كانت نسبياً غير هامة أثناء الدولة الجديدة . أُعيد شَغْل القلاع طبقاً لما كان سائداً، إفتراضياً لمعاونة المراكب في المرور عبر الشلالات، غير أنه لا يوجد دليل على إصلاحات رئيسة إلا في سمنة وحدها. مع هذا، شُيدت معابد في ثلاثٍ من قلاع سمنة الأربعة (سمنة، كومة، وأرونارتى) تحت حكم التحتمسيين، وينطق عدد جنائز الدولة الجديدة في سمنة غرب بحجم معتبر للسكان [١٦].

جنوب مصعد النهر من سمنة، تثبت أعمال تعدين الذهب الوجود المصرى في دويشات ، التى يجرى وصفها بأدناه، وبالنحوت الصخرية في نقاط مختلفة. التركيز غير العادى للنحوت في جزيرة تنجور يُوحى بأن محطةً خارجية كان مُحتفظاً بها هنا لإعانة المراكب على المرور بشلال مجاور، رغم أن مخلفاتها لم تُكشف بعد [١٧]. جنوب النهر من تنجور لم يُصادف وجود أيِ صرُوحٍ مصرية من أى نوع حتى بلوغ منطقة عبرى - دلقو الخصيبة .

الحقول العريضة والماء المنساب بلا انقطاع في أرض عبرى - دلقو النهرية لابد أنها كانت منظراً داعياً للمصريين بعد عبورهم وعورة *بطن الحجر*، حيث أن غالبيتهم لم تذهب لأبعد من ذلك . تركز الإستثمار المصرى الإستعمارى الرئيس في النوبة العليا بالمنطقة بين عبرى ودلقو، جنوب النهر بالضبط من ناحية آخر نقطةٍ لشلالات بطن الحجر. وبالرغم من أن هذه المساحة لم تُستطلع بعد بطريقةٍ منظمة منهجياً، فإن صرُوحها المصرية المعلومة تحتوى أربع معابد رئيسة وثلاث مستوطناتٍ مُسَوَّرة (الشكل رقم ٣٣) .

غُرست أول مستعمرة في أرض عبرى - دلقو النهرية فيما يبدو في زمن التحتمسيين أو ما قبل ذلك؛ ربما أن القلعة القائمةُ في جزيرة صاى بُدئ في إنشائها في عهد أحمس [١٨]. إن التسويرات المُخندقة الغريبة (وهى فيما يبدو بلا حيطان) التى تدعم أساس المستوطنات المتأخرة في صلب وسسبى لابد أنها أيضاً تنتمى لعهود الحكم الأولى للأسرة الثامنة عشرة[١٩]. هذه المستعمرات الرائدة لم تُستكمل مُطلقاً طبقاً للرسم الذى خُططت له أصلاً؛ فلقد زِيد بناؤها وحلت محلها مدنٌ مسورة، مستطيلة الشكل، في زمن الأمنحتبيين .

المنشآت الإستعمارية الرئيسة في أرض عبرى - دلقو النهرية بالإضافة إلى صاى كانت عمارة، صلب - صدنقا، وسسبى (دلقو). أساس تأريخ عمارة غير مُستيقن، لكنه يحتمل أن يعود إلى الجزء الأوسط أو الأخير من الأسرة الثامنة عشرة [٢٠]. اما معبد صلب الرائع (الصورة ١٠ - أ) ومعبد صدنقا القريب الذى أصابه تدمير كثير، فكلاهما قام ببنائه أمنحتب الثالث [٢١]. وأسس مدينة سسبى ومعبدها خَلَفُه أخناتون (أمنحتب الرابع) [٢٢]. لهذا فإن الاستعمار الأساسى لأرض عبرى - دلقوه النهرية ينتمى بوضوحٍ إلى الفترة الوسيطة من الأسرة الثامنة عشرة.

عمارة، صاى، وسسبى كانت جميعها مدناً مسّورة، يقارب المربع رسمها العام (الشكل رقم ٢٤) [٢٣]. في صلب أيضاً كان هنالك سورٌ عاتٍ، أو بالأحرى تعاقب من الأسوار، يُحيط بالمعبد، على أن ذلك يبدو كحائط المصريين التقليدى تمنوس محيطاً بالأماكن المقدسة بدلاً عن دفاعات المستوطنة [٢٤]. وبالرغم من أن صلب وصدنقا دعي كلاً منهما مستوطنةً رئيسة في نصوص الدولة الجديدة، فإن مواقع المدينة وتحصيناتها لم يحدد مكانها أبداً [٢٥]. في عمارة ويلقو، أياً تم ذلك، كان هنالك مُركّب متكامل من المدينة والمعبد. ما كان أى من هذه المواقع قد أُخضع للتحقيق بأى قدر من الدقة، لكن المبانى التى تصادف وجودها في الحفر الجزئى لعمارة كانت شديدة التعقيد لأقصى حد، وقد تعرضت لتعديلات لا حصر لها حتى نهاية الأسرة العشرين [٢٦]. أما معبد عمارة فقد بناه رمسيس الثانى، على أنه من الممكن أن يكون قد حَلّ محل بناية سابقة. كانت المدينة بصفاء مركزاً إدارياً هاماً في الدولة الجديدة أثناء مرحلتها المتأخرة، وربما كانت كرسى نائب الوالى في النوبة العليا [٢٧] .

أرض دنقلا النهرية، رغم أنها ظلت أرضاً مركزية للسيادة الإستراتيجية لمعظم الحضارات النوبية المتأخرة ، تبدو كأنها جذبت إستعماراً قليلاً أثناء الدولة الجديدة . إن الصروح المصرية الرئيسة التى لا تزال باقية تكمن في نَبتة، على أقصى طرفٍ بالمنطقة صوب مصب النهر، وفى كاوة بالقرب من نهاية إتجاه النهر شمالاً. هاتان المستوطنتان هما المستعمرتان المصريتان الوحيدتان في النوبة العليا اللتان وُضعتا على الضفة الشرقية للنيل . إنهما شديدتا القرب من آخر نقطةٍ في الوقت الحاضر لطريق مِهيلة، طريق صحراوى للقوافل يمر عبر إنحناء النيل العكسى في أرض دنقلا النهرية (الشكل رقم ٢٣). ظهور نَبتة وكاوة كمراكز حضرية رئيسة ، متناقضاً مع غياب أى مستوطنات معروفة على امتداد وادى النهر بينهما، يُوحى بقوةٍ بأن طريق مِهيلة كان قيد الإستعمال مُسبقاً في أزمان حديثة. إن نفعه فوق درب النهر، إلى جانب أنه مباشر، هو في تفاديه للرياح المعاكسة في أرض دنقلا النهرية العليا (قارن الفصل الأولى) .

أرض نبتة، أسفل الشلال الرابع تماماً، خرجت على أنها المركز السياسى والدينى العظيم للنوبة في ظل امبراطورية حضارة كوش (الفصل العاشر)، لكن تأسيسها يعود إلى فترة إستعمار الدولة الجديدة. وتوحي النصب اللوحية وكتل بنايات تحتمس الثالث وتحتمس الرابع التى أُعيد إستعمالها بأنه كان هناك معبداً ومدينة قائمين من قبل، هنا في عهد الأسرة الثالثة عشرة [٢٨]، في حين أن المعبد العظيم لأمون، الذى صار فيما بعد "كرنك" الإمبراطورية النَّبتية (الشكل رقم ٣٩ والصورة ١١ ـ أ)، أسسه قطعاً رمسيس الثانى [٢٩]. شُيدت هذه المبانى تحت قمم جبل البركل مباشرة، وهو مرتفع صحراوى عالٍ ذى انحدار، ربما كان مقدساً للسكان المحليين سلفاً (الصور. أ ـ ب). مع هذا ، فإن معابد كبيرة لرمسيس لا تضم بالضرورة مستوطنات هامة، كما لاحظنا في تمعن من قبل؛ وإلى أن يصير الإضطلاع بمزيدٍ من التنقيب في جبل البركل جارياً، لن يكون بوسعنا أن نقدّر أهمية نَبتة خلال الدولة الجديدة .

المستوطنة في كاوة، قُبالة دنقلا الحديثة، تحمل إسم جيماتن. إن هذا لما يجعل هويتها بشكلٍ يكاد قاطعاً مُصَاحبةً "للفرعون الصابئ"، أخناتون، الذى حاول بمعبوده الشخصي، أتون، أن يُزيل ديانة الدولة التي طال اعتناقها لعبادة أمون. وإذا كان أخناتون قد شيّد معبداً على الإطلاق في كاوة، فقد دمّره تماماً خلفاؤه، مثلما جرى لمعابده في طيبة وتل العمارنة. أما المعبد الفرعونى الصغير الذى لا يزال ماثلاً في كاوة اليوم فقد بُنى في عهد توت عنخ أمون، فيما يُقارب نهاية الأسرة الثامنة عشر . كانت هنالك كذلك مدينة كبيرة الحجم، لا يزال معظمها غير محفور بعد [٣٠]. كاوة، مثل نَبتة، لها تأريخ تالٍ طويل، وقد كانت مركزاً هاماً خلال الفترات النبتية والمروية. على مسافة قريبة بإتجاه النهر شمالاً، على جزيرة أرقو، برزت إلى الضوء في وقت وجيز كتل معبد مستعملةً وموحية بأنه هنا أيضاً كانت توجد مستوطنة هامة في عهد الأسرة الثامنة عشرة [٣١] .

بشكل واضح للغاية تُفتقد كرمة في قائمة المراكز "الحضرية" الجديدة في النوبة. ومع أن المُدون التاريخى صامت بالنسبة لمصيرها، فإن المملكة النوبية فيما هو بادٍ إندثرت إبّان الإندفاع الأول لإعادة الفتح، وبتنا لا نسمع عنها ثانيةً أبداً . إن الغزاة المصريين لم يشعروا بحاجةٍ لتعريف أنفسهم ورَثة لها، حيث أنهم تركوا صروح كرمة ومدافنها التلية لتغوص في الخراب ، وأضحى المكان عائماً في النسيان حتى أزمانٍ حديثة.

التنظيم السياسي والإقتصادى

ثو ود، قائد بوهين الذى عَيّنه أحمس، مُنح لقب "إبن الملك في كوش"، في عهد أمنحتب الأول. لقد كان الأول أو الثانى [٣٢] في صفٍ من خمسة وعشرين أو أكثر من الضباط الذين حملوا ذلك اللقب، وحكموا كلاً من النوبة وأبعد المقاطعات المصرية جنوباً كنواب للفراعنة [٣٣]. إنهم يوصفون عادةً بأنهم وُلاة كوش، مع أنه في عبارةٍ جازمة إشتمل تفويضهم كُلاً من كوش (النوبة العليا)، والواوات (النوبة السُفلى) إلى جانب المنطقة من أسوان إلى الكاب في مصر . بمرور الزمن ، ومن خلال عملية "قانون السيطرة على الهامش"، لتوينبى [٣٤]، أصبحوا أقوى موظفى الدولة في مصر نفسها، كما سنرى ذلك لاحقاً .

إن النظام المبنى على الولاية في النوبة يصفه أ . ج . أركيل على النحو التالى :

كان الوالى مسؤولاً عن التسديد المنتظم لجزية النوبة (من كلٍ من الواوات وكوش). كان يُختار عادةً من المَعية المَلكية ، لضمان ولاءه بإلتزام قاطع، وكان مسؤولاً مباشرةً للملك. ويبدو انه كان يحضر الجزية بنفسه ويسلمها في إحتفال للوزير أو أمين الخزانة.

شمل معاونوا الوالى قائد رماة النبال في كوش، ونائبين، واحداً للواوات والثانى لكوش، و ... يُعتقد انه إبّان الأسرة التاسعة عشرة أقام نائب كوش في عمارة .كان أغلب ضباط الوالى بلا شك مصريين، لكنهم شملوا بعض النوبيين المتمصرين .... لا ريب أن الزعماء الوطنيين الموالين كانت تُسند إليهم مهام الإشراف على مناطقهم القبلية، وقد وُصف زعماء معام (عِنيبة الحديثة) والواوات وهم يتقدمون جماعتهم لتقديم الجزية لتوت عنخ امون. مثل هؤلاء الزعماء لا شك أنهم كانوا يُعَدون مسؤولين عن الجزية المفروضة على أهلهم، بالرغم من أن المحاولات التى بُذلت من أجل الإستقلال على غرار ما قام به بعض الزعماء خلال الأسرة الثامنة عشرة سُحقت بطبيعة الحال في قسوة .

أما أطفال الزعماء النوبيين فكانوا يُؤخذون إلى مصر، أصلاً كرهائن ، لكنهم كانوا يُمنحون تعليماً ورتبةً مصريين؛ بذا فإن أحد زعماء معام في نقش منحوتٍ على الصخر في توشكى يدعو نفسه حامل الصندل [٣٥] وفارس الملك . الفرسان كانوا أطفالاً تجرى تنشئتهم مع الأمراء اليافعين، ويحتفظون باللقب في حياتهم المتأخرة . وليس ثَّمة شك أن السياسة المصرية تجاه النوبة هدفت إلى تجاور سلمى لصيق بين المصريين والوطنيين [٣٦].

التمثل(*) ، اكثر من التجاور الوثيق بين هويتين مختلفتين، يبدو اشّد دقة لوصف مرمى السياسة المصرية في النوبة. إن إرسال الأمراء النوبيين للتعليم في مصر يُلقى بظله على سياسة إتّبعها العديد من الحكام "المتمثلة" الذين أجروا سياسة التمثل على رعاياهم في الأزمان المتأخرة . ومثلما تم إحلال المعابد بدلاً عن أسوار القلاع بوصفها التعبير الرمزى الرئيس للقوة المصرية ، فإنها تُنبئ حالاً عن تغيير هام في مسلك مصر نحو النوبيين. لم يعد الفرعون ساعياً لترسيخ حكمه بإظهار القوة، ولكن ليُضفى شرعيةً عليه بالتنظير الأيدولوجى ـ عن طريق الدعاية لديانة الدولة ونشر الثقافة الوطنية . إن المهر الغليظ للأسر الجسمانى تُخلى عنه لصالح قناعات عقلية متنوعة وأشد أثراً. والأثار الناجحة لهذه السياسة ، ولو أنها بلا شك غير متوقعة، يمكن ان تُشاهد في بزوغ "دولة

(*) التمثل عملية إجتماعية شاملة تتبني من خلالها جماعة ما ثقافة جماعةٍ أخري علي حساب ثقافتها الخاصة – المترجم.

الخلافة" المأثورة بنَّبتة بعد خمسمائة عام.

أما المدى الذى تم فيه إستيعاب الأعيان الوطنيين في الطبقة المصرية الحاكمة فهو غير مؤكد، ويُشكل صعوبات سوف ننظر لها بتفصيل وافرٍ فيما بعد. حيكا ـ نَفر، أحد الزعماء المحليين من عِنِيبة المشار إليها سابقاً [٣٧]، كان قطعاً نوبياً، ذلك لأنه رُسمت صورته ومُنح إسماً في مقبرة الوالى حاى في طيبة [٣٨]. أما مقبرته الخاصة، التى هى مصرية خالصة في طرازها ومنسوخة على أثر مقبرة حاى، فقد تم الكشف عنها قبل وقت وجيز في توشكى [٣٩]. وهناك شقيقان تُعَرفهما صروحهما الجنائزية بأنهما "أمراء تخت" (سرة) يُعتقد أنهما كانا نوبيّين. مرة ثانية، فإن غرفة مقبرتهما المزدانة مصريةٌ خالصة في الطراز والزخرف، ووُضع تعريف هويتهما كنوبيّين بناءاً على نسبة أسمائهما الأبوية وهي أسماء غير معهودة في الأسماء المصرية [٤٠] . في الجانب الآخر، يبدو أن موظف الدولة بَنُوت، الذى حكم عِنِيبة أثناء الأسرة العشرين ودفن بالجوار، كان مصرياً [٤١] .

تحت النظام الإمبريالى تحول الإقتصاد النوبى من إكتفاءٍ ذاتى إلى قاعدةٍ إقطاعية . التغيير الطارئ يُفَصل ملامحه تريقر كما يلى : [٤٢].

أثناء الدولة الجديدة كانت الحياة الإقتصادية في النوبة السفلى أكثر تعقيداً عما كانت عليه مطلقاً من قبل . كذلك كانت متكاملة تكاملاً أكثر وثوقاً مع الإقتصاد المصرى. وبالرغم من أن الصيد والرعى لابد أنهما ظلا مهمين، خاصةً في المناطق المحلية الفقيرة، فإن قسماً من الصيد أو القطيع ربما أنه الآن مما تطلبه الحكومة أو المعبد كجزية. في نفس الوقت فإن نمط حيازة الأرض الذى ساد في (ثقافة المجموعة الثالثة)، وربما كان مؤسساً بشكل واسع على الملكية الجماعية، حَلّ محله نظامُ حيازةٍ مصرى. معظم الفلاحين، إن لم يكونوا بجمعهم، يعملون الآن في أراضٍ يملكها التاج، والأمراء المحليون، وإداريو الحكومة، أو المعابد التى شُيدت في طول المنطقة وعرضها . النقلة في أنماط مِلكية الأرض يبدو انها كانت مُصطحبةً بنقلة بعيدة عن الرعى في إتجاه زراعةٍ اكثر كثافة. منظر المزروعات في جَبانة جيهوتى ـ حُتب توحى بأن النوبيين ربما كانوا ينتجون من قبل ويصدرون البلح ... [٤٣] كما أن حوافظ النحل والنبيذ تذكر بالمنطقة التى تقع في الجنوب البعيد ، وربما كان هناك إختصاصيون مثل ذلك في النوبة السُفلى كذلك [٤٤] . أما الزراعة بالحياض التى كانت هامةً في مصر فقد كانت مستحيلةً في النوبة بسبب طبيعة الأرض، لكن الشادوف ربما أُدخل في ذلك الوقت (٤٥)، وربما استُعمل رى بسيطٌ بالايدى لزيادة كمية الأرض القابلة للفلاحة. إن هذا ساعد بلا شكٍ على تعويض إنخفاض مستوى الفيضان منذ الدولة الوسطى. لعل الذرة أيضاً أرسلت من مصر لإطعام أو لتسديد مرتبات أولئك المستخدمين من قبل الحكومة .

الأرباح التى تجنيها المعابد من أملاكها والرسوم التى استطاع بعضها أن يجبيها من مرور البضائع على النهر [٤٦] لم تُستخدم لدعم مسؤولى الدولة، والكنهة ، وخُدامهم فحسب وإنما للإختصاصيين مثل التجار، والمعَدنين، وبُناة السفن، والصنُاع على قدم وساق [٤٧] . بنهاية الأسرة الثامنة عشرة بدأت بعض السلع المصنّعة في الظهور كجزء من الجزية التى كانت تُبعث إلى مصر. بين الجزية في مدفن حاى نجد دروعاً، ومقاعد، وأسرَّة، وأرائك [٤٨] .

لقد أُرسل الأرقاء، وسجناء الحرب إلى النوبة السفلى ليوفروا قوة العمل في مشاريع الدولة الكبيرة مثل بناء المعابد. أما الأسرى الليبيون فكانوا يُسخَّرون للعمل في وادى السبوع بالعام الرابع والأربعين من عهد رمسيس الثانى [٤٩]. بالمثل أدى ملوك مصر هبات دائمة من الرقيق للمعابد. يُدوّن مرسوم من بواكير الأسرة التاسعة عشرة أن الملك زود مشاغل معبد في بوهين بالعبيد من الذكور والإناث الذين كان قد أسرهم صاحب الجلالة [٥٠].

بإنشاء "إقتصادٍ زراعى" ثم إنتزاع حيازات الوطنيين على نطاق واسع، أصبح التسلسل التاريخى للتطور الإستعمارى مكتملاً. فأغلبية النوبيين أصبحوا الآن فلاحين، وربما شاركوا السُخرة الشقية لزملائهم الفلاحين في مصر وأجزاء أخرىَ من العالم . إن ملاك الأراضى الذين كانوا يقومون بخدمتهم كانوا غائبين في الغالب الأعم ـ نبلاء مصريين أو موظفين في المعابد. وأولئك النوبيون، مثل جيهوتى ـ حُتب وحيكا ـ نفر اللذان استطاعاً أن يجدا لأنفسهما مكاناً في طبقة ملاك الأراضى الجديدة، كانوا متمصرين تماماً في السلوك وفاق إنتماؤهم الطبقى بحكم مكانتهم مع النبلاء

المصريين بلا ريب إنتماءهم السُلالى مع رفاقهم النوبيين إلى حد بعيد. الإنتماء الطبقى بدأ في الحلول محل التقسيم العرقى بإعتباره القُربى الرئيسة في المجتمع النوبى .

كانت التنمية الزراعية وجهاً واحداً وحسب من الإستعمار المصرى في النوبة . تواصل قدر معين من حملات الرقيق حتى نهاية الأسرة العشرين (٥١) ، وقَدّم النوبيون بأنفسهم عبيداً إضافيين - ربما قبضوا على بعضهم من جيرانهم الذين كانوا لا يزالون أبعد مسافةً إلى الجنوب - بين جزيتهم السنوية للوالى (٥٢) . إن فكرةً عن كمية جزية النوبية ونوعيتها يمكن إكتسابها من *حُوليات تحتمس الثالث*، نحو منتصف الأسرة الثامنة عشرة (٥٣) :

جزية الوالى

عام ٣١. ٩٢ بقرة، محصول واحد .

عام ٣٣. ٢٠ عبداً، ١٠٤ بقرة، محصول واحد .

عام ٣٤. ٢٥٤ دَبْناً (*) من الذهب، ١٠ عبيد، وعدد غير معروف من البقر .

عام ٣٥. ٣٤ عبداً، ٩٤ بقرة، محصول واحد.

عام ٣٨. ٢٨٤٤ دبناً من الذهب، ١٦ عبداً، ٧٧ بقرة .

عام ٣٩. ٨٩ بقرة، عاج وأبنوس .

عام ٤١. ٣١٤٤ دبناً و٣ كيدت من الذهب، ١١٤ بقرة، وكمية غير معروفة من العاج.

عام ٤٢. ٢٣٧٤ دبناً و١ كيدت من الذهب، محصول واحد .

جزية كوش

عام ٣٤. ٣٠٠ دبناً من الذهب، ٦٠ عبداً زنجياً، ٢٧٥ بقرة، عاج وأبنوس .

عام ٣٥. ٧٠ دبناً و١ كِيدَت من الذهب، عدد غير معروف من الرقيق، بقر، عاج وأبنوس، ومحصول واحد.

عام ٣٨. ١٠٠ دبناً و٦ كيدت من الذهب، ٣٦ عبداً زنجياً، ٣٠٦ بقرة، عاج وأبنوس، ومحصول واحد .

عام ٣٩. ١٤٤ دبناً و٣ كيدت من الذهب، ١٠١ عبداً زنجياً، وكمية غير معروفة من البقر.

عام ٤١. ٩٤ دبناً و٢ كيدت من الذهب، ٢١ عبداً زنجياً، وكمية غير معروفة من البقر.

* ١ دَبْن = ٢٠ رطلاً من الذهب تقريباً وكان الكِيدَت حلقة من الذهب تزن حوالي ٥ أرطال .

صناعة الذهب

بينما كانت الحروب الأوروبية لفيليب الثانى مُمولةً بفضة المكسيك، كانت قوة مصر في آسيا ممولةً مثل ذلك بالذهب النوبى. فأثناء أغلب عهود الأسرة الثامنة عشرة كانت يد الفرعون قوية بما فيه الكفاية لتحتفظ بقبضةٍ حازمة بفلسطين وسوريا، بالرغم من أن نفقة الإحتلال العسكرى كانت بلا أدنى شك عالية. إن إضعاف الدولة في عهد أخناتون هيأ الذرائع الجاهزة للعصيان المحلى والتدخل الأجنبى، وبنهاية الأسرة الثامنة عشرة تقهقرت معظم الفتوح المصرية في آسيا. ثم هدد الهيمنةَ المصرية في كل مكان، نهوضُ قوة هيتيت في الأناضول و "شعوبُ البحر" (الكريتيين، والفينيقيين، وغيرهم) بشرقى البحر الأبيض المتوسط، وألقى بظلاله على تصارع الإمبراطوريات التى شغلت مساحةً كبيرة للغاية في الألف الأخيرة قبل الميلاد .

إستعاد ستى الأول التخوم المصرية في سوريا في مبتدأ الأسرة التاسعة عشرة. ولما كان مهدداً بغزو هيتيتى جديد، إعتلى رمسيس الثانى تجريدةً كاسحة وباهظة النفقات لأقصى الحدود

إستطاع أن يحفظ بها *الحالة الراهنة* لفترةٍ أطول حين انتهت إلي وقفةٍ مع الهيتيتيين. أما الهيتيت بدورهم فقد قضت عليهم شعوب البحر، وكان على المصريين أن يقنعوا بسلسلة كاملة من الأعداء الجدد في كل من آسيا والوطن. لقد حارب خلفاء رمسيس حروباً طويلة متواصلة لحماية ظهورهم، لكنهم بحلول نهاية الأسرة العشرين كانت إمبراطوريتهم قد ذهبت ريحُها بلا رجعة . بعد ذلك ساد النفوذ المصرى فلسطين بالمظاهرة والدسيسة أكثر منه تفويضاً إمبريالياً صريحاً .

إن ذهب الفرعون طالما انصرف أساساً إلى الوله بالصروح الملكية، لم يكن إنتاجه مسألةً محسوبةً لأولية قومية عليا. وعندما كان يُنفق بكميات ضخمة دائمة لدعم الطموحات الإمبريالية في آسيا، أضحت تنمية المصادر لذهب جديد موضع إهتمام حيوي للدولة. وجاب المستكشفون المصريون أنحاء الصحراء الشرقية طولاً وعرضاً، ما تركوا نائتاً ولا وادياً، فيما يبدو، دون استطلاع بين النيل والبحر الأحمر. بات أكثر من خمسة وثمانين منجماً قديماً معروفين في الأراضي الجرداء غير المستصلحة في شمال شرق السودان وحده (٥٤) .

بالرغم من أن الذهب كان يُراكم بكميات من قبل كل فرعون من الأسرة الأول وما بعدها، فإن مصدر ذهب مصر قبل الدولة الجديدة معلومٌ بشكلٍ غير متقن للغاية . فهناك، كما رأينا في الفصل السابع، بعض المؤشرات على إنتاج الذهب النوبى في الدولة الوسطى، غير أن الكميات لا تبدو كبيرة. أما مناجم الذهب الرئيسة للدولة الوسطى فربما كانت تلك القائمة بصحراء كوبتس، بين مصر العليا والبحر الأحمر .

"ذهب كوبتس" لا يزال شاخصاً في إيرادات الخزانة في الدولة الجديدة، لكنه يطغى عليه "ذهب الواوات" (النوبة السُفلى) و "ذهب كوش" (النوبة العليا). تعكس *حوليات تحتمس الثالث*، التى نُقل عنها آنفاً، جملة ٨٬٦٨٢ *دبناً* (١٬٧١٠ رطلاً) من ذهب الواوات و ٥٩٥ *دبناً* (١٢٠ رطلاً) من ذهب كوش تم استلامها في السنوات الأربعة والثلاثين، الثامنة والثلاثين، والحادية والأربعين من حكمه (٥٥). بأسعار اليوم، تبلغ الجزية النوبية للملك أكثر من ثلاثة مليون دولاراً في قيمتها .

الكمية الضخمة من ذهب الواوات المدونة في *حوليات تحتمس* يمكن أن تعنى فقط أن هذا الرقم يشمل عطاء المناجم التى لا يُحصى عددها بوادى العلاقى ووادى كبجبة، الذى كان يُجلب إلى النيل في كوبان بالنوبة السُفلى (٥٦). هذه المناجم ، التي يزيد عددها عن مائة منجم كانت مبعثرةً في أرجاء الصحراء الشرقية على مسافات تبلغ ١٥٠ ميلاً من ضفاف النيل. لقد كانت كما تبين سّجلات تحتمس أغلي ممتلكات مصر المعدنية إلى أقصى الحدود في الدولة الجديدة، وأصبح إستغلالها الكفء واحداً من أكثر الضروريات حيوية للإمبراطورية . وفى أزمان لاحقة وَفّرت المناجم الدعم الإقتصادى للإمبراطوريات النوبية في نَبتة ومروى، ولوقتٍ ما كانت أيضاً المفتاح للسياسة الرومانية في كلٍ من مصر والنوبة .

نقطة الرُسو لصناعة الذهب في النوبة السُفلى كانت قلعة كوبان، على مدخل وادى العلاقى . كان الرجال يحضرون هنا مع المؤن عن طريق النهر من أسوان، ومن هنا يبدأون السير الطويل المحفوف بالمخاطر براً صوب حقول الذهب. ربما كان العبيد يُشكلون غالبية القوة العاملة (٥٧). أحوال الحياة صعبة فيما هو واضح ، إذ يُدون لوح منقوش لرمسيس الثانى انه "إذا كانت قلة من أفراد قافلة تنقية الذهب قد ذهب إلى ذلك المكان، فإن نصفهم لا غير وصل هناك، لأنهم ماتوا من العطش في الطريق، إلى جانب الحمير التى كانوا يسوقونها أمامهم . ما وُفر لهم التموين الضرورى من الشراب، في الصعود والرجوع ، من ماء القِرَب. لذا لم يُجلب ذهب من هذا البلد، لإفتقاد الماء" (٥٨).

لكيما يتم تجنب مثل هذه الأحوال حفر رمسيس بئراً في وادى العلاقى. ويبين اللوح المنحوت

أن إهتمامه لم يكن مُنصبّاً على رفاهية العمال بمثلما اتجه إلى التمكن من إستغلال المناجم بأرباح افضل. إن كون الجهد كان ناجحاً لربما جاز إستنتاجاً من الحقيقة التى مؤداها أن غالبية النقوش التى وجدتها بعثة روسية قبل وقت وجيز في وادى العلاقى تنتمى إلى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين . لقد اكتشف الروس أيضاً ما يظهر كأنه الموقع الأصلى لبئر رمسيس، حوالى أربعين ميلاً بالبر بعيداً عن النيل (٥٩) .

تقرير بعثة للتعدين وُجدت في وادى حمامات ، بصحراء كوبتس، يُدون أن فرقة من ٨،٣٦٨ شخصاً برتبٍ ومهنٍ مختلفة ذهبت رأساً للمناجم في عهد رمسيس الرابع (أواخر الأسرة العشرين). يحوى النص ملاحظةً خاصة بشأن الحقيقة القاضية بأن ٩٠٠ فرداً من الفرقة هلكوا أثناء سير البعثة . عدد كبير من النقوش الخاصة التى وُجدت في وادى العلاقى يحمل أيضاً عبارات وداع ونصوصاً جنائزية (٦٠) .

طبقاً للوكاس، الذى يُعَد مؤلفه في شأن *مواد مصر القديمة وصناعاتها* مرجعاً قيماً في تقنية القدماء :

طريقة المصريين في إستخراج الذهب من عروقه بصخور الكوارتز البلورية يصفها أغاثارشيدس، كاتب إغريقى من القرن الثانى قبل الميلاد، زار المناجم وكتب عرضاً مُفَصلاً لما شاهده. ورغم أن العمل الأصلى قد فُقد، فإن وصف مناجم الذهب حفظه أحسن الحفظ ديودورس، الذى نقله بأكمله. الصخر كان يُشَق أولاً ويُكسر بالنار ثم يهاجم بالمطارق والملاقط. ثم تُحمل الصخرة المكسرة خارج المنجم، حيث تُسحق في مساحن حجرية بحجم حبات البسلة وبعد ذلك تُسحن مسحوقاً دقيقاً في طواحين يدوية؛ ويغسل المسحوق بالماء على سطح منحدر كي يفصل المعدن، الذى ربما يُضمّن أخيراً في سبائك صغيرة. إن كثيراً من طواحين السحن الحَجرية القديمة، ومخَلفات الطاولات الحجرية لمعالجة الخام المسحوق لإستخراج الذهب، لا تزال مشاهدةً في المناجم القديمة (٦١).

فى إشارة للمناجم النوبية، يضيف فيركوتر أن "مناجم قليلة فحسب لها منشآت دائمة، أكواخ، طاولات للغسيل، أفران، بقايا أوانى التذويب وأكوام الزَبد. في العادة تُظهر مناجم الذهب القديمة ركاماً فحسب من الحجارة المكسرة وطواحين سحق الخام التى هُجِر إستعمالها . هنالك آثار قليلة لمستوطنات، ولا توجد طاولات للغسيل، ولا أفران، أو آباراً بذات الوتيرة ... لربما كان معظم الإستخراج النهائى للذهب من الخام المسحوق والمذاب يتم على ضفاف الأنهار " (٦٢).

جاء ذهب كوش أساساً من ولاية دويشات، بالقرب من النيل أميالاً قليلة صوب مصب النهر من سمنة . إن الموقع جرى تحقيقه قبل فترةٍ قليلة بصورة منَسقة في المسح الآثارى لمصلحة الآثار السودانية ،على أنه لم يتوفر تقريراً بعد (٦٣). وُجد عدد كبير من المعارض وحفر الإستطلاع، سوى أن عدداً يفوقها وفرة ربما أزاله نشاط متأخر، فقد وقع إستئنافٌ لتعدين الذهب بشكل متقطع في دويشات حتى أزمان حديثة. إن المعدنين المصريين عاشوا بوضوح في أكواخ حجريةٍ خشنة مبعثرة بكثافة في أرجاء المنطقة. يبدو أن موقف دويشات، بالقرب من النهر ، دعا لمستوطنة دائمة وربما لبناء مقر لمراقب التعدين، عدا أنه لم يُعثر على مبنى من ذلك القبيل. ويبدو محتملاً أن التعدين في دويشات، كما في الصحراء الشرقية، كان نشاطاً متَقطعاً يجرى عندما تكون الخزانة في حاجة ماسةٍ للإنعاش أكثر منه صناعةً دائرة على مدى العام.

ماذا آلت إليه حال النوبيين

حتى الآن إهتمت المناقشة أساساً في هذا الفصل بالأنشطة المصرية في كوش التى فُتحت من جديد. لقد تجنبتُ التصدى بتمحيصٍ للسؤال المُشكِل عن ما آل إليه حال عامة الوطنيين عندما أُجتيحَ وطنهم للمرة الثانية، وأضحوا رعايا للفرعون. لسوء الحظ، لا نعلم حقيقة ما أضحت عليه حالة

أغلبيتهم؛ لا التاريخ ولا الآثار يعطيان إجابةً مرضية .

في النوبة السُفلى، بمكننا أن نتعرف على مجموعة سكانية مميزة «للمجموعة الثالثة » حتى منتصف الأسرة الثامنة عشرة على الأقل، متعايشة مع المصريينَ وربما أيضاً مع نوبيين متمصرين. "القلعة" النوبية في عمدا، التي جرى وصفها في الفصل السادس، كانت لا تزال مستعملةً في عهد تحتمس الثالث (٦٤). كثير من القبور الأغنى في ثقافة المجموعة الثالثة تنتمي أيضاً إلى الأسرة الثامنة عشرة الباكرة، بينما يُبَلِغ ساف ـ سوديرج عن مجموعة من القبور "ذات الإنتماء الثقافي المتعدد" من دبيرة يجوز لها أن تمثل مرحلةً لا تزال متأخرة من التطور الثقافي ذي الأصل المحلي :

تشتمل القبور على أعمدةٍ مستطيلة موضوعة بمهارة على الطمأ الحجرى الصلب، أما البنايات العُلوية التي دائماً ما حطمها النهابون، فكانت من النوع العادي لحجارة مستديرة خشنة، وأحياناً بوكْر للقرابين على الجانب الشرقي. كانت الأعمدة مغطاةً ببلاط منبسط، ووُضع بلاط عمودي على جُدر الأعمدة. عادات الدفن هكذا تماثل عادات المجموعة الثالثة، ولكن لم يوجد فَخار المجموعة الثالثة، إنما عثر على فَخار الدولة الجديدة وحده. وفي وسط حجارة لواحدٍ من أفضل السقوف حفظاً وجدت شقوق عديدة لأواني من الصيني، تحاكي الشكل والزخرف لحمالات زهرية مايسينية. وُجدت حمالات لزهرية تكاد تماثلها في صلب بقبر يرجع تاريخه إلى عهد تحتمس الثالث (جعارين). ولكنْ ... لابد أن صنف ما وجدناه ينتمي إلى تاريخ متأخر بكثير (٦٥).

إذا كان التاريخ المقترح غير صحيح، فإن هذه القبور الوطنية الأخيرة التي لا يمكن تخطيئتها في النوبة السُفلى لألف عام . فأثناء الأسرة الثامنة عشرة المتأخرة كان تصاعد طقوس الدفن والأثاث الجنائزي المصري قد اكتمل، ولم يعد من الممكن التعرف على سكانٍ نوبيين مميزين سواء بالقبور أو بالفَخار.

لقد لاحظنا آنفاً، في الفصل السادس، أن النفوذالثقافي لمصر يتجسد بشكل متزايد في ثقافة المجموعة الثالثة في مرحلتها المتأخرة، بالنسبة لكل من مساكن النوبيين وقبورهم. يبدو منطقياً أن يفترض أن عملية التمثل الثقافي دُفع بها دفعاً بعيداً بالضم المصري للنوبة، وأن التحول كان بالفعل مكتملاً بمقدم الأسرة الثامنة عشر مؤخراً. هذا الرأي كان قد ساد على وجه العموم وسط علماء الآثار المصرية للثلاثين عاماً الأخيرة. فهم يعدون المئات من قبور الدولة في النوبة السفلى منتميةً، مع إستثناءات قليلة، لنوبيين متمصرين لم يعد ممكناً تفريقهم ثقافياً عن حكامهم الإستعماريين المتحكمين(٦٦).

يوجد الكثير لدعم نظرية "التمثل الثقافي للمجموعة الثالثة". إنها تعلل تعليلاً مُرضياً إختفاء قبور معروفة بنوبيتها، إن لم يكن للمفاجأة البادية في إختفائها. هنالك بالمثل الحقيقة الموحية بأن عدداً من جَبانات الدولة الجديدة إنضمت لها جَبانات ثقافة المجموعة الثالثة (٦٧)، وتظهر على أنها مواصلة لها، بالرغم من أن الميل للإستخدام المتواصل لنفس الجَبانة القديمة ظاهر في كل مراحل التاريخ النوبي. إن بقايا الهياكل البشرية من قبور النوبيين في النوبة السُفلى التي حُفرت في المسحين الآثاريين الأول والثاني أوحت أيضاً بأنه لم تكن هنالك فوارقُ سلالية بين أقوام «المجموعة الثالثة» و "الدولة الجديدة"(٦٨). أخيراً، تدل الأمثلة على "الأمراء" النوبيين المتمصرين بلا شك، حيكا ـ نفر، وجهوتي ـ حُتب، وأمنمحت، الذين ألمح إليهم آنفاً .

رغماً هذه المؤشرات الايجابية، لا تزال هنالك صعوبات من قبيل التقبل التام "لنظرية التمثل الثقافي" (٦٩). أعسر الأسئلة سؤال يتعلق بالتسلسل الزمني. فإذا افترضنا أن قبور "الدولة الجديدة" في النوبة هي قبور النوبيين المتمصرين، فإن عدد مثل تلك القبور لابد من أن يزداد مع انخفاض عدد قبور «المجموعة الثالثة». مع هذا، فالحق أن العكس هو الصحيح. فما فوق ثلاثة أرباع قبور الدولة الجديدة المؤرخة في النوبة تنتمي إلى الأسرتين السابعة عشرة وأوائل الثامنة عشرة ـ نفس الفترة

التى لا يزال بوسعنا فيها أن نتعَرف على سكان نوبيين متميزين ثقافياً. في الأسرة الثامنة عشرة إختفت القبور النوبية في أواخرها، لكن هنالك نقصان ملحوظ في عدد القبور المصرية (أو المتمصرة) بالمثل (٧٠).

معاصرة قبور «المجموعة الثالثة» الأخيرة مع غالبية قبور "الدولة الجديدة" تلزمنا بأن نُبصر جماعتين نوبيتين تتعايشان معاً : واحدة متمصرة تماماً والأخرى تتعلق بأساليب قبلية. مثل هذا التقسيم ليس مستحيلاً بأى حال من الأحوال؛ إنه يمكن أن يُمثل الفرق بين النوبيين المُعدمين الذين يُجبرون على الإلتحاق بصفوف *الفلاحين* وبين جماعات أكثر تحفظاً احتفظت بأراضيها القبلية وقطعانها. يمكن بتمعن ملاحظة تقسيمات مماثلة بين عناصر قبلية وعناصر أُزيلت قبليتُها في مجتمعات إفريقية كثيرةٌ والهنود الأمريكيين في الماضى القريب. يصعب مع هذا أن تنبئ الثروة غير العادية التى نجدها دائماً مدفونةً مع جنائز الدولة الجديدة في النوبة القديمة عن مجتمع *فلاحين* أزيلت قبليته قبل وقت وجيز.

فى المجتمعات الاستعمارية، ينتج عن إزالة القبلية عادةً خسارةٌ في كلٍ من المكانة والثروة المادية، وعلى قدم المساواة عندما تُصدر تقنيات جديدة زيادةً في المستويات اليومية للتغذية والصحة أحياناً كثيرة. وفى حين تفقد رموز المكانة في المجتمع القديم قيمتها، وتكون رموز المكانة في المجتمعات الطبقية الجديدة مستعصيةً على البلوغ، فإن مكافآت النشاط الإنتاجى تذهب أكثر فأكثر لإرضاء الحاجات والرغبات المباشرة وبصورةٍ أقل لتراكم البضائع الميسورة. إن الفلاحين، خلافاً لرجال القبائل، يملكون ممتلكات مترفة قليلة. بالإضافة إلى ذلك، كلما يزداد انتزاع حيازات الأراضى يصير مستوى معيشتهم اليومية بنفس القدر قابلاً للسقوط في قاع مستوىً هامشى، تحت ثقل الدَّين والسُخرة. النتيجة الواقعة لتلك العملية هى أن مجموعات الفلاحين السكانية تتجه إلى أن "تختفى" أثَرياً. وحول ما إذا كانوا لا يستطيعون بعد ذلك أن يتعهدوا الجنائز وعطاياها أو يرعونها من بعد، فإن قبورهم نادراً ما يُتعرف عليها. أين *فلاحو* عصور الإمبراطوريات الكبرى بمصر وبلاد ما بين النهرين؟ قطعاً إنهم لا يُوجدون في المدافن الأثرية التى استرعت إنتباه الآثاريين حتى اللحظة.

فى النوبة، كما في مصر، لا تُظهر قبور الدولة الجديدة التى تم التعرف عليها على أنها قبور *فلاحين*. وبينما تعرض فئة منها الثروة الباهظة الموجودةً في قلةٍ من القبور الكبرى في ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة، فإن المتوسط لحجم الأمتعة الجنائزية في الدولة الجديدة أعلى كيفما اتفق أمرها من أى فترةٍ سابقة. إن عادات الدفن في النوبة إبّان الدولة الجديدة يصفها امرى على هذا النحو :

لم نعد نجد الميت راقداً على جانبه في وضع شبه مضموم؛ بدلاً عن ذلك، تبعاً للعادة المصرية، يرقد الميت على ظهره بكامل إمتداده، وفى القبور الأغنى يُوضع بين أكفانٍ خشبية منبسطة. كانت القبور من ثلاثة أنواع : حفرة مستطيلة بسيطة [الشكل رقم ٣٦]، وحفرة مشتَّقة من الصخر في نهايتها غرفة تحت سطح الأرض للجنازة، وحفرة مستطيلة لها فتحة جانبية مُقتطعةً على جانب واحد من الجانبين الطوليين. في معظم القبور، يبدو تجميع متاع الجنائز متبعاً لنظام بعينه، بحيث أنه في فترة الدولة الجديدة نجد فَخاراً وغيره من الأشياء مُرتبةً كما يلى :

على جانب الرأس

صحن أحمر

إناء أحمر كبير للصب

إناء أحمر صغير للصب

معدات تجميل، مثل مرايات برونزية وأمشاط خشبية

بجوار اليد اليسرى

إناء لحفاظه دهان ذات رسوم

صحن أحمر

إناء كحل ومرواد من المرمر

على القدمين

صحن أحمر

إناء للصب أحمر كبير

إناء للصب أحمر صغير

بين الركبتين

أوانى من نوع رخيص فخاراً، وصلصالاً، وصينى

تتكون المجوهرات من أقراط للأذن برونزية، ويشباً، وعقيقاً أحمر، وخواتم للأصابع ذهبية وبرونزية، وجعارين وأحجبة من العقيق الأحمر، وحجر صابونى، وزجاج، ويَشْب، وصينى مزخرف مصقول، وقلائد من الصينى، وذهب، وعقيق أحمر، وزجاج، وفخار. أما الأسلحة، مثل رؤوس الرماح البرونزية، ورؤوس السهام، ورؤوس الفؤوس، والخناجر، فكلها توجد في بعض الأحيان مع الميت، لكنها نادرة الوجود، خاصةً في النوبة السُفلى. فيما عدا المدافن الصخرية محدودة العدد لمواطنين أنعم رخاء فإن مثل هذه الأشياء عادةً ما تكون من نوعية رخيصة والإنطباع العام الذى يؤخذ من دلائل المنشآت الجنائزية غير تلك القائمة في ضاحية المحطات العسكرية هو أن النوبة عقب الفتح كان يسكنها جنس تابع فقير يعتمد إعتماداً كبيراً على مستجلبات بَخسة النوع من مصر، ولها خلفية ثقافية ذاتية ضئيلة أو معدومة (٧١).

القبور النوبية الحديثة يمكن وصفها بأنها "فقيرة" وحسب بالمقارنة مع مستوى المعيشة العالى الذى تمتعت به طبقة النبلاء المصرية؛ إنهم قادرون طبقاً للمعايير النوبية العادية، أغنياء وفقاً لمعايير كأنما تتبع من أى "جنسٍ خاضع". إضافةً لذلك، على نقيض ما اقترحه امرى، تعرض بعض الجّبانات الريفية في النوبة السُفلى مستوىً أعلى من الثروة مما تعرضه الجّبانات القريبة من أسوار عِنِيبة، وبوهين، ومرقسة (٧٢). إنه لجدير بالذكر في كل من المقابر الريفية وتلك الملحقة بالمراكز الإدارية الرئيسة أن العطايا الجنائزية في كليتها بضائع مُصنّعة مجلوبة من مصر أكثر منها مصنوعات محلية. ولم يكن بالإمكان الحصول عليها إلا بالمقايضة أو كتعويض للخدمات، يُنبئ في كل حالة عن إقتصاد تخصصى ومتمايز. هل كان الإقتصاد الإقطاعى لنوبة الدولةُ الجديدة في الحقيقة قادراً على توفير سلع مُصنعة بمثل هذا المستوى لعامة المواطنين؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنهم تمتعوا بمستوىً أعلى من رِفُقائهم فلاحى مصر.

الشخصية المصرية المطلقة للقرابين الجنائزية في الدولة الجديدة تنثر شكاً أبعد مدى على فرضية "التمثل الثقافى للمجموعة الثالثة". وفى حين أن تغيرات مفاجئة من الطقوس الجنائزية تبدو قاعدةً عامة، لكلٍ من النوبة وغيرها من الأماكن (٧٣)، هنالك في العادة بعض ما يُحمل من فترة إلى الفترة التالية لها من المتاع الذى يدفن مع الميت. في النوبة، مع هذا، فإن السلع المدفونة ولو كانت في القبور الأخيرة من ثقافة المجموعة الثالثة (عدا المجموعة القليلة المذكورة سابقاً "ذات الإنتماء الثقافى المتعدد" وحدها) (٧٤) ذات أصل نوبى لما يتعدى ٧٥ في المائة من الحالات، في الوقت الذى تَبلغ فيه الأمتعة المدفونة في قبور مصرية الطراز ما يزيد على ٩٩ في المائة أصلاً مصرياً. يظهر أن هنالك أساساً متوسطاً غير كافٍ لدعم نظرية للإنتقال. إننا نعلم أن صناعة الفَخار اليدوى والتها النساء النوبيات إلى تاريخ متأخر بعيد، وإنها ظهرت مرةً أخرى بإنتظام في قبور الفترات ما بعد

الفرعونية. السبيل الوحيد لتعليل إستبعادها من قبور الدولة الجديدة هو أن يُفترض أن التقليد الجنائزي المصرى كان من التصلب بحيث أنه أعاق حتى إدخال سلع غير مصرية كأثاث للقبر. إن مثل هذا الشرح لا يمكن بالطبع إنكاره، لأن الممارسات الجنائزية كانت معصوبةً إلى مدىً قريب بالأيدولوجية المركزية لمصر أقوى من أى حضارة أخرى.

مسألة أخرى تتعلق بالتشتت الثقافي. نعلم أن مأثورات الفَخار وممارسات دفن الأموات في النوبة ما قبل الفرعونية لم تكن مُصادرةً في ظل السيادة المصرية، حيث أنها ظهرت من جديد في نَبْتة قروناً متأخرة [٧٥]. لسوف يعارض هذا في فكر التمصر الكامل لكل السكان النوبيين. ومهما اقتضى الأمر، فإن المركز الرئيس للمثابرة كان بلا شك في النوبة العليا، التى لا نملك عنها حتى الآن سوى معلومات بسيطة للغاية حول إستعمار الدولة الجديدة وآثاره الثقافية.

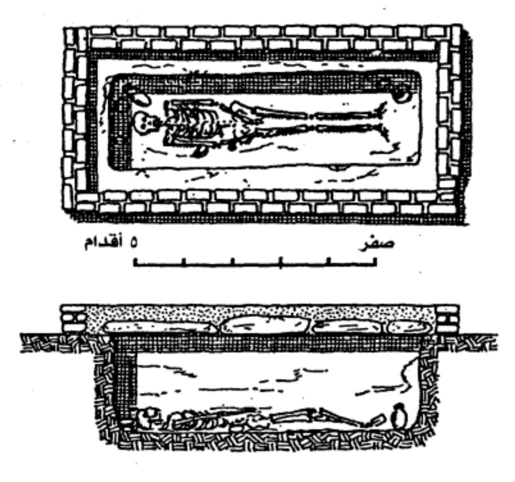
إذا كانت قبور الدولة الجديدة في النوبة السفلى ليست قبوراً للنوبيين المتمصرين، حينئذ لا يمكن لها إلا أن تكون قبوراً لمستعمرين مصريين. وبينما أن هذا يجب أن يُقطع بصحته في الحالات الفردية ، فإنه يصعب على السواء أن ترجع كل قبور الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة في النوبة للمستعمرين المصريين مثلما أن من الصعب نسبتها إلى نوبيين متمصرين. عدد مثل هذه القبور، بصفةٍ خاصة في بعض المقاطعات الريفية، يتعدى كثيراً المجموعة السكانية المستعمرة التى كان علينا أن نتوقع وجودها في تلك الأماكن. إن مقبرةً واحدة في دبيرة، أميالاً عديدة من أقرب مركز "حضرى"، بلغ عدد قبورها أكثر من ٦٠٠ قبر في عهد الدولة الجديدة [٧٦]. وللحقيقة كيفما اتفق الحال تتركز غالبية قبور الدولة الجديدة في الضاحية العامة للمراكز الإدارية والدينية الرئيسة، حيث نعلم أن المصريين كانوا بها يقيمون.

ربما كان متوقعاً أن تُسَوى البِنية التشريحية مرةً واحدة كليةً مسألة ما إذا كان سكان الدولة الجديدة في النوبة السُفلى مصريين أو نوبيين متمصرين. مع ذلك، حتى هذه اللحظة، ليست هذه بالحالة المقصودة. فبينما أن دراسات سابقة إقترحت أنه لم يكن هناك فرقٌ سلالى بين الدولة الجديدة وبين جماعاتٍ سكانية سالفة [٧٧]، ومن ثَم فضلت "فرضية التمثل الثقافي"، كشف فحص دقيق أقرب حدوثاً النقاب عن أن هنالك بحقٍ إختلافات وطيدة بين «المجموعة الثالثة» والهياكل البشرية للدولة الجديدة [٧٨]. مع هذا، لم يجرِ بعد تحديد لأهمية هذه الإختلافات وقيمتها. إضافةً إلى ذلك، يجعل الإفتقاد إلى مادةٍ مقارنة كافية من مصر الأصلية من المستحيل القول بأن سكان الدولة الجديدة في النوبة كانوا أقرب سلالياً إلى المصريين أو إلى السكان الأوائل بنفس المنطقة [٧٩].

بعد إستعراض المضامين المختلفة الممكنة للبنية التشريحية، يخلص عالم الأنثروبولوجيا فاقن نيلسن إلى فرضية الهجرة المصرية المقيمة في النوبة "... تبدو أكثر وضوحاً من وجهة نظر عالم الأنثروبولوجيا الطبيعية" [٨٠]. وإذا كانت الحالة كذلك، تبقى مسألة ما آل إليه النوبيون بالطبع بلا إجابة. إننا ملزمون بأن نفترض أمرين أما إنهم قُتلوا جمعاً، أو أنهم طُردوا أو تم تحريكهم خارج [المنطقة]، أو سقطوا إلى وضعية *الفلاحين* المعدمين الذين لم يتركوا وراءهم أى بقايا آثارية معلومة.

فى التحليل الختامى ربما تكون هناك بعض الحقيقة في كل من هذه النظريات. قلة من النوبيين كانوا بلا شك ضحايا لإعادة الفتح، رغم أن العدد المقتول بالفعل كان صغيراً فيما هو محتمل بالنسبة لأولئك الذين جرى استرقاقهم وأرسلوا لمصر أو لمناجم الذهب. مع هذا، فقد تُرك عديدون لحالهم، لوقتٍ ما كانوا في صفاء قادرين على مواصلة اسلوب حياتهم القبلى. لربما أن أفراداً وعائلات ساخطةً أو متقدمة تركو صفوف النوبيين منذ البداية وألحقو أنفسهم بالمستعمرات المصرية النامية. وربما أن ثقل الضرائب غاص بأخرين لمستوى رقيق الأرض.

مع تنامى قوة المصريين وأعدادهم، وامتصاص حيازات الأرض كمملوكات إقطاعية، لابد أن



شكل رقم ٣٦
قبر نموذجي من الدولة الجديدة

معظم النوبيين أبصروا الكتابة على الأسوار. فرداً فرداً وجماعة جماعة، واجهوا الإختيار ما بين الإقامة والإستيعاب في أُتون إقتصاد الفلاح الإستعمارى أو الهروب قبل أن تُطبق الحضارة على ما يتأتى لهم إنقاذه من قطعانهم وممتلكاتهم. نفس هذا الإختيار فُرِض على السُكان القبليين المرة تلو الأخرى في مسيرة الحضارة المنتشرة. شُطرت مجتمعاتهم إشطاراً، فيما جرت عليه العادة: ، يُفَضل بعضها الإقامة ويبغى بعضها الهجرة. ومن المحتمل أن هذا هو نفس ما وقع للنوبيين.

في الوقت الحالى، يمكن على أفضل الوجوه أن نشرح الإختفاء المفاجئ لآخر متعلقات من ثقافة «المجموعة الثالثة» في منتصف الأسرة الثامنة عشرة بافتراض أن العناصر الأقوى تحفظاً بين السكان النوبيين، الذى رفضوا حتى ذلك الحين الخضوع والتمثل الثقافى، حملوا أنفسهم لمناطق أكثر أمناً في النوبة العليا، حيث كانت قبضة المصريين غير قوية للغاية [٨١]. هنا، بأى شكل، يمكننا أن نستبصر إرثهم الثقافى بامبراطورية نُبتة بعد مضى وقت طويل على اختفائه من النوبة السُفلى .

ماذا آل إليه المصريون

ريما يوحى مشروع البناء المخطط ـ الذى لا يوازيه آخر مما اضطّلع به رمسيس الثانى بأن عهد

حكمه مَعْلَم لقمة القوة المصرية وثروتها في النوبة. في واحدٍ من المعاني هذا القول صحيح، فصناعة الذهب بلا شك بلغت أقصى تنميةٍ لها خلال حكمه أو في العهود التالية له مباشرة. على أن هنالك الكثير الذي يُمَكن من إقتراح أن الإقتصاد الزراعي للأراضي النهرية كان منذ السابق في تَدَنٍ خطير أثناء عهد رمسيس، فخلال قرن عقب موته انهار مرةً واحدة.

البّينة الدالة على تدهور النوبة في الدولة الجديدة أثناء فترتها الأخيرة من نوعيتين: ديمغرافية وإيكولوجية. من الناحية الديمغرافية، هناك إنخفاض موسوم ومتواصل في عدد من القبور، مصرية ووطنية، بعد منتصف الأسرة الثامنة عشرة. بَلّغ س. م. فيرث في خلاصة المسح الآثارى الأول للنوبة إنه لم يتم التعرف على أكثر من عشرة قبور من الأسرة التاسعة عشرة والأُسرات المتأخرة طوال أربع السنوات التى استغرقها العمل الميدانى بكامله. في وصف النوبة على عهد رمسيس الثانى كتب :

المجموعة العظيمة من المبانى المرتبطة بإسم رمسيس الثانى من الصعب جداً أن تتوافق مع الغياب الذى يكاد يكون تاماً للمدافن في هذه الفترة. إن معابداً ضخمة مثل جرف حسين، وادى السبوع، وأبو سُمبل، لم يكن في الإمكان بناؤها من قِبَل السكان المحليين، أو إن كانوا كذلك، فالناس الذين شيدوها لم يتركوا، فيما هو معلوم حتى الآن، آثاراً عن وجودهم. صعبٌ علينا أن نخلص إلى أن النوبة قد أضحت نوعاً من الأرض التى لا يوجد لها صاحب، تحكمها الآلهة وتسكنها أشباح الموتى (٨٢).

إن فرث إنتقص قطعاً من عدد القبور في الدولة الجديدة في مرحلتها الأخيرة في النوبة السفلى، بيد أن التناقض بين عدد القبور المعروفة من الأسرة الثامنة عشرة ومن كل العهود التالية مثير للعجب إذا قدرها أى فرد. فحتى بين الأسرة الثامنة عشرة يبدو أن هناك قبوراً منذ العهود الأولى تفوق في عددها القبور التى تنتمى للأزمان المتأخرة بنسبةٍ لحوالى ٢ إلى ١ (٨٣). مثل هولاء السكان الذين مكثوا في النوبة أثناء الفترة الأخيرة من الدولة الجديدة كانوا مُركزين تركزاً ثقيلاً في أماكن قليلة مفضلة كانت فيما هو محتمل مملوكاتٍ إقطاعية كبيرة. أما في أماكن أخرى، فتوقف الإستيطان الريفى بالفعل عن الوجود .

مراكز مثل عِنيبة، وبوهين، وعمارة بقيت هامةً حتى مداخل الأسرة العشرين، تُخلى عنها قبل نهاية تلك الأسرة. لم يجر تشييد لأى مدن أو صروح جديدة مطلقاً في النوبة؛ فمشاريع البنايات العظيمة التالية تولاها النوبيون أنفسهم، لأكثر من ٢٠٠ عام بعد رحيل المصريين. في النوبة السُفلى كانت الفجوة التاريخية لا تزال طويلة. إمتدت الأرض بين الشلالين الأول والثانى برغم هجرانها على مدىً أفضل جزء من ألف عام، لكل الأغراض العملية. بنفس القدر ما نجح أبداً أباطرة نُبتة العظيمة الذين فتحوا مصر وهزموا آشور في إعادة إستعمار المحافظة الشمالية المهجورة .

النقص السكانى شبه التام الذى حاق بالنوبة السُفلى في الألف الأخيرة قبل الميلاد، يبقى حتى الآن، واحداً من أكثر الألغاز إثارةً في التاريخ النوبى (٨٤). قد يجوز لتدهور الدولة المصرية الطويل بعد حكم رمسيس الثانى أن يُعلّل إنسحاب المستعمرين المصريين، لكنه يصعب أن يفسر الإختفاء الذى صاحبه من ناحية عامة للوطنيين، أو إخفاقهم في إعادة شغل المقاطعة الشمالية لما يقارب ألف عام. في الوقت الحاضر، لا يزال أفضل تفسيرٍ فيما سبق هو الذى قدمه فيرث قبل خمسين عاماً : أن إنخفاضاً في مستوى النيل جعل من النوبة السفلى غير صالحة للرى (٨٥). إننا نعلم من سلسلة شهيرة من النقوش المنحوتة في سمنة أن مستويات الفيضان في الدولة الوسطى كانت دائماً أعلى بكثير مما هي عليه اليوم (٨٦)؛ يمكننا أيضاً أن نستنتج من بّينة متنوعة أن مستويات الفيضان كانت منخفضةً بشكل معتبرٍ في الدولة الجديدة (٨٧). فإذا كان بمقدورنا من خلال هذه النقاط المسّلم بها أن نرى بالإستقراء سقوطاً متواصلاً في متوسط إنسياب النهر، فمن الممكن إذّن في الحقيقة، كما اقترح فيرث، أنه بمقدم الأسرة العشرين كان متوسط مستوى المياه أيضاً من الإنخفاض بحيث لم يسمح برىٍ مؤثر في المناطق التى تعلو بها ضفاف النيل عُلواً إستثنائياً، كما هى الحالة عموماً في

النوبة السُفلى و*بطن الحجر*. إن التأييد غير المباشر لهذه الفرضية تتضمنه الحقيقة التى مؤداها أن إعادة إحتلال النوبة السُفلى بشكل رئيس، يُحتمل أنه جرى في القرن الأول الميلادى، يبدو أنه كان مواكباً لإدخال الساقية التى تجرها الثيران ـ أداة جعلت للمرة الأولى رفع مياه الرى ممكناً بأزيد من العشرين أو الخمسة وعشرين قدماً الممكنة *بالشادوف* الذى يديره الرجال (أنظر الفصل الثانى عشر). مع هذا يجب التسليم بأن البّينة الجيولوجية فشلت حتى الآن في تأييد [الإفتراض القاضي] بأن متوسط مستوى النيل كان منخفضاً بمستوى غير مألوف في الألف الأخيرة قبل الميلاد [٨٨].

على الرغم من أن تاريخ وظروف التخلى النهائى غامضة بهذا الشكل، فمن الظاهر أنه بمجئ العام ١١٠٠ قبل الميلاد ذهب كلٌ من المصريين والنوبيين عن النوبة السُفلى و*بطن الحجر*. يمكن إفتراض أن المصريين تراجعوا أساساً صوب الشمال وتراجع النوبيون صوب الجنوب، حتى أن نوعاً من المنطقة العازلة إفتُتحت بينهما لأول مرة في ألف عام. مع هذا لم يتوقف تفاعلهما؛ تكثف في جوانب عديدة خلال القرون التى انبسطت النوبة السُفلى أثناءها كأرضٍ بلا صاحب بينهما.

التقهقر عن النوبة السُفلى كانت له مُعقبات سياسية وثقافية في كلٍ من مصر والنوبة العليا. في مصر تواصل صف "أبناء الملك في كوش" بلا انقطاع حتى نهاية الأسرة العشرين، لكن الولاة يقيمون الآن في طيبة نفسها [٨٩]. إن الولاة المتأخرين تمتعوا بسلطةٍ قصوى من خلال سيطرتهم على إنتاج الذهب ، الذى كان بالطبع غير متأثر بإنهيار الإقتصاد الزراعى، ولأنهم كانوا يهيمنون على قطاع كبير من المجندين النوبيين الذين ربما كانوا القوة العسكرية الفاعلة الوحيدة في مصر العليا. لا ضير، فقد صاروا الدعم الرئيس للعرش الفرعونى، ثم بعد ذلك إعتلوا العرش نفسه [٩٠]. إن مبدأ توينبى، أن كل من سيطر على طوابير الحدود في مواجهة الأقل حضارة يمسك بمفاتيح الإمبراطورية، قد برهن مرةً ثانية على صحته [٩١].

فى النوبة العليا، تُعد آثار الإنسحاب المصرى وهجرة النوبيين الداخلية من النوبة السفلى أكثر تخمينية. ليس مستيقناً أن القبضة السياسية المصرية كُسرت شوكتها حالاً عندما هجرت النوبة السفلى. إن رايزنر وآخرين [٩٢]... إقترحوا أن المهاجرين إلى النوبة العليا شملوا مصريين وكذلك نوبيين متمصرين، من خلالهم ضُمنت السيادة المصرية الإسمية على جبل البركل. إن أداتهم الرئيسة في ذلك الصدد كانت فيما يبدو المعبد العظيم لآمون، الذى شيّده رمسيس الثانى أصلاً [٩٣]. ربما أنهم بحق وحقيق كانوا على اتصال بكهنة آمون في طيبة، لكن من المحتمل أيضاً أن الصلة كانت دينية أكثر منها سياسية في طبيعتها، تماماً مثلما أن الكنيسة القبطية المصرية وفرت "أبونا" لأثيوبيا حتى أزمان حديثة. لقد كانت، على أى حال، كافيةً لتُبقى النفوذ المصرى حياً وتوفر قاعدةً أيدولوجية لإمبراطورية نُبتة النوبية ٣٠٠ عام فيما بعد. أن الظروف المحيطة بأصول هذه الإمبراطورية التى يشوبها الغموض، ستُناقش في الفصل القادم .

ملخص تفسيرى

طرد فراعنة مصر في الأسرة الثامنة عشرة أندادهم الهكسوس من الدلتا، وامتلكوا لأنفسهم إقليماً مُعتبراً في آسيا، ثم وجهوا طاقاتهم لإعادة فتح النوبة. خلال خمسين عاماً إكتُسحت المنطقة بأكملها، إندثرت الأسرة الوطنية في كرمة دون أثر، وأضحت مصر سيداً على النيل إلى مدى يمتد جنوباً حتى الشلال الرابع. ثم عُين والٍ للأقاليم التى أُعيد إستردادها من جديد، وحكم هو وخلفاؤه النوبة كمحافظة مصرية طوال ٥٠٠ عامٍ القادمة .

تبعت الإدارة الجديدة، في البداية، خُطى الإحتلال المصرى السابق للنوبة. إنصبّ التصرف المبدئى للفراعنة الفاتحين على استعادة القلاع العظيمة التى كانت رمزاً للحكم المصرى في الدولة

الوسطى وتوسيعها. في هذه الحالة، مع هذا، صَاحبَ تجار وإداريون الحاميات، وبدأ عمل إستعمارى أصيل. أنشئت مدن حصينة في أراضى عبرى - دلقو النهرية وأرض دنقلا النهرية، بعيداً وراء الحدود السابقة للسيادة المصرية .

مع مضى الوقت ونمو الحكم المصرى في النوبة أمناً، خفَّت القبضة العسكرية تدرجاً. أُذن للمدن أن تنمو خارج أسوار القلاع، وربما كانت بعض آخر المستوطنات في النوبة العليا غير مسورة. في نفس الوقت وقع تغيير هام في السياسة المصرية تجاه المنطقة المفتوحة وشعبها. إن الفراعنة انعطفوا من بناء القلاع إلى بناء المعابد، ساعين لإضفاء الشرعية على حكمهم لا عن طريق الإرهاب إنما بتكثير أيدولوجية الدولة. وجد المسعى نجاحاً معتبراً، مُسرّعاً بتمصير السكان الوطنيين. وبنهاية الأسرة الثامنة عشرة لم تترك عناصر قبلية في النوبة السُفلى دون تمثلٍ للثقافة المصرية .

تحت إدارة الوالى جرى تطوير لإقتصادٍ زراعى في المناطق النوبية الأكثر تفضيلاً. كانت الإقطاعيات في شقها الأكبر ملكاً لأيدٍ اجنبية، وأُدير بعضها بأمناء ملكيين أو من طرف المعابد، إلا أنه في حالات قليلة شملت طبقة ملاك الأراضى الجديدة أعياناً نوبيين. إن مقابرهم وسلوكياتهم الثقافية المتمصرة تماماً تقدم تحولاً هاماً في التاريخ النوبى : لقد بدأت الترتيب الطبقى بين النبلاء والعبيد تحل محل التقسيم العرقى بين النوبى والمصرى على أساس أنه القُربى الإجتماعية الأولية .

ما حدث في صفوف النوبيين تحت السيطرة المصرية بعيد عن الوضوح. إن بعضهم فيما يظهر قُبض عليهم كعبيد، والبعض الآخر جُرد من ممتلكاتهم وطُرد من المنطقة، واتخذ عدد لا بأس به أماكن بين طبقة الفلاحين المعدمين المتنامية والبعض الآخر إتجه للعمل في الصناعات المصرية. أما الذين هجروا حقولهم القبلية وقطعانهم فيُحتمل أنهم كيّفوا أنفسهم إلى أقصى ما بوسعهم مع أساليب أسيادهم. ولاذ بعضهم تعلقاً بأساليب الحياة التقليدية طالما كان بإمكانهم ذلك. ربما أن بعض هولاء المحافظين هاجروا في نهاية المطاف إلى منطقة النوبة العليا التى كانت أكثر تحرراً من إسار السيطرة المصرية بدلاً عن مواجهة الإخماد الثقافى في الشمال الذى قضى التمصير عليه .

لعل مستوى ارتفاع النيل هبط أثناء الدولة الجديدة ، وبحلول الأسرة التاسعة عشرة لم يكن الرى ممكناً إلا في أماكن مُحبذة قليلة في النوبة. كانت هنالك هجرةٌ خارجية من النوبة السفلى حتى أنه بقيت حفنة قليلة من المستوطنيين أثناء الأسرة العشرين، والأنكيَ من ذلك أن ريحهم ذهبت لألف عام. بلغ الإستعمار المصري نهايته، لكنّ آثاره البعيدة ظلت محسوسة لألف عام. أما النوبيون المتمصرون فربما أنهم وجدوا الإعانة من المهاجرين المصريين، إحتفظوا بالتقاليد الفرعونية حيةً في النوبة العليا، واضعين بذلك القواعد الأيدولوجية "لدولة الخلافة" نَبتة .

بالرغم من أن التوهجات الأولى لدولة ملكية يمكن إستجلاؤها في مملكة كرمة، فإن ولاية كوش تَسِم البداية الحقيقية لحضارة الأسرات - المرحلة الكبرى الثانية في تطور النوبة الثقافى. أما الثورة الإجتماعية والسياسية التى كان قد بُدئ فيها من طرف المصريين أثناء إستعمار دولتهم الجديدة فوالاها النوبيون أنفسهم، بقى التقليد الفرعونى حياً على أيديهم بعد خموده في مصر. أما تحول المجتمع فهو مُدرك آنفاً في إندثار السكان القبليين منتصف الأسرة الثامنة عشرة، وظهور النوبيون بين صفوف الصفوة. بدءاً من ذلك الوقت وما تبعه تم التنظيم الحضارة النوبية حول مجتمع طبقى الترتيب، وإقتصادٍ فلاحى، وأيدولوجية إمبريالية.

لقد أجبر نيل منحسر وإمبراطورية منكمشة المصريين على الخروج من النوبة في الأسرة العشرين، لكن النوبيين لم يكن في وسعهم إستغلال قوتهم الجديدة أو ضعف مصر مباشرة. لقد إستغرق وعى دروس الفراعنة بعض الوقت. وعندما ترسخ الدرس، أياً كان ذلك، فإن نوبة متمصرة، ومُستنهضة سياسياً، بمواردها الهائلة من الذهب، كان عليها أن تخرج كقوةٍ كبرى في النيل. لألفَى عام إنبسط ظل مصر على النوبة؛ وفى نهاية الدولة الجديدة كان ظل النوبة قد بدأ في مصر منظوراً على مرمى البصر .

الفصل العاشر

العصر البطولى
إمبراطورية نبتة النوبية

«الآن تبصر، أن ثقتك في هيئة هذه القَصَبة المكسورة، ولو كانت مصر، إنها حيثما انحنى عليها رجل، فسوف تقع في يده ويخترقها؛ وهكذا الفرعون، ملك مصر، بكل ذلك العهد الملقى عليه»[١]. هذه الكلمات، المُخاطب بها ملك يهودا من قبل آشور، توحى في براعة بالدرك الذى سقطت فيه حظوظ مصر الإمبريالية في القرن الثامن قبل الميلاد. العبارة برغم أن نكهتها، عزيزة على مؤرخى النوبة، ذلك أنها تُذكر بواحدةٍ من الحالات المختصرة التى ظهرت فيها كوش على مسرح التاريخ العالمى. لقد كان ملك مصر الذى شُبهت قوته بقَصَبة مكسورة [٢] في الحقيقة نوبياً؛ لمائة عام (٧٥١ ـ ٦٣٥ق. م) حكم هو وال بيته الأرضين فراعنة للأسرة الخامسة والعشرين أو الأسرة "الإثيوبية". إن الفترة الطويلة بشكل معتبر لصعودهم في النوبة يُشار إليها عادة بالفترة النَّبتية، تبعاً للمنطقة (الواقعة تحت الشلال الرابع مباشرة) التى نهض فيها النظام الملكى النوبى أولاً.

تقلب الأحداث غير العادى الذى جاء بنوبى للعرش الفرعونى ربما كان منظوراً في إنسدال الأسرة العشرين، عندما أمسك الذهب الجنوبى والقوات الجنوبية بمفاتيح القوة في مصر العليا (قارن الفصل التاسع). إلا أنه لم تخرج دولة خلافةٍ مكتملة التقاليد في النوبة إلا بانقضاء أجيال عديدة عقب إنهيار الإمبراطورية المصرية. في هذه الأثناء تقسمت مصر مرةً ثانية بين عُموديات متحاربة. الساحة الرئيسة للعراك آنذاك هى منطقة الدلتا، التى ظلت لبعض قرون خاضعةً للغزو والنهب من جماعات دخيلة من كلٍ من البحر وليبيا في الغرب. لبعض الوقت إكتسب الليبيون، الممركزين في مدينة الدلتا بوباستس، السيادة على جيرانهم ونَصبوا أنفسهم فراعنه للأسرة الثانية والعشرين.

حينما كانت مصر السُفلى في قلقلةٍ على ذلك النحو، إنتكست طيبة بعد أن كانت ذات مرة المركز المعتز بالقوة الفرعونية، إلى مكان هادئ متخلف نسبياً. إن كهانة آمون، التى نمت سلطتها الإستبدادية طوال الدولة الجديدة، تقلدت في هذه الأثناء زمام الحكم رسمياً في مصر العليا، وربما في النوبة كذلك؛ وعلى أى حال فإن دواوين الملك، ووالى كوش، ورئيس كهنة آمون يبدو أنه قد جرى استيعابهم في هيئةٍ واحدة [٣]. إحتفظ كهان طيبة الملوك بقدر من الإستقلال طوال الفترة الخاصة بالأسرة الحادية والعشرين حتى الثالثة والعشرين، بالرغم من انهم كانوا مُلزمين من مناسبةٍ لأخرى بدفع الجزية لواحدٍ أو آخر من الحكام ذوى القوة الأعتى في الشمال.

الذى مارس السلطة في النوبة حقيقةً خلال السنوات الطويلة من اضمحلال مصر يكاد يكون من المستحيل القول به. بعنخى بعينه، إبن الكاهن ـ الملك الطيبى حريحور، دُعى "إبناً للملك في كوش" خلال الجزء الأخير من عهد حكم والده (١٠٦٠ قبل الميلاد تقريباً)، لكنه كان آخر مصرى يحمل ذاك اللقب المبين [٤]. إن إنخماد جذوة ديوان منفصل للوالى لا يُعّين بالضرورة نهاية الحكم المصرى [٥]، غير أن الواضح أنه في زمن الوالى بعنخى كانت النوبة السُفلى قد نقص سكانها آنفاً. أما الحضور المصرى المتواصل في النوبة العليا فهو غير مُثبت بوضوح سواء في بَينة نَصية أو آثارية [٦]. وفيما يظهر فإن النفوذ المصرى الوحيد المتشبث بالبقاء هو ديانة الدولة لآمون في نَبتة، جوار الشلال

الرابع. إنها بغرسها أصلاً في جبل البركل بأزمان الدولة الجديدة، كان عليها أن تثابر لاكثر من الف عام بقدر ما، وأن توفر الأيدولوجية المركزية لمملكة كوش المستقلة.

ما كان بوسعنا أن نستبصر بوضوح عودة إنبعاث السلطة غير الدينية في النوبة حتى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد [٧]، حوالى ٢٠٠ سنة بعد ولاية بعنخى. فكما جرى أيام كرمة، تبّدى ظهورها أول الأمر ليس عن طريق سجلات نّصية، إنما بظهور مالا تخطئه العين من مدافن تلية ملكية في جَبانة الكرو، التى تقع على بعد عشرة أميال في إتجاه النهر شمالاً من جبل البركل. مرةً أخرى - ولأول مرة خلال قرون - حُكمت النوبة بنوبى.

نهوض النظام الملكى النوبى المستقل في نَبتة يمكن ان يتم وصفه على أنه ومضة كالشهاب وحسب. فلم تنكشف اكثر من ستة أو سبعة أجيال ما بين بداياته المتواضعة على غموضها نوعاً ما والوقت الذى احتل فيه أمير نوبى عرش الفراعنة التاريخى. إن صعود كوش السريع شهادة لا شك فيها على حالة مصر الضعيفة تمزقاً، لكنه إثبات قوى في نفس الوقت على فراغ السلطة الذى خلقه إنحسار النفوذ المصرى في النوبة. وفى النهاية كان مثالاً مأثوراً لشعبٍ كان محكوماً عليه بالتخلف يقلب الموائد على طُغاته السابقين وقد أذاقوه مرارة الإستبداد. مثل هذه الأحداث إضطربت بها سنين الاضمحلال لحضاراتٍ عديدة؛ وهى كذلك تُفسر في عبارات عامة من أرنولد توينبى:

عندما تتساقط حضارة نامية من خلال تدهور أقليةٍ خلاقةٍ وذات نشاط إبان صيرورتها إلى أقلية مهيمنة ممقوتةٍ، فإن أحد آثار هذا التغيير المشؤوم بالنسبة لقيادة المجتمع الهابط هى غربة أتباعه السابقين في المجتمعات المحيطة به التى كانت مُتَخَلِّفةً من قبل، والتى كانت الحضارة في مجرى تطورها تبث نفوذاً عليها بدرجاتٍ متفاوتة بسبب آثار إشعاعها الثقافي. يتغير سلوك الأتباع السابقين من إعجاب يُعَبر عن نفسه (بالمحاكاة الثقافية) إلى معاداةٍ تنطلق إلى حرب ... بين الحضارة المتحللة وبروليتاريتها الخارجية المنسلخة عنها [٨].

لقد ظل الناتج الشائع لمثل هذه النزاعات بادياً في قيام دولة أقل حضارةٍ في زمن قصير على أنقاض الحضارات القديمة. أعطى توينبى هذه الإمبراطوريات سريعة الزوال وصفاً تهكمياً إلى حد ما هو "العصور البطولية" [٩]. إنها بالطبع بطوليةً في أعين الفاتحين الأقل حضارة وحدهم، الذين تشكل لهم قدراً من فرض العدالة عُنوةً بعد قرون من التسّيد الثقافى والسياسى. أما بالنسبة "لسلالات السيد" المتهاوية التى تجد نفسها الآن خاضعةً لعبيد إقطاعها الذين كانوا موضع إحتقارها الطويل، فإنها ربما تُمثل إذلالاً مريراً على وجه الخصوص.

هذه الوقفة الزمنية الموجزة للحكم النوبى في مصر تقدم بصفاءٍ مثالاً لواحد من "العصور البطولية" وفقاً لتوينبى [١٠]. مع هذا فإن العبارة ملائمة كذلك في معنىً آخر، غير ما عَناه توينبى. كحكام لمصر، أصبح الملوك النوبيون وَرَثةً لجهاز الدعاية الكتابى الذى كان دائماً في إمرة الفرعون، وقد مَكّنهم من أن يتركوا للذرية نوع الشهادة الشخصية التى ظلت دائماً عزيزةً على الفاتحين والملوك المطلقين. إن هذه السانحة أُنكرت على معظم الحكام النوبيين في العصور الأمية غالباً التى سبقت فترة النبتية وأعقبتها. وهكذا، تضم الشخصيات الوحيدة التى تقف فرداً بالإسم في مواجهة الستارة الخلفية غير الشخصية، الشاملة للتاريخ النوبى حاكمين للأسرة الخامسة والعشرين :بعنخى الفاتح وتهارقا المؤسس. إنهما "البطلان" الشرعيان الوحيدان اللذان يمكن لمؤرخ النوبة أن يُقّدرهما. فإذا كان هنالك حكام أعظم وأشد حكماً في عصور أخرى، كما بالإمكان ذلك، فإن أسماءهم ومنجزاتهم مفقودةٌ في مجهولية السجل الآثارى .

إن لوحة بعنخى التذكارية، التى تُعَدد بتفصيلٍ حَملات هذا الفاتح النوبى الأول العظيم، واحدة من القطع الفنية النادرة في الأدب القديم [١١]. وتكاد نُقوش قصرٍ عديدة لتهارقا أن تساوى أخبارها. ورغم ذلك فإن هذه الوثائق الشخصية لا تعتبر الدليل الوحيد للحُكم النوبى في مصر. فحينما خطا

أمراء كوش خشبة المسرح العالمى، شغلت أنشطتهم رُصداء الأحداث التاريخية في أماكن كثيرة. في حوليات الملوك الآشوريين يحتفظ بتقاليد عديدة للأسرة الخامسة والعشرين، وفى مدونات الأحداث التاريخية اليهودية توجد في ٢ ـ الملوك وأشعياء، وفى التواريخ المتأخرة لهيرودوتس ومنثو [١٢]. إن تهارقا، التالى لآخر فرعون «إثيوبى»، هو النوبى الوحيد الذى ذُكر اسمُه في الأناجيل [١٣] .

جميع النصوص التاريخية المختلفة للأسرة الخامسة والعشرين تنقل لصورتنا المرسومة للتاريخ النوبي نوعاً من واجهةٍ ظلت حتى هذا الزمان مفتقدة. في نفس الوقت علينا أن نَقُر أن قدراً غير يسير من الخلفية الثقافية التى عُنينا بها كثيراً في فصول سابقةٍ خلفية مفقودة. ليست النصوص الحرفية للأسرة الخامسة والعشرين، مع كل هذا، حُوليات للنوبة لكنها حوليات للحكم النوبى في مصر. بين الأرض الجنوبية نفسها، نعلم قليلاً عن الأحوال الإجتماعية والثقافية في الفترة النّبتية مثل معرفتنا في أى زمنٍ منذ بداية التاريخ. هذه الحالة يؤمّل أن تكون مؤقتة؛ وفى الوقت الحاضر فهى ترجع إلى الغياب شبه الكلى للبقايا الآثارية النّبتية في النوبة السُفلى، وإلى الإفتقاد لعمل أثري منظم منهجياً في الموطن النّبتى بالمناطق الأكثر وقوعاً في الجنوب .

في الوقت الراهن، تجئ معرفتنا الأثَرية بالفترة النّبتية بصفة رئيسة من الجَبانتين الملكيتين في الكرو و نورى ـ وكلاهما نُقّبا من قبل رايزنر منذ منتصف قرنٍ مضى ـ ومن بضعة من المعابد الكبرى، التى حقق معظمها رايزنر. إضافةً لذلك. بإختصار، تقف الصروح الملكية وحدها لنا كدليل ثقافي من نَبتة، من غير شهادة من المساكن العادية والقبور المتواضعة لموازنة الصورة (كما في كرمة). ونوع هذا السجل، مثل الدليل النّصى، تكون قابليته لدراسة التأريخ الأُسَرى أعلى من التاريخ الثقافى، وإنه لمما لا يثير الدهشة أن العمل التأريخى الرئيس الذى نتج عن حفريات رايزنر المتعددة كانت إعادته بناءاً ممحصاً للخلافة الملكية النوبية [١٤]. إن هذا العمل يعتبر مثل كل أعمال رايزنر النظرية صرحاً من البراعة في ربط الأشياء، يجمع بين الغربلة المضنُية للبّينة التجريبية العلمية وبين تخميناتٍ شاطحة. يظل كثير منها، بما لا محيص عنه، تخميناً، وقد أثارت مجادلات ما فُتئت بعيدةً عن التسوية في الوقت الحاضر [١٥]. بوُسعنا أن نتجاهل هذه المجادلات لمدىً بعيد في اللحظة الراهنة، من ناحية لأن هناك إتفاق عريض فيما يختص بالأطوار الباكرة من التسلسل الزمنى، ومن ناحيةٍ لأن الترتيب السليم للملوك النّبتيين والمرويين ليس بأى حال من الأحوال، أمراً عظيم الشأن للمؤرخ الثقافى. إنه، كيفما كان الحال، حقيقى، بالنظر إلى مادة المصادر المتوفرة، بحيث أن قصتنا عن النوبة في الفترة النّبتية لابد أن تكون في معظمها تاريخاً شخصياً وأُسَرياً، أقل منها تاريخاً ثقافياً، عما ظل حقيقةً في الفصول السابقة.

الإصطلاح والتسلسل الزمنى

حَدَثية الحكم النوبى في مصر لم تكن سوى فصلٍ موجز في قصة طويلة. برهنت الدولة التى نهضت في النوبة بنَبتة إبّان القرن التاسع قبل الميلاد أنها بما لم يكن متوقعاً صلبة في عقر دارها. فلقد بقيت دونما مقاطعةٍ تذكر لألف عام، ولم تتحمل فحسب عدداً من الغزوات الأجنبية لكنها حقّقت بعثاً مذكوراً في قرونها الأخيرة. وفى الدائرة المحددة للنوبة العليا، إستمرت تقاليد مصر الفرعونية حية في أيدى نوبية حتى بعد إختفائها من مصر نفسها.

بتوقف الحكم المصرى المباشر في النوبة كان محتوماً أن تقاليد وطنية خالصة غير مصرية تؤكد من جديد وجودها بشكل مضاعف. حتى نهاية العهد الأُسَرى الملكى، مع هذا، لم تفترق المؤسسات الملكية ـ وهى الإطار المركزى للحكومة النوبية ـ بوعى عن النمط الذى سبق أن استّنه الفراعنة أبداً. إن مملكة النوبة المستقلة التى انبَعثت من رماد الحُكم المصرى كانت في نظرها

مُواصلةً ـ شرعية وحيدة ـ لدولة مصر الفرعونية الخالدة، التى أُسست على عبادة ديانة الدولة في طيبة. في وقت متأخر إلى القرن الثالث الميلادى ظل الحكام النوبيون يدعون أنفسهم بألقاب الفراعنة التقليدية «إله الأرضين» (أى مصر العليا والسُفلى)، "معبود آمون"، وهلم جرا، رغم أن أياً منهم لم يضع قدمه في مصر لما يقارب ألف عام. وربما أنهم كذلك، في المناسبات، يكنُون أنفسهم "بحكام كوش". [١٦]، على أن هذا كان وصفاً شكلياً غير دينى على وجه التمام مُعَرفاً للإقليم الذى يقع بالفعل تحت سيطرتهم؛ إنه لا يقدم القاعدة الأيدولوجية لحكمهم. فنظام حكمهم كان دائماً، من حيث المبدأ، حكومةً لمصر في المنفى (تحتوى محميتها النوبية الشرعية)، أغلب منها حكومة وطنيةً خالصة للنوبة. لقد كانت شيئية سياسية ممكنة المقارنة بالإمبراطورية الرومانية المقدسة وبالصين الوطنية اليوم.

ولأنها لم تطور أبداً طرازاً واعياً أو إسماً لهويتها، كان هنالك بعض الإرتياب فيما يمكن أن تُسمى عليه دولة النوبة شبه الفرعونية. إن معظم العلماء، حتى ما قبل خمسين عاماً مضت يشيرون إليها بمملكة إثيوبيا [١٧]، محتفظين بالإسم الذى استخدمه كتاب مأثورون. أياً كان ذلك، فإن التبنى الذى تم مؤخراً لهذا الاسم من طرف مملكة أخرى تقع بعيداً إلى شرق النوبة يثير إحتمال الخلط، ويجعل من المرغوب فيه أن يوجد إسم آخر للمملكة النوبية القديمة. إن كتاباً عديدين في الوقت الراهن يفضلون "مملكة كوش" [١٨]، ولسوف يُستخدم هذا الإسم منذ اللحظة في العمل الحالى.

كيفما دُعى اسمُها، تمثل مملكة كوش فترةً ذات إستقرار سياسى وإجتماعى ملحوظ. ربما لا يُعرف أبداً ما إذا كانت أسرة واحدة أو أُسرات متعاقبة توالت عليها، لكن التواصل غير المنقطع للمملكة يبدو فوق أى جدال. إن مساحتها الزمنية التى تبلغ ١.٢٠٠ عام تشمل كل عصر النوبة في ظل الأُسرات الملكية فيما عدا القرون الأوائل والأخيرة (الجدول السادس)، بالمصادفة تتعدى بهذا المدى تعدياً بعيداً أياً من ممالك مصر الموّحدة.

بالرغم من التواصلات السياسية والإجتماعية، كانت هنالك ذروتان منفردتان للغاية من التطور الثقافى في ظل مملكة كوش، يفصلهما "عصر مظلم" من عدة قرون. نتيجةً لذلك، فإنها ممارسة مألوفة أن يُقّسم تأريخ المملكة إلى طورين، يسميان الطور النَبتى والطور المروى تبعاً لمركزيهما الجغرافيين المتتاليين. خلال فترة السيادة النوبية على مصر، ولمدة قرن أعقبها على الأقل، كانت "عاصمة" كوش دونما سؤال في نَبتة، التى تقع مع اتجاه شمال النهر تماماً من الشلال الرابع. بعد ذلك، وبقدرٍ متزايد إبّان القرون الأخيرة، إنتقل مركز القوة صوب الجنوب، حيث نمت مستوطنةً هامةً في مروىً، على الجنوب من مدخل نهر عطبرة (الشكل رقم ٣٧). إن كُلاً من الظروف والأسباب التى أدت لهذا الإنتقال بعيدةً عن الوضوح، والتاريخ الذى نقلت فيه "العاصمة" رسمياً ظل موضوع جدالٍ طويل [١٩]. برغم ذلك، يظهر أنه بعد القرن الرابع قبل الميلادى كان مجهر السلطة الملكية الرئيس ـ قصوراً، ومعابد، ومدافن تَلّية ملكية ـ منصوباً في المنطقة الجنوبية.

فإذا كانت الإختلافات الوحيدة بين النوبة النَبتية والمروية تتعلق موقع الصروح المَلكية، فإن التمييز بينهما يصعب أخذه أمراً جديراً بالإعتبار. كانت النقلة الجغرافية، مع هذا، تطوراً بالصُدفة وقد هيأ لنا مسمياتٍ مريحة لطورين متميزين بالأحرى من الإرتقاء الثقافى.

منذ بداية الأسرة الخامسة والعشرين وما تبعها، كانت ثقافة نَبتة (أو القليل الذى نعلمه عنها) في غالبيتها مُقلدةً لمصر الفرعونية، مع أنها كانت في صيغة مُخففة وغير مصقولة نوعاً ما. إن الصروح المعلومة وبقايا أثَرية أخرى للفترة النَبتية تختلف في معظمها قليلاً عن صروح وآثار الطور الأخير من الإحتلال الإستعمارى المصرى بحيث أنه ليس من السهل التفريق بين الإثنين على اسس داخلية. لذا فإن جون ويلسن لاحظ ببراعة أن بعنخى، أول حاكم نوبى على مصر، "كانت ثقافته تقليداً غير مُتصقلٍ لمصر الأولى، متطرفةً في إحتفاظها بالصيغة الدينية" [٢٠]. الإنجازات العظيمة لبعنخى وخلفائه المباشرين كانت في المحيط السياسى أكثر منها في المحيط الثقافى [٢١]، كلها مكتسبة في

الجدول السادس

الترتيب الزمنى للحكام النّبتيين والمرويين (*)

الحاكم	التواريخ بالتقريب	مكان الدفن
كاشتا	٨٠٦ - ٧٥١ ق.م.	نَبتـة (الكُرو)
بعنخى	٧٥١-٧١٦	" "
شباكو	٧١٦-٧٠١	" "
شبكتو	٧٠١-٦٩٠	" "
تهارقا	٦٩٠-٦٦٤	نَبتـة (نُورى)
تنوتامون	٦٦٤-٦٥٣	نَبتـة (الكُرو)
أتلانرسا	٦٥٣-٦٤٣ ق.م.	نَبتـة (نُورى)
سنكامنسكن	٦٤٣-٦٢٣	" "
أنلاماني	٦٢٣-٥٩٣	" "
أسبلطه	٥٩٣-٥٦٨	" "
أمتلكه	٥٦٨-٥٥٥	" "
مالي نَكن	٥٥٥-٥٤٢	" "
أنلماي	٥٤٢-٥٣٨	" "
أماني - نَتكي - لبتي	٥٣٨-٥١٩	" "
كركا ماني	٥١٩-٥١٠	" "
أماني إستبركا	٥١٠-٤٨٧	" "
سياسبيكا	٤٦٨-٤٦٣	" "
ناساخمه	٤٨٧-٤٦٨	" "
ماليوب أماني	٤٦٣-٤٣٥	" "
تلاخ أماني	٤٣٥-٤٣١	" "
أمانِ - نتي - يركي	٤٣١-٤٠٥	" "
باسكا كرين	٤٠٥-٤٠٤	" "
حارسيوتف	٤٠٤-٣٦٩	" "
(ملك مجهول؟)	٣٦٩-٣٥٠	نَبتـة (الكُرو)

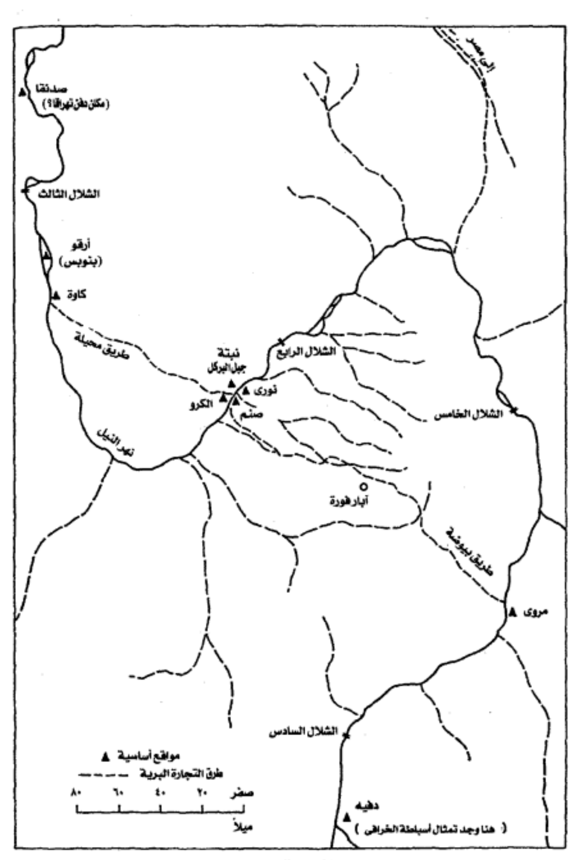
تابع الجدول السادس

الحاكم	التواريخ بالتقريب	مكان الدفن
أخراتان	٣٥٠-٣٣٥	نَبتـة (نُورى)
ناستاسن	٣٣٥-٣١٠	" "
أماني بخي ؟	٣١٠-٢٩٥	نَبتـة (نُورى ؟)
أركاك أماني	٢٩٥-٢٧٥ ق.م.	مروى (الجَبانة الجنوبية)
أماني سيلو	٢٧٥-٢٦٠	" "
الملكة بارتري	٢٦٠-٢٥٠	" "
أماني ... تيخا ؟	٢٥٠-٢٣٥ ق.م.	مروى (المقبرة الشمالية)
أرنخ أماني	٢٣٥-٢١٨	" "
أركاماني (إرقامين؟)	٢١٨-٢٠٠	" "
تابركا ؟	٢٠٠-١٨٥	" "
... إيوال ؟	١٨٥-١٧٠	" "
الملك شانكا دختي	١٧٠-١٦٠	" "
(ملك مجهول)	١٦٠-١٤٥	" "
نك ريسان ؟	١٤٥-١٢٠ ق.م.	مروى (المقبرة الشمالية)
تانيد أماني؟	١٢٠-١٠٠	" "
... خالي؟	١٠٠-٨٠	" "
... أماني؟	٨٠-٦٥	" "
أماني خبالي؟	٦٥-٤١	" "
الملكة أماني شختي	٤١-١٢	" "
ناتاك أماني والملكة	١٢ ق.م.	" "
أماني تيري	١٢ م.	" "
شركارير	١٢-١٧ م	" "
بيساكار	١٧-٣٥	" "
أماني تارا كُدي	٣٥-٤٥	" "
أماني تنما ميدي	٤٥-٦٢	" "
الملكة أماني ختًا شان	٦٢-٨٥	" "

تابع الجدول السادس

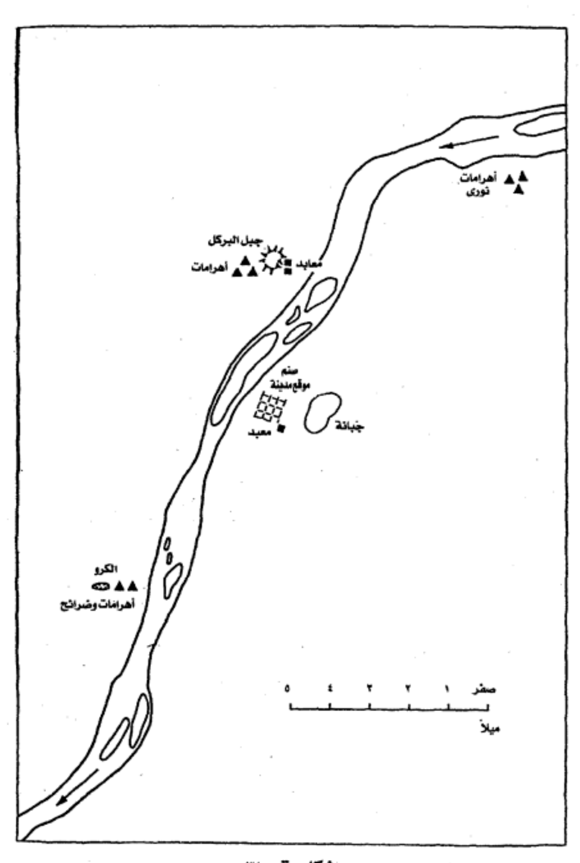
الحاكم	التواريخ بالتقريب	مكان الدفن
تاركي ني وال	٨٥-١٠٣	" "
أماني خليكا ؟	١٠٣-١٠٨	" "
أريتي أني سَبَّخي	١٠٨-١٣٢	" "
أكراك أماني	١٣٢-١٣٧	" "
أديكا تالي ؟	١٣٧-١٤٦	" "
تاكِدِيّ أماني	١٤٦-١٦٥	" "
... ريكا رَم ؟	١٦٥-١٨٤	" "
(حاكم مجهول)	١٨٤-١٩٤	" "
تريتي دا خاتي ؟	١٩٤-٢٠٩	" "
أريسا بَخى	٢٠٩-٢٢٨	" "
تريتا نايد	٢٢٨-٢٤٦	" "
أريتا نايد	٢٤٦	" "
تِكْري دي أماني	٢٤٦-٢٦٦	" "
تملي دي أماني؟	٢٦٦-٢٨٣	" "
يسُبخي أماني ؟	٢٨٣-٣٠٠	" "
لا خيدِ أماني ؟	٣٠٠-٣٠٨	" "
ماليكا رابار	٣٠٨-٣٢٠	" "

(*) بما أن أسماء الملوك فى النص الإنجليزي غير مُنّغمة النطق، إستعان المترجم بغناءٍ نوبي بلغة المحس لتقريب نطق الأسماء بالطريقة النوبية ما أمكن ذلك، إنطلاقاً من نظرية البروفسور آدمز والدكتور على عثمان أن أقرب موروث للغة النوبة القديمة لعله هو لغة المحس الحالية – المترجم.



شكل رقم ٣٧

النوبة العليا في الأزمان النبتية



شكل رقم ٣٨

خريطة بالرسم التخطيطى لمقاطعة نبتة

حدود فترةٍ تقل عن القرن. وبعد الإنسحاب النوبى من مصر تلت ذلك عدة قرون من الجمود السياسى والنكوص الثقافى إلى حالةٍ أقل إستقراراً وحضارة، لاذ السجل التاريخى خلالها بالصمت الشديد، والشاهد انه إبّان ذلك العصر المظلم وقعت نقلةُ السلطة من نبتة إلى مروى.

إنشاء "عاصمة" جديدة لم يستجلب إحياءاً فورياً لمملكة كوش. فالظلام الذى عَمّ القرون الأخيرة لنبتة يغطى بالمثل بدايات الفترة المروية. لقد أنبأت عن نفسها في نهاية المطاف، بطريقةٍ غير مباشرة، في حادث وقع بعيداً في الشمال: وصول الإسكندر وجيشه المقدونى إلى مصر ٣٣٢ قبل الميلاد. إن الأسرة البطلمية المصرية - الإغريقية التى اسسها خلفاؤه جاءت بالإحياء العظيم لآخر جولة لحضارة مصر، وكانت آثارها ملموسة، بما لا يُخطأ تداوله، في النوبة على حد سواء. البعث الثقافى في مروى الذى بدأ في القرن الأخير قبل الميلادى [٢٢] كان، مثل ما جرى في مصر البطلمية، مزيجاً من تاثيرات إغريقية وفرعونية. فإذا كان الطراز السائد للحضارة المروية قد بقى مصرياً غير إبداعى، فإن نظامها المانع الجديد تولد بحجم كبير من ضم كلٍ من مصر والنوبة إلى داخل شبكة عالمية من التجارة الساحلية. كانت هذه، بالطبع، إرث الإغريق الخاص.

يتوهج الإقتصاد القومى والثقافة العالمية المروية في سموٍ أعلى من الأزمان النّبتية. ولكنْ مع ذلك لا نعرف واحداً من الحكام المرويين القليلين الذين نملك عنهم معرفةً فردية إرتفع إلى مكانة بعنخى أو تهارقا. بإختصار، كانت الإنجازات الكبرى للإنبعاث المروى في المحيط الثقافى أوفر منها في المحيط السياسى. الفترة النبتية "عصر بطولى" للنوبة؛ والفترة المروية "عصرها الذهبى". وفيما يتبقى من هذا الفصل نُولى إهتمامنا للطور النّبتى - "العصر البطولى" - وحده .

الموقع الجغرافى لنَبتة يتطلب كلمةً توضيحية. يظهر هذا الاسم أولاً في النصوص الحرفية المصرية للأسرة الثامنة عشرة [٢٣]، ومن بعدها استُعمل إستعمالاً منتظماً حتى الإندثار النهائى لمملكة كوش. إنه يشير بما لا جدال فيه إلى مقاطعةٍ تقع مباشرةً شمال النهر من الشلال الرابع للنيل (منطقة كريمة الحديثة)، بيد أنه ليس في أيدينا جازماً ما يثبت أن هناك مدينة بعينها تدعى نُبتة - أو إنه لم يحدث ذلك [٢٤] . فالصروح الملكية المعلومة لنا من منطقة الشلال الرابع غير مركّزة بأى منطقةٍ واحدة، لكنها مُبعثرة علي مسافةٍ لحوالى خمسين ميلاً علي طول كلٍ من ضفتى النيل. بين هذه المساحة المدافن الملكية بالكُرو، وجبل البركل، ونُورى، المجموعة العظمى لمعابد جبل البركل، والمعبد والقصر الأصغر في صنم (الشكل رقم ٣٨). ولأن إسم نُبتة يمكن أن يُربط في معنى من المعانى بكلٍ من هذه المواقع المحلية، يُفترض في العادة أنه اشتمال على المقاطعة التى تمتد بأكملها شمال النهر من الشلال الرابع إلى مسافة خمسين ميلاً أو نحو ذلك.

إن الحاجز الطويل الذى يقف حائلاً يكاد دون الملاحة ويمثله الشلال الرابع يوفر حداً طبيعياً لإمبراطورية مصر النوبية، والمستوطنة التى نَمّت مباشرةً تحت الشلال في ظل الأسرة الثامنة عشرة، ربما أنها قد بدأت كذلك محطةً خارجية على الحدود. ويلاحظ، مع هذا، أنه لا توجد هنا أية تحصينات أو موقع لمدينة ذات أهمية؛ منذ بداية الأمر يبدو المكان اكثر اهميةً كمركز دينى من كونه مركزاً سياسياً أو تجارياً. ما كان محور تركيزه الشلال ولا النهر سواءً بسواء، لكنه المرتفع المقدس لجبل البركل [٢٥] الذى ينتصب ميلاً أو ميلين من ضفته الشمالية. لقد بُنى المعبد المصرى الأول في ظل هذا المرتفع الشامخ ذى القمة المنبسطة في عهد تحتمس الثالث او الرابع، وهنا في الأيام الأخيرة قام رمسيس الثانى ببناء المعبد العظيم لآمون الذى أضحى في زمنه المركز الدينى لمملكة كوش المستقلة. هنالك معابد أصغر أُضيفت في العهود النّبتية والمروية، وأُقيمت اهرامات مَلكية قليلة إلى غرب الجبل مباشرة. فإذا أردنا بالفعل إطلاق إسم نُبتة على موقع محلى محدد، فيتحتم بالتاكيد أن يكون ذلك الموقع هو جبل البركل المقدس وما يحيط به. ولأهدافنا مَع ذلك، يصبح من المريح أن نطلق الإسم بمعنىً عريض، على المساحة التى تُغطى الصرُوح المَلكية الأولى لكوش.

أوائل الصروح المعلومة عن دولة كوش هى ستة وثلاثون مدفناً مَلكياً تكّون في مجموعها جَبانة الكُرو (الشكل رقم ٣٨). وبينها رفات كل النوبيين الذين حكموا من مصر عدا واحداً، وفيها أيضاً رفات كثير من ملكاتهم. هذه المدافن غرف مكتملة البناء تحت الأرض مغطاة في ظاهر السطح بأهرامات صغيرة (موصوفة بتفصيلٍ أوفى في صفحات قادمة). مع ذلك، فإن جَبانة الكُرو تضم كذلك بعض قبور المدافن التلية الأصغر التى تبدو، على أسس طبغرافية، أسبق وقوعاً من المجموعة الرئيسة للجنائز الملكية. وهذه، في رأى رايزنر، تمثل الأجيال الأولى التى تأسست منها الأسرة النوبية الملكية، قبل أن تفتح مصر [٢٦]. إنها لا يمكن أن تنسب برغم ذلك لأى حكام معروفين، حيث لم يُعثر على أسماءٍ أو نحوت منقوشة في قبور المدافن التلية.

ويصل عدد المدافن في كليتها إلى ثلاثة عشر مدفناً تلياً على الأقل في الكرو، غير أنها، طبقاً لتأويل رايزنر، لا تشكل ما يتعدى خمسة أو ستة أجيال من الحكام [٢٧]. أما الجيل السادس أو السابع فهو جيل كاشتا، الملك المعروف الذى أعلن الحكم النوبى في مصر في وقتٍ ما قبل عام ٧٥٠ قبل الميلاد. فإذا صَح هذا الرأى (وقد قبله معظم خلفاء رايزنر)، وإذا قُدرت عشرين سنةً لكل عهد حكم، فإننا نحوز على بَينة تؤكد وجود أسرة كوشية في الكرو لحوالى مائة عام وحسب قبل فتح مصر [٢٨]. وتبقى هنالك فجوة زمنية مقدارها ٢٠٠ عاماً بين نهاية حكم مصرى فعالٍ وظهور أول مُلك معترف به لكوش.

إن الأحداث السابقة للأُسرات النوبية ظلت بطبيعة الحال موضوعاً لتخمينٍ شديد [٢٩]. واعتقد رايزنر في البداية أن ملوك كوش كانوا من أصل ليبى، يستند إدعاؤهم بحكم كلٍ من مصر والنوبة إلى قرابتهم للفراعنة الليبيين في الأسرة الثانية والعشرين [٣٠]. هذه النظرية تتعلق بأضيق بَينة آثارية وفلسفية، وقد رفضها بالتقريب كل العلماء المعاصرين [٣١]. وما من مؤشر بدالٍ - في أى حالة - على أن الفراعنة النوبيين أقاموا - على الإطلاق - إدعاءهم لحكم مصر على أسس أُسَرِيَّة .

نظرية أخرى تقول بأن ملوك كوش نهضوا من بين صفوف كهنة آمون في جبل البركل [٣٢]. هولاء فيما هو مقترح، ربما كانوا في معظمهم مصريين - حيث أن العديدين منهم كانوا مهاجرين قُدوماً من النوبة السُفلى التى كانت آنذاك مهجورة [٣٣]. أما الحقيقة التى مؤداها أن أول ملك نوبى عظيم، بعنخى، أخذ نفس الإسم الذى كان قد أخذه آنفاً آخر والٍ معروف، والذى كان هو نفسه إبناً لأحد الكهان - الملوك بطيبة، فنُقلت كبرهانٍ على ذلك الرأى [٣٤]. خَلا أن الخصائص المتفردة للقبور الأولى في الكرو ما كانت ليبية ولا مصرية، لكنها نوبية بما لا تخطئه عين. إنها تحتوى إستخدام مدفن تلى مستدير ووضع الميت على السرير - وكلاهما ممارسات مصاحبة بالذات لمملكة كرمة النوبية العظيمة. وفى حين أن هذه السمات يصعب أن تشير إلى عودة لأسرة كرمة عقب إنقضاء سبعمائة عام، فإنها على الأقل إشهارٌ كافٍ على الأصول الوطنية للملوك النوبيين [٣٥]. لقد أشير أيضاً إلى أنه في الصُروح الملكية في طيبة رُسم الفراعنة النوبيون بملامح إفريقية وتفاصيل في الملبس لا مجال لتخطئتها [٣٦].

وإذا كان ملوك كوش لم ينحدروا حرفياً من كهنة آمون، وبغض النظر عن هذا، لا يوجد شك في أن شرعيتهم وقوتهم إرتكزت في نهاية الأمر على سلطة الكهنة الروحية. لربما أنهم كانوا أوصياء مؤقتين على عبادة آمون الكبرى - "الدين الرسمى" لكلٍ من النوبة ومصر العليا منذ الدولة الجديدة - صعدوا للحكم في نَبتة، وكان لذلك اللَبس ظهورهم بادئ الأمر على المسرح في مصر. ومن المعروف، يكاد مستيقناً ليس صدفةً أن الأسرة النوبية المالكة تجذَّر أصلها في ظل جبل البركل، الذى كان قد أسس مركزاً لعبادة آمون في النوبة في وقت باكر من الدولة الجديدة.

تشكل ديانة آمون الرابطة الرئيسة للتواصل الأيدولوجي طوال عصر أُسرات النوبة. إن هذا الدين الذي يقرب وصفه من الغموض، والذي لم يكن في الأصل أكثر من عبادةٍ محلية في طيبة، ظهر كإلهٍ عالٍ في مصر أيام السيادة السياسية لطيبة (الدولتان الوسطى والجديدة) (٣٧). كانت النقطة الجوهرية في عبادة آمون هي المعبد العظيم في الكرنك، الذي ازدان مع كل جيلٍ من الفراعنة بالصروح لإله الدولة حتى حقق تضخماً هائلاً لا يعادله أي تذكار ديني آخر .

غُرست عبادة آمون في ظل الدولة الجديدة، ومثلما كان حالها في مصر أضحت عبادة آمون ديانةً للدولة. إن اختيار جبل البركل مركزاً رئيساً لها، ربما أملته حقيقة أن الجبل العظيم كان مقدساً من قبل في التقليد المحلي. فهنا بنى رمسيس الثاني معبداً ضخماً قصد به أن يكون النظير النوبي للكرنك - المجهر الرمزي للقوة والسلطة في الأراضي الجنوبية. إن المخطط لاقى نجاحاً تعدى أحلام المصريين المتصورة وبقى معبد جبل البركل هاماً طوال تاريخ كوش لدرجة أن تدميره كان الهدف الرئيس لحملة رومانية تأديبية بعد ألف عام لاحقة.

لقد أمعنّا النظر آنفاً كيف أن كهنةُ آمون تقلدوا دِسَت الحكم في مصر العليا عقب إنحلال الملكية الموحدة في الأُسرة الحادية والعشرين. ولعل نفس النمط أُعيد في النوبة. فعلى الصعيد العملي ربما كان معنى ذلك مالا يزيد قليلاً عن التوظيف المتواصل لبيروقراطية بلا رئاسة بعد إزالة رئيسها الإسمي. إن "الحكومة" التي قدمها الكهنة في كل من مصر والنوبة ربما اشتملت أساساً على الإدارة المتواصلة لمقاطعات المعبد، التي بحلول هذا الوقت كانت العمود الفقري للإقتصاد الإقطاعي في كلٍ من المنطقتين. صعود كهنة آمون ربما نتج على هذا المنوال بسبب التآكل الذي أتي علي أشكال السلطة بأكثر من كونه أمراً عائداً إلي طموحاتهم في الحكم. إن موقفهم ربما أمكنت مقارنته بموقف البابوات في روما ما بعد الإمبراطورية .

تسليما بالأحوال المضطربة في مصر السفلى ونوايا آشور العدوانية المتنامية، ربما تأسّف الحكام الطغاة الكهنوتيون في الكرنك كل الأسف على اندثار سلطةٍ غير دينية مستقلة يكون بإمكانهم الإعتماد عليها للحماية. يجوز لنا أن نستنتج إستنتاجاً خفيفاً أن الحكومة الدينية قاست من العجز التقليدي للأنظمة الإستبدادية : إن بإمكانها أن تدير الشوؤن الإقتصادية والسياسية للدولة في حدود كافيةٍ للغاية، لكنها لا تستطيع أن توفر الشوؤن الدفاعية بإقتدار. في الأوقات المضطربة يكون لزاماً عليها أن تطوف حول إتحادٍ عسكري، وإذا أملت الضرورة لتسلمه نصيباً معتبراً من السلطة. هكذا كان الأصل التاريخي للأنظمة الإستبدادية بالمعنى الإغريقي للكلمة .

أما في النوبة فلم يكن هناك بالطبع تهديد خارجي خطير لهيمنة آمون، فحالا انسحبت الحاميات المصرية، مع هذا، يتبدى أن صون السلطة المستديم من قبل صفوةٍ صغيرة أو متمصرة، دون أي قاعدة محلية من الدعم لابد أنه كان عملاً صعباً وغير حاسم. لربما كانت إعتباراتٍ من هذا القبيل هي التي قادت الكهنة في جبل البركل للبحث عن تحالف وحماية زعماء محليين ذوي نفوذ - أسلاف بعنخي وتهارقا. إنه في مثل تلك الحالة يبدو ممكناً قيام أكثر التفسيرات إحتمالاً في شأن الملكية الكوشية، رغم أن التفاصيل الدقيقة سوف لا تصير معلومة أبداً بما يقرب من التأكيد .

ما تم تأسيس لإزدواج سلطة الكهنوت والسلطة غير الدينية، حتى دَعَم كلٌ منها الآخر بشكل طبيعي لا مَحيص عنه. لقد إعتمد الملوك الكوشيين على كهنة آمون لمنح البركة الروحية لحكمهم وجعله شرعياً، وأيضاً لعزل جهازهم الإداري البيروقراطي. في المقابل تقلدوا الوظائف إن لم يكن ألقاب المدافعين عن العقيدة، وأغدقوا على المعابد ثمرات فتوحاتهم الخارجية. إن دوام هذه العلاقة تثبته الحقيقة القائلة بأن الحكام النوبيين حتى نهاية مملكتهم إتّخذوا إسم آمون - (أماني) - كأحد أسمائهم الملكية في العرش. دَوّن المؤرخ ديودورس سايكولس إضافةً لذلك أنه حتى القرن الثالث قبل الميلاد كان لكهنة آمون الحق في خلع أي ملك نوبي لا يرضون عنه، وقتله، وتسمية خَلَفه (٣٨).

علاقات القربى بين حكام كوش المتعددين معلومةً في حالات قليلة فحسب. إن عبارات القرابة التى عُثر عليها في النقوش الملكية، مثل الحروف التى كُتبت بها، مصرية، وكان النهج المصرى في تدوين القرابة مُشتهراً بعدم الدقة [39]. عباراتٌ كثيرة واضح أنها استُعملت تخَيلياً في بعض المحتويات وحَرْفياً في محتوياتٍ أخرى، حتى أنه لا يصفو دائماً ما إذا كانت العبارة "زوجة ـ شقيقة"، كمثال، يجب أن تؤخذ كإثباتٍ على زواج الأقارب أم لها تعبير متنوع ليس إلا "لزوجةٍ محبوبة" [40].

الملكية الكوشية كانت منذ بدايتها وراثية بجلاء. السلالة الملكية ضرورة لكنها لم تكنْ شرطاً كافياً للحكم؛ فقد كانت الصفات الشخصية مطلوبةً بالمثل. كمعظم الشعوب المتخلفة نسبياً ما استطاع النوبيون الأوائل أن يتحَملوا المصائر المجهولة التى تكتنف حياة طفلٍ مليك أو ملكٍ مأفون، ذلك أن الغالبية العظمى من مصائرهم إعتمدت على شخصية قائدهم الخاصة وحكمته. نتيجةً لذلك لم تكن هناك قاعدةٌ مطلقةٌ الثبات للخلافة الملكية وما كان لها أن تكون.

النظام المفضل للخلافة في كوش اقتضى على التاج فيما يبدو إنتقالاً مُرتباً لكلٍ من الإخوة الأحياء لملكٍ فارق الحياة، ثم بعد وفاة الشقيق الأخير، يعود التاج لأكبر إبنٍ للأخ الأول، ومنه بالتعاقب لإخوته. هذه القاعدة التى لا تشبه الوراثة في الأنظمة الملكية الأوروبية تؤكد عادةً ذهاب التاج إلى طالب العرش الأكبر عمراً، وبالتالى من يفترض أنه الأكثرَ خبرةً. مع ذلك، يبدو أن هناك إستثناءات عديدةً لها بالفعل. فقد تم تخطى عددٍ من الإخوة وسيطين فيما يبدو عندما دُعى تهارقا وريثاً لشبكتو (أنظر أدناه)، ربما لأنه أظهر مقدرةً غير عادية في عمر مُبَكر [41]. إلى حدٍ ما كان المنصب بالإنتخاب بين الإخوة والأبناء المستحقين، ويتم الإختيار من بين أدعياء العرش أنفسهم أو (بإحتمالٍ أقوى) عن طريق كهنوت آمون. ومع ذلك، ربما لم يكن الإمتياز الذى نعِمَ به الكهنة بخلع الملك وتعيين وريثه، كما بَلغَ ديودورس سايكولس، سوى حالةٍ مؤقتة من الشؤون نتجت عن ضعفٍ أو تقسيم داخلى في الأسرة المالكة. لقد كانت هنالك أزمان بالتأكيد طُرِق فيها ميزان القوة الناحية الأخرى، فكان في مقدور الملك أن يأمر الكهنة حتى في الأمور الدينية [42].

فى بعض المناسبات يبدو أن الخلافة إنتقلت لإبن شقيقات الملك، لا لإبن ملكٍ سابق. أُخذ هذا بَينةً على أن النوبة القديمة، مثل كثير من إفريقيا ما قبل الإسلامية، إتبعت قاعدةً أُمومية في تسلسل الأنساب [43]. أياً كان ذلك، فالإثبات على هذه النقطة ليس قاطعاً، وهنالك لحظات كافية من التوريث الأبوى في عائلة كوش المالكة لقيام الشك حولها. فإذا كان زواج الشقيقة بالشقيق متكرراً على نحو ما تقترحه بعض النصوص الملكية، فإن السؤال يطرح نفسه : فالمواليد من الجانبين في مثل تلك الزيجات يمكنهم بالطبع أن يَدّعو الإنتماء إلى السُلالة الملكية.

وفى حين أنه لم يكن المجتمع النوبى بأى حالٍ من الأحوال مجتمعاً أُموميا، لا يمكن أن يكون ثَمة شك أن الملكات تمتعن بمكانةٍ عالية بشكل غير معتاد فهن شريكاتٌ في الحكم وسيداتٌ يحظَين بالوقار. إنهن يبرزن عميقاً في نحوت ورسوم ملكيةٍ عديدة، والواضح أنهن تصرفن أحياناً كمستشارات، ووصيات على العرش مراتٍ لأبنائهن [44]. يُدَوِن فرعون الأسرة الخامسة والعشرين، تهارقا، في أحد نقوشه أنه طلب حضور أمه طول المسافة من نَبتة كى تشهد تتويجه في مصر [45]. إن الثروة والبهاء في قبور الملكات بالمدافن النوبية شهادةً أبعد مدى لمكانتهن العالية.

لابد أن المكانة الرفيعة والسلطة القائمة ما وراء الستار التى تمتعت بها الملكات النوبيات ذلكم الذى أنهض الأثر الرومانى القاضى بأن كوش كانت تُحكم بتسلسلٍ وراثى من النسوة الحاكمات، يدعَين كلهن بلقب كنداكة [46]. يبدو الإسم في الحقيقة تحريفاً للقب مروى (كَتكى) الذى حمله كلُ الأوصياء الملكيين على العرش أو الأمهات الملكات على كوش؛ وهو لا يُعَين بتحديد ملكةً وصيةً على العرش [47].

لقد كان هنالك بحق خمس ملكات على الأقل وصيات على العرش خلال القرون الأخيرة للأسرات الكوشية، لكن لم يحكم إثنان منهن في تعاقب، وليس هناك جزمٌ أنهن حَمَلن اللقب كدكي. إن الظروف التي جاءت بهن للعرش، في تفضيلٍ لهُنَّ على طلاب العرش المذكور (إن وُجدوا) غير معلومة (٤٨).

فتـــح مصـــر

كاشتا، أول ملك نوبي يمكننا التعرف عليه من إسمه (٤٩)، ينتمي إلى الجيل السادس للأسرة الكوشية طبقاً لتقويم رايزنر التخميني. إسمه يظهر في نقش واحد أو نقشين شديديّ الإختصار وحسب، نعلم تفاصيل قليلة عن حكمه (٥٠). في لحظة ما من سيرته، يبدو أنه اتخذ طريقه صوب الشمال حتى طيبة، حيث رَسّخ كهنة آمون قوته، وألزم الكاهنة الأعظم لتتبنى ابنته كوريثة مُعلَنةً لها (٥١). بجعل التحالف رسمياً على ذلك المنحي بين النظام الملكي وديانة آمون كان يَتّبع مراس عدد من الفراعنة الأوائل (٥٢). ليس هنالك ما يُوحي بنشاطٍ عسكري مرتبط بزيارة كاشتا؛ البادي أنه قطع رحلته في سلام وقد دُعي في طيبة، كما في جبل البركل، الراعي المُعيّن لآمون وحامي عقيدته. أما بالنسبة للكهنة المصريين، على ماهم عليه من تهديدٍ في الشمال وبإعتيادهم الطويل على القوات النوبية لحمايتهم، فإن نهوض قائدٍ نوبي جديد ومقتدر ربما بدا ظهوره إلى حد مُعتبر خَلاصاً. لقد أسرعوا يعترفون به ويَدّعون حمايته. إن المنظر المتُداعي لحضارةٍ قديمة تُسلّم لقبضة عهدٍ جديد أقل حضارةً بأيدي ولاتها الروحيين لابد انه قد تمتع به النوبيون الحاضرون؛ ذلك مما أُعيد القيام به مع اختلافاتٍ يسيرةً لا غير إبّان تتويج شارلمان بعد ١٫٥٠٠ عام مؤخراً (٥٣). ومع أنه لم يُطالب بألقاب الفرعون كاملة . (٥٤)، فإن تقلد كاشتا للسلطة في طيبة إختّط الطريق للظهور المخُتّصر لكوش كقوةٍ عالمية (٥٥).

مات كاشتا حوالى ٧٥١ قبل الميلاد، وخَلّفه ابنُه بعنخي (٥٦). بدا الملك الجديد كأنما قضى العشرين عاماً الأولى من حكمه في نَبته، معطياً القليل من التفكير للإقليم الشمالى الذى تقلّد أبوه مسؤوليته. وبإنقضاء الوقت، كيفما جرى ذلك، بلغته كلمةٌ أن طيبة يتهددها جيشٌ بقيادة تفنخت، أحد ملوك أُسرات الدلتا الذى كان يرمى لإستعادة الحكم الفرعونى على مصر بأجمعها. لقد إبتهل المسؤولون العسكريون في طيبة لبعنخي كي يقوم بحماية مُقّدرات آمون من الدخيل. وفى هذه اللحظة تتولى القصة لوحة بعنخي العظيمة (التى عُثر عليها في جبل البركل عام ١٨٦٢، وهى الآن بمتحف القاهرة؛ أنظر الصورة ـ ١٢) (٥٧).

أمر بعنخي القوات في مصر أن تقاوم بأبسل ما تستطيعه، وبعد وقت قصير جَرّد حملةً أكمل عُدةً وعِتاداً لتردع الغزاة. لقد نجحت هذه في هدفها المباشر، لكنها لم تتتبع قوات تفنخت المندحرة وتدمرها. مارضى بعنخي عن أنباء هذه التدابير بين بين، وصمم على أن يقود المعركة بنفسه. تقدم أولاً نحو طيبة، حيث احتفل في مهرجانٍ عظيم بالإحتفال السنوى للأوبت في معبد الكرنك. إن هذا التصرف البارع من فن إدارة الدولة أعلن على الملأ مهمته المقدسة في مصر كراعٍ وحامٍ لديانة آمون. متى فرغ من ذلك، إتجه شمالاً في مطاردةٍ لأعداء طيبة السابقين. فكان أول أعمّاله موُاجهة لمدينة مصر الوسطى هرموبولس، التى كانت فيما سلف تحت الحصار لعدة أشهر.

إن نملوت، ملكها، حين وجد أن الهدايا، ولو أنه ألقى بتاجه الملكى بينها، لم تُكسبه شيئاً مع بعنخي، أرسل ملكته لتدفع ببراءته مع نساء النوبيين لربما يتشفعن بعنخي لصالحه. كانت هذه الوسيلة ناجعة، ليحافظ الملك على حياته، إستسلم نملوت وسلم المدينة وكل ثروته لبعنخي، الذى استولى فوراً على المكان. وبعد تقص لقصر نملوت وكنزه، دخل بعنخي الأسطبلات .... "إن صاحب الجلالة تقدم نحو أسطبلات خيوله"، هكذا أوردت حُولياته، و "مواقع المهور الصغيرة. وعندما رأى أنها قد عانت من الجوع، قال: إننى أُقسم بمحبة رَعْ لى... إنه لأكثر إيلاماً في فؤادى أن تُقاسى خيولى من الجوع أكثر من أى فعل شريرٍ قمت به لتحقيق رغباتك" (٥٨).

بعد سقوط هرموبولس، سرعان ما أُنجزت أهداف بعنخى الباقية.

تحرك بعنخى لمواجهة الدلتا، مستولياً بالهجوم على ممفيس، حيث استخدم أسطوله وجيشه معاً. وفى هذا الهجوم إستسلم العديد من أمراء الدلتا، ثم ذهب إلى هليوبولس وتقبل إستسلام أوسركن الرابع (إسميا آخر فرعون في الأسرة الثالثة والعشرين) بالمثل. فالتجأ تفنخت إلى جزيرة لا يمكن الوصول إليها بإحدى مداخل النيل الغربية وتوسل لبعنخى كى يقبل إستسلامه. أما في شأن فتح مصر كما اكتمل الآن، فقد رجع بعنخى لوطنه نَبتة، ونَصبّ لوحه التذكارى، ثم أعاد بناء المعبد العظيم لآمون ـ رَعْ هناك .... (٥٩).

هنا ينتهى النص الرسمى. بهدوء حَكَم بعنخى بما لا يقل عن حقبة من الزمان، لكن أيامه كفاتح إنقَّضت، ما عاد إلى مصر أبداً. وبصرف النظر عن ذلك، بعد أن ألحق الهزيمة بالفرعون المعادى، أوسركن الرابع، كان هو الذى تقلد أول الألقاب الكاملة لملك مصر. إنه يُعد على وجه العموم مؤسساً للأسرة الخامسة والعشرين، بالرغم من أن منثو يُعطى ذلك الشرف لوريثه.

مع تقلده ألقاب الفرعون، لم يكن بعنخى فاتحاً ولاطاغيةً من النوع المعتاد، إن تدخله في مصر عَجّلت به توسلات مباشرة ومتكررة من الشمال. وكان إهتمامه الرئيس من البداية حتى النهاية يبدو كأنما انصبّ على إزالة التهديد الذى حاق بطيبة، ومن ثَم حماية مُقَدرات آمون. لقد قادته المثابرة المكثفة لتلك السياسة لإخضاع اى أمير منافس في مصر، لكنه عندما حصل على خضوعهم إسمياً كان قانعاً بالرجوع صوب وطنه وترك مصر لفاعلياتها الخاصة. ما من عجب، أن أعداءه، قاموا بمجازاته على معاملته الإنسانية الرؤوفة بنكث عهودهم واستئناف طموحاتهم الأسرية في اللحظة التى أدار فيها ظهره. إن بعنخى دونما شك سرعان ما بلغ علمه هذا السلوك، إلا أنه كان قانعاً بأن يترك الأمور على حالها طالما أن تهديد طيبة لم يتواصل بل انقطع عنها . حتى انتهاء حياته لم يتخذ خطوةً لإعادة سلطته شمال مصر .

عن المنحوت العظيم لبعنخى، كتب بريستد أن :

... هذا اللوح النّصى المشهود هو أوضح وأقوى تعليلٍ منطقى لحملة عسكرية بقى حياً في مصر القديمة. إنه يَعرض مهارةً حرفية وتقديراً لمواقف مؤثرة ملهبةً للفكر وجديرةً بالملاحظة، في حين أن اللمسات الحية الموجودة هنا وهناك تزيل عنه تماماً تلك النغمة الجرداء المُتّبعة في مثل هذه الوثائق الهيروغليفية. يُضفى الخيال على الشخصيات الزعيمة التى تظهر هنا يُسراً مع الحياة أجلى من اى اقاصيص تاريخية أخرى شبيهةٍ بها في مصر؛ إن بعنخى الإنسان، مُحُب الخيول خاصةً، يبقى رجلاً نائياً لمدى بعيد عن القرين المعهود صِنْوُ الآلهة الذى يحتل لا محالة العرش الماجد للفراعنة في مثل كل تلك المُدونات الأخرى (٦٠).

فوق ذلك يلاحظ ويلسن في تفحصٍ :

إن قصة فتح بعنخى لمصر وثيقةٌ إنسانية مثيرة للإهتمام بمستوىً غير عادي، وعلى وجه التدقيق التناقض بين هذا الصّفى المعتكف وبين المصريين الُعقم المتكلفين. إن فروسيته في المعركة، وحلمه المتورع مع الأمراء الأسرى، وابتهاجه بالخيول، وأداءه المستقيم للطقوس الدينية، ورفضه لأن يبطش بالأمراء المهزومين الذين كانوا غير أنقياء وفقاً لمحُتفى الشعائر ـ "ما كانوا مختونين وكانوا أَكَلَةً للسمك" ـ يُنّبأ عنها بلغةٍ مصرية أنيقة ذوقاً رفيعاً سامياً (٦١).

ربما كانت الشخصية البسيطة الزاهدة بالأحرى التى عرضها بعنخى في مصر شيئاً نذيراً من دهاءٍ بالغ في لعب الأدوار، خطط له لترسيخ صورته كمُخَلِّص. ولإفتقاده أى ادعّاءٍ بشرعية الأُسرات الملوكية، فهو مثل أى فاتح جاء لاحقاً، ربما وجد من الأفضل أن يُدَثر نفسه بمُسُوح الإستقامة الشخصية (٦٢). شخصيته، مثل سيرته، تُظهر متقابلاتٍ مبهمة لما ينسبه التقليد الإسلامى للفاتح الإصلاحى صلاح الدين، الذى جاء إلى السلطة في مصر بعد ٢٠٠٠ عام مؤخراً (٦٣). في وطنه، مع هذا، لم يُعَدْ يُعلن عن مدفنٍ ملكى لبعنخى ولا لمدافن عدة من مليكاته كرجل متواضع أو زاهدٍ على

وجه الخصوص.

وربما بعنخي المباشرين، شباكو و شبكتو، شخصان باهتان نوعاً ما، لم يترك أحدهما مأثر شخصية هامة. كان شباكو فيما يبدو شقيقاً صغيراً لبعنخي وكان شبكتو إبناً لبعنخي، طبقاً لنظام الوراثة المفّضل. وقد مارسا الحكم فيما بينهما منذ عام ٧١١ حتى ٦٨٩ قبل الميلاد (٦٤).

فيما هو بّين، إعتبر شباكو وشبكتو نفسيهما فرعونين بالمعنى الحقيقي للكلمة؛ أي، أولاً وقبل أي اعتبار آخر كحكام لمصر. انشأ الكرسي الملكي في طيبة،وثابرا عل سياسة أَحَد مُضياً وأقل حيطةً بدرجةٍ أعلى مما اتخذه بعنخي. إستأنف شباكو الحملة ضد منافسيه في الدلتا وسَرْعان ما استعاد الحكم النوبي على مصر بأكملها؛ إضافةً لذلك، قاده طموحه الإمبريالي ليتَدَخل مع حكام فلسطين وسوريا الصغار في مواجهة إمبراطورية آشور. هذه المساعي غير الحكمية لم تؤد إلى استفزاز الإستجابة الآشورية المفعمة بالإحتقار التي نُقلت في مطلع هذا الفصل. إن نتيجتها الفورية كانت تخريب مقاطعة يهودا في فلسطين، وبعد أربعين عاماً تلت، الزلزال الآشوري الذي اجتاح الأسرة النوبية المالكة في مصر.

مثلما وقع في عُصور قابلة، كانت فلسطين المادة الرئيسة للتناحر بين القوى في الشرق الأدنى. بعد أن طال وقوعها في دائرة النفوذ المصري، سقطت الممالك اليهودية والفلسطينية في نِّير البطش الآشوري في القرن التاسع قبل الميلاد. لقد كانت محافظات متمردة، مع هذا، مُستدعيةً لحملات تأديبية وإنتقامية آشورية متكررة. مرتان خلال عهد بعنخي، أُجريت حملات ضد يهودا على حدود مصر نفسها؛ في كل مرة ترجع الجيوش الآشورية أدراجها بدلاً عن الإنزلاق في مستنقعات الدلتا التي قامت بحماية مداخل النيل طويلاً. على الرغم من هذه المسارب الضيقة، وربما بسببها، إرتأى شباكو أنه بالتداخل والإعانة يمكنه أن يُثير العصيان في الدويلات الشرقية في البحر الأبيض المتوسط ويضعها كعارضةٍ في مواجهة التهديد الآشوري.

ذاكرين مِنعة مصر القديمة، في إخفاقٍ لفهم حالة الخَوّر المتحلل التي هوت إليها، وفي لهفة لخلخلة الإستعباد الآشوري، منحوا أُذناً صاغية لرسل شباكو. غير أنه في يهودا وحدها إستبصر رجل الدولة النبي يشعياه عُقم الإعتماد على مصر والكارثة النهائية التي ستُباغَت بها على أيدي آشور (٦٥).

أخيراً أقنعت دسائس شباكو الإمبراطور الآشوري سنحاريب أن الَجلَبة المصرية يجب القضاء عليها. قاد جيشاً مُعتبراً في عام ٧٠١ قبل الميلاد نحو الغرب، قاصداً أن يسحق مصر ويضع حداً مرة واحدة لكل العصيان المُزمِّن في فلسطين وسوريا. وطبقاً لمدعنة الوقائع اليهودية فإن شباكو لم يتولّ ساحة القتال ضد سنحاريب بشخصه، لكنه أَولى قيادة الجيش المصري لإبن أخيه ذي العشرين عاماً تهارقاً (٦٦)، الذي كان عليه أن يحكم مؤخراً على أنه الفرعون «الأثيوبي» الرابع. أسرع القائد النوبي لفلسطين مُستهدفاً مقابلة الخصم قبل أن يبلغ أبواب مصر. هناك بعض الغموض عما حدث بعد ذلك، ولكن من الجلّي أنه ما من نزالٍ حاسم وقع أبداً؛ أما الجيش الآشوري فقد أجهز عليه قدره بوباءٍ فتاك. مرةً أخرى أبقى الحظ على نظام الحكم الكوشي في مصر .

الواضح أن شباكو أنهى عهد حكمه في سلام؛ إن شقوقاً من قائمة طينية تحمل ختمه الملكي وختم ملك آشوري قد تشير إلى أن نوعاً من هُدنة خُلص إليه بين الحاكمين (٦٧). حكم شبكتو الموجز يبدو أنه أيضاً مضى دون أحداثٍ جديرة بالملاحظة، بالرغم من أنه ترك مُدونات قليلةً سواء في مصر أو النوبة. لعشرين عاماً شغل الإمبراطور الآشوري بحدودٍ أخرى، لربما كان سعيداً بما فيه الكفاية لأن ينعم بالسلام في الغرب. أما شبكتو كيفما اقتضى الأمر، فقد وجد من الضروري أن يصون حكماً شخصياً في مصر، مع أنه كأسلافه، دُفن في الكُرو.

إعتلى العرش تهارقا، الشقيق الأصغر لشبكتو وابن بعنخي، في وقتٍ ما حوالى ٦٨٩ قبل

الميلاد . بدا رجلاً ذا قُدرةٍ مرموقة، مع أنه كان واحداً من أكثر القادة العسكريين إخفاقاً في التاريخ. كان حظه العاثر أن يجمع حصاد طموحات أسلافه المتهورة في آسيا، وقد جاء إلى العرش عندما كانت قوات الآشوريين تتجمع لمعركةٍ فاصلة مع مصر. إمتلات سنوات حكمه الأخيرة بسلسلةٍ متواصلة من الحملات المجهضة والعمليات التأمينية لظهيرته في مواجهة العدو الآشورى الزاحف بقيادة أسر حدون، ابن ووريث سنحاريب. أُحيط بالقوات المصرية والنوبية في كل من هذه الإشتباكات تقريباً، وفى النهاية لم تُترك سوى طيبة ومصر العليا في القبضة النوبية. بذا أنهى تهارقا حكمه حيثما بدأه أبوه يعنخى.

بالرغم من الإنتكاسات العسكرية التى ظللت حكمه، كان تهارقا وحده العضو الأول في الأسرة المالكة النوبية الذى اتجه بجديةٍ من مهمة الفتح إلى مهام ترسيخ الحكم. فمثل حكام مصر الآخرين، حاول أن يُدعم حكمه وحكم سلفه بمشروع مخططٍ بطموح عظيم لبناء المعابد الصروحية. وبذا يقف بإعتباره واحداً من أعظم البُناة في الأسرة الكوشية. صروح تهارقا الباقية، في كلٍ من مصر والنوبة، تتفوق عددياً على كل المسلات والتماثيل لفراعنة الأسرة الخامسة والعشرين مجتمعين.

يعدد أمرى أنشطة تهارقا المعمارية على النحو التالى :

في معبد الكرنك زيَّن الساحة الكبرى بأسلوب إحتفالى تصطف على جانبيها أعمدة ضخمة ذات نِسَب باهرة، بقى أحدها قائماً، وما يبدو أنه كان مسؤلاً عن البوابات التى لم يكتمل إنشاؤها على جانبى المدخل الرئيس للمعبد. جانباً عن هذه الأعمال الكبيرة شَيد تهارقاً مبانى أخرى أقل أهميةً في مجموعة الكرنك مَنْبِنَتْ حابو على الطرف الغربى من النيل سواءً بسواء، ومن المادة المنحوتة يمكننا أن نخلص إلى أنه شيد كليهما في تنيس وإدفو. إن عمليات بنائه في موطنه ربما كانت أكثر كثافةً، وفى نَبتة استعاد زُخرف المعبد العظيم لآمون، وشَيد معبداً صغيراً مشتَّقا من الصخر في الجبل المقدس وراءه. على النهر من ناحية الجبل، تكوين لوجه [الجبل] في عنايةٍ تجعله يُعطى مظهراً لواجهةٍ صناعية مُقامةً من أربعة أشكالٍ ضخمة، وقد اقتُرح أنها بقايا لمعبد مقتطعٍ من الصخر على طراز أبو سُمبل وذى حجم أعظم منه على قدم المساواة. على أن جهات مختصة عديدة ترتابُ في وجود هذه التماثيل المصنوعة من الصخر، وتعتقد أنها لا تعدو كونها تكويناتٍ بالصدفة للصخر الطبيعى (٦٨).

تهارقا مسؤول أيضاً عن معبد كاوة، الذى أصبح، مع جبل البركل، واحداً من المراكز الدينية العظيمة للنظام الكوشى. إن أدعى صروح حكمه إثارةً للإعجاب، مع هذا، كائنة في النوبة السُفلىٰ وبطن *الحجر*. لقد بنى بوضوح معابد صغيرةً في سمنة (٦٩)، وبوهين (٧٠)، وقصر إبريم (٧١)، ووُجدت كتلٌ منقوشة تحمل اسمه فيٰ أماكن أخرى من النوبة السُفلى أيضاً (٧٢). من الصعب أن تُعَلل هذه الصروح في منطقة كانت مهجورة بكل النوايا والأغراض، رغم أنها كانت بالطبع رواقاً للرسل والتجار يذرعونها جيئةً وذهاباً بين أملاك الملك النوبية والمصرية. الأمر الأكيد أن القلاع العظيمة في الشلال الثانى ومعابد أسرتَيها الثامنة والعشرين ظلت أطلالاً لفترة طويلة في زمن تهارقا، إلا أن مغزاها الرمزى كتعبيراتٍ للسلطة الفرعونية ما فُتئ باقياً فيما يبدو مما جعل تهارقا يفَضل بناء صروحه الخاصة بنفس المواقع. وتكاد هذه المواقع أن تكون المؤشرات الوحيدة الدالة على نشاطٍ بشرى في منطقة الشلال الثانى خلال الألف الأخير قبل الميلاد.

ترك تهارقاً ثلاثة ألواح تذكاريةٍ هامة في معبد كاوة، تُفَصِل أحداثاً مختلفة في سيرته (٧٣). لوحٌ آخر، لم تُحفظ إلا شقوقه، في تنيس بمناسبة تسنمه السلطة في مصر. فيه يخبر تهارقا كيف أرسل لأمه، التى لم يرها منذ أن رحل من نَبتة سنوات عديدة سبقت، حتى ترى ابنها المتوج "بنفس الطريقة التى رأت بها إيزيس ابنها حورس على عرش والده" (٧٤). إن هذا النقش - وَضَحَ على العموم - أن تهارقا حكم بصفةٍ أساسية من تنيس. سجلات أخرى لحكمه تحتوى عدداً من النصوص الحرفية المكرسة للمعبد واللوح التذكارى الطويل المفَصل لنائبه المخلص منتومحت في طيبة (٧٥)، إضافةً إلى مدونات الأحداث التاريخية الآشورية واليهودية التى تشير إلى مناوشاته العسكرية مع أسر حدون.

مثل معظم أسلافه أقام تهارقا في نَبتة في آخر سنينه، بعد أن عَيّن ابن أخته ووريثه تنوتامون ليرعى ما تبقى من الممتلكات النوبية في طيبة. مع كل هذا، لم يبنِ صرحه الجنائزى في الكُرو. مُتّبعاً المثل الذى اتخذه بعض فراعنة مصر الأوائل [٧٦]، يبدو أنه هيّأ صرحين مختلفين في مكانين مختلفين بإمبراطوريته : أحدهما فيما يظهر ليخدم كصرح تذكارى لتمجيده، والثانى مكاناً حقيقياً لقبره. أما المواقع المحلية التى اختارها فكانت نُورى، عبْر النهر من جبل البركل حوالى خمسة وعشرين كيلو متراً صوب مصب النهر من الكرو، وصدنقا في أرض عبرى دلقو النهرية. في أجيال متعاقبة كان على نُوري أن تحل محل الكُرو جَبّانةً ملكية، دُفن هنالك كل من تبقى من الملوك النوبيين عدا واحداً أو اثنين.

مع أن أهرامات تهارقا هى الأولى بين أربعين هرماً ملكياً أو نحوها في نُورى، فليس مؤكداً أن الملك قد دُفن تحتها أبداً. إن غرفة الجنازة (التى نُهبت بإتقان مثل كل الغرف في نُورى) وُجدت فارغةً تماماً [٧٧]، وتُوحى إكتشافات حديثة أن مكان راحة تهارقا الأبدية ربما كان مدفنه الملكى الأقل مفخرةً بكثير في صدنقا [٧٨]. (سوف تُجرى مناقشة التسلسل التأريخى والتطور الخاصين بالمدافن الملكية النوبية بتفصيلٍ أوفى فيما بعد).

مات تهارقا ولا يزال مُستحوذا على الأقاليم المصرية في مصر العليا التى كان أبوه قد حكمها أنفاً وجَدّه؛ كان الحظ عطوفاً بما يكفى لتأجيل السحق النهائى للأسرة الخامسة والعشرين إلى ما بعد وفاته. لقد وقعت الضربة مبكراً في عهد وريثه تنوتامون، مرةً ثانية جاء بها طموح الفرعون نفسه وطيشه. فبعد وصوله للعرش عَجّل تنوتامون بمحاولة وحيدة لم تعقبها أخرى ليوحد مصر تحت حكمه. صعد بجيشه لممفيس، التي قام بمحاصرتها وربما أمكنه أن يأخذها أسيرة. إن الآشوريين عقب هزيمتهم لتهارقا لم يتركوا جيش إحتلالٍ في مصر السُفلى، والنتيجة أن تنوتامون وقواته الضعيفة نسبياً إستطاعوا مرةً أخرى أن يُجبروا مدن الدلتا على الخضوع المؤقت لهم. إنتقام الآشوريين، كان سريعاً وعارماً، كما أشارت إليه حُوليات آشور بانيبال :

فى حملتى الثانية وجهت طريقى نحو (مصر) و (النوبة). لقد سمع تنوتامون بحملتى، وإننى طرقت أرض مصر. فتخلى عن ممفيس وهرب إلى طيبة لينقذ حياته. إن الملوك والولاة، والعمال الذين نَصّبتهم في ممفيس حضروا إلى وقبّلوا قدمى. وفى أعقاب تنوماتون إستأنفت طريقى وجئت إلى طيبة، مكان قوته. فهرب إلى كبكب (نَبتة؟). إن طيبة بأجمعها هزمتها بعون آشور وأشتار. الذهب، والفضة، والأحجار الكريمة، وكل ممتلكات قصره، وملابس ملونة كثيرة، وكتان وخيول عظيمة، ووصائف من الرجال والنساء، ومَسَلّتين عاليتين من معدنٍ لامع، تعادل قيمتها ٢.٥٠٠ وزناً من المال، وضلِّف باب المعبد التى انتزعتها من قواعدها وحركتها إلى آشور. غنائم ثقيلة، فوق العد، أخذتها بعيداً عن طيبة. إننى في مصر والنوبة أعملت أسلحتى لتفتك بهم وبَيّنت باسى [٧٩].

انهى إجتياح طيبة أيام مجد تلك المدينة بالمرة. ما انفكت تذكر بعد خمسين عاماً عندما تنبأ النبى ناحوم بالدمار الذى سيحل بآشور بدورها :

هل أنت خير من المأهولة (طيبة) التى كانت تقع وسط الأنهار، تحيط المياه بها، مترامسها البحر وسورها منه؟ كانت أثيوبيا ومصر قوتها، وكانت غير متناهية... مع هذا حُملت بعيداً... في الأسر؛ تناثر أطفالها الصغار في رؤوس كل الشوارع، ألقوا بالأثقال على أشراف قومها، وبالأغلال قُيد كل رجالها العظماء [٨٠].

بعد هذا البلاء أمضى تنوتامون بقية حكمه الوجيز في نَبتة؛ ما وضع هو ولا أحداً من خلفَته أبداً أقدامهم في مصر ثانية. ولم يحذُ تنوتامون حِذو تهارقا لبناء هرمه في نُورى. فقد فَضّل الجَبانة القديمة في الكُرو، وكان آخر ملك نوبى يُدفن بها [٨١]. كذلك كان آخر نوبى يستطيع أن يطالب شرعياً بلقب فرعون، رغم أن ورثته استمروا في ذلك لخمسةٍ وستين عهداً بعده. إن وفاة تنوتامون معلم لنهاية الأسرة الخامسة والعشرين، وعصر النوبة البطولى.

أما إنجازات الفراعنة "الأثيوبيين" خلال الأجيال الثلاثة لحكمهم في مصر فلم تمضِ غير مقدرة. فقد استعادوا القطر الشمالى لحظيرة الوحدة، مهما كانت مؤقتةً، لأول مرة لمدى يزيد عن ثلاثمائة عام. أنشطتهم المعمارية في طيبة وحولها، مع أنها متواضعة بالنسبة لمستويات الدولة الجديدة، كيفما اتفق حالها، أطول باعاً من معمار أى حاكم منذ رمسيس الرابع [٨٢]. وبالرغم من أنهم كانوا بُنُوةً لأناس أقل حضارة هواناً فيما مضى، لم يكن هَدفهم أقل من استعادة الثقافة المصرية وديانتها "لنقائهما" الأصيل، وما كان ديدنهم في هذا الشأن عملاً ممحوقاً على الإطلاق بلا نجاح. أما الميول لإستخدام الآثار القديمة التى تبدو أولاً في صروح الأسرة الخامسة والعشرين وأدبها فكان عليها أن تتشبث بالبقاء من خلال أجيالٍ متوالية حتى السقوط النهائى للدولة الفرعونية.

آخر الملوك النبتيين

عندما غادر ملوك كوش مصر، رحلوا كذلك عن المسرح العالمى. إن مُدَوِنى المسلسلات التاريخية يهوداً وآشوريين لم يعيروهم إهتماماً أكثر مما فعلوا، فإن مقاليد مصر لم تعد ملكاً لهم ليديروا شؤونها، وكان في طوعهم بالوطن عدد قليل من خبراء العلاقات العامة وأساليب تنميتها. على كل حال، لربما وجدوا شيئاً نذيراً يأبهون به - خاصةً حينما ظلت ذكرى الأمجاد الغابرة مُخْضَرة. نتيجة لذلك، كاد السجل التاريخى أن يتوقف مرةً واحدة مع انهيار حظوظ النوبة الإمبريالية، وخَيم الظلام ثانية على الأسرة الجنوبية.

بعد تهارقاً، دُفن في نُورى عشرون جيلاً من الملوك. نعلم أسماءهم كلهم عدا واحداً منهم، إذ أنها كُتبت على قبورهم أو على بعض المتاع الذى وُجد بينها. خمسة فحسب من العشرين، مع هذا، تركوا تدويناً ما عن أنفسهم. إن نقوشهم في غالبيتها حُوليات عن الحملات، تدين بالكثير أسلوباً ومحتوى على السواء لإشهادات بعنخى وتهارقا العظيمة. أما الأعداء فلم يعودوا هم الآشوريين والمصريين الأقوياء، لكنهم شعوب قبلية من أصلٍ غير معروف يقيناً. يُبّين تنفيذ النصوص الحرفية تناقصاً في الإلفة بلغةٍ لم تعد متحدثاً بها؛ وفى النهاية فإن التعبير وأحداث الأزمان الأولى على السواء جرى تكرارها آلياً من قبل كتبةٍ انصاف متعلمين [٨٣].

كان أنلامانى أول ملك نَبتى ترك في فترة المغيب مدوناً، ويبدو أنه كان حفيداً منحدراً من تهارقا وقد حكم بعد خمسين عاماً من وفاته (تقريباً ٦٢٣ - قبل الميلاد) [٨٤]. يُحَيى نقش أنلامانى ذكرى زيارةٍ لمعبد كاوة، حيث احتُفل بحفل دينى لآمون، وكذلك تجريدة عسكرية ضد بجا الصحراء. يردد صداها أمرين مألوفين من أزمان سالفة : فالملكة الأم جئ بها من كاوة لتشهد إبنها على العرش، وشقيقات الملك نُصبْن في دور الشقيقات بكلٍ من إحدى المعابد العظيمة لآمون في المملكة [٨٥].

ترك أسبلطه، شقيق أنلامانى ووريثه، لوحين في معبد جبل البركل. في لوح ذكرى إعتلائه العرش أخبر عن الكيفية التى تم انتخابه بها من قبل آمون نفسه من بين الأمراء المستحقين - بما يعنى إفتراضاً كهنة آمون. وبما يشبه اللغز، في منحوته الآخر نَبّأ أسبلطه عن دعوته لجمع الكهنة ليسمعوا ويقرو اختياره لمدايكن، أرملة أنلامانى، كأعلى كاهنة [٨٨]. ويبدو أن الموازنة الدقيقة بين الملكية والكهنوت رجحت في البداية طريقاً ثم جنحت للآخر.

يُعزى لعهد حكم أسبلطه، مع أن ذلك محذوف بشكل مفهوم من حُولياته، الغزو المصرى للنوبة في عهد فرعون الأسرة السادسة والعشرين، بسمتيك الثانى. إن الحملة دونها هيرودوتس [٨٩] وفى نقشين لبسمتيك نفسه، بيد أن التفاصيل الجغرافية محدودة غير كافية. يقيناً أن الحملة اجتازت النوبة السفلى، لأن مرتزقة الإغريق والكاريين الذين يُكَونون الآن أغلبية القوات المصرية تركوا رسومهم الخطية على تماثيل أبو سُمبل والشلال الثانى [٩٠]. يبدو الآن ممكناً (كما بَلّغ هيرودوتس) أن

الحملة بلغت جنوب النهر حتى نُبَتة نفسها. تماثيل محطَّمة لأسبلطه وعدد من أسلافه، وُجدت في معبد جبل البركل، وتفسر كبّينةٍ على تخريب بسمتيك الإنتقامى [٩١]. مع ذلك، فإن الغزو لم يكن له أثر نهائي على مسيرة التاريخ النوبي أو العلاقات المصرية - النوبية. مراكز القوة في مصر كانت كلها في الشمال؛ ومراكز القوة في النوبة بالجنوب؛ بين الإثنين تمتد أرض عريضة لا صاحب لها، وعقب تدمير طيبة جمعت بينهما مصالح ضئيلة. أصبح الإثنان الآن قوتين من الدرجة الثانية، ينشغلان بشؤون محلية.

أسبلطه هو أول ملك نوبي وُجد اسمُه في أطلال مروى، رغم أن البّينة على أنه أقام بالفعل في المدينة الجنوبية ليست بقاطعةٍ تماماً [٩٢]. لربما أمكنّه بالطبع أن يلتجئ بها مؤقتاً خلال غزوة بسمتيك. أياً كان الأمر، فالواضح من نقوشه أنه كان متورطاً في مناهضةٍ من أجل القوة وراء الستار مع الكهنة في جبل البركل [٩٣]، ويمكننا لذلك أن نرتاب بصعوبة في أن "العاصمة" النوبية كانت لا تزال قائمة في نُبتة زمن أسبلطه. إن الإقتراح الذى يتردد كثيراً بشأن التخريبات التى ألحقها بسمتيك بّنبتة كانت مسؤولة بصورة مباشرة عن نقل"العاصمة" إلى مروى [٩٤]، لا يملك إلا تزكيةً قليلة، كما متمعنين نُلاحظ تواً.

بعد أسبلطة تُطل فجوةُ ربما تبلغ ١٥٠ عاماً في السِّجل التاريخي؛ فكل النقوش الملكية المتبقية تنتمي إلى العهود الأخيرة من العصر النّبتى. في معبد كاوة هناك أربعة نقوش لأمان - نتى - يركى، حاكم الأسرة الكوشية الحادى والعشرين (والوريث السادس عشر لتهارقا) وفقاً لتَسلسل رايزنر الزمنى [٩٥]. يحتوى واحداً من النقوش على مادة تاريخية غنية ومثيرة للإهتمام، بالرغم من أنها نوعاً ما غير ملتزمة بالقواعد النحوية و "أقل حضارة" لغوياً. يطلعنا شينى :

> النقش العظيم لأمانِ - نتى - يركى له أهمية كبرى لتاريخ الفترة، ذلك أنه يحتوى أول ذكرٍ لمروى، ويخبرنا أن الملك يقيم هناك. مَنحوتاً، بينما الملك في الحادية والأربعين من عمره، [٩٦] يصف أولاً حملة بحق *الرهـ رهـ*، الذين يبدو أنهم كانوا يحتلون الطرف الشمالى من جزيرة مروى. وبعد أن هزمهم، ذهب إلي نُبتة ليقبل كملكٍ من كهنة امون، وشارك في إحتفالٍ في معبد البركل حيث اعتُرف به بالطريقة المّتبعة من قبل الإله. ومن نُبتة، أبحر جنوباً إلى مكان غير مُعّرفٍ يسمى كرتن، يحتمل أنه يقع على الضفة اليمنى، حيث حارب المدّيد، قوماً وُصِفوا بأنهم "سكان الصحراء"؛ وفيما بعد سار في رحلةٍ لسبعة عشر يوما من نُبتة إلى كاوة ثم بنويس [أرقو؟]، وفيها مُنح أرضاً لمعبد. ثم رجع إلى كاوة، وقام بتنظيف المدخل المؤدى إلى معبد تهارقا وأمر باجراء ترميمات على عدد من المبانى. أما النحوت الأخرى عن هذا الملك فهي مبهمة المعنى لأبعد حد، لا تُضيف للتاريخ شيئاً... [٩٧]

المنحوتان المتبقيان لحارسيوتف (الجيل الثالث والعشرين)، وناستاسن (الجيل السادس والعشرين) نُقشا معاً في المعبد القائم في جبل البركل. [٩٨] إنهما منمطانِ بشكل قريب على أثر نقش أمان - نتى - يركى، ويكرران كثيراً من نفس التفاصيل. كذلك يحتوى نُصب ناستاسن كثيرا من المعلومات الأصلية، بما فيها وصف الطريق الصحراوى الذى سافر عبره من مروى إلى نُبتة لحفل تتويجه. [٩٩] إن أهمية هذا الطريق بالنسبة لتفسيرنا لتاريخ كوش سيُناقش في الفصل القادم.

يَدّعى أمانِ - نتى - يركى وخلفاؤه أنهم شنوا حملات عى *المدِيد* (ربما البجا) *والرهـ رهـ* - اناساً يبدو أنهم كانوا مثابرين وربما كانوا أعداء متمرسين وربما كانوا عَدواً تقليدياً لدوداً للدولة الكوشية. ومن الأوصاف يظهر أنهم البدو الرعاة بأعينهم على نحو ما هو مألوف عنهم. إضافة لذلك، حارب ناستاسن غازياً جاء من الشمال بأسطول.

يقرأ إسم عَدُو ناستاسن الشمالى الغامض شيئاً مثل كمبسدن، وقد تُعرف عليه منذ أمدٍ طويل مقروناً بإسم الإمبراطور الفارسى قمبيز. وكان قد فتح مصر في عام ٥٢٥ قبل الميلاد، وطبقا لهيرودوتس، أرسل تجريدةً إلى بلاد النوبة فلاقت مصيرها التعس هلاكاً في الصحراء. [١٠٠] هذه

الحملة - التى استُبعِدت مرةً باعتبار أنها إحدى تخيلات هيرودوتس الرومانسية - يبدو أنها تجد تأييداً من التاريخ في نُصب ناستاسنن. ومع ذلك، يستحيل أن تتفق التواريخ مع بعضها بعضا، فإنه حسب التسلسل الزمنى لرايزنر حكم ناستاسن بعد مائتى عام من زمن قمبيز. ولذلك، لابد أن العدو الشمالى كان شخصاً آخر - ربما خباش الذى ذُكر كمتمردٍ في مصر العليا أو النوبة السفلى حوالى عام ٣٣٠ قبل الميلاد. (١٠١)

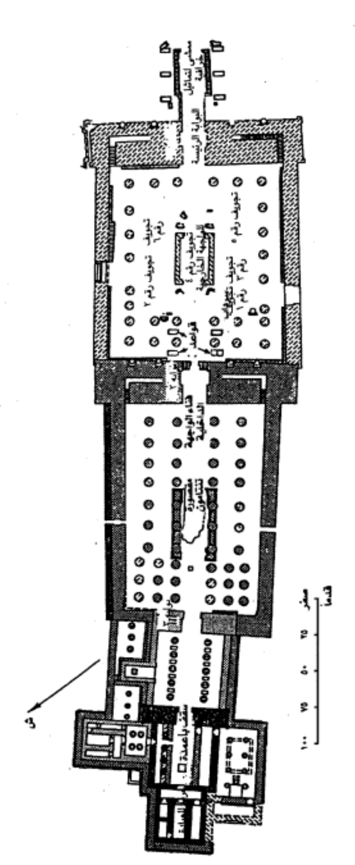
يبدو قليلاً من الشك أن أمانِ - نتى - يركى، وحارسيوتف، وناستاسن أقاموا في مروى أغلب الأمر. مع ذلك، قام كل واحد منهم حين اعتلى العرش برحلة صوب الشمال ليُعلَن مَلِكاً في جبل البركل. ودُفن كل واحد منهم عبر النهر من الجبل المقدس في الجّبانة الكُبري التى بدأها تهارقا. وإلى ذلك الحد نملك تبريراً حين نتحدث عنهم كملوك نًبتيين ولو أن الإقامة الملكية المفضلة تكمن الآن في الجنوب. وإذا ما حُفرت المدينة الجنوبية العظيمة بشكل أكثر منهجية مما جرت محاولته إلى الآن، عند ذاك لا شئ غيره سيكون في وسعنا أن نقول متى حلت مروى محل نبتة كمركز روحى للإمبراطورية الكوشية.

إن الجدل المستطال حول موقع "العاصمة" النوبية لا معنى له بالفعل مالم نحدد (كما حاولت قلة من الكتاب) ما تعنيه كلمة "العاصمة". لقد كانت إمبراطوريات سالفة عديدة متعددة المركز، لا لشئ سوى أن الحاكم وآله كان بوسعهم أن يتحركوا حول الأمكنة بحرية، وقد فعلوا. وحتى بعد حدوث حكم جلوسى أكثر تطوراً كانت هناك دائما إقامة ملكية متعددة في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية. ما أصبح هناك معنىً للحديث عن "عاصمة" جغرافية بالمعنى الحديث إلا بظهور بيروقراطية راسخةٍ في قوة ووطيدةً نسبياً .

أُنشئت دولة كوش القديمة بشكلٍ واضحٍ تأسيسا على سلطتين متفاعلتين: النظام الملكي وكهنوت آمون. لكل منهما أكثر من مصدرٍ كُمُونٍ واحدٍ للقوة. وكان لملوك نًبتة المتأخرة الذين تتضمن نحوتهم أخبار إقامتهم في مروى بالتأكيد منتجعات مماثلةً في نًبتة، تخيروا شغلها مدداً طويلةً من الوقت أم لم يفعلوا. وكان للكهنة أيضاً مركزان رئيسان على الأقل، وربما ثلاثة. ولربما صُرف النظر عن كاوة كمركز للمحافظة، ولكن معابد آمون العظيمة في جبل البركل ومروى تكاد تتساوى أهميةً في تاريخ كوش. لقد كان البركل هو الأعظم شأناً في صفاءٍ بداية الأسرة الكوشية، وكان شأن مروي مماثلاً للبركل في فترة إنتهاء كوش، على أنه كانت هناك فترة طويلة من التعايش يستحيل خلالها أن يقال أيهما كان غالبا. ومن الممكن جداً أن ملوك نبتة المتأخرة كان عليهم أن يتلقوا إختيار الإله في كلٍ من المكانين، مثلما كان على كاشتا وبعنخى أن يتلقياه في نًبتة وفى طيبة. لنا لذلك أن نتحدث حديثاً مشروعاً عن "عاصمة" في نًبتة حتى عهد ناستاسن دون أن نغمط حقا للإحتمال القاضى بأنه كانت هنالك "عاصمة" في مروى على حدٍ سواء (١٠٢) وبما أن ناستاسن (طبقا لمشروع رايزنر) كان آخر ملك إختار أن يُدفن في الشمال، أيا كان الحال، يجوز لنا أن نختار في طمأنينة حكمه كعلامةٍ على نهاية العصر النًبتى .

المعابـد والمـــدن

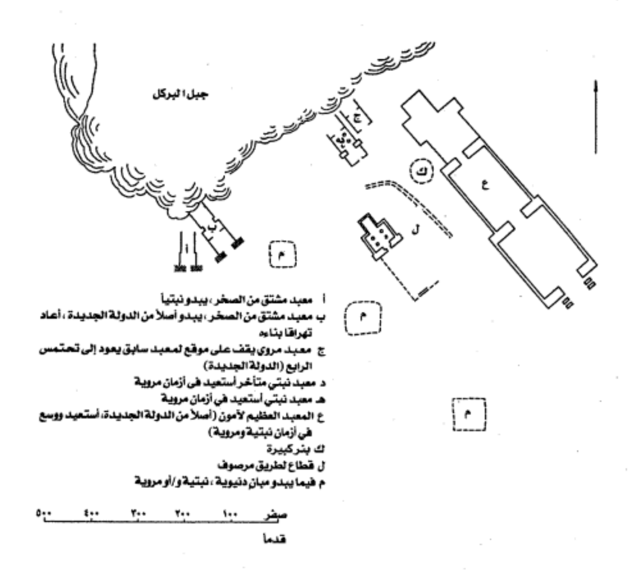
ينهض جبل البركل ، جبل النوبيين المقدس، مثل محراب مارد فوق السهل الفَيضى للنيل. إن قمته إمتداد عظيم مستوٍ من الحجر والحصباء يبلغ عدة أفدنةٍ في مداه؛ وإلى الشمال ينحدر نحو الأسفل بما يقارب التدرج نحو سطح الصحراء العارى. أما الوجه الذى يقدمه جبل البركل نحو النيل، رغماً عن هذا، فهو يقرب من قمة رأسيةٍ أعلى من ٣٠٠ قدم (الصورة ١٠ - ب). لقد شّيد رمسيس الثانى في ظل هذا الطَود العظيم المعبد الذى ظل ماثلاً قروناً متتالية بوصفه المركز الروحى للنوبة.



خطوط التظليل المختلفة تبين مراحل متعاقبة من النمو والتعديل فى أزمان الدولة الجديدة ، والنبتية والمروية

شكل رقم ٣٩

المعبد العظيم لآمون فى جبل البركل



شكل رقم ٤٠
رسم تخطيطى لمبانى المعبد في جبل البركل

معبد امون كما نَقّبه رايزنر في عام ١٩١٦ [١٠٤] بشكل المتوالية العادية لمستطيل، وقاعاتٍ وردهات ذات أعمدة تمتد على طولٍ ربما قُصد به أن يكون محوراً شرقياً ـ وغربياً [٥٠]، مع غرفةٍ للعبادة في الطرف الغربي (قارن الصورة ١١ ـ أ). أما الطول الكلي للمبنى في صورته النهائية فقد بلغ بالتقريب ٥٠٠ قدماً ـ اكبر من أي معبد مصري معاصر له عدا الكرنك [١٠٦]. كانت النواة الأصلية التي بناها المصريون أصغر بمدىً مقدر؛ وهنالك إضافات كثيرة في كل من الأزمان النَبتية والمروية (الشكل رقم ٣٩). كما الكرنك، إضطُلع بوفرةٍ بالغة من التبديل وإعادة البناء خلال مُضى القرون فلم يكن من السهل على رايزنر أن يتأكد أي هياكل كانت من أعمال حُكام بعينهم [١٠٧]. الطراز والزُخرف، كما في المعابد النوبية، بقيا بالضرورة مصريين من البداية إلى النهاية.

في جبل البركل كما في الكرنك، كان المعبد العظيم لآمون المَعْلَم المركزي الوحيد لمركّب ديني اكثر تعقيداً. في الضاحية المباشرة (ربما بين سور المقاطعة نفسها، بالرغم من أنه لم يُعثر عليها ابداً) تقع ستة معابد أخرى على الأقل وربما معها عددٌ من المباني غير الدينية بالمثل (الشكل رقم ٤٠). بُنى إثنان من المعابد الأصغر، التي يعود تأريخها إلى الأسرة الخامسة والعشرين، مباشرةً في مواجهة القمة، وكانت غرف العبادة مشتّقةً من الصخر بين أعطاف الجبل المقدس نفسه. تمت صيانة معبدين آخرين من أصل نَبتي وتوسيعهما إبان الفترة المروية، وكان هناك مِعبد صغير مرويٌ بكليته. أما معظم المعابد الثانوية فاحتوت على غرفتين أو ثلاثة غرف، ولم يكن لأي واحدٍ منها ذي حجم، أن يُقَارن ولو من بعيدٍ بحجم المعبد العظيم لآمون [١٠٨].

وُجدت معابد البركل في حالة سيئةٍ لأقصى الحدود من ناحية الحفظ، حيث تعرضت المنطقة باكملها لتعرية سطحية متزايدة. أما المباني نفسها، مثل معظم الأرض الجنوبية، فقد بُنيت من حَجر رملي نوبي من نوعيةٍ متواضعة ـ المادة الوحيدة المتوافرة مِناتٍ من الأميال. (في أغلب المعابد الصغرى شُيدت واجهة الحائط الخارجي بُطوب طيني كحماية جزئيةٍ من التآكل). بسبب حالتها المتهرئة لم يُحفر أي منها حفراً تاماً، وكانت المساحات بينها وحولها قد أُخذت منها عينات في اختصار وحسب. هنالك آثار لعدد من مبانيً عاديةٍ من الطوب الطيني في الضاحية المباشرة، على أن إمكان الفرد التحدث عما إذا كان هنالك موقع مستقر لمدينة في جبل البركل، أم لم يوجد، مسألة تظل مثيرة للجدل. والمأمول أنها ستجرى "الإجابة منها بمجرفة" في المستقبل غير البعيد.

عبر النهر على مسافةٍ قصيرة صوب الشمال من جبل البركل، في صنم، يقع مركز نَبتي آخر شديد الأهمية. هنا يقف واحد من معابد تهارقا العديدة، مكرس "لآمون، ثور أرض النبال"، وهو ما يعني، أمون بتجسيدٍ نقي في محليته [١٠٩]، ذلكم أن أرض النبال كان إسماً مصرياً تقليدياً للنوبة. هذه البناية يبدو أنها ذات تاريخ غريب، كما تردد ذلك في كلمات المنَقب ف. ل. ا. جريفيث :

> بينت حفرياتنا أن المعبد في صنم كان له حجم معتبر، إذ أن به ردهةً في الواجهة محاطةً بأعمدةٍ منتظمة مثبتة للسقف أُدخلت عبر بوابة هرمية؛ ومثلها بوابة أخرى مفتوحة على قاعدة مبنية على أعمدة وراءها *بناء معقود* وغرفة للعبادة محاطة بغرفٍ متنوعة. كل هذا شَيده تهارقا، الذي وضع كذلك غرفةً صغيرة للعبادة في النصف الشمالي من *البناء المعقود*. ثم أضاف أسبلطه، بعد قرن من الزمان، غرفةً أخرى مثلها في النصف الجنوبي. سرعان ما احتل المعبد إحتلالاً واسعاً في جلاءِ صُنّاع *الآشبتي* (تماثيل النذور وتحنيط الموتى) مصحوبةً بغيرها من التماثيل الصغيرة والتحف الجميلة في مصنوعات لامعة، وقد وُجدت قوالب صُنعها وبعض الرسوم مبعثرةً خلال الجزء الأكبر منه وحوله. إن المحتمل أن حيطاناً جامدةً من الطوب الخشن بُنيت لهؤلاء الحِرفيين كأنها بناء عشوائي بين المعبد، يحتجز المباني الرئيسة؛ وسُدّت المداخل الجانبية شمالاً وجنوباً في عناية بالحَجر ... [١١٠].

بالرغم من التَعرية والنَهب، كانت هنالك علامات لا تخطئها العين لموقع كبيرٍ للغاية لمدينة في صنم. إن تقرير جريفيث يتواصل :

يتنصف المعبد على الحافة الجنوبية ـ الشرقية من أطلال المدينة. على طول الحافة الجنوبية ـ الغربية للمدينة أى نحو النهر حوالى نصف كيلو متر صوب جنوب المعبد، تبدأ جبّانة كبيرة قمنا بإجلاء معظمها، ووجدنا ما يزيد على ١٥٠٠ ـ قبراً في حُفر طبيعية، وقبوراً مصفوفةً بالطوب، وجنائز في الرمل. إن المحتويات تعود إلى الفترة الاثيوبية، ويحتمل أنها بدأت حوالى عهد بعنخى واستمرت ردحاً طويلاً عقب حكم تهارقا؛ في الطرف الغربى وحده تعطى قلة من القبور الكهفية في الحفر الطبيعية بيّنة على إعادة إستخدامها في العهد المروى .

موقع ثالث أعملناه يبعد حوالى كيلو متر صوب الشمال من الجبّانة، نحو نفس المسافة من النهر. هنا ينكشف النقاب عن سلسلة غير عادية من الغرف القائمة على الأعمدة التى يبدو أنها كانت مستودعات ملكية للأسرات الاثيوبية. الحيطان محروقة عرّتها الريح، فانكمشت إلى ارتفاع أعلاه ثمانية عشر بوصة وفى قبالة الطرف الغربى بقايا معتبرة من أعمال الطوب واثار من أعمدة الحجر التى ربما تنتمى للقصر الملكى وتصل هذه "الخزانة" بالمدينة (١١١).

حفرياتنا، إلى المدن الذى ذهبت إليه، أظهرت أن الآثار الباقية مَثّلت مدىً طويلاً ضيقاً من المبانى، ٢٥٦ متراً في الطول وحوالى ٤٥ متراً في العرض تجرى من الشرق إلى الغرب، فيما يبدو أنها معزولة كُليةً في الصحراء عدا طرفها الغربى. إلى هذا الحد ربما أن درباً واحداً لا غير تولى فصلها عن بناء طوبى هام به بعض الأعمدة الحجرية، ربما أنه قصر ملكى... بدا أن الخزانة تحتوى على سلسلة مزدوجةً من سبع عشرة غرفة متساوية على كل جانب من جانبى سور رئيس. لقد أمطنا اللثام تماماً عن السلسلة الجنوبية، كذلك عن غرفتين أو ثلاث غرف على الطرف الشرقى من النصف الشمالى... (١١٢) .

ماذا كانت طبيعة المبنى وما هو الغرض منه؟ بدأنا بتسمية المكان "بالقصر" بسبب النسبة الكبيرة من الأشياء ذات الشعارات الملكية التى وجدت به. لكنه مع تطور الخطة أدركنا أنه لم يكن قصراً في ذاته رغم أنه ربما كان موصولاً بالقصر، فأعدنا تسميته "بالخزانة". في إحدى الغرف الجنوبية وجدنا شقا صغيراً من الكنز الذى ساقه بعنخى من هرموبولس، وأن جزءاً من الأرضية رقم ١٥ غُطيت بعاج خام مصاب بالحرق. لكن هناك صعوبات ذات اعتبار في طريق هذا التفسير أو أى تعليل غيره للأطلال. ربما كان الواحد يتوقع مستودعاً أو خُزانة ملكية وقد قفلها حائط خارجى كثيف به غرف للحراسة ... إلخ، وقد حُفظت منه بعضُ آثار مقدرة (١١٣).

يوحى الخيال لكتاب عديدين أن صَنَمْ ربما كانت موقع المدينة الرئيس لنَبتة، والمقر الملكى إضافة لذلك (١١٤). ورغماً عن أنه، كما يشرح جريفيث، ما من قصر تم التعرف عليه بالفعل، فإن الأسباب التى حدت به للإعتقاد بأن واحداً لم يكن نائياً تبدو راجحة. فتكريس معبد صَنَمْ لآمون، يعد تبياناً نوبياً أكثر منه تجسيداً لإدارته الشاملة، ربما يُقترح كذلك بأن هذا في إحدى محسوساته دار عبادة للأسرة المالكة، لا تخضع لسيطرة الكهنة الراسخة في جبل البركل. إن الفصل الطبيعى ما بين النقطتين المقدسة وغير الدينية، على جانبين متقابلين للنهر، يُذكرنا بالفاتيكان وسلطة الكيرينال، أي الدولة؛ لربما كان ضرورياً أن يُمنع توليد الشرور الناتج عن الإحتكاك اللصيق بين السلطتين. هنالك بالطبع إيحاءٌ بمثل هذا الصراع في ألواح أسبلطه، مسح الكهنة إحتقاراً إسم الملك عن واحدٍ منها (١١٥).

بعد هجران النوبة السُفلى وفقدان مصر، كانت المدينة الشمالية الكبرى لكوش هى كاوة، بالقرب من نهاية إتجاه النهر شمالاً في أرض دنقلا النهرية (الشكل رقم ٣٧). كما رأينا في الفصل التاسع، يرجع تاريخ هذه المستوطنة إلى الأسرة الثامنة والعشرين، ويُنسب أقدم معبد بقى منها لتوت عنخ أمون. لقد أُستُعيدت ووُسِّعت من قبَل فراعنة مصريين متأخرة كما جرى ذلك بالمثل في باكورة الفترة النوبية، ويبدو أن شباكو بنى هيكلاً ثانياً على طول جانبها. المعبد الرئيس في كاوة، مع هذا، صَرْحٌ آخر من صروح تهارقا. يكاد يتماثل في الحجم والرسم مع معبد صَنَمْ، لكنه أفضل بكثير حِفظاً (الشكل رقم ٤١) (١١٦). وكما في صَنَمْ، يبدو أنه كان هنالك نشاطاً عظيماً للتبادل السلِعى في الردهة الأمامية، تدلل عليه الحيطان الرقيقة التى تم إنشاؤها بين الأعمدة العظيمة. تحيط مدينة كبيرة الحجم إحاطةً مباشرة بالمعبد، وكل من المعبد والمدينة يقعان في نطاق سور تمنوس سميك يحتمل أنه إلى جانب ذلك مما عمل تهارقاً (١١٧). وكما بكل المواقع النوبية في النوبة العليا يبقى موقع المدينة غير

محفور بعد.

هيأ تنقيب كاوة اكتشاف كنز من النقوش الملكية النوبية لا تلى في اهميتها سوي جبل البركل وحده [١١٨]. الواضح انها كانت مركزاً محلياً ذا أهمية معتبرة حتى أن ملوكاً عديدين وجدوا من المرغوب فيه أن يقوموا بزيارتها زيارات رسمية وأن يقدموا الهبات للمعبد. لقد احتفظت كاوة بأهميتها فبلغت بها الفترة المروية نفسها، ولعلها بلغت نهاية المملكة الكوشية.

مستوطنةٌ نوبية هامة أخرى لابد أنها كانت بالجزيرة العريضة أرقو، على مسافة قصيرة بإتجاه النهر شمالاً من كاوة (الشكل رقم ٣٧). يُعرف هذا المكان عادة بأنه بنوبس التى ذُكرت في عُدة نقوش ملكية، مع أن هذا التعريف غير مُستيقن بشكلٍ مطلق [١١٩]. إن المعبد الخَرب الذى رأى النور منذ وقت وجيز هنا بالتحديد مُشابه جداً للمعابد في صَنَمْ وكاوة حجماً ورسماً بما يوحى أنه صرح آخر من صروح تهارقا. أياً كان الأمر، فإن كل المادة المؤرخة التى استُعيدت حتى هذه اللحظة تنتمى إلى الفترة المروية؛ نتيجةً، ربما، لإستعادةٍ جرّت مؤخراً [١٢٠]

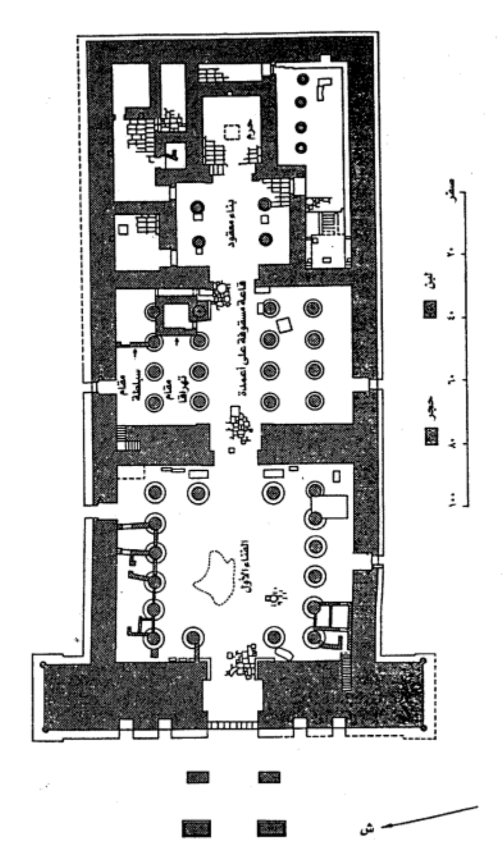
صدنقا، في أرض عبرى - دنقلا النهرية، لابد أنها كانت ضاحيةً هامة أثناء العهود النوبية إن كان قد تم اختيارها حقيقةً من ناحية تهارقا لراحته الأبدية، كما هو مقترح الآن (انظر "الجّبانات الملكية"، أدناه). لقد ذكرنا آنفاً (الفصل التاسع) معبد الأسرة الثامنة والعشرين الذى شَيده هنا أمنحتب الثالث، وهنالك بقايا مروية عديدة في الضاحية بالمثل. إلا أن الإقتراح الوحيد القاضى بالاحتلال النّبتى الذى تم التعرف عليه حتى الآن لصدنقا يكمن في المدفن التلى الذى يُنسب لتهارقا نفسه [١٢١].

المدينة الجنوبية الكبرى ذات الشأن العظيم في كوش كانت بلا شك مدينة مروى. ربما أنها في أزمان نَبتية متأخرة سبّبت آنفاً خُسوف المستوطنات الشمالية حجماً وأهمية. بيد أنها أيضاً تظل في الوقت الراهن غير مُنَقبة لدرجة كبيرة. هذا الوضع يجب علاجه سريعاً بالتحقيقات التى تتقدم في الفترة الحاضرة؛ حتى اللحظة، كشفت بصورة أساسية أن العمق الخاص بترسب الإقامة في مروى يتعدى ثلاثين قدماً، وأن قاعدة المدينة ربما ترجع إلى القرن السابع قبل الميلاد [١٢٢]. بعد مُضى قرن على إنشائها كانت مروى قد اكتسبت من قبل أهميةً كافية للحكام امتلكه و مالي نكن كى يُشَيدا قصراً صغيراً (أو معبداً؟) بها [١٢٣]، ومنذ عهد أمان - نتى - يركى كان في مروى واحداً على الأقل من المنتجعات الملكية [١٢٤]. في الوقت الحالى يمكننا بصعوبةٍ أن نقول أكثر مما ذكرناه، وستُرجأ أى مناقشة تالية عن المدينة الجنوبية وتأريخها حتى فصل قادم .

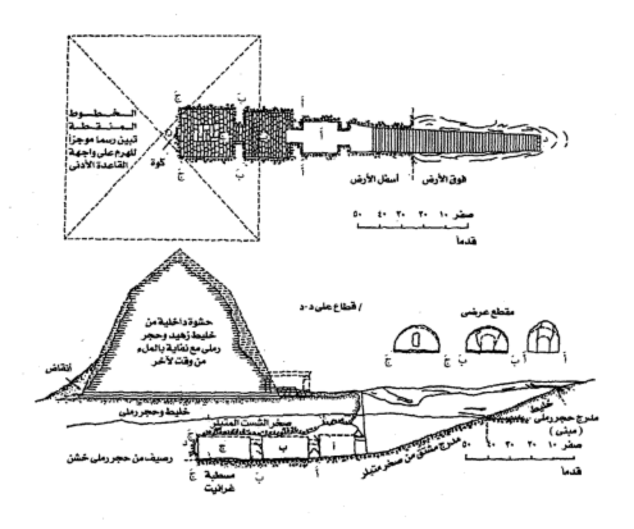
أما المدى الذى امتدت إليه السيادة النَّبتية جنوباً ما وراء مروى فسوف يبقى كذلك مشروعاً للجدل حتى يُقام إستطلاع منظم الإجراء في وسط السودان. لقد عُثر على عدد من موضوعات التأريخ النَّبتى في مواقع تمتد جنوباً حتى الخرطوم الحديثة [١٢٥]، لكن المستوطنات الفعلية لم تكتشف بعد. ومهما كانت عليه حدود الهيمنة السياسية الكوشية، مع هذا، فمن الممكن جداً، أن نفوذ نَبتة الثقافى امتد بعيداً بما لا يستهان به ربما صوب الجنوب حتى النيل الأرق وغربا إلي داخل كردفان [١٢٦]

الجّبانة الملكيـــة

أغلب صروح الحضارة الكوشية تعدداً، وإلى مدىً ابعد، أكثرها تميزاً، هى مدافنها الملكية. في هذا الشأن كما في مجالات أخرى عديدة ، يبدو تطور الأسرة النوبية الحاكمة موازياً للتطور الذى وقع في مصر منذ ٢٠٠٠ عاماً سابقاً. إن الدولة القديمة، قبل نهوض كهنوت راسخ، هى التى كان بها الملك وآل بيته هم الدولة، لكل الأغراض العملية؛ وكان المدفن التلى الملكى هو صرح الدولة الرئيس. ربما إضافةً إلى هذا تُكون بعض الأهمية والمعانى القيمة للحقيقة القائلة بأن شكل الصرح الجنائزى



شكل رقم ٤١
خريطة معبد تهارقا ، كوة



شكل رقم ٤٢

تصميم وقطاع عرضى لمدفن ملكي نبتي نموذجي

الذى اختاره بعنخى وكل خلفائه حتى نهاية الأسرة كان هو الأهرام ـ التعبير الأسمى لديانة الملك المتأله في مصر، ولكنه كان قد انطمر كتقليد زمناً طويلاً عندما ارتقى بعنخى العرش .

الجّبانات الملكية المعروفة خمس : الكُرو، نُورى، جبل البركل في المنطقة النّبتية، وجّبانتان تقعان شرق مدينة مروى. الأولتان من هذه الجّبانات فتنتميان بوضوح للفترة النّبتية، وتنتمى الأخيرتان للفترة المروية . أما وضع القبور في جبل البركل فيعانى من شك له قدره، كما سنناقش ذلك في الفصل القادم.

حُفرت الجّبانات الملكية الخمسة بما يقارب كليتها بعثة هارفارد ـ بوسطن [١٢٧]. وقد احتوت بأجمعها حوالى ٤٠٠ قبراً منفرداً، بما في ذلك قبور إثنين وسبعين حاكماً على الأقل وعدداً يفوق ذلك بنسبةٍ أعلى من الزوجات والمعية الملكية. أما الجّبانات الرئيسة الأربعة (أى، باستبعاد جبل البركل) فقد اعتقد رايزنر أنها تمثل تعاقباً غير منقطع من التطور، بدأ بالكُرو، ثم نُورى،ثم الجّبانة الجنوبية في مروى، وأخيراً جّبانة مروى الشمالية. ومن ناحية إسمية، يُفترض أن القبر الملكى الأسبق في كل جّبانة هو الوريث المباشر لآخر قبر في الجّبانة السابقة .

فوق سطح الأرض، كان الهرم هو الملمح الأساسى لكل قبرٍ ملكى نوبى منذ عهد بعنخى وما تلاه من عهود. إن الهرم الملكى الكوشى أصغر شأناً بكثيرٍ من أهرام مصر في الدولة القديمة، وأكبر مثال معروف (هرم تهارقا في نورى) الذى يبلغ مقاسه حوالى ٩٥ قدماً فحسب على طول القاعدة، إذا ما قُورن بـ ٧٥٠ قدماً لهرم خُوفو في الجيزة. كذلك فإن الهرم النوبى أطول بدرجةٍ معتبرة بالنسبة لقاعدته مقارنةً مع نظيره المصرى، مما يعطيه مظهراً بارزاً بشكل واضح (الصورة ١٣ ـ ب). متوسط زاوية الإنحدار بين ٦٠ درجة و ٧٠ درجة [١٢٨]، على نقيض المنحدر البالغ ٥٠ درجةً في أغلب أهرامات الدولة القديمة. هذه الخصائص توجد أيضاً في جّبانات نبلاء مصريين معينين في الدولة الجديدة؛ والمفترض، بتقدير أرجح من الصروح الجنائزية العظيمة في الدولة القديمة، أنها هى التى قامت بدور النماذج المباشرةً للقبور الملكية الكوشية. شُيدت الأهرامات النوبية الأولى من بناء حّجرى صلب ـ قوالب صغيرة بالأحرى ـ لكنّ مبانى العهود المروية المتأخرة لم تكن إلا رُكاماً من حشوة بناء خشن ممسوحةً بوجه من الحجارة المشكلة [١٣٠].

لم تكن هناك غرفة داخلية بين الأهرامات، على أنه يكاد يكون لكل هرم غرفة إنتظار للجنائز بُنيت على وجهة الشرقى. كانت هذه حُجيرة مستطيلة الرسم، أحياناً لها مدُخل لبوابة هرمية محلاة بالنحوت. في مروى كانت أكبر غرف الجنائز وأغلبها إكتمالاً مُزخرفةً بنحوت لوجومٍ من الأجناب ونقوش تُعد بين البقايا الفنية والكتابية للفترة المروية [١٣١]. ليست هناك بقايا يمكن أن تُقارن بها بغرف أهرامات الكُرو ونُورى. إن مساحةً مستطيلةً تحيط مباشرةً بالهرم وغرفة إنتظارٍ جنائزية كانت في العادة مسدودةً بسور مبنى، يلج إليه مثل غرفة إنتظار الجنائز وغرفة دفن الموتّى أسفله، من الشرق. الإرتفاع الأصلى لهذه الأسوار التى تَسُد المكان غير معلوم، حيث أنها جميعاً وُجدت في حالةٍ شديدة الخراب.

تحت الهرم ، إشتمل القبر الملكى عموماً على سلسلة متصلةٍ من غرفتين أو ثلاث حجيرات صغيرة، تحتوى الميت أوغل واحدة منها إلى الداخل (قارن الشكل رقم ٤٢). كانت هذه مُشتّقة من الصخر الصلب، رغم أنه في قلةٍ من مدافن الكُرو كان من الضرورى تثبيتها ببناء بسبب ضعف الشرائح من فوقها. أما غرفة الجنائز الرئيسة فكانت، على الأقل واقعةً في تعمدٍ مباشرةً تحت الهرم، في حين أن الغرف الجّانبية والدهليز المؤدى إليها تمتد شرقاً منها . في بعض الأهرامات المتأخرة التى بُنيت بناءً غير متقن تميل الإستقامة المعمارية للبناء عن المركز بما يدعو للملاحظة ، وفى حالة واحدةٍ أو حالتين أخطأ البناؤون تخطيطهم المرسوم بأجمعه. إن الوصول إلى الغرف المستطيلة، عدا بعض المقابر العتيقة من ناحية أو المتأخرة من ناحية أخرى، كان عن طريق سلسلةٍ من السلالم

تنحدر من الشرق. وبعد صنع القبر الملكي، يُسّد الطريق الذى يؤدى إلى المدخل بين السلالم وبين أبعد غرفة نحو الشرق ببناء أو بحشوة خشنة من البناء، ويعاد ملء الدهليز المؤدى إليه بالتراب. مع هذا، ما وُجدت هذه الترتيبات في أى حالة كانت من غير سوء؛ كل قبر ملكي كوشي إقتُحِم ونُهب منذ القدم. نتيجةً لذلك، يُترك لعالم الآثار إعادة بناء التفاصيل المتعلقة بممارسة الدفن من البقايا النُزيرة التى تجاهلها الناهبون أو داسو عليها عَبثاً وتخريباً.

كان الجسد الملكي يُسجى بين الغرفة السفلية الأقرب موقعاً إلى الداخل. وكانت ممارسة دفن الميت على السرير عامة في الكُرو ، لكنها لم تتواصل عقب الإنتقال إلى نُورى. دُفن كل الملوك الكوشيين المتأخرة في أكفان خشبية، أو في حَجر جيرى من وقت لآخر، وفقاً للأسلوب المصرى. وكان التحنيط عاماً. ينتصب الكُفن عادةً على أرضية مرفوعة أو مصطبةً من الحَجر تُترك قائمةً عندما يتم شق الغرفة من الصخر. وبسبب الإقلاق الممعّن فيه الذى حاق بغرف الجنائز يكاد مستحيلاً أن يقال شيئاً ذا معنى حول التوزيع الأصلى لمتاع الموتى، عدا أنه كان مُتعدداً وغنياً. إن الأشياء ذات الصنع المصرى تكّون أغلبية المتاع في جّبانات الفترة النّبتية.

خلال معظم الفترات، كانت قبور الملكات من نفس الطراز العام لمدافن الملوك، لكنها أصغر إلى حدٍ مذكور وأقل إستغراقاً في الزينة. إنها ليست مصفوفةً في العادة على طول جانب القبور الرجالية؛ في الكُرو [١٣٢] ونورى شغلت الملكات أقساماً منفصلة من الجّبانات، وفى مروى إحتللن جّبانة منفصلة بأجمعها. تبدو بعض قبور الملكات (أو العشيقات؟) فاقدةً للهياكل الفوقية .

لا غرو، أنه في مجرى ألف عام من الزمان كانت هنالك تغييرات متعددة في تفصيل النوع والبناء المتعلقين بالجّبانات الملكية النوبية. على أساس هذه التغييرات صنع رايزنر وُحدةً معقدة للغاية من الأنواع والتعاقب التطورى هى العمود الفقرى لمسلسله الزمنى للملكة الكوشية [١٣٣]. ولأن معظم الحكام الأخيرين لم يتركوا مدونات تأريخية، فقد ألحقوا مكاناً في الوراثة على أساس الخصائص المرتبطة بنوعية مواقع قبورهم. المشروع الكامل معقد للغاية إذا أردنا إعادة عرضه هنا؛ فهو قائم على الإختلاف الملاحظ فيما لا يقل عن عشرة خصائص للقبر الملكي (الهيكل الفوقى، الطوق، غرفة إنتظار الجنازة، الوصول إلى مكان الدفن، مداخل المنافذ، سد الأبواب، عدد غرف الدفن وبناياتها، تعلية غرف الدفن، الفتحات المؤدية إلى الغرف الجنائزية، وطريقة الدفن)، بالإضافة إلى القرابين الموجودة في القبر [١٣٤].

التقويم التأريخى للأهرام، مثل كثير من أعمال رايزنر النظرية، اقوى إنطباعاً في جانب الإستقراء منه في الإستدلال. إن التصنيفات النوعية تبدو بذلك رصينةً أكثر ما تكون الرّصانة عليه، لكن المنطق الذى تم ترتيبها بمقتضاه في تعاقب من التسلسل الزمنى ليس على وضوح دائماً. فالمشروع بأكمله معّلق، بالطبع، على فرضية *بالبداهة*. إن كل القبور الملكية الكوشية المعروفة (عدا الجّبانة في جبل البركل) تمثل متتاليةً واحدة وحسب من التطور، دونما أى انقطاع أو تداخل. الجّبانات الأربعة الرئيسة تمثل كل واحدةٍ منها بهذه الطريقة قطاعاً من التسلسل الزمنى لنفس الأسرة، يبدأ كل واحد منها حيثما انتهى الآخر. هذه النظرية بينما تدعمها بدرجة محسوسة البّينة النوعية، فإنها ليست بأى حال مثبتة من الناحية العلمية التجريبية. تظل واحدةً من فرضيات عالم التاريخ الإستدلالية [١٣٥]. أما صورة التسلسل الزمنى فواضحة منطقياً بشكل أو بآخر بالنسبة للجّبانات النّبتية التى سنُعنى بها هنا.

حيث أن القبر الملكي الكوشي يشتمل بالضرورة على سلسلةٍ من الغرف السُفلية الكائنة تحت الأرض والتى يواريها هيكل فوقى ثقيل، فإن المتطلبات الرئيسة للجّبانة الملكية كانت تتمثل في مساحة منبسطة بمستوى معقول ذات شريحةٍ من صخرٍ صالح ذى متانة، يقع مباشرة تحت السطح. هذه الشروط مستوفاة بأماكن وفيرة في المنطقة النّبتية، في كل من المنطقتين الواقعتين إلى الشمال

والجنوب من السهل الفَيضي النيلي. والمواقع التى تم اختبارها بالفعل، في الكُرو، ونُورى، وجبل البركل، كانت قد حُددت قطعاً بإعتبارات التركيب الجيولوجي من جهة، لكن عوامل أخرى لابد أنها لعبت دوراً مماثلاً. فالكُرو، أقدم الجّبانات تقع على مسافة معقولة في إتجاه شمال النهر من جبل البركل؛ ولأنه لا توجد بقايا معروفةً أخرى في الضاحية، فإننا نظل على جهل بالسبب الذى أُختير به هذا الموقع الخاص للراحة الأبدية لملوك كوش الأوائل.

جّبانات الكُرو ونُورى تبدو مَلكية مطلقة؛ أى، أنها لا تشتمل إلا على قبور الملوك وشركائهم. إن الكُرو هى مكان الراحة الأبدية النهائى لخمسة أو ستة ملوك نوبيين حكموا مصر، وست عشرة ملكة من مليكاتهم، وخمسة أجيال من أسلافهم الذى لم يُدعُوا بأسمائهم. وفيما يلى يصف أركيل تطور الجّبانة في الكُرو :

فى الكُرو، الجّبانة الرئيسة التى توجد بها قبور الملوك الأربعة الأوائل، هضبةٌ حجرية رملية بين واديين وراءها على كل من الجانبين قبور لملكات هؤلاء الملوك. افضل موقع كان يشغله قبر ... صغير من نوع المدافن التلية، والأماكن الخمس عشرة التالية في نقطة مرغوب فيها كانت مملوءة بمتتالية من المدافن ذات حجم متزايد وبناء ممتاز، ثم تأتى بعد ذلك أربعة مدافن ملكية في أربعة مواقع هى الأمعن سوءاً في الجّبانة، وهى بوضُوح الجنائز الأخيرة في جّبانة كانت على استعمال دائم منذ حوالى ٨٦٠ قبل الميلاد.... هنالك تطور تدريجى في شكل القبر. أولاً : القبر البسيط في حفرة تحت مدفن تلي به جثة مدفونة على جانبها الأيمن حتى الركبتين حَنية خفيفة، بإتجاه الرأس شمالاً، والوجه غرباً؛ ثم مدفن تلي مُحّسن بقالب من بناء بالحجر الرملي، وحجرةٌ صغيرة مبنية من الطوب الطيني، وسورٌ محيط به على شكل حدوة الحصان؛ ثم مصطبة مبنية في شكل مربع دون تدقيق من فوق قبر في حفرة له غرفةٌ من بناء، ويحيط بالكل سور مستطيل؛ ثم نوعٌ جاء مؤخراً من المسطبات تُوجد بأسفله حفر الدفن شرقاً - غرباً، وهو توجه كل القبور الملكية الأخيرة. يتلو ذلك من حيث الزمن قبور لست ملكات لبعنخى، وفيها سُقفت حفر الدفن بكمر - مقوس من البناء. أما قبر الملك بعنخى نفسه فهو يقع أمام صف من المصطبات، في مكانٍ تحت أسفل المنحدر نحو النهر؛ وفيه، من أجل أن يتأتى بناء السرداب قبل الجنازة، أُشتُقّ مدرج سلالم صغير بداخل الصخر وفُتح على طرف الحفرة الشرقى عبر مدخل مصنوع من قطع الصخر . كان هذا هو الأول على رأس سلسلةٍ طويلة من مدافن السلالم الملكية. ومن المستحيل ان يقال - إذ أن المادة قد نُهبت منذ القدم - ما إذا كان الهيكل الفوقى كان مسطبةً أو هرماً، بيد أنه من المفترض عموماً أنه كان هرماً، كما في القبور التى أُقيمت بعده (١٣٧).

من بعد بعنخى، أضحت كل الهياكل الفوقية في الكرو صغيرةً نسبياً (٣٠ قدماً مربعاً بالتقريب)، أهراماتٍ ذات وجه متساوى السطح، دونما زينة عدا غرفة مبنية مسطحة في الطرف الشرقى. الجزء الواقع تحت الأرض يتكون من غرفتين في قبور الملوك وحُجيرة واحدة في قبور الملكات . بعض غرف الدفن مُزخرفةٌ بأكملها بمناظر ونصوص حرفية عن الأموات على غرار القبور المشتقة من الصخور في مصر (١٣٨).

إن وجهاً نادراً في جّبانة الكرو يختص بمجموعة من أربعة وعشرين حصاناً مدفوناً، في مساحة على مسافة قصيرة من القبور الرئيسة. "كانت القبور في أربعةٍ صفوف، صفين في كلٍ منهما أربعة خيول، وصفين في كل منهما ثمانية. وكانت القبور متجاورة جنباً إلى جنب متساوية المسافة عن بعضها البعض، ودفن كل حصان واقفاً مع وضع رأسه إلى الجنوب. أما الصفان الثانى والثالث فينسبان من تمائمهما .... إلى شباكو وشبكتو، لذا فإن الصف الأول يكاد أن يُعزى في جزمٍ إلى بعنخى والصف الأخير إلى تنوتامون. لقد نُهبت كل القبور، لكن بقايا الشراك ، بما في ذلك حاملات الرياش، ورباطات الرأس الفضية، وحبات العقود والتمائم عُثر عليها، مشيرةً إلى أن الخيول كانت حتماً فرقاً من العربات الملكية (١٣٩). هذا الإكتراث الفائق بالخيل، الذى تأكد آنفاً في لوحة بعنخى، موضوع يتكرر من فترة لأخرى في التاريخ النوبى حتى نهاية العصور الوسطى .

تشغل جّبانة نُورى ضيعةً لا تختلف إختلافاً كبيراً عن جّبانة الكُرو : هضبة رملية صحراوية

تنبسط ممتدةً من وراء أطراف السهل الفَيضي. إنها، مع ذلك، واحدة من صُروح كوش القديمة التي تقع في قلةٍ متناهية على الضفة "الغربية" للنيل. [١٤٠] إن الإقتراح القاضي بأن تهارقا شَيد هرمه هنا لأن الكرو كانت "ممتلئة" قد تحمل شيئا من الحقيقة ، [١٤١]. ولكنه يفشل بوضوح في وضع الإعتبار لعملية إختيار الأمكنة المحلية، فأماكن أخرى كثيرة ربما أنها كانت تؤدي الغرض على قدم المساواة. وفي الحقيقة، كان تهارقا فيما يقرب من اليقين يُقلد ممارسات مصر الإمبريالية؛ فالجّبانات الملكية العظيمة في كل من مصر العليا والسفلى على هامش الصحراء الغربية في مقابلة المعابد العظيمة في الكرنك وممفيس. وفي مواجهة جبل البركل تقف نُوري تماماً على نفس النهج .

تبلغ جّبانة نُوري حوالي ضعف حجم جّبانة الكُرو وتحتوي - وفقاً لتفسير رايزنر - على قبور لتسعة عشر ملكاً وثلاثة وخمسين ملكاً [١٤٢]. اهرام تهارقاً الاكبر، أكبر صرح ملكي في كوش (٩٥ قدماً في الجانب)، ينتصب بالقرب من مركز الجّبانة القديمة، في حين رُتبت أهرامات الملوك المتأخرة في صَفّين إلى الجنوب الشرقي منها (الشكل رقم ٤٣). بالقرب من الجانب المقابل لقبر تهارقا (أو صرح وفاته) تحتشد أهرامات الملكات متضائلةً في الصُغر للغاية (الشكل رقم ٤٣). الشكل المميز للأهرامات في نُوري أنها "ذات سلالم"؛ أي، أن الجّبانات تقوم في متتاليةٍ من السلالم الضيقة ، القصيرة، بدلاً من أن يكون لها وجه متواصل الإنحدار كما في الكُرو. لذلك فإن جّبانات مروى تمثل المظهر الكائن اليوم لأهرامات الجيزة (صورة ١١ ـ ب). معظم قبور الملوك لها ثلاث غرف سُفلية .

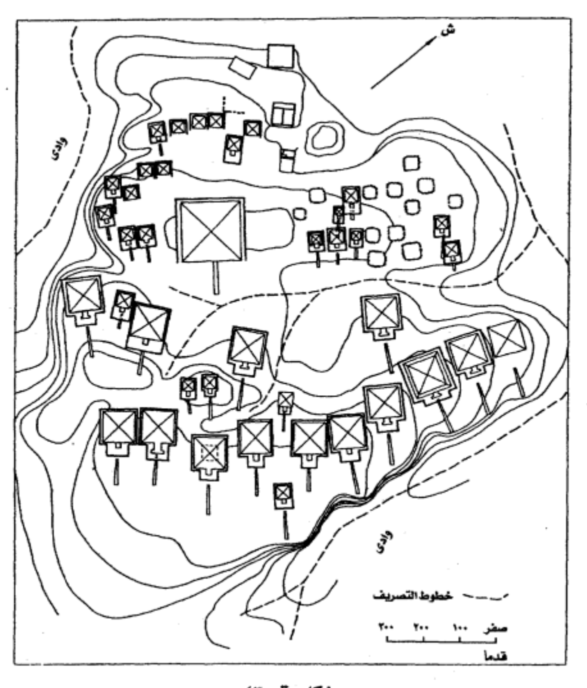
يشكل الهرم الذي تعرض لتدمير شديد في صدنقا والمنسوب إلى تهارقا مخالفةً للعادة وسراً غامضاً على السواء. لقد اكتُشف في ١٩٦٣، وهو موصوف كما يلي من المنَقبين :

تكون هذا القبر من هرم (٩.٨٠ متراً [٣٢ قدماً] مربعاً في القاعدة) مبني من حجارة سوداء، محشو بالحصى ومطلي بالأحمر. إن الهرم، الذي تقف بقاياه على ارتفاع ١.٧٠ متراً [٥ اقدام]، كان مُحاطاً في ثلاثة جوانب بحائطٍ كسوار المعصم من حجارة سوداء. على الجانب الشرقي من السور فناء، يمتد المدخل إليه عن طريق بوابةٍ من الحجر الرملي. لقد وجدنا آثاراً عديدة لهذه البوابة، في السلم المؤدي إلى غرفة الدفن بالأسفل وكذلك بالفناء؛ بعض الكتل البنائية مُزخرفة وتبّين شخصاً ملكياً يلبس تاجاً أحمر اللون، وحزاماً راسياً من النصوص الحرفية وفي الأجزاء السفلى شكلان لتهارقا.

أما القبر ، الذي اشتُقّ بعنايةٍ فائقة من داخل الصخر، فاشتمل على غرفة إنتظار (٢.٣٠ × ٢.٣٥ متراً [٧ أقدام و٦ بوصات × ٧ أقدام و ٨ بوصات]) لها سقف ذو كمر ـ مقوس، وإلى غربه، غرفة دفن مقوسة (٢.٢٥ × ٣.٢٥ متراً (٧ أقدام و٦ بوصات × ١٠ أقدام و ٨ بوصات]) . غرفة الإنتظار مطلية بخام حديدي أحمر. في مركز غرفة الدفن هنالك متكأ للكفن شُقّ في الأرضية وسُويّ ببلاطٍ أسود. أرضية القبر مُغطاة بطبقة من التراب نُثرت عليها صخور مكسرة، وجدنا في وسطها شقوقاً عديدة من عرق الذهب والعظام المبعثرة.

كانت كل شقوق العظام المجّمعة في الغرفتين مُصنّفةً ومعّرفةً، كل عظمٍ على حدة. وقد بّينت الدراسة انها تشكل العناصر الكاملة لهيكلٍ بشري واحد [١٤٣].

على أساس هذا الإكتشاف إقتَرح المنَقّبون أن صدنقا هي مكان الدفن الحقيقي لتهارقا، أما الهرم العظيم في نُوري (الذي لم يُعثر تحته على أي جنازة) فلا يعدو كونه مِدفناً تذكارياً أو صرحاً محيّياً لذكراه. الصرح المعروف للفرعون ستي الأول في أبيدوس، الذي يحمل تمثلات هيكلية معينة لأهرام تهارقا، يُشار إليه تأييداً لمثل هذا التفسير [١٤٤]. وبالنظر إلى الحقيقة التي مؤداها أن هنالك غرفة تحت الهرم القائم في نُوري ، مع هذا، يبدو من المنطقي بدرجةٍ عالية أن يُوقن بأن تهارقا كان مكتمل النية تجاه بناء هذا الهرم كمكان لراحته الأبدية، لكنه ربما بسبب مصادفةٍ ما في غّير محلها أو بسبب سقوطه من السلطة كان ملزماً بأن يقنع بقبرٍ متواضع نسبياً في محافظة نائية [١٤٥]. مؤكد أن القبر الكائن في صدنقا لا يليق بشخصية أعظم بُناة النوبة، ويتناقض تناقضاً صارخاً مع هرمه في



شكل رقم ٤٣

تصميم لجبانة ملكية نبتية ، مروي

نُوري وكل صروحه المعروفة الأخرى. أضف إلي ذلك أنه واحد من مجموعة صغيرة للغاية من القبور، يعود معظمها إلى التاريخ المروى. ننقل عن المُنَقّبين ثانيةً :

ربما تشكل مجموعة الأهرامات التى تقع بجوار قبر تهارقا مالا يزيد عن ثمانية قبور، وضعت شرقاً ـ غرباً. يعلو إثنين منها هرمٌ واحد يطّوقه سور .... القبور الستة الأخرى لها أهرامات مزدوجة، بالطوب الطين، بُنى كل هرم منها خلال فترتين مختلفتين؛ الهرم الأول وُضع فوق مكان الدفن. والثانى، وهو الأصغر، وُضع إلى شرق الهرم الأول مغطياً المدخل إلى السلالم.

أما القبور الستة فيبدو أنها تعود إلى عهود مروية [١٤٦].

دهمــاء الرعيـــة

لا تُنبئنا السجلات التاريخية ولا البقايا الآثارية التى جرت مناقشتها حتى الآن، شيئاً كافياً بشأن الكيفية التى عاش عليها الشعب النوبي تحت ظل الملكية الكوشية . في غياب مواقع مُنَقّبة للمدن ليس بمقدورنا أن نصف مسكناً نوبياً واحداً بأى تفصيل. أما إن المساكن كانت أساساً من الطوب فهو مُستقراً من القليل الظاهر في السطح، ويبدو مؤيداً من الحفريات الإختبارية التى أُجريت مؤخراً في مروى، لكننا فيما يتعلق بكل ذلك نعلم أن بعضاً من النوبيين الجنوبيين ربما عاشوا في منازل من القش [١٤٧].

تقدم جَبانتان، واحدةٌ في مروى والثانية في صَنَمْ، نافذةً على أنواع تطل على ثقافة النوبى العادى في الفترة النَبتية . فالجَبانة الجنوبية في مروى، بالرغم من أنها أصبحت مكان الدفن للملوك المرويين الأوائل، ظلت قيد الإستعمال جَبانة عادية منذ تاريخ أسبق من ذلك بمدة طويلة [١٤٨]. من بين ٢٠٤ من مدافنها المعروفة، لهذا ، جميعها ما عدا قلة منها "غير ملكية"، معظمها سابق الوقوع للفترة المروية كما نحدد معالمها هنا (أى الزمن الذى أُنشئت فيه الجَبانات الملكية في الجنوب). إن أقدم جنائز في الجَبانة الجنوبية تنتمى لزمن بعنخى وشبكتو، وتُظهر نفس التفصيل لدفن الميت على السرير الذى يعد خاصيةً مُميزة للقبور في الكرو. أما الإستنتاجات الرئيسة التى خلص إليها رايزنر من حفر القبور غير الملكية فيلخصها شينى :

أُولى القبور في جَبانات الجنوب والغرب، تلك التى كانت مستخدمةً قبل زمن أسبلطه، لها اهتمام خاص حيث أنه هنا .... يمكن لتقليدين أن يُشاهدا مُتعاصرين. عثر على نمطين مختلفين للغاية من الدفن. الأول : أو النمط الأهلي، تكون من قبر مستطيل يرقد عليه الجسد غير المحَنط، على شقه الأيسر عادةً، في سرير خشبى كما في الجنائز الأولى في الكُرو. إن دفن هذه الجنائز إحتوى متاعاً غنياً في القبر من نوع معروف بالكُرو ومقابر سالفة في نُورى. محتويات نمط الدفن الآخر أفقر درجة لمدى بعيد؛ فهى أضيق، تحتوى أجساداً مُحنطة موضوعةً على أكفانٍ خشبية تُغطَى غالباً بشبكة من خرز نوعه معروف جيداً من جنائز مدفونة في ذلك الوقت في مصر. وجود جنائز دُفنت في وقت معاصر لهذين النوعين المتمايزين جدير بالملاحظة وقد اقتُرح أنه كان هنالك مجتمعان منفصلان يعيشان معاً في مروى في ذلك العهد؛ إن دفن الأموات على الأسِرّة يعود للأرستقراطية... المحلية في حين أن دفن الموتى بالأكفان على النمط المصرى يرجع إلى مستعمرة مصرية من الصنّاع والكتبة [١٤٩].

الواجب أن يضاف على سبيل الحذر أن التاريخ النسبى لدفن الجنائز غير الملكية في مروى ينوء بعدم اليقين أكثر مما يعانيه التاريخ النسبى لدفنها في الأهرامات. فكلها، نُهبت، ويحتوى القليل منها على أشياء مكتوبة أو خلاف ذلك من أشياءٍ متقاربة التواريخ، أما أنماط النمو التى عرضتها المدافن ككل فكانت بعيدةً عن العيان. نتيجةً لذلك، فإن تأويلات رايزنر لتسلسل التاريخ الزمنى كانت تعتبر أكثر حدسيةً بقسط وافر. لم يتفق كل العلماء على ترتيبه لتعاقب القبور أو بنظريته الخاصة بتعاصر نوعين من طقوس الدفن الجنائزى، مفضلين على ذلك الإيقان بأن الفرق بين "الوطني" و

"المصرى" فرق تسلسلى زمنى بصفة أولية.

لقد وصف رايزنر الجّبانة الجنوبية في مروى بأنها "جَبانة لعائلة قديمة أضحت جّبانة ملكية عندما أصبح أرباب العائلة حكاماً للمملكة" (١٥٠). فإذا كان هذا الرأى سليماً، فإن الجنائز "غير الملكية" المدفونة في الجّبانة الجنوبية يجب أن تكون جنائز لصفوةٍ صغيرة حاكمة كيفما اتفق الحال، لكنها ربما كانت شديدة الإختلاف في أسلوب حياتها عن الرجل العادى في مدار الحياة .

إن صورةً أقل غموضاً وأوسع إحاطةً وشمولاً لطقوس دفن الجنائز النّبتية تزود بها جّبانة صَنَمْ، حيث أزالت بعثة جريفيث الغطاء عما يزيد على ١.٥٠٠ قبر. إحتل الموقع ضَفَّة طَمِيّة تتعدى حجماً ما يشغله من رف صخرى، وبسبب ذلك قاسى تعريةً أمضى في سطحه مما عانت الجّبانات الملكية التى نَقَّبها رايزنر. ومن الجائز أن يُفَسر هذا الوضع السؤال الخاص بعدم وجود آثار أسوار محيطة بها أو هياكل فوقية عليها. مع هذا فإنه حتى تحت سطح الأرض، كانت المدافن في صَنَمْ غير متقنة البناء نسبياً.

فى كل الجّبانات لم تكن هناك علامةً على البناء ذى التكلفة العالية، أو الغرف المحفورة على نطاق واسع سواء بسواء. كانت المخلفات الجنائزية متوافرة بحق في بعض الحالات وتشمل كمية مقدرة من المعدن النفيس وأشياء صغيرة رفيعة الصنع؛ على أنه هنا أيضاً وللمرة الثانية لم يكن هناك ما يوحى بالعظمة. ربما يُضَمن البعض إفتراضاً مؤداه أن عليّة القوم والأمراء العظام لأرض كوش دُفنوا في مكان اخر غير صنم (١٥١).

تم التعرف على ثلاثة أنواع من القبور في صنم :

١ - غرفٌ للقبور ذات مدخل له سلالم، إما محفورةٌ في شكل كهوف في الطمى أو مسّورة ومعروشةٌ بالطوب. الجنائز المدفونة في هذه القبور كانت مُحنطة كلها وموضوعة في أكفان أو دواليب، وكانت مصحوبة بفّخار مصنوع بالعجلات وغير ذلك من المصنوعات المصرية.

٢ - الدفن الممتد في حفر مستطيلة صغيرة. توضع الجنائز على ظهورها ويوجه رأس الميت ناحية الغرب. لم تكن أمتعة القبر عديدة، لكن الفّخار إذا وجد كان مقصوراً على الأوانى من الطراز المصرى.

٣ - دفن عن طريق حشر الأموات في حُفر مستطيلة أو بيضاوية الشكل. يرقد الميت على إحدى شِقّيه الأيسر أو الأيمن متجهتان ناحية الوجه وكعابه مرفوعة بلصق عظام الركبتين؛ كان الرأس بوجه عام وليس دائماً بأى حال موجهاً نحو الغرب. هذه القبور إشتملت على جرار مصرية الصنع كبيرة الحجم من نوع غير موجود في القبور الأخرى، لكنها كذلك إحتوت أعداداً من الأوانى المحلية يدوية الصنُع وفقاً للتقليد العام لثقافة المجموعة الثالثة وكرمة .

على الرغم من تميزها النوعى، كان جريفيث قادراً على أن يُبين بإستنتاج لا بأس به أن أنواع دفن الجنائز الممدودة والمحشورة كانت معاصرةً لبعضها البعض، حيث أنه كانت هنالك حالات تداخل بينها فيتواجد كلُ نوع منها في قبور مع سابقٍ من النوع الآخر، واحتوى قبران مزدوجانِ على دفنٍ لجنائز من النوعين في وقْت واحد. "فى القبر رقمْ ٢٢١ يرقد هيكل بشرى ممتد دونما تُحَف إلى جانبه مع اتجاه الرأس إلى النصف الجنوبى ناحية النهر، وفى النصف الشمالى هيكل بشرى في حفرة ضيقة على شِقه الأيمن، مع وضع الجمجمة في الإتجاه المقابل) وبصحبته عقود وفَخار يدوى.... مُمَيّز يفترض أنهما رجل وزوجته» (١٥٢).

هذه الظروف قادت جريفيث إلى نفس ما خلص إليه رايزنر :

لعل الأمر يبدو كأنه لابد أن نشّخص طبقتين من السكان أو طائفتين بدلاً عن فترتين زمنيتين. إن العنصر الداعى للتمصير لربما يُفَضل الوضع الممتد، في حين أن العنصر الأقل تثقفاً وأعمق أصالةً وتحفظاً، ولو كان على رخاء، يفّضل الوضع منحنى الأرجل أو المنحشر للميت. طبقاً لهذا الرأى فإن المرأة في الحفرة رقم ٢٢١ دُفنت وفق

العادة الأصلية مع التحفظ اللائق بينما تبع دفن زوجها الأسلوب الذى يُعد أكثر حداثة.

حالات دفن الأموات حشراً في الحفر عديدة على وجه الخصوص في الطرف الجنوبى من الجّبانة .... هنا يكاد جمعهم لا يختلط به أموات مدفونون بالطريقة الممتدة ... بينما في كل الأقسام الأخرى كانو مبعثرين بدرجة خفيفة جداً بين عدد ضخم من الدفن الممتد. العديد من الأموات المنحشرين في الجزء الخاص بهم قبورهم مؤثثة تأثيثاً جيداً بالجرار والأكواب دون أدوات للزينة. ربما يُوحى هذا بأن الناس الذين يمثلونهم إتخذوا وجهة نظر ماديةً للغاية تجاه متطلباتهم بعد الموت، لا يكترثون إلا بوجود وفرة أكيدة من الجعة وحسب (١٥٣).

استعمال جريفيث للكلمة "طبقتين" إستعمال هام، لأنه رأى بوضوح الفرق بين نوعَى الدفن تركيزاً على معانيٍّ إجتماعية ـ إقتصادية أساساً، بترجيح أوثق من رؤيته لها كتعبير عِرقِى خالص كما فعل رايزنر . فمن جانب، هناك المصريون والنوبيون "المتمصرون"؛ وفى الجانب الآخر نوبيون محافظون. يواكب هذا بدرجةٍ عاليةٍ جداً حالة الشؤون التى أبصرناها آنفاً في النوبة السُفلى تحت ظل الدولة الجديدة (الفصل التاسع). والملاحظ أنه في صَنَمْ تبدو أوضاع الجماعتين معاكسة لوضعهما في مروى : فالقبور المحنّطة هى الأغنى والقبور المنحشرة هى الأفقر . نوعاً ما من المثير للدهشة فشل جريفيث في أن يتعرف على أى دفن للجنائز بالأسّرة في صَنَم؛ مع ذلك، يجوز أن يعكس هذا الوضع مستوىً من الحفظ بالغ الضعف لُلبقايا العُضوية في هذه الجّبانة التى دائماً ما يغمرها الفيضان.

وقتما يجوز أن يعكس التمييز بن القبور "الوطنية" و "المتمصرة" في صَنَم ومروى عوامل إجتماعية أو ثقافية، أو خليطاً من الإثنين، في حد الممكن كذلك أن يفترض أن اختلافاً في الجنس مضى دون تعرفٍ عليه بنفس الوتيرة. ففى صَنَم، يُوَازى توزيعُ الجنائز المنحشرة مقابل الجنائز الممتدة بما يقرب من السواء توزيع الملكات مقارنة مع الملوك في المقابر الملكية : أى، أنها مركزة تركيزاً ثقيلاً في منطقة واحدة، لكنها أيضاً مبعثرة بين جنائز الرجال. هذه النظرية تجد بعض المؤارزة الإضافية من حالتى الدفن المزدوج اللتين تم ذكرهما آنفاً، وإنها بالطبع مواكبة بدرجة قصيّة للتحفظ الثقافى الذى تعرضه النساء عادة.

إعتبر جريفيث قبور الغرف ذات الجثث المحنطة ـ وهى الأكمل بناء في صَنَم ـ أسبق حدوثاً بكليتها من الحفر البسيطة ممتدةً أم منحشرة (١٥٤). فإذا كان ذلك حقيقياً، فإنه موضوع ذو أهمية فائقة لنظريات التسلسل الزمنى التاريخى، ذلك أنها تُوحى بصُعودٍ مؤقت لطقوس الدفن المصرى وفى أعقابها عودة لممارسةٍ أكثر تقليدية ـ سيراً عكسياً للتعاقب التطورى المتوقع. فإذا كانت قبور الموميات لمصريين حقيقيين، بطبيعة الحال، فإن إختفاءها المتدرج قد يُفَّسر بهجرة صنّاع وكتبة من بعد خسران النوبيين لمصر، أو بتبنى الحياة النوبية من ناحية العنصر المصرى في النوبة. مثل هذه العملية يُوحى بها أيضاً عدم تكرار النقوش المنحوتة [وهى عمل الكتبة المصريين] منذ العهد النّبتى الأخير، والظهور المعاود لفّخار مصنوع يدوياً من الأهالى في المقابر الملكية النّبتية المتأخرة. مهما كان الأمر، فإن بّينة التسلسل الزمنى فيمًا يختص بصنم غير نهائية. والحالة الوحيدة التى تبيّنها هذه الجّبانة في وضوح هى بقاء عنصر غير متمصر قطاعاً كبيراً وسط السكان النوبيين حتى نهاية العهود النّبتية. وكما رأينا في الفصل التاسع، فإن هذا عاملاً من العوامل التى تؤيد إعتقاداً مؤداه أن كل النوبة لم يجرِ "تثقيفها" فى ظل الدولة الجديدة وفقاً للثقافة المصرية.

المجتمع والإقتصاد النبتى

بنظرة سريعة يحتمل أن يذكرنا تطور النوبة الإجتماعى في ظل الملوك النّبتيين بالتطور الإجتماعى لمصر تحت ظل الدولة القديمة، منذ ٢,٠٠٠ عام سابقة. إننا نأخذ الإنطباع بمجتمع من

طبقتين يشتمل على طبقةٍ فلاحية كاسحة وصفوةٍ وراثية صغيرة - زعامة أقل حضارةً بالضرورة أخذت بناصية قليل من رموز المكانة الخاصة بحضارة أكثر تعقيداً. هذه هى الصورة كما تخيلها هايكوك عندما كتب قائلاً :

المكانة الاجتماعية لأوائل... النَّبتيين الذى دُفنوا في المدافن التلية في الكُرو كانت بالمقارنة قليلة الشأن ... لكن الملوك كانوا هم المنتفعين الرئيسين من إتحاد.. السودان وفتح مصر، وقد اكتسبوا مكانةً مُحدثة للغاية كفراعنة شيدوا أهرامات حَجرية عظيمة ومعابد راقية، وامتلكوا نصوصاً حرفية حية بالهيروغليفية الساحرة. إن هذا التقسيم العريض بين الحكام والمحكومين ثابر خلال الفترات النَّبتية والفترات المروية الباكرة، ما كان حتى حوالى حكم أماني شختي بأواخر القرن الأول قبل الميلاد - بواكير القرن الأول الميلادى) أن الفرد يملك دليلاً وافراً لأول مرة على ظهور طبقة قوية من النبلاء بالمحافظات (١٥٥).

مهما كان من مآل، يجوز أنه كانت هناك تقسيمات هامة في فئة "المَحكومين". فإذا كانت بقايا المدينة غير المنَقبة في كُوة، وصنَّم، ومروى يرجع تاريخها بحق إلى الأعوام الأولى للملكية الكوشية، عندئذ يتحتم علينا أن نفسح المجال في مكانٍ ما من صورتنا لطبقة حضرية ذات إعتبار من الصناع وصغار التجار؛ لمجتمع من ثلاث طبقات. وفي الحقيقة، سوف لا نقدر أبداً على الإلمام بمدى أكبر بالدور الذى لعبته الطبقة الوسطى مالم تُنَقب بالفعل مواقع المدن ؛ يمكننا فقط في هذه الأثناء أن نرجع إلى الأخذ ببَيِّنة المدافن الغامضة نوعاً ما.

فى الوقت الحاضر، تمنحنا القبور الكائنة في صنَّم أصفي صورةٍ نمتلكها عن المجتمع النوبى في الفترة النَّبتية. إنها تُشير بلا جدالٍ إلى تعايش عناصر متمصرة وأخرى غير متمصرة ضمن السكان الأصليين. هذه هى نفس الحالة التى أبصرناها في النوبة السفلى في ظل الدولة الجديدة (الفصل التاسع) ، بيد أن هنالك فرقاً هاماً. فخلال الفترة الإستعمارية كان هؤلاء النوبيون - الذين لم يستكينوا للأساليب المصرية لا يزالون محافظين على وجود قبلى مستقل بطريقة أو أخرى في أراضيهم ومواردهم الخاصة - وهو موقف يُقارن بموقف جماعات عديدة من الهنود الأمريكيين في مطالع القرن العشرين. إن القبور "البدائية" في صنَّمْ لا تقترح نفس الدرجة من الإستقلال الإجتماعى والثقافى بالنسبة للجماعة الغالبة. فالفرق لم يعد فرقاً بين أناس قبليين وأخرين مستقرين؛ وإذا عكس أى تقسيم إجتماعى على العموم فهو ما بين *فلاحين* محافظين وطبقةٍ وسطى متحضرة ومتقدمة. (لا نستطيع، برغم ذلك، أن نستبعد إمكانية أنه فرق ينطبق فقط على طقوس الدفن المنسوبة إلى الجنسين). ومن سوء الطالع أن جريفيث لم ينشر سجِلاً كاملاً للقبور في صنم مما كان سيتيح لنا حساب الأعداد النسبية للجماعتين.

إن أى نسبة مئوية للطبقة الوسطى النَّبتية تكونت من المصريين سؤال آخر من الأسئلة التى لم يجد كُلاً من التاريخ أو الآثار إجابةً مرضية لها. لقد سيطر الشماليون سيطرةً سادت إدارة الدولة وأنواع التجارة تحت النظام الإستعماري، بالرغم من أن النوبيين المتعلمين كان بوسعهم أن يجدوا مكاناً بينهم، كما رأينا في الفصل التاسع. إن أعدادهم ونفوذهم لابد أنها ظلت باقية في قوةٍ وعزم فترة ما بعد الإستعمار مباشرة، مثل حالة الفنيين والمدرسين الأوروبيين في الأقطار الإفريقية الحديثة. رغم ذلك ما نفك موقف موظفى الدولة ورجال الأعمال الصغار قائماً، ولابد أنه كان مُقلقلاً عندما سُحبت الحاميات، وتخلى عدد كبير من المصريين عن النوبة فيما هو محتمل وقفلوا عائدين للوطن.

أثناء العهود النَّبتية، لا تخطئ العين اليد المصرية في الرسم والتنفيذ للصروح المَلكية الأولى ، والتى يكاد يُقطع أن نوبياً لم يكن يملك في ذلك الوقت الخبرة الضرورية لإنجازها. كذلك يُحتمل *الإفتراض* ، بالنظر إلى الصلة المتبادلة الوثيقة بين جَبَلَى البركل والكرنك، أن بعض كهنة آمون كانوا مصريين، على الأقل حتى سقوط النظام النوبى في مصر. أما عن البقية، فربما انتقلت الإدارة الدنيا

وأنواع التجارة حتى ذلك الوقت إلى أيدرنوبية، مع أن لمستهم غير واضحة في المنتجات التى عُثر عليها في القبور الملكية الأولى .

ربما يُتوقع أن المقابر النَّبتية تُعطى دالةً على التكوين العِرقى للطبقة الوسطى. ومثلما في النوبة السُفلى تحت الدولة الجديدة، مع هذا، يثور السؤال : هل القبور "المصرية" في مروى وصَنَّم حقيقة قبورٌ لمصريين، أم أنها لنوبيين متمصرين؟ كما رأينا، فسر رايزنر الشواهد القائمة في مروى بطريقة مُعَيّنة، وفسرها جريفيث في صَنَّم بطريقة أخرى.

صورة رايزنر عن المجتمع النَّبتى، كما تَبَّدت في عدد من دراساته [١٥٦]، صورة لمجتمع إستعمارى ضالع بالضرورة؛ أى مجتمعٌ ذو شرائح عرقية يحتوى بروليتاريا وطنية وطبقة وسطى مصرية. التغيير الوحيد منذ *"الإستقلال"* يبدو أنه كان في عضوية الطبقة العليا، التى حلّت فيها أُرستقراطية من الأهالى عوضاً عن جماعة *راج* المصرية. في الماضى القريب تنامت مجتمعات ذات شرائح عرقية من ذلك النوع في بعض الأحيان عندما دُفع بمستعمرةٍ مُتَّخلفة على وجه الخصوص إلى الإستقلال السياسى، أو حينما اضطلعت ملكية قديمة لكنها مُتّخلفة بمشروع مخطط لتحديث "ساحق". في كل حالة السكان الوطنيون غير قادرين على توفير الفنيين وموظفى الدولة الذين يكونون الطبقة الوسطى، ويصبح من الضرورى تجنيدهم كلية من الخارج . ربما كانت تلك هى الحالة في النوبة القديمة، لكنها ليست مماثلة تماماً لمجتمعات ما بعد الاستعمار.

تحليل جريفيث لقبور صَنَّم يتضمن وجود *فلاحين* نوبيين وطبقة وسطى مكونةً من النوبيين والمصريين معاً ـ ولم يبذل جريفيث جهداً للتفريق بين الإثنين على أُسس عرقية [١٥٧]. وطبقاً لهذه الصورة جرى جزئياً تحويل المجتمعات ذات الشرائح العرقية في العهود الإستعمارية إلى مجتمعات ذات شرائح طبقية عبر الإدخال المتواصل للنوبيين إلى الطبقة الوسطى، وتوليهم رموز المكانة الخاصة بالطبقة الوسطى. إن حالة مشابهةً تسود معظم مجتمعات ما بعد الإستعمار اليوم، وهى *بداهة*، وصف أقوى إحتمالاً للنوبة القديمة مما وصف رايزنر. ويستحيل القول بالمزيد، في الوقت الراهن.

يمكن الحصول على نظرة أفضل إلى تركيب المجتمع إذ علمنا المزيد عن إقتصاد النوبة في العهود النَّبتية. مرة ثانية، يُعيقنا الإفتقاد إلى النصوص الحَرفية الحية وشُح البقايا الأثرية بنفس القدر. لقد كتب دنهام أن :

> الأساس الإقتصادى للقوة يكمن في التحكم على التجارة على طول الطريق النهرى إلى مصر، وحركة الذهب من المناجم في الصحراء الشرقية، وتجارة الأبقار، والجلود، والرقيق، وريش النعام، والأبنوس، والمنتجات الوفيرة الأخرى من الجنوب التى تستجلبها مصر من السودان. وفى المقاطعة النَّبتية نفسها مع كفاية الزراعة للحاجات المحلية، يصعب تصور أنها كانت قاعدةً لتجارة تصدير ممتد ومربحة، ذلك إن المنطقة تقع شمال حزام المطر، وكانت الأرض التى تُفلح بالرى من النيل محدودة [١٥٨].

هذه فرضية محتملة بالنظر إلى تأريخ كوش الأسبق والمتأخر، بيد أن وجود تجارة أجنبية رائجة يظل باقياً حتى الآن دون دعم من البقايا النَّصية الضئيلة الواردة من مصر الأُسَّرات في مرحلتها المتأخرة، ولو بدا أن هيرودوتس أودعها ضمناً [١٥٩].

بطريقة غير مباشرة، ربما أمكننا استقراء شئ حول النَماء الإقتصادى من طبيعة المدن النَّبتية وتوزيعها. إن مجتمعات في حجم كاوة وصَنَّم (إلىً الحد الذى يسمح لنا بالحكم عليها من بقاياها التى لم يُنَّقب عنها بعد) يصعب أن تكون مدعومةً من قبل أى عمل آخر خلاف التجارة؛ لم تكن ـ فيما هو مؤكد ـ مراكز صناعية بأى احتمال. فضلاً عن ذلك، يشير غياب أى مستوطنات هامة بين هذين المكانين إلي الإستخدام المتواصل لدرب المهيلة، بدلاً عن وادي النيل، سكةً عمادية بين الشلالين

الثالث والرابع (قارن الشكل رقم ٣٧). كما ألمحنا في الفصل التاسع، فائدة الدرب الصحراوي، إضافةً إلى مباشرته، تكمن في تفاديه للرياح المعارضة في المنحنى المعكوس للنيل بين نَبتة والدبة. فإذا كانت المدن الواقعة على كل من طرفي درب المهيلة قد أصبحت هي المراكز الحضرية الرئيسة للفترة النَّبتية، وإذا لم تكن مستوطنات هامة قد نمت بينها، فإنه لإستقراءٌ منطقي أن يقال أن التجارة علي طول السكة البرية لعبت دوراً هاماً في تنميتها كما سنلاحظ في الفصل القادم، كان الإمتداد المنبسط للتجارة البرية عاملاً ذا أهمية أعظم شأناً في تطور مروى وغيرها من مدن وسط السودان.

التحكم النوبي على الأقل في بعض مناجم الذهب الصحراوية مُثبَت بكميات الذهب التي عُثر عليها في العديد من الجّبانات الملكية؛ يصعب التصور أنها جاءت من أي مصدر آخر. مرة أخرى يصير الإثبات إستقرائياً تماماً، حيث إنه لا توجد نقوش كتابية للفترة الكوشية في المناجم. فلئن بقيت في قبضة النوبيين، مع هذا، فهو يمثل وحده توضيحاً مُغنياً لثروة الملكية الكوشية. بذا فإن التجارة الدولية المزدهرة كما استبصرها دنهام (١٦٠)، لا يمكن إستقراؤها ببساطة من كثرة وأُبهة الصروح الملكية؛ بل يتحتم أن تبرز بصورة أمضى مباشرة من خلال عملية تنقيب مواقع المدن النَّبتية .

وبينما تظهر الثروة الدنيوية للحكام النوبيين بارزةً في وضوح، لا تبدو ثروة كهنة آمون الذين شاركوهم السلطة في نفس المستوى . تركز الثروة يوحي بأن "الأشياء نفسها التي كانت مِلكاً لقيصر" كانت تُعد بشكل شبه مطلق خالصةً لقيصر، وأن أياً ما كانت المعابد تتمتع به من أُبهة، فقد كان إلي حدٍ كبير جارياً من خلال الإغداق الملكي (١٦١). وبعد تهارقا كانت الترميمات والإضافات التي تُجرى عليها قليلةً ومتباعدة الحُدوث. إن السلطة الذاتية التي مارسها الكهنة في مقابل النظام الملكي تجعل من الممكن إعتبار أن الكهنة كانت لهم مصادر دخلهم الخاصة، إلا أنه ما إذا كانت تلك المصادر مجلوبةً من أملاك زراعية أو من التحكم على التجارة فأمر غير مؤكد. في صَنَم بدا أنهم كانوا يجنون دخلاً خارجياً من إنتاج *تماثيل النذور* وبيعها وتحنيط الموتى وهي أسبق إثبات لنا على وجود صناعة مُنظمة في النوبة .

ملخص تفسيري

ترك إنهيار إمبراطورية مصر الإستعمارية فراغاً في السلطة بكل من النوبة ومصر العليا في الكَرنك وجبل البركل. تولى كهنة آمون بعض الوظائف الحكومية، لكنهم مع الزمن وجدوا من الضروري أن يُحالفوا أنفسهم مع رجالٍ أقوياء محليين للدعم والحماية. في ضاحية جبل البركل وقع إختيارهم على - أو انه كان إنتزاعاً من - عائلةٍ نوبية لا نعلم شيئاً عن أصولها. من الدليل المأخوذ من قبورهم لا ينتمون إلى العنصر المتمصر من السكان، وربما جاز لنا أن نفترض أنهم كانوا شبهاً لقادة غير متعلمين لكنهم عسكريين متمكنين دائماً ما أنهضتهم عهود مضطربة إلى مكانة عالية. في جبل البركل أصبحوا الرعاة الأوصياء والحماة لطائفة آمون العظيمة، ومن هذا الحلف بين حكام وطنيين وكهنة مصريين أو متمصرين إنبعثت الملكية الكوشية والدولة شبه الثيوقراطية التي كان عليها أن تسود عصر أُسرات النوبة .

السلطة التي مارسها الحكام الكوشيون الأوائل ربما اشتُقت مباشرةً من استطاعتهم تجميع القوات النوبية وقيادتها فهي القوات التي اعتُمِد عليها كل من النوبة ومصر العليا زمناً طويلاً للحماية. لقد كان هذا العامل هو الذي أدى إلى قبولهم حكاماً مؤقتين من قبل كهنة آمون ليس جبل البركل وحده، إنما كذلك من ناحية الكَرنك. وبحلول الجيل السادس أو السابع من حكمهم، شملت ممتلكاتهم الواقعة تحت سيطرتهم مصر العليا والنوبة على حدٍ سواء .

حُماةً لمصر العليا، ما كان بوسع الملوك النوبيين تجنب التورط في منازعات الأُسَرات في القطر

الشمالي. في عهد بعنخي، أعظم حاكم نوبي، كانت طيبة مهددةً بغزو من الدلتا، وكان الملك مُلزماً بشن تجريدةٍ كبرى لإنقاذها. لقد حالف النجاح الساحق ذلك العمل وقاد، ربما بشكلٍ غير متوقع، إلى تسليم كل ملوك الأُسرات المتنافسة في مصر. أُعيد توحيد مصر والنوبة مؤقتاً تحت مُلك نوبي، وتقلد بعنخي ألقاب الفرعون الخالدة.

تقاعد بعنخي بما يحمل من شرفٍ ومجد إلى النوبة، بيد أن الطموحات التوسعية لوريثه أثارت عداوة آشور، القوة الناهضة غربي آسيا. لقد وُرط الفراعنة النوبيون المتأخرون في نزاع طويل مع أشور للسيطرة على مصر السفلى وفلسطين. كان ذلك بالضرورة حرباً من أجل السيطرة ما بين الدهاء النوبي والقوة الحربية الآشورية؛ في كل مرة يظهر فيها جيش أشوري يسلم له أمراء الدلتا، وفى كل حين ينسحب عن الدلتا، يكون النوبيون بطريقةٍ ما قادرين على إعادة سطوتهم عليها. وفى نهاية الأمر، مع ذلك، تغلبت القوة على المكر، وجئ بالنظام النوبي إلى نهايته بعد أقل من قرنٍ من الحكم في الشمال. مدة حكمهم القصيرة أسياداً على الأرضين أعطت للملوك النوبيين الخبُرة والطلعة كيفما كان الحال مما مكّنهم من الإحتفاظ بالسلطة في وطنهم لألف عامٍ أخرى. واصلوا، أولاً بَنبتة ثم بمروى الإحتفاظ بمرأى بِلاطٍ فرعوني، ولم يتخلوا عن ألقاب الفرعون أبداً.

تؤسس مملكة كوش نموذجاً مأثوراً لدولة الخلافة: شعب حظه أقل حضارة يتولى أردية إمبراطورية وأثقالها من أيدي أباطرته السابقين. على غرار ما جرى بأغلب الإمبراطوريات أقل حضارةً كان «العصر البطولي» مُخْتَصراً، على أن الدولة شبه الفرعونية بمحليتها المحدودة التي خَلّفته في النوبة العليا عاشت لألف عام. إن تركيبها العرقي غير مصري، وربما داوم علي ذلك في تزايدٍ مع تعاقب القرون، لكن مذهبيتها وتطلعاتها الثقافية لم تنحرف بدرجة هامة أبداً عما كان في القطر الشمالي. سياسياً وأيدولوجياً، فظل الميزان الذي أقيم بين الرجال النوبيين الأقوياء والكهنة المصريين في الفترة المباشرة لما بعد الإستعمار، فاعلاً حتى انتهاء المملكة.

في القرون الأولى لكوش، كان كل من مراكز القوة الدنيوية والروحية في مقاطعة نَبتة، بالقرب من الشلال الرابع. إننا لا نملك صورةً واضحة عن الأحوال الإجتماعية والإقتصادية في هذا الوقت، لكن البَينة الآثارية والنَصية لا تشير إلى مجتمع حضرى معقدٍ أو إلى تبادل سلعى رائج. ويبدو أننا نشاهد - على الأرجح - دولةً بدائية زراعية إلى حدٍ كبير، وذات طبقة وسطى صغيرة، إشتَّق حكامها ثروتهم المتضاعفة من احتكار إنتاج الذهب أساساً. إنها هي هذه الحالة عينها تلك التي وضعت في الأساس المرحلة النَبتية السابقة من الحضارة الكوشية جانباً عن الطور المروى المتأخر، الذي يصير اعتباره في الفصل القادم.

الفصل الحادى عشر

مجرى الإمبراطورية الجنوبى
الحضارة المروية بأراضى السهل

اسم مروى، المدينة الغامضة عميقاً في إفريقيا، كان معلوماً للعالم من خلال عدد من المأثورات والأساطير التاريخية. إن هيرودوتس، معتمداً على معلومات قدمها مسافرون في مصر العليا، وصفها في القرن الخامس قبل الميلاد :

> بعد.... رحلته لأربعين يوماً بالبر يأخذ الواحد مركباً آخر وفى عشرين يوماً يصل مدينةً كبيرة إسمها مروى، يقال إنها عاصمة الأثيوبيين. يعبد السكان زيوس وديونوس وحدهما بين الآلهة، ويقدسونهما بتبجيلٍ عظيم. هنالك محراب وكهان لزيوس، يشنّون الحرب وفقاً لإعلاناتهم الرسمية، آخذين منهم كُلاً من المناسبة والموضوع لحَملاتهم المتنوعة ..... [١]

فى مكان آخر، يصف "طاولة الشمس" التى كانت محسوبة كموضوع رئيس لتجريدة قمبيز بحق النوبة (قارن الفصل العاشر) :

> يقال إن طاولة الشمس أرض مُعشَوشبة خضراء، تقع في أطراف المدينة، حيث يُحتفظ بتموين من اللحم المشوي من كل الأصناف؛ إنه واجب القضاة أن يَضَعو اللحم هنالك في الليل، وكل من يرغب أثناء النهار يجوز له الحضور ليأكله. إن الأسطورة المحلية تقول إن اللحم يظهر تلقائياً وإنه هبّة من الأرض [٢].

ما فُتئت مروى مزدهرةً لأربعمائة عام من بعد هيرودوتس، حيث أنها ذُكرت من مؤلفين مختلفين في الفترة الرومانية، من أهمهم ديودوروس سايكولوس [٣]، وسترابو [٤]، وبلينوس[٥]. ما زار واحد منهم المدينة بشخصه، لكن الدقة المرموقة نسبياً في معلوماتهم - والذكر الدائم لمروي من مؤلفين معاصرين آخرين [٦] - شَهادة على التداخل المنتظم الذى كان موجوداً بين روما الإمبريالية وجارها في أقصى الجنوب [٧]. فإذا قدّرنا أيضاً التأثيرات المعهودة للثقافة المروية، والكميات غير العادية حقاً للسلع ذات الصنع الأجنبى التى توجد في المواقع الآثارية المروية، يمكننا أن نبدأ في تقدير الشخصية الخاصة التى تُميز العصر المروى. النوبة - كما لم تكن أبداً من قبل وكما ندر أن صارت من بعد - كانت جزءاً من "العالم القديم المعروف" [٨].

أما تعابير صرح الحضارة المروية - المعابد، والمدافن الصخرية، والرسوم الحائطية العظيمة - فهى مماثلة بالفعل للعهود النَّبتية. إلا أن القاعدة الإجتماعية والإقتصادية الكامنة وراء ذلك تبدو مختلفةً إختلافاً هاماً. إن الحضارة المروية لم تعد الحد الأقصى البسيط بصورةٍ مباشرة للحضارة النَّبتية بأكثر مما تُعَد مصر البطلمية تتويجاً للعصور الفرعونية. فكلٌ منهما يمثل نهضةً ثقافية كبرى بعد قرون من الجمود والإضمحلال. القوة الناهضة في كل حالةٍ واحدة : الإتصال والإنصهار الجزئى داخل العالم المعروف. مصر الفرعونية وكوش النَّبتية كانتا حضارتين محدودتى النطاق؛ وكانت مصر البطلمية وكوش المروية تعبيرين إقليمين لحضارة عالمية [٩].

لربما بلغت النهضة المروية قمتها في القرن الأول الميلادى ردحاً طويلاً عقب تداعى نَبتة والنقلة الجنوبية لمراكز القوة والثروة الرئيسة في كوش. في القرنين التاليين عانت المملكة الجنوبية بدورها من تدهور سريع. القلاقل العظيمة وهجرات السكان التى أحاطت في نهاية المطاف بالإمبراطورية

الرومانية كانت قد بدأت في خلخلة الأوضاع بإفريقيا كذلك في آسيا، مصيبةً بذلك الدول المستضعفة على طول تخوم الإمبراطورية زمناً طويلاً من قبل أن يجتاحوا مركزها. ربما كانت مروى واحدةً من الضحايا الأولّ لتلك العملية. فالمدينة العظيمة يبدو انها كانت قد هُجرت هِجراناً مُبيناً بحلول القرن الرابع الميلادى، وأن إسمها سرّعان ما غمره النسيان. ما من ذكرى بقيت عنها في المأثور المحلى، فقدت المعرفة الدولية "مدينة الأثيوبيين" حتى جعلها إحياء التعليم القديم معروفةً مرة ثانية عبر صفحات هيرودوتس واسترابو. وحتى ذلك الوقت كان النظر مصروفاً عنها باعتبارها أُكذوبة؛ ما انفك الأمر كذلك إلى نهاية القرن الثامن عشر حيث اكتسبت الأسطورة بُرهاناً ما. لقد صادف المكتشف المقتحم جيمس بروس في ١٧٧٢ "ركامات من قواعد البنايات والمسلات" على مقربة من قرية البجراوية الحديثة ، وكتب في مجلته إنه "من المستحيل أن تُتفادى المخاطرة بتخمين أن هذه هى مدينة مروى القديمة" (١٠). إن الإكتشاف اللاحق لبقايا نُبتة - بينما أنه مَحّص وراء التساؤل وجود حضارةٍ نوبية قديمة - ترك بعض الشك فيما يتعلق بأى من مركزيها الرئيسين كانت "العاصمة" معلومةً لهيرودوتس. لم يُسوى الأمر نهائياً إلا في ١٩١٠، عندما وقعت حفريات قامت بها بعثة جامعة ليفربول على إسم مروى في نُقوشٍ عديدة في المدينة الجنوبية (١١).

منذ اكتشافها الأصلى من بروس، إمتلكت "مدينة الأثيوبيين" تاريخاً أثرياً متعدد الظلال. في حقيقة الثلاثينيات بدءاً بعام ١٨٣٠ تفّحص الأهرامات الملكية "بمخاطرته الذاتية" طبيب غير مختص بالآثار يدعى فرلينى فحصاً متمّعناً ومنظماً حتى إنه أطاح بالعديد من قممها (١٢). تحقيق العارفين كان لابد أن ينتظر ما يقارب مضى قرن بعد ذلك، فحتى آنذاك كانت بداياته غير مرعية. أما حفريات بدج في ١٩٠٣ فلم تكن أفضل علمياً من حفريات فرلينى إلا بجهد جهيد (١٣). في حين أن حملة السنوات الخمس لجامعة ليفربول (١٩١٠ - ١٩١٤)، التى أدارها جون قراستنق، لم تُخرج إلا القليل للأجيال القادمة ، فيما عدا سلسلةٍ من تقارير دورية مختصرة ظهرت في نهاية كل موسم (١٤). لم تُصدَّر على الإطلاق أى تقارير محددة، ومنذ ذلك الوقت باتت مذكرات العمل الميدانى الأصلى وما جمع أثناءه مبعثرةً ولا يمكن الوصول إليها بسهولة. كما لاحظ شينى تفضلاً منه نوعاً ما "أن الحفريات أجريت بطريقة الجملة المتّبعة تقليدياً في تلك الأيام بوادى النيل، وإنه ليصعب أن يستخرج من تقارير الحفر السنوية وصف سليم لتلك الأجزاء التى نُقّبت في الموقع" (١٥). أما حفريات الإختبار التى تكاد أن تكون محدودة مما قام به شينى نفسه بين ١٩٦٥ و ١٩٧١ (١٦) فتظل حتى الآن التحقيقات العلمية الوحيدة التى أُجريت بسلامةٍ على الإطلاق في هذه المواقع ذات الأهمية البالغة للمدن النوبية. نُقِّبت كذلك جبّانات مروى العادية في جزء كبير منها بعثة ليفربول، ولم يُبلغ عنها إلا نَزراً يسيراً. الجّبانات الثلاث التى تُدعى مَلكية حالفها توفيق أفضل إلى حدّ ما، عقب نهبها الأولى من فرلينى، حيث أنها تحفظت عليها تحفظاً محيطاً جماعة ليفربول. ثم نُقّبت كلها بالإتقان المعهود بواسطة بعثة هارفارد - بوسطن في العشرينات (١٩٢٠)، ونُشرت النتائج من قبل فترةٍ وجيزة في سلسلة من المجلدات التذكارية التى أصدرها دوس دنهام، الذى كرس نصف عمره لنشر عمل رايزنر غير المكتمل (١٧).

من حسن طالع عالم الآثار أن العصر المروى كان عصراً حضرياً، خَلّف لنا بقايا مدن كثيرة إلى جانب بقايا عاصمته. في الجنوب، صارت مدينة مصورات الصّفراء الهامة مسرحاً لتحقيقات راهنة قامت بها بعثة المانية لسنوات عديدة (١٨). وفى الشمال، أصاب البقايا المروية المتوفرة في النوبة السفلى وبطن الحجر (على خلاف مخلفات الفترة النبتية)، نفس الإهتمام الممنهج مثلما وقع بالنسبة لمواقع اثارية أخرى في منطقة خزانات اسوان. لقد نُقبت قرىً مروية عديدة وجبّانات لا حصر لها جملة أو جزئياً (١٩). الشكر يُسدى لهذه الحقيقة وللغنى المودع في البقايا الأثرية على حد سواء، فإن ثقافة العهود المروية معروفة على وجه أحسن وبدرجةٍ أرقى من أى ثقافةٍ أخرى لأى فترة سابقة في التاريخ النوبى.

مع هذا، يظل السجل الوثائقي للعهود المروية مُفتقراً للإنتظام كما كان حاله سابقاً. مصادرنا الخارجية لم تَعُدْ المصريين المتعالين في زهو، إنما الإغريق والرومان المتقَّصيين وأحياناً المعجبين. لقد أثنُوا قدراً عظيماً من الوصف الموضوعي الذى لم يتنازل المصريون أبداً عن أنِفَتهم فيتولوا تدوينه، على أن ما اكتسبوه موضوعيةً فقدوه أصالةً، ذلك أن أحداً من الكتاب القدماء لم يشاهد النوبة على الإطلاق مشاهدة مباشرة .

ما كان الكتاب القدامي دائماً نُقاداً كما كان ينبغى عليهم وإنّ غلبةً مما سَجّلوه كان سماعياً. إنهم في نقاط عديدة غير متوافقين وإنه لهام وذو معنى أن نجد واحداً منهم - ديودورس سايكولوس - ناصحاً للقارئ بالا يثق في عروضهم عن أثيوبيا ثقةً مطلقة لان معظمها يبدو له إما ساذجاً سريع التصديق للغاية، أو خلاف ذلك ترويجاً لقصص خيالية إختُرعت للتسلية [٢٠].

كذلك يوجد "سجل داخلي" للفترة المروية، حيث أنه لبعض من الوقت في القرن الثاني قبل الميلاد بدأ النوبيون لأول مرة في التاريخ، يكتبون لغتهم الخاصة. لقد استعاروا لنقوشهم الأسبق الحروف الهيروغليفية المصرية في العهود السالفة، على أن هذه سَرعان ما تم تبسيطها وإدماجها في كتابة منسابة الحروف، خالصة الهجاء من ثلاثة وعشرين حرفاً (الشكل رقم ٤٤) [٢١]. إن الترميز اللُغوى الصوتي لأغلب الحروف معروف [٢٢]، بيد أن اللغة المُعَبر عنها في هذه الهجائية التى طال نسيانها تُواصل تحَيِيرها للعلماء، رغم خمسين عاماً من الدراسة المكثفة. ويجوز إنتماؤها، كما تنتمى اللغة النوبية الحديثة، إلى العائلة السودانية العامة من اللغات الإفريقية، لكنها لا تُظهر أى قرابةٍ لأى نوع معلوم من الحديث في عصرنا الحالى [٢٣]. هكذا، كما يلاحظ شيني :

اللغة المروية، مع اللغة الأتورية، تملك ميزة أنها واحدة من اللغتين القديمتين اللتين يمكن للترميز اللُغوى الصوتي لعلاماتهما أن يُقرأ بتاكيدٍ معقول، لكن معانى هذه الكلمات لا يمكن أن تفهم. إن هذا حاجز عظيم دون الإدراك الكامل للتاريخ والثقافة المروية، وحتى يحين الوقت الذى تُقرأ فيه هذه اللغة بنجاح وتُترجم النقوش، سيظل الكثير من قصة مروى غير معروف [٢٤].

إذا كانت صورتنا، ساعتئذ عن العهود النَّبتية طويلة عن التاريخ قصيرة حول الوصف الثقافى، فإن صورتنا عن العهود المروية يجب أن تكون فيما هو أرجح عكس ذلك.

أصـــــول مـــــروى

المدينة العظيمة التى أعطت إسمها بحق للعصر المروى تبدو من السطح أكبر مجتمع للنوبة القديمة. إنها تقع على مسطبة متموجة من الحَصباء والطمى تُشرف مباشرةً على الضفة الشرقية للنيل وجرفه من السهل الفَيضى، وهو ضيق للغاية في هذا المكان. تواجه الخرائب عين الناظرين في شكل كُثبان لا حصر لها من تراب يتناثر فوقه بكثافةٍ طوب مكسر وحجارة بنايات منهارة، وعلى حد سواء أكوام ضخمة من جُفاء الحديد. لا يُتاح إلا هنا أو هناك فحسب إدراك معنى المبانى التي تم تنقيبها في مطلع هذا القرن؛ فكلها في حالة موغلة من الخراب. أما موقع المدينة فهو مبرقع بأشجار السنط، لأنه يقع بين حزام سقوط الأمطار. إلى الشرق من المدينة ينهض تدريجياً مسطحٌ عال من الحَصى عارياً من التآكل صوب صَفٍ من تلال الصحراء المنخفضة ذات القمم المسطحة لميلين أو ثلاثة أميال. هنا ، في سفح هذه الجبال، تقع أهرامات مروى الشهيرة؛ وبينها وبين المدينة جَبانات «غير ملكية»، وبضع بنايات إضافية، بعضها نُقبّ والآخر لم يُنقب بعد (قارن بالشكل رقم ٤٥). وعلى مسافة قصيرة جنوب الأطلال حوض عريض جاف لوادى نُهير لا يمكث إلا أياماً معدودات يحمل عطاءً عميماً من المياه المتسربة موسمياً من سهل البُطانة العظيم .

وموقع مروى بلغ عنه ديودورس والعديد من معاصريه أنه كان جزيرة [٢٥]، وقد عاش إسم "جزيرة مروى" إلى عهود حديثة. لقد كان واستمر على ذلك مصدراً لزيغ الفهم، لأن المدينة تقف عالية

في جفاف على الضفة الشرقية من النيل، ولا تقف على جزيرة تحتل أواسطها. إن "الجزيرة" المشار إليها هي سَهل البطانة، مساحة تزيد على ١٢٠ ميلاً في عرضها وتقع بين النيل ورافده الشرقي ، نهر عطبرة (الشكل رقم ٤٦) [٢٦]. (في إستعارة مشابهة الطراز، يطبق السودانيون الحديثون الكلمة العربية لمعنى جزيرة على أرض محددة بعينها شاسعة تقع بين النيلين الأزرق والأبيض منبسطةً من ملتقاهما في الخرطوم).

ما مدينة مروى سوى واحدة من مستوطنات مروية هامة تتعدد في المنطقة ما بين الشلال الخامس والسادس. تبدو، مع هذا، بمستوىً جدير بالإعتبار أقدم واحدة في المجموعة، وهي افتراضياً "أم المستعمرات" التى انتشر منها المستوطنون الكوشيون مؤخراً شرقاً وجنوبياً. وإلى الآن ، تعد مروى المستوطنة النوبية الوحيدة في إتجاه منبع النهر من نَبتة نفسها التي يمكن إرجاع تاريخها إلي العهود النَّبتية (قارن الفصل العاشر) . يترامى بين المدينتين ٣٠٠ ميل من وادى النيل تستودع بقايا قليلة هامة من الفترة المروية أو أي فترة أخرى. إنه لسؤال مثير لما كان لزاماً علي حضارةٍ تتقدمُ أن تقفز في مثل هذه اللحظة مساحةً فاصلة بمثل هذا الإتساع مُتخطيةً تغلغلها المحدود سابقاً في الشلال الرابع لتنشئ كيانها بعيداً جنوبى النهر.

كتب عديدون على المزايا البيئية " لجزيرة مروى " . مثالاً على ذلك ، كتب دنهام .

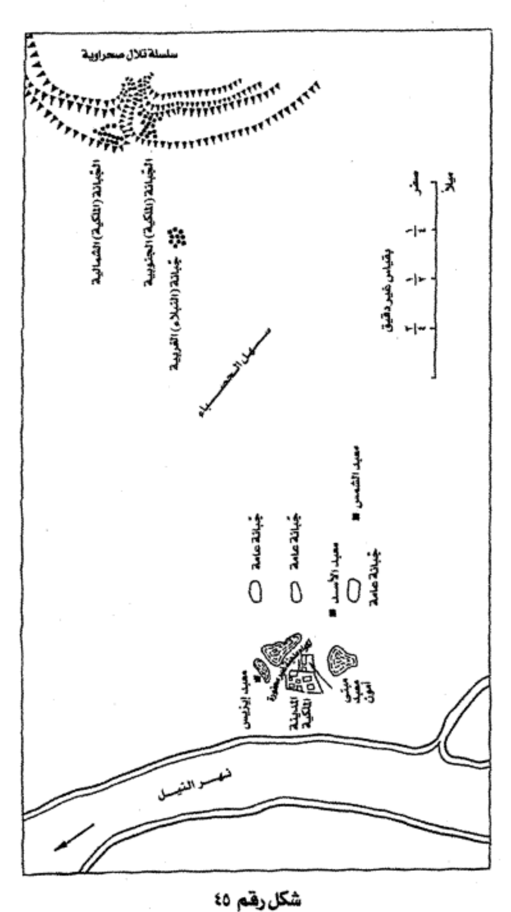
تقع مروى بعيداً في الجنوب، في دائرة منطقة الأمطار الصيفية. وبينما تحتل مكاناً أقل إنتفاعاً من نَبتة بالنسبة للتحكم على التجارة مع مصر، فقد كانت مُفَضلة للغاية لتربية الأبقار وكانت أقرب لمصادر الثروة في السودان والشرق الأوسط وجنوبه. بَيد أن الأغلب أهميةً من هذه العوامل صناعة صهر الحديد الرائجة، التي لا تزال أكوام جُفاء الحديد الضخمة بضاحية مروى المباشرة توفر لها الدليل [٢٧].

نَبتة ومروى ـ المقاطعتان الشمالية والجنوبية اللتين ازدهرت بهما أصلاً الحضارة الكوشية ـ مفصولتان في الحقيقة بما لا يزيد عن درجة ونصفها من خط العرض (الشكلين رقم ٤٦ ، ٤٧)، ويتبادلان فارقاً مناخياً خفيفاً. ومما يصدق قوله كذلك أن سهل النيل الفيضي الوافر للفلاحة في نَبتة يساوى، على الأقل، صنوه في مروي مساحة. فلئن تمتعت الضاحية الجنوبية بأى ميزةٍ بيئية، فإنها لم تكتسبها من تزايد الأمطار المحلية أو موارد التُربة بمثلما يتوافر عليها من سهل البُطانة، أرض الداخل المَرَوي، وممكن العبور لجملةٍ من مجاري المياة التي تمتد عيونها عميقاً في غور الحزام المطري علي مسافةٍ مُعتبرة جنوباً، حاملةً من ثَم في كل موسم غمرها الدافق. بين هذه *الوديان* في الفصل الذى يعقب الأمطار مباشرة، يمكن أن تزرع محاصيل قابلة للحصاد من الذرة وهى اليوم تزرع من طرف أقوام شبه بدوية ترعى قطاعاناً كبيرةً من الأبقار على أرض البُطانة المعشوشبة. يُخبرنا سترابو أن مثل هؤلاء القوم ألفّو نسبةً عالية من رعايا مروى القديمة [٢٨]، ويمكننا أن نرقب أن المدن المروية الخَربة تترامي فوق الجزء الغربي من سهل البُطانة، علي مسافات يصل مَداها ستين ميلاً من ضفاف النيل [٢٩]، لذا، يجادل علي [٣٠] وشيني [٣١] بأنّ أساس الإستقرار والرخاء المروى في المنطقة الجنوبية لا يرجع لإستغلال وادى النيل وإنما يرجع لأرض البطانة بالداخل، في نظام إقتصادى مختلط قائم على الرعي بمقدار قيامه على الزراعة (قارن الصورة ١٣ – أ) .

بوتيرةٍ غير عادية، ذُكرت أكوامُ الجُفاء الظاهرة في مروى دواماً، ودعت عالم اللغويات المقارنة العظيم أ. ه . سيسى لأن يصف المكان بأنه " بيرمنجهام إفريقيا القديمة" [٣٢] . من غير تنقيب، مع هذا مستحيل أن يُقدر حجم صناعة الحديد المروية وأهميتها، أو أن يؤرخ أصلها. فلعل كميات هائلة من الجُفاء تراكمت من إنتاج كمية قليلة نسبياً من المعدن المستعمل، ولعلها أيضاً تراكمت علي مدي فترةٍ طويلة من الزمن [٣٣] . من الضرورى أن نشير كذلك إلى أن وضعية مروى لا تتمتع بأى مزية خاصة بالنسبة لصناعة الصَهْر، فأنواع الخام الأقل جودةً موجودة في أرجاء المناطق الرملية الحَجرية في السودان الشمالى، والحطب الضرورى للصهر لا يمكن إحضاره إلا من أشجار السُنط

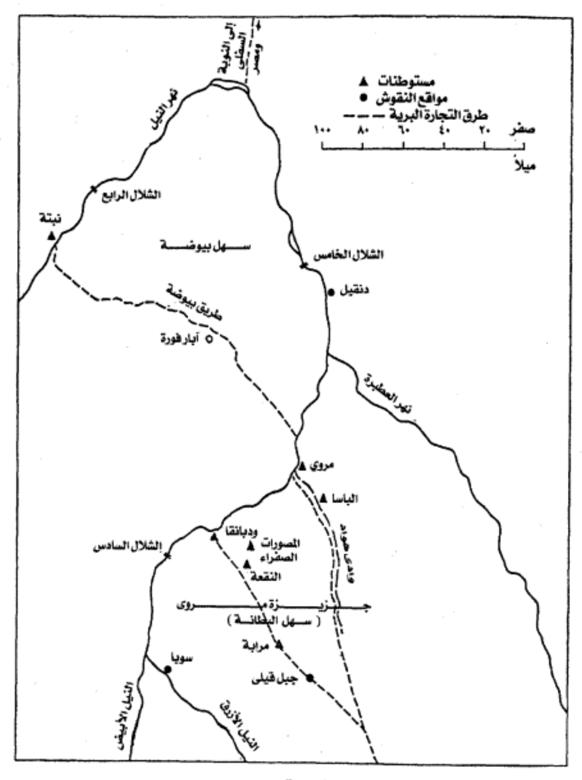
شكل رقم ٤٤

مثال للكتابة المروية : "اللوح العظيم" لأماني رناس وأكينيداد من مروي «المدينة الملكية»



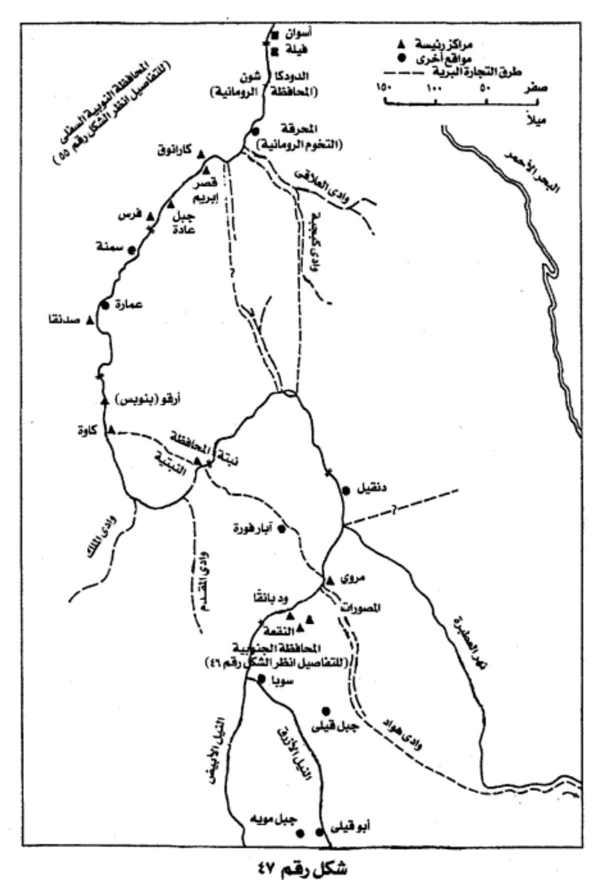
شكل رقم ٤٥

مسودة خريطة لمروي وضاحيتها



شكل رقم ٤٦

مواقع مَروية رئيسة فى أراضي السهل



شكل رقم ٤٧

الإمبراطورية المروية فى القرن الثالث الميلادى

المنتشرة في كل مكان علي طول النيل [٣٤]. إن الصناعة كان بوسعها أن تنمو لهذه الأسباب في أى مركز سكانى موجود، والأقوى إحتمالاً أنها قامت تابعة أرجح من كونها قائدة لنمو مروى كأكبر مدينة في كوش.

دون أن نصرف النظر كلية عن المزايا البيئية للمنطقة الجنوبية ، يبدو قيام مروى أفضل تعليلاً بحساب الجغرافيا الإنسانية أكثر من تعليله بالجغرافيا الطبيعية. مثل كل مدن العالم بالتقرب ، يُحتمل أنها دانت بوجودها لموارد طبيعية منها للتجارة . لقد ذكرنا سابقاً (فى الفصل العاشر) أن نَبتة وكاوة ربما حققا بعض علائهما الخاص من على نهاية درب صحراء المهيلة، الذى يُجانب أرض دنقلا النهرية العليا ورياحها العكسية. إن مروى تمثل إمتداداً أبعد أهميةً وأعظم قيمة لهذه التجارة البرية. فالمدينة تقع على الطرف النهائى صوب حنوب النهر لطريق صحراوى عظيم يشق عابراً سهل بيوضة ، مُجانباً لكلٍ من الشلالين الخامس والرابع والرياح المعاكسة لأرض أبو حمد النهرية المعاكسة لأرض أبو حمد النهرية (الشكل رقم ٤٦) . يكاد يُجزم أن تطور هذا الطريق البرى هو الذي مكّن التبادل السلعى والحضارة ليجتازا حاجز الشلال الرابع الذى دام طويلاً ويبلغا وسط السودان .

مروى ، إذّن ، تدين بوجودها لطريق بيوضه. فالطريق الصحراوى أضحى شرياناً للحياة يصل المقاطعات الشمالية والجنوبية لكوش، ونبتة ومروى كانتا نقطتى بدايته ونهايته. حتى اكتمل إنشاؤها، أصبحت المدينة الجنوبية أيضاً نقطة الإنطلاق الرئيسة للتجارة البرية ليس مع نَبتة فحسب، لكن مع مصر مُماثلة في مبلغ الحال . إضمحلت نبتة وكاوة رويداً رويداً إلى مستوى مركزين وسيطين للتجارة والشحن.

حتى إن لم يكن بحوزتنا دليل مباشر على وجود طريق بيوضه، بإمكاننا أن نَستقرىء ذلك مما يشبه الغياب الكامل للبقايا المروية على طول النيل بين مروى ونَبتة. لدينا إضافةً لذلك، مع كل هذا لوحة نستاسن، واصفاً تقدمه عبر الصحراء عندما جاء من مروى إلى نَبتة ليتوج (قارن الفصل العاشر) . في آبار فورة منتصف الطريق عبر صحراء بيوضة، خرائب لقلعة من الحَجر نُسبت إلى الفترة المروية [٣٥]، مع أن أصلها يبقى بعيداً عن الإستيقان [٣٦] .

وراء مروى، إمتد عدد من طرق التجارة بعيداً إلى داخل أحشاء إفريقيا. من هذه النقطة في إتجاه الجنوب كان النيل صالحاً للملاحة النيلية دون اعتراض فِعلى إلى آبعد ما يبلغ من السودان، الشلال السادس في السبلوقة الذى لا يقدم سوى إعاقةً صغيرة للغاية . إن حضور موقع قرية مروية في أبو قيلى (الشكل رقم ٤٧) يُوحى بأن التبادل السلعى النيلى جاس بعيداً بأعلى النيل الأزرق ومن الممكن كذلك النيل الأبيض، من فوق ملتقاهما في الخرطوم الحديثة. جنوباً شَطرْ الشرق من مروى عبر سهل البطانة جرى طريق التجارة التاريخى إلى هضاب الحبشة – الطريق الذى استقلّه الجيش وربما دَمر أخيراً المدينة المروية (قارن الفصل الثالث عشر) . لا يزال متبقياً مع ذلك طريق آخر قاد شرقاً بإتخاذ درب ممر سنكات إلى ميناء البحر الأحمر القديم سواكن. لربما كان إلتقاء هذه الطرق التجارية التى مع مرور الزمن هو الذي أتي بمروى إلى مكان السيادة السياسية والإقتصادية في نطاق الإمبراطورية الكوشية، تماماً مثلما كان التقاء نفس الطرق في العصور الوسطى المتأخرة هو الذى آدى إلى نُهوض شندى ، خمسةً وعشرين ميلاً جنوب مروى ، باعتبارها المركز الوسيط ذى الشأن العظيم لتجارة القوافل في السودان [٣٧].

فإذا كانت مروى مدينةً بداياتها طريق بيوضة، فإن صُعودها النهائى – وأفول نَبتة – كان راجعاً بكل الإحتمال إلي تطور طريقٍ آخر ما انفك قائماً للتجارة البرية. كان هذا هو طريق كورسكو الشهير إلى مصر . تاركاً النهر في أبو حمد ومعيداً إلتقاءه به بعيداً صوب المصبّ شمالاً في النوبة السُفلى ، يُجانِب المنحنى العظيم للنيل برمته وعوائقه التى لا حَصر لها للملاحة (الشكل رقم ٤٧) . لقد كان الطريق قطعاً معروفاً بما يعود في الماضى لعهود الدولة الجديدة، ذلك انه كان في جزء وافر منه نفس

الطريق الذى أدى إلى حقول الذهب في وادى كبجبة [٣٨] إن "مَسْلَة الحدود" التى شيدها تحتمس الأول وتحتمس الثالث في كرقس ، بالقرب من نهاية الطريق الجنوبية، ربما تشهد بوجود طريق كورسكو أثناء الأسرة الثامنة عشرة في فترتها الباكرة (قارن الفصل التاسع) . الظاهر، مع ذلك، إنه لم يصبح طريق الصحراء صلةً رئيسة بين وسط السودان وعالم البحر الأبيض المتوسط حتى بزوغ العهود المروية.

التاريخ الباكر لتجارة القوافل عابرة الصحارى غامض . ورغم أن إدخال الجمل قد يسره تيسيراً عظيماً (ربما في القرن الأخير قبل الميلاد [٣٩] ، تعود بداياته بالتأكيد إلى ماضى قرون عديدة سلفت من قبل [٤٠] لقد وظف المصريون قوافل الحمير لإستجلاب البضائع من النوبة في عهود تعود إلى الدولة القديمة (الفصل السابع)، لكنهم كانوا في سويداء قلوبهم شعباً نهرياً يُحَبِذ أن يستعمل المراكب حيثما استطاع . كان التجار القرطاجيون يُحضرون الذهب والياقوت من جنوب ليبيا، يوظفون فيما يبدو الحمير، والثيران، والخيول للنقل على حد سواء [٤١] . في إفريقيا كما في إسيا، مع ذلك، يبدو أن سكان الصحراء الأصليين هم الذين قاموا بتطوير تجارة القوافل على نطاقٍ واسع، بذا تبدلو من بداوةٍ بسيطة إلى القيام بأعمال التجارة الرائجة. وفى الألفية الأخيرة قبل الميلاد كانت انشطتهم قد أعادت رسم الخريطة الإقتصادية والسياسية للشرق الأدنى بقدر متسع. إن "بحور" الصحراء الكبرى أصبحت قابلة للملاحة بشكل متزايدة، ترعرت مستعمرات جديدة، وحضارات جديدة، وأخيراً إمبراطوريات على طول "سواحلها". جنوب شبه الجزيرة العربية ، ومروى في السودان، وقرطاجة في شمال إفريقيا من أوائل المستفيدين من تجارة القوافل؛ وقد وجدت تعبيرها الأعلى لألف عام فيما بعد في إمبراطورية الإسلام وحضارته العُظميين.

مقدم القوافل أنهى تبعية العصور الشائخة للتبادل السلعى عبر الصحارى على النيل. وبينما بقى طريق النهر هاماً لقرونٍ اتية، لم يَعُدْ مُحتكراً للحركة بالنسبة لمنتجات إفريقيا المدارية. منذ تلك اللحظة يمكننا أن نتتبع التناقض في حظوظ النوبة الاقتصادية التى تواصلت حتي ولجت الأزمان الحديثة.

إن معرفتنا قليلةً بشأن التطورات الأولي لتجارة القوافل التي تمر عبر طريق كورسكو، ولكنه أصبح بوضوح الصلة الإقتصادية الرئيسة بين السودان ومصر بحلول القرن الأخير قبل الميلاد [٤٢] . إن تطوره كان امراً مباركاً لمروى ، لأنه قَصَّر المسافة إلى مصر باكثر من النصف إلى جانب تفاديه لأسوأ عوائق الملاحة في النيل الأوسط. وكبؤرةٍ لتجمع شبكةٍ من طرق التجارة البرية، إحتفظت المدينة الجنوبية بأهميتها مساحةً لإنطلاق القوافل. من الناحية الأخرى، أصبحت نَبتة وكاوة مدينتين الآن إلى مدى بعيد. الأهمية الإقتصادية التى احتفظا بها ربما كانت موصولةً بشكلٍ أساسى بتصدير البلح، الذى لا ينمو جيداً في حزام المطر في الجنوب النائى. إذَن : كان طريق كورسكو بكل الإحتمالات أكبر عامل يساهم بمفرده في سؤدد مروى وأفول نَبتة. نتيجةً لذلك ، بمقدورنا أن ننظر إلى المرحلة الأخيرة من الإمبراطورية الكوشية كنقطة تحولٍ هامة في التاريخ الإفريقى:

إنها في نفس الوقت الأخيرة في عقد الإمبراطوريات النيلية العظيمة والأولى من "إمبراطوريات السهول" التى انبعثت بمولد تجارة القوافل.

إختيار مروى إقامةً مُفضلةً للمتأخرة من ملوك النَّبتيين ربما يُنقل على أنه عامل إضافى آخر ساهم في قيام المدينة الجنوبية واضمحلال نَبتة . إن عدداً من الكتاب فسروا "إنتقال العاصمة" (قارن الفصل العاشر) كبَيِّنة على أن مروى كانت قد أزاحت آنفا نَبتة، مركز كوش الإقتصادى [٤٣]، ولكن هذا العامل ليس واقعاً للحالة بالضرورة. إنه ربما يصبح دليلاً في حالة واحدة وحسب وهى رغبة النظام الملكى في الهروب من نفوذ كهنة أمون المترسخ في جبل البركل. إن التاريخ مغمورٌ بحالاتٍ موازية، بادئةً بمحاولة إخناتون من قبل الف عام سابقةً للهروب من نوعية نفس الكهنة، بإزالة

البلاط الفرعوني من طيبة إلى تل العمارنة. ولنفس السبب كان البلاط الملكي للصين، وفارس، والإمبراطورية الإسلامية مُتَنَقِلاً لإشتهاره بتعدد التنقل، بل إن بعض القياصرة الجبابرة وجدوا من منطلق المنفعة العملية ضرورةً للإقامة بعيداً عن روما، كي ينعموا بالحرية من إملاءت السيناتو والحرس الإمبراطوري. إن الضاحيات التي حَبّذها هؤلاء الأباطرة كانت دائماً غير هامة قبل إختيارهم لها مكاناً للإقامة الملكية.

رأينا في الفصل العاشر أن "دستور" الدولة الكوشية أُقيم على أساس توازن حساس للقوة بين المَلكية والكهنوت، بكل ما به من إستعداد كامن للتنافس والتداخل . إننا نعلم مناسبتين على الأقل، في عهدى حكم أسبلطه و أركاماني عندما انفجر صراع القوة إلى نزاع مفتوح. هذا التوتر الدائم فيما بين الدولة ربما كان بحق العامل الذى أغرى في البداية ملوك النَبَتيينُ للإقامة عبر النهر جانباً عن المركز الديني الرئيس في جبل البركل (قارن الفصل العاشر)، ولأخذ أنفسهم مؤخراً جُملةً واحدةً من جواره بإنشاء إقامتهم الأساسية في مروى. كانت النتيجة نوعاً ما من التوافق الجغرافى بين المؤسسة الدينية والدولة، وقد دام ذلك خلال القرون عندما بقيت نَبتة "العاصمة" الدينية في حين كانت مروى "العاصمة" الدنيوية. ولأن التحكم في الثروة كان لدرجةٍ كبيرة في قبضة الملكية، مع هذا، لم يكن نقل البلاط الملكي أمراً نافعاً لمروى إلا على حساب نَبتة .

مع بقاء أطلال مروى غير منّقبة بعد في قسطها الأكبر فسوف لا يكون مثمراً إستدامة التخمين حول تاريخ وأسباب نهوض المدينة. مهما بقى حياً من تاريخها السالف يظل مدفوناً تحت زخم الركام الآيل من القرون الأخيرة ، ما رأى النور منه إلا النزر القليل. ومما عُثر عليه بالمصادفة في المدينة ومن الأدلة غير المباشرة لجّباناتها يمكننا أن نتاكد بدرجة معقولة من أن الإستيطان يرجع بها إلى زمن بعنخى [٤٤] إنها كانت محلاً ذا أهمية كافية لتستحق نقشاً ملكياً في عهد أسبلطه [٤٥] ، وإنها كانت المنتجع المفضل لبعض ملوك النَبتيين الأخيرين . لكننا، رغم ذلك ، لا نستطيع أن نتعرف على هويتها كمركز روحي لكوش حتى تُصبح كذلك مُجّمعاً للجّبانات الملكية. ولهذا السبب، فإن عهد اركامين، أول حاكم دُفن بمروى، أُختير في هذا المؤلف وَسمَةً لبداية العصر المروى .

ملـوك وصـروح

طبقاً لتقويم رايزنر التاريخي، حكمت أربعة أجيال من الملوك والملكات من مروي ودُفنوا بجّباناتها الملكية [٤٦] . إن إلمامنا بهم جميعاً عدا حفنة منهم يبدأ وينتهى بمدافنهم. أما تواريخهم، ومنجزاتهم، وفى حالات عديدة أسماءهم سواءً بسواء، فإنها غير معروفة لنا؛ بنفس القدر، لولا أهراماتهم لما كان بإستطاعتنا التاكد من أن كوش القديمة كانت دائماً مَلَكية عظيمة. من كل هذا يجب أن يكون واضحاً أن مشروع رايزنر التاريخي العظيم ليس في أغلبيته تسلسلاً زمنياً للأُسرات الحاكمة مثلما أنه دراسة تطويرية للمدافن الملكية، التي يُستقرأ منها وجود مُتتالية من الحكام. ومن المستحيل حتى اليوم أن يُناقش النظام الملكي المروى في أى محتوىً كان بخلاف صروحه الجنائزية.

وُضعت الجّبانات الملكية لمروى في الصحراء ميلين الى ثلاثة أميال شرق المدينة. وعلى غير حالة الصروح الكوشية الملكية الأخرى فإنها غير مرئية بشكلٍ ظاهر من ضفة النيل، ذلك أن الأهرامات تتداخل مع خلفيةٍ لجبالٍ صحراوية تعلوها وتبرز من خلفها مباشرة. وبمشاهدتها عن قرب، مع ذلك، يتخذ اكبر الأهرامات وافضلها حفظاً شكلاً يُرتّب له وضعاً مثيراً للإنطباع على طول القمة لسلسةٍ من مرتفع صحراوى صخرى ، يعلو من فوق سهل الحَصا المحيط به بما يقارب ال ١٠٠ قدم (الصورة ١٣ – ب). من قمة المرتفع، تُشَاهد اهرامات أخرى أصغر حجماً تتناثر بطريقة أقرب إلى الإنتظام على طول جانب المرتفع الشرقى. هذه المجموعة من المدافن تكون ما يدعى بجّبانة مروى

الشمالية. بالنظر صوب الجنوب عبر *وادٍ رملى* ، عريض، يمكن أن تُرى أهرامات الجّبانة الجنوبية أشد خراباً بمستوىً بالغ على قمة سلسلة أخرى من المرتفع الحجرى، حوالى ٢٥٠ ياردة بعداً . أما الجّبانة الغربية، التى لا تُرى واضحةً من بقاياها السطحية، فتقع بين مجموعتى الأهرامات وبقايا المدينة (الشكل رقم ٤٥) .

يعود للفصل المكاني الدائر ما بين جّبانات الشمال، والجنوب، والغرب بعض القيمة الإجتماعية والتاريخية، كما سنذكر ذلك تواً. إن الثلاثة كيفما اتفق الحال تمثل تواصلاً من التطور التاريخى، يمكن معالجته لكل الأغراض العملية كمُركّب دفنٍ واحد. وفي كليتها، تقدم أكبر مجموعة من الأهرامات بأى مكانٍ في الوجود.

الجّبانة الجنوبية في مروى أقدم بشكل معتبرٍ من الجّبانة الشمالية، لقد كانت مكاناً للدفن على الأقل لعائلات الطبقة العليا بالمدينة منذ أيام بعنخى [٤٧] . بمجيء الوقت الذى اختارها فيه حكام كوش مكاناً لدفنهم، مع هذا، كانت أغلب مواقع البناء المناسبة قد استُهلكت، ونتيجةً لذلك وَجد ثلاثة ملوك وستة قرناء ملكيين وحدهم مجالاً لإقامة أهراماتهم هناك. هذه المجموعة من القبور تنفرد لهذا بين جّبانات كوش الملكية من حيث أنها لا تشكل إلا قلةً من صروح ملكية أصيلة محاطة بما يقرب من المائتين من القبور الوضعية التي تفوقها عدداً.

لقد وصفها رايزنر بأنها "جّبانة لعائلة قديمة أضحت جّبانةً ملكية عندما أصبح أرباب العائلة حكاماً للمملكة" [٤٨] .

بعد المدفنة الملكية الثالثة في الجّبانة الجنوبية، كان ضرورياً أن يختار موقع جديد للدفن حوالى ٢٥٠ ياردة بعيداً صوب الشمال. في هذه الجّبانة الشمالية دفن جميع الحكام المرويين المتبقين أو ما يقرب من ذلك حتى نهاية الأسرة المالكة. على خلاف جارتها، الجّبانة الشمالية أكمل جّبانة ملكية على الإطلاق بين الجّبانات الكوشية، كلها عدا ستة من قبورها الأربعة والأربعين يعتقد أنها مدافن لملوك أو أمراء متوّجين كانوا بالفعل حكاماً [٤٩] . أما الخدم والحشم، والأشخاص الأقل نبلاً، إضافة إلى وصيفات الملكات فقد أُلحقوا بالجّبانة الغربية، التى تقع على سهل الحصا تحت الأهرامات الملكية. لهذا لا تحتوى الجّبانة الغربية أى قبور لملوك حاكمين، بصرف النظر عن ذلك تُصنّف بين جّبانات كوش الملكية لأنها كانت مكان الدفن لأعضاء الأسرة المالكة الأقل شأناً والنبلاء الأخرين. أما عامة الشعب في مروى فقد دُفنوا في سلسلة من الجبانات تترامى مباشرة وراء أطراف المدينة، وقد تم تنقيبها لكنها لم تنشر أبداً[٥٠].

أهرامات مروى تواصل التنمية التطويرية التى بدأت في الكُرو و نُورى (الفصل العاشر) [٥١] . إن المدافن في الجّبانة الجنوبية، رغم أنها ليست مماثلة للمدافن في نورى، إلا أنها تقترب منها بمستوى معقول في الحجم والرسم. في كل من المكانين يقوم الهيكل الفوقى على مدرج من السلالم، يرقد على طبقة مرسومة ظاهرة لقاعدة البناء. نفس هذه الخصائص موجودة في ما يفترض أنها أول أربعة مدافن في الجّبانة الشمالية. مع بداية الجيل الخامس، مع ذلك، برز إبتكار هيكلى. لا تزال وجوه الهرم سلالم متدرجة، لكن الأركان تَعّرت الآن إلى منحدر ناعم متواصل (الصورة ١٤ – أ) . الأهرامات مشكلة الأركان، كما سادعوها، تمثل إنجازاً متميزاً للمدفن الملكى الكوشى. هنالك عشرة من هذه الهياكل في مروى وثمانية في جبل البركل (ستناقش في هذه الأثناء) . بالإضافة إلى أركانها المزركشة لها عادة غرف كبيرة مزخرفة زخرفاً مفصلاً يصل ما بين الوجه الشرقى للهرم، ومعظمها له ثلاث غرف تحت الأرض. ترتيبها وزخرفها المتمثلان يصفها رايزنر كما يلي :

الحجرة الأولى من الغرف الثلاث كانت غرفة مواجهة صغيرة على جدرانها نُقشت الفقرات المأخوذة من الفصل المائة وخمسة وعشرين من كتاب الأموات (قارن الصورة ١٤ – ب) ، الحجرة الثانية عريضة جداً عَبر محور الهرم تحمل "الإعتراف السالب" ، وهو كذلك من كتاب الأموات، أما الحجرة الثالثة، وهى طويلة، فتحوى الميت

الحقيقى. الجزء الأعظم من القرابين كان في الغرفة الثالثة لكنها أيضاً فائضة في الغرفتين الأخرتين. هذا النوع ذو الغرف الثلاث تواصل استعماله بإعتباره القالب التقليدى لمدفن الملك لخمسة قرون (٦٠٠ ـ ١٠٠ قبل الميلاد) (٥٢).

لسوف يُلاحظ أن المدفن الملكى ذا الغرف الثلاث يعيد، بشكل مُصّغر، الرسم العام للمعبد الكوشى المعتاد (قارن الشكلين رقم ٤٠ ورقم ٤١). غرفة القرابين الخارجية في المدافن تتوافق مع الردهة الأمامية للمعبد، الغرفة الثانية الممتدة تأخذ تقاطعاً مكان البوابة المقّوسة الكبرى، وغرفة الدفن الداخلية تمثل غرفة العبادة. في أكبر غرف الدفن تُركت أعمدة من الصخر، إما قائمةً بنفسها أو على صلة بالحيطان الداخلية، كى تساعد في دعم السقف. وفى مدافن قليلة، هناك مناظر مرسومة على الطراز المصرى إضافةً إلى نقوش هيروغليفية (٥٣).

إن تغيرات لاحقة في معمار المدافن الملكية كانت كلها تقريباً ذات طبيعة مشوهة (٥٤). بعد حوالى عشرة أجيال تُخلى عن الهرم ذى الأركان المشكلة؛ كانت هنالك عودة في البداية إلى الشكل الأبسط للهرم المتدرج، ثم إلى الهرم ذى الوجه الناعم الذى لا يزال أقدم من الآخرين والذى كان خاصاً من قبل للمدافن الملكية الكوشية الأولى في الكُرو (الفصل العاشر). الأهرامات المتأخرة، مع ذلك، ليس لها إلا واجهة من الحجر المشكّل على حشوة داخلية فقيرة البناء من المؤونة الخشنة، وكانت الأهرامات الثلاث أو الأربعة أهرام الأخيرة مشيدة بالطوب. منذ زمن الأهرامات مُشكلة الأركان وما بعدها كان هناك تخفيضٌ مستمر في حجم كلٍ من الهياكل الفوقية وغرف الدفن. إن بعض أواخر الأهرامات الملكية لم يبلغ مقاسه أعلى من ثلاثة وعشرين قدماً على الوجه الواحد ـ "نسخاً رَثّة صغيرة من الطوب الأحمر لما سبقها من الأهرامات رفيعة البناء"، كما وصفها أركيل (٥٥). لا تعدو غرف الدفن كونها كهوفاً مشتقة في خُشونة، وما بها زُخرف.

الأشياء التى عُثر عليها في المدافن الملكية المروية لا تحمل سوى إيماءةٍ عن ثروتها الأصلية، ذلك أن كل واحدة من الغرف نُهبت تماماً. حتى مع ذلك، فإن وفرة تنوع الأمتعة مما ترك الناهبون وراءهم مثير للدهشة. يمكننا أن نرقب أيضاً في المدافن الأخيرة نوعاً أخر من المتاع، يسترجع الخُطى نحو الممارسات الجنائزية لزمنٍ عتيق القدم. "يكاد بكل هذه أن توجد بّينة على دفن ـ *ساتاى* ـ ، أى، دفن الحريم والخدم مع الملك حتّى يمكن لأرواحهم أن تقوم بخدمته في الدار الآخرة" (٥٦). وجدت كذلك جنائز قربانية في بعض أكبر المدافن "الخاصة" في الجّبانة الغربية. في أغلب الحالات، قلقل النهابون البقايا لدرجة أنه صار من المستحيل أن يؤكد موقع الدفن الأصلى أو عدد الخدم الذين ضُحى بهم على حد سواء. أما أكبر عدد من أموات *الساتاى* الذين أمكن التعرف عليهم في مدفن واحد فكانوا ستة (٥٧) ـ وهو نسبياً رقمٌ معتدل بالمقارنة مع الضحايا البشرية بالجملة في كلٍ من الأزمان الأولى والمتأخرة (الفصلين الثامن والثالث عشر). ضحايا القرابين من كلاب، وجمال، وخيول كانت بشكل معتبر أكثر شيوعاً من موتى الشر؛ وُجدت رممهم أساساً على مدرجات السلالم المؤدية لغرف الدفن بالأسفل (٥٨).

أيقن رايزنر أن الجّبانات الملكية أُنشئت في مروى عندما "امتلا" حقل الأهرامات في نُورى، باعتبار أن أول المدافن التلية الجنوبية كان هو الخَلَف المباشر لآخر مدفن تلى في نُورى (٥٩). هذه النظرية تُركت دون شرح لتجمع الأهرامات الصغير الذى يقف بما يشبه العزلة المضروبة عليه في الصحراء غرب جبل البركل. إنها بلا جدال أمعن تأخراً في تاريخها من أى من المدافن التلية في المقاطعة النّبتية؛ وأقرب نسباً «طبغرافياً» لها، لا لنُورى أو الكُرو، إنما لبعضُ الأهرامات في مروى. تبدو بحق، ثمة ريبة ضئيلة أن الجّبانة في جبل البركل كانت في جزء منها معاصرةً لمدافن الجنوب، مما يجعل من الصعب تفسيرها على أساس أنها خِلافَةٌ مَلكية واحدة غير مُقَاطَعة. تعقيد أبعد من ذلك أثراً ينشأ من الحقيقة التى تقضى بأن أهرامات البركل نفسها مُقسمة إلى تجمعين مميّزين من نوع يرجح أنه مختلف (٦٠). فمجموعة واحدة تشكل أهرامات مُشكلة الأركان تقارن بأفضل ما يوجد في

مروى؛ والمجموعة الأخرى أهرامات مُدَرّجة، عادية .

أما الهياكل الفوقية بالحجم والنوع الموجودين في جبل البركل فإنها قرينة مدافن الملوك الحاكمين في مروى وحدها، لهذا يبدو معقولاً أن يُفترض أن أهراماتٌ البركل هى كذلك أهرامات لملوك وملكات. إن إسماً مَلكياً واحداً، كيفما اقتضى الحال، هو الملكة ناوي دَامَاك [٦١]، وجد في أهرامات البركل البالغة ثلاثة وثلاثين هرماً. أما الأهرامات الأخرى، مثل كثير من الأهرامات المتأخرة في مروى، فلا يمكن أن تكون بصفة محددة مصاحبةً لأى حاكم معروف.

سبق أن شرحت مفارقات جَبانة البركل من وجوه عديدة. لقد تصور رايزنر حكم أُسرَتين متنافستين قصيرتى الأجل أقيم في نَبتة، تبعت واحدة الهجرة الخارجة للعائلة الحاكمة مباشرة إلى مروى، والثانية لحقت بها بعد ١٥٠ عاماً [٦٢]. كان هذا، كما هو شائع، النظرية التى هيأت أغلب تفسير منطقى لنوعية أهرامات البركل، أرجح من النظرية التى تماشت بشكل أفضل مع البّينة الخارجية. وفى الحقيقة تجعل النصوص الحرفية المعاصرة من المؤكد وجود حُكام في مروى مُسلّم بنفاذ أحكامهم في كلٍ من نَبتة وكاوة خلال الأزمان التى كانت الأُسرات الملكية المُتنافسة ممسكةً بزمام الأمور إفتراضاً أثناءها [٦٣]. كنتيجة لهذا إستبعد ماك ادم مقولة رايزنر المتعلقة "بأول مملكة مروية لنَبتة" مُحبذاً عليها النظر إلى الأهرامات العادية في جبل البركل كجزء من المجرى الغالب لتطور الجَبانة الكوشية. وسيطةً في الزمن بين نُورى والجَبانة الجنوبية في مروى [٦٤]. لقد أخذ دُنهام بالضبط إتجاه السير المغاير، متقبلاً للأسرة المالكة المنافسة في نَبتة ورافضاً للأخرى. أما الأهرامات مُشَكلة الأركان في البركل فقد نُظر إليها على انها مدافن لحكام شرعيين في مروى فضّلوا لسبب أو آخر أن يُدفنوا بالأرض المقدسة لأسلافهم الباقين. [٦٥]. إن هينتز، الذي يُعد مؤلفه ـ *دراسة في التسلسل الزمنى المروى* [٦٦] أهم عمل أُنجز مُنذ وقتٍ وشيك في الموضوع، فقد جاء لصالح مشروع رايزنر الأصلى، لكنه مُذاك اضحى مدفُوعاً لتعديل جزءٍ لا يُستهان به من تقويمه التاريخى الخاص الذى أجراه في ضوء إكتشافاته في المصورات الصفراء [٦٧]. وكما لاحظ جاد الله "يبدو أن التسلسل الزمنى المروى سيظل لوقتٍ طويل نهباً للتغيرات والتعديلات حيثما بدت بيّنة جديدة" [٦٨]. إن الجدل المتواصل يمكنه وحسب أن يخدم في تبيين المدى الذى يتأتى علينا أن تقطعه لنتعلم شيئاً ولو كان مستهدفاً لأبرز الملامح للمملكة الكوشية [٦٩] .

التعاقب الصحيح للملوك المرويين لا يلزم أن يسبب إضطراباً شديداً للمؤرخ الثقافى، على أن مسألة الوَحدة أو الإنقسام بين الدولة مهم بالطبع كى نفهم الواقع الإجتماعى والسياسى لأزمانهم. وما دمنا لا نملك دليلاً أبلغ مصداقية من نوعية الأهرامات وتعاقبها المفترض فسوف لن نأمل في الإجابة عليها؛ إننا لا نستطيع سوى أن نرقب أن تاريخ مناطق أخرى يقدم موازيات متعددة للموقف الذى تخيّله رايزنر اصلاً. لقد ثابرت إمبراطوريات قليلة جداً ذات مراكز متعددة على البقاء لزمن طويل على غرار كوش دون أن تنفصل عن أجزائها مرةً أو مرتين على الأقل، وكان كثير منها يميل لمعاودة البقاء في نفس أماكنها السابقة، مَرة تلو الأخرى وهي مفصولةً عن الإلتحام بباقي أقسامها. مصر، بلاد ما بين النهرين، والصين كلها تقدم أمثلةً على التحلل وإعادة التوحد بصورة متكررة.

على غير ما كان عليه طِراز الإمبراطوريات المذكورة للتو، لم تُستجمع اطراف كوش القديمة بتوحيد جَبرى لمناطق متميزة عِرقياً وإجتماعياً. في بادئ الأمر كانت وُحْدةٌ إجتماعية ـ سياسية ملتئمة تُدار من مركزٍ واحد في نَبتة. لكنها مهما كان حالها اضحت إمبراطورية متعددة المراكز بعد إنشاء مستعمرات ممتدة لها في منطقة مروى، على أتم تدقيق ممكن بعد هجرة البلاط الملكى مكاناً بعيداً، مفارقةً لكهنوت آمون الذى كان لا يزال راسخاً بكرسيه القديم في نَبتة. إن كون هذا الفصل الجغرافى للسلطتين الروحية والدنيوية كان غاصاً بخطر الفصم السياسى يبدو شاهداً على نفسه. بمعنىً ما، خلعت الملكة الدور التاريخى كرَاعيةٍ وحاميةٍ لطائفة آمون التى دفعت بها إلى السلطة قبل خمسمائة

عام خلت (قارن الفصل العاشر). علينا لذلك ألا نواجه صعوبةً في التصور، كما فعل رايزنر، أن أحداً انبعث ناهضاً أو خُلق ليملأ كرسى القوة الملكية المخلوع في نَبتة.

وعلى هذا النحو، فحينما يُبدى تعايش سلطتين ملكتين إمكانيةً منطقية بهذه الصورة، تُصبح العلاقة بينهما مسألةً في غاية الصعوبة. إن عدداً من التفسيرات البديلة تُدلى بإقتراحاتها. من جانب واحد، يمكننا أن نتخيل بسهولةٍ كهنة آمون وهم يجعلون من إحدي الأسرات المالكة دُميةً في أيديهم إقتصاصاً من هجرة الحكام الشرعيين الخارجة. وربما تكتسب مجاورة مدافنها لضاحية آمون المقدسة أهميةً في هذا الخصوص؛ فعلى أقل تقدير تُوحى بأن الأفراد الذين دُفنوا في جبل البركل تمتعوا بتفضيل الكهنوت ودعمه الخاص لهم. في نفس الوقت علينا أن نُسلِّم بغياب أى إيحاء بالمناهضة بين أعطاف الدولة المروية، بينما يبدو التماثل المعمارى للأهرامات في جبل البركل ومروى مشيراً إلى اتصال حميم بين مجموعتى الحُكام. فإذا كانت الأسر المتعاصرة قد حُكمت بالفعل من مروى ونَبتة، يبدو إذَن أنهما قاما بذلك في رضىً متبادل .

على أى شيئ كانت تقوم شروط إتفاقهما؟ هل كان هناك تقسيمٌ مؤقت للإمبراطورية، مشابه لذلك التقسيم الذى أُقيم في الإمبراطورية الرومانية عندما أصبحت مُستعصيةً للغاية على الحكم من مركز واحد؟ أن الملوك النبتيين، فيما يبدو أقوى احتمالاً، كانوا تابعين للمرويين، بمقتضى نوعية النظام الإقطاعى الذى كان مألوفاً من قبل بمصر والشرق الأدنى؟ أكان النَّبتيون ببساطةٍ ولاة أو مأمورين للملكية الجنوبية؟ مهما كان الأمر، فهناك العديد من البيِّنات إلى جانب أهرامات البركل يرتجي أن نَبتة بقيت مركزاً للسلطة السياسية لفترةٍ طويلة من بعد هجرة العائلة المالكة الرئيسة إلى مروى. كلّ من استرابو [٧٠] وديوكاسيوس [٧١] إعتبر نَبتة العاصمة النوبية في ٢٣ قبل الميلاد، عندما هاجمها ونهبها جيش رومانى. ويعتقد ميليت أنه في القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد كانت كل النوبة الشمالية، من الشلال الرابع إلى التخوم المصرية، منطقةً شبه - مستقلة محكومةً بسلالة من الولاة في نَبتة [٧٢].

النقـوش الملكيـــة

لم يترك سوى ما يقارب العشرة من الملوك المرويين أى سيرةٍ عن أنفسهم عدا مدافنهم. إن أركامين واحد من أقدمهم وأفضلهم شهرة، ربما كان معروفاً علي أنه هو نفسه أرقامين الذى تحدث عنه ديودورس سايكلوس [٧٣]. إنه مهم تاريخياً باعتباره أول ملك نوبى أنشأ علاقات رسمية مع حكام مصر البطالمة - وسيناقش ذلك الظرف بتفصيل وافرٍ في الفصل القادم [٧٤]. كانت تواريخه موضعاً لجدل عظيم، غير أن معظم الكتاب يضعونه في النصف الأخير من القرن الثالث قبل الميلاد [٧٥]. تبعاً لديودورس كان على علم نزير بالتعليم الإغريقى؛ أما كيف وقف عليه فغير معروف علي وجه التحديد. يصل نفس الكاتب إلى أن أركامين أجهز على كهنة آمون في جبل البركل ووضع حداً لسلطتهم التاريخية على الحياة والممات من فوق الملك الكوشى. أهرام أركامين ربما أنه الثالث بين الأهرامات التى بُنيت في الجَبانة الشمالية في مروى؛ غرفته جديرة بالملاحظة لأنها تشتمل على واحد من آخر النصوص الحرفية النابهة باللغة الهيروغليفية المصرية على أى صرح جنائزى مروى [٧٦]. توجد نحوت لاحقة بالمروية الهيروغليفية أو بالمروية الجارية، أو بمحاكاة غير ذات معنى للهيروغليفية المصرية ما بغير تكرار.

ترك عدة حكام من القرنين الثانى والثالث قبل الميلاد نقوشاً مُهداة أو محيِّية للذكرى في معابد مروى ونَبتة . إن النحوت كلها منقوشة بالكتابة المروية الجارية، ولا يمكن استنباط فحوى مادتها إلا بغموض إن لم يكن بها شئ مطلقاً. أما طول نحت وأشهر ما في المجموعة فهو "اللوح العظيم" للملكة امانى ريناس وابنها وشريكها في الوصاية على العرش أكينى داد، الذى عثر عليه في أحد المعابد

بمروى. يبدو في جزء منه سرداً لعمليات حربية، ربما كان أحدها منقوشا في مضاداة جيش بترونيوس الرومانى الذى هاجم نَبتة في ٢٣ قبل الميلاد (قارن الفصل الثانى عشر) [٧٧].

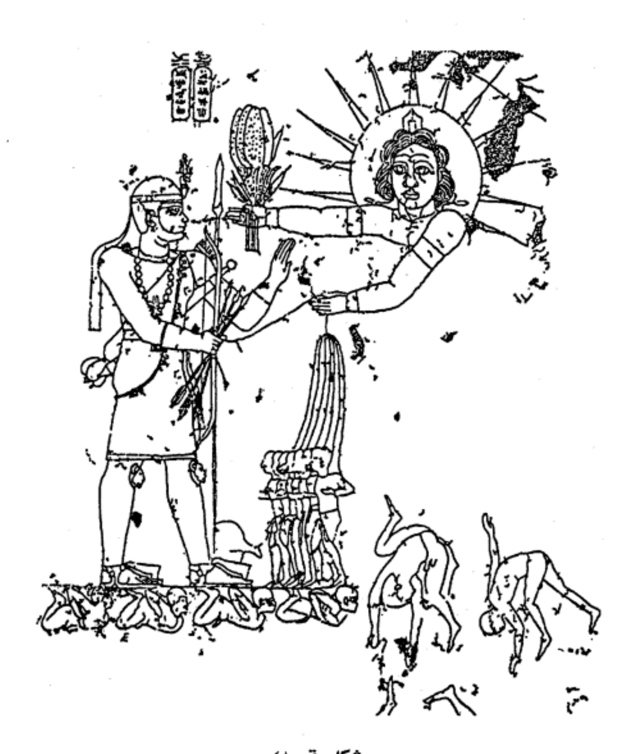
البُناة العظماء للعصر المروى كانوا هم الملك ناتاك أمانى والملكة أمانى تيرى، اللذين ربما واكب عهد حكمهما المشترك بشكل أو آخر حياة المسيح. لقد كانا فيما هو ظاهر حاكمين معاً لطول الحياة، لم تُبيِّن اسماؤهما مطلقاً في نقوش ملكية إلا سوياً. ومن لوحهما المكرس لذكراهما يتبين أنهما أجريا استعادات كبرى في المعابد العظيمة لآمون في كل من نَبتة ومروى ومعابد أخرى متعددة، وقاما ببناء معبدين كاملين جديدين على الأقل في مدينة النقعة الجنوبية علاوة على ذلك. يصحبهما في نحوتهما ثلاثة أمراء مُتَّوجون؛ واضح أن الاثنين الأولين ماتا في المهد. أما الإبن الثالث، شركارير، فعاش ليرثهما. إن صرحه الوحيد المعروف كان لوحاً للنصر منحوتاً على صخرة في جبل قيلى، بعيداً بالأرض المعشوشبة من سهل البطانة (لمعرفة الموقع أنظر الشكل رقم ٤٦) [٧٨]. يبين اللوح الملك وهو يتلقى مباركة إله الشمس منتصراً على أعداء غير مُسَمين، وهو موضع النظر لأنه استجماع لتأثير فنى مصرى، وهيلينى إغريقي، وربما شرقى (الشكل رقم ٤٨) [٧٩]. وهو أبعد صرح مروى عُرف حتى الآن بالجنوب موقعاً، كما آخر نقش ملكى لأى حدث في تاريخ كوش. ما كانت المملكة بأجمعها مُفقَّرة ولا متخلفة ثقافياً خلال القرنين الأول والثانى الميلاديين، لكن حكامها لابد أنهم كانوا غير متميزين، لأنهم فيما يَكّاد لم يبق عنهم سجلٌ. ومن العشرين ملكاً أو أكثر الذين خلفوا شركارير، يمكن تسمية أقل من نصفهم (قارن بالجدول السادس).

ليس واجباً أن يُفترض أن التاريخ النّصى لكوش ينتهى بنقوش ملكية. من الآن فصاعداً تجئ كتلة مادتنا الوثائقية عن الفترة المروية من منطقة العاصمة؛ غير أنها تأتى من الحدود الشمالية القصوى للإمبراطورية، في ضاحية أسوان مباشرة. هنا عدد كبير من النقوش - إغريقية ومصرية كذلك نوبية - موظفة في خدمة مسؤولين مرويين متنوعيين، وقد تركوا مكتبة مختلفة الأنواع من الرسوم المخُطّطة على جدران المعابد في النوبة السفلى. ومن حسن طالع المؤرخ أن كثيراً منها بالإغريقية والمصرية فيما يزيد على المروية فبالإمكان قراءتها دون صعوبة [٨٠]. مع ذلك، لديهم القليل ليتحدثوا عنه حول المملكة في الجنوب البعيد. كان اكتراثهم منصباً على الناس والأحداث في متناول أيديهم. لذا فمناقشة ما خطته أيديهم مُرجأ على أفضل الوجوه حتى ننظر بإعتبار للسؤال الجامع الهام عن عودة الإحتلال المروى للنوبة السُفلى في الفصل الثانى عشر.

مـدن أراضـى السـهل

يجوز أن تغطى أطلال مروى مساحةً تصل إلى ميل مربع، مع أن امتدادها الكامل لم يُحدد أبداً. ليست لدينا فكرة عن تخطيط المدينة ككل؛ وقد ركزت بعثة ليفربول على قلةٍ من المبانى الصرحية فلم تأخذ عينةً من المساحات المتداخلة بينها. إن الطوب الأحمر (المحروق) كان على وجه اليقين مستعملاً بتوسع كمادة للبناء، حيث أن شقوقه تتناثر بلا نظام وسط أكوام المدينة غير المنَقبة. مع هذا يمكننا بصعوبة أن نرتاب في أن أغلب المبانى المتواضعة كانت من اللّبِن (غير المحروق)، كما في كل فترات التاريخ النوبى.

ومن بين أجزاء المواقع المُنَقبة، التى يمكن وصفها تتبعاً لنهج من التقارير المنشورة الموجزة [٨١]، فالأكبر وأشد إثارة للإهتمام ما يُسمى بالمدينة الملكية. كانتُ هذه أرضاً بعينها مُسورة في رسم مستطيل بشكل أو آخر، بعض لـ ٣٠٠ ياردة طولاً وحوالى نصفها عرضاً. بين الأسوار تشكيلةٌ معقدة من المبانى، معظمها صروحٌ حَجماً وزُخرفاً، وهى ما افترض قارستنق أنها المشيدات الرئيسة للعائلة المالكة (الشكل رقم ٤٩). فيما عدا السور المحيط بالمكان نفسه، هنالك بناء قليل للغاية بالحَجر؛ معظم المبانى من اللّبِن، بالرغم من أن كثيراً من المبانى لها واجهة خارجية من الطوب



شكل رقم ٤٨

رسم تصويرى لإنتصار الملك شركارير، جبل قيلى

المحروق. (إستخدام هذه المادة كقشرة خارجية يُستبان بموقع مروى بين حزام المطر. أما الطوب المحروق فيكاد لا يعمل به مطلقاً في مواقع بعيداً شمالاً لأن مقاومته للتّعرية ما كانت لها حوجة). تمت صيانة المبانى في المدينة الملكية وأعيد بناؤها مرات لا حصر لها، مُعرِبة بذلك عن تاريخ طويل جداً ومعقد من الإحتلال.

يلاصِق مركز المسور الملكى بنايتان مربعتان على ضخامة، متماثلتان تقريباً في الحجم، يعتقد أنهما قصران. مبانٍ أخرى فُسرت على أنها مستودعات، وغرف للجمهور، وأحياء سكنية لحاشية القصر. هنالك بالمثُل معبد صغير: "... جدرانه الداخلية مغطاة بمسحوق جيرى ومزخرفة على طراز منفلت بألوان رائعة. تمثل المناظر ملك وملكة أثيوبيا، وموظفى دولتهم، وربما، حلفاءهم، وعلى حد سواء عدداً من الأسرى من جنس أجنبى" (٨٢). في واجهة هذا المعبد عُثر على رأس أغسطس البرونزى الشهير، الذى كثيراً ما يُشار إليه في الكتب المؤلفة عن النوبة، وهو ما جرى تأويله تأويلات متنوعة كهدية من الإمبراطور وكجزء من الغنائم المسلوبة في غزو نوبى على المعابد الرومانية في فيلة (٨٣).

أما الوجه غير المتوقع غالباً والأبرز تميزاً بدرجة عالية في المدينة الملكية فهو ما يُدعى بالحّمام الرومانى. إنه يفتقد إلى جهاز التسخين وغيره من الأدوات الفنية الرفيعة للحمامات الرومانية في أوروبا، لكن إستلهامه المأثور مهما مضى أمره لا يُخطئه إنسان.

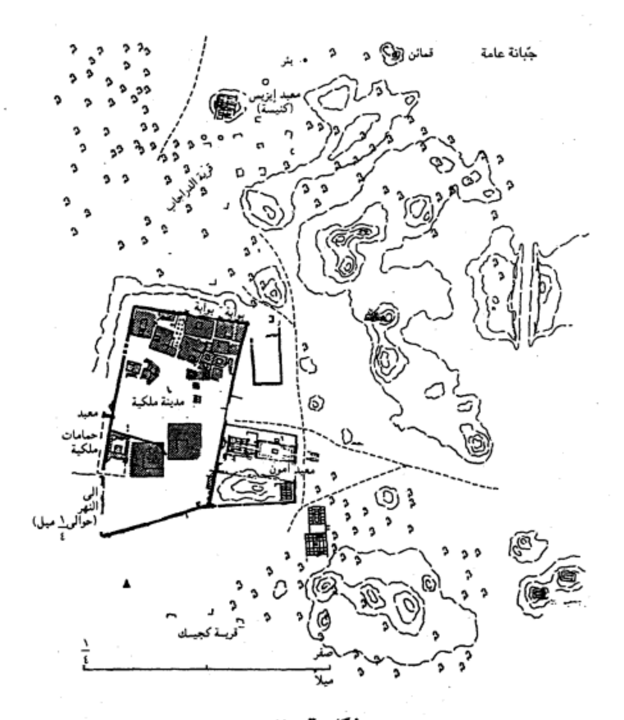
إنه يحتوى على خزان كبير مخطط بالطوب له نظام مُفّصل من قنوات المياه التى تصل إليه من بئر قريبة. زُيّن مجرى حول الجزء الأعلى من الخزان بوجوهٍ وميداليات من الجير المقّوى، إلى جانب نوافير للمياه في شكل رؤوس الأسد . كل هذه الأشكال كانت ملونة، ويبقى أثرُ مواد التلوين على الجير فوق ما آل من حائط عال. يُوحى كلُ من الرسم العام والزَخرفة المنمقة أن هذا بشكل مُقنعٍ كان مكاناً للترفيه، لابد أنه كان حَماماً للسباحة، وهو تصديرٌ إقليميٌ لأحد وجوه الحياة في البحر الأبيض المتوسط المشهورة خلال تلك الفترة (٨٤).

ويوصل المسور الملكى من جانبه الشرقى مسور أصغر يحيط بمعبد أمون (الشكل رقم ٤٩) المقابل الجنوبى للمعبد العظيم في جبل البركل. أما إنه كان متعمداً كمنافس وربما خلفاً للمعبد الشمالى فمقترح بمؤدى الحقيقة القائلة بأنه يبزه حجماً (ما يقرب من ٥٠٠ قدم في الطول) وإلى حد ما في خطة الرسم؛ إنه المعبد الوحيد في الأزمان المروية الذى يحتفظ بنظام الردهة المركّبة، المطّولة، للمعابد المصرية والنُبتية الكبرى. في كل وجوه التشييد والزُخرف، مع ذلك، يقل معبد أمون في مروى بمستوى بالغ عن معبده في نُبتة.

كان المعبد مبنياً في شوطه الأوسع بالطوب، الواجهة وحدها طوبها محروق، ولها أعمدة، وبوابات مقّوسة، ومداخل أبواب تواجهها كتل مُشكّلة من الرمل الحجرى. وهو يحتوى قاعةً خارجية من النوع المعَمد بكّمٍر يبين علامات لفترتين من البناء على الأقل. في وسط القاعة حجَر صغير كمحراب عليه أسماء ناتاك أمانى وأمانى تيرى على الجدران، وإلى الغرب منه مَصْطَبة مرتفعة، أو منبر، بسلالم ومناظر مُحتَّفرةٍ لسجناء رُكع ومقيدين. وراء هذه القاعة سلسلة من قاعات صغرى تؤدى إلى غرفة للعبادة بها مذبح مُزخرف بمناظر دينية. أن ما يسمى بقاعة العمدان وجه غير عادى والغرض منها غير واضح. طُليت الأعمدة بالأزرق وألوان أخرى على جبص أبيض، وفى الطرف الغربى مصطبة مرفوعة يوصل إليها عن طريق مدرج قصيرٍ من السلالم (٨٥).

ليس هنالك دليل لسوء الحظ فيما يتعلق بالوقت الذى بُنى فيه معبد أمون أصلاً. إن استعادته من ناتاك أمانى وأمانى تيرى تدفع بإقتراح أنه كانَ قديماً في زمانهما بعُدة حِقَب على الأقل، حوالى بداية عصرنا. في الضاحية المباشرة لمعبد أمون، وَجدت بعثة جامعة كالجارى في ١٩٧٦م آثاراً لأربعة معابد إضافية لم يكن ثمة شك في وجودها مسبقاً .

نَقّبت بعثة ليفربول أربعة معابد ومحاريب أخرى في مروى: المسماة إيزيس، والأسد، ومعابد الشمس ومحراب أبيس. كلها تقع بأطراف منطقة الإقامة الرئيسة أو خلفها. إنها مبانٍ حَجرية



شكل رقم ٤٩

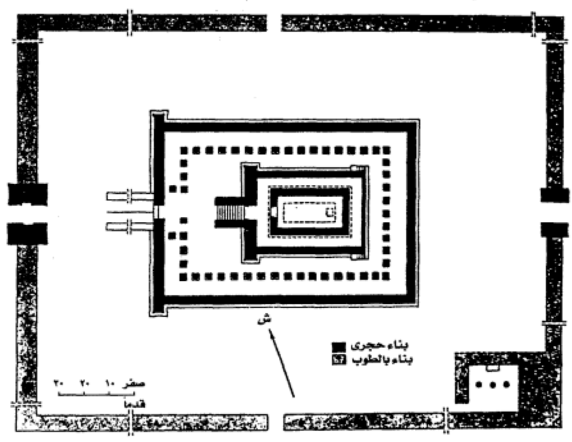
تصميم المدينة الملكية وأجزاء ملاصقة لخرائب مروي

صغيرة، من غرفة أو غرفتين، مشابهة لمعابد مروية متأخرة ولا يمكن أن تُقارن بأى حال بالمعبد العظيم لآمون. (سوف تناقش خصائص المعبد المروى بملء تفاصيلها في صفحات قادمة). الأدعى إثارة للإهتمام بين المعابد الصغرى هو "معبد الشمس" الذى يبين رسمه في الشكل رقم ٥٠. نحو ما يصفه شيني :

كان المعبد محاطاً بحائط تمنوس من الطوب الأحمر بمداخل حَجرية في الواجهة كما في معبد آمون. في داخل هذا البناء المسور دهليز على انحدار يؤدى إلى مصطبة تقوم عليها أعمدة منتظمة الأبعاد تُطوق غرفة العبادة. أما السور الخارجى لهذه المصطبة فكان مزداناً بسلسلة من الصور الجانبية، وقد تحللت كثيراً الآن. يدنو من غرفة العبادة مدرج لسلالم من الحجر، أرضيتها وجدرانها مغطاة بقرميد لامع أزرق اللون. أما انه كانت هنالك أيضاً صوراً جانبية على جدران الدهليز الذى يحيط بغرفة العبادة فيبينها رسم لا يزال حياً يُبرز شخصاً مَلكياً وثلاثة رسوم مُزخرفة القالب بإسم أكينيداد... (٨٦).

لأن موقعة صائر في "أرض عشبية" خارج المدينة، وبسبب ما وُجد في داخله من كتلةٍ حَجرية عليها نحت قرص شمسي، عُرف هذا المبنى إلى حد ما تخيلياً "بطاولة الشمس" التى كتب هيرودوتس عنها (أنظر أعلاه).

أكوام الجفاء الشهيرة في مروى سلسلة من تلال واسعة المساحة خيطت من نفاية الحديد الملفوظة وغير ذلك من الفضلات الناتجة عن عمليات الصهر. لقد ظلت مادةً لنقاش عظيم وقاعدة لمزيد من التخمين التاريخى. عَرّف دنهام صناعة الحديد بأنها أساس الرخاء المروى (٨٧)، وتحدث كتاب أخرون في ثقةٍ عن مروى المركز الذى انتشر منه صنع الحديد لكل شعوب إفريقيا المدارية



شكل رقم ٥٠

تصميم لمعبد الشمس، مروي

[٨٨]. ثم طرح أ. ه . سيسى نغمة جديدة بالنسبة لغَلبة من التخمين التاريخى المتأخر عندما كتب في إحدى التقارير المبكرة عن مروى .

... إن جبالاً من جُفاء الحديد تحيط بتلال المدينة على جانبيها الشمالى والشرقى، وقد ألقى التنقيب الضوء على الأفران التى كان يُصهر بها الحديد ويُصنَّع بها أدوات وأسلحة. ولابد أن مروى، كانت بحق برمنجهام إفريقيا القديمة؛ الدخان المنبعث من أفرانها لصهر حديدها لابد أنه كان يتصاعد بإستمرار للسماء، وربما كانت شمال إفريقيا بأجمعها تُمَوَّن من مروى بمعدات الحديد الضرورية . في حين استخدم المصريون النحاس أو البرونز، إستعمل الأثيوبيون الحديد. فما كان هنالك عصر للنحاس أو البرونز، فيما يبدو، في السودان؛ إنتقل سكانه من عصر الحَجر إلى عصر الحديد [٨٩].

بالرغم من هذا الإدلاء الواثق لا يزال كأننا على جهل تام بطبيعة صنع الحديد وأهميتها في مروى أو بأى مكان آخر في السودان [٩٠]. عقب حفر عُدة آلاف من القبور المروية، مع ذلك، يمكننا أن نتأكد بقدر معقول أن أدوات الحديد كانت أبعد ما تكون من الوفرة خلال هذه الفترة؛ فقد كانت في الحقيقة أقل شيُوعاً من أدوات البرونز بفارق ملموس [٩١]. في مقالة وُضع عنوانها وضعاً سليماً "أسطورة مروى وعصر الحديد الإفريقى"، خلص بروس تريقر قبل وقت وجيز إلى أنه :

... بينما تظهر مواد الحديد في السودان مُبْكراً أثناء الأُسرة الخامسة والعشرين، لا يظهر أن صناعة الحديد أُنشئت هناك قبل القرن الرابع قبل الميلاد (٩٢)، وطوال الفترة المروية كانت معظم مواد الحديد التى تم إنتاجها مفردات صغيرة، تُستعمل بصفة رئيسة كأسلحة خفيفة وللأغراض المنزلية. ما أصبح الحديد عنصراً ضرورياً من تقنية الجزء الشمالى للإمبراطورية المروية الأخيرة إلا من بعد إضمحلال مروى [٩٣]...

بعد مروى، كانت أهم مدينتين في النوبة الجنوبية هما المصورات الصفرا والنقعة، اللتان تقعان على بعد أربعين إلى خمسين ميلاً جنوباً من غرب العاصمة الملكية (الشكل رقم ٤٦). هذه المستوطنات لا تقع على ضفاف النيل إنما على اثنى عشر إلى ثمانية عشر ميلاً بالداخل، في منخفضات *واديين* عظيمين تسيل عبرهما المياه إلى سهل البطانة الغربى. أما بقايا المدينة في النقعة فهى تقرب كثافة من بقايا مروى نفسها، وينطوى المكان كذلك على سبعة معابد على الأقل، كلها بالحَجر [٩٤]. وهذه المجموعة هى الأفضل بناءاً وأحسن الهياكل حفظاً في الفترة المروية. يشتهر معبد الأسد لناتاك أمانى وأمانى تيرى برسوماته الجانبية الخارجية، التى تقدم مثالاً نموذجياً من الزُخرف المنقوش على الطراز المروى ـ المصرى المتضخم نوعاً ما (الشكل رقم ٥١). ويعرض المعبد الصغير "الكشك" الذى يقف بالضبط في قبالته مزيجاً أخاذاً من التأثيرات المصرية والإغريقية ـ الرومانية (الصورة ١٥ ـ أ) [٩٥]. إنه ليس شبيهاً بأى معبد آخر في النوبة العليا، لكنه يحمل تمثيلاً معتبراً "لكشك تراجان"، على جزيرة فيلة، بالقرب من أسوان. المعابد العديدة في النقعة تنبئ أن هذا المكان واحد من أهم المراكز الدينية في النوبة القديمة مثلما أنه مدينة ذات مكانة أولى. وهناك أيضاً جبّانتان كبيرتان تقعان جانبها. كل هذه البقايا لم يُنقب عنها إبّان كتابة هذا المؤلف.

على بعد عشرة أميال شمال النقعة تقع المصورات الصفرا، وهى من جوانب كثيرة أكثر المواقع غرابةً في النوبة جمعاء. هنا لا يبدو أن هنالك بقايا مدينة أو جَبانات؛ فلا شئ غير تجمع من مبانى الحَجر الصُروحية [٩٦]. أكبرها ظهوراً في حدةٍ المسور العظيم ـ تجمع بنائى شديد التعقيد من المبانى العالية المفتّحة، والممرات والغرف، لا يوازيه مثيل في المعمار النوبى أو المصرى (الشكل رقم ٥٢). وقد أُجريت قريباً حفريات بواسطة أكاديمية برلين للعلوم [٩٧] فنّفذت الكثير لتبين خريطة المُسّور، لكنها لم تُلق ضوءاً على أصله أو غرضه. افدنة من الأسوار الجرداء مبنية بالرمل الحجرى المنّعم نعومة جميلة خَالية تماماً من الرسوم الجانبية أو النقوش، مع انها تهئ إغراءً لا يقاوم لكتاب الرسوم الخطية من الأزمان القديمة إلى الحديثة. ويصف شينى الموقع على النحو التالى :



شكل رقم ٥١

رسوم بارزة لمعبد الأسد المروي، النقعة

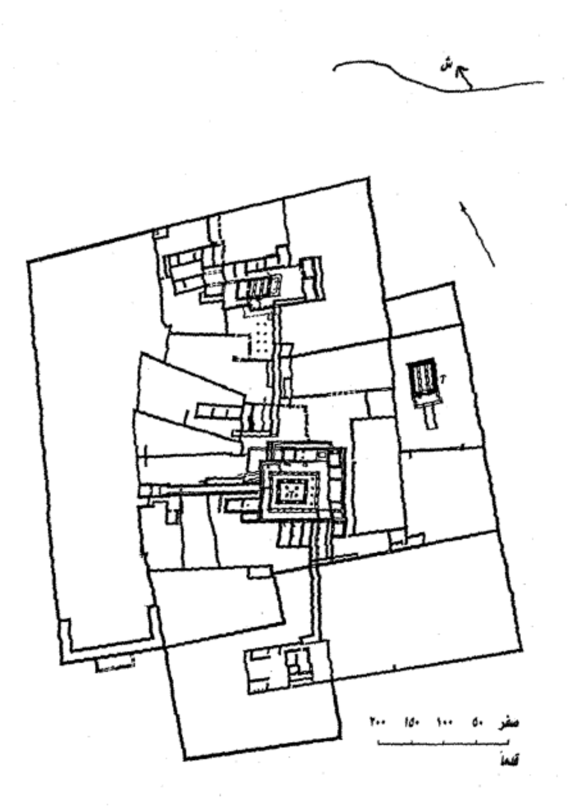
تظهر الملك ناتاك أماني

والملكة أماني تيري يقدسان الإله الأسد أبا دماك (ذا الثلاثة رؤوس)

يتكون "المسور العظيم" من عدد من المباني والمساحات المسوّرة التي تُحيط بمعبد مبنى على مصطبة، مشابهة لوضعية معبد الشمس في مروى على الأرجح. وبناءاً على ثوابت تتعلق بأسلوب البناء، يبدو هذا المعبد المركزى منتمياً للقرن الأول الميلادى أو أبكر من ذلك بقليل. [٩٨] على أنه لا توجد به نقوش غير رسوم خطية ثانوية، بقدر وفير للغاية. ويحيط بهذا المعبد صف من الأعمدة بأبعاد منتظمة، بعضها عليه نحوت جانبية مثيرة للإهتمام. وخارج معبد الأعمدة سلسلة من الممرات والمنحدرات التي تصل الأجزاء المختلفة للبناء المعقد، وهي غير معروفة في أي موقع مروي آخر. أما عدد الرسوم الممثلة للأفيال المنحوتة فيعرض إنطباعاً بأن هذا الحيوان لعب دوراً هاماً في المصورات الصفرا؛ وربما خُططت المسورات الكبيرة لتحظيرها، إذ أن الممرات المنحدرة ربما جعلت لراحتها حيث أنه بالإمكان قيادتها بسهولة أفضل من الصعود بالسلالم. ومن الجائز أنه وُجد هنا مركزاً لتدريب الأفيال لأغراض عسكرية وإحتفالية. أما الحائط المرموق الممتد في شكل فيل فهو متفرد ودليل إضافى على أهمية هذا الحيوان [٩٩].

على الرغم من أن الفكرة القائلة بأن القاعات المفتوحة المشيّدة بجمالٍ في المصورات صُممت كحظائر للأفيال تبدو نوعاً ما بعيدة الوقع، فمن الصعوبة أن يُقترح تفسير أحسن منطقيةً من ذلك لها. إن بعض أفيال الحرب التى وَظّفها حكام مصر البطالمة ـ وربما كذلك القرطاجيون ـ كان قد حصل عليها قطعاً عن طريق بعثات أُرسلت إلى السودان، إفتراضاً داخل الإقليم المروى. فبطلمى الثالث بلغ عنه افاثارشيدس أنه أنشأ "ميناء للأفيال"، دعاه ("بطلمى الحيوانات الوحشية") على ساحل البحر الأحمر في مكان ما بالقرب من سواكن الحديثة [١٠٠]. ولما كان صيد الأفيال في الخلوات المنفتحة عريضاً في وسط السودان مما سوف يكون عملاً غير مضمون ومستهلكاً للوقت، لا يزال في مقدورنا أن نتخيل جيداً أن وكلاء بطلمى ربما كانوا سعداء للتعامل مع وسطاء وطنيين. حركة الإتجار بالأفيال الحية ربما أصبحت بهذا الأسلوب هامشاً جانبياً صغيراً لكنه مربح لسكان البطانة [١٠١]. يبين أحد الرسوم الجانبية في المصورات، بمحض الصدفة، ملكاً يركب فيلاً (الشكل رقم ٥٣).

وظيفة المسور العظيم كانت على وجه قاطع دينيةً في جزء منها، ذلك أنه استوعب على الأقل معبدين ربما ثلاثة معابد وسط ممراته وقاعاته، تحمل جدرانه عدداً مضاعفاً من الرسوم الخطية لإسم



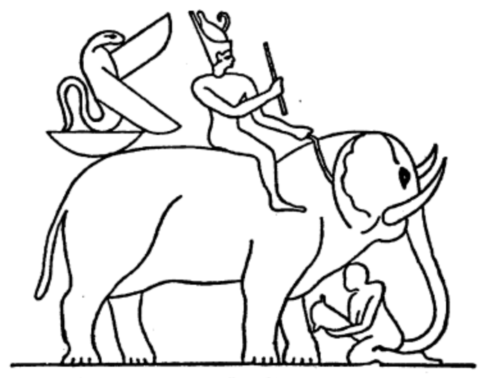
شكل رقم ٥٢

تصميم المسور العظيم، المصورات الصفرا

الإله الأسد أبادماك [١٠٢]. أما المبانى المعروفة الأخرى في المصورات فهى كلها تقريباً ذات طبيعة دينية؛ تحتوى ثلاثة معابد صغيرة أخرى من النوع الذى تُرجّح بساطة تصميمه كخاصية للفترة المروية المتأخرة. وهنالك أيضاً هيكل مُسَوّر ("المسوّر الصغير") يحيط بمجموعة يبدو أنها حجرات سكنية عادية ـ هى البّينة الوحيدة على الإقامة الفعلية بالموقع.

مما يلاحظ وسط أطلال المصورات بقايا لِ حفير ضخم أو منخفض من صنع الإنسان قُصد به أن يحفظ المياه ويحتجزها من وادى الصفرا. مثل هذه التراكيب، قديمها وحديثها، هامة في أرجاء منطقة البطانة وهى مصادر المياه الوحيدة أثناء موسم الجفاف البالغ تسعة أشهر. وبدونها لابد أن المعيشة طوال العام في أماكن مثل المصورات والنقعة ستكون مستحيلة. إن *الحفير* العظيم في المصورات هو الأكبر لحد بعيد، مع ذلك، بين الحفائر المعروفة ـ فهو من الكبر حيث يحتمل توفيره المياه لقطيع من الأفيال. يزيد عن ١٠٠٠ قدم عبوراً و٢٠ قدم عمقاً، وقد شُيدت جنباته فوق مستوى الأرض بمادة محفورة من القاع، ثم دُعمت جُزئياً وبُنيت واجهتها بالحَجر. أما الشكل أياً كان فهو مستدير، وله قناة تموين تؤدى بعيداً ناحية الشرق [١٠٣]. هنالك حفير آخر أصغر منه يقع بالقرب من المسور العظيم.

المصورات والنقعة، مع أنهما الأكبر وُسعاً، ليستا بالمستوطنات المروية الوحيدة في سهل البطانة الجاف. فأكثر من عشرة من المواقع الأخرى عُثر عليها، على مسافات تصل إلى ستين ميلاً من ضفاف النيل [١٠٤]. كثير منها، مثل المصورات، مصاحب *لحفائر* خربة. فعند الباسا، رُتبت مجموعة أُسود من حَجر منحوت حول محيط الخزان، كأنما تحرس مستودع الماء الغالى [١٠٥]. هنالك معابد خربة بأربعة على الأقل من المواقع في البطانة إضافةً إلى المعابد الكائنة في المصورات والنقعة. هذه المستعمرات، التي أبدعتها أعمال جريئة من الهندسة المائية، هي المستوطنات الدائمة الوحيدة التى دَعّمها سهل البطانة ابداً؛ إنها تهئ ضوءاً جانبياً يومض صدفةً على مِنعَة الحضارة



شكل رقم ٥٣

نحت بارز يبّين ملكاً مروياً راكباً على فيل، المصورات

النوبية ورخائها خلال القرون الأخيرة قبل الميلاد والقرن الأول الميلادى.

إقتُرح أن مواقع البطانة كانت مراكز إدارية ودينية للقطاع السكانى الرعوى من المرويين (١٠٦). بيد أن هذا الإقتراح غير مدعوم بدليل توزعهم. فالبقايا المعلومة كلها في الجزء الغربي من البُطانة، في حين أن افضل الأراضى العُشبية تقع مكاناً قَصيًا صوب الشرق. تتكاثر *الحفائر* القديمة في كل من المنطقتين، ولا يمكن إعتبارها مستوطنات مروية مميزة (١٠٧). ويلاحظ أن كل المواقع المروية «بالداخل» تقع على طول ثلاثة *وديان* عظيمة تحمل جزءاً كبيراً من مياه البطانة. فيحتمل، إذَن، أنها تعكس إمتداداً مؤقتاً للزراعة في باطن أراضى الداخل، ربما خلال فترةٍ كان هطول الأمطار الموسمية فيها أعلى بقليلٍ مما هو عليه اليوم. يجدر بالذكر أن المصادر الغرينية للنيل نفسه ليست وفيرةً على وجه الخصوص في ضاحية مروى.

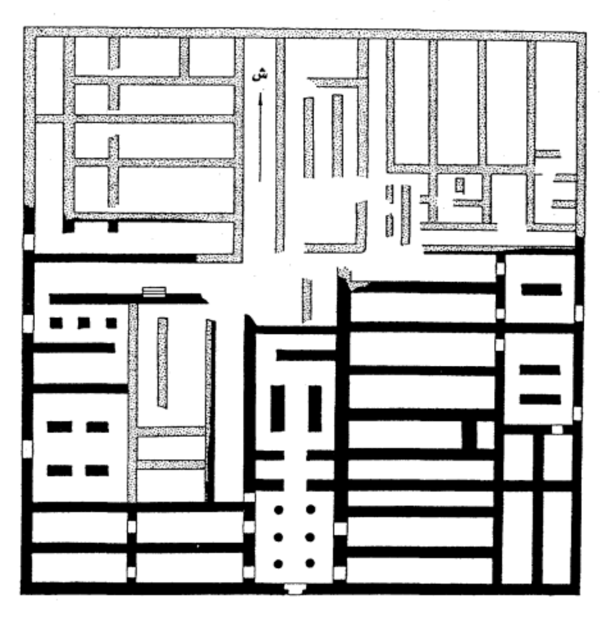
على بعد أربعين ميلا في اتجاه مصب النهر جنوبياً من مروى على الضفة الشرقية من النيل، أطلال ودبانقا. هذا المكان يعرف أحياناً "بميناء النهر" لمدينة النقعة، حيث أنه يقع في رأس وادٍ ينحدر من المدينة القائمة في الداخل (١٠٨). حفريات وجيزة الوقوع هنا أماطت اللثام عن بناء مربع ضخم، حوالى ٢٠٠ قدماً في الجنوب، يمثل بقوة القصور في مروى وكذلك عرَّفه المنّقبون بأنه مقر ملكى (الشكل رقم ٥٤). بنى كله بالطوب؛ جُعلت واجهة الأسوار الخارجية من طوبٍ محروق وأُترعت من عَلٍ بمسحوق جيرى أبيض. للمبنى طابقان على الأقل، بالرغم من أن الطابق الأدنى وحده محافَظاً عليه. أما الوضع الضيق، المستطال للحجرات الداخلية فيُخطِر أنها كانت مُغطاةً بعرش معقود بالطوب ـ والسقف بهذه الصورة يحمل خاصية المبانى العامة المروية .

لو كان وصف فيركوتر للقصر صحيحاً، فعلينا أن نسلّم بأن ودبانقا كان محل إقامة ثانية في بعض الأحيان للعائلة المالكة الكوشية، ربما في القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول بعد الميلاد (١١٠). تشمل مبانى أخرى في الموقع معبدين صغيرين وهيكلاً دائرياً ضخماً من الطوب، كأنه اسطوانى هائل، غرضه غير معروف بالمرة. هناك دليل كذلك على وجود مدينة ذات اعتبار، لكنها لم تُنَقب بعد.

يستكمل ودبانقا قائمتنا عن مدن مروية معروفة في وسط السودان. مع هذا، فإن مجتمعات أصغر مبعثرة على مرمي البصر أعلى النيل وأسفله وفى سهل البطانة بالمثل. وربما كانت هناك مستوطنة مروية هامة في سوبا، ليس بعيداً عن الخرطوم الحديثة، حيث وُجد بها أسد منحوت بالحجر من أصل مروى قبل بضع سنوات مضت (١١١). بعيداً صوب الجنوب في سنار، على النيل الأزرق، بقايا كلٍ من جبّانة (مكوار) (١١٢) وقرية ذات حجم (أبو قيلى) (١١٣) من الأزمان المروية، وليس هناك سبب ليُفترض أن الإستيطان لم يمتد على طول النهر بين هذه النقطة والمراكز السكانية الرئيسة في جزيرة مروى (١١٤).

خرائب سنار لا تزال إلى اليوم أكثر بقايا معروفة من العهد المروى أقصى حدوده الجنوبية. أما لأى مدى بعيدٍ صوب الجنوب أو الغرب امتدت المملكة أو نفوذها، فقد ظل نهبا لقدر عظيم من التخمين. وكما أشار فيركوتر، لا توجد هناك حواجز جغرافية لتمنع إنتشار حضارةٍ زراعية إلى حدٍ يبلغ مستنقعات السدود العظيمة في جنوب السودان (١١٥). مهما كان الأمر، تظل كل المنطقة إلى جنوب سنار *مجهولاً لم يُكشف* بعد لعالم الآثار. أما إلى الغرب، فالدليل الذى أُسند لإثبات النفوذ المروى بسهول كردفان ودارفور (غرب السودان) (١١٦) من طبيعةٍ تخمينية وربما يقتضي ذلك الا يؤخذ بجدية . إن أقصى حدود للتوسع الكوشى الثقافى في إفريقيا سوف يتأتى تحديدها بالإستطلاع المنظم. في الوقت الراهن، نحن مُجبَرون على أن نقبل بسنار على أنها النقطة المروية القصيرة إستثنائياً، وحقيقةً كأقصى نقطة جنوبية إخترقتها أىُ حضارة نوبية خالصة.

إنها لحقيقة غريبة، لم تُفسر حتى الآن، أن كل البقايا المروية المعروفة في النوبة الجنوبية تقع



صفر ١٥ ٣٠ ٤٥ ٦٠

قدماً

شكل رقم ٥٤

مخطط لقصر مروي ، ود بانقا

إلى شرق النيل [١١٨]. بل إن جَبانات جبل مويه الممتدة، في المنطقة ما بين النيلين الأزرق والأبيض (الشكل رقم ٤٧)، ليست مروية في شخصيتها بلا جدال مع أن كثيراً من القبور تحتوى على مواد من صنع مروى [١١٩]. إننا بما لا مهرب منه نُذكِّر بعبارة بطلمي (١٥٠ ميلادية تقريباً) أن الضفة الغربية للنيل كان يحتلها قوم آخرون، النوبا، الذين لم يكونوا خاضعين لمروى [١٢٠]. وبقدر ما أن هذا الاقتراح يبدو غير محتمل، (لا يمكن صرفه كُليّةً في ضوء البَيّنة الآثارية المتوافرة الآن.

إلى شمال مروى، وجدت قلة من المواقع المروية في وادى النيل بعيداً ناحية الشمال حتى بربر، خمسة وسبعين ميلاً سافل العاصمة. إن شيئاً منها لم يُتحرّ عنه منهجياً بعد [١٢١]. ولا توجد بقايا معلومة بين بربر ونَبْتة في الفترة النَّبتية أو المروية. وكما ألمحنا إلى ذلك آنفاً، ربما أصبحت نَبْتة نفسها معزولة ثقافياً واقتصاديا بحلول الأزمان المروية؛ يتحدث هايكوك عنها في بواكير القرن السابع قبل الميلاد على أنها في نفس الوقت "..... مدينة مليئة بمبان قديمة تتحلل إلى خرائب، لا يكترث الملوك بزيارتها دائماً لأنهم كانوا ملاحقين في ضَيّقٍ من الكهنة في ليدفعوا ثمن إصلاحاتها العاجلة" [١٢٢]. إلا أن هذا لم يكن نهاية لقصتها، إذ أن معابد البركل أُصلحت إصلاحاً مكثفاً من قبل ناتاك اماني وأماني تيرى، وأُضيف على الأقل معبد واحدٌ جديد وبنايتان أو ثلاثة مبان اخرى إلى مجمع البركل في الأزمان المروية [١٢٣] . وهناك أجزاء من موقع المدينة والجَبّانة في صَنَمْ هي كذلك ذات تاريخ مروى [١٢٤] . كاوة، بدورها، كانت مكاناً ذا أهمية معتبرة في الفترة المروية المتأخرة، وكانت موقعاً "لقصر" إخر لا يزال قائماً رغم انها يصعب أن تُقارن بقصور مروى وودبانقا. وفى المساحات القليلة للمدينة التى تم تحقيقها، بقايا لمساكن مروية تقع من فوق المنازل التي ترجع إلى الفترة النَّبتية [١٢٥] . إن الدليل القائم على علم ترتيب طبقات الأرض هناك، كما في صَنَم وجَبَل البركل، تشير إلى إحياء ملحوظ لنشاط البناء حول مطلع العصر المسيحى، بعد قرون عديدة من الجمود الفعلى. نتيجة لهذا هناك مستويات إقامة نَبْتية ومروية متمايزة بصفاءٍ في معظم المواقع التى تنتمى إلى كلٍ من الفترتين، مع قليل جداً مما يربط بينهما فيما عدا الإستخدام، الإصلاح المتوصل للمعابد القديمة. البينة القائمة على طبقات الأراضى تشير إشارة واضحة إلى فترتى انتعاش متميزتين للحضارة الكوشية [١٢٦] .

فى اتجاه الشمال من كاوة، تظهر كذلك فاعليات النهضة المروية في جزيرة أرقو (بنوبس؟) وأرض عبرى – دقو النهرية. في أرقو، أُعيد بناء معبد تهارقا (قارن الفصل العاشر) بناءً مكثفاً، وزين خارجة بتمثالين ضخمين لشخصين (الصورة ١٥ – ب) [١٢٧]. هذه الأنشطة ترجع بطبيعة الحال لناتاك أمانى، المعروف من مضامين أخرى بأنه البَنّاء العظيم ومُعيد البناء للعهود المروية [١٢٨]. "اتييّ" (صدنقا) ، التى اقتُرحت منذ فترة وجيزةٍ كمحل دفن لتهارقا نفسه، مذكورةٌ في نصوص عديدة كموقع محلى هام للفترة المروية [١٢٩] ، إن هذا مُثبت – حتى هذه اللحظة – آثارياً بمالا يعدو جَبانة ومجموعة صغيرة من أهرامات الطوب التى تحيط بالقبر المنسوب إلى تهارقا [١٣٠] . مع هذا ، فعلى بعد أميال قليلة شمال النهر كان هناك مَعبد مروى لا بأس به في (عمارة شرق) . لقد زاره، لحسن الحظ، ورسم رسماً تخطيطياً عاماً له رحالة عديدون في القرن التاسع عشر، ذلك أن كل أثر له بالتقريب إندثر في الأزمان الحديثة [١٣١] .

النصوص الحرفية للفترة المروية لا تذكر اى مستوطنات بين صدنقا وفرس [١٣٢] ، ولم يعثر إلا على مواقع قليلة في هذه المنطقة من قِبَل مسوح السد العالى [١٣٣] . إن *بطن الحجر* الجرداء غير المنتجة كانت المنطقة الأخيرة الأقل تأثراً بالنهضة المروية، ربما بقى معظمها مهجوراً كما ظل كذلك منذ أيام الحكم المصرى. نقيض ذلك، فالمساحة من الشلال الثانى صوب الشمال إلى وادى العلاقى تكاد أن تكون مبرقعة بإستمرار بالبقايا المروية [١٣٤] . هذه المستوطنات الشمالية لا يمكن، مع هذا، أن تطالع ببساطة على أنها نقاطٌ خارجية على الحدود لمملكة جنوبية تتوسع بالتدريج شمالاً. إنها تمثل من عدة وجوه محافظةً مروية متميزة وملأى بتاريخٍ، وإقتصادٍ، وثقافةٍ خاصة [١٣٥]، سوف

نناقشها في الفصل الثاني عشر.

إن وجوهاً عديدة للحياة اليومية المروية لم تمس في المسح الآنف . مع ذلك، فإن إلمامنا بهذا الموضوع جاء في أوسع أجزائه نتيجة لتّنقيب المواقع المروية في النوبة السفلى بحيث أنه يبدو من الأفضل أن نُرجئ إعتبار الوجوه المتواضعة للثقافة المروية، وملخص تفسير الفترة ككل، حتى الفصل القادم. وقبل أن نوجه إنتباهنا نحو الشمال، مع هذا، تبقى قيد الإعتبار قلة من الخصائص الإضافية للحياة والمجتمع المروى في أراضي السهل .

الديانـة المرويــة

الديانة في مروى هى مثل الوجوه المتغلبة الأخرى من الحياة في النوبة العليا، لابد أن تستقرأ بشكلٍ موسع من بقايا صروحها. لخص شيني ببراعته الحالة التى تقع عليها معرفتنا الراهنة:

إلى أن نستطيع قراءة اللغة. نجد المصادر لتقدير الديانة المروية مقيدةً بمعتقدات المعبد والقليل الذى يخبرنا به الكُتاب القدامى . إن المعلومات المعطاة من هؤلاء الكتاب لاتُعين كما ينبغى ، لأنهم بينوا إدراكاً ضئيلاً عن الكيفية التى يمكن بها لمعتقدات يعتنقها الآخرون أن تختلف عن المعتقدات التى يحملونها هم بأنفسهم، وكثيراً ما يحاولون... أن يعرفوا الآلهة المحليين بتعريفهم الذاتى. (قارن مقالة هيرودوتس التى نقلت في بداية هذا الفصل).

إن دراسة العبادات المتعددة الموصوفة بالصروح تعكس أن الشعب المروى إشتقّ أفكاره الدينية من مصر، أن أغلبية آلهتهم ورموزهم الدينية ظلت دائماً لصيقة الشبه بما أخذ به الفراعنة. لكن كان لهم بالفعل آلهة تخصهم ليس لها نظراء مصريين، ويعتبر أباداماك- على الأقل- واحداً من هؤلاء، بل أصبح إلـٰهاً لجزيرة مروى.

دونما شك عقد الملوك المرويون الأوائل الولاء لآمون كعنصر أساسى لفترة تقلدهم العرش وإننا لنعلم من النقوش... التوقير الذى أخذ به. إن النحوت ليست منقوشة فحسب باللغة المصرية، لكنها في الأفكار الدينية التى تعكسها، تظهر توافقاً كاملاً مع الفكر المصرى . ربما يكون هذا الدين الرسمى ، المشتق كما كان من التعاليم الدينية للإحتلال المصرى الأسبق، مقصوداً على الأسرة المالكة، وبلاطها، وكهنوت المعبد [١٣٦].

لم يعرف الملوك المرويون بأنشطة بناء المعابد، باستثناء التفجر العظيم الوحيد من نوعه للتشييد وإعادة البناء في عهد حكم ناتاك أمانى وأمانى تيرى . بالنسبة للآخرين، تتعدى الصروح الجنائزية الملكية لحد بعيد عدداً وتألقاً كل الصروح الدينية الأخرى، في حين أنه وسط المبانى المدنية تبرز القصور بوضوح في مروى وودبانقا باعتبارها أكبر من المعابد حجماً . المعبد المروى المألوف في الحقيقة قليل الشأن نسبياً، إذ يشتمل على غرفة مستطيلة منفردة يُدخل إليها عبر بوابة مقوسة ضخمة، ويعد معبد الأسد في النقعة (الصورة ١٥ – أ) خير مثال على ذلك بقى حياً حتى اليوم. أُعيد بالضرورة وضع نفس الرسم على مقياس أصغر فيما يتعلق بغرف إنتظار الجنائز الموصولة بالأهرامات الملكية. بعض المعابد الكبيرة لها أربعة أو ستة أعمدة داخلية تقيم السقف الخشبى المنبسط . في حالات معدودة كانت غرفة العبادة تُحجب عن بقية هيكل المعبد بفاصل داخلى ، في حالات قليلة معدودة أخرى كانت هناك قاعة أمامية مسوّرة في مقدمة البوابة المقوسة الرئيسة . يوجد إستثناءان ملحوظان للرسم العادى للمعابد هما معبد الشمس في مروى والمعبد الذى يقع بين المسور العظيم في المصورات، كلاهما له أعمدة منتظمة الأبعاد تحيط بداخلهما غرفة للعبادة ذات أسوار تنتصب جدرانها منفردةً وسط المبنى. هذا اللون من المعمار يوصف على نحو ما تقدم بمصطلح Peripetral ؛ يعتقد أنه يمثل واحداً من عدد من التأثيرات الآسيوية في ثقافة مروى (انظر بأدناه) [١٣٧] .

أما أشد ملامح المعابد المروية التى لا تزال باقيةً إثارةً للإهتمام، كذلك فيما يتصل بغرف

الأهرامات، فهي رسوماتها الجَنبية المنقوشة في الحيطان، وهى افضل ما تكون نموذجاً في معبد الأسد في النقعة (الشكل رقم ٥١). أسلوبها الفنى والمناظر المرسومة مصرية الأصل بلا نزاع، لكن هناك لمسات محلية متميزة. تعد النسب الضخمة للشكل الإنسانى خاصيةً دالة على الزُخرف المروى المتأخر؛ يُشّخص دنهام في مقدرةٍ رسماً جانبياً لإحدى الملكات بأنه يبين "... سيدة ملكية مرتفعة بحق ... راسخة في ثبات بأُبهة سلطانها وهى تتربع بدست الحكم على عرشها الأسدي" (١٣٨).

لمسات إبداعية أخرى هى تمثلات للإله الأسد بثلاثة رؤوس على جسم أفعى، وحيوانات أسطورية، مؤلفة متنوعة أخرى وسط الرسوم الجَنبية في المصورات (١٣٩).

تُبرز معابد آمون لا شك في ذلك صروح كوش الدينية الأخرى حجماً وعدداً أسماء الملوك المرويين، بتكرارها المتواصل لمركب "امانى"، سوف تعنى كذلك في وثوق أن تقديس هذه العبادة الطيبية ظل مركزاً لأيدولوجية الدولة حتى نهاية المملكة. الجدير بالذكر، مع هذا، أن كل معابد آمون فيما عدا القائم منها في مروى على وجه الإحتمال تبدو كأنما شُيدت في عهود نَبتية. آمون يبرز بين الرسومات الجَنبية في المعابد المروية الخالصة، لكنه لم يعد سّيداً بأقوى مما هو عليه حال عدد من العبادات الأخرى. ربما ينطبع من هذا أن الدين المنظم في الفترة المروية كأن شأناً مَلكياً بدرجة غير مطلقة تماماً كما كان عليه في عهود نَبتة، فقد كان عليه أن يُلبى حاجات عناصر أخرى من السكان إلى جانب البيت الحاكم.

يلى آمون في الأهمية، على الأقل في منطقة مروى، الإله الأسد، أباداماك، الذى لا يوجد له نظير مصرى. وكما ذكرنا آنفاً، كانت هنالك معابد للأسد في مروى، والمصورات، والنقعة، وربما الباسا. يبدو تقديس أباداماك مهماً على وجه الدقة في المصورات، حيث يُذكر في رسوم خطية متعددة وعلى صعيد واحد في صلوات رسمية، طويلة منقوشة بهيروغليفية مصرية جيدة على جدران معبده الذى نُقّب قبل وقت وجيز (١٤٠). الكلمات التى يخاطب بها الإله قَيّمة ذات أهمية :"التحيات لك، أباداماك، سيد النقعة؛ إله عظيم، سيد المصورات الصفرا؛ إله جليل، على رأس النوبة. أسد الجنوب، قوى الذراع" (١٤١). يوجد هنا اقتراح ان الإله الأسد كان حارساً محلياً للجنوب المروى (حيث كانت الأسود شائعةً وافرة حتى القرن الأخير)، ومما هو جدير بالملاحظة اننا قلما نسمع عنه في النوبة السُفلى. المكان الرفيع الذى أُودعت به معابد أباداماك في المدن الجنوبية تمثل بهذه الكيفية تسليماً بالتقليد الدينى المحلى (١٤٢).

الإله الشمس الممّثل في لوح النصر العظيم في جبل قيلى (الشكل رقم ٤٨)، والذى ربما كُرس له معبد الشمس في مروى، يبقى شيئاً كأنه الطلسم. مثل أباداماك ليس معبوداً مصرياً فيما أُدرك عنه، لكنه يبرز بشكل أقل هيمنةً بكثير من الإله الأسد في النصوص الدينية المروية الباقية. ربما أن تقديسه في مروى يصير دليلاً على انتشار طائفة "مثرا" إله النور الفارسى، التى كانت تنال شعبية في أجزاء عديدة من الإمبراطورية الرومانية في نفس الفترة (١٤٣). وهي تأثيرات شرقية أخرى يمتهن علماء كُثُر التّسليم بها في ثقافة الجنوب المروى.

أما إيزيس، التجسيد المصرى للآلهة الأم القديمة قدم الدهر، فتظهر مجدداً في الرسومات الجانبية للمعبد المروى، وكانت هناك معابدٌ مكرسة لها بوجه خاص في مروى وودبّانقا. يحتمل أن تمثل هذه إنتشار النفوذ الديني من مصر البطلمية صوب الجنوب حيث انبّعثت آلهة الخصوبة كأوسع معبودة شعبيةً في القطر تحت الحكم الإغريقى. تقديسها كان لكل الأغراض العملية ديانةً لدولة البطالمة والمحافظات المروية في النوبة السفلى، كما سنرقب ذلك في الفصل القادم. إنها لا تبدو مُنجزةً لنفس الهيمنة في الجنوب المروى، حيث مكثت تقاليد دينية أقدم منها زماناً وأصعب اندثاراً. مع هذا، كانت إيزيس مُهمة فيما يتصل بالطقوس الجنائزية للمرويين، مثلما كانت كذلك في مصر. نقلاً عن شينى مرة أخرى :

بعض التأييد لوجهة نظر هيرودوتس فيما يختص بديانة إيزيس وأوزيريس للأغراض الجنائزية يمكن أن يُشاهد في العدد المتضخم لطاولات القرابين الجنائزية وتضرعاتها لهذه الآلهة. ولما كان أوزيريس هو الإله التقليدى للأموات وإيزيس زوجته، هنا مرةً أخرى يمكن أن تُرى الأفكار المصرية تسود. إن كثيراً من هذه الطاولات القربانية تُبيّن الآلهة نفثيس والإله أنوبس، وكلاهما معنى بطائفة الموتى في مصر، تتدفق منهم البركات. ورغماً عن أن صيغة هذه الطاولات القُربانية والنقوش مروية، فإن الأفكار اللاهوتية المتضمنة فيها مصرية (١٤٤).

يبدو من الضرورى بصعوبةٍ إضافة الطقوس الجنائزية يتحتم أنها لعبت دوراً هاماً وربما مُتحكماً في الحياة الدينية لمروى، كما فعلت طوال تاريخ مصر القديمة وكوش. هذه هى المساحة الوحيدة للتعاليم الدينية التى بوسعنا أن نكون متأكدين، من بيّنة الجّبانات، أنها كانت شائعةً لدى كل أوساط المجتمع المروى، ليس وفقاً على البلاط الملكى والنبلاء المدافن التلية الملكية المؤثثة بفخامة وُصفت من قبل في صفحات سابقة. أما أغنى مدافن "خاصة" في الجّبانة الغربية بمروى، رغم أنها أصغر حجماً من المدافن التلية الملكية، فيصعب أن تقل عنها بهاءاً. فهى على قدم وساق مزودةٌ بأهرامات صغيرة أو مصطبات، مُسورة بحيطان، ولها غرف إنتظار للجنائز وأحياناً غرف مُركّبة أسفل الأرض. نقيضاً لذلك، تجد غرف دفن الأموات من المواطنين العاديين ذات تكوين بسيط للغاية على وجه الدوام. على أنّ وفرة المتاع الذى عُثر عليه في الجّبانات الأشد تواضعاً في المُحافظات من أحد أطراف النوبة إلى طرفها الآخر تحمل إشهاداً للحقيقة التى مؤداها أن الطقوس الجنائزية المكملة لم تكن حِكراً للطبقة العليا. (يوجد تقدير أدق تفصيلاً لممارسات الدفن المروية، المعلومة لنا بصورة رئيسة من جبّانات في النوبة السُفلى، بالفصل التالى).

مجتمع الجنوب المروى وثقافته

الصروح التى جرى حفرها ومواقع المدن التى لم تُنّقب بعد لا تسمح لنا إلا بعمل تعميمات تلخيصية قليلة حول الأحوال الإجتماعية والثقافية في أراضى السهل المروية . ما نبدأ به، أن بإمكاننا أن نرقب أن الإستيطان كان أكثر تحضراً عنه في أى فترة سابقة. عملية التحضير كانت بالطبع غير جديدة؛ فلقد بدأت حياة المدينة في النوبة تحت الدولة الجديدة المصرية، وفى العهود النّبتية كانت كلٌ من صنَم وكاوة مركزاً حضارياً هاماً. إلا أن بقايا المدينة أكثر تعدداً وامتداداً لمدىً بعيد من بقايا عهود سابقة. بل إن أشد القرى تواضعاً تَعرض تخطيطاً منحصراً بما يدعو للدهشة، مُنبئاً أن الحياة الإجتماعية ذات النطاق الأُسرى بين شعوب النيل وصلت درجةً من التطور ظلت لأمدٍ طويل ميزةً للشرق الأدنى (انظر "حياة المدينة والقرية" في الفصل التالى).

إن عدداً من الإستقراءات الإستنباطية يمكن إستنتاجها من الشخصية الحضرية للمجتمع المروى. أحدها نمو طبقةٍ وسطى على حجم، ربما ازدادت قوتها وثروتها على حساب الملكية. إن هذا مثبت أيضاً بعدد المدافن "الخاصة" الثّرية في الجّبانة الغربية في مروى وصدنقا وغيرهما. وكما لاحظ هايكوك،

... التعاقب المَلكى الأخير [لمروى] الشمالية هو المصدر الرئيس للبيّنة في هذه المجادلة... لم تكن هنالك مدافن تلية غنية بعد القرن الأول للميلاد. غير أنه تجدر الإشارة إلى أنه .. بالرغم من الإنخفاض الثابت في حجم المدافن وتشييدها، لا يزال بعضها حسن التأثيث بالمواد... إن هذه المدافن يعود تاريخها بلا تدقيق إلى ما بين النصف الثانى من القرن الأول الميلادى ونهاية الثالث. المدافن الخاصة، التى يُحتمل أن تقع بين القرن الثانى إلى الثالث، ... دائماً مُترفة بحق، واحتوت أعداداً كبيرة من المواد المتأثرة بالتقاليد الإغريقية ـ الرومانية. من الممكن أن ما كان يحدث لم يكن إفقاراً عاماً، لكن ما حدث هو ببساطةٍ حكم مَلكى لطاغ يُفسح الطريق بين يَدَى طبقة غنية من النبلاء الأقوياء؛ وهكذا ربما اصبح الفارق الإقتصادى بين الحكام والمحكومين أصغر مما كان عليه في أى وقتٍ مضى منذ إنشاء الأسرة المالكة النّبتية (١٤٥).

التحول الاجتماعي المرئى هنا ربما كان عرضاً تشخيصياً بدوره لتحول إقتصادى. وعلى نحو ما رأينا في فصول سابقة، دائماً ما اعتمد رخاء كوش إلى حد كبير على تجارة الصادر، وكان انتشار الحضارة الكوشية بأراضى السهل راجعاً فيما هو محتمل إلى امتداد طرق التجارة البرية. على أنه لقرون، كانت وسائل التوزيع محتكرةً من العائلة المالكة وصفوةً حاكمة صغيرة، جنو تقريباً كل منافع التبادل السلعي النوبي الخارجي. هذه الصورة تغيرت بشكل راديكالى في العهود المروية. فكان حجم البضائع المتحركة صوب الجنوب على طول النيل وفوق دروب القوافل الصحراوية أكبر بوضوح ظاهر عنها في أى فترة سابقة، وكانت تبلغ سوقاً إستهلاكياً أوسع عرضاً. بل إنه حتى الجّبانة المحافظة الصغيرة في سنار، بأقصى حدود الإمبراطورية المروية، كانت رافلةً في برونز، وزجاج، وغيرهما من سلع الترف التى كانت في غالبيتها صُنعاً أجنبياً [146]. مثل هذا العمل الواسع لم يكن بالتأكيد إحتكاراً ملكياً؛ إنه من الممكن فقط أن يُعلم عن نشاط عدد متقدم من أصحاب الأعمال الخاصة. والمجمل، أن الرخاء المادى في الفترة المروية كان ذا قاعدة أعرض بمستوى بالغ من عهود سابقة، وأن طبقة وسطى نشطة قد نَمّت مع هذا بإقتصاد تجارى فاعل . هنا نتعرف على اللمسة الإغريقية بوضوح عن أى مكانٍ آخر وهى تحول الحضارة القديمة للنيل [147].

ولأننا نعلم، حتى اللحظة، شيئاً قليلاً عن حياة القرية في الجنوب المروى، فمن الصعب أن نُصدر تعميماً حول الإقتصاد الزراعى للمنطقة. البقايا المعروفة لنا في أماكن مثل أبو قيلى هى بالتأكيد لزراعيين مستقرين أرجح منها مكاناً للرعاة. وعلى قدم المساواة في سهل البطانة، فإن الشخصية الحضرية لمعظم المستوطنات المعروفة تجعل من المحّتم أنهم كانوا مدعومين بتطور الزراعة في *الوديان* الغربية بما يزيد على تربية الحيوان في الأراضى العُشبية المحيطة. أما وصف استرابو للنوبة فيذكر زراعة الذرة [148] والذى أضحى في عهود متأخرة غلة الغذاء الرئيس في السودان (قارن الفصل الثانى). إن سرده يُزودنا بدليلنا الأول على زراعة الذرة جنوب مصر؛ ربما أنه كإحتمالٍ قوى أن إدخال هذا النوع من الحُبوب الذى يقاوم الحرارة والجفاف هو الذى جعل ممكناً مد الزراعة من جروف النيل إلى أراضى السهل.

إن لنا سبباً حسناً لنعتقد أن الفلاحة في الدولة الجديدة والعهود النّبتية نُظمت على الأقل جزئيا على أساس إقطاعى، يُكّون ملاك الأراضى في حالات كثيرة مؤسسات المعبد العظيم (الفصلين التاسع والعاشر) [149]. أما عما إذا كانت معابد العهود المروية الأكثر تعدداً، وإن كانت أصغر بقدرٍ عالٍ، موهوبةً بالمثل بحيازات إقطاعية فإنه لأمر غير جازم، لكنه يبدو على أقل تقدير فرضيةً معقولة. من غير المحتمل أنها كانت مدعومةً على الإطلاق بمخصصات ملكية، كما أنها لا تبدو مشاركةً بأى قدر عظيم في التجارة. في نفس الوقت، يجعل سكان النوبة الأصغر حجماً نسبياً، والإمتداد الشاسع العريض لأرضٍ قابلة للزراعة في الجنوب، من المُستيقن به أن قسماً كبيراً من السكان ـ ربما أغلبية غالبة ـ كان من أصحاب الأملاك الحرة الصغيرة، كما في كافة فترات التاريخ النوبى .

كذلك يقرر استرابو، كما يفعل كتّابٌ قدامى عديدون متأخرون، أن عدداً متداحاً من رعايا مروى كانوا رعاةً من الرُحلّ الفقراء [150]. هذا الوصف لا يمكن أن يشير إلى السكان الجلوسيين المستقرين بالحضر الذين تعد بقاياهم معلومةً لنا من الناحية الآثارية. لكنه يمكن أن يعنى شيئاً واحداً هو أن المملكة المروية مارست قِسطاً من السيطرة على رعاة الصحراء أثناء ذلك الجزء من العام حينما جاءت بهم هجراتهم السنوية إلى حافة المنطقة المستوطنة. ويمكننا أن نقرر أن نوعاً من التآلف المعيشى حدث بين المزارعين والرعاة، مثلما كان دائماً أمراً حقيقياً في تاريخ الشرق الأوسط. وبنفس الوتيرة فإن المزارعين المستقرين في منطقة شندى اليوم يتمكنون من رعى أعدادٍ معتبرة من البقر على أراضى البطانة العُشبية عن طريق تشغيل جيرانهم البدو كرعاة [151]. بيد أن رعاة اليوم يظلون فقراء ومتخلفين، ويبدو غير محتمل أن أسلافهم في عهود قديمة قدّموا عطاءاً ملموساً كمساهمةٍ في الحياة الإجتماعية أو الإقتصادية للإمبراطورية الكوشية [152]. إن كلا من

استرابو [١٥٣] وبلينيوس [١٥٤] كانوا على وجه الدقة مأخوذين بإنطباع عن فقرهم.

إذا كان البدو الرعاة قد ساهموا قليلاً في حضارة كوش، مع هذا، فإن علينا أن نُدرك أياً كان الحال عليه أن "تعظيم البقر" لا يزال مزدهراً بهمة معتبرة بين المزارعين المستقرين. مع ذلك ليس مؤكداً تأكيداً واضحاً كما في ثقافة المجموعة الثالثة (الفصل السادس)، فقد كانت الرسومات التى تُعبّر عن البقر ورعيه ألواناً زُخرفية شعبيةً على أوانى الفَخار والبرونز، علاوة على الرسومات الجنبية للمدافن الملكية [١٥٥]. تُبين الأبقار عادةً بضُروع ضخمة الحجم، ويصف قدح برونزى منظراً لحلب اللبن [١٥٦]. كميات عظام البقر التى كُشف عنها في حفريات وجيزة في مروى تُظهر أن اللحم ومثله اللبن كانا مهمين في الغذاء المروى [١٥٧]. ولذا فقد لعبت تربية الحيوان دوراً في حياة المزارع المروى، سواء كان ذلك مباشرةً من خلال أعماله الخاصة أو غير مباشرةً عبر إتصالاته ببدو البطانة.

أخيراً : في إرتباط كذلك بالتحول الإجتماعى والإقتصادى للنوبة، يمكننا أن نلاحظ بإنتظام خروج موظفى دولة أقوياء في المحافظات بكل من المحافظة النَّبتية القديمة والنوبة السُفلى. إنّ المجتمع السياسى للعهود المروية أصبح لا مركزياً بصورةٍ أعلى من أى فترة سابقةٍ منذ إنشاء حكم الأُسرات المالكة. ربما كان هذا لا محيص عنه بالنظر إلى انشطار المملكة إلى ثلاث مقاطعات منفصلة جغرافياً لكنها بالتأكيد تعكس في نفس الآن الثروة والسلطة المتزايدتين للبرجوازية المستقلة. إن موظفى الدولة في المحافظات بالشمال ربما بدأو معّينين من طرف البيت الملكى بيروقراطياً، غير أنه عندما اضمحلت قوة سلطات النظام الملكى الحاكم فقد انتهى بهم الحال إلى حكام متوارثين، شبه مستقلين [١٥٨]. وبوسعنا أن نتمعن في الفترة المروية الأخيرة بدايات أول مجتمع إقطاعى متأصل في النوبة. إن تطوره سوف يكون أفصح لساناً وبشأنٍ أسمى في العصر ما بعد المروى (الفصل الثالث عشر).

التحولات التى فصلت الحياة الإجتماعية والسياسية والإقتصادية في مروى عن نوبة الفترات السالفة يمكن بالتقريب أن تتتبع كلها مباشرة أو غير مباشرة في أثر الحضارة المأثورة عليها. يصدق نفس القول على مجالات أخرى من الثقافة بالمثل، المعمار، والزُخرف الحائطى، والفنون الشعبية ما فُتئت مصرية أساساً، لكنها بلمسات هيللينية؛ مرآة تُجلى في كل حالةٍ التطورات المعاصرة في مصر تحت الحكم البطلمى والرومانى بشكل لصيق. في مروى، رغم هذا، علينا أن ندرك أيضاً مجموعة صغيرة من تأثيرات خارجية لا تظهر أوروبية الأصل . هذه هى ما تُدعى بالتأثيرات الشرقية وقد تعارف عليها علماء متعددة بالثقافة المروية.

أما العناصر المروية التى نُسبت إلى أصلٍ شرقى فتشمل إله الشمس، وبدقة التخصيص صيغة "تمثيله في جبل قيلى" والمعابد التى ربما كانت مصاحبة أيضاً لإله الشمس؛ وعبادة تقديس الفيل (إذا صح أنها كانت كذلك) في المصورات والرسومات الممثلة لأباداماك ذات الرؤوس الثلاثة على جسد أفعى في النقعة [١٥٩]، وإدخال *الحفاير* وزراعة القطن في وادى النيل [١٦٠]؛ وشكل أوانى البرونز ثلاثية القوائم التي تشيع في جّبانات مروية [١٦١]. هذه اللمحة من العناصر الفنية الهندية كانت من القوة الشديدة في بعض جوانبٍ من الفن المروى، بحيث أنها قادت فيركوتر للقول بأنه "يعتبر كل الفن المروى هندياً" [١٦٢] مثلما أنه متأثر بالفن المصري.

الحقيقة، أن الأثر المتراكم للتأثيرات الشرقية في مروى هزيل لا يُسمن ولا يغنى بحق إذا ما جرت مقارنته بالمصرى وبالتأثيرات الإغريقية ـ الرومانية على السواء، وقد أنكر الأصل الخارجي لبعض العناصر دُفعة واحدة [١٦٣]. اما ما هو أقوى صلةً بالأمر، فهو إنها "فتات وشتات" ولا تقوى على أن تكون مُركباً متكاملاً، ولا تقطع تأكيداً بماضى مكانٍ واحد في الأصل. لربما وفدت العناصر المختلفة للنوبة في عهود متفاوتة ومن فوق دروبٍ متنوعة، بما في ذلك ما وفد إليها من مصر . إن الهند وفارس بعد كل ذلك كانا قد أضحيا جزءاً من "العالم المعروف" منذ فتح الإسكندر، وكانت

افكار شرقية كثيرة قد اضحت مُتداولةً في العالم المعروف مؤخراً. ركب أفيال الحرب الإغريق والرومان الأوروبيون وما كانوا في ذلك أقل من القرطاجينيين والبطالمة، وقُدس مِثراً في بريطانيا وألمانيا النائيتين مثلما عُبد بأجواءٍ أسطع شمساً. كانت التجارة الملاحية تنتعش في المحيط الهندى الغربي، ووجدت وفرة من البضائع الشرقية طريقها إلى أقطار البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى الحبشة والنوبة، ربما مباشرة أدنى قرباً عن طريق البحر الأحمر. بإجمال، إن التأثيرات الشرقية مما قد يُرى في مروى يحتمل الا تكون أعظم تعدداً ولا أرفع قيمة أو أهمية من التأثيرات التى قد تُنظر في روما نفسها؛ إنها أكثر وضوحاً فحسب في مدن الصحراء الشرقية المعزولة حيث لا يحيط بها دفقٌ متموج من الطرائق والتأثيرات المتنازعة .

الفصل الثانى عشر

إنبعاث نهضة الشمال

عودة الإستيطان البَطلمِى،(*) والرومانى، والمروى فى النوبة السُفلى

بينما كانت المراكز السياسية والإقتصادية لكوش تنتقل في إتجاه الجنوب من المنطقة النَبتية نحو أراضى السهل المَروية، كانت تطوراتٍ سياسية هامة من نوع آخر توالى بعيداً في الشمال . فعقب طرد حكامها النوبيين (الفصل العاشر) ، ظلت مصر فريسةً لعدة قرون للفتح الأجنبى واحداً بعد الآخر. إن فُصولاً من الحكم الآشورى والفارسى كانت تتخللها على فتراتٍ إستعادة للإستقلال المصرى، إلي أن وضع فتح الإسكندر الأكبر في ٣٣٢ قبل الميلاد نهايةً أخيرة للتسلسل الفرعونى القديم. ومع هذا، فإن معياراً من الإستقرار والحكم الذاتى تم إقراره بعد موت الإسكندر، عندما قام خليفته، القائد المقدوني بَطلّمِى، بإلغاء ولاءاته الخارجية واشترع أُسرةً مالكة مستقلة في الإسكندرية. بعد ذلك بما يقرب من ثلاثمائة عام إعتلى البَطّالِمَة البقايا المتآكلة من حضارة مصر، حتى أهلكت كليوباترة، آخر سليلةٍ، حياتها في عام ٣٠ قبل الميلاد. وبموتها ذَوَى آخر رمزٍ للإستقلال المصرى. وأضحت أرض النيل القديمة محافظةً رومانية، لتحكم في الأعوام ست مائة المقبلة من قبل قناصلة أجانب يعّينون من روما أو القسطنطينية .

تقدم حضارة مصر البَطلّمِية لقاحاً غريباً من التأثيرات الإغريقية والفرعونية، تسود فيها الأخيرة. وكما علق توينبى ، إنها اللحظة الوحيدة التى تبدو فيها تقاليدُ لحضارةٍ أقدم متغلبةً على تقاليد يونان، بدلاً من العكس [1] . إن البَطّالِمَة لم يتبنوا فحسب ألقاب الفرعون ببلاغتها المنمّقة، لكنهم في معظم الجوانب الأخرى واصلوا تقاليد الملكية المصرية وحياتها التى تسبقهم دهرا. نتيجةً لذلك، ربما كان لتغيير الحكام أثر محدودٌ لكُتَل الفلاحين. وبغض النظر عن هذا، فإن النفوذ الإغريقى كان له أثر ملموس في مجالات أخرى من الحياة المصرية، وبوجه خاص في المال والتبادل السلعى. لقد شهدت الفترة البَطلّمِية إحياء إقتصادياً رئيساً، ناتجاً عن كلٍ من توسُع الإنتاج الزراعى [2] وتنمية التجارة الملاحية عَبر موانيء جديدة النشأة في الإسكندرية وعلى ساحل البحر الأحمر. ومن خلال هذه الموانيء وصلت مصر إقتصادياً وكذلك سياسياً وإيدولوجياً بالعالم الإغريقى - الرومانى *القديم المعروف*. إن أنشطة البناء المتعددة التى مارسها البَطّالِمَة وخلفاؤهم الرومان في مصر العليا والنوبة السُفلى، إن لم تكن تعنى شيئاً آخر، كانت شهادةً على الحيوية الإقتصادية للعصر[3] .

فى آنٍ واحد سعى البَطّالِمَة، مع برنامج إنعاشهم الإقتصادى والسياسى لإعادة إدّعاء حق مصر التاريخى في النوبة السُفلى من جديد. كانت المنطقة في هذا الوقت، إلى الحد الذى نعلمه، مهجورةً هجراناً واسعاً، ومن غير المحتمل أنه كان لضَمّها علاقةً ما بالمشروع البَطلّمِى المخطط للتوسع الزراعى. الأبلغ إحتمالاً أن السياسة الجديدة لمصر نحو الجنوب دفعت بها رغبةً في إقامة إدارة مباشرة على خطوط الإمداد من مَروى وساحل البحر الأحمر ، الذى لم ترد عبره منتجات المناطق الحارة المألوفة في الأزمان السالفة وحدها، إنما كذلك أفيال الحرب التى استُخدمت في حملات

(*) البطليموسي نسبة إلى البطالسة في تراجم أخرى . وفضلنا البطلمى نسبة إلى البطالمة لتطابقها مع النطق الأصلى . انظر المقدمة – المترجم .

بَطْلَمِية عسكرية عديدة في آسيا (٤) . ولقد بالغ أحد الكتاب منذ فترة وجيزة عندما اقترح أن صيد الفيل ربما كان الدافع الأساسى للتوسع البَطْلَمِى في الجنوب، الذى بداه على ما يبدو الحاكم الثانى من الأُسرة الملكية (٥) . بمجيء عهد بَطْلَمِى السادس (١٨١ – ١٤٥ قبل الميلاد)، مع ذلك، جُدِّد نشاط مناجم الذهب الصحراوية، ويبدو أن إخراج الذهب من المناجم كان عاملاً هاماً على أقل تقدير في سياسة مصر الجنوبية مثل صيد الفيل. (إن وصف تعدين الذهب المصرى الذى ذُكر في الفصل التاسع كتبه في الحقيقة زائر إغريقى لمناجم الصحراء خلال العهود البَطْلَمِية) (٦) .

كما هو معتاد تركّز إهتمام مصر قبل أى اعتبار آخر في المنطقة ما بين أسوان ووادى العَلاقى – الطريق الرئيس لمناجم الصحراء . المحطات العسكرية والتموينية أُنشئت في عددٍ من النقاط على امتداد النيل ، وأُعلنت السيادة المصرية على الملأ بالطريقة التقليدية ممثلةً في بناء المعابد في بسلشيس (دكة الحديثة) ودابود، ترتيباً يجاور الحدود العليا السُفلى من الإقليم الذى أُعيد إحتلاله. وكانت المسافة من أسوان إلى وادى العَلاقى، تبعاً لنظام القياس الإغريقى – المصرى، إثنى عشر سخيوناى (حوالى خمسة وسبعين ميلاً)، أما المقاطعة التى أعيد إحتلالها ، ولعل اسمُها القديم أصبح مَنسياً خلال قرون التخلى عنها، فقد أصبحت بمرور الزمن معروفةً بإسم الدوديكاسخيون – أرض الإثنى عشر *شوناى* (حوالى خمسة وسبعين ميلاً) . وتطورت بالتدريج في ظل الإسم لتصبح أخر محافظةٍ جنوبية لمصر الإغريقية – الرومانية، وهكذا بقيت حتى نبذها ديوقليتانوس مؤخراً لبدو الصحراء بعد خمسمائة عام .

من الواضح أن أركامانى "أرقامين" (٧) الذى في مختلف التقديرات، كان واحداً من أكثر الملوك المرَويين طاقة، عَدّ النوبة السُفلى دائرةً لنفوذه الخاص. وطالع لما أثارته الأنشطة البَطْلَمِية في الدوديكاسخيون،أحس إنه مجبر ليتخذ إعلاناً مضاداً بشأن السلطة عليها . وقد اخذ إعلانه شكل قاعة دخول صغيرة أضافها إلى معبد بَطْلَمِى الرابع في بسلشيس، منقوشةً بشعاراته الملكية الخاصة . وفى زمنٍ يواكبه تقريباً اقام مِعبداً جديداً كل الجِدّة في فيلة – أضاف إليه بَطْلَمِى الرابع بدوره قاعة دخول. (كذلك يبدو أن أدكر آمون، وهو ملك مرَوى آخر لم يتم تحديد مكانه في التسلسل الملكى، شيّد معبداً صغيراً بالقرب من فيلة، أضاف له بَطْلَمِى السابع إضافات لاحقة (٨). هذه المبانى "الملقحة" الغريبة عُدّت دليلاً على كلٍ من التنافس والتكالب بين الملكيات النوبية والمصرية (٩)؛ والنقطة ذات الأهمية والدلالة في الحالين هى أن كليهما أحسّ بضرورة إعلان مصلحته في منطقة لم تكن لعدة قرون محل اعتبارٍ لأى منهما . وقد يبدو كذلك أن كلاً منهما إعترف بحقوق الآخر، لأنهما تأذّنا بإقامة المعابد والنقوش دُون مُساس بها . (مع ذلك، خلال فترة لاحقةٍ من العداوة أزال بَطْلَمِى الخامس بعض شعارات أركامانى من فيلة. أما قاعدة الحكم الثنائى فتبدو متضمنةً آنفاً في معابد بسلشيس وفيلة الممتزجة؛ إن عليها أن تتطور بوضوح على درجة تحت حكام مصر الرومانيين. ومثل هذا الترتيب يُثير فكرة بأن الاهتمام الأول لكلٍ من الطرفين كان إهتماماً استراتيجياً أكثر منه إقتصادياً .

للوهلة الأولى، نرى أن إهتمام أركامانى بمنطقة الدوديكاسخايون يستعصى على الفهم أكثر من إهتمام بَطْلَمِى بها . إن المنطقة الواقعة جنوب أسوان مباشرة طبقاً لتقليد جغرافى كانت جزءاً من النوبة (أصلاً "الواوات) أكثر من تبعيتها لمصر، لكنها أخضعت للسيطرة المصرية في أطول فترةٍ من تاريخها. وفى زمن أركامانى لم تطأ الشمال قدم أى حاكم من حكام كوش، ولم يدّع أحدهم السيادة عليها ، لعدة قرون (١١)، وقد هجر السكان النوبيون الأصليّين المنطقة في الألف الأخيرة قبل الميلاد على حد سواء. ما من بّينة اثرية توحى بأن أحداً على الإطلاق كان يعيش على امتداد النيل بين أسوان ووادى العَلاقى عندما شيد بَطْلَمِى الرابع معابده هناك (٢٢٠ قبل الميلاد تقريباً). ومع ذلك فإن السيطرة على النوبة السُفلى، كانت ضرورية لتأمين الطرف الشمالى من طرق التجارة التى نشطت عليه معظم الحركات بين مصر ومَروى، ولابد أن هذا هو تأويل اهتمام أركامانى وكذا بَطْلَمِى بها سواء

بسواء. تحت هذه الظروف صارت أنشطة البناء النوبية تعبيراً مواتياً لتأكيد الحق أكثر منها إدِّعاءً بالسيادة؛ لقد كان معنياً بصَون نوعٍ من وضعية "الميناء الحر" في النوبة السُفلى.

بعد أن خفق علم أركاماني فوقها ورأى أنه رُوعي بإحترام، صار هو وخلفاؤه على قناعةٍ بأن يتركوا للبَطَّالِمَة الإدارة العملية للدوديكاسخيون. ولم يكن هناك سعي من مَروى لإستعمار المنطقة الشمالية أو وضعها تحت الحماية، وفي القرون التى تلت نمت ثقافياً وإقتصاديا كمحافظة إغريقية - رومانية، بصرف النظر عن زعم السيادة المَروية المشتركة عليها. وفي ظل بَطْلَمِي السادس (١٨١ - ١٤٥ قبل الميلاد) إمتد الحكم المصرى بالفعل صوب الجنوب حتى الشلال الثاني؛ وهناك دليل على أن الحاميات البَطْلَمِية ظلت قائمةً لزمن في بوهين [١٢] ومرقسة [١٣]، وربما أيضاً في جبل عدّا وقصر إبريم [١٤]، التى أصبحت مؤخراً أهم المستوطنات المَروية في النوبة السُفلى. أما الممتلكات المصرية إلى الجنوب من الدوديكاسخيون فيُشار إليها في نقشٍ منذ عهد بَطْلَمِي السادس على أنها ترايكاونتاسخيون - أرض الثلاثين *شوناي* [١٥] .

يمثل حكم بَطْلَمِي السادس بوضوح نقطة النهاية للتوسع البَطْلَمِي في باطن النوبة [١٦]. وبعد موت هذا الملك غاص البيت الحاكم الإغريقي - المصرى في لُجَّةٍ من التنازع الأُسَرى تكاد لا يهدأ لها قرار، وامتد ذلك التنازع حتى الإنسحاق النهائى للأُسرة المالكة بعد قرنٍ من حدوثه. في أثناء هذا الزمن سُحبت الحاميات على ما يبدو من الترايكاونتاسخيون؛ ولا توجد أى بَيِّنة إضافية على أقل تقدير عن النشاط البَطْلَمِي إلى جنوب وادى العَلاقى. ويحتمل غاية الاحتمال أن حامياتٍ مروية صغيرة كانت تمتلك بمجئ القرن الأول قبل الميلاد مواقع القلاع في جبل عدّا وقصر إبريم، وربما أيضاً بوهين [١٧]. لقد حافظ البَطَّالِمَة على سطوتهم على الدوديكاسخون، بالرغم من أنهم لم يضطلعوا فيها بأنشطة بنائيةٍ أقوى مما فعلوا من قبل [١٨] .

يبدو واضحاً أنه طوال العصر البَطْلَمِي كان الإهتمام الذى تأكد في النوبة من ناحية الحكام المصريين ونظرائهم المَرويين في الغالب إستراتيجياً؛ إن أياً من القوتين لم تبذل جهداً ما لتعيد إحتلال المنطقة بالقوة. فعندما ينشأ *تعايش عملى*، يصبح من غير الضرورى لأى واحد منهما أن يحتفظ بقوات مُوَسعة في المنطقة العازلة بينهما. وهكذا، فإن البقايا الأثرية ذات القيمة والأهمية التى خَلَّفها كلٌ من البَطَّالِمَة والمَرويين الأوائل في النوبة السُفلى هى المعابد في بسلشيس، ودابود وفيلة، وربما القواعد الأسبق لقلاع جبل عدّا وقصر إبريم. وأما عن بقية الأماكن، فقد اكتفى كل طرفٍ بالحفاظ على بضع حاميات صغيرة لحماية التجارة. إعادة الإستيطان على نطاق شامل للنوبة السُفلى، فيما بين الدوديكاسخيون وما وراءها، كان عليه أن ينتظر مجئ الحكم الرومانى .

فيلة وعبادة إيزيس

ظلت جزيرة إلفانتين المستوطنة والمركز الإدارى الرئيس على التخوم المصرية النوبية في أسفل الشلال الأول وقبالة موقع أسوان الحديثة مباشرة، منذ عصر الدولة القديمة [١٩]، لقد كانت "باب الجنوب" التقليدى - نقطة نقل الشحن للحمولات من النوبة وإليها، ومقر المسؤول المصرى المُناط به الدفاع عن الحدود (قارن الفصل السابع). واحتفظت إلفانتين تحت الحكم البَطْلَمِي بأهميتها الإقتصادية، لكنها في المحيط السياسى أزاحها زحزحة واسعةً عن مكانتها مركز جديد يبعد عنها ستة أميال جنوباً، ويقع على جزيرة فيلة فوق مسقط الشلال بالضبط .

تعود أهمية فيلة فيما يبدو إلى حقيقة أن الجزيرة كانت مقدسةً لدى الإلهة إيزيس - النسخة المصرية لأم الأرض الخالدة. لقد كانت جزءاً من منظومة الآلهة المصرية منذ الأزمان السحيقة، غير أن طقوس الخصوبة لم ترتق قط إرتقاءاً عالياً في مصر الفرعونية، وأُسدل على إيزيس ستارٌ كثيف

من شقيقها ورفيقها أوزيريس، الذى أصبح الرمز الأساسى للطقوس الجنائزية. إن هذه العلاقة تعرضت لتحول تحت حكم الإغريق، الذين وجدوا في إيزيس وجهاً مشابهاً لآلهات الأولمب بما يدعو للإقرار بها، فجعلوا منها من ثَم أغلب المعبودات شعبية إلى حد بعيد في مصر البَطْلمية [٢٠]. وكان على عبادتها أن تنتشر في الأزمان المَروية بعيداً ما وراء النيل، إلى قسم كبير من العالم الغربى .

إن نزراً قليلاً معلوم من تاريخ فيلة المبكر. مثل إلهتها الراعية، كانت تلك الجزيرة فيما يبدو غير هامة في الأزمان الفرعونية، بالرغم من أنه ربما كان فيها معبد للأسرة الثامنة عشرة. أما أقدم مبنى بقي ماثلاً إلى يومنا فمعبدٌ صغير بدأه نكتانيبو الأول، أحد آخر الفراعنة المصريين الخُلصاء (٣٧٨ ـ ٣٦٠ قبل الميلاد). ويعود تاريخ المعابد الستة الأخرى، إضافةً إلى عشرين من مبانٍ غيرها في الجزيرة، إلى بداية الفترتين البَطْلمية والرومانية. تحت حكم هؤلاء الحُكام المُتأخرة، جاءت الجزيرة الصغيرة (التى لا تزيد عن ٥٠٠ ياردة طُولاً و١٥٠ ياردةً عرضاً) لتدّعم مدينةً لا شك في وجودها، تحيط بالمعبد العظيم لإيزيس الذي يسيطر عليها (الصورة ١٦ ـ أ). ويشار إلى المكان في نصوص معاصرةٍ متنوعة على أنه "الجزيرة المقدسة"، و "دار الجنة" و "مدينة إيزيس" [٢١].

مع نمو القوة الروحية لإيزيس، تنامت بها السلطة المؤقتة لوزرائها الدنيويين. يتضح هذا الأمر على وجه الخصوص في الدوديكاسخيون، المنطقة التى أحاطت مباشرةً بالمركز الرئيس لعبادة إيزيس. وفى زمن أركامانى أيضاً يبدو أن المنطقة كلها كانت تُعَد من الأراضى المخصصة لعبادة إيزيس مثلما كانت مقاطعة طيبة من قبل مملوكةً لآمون، يديرها ممثلوه الدنيويون في الكَرنك. ويوضح ميللت أنه "فى نص حرفى بقاعة إرقامين، يمنح الملك رسمياً للآلهة الإثنى عشر *إرتو* من الأرض (شوناى إغريقى) على كل جانبٍ من ضفتى النهر من أسوان إلى تكمبسو، وهو عمل خَلّد ذكراه في مناظرٍ بمعابد كثيرة متأخرة في فيلة، وَيدّعى أنه بهذا العمل يُؤكد صُنع الملوك السابقين" [٢٢].

هنا يمكن العثور على المفتاح الرمزى للحكم الثنائى النوبى والمصرى في الدوديكاسخيون. فمن الناحية النظرية كانت أرض إيزيس الخاصة، وكان الملوك النوبيون والمصريون يرعونها معاً. وعلى حد تعبير ميللت "... كانوا رسمياً، على الأقل، ينظرون إليهم على أنهم الذين وهبوا معابد النوبة". ولأنهم يتقبلون سوياً المنافع القدسية "لنفس الحياة" من آلهة النوبة بالمقابل" [٢٣] ومن الناحية العملية كانت منطقة عازلةً شبه مستقلة ـ عمودية إقطاعية يديرها كهنة إيزيس كولاة إسميين لكلٍ من مصر والنوبة. دائماً ما وُصف المسؤولون المدنيين وحتى العسكريين أنفسهم في نقوشهم "كوكلاء لإيزيس" [٢٤] بدلاً عن نعت أنفسهم كخدام لهذا أو ذاك من الحكام المصريين أو المَرويين .

السلطة المؤقتة لكهنة إيزيس لم تمتد أبداً وراء هيراسايكامينوس (محرقة الحديثة) على الطرف الجنوبى للدوديكاسخيون إن نفوذهم الروحى، مع هذا، ذهب إلى أبعد من ذلك بمدى. فقاصياً في الجنوب كانت هنالك معابد إيزيس في مروى وودبانقا (الفصل الحادى عشر)، بالرغم من أنها إلى حد معتبر كانت أقل أهميةً من معابد آمون العظيمة التى كانت تعبيراً محسوساً لسلطة الدولة. وأياً كان، فقد بدا أنه عندما رجع المستوطنون المَرويون إلى الشمال، وقَعوا كليةً تحت جرف التيار الأيدولوجى لفيلة؛ لدرجة بالغة، كانت إيزيس أهم معبود ُممجد في كل من المحافظات الرومانية والمَروية في النوبة السُفلى.

فى ديانة إيزيس التى اعتنقتها النوبة الرومانية والمَروية، علينا أن ندرك البدايات لواحدٍ من أهم تحولات التاريخ الأيدولوجية. فعلى محيط الدائرة الصغرى لأراضى النيل، أصبح تقديس إيزيس أول دين دولى وقومى سامياً بحق، وما عاد يُدّعى اعتناقاً موقوفاً على أى حاكم مؤقت بمفرده؛ بل مُعتنقاً يبسط بركاته على العديدين. وأضحت فيلة مدينةً مقدسة ومكاناً للحجيج بأجمعه من كل الطبقات والجنسيات: إغريق، ورومان، ومصريين، ومَرويين، وبدو الصحراء [٢٥]. لا جَرم، إذّن أن يصبح النفوذ الموقوت للكهنة القيمين على عبادة إيزيس مماثلاً لنفوذ الفاتيكان في أزمان مُتأخرةً. لقد كان بوسعهم

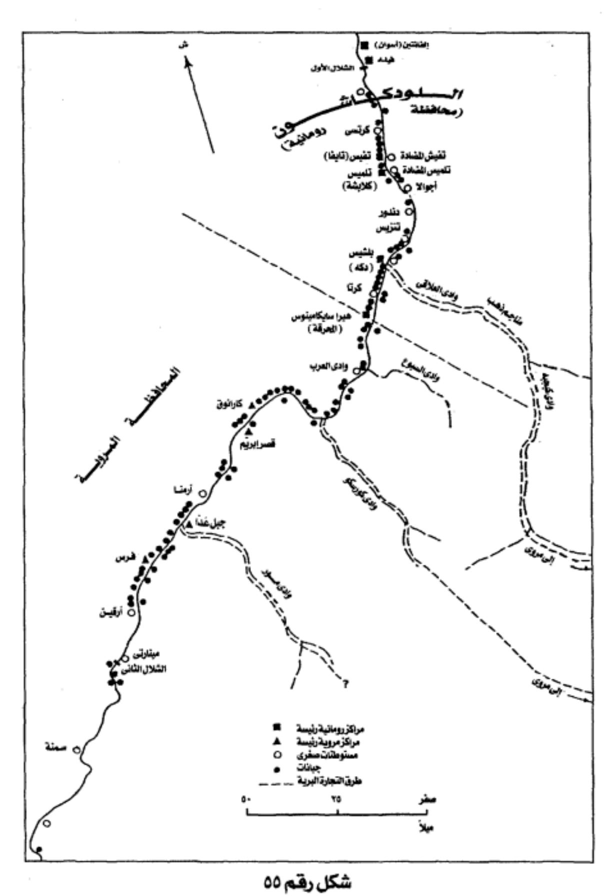
أن يحافظوا على وضعيتهم وعلى ديانتهم، لمنفعة الخاصة من مواليها المؤمنين، ردحاً طويلاً بعد أن فُضَّ إنشاؤها رسمياً في أنحاء مصر [٣٦]. وفي كل هذه الجوانب، سبقت عبادة آلهة الخصوبة المصرية القديمة قدم الدهور الدور الذي يتأتى أن تلعبه المسيحية ويلعبه الإسلام على المسرح الأكبر للعصور الوسطى .

المحافظة الرومانية

إذا استثنينا الإضطرابات في عهدّي حكم بَطلّمي الخامس وبَطلّمي السادس [٣٧]، فإن "إتفاقية الجنتلمان" التي كان طرفاها أركاماني وبَطلّمي الرابع في الدوديكاسخيون (*) ظلت نافذةً طوال العصر البَطلّمي. أما البَطالِمة المتأخرون فكانوا مشغولين في إستمرار بمنازعات الأُسَر الحاكمة بين ديارهم وتهديدات الإحتواء الروماني لهم، فلم يُعيرو محافظاتهم الجنوبيةَ إلا انتباهاً محسوراً. بيد أنه لم يتحرك حاكم مروى ليستثمر ضعفهم بتأكيد سلطته الذاتية في الشمال. كان هنالك، في الجانب الآخر، قدراً معيناً من الإستيطان المَروى في منطقة الترايكونتاسخيون الخالية، التي سُحبت منها فيما يظهر القوة المصرية بعد موت بَطلّمي السادس. وربما أن نوعاً ما من المركز الإداري والعسكري المروى أُقيم في قصر إبريم، المكان الذي سيضحى فيما بعد العاصمة المروية في النوبة السُفلى (انظر الشكل رقم ٥٥) إننا نعلم بوجوده في القرن الأول قبل الميلاد بدرجة رئيسة من مراجع نَصية، ذلك أن البقايا الأثرية التي رأت النور في قصر إبريم حتى الآن يكاد يعود تأريخها بأجمعها إلى أزمان متأخرة [٣٨].

على امتداد العصر البَطلّمي لم يجر مبدأ الحكم الثاني في الدوديكاسخيون بطريقة رسمية أبداً. لقد كانت تسوية الحكم الواقع ممكنة الحدوث طالما أن أياً من مصر أو النوبة لم يحتفظ بقوة منيعة في المنطقة العازلة، فحسب. إن ترتيباً غير رسمي ورقيق للغاية كمثل هذا الترتيب كان قدره أن يضطرب بحلول قبضة روما المدرّعة محل دهاء الشرق الذي باشره البَطالِمة. وبخاصية روما في التوجه المباشر، لم يفرط القنصل الأول على مصر، كورتليوس قالوس، في الوقت؛ فسار بقوةٍ ذات حُسبان صوب الجنوب إلى أسوان، قاصداً القيام بتسوية فوريةٍ بحكم *الإقامة* لمسألة التخوم الجنوبية. وخلال مقابلته مبعوثي مروى في فيلة، تفاوض، أو باحتمال أعلى، أملى، إتفاقيةً ثبّت بمقتضاها الحدود الإمبريالية في أسوان، لكن المملكة المروية برمتها أُقر *وضعها* محميةً رومانية. ولأنه لم يكن هناك مسؤول رسمي ذو شأن في الشمال، فقد عين حاكماً أو والياً لكل الترايكونتاسخيون، وذلك يعني على سبيل الإفتراض المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والثاني [٣٩]. لقد تم كل ذلك حفاظاً على السياسة الشرقية التي انتهجها أغسطس، الذي ارتأى أن يُدّعم الحدود الإمبريالية بحلقةٍ من الدول الحليفة [٣٠]. إن المبعوثين المَرويين، الذين ما كانوا ملمين بالأساليب الرومانية واللغة الدبلوماسية الرومانية ربما أنهم طالعوا إتفاقيتهم مع القنصل الروماني على أنها تأكيد للوضع الراهن الكائن آنفاً. بل إن تعيين والٍ مطلق السلطة على النوبة السُفلى كان متماشياً مع السوابق لأن الإدارة العملية للمحافظة الشمالية كانت متروكةً على الدوام في أيادٍ مصرية [٣١]. لما يمض وقت طويل؛ مع ذلك، حتى بدأ النوبي، الذي لم يداخله شك من قبل، في إكتشاف الدلالة الحقيقية *لوضع المحمية* وأهميتها؛ فقد انتقصهم الرومان من مرتبة الشركاء في الحكم إلى وضع دافع الجزية، وجرت معاملتهم طبقاً لذلك. وثمة دليل على أنه، عقب إتفاقية فيلة، تمت إدارة الدوديكاسخيون ببساطةٍ على أنها جزء من المحافظات المصرية النائية في الجنوب [٣٢]. وجأر النوبيون في المنطقة بالشكوى المريرة من معاملتهم على أيدى مسؤولين مصريين، غير أنه لسنوات عديدة كان حضور قوة رومانية منيعة في أسوان حائلاً دون التعبير عن سخطهم بصورة أقوى .

(*) أو الدودكاشون ـ انظر الشكل رقم ٥٥ – المترجم .



شكل رقم ٥٥

النوبة السفلى فى أزمان مروية ورومانية

وجد المّرويون سانحتهم في ٢٣ قبل الميلاد عندما سُحب قسم كبير من حامية الحدود من أسوان ليشارك فيما ثبت أنه حملة أُجهضت في شبه الجزيرة العربية. وفقاً لإسترابو، صعد جيش قوامه ٣٠.٠٠٠ رجلاً إلى المدينة المصرية الجنوبية، ونهبها، محطماً إلى الحضيض التماثيل الإمبريالية التى كانت قد شُيدت آنفا في فيلة [٣٣]. (ويُعتبر رأس أغسطس البرونزى رفيع الصنع الذى وُجد في مروى عام ١٩١١م على الدوام جزءاً من الغنائم التى جُنيت من هذا الغزو) [٣٤]. ما حدث بعد ذلك قام بسرده في شئ من التفصيل كلٌ من استرابو [٣٥] وبلينيوس [٣٦]؛ إن ما صاغه كيروان بإيجازٍ عنهما يمكننا نقله هنا :

كان رد فعل الرومان على هذه الأحداث سريعاً للغاية، وإلى المدى الذى تعد فيه العلاقات بين روما ومروى، ذا تأثير حاسم لما يقرب من ثلاثمائة عام. فيلق واحد واحتياطيه كقوة مؤلفةٍ من ١١ الف رجل تقريباً، ساق بترونيوس [الذى حل لتّوه محل قالوس قنصلاً لمصر] السودانيين إلى بسلشيس (دكة) التى فيما هو واضح كانوا قد قاموا بإحتلالها مُسبقاً. ثم بدأت المفاوضات. وعندما طلب بترونيوس إعادة الأسرى والغنائم، أبدى السودانيون شكواهم مرة ثانية من النومارش حاكم المقاطعة ...

ولّما ماطل السودانيون وتعثرت المفاوضات، هاجم بترونيوس ثانية. فاستولى بهجومه براً ونهراً على بسلشيس (دكة) ثم بريميس (قصر إبريم)، وهى قلعة حصينة بالطبيعة... على عُلوٍ صخرى يطل على النيل والطرق الصحراوية (الصورة ١٦ ـ ب). ثم سار نحو نَبتة، فنهب المدينة ورجع بالسجناء والأسلاب إلى الإسكندرية. وفى طريق عودته، ترك دليلاً على عزم روما في ألا تتحمل مغامرات سودانية مُجَددة، حاميةً من أربعمائة رجل مع تموينها لعامين في قلعة الصخرة بإبريم. على أنه مع اقتراب هذين العامين من نهايتهما، قدّر المرّويون في ثقةٍ أن الحامية لا تستطيع أن تستعصم طويلاً، فهاجموها ثانية. مع هذا، فقد هُرِع بترونيوس لنجدتها، وفى هذه المرة أجبر مندوبو مملكة مروى على السفر طوال الطريق إلى ساموس البعيدة ، على ساحل تركيا، ليلتمسوا السلام من البلاط الإمبراطورى الجليل بما يحيط به من هيبةٍ تثير الخشوع. وباشتراط أن يحفظ السودانيون السلام، أُلغيت الجزية. لكن ثقة الرومان كانت قد تزعزعت نحو أمن مصر الجنوبية. لذا قاموا بمد الحدود الرومانية إلى هيراسايكامنوس (المحرقة)، وهو توسع صائب إستراتيجيا لأنه لم يكفل لهم الدفاع عن مصر في العمق وحسب، بل أتاح للرومان فرصة الوصول إلى مناجم الذهب في وادى العَلاقى ومنحهم أيضاً السيطرة على دروب الصحراء الهامة إستراتيجياً... [٣٧].

لعل من الممكن ألا تكون حملة بترونيوس أكثر من ضربة جزاء، يتداولها كل من الطرفين بمثل ذلك الفهم. فقانون *المعاملة بالمثل* يقتضى الحطّ من شأن موقع يقارن أهميةً بفيلة، مما يعلل السبب الذى جعل بترونيوس ملزماً بقطع الطريق كلها إلى نَبتة، كما يشرح الدافع الذى جعله غير ملزم بمواصلة السير إلى مروى [٣٨]. وبعد أن اقتص لشرف روما بطريقة مناسبة، أسرع بالعودة صوب الشمال دون أن يتوقف ليفاوض أعداءه أو ليفرض شروطاً عليهم. ما من سببٍ يدفع إلى افتراض أن إجراءاته بالإنتقام والسلب كان لها وقع دائم على الخطوط الإقتصادية والسياسية للمملكة المَروية أشد مما كان لأثر إنتقام النوبيين وسلبهم ثروات فيلة آنذاك. تأويل هذه الضربة الجزائية التى تعتبر نسبياً غير قاصمةٍ بأنها أصابت بالكساح قوة مروى، كما ذهب إلى ذلك بعض الكتاب [٣٩]، يعنى تجاهل الحقيقة التى مؤداها أن أعظم إنجازات العصر المَروى لا تزال كامنة فيما كان سيحمله له المستقبل. والحق يُقال، أن الأبلغ إحتمالاً إعتبار غزوة بترونيوس إسترجاعاً للنفوذ، حيث أن التفجير العظيم لنشاط البناء في ظل ناتاك أمانى وأمانى تيرى تم عقبها مباشرة (الفصل الحادى عشر).

فى حملتّهم على الرومان، خسر المّرويون فيما هو واضح كل المعارك ولكنهم كسبو الحرب، بمعنى أن هدفهم الأكبر قد تحقق : وهو استرجاع الوضع القائم في الشمال قبل مجئ الرومان. ويبدو أن مبدأ الحكم الثنائى للدوديكاسخيون أُعيد تأكيده من جديد [٤٠]؛ أما ما دون ذلك، فم يكن هنالك سعى إضافى لتأكيد السلطة الرومانية عليه أو لجبى الجزية منه. فقد واصل *سلِم روما* حكام الروم

المتعاقبون سيطرةً على أراضى النيل، ما بين التخوم الإمبريالية وما وراءها على السواء.

لم يُظهر سوى حاكم رومانى واحد متأخر أى اهتمام بالمنطقة التى تقع جنوب الهيراسايكامنوس. وفى عهد نيرون، أُرسلت بعثة إستكشافية على مجرى النيل نحو مصبه ما لمَروى وحدها، بل عميقاً في قلب القارة الإفريقية.

روى كل من بلينيوس وسنيكا خبر بعثة نيرون الشهيرة وقابل ... سنيكا المستكشفين في عودتهم إلى روما. لقد أُرسلت البعثة من قبل نيرون في خريف عام ٦١ وتكونت من فرقة من جنود الحرس الجمهورى تحت قيادة تريبون(*) وقائدين لفرقة متفرعة عن فيلق. إرتحلوا، مثل بترونيوس، أولاً صعوداً على النيل ثم عبوراً للصحراء الشرقية، فوصلوا مروى على بعد ألف ميل تقريباً من الحدود. وقد شاهدوا طائر الببغاء، والحمير، ودلائل وجود الخرتيت والفيل في الجوار. ولاحظوا هنا أن العشب "أشد إخضرَاراً وأنضر لوناً" (ربما بعد هطول الأمطار). وراقبوا أيضاً الأشجار الصغيرة الرفيعة في الغابة الإفريقية الولود. وفى مَروى زُودت البعثة بمرشدٍ عسكرى وتوصيات للقبائل الجنوبية المجاورة وراء المملكة المَروية، وواصلت البعثة رحلتها على النيل الأبيض، نحو ما أخبر أفرادها سنيكا بعد عودتهم لروما، انهم "وصلوا إلى مستنقعات كثيفة" حيث "كانت النباتات منغرزة بشدة في المياه" لدرجة انه لم يكن من الممكن إختراقها باستثناء قاربٍ يسع رجلاً واحداً. ظل هذا الوصف زمناً طويلاً معروفاً كوصف للسدود، أى للمساحة الشاسعة من جزر النبات الطافية جنوب ملكال، التى احتجزت أكثر من مرةٍ إنسياب النيل. وكانت تلك الرحلة، بأى اعتبار، استكشافاً باهراً جيد الإعداد والتنفيذ ومنها استحضرت البعثة خريطةً ومعلومات جغرافيةً كثيرة وأخرى تتعلقُ بعالم الحيوان. وقد أعلمت عن أقصى ما توصل إليه التغلغل الرومانى جنوباً في باطن إفريقيا (٤١).

لم يكن الغرض من بعثة نيرون واضحاً تمام الوضوح. فسنيكا (٤٢) يقرر أن مهمتهم كانت إكتشاف مصدر النيل، ويرى بلينوس (٤٣) أنها كانت إستطلاعاً عسكرياً يمهد لتجريدةٍ ضد مروى. ولعل كلاً من التأكيدين غير صحيح في حقيقة الأمر (٤٤). ويمكننا أن نذكر مجاراةً لتفسير بلينيوس، ممارسةً رومانية مألوفة هى احتواءُ الدول الحليفة على طول الحدود الشرقية بعد جيل أو جيلين من وضعها "كمحمية" (٤٥) وربما كان نيرون يستهدف خطوةً كهذه في النوبة. وبائنٌ أن همته ثبطت بسبب المعلومات مخيبة الأمل التى قدمها المستكشفون فأنهت إطلاق الطموحات الرومانية الإضافية كلها في الجنوب.

فى الوقت ذاته الذى تراجع فيه اهتمام الرومان بأراضى أعالى النيل، إتجهوا لإستعمار الدوديكاسخيون بما امتازوا به من إتقانٍ وإقتدار. إن دليل سفر أنطونَين في القرن الثانى بعد الميلاد لا يذكر أقل من عشر مستوطنات كبرى بين ساين (أسوان) وهيراسايكامنوس، على الحدود السُفلى والعليا للنوبة الرومانية (٤٦). كانت هذه المستوطنات موضوعةً أساساً على الضَفة الغربية للنيل، مع بضع رؤوس غير مهمةٍ من الجسور على الضفة الشرقية قُبالة المستوطنات الكُبرى (٤٧). وكما جرى في كل فترات التأريخ، أسهمت الضفة الغربية في توفير الأمن من البدو القاطنين فوق تلال البحر الأحمر الذين لم تكن لديهم وسائل لعبور النهر.

كانت أهم المستوطنات الخمس في النوبة الرومانية (الشكل رقم ٥٥) شاملةً لفيلة، تافيس (تايفا الحديثة)، ولتميس (كلبشة) وبسلشيس (دكة)، وهيراسايكامنوس (المحرقة). وكان في كل منها معبد رومانى أو بَطْلَمى وحامية كبيرة. ولعل المعابد في كلٍ من كلبشة والمجتمع الصغير لأجوالا التى كانت رمزاً للوضع السياسى والثقافى للدوديكاسخيون قد كرّسها أُغسطس لإله النوبة مندوليس - المعبود الموقر لبدو الصحراء (٤٨).

إن العسكريين ذوى السلطة في الدوديكاسخون كانوا من الرومان أو المصريين الذين أصبحوا

(*) تريبون : قائد رومانى تحت إمرة القيصر كانت مهمته ان يدافع عن حقوق المواطنين – المترجم .

جزءاً منهم. ومع ذلك، يُوقن ميليه أن قسماً مُعتبراً من السكان المدنيين، بما في ذلك بعض مسؤوليهم الكبار، كان من النوبيين.

ربما يبدو أن إقليم الدوديكاسخيون القديم كان يُدار بإسم الدولتين معاً، مع قيام روما حتماً بالسيطرة على الطرق والشؤون العسكرية، وبقاء الشؤون المدنية في أيدى الإدارة الرسمية المرّوية، التى كانت تتحكم أيضاً في كثير من الشؤون الدينية والمالية للمحافظة بإفتراض ما يقتضيه لقب... "وكيلة إيزيس". ولعل *براعة الخدعة* المروية كانت قد جرت بالإتفاق ما بين القوتين، أو لعلها صَدَرت من ناحية السلطات الرومانية وحدها، عن طريق إختيار مرشحيها من بين السكان المصريين - المرويين المختلطين في الدوديكاسخيون [٤٩].

هذا الفرض يتسق تجريبياً إتساقاً أفضل مع البيّنة النّصية أكثر مما يتسق مع البيّنة الأثَرية [٥٠]. فالمقابر والمساكن العادية تؤول إلى مصر الرومانية أكثر من نسبتها إلى محافظة النوبة المرّوية المجاورة. ويلاحظ تريقر :

إن نوع القبر العادى في الدوديكاسخيون كان حفرةً وطرفاً من غرفة، مبنياً ليحوى أكثر من جنازة واحدة. وكانت القبور مُشتّقة في الصخر أو في قواعد صلبةٍ من الغرين على الدوام. لأجسادٍ عديدة محنطةً بمواد للتحنيط، أو ملفوفةً على الأقل على نمط الموميات وموضوعةً في أكفان خشبية أو أوعية مُغلقة. أما الفَخار ومتاع القبر المصنوع من المعادن فنادر، وليس ثمة مناضد للقرابين. أما في المنطقة المرّوية فكانت القبور مختلفة الأسلوب، الأجساد غير محنطة، ومتاع القبر من كل نوع شائع وتماثيل با ومناضد القرابين مطروحةً خارج القبر [٥١].

وفيما يتعلق بالمساكن يقول :

بالرغم من أنه لم تُنقب مواقع حية بالفعل [٥٢]. فإننا محظوظون لأن ويَقال وصف عدداً من المبانى في تايفا التي تظهر في هيئة مساكن للفترة الرومانية. إن الأسوار الخارجية، مثل القلعة القائمة في كرتسي، كانت مبنيةً من كتل حَجرية كبيرة. مستطيلة، ترتفع عموماً بمقدار ١٦ إلى ١٨ متراً [٥٠ - ٦٠ قدماً]، ولابد انها كانت في الأصل خمسة أمتار [١٦ قدماً] في الإرتفاع. وكانت من الداخل مقسمةً إلى حُجرات، لكن تخطيط معظمها لم يكن مميز المعالم. وكان لبعضها مداخلٌ مزدانة بالأطراف المجنّحة للثعبان المقدس أوراى (*) [٥٤].

وعلى الرغم من أن بعض فَخار مروى وغيره من المواد المعروفة وُجد في الدوديكاسخيون تدل ندرتها بالنسبة إلى المواد مصرية الصنع على أنها بضائع تجارية بلا شك [٥٥]. فلو كان سكان الدوديكاسخيون، إذَن، يتكونون جزئياً أو في قسمهم الأكبر من النوبيين فمن الجائز إعتبارهم كذلك بمعنىً سُلالى فحسب أو ربما بمعنىً عرقى. أما ثقافياً ولغوياً على حد السواء [٥٦]، فقد كيّفوا أنفسهم مع عادات أربابهم الشماليين. إن الفاصل الثقافى بين النوبة المروية ومصر الرومانية لا يقع في أسوان وإنما في المحرقة، حدود الدوديكاسخيون.

كانت معسكرات الرومان العسكرية وجهاً بارزاً لأرض الدوديكاسخيون. وقد تم التعرف أثرياً على أربعة منها : إثنان في قبالة فيلة وواحدة في كرتسي، وأخرى في دكة (بسلشيس) [٥٧]. وطبقاً لوصف تريقر :

المنطقة خالية من السكان حول الشلال، إذ لم يكن بها مؤخراً سوى قلعةٍ وبعض قرى صغيرة، حافلة الآن بمعابد كبيرة وفيها سكان على حجم . وعلى الضفة الشرقية، في مواجهة جزيرة فيلة، كان رايزنر قادراً على تتبع الخطوط الدالة على معسكرين رومانيين ربما جرى بناؤهما من قبل ليحرسا المعابد الكائنة في الجزيرة. إن المعسكر الأسبق وهو الأصغر كان مربعاً، له بوابةٌ في وسط كل جانب، وكان مُحاطاً بخندقٍ على شكل ٧ طبقاً للنموذج الرومانى المألوف. أما المعسكر الأكبر والأكثر جدة فكان غير منتظم في خطوطه العامة وقد احتوى الأرض المرتفعة في غرب السهل. تم العثور على شقوق يبدو أنها كانت لأبراجٍ في أركان القلعة الجنوبية الشرقية والشمالية الشرقية. وهنالك بوابة في وسط السور الشرقى للمعسكر وبوابة أخرى بجوار البرج الجنوبى. وقد سقطت كمية

(*) شعار السيادة الفرعونية – المترجم .

مقّدرة من الطوب اللّبن من الأسوار الخارجية إلى داخل الخندق الذى يحيط بالقلعة. أما النقود، والفّخار، والأوانى الإغريقية الأمفورة المختومة ذات المقبضين التى وُجدت في هذا الخراب فتنبئ عن أن القلعة أصابها الخراب مؤخراً في الفترة الرومانية. في داخل الأسوار وجد المنقبون خندقين لتنفيذ أحكام الإعدام يحتويان على ١٠٢ جسداً، وهى تدل على نهاية غير سعيدة لبعض العُصاة على السلطة الرومانية أو لغزاة غير مُوّفقين من الصحراء الشرقية (٥٨).

لعل سكان الدوديكاسخيون في الأزمان المروية تضاعفوا بمعدل يزيد عن أى فترة أخرى في التاريخ (٥٩). كان هذا في قسط منه نتيجةً لسيسة إمبريالية متعمدة . فمثل مقاطعات حدودية متعددة أخرى، ينبغى أن يرى الجهد الإستعمارى الرومانى في النوبة ممثلاً في تعبيراته الإستراتيجية أرجح مما يُرى في حدود إقتصادية ضيقة. لقد كانت الحاميات الكبيرة ضروريةً لحراسة خط الإمداد لمناجم الذهب؛ فوجود صناعة كبيرة كان أمراً ضرورياً لتموين الحاميات.

بما أن معظم النوبة الرومانية كانت ذات إمكانية زراعية متدنية للغاية ولو إستعملت السواقى، لابد أن رخائها يُعّلل بالتجارة في الغالب الأعم وكانت الحاميات الرومانية، الفرسان منها وفرق الإبل، تطعم بالغذاء المجلوب من مصر... ولوقتٍ ما كانت مناجم الذهب والزمرد في الصحراء الشرقية مستغلةً على الأقل، حتى سقطت تحت سيطرة قبائل الصحراء. وقد هيأ العمل بالمقالع الذى يعد أساسا لبناء المعابد، مصدر عيشٍ للعمال في أماكن مثل كرتسى حيث عُثر على *قرابين* تدور منذ عهود انطونيوس بيوس، وماركوس اريليوس، وكاراكالا، وجورديان (٦٠).

يُحتمل أن إمدادات الغذاء للدوديكاسيخيون لم تكن مجلوبةً من مصر وحدها على نحو ما رصدنا في التو، بل من الإقليم المّروى المجاور صوب الجنوب أيضاً. ولعل التجارة المتبادلة بين النوبة الرومانية التى جرى تصنيعها والنوبة المّروية الزراعية هى في الحقيقة السبب الرئيس للرخاء الذى تمتعت به كلتا المنطقتين.

المحافظة المروية

فى الوقت الذى كانت فيه الحاميات الرومانية تأخذ بنواصى الدوديكاسخيون، ظل النصف الجنوبى من النوبة السُفلى، من المحرقة إلى الشلال الثانى، مهجوراً بالتقريب مثلما كان عليه طوال الألف سنة السابقة. وبعد ثلاثة قرون، ظهرت المنطقة نفسها واحدة من أهم المحافظات الإمبراطورية المّروية، تتساوى في حجم السكان وربما تتعدى بالثروة المحافظات الأقدم في الجنوب (٦١). هذا الإنبعاث المفاجئ في شمال النوبة الذى طال هجرة كان أهم إنجازٍ مفرد في العصر المروى، بالرغم من أن أحوال كثيرة موصولة به غامضة حتى اليوم. إن الصرحُ والنقوش الملكية نادرة بما يُثير العجب في النوبة السُفلى (٦٢)، ولم يأبه من عامة القوم أحد ليدون عملية الإستيطان العائد يوماً بيوم؛ أما البقايا الأثرية، على ما هى عليه من غنىً ووفرة، فإنها تعرض طبقات أرضية أو بّينةً على تطور التسلسل الزمنى من القلة بحيث يكاد يستحيل وضعها في أى مُخططٍ تقويمى (٦٣).

وعلى أساس البّينة النّصية العرفية، يبدو أن غالبية الإستيطان المروى العائد إلى النوبة السُفلى يبدأ تأريخها في القرنين الثانى والثالث الميلاديين (٦٤). مع هذا فإن مستوطنةً واحدة على الأقل في قصر إبريم، لابد أن تكون سابقةً على العصر الرومانى، فقد استُولى عليها ووُضعت حامية عليها بأمر بترونيوس في ٢٣ قبل الميلاد (انظر «المحافظة الرومانية» بأعلاه). من خلال تنقيب قريب العهد يتضح أن قصر إبريم يعود تأريخه في الحقيقة إلى أزمان الدولة الجديدة، وكان أيضاً موقعاً لأحد معابد تهارقا (أنظر أدناه) (٦٥). وعما إذا كان أم لم يكن هناك إحتلال متواصل منذ الأزمان النّبتية إلى المّروية فأمرٌ غير مستيقن بعد، ولابد أن المّرويين على كل حال كانوا يمتلكون قصر إبريم في ٢٣ قبل الميلاد، عندما أقصاهم عنه بترونيوس. ولما لم يكن للسكان وجود محسوس حتى ذلك الوقت في المقاطعة المحيطة به آنذاك، لابد أن الإحتلال المروى لإبريم كان أمراً إستراتيجياً بدرجةٍ عالية، وربما

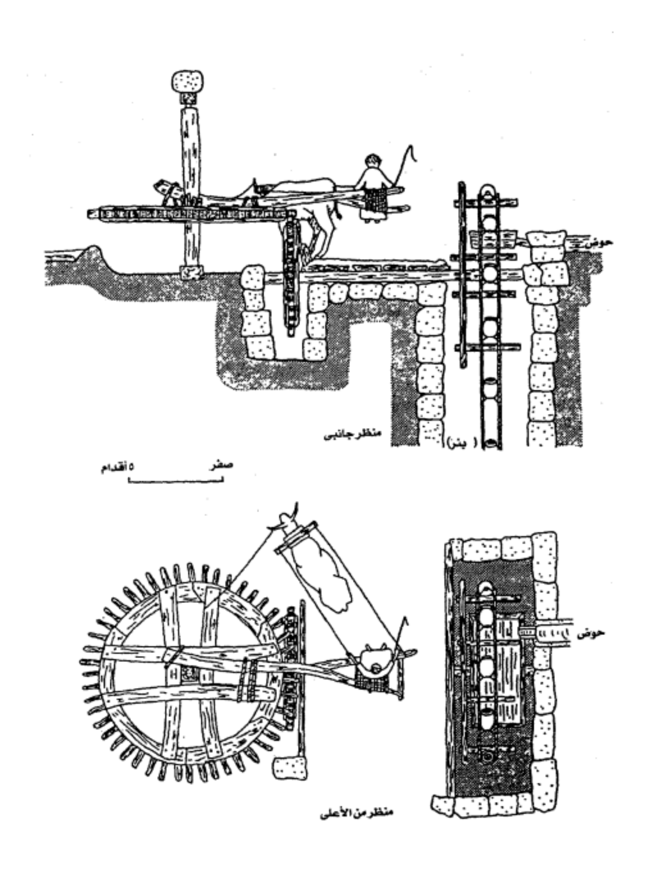
قصد به مناظرة الحضور البَطْلمي والروماني المتنامى في الدوديكاسخيون.

لعل تأريخ مستوطنةٍ مروية واحدة أو اثنتين في الشمال يرجع إلى وقت مبكر سالف مثل قصر إبريم. إن سرد بلينوس لحملة بترونيوس يذكر أربع مدن استولى عليها بترونيوس بين قصر إبريم ونَبتة، ربما كانت بعضها أو كلها قائمة في النوبة العليا [٦٧]. فإذا وُجدت أية مستوطنات أخرى وراء الشلال الثانى، يجوز أنها كانت في الأماكن التى ظهرت فيما بعد مراكز حضريةً رئيسة للشمال المروى : فرس، جبل عَدا وكارانوق (أنظر أدناه). أغلبية المواقع المَروية في النوبة السُفلى كانت مع ذلك متأخرةً قرناً على الأقل في تأريخها [٦٨]، ما من شئ يشير إلى أن تأسيسهم كان له دورٌ ما في السياسة الإستراتيجية. وحقيقة الأمر، إن غياب المنشآت الملكية يُوحى بُمضى القوة الدافعة للإستيطان المروى العائد في الشمال دون تشجيع أو حتى تعرفٍ عليه من الحكام بمروى. لقد كان، فيما هو راجح، ناتجاً فرعياً جاء مصادفة لتحديث فنى لا تزال آثاره فيما هو محتمل غير مرئية : إدخال الساقية أو عجلة المياه "الفارسية".

الساقية آلة بسيطة، يسوقها حيوان لرفع مياه الرى (الشكل رقم ٥٦). إن عجلة خشبيةً كبيرة، موضوعة أفقياً على الأرض، يديرها جانباً بشكلٍ متواصل ثور يمشى. وعن طريق التروس القابضة على طول حافتها، تدير العجلة الأفقية عجلةً ثانيةً، رأسية، ذات تروس ملصقة بإحدى أطراف عمود محورى. وعلى الطرف الآخر من العمود ذاته، عجلة ثالثة أكبر حجماً يلتف حولها حبلان طويلان، بينهما سلسلة من *قواديس* فَخارية مربوطة إليهما. وكلما دارت العجلة، تغوص *القواديس* واحداً تلو الآخر في باطن بئر، حيث تمتلئ بالماء ثم تبدأ رحلتها الصاعدة، كل ذلك في حركةٍ متصلة. وعندما تجتاز أعلى مستوى للعجلة العليا وتبدأ رحلة نزولها للأسفل، يتدفق السائل الذى تحتويه إلى داخل حوض منه يُحمل إلى قنوات الرى. إن الآلة بدائية وغير كُفأة بالقدرالمطلوب بالمقاييس الحديثة، مع ذلك كدُفعة متقدمةٍ على *الشادوف* (الرفع براحة اليد) القديم قدم الدهر بمصر والنوبة فهى لا تقصر شيئاً عن الأداة الثورية. فتعويض الحيوان للدفع بدل الإنسان يسمح وحده بزيادة تبلغ خمس مرات القوة المتوافرة. والأكثر أهمية، أن سلسلة الساقية من القواديس التى لا نهاية لها يمكنها أن تجلب الماء من أى بئر مهما كان عميقاً دونما فقدان ذى اعتبار لفاعليتها، بينما تسمح ثلاثة *شواديف* يؤازر بعضها بعضاً برفعٍ لا يتعدى أقصاه ثلاثين قدماً (قارن الفصل الثانى).

الساقية بالنسبة لفلاحى مصر، كانت راحةً مميزة؛ وكانت آثارها في النوبة ثورية. فلم يعد الرى قاصراً على حقول لا يزيد إرتفاعها عن ثلاثين قدماً فوق سطح النهر، وبالتالي أصبح قسم كبير من الجُروف النوبية صالحاً للفلاحة لأول مرةٍ منذ باكورة الدولة الجديدة. فإن لم تكن النتيجة إندفاعاً لنَيل الأرض وحسب فقد كانت على الأقل إقامةً مجَددة سريعة للغاية ومتقَنة في الإقليم الذى طال هجره طويلاً بين الشلالين الأول والثانى [٦٩]. في قرون قليلة إرتفع سكان النوبة السُفلى من حوالى الصفر إلى ما يقرب من ٦٠.٠٠٠ [٧٠]؛ وهو حجم سكانى أعلى من أى فترةٍ أخرى قبل الأزمان الحديثة (٧١).

وكما هى الحال مع عديد من الإختراعات التَقنية، لم يسجل أحد أصل *الساقية* الزماني أو المكاني. ويجرى تفكير أنها اختُرعت في مكانٍ ما بالمحور الإغريقى - لعله ما بين النهرين - ومنه أُدخلت إلى وادى النيل في القرن الثانى قبل الميلاد [٧٢]. أما انتشارها جنوباً في إتجاه منبع النهر فلا ريب أنه كان بطيئاً، إذ ليس في حوزتنا بَينة مباشرة على وجود *الساقية* في النوبة حتى القرون الأولى من عصرنا [٧٣] ومرةً ثانية، فإن التاريخ الدقيق لإدخالها مفقود، لكننا ربما أمكننا أن نستقرئه من الحقيقة القائلة بأن الأغلبية العظمى للمواقع المَروية في النوبة السُفلى يرجع تاريخها إلى القرون الثانى والثالث والرابع الميلادية [٧٤]، وهى مواقع لم تكن أبداً بدون بقايا من أوانى الفَخار المستديرة المميزة (القواديس)، وقد كانت ولا تزال مصنوعةً للإستعمال في الساقية وحدها [٧٥]. فإذا صحّت قراءتنا لهذه البَينة، فلسوف يبدو أن القوة الدافعة الرئيسة للإستيطان المروى العائد في الشمال، بدءاً



شكل رقم ٥٦

رسم إيضاحي لساقية عاملة

من القرن الثانى الميلادى، كانت موصولة بإدخال *الساقية* مباشرة.

البقايا الآثارية المَروية من النوبة السُفلى يظهر أنها تحمل هذا التفسير الإقتصادى. وهى تعطى الإنطباع بمحافظة زراعية في المقام الأول مع اعتماد قليل على التجارة وحسب. لا نجد في محل المراكز الحضرية الكبيرة، وهى حافلة الغنى بالصروح، التى تعد خاصيةً للمحافظات المَروية الجنوبية، إلا بضعة مراكز إدارية صغيرة نسبياً، مع ما يقارب خيطاً متواصلاً من القرى الزراعية الرغيدة على طول النيل [٧٦]. هذا التفاوت الإقتصادى الهام يمكن أن يَجلى بعض الملامح الفارقة للثقافة المَروية في الشمال، مثل عبادة الشماليين لإلهة الخِصب إيزيس تفضيلاً لها على امون وأباداماك.

المستوى العالى للرخاء المادى الذى تمتع به الشمال المَروى مثبت بكل من قراه وجَبّاناته. لكنه كما يذكر ميليه:

إنه لأمر يسير أن يتم وصف الثروة النسبية للنوبة السُفلى في أزمان مَروية متأخرة من أن يُعلل أمرها؛ قطعية القول أن التجارة لعبت دوراً ذا شأن، لكن هذا الدور ما كان سوى تعليل جزئى، إذ أن طرق التجارة الشرقية كانت قيد الإستعمال زمنا طويلاً من قبل القرن الثانى، ولابد أن هذه الطرق هى التى حملت العبء الأكبر من التجارة بين مصر وذاك الجزء من أعماق الأرض الإفريقية التى تُسيطر عليها مَروى. إن المرء ليغريه الإفتراض القاضى بأن التجارة زادت بإزدياد رقعة المساحة إلى غرب النيل النوبى وجنوبه..... لكن لو كان الأمر كذلك، لما بقيت أى بيّنة أثَرية حية. ربما يعود الأمر إلى أن الإسترقاق بدأ يلعب دوراً أعظم في نمط التجارة النوبية... إن هذا بالطبع تخمين؛ فالواضح أننا نكاد لا نعلم شيئاً عن التجارة الجنوبية لمَروى ومحافظاتها وتبعياتها، بإستثناء القليل الذى يمكننا استقراؤه من الأوصاف المأثورة لسلع ترفٍ إفريقية معهودة، ومتوازياتها في أزمان اقرب وقوعاً. إن وجود مثل هذه التجارة لا يدعو للتساؤل؛ أما أى صيغةٍ أخذت، إلى أى مدى وبأى اتجاهٍ سارت، وفوق كل اعتبار، أى دورٍ لعبته النوبة السُفلى جنوب الدوديكاسخيون، فهذه مسائل لا يمكننا إلا أن نخمنها [٧٧].

إننا لا نحتاج تخميناً لطبيعة التجارة المحددة جنوباً وحجمها؛ إنها مثبتة بآلاف المواد من البرونز الرومانى أو المصرى، والزجاج، والخزَفيات التى عثر عليها في القبور المَروية بأرجاء إمبراطورية كوش. لقد ذكرنا من قبل حضور هذه البضائع في المواقع المَروية بأراضى السهل (الفصل الحادى عشر)، وقلنا شيئاً عن الطبيعة المحتملة للتجارة بها. إلا أن إلا أن السلع التجارية تزداد وفرةً سواء بسواء في مواقع الشمال المروى، وهنا نكاد نبقى على جهلٍ مُطبقٍ بما كان متبادلاً معها. إن إمداد منتجات المناطق الحارة النادرة يمكن أن يفسر بسهولة رخاء الجنوب، على أن النوبة السُفلى في مبتدأ العصر المسيحى لم تعد مصدراً هاماً لمثل هذه السلع. ويبدو من غير المحتمل، كذلك، أن التجارة البرية كانت عالية النماء بين النوبة السفلى وغرب السودان، وإلا لكان واجباً أن نلمس دليلاً أقوى على قيام المراكز التجارية وعلى الإهتمام الملكى بتلك المنطقة. عكس ذلك، يشير كل شئ إلى تطور التجارة تطوراً كبيراً على أيدى أصحاب الأعمال الخاصة الصغيرة [٧٨]. في ظل هذه الظروف من الأدعى للإطمئنان أن يُقبل الإقتراح الذى قدمه جريفيث منذ وقت طويل، وهو أن رخاء النوبة السُفلى لم يكن قاعدةً قائمة على تجارة المسافات البعيدة في سلع الترف وإنما كان ببساطةٍ تجارة في إمدادات الغذاء إلى المستوطنات الرومانية المكتظة بالسكان في الدوديكاسخيون [٧٩]. وعلى كل حال، نعلم انه كان هنالك سوق مزدهر في الهيراسايكامنوس، على الحدود بين النوبة الرومانية والمَروية [٨٠].

فى إطار محافظة النوبة السُفلى المَروية يمكننا أن نتعرف على ثلاثة أو أربعة مراكز "ميتروبوليتانية" لا غير. ففى جوار منتصف المحافظة كانت قلعة قصر إبريم العظيمة (ويدعوها الرومان بريمس، فيما تسميها النصوص المَروية بديمي) ومدينة كارانوق، الواقعة على بعد أميال قليلة من القلعة على الجانب المقابل من النيل (الشكل رقم ٥٥). وبعيداً صوب الجنوب، تنتصب

المستوطنات المحصنة في جبل عَدّا وفرس (بخوراس في النصوص القديمة) على مسافةٍ أبعد لمدى خفيف من بعضها البعض. كل هذه المدن الأربع كانت في وقت أو آخر مراكز إدارية هامة. إن دمارها الذي وقع منذ عهدٍ وجيز كان واحداً من أشد الوقائع سوءاً في طالع الحملة الأثَرية النوبية، ذلك أنه ما من واحدةٍ من المدن الأربع جرى التحقيق عنها بالتمحيص أو المنهجية التى تسوغها أهميتها. والخطأ في معظم الحالات لم يكن ملقى على المنقبين؛ فكل المواقع ما عدا كارانوق بقيت على قيمتها طوال المراحل الأخيرة من التاريخ، وكانت هياكلها المَروية مُثقلة بالبقايا المتأخرة لدرجة أن تحقيقها الكامل فاق مصادر أى بعثة أثَرية [٨١]. نتيجةً لذلك نظل على جهل بالكثير مما كنا نأمل في أن نتعلم منه أحوال الجوانب الرسمية للإستيطان المروى في النوبة السُفلى، لقد تُركنا نستقرئ شيئاً عظيماً من بَيِنة نَصية قليلٌ فهمها.

إن قصر إبريم، وجبل عدّا، وفرس كلها مستوطنات مُسَوّرة. ومع أنها لا تختلف إختلافاً معتبراً في الحجم وتفاصيل تحصينها، تظهر للعيان وظيفتها العسكرية الأصلية. إبريم وعَدّا تقفان على مرتفعات عالية تطل على الضفة الشرقية للنيل تطوقهما أسوارٌ صَماء ضخمة من الطوب والحجر (الصورة ١٦ ـ ب). إن أجزاء من البناء الحجرى ذات نوعية أرفع مستوىً بقدر زائد مما يوجد عادةً في البناء المَروى [٨٢]؛ وقد ألهم هذا الملمح فيما يبدو مونير دى فيلار فأشار بأن الموقعين كانا من أصل بَطْلَمِى [٨٣]. ومع ذلك، إستطاع ميليه أن يُبين أن السور المبنى بالحجر في جبل عدّا يرجع إلى تأريخ لاحق للغاية، وقد سبقه تحصين ناتئ من الطوب الطينى [٨٤]. وفى قصر إبريم أيضاً نعلم الآن أن أسوار التحصين الرئيس ترجع إلى تأريخ ما بعد البَطْالِمَة، بالرغم من أن الموقع نفسه أقدم من ذلك بكثير. وفى فرس كان الجزء المحصن من السور ماثلاً على أرض منخفضةٍ جداً تقع إلى جانب النيل مباشرة. لقد كانت محاطةً بسور منيع، على تقوية تعلو الثلاثين قدماً في إرتفاعها، وكانت الثلاثة عشر قدماً أسفل السور مبنيةً من الحجارة والبقية من الطوب الطينى [٨٥]. كل هذه المدن المحَصنة كانت لها بوابات صروحية من الحجر على جنباتها المتجهة صوب اليابسة، إضافةً إلى واحدة أو ما يتعداها من البوابات الجانبية الخاصة.

كانت أسوار التحصين المروى في النوبة السُفلى قبل أن تغمرها المياة أفضل نظاماً وحفظاً لمدى محسوس من أى شئ عُثر عليه بينها. لقد افترض جريفيث أن المساحة التى تم حصرها في فرس كانت محتشدة بالمبانى العامة والخاصة [٨٦]، لكن قليلاً منها رأى النور في معرض حفريات أكثر جِدّة أجرتها بعثة بولندية في فرس، ولو أن شقوقاً مَا يحتمل أنها كتل معابد مَروية وُجدت هنا وهناك على الموقع. أما المساكن المَروية القليلة التى اكتُشفت فكانت هياكل غير منتظمةٍ لحد بعيد وقد بُنيت آنفاً من كتلٍ متساقطة من معابد فرعونية عتيقة [٨٧].

في جبل عدّا، يبدو قسم كبير من المساحة الكائنة بين تحصين الطوب الطينى الأصلى كأنما كانت خُلواً على التمام من المبانى [٨٨]. في كثيرٍ من تاريخها ما كان المكان شيئاً فيما يظهر سوى نقطةٍ عسكرية محلية. وفى تاريخ لاحق، مع هذا، تم اختياره لينمو مركزاً إدارياً ودينياً رئيساً. إن تحصينات الطوب الأصلية دُفنت وشُيد فوقها سور من الحجر المنظوم أوسع وأدعى أثراً، وبدئ في بناء معبدٍ بينها. وفق أقوال المُنَقِّب :

كانت فترة البناء الرابعة في عدّا دون شك نتيجة قرارٍ بتغيير طبيعة المستوطنة؛ فشُيد مسطحٌ هائل من الخرائب وركام الصخور وأودع بين أسوار مشَيّدة حسنة البناء فوق الركن الشمالى من وحدة التحصين التى رُممت منذ وقت وجيز، بطريقة تستكمل المنظر. وعلى المِنَصة العظيمة التى برزت للوجود بهذه الكيفية، بما يشغل ثلثها الشمالى بأكمله، أُقيم معبد من خلطة جيدة البناء من الرمل الحَجرى، ما بقى منه الآن غير الأطواف الثلاثة السفلى أو نحو ذلك. ليس مؤكداً ما إذا كان المعبد كله من الحَجر أو إنه سار على نهج مَروى مألوف... فكان من اللَّبن على قاعدةٍ من الحَجر. نُقبت قواعد الأعمدة وفتحاتها بما يقارب المتر قطراً في نتوءات الرمل الحجرى البارزة فوق سطح

الأرض جنوب القلعة، لكنها لم تثبت قط بمكانها في الفناء الخارجي للمعبد، ربما لأن فتات الطوب وركام الصخر الذي يشكل غالباً قاعدة المنصة برهن على أنه غير صلب بما فيه الكفاية. أما أُطر الأبواب وفتحات النوافذ فكانت من الحَجر. زُودت غرفة العبادة، وهي حجرة ضيقةٌ محاطة بدهليز بعمودٍ كثيف اللحاء من الرمل الحَجرى من النوع المعتاد وعليه رسوم؛ وكان وجه العمود مزخرفاً بالشكل التقليدى لملكٍ راكع ويداه ممدوتان لإعانة القارب المقدس، لكنه لم يكن من الممكن التعرف على إسم ملكى من الشقوق التى بقيت حيةً. لربما تمثل فضلات من عروق الذهب على خشب مغمور كل ما بقى من اللحاء نفسه. وتشير مواد أخرى وُجدت ضمن البقايا إلى ترفٍ متواضع ملائم لرخاء تلك الأزمان. على أقل تقدير، وُضع لوحان رسميان كبيران بين مساحة المعبد، وبين رأس مهشم من الرمل الحجرى لتمثال ملك مَروى أن حاكماً واحداً على الأقل عنى بزينة المعبد. ولم يُعثر على أى إسمٍ ملكى بأى مكان في المعبد ...

فى نفس الوقت الذى جرى فيه بناء المسطح ومعبده... كانت إعادة بناء تجرى للمسكن الكبير الوحيد الذى تعرف عليه المُنقبون في داخل الأسوار... إن بعضاً على الأقل من المسكن الجديد بُنى بأطوافٍ عديدة من قواعد الحجر، مثل "القصر" في كارانوق وكثرة من مبانى فرس، بزُخرف على رسم مغمور - لا يزيد عن بضعة شقوق تبين رسماً جيداً لرتل من الأبقار، فيما عُثر عليه - إضافةً إلى واحدة على الأقل من الحجرات الجديدة. أما الإنطباع الذى اكتسبه المُنقبون من الجزء الصغير من المبنى الذى يمكن أن يُجلى فهو أن إعادة البناء كانت على نطاق عظيم المساحة بحق وأن طابقين ربما كانا ضمنه (٨٩).

قلعة قصر إبريم المحَصنة تشبه في عدة جوانب جبل عدّا، لكنها أكبر حجماً. إنها تقف على مقدمة أرض شامخةٍ على علم شاهقٍ فوق وادى النيل لدرجة أنها أعلى من مستوى بحيرة ناصر ، وهى الموقع الباقى الوحيد بعد كل ما تقدم في النوبة السُفلى. الحفريات في قصر إبريم، لحسن الحظ، لا تزال في تقدم، ولم تبدأ في عكس ملامح غالبة للتاريخ الباكر للموقع إلا في هذا الأوان. لقد عكست الإكتشافات خلال ١٩٧٢ للمرة الأولى أنه كان هناك معبد حجرى للدولة الجديدة في إبريم، أُعيد بناؤه جزئياً باللّبن في زمن تهارقا ثم أعيد ترميمه إضافة لذلك في أزمان مَروية (٩٠). وبُدئ في معبد ثان من الحَجر على نهاية الطرف الشمالى من الموقع في الفترة المَروية المتأخرة، ولعل إنجازه لم يكتمل أبداً؛ على الأصعدة كافة، كانت أسواره خالية تماماً من أى زُخرف أو نقوش كتابية (٩١).

وجهٌ مميز في قصر إبريم يبدو في شُرفة مطلة (تدعى البوديوم) وهى ذات حاجز منخفض من حَجر منظوم نظماً دقيقاً، تبرز للخارج من الجانب الغربى للقلعة. إنها بشكل ملحوظ لا تشبه أى شئ آخر في الموقع وتبدو طلعتها عموماً كأنها صنعة رومانية؛ وهى في الحقيقة مماثلة إلى حد قريب للشُرفات في كلابشة وغيرها من المواقع الرومانية في الدوديكاسخيون ومصر العليا (٩٢). وربما كانت البوديوم لذلك عنواناً دالاً على الفترة الموجزة من الإحتلال الرومانى في عهد بترونيوس، من ٢٣ إلى ٢١ قبل الميلاد. وتقترح إكتشافات في ١٩٧٦ أن البوديوم ربما كان بعضاً من مركّب أكبر من البناء الرومانى.

أما أسوار الحصن الحَجرية الضخمة في قلعة قصر إبريم فهى متأخرة بصفاء في تاريخها من البوديوم، وتعود بحق في معظم أجزائها للفترة ما بعد المروية. وعلى نحو ما هو كائن في جبل عدّا أياً كان الحال، هنالك آثار لسور أقدم مؤكدٌ أنه من تاريخ مَروى.

إخترقت الحفريات في قصر إبريم المستويات المَروية أماكن قليلةً فقط بين الأسوار المحصنة؛ إنها مدفونة في جزئها الغالب تحت مترسبات متأخرة من ١٥ إلى ٢٥ قدماً. وأمامنا الآن بّينة نهائية علي أن معبد تهارقا المشيد بالطوب كان قد رُمم في أزمان مَروية، بعد انقضاء وقت عانى خلاله فيما يبدو من دمار كثيف. هنالك مبانى أخرى يبدو أنها مساكن مَروية دنيوية في ضاحية المعبد، لكن مداها ومعظم تفصيل بنائها لا تزال ماثلة للتيقن منها. جدير بالذكر أن المستويات المَروية في قصر

إبريم حوت أنواعاً من الفَخار متميزة بشكل ملحوظ عن الفَخار المَروى المألوف في أغلب مواقع النوبة السُفلى، يكاد يقطع أنها أقدم منه (انظر إلى «الفنون والصناعات»، أدناه). المصنوعات في معظمها غير مُزخرفة تغلب عليها مماشاة التقاليد الفرعونية أكثر من الأزمان الإغريقية؛ في هذا الجانب تمثل المصنوعات المألوفة في مَروى والمصورات (قارن الفصل الحادى عشر). هذه البّينة تثير (كما يفعل ذلك قدر عظيم من البّينة النّصية) الإمكانية التى لا جدال حولها في أن قصر إبريم كان محلا للإقامة في تاريخ مبكر للغاية من الفترة المَروية، سابقاً للموجة الرئيسة للإستيطان العائد للنوبة السُفلى. ونحن لا نستطيع أن نستبعد تماماً إمكانية الإقامة المتواصلة خلال الفترة برمتها من الأزمان النّبتية إلى الأزمان المَروية، عندما كانت كل المقاطعة المحيطة غير مأهولة تقريباً بالسكان. و إذا كانت هنالك أى حاميات تجرى صيانتها على الإطلاق في الشمال أثناء فترة الإنقطاع، فإن قصر إبريم لابد أنه كان واحداً من الأماكن الظاهرة.

تمثل كارانوق مختلفاً من الإستيطان عن المواقع الثلاثة التى جرت مناقشتها للتو. فهي أقرب ما تكون إلي تجمع مُبعثر من المساكن التي لم يكن ليحميها سور أصم إنما تدافع عنها قلعة هائلة، مؤلفة من ثلاثة طوابق مبنية من الطوب الطينى تسيطر على المبانى والأرياف المحيطة بها (الصورة ١٧ ـ أ). هذا الهيكل متفرد وسط المبانى النوبية لفترة ما قبل المسيحية. لا يمكن نسبة تاريخه بتأكيد مطلق إلى الأزمان المَروية، ذلك أنه لم يوجد فيه شئ مميز. إن موقع المدينة الملاصق له على الرغم من أنه أسس في الفترة المَروية، إستمر موضعاً للإقامة قروناً عديدة متأخرة [٩٣] مع هذا، فالأسوار الملساء، المجصصة وما حولها بالأبيض، والبناء الطوبى المسقوف لقلعة كارانوق تتماثل كثيراً في شخصيتها مع أفضل المساكن المَروية (انظر «حياة المدينة والقرية» فيما يلى بأدناه) أقوى من تشابهها مع أى بناءات متأخرة.

لئن كانت مساعينا لوصف المدن المَروية في النوبة السُفلى وتوضيحها ضئيلة نوعاً ما، فالسماح مطلوب للحقيقة المفضية إلى أن هذه الأماكن، فيما عدا كارانوق، أصبحت كذلك المراكز الإدارية والدينية العظيمة للنوبة في العصور الوسيطة. وبين أسوار الحصن كان هنالك قدر كبير من الإقتلاع والتجديد البنائى الممنهج من فوق البقايا القديمه، ولا يرجع ذلك الحال إلي أن الحَجر كان مطلوباً للكنائس وحدها، فالسحق الكامل للرموز القديمة للسلطة الدينية كان جزءاً من المشروع الأيدولوجى المسيحى المخطط، (انظر الفصل الرابع عشر). والنتيجة هى، أن صورتنا عن الإحتلال المَروى في فرس، وجبل عدّا، وقصر إبريم ربما ظلت غير كاملة للغاية حتى لو تم حفر هذه المدن حفراً كاملاً.

إعتباراً لكل الإحتمالات المسموح بها لدمار لاحق، كيفما اتفق، يثير الدهشة غياب الصروح الملكية ونقوشها في الشمال المَروى. فالقلعة والقَصر، بدلاً عن المعبد والقبر، يبدو أنهما التعبير الرمزى الرئيس للسلطة في النوبة السُفلى. إنهما يمجدان علناً عظمة الدولة بصفة عامة، من تمجيدهما عظمة الأسرة المالكة على وجه التحديد، لأنها غير مُمجدة بنقوش ملكية. في أرجاء النوبة السُفلى المَروية كافة، كانت أسماء الحكام الوحيدين التى برزت إلى النور حتى هذا الحد مصحوبةً بأسد منحوت صغير [٩٤] وشقوق لوحة منشطرة [٩٥]، وُجد كلاهما في قصر إبريم. وفى الجانب الآخر [٩٥] يبدو أن هياكل المعبد نفسها، في كلٍ من إبريم وجبل عدّا [٩٦] لا تحمل أى نقوش ملكية، في تناقض موسوم لمعابد الجنوب المَروى ذات النُحوت الفاخرة (قارن الفصل الحادى عشر). من الضرورى أن نتذكر أيضاً أن كُلاً من المعبدين الشماليين يبدوان كأنما شُيدا في تاريخ متأخر جداً، وربما تُركا في الحقيقة غير مُكتملين [٩٧]. إن الغياب العام للصروح الدينية في النوبة السُفلى عَصَّىٌ على الفهم لولا أننا ندرك في فيلة المركز الدينى العظيم ليس للنوبة الرومانية وحدها، إنما للمحافظة المَروية على حدٍ سواء. ومهما كانت رعاية الحكام المرويين وتشجيعهم العالى لعبادة إيزيس، فقد بقيت مع هذا ديانةً

عالمية لا يمكنها أن تخدم التعبير عن سلطة الأسرة الكوشية وتدعمها بالطريقة ذاتها التى قامت بها عبادة أمون وأبادماك الرابحتان في الجنوب.

بوضع الإعتبار لكل الأشياء، من الصعب أن يُتجنب الإنطباع الساري بأن الحكام في مَروى لم يكونوا مهتمين جداً بمحافظتهم الشمالية. إن إعادة الإقامة بها تبدو في غالبيتها التى أملتها تحركاً تلقائياً غير مرتبط أو مُشجَعاً عليه من ناحية السياسة الملكية. ومتى أُعيد إستيطانها، تطور الشمال المَروى إلى مقاطعة زراعية كبيرة كانت برغم أنها تمتعت برخاءٍ محلى مُعتبر، قادرةً على إنتاج دخل قليل للتاج. أما الجزء الخالص في مَرويته من النوبة السُفلى فقد استمر تجنبه من الطرق الرئيسة لتجارة المسافات الطويلة التى اعتمد عليها رخاء الجنوب، إذ كانت آخر محطة لها واقعةً بين الدوديكاسخيون. نتيجةً لذلك ربما كان للملكية إهتمام بصون مركزها ونفوذها في المحافظة الرومانية أكبر من ممارسة سلطتها في المساحة الواقعة جنوب المحرقة. إن أمثلة النقوش المروية التى وجدناها في الشمال تشتمل مدونات السفارة إلى فيلة [٩٨] وإلى روما أكثر منها ذكراً لزيارات أو هباتٍ ملكيةٍ للمدن المروية. على نحو ما يتمعن ميلية "... إن الواحد مرغم على أن يخلص إلى أن سكان المحافظات عاشوا حياتهم بأقل قدر من الدخل أو الإهتمام الملكى" [٩٩].

واضح أن مثل هذه الحكومة كما وُجدت في الشمال المَروى إستندت إلى مبادئ مختلفة للغاية عن المبادئ التى كانت تقليديةً في محافظات نَبتة ومَروى. إن أياً من الأمراء الملكيين أو البيروقراطية الكهنوتية لم يكن مقيماً في النوبة السُفلى؛ تولى مكانهم مسؤلو الدولة المحليين بألقاب متميزة غير معلومة لنا مما يوجد في المناطق الأخرى [١٠٠]. معرفتنا عنهم تأتى أساساً من لوحهم الجنائزى ـ المكتوب باللغة المَروية ـ وقلة من الرسوم التصويرية التذكارية [جرافيتي]. ومنذ فترة بذل ميليه جهداً تخيلياً ليفرز هذه البَينة المتناثرة طلاسم، ليصل عبرها إلى نوع من الصورة عن الإدارة الإقليمية في النوبة السُفلى [١٠١]. وعلى الرغم من أن مدخله يظل تخمينها، وحدساً في نقاطٍ منه بدرجةٍ بالغة، يجدر نقله هنا لأنه يمثل تفسيراً واحداً ممكناً للفروق السياسية والثقافية بين الشمال المَروى والجنوب المَروى .

يؤمن ميليه أن أول مركز إدارى في المحافظة الشمالية كان في فرس، لكنه أفسح الطريق مؤخراً لقصر إبريم [١٠٢]. ويمكن التعرف على الأخير أثرياً وعبر النصوص بوصفه أهم مجتمع مروى في الشمال خلال معظم تاريخه. في وقت متأخر جداً، مع هذا، تنامى فرع إدارى منفصل من ألمركز في جبل عدّا [١٠٣]. إن إختيار هذا الموقع وتفضيله على فرس المجاورة ربما يرجع إلى وضعه الطبيعي الأصلب مَنعَةً، وهو أثّر يذكر بقصر إبريم لصلته القريبة بها.

عرّف ميليه ثلاث فئات رئيسة من موظفى الدولة المرويين في الشمال، الذين ترجم ألقابهم إلى "لواء النهر" (*بلمس*)، "أمير آكين" (بستى)، و «ولى العهد الملكى» (بكر). والذى يبدو هو أن اللقبين الأخيرين كانا موروثين في نفس العائلة، وأن *البكر* كان أشد أهمية من الإثنين. طبقاً لتحليل ميليه :

> يبدو أن الأسرة الأميرية توارثت مناصب ولى العهد الملكى *البَكر*... وأمير آكين *بَسْتي* ... ومثل ذلك مناصب أخرى للشرف مرتبطةً بهما، تسلسلاً عن طريق الإناث، بحيث أن الأمير الذى يموت لا يترك مناصبه إلى أبنائه، إنما إلى أبناء إحدى شقيقاته، وأن كل شقيق بدوره يتقلد المناصب، بالاقدمية إحتمالاً. يحتمل كذلك أن النظام مد سلطانه لأبناء كل الشقيقات بدورهن، حتى صار أبناء الخؤلة الأوائل ومن يتلونهم في الحوق طوع ذلك النظام .
>
> يدّعى عدد كاف من هؤلاء الأمراء وأقاربهم العلاقة [١٠٤] بولى العهد الملكى *البَكر* ... كيما يجعلوا من الأمر مؤكداً تأكيداً باتاً بأنهم ينتمون بشكل مألوفٍ إلى العائلة نفسها وأن المناصب تنحدر إلى عصبة الأشقاء في إرتباطٍ وثيق، ويبدو صافياً كذلك... أن منصب "الأمير ولى العرش" كان أكثر أهمية من الاثنين. ورغماً عن وجود هذا اللقب ... لم يكن هنالك أبداً ذكرٌ واحد لملك أو ... "لملكةٍ ـ أم" كـأقارب ... إننى مسوق لإستنتاج أن صلة عائلة آكين

الأميرية بالعائلة المالكة كانت نائية لأقصى حد، وإن ألقاب الطراز الملكي الخاصة بولى العهد الملكى *النَّكر*، وأمير أكين *بَسْتي*، وكيرى ـ سم كانت تقليديةً خالصة، وإننا الآن نتعامل حقيقةً مع ولاية إقليمية وراثية متحررة من التعيين الملكى، إستخدمت ألقاباً أميرية إما لأنها تتبع بحق أصلها النهائى إلى سلف ملكى، أو لأنها كانت ذات مرة تقليداً لحكام النوبة أن يكونوا أمراء يافعين يتعلمون واجبات الحكم في المحافظات. إن حكام النوبة في الأزمان الفرعونية جرى تمييزهم بلقب "أبناء الملك في كوش"، مع أنهم ما كانوا كذلك حقاً ...

الترتيب العادى للأفضلية في نقوش الأشخاص الذين يدّعون القرابة مع كل من ولى العهد الملكى *النَّكر* وأمير أكين *بَسْتي* ... قد يبدو بصفاء أنه يشير إلى أن ولى العهد الملكى *النَّكر* ... كان أهم الإثنين ... إننا نعلم الآن ... عن بعض ستة أو سبعة أمراء لأكين دُفنوا في منطقتنا هذه، في فرس أو كارانوق. غير أنه لم يوجد أبداً مدفن تلى أو صرح لقبر أمير ولى العهد في النوبة السُفلى، كما أننا لا نعرف أى امرأة كانت زوجة لأمير ولى للعهد دُفنت هناك. يجب أن يُخلص إلى أن محل دفن ولى العهد ومكان الإقامة يقعان في مكان آخر، وأن ذلك المكان محتمل أن يكون مقراً حقيقياً للعائلة. أما الرجال الذين أُحييت ذكراهم في شواهد قبورهم كأمراء لأكين *بَسْتي* دون ذكر آخر فقد كانوا أولئك الذين ماتوا آنفاً قبل أن يرثوا أمارة ـ التاج الملكي، القمة الحقيقية "*لمؤشر الشرف*" للعائلة ... وأما مقر الأمراء أولياء العهد، فإن الاختيار المحتمل الوحيد هو، فيما أرى، نَبتة نفسها (١٠٥).

إذا تقبلنا هذا التفسير، علينا أن نتخيل عمودية إقطاعية شبه مستقلة تحتوى كلاً من المحافظات النَّبتية والمحافظات النوبية السُفلى للإمبراطورية المَروية. إن الحكام المحليين طالبوا بنوع من العلاقة بالعائلة المالكة في مَروى، لكن الظاهر إنها كانت علاقة بعيدة. فلقد كان كرسى السلطة الرئيس وفقاً على أصحاب الألقاب الذاتية من الأمراء أولياء العهد الملكي (*النَّكر*) في نَبتة، في حين كان الشمال محكوماً بعدد أقل من أعضاء عائلة (*بَسْتي* أمير أكين) نواباً لهم. ومن الضرورى أن يكرر القول، مع هذا، أن بإعادة بناء ميليه للمشروع المَروى في النوبة السُفلى عالى التخمين؛ لهذا السبب ولأسباب غيره فهو مرفوض جزئياً من كل من هايكوك (١٠٦) وتريقر (١٠٧). يلاحظ الأخير يلاحظ في دقة أن "قراءة نصوص حرفية للغة لا نفهمها عمل محفوف بالمخاطر في أفضل حالاته (١٠٨)". أضف إلى ذلك، أن قليلاً من النصوص الجنائزية من النوبة السُفلى تثير إقتراحاً بأن الصلات السياسية بين المحافظة الشمالية ومَروى كانت أقرب مما أعتقده ميليه. فواحد من أمراء أكين *النَبَسْتي* في فرس أصبح في نهاية المطاف الأمير العالى لأمون في مَروى (١٠٩)، واثنان من الأفراد الذين دُفنوا في أرمينا ربما كان أيضاً كهنةً لأباداماك ـ عبادةً لا نملك خلافها سوى دليل ضئيل في النوبة السُفلى (١١٠). إن صلات العائلة مع مَروى والبيت المَروى الحاكم على حد التكافؤ موضع للإدّعاء في عدد من النقوش الجنائزية الأخرى في أرمينا وغيرها من الأماكن (١١١).

أما علاقة "لواءات النهر" *بلمس* والأمير ولى العهد *النَّكر* وأمير أكين بَسْتي فهى غير مثبتة بصفو على الإطلاق. يبدو المنصب وراثياً في صف الذكور وحدهم (١١٢). ويعتقد ميليه أنه لم يتأصل في المحافظة المروية في النوبة السُفلى إنما في الدوديكاسخيون، حيث تطور من اللقب الإغريقى ـ الرومانى القديم *إستراتيجوس*.

إن كون العائلة تمتلك روابط قوية مع منطقة الدوديكاسخيون... واضح من ألقاب أمانى تواوى وشقيقه في رسوم فيلة التصويرية، وعلاقة عائلته الوثيقة مع ممتلكات معبد فيله من الأراضى ("وكلاء إيزيس")، ومن الحقيقة القائلة أن لواء النهر العام الذى بمقدورنا أن نحدد موقع مدفنه التلى، دُفن هو وزوجته... في منطقة ماديق... جنوب حدود الدوديكاسخيون نفسها تماماً، تفترض إقامتها في تلك المنطقة العامة أيضاً، ربما في المدينة المَروية التي تشغل خرائبها مساحةً كبيرة بوادي العرب [أنظر "حياة المدينة والقرية" بأدناه]. أما المكان الآخر الذى عُرف أعضاء هذه العائلة بأنهم دفنوا به فهو جبل عدّا الذى يقرب أن يقع في أقصى مسافة ممكنة من الدوديكاسخيون.

الذى يبدو، إذَن، أن عدّا كانت كرسياً آخر لعائلة اللواءات، إلا أنه لا يمكن إثبات ما إذا كان الجنرالات أنفسهم مقيمين بها... وعلى كل حال، فإن حضور عائلة واى كاى بكامل قوتها في عدّا يبين أنها لم تبق بوجه خالص عائلة

للدوديكاسخيون، لكنها استقرت أيضاً في الجنوب الذى هو بحق أشد مَروية (١١٣).

مضمون هذه الحقائق يدل على أن اللواءات إستمدوا قوتهم في الأصل من الدوديكاسخيون، لكنهم بسطوا نفوذهم مؤخراً إلى جانب ذلك داخل محافظة النوبة السُفلى المَروية، حيث أنشأوا كرسياً مستقلاً. فإذا كان هذا التعليل سليماً، علينا أن ندرك نوعاً من قواعد الحكم الثنائى في النوبة السُفلى المَروية والمحافظة الرومانية سواء بسواء. نظرياً، استمد أمير أكين *بَسُتي* وأمير العهد الملكى *البُكرْ* سلطتهما من الجنوب "أمراء أولياء للعهد"، واستمد لواءات النهر سلطتهم من الشمال "وكلاء لإيزيس"(١١٤). قدمت هذه الهياكل السلطوية المتطابقة خطراً بُيناً من التنافس والنزاع، لكنه يبدو مُبدداً بأسلوب مألوف في العصور الوسيطة عن طريق شبكة من الزيجات المتداخلة بين عائلتين أميريّتين(١١٥).

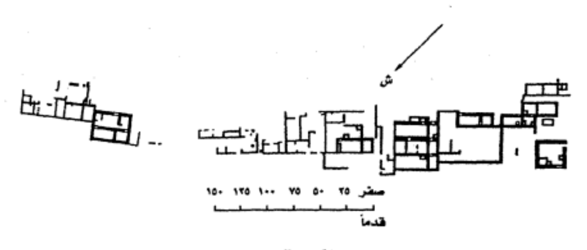
مهما كانت تفاصيل تنظيمها الإدارى، لا نلمس ثمة إرتياب في أن النوبة السُفلى من المحرقة إلى الشلال الثانى كانت على الأقل خاضعة إسمياً للملك النوبى في الجنوب، وان عائلتها المالكة كانت من أصل مَروى وتحدثت اللغة المَروية. إن الرأى ذاته لا يمكن أن يقال بقدر مساوٍ من الثقة عن الرعايا من السكان. تكفى الفوارق الثقافية والإجتماعية بين الشمال المَروى وبقيّة أنحاء المملكة لإثارة إمكانية فحواها أن بعض الشماليين أو أغلبهم إنتموا إلى جماعةٍ عرقية مختلفة، خاضعةً لمَروى لكنها لا تشاركها كل تقاليدها الثقافية. في جانبٍ واحد تبّين مجموعة عديدة من مواقع القرى في النوبة السُفلى إقامةً متواصلة منذ عهد المَرويين إلى أزمانٍ حديثة (١١٦)؛ وعلى الجانب الآخر فإننا غير قادرين على أن نتعرف في اللغة النوبية الحديثة ما يعدها سليلة للغة المَروية القديمة. إننا ملزمون لذلك بأن نعتبر إمكانية أن المستوطنين الرواد الذين أعادوا الإستيطان بالنوبة السُفلى في القرنين الأول والثانى بعد الميلاد لم يجيئوا من المقاطعات المباشرة لنَبتة ومَروى لكنهم ربما جاءوا من محافظةٍ نائية تتحدث النوبية، ربما إلى غرب النيل، وربما كانت هامشيةً بالنسبة لمركز الحكم المَروى (١١٧). لسوف تقدر المسألة بتفصيل أوفى في الفصل القادم .

حياة المدينة والقرية

باستثناء المراكز الإدارية العظيمة التى جرت مناقشتها سابقاً، كانت المستوطنات المَروية في كل من النوبة السُفلى والجنوبية غير مُسورة (١١٨) وبلا تخطيط نسبياً. الصورة المتخيلة نوعاً ما لكارانوق التى رسمها وُولى قبل ستين عاماً مضت سوف تخدم في وصف أى مستوطنة مَروية أخرى بالمثل:

كانت المدينة ذات شوارع ضيقة غير منتظمة، إن كان بالإمكان أن تُدعى شوارع، تلف وتدور بين منازل ذات طابقين أو ثلاثة طوابق في عُلوها، مبعثرةً هنا وهناك عشوائياً مع إنها موجهة بإنتظام، دون واجهةٍ موحدة، لكنها راجعة إلى الوراء أو مُطلة إلى الأمام طبقاً لما إذا كانت المساحة التى تشغلها أكبر أو أصغر من المساحة التى تشغلها جارتها. منز واحد بُنى من فوق أنقاض بناء أقدم منه، ربما يقف على قطعةٍ تمت تسويتها بلا إتقانٍ لعدة أقدام أعلى من الباب المجاور له؛ أما الحيطان الصلبة لمبنىً ما من ثلاثة طوابق مسدود الفناء بمستودعات ومخازن منخفضة السقف دليلاً على ثروة مالكه، فيقف خداً على فك ملاصقاً لسقيفةٍ ضلت طريقها يملكها رجل فقير... (١١٩).

يُبرز وصف وُولى خاصيتين شائعتين للمدينة المَروية: إختناقها غير المخطط، والتعدد الذى يثير الدهشة في هندستها المعمارية. وكما يذكر المؤلف برؤية ثاقبة، فإنه حتى مساكن الحياة اليومية متفاوتة بشكل غير عادى في الحجم والنوعية، تنقل بحق إنطباعاً قوياً بالتمايز الطبقى (١٢٠). الأحوال ذاتها يمكن أن تُرقب في معظم المجتمعات المَروية الأوسع حجماً في النوبة السُفلى، ومن بينها وادى



شكل رقم ٥٧

تصميم لجزء من مدينة مروية ، وادى العرب

العرب [١٢١]، أرمينا [١٢٢]، الشوكان [١٢٣]، ارقين [١٢٤]، ومينارتى [١٢٥]. في كل واحد من هذه الأماكن منازل قليلة صلبة بالبناء "مفتخرة" محاطة بجمعٍ غير منتظم من مساكن أقل فخامة بفارق ملحوظ .

المنازل «الفخمة» في الأزمان المّروية كانت لأقصى حد جيدةُ متماسكة البناء، ومتناسقة جداً في تخطيطها بما يقترح أنها كانت عملاً لبنائين يمتهنون تشييد المساكن ترجيحاً لهم على قيام قرويين محليين بذلك ـ كما هى حالة افضل المنازل في النوبة اليوم [١٢٧]. لقد كانت مُربعة تقريباً في شكلها العام، بسمكٍ حوالى ثلاثين بوصة للحائط، وكان الدخول إليها من باب واحد على الجانب الجنوبي أو الجنوبى الشرقى (قارن بالصورة ١٧ ـ ب). وبين بين، كانت الغالبية العظمى للمنازل مقسمةً إلى غرفتين مسقوفتين متوازيتين من حجمٍ متساوٍ بالتقريب، وفى عدة من المنازل الأكبر حجماً كانت الغرف إضافةً إلى ذلك مقسمةً بفواصل متقاطعةً (قارن بالشكل رقم ٥٧). صلابة الحيطان، والبقايا المحفوظة للدُرج، والحجرات الأرضية التى يُعثر عليها من حين لآخر دون أن تكون لها مداخل جانبية تدل كلها بوضوح على أن القسط الأكبر من المساكن المّروية كان ذا طابقين وربما ثلاثة طوابق، كما اقترح وُولى في وصفه لكارانوق بعاليه. الضوء والهواء يدخلان إلى الغرف الطويلة المسقوفة من خلال أزواج من نوافذ ضيقة، كوةٌ تقع تحت مستوى السقف بالضبط في أعلى الحيطان ـ نظاماً من التهوية ظل سارياً في كل المساكن المسقوفة في النوبة المتأخرة. أما الحيطان والسقوف فكانت مدهونةٌ بطلاء ناعم وفى كل حالة تقريباً كانت بيضاء الطلاء أو صفراء اللون. بهذه الخصائص، كما انتظام بنائها، فاقت المنازل "الفخمة" في نوعيتها المساكن التى اقيمت بأى فترة متأخرة قبل الأزمان الحديثة [١٢٨].

المنازل المّروية العادية أقل إنتظاماً لمدى بعيد في تخطيطها وبنائها من المنازل "الفخمة". كان سُمْك الجدران على الدوام حوالى خمس عشرة بوصة وكان من النادر أن تُرى مستقيمةً بما يسترعى النظر. إن خصائص بنائها هى الإستعمال العام للطوب "الرأسى" (المقاطع) وحده، دون إستعمالٍ للأطواف المتبادلة معه من الطوب "الممتد" (الطولى) المألوفة في البناء بالطوب [١٢٩]. هذه الجدرانُ الأقرب إلى النحافة وعدم الإنتظام ما كان لها أن تدعم سوي سقفٍ خفيفٍ وحسب من العمدان والعشب الجاف. وهنالك آثار قليلة من الدهان الداخلى الناعم أو الجير الأبيض. معظم الحجرات لها حُجرة خازنة للجرار مفروزة في ركن واحد داخل الأرضية علي الأقل، ومكان للنار في ركن آخر. والأخير مصنوع في حالات عديدة من رقاب أو حوايا كبيرة مما يستعمل للتخزين دُلف بها إلى داخل

الأرضية. ومن الملامح العامة لكل المساكن المَروية تقريباً، كبيرها وصغيرها، الترتيب المعقد لطوابقها. يتراكم الرماد والفضلات فيما هو ظاهر بمعدلٍ سريع للغاية، فما كانت تنظف أبداً؛ بدلاً عن ذلك، تنشأ مستويات أرضية جديدة أعلى منها من فترة لأخرى تهيأ قدوراً للتخزين وأماكن جديدة للنار. نتيجة هذا أن المنقب دائماً ما يجد القدور وهياكل أماكن النار " مكومةً " فوق بعضها البعض عندما يُنقب هذه المساكن (١٣٠).

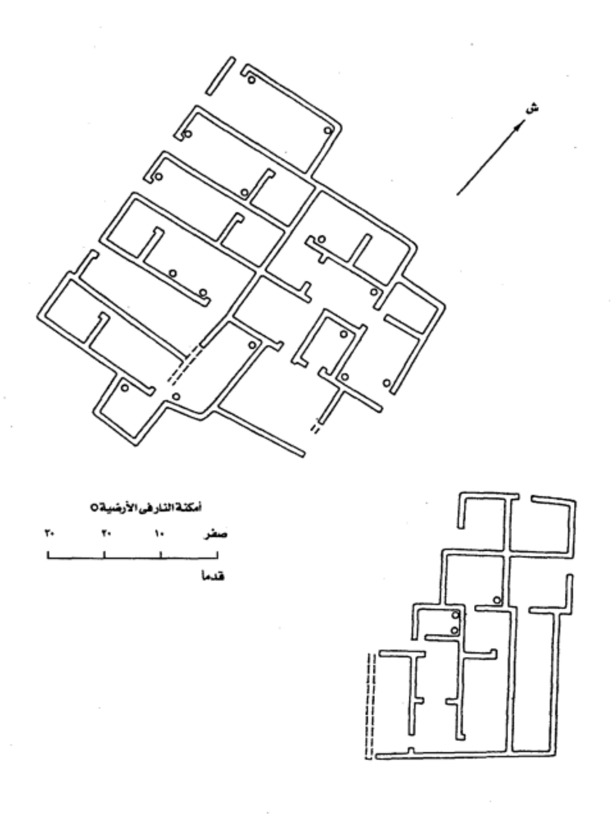
من الصفات المتماسكة للمنازل المروية العادية تجمعها الكثيف، المتلاصق. وفى حين أن المساكن "الفخمة" تنتصب على بُعْدٍ خفيف من بعضها البعض، ويُتعرف عليها في صفاء كإقامةٍ لعائلة بمفردها، تتزاحم البنايات الأشد تواضعاً على الدوام في تجمعاتٍ تصل إلى خمسين حجرة، يصعب أن يُتعرف بينها على وحدات الأسر الفردية. هذه الخاصية موجودة ليس في طول أنحاء النوبة السُفلى وحدها فحسب، لكنها رُصدت بعيداً إلى الجنوب في أبو جيلى، أقصى نقطة جنوبية للإستيطان المَروى معلومة لنا حتى الآن (قارن بالفصل الحادى عشر) (١٣١).

فى قريةٍ مَروية واحدة بجزيرة قامينارتى، يمكن أن يُرى تجمع المساكن الرئيس محتوياً أزواجاً متوالية عديدة من الحجرات، كل واحدة تشمل حُجرة طويلة وأخرى قصيرة، وكل واحدة تملك مدخلها الخاص من الخارج (الشكل رقم ٥٨) (١٣٢). في معظم الحالات وُجدت أوانى التخزين بالحجرة الأصغر بينما كانت أماكن النار في ركنين من الأركان الأربعة بالحجرة الأكبر، للطهى والحرارة. إفتراضاً، كان لكل زوج من الحجرات شقة لعائلةٍ بمفردها. وأياً كان الأمر، لم يلاحظ هذا النوع من إزدواج الحجرات بشكل متماسك في مواقع قرى مَروية أخرى.

وعلى ما هو متوقع، كانت القرى المَروية الأصغر مثل القرى في جزيرة قامينارتى (١٣٣) وميلى (١٣٤) في الشلال الثانى، مكونةً بكاملها من النوع الشائع للمنازل، فلم تستعرض مساكن "فخمة". وفى أماكن أخرى تظهر المساكن «الفخمة»، في حالات كثيرة على أنها بُنيت في تاريخ متأخر، وتقع بعض أجزائها على بقايا منازل أقدم منها من النوع المتواضع (١٣٥). محتمل أن هذا لا يقدم شيئاً يتعدى بروز الثروة المتنامية للقرى المَروية، التى تستطيع أوسع أسرها أعمالاً أن توفر بمضى الوقت ترف المساكن المكتملة التي يشيدها إختصاصيون مَهرة (ربما أنهم مصريون). هنالك شئ مشابه جداً يمكن أن يراقب في القرى النوبية ذات الماضى القريب، على نقيض قرى القرن التاسع عشر التى لم تحتو مساكن كبيرةً ظاهرة للعيان. سكان القرى في الأزمان المَروية، ربما ألهب تطلعهم نموذج المجتمعات الرومانية ـ المصرية في الدوديكاسخيون التى ربما جاء منها أبناؤهم المحترفون. مع ذلك، لا يمكننا بشكلٍ كُلى أن نستبعد تأويلاً آخر للمساكن "الفخمة": لعلها علامة على أن القرى النوبية في نقطة ما أصبحت خاضعةً لطبقة جديدة من ملاك الأراضى، تحت نظام إقطاعى متطور.

معظم القرى المَروية الكبرى التى احتوت مساكن "فخمة" إزدهت أيضاً بواحد أو ما يزيد عليه من المنشآت العامة. بين هذه ربما وسعنا التعرف على معابد، و "قصور" أو على الأقل إقامات رسمية، ومستودعات أو مخازن للسلع، ومعاصر للنبيذ، وحمامات. في قرية جزيرة مينارتى (الشكل رقم ٥٩)، تبدو نواة المجتمع الأصلى مجموعة صغيرة لمبانٍ عامة شُيدت قبل أى من المساكن المحيطة بها (١٣٦). وفى موقع مرتفع إرتفاعاً خفيفاً هنالك مبنىً صرحى له قواعد من الحجر وأعمدة داخلية منتظمة الأبعاد ـ يحتمل أنه معبد صغير أو إقامة رسمية. إن المبنى تداعي عقب الأزمان المَروية في كمالٍ وإتساق لم يترك منه شيئاً سوى قواعده والأعتاب الحَجرية المزدانة وأرضية من حجر منشطر هى التى هيأت مصدره الأصلى .

مباشرةٍ إلى جانب المعبد او القصر في مينارتى يشخَّص مبنى مركب مستطيل الحيطان على جانبيه الشمالى والجنوبى صُفّت غرف مسقوفة ذات احجام متساوية (انظر الشكل رقم ٥٩). وتحت كل طابق أرضيتان مسقوفتان في إنخفاض. إن ما عثر عليه بين المبنى المركّب من ثلاثة مقاييس



شكل رقم ٥٨

تصميم لمساكن مروية ، جزيرة قامينارتى ، الشلال الثانى

بروونزية يوحى بأن هذا المكان كان سوقاً وصفّاً من الحوانيت يُصان للإستعمال العام [١٣٧]. وفى فرس مبنى يفوقه إتساعاً عدا ذلك مماثل له غاية التماثيل وصفه قريفيث بأنه "القصر الغربى" [١٣٨]، لكن احتمالاً أقوى من ذلك يراه مخزناً للأدوات وربما فندقاً ليلياً صغيراً [١٣٩].

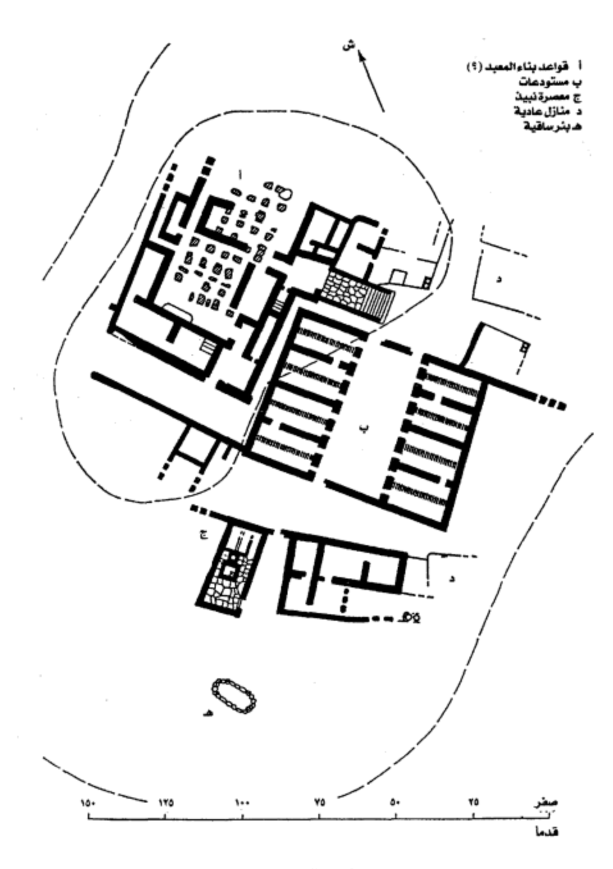
هناك مبنى ثالث عام في مينارتى يقع بالقرب من مجمع السوق، كان معصرةً للنبيذ. إن سلسلة من ثلاثة حياض محفورة رتبت في تسلسل إنحدارى في نطاق حجرة ضيقة طويلة (الشكل رقم ٥٩) [١٤٠]. كانت الأعناب تضرب بالأقدام في الحوض الأعلى؛ فيسيل العصير من أرضيته المنحدرة في مجرى محدد ثم يتخلل فماً في شكل رأس مزدان لأسد، يتدفق منه إلى داخل حوض يُصَفّى به. السائل المتدفق من هذا الحوض الوسيط يجرى إلى جوف إناء أكبر ربما كان التخمير يتم فيه، حيث كانت القوارير الإغريقية [الأمفورة] أو القِرَب تملأ للتخزين والنقل.

معصرة النبيذ في مينارتى واحدة من عشر منشآت معروفة في أجزاء مختلفة من النوبة السُفلى [١٤١]. كل المعاصر التى أمكن تحقيق تأريخها تنتمى إلى العصر المَروى الأخير. مع هذا، كانت المعاصر في مينارتى وحدها وفى وادى العرب [١٤٢] مودعةً وراء أبواب داخلية بين المبانى المحصورة لمستوطنة ما؛ واقعةً بالعراء في أماكن أخرى، يفترض قربها من حدائق العنب. إن معظمها مشتق من صخر محلى. ومع هذه الإستثناءات، مهما كان الحال، تتشابه الأمثلة العشرة المعروفة من معاصر النبيذ النوبية تشابهاً شديداً في تفاصيل رسمها وبنائها بما يدعو لإقتراح انها كانت متعاصرة في العمر الزمنى، وربما كانت من عمل مهندس واحد. تتفاوت الأحواض بشكلٍ خفيفٍ في الحجم وحده من مجموعة واحدة للتى تليها. في كل حالة معروفة كانت مخططة بأسمنت أحمر التلوين. كذلك في كل حالة، كان المنفذ من مستودع الضغط إلى مستودع التنقية منحوتاً على شكل رأسٍ لأسد (الصورة ١٨ ـ ١) [١٤٣].

لم تكن تربية العنب وتصنيع مشتقاته جديدة على نوبيى الأزمان المَروية كل الجدة. فالنبيذ كان ينتج في أجزاء مختلفة من مصر، وجرى الإتجار فيه إفتراضياً منها إلى النوبة منذ أيام الدولة القديمة، وهناك محاولات لزراعة العنب بين الأراضى الجنوبية أثناء الدولة الجديدة ومرة ثانيةً تحت حكم تهارقا [١٤٤]. هذه التجارب، فيما هو ظاهر، كانت قصيرة الأجل وغير ناجحة في نهاية الأمر. طوال الفترة الفرعونية، ربما كانت تكاليف النقل والصعوبات التى تكتنف الإنتاج المحلى كافيةً للتأكيد على أن شرب النبيذ بقى إمتيازاً للصفوة. جمهرة النوبيين، مثل فلاحي مصر، كانوا بالدرجة الأولى يحتسون الجعة حتى كثير من الأزمان اللاحقة .

لقد جاء "عشق العنب" إلى مصر والنوبة، كما العديد من العالم القديم، جزءاً من فصول الحضارة الإغريقية. ورعى البَطّالِمَة تربية العنب في طول مصر وعرضها، وبدأوا تصدير الإنتاج لا إلى النوبة وحدها إنما لأراض مختلفة في البحر الأبيض المتوسط علاوة عليها [١٤٥]. وعلى أيدى الإغريق، مع هذا، قطعت تنميةُ ذوق شعبى للنبيذ شوطاً أبعد من مجرد الإنتاج على نطاق واسع للمشروب. فقد شجعت طقوس باخوسية بأشكال متعددة ونشرت آخر الأمر على كثير من أرجاء العالم المتمدن عن طريق وسائل مثل القصص الشعبية، والطقوس الشعبية، وفن الرسوم التصويرية. وفى النوبة المَروية، تحمل آلاف الشقوق من قوارير النبيذ الإغريقية [الأمفورة] مصرية الصنع شهادةً على النجاح النهائى لهذا العمل، كما تشهد به شعبية أقواس العنب ورسومات الزخارف الباخوسية ليس على الفخار المستورد وحده، لكن على الفخار المَروى المحلى على حدٍ سواء.

إن معاصر العنب في مينارتى، ووادى العرب، وغيرهما من الأماكن يعود تأريخها إلى وقت متأخرٍ جداً من العصر المَروى، عندما كان "عشق العنب" قد ترسخ آنفاً في النوبة السُفلى [١٤٦]. ومن الممكن لذلك أن تمثل المعاصر محاولةً من النوبيين لمعالجة موازنة غير مرغوبة في التبادل التجارى، ناتجةً عن إعتمادهم الثقيل المتزايد على نبيذ الأعناب المستوردة. من الممكن كذلك، مع كل هذا، أن



شكل رقم ٥٩

تصميم لمركز قرية مروية، مينارتي

إمداد النبيذ المستورد كان مُنقطعاً بشكل مؤقت ـ وبخاصة عندما انسحب الرومان من الدوديكاسخيون في ٢٩٧ بعد الميلاد (أنظر الفصل الثالث عشر) [١٤٧]. في كل من الحالتين يبدو محتملاً أن رجال الأعمال الذين سعوا لتطوير تربية العنب في النوبة كانوا إغريق أو مصريين أصبحوا أغاريق أظهر من كونهم نوبيين، فتقنية المعاصر نفسها أجنبية مميزة. وفى أرجاء النوبة كلها، يوجد إسمنت (مصنوع من الطوب مخلوطاً بمادة من الجير المسحوق) [١٤٨] في معاصر النبيذ وفى الحمامات "الرومانية" وحدها .

للمرة الثانية، فإن مَنْ كانوا سيصبحون تجاراً لمعاصر النبيذ في النوبة المَروية ربما أحبطت رغبتهم شدة الحرارة وجفاف المناخ. فالمعاصر في مينارتى ووادى العرب لابد أنها استُعملت لوقت قصير جداً لاغير، حيث أنها نبذت آنفاً ومُلئت بالفضلات قبل نهاية الفترة المَروية [١٤٩]. بعد ذلك، إستعادت صناعات النبيذ المصرى إحتكارها للسوق النوبى، وظلت مستمرةً قروناً طويلة. بل إنه بعد الفتح الإسلامى لمصر، كان الإمداد السنوى بما مقداره ١.٣٠٠ كَنير من النبيذ للنوبة المسيحية مضموناً بمعاهدة [١٥٠].

يحمل إكتشاف مثير للعجب في سيالة، بجوار الحد الشمالى للنوبة المَروية، شهادةً إضافية على ازدهار عشق العنب في نهاية العصر المَروى. وفى مساحة لا تزيد عن ١٦٠ قدماً مربعاً، عثرت بعثة إسترالية على مالا يقل عن تسع عشرة مجموعةً من المبانى لبيع النبيذ، نقبوا عشرةً منها [١٥١]. إن المواقع تلخص كما يلى من أحد المراجعين :

باستثناء مبنىً جزئى، كان كل واحد من مجموعة المبانى التى نقبت خاضعاً لرسم واحد. الجدران الداخلية مصفوفة بمصطبة عريضة، مصنوعة من الحجارة ومؤونة الطين، وفى متناول اليد مناضد صغيرة مبنية من الحَجر. في ركنٍ واحد من مجموعة المبانى "غرفة لإعداد الطعام"، محاطة أحياناً عديدة بأسوار حَجرية سميكة بمستوى غير عادي، وفى إحدى المرات مزودة بباب له مزلاج. وفى مركز المبانى كتلة من الحَجر ذات ثقوب دائرية، يعتقد كرومر أنها كانت تستعمل لتحمل أوانى للمياه من إناء إلى ثلاثة. كذلك كانت في الجوار آثار لمدفأة وبُنى فرن صغير بالقرب من أحد الجدران.

بين المنازل وحولها وُجدت كمية مقدرة من الفَخار، معظمها شقوق لقوارير إغريقية، وآنية لصب السائل، وزهريات تشبه الأباريق، و "كؤوس"، وأقداح، وأجراس من الفَخار وفوانيس زيتية، وتظهر قوارير إغريقية متعددة كأنها كانت مخزونة في "غرف إعداد الطعام" وعُثر على أقداح حول بعض من أفضل المناضد حفظاً .

فى ضوء هذا الدليل، إستنتج كرومر أن هذه البيانات المتشابكة كانت مجموعةً من محلات بيع النبيذ، التى استخدمت إلى جانب ذلك دوراً للضيافة أو أماكن لقضاء الليل. إنها تبدو محددة المكان وراء المدينة أو القرية الصغيرة التى استخدمت الجَبانة رقم ١٣٨؛ وقد اندثر أي أثَر لهذه المدينة. إن أكثرية النبيذ الذى استهلك في محلات البيع صنع في عَصّارة النبيذ... التى اكتُشفت في مكانٍ لا يبعد عن الموقع [١٥٢].

لقد اقترح المُنقب تاريخاً وأصلاً رومانياً لمحلات بيع النبيذ في سيالة [١٥٣]. مع هذا، فإن الفَخار وغيره من المواد التى وجدت بها تضع هذه المحلات دون خطأ ما في "منطقة الفجر" بين الثقافة المروية وثقافة المجموعة المجهولة ـ متأخرةً في الزمن بشكلٍ أشد إعتباراً من تخلى الرومان عن الدوديكاسخيون [١٥٤]. أضف إلى ذلك أن المعمار غير المنصقل وغير المنتظم لمبانى سيالة ليس رومانياً بوجه قاطع، لكنه مشابه تماماً لغلبة من المبانى النوبية في ثقافة المجموعة المجهولة. إن هيكلاً بنائياً في موقع بعبد القادر مماثل جداً، وهو بالتأكيد محل لبيع النبيذ بالمثل، يرجع تأريخه بدءاً من نهاية ثقافة المجموعة المجهولة وبداية الفترة المسيحية التى تلتها [١٥٥]. بإعتبار هذا التاريخ الأخير، من غير المحتمل أن النبيذ الذى استُهلك في محلات البيع في سيالة أُنتج بمعاصر النبيذ

المجاورة مالم يكن قد بقى قيد الإستعمال لفترةٍ أطول وبمستوىً أفضل مما كان عليه الحال في وادى العرب ومينارتى.

إن واحداً من أكمل محلات النبيذ النوبية ككل بُنى في قصر إبريم في إثناء السنوات الأخيرة للعصر المَروى (١٥٦). يقف المبنى في ملتقى شارعين رئيسين في المدينة (قارن الفصل الثالث عشر)، وكان موضعاً للذكر بسبب درجة شغله الرفيع بالحجر المشكل. وكانت الجدران السفلى منظومة في عناية برمل حجرى وردى اللون، ومُجمَّلة بنحوت يفترض أن القصد منها كان الإعلان عن وظيفة المبنى: عناقيد من العنب ورسم لقارورة إغريقية تقف على متكأ (١٥٧). أما الجدران العليا (التى أصابها الدمار خلال إعادة بناء لاحق) فقد كانت فيما هو مرئى من الطوب المجصص باللون الأبيض، ومثقوبةً على مسافات متساوية بنوافذ ذات أطر منحوتة نحتاً مزداناً. حُددت هوية المبنى أصلاً على أنه قصر بسبب بنائه الحجرى وزُخْرفه الرفيع غير المعتاد (١٥٩)، لكن العثور في عام ١٩٧٢ على كتل من القوارير الإغريقية وأقداح الشرب المكسرة لم يترك شكاً فيما يتعلق بمهمته الحقيقية (١٦٠).

وثمة منشأة عامة أخرى في النوبة المروية تستحق الذكر. في فرس، ليس بعيداً عما يدعى «بالقصر الغربى»، عُثر على بقايا ما يبدو أنه كان حماماً صغيراً (١٦١). كان هنالك حوضان للغطس، أحدهما مستطيل والآخر بيضاوى الشكل، موصولان عبر جدرانهما الجانبية عن طريق قناة خزفية. من قاع الحوض البيضاوى، الموضوع بدرجة خفيفةٍ علي إنخفاض أوطأ من جاره، تمتد ماسورة التصريف إلى قناة مائية من الحجارة المصفوفة على مقربة منها. كُلاً من الحوضين يبلغ قياسه حوالى ثلاثين بوصة عرضاً وستين بوصة طولاً ـ مساحة لا تكبر كثيراً عن صحن الحمامات الحديثة. ولما كانت الأجزاء العليا من هذه الهياكل قد دُمِّرَت بفعل التآكل، لم يتأتَ تحديد مبلغ لعمقها الأصلى، ولم يُعثر على أثر لآلية التشغيل. برغم ذلك، تم اكتشاف عدد من المواسير الخزفية ملقاة على أرضية منزل مروى مجاور بأطوال مختلفة. وظيفة هذه الهياكل البنائية كحمامات فكرة تخمينية، ولكن من الصعب إقتراح أى إستعمالٍ آخر لها. إنها تختلف إختلافاً بَيِّنا في الحجم والرسم عن كل معاصر النبيذ المعروفة في النوبة وبذا فمن غير المحتمل أنها كانت تُلبى ذلك الغرض. إنها أياً كان الأمر، المثال الوحيد المعروف لحمام مبنى في النوبة بخلاف الحمامات المشيدة في مَروى نفسها (الفصل الحادى عشر). مثل الحمامات في مَروى، ومعاصر النبيذ في النوبة السُفلى، كانت أحواض فرس مخططةً بأسمنت مِحْمَّر اللون [مصنوع من الطوب الأحمر مخلوطا بمادة من الجير المسحوق]. وتدل شقوق الفَخار المتناثرة فيها وحولها، كما هو الوضع في منزلين مجاورين، على أن تاريخها يعود إلي العصر المروى.

على الإجمال، تبدو مواقع المدن والقرى الواقعة شمال مروى مُكَونةً لصورةٍ من الحياة اليومية تختلف على الأرجح عن الصورة التي ربطنا بينها وبين أراضى السهل. وفي الجنوب، بصرف النظر عن إزدهار التبادل السلعي الخاص، كانت الرموز القديمة وتقاليد الحضارة الفرعونية قويةٌ لا تزال، المعبد والقبر تعبيرهما العلنى البارز. أما الشمال، فكان النفوذ العلمانى للحضارة المأثورة محسوساً بشكل مباشر، ومحور الحياة العامة في مجتمعات عديدة فيما يبدو قائما على الحمام، ومحل النبيذ، والسوق.

·تمثل مدن النوبة المَروية السُفلى وقراها واحدةً من القمم الحضرية في تأريخ النوبة الإجتماعى. وفى حين أن أياً منها، بقدر ما نعلم، ما كان كبيراً بمستوى بعض المستوطنات في أزمان متأخرة، تشير بقاياها إلى درجة من التمايز الإجتماعى والتخصص الإقتصادى الذى قلما أعيد نظيره قبل مجئ القرن العشرين. إننا ربما ينبغى علينا أيضا أن نضيف التعدد العرقى إلى هذه الصورة :

جائز أن تجار النبيذ في مينارتى ووادى العرب كانوا من الإغريق، وربما كانت طبقة التجار مصرية في قسمٍ منها أو أزيّد منه هى حقيقة في المدن الأكبر في النوبة الحديثة. ومثلما رسم مونير

دى فيلار من صورة لها "... إن التجار المصريين، عَبروا باستمرار النوبة المَروية، أو إستقروا فيها بالمثل؛ رجال أعمال شجعان يخاطرون بأعمالهم التجارية يتجولون حيثما انبسطت التجارة، على غرار الباعة المتجولين المحدثين" (١٦٣). بل إن المدن الإقليمية الصغيرة نسبياً مثل مينارتي وأرمينا كانت لها أسواقها ومعاصر نبيذها؛ أصغر القرى وأشدها نأياً وحدها، مثال القرى الصغيرة في قامينارتي وجزيرة ميلي، هى التى عرضت نوع التجانس الإجتماعى والإقتصادى الذى نربط ما بينه وبين المستوطنات النوبية التى تعود للأزمان الأولى وأزمان عديدة متأخرة بالمثل .

الفنون والصناعات

يتكون قسط ملموس من الثروة المادية التى تمتع بها النوبيون المَرويون من بضائع أجنبية مجلوبة من مصر وما يبعد عنها بالخارج على حد سواء. إشتملت هذه الأصناف بالقدر الذى نعلمه، على مخزونهم كله تقريباً من البرونز، والزجاج، ومواد الصقل بل إنها احتوت على جزء معتبر من فَخارهم. برغم هذا، يمكننا أن نتعرف بالمثل عى ثلاث صناعات محلية هامة على أقل تقدير في النوبة المَروية: صنع الحديد، وصنع الفَخار، والنسيج .

كما مر بنا في الفصل الحادى عشر، تتكون أغلب بَينة مباشرة في بُروز لصناعة الحديد المَروى على أكوام الجُفاء الهائلة في مَروى وبعض المراكز الحضرية الأخرى في المُحافظات الجنوبية. ومن الجانب الآخر، لا تشهد مواد الحديد التى عُثر عليها في مواقع المنازل والقبور المَروية بإثبات لتلك الصناعة ذات التطور الباسق، والدعامة الرئيسة للإقتصاد المَروى، كما تصورها بعض الكتاب (١٦٤). وفيما ذكر تريقر من قبل، كانت كل المواد بالتقريب صغيرةً وتشتمل أساساً على رؤوس السهام، رؤوس الحراب، وبضائع متنوعة للزينة.

فى جَبانات مَروى، كانت المواد الإستعمالية المصنوعة من الحديد فيها تحتوي سكاكين، وملاقط، وأزاميل، ومقصات، وأسلاك، ومسامير، والأخيرة استُخدمت لتثبيت مواد خشبية. هنالك أيضاً اقفال حديدية لصناديق، بالرغم من أنّ هذه إلى جانب مواد أخرى كثيرة للزينة، ربما كانت مستوردة. بضائع التجميل تحتوى على خواتم، وحجول، وألسنة لأجراس البرونز. أما الأسلحة التى تظهر في القبور فهى رؤوس رماح ورؤوس سهام متميزة (١٦٥).

الأنواع المختلفة للسلع الحديدية التى وُجدت في الجَبانات المَروية السُفلى هى أكبر حجماً نوعاً ما، ربما بسبب توفر المواد المستوردة من الأقاليم الرومانية المجاورة .

تظهر في كل مُتكرر دائم الحجول، الغوايش، خواتم الأصابع وأقراط الأذنين، مراويد الكحل، ومعينات النظافة، إلى جانب رؤوس الحراب ورؤوس السهام، والأسلحة المذكورة أخيراً متماثلة الشكل للتى في مَروى. يبدو أن هنالك مواد إستعمالية أخرى في القبور الكائنة بفرس وكارانوق أزيد من المواد الموجودة بمروى. هذه المواد فيها قاطعات، وملاقط، وخناجر، ومسامير، وإبر، ومقصات، وقصاصات جاهزة إلى جانب أمواس للقطع، وأزاميل، وفؤوس، وقداديم، وكلابات، ومعاول بالرغم من أن هذه المواد لا تزال تبرز إلى الوجود على نحو متقطع سيما القطع الثقيلة منها على وجه الخصوص (١٦٦).

ولننقل إضافةً من مقالة تريقر الثاقبة عن صنع الحديد المَروى :

... قليل جداً من المعلومات المحَققة تمت معرفته فيما يخص الوجوه الإجتماعية والسياسية لصنع الحديد في الثقافة المروية. مثل هذه البَينة على ما هي عليه هى ربما تكون مُوحية لكنها ليست نهائية. لقد بُلّغ عن أكوام الجُفاء في عدد من المواقع المَروية العامة مثل كاوة، ونبتة، وجزيرة أرقو: (١٦٧) يفترض أن هذه نتجت من صنع الحديد، مع أن هذا الإدعاء لم تؤيد مصداقيته بعد (١٦٨). ففي كل موقع تبرز اكوام الجُفاء موصولةً مع معبد مَروى. لم يبلغ عن أثر لأى فرن أو منشأة للصهر، فيما أعلم، بأى من المواقع الصغيرة في النوبة السُفلى. وعلى الأقل، يظهر أن بعض المواد التى وُجدت في النوبة السُفلى من أصل مصرى، ويبدو محتملاً أن وفرةً من المواد التى عُثر عليها في

المستوطنات الأصغر كانت مجلوبةً من الشمال أو مصنوعة في المستوطنات المَروية الأكبر [١٦٩].

إن فرن الحديد المروى الوحيد الذى تم تحديده تحديداً قاطعاً، في مَروى نفسها، يبدو أنه كان من نوع أسطوانى العمود مألوفاً لغالبية العالم القديم المعروف [١٧٠]. أُدخلت رافعة ضاغطة إلى داخل غرفة الصهر عن طريق مواسير من الفخار (أقساماً قصيرة، سميكة الجدار من المواسير ذات الأطراف المصغرة)، عُثر عليها بكثرةٍ حول الموقع [١٧١].

مع إنه ما من أحد إقترح أن صنع الفَخار لعب دوراً هاماً في الإقتصاد المَروى، فإن الأوانى الخزفية وليس البضائع الحديدية هى في الحقيقة الأغلب توافراً والأوسع إشتهاراً في النوبة القديمة. إن الجّبانات الكبرى، وبوجه الدقة في الشمال، تمخّضت عنها عشرات الآلوف من أوانى الزينة ذات الألوان البراقة، شاهدةً كلها بالتطور الرفيع للفن الخزفى (أنظر الشكل رقم ٦٠ للأمثلة). ولأن صانعى فَخار النوبة المحافظين تمسكوا بتقاليد الزخرفة المبالغ فيها والتى اندثرت لونيتها في عالم البحر الأبيض المتوسط، تقف منتجاتهم ماثلةً في عصرٍ كانت تسوده خلافها مصنوعات حمراء الأديم مصنوعة تقليداً لأوانى البرونز. نتيجة لذلك "فإن الفَخار المَروى منتوج متفرد للنوبة القديمة وله مكان مُشَرّف في مجموعات المتاحف بأنحاء العالم، بالرغم من أنه يُعرّف في شئٍ من التكرار كخزفٍ رومانى إقليمى" [١٧٢].

مع وفرة الفَخار المزخرف المَروى، نظل بمثل ما كنا عليه من جهل غالب بالتفاصيل التاريخية والفنية الموصولة بتطوره، كما في حالة صناعة الحديد. فالمواقع المروية في أراضى السهل (مثل المواقع النّبتية التى سبقتها) تحتوى في الغالب على مصنوعات الفَخار بالعجلة فحسب وهى أشد خلواً من الزخرفة والإتقان، ويبدو أنها تواصل تقاليد مصر الفرعونية في الفَخار الإستعمالى ثقيل الإستهلاك [١٧٣]. وبمقدار ما يوجد الفَخار ذو الزخرف رفيع المستوى بأماكن مثل المصورات [١٧٤] ومَروى، فإنه يبرز إلى الوجود فقط مستوياته الأسمى جودةً والمتأخرة زماناً، بكميات من الصغر بحيث أنها توحى بأنه غير مصنوع محلياً. ومع هذا، فإن المواقع المروية في النوبة السفلى مصحوبة منذ أول لحظة للعثور عليها (ربما في القرن الميلادى الثانى أو الثالث في معظم الحالات) بكميات عظيمة من الفَخار المزخرف، لكن قليلاً جداً من المصنوعات الإستهلاكية يُعد من نفس النوع الموجود في الجنوب. هنالك، بإيجاز، ما يقارب إنقطاعاً كاملاً في المصنوعات الخزفية بين الشمال والجنوب المرويين [١٧٥]: واحداً من مؤشرات ممكنة عديدة على انقسام عرقى بين المنطقتين (أنظر الفصل الثالث عشر).

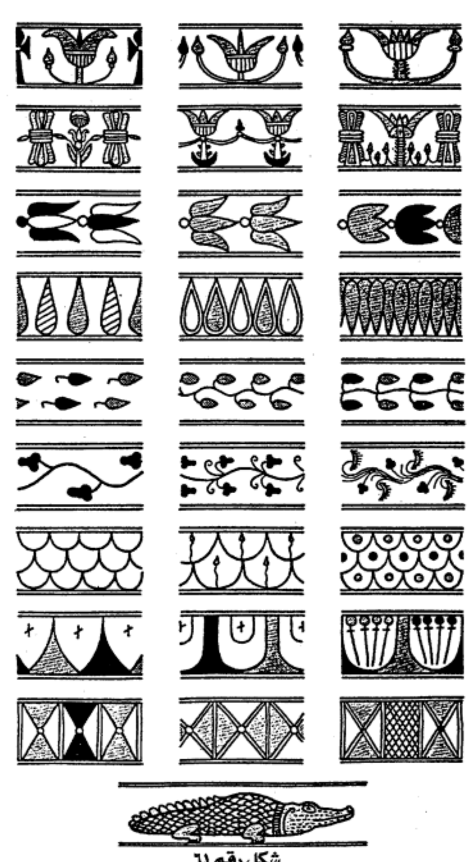
صناعة الفَخار المزخرف في النوبة السُفلى تعطى مظهراً دالاً على أنها نبعت شابةً عن الطوق، دونما أى مراحل تجريبية أو تطورية، في الوقت الذى عاد فيه الإستيطان لأول مرة للمنطقة، إن تطورها ربما يُعزى منطقياً إلى نفوذ مصر البَطْلّمية في الشمال، لكننا في الحقيقة غير قادرين على تتبع الأثَر لأى صلةٍ محددة بين التقاليد الزخرفية الموجودة في الفَخار المَروى وتلك الموجودة في مصر المعاصرة لها أو أى مكان آخر [١٧٦]. إن الغلبة السائدة للأفكار الرئيسة للنقشات المصرية على غرار زهرة اللوتس والأنخ (قارن الشكل رقم ٦١) في الفَخار المَروى تبدو جزءاً من القصة العامة للنفوذ الفرعونى في النوبة، أكثر منها محاكاةً مباشرة للأوانى المصرية المعاصرة. هذه النقشات لا توجد، بحق، في فَخار مصر البَطلّمية. فإذا كانت، إذَن، صناعة النوبة السُفلى للفَخار المزخرف قد جرى نموها في ظل إلهام أجنبى، فإنها لائمت نفسها منذ البداية لأذواق محلية محافظة.

بينما نجد تقاليد الزُخرف المَروى عالية التفرد، فإن قوالب الأوانى نفسها مشتقةٌ بما يمكن إدراكه من العالم المأثور. إنها تؤلف كمية وافرة من الأوانى لحفظ السوائل من كل الأحجام والأشكال: أكواباً، وأقداحاً، وكل أنواع الزجاجات والأباريق، وجراراً، وقوارير إغريقية (الشكل رقم ٦٠). إن عدداً كبيراً من هذه الأوانى قُصد بها بالتأكيد تخزين النبيذ واستهلاكه؛ فهى تحمل شاهداً



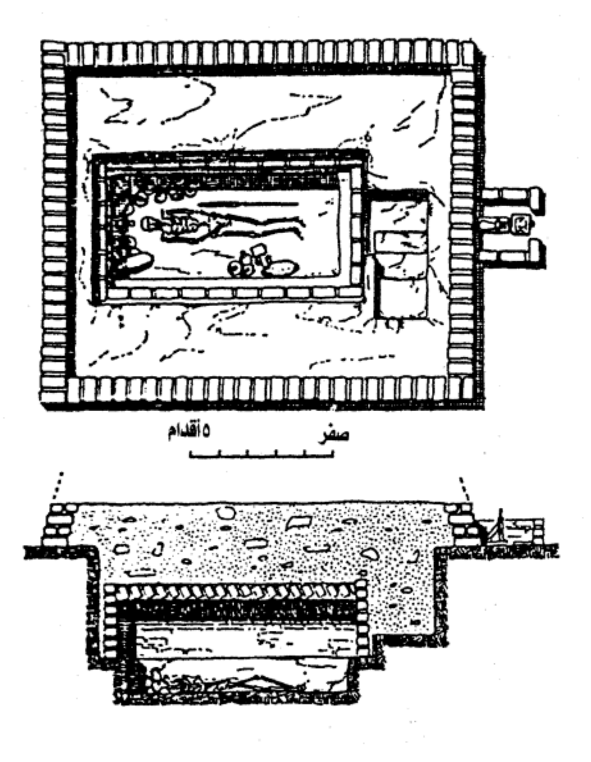
شكل رقم ٦٠

أوانى فخارية مروية راقية من النوبة السفلى



شكل رقم ٦١

نماذج لأشكال فخارية مروية مزخرفة ، النوبة السفلى



شكل رقم ٦٢
حجرة مسقوفة لقرى مروى مع بنائها العلوى

إضافياً على نفوذ ظاهرة "عشق العنب" في الأزمان المَروية المتأخرة. أما القصعات وغيرها من أنواع الأواني العريضة كالتى يُحتاج إليها في إعداد الطعام وخدمته فهي نادرة بما يدعو للعجب؛ يبدو محتملاً أن هذه الحوجة كانت تُقابل في المقام الأولى بالأواني البرونزية (١٧٧).

إن (لون الخلفية) في معظم الفَخار المَروى سَمنى - أصفر باهت أو مغرة صفراء مرسومة في خفةٍ، بزُخرف أسود وأحمر. وثمة آنيةٍ أخرى خلفيتها حمراء، لها زخرف أسود وأبيض (١٧٨). أما التصميمات، فعلى خلافها في أى فترةٍ أخرى من التاريخ النوبى تمثيليةً بصفة أولية، وتشمل كل أنواع النبات والحيوان، ومناظر عن النشاط البشرى، ووجوهاً إنسانية كاريكاتورية ساخرة. والأشكال النباتية الشعبية على وجه الخصوص تمثيلات لزهرة اللوتس، ونبات ثلاثى الوريقات، وغصن العنب، وهو واحد من رسوم قليلة تُتقاسم عموميتها بين الفَخار المَروى والمصرى المعاصر له. والتماسيح والضفادع، والثعابين هى أعم العناصر الحيوانية شيوعاً، لكن الطيور، والبقر، والزراف، والأسود، وتشكيلة مختلفة من حيوانات أسطورية تشخص أيضاً فيما يبدو. يُضاف إلى ذلك عدد لا بأس به من أشكال هندسية خالصة، معظمها شكلى جامد (١٧٩). الإناء المألوف يتشكل من رسم واحد إلى خمس قطع ممركزة من الزُخرف، كل قطعة منها تتميز عن كل القطع الأخرى بشكل خاص .

إن صنع الفَخار باليد لم يذوَ حتى في أوج أيام الأوانى المزخرفة التى صُنعت بالعجلة. وعلى نقيض ذلك يبدو أنه لم يتأثر إلا قليلاً جداً بوجود صناعة "منافسة". ولوقتٍ قصير كانت هناك بعض محاولات أقرب إلى الرثة للزخرف الملون، ولتقليد القوالب المصنوعة بالعجلة الأسمق تقدماً، لكن على العموم إستدامت الأوانى المصنوعة يدوياً تلك التقاليد البسيطة التى كانت سمةً مميزة لها منذ الأزمان الفرعونية - وواصلت المسيرة حتى الوقت الحاضر. ومنذ الأزمان المَروية في مراحلها المتأخرة حتى العصور الوسطى - لألفٍ ومئتى عام أو أكثر - ثابرت صناعات الفَخار النوبى اليدوية أو المصنوعة بالعجلة على البقاء جنباً إلى جنب دون أن تؤثر إحداهما بدرجةٍ ملحوظة على الأخرى. وعلى ما يبدو عليه الأمر من غرابة، إختفت عجلة صانع الفَخار، حتى أن الصناعة الأوغل بُدائية وحدها، والمتأصلة في الأزمان الحَجرية الحديثة، بقيت حيةً إلى الحاضر،إن تفسير هذا الحدث الغريب الذى يثير الدهشة يقع في الحقيقة التى مؤداها أن صنع الفَخار باليد كان، ولا يزال، فيما يبدو فناً أليفاً لجمهرة النسوة النوبيات، في حين أن الإنتاج على نطاقٍ واسع للأوانى المصنوعة بالعجلة كان وقفاً على الإختصاصيين من الذكور (١٨٠). ومع أنها في أوقات قامت بتغطية الحاجة لقسم كبير من السوق الإستهلاكى، كانت الأوانى المصنوعة بالعجلة في التحليل النهائى على أى حالٍ ترفاً وارداً وقد قُضى عليه في أزمان أبتلاء المنطقة بالفقر .

لعل وفرة الخزف الفاخر المصنوع بالعجلة فربما أنه أغلب دليل بليغ نملكه عن مستوى الرخاء العالى في النوبة المروية السُفلى. فليس هنالك قبر في الغالب الأعم ليس فيه على الأقل ثلاث أو أربع أوانى مزخرفة. أضف إلى ذلك، أن التراكم الهائل لشقوق الفَخار في أماكن مثل قامينارتى تبين أن الأوانى الفاخرة لم تكن بذخاً متعهداً من الأغنياء، لكنها كانت ضمن إستعمالات الحياة اليومية حتى في أشد القرى تواضعاً (١٨١).

الحجم وحده ومثله في تعدد الفَخار المَروي المزخرف يعطى انطباعاً بأنه كان يُنتج في عددٍ من المراكز المختلفة. مع هذا، فإن فرناً واحداً لصانع فَخار، في النوبة السُفلى، تم التعرف عليه نوعاً ما بصورة أولية (١٨٢). لقد كان مبنى أسطوانياً من بناء الطوب له قطر يبلغ أربعة أقدام، لم يتبق منه إلا الأطواف السُفلى. وحتى بعد الأزمان المَروية بقليل، كان الفَخار يُحرق في أفرانٍ أسطوانية من الحجم ذاته بالتقريب مجزأة إلى غرفة حرق عليا وغرفة صهر سُفلى (قارن الفصل الثالث عشر). ويمكن القول أن الفرن المَروى كان مصمماً بشكل مشابه، على أنه لم يكن ما تبقى منه كافيا ليؤكد على ذلك الرأى.

تركزت صناعة الفَخار المَروي المزخرف بما يشبه التاكيد في النوبة السُفلى، وفي حين وُجدت مصنوعات متماثلة في الجنوب أيضاً، فإنها أقل تعدداً لمدى بعيد، وتبدو منحصرةً في المراكز الحضرية الكبرى. حتى في مَروي نفسها تندر شقوق الفَخار المصنوع بالعجلة وتوجد في الطبقة الأعلى من الراسب فحسب [١٨٣]. ما وُجد سوى عدد غير ذى قيمة أو اهمية من الأوانى المصنعة بالعجلة وشقوقاً فَخارية في قرية ابو جيلى القاصية في الجنوب [١٨٤]، والجَبانة المجاورة لمكوار (سنار) [١٨٥]، مع أن أوانى البرونز في الموقع الأخير من الأنواع المتأخرة التى توجد بإنتظام في الشمال مصحوبةً بفَخار مَروي مزخرف مألوف. كل البينات تتجمع مشيرةً بأن صناعة الفَخار بالعجلة في النوبة السُفلى كانت نسبياً تطوراً متأخراً، ربما جاء في وقت كان فيه الجنوب يجتاز مسبقاً إنكماشاً سياسياً وإقتصادياً، وأن مثل تلك الأوانى الفَخارية الفاخرة التى وجدت سبيلها إلى باطن المحافظات الجنوبية ذهب معظمها إلى أيدى صفوة ثَرية في المراكز الحضرية الكبرى.

صرفاً عن إنهم يُمَدوُن بوفرةٍ فَخاراً من صنعهم الخاص ـ الجرر الإستهلاكية يدوية الصنع إلى جانب مصنوعات الفَخار الفخمة ـ حصل المَريون في النوبة السُفلى كذلك على عدد يثير الدهشة من الأوانى بالتجارة مع مصر. إن معظمها فيما هو ظاهر كان مصنوعاً في أسوان أو بالقرب منها. ويمكن التعرف عليها بلا عَناء ليس فقط بصلصالها الوردى ذي الصلابه اللامع، (الذى لا يوجد أبداً في الأوانى نوبية الصنع)، لكن بقوالبها وزخرفها المتناهي في البساطة، الذى لا يشبه للغاية أنواع الفَخار المَروى وتخضع بشكلٍ كلى للمعايير الرومانية [١٨٦]. أما أكبر عدد من هذه الأوانى فهو القوارير الاغريقية (الأمفورة) التى كان يستورد بها النبيذ المصرى، بيد أن هناك أنواعاً مختلفة من الكؤوس، والأقداح والقداح والفوانيس، تقرب كلها من أن تكون محاكاةً لأنواع من أوانى البرونز المعاصرة. في الفترة اللاحقة على الفور لما بعد الأزمان المَروية، عندما اختفت مؤقتاً صناعة الفَخار الوطنى مرة ثانية، أخذت الأوانى المجلوبة من أسوان وغيرها لوقت قصير بناصية سوق الفَخار النوبى.

النسيج كان بالتأكيد صناعةً وطنية أخرى في الفترة المَروية. إن كثيراً من البَينة غير مباشرة عليه؛ وهو يتكون من أعدادٍ كبيرة من أوزان منسج طينية مثقوبة عُثر عليها في مواقع مساكن مَروية. وبما أن الأقسام الأخرى من المنسج إفتُرض أنها مصنوعة من الخشب، فإنها لم تقو على البقاء، لكن الأوزان العديدة فوق الخمسين التي وجدت في حجرة واحدة في جزيرة ميلى [١٨٧] تشير إلى أن المرويين كانوا يستخدمون منسجاً موزون الشبكة يُجرى عليه الغزل من أعلي إلى الأسفل. هذه الأداة لم تكن هى المغزل المصرى المأثور منذ القدم، لكن يحتمل أن تكون إدخالاً إغريقياً إلى وادى النيل [١٨٨]. وفى جزيرة ميلى عثر على عددٍ من آلات عظمية للنسيج مسنونة الرأس في نفس الحجرة التي تضم أوزان النسج. إن وجود هذه المواد في منازل قرية بسيطة يقترح أن النسيج المَروى لم يكن صناعياً، لكنه، مثل صناعة الفَخار اليدوى، كان يُنفَذ في المنزل من عامة النساء.

الشكر موصولٌ لإكتشافات تمت قبل وقت وجيز في إبريم، حيث بدأنا من خلالها نتعلم الكثير عن المنسوجات التى كانت تُنتج بالمناسج النوبية. كان أغلبها من القطن، مع استعمالٍ وفير للزخرفة بالتطريز وبكرات الربط. غالبية الجلابيب كانت بيضاء، بزركشة زرقاء أو خضراء. وعثر على جلابيب القطن كذلك في مقابر كارانوق [١٨٩] ومروى [١٩٠]. ولما كان بلينوس يتحدث عن القطن في السودان في القرن الميلادى الأول [١٩١]، ولم يكن القطن بعد شائعاً في مصر حتى وقت متأخر بكثير [١٩٢]، هنالك سبب جيد للإيقان بأن منسوجات القطن في النوبة المَروية كانت صناعة محلية. يشير أركيل إلى زراعة القطن كواحدة من التأثيرات "الهندية" على الثقافة المَروية (قارن الفصل الثانى عشر) [١٩٣]. إن بعض منسوجات الكتان في حالة حسنة الإكتمال من الزخرف وجدت أيضاً في كارانوق [١٩٤] ويحتمل كل الإحتمال أن تكون من أصل مصرى [١٩٥].

وهناك اثنتان من المهارات الفنية الأُخري يمكن أن يُسلّم منطقياً بتطورهما في النوبة المّروية هما نسج السلال وصنع الجلود. السلال صنعت في كل الأزمان في التأريخ النوبي، أمثلة منها قليلة غير ذات قيمة أو أهمية،معروفة لنا من القبور المّروية في الشمال [١٩٦]. فالنوبة بحجم سكانها الرعويين الكبير، كانت كذلك في كل العصور منتجاً رئيساً للجلود، وكان الناس في الأزمان قبل الفرعونية يلبسون عادةً جلابيب من الجلد. أما البضائع الجلدية التى عثر عليها بشئ من الإنتظام في القبور المروية ولم يوجد غيرها فهى الصنادل [١٩٧]، لكن قلةً من بقايا جلد مزخرف مُطّعماً بالعاج وُجدت في كارانوق [١٩٨].

ثمة ممتلكات هامة أخرى للنوبين المّرويين كانت مواد البرونز، والزجاج، والصينى، والخشب، والعاج. كل هذه البضائع أشد شيوعاً في النوبة السُفلى منها في الجنوب، وهنالك سببٌ للإعتقاد أنها كانت في جزء واسع منها إن لم تكن كلها مجلوبة من مصر أو الخارج الأبعد [١٩٩]. إن أفضل الأمثلة شهرة وأشدها ثراء المتاع الفاخر الذى وُجد في الجّبانات العظمى بكارانوق [٢٠٠]، وفرس [٢٠١]، غير أن مواد مستوردة من نوع واحد أو غيره وجدت تقريباً في كل موقع مّروى في النوبة.

كان البرونز يستعمل لأنواع مختلفة من أدوات الزينة، وأدوات التجميل الصغيرة مثل المقالم، والمقصات، ومرواد الكحل، وفوق كل شئ للقداح وأوان برونزية. إضافة إلى هذه الحاويات العادية، كانت هنالك أنواع مختلفة من مزخرف الأباريق والمباُخر، والمغارف، والاكواب، والفوانيس، في أشكال مأثورة أغلبها مشهور. أما كمية البرونز التى كانت قيد الإستعمال في الأزمان المّروية فهى مثبتة بحقيقة أنه في مينارتى كان مستودع الفضلات في معصرة النبيذ مهجورة الإستعمال يحتوى عدة مئات من "قطع" البرونز - أوفر مما وجد في أى مستويات أخرى مجتمعة في الموقع [٢٠٢].

الأغلبية العظمى من أوانى البرونز مصنّعة في قوالب رومانية أو إغريقية مألوفة، بيد أن قليلاً منها مماثل في الشكل لأوانى الفّخار المروية، بل إن لها زخرفاً مماثلاً (مع أنه مطبوع وليس مرسوم) [٢٠٣]. فإن لم تكن إنتاجاً حقيقياً للنوبيين، فلابد أن رسومها صُممت على وجهٍ بعينه لتُرضى الأذواق النوبية أكثر مما ترضى المصرية. ومما هو نوبى على نهج التمييز الحُجُول بكمية كاسحة، عادة بزخرف مطبوع بقواطع، وجدت من وقت لآخر في قبور الإناث [٢٠٤]. وبعضها من الحديد [٢٩٥]، لكن الأغلبية من البرونز. ولابد أن حجمها ووزنها أعاق من يلبسها إعاقةً شديدة؛ ربما لأن وظيفتها الإجتماعية كانت معادلة لمهمة حاجز - القدم بين الصينيين [٢٠٦].

لما كان بعض البرونز الذى وجد في النوبة منتوجاً محلياً على سبيل الاحتمال، فالمعتقد فيه حتى وقت وجيز أن كل الأوانى الزجاجية كانت من أصل أجنبى [٢٠٧]. كما ذكر منقبوا كارانوق "إن الأوانى دون إستثناء من نوع أجنبى، من الأنماط المعمولة من قالب واحد وقد سادت بشكلٍ عام في طول أنحاء الإمبراطورية الروُمانية؛ قلما يتوقف إستعمالها على منطقةٍ واحدة بعينها، وهى ليست متفردة، إلى الحد الذى يمكن فيه بقدر متساو أن يُعثر على إناء زجاجى واحد في كارانوق وفى أى مكان آخر بين الراين والبحر الأبيض ُالمتوسط" [٢٠٨]. أغلب الأشكال الآنية شيوعاً هى الأيقونة - زجاجات صغيرة مبسوطة الأحجام، مثلثة التكوين بشكل أو آخر، ذوات رقاب أنبوبية وأطراف لامعة عريضة. كذلك وُجدت أنواع مختلفة من زجاجات أكبر، وأخرى بطينة، وكؤوس، جميعها من أصناف رومانية مشهورة. ومع هذا، فإن مجموعة لا يستهان بها من الزجاج في الجّبانة المّروية التى حُفرت منذ وقت قريب في صدنقا [٢٠٩] فيها أيضاً أوانى قليلة، مثل بعض الأوانى البرونزية، التي كانت مصنوعة دون شكٍ لسوق مّروى أو لسوق محافظة مصرية؛ بينها جرة تنسخ دونما جدل قالب فخار يدوى مّروى [٢١٠]. هنا ثانيةً لا يمكن أن تُستبعد إمكانية التصنيع المحلى، بالرغم من أنه لم يعثر بعدُ على أجهزة لصنع الزجاج في موقع نوبى [٢١١].

أما أكثر البضائع المجلوبة عمومية في النوبة المّروية فكانت خرز العقود، وغالبيتها العظمى من

الزجاج. توجد بالآلاف وعشرات الآلاف في أى جَبّانة مَروية. وننقل للمرة الثانية عن مُنَقِّبي كارانوق :

العقود كانت تقليعة شائعةً وسط النساء النوبيات. تلبس... حول العنق، وأعالى اليدين، والمعصمين، وفوق مفصل القدمين، وكان عقدان حول الرقبة يُلبسان معاً بصورة دائمة على أنهما عقد واحد. وتدفن هذه مع أجساد الموتى، ولحسن الحظ فإن نهابى القبور في بحثهم عن المعادن الثمينة كان بوسعهم أن يَمُنّوا بترك عقود من الزجاج أو خرز الحَجر مرة واحدة مما ليست له قيمة جوهرية، أو أن يطرحوها جانباً. بالتالى كان عدد الخرز الذى حُصل عليه خلال حفر المقبرة عظيماً جداً...

مع إثارته للدهشة بعدده، كان الخرز أشد إثارةً للعجب لتنوعه وفنه الممتاز. لقد كان بعضه من الحَجر، وبلور الكوارتز الأبيض، والعقيق الأحمر أو متعدد الألوان، الأخضر أو البنى، والاستيت، وشقوق الصخر المدبب؛ أما الأغلبية العظمى فكانت من الزجاج. وبعض الأخير كان منظوماً من زجاج أبيض شفاف، وبعضه أكمد اللون في ظلٍ أحمر، وأزرق وأصفر؛ وهنالك خرز رخامى، وخرز من زجاج مشكل، وخرز من فسيفساء، وخرز مضغوط، وخرز زجاجى محاط بالذهب ومطّعم بالفضة .

يُصنع الخرز في غالبيته من أطوالٍ زجاجية تقطع وتشكل. أما الخرز ذى الألوان المتعددة المنفصلة فإن قطعة الزجاج نفسها معقدة الطول تتكون من عدد من القطع الخفيفة بألوان مختلفة تنظم في حزمة وتلصق بخفة مع بعضها بعضاً. وعندما تقطع مثل هذه القطعة إلى أجزاء، منبسطة يبّين كل وجه النمط الذى يسود على طول القطعة؛ إن الطريقة المستعملة هى ما يجرى لبعض عِصى السُكر لشبابنا [٢١٢].

توفر خرز الزجاج، وما يكاد يبدو غياباً كاملاً للنقود المعدنية، في وقت كان يزدهر في أثنائه بالتأكيد إقتصاد للسوق، يلهم بإمكانية أن الخرز ربما كان وسيلة معتمدة من وسائل التبادل.

الصينى (مُركب للصقل لامع أزرق ـ أخضر) مادةٌ أخرى تُستورد لتُستعمل في صنع العقود وسلاسل التحلية، وفى وسطها يمكننا أن نتعرف على عدد معتبر من الجعارين [٢١٣]. وُجدت أيضاً أقداح صغيرة قليلة العدد من الصينى. هذه الأوانى وأدوات الزينة تشير إلى النفوذ الفرعونى المتواصل على الثقافة النوبية؛ على أنها كانت أقل شعبيةً لمدى بالغ في الأزمان المَروية عنها في العصور السالفة، وفى الوقت الحاضر إندثرت بأجمعها.

فى وسط أغلب السلع المجلوبة الفاخرة التى يعثر عليها أحياناً في القبور المَروية، صناديق خشبية حسَنة التركيب مطّعمة بالعاج. مزخرف بالعاج المطعم كذلك، صناديق خشبية وأنابيب للكحل مستديرة الشكل [حرز أسطوانى ماهل لحفظه]. مرةً أخرى، توحى الزخرفة بأن هذه المصنوعات كانت في بعض المرات تصمم بشكل واضح للسوق النوبى، ولعلها مصنوعة محلياً، بالرغم من أن الخشب كان في بعض الحالات شجر الأرز اللبنانى [٢١٤].

العادات الجنائزية

تهئ الطقوس الجنائزية موضوعاً هاماً موحداً على امتداد حضارة كوش وإمبراطوريتها. فمن المحرقة في الشمال إلى سنار في الجنوب، كانت القبور، والممارسات الجنائزية أقرب تماسكاً مما كان عليه أى وجه أخر للثقافة النوبية في الفترة المروية.

الجَبّانات تشمل أكثر من ثلاثة أرباع كل المواقع المَروية المعروفة [٢١٥]. وكما هو الحال دائماً في الفترة التاريخية، تتجمع القبور بكثافةٍ مع بعضها البعض وفي أوقات متداخلة فوق بعضها. إن الأغلبية العظمى من الجَبّانات المَروية في النوبة السُفلى موضوعةٌ غرب النيل، ربما حفاظاً على التقليد الجنائزى القديم. بذا، فإن ألجَبانة الهائلة في كارانوق، التى ربما احتوت بين ثلاثة إلى أربعة آلاف جنازة [٢١٦]، يجوز أنها خدمت سكان قصر إبريم [٢١٧] وعلى حد سواء أموات المستوطنات المجاورة على الضفة الغربية. في جبل عدّا، من جانبٍ أخر، كانت الجَبّانات المَروية بشكل محدد تقع على

الضفة الشرقية بالقرب من المدينة (٢١٨). أما في المحافظات الجنوبية، كما ذكرنا في الفصل الحادى عشر، فكان كلا من المستوطنات وأماكن الدفن على الضفة الشرقية، وهنالك آثار قليلة لإحتلال مَروى غرب النيل.

الأغلبية الكاسحة للقبور المَروية يحتمل أنها ما كانت ذات علامة على السطح. وعلى كل، تعرض كل جبّانة تقريباً على الأقل بضعة هياكلٍ فوقية من الطوب، أغلبها يصاحب أكبر القبور وأكثرها ثراءاً. إنها تنطوي في معظم الحالات علي بناءٍ مُقفل من الطوب أو من بناء حَجرى بين الفينة والأخرى، من ستة إلى عشرين قدماً مربعاً، بجوانبٍ منحدرة إلى الداخل تحيط بملء من فتات خَرِّب. لقد تم تصميمها عادةً كمصطبات [علي غرار القبور المصرية القديمة منذ عصر أُسرات ممفيس]، إلا أنه يبدو من المؤكد في بعض الحالات أن الهياكل الفوقية للقبر كانت في حقيقتها أهرامات مصّغرة، أصاب قممها الدمار من جرّاء التّعرية والنهب (٢١٩). أهرامات جبل عدّاً يبدو أنها غُطيت بطلاء أبيض (٢٢٠)؛ وجُصصت أهرامات مَروية أخرى في صدنقة بالأحمر (٢٢١). إن كثيراً من البناءات الفوقية للقبور وليست كلها لها غرفة مسقوفة صغيرة تطل من الجانب الشرقي، وتقارن بالغرف الجنائزية التي تجاور الأهرامات الملكية. إفتراضياً استُخدمت هذه الغرف كمستودعات لقرابين ما بعد دفن الجنازة. ووُضعت قرابين إضافية في بعض الأحيان ما بين امتلاء المبنى الفوقى إبان تشييده (٢٢٢).

تظهر القبور المَروية إختلافاً معتبر التفاوت في ترتيباتها السلفية (٢٢٣) لكنها تنداح تحت نوعين أساسيين يمكن وصفهما بقبور الغرفة وقبور المخبأ. القدر الأكبر من قبور الغرفة كهوف مستطيلة، من ستة إلى عشرة أقدام في الطول وحوالى نصف ذلك عرضاً، محفورة مباشرة من طمأ مشحون في صلابة. إن الوصول إليها يتم عبر سرداب منحدر، في ضيق، من الجانب الشرقى عادةً. هذه التفاصيل، مثل تفاصيل الهياكل الفوقية للقبر، تعيد بشكلٍ مصغر ترتيب القبور الملكية في مراحلها المتأخرة في نَبتة ومَروى (الفصل الحادى عشر). بعد مراسيم الإدخال يحجز المدخل إلى غرفة القبر بطوب ومن ثم يعاد ملء السرداب، تاركين الجسد والقرابين في حجرة هوائية مختومة. بعض قبور الغرف الكبيرة كان سقوفيات لعائلة فيعاد فتحها من وقت لآخر لتستقبل جنازات إضافية؛ وُجد ما يصل إلى إحدى عشر جسداً في القبور الأكبر حجماً في كارانوق (٢٢٤).

ثمة نوع أقل شيوعا من القبر الكهفى يتمثل في القبر ذى السقف الطوبى. ويتكون من غرفة من الطوب، مسقوفة، صغيرة من نفس الحجم الذى تكون عليه غرفة الجنازة المألوفة المبنية تحت الأرض، وهى مشيدة في قاع حفرة مستطيلة عميقة، ثم تملأ من أعلاها بالتراب. وكان الوصول اللاحق إليها، كما في القبور الكهفية، يتم عن طريق سرداب منحدر ومدخل صغير يؤدى إليها بالطرف الشرقى من السقفية. هذه القبور يُفترض أنها مبنية بتفضيل على القبور الكهفية حيثما كانت الأرض الطبيعية غير متماسكة بمستوى كافٍ لدعم غرف تبنى تحت الأرض.

أما قبور المخبأ فتشكل الطبقة الثانية المهمة لغرف الجنائز المَروية. إنها فتحة رأسية ضيقة، بنفس نسب القبور الحديثة بطريقة أو بأخرى، وفى قاعها يُحفر وضع جانبى إما على طول جانب واحد ("قبور المخبأ الجانبى") أو على طرف واحد ("قبور المخبأ القَدَمِى") لتقبل الميت والقرابين (الشكل رقم ٦٢). بعد الدفن يقفل المخبأ بالطوب من علٍ ويعاد ملء الفتحة، مع ترك الميت في نوع من الكفن الطبيعى أو مساحة فارغة محدودة لا تزيد كبراً عن رقعتها .

تظهر غرف الجنائز المَروية تنوعاً يتعدى ما تبينه قبور أي فترة أخرى ولمّا يكتمل إستيعابها بعد على وجه التمام بالنظر لقيمة وأهمية الأنواع الأخرى. لقد فسر قريفيث أنواع القبور الأربعة الرئيسة في فرس بأنها تمثل تعاقباً تطورياً (٢٢٥)، إن هذا التفسير لم يُستنبط من المواد التى وجدت فيها، وهى كلها بشكل أو آخر من أنماط متماثلة (٢٢٦). والحقيقة، أن الأنواع المختلفة من القبور المَروية موجودة بالتقريب في كل جبّانات الفترة، وإنه لجدير بالذكر أنها كلها عُثر عليها أيضاً في الجبّانة

النّبتية في صنم (الفصل العاشر) [٢٢٧]. إن أغلب تفسير إحتمالاً للفرق الرئيس، بين قبور الغرف وقبور المخابئ، هو أنها تمثل الشرائح العليا والدنيا لنفس المجتمع [٢٢٨]. فالعلاقة الطبيعية لنوعى القبور تشبه كثيراً العلاقة بين المساكن "الفخمة" والمنازل العادية في المدن المّروية: قبور الغرف تتجمع بكثافة في مساحات قليلة، في حين أن قبور المخابئ بشكلٍ أو آخر مبعثرة بعشوائية بينها وحولها. الواضح، لذلك، أن "المسافة الإجتماعية" لم تكن بين الجماعتين عظيمة.

الإختلاف بين قبور الغرف المسقوفة وقبور الغرف السفلية يبدو أفضل شرحاً على أسس هيكلية، كما ذكرنا في وقت سابق. ولما كان من الجائز أن القبور الأسبق قد استحوذت أفضل الأرض ملاءمة، مع هذا، يبدو من المعقول أن يفترض أن الغرف المشيدة أصبحت ضرورية بمستوى متزايد، ومن ثم شاعت في الفترات المتأخرة. لا يتبقى في الوقت الحاضر إيضاح مرضٍ للوجود الموسمي لسرداب غربى يفضل على واحدٍ شرقى، أو بالنسبة للفرق بين قبور مخبأ جانبيٍ وآخر قَدّمى. هذه الإختلافات ربما تكون في الحقيقة تسلسلاً زمنياً، يُمثل فيه المخبأ الجانبى والدهليز الشرقى تطورات متأخرة ومنحرفة عن النمط المعهود.

كل القبور المروية تقريباً موجهة شرقاً ـ غرباً بالإشارة إلى النيل (أى، أنها تأخذ الإتجاه المحلى لمجرى النهر كمعادل للشمال، كما فعل البناؤون النوبيون في كل أزمان التاريخ). بين بين، يُمّدُ الجسد على ظهره، الرأس عادة إلى الغرب، طبقاً للمارسة المصرية العتيقة. لم يكن هناك تحنيط أو أكفان خشبية، لكن في حالات قليلة جداً كان الميت يُزود بكفنٍ من فَخار أو خشب [٢٢٩]. ومن الدائم بنفس القدر، أن يرقد الجسد على حصيرة منسوجة أو على عنقريب خشبى منخفض مشابه لما هو مستعمل اليوم [٢٣٠] عادة الدفن بالسرير النوبية القديمة قدم الدهر تؤكد عودتها مرة أخرى. أما الموتى فكانوا دائماً وربما من العادة يُلفون في لُفافة منسوخة أو من الجلد، مع إنه لم تبق منها حيةً سوى قطع صغيرة فحسب في أشمل الحالات [٢٣١]. النسوة والأطفال يُغّطون في إنتظام بالخرز وغيره من المجوهرات.

أثاث القبر عدا ملابس الميت ومجوهراته كان يوضع حيثما سمح به المكان بين غرفة الجنازة، لكنه بصفة عامة يُركز بجوار الرأس [٢٣٢]. الأثاث أقله في أى قبر يبدو جرة من الفَخار، يُفترض أنها تحتوى جعة أو نبيذاً، أو كوباً يعلق على فم الجرة دائماً [٢٣٣]. مع ذلك، كانت أغلبية القبور تضم ما يفوق ذلك عدداً؛ حتى في نهبها الشديد تضمنت معظم المدافن المروية على الأقل ست مواد. في بعض المرات يحوى عدد الأكواب والجرر وحدها أكثر من إثنى عشر قطعة [٢٣٤].

وبالتقريب جاءت كل الأمتعة المادية الأخرى التى تمت مناقشتها في صفحات سابقة ـ مواد الحديد، والبرونز، والفَخار، والزجاج، والصينى، والخشب، والعاج والمعادن الثمينة ـ من قبور مّروية أيضاً، شاهداً على وفرة القرابين الجنائزية وتعددها في صورة ثابتة الوصل. وفيما عدا طرازاً واحداً أو اثنين من الفَخار الإستهلاكى [٢٣٥]، فإن كل مادة تقريباً مما كان مستعملاً في الحياة اليومية في الأزمان المّروية ربما كان متوقعاً أن يصحب سيده إلى الحياة الأخرى .

التعبيرات الثلاث الأشد تميزاً للممارسة المّروية الجنائزية كانت مواداً حَجرية منحوتة وموضوعة ليس بين القبر إنما خارجه. كانت هذه ألواحاً مرسومة بالألوان أو منقوشة، تدعى طاولة القربان والتماثيل الصغيرة *با* . لم تكن على استعمال دائم لكنها تبدو كأنما كانت مقصورة على القبور الأغنى؛ فلم تسفر بعض الجّبانات المروية عن أى نماذج أمثالها. وبسبب حالة الجّبانات المنهوبة لأقصى حد، وُجد عدد قليل جداً من الألواح أو التماثيل الصغيرة أبداً في موضعه الأصلى؛ تلتقط قطع منها في العادة من سطح المهملات التى قلّبها الناهبون مرات ومرات. إن التكرار الذى توجد به قطع من الألواح أو التماثيل الصغيرة في تراب القبور المتأخرة يقترح أيضاً أن قدراً عظيماً من النهب كان جارياً حين كانت الجّبانات لا تزال مستعملة [٢٣٦].

لا تختلف الألواح المَروية كثيراً في هيئتها أو وظيفتها عن حجارة القبور اليوم، سوى أن النقوش في العادة أطول وأوضح، مع أنها ليست بالضرورة أدق. أما القطع الحَجرية الصماء فهى عامة تميل إلى النحافة، بجنبات مستقيمة ورأس مستقيم أو مستدير. يحمل بعضها صوراً جانبية للميت مرسومة بالألوان أو محفورة بشكل غير دقيق، وهى تنفذ بأسلوب عالى التنميط، على أن معظمها يزدان خطوطاً عديدة من النصوص بحروف مَروية منسابة لا بغيرها [٢٣٧]. لقد وجد لوح في كارانوق بوضع أوحى أنه وضع أصلاً بين غرفة القرابين الملاصقة للجانب الشرقى من بناءات القبر الفوقية [٢٣٨]؛ رغم هذا، فإن الواحاً وفيرة أخرى طويلة جداً على مثل ذلك الوضع. ربما نُصبت في داخل الأرض، أو وُضعت على وجهة القبر أو الهرم .

"*طاولات القرابين*" صُممت لتقبل النبيذ والطعام المقدمين بالإنابة عن الميت بعد دفنه. هى مدارج من الرمل الحجرى منبسطة، مستطيلة أو مربعة، يبلغ قياسها في الغالب عشر بوصات عرضاً وأربع عشرة بوصة طولاً، ولها حافة مرفوعة تحيط بمركز مخبوء. يبرز في العادة مصرف بأحد جوانبها، ليحمل السائل الذى يدفق إلى داخل المركز. إن الحافة المرفوعة يمكن أن تزخرف بواحد إلى ثلاثة سطور من النص المنساب إحاطةً بها؛ أما النقوش المنحوتة، مثل تلك القائمة باللوح الجنائزى، فتحيى اسماء الميت وألقابه. وتحمل مراكز المدارج المخبوءة تنوعاً من الرسوم المنحوتة، أكثرها شيوعاً بين أمفورتين - قارورتين إغريقيتين - مكتنزتين يتدفق منهما ما حويا، وعدة شطائر مستديرة من الخبز. ويبين رسم منتشر آخر عبادات الأموات نفتس وأنوبيس يحضران القرابين على مذبح ينتصب بينهما [٢٣٩]. وُجدت مناضد قليلة للقرابين في المكان الأصلى بكارانوق؛ كانت مطروحة إلى داخل رؤوس مذابح منخفضة مبنية بناءاً غير متقن بالطوب وتقف مباشرة إلى شرق بعض الهياكل البنائية الفوقية للجبانات الكبرى [٢٤٠].

أما الأشد إثارةً في كل الممتلكات الشخصية الجنائزية المَروية فهى التماثيل الصغيرة *با* . إنها نحت في رمل حجرى، حوالى القدمين إرتفاعاً في العادة، يُصَوّر شكلاً لإنسان ماثل بجمود في أجنحة طائر تمتط خارجاً وإلى الأسفل من ورائه. ومعظم النماذج التى بقيت تحمل آثاراً لرسم بتلوين لامع [٢٤١]. ومع أن النحت في العادة غير متقن، فإن الملامح والتعبيرات الوجهية تعتبر رسماً مأثوراً (*) اظهر منها أسلوباً مصرياً تقليدياً [٢٤٢].

هذه المنحوتات يعتقد أنها تحمى روح الميت:

> ... الجزء الروحى من الشخص، الذى بعد موته، يحفظ فرديته ويستطيع أن يهيم وفقاً لما يرضيه. وفى البردى الدينى تُمثل الروح *با* كطائر له رأس إنسان، يستطيع أن يبقى مع الشخص الميت في الغرفة الجنائزية، لكنه يفضل أبداً أن يذهب خارجاً في العراء، ويعود لزيارة الأماكن التى يحبها الميت ... [٢٤٣].

فى كارانوق، كما في شبلول، من البّين أن القبور الأوسع غنىً كانت كل واحدة منها عموماً مؤثثة بتمثال واحد، يكون في العادة قد أزيح من مكانه ليُلقى به بعيداً بعض المسافة عن موقعه الأصلى من قِبَل الناهبين في أيام قديمة. إن نمط التمثيل غير معروف في مصر ويبدو أنه قد طُور عن النوبيين بأسلوب مستقل إيفاءاً لمقتضيات عبادة مثَّلت المصريين في بعض الجوانب لكنها بلا ريب كانت متميزةً وغريبةً في وجوه أخرى. إن النحات المصري، وأفكاره المركزة على الشخص الميت، يرغب أن يُزَوِّر بدقةٍ متناهية شكل الميت وتقاطيعه حتى يتأتي للروح عندما تعود من القبر أن تخطئ هيئة النفس الحقيقية. لكن هدف النوبى كان مختلفاً من البداية؛ إنه يقصد تمثاله لا ليبعث النسخ الطبيعى من جديد إنما يسعي لإعادة الروح ... [٢٤٤].

لم يعثر أبداً على أى تمثال صغير للروح *فى المكان الأصلى*، ومن المستحيل أن يقال أين كانت هذه المنحوتات ذات التمييز العالى موضوعةً فيما يختص ببناءات القبر الفوقية. إن معظمها كان من

(*) اي عائدة إلي الأثر النوبي الإغريقي او الروماني – المترجم.

شدة الطول بحيث لا يمكنه الوقوف بين غرف القرابين التى تلاصق القبور أو الأهرامات. وقد فكر وُولى وماك إيفر أنها ربما انتَصبت على رأس غرفة القرابين المسقوفة، على أن هذا لا يعدو كونه تخميناً (٢٤٥). والتماثيل الصغيرة للروح، على خلاف الألواح طاولات القرابين، وُجدت فقط في الشمال المَروى (٢٤٦)؛ إن الدمار الذى حاق بقسم كبير من هذه المنطقة يجعل من غير المحتمل أن نعلم مطلقاً أى شئ جديد عنها يعلو ما نعلمه الآن .

مخلص تفسيرى

كانت الفترة المَروية هى العصر الذهبى لحضارة الأُسرات في النوبة. محمياً بالصحارى التى تحيطه إحاطة السوار بالمعصم، ومتفوقاً عليه من "مارد الشمال"، بلغ غرس الحضارة الهش الذى كان قد انشئ في الجنوب أيام الإستعمار أكمل قرونه المزدهرة من بعد أن زوى مُنبته الوالد في مصر وتآكل خرباً. غير أن الإنتعاش المَروى كان شيئاً أرقى من بساطة القول ببقائه النائى في الهامش، لحضارةٍ فات أوانها. فالأرجح أنه كان انبعاثا ناهضاً ثقافياً وسياسياً ذا شأن وقيمة عقب قرون عديدة من الجمود والإضمحلال في النوبة نفسها. فلئن كان مذهبه مخلصاً للتقاليد القديمة لمصر، فإن رخاءه اشتُقّ بمعيار كبير من إمتداد أعمال التبادل السلعى الإغريقى، في حين كان استقراره السياسى لدرجة ما ناتجاً فرعياً من *السلم مع الرومان* .

إن واحداً من إنجازات الأزمان المَروية كان توسعاً إقليمياً أعظم من أى حضارةٍ أصلية أخرى في التاريخ النوبى. لقد جعلت تجارة القوافل من الممكن تنمية الطرق البرية عميقاً في باطن الجوف الإفريقى، متجنبةً حاجز الشلال الرابع المائل دهراً ومنهيةً الإعتماد القديم قدم الزمن على النيل للتجارة عابرة الصحارى. كانت النتيجة إستعماراً سريعاً لأراضى السهل فوق الشلال الخامس، التى بمرور الوقت تخَطت المحافظة النوبية الأقدم باعتبارها المركز الرئيس للقوة والثروة في السودان. إمتد السلطان المَروى في نهاية الأمر إلى سنار على النيل الأزرق - أبعد نقطةٍ بلغتها أية حضارة نوبية قبل الأزمان الحديثة. وفي هذه الأثناء قاد تطور طريق تجارى برى مباشر بين مَروى ومصر، إستباقاً منتشراً لوادى النيل في الداخل، إلى الإنحسار الإقتصادى والسياسى لمنطقة نَبتة المهيمنة سابقاً .

كان تطوراً متأخراً للأزمان المروية إعادة إحتلال النوبة السُفلى و*بطن الحجر*. ظاهر أنها كانت حركة سكانية كاسحة، لم تَحُث عليها سياسة رسمية وقد مكّن من تحقيقها إدخال الساقية التى يجرها الثور. اضحت المنطقة الشمالية التى استطال هجرها في الزمان محافظة زراعية مزدهرة، مُدّعمةً مرة أخرى بالتبادل السلعى المحلي مع المستعمرات الرومانية المجاورة في الدوديكاسخيون، بما يزيد علي تجارة المسافات البعيدة في منتجات المناطق الحارة. وفى القرن الأخير أو القرنين الأخيرين من العصر المَروى زاد سكان الشمال وثروته زيادةً بالغة في حين تناقص ذلك في المحافظات الجنوبية، حتى انتقل في النهاية "مركز الثقل" النوبى تارة أخرى إلى الشمال، حيث كان عليه أن يبقى طوال العصور الوسطى .

فى كل قواعدها الأيدولوجية بالتقريب، ظلت حضارة مروى وفيةً للتقاليد القديمة التى انحدرت إليها من العهود النَبتية والأزمنة الأولى. وحتى اندثار الأسرة الكوشية، ربما في القرن الرابع الميلادى، واصل الحكام تنميط أنفسهم بالألقاب التى كانت قد ابتُدعت قبل ثلاثة آلاف عام سابقة من فراعنة مصر الأولين (٢٤٧). وُضع القبر الملكى على نموذج الدولة المصرية القديمة، وظل تبجيل أمون، العبادة الطيبية لأزمان الدولة الوسطى والجديدة، حجر الزاوية لديانة الدولة. الفن، والمعمار، والدين الشعبى على السواء إبتدع قُرباً من التعاليم المتّبعة التى أُرسيت أيام الفراعنة .

وبينما بقيت التعابير الشكلية للحضارة النوبية أسيرة للماضى، تحول إقتصاد الأراضى الجنوبية ومجتمعها تحولاً متعدد الظلال بتأثيرات جديدة ذات نفاذ. لقد جعلت تجارة القوافل توسيع الإستيطان والحضارة أمراً ممكناً داخل أراضى السهل فيما وراء النيل خلال الفترة نفسها التى كان الفتح الإسكندرى يأخذ في أثنائها مصر في تحالف مع شبكة التجارة البحرية الإغريقية بعيدة المدى. كانت النتيجة إزدهاراً في التبادل السلعى وتدفقاً للبضائع المصنعة - الإستهلاكية والتفاخرية على حد سواء - بما لم يسبق له نظير في أراضى النيل. إنه بكثرةٍ وتنوع لا متناهى لا تستطيع تجارة أن تبقى بلا حدود إحتكاراً ملكياً؛ ما مَرّ وقت طويل حتى كان قسمٌ واسعٌ منها منطرحاً في أيدى خاصة التجار في جَلاء. إن أعمالهم طّورت سوقاً شعبياً لم يكن أبداً من هموم التاج، حتى إنه في النهاية صار الرخاء المادى المَروى مؤسساً على قاعدة أعرض بكثير عنها في أى فترة سابقة .

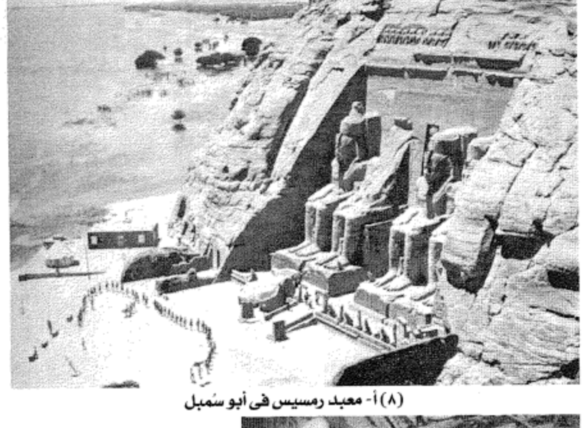
مُثاراً بأعمال التبادل السلعى المَلكى والخاص على حد السواء، أصبح المجتمع النوبى حضرياً كما لم يكن من قبل. فظهرت مدن كبيرة، مُغدقةً في حالات عديدة صروح القصور والمعابد على أراضى السهل التى ما كان غير البدو متجولاً بها قبل وقت قصير ماض. إن مدن نَبتة وكاوة الأقدم، بالرغم من أنها لم تعد طرق التجارة البرية الرئيسة، أُعيد بناؤها وإحياؤها جزئياً في الفترة المَروية، وأُنشئت مجتمعات جديدة لا حصر لها في النوبة السُفلى. بل إن القرى المَروية الصغيرة عرضت درجةً من الحضرية وأعمال التبادل السلعى لا نديد لها في الفترات الأولى .

يدأ بيد مع التحضر والتوسع الإقتصادى سار نهوض حضرى برجوازى. فلم يعد المجتمع النوبى مُقّسماً تقسيماً حاداً بين الحكام والمحكومين، كما الأزمان النَبتية وأيام الدولة الجديدة. إن علينا أن ندرك ايضاً في الفترة المَروية، ولأول مرة في التاريخ النوبى، أن طبقةً وسطى ثابتة الرسوخ تضاعف ثراؤها ونفوذها حتى عندما إضمحل ثراء الملكية وسلطانها إن مساكنهم الوفيرة وقبورهم الغنية لا توجد في المراكز الحضرية العظيمة وحسب، بل على قدم المساواة في كثير من مدن المحافظات في النوبة السُفلى .

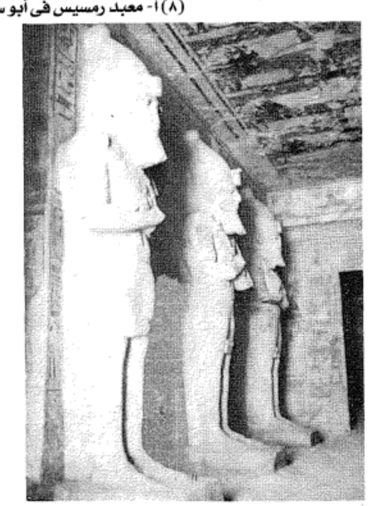
لا مَعْدَى أن نهوض طبقة وسطى ثَرية أدى إلى لا مركزية سياسية وانحدار في السلطة الملكية المطلقة. ما كان محتملاً أن يتقدم هذا التطور أبداً لمدىً بعيد في الجنوب المَروى، الذى يبدو دائماً كنوع من الإقطاع الملكى. وفى النوبة السُفلى، مع ذلك، بّينة لا جدال فيها على وجود مجتمع إقطاعى شبه ُمستقلٍ في أزمان مَروية متأخرة، سابقاً في ظهوره على الإنهيار وشيك الوقوع لأمبراطورية كوش.

كان بقاء التقاليد الفرعونية هو الأطول واندثارها الأصعب في الأقاليم الجنوبية المحافظة التى امتلكت القياد في تطور الحضارة الكوشية. ومنذ حدوث استيطانها العائد، كانت النوبة السُفلى واقعة تحت نفوذ أشد مباشرةً من الميول الدنيوية للعالم القديم المعروف الذى يقع من خلف حدودها تماماً. السلطة الملكية وديانة الدولة غير بارزين بوضوح في البقايا المَروية بالنوبة السُفلى؛ تبدو المنطقة محكومةً بموظفين رسميين محليين ما كان لهم ُإشتغال قريب بأيدولوجية دولة الجنوب ورموزها المرئية. تركزت الحياة العامة على الأسواق، ومحلات بيع النبيذ، والقصور أكثر منها علي المعابد والقبور.

لئن كان الشمال المروى ممتلكا لأى ديانة للدولة، فهى عبادة إيزيس في فيلة. لم تكن هذه، كيفما اتفق الحال، عبادةً مُحتكرة للأسرة الحاكمة والبيروقراطية الإمبريالية؛ لكنها كانت ديانة فوق - قومية يدّعى القوام عليها سواءاً بسواء ملوك مَرويين، وقناصلة رومانيون، وزعماء بدويون. في هذا الفصل البازغ بين الكنيسة والدولة، كما في الإقطاع الوليد للنوبة المَروية، يمكننا أن نتعرف على بدايات لموضوعين من أشد المواضيع أهميةً لحضارة العصور الوسطى والتى كان عليها الا تُحّول النوبة وحدها في وقت حالى، إنما مُعظم العالم الغربى .



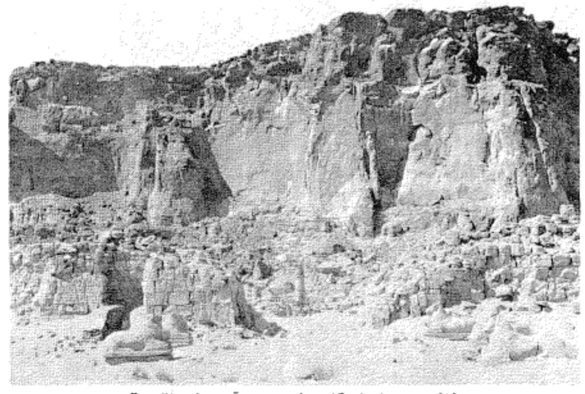
(٨) أ- معبد رمسيس فى أبو سُمبل



(٨) ب - معبد رمسيس
من الداخل ، أبو سُمبل



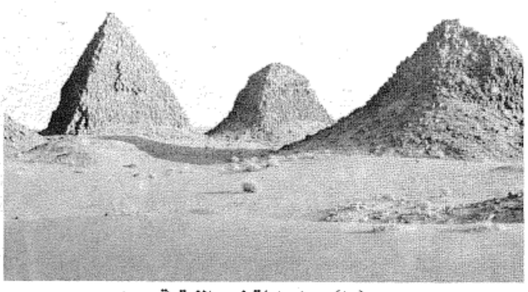
(٩) أ- معبد أمنحُتب الثالث فى صلب



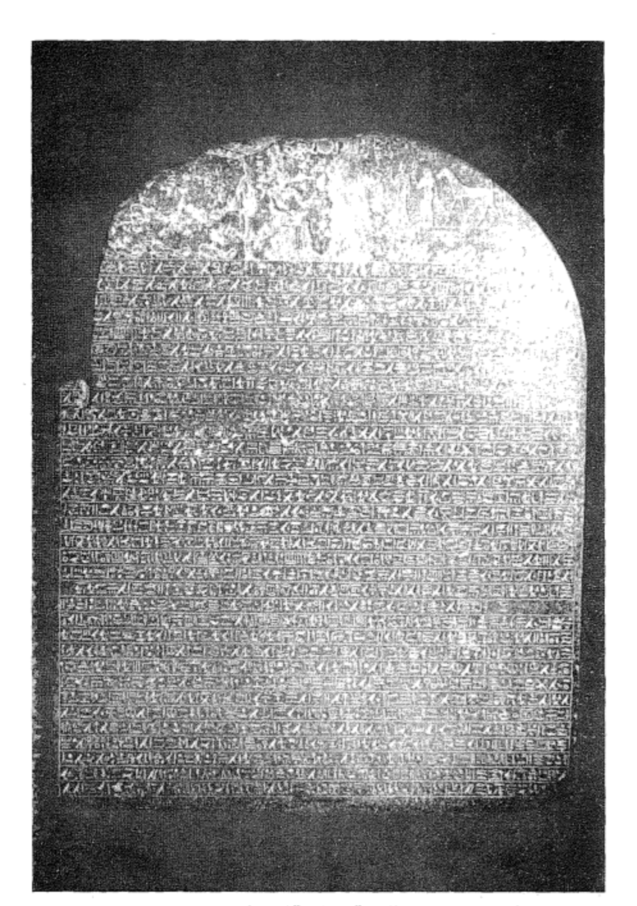
(٩) ب - جبل البركل ، ويُرى معبد آمون في المقدمة



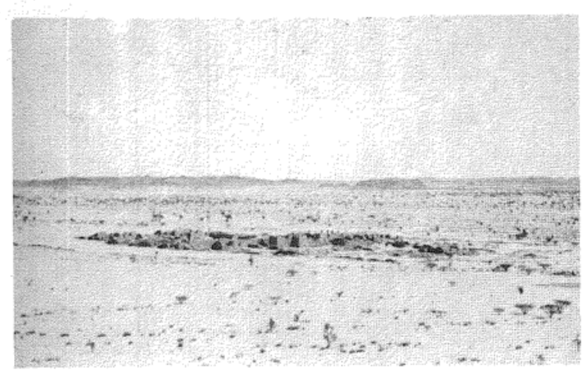
(١٠) أ- معبد آمون نبتة كما يشاهد من قمة جبل البركل



(١٠) ب - إهرامات نورى النبتية



اللوحة العظيمة لبعانخى



(١١) أ- سهل البطانة أو « جزيرة مروى » وخرائب المصورات في المقدمة

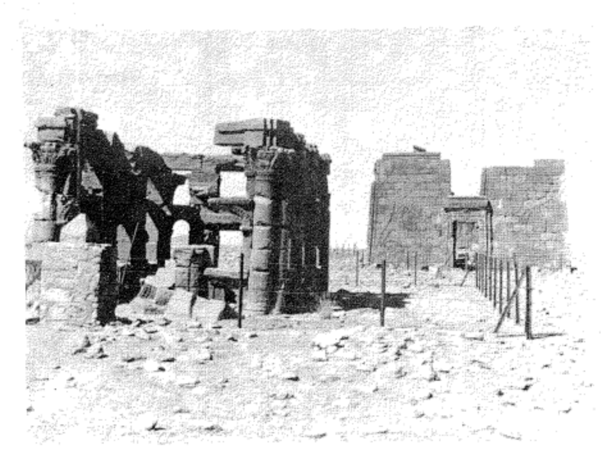


(١١) ب - المجموعة الشمالية للأهرامات ، مروى « البجراوية »

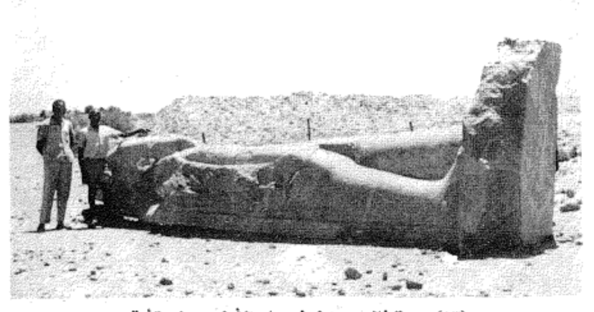
(١٢) أ- أهرامات منقوشة الأركان ، مروى « البجراوية »



(١٢) ب - حجرة دفن
مزخرفة ، مروى



(١٢) أ- « كشك » ومعبد الأسد فى النقعة



(١٣) ب - تمثال مروى ضخم على الأرض ، جزيرة أرقو



(١٤) أ- خرائب الفناء الخارجى لمعبد إيزيس في فيلة



(١٤) ب - القلعة المحصنة في قصر إبريم

الفصل الثالث عشر

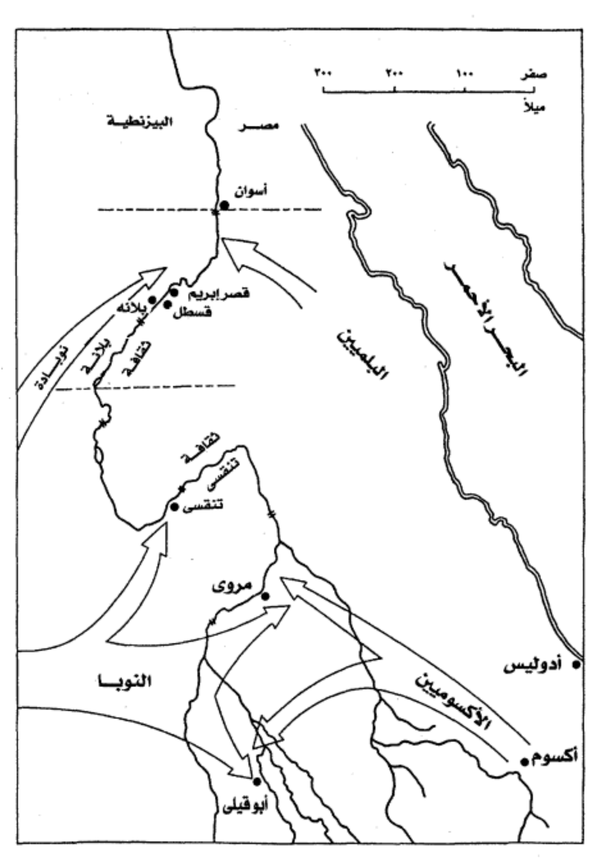
نهاية الإمبراطورية
ثقافة المجموعة المجهولة

فى القرن الرابع من العصر المسيحى، كان عمر الإمبراطورية النوبية التى أوجدها كاشتا وبعنخى يزيد على ألف عام. مولودةً إبان سنوات إضمحلال الحضارة الفرعونية، عَمُرت طويلاً في الزمان - ما تعدت عمر الحضارة المصرية التى أعطتها ميلادها وحسب، إنما مضت في الحياة لعمر أطول من القوى الآشورية، والفارسية والمقدونية التى ورثتها في الشمال. وعلى قدم المساواة، ولجت الإمبراطورية الرومانية مرحلة نضجها، وكانت على أعتاب إعادة ميلادها الأيدولوجى من جديد في ظل المسيحية، عندما كان آخر "الفراعنة" الكوشيين يُتوج "سيداً لمصر العليا والسُفلى"، وقتاً ما بعد عام ٣٠٠ عقب الميلاد (١).

فى حين تُنبئ مدونات الأزمان النَبتية والمَروية الباكرة عن مناهضةٍ تحدث إنقطاعاً من وقت لآخر بين حدود كوش وما وراءها، نَدَر ذكراً إيراد أى نشاط عسكرى لاحق لغزو بترونيوس الخاطف في ٢٣ قبل الميلاد (الفصل الثانى عشر). وإلى الحد الذى نستطيع أن نخبر فيه، عاش المَرويون لقرنين أو أكثر في حالةٍ من السلم المتعمق مع جيرانهم، على الأقل في الشمال. على أنه من الواضح أن أيام قوتهم وحيويتهم كانت قد باتت في حكم الماضى البعيد. فلم تكن هنالك أنشطة بناءٍ هامة من بعد ناتاك أمانى وأمانى تيرى، في مطلع العصر المسيحى، ومن الصعب أن تُميز قبور آخر الحكام بمَروى في الحجم أو المعروض بها عن قبور رعاياهم الأثرياء. في النهاية، يبدو البقاء المتواصل للملكية العريقة مضموناً بعزتها الإقتصادية والسياسية بدرجة أقل مما ضمنته لها المنَعة الإقتصادية والسياسية لروما البعيدة .

على النيل، ليس أقل مما كان جارياً على الراين والدانوب، كانت حالة *السلم مع روما* غالباً وقبل كل شئ حالةً عقلية - رغبةً من شعوب ما بين التخوم الإمبريالية ما ورائها في تقبل السيطرة الإقتصادية والسياسية الرومانية كثمن لرخاءٍ مبعثه الرومان. هذا الرداء من الحماية إلتف من فوق مَروى والدول الأخرى حليفة روما مثلما تسربلت به الإمبراطورية نفسها، بيد أنه كان نفعاً نفسياً أشد منه عسكرياً. فعندما تهاوى الرخاء الإمبريالى، وبدأت الجماعات الأقل حضارة تصب جام سخطها في مواجهة أربابها القدماء، تَعلمت أن امبراطوريات كوش وروما ما عاد منهما مَنْ يملك القوة العسكرية التى كانت أساس وجودهما ومبدأ تكامله. فسرعان ما اخترقت التخوم الامبريالية؛ ما أصبحت بينها، حتى فتحت المسارب إلى مروى وإلى روما على مصراعيها. وفى وجه الهجوم العنيف من الجماعات الأقل حضارة ذابت أجزاءٌ واسعة من الإمبراطورية كأنما ابتُلِعَتْ بليل .

قصة إضمحلال الإمبراطورية الرومانية الغربية وإنهيارها جرى تسجيل أحداثها الزمنية بتفصيلٍ دقيق. أما الظروف التى اكتنفت السقوط النهائى لكوش فإن قسطاً كبيراً منها غير مُدَون، لكن الخطوط العريضة للقصتين لابد أنها كانت متماثلةً تماثلاً شديداً. يمكننا أن نرقب في السنوات المتأخرة لكل من الإمبراطوريتين هبُوطاً في الرخاء ناتجاً عن قلقلة التجارة ما وراء البحار، وبيروقراطية مثقلة من علٍ إستدعت تقسيم الإمبراطورية إلى أجزاء شبه مستقلة، وربما أهم من كل شئ آخر، القوة الهابطة لأيدولوجية الدولة وقد جرى تحديها، وعلت فوقها آخر المطاف عبادات شعبية



شكل رقم ٦٣

هجرات وغزوات بالأزمان المروية المتأخرة وما بعدها

ـ عالمية، كان الإمبراطور نفسه ملزماً، في النهاية، بأن يُسلّم بها. ومن العسير تحديد أي من هذه التطورات كان له الأثر الأعظم في إثارة غارات الجماعات الأقل حضارةً. إن هو إلا وقت قصيرٌ وجدنا بعده الأغراب يملكون كراسى الإمبراطورية القديمة (قارن الشكل رقم ٦٣).

كان آخر نقش مؤرخ لأى ملك مَروى هو رسوم تصويرية في معبد بفيلة، يدون ابتعاث رسول إلى روما من الحاكم المُروى تكّرى إيدىْ أمانى في ٢٦٠ بعد الميلاد [٢]. هنالك، مع ذلك، أربع أهرامات على الأقل في الجَبانة الشمالية في مُروى يعتقد أنها كانت متأخرةً في تاريخها عن تاريخ تكّرى إيدى أمانى، وبالتالى يُعتقد على وجه العموم أن الأسرة الكوشية ظلت باقيةً حتى دخول القرن الرابع الميلادى. ويقدر هينتز تاريخ اندثارها النهائى في ٣٢٠ بعد الميلاد [٣]، وقدره دنهام في ٣٣٩ ميلادية [٤]، على أن التقديرين يصعب إعتبارهما أكثر من محض تخمين. فليس بأيدينا بَينة داخلية أو خارجية تتعلق بنصف القرن الأخير للإمبراطورية الكوشية، بوسعنا فقط أن نُنشئ من جديد قصة هبوطها وسقوطها النهائى إستدلالاً .

إضمحلال مروى وسقوطها

ابتداءاً من القرن الثانى بعد الميلاد يمكننا أن نتعرف على عملية حثيثة من التدهور الإقتصادى والسياسى في أراضى السهل المَروية، ما كانت إلا وجيزاً في مقدمة التطور الثقافى الكوشى . تبدو ثلاثة عوامل مساهمة في هبوط الجنوب المَروى. واحد من هذه العوامل الإفقار السريع لمصر ـ وهى السوق التقليدى لمعظم صادرات النوبة ـ تحت النظام الرومانى المستغل جشعاً [٥]. عامل ثانٍ هو الحراك والقوة العسكرية المتزايدة لبدو الصحراء، يتهددون طريق القوافل الطويل وهو عُرضةٌ لهم بين مَروى ومصر. وكما لاحظ تريقر برؤية ثاقبة، إن إدخال الجمل يبدو أنه قد صاغ تحولاً إجتماعياً وسياسياً وسط شعوب البدو مقارناً بالتحول الذى أعقب إدخال الحصان وسط الهنود الأمريكيين [٦]. فبعد أن كانوا رُعاة بسطاء، منحصرين في ضيق بين مرتع يتعلق ببيئةٍ عالية التخصص، إستحالوا إلى ضراوةٍ بعيدة المدى مستثمرين للصحراء، تحت قياد أقليات عسكرية أرستقراطية التحكم على قوةٍ لكنها غير محكمة التنظيم. وعندما تم إنجاز هذا التحول، أصبح في وسع تجارة قوافل الصحراء أن تحيا بمصابرة عَنائها تحت رحمتهم فحسب. خَرّبت نُهْبَى البدو في بعض المناطق تجارة القوافل مرةً واحدة، لكن قبائل الصحراء الأفضل تنظيماً كانت أبعد إستبصاراً؛ باعوا حمايتهم لتجار القوافل بثمن غالٍ. والنتيجة النهائية هى تواصل التجارة، على نقصٍ حقيقى في الربح.

أخيراً، ربما أشدّ أهميةً من كل ذلك، لم تعد كوش في مطلع العصر المسيحى مستحوذةً على احتكار الحضارة والتجارة في الداخل الإفريقى. فإن حضارةً منافسة، ترعرعت أصلاً في المرتفعات الخصيبة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، ونشرت سلطانها عبر باب المندب (المضيق المحدود في مدخل البحر الأحمر) لهضبة الحبشة المجاورة .

ذُكرت المملكة الحبشية اول ما ذُكرت في *دليل البحر الأحمر* الذي كُتب في النصف الأخير من القرن الأول الميلادي وصفاً لسواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى. وصف المؤلف ميناء أدوليس وقرر أن الرحلة إليه تستغرق ثمانية أيام بالبر مبلغ الحاضرة الاكسومية، من حيثما يُحمل العاج من وراء النيل فيُصدّر إلى أدوليس، ثم إلى الإمبراطورية الرومانية. وكان ملك كل هذه المناطق، فيما أضاف، هو زوسْكالا "رجلاً جشعاً يتطلع بلا تورع إلى استحواذ ما يملكه الآخرون، لكنه عدا ذلك نبيلٌ محفوف بتعليم الإغريق". إن زوسْكالا لابد انه ... يُرتّب كأول ملك تاريخى للحبشة، وكانت الحضارة في أيامه تسير آنفاً على خطى التبادل السلعى [٧].

إفتراض أن زوسْكالا امتلك تعليماً إغريقياً في هذا التاريخ المبكر يبدو مثيراً للتساؤل، ولكن من الضرورى أن يُذكر انه بحلول القرن الأول الميلادى كان التحكم في تجارة البحر الأحمر، التى اعتمد

عليها بدرجة كبيرة رخاء كُلٍ من شبه الجزيرة العربية والحبشة، في قبضة الإغريق زماناً طويلاً. وربما كان ميناء أدوليس (بالقرب من مُصَوَع الحالية) مزدهراً لعدة قرون سالفة، حيث وُجد هنالك نحت يدل علي ذلك لبَطْلَمِي الثالث (٢٤٧ ـ ٢٢١ق. م) [٨]. إن مدى اهتمام الإغريق بهذه المنطقة مثبت على أفضل وجه في كتابة *دليل الملاح* نفسه [٩].

حول أقدم مملكة في الحبشة (وهى ما يشار إليها بالمملكة الاكسومية عادةً، ترسماً بعاصمتها اكسوم)، يحتوى كتاب *الطبقات المسيحية* لمؤلفه كوسمس انديكوبلستس [١٠] أخباراً أسهب تفصيلاً. لقد كان تاجراً إغريقياً ـ مصرياً كتب، حوالى منتصف القرن السادس، وصفاً للتاريخ، وطبقات الأرض، وآثار البلاد التى قام بزيارتها وبينها مملكة اكسوم [١١]. يُثير الإهتمام بوجه خاص سرده "للتجارة الصامتة" التى كان الاكسوميون يحصلون خلالها على خام الذهب من جيرانهم البدائيين في السهول [١٢]. ويورد كوسمس أيضاً أن الزمرد كان يُحصل عليه من البلميين (البجا) المجاورين، ثم يُتَاجَر به إلى الهند بربح فاحش [١٣]. هذه التقاليد المجزاة لا توفر صورةً مكتملة غاية الإكتمال عن التبادل السلعى الأكسومُى، لكنها كافية لتدل على أن الأحباش يجولون بعيداً وراء مرتفعاتهم التى نشأوا عليها، إفتراضياً إلى داخل النفوذ المَروى القديم، في بحثٍ عن سلع التجارة.

على الرغم من المعوقات ذات الإعتبار بشأن السفر في المرتفعات الحبشية، أعطت مجاورة اكسوم لميناء أدوليس ذى المياه المالحة ميزةً لتنافس عظيم مع مروى، بخط إمدادها الطويل وما يتعرض له عبر اليابسة لمصر. لم يكن الاكسومسون فيه هو واضح غير متخلفين في إستغلال هذا الموقف المفَضل. ففى أثناء الفترة ذاتها التى كانوا خلالها يطورون صادراتهم السلعية، ربما قاموا كذلك بإيعاز بعض قبائل البجا المجاورة لمهاجمة تجارة قوافل مَروى [١٤]. ركوناً إلى التنافس المتزايد للقوتين الإفريقيتين من أجل الموارد التجارية التى يعتمد عليها رخاء كل منهما، كان وقوع نزاع مسلح بينهما عاجلاً أم آجلاً أمراً محتوماً .

لقد كان بين أهم التقاليد التى دَوّنها كوسمس انديكو بلستس ما يتعلق منها بحكم الملك الاكسومى عيزانا، الذى نعلم من مدونات أخرى أنه كان أول ملك مسيحى للحبشة، ومؤسس ما صار منذ ذلك الوقت ديناً للدولة بوطنه. لدينا بالإضافة إلى عمل كوسمس، عدداً من المدونات عن عهد حكمه في شكل لوح تذكارى من تأليفه الخاص، بعضه بالإغريقية، وبعضه بالأثيوبية القديمة (قيز)، والبعض الآخر بلغة سبأ جنوب شبه الجزيرة العربية. في هذه المدونات إدّعى السيادة على مساحاتٍ واسعة ما بإفريقيا الوسطى فحسب، إنما في شبه الجزيرة العربية بالمثل [١٥]. إن الإدعاء الأخير بالإمكان أن يمثل قصةً سياسية مُخْتَلقة تشابه الإدعاء المَروى في شأن مصر العليا والسُفلى، ذلك أن أكسوم كانت دولةً وريثة لسبأ (شِيبَا الواردة في الإنجيل) تماماً كما كانت مَروى وريثةً لمصر. يجدر بالذكر أن ملك اثيوبيا (الحبشة) الأخير ظل مؤسساً إدعَاءه للحكم على السلالة المتحدرة من ملكة سبأ ـ قاعدة للشرعية أسبق زماناً من أى مبدأ آخر تَدَّعيه حكومة أخرى في العالم عدا ما يمكن أن ينطبق على اليابان الإمبريالية .

إن واحداً من الواح عيزانا يثير إهتماماً غير عادى لدارس التاريخ النوبى، ذلك أنه يسجل حملة قاد فيها الملك جيشه إلى قلب كوش القديمة وفيما يظهر إلى مَروى نفسها. الفقرات ذات الصلة عَدّهَا كما يلى بَدْج:

بجبروت إله الجميع، شننت الحرب على النوبا، حيث أن القوم شقوا عصا الطاعة وتباهوا بذلك. وكانوا معتادين على مهاجمة أقوام منقورتو، وخاسا، وباريا، والسود، وعلى شن الحرب على الأقوام الحمر. وبما أننى بعثت لهم إنذارات، ولكنهم لم يصغوا لى بإحترام، ورفضوا أن يمتنعوا عن فعائلهم الشريرة، ثم إنهم ساقوا أنفسهم للهرب، فقد شنّنت الحرب عليهم. إننى نهضت بقوة رب الأرض، وتحاربت معهم في [العطبرا]، وفي مياه الكيمالك الضحلة. بعد ذلك مباشرة أخذوا يهربون، ولم يتخذوا وقفة. ولقد تتبعت أثر الهاربين لثلاثة وعشرين يوماً، أقتل

بعضاً وأجعل أخرين أسرى، وأخذ الغنائم حيثما أقمت بمكان. إن الأسرى والغنائم قام بإحضارها لى قومى الذين توغلوا في البلد. وفى هذه الأثناء أحرقت مدنهم المشيدة بالطوب منها والمبنية بالقصب، وأخذ جنودى طعامها، ونحاسها، وحديدها، ونحاسها المخلوط، ودمروا تماثيل [معابدها]، وخزائن أطعمتها، وأشجار القطن، وألقوا بها في النهر [النيل]. وحضرت إلى كاسو وخُضت معركةً وجعلت من أهلها أسرى في ملتقى النهرين [النيل] و [العطبرا]. إن أسماء المدن المشيدة بالطوب كانت علوة، ودارو. والمدن المبنية من الطوب التى كان قد استولى عليها النوبا كانت تابيتو وفرتوتى. ولقد أقمت عرشاً في ذلك البلد بالمكان الذى يلتقى فيه النهران [النيل] و [العطبرا] [١٦] ...

إن تاريخ حملة عيزانا غير مؤكد على وجه الإطلاق، فهو محدد إتفاقياً في حوالى ٣٥٠ ميلادية [١٧]. لقد كانت فيما يبدو واحدةً من آخر عمليات الملك العسكرية، إضطلع بها في وقتٍ ما بعد إعتناق المسيحية، حيث أن اللوح الذى يصفها واحد من كتابات عيزانا القليلة التى تبدأ وتنتهى بالإبتهالات المسيحية [١٨].

اللوح المكتوب جدير بالملاحظة في كلٍ من محتواه ومحذوفاته. إنه يوحى بأن الأعداء الرئيسين لأكسوم في الغرب ما كانوا هم الكوشيين (الذين ربما أمكننا أن نتعرف عليهم تحت الإسم "كاسو" في منتصف النص) ولكنهم النوبا ـ قوماً كان قد وصفهم إسترابو [١٩] وبَطْلَمى [٢٠] بأنهم يقطنون غرب النيل. لربما يظهر أنه في الوقت الذى حل فيه عيزانا بجيشه، كان هؤلاء الجيران وهم من رعايا مَروى السابقين زماناً طويلاً قد تحركوا قبله عبر النهر وحازوا لأنفسهم جزءاً كبيراً من الأراضى التى كانت تحكمها كوش وراثياً، بما في ذلك بعض مدنها ومعابدها المشيّدة بالطوب. وبينما أن معنى النص غير مطلق الصفاء، فهو يقترح فيما يبدو أن المساكن العادية للنوبا (كما أغلب السكان في وسط السودان اليوم) كانت من العشب، في حين كانت مدن تابيتو وفرتوتى التى أقاموا بها قد استولوا عليها آنفاً من المَرويين [٢٢].

ليس مستيقناً ما إذا كانت "كاسو" (كوش) في الجزء الأخير من النص تشير بتحديد إلى مدينة مَروى، أم الإقليم العام ("جزيرة") مَروى، أم الشعب المَروى، سوى أن من المعانى القيمة على أيِ حال إنه لم يرد ذكر لمملكة كوش القديمة. الواضح، على الأقل إستدلالياً، إنه في عهد عيزانا كانت الأسرات الكوشية قد ذهب ريحها من قبل إما بإغارات النوبا أو بغزو أكسومى سابق [٢٣]. وعلى نحو ما يتمعن كيروان:

... إن البيّنة منشطرة، بيد أن الإنطباع هو أنه، بشكل متقطع، منذ القرن الأول الميلادى على الأقل ظل أكسوم مصدراً مهدداً لمَروى ولم تكن البُطانة تخلو بشكل غير متكرر من أن تكون مسرحاً لمعارك بين القوتين. فكما اقترح هينتز [٢٤]، إن الصورة المحفورة للملك شركارير... في جبل قيلى (قارن الفصل الحادى عشر) ربما أمكن أنها... إحياء لذكرى نصر مَروى على أكسوم أو إنحسار تقدم أكسومى. ثم إن هنالك منحوتان أكسوميان أخران معنيان بجزيرة مَروى، وكلاهما يحتمل أن يكون مكتوباً سابقاً لعيزانا. واحد منهما نحت إغريقى شديد الإنشطار على صخر مُسوّد اللون وجده سايك في مَروى ... يُحيّى ذكرى استيلاءٍ أكسومى على المدينة. والثانى نحت أغريقى أبصره ونسخ جزءاً منه في أدوليس مساح طبقات الأرض إبان القرن السادس الميلادى كوسمس أنديكوبلستس. ربما يكون هذا عملاً للملك أفيلاس، واعتبر ڤلاسر وآخرون أن تاريخه يعود إلى النصف الثانى من القرن الثالث ... بعد قائمة طويلة من الأقاليم والأقوام الذين قُهروا إلى الشمال، والشرق، والجنوب من أكسوم، يواصل الملك في مكتوب كوسمس (واسمه مفقود)، "بسبب هذا النجاح فإننى الآن أقدم شكرى للإله الجبار أريس الذى أنشأنى والذى بعونه ضعضعت كل الأمم الواقعة على حدود بلادى، على الشرق إلى مبلغ أرض الإنْسَنْس وغرباً حتى بلاد أثيوبيا وساسو". إن ساسو هنا لابد أنها بالتأكيد نقلاً مغلوطاً فيه في كِتَابة كاسو[٢٥].

إذاً، فالسقوط النهائى للمملكة الكوشية القديمة محجوب يكاد يلفه ظلام دامس. ومع أن ترنحها كان من غير شك قد أسرعت به المنافسة الإقتصادية وربما عَجّل به الضغط العسكرى من قبل أكسوم، فلعلها في نهاية الأمر إندثرت بفعل إغارات من جماعاتٍ أقل حضارة وأكثر قرباً لجيرتها عبر

النيل. لقد أعلن عيزانا نفسه ملكاً على كاسو (بمعية سبعة ممالك أخرى)، على أن البادى هو أن الذين امتلكوا أرض الإقليم الكوشى الموروث هم النوبا أرجح مما يلصق بسكان المرتفعات الحبشية. ومن القيمة والأهمية بمكان، أن أياً من الجماعتين لم يحاول أن يبنى دولةً خليفة على أطلال مَروى ومؤسساتها. في المراسم الملكية لعيزانا ما من ذكر لآمون، و"الأرضين"، أو لأيٍ من التقاليد السياسية والدينية القديمة التى كان قد أُسس عليها حكم كوش منذ أيام الفراعنة .

كانت السيادة الأكسومية على النيل واهنة إستغرقت بضعة أيام في حالاتها، ولم تحيا طويلاً بعد عيزانا. أدار الحكام المتأخرة من الحُبوش إنتباههم صوب الشرق، في محاولة لبناء إمبراطورية في جنوب شبه الجزيرة العربية. ولم تدمر الفتوحات الفارسية والعربية اللاحقة في شبه الجزيرة إمبراطوريتهم وحدها، لكنها دمرت تجارة البحر الأحمر التى اعتمد عليها وجودهم. فغاصت الحبشة في عصر مظلم دام ما يقارب الألف عام [٢٦]. وولجت النوبة كلها عصراً مظلماً، إذ أن الكتابة المَروية غابت مع أفول الحضارة المَروية [٢٧]. كنتيجة لهذا، ليس لدينا مُدَون تاريخى عن الأحداث في النيل العالى مابين حملة عيزانا وظهور مملكة مسيحية في علوة بعد قرنين من الزمان (الفصل الرابع عشر). فالمفترض أن رعايا علوة كانوا، في جانب منها، قد تحدروا من المَرويين القدامى، غير أن المملكة ما كانت دولة خليفة لمَروى بأى معنىً من المعانى. إن بَوناً أيدولوجياً كاملاً يفصل الإندثار النهائى للحضارة "الفرعونية" عن بدايات المسيحية في العصور الوسطى .

لم يكن السقوط الحاسم للحضارة الكوشية في النوبة السُفلى بأحسن توثيقاً إلا بشكل طفيف منه بالجنوب. هناك على السواء يبدو أن الهبوط الإقتصادى كان مصطحباً بضغط خارجى، أدى إلى انهيار سياسى في النهاية. وكانت العوامل المساهمة في ذلك مختلفة بعض الشئ في الحالتين، لكن المحصلة الختامية كانت واحدة .

كانت النوبة السُفلى نائية جداً عن الحبشة لتتهددها القوة العسكرية الأكسومية؛ ولم تكن تابعةً بقدر مؤثر لتجارةٍ طويلة المدى لتصيبها المنافسة من مملكة المرتفعات. ربما تفسر هذه العوامل الأسباب الّتى جعلت الشمال المَروى باقياً على رخائه زمناً مقدراً من بعد أن نال الوهن المحافظات الجنوبية. ومع هذا، فمنذ القرن الثانى وما تلاه، بات كل من النوبة السُفلى ومصر العليا عُرضة للإنتهاب من بدو الصحراء ـ البليميين الكواسر الذين وصفهم بلينيوس بأنهم "سلالة لا رأس لها، تنمو عيونها وأذانها تحت أكتافها" [٢٨]. يظهرون أحياناً عديدةً في النصوص الحرفية القديمة في القرنين الثالث والرابع مدبرين لغاراتٍ يقومون بها على المجتمعات المقيمة حول أسوان وفيلة، وفى مناسبتين يبدو أنهم شاركوا في عصيان مصرى مجهض ضد السلطة الرومانية [٢٩]. من الواضح في عدد من المصادر أن بليميىُ الماضى القديم يتأتى التعرف عليهم مع قبائل البجا الحالية اليوم [٣٠]، وبكل الإحتمال على حدٍ سواء مع المدجاى أو مدجو الذين يُدْعَون دائماً غزاة الصحراء في النصوص الهيروغليفية للدولة الوسطى (الفصل السابع). طوال الفترة التاريخية كان المرتع الأساسى لهؤلاء القوم تلال البحر الأحمر، وهو أمر قد يبين لماذا كان نفوذهم محسوساً كأقوى ما يكون عليه في أبعد جزءٍ شمالى من النوبة يلاصق مصر العليا ـ مناطق لا تفصلها سوى قطعة ضيقة من الصحراء عن أراضى العشب والشجيرات القزمة في بيئة البجا الطبيعية .

ذكرنا آنفاً التحول الذى حيَّكَ في المجتمع البجاوى وثقافته بحيازة الجمال. نهاية القرن الثالث لم يكن البدو يمتلكون ذهب الصحراء وزمرد المناجم فحسب [٣١]، لكنهم، طبقاً للمؤرخ بروكوبيوس كانوا ينهبون المستوطنات المحروسة بالحاميات في الدوديكاسخيون الرومانية [٣٢]. تحت هذه الظروف، خلص الإمبراطور ديوكلتيان (*) بشكلٍ لا يخالف مألوفاً إلى أن الإحتلال المتواصل للنوبة السُفلى لم يكن مسوغاً بالدخل الضئيل الذى تدره المحافظة. وفى ٢٩٧ ميلادية سحب الحاميات الرومانية وأنشأ التخوم الإمبريالية في فيلة، تاركاً الدوديكاسخيون تحت رحمة البدو .

(*) ديوقليتانوس في مراجع عربية – المترجم.

لم يأت إنسحاب الحاميات الرومانية في الحال بنهاية الحضارة في الدوديكاسخيون، ذلك أن كثيراً من السكان المستقرين فيما تبين واصلوا إقامتهم، وهنالك إقتراحات عديدة بإستمرار النفوذ الرومانى الثقافى والإقتصادى في القرن الرابع (٣٣). أما المحافظة المَروية التى تقع إلى جنوب المحرقة فقد كانت أقل تأثراً مباشراً بالإنسحاب الرومانى، لأنها كانت أقل عُرضةً لهجوم البدو من المحافظة الرومانية. وتقترح كتابات مَروية وفيرة من القرن الرابع أن حضارة الشمال المزدهر (التى وُصفت في الفصل السابق) ثابرت على البقاء زمناً معتبراً بعد التراجع الرومانى، بل من بعد سقوط المملكة الكوشية في الجنوب واندثارها (٣٤). كيفما كان الحال، ربما أن الرحيل الرومانى من الدوديكاسخيون جاء بهبوط مباشر للفرص الإقتصادية في المحافظة المَروية المجاورة. فكما لاحظنا في الفصل الثانى عشر، ربما كان إمداد الحاميات الرومانية بالطعام في ذاته صناعةً هامة في النوبة المَروية. مع ذلك، فالأكثر أهمية أن الإنسحاب الرومانى ترك صلة التجارة الحيوية بين النوبة المَروية ومصر الرومانية في قبضة البليميين على وجه الدقة. منذ تلك اللحظة وما جَدّ بعدها، كان الإنهيار النهائى للرخاء المَروى مسألة وقت ليس إلا .

إنتهاء الرخاء المَروى أدى بدوره أيضاً، حيثما اتجهت كل المقاصد والأغراض، إلى نهاية الحضارة المَروية. إن الظروف التى أحاطت بأفولها الأخير في النوبة السُفلى مع هذا ليست بأجلى إثباتاً عما هى عليه بأراضى السهل في الجنوب. إننا لا نستطيع في الشمال أن نتعرف على ضربة *قاضية*، على غرار ما كان متاحاً للغزو الأكسومى أو غارات النوبا على مَروى. وفى غياب النصوص المعاصرة، يملكنا الإنطباع بأن الحضارة الكوشية خارت قواها وتوقفت عن الحياة ببساطة. بحلول القرن الخامس، كانت عمارة الصروح، والفن على الجدران، وديانة الدولة والكتابة، وأغلب الفنون السامية للحضارة قد انقَضَت؛ وبعد ١٥٠٠ عام غاصت أرض كوش مرةً ثانية في أعماق عصر مظلم، ما كان لها أن تخرج منه حتى مقدم المسيحية بعد قرنين. وبالنسبة لأحداث الفترة الواقعة ما بين ذلك الزمان يمكننا فقط أن نعتمد على البّينة المجزأة والمتناقضة دائماً للنصوص المتأخرة المأثورة وعلى الآثار.

العصر المظلم وثقافة المجموعة المجهولة

من وجهة نظر أثرية، يمتلئ العصر المظلم ما بعد المَروى في النوبة السُفلى بالمخلفات الثقافية التى وصفها رايزنر قبل ستين عاما بأنها تمثل "المجموعة المجهولة" (*). على نهج مجموعات الحروف الأبجدية التى سُردت في الفصلين الخامس والسادس، إكتُشفت بقايا "المجموعة المجهولة" أول مرة في الجَبانة ٧ في شلال، أميالاً قليلة جنوب أسوان (٣٥). وكالعادة، أقيم التعرف على هذا المركب الثقافى الجديد ووصفه على بقاياه الجنائزية لا غير؛ ما من حفرٍ قيم أُجرى في مواقع السكن للفترة ما بعد المَروية إلا بعد انقضاء أكثر من جيل تأخراً .

كما يحدث دائماً، فسر رايزنر نوع قبور "المجموعة المجهولة" غير المعتاد على أنه دليل على مقدم أُناس جُدد (قارن الفصل الثالث). لقد كان، كما قرر "... نوعاً من القبر جديداً وغير مصرى بشكل متميِّز... مختلفاً كل الإختلاف عن الأنواع البَطلّمية - الرومانية السابقة. إن هذا النوع من القبر... موسوم بحشر جسد الميت وتوجهه وبفَخار متفرد النوع. محتويات هذه القبور تقدم ثقافة غير مصرية، سوالفها السلالية غير واضحة" (٣٦). وفيما يحدث دائماً، كذلك، تجد نظريات رايزنر الثقافية تأييداً حالياً في البّينة التشريحية لهياكل "المجموعة المجهولة"، على نحو ما دلل على ذلك إيليوت

(*) المجموعة المجهولة هي "الجماعة س". راجع المقدمة، حيث تُرجمت مسميات ادمز إلي ثقافة المجموعة المجهولة، وثقافة المجموعة الثالثة بدلاً من "الأفق س". إلخ. أما المجموعات الهجائية لرايزنر فتُرجمت إلي المجموعة الأولي، والمجموعة الثانية، إلخ – المترجم.

سميث: "أناس المجموعة المجهولة كانوا من سلالة مختلفة شديدة الزنوجة جعلوا طريقهم فجأةً ناحية الشمال إلى داخل النوبة، جالبين معهم أسلوباً من الدفن ونوعاً من الفَخار أعلن د. رايزنر أنه غير مصرى بشكل متميز... أما الوجه الذى استرعى البصر حالاً في هذه الجماجم فكان ملامح وجهها الزنجى الصارخ ..." (٣٧).

إن العبارتين اللتين جري نقلهما للتو تبينان لدرجة الإتقان إضطراب البّينة السلالية والثقافية التى غيُبت دائماً مسألة "المجموعة المجهولة". لقد تحدث رايزنر عن ثقافة تملك "سوالف سلالية"؛ واقترح إيليوت سميث أن الشخصية غير المصرية لجماجم "المجموعة المجهولة" نوعاً ما تعززها النوعية غير المصرية لفخارهم وأسلوب دفنهم. والحقيقة، أننا نعلم الآن أنه طالما كانت هناك مستحدثات عرقية وثقافية في الفترة ما بعد المَروية، فهى جاءت من إتجاهات متعارضة لا وصل بينها لمدىً بعيد .

يجب إضافة أن نظريات رايزنر وإيلوت سميث لم تكن خاطئةً على إطلاق بالنسبة إلى محتوى زمانها ومكانها. لقد كان أول مسح آثارى للنوبة (قارن الفصل الثالث) محصوراً في شمال النوبة القَصّى، حيث لم تكن هنالك إقامة مَروية؛ بذا فإن أناس "المجموعة المجهولة" وثقافتها جرت مقارنتهم مبدئياً ليس بأى جماعة نوبية إنما بأسلافهم البَطّالِمَة والرومان ـ المصريين في الدوديكاسخيون. وفى هذه المنطقة يوجد كل سبب لإفتراض أن الوافدين الجُدد يمثلون بحق تدخلاً عرقياً وثقافياً، فيما أعقب إنسحاب الحاميات الرومانية (قارن "إشكالية النصوص التاريخية"، فيما سيلى بأدناه). غير أنه عندما اكتشف في وقت لاحق أن المراكز الرئيسة لأناس "المجموعة المجهولة" ونشاطها لم تكن قائمةً في الدوديكاسخيون لكنها في المحافظة المَروية القديمة في النوبة السُفلى، إصطنع نوعاً ما أنها مثلت تدخلاً عرقياً وثقافياً في هذه المنطقة بالمثل. بدا على الإجمال أن جماعةً جديدة من الأقوام الجنوبية الأقل حضارة إمتلكت النوبة السُفلى بأجمعها، آخذة مكان الرومان والمَرويين على السواء .

لم يؤيد البحث الآثاري الحديث [حول أصول الأجناس] نظرية التميز العرقى "للمجموعة المجهولة" إزاء السكان المَرويين السابقين في النوبة السُفلى (٣٨). وبالرغم من أن دارسين معاصرين عديدين لاحظوا عملياً ـ كما فعل إيليوت سميث ـ خلطة "زنجية" (٣٩)، أقوى في "المجموعة المجهولة" (٤٠) لم تعد الإختلافات بين المجموعتين السكانيتين تُرى كبيرة. لقد عبر بطراوى بصفاء عن الإجماع الحديث إذ كتب يقول إن "السلسلة المَروية وسلسلة المجموعة المجهولة.. ربما اعتُبرا ممثلين لإختلافات بين السكان أنفسهم. إن ... سلسلة المجموعة المجهولة، مع هذا، تشمل أولئك الأجانب، عبيداً ربما، الذين جعل وجودهم السلسلة ككلٍ عارضاً لأعظم تعدد مُشكل وسط الجماعات السكانية النوبية" (٤١).

لقد جرى التفكير أيضاً في أن مفهوم الإنقطاع الثقافى بمعنى الإفتقار إلى التماسك الثقافى بين "المجموعة المجهولة" وأسلافهم، وهو ينطبق بمشروعية كافية فيما يختص بالدوديكاسخيون، يصدق على المحافظة المَروية. وبعد حفر الجّبانة المَروية وما بعد المَروية العظيمة في فرس، بَلّغ قريفيث "... إنه ليس هناك إنتقال حقيقى للمجموعة المجهولة، التى جاءت بشكل مفاجئ" (٤٢). ومع زيادة المعرفة بالثقافات المَروية وثقافة المجموعة المجهولة، بالرغم من ذلك، أصبحت الخواص المتواصلة بينهما أقوى فأقوى ظهوراً. وإلى وقت باكر كعام ١٩٢٥م أمكن لجنكر أن يتفحص أنه "ليس هناك فرقٌ صارخ بين المجموعة المجهولة والثقافة المَروية. قوالب القبر تكاد تتماثل بكلٍ منهما، الفرق يكمن بصفة رئيسة في تفضيل الأنواع الفردية. وُجدت أنواع فَخار متعددة في المجموعتين، والشائع في كل من الفترتين حراب الحديد، ورؤوس السهام، والأدوات. هكذا يمثل كل منهما في النوبة ثقافة مُفردة يتصاعد نموها مباشرة أو بصورةٍ غير مباشرة إلى ثقافة الفترة المسيحية" (٤٣). تجدر الإضافة أن

بعض أهم الإختلافات الثقافية - عيناً في الفَخار - لا تعود بدرجة اليقين إلى النفوذ الجنوبي لكنها ترجع إلى الغلبة الثقافية المتزايدة لمصر البيزنطية [٤٤]. أخيراً، بيّن حفر عدد من المستوطنات المصنّفة في الماضى القريب انه لم يكن هناك إنقطاع في الإقامة بين الفترات المّروية وما بعد المّروية [٤٥]. في النوبة السُفلى على الأقل لا نملك مبرراً للتفكير بأن الثقافة المّروية وثقافة "المجموعة المجهولة" ليستا سوى فصول متعاقبة في تاريخ نفس الثقافة .

إلماماً بالحالة الراهنة لمعرفتنا، يبدو الاستعمال المستمر لتوصيف "المجموعة المجهولة" المُضِل والذى لا يحمل تشخيصاً محدداً، غير منطقى. إن الاسم "ثقافة بلانة"، الذى اقترحه تريقر منذ سنوات عديدة مضت، مفضلٌ بشكلٍ محسوس [٤٦]. فهو يُعّرف مثل "ثقافة كرمة" هويةً لمرحلة معينة بدقة من التطور الثقافى النوبى بتعبيرها الصرحى العمادى (أنظر "المدافن الملكية"، بأدناه)، ويوفر إسما مرموقاً في الحال لأى واحدٍ ألِفَ مُسبقاً التاريخ النوبى. كذلك يمكننا من التمييز بين ثقافة النوبة السُفلى والثقافة المنسوبة إليها ولو أنها في بعض الطرائق ثقافة مميزة لأراضى السهل ما بعد المّروية، وهي موصوفة وصفاً محدداً من قبل تريقر على أنها ثقافة تنقسى [٤٧]. ولما تبقى من هذا الفصل، بناء على ما تقدم، سوف أستخدم مصطلح ثقافة بلانة لتوصيف ما دعاه رايزنر "بالمجموعة المجهولة"، في حين أُشير إلى الفترة ما بعد المّروية بحسٍ عريض (شاملاً كلاً من ثقافتى بلانة وتنقسى) على أنها ثقافة المجموعة المجهولة .

إذا كانت البقايا الأثّرية للأطوار المّروية والبلانية تُومئ بلا خطأ إلى تواصلٍ ثقافى وإجتماعى، تبقى هنالك، كيفما اتفق الأمر، إختلافات هامة بينهما لابد من شرحها. إن علينا أن نُعَلّل في المحيط الثقافى إختفاء كثير من الفنون السامية التى ظلت زماناً طويلاً خاصية مميزة للثقافة الكوشية، وإحياء طقوس الدفن التى يبدو أنها تسترجع كل ما فات ما قبل كرمة الفرعونية في نفس الوقت (الفصل الثامن). وفى المحيط السياسى علينا أن ندرك بروز نظام ملكى مستقل، جديد في النوبة السُفلى يمثل بغض النظر عن كل شئ آخر، تجسيداً أقل حضارةً للتقليد الفرعونى. ولكى نعقد الصورة تعقيداً إضافياً، بحوزتنا عدد معتبر إعتباراً عاليا من متأخرة النصوص المأثورة التى لم تورد ذكراً لمّروى أو المّرويين، لكنها تشير إشارةً غير مباشرة مكرراً إلى ما يبدو قومين جديدين، البلميين والنوباديين. أخيراً، نملك بّينة ممكنة على عدم التوافق اللغوى بين الفترات المّروية وما بعد المّروية مما لا يمكن تجاهله. وكما سيكتشف القارئ، يكاد مستحيلاً حتى اليوم أن يجرى تصنيف لهذا البناء المتشابك من البّينة التى، فيما يبدو، يُعيبهاالتناقض. إنّ الأمل الوحيد للقيام بهذا العبء يقع في التقدير المستقل لما يلقيه التاريخ، وعلم الآثار، وعلم اللغويات من ضوء على التطور الثقافى للنوبة ما بعد المروية .

إتّخذت دراسات التاريخ ما بعد المّروى [٤٨] بوجه عام نقطة إنطلاقها في السرد التاريخى المتكسر دائم الغموض لكتاب مثل بروكوبيوس [٤٩]، وأوليمبودورس [٥٠]، وبريسكوس [٥١]. في ظاهر الأمر، يقترح هذا المدخل أن المؤلفين القدامى هم أفضل مرشدٍ لنا على أحداث الفترة ما بعد المّروية، وأن السجل الأثّرى يجب نوعاً ما أن يتوافق معهم. والحقيقة، أن العكس تماماً هو الصحيح. سوف أبدأ لذلك التحليل الحالى على أساس الأرضية الصلبة لعلم الآثار، مُرجئاً لوقتٍ قادم التقدير لكيف تنعكس هذه الأرضية على النصوص القديمة، ومصداقيتها (قارن "إشكالية النصوص التاريخية" بأدناه).

آثار ثقافة بلانة

عُثر على بقايا ثقافة بلانة في الرقعة الممتدة من شلال في الشمال إلى سسبى، في أرض عبرى - دلقو النهرية، بالجنوب (الشكلين رقم ٦٣ ورقم ٦٤) [٥٢]. إن الحد الشمالى بالنظر لكل

الأغراض العملية هو التخوم المصرية ـ النوبية الخالدة؛ أى الشلال الأول. أما الحد الجنوبى، كما هو معتاد، فغير محدد بصفاء؛ لا يعكس شيئاً أبعد من الحد الذى يجرى استطلاعه. ومع ذلك، يحتمل أننا في ختام الطوف نجد الحد الجنوبى لنفوذ بلانة إما في أرض عبرى ـ دلقو النهرية أو في الطرف الأدنى من أرض دنقلا النهرية، حيث يبدو أعلاها منتمياً لثقافة تنقسى المعاصرة ولو أنها مميزة وسيجرى وصفها لاحقاً .

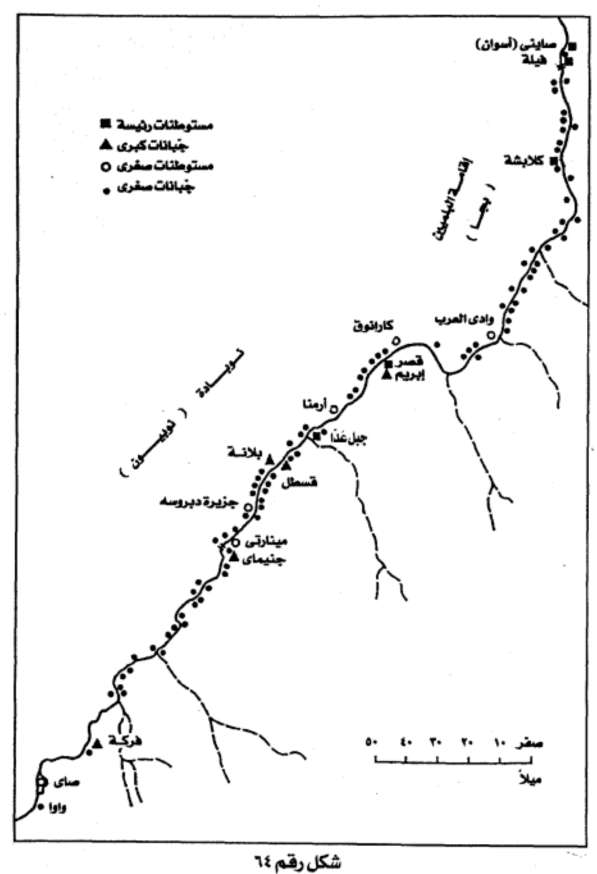
مدى ثقافة بلانة وأهميتها، في النوبة السُفلى مدققاً، مثبت ببقاياها الجنائزية وحدها. من بين ما يزيد زيادةً خفيفة على ١٥٠ موقعاً معروفاً لبلانة الآن، أكثر من أربعة أخماسها جبّانات [٥٣]. ربما تعزى ندرة المواقع السكنية إلى عدة عوامل: المسح الإعتباطى، الشخصية غير البارزة بمستوى باذل لمبانى بلانة، والحقيقة القائلة بأن عديداً منها بنيت من فوقه هياكل مسيحية لم تُفحص بدورها فحصاً منهجياً بانتظام. في *بطن الحجر* وحدها نجد شيئاً يشبه نسبةً سليمة من المواقع السكنية والجنائزية [٥٤]؛ إنها ليست مُنبئة عن إقامة كثيفة، لكنها تنبئ فحسب عن عوامل تصادفية نتج عنها حفظ أفضل حالاً للمواقع في هذه المساحة.

مواقع بلانة ـ في القرى والجّبانات معاً ـ أصغر بقدر ملحوظ وأشد تبعثراً من قبور الفترة المروية. وفى حين أن معظم الجّبانات المّروية تحوى على الأقل ثلاثين قبراً، فإن أرضيات دفن كثيرة في الفترة البلانية بها أقل من إثني عشر قبراً. أما أكبر عدد من قبور بلانة التى تم حفرها في أى موقع واحد فيبلغ ٤٩٥ في جّبانة أرقين بالقرب من وادى حلفا [٥٥]. مع هذا، يبدو محتملاً أن بعض المدافن التى لم تُنقب جزئياً أو بدرجة كبيرة قد تكون أوسع من ذلك مرات عديدة [٥٦]. قليل جداً من مدافن بلانة الأكبر حجما هى مواقع "خالصة"؛ يشمل أغلبها أيضاً قبوراً من الفترة المّروية أو المسيحية، أو الإثنتين. وفي المساحة التى تحيط مباشرة بالشلال الثانى، على سبيل المثال، كانت هناك ثلاث عشرة جّبانة من فترة بلانة إحتوت كذلك قبوراً مّروية، وخمس وعشرون جّبانة إحتوت أيضاً على قبور مسيحية، وسبع عشرة جّبانة إحتوت فقط قبوراً بلانية [٥٧]. هذه الحالة تشير إلى كل من المدة الموجزة نسبياً التى استغرقتها الفترة البلانية وإلى حجم السكان الصغير في معظم المستوطنات .

إلى مدى بعيد وُجد التركز الأثقل لقبور بلانة في المساحة التى تقع تماماً شمال الشلال الثانى؛ أى، الأرض التى تحيط بما يبدو انه كان المركز السياسى لأزمان بلانة، في أو بجوار القرية الحديثة التى تحمل نفس الإسم [٥٨]. وهنالك تركزٌ ثانٍ في الشمال البعيد، بضاحية مركز قصر إبريم الإدارى القديم، الذى فيما يظهر بوضوح إحتفظ بمكّانة سامية الأهمية في ازمانٍ ما بعد مّروية [٥٩]. وراء المحرقة، في مقاطعة الدوديكاسخيون السابقة، مواقع بلانة أصغر بجلاء وأقلّ عنها في المنطقة الأبعد جنوباً. العدد الكلى لقبور بلانة الذى اكتشفه المسح الآثارى الأول بين شلال ووادى السبوع كان ٤١٨ لا أكثر ـ وهو أقل من عدد القبور التى تم الكشف عنها بالقياس إلى أى فترةٍ تاريخية أخرى.

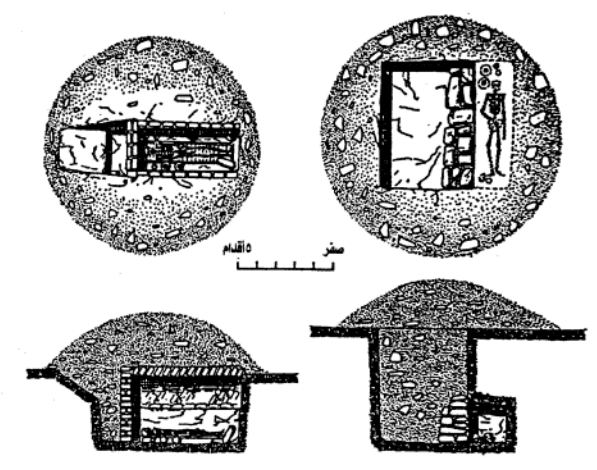
فى الجنوب، لا نعلم شيئاً حول توزيع قبور بلانة وراء حد الإستطلاع المنظم منهجياً في شلال الدال. وبإمكاننا أن نرقب، أياً كان ذلك، أن موقع بلانة أشد تعدداً بمراحل في *بطن الحجر* من المواقع المّروية [٦١]. البيّن أن عودة السكان إلى هذه المنطقة الجافية جرى حدوثها في الفترة ما بعد المّروية، بدلاً من قرن أو قرنين قبل ذلك كما جرى لعودة السكان في النوبة السُفلى. بل إنه كان هناك مركز إدارى هام، أو على الأقل إقامة لأسرة ثّرية للغاية، في فركة، بالقرب من الطرف الأعلى *لبطن الحجر* [٦٢]. حوالى خمسة عشر ميلاً بعيداً صوب منبع النهر، تعد الجّبانة القديمة الكبيرة التى لم تحفر بعد في جزيرة صاى أبعد موقع معروف في الجنوب لثقافة بلانة [٦٣]. وهنالك معثورات وجدت عشوائياً لفّخار من أماكن بعيدة في الجنوب، على أن مراكزها لم تثبت بوضوح .

تختلف قبور بلانة عن قبور الفترة المّروية في قالب بناياتها الفوقية بشكل رئيس. بدلاً عن هرم



شكل رقم ٦٤

النوبة السُفلى فى أزمان بلانة



شكل رقم ٦٥
أنواع القبور فى ثقافة بلانة

من الطوب أو مصطبة، كان السطح النموذجى الذى يُعَلِّم القبور طوال أزمنة النوبة ما بعد المَّروية مدفناً تلياً يشبه القبة، منخفضاً، يذكر بما يبعث على العجب بمدفن كرمة التلى من قبل ٢.٠٠٠ سنة سابقة (قارن الفصل الثامن). هنالك بعض الدلائل على أن هذا الشكل من بنايات القبور السقفية تبناه من قبل عامة مَّروى منذ زمن معتبر قبل السقوط النهائى للأسرة الكوشية [٦٥]، وبقى الأهرام مستخدماً بين الطبقة الحاكمة وحدها. في النوبة السُفلى، مع ذلك، يميز المدفن التلى الفترة ما بعد المَّروية؛ فلا يصحب وجوده الفَخار المروى، أو تماثيل *با*، أو الألواح التذكارية [٦٦].

كان المدفن التلى البلانى المألوف يتراوح ما بين ١٢ إلى ٤٠ قدماً في القطر، وربما يرتفع إلى عُلُو اقصاه ١٥ قدماً. يمكن أن تبلغ المدافن التلية للملوك والنبلاء نسباً أكبر من ذلك بكثير، كما سنرقب فيما بعد. كانت هنالك غرفة قربان ملاصقة أو زخرفاً سطحياً بالمرتفع القائم على تراب القبر في القبور العادية. مثل الفترة المروية، تبدو قبور وفيرة كأنها افتقدت لأى نوع من البنايات السقفية؛ وفى بعض الأماكن مدافن كاملة ليست فيها مدافن تلية [٦٧].

فى ترتيباتها السفلية المخبوءة تحت الأرض، تُبَيِن قبور بلانة النوعية ذاتها لأنماط الغرف كما القبور المَّروية. وبالرغم من ندرة القبور الكهفية فالتقسيم الثنائى الرئيس بين قبور الغرف المسقوفة وقبور المخبأ ثم ما يعقب ذلك من تقسيم إضافى لقبور المخبأ إلى طراز نهاية المخبأ وطراز جانب

المخبأ، يبقى مُحافظاً عليه طوال فترة بلانة (قارن الشكل رقم ٦٥). ومهما كان الأمر، فإن الأجزاء النسبية للنوعين الرئيسين معكوسة: تعم مقابر المخبأ البسيطة بتفوق زائد على القبور المسقوفة إبان الفترة ما بعد المَروية. إن تحديثاً إضافياً بالإمكان أن يُرى في إعادة الأخذ بالوضع الضيق للجسد في الدفن، وإستعادة توجيه الميت صوب الجنوب في مكان التوجه التقليدى ناحية الغرب في الأزمان المروية. والغالبية العظمى للجنائز المنحشرة موجودة في قبور المخبأ؛ ربما انها تمثل شيئاً يتعدى الملاءمة الطبيعية لهذا النوع المضغوط من غرف القبر بعبارة أصح. أما الأجساد في قبور الغرف فهي في أغلب الأحيان ممدودة على ظهرها، كما الأزمان المروية. وظلت ممارسة لف الميت بكفنٍ عاديةً طوال فترة بلانة .

طبيعة القرابين الجنائزية في قبور بلانة هى من طبيعة الأنواع العامة الموجودة في القبور المروية. لكنها مخفضة بقدر معتبر في العدد والنوعية. إن كميات من الفَخار محلى الصنع، الرخيص، هى أشد أمتعة القبر شيوعاً. والمواد الأخرى، عدا الخرز، نادرة كذا البضائع المجلوبة فهي ليست كثيرة بشكل إستثنائي. عثر على أسلحة من نوع واحدٍ أو غيره في حالات حسنة الوفرة؛ إنها تشمل رؤوساً حديدية لحراب وسهام، جعاباً للسهام من الجلد ذات رسم دقيق أخاذ [٦٨]، أحجبة للأقواس من الجلد، وأقراصاً حجرية للنُبالة .

الغالبية العظمى من جبّانات بلانة لا تحوى إلا قبوراً متواضعة نسبياً من النوع الذى وصف قبل قليل. أما القبور شبه القبابية الأكبر والأعلى زينةً فهى ظاهرة في مواطن قليلة لا غير وهي: قصر إبريم [٦٩]، بلانة وقسطل [٧٠] جمّى [٧١]، وفركة [٧٢] (الشكل رقم ٦٤). هنا كانت تلال ترابية مرتفعة بالغة الكبر، ينافس أكبرها في الحجم المدفن التلى العظيم في كرمة (الفصل الثامن). هذه القبور الملكية النبيلة، التى سيجرى وصفها بتفصيل أوفى لاحقاً، هى الصروح البنائية التى ما أخرجت فترة بلانة مطلقاً سواها .

غياب معمار الصرح واحد من أشد الملامح المميزة التى تثير الدهشة في فترة بلانة. ما كان هناك إنعدام في البناء بالحَجر وحسب، لكن المعابد الأقدم و/أو القصور التى كانت مشيدة من قبل في جبل عدّا وفى مينارتى أثناء أزمانٍ مَروية متأخرة دُمرت عمداً [٧٣]. يبدو هذا الأمر كأنما كان موضوع سياسةٍ أكثر منه حادثاً عن حربٍ، ذلك أن التطور الإجتماعى والثقافى للقريتين لم يُصَب بإضطراب في جوانب أخرى (أنظر "الأيدولوجية والديانة في الفترة ما بعد المَروية"، بأدناه).

القليل الذى نعرفه عن الحياة اليومية في أزمان بلانة يأتي بصفة أساسية من بقايا مدن وقرى قليلة أُسست في أزمان مَروية لكنها استمر شغلها لوقتٍ متأخر. بين هذه كانت كارانوق، قصر إبريم، وادى العرب، أرمينا الغربية، جبل عدّا، ومينارتى [٧٤]. لم يكن في تلك الأماكن أى انقطاع ذى معنى في مسيرة التطور الإجتماعى والثقافى المتواصل بين الأزمان المَروية وما بعد المَروية. أما أصفى الصور كمالاً وتصويراً للحياة اليومية فربما تأتى من مينارتى، قريةً تقع على جزيرة في النيل تحت الشلال الثانى بالضبط (الشكل رقم ٦٤). لقد كانت موطناً للإقامة بلا انقطاع من أزمان مَروية إلى نهاية العصور الوسطى (٢٠٠ ـ ١٤٠٠ م تقريباً)؛ إنَّ ثلاثةً من مستويات طبقاتها الأرضية البالغة ثمانية عشر تُنسب إلى فترة بلانة .

نحو ما شاهدناه في الفصل الثاني عشر، إشتملت المستوطنة المَروية الأصلية في مينارتى على نواةٍ من المبانى العامة (معبداً أو قصراً، تجمعاً للسوق، ومعصرة نبيذ) يحيط بها زوج من مساكن "فخمة" في متانة، وجمع من منازل رخيصة البناء. قبل نهاية الفترة المَروية، كانت معصرة النبيذ خربة أنفاً ومملوءة بالنفاية. ولم يمض وقت طويل، حتى تحطمت القرية تحطماً بالغاً بفعل فيضانٍ دمر أحد جوانب تجمع السوق وعديداً من منازل المزارع بأطرافها. لابد أن هذا تزامن في وقت قريبٍ جداً في نهاية الفترة المَروية، حيث أنه لم يعثر على مزيدٍ من الفَخار المَروى بعد الفيضان. إن قصة التطور

اللاحق في القرية أفضل ما تحكى عن طريق وصف مختصر لمستويات طبقات الأرض التى تربض فوق البقايا المَروية، وكانت مصحوبةً بفَخار بلانى مألوف:

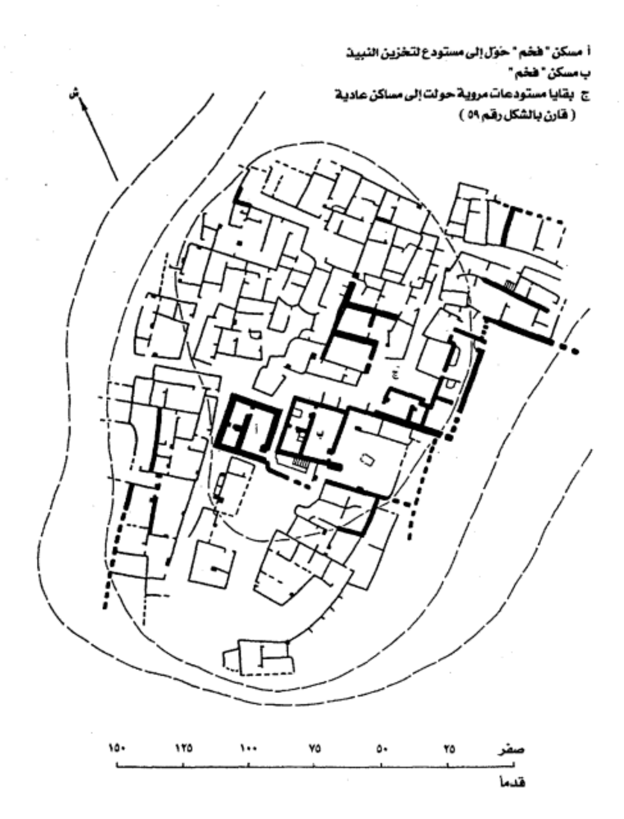
المستوى ١٦... كان الأول من ثلاث مستويات "للمجموعة المجهولة"، ومُعْلماً ببناء كثيف الإعادة. لم تكن الترميمات والمبانى الجديدة كاسحةً كمثل سابقاتها، لكنها كانت لا تزال متينة البناء، ولم تكن هناك مفارقة جذرية عن الرسم السابق. تمت صيانة الجانب الشرقى من السوق الذى كان تحطيمه بالغاً، وشُيد إلى جنوبه منزل "فخم" جديد، جزء منه فوق البقايا المدفونة [لمعصرة النبيذ] المَروية. أياً كان، فإن المعبد المَروى (؟) كان قد دمر عمداً بالنار وسويّ بالأرض، وتُرك الجزء الملاصق من التل الترابى خالياً. ونحو ما جرى في السابق، حُدد افتراضياً موقع لمساكن المزارع العادية على الأراضى المنبسطة المجاورة حيث، تدمرت في نهاية المطاف بسبب تعرضها للفيضانات فلا يكاد يوجد لها أثر .

المستوى ١٥ ب (قارن الشكل رقم ٦٦). على منوال ما سَيُرى في الحال، يُبرز رسم القرية التخطيطى في هذه النقطة مفارقة جذرية عن الأزمان السالفة. لقد كانت المبانى الأقدم، ذات الحيطان الغليظة محاطةً بشكل مفاجئ للغاية ومحتشدة بالفعل بجمع وثيق من المنازل هشة البناء، خفيفة الجدران التي غَطّت تقريباً أى فضاء توفر علي التل الترابى (الصورة ١٩ ـ أ). بمطالعة المنظر الخارجي، ... ربما تثير التغييرات إقتراحاً بوصول سكانٍ جدد أقل أذواقاً وعلماً ـ جماعةً لا تملك مساكن ينتقلون إلى قرية مهجورة. مع هذا، فإن التعاقب غير المنقطع لتطورالفَخار والإقامة المتواصلة لمنازل أقدمَ عهداً لا يؤيدان مثل هذا التأويل. تفسير أقوى احتمالاً هو أن نيلاً مرتفعاً أجبر مزارعى مينارتى اخيراً على التخلى عن ديارهم في الجروف التى تغمرها المياة من وقت لآخر وأن يحتشدوا من فوق أرض أعلى ارتفاعاً كانت تتراكم تدريجياً حول المبانى المركزية. إنّ هذا التطور استبق في الحدوث المعركة الطويلة في مواجهة الفيضانات المتوالية التى كان عليها أن تشغل القرية خلال النصف الأول من الفترة المسيحية .

المستوى ١٥ ب هو أول مستوى في مينارتى تمثله بنايات مأهولة خلاف المبانى العامة. المنازل نفسها يحتمل أنها أقيمت على اختلاف يسير من مساكن المستويات التى وُجدت قبلها، يظل الرسم بأكمله ملهماً بمدينة وادى العرب [٧٥]، بكتلةِ مساكنِها خفيفة الجدران المائلة إلى عدم الانتظام والمحيطة بالمبانى واسعة الشتات سميكة الحيطان. في مينارتى لا تزال النواة الأصلية [لمجمع السوق] المَروى القديم قيد الإستعمال، بالرغم من أنها دُفنت وبُنى من فوقها مرات كثيرة للغاية، بحيث يصعب التعرف عليها. أما منزل المستوى ١٦ "الفخم" فقد ظل كذلك مستخدماً، وبُنى إلى جانبه طولاً مبنى يكاد يُماثله رسماً، لكن حيطانه أغلظ سمكاً. كان [هذا] فيما يبدو آخر هيكل بنائى مسقوف، ومتين البناية شُيد في مينارتى لقرنٍ أو يزيد. خلال الفترات المتأخرة للمجموعة المجهولة تنظر العين تدهوراً معمارياً مضطرماً، تصبح المساكن غير منتظمة وغير متينة شيئاً فشيئاً. وبما أن المنازل "الفخمة" و [مجمع السوق] سقطا في حالةٍ من عدم الرميم فقد امتلأت بالفضلات أولاً ثم بُنيت فوقها هياكل بنائية منبسطة السقف، خفيفة الجدران.

المستوى ١٥ أ. تراكمت رمال عصفت بها الرياح عميقاً حول منحدرات التل الترابى الدنيا، على الجانب الغربى بدقة، مُسبّبة إنحناء وانكماش بعض الجدران. تنبئ كميات الفَخار كله التى وُجدت مدفونةً في الرمل في هذا المستوى أنه ربما كان هنالك تَخَلٍّ مؤقت وغير متوقع لجزءٍ من القرية. عندما أُعيد شغلها كانت هنالك إعادة إحلالٍ وترتيبٍ مُقّدرة لتقسيماتٍ داخلية، غير أنه لم يكن هنالك مبنى جديد ذو أهميةٍ ولم يُجرَ تغيير حيوى في رسم القرية. إن المسكن الأظهر جدة والأقوى متانةً من بين المنزلين "الفخمين" بقى مستعملاً، لكن الأقدم إنهار جزء منه ولم تُعُد صيانته .

كل مستويات المجموعة المجهولة الثلاثة في مينارتى ... تعرض التركيبة المألوفة لفَخار المجموعة المجهولة. ليس هناك إتجاه تطورى واضح المعالم من الأول إلى الآخر. مع ذلك يفترض عدد الرسوم الصورية للصليب المنقوشة في فوانيس الفَخار في المستوى ١٥ أ، إضافةً إلى وجود فوانيس نذور مستوردة، إن المسيحية إعتُنقت آنفاً من قبل بعض سكان القرية في هذا الوقت، مع أن الكنيسة لم تُشيّد حتى نصف قرنٍ على الأقل فيما بعد [٧٦].



شكل رقم ٦٦

قرية فى فترة بلانة ، مينارتى

عملية مشابهة جداً للتدهور المعمارى يبدو أنها تبوأت مقعداً بكارانوق، وأرمينا، وجبل عدّا، بالرغم من أن تعاقب طبقات الأرض السطحية لم يُمّحص بنفس التفصيل في هذه المواقع الثلاثة.

لقد نُقبت مواقع سكنية قليلة أُسست بصورة مبدئية في أزمان بلانة. إن أكبرها كان في جزيرة دبروسة، بضعة أميال شمال مينارتى (الشكل رقم ٦٤). لم يصدر الموقع أى فّخار مَروى، لكن ترتيب مبانيه مماثل تماثلاً صارخاً للمستويات المَروية المتأخرة والبلانية المبكرة في كارانوق، وأرمينا، ومينارتى. وقد أُحيط بمنزل من النوع "الفخم" غليظ الحيطان تبتلعه بالفعل بنايات هشة محتشدة، تم التعرف بها مرة ثانية على مزج لغرفتين إحداهما حجرة كبيرة والأخرى غرفة صغيرة [٧٧].

وُجد منزل من فترة بلانة في منطقة الشلال الثانى أصغر من أى دور للإقامة جرى توصيفها للتو، يظهر أنه يمثل الإقامة المعزولة لعائلةٍ بمفردها ـ نوعاً من الإقامة النادرة جداً في النوبة طوال الفترة التاريخية [٧٨]. وعلى بُعد قريبٍ من المنزل رقعة لدفن العائلة تحوى قبرين لا أكثر [٧٩].

خاصيةً معينة في بناء المنازل يبدو أنها تصاحب التحلل المعمارى لأزمان بلانة المتأخرة تتمثل في الإستعمال الدائم لبناءٍ حجَرى شديد الخشونة، يتكون من بلاط رملى حجرى صغير وغير منتظم يُغْرَز في خلطةٍ ثقيلة من الطين. يتم وضع البلاطات أحياناً على نمط صفوفٍ متقابلة الإتجاهات، مع تبديل الأطواف بجعلها مائلة في إتجاهات متعارضة [٨٠] لا يبدو هنالك أى تناسقٍ في إستعمال الحجر نظير الطوب؛ بعض المساكن مبنية بأجمعها من الحجر، بعضها بالطوب والآخر من خليطٍ للإثنين غير منتظم بدرجة عالية. ظل استعمال بناء الحجر الخشن حياً حتى مدخل الفترة المسيحية الباكرة، لكنه سرعان ما اندثر بعدها .

إن صورة للحياة اليومية مختلفة جداً عن التى تعيشها القرى العادية خرجت قبل بُرهةٍ وجيزة من الحفريات في قصر إبريم. ومع أن جزءاً صغيراً من الموقع انتهى فيه التنقيب إلى المستويات الأدنى، فإن قدراً كافياً كُشف عنه الغطاء ليُبَين حضور مدينة من مساكن متينة البناء تنتظم في مربعات متلاصقةٍ على طول شوارع مستقيمة تقريباً. رسم القرية نفسه ربما يُكّون فصلاً من إرث الفترة المَروية، كما كانت أسوار التحصينات المحيطة كذلك (قارن الفصل الثانى عشر)، لكن المساكن التى شملها التنقيب حتى هذا المدى يُتعرف على هُويتها من فّخارها وغيره من المحتويات أنها تنتمى إلى بلانة ولا تنتمى إلى فترةٍ سابقه لها [٨١]. هى مربعة بالتقريب في رسمها ومكونةٌ من أربع إلى ثمانى حجرات على الطابق الأرضى؛ منازل عديدة لها فيما يظهر طابق أعلى علاوةً على ذلك. الجدران مُشَيدة بحجرٍ متين، سُويت تسويةً ناعمة ودهنت بجير أبيض، يحمل بعضها آثاراً لزينة مرسومة باللون الأزرق، والأصفر والأحمر. معظم المداخل مثبتة بجنبات موحدة راسياً وأفقياً بغطاءٍ مرسل بعناية من الحَجر الرملى. إن وجهاً يتعلق بمساكن قصر إبريم التى يندر الأخذ بها في المعمار النوبى هو وجود قاعدة بنائية تصل إلى عمقٍ يمتد من ستة إلى ثمانية أقدام تحت مستويات الطوابق. كثير من المنازل مزودٌ إضافةً لذلك بغرف أسفل الأرض مبنية بعناية كطابق فرعى للتخزين مغلقٌ بأغطية من الخشب. هذه الملامح، إذا وضعت مع بعضها إلى جانب الغياب العام للأثاث وترتيبات المعيشة، تبعث فكرةً مفادها أن منازل قصر إبريم ذات الحجم الكبير ربما كانت قد صُممت كمستودعاتٍ لتأمين تخزين الحبوب والبضائع أوضح منها مساكن للحياة اليومية. وضع القلعة المُعلى ربما جعلها مكاناً غير مريح للحياة والعمل على أساس منتظم، لكنه في نفس الوقت كفل حمايةً مثالية من كلٍ من عصابات النهب الضارية ومن رطوبة النيل ومشكلة النمل الأبيض الماثلة. الأهمية المتواصلة لقصر إبريم المتحدرة خلال التاريخ ربما ترجع في الحقيقة بدرجةٍ معتبرة إلى دوره كمركز للتخزين وشحن البضائع [٨٢]. وكيفما كان الحال، يشير العثور على كمياتٍ ضخمة من خرائب الإقامة [٨٣] بين مساكن بلانة إلى أن قدراً طيباً من الحياة اليومية كان سائراً في قصر إبريم، على الأقل في بعض المواسم .

يبدو منطقياً أن يُستدل بأن منازل مشابهة للمساكن في قصر إبريم ربما كانت موجودةً في مستوطنة واحدة أو مستوطنتين على الأقل في النوبة السُفلى. إن حضور جَبّانات كبيرة جداً "للمجموعة المجهولة" في جيرة فرس وجبل عَدّا تغرى لإعتبار هذه الأماكن بدورها مراكز "حضرية" في فترة بلانة، مثلما كانت عليه في الأزمان الأولى والمتأخرة معاً. مع ذلك، أدى الإخفاق في إجراء حفر منظم الخطة أو الإجراء إلى الأسفل من مستويات الإقامة المسيحية لحرماننا من أى معرفةٍ عن الترتيبات الحياتية في فرس وجبل عدّا أثناء أزمانٍ ما قبل المسيحية (٨٤).

واحد من المصنوعات النوبية القليلة التى يبدو أنها ازدهرت بتوسع في فترة بلانة كان صنع الفَخار. إنه يُبين، بأى شكلٍ كان، إفتراقاً يكاد يكون كاملاً عن التقاليد في أزمان مَروية، مبنياً كذلك إندثاراً نهائياً لأى أثرٍ دال على نفوذ مصرى قديم. إن افتقاد أى علاقةٍ للتواصل بين الفَخار المَروى وفَخار "المجموعة المَجهولة" كان واحداً من العوامل التى طال اعتبارها دليلاً على غزو "المجموعة المجهولة" (انظر "العصر المظلم" و "والمجموعة المجهولة"، بعاليه).

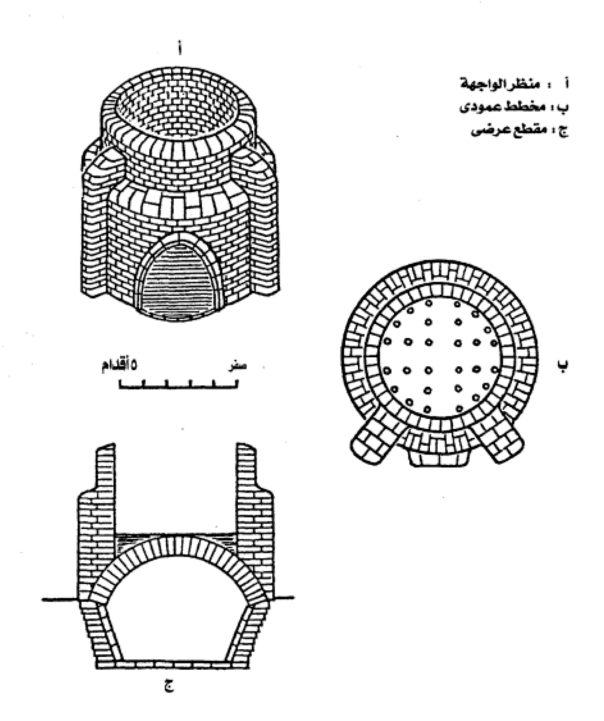
لقد أضحى النفوذ الرومانى، الذى تَبّدى آنفاً في بعض الفَخار المروى الأخير، غالب السيادة بصورة مطلقة في فترة بلانة. تكاد كل الأوانى النوبية تُصنع محاكاةً للأشكال المصرية التى عاصرتها، والتى كانت هى نفسها مأخوذةً بنوع التيرا سيقيلاتا واسع الإنتشار في الإمبراطورية الرومانية في مراحلها المتأخرة. إنها في غالبيتها كؤوس، وقداح، وأباريق حمراء، إما من غير زخرف أو بأبسط رسوم "متناثرة" أو "منقوطة"، ويمكننا أن نتعرف من خلالها على التحلل النهائى لتقليعة غصن العنب الإغريقية (الصورة ١٩ ـ ج).

يقترب فَخار بلانة قرباً لصيقاً من فَخار مصر البيزنطية، ويختلف إختلافا شديداً عن سابقه الفَخار المَروى، حتى انه يمكن أن يعد بشكل معقولٍ مستورداً من الشمال. مع هذا، فقد كنا حسنى الحظ بقدر كافٍ لنُعَين على الأقل واحداً من المصانع التى كان يصنع فيها، في دبيرة شرق، على مسافة قصيرة شمال وادى حلفا. هنا كان تجمعٌ لستة قمائن أسطوانية من الطوب، كل واحدة منها مقسمة إلى غرفة حرق سُفلى وغرفة حرق عليا، مفتوحة بأعلاها، تحرق فيها الأوانى. وتحمل فتحات عديدة في الأرضية الهواء الساخن من الغرفة السُفلى إلى العليا (الشكل رقم ٦٧). كان موقع القمائن بعيداً عن الأبواب وقريباً من ضفة النهر؛ وكانت محاطةً بأرضيات مُعَدة للتشغيل حيث يفترض إجراء تشكيل الفَخار بالعجلة، وتجفيفه، وتلوينه. على دائرة الموقع طبقات سميكة من الرماد وآلاف الشقوق و "المصنوعات التالفة"، يرجع تاريخها كلها إلى فترة بلانة المتأخرة والفترة المسيحية الأولى (٨٦).

إعتباراً لغياب الهياكل المروية السُفلية في دبيرة، والإفتقاد إلى التواصل بين التقاليد الخزفية المَروية وما بعد المَروية، يبدو منطقياً إقتراح أن مصنع وصناعة دبيرة أُسسا من قِبَل صانعى فَخار مهاجرين من مصر البيزنطية بعد الإنكماش الذى حاق بالصناعة المَروية الأشد قدماً. من ناحية أخرى، لا تظهر أوانى الإستهلاك يدوية الصنع التى قامت النساء بصنعها إنعداماً في التناسق بين الأزمان المَروية وما بعد المَروية. على النقيض من ذلك، مستحيل أن تُميز أوانى عديدة من الفترة المَروية عن الأوانى من فترة بلانة الأولى. وفي نحو نهاية فترة بلانة وحدها كانت هناك سلسلة من تغييرات تدريجية شديدة البطء في مركز الفَخار اليدوى (٨٧).

من الظاهر أن أوانى الفَخار كانت هى السلع التفاخرية الوحيدة من نوعها التى تمتع بأى قدرٍ منها قوم بلانة. وهى توجد بكميات كبيرة نوعاً ما بالجَبّانات وحدها، بل إنها توجد مُتَخلياً عنها على أرضيات المساكن. والواضح أن وسائل الإنتاج واسع النطاق التى جرى تشغيلها من دبيرة كانت محصلتها منتوجاً زهيداً للغاية، من ثم يَسيراً على الإبدال .

أما الحديد فكان بالتأكيد صناعةً أخرى من فترة بلانة، مع أنها غير وفيرة بأى حال سواء في



شكل رقم ٦٧

قمينة لصنع الفخار مزدوجة الغرف من النوع المستعمل فى بلانة وأزمان مسيحية

المنازل أو في القبور. "لأول مرةٍ في النوبة السُفلى بدأت مواد ثقيلة متعددة ومصنوعة من الحديد في الظهور. في قسطل وبلانة خناجر، وسيوف، وحراب شائعة، كذا يستخدم الحديد لعمل شكائم الخيل، والكراسي، وأواني الطهي، وقوائم للطبخ بأرجل ثلاث. أخرجت المدافن الملكية ومثلها في ذلك قبور أقل أهمية عديداً من الفؤوس، والمعاول، والمناشير، والملاقط، والمطارق، والأزاميل، والقداديم، وقاطعات المعدن، والكماشات، وأدوات أخرى. إن كثيراً منها له جعاب معلّقة، على خلاف أدوات الثقافة المَروية" [٨٨]. بعض بضائع الحديد التي تزيد دقة مما وجد في المدافن الملكية يفترض أنها مستوردة بالرغم من أن أصل شكائم الحصان البلانية المتميزة يظل سراً إلى هذا اليوم [٨٩].

صناعة أخرى في الأزمان البلانية مثبتة بمعثوراتٍ قليلة مردها إلى المصادفة هي صُنع السلال. إن جبّانة بجوار الشلال الثاني أخرجت سلتين محفوظتين حفظاً جيداً جديراً بالملاحظة. والأقوى إثارةً سواء بسواء ما عُثر عليه، في طرف نفس الجبّانة، من مخبأ فيه أربعة وثلاثون سلة لحمل الأشياء "إفترض" أنها كانت تُستعمل في أعمال حفر القبر ودفنه [٩٠]. ظاهر للعيان أن الوسائل الفنية لإزالة التراب في النوبة القديمة كانت مماثلةً للتكنيكات التي يستخدمها عالم الآثار اليوم (أنظر الصورة ٣ - ب).

أغلب السلع المُصنّعة الأخرى التي توجد في بعض الأحيان في قبور بلانة مماثلة، أو لصيقة الشبه، بما وُجد مثلها عليه في قبور الفترة المَروية. وبإستثناء الخرز، فإنها بدرجة عالية أقل عموميةً عنها في أزمان أولى .

في معظم أرجاء النوبة، تعطى البقايا الأثَرية لثقافة بلانة الإنطباع بمجتمع زراعي لا مركزي، أفقر لكنه أقوى اكتفاءاً بذاته من مجتمع الأزمان المَروية. بالرغم من أن فوارق الثروة مرئية من أسرة لأخرى من قرية لأخرى، لا توجد طبقة وسطى متمايزة بشكل بارز للمرة الثانية، مع ذلك، يمثل قصر إبريم إستثناءاً جزئياً لهذا التعميم. فمن البقايا المادية التي وُجِدت في المساكن ورواسب النفاية البلانية يبدو واضحاً أن السكان المقيمين في إبريم تمتعوا بمستوىً معيشي عالٍ في وضع ملحوظ وكانوا يُمدُّون دفقاً من السلع التفاخرية بما لا يوجد له مثيل في مواقع القرى الأخرى أوْ القبور العادية. بين هذه، تتكاثر بوجهٍ خاص أنواعٌ مختلفة من أشغال الخشب المزخرف والأدوات الخشبية - إنها من الوفرة بما يدعو للإقتراح أنه ربما كانت هنالك صناعة للأعمال الخشبية في الموقع. فأعدادٌ لا حصر لها من مغازل، ومكوك وموازين النول، ومثلها كذلك منسوجات قطنية ما بين مُجَرّدٍ من الرسم ومُزخرف، تثبت شهادتها كذلك الوجود المتواصل لصناعة النسيج، بينما تلهم أصناف غير محروقة من الفُخار بالإمكانية القوية بوجود قمينة فَخار بالقرب. إن قصر إبريم ربما كان بقبول حسنٍ المركز الصناعي العظيم وعلى حد سواء مكمن التخزين للنوبة ما بعد المَروية [٩١].

المدافن الملكية ونظام بلانة الملكي

بالقدر الذي كان عليه حال أي صفوة بالأزمان ما بعد المَروية، لدينا بيّنة عنها أساساً في شكل قبور أكبر وأغنى عطاءاً مما كان لعامة المواطنين. وُجدت مثل هذه القبور في أربعة أماكن: قصر إبريم في الشمال، وفركة وكوشة في الجنوب، وفي جُميّ وفي بلانة وقسطل، تقف في مقابلة بعضها البعض حوالي خمسة وثلاثين ميلاً شمال الشلال الثاني (الشكل رقم ٦٤) [٩٢]. القبور في قصر إبريم وفركة أخاذة في حجمها وثروتها، لكنها اكتسحتها جبّانات بلانة وقسطل الوفيرة مع أنها أقل حضارةً. هذه تمثل أوج إنجازات الفترة البلانية، وبناياتها الصرحية الوحيدة بحق. تنتصب قائمة دون رفيق بين بقايا زمانها تماماً كما تفعل المدافن التَلية العظمى في كرمة من قبل ٢.٠٠٠ عاماً سلفت. إنها في الحقيقة التمثلات الرمزية الوحيدة لسلطة الدولة التي بمقدورنا أن ندركها في عصر ما بعد مَروي.

جَبّانتا بلانة وقسطل التوأمان تنتصبان مباشرةً قُبالة بعضهما بعضاً، على ضفتى النيل الغربية والشرقية، في وسط واحدة من أغنى المقاطعات الزراعية في النوبية السُفلى. ومع أن أكبر مدافنها التَلّية تتلو في الحجم مدافن كرمة التَلّية وحدها، فإنها لا تملك شيئاً من الظهور البارز للمدافن الملكية الكوشية الأولى. لقد كانت التّلال الترابية القبابية، المنخفضة، محتجزةً بالرمال المترسبة ومغطاةً بالشجيرات في كثافة مما جعلها في الأزمان الحديثة تؤخذ دائماً عن طريق الخطأ على أنها تكوينات طبيعية. هذه الحالة ساعدت، بحق، على حفظ قبور بلانة وقسطل من النهب المستمر الذى عانت منه قبور الأهرامات في نَبْتة ومَرَوى. إضافةً إلى ذلك، فإن الوضع غير المنتظم للغرف الداخلية، في حالات قليلة، بُهت منه نُهاب الآثار بنجاح؛ فتُركت حجرات ملأى بالكنوز كما هي على حالتها لعالم الآثار. بالتالي، أخرجت جَبّانات هذه الفترة التى تعد أقل حضارةً ولا تحسن كتابةً، على غير المألوف، أغنى معثورات أثَرية وُجدت على الإطلاق في النوبة. مثل قبر توت عنخ آمون الذى حفظته المصادفة في مصر، التي تمنحنا دليلاً - هو تقريباً الدليل الوحيد الذى نملكه - على ثروةٍ أعظم على قدم المساواة وربما صاحبت قبور أزمانٍ أسبق عمراً وأشد رخاء .

كان اكتشاف قبور بلانة - قسطل وتنقيبها الإنجاز الباهر للبعثة الأثَرية الثانية للنوبة (٩٣). وُصفت ظروف هذا الكشف في بلاغةٍ من ى. ب. امرى:

تبعا لممارسة إستطلاعنا المعتاد إلتقطنا طريقنا في تكوينٍ ممتد بين كُثبان وشجيرات هذا البلد غير الجذاب فيما يغلب عليه، في بحثٍ عن مؤشر على بقايا قديمة. لقد كنت أنا نفسى أستطلع المساحة الأقرب إلى النهر وأتجول حول المساحة الواقعة جنوب القرية تماماً، فسرعان ما وقفت مرمى البصر على كتلةٍ مختلطة من التلال الصغيرة المغطاة جزئياً بالشجيرات. عندما دنوت بالقرب منها إتّخذت شكلاً أكثر دائرية وإنتظاماً، ولكننى إلى حين تسلقى لإحدى قممها كى أحصل على رؤيةٍ أفضل للصحراء المحيطة، ما كان لى أن أقدّر إنتظام شكلها لأعتبر إمكانية كونها مدافن تَلّيةٍ من صنع الإنسان [قارن الصورة ١٩ ب].

فى هذا العصر، عندما يكون عالم الآثار مُعاناً بالتصوير الجوى، سوف تتضح حالاً الشخصية المصطنعة لمرتفعات بلانة؛ بيد أن رؤيتها هذه، كما فعلنا، من مستوى أرضى مكسر وغير متساوٍ للغاية، ما كانت بأى حالٍ منظورة. حقيقةً كانت بعثة جيولوجية سابقةً لنا لعامين من قبل قد أعلنت أن المرتفعات رواسب طبيعية لطمى النهر، عُصف بها وتعرضت بالعراء لتكويناتها المستديرة. ولم نكن، في بعثة أثَرية مثل بعثتنا، في موقع يُمكننا من أن نحضر معنا عديداً من مراجع الكتب، من ثم إعتمدنا، بنتائج طيبة على العموم، على سرد ويقّلْ المنشور عن إستطلاعه المبدئى للنوبة السُفلى الذى أعده إنابةً عن مصلحة الآثار في ١٩٠٦... فحصنا كتابه القيم، لكننا تُركنا أشدُ حيرةً مما كنا عليه من عبارته القائلة بأنه "بالنسبة لعالم الآثار، فالبلد هنا غير جاذبةٍ للإهتمام، ولم يجد الكاتب أى آثارٍ لأى مواقع أثَرية، فيما عدا ما تضمنته شقوق قليلة من فَخار الرومان والعصور الوسطى من وجود قرى في ذلك الزّمان (٩٤).

إن الحفر سرعان ما عكس الطبيعة الحقة لمرتفعات بلانة وقسطل :

... بنهاية نوفمبر كنا قد أكملنا قطعاً كبيراً في شكل ٧ في المرتفع وعلى جانبه الشرقى نزلنا إلى مستوى الأرض. إن رأس سرداب ينحدر للأسفل صوب الغرب إنكشف في الحال فبدأنا بالنزول التدريجى نحو مدخل القبر. كانت أول مواد ظهرت إلى النور رأسين لفأس من الحديد، وكانا محفوظين بإتقانٍ لدرجة أنهما لا يزالان محتفظين بلون الحديد آسود الزرقة الذى غادر لتوه سنديانة الحداد... وكان معثورنا الثانى، في رأس الدهليز، مادة معدن ثقيل أصابتنا بالحيرة في وقت إكتشافها، رغم أننا ضحكنا على الإقتراح الذى تبادر إلينا بأنه ليست هناك أداة حديثة يمكن أن تمثلها أقوى من صفاد الأيدى الذى يستخدمه الشرطة! إن التلميع عَجّل بإظهار أنها كانت مصنوعةً من فضّة صَلْبة، لكن خصائصها الحقيقية لم تُدرك حتى وجدنا مواد مشابهة لها مؤخراً في معرض قيامنا بعملنا. لقد كانت في الحقيقة شكيمة حصان ربما برهنت على أقسى وأدق كبح لأشد حيوان مثير للمتاعب ... في الوقت الذى لم تكن لدينا فيه فكرة عن الغرض من هذه الأداة الغريبة، جاء إكتشاف في اليوم التالى لهيكل حصان لابد أن

الشكيمة جاءت منه ليُبَين لنا ما هي. إنني لا أستطيع أن أقول أيهما أصابنا بدهشة أكثر: تبين الغرض الحقيقي لهذه الأداة التي تثير الاستطلاع أم الجواد نفسه، ولم يكن حتى نزولنا أسفل السرداب وإزالتنا الغطاء عن مزيد من هياكل الخيول، والحمير، والجمال، أننا أدركنا أهمية وقيمة هذه الكتلة المختلطة من بقايا الحيوان وقيمتها. أن سيد القبر أخذ جماله معه لتخدمه في الحياة الأخرى كما كانت تترك في الحياة بالإنتظار أو في حظيرة خارج محط إقامته. بعد هُنيهة بلغنا فناءاً صغيراً في سفح السرداب أمام باب القبر. هنا وجدنا بقايا ما كان بوضوح الجياد المفضلة للسيد، حيث أن بعضها له سروج خشبية مطهمة بالفضة وزينة فضية تتكون من سلاسل ذات أقراص مسطحة أو مقوسة تقويساً خفيفاً تتدلى منها زينات إلى أسفلها وأقراص. مع بقايا الخيول وجدنا هياكل سُياسُها الذين يُعنون بها في الدار الآخر. إن كل الحيوانات كانت مقتولة بساطور الذبح، لكننا لم نجد علامات للعنف على البقايا البشرية، ويمكننا فقط أن نستنتج أنهم جرى تخديرهم أو تسميمهم قبل ملء مدخل القبر دفنا (٩٥).

أُجرى الإكتشاف الأول لقبور بلانة وقسطل في نوفمبر ١٩٣١. وخلال المواسم الثلاثة التي أعقبته، مضى المكتشفون يُحققون شيئاً مثل ١٨٠ قبراً في الموقعين، ربما منها أربعون مما يمكن إعتباره "ملكياً" على أساس حجمها وثرائها. ملامح هذه القبور الأكبر كانت تقريباً موحدة، في كلٍ من بلانة وقسطل، وقد وُصفت هكذا من امري:

قُطع ممر هائل في الطمي المتصلب يؤدي في الأسفل إلى قُبو كبير، وسلسلة من حجرات بالطوب مبنية في هذا التجويف، معها فناء مفتوح على صُغر بداخله ينفتح الممر المائل. في بعض حالات كانت كل غرفة طوبية مبنية في تجاويف منفصلة، موصولة بممرات قصيرة كأنفاق إلى داخل الطمي المترسب. إن سقف كل حجرة كان مقوساً أسطواني الشكل، وفي القبور الأكبر كان للأبواب أعتاب حَجرية.

من الواضح أن أسياد هذه القبور يعتنقون الإعتقاد المصري القديم القاضي بالبقاء المادي بعد الموت لكل الأشياء الحية والجامدة، ذلك أنهم دفنوا مع أمواتهم نبيذاً وطعاماً، وأثاثاً، وأدوات طهي، ومجوهرات، وأسلحة والأدوات والمواد التي تصنع بها، لكنهم في محل الأوشابيت [تماثيل الخدم الصغيرة] خاصة المصريين، ضحوا بعبيدهم وحيوانهم .

كانت إحدى الغرف في العادة محجوزة لأباريق النبيذ وأقداح الشرب، وغرفة أخرى مُكرسة لأدوات الطهي البرونزية والفضية، والفوانيس، والمجوهرات، والأسلحة، والمعدات. في القبر ٨٠ في بلانة، على سبيل المثال، وجدنا حراباً وفؤوساً مصحوبةً بمعدات لصنع المعدن وحديداً صُبّباً. في القبور الأكبر حُجزت غرفة منفصلة لدفن الملكة، التي كانت بلا أدنى شك قد ضُحى بها، مع وصيفاتها. لكن في القبور الصغيرة وُضعت الملكة التي ضحى بها إلى جانب شريكها .

وضع الملك في الغرفة الأشد قرباً من المدخل الرئيس للقبر، والواضح أن طرحه كان أخر عمل قبل القفل النهائي. كان جسده موضوعاً على تابوت خشبي ذي أرجل وُضعت تحته أواني برونزية وفضية لإستعماله المباشر. أُلبس عباءته الملكية، ووُضعت أسلحة لحمايته مستندةً على قدم أرجل التابوت، وعلى رأس التابوت إنطرحت أجساد عبد من الذكور وثور ضُحى بهما. وتُرك كرسّي من الحديد مُثّنياً إلى جانب أرجل التابوت بشكل دائم .

عقب ذلك يقفل المدخل إلى القبر بالطوب والحَجر، وضُحي في الفناء والسرداب بجياد، وجمال، وحمير، وكلاب السيد ومعها سياسها وربما جنوده. أما الحيوانات فدُفنت وهي مُذكّرة بألجمتها والسروج؛ وللكلاب في بعض الحالات لياقات ومقودات. ولاقت الضحايا البشرية حتفها إما بحَز الرقاب أو بالخَنق، وقُتلت الحيوانات بساطور الذبح .

أخيراً، ملئت الحفرة والسرداب ورُفع تَل ترابي عظيم فوق القبر؛ في حالات كثيرة دُفنت في التَل قرابين أسلحة، ومجوهرات، وزهريات، وألعاب، وغير ذلك. وفي بلانة كانت معظم التّلال الترابية مغطاة بطبقة من حصى صخري مُخطط .

الوصف المختصر الذي نُقل لتوه لا يحمل سوى نُبذة يسيرة عن هائل الثروة وأنواع القرابين

المختلفة التى عُثر عليها في القبور، بوجه خاص في بلانة (قارن بالصورة ١٩ ـ د). إن التقرير التعريفى للمنّقبين يصف جواهر، وأسلحة، ومعدات للخيل، وأوانى فضية، وصناديق صغيرة، وعدداً من تشكيلة عظيمة من أوانى البرونز، وعدة، وأدوات للتجميل، وألعاب، ومناضد برونزية، وكراسى ذات أرجل ثلاث وكراس منثنية، وفوانيس ومباخر، وأعمال جلدية، وأوانى حَجرية، وزجاج، وآلات للوزن، ومنسوجات، وفَخار [٩٧]. وبإستثناء الفَخار، يظهر أن معظم هذه المواد مستوردات من مصر البيزنطية. أما فوانيس وطاسات البرونز، والصناديق المطهمة بالخشب والعاج، وكثير من الأشياء غير ذلك فيمثل صلةً وشيجة بالقرابين التى وُجدت في القبور المّروية المتأخرة في كارانوق وفرس، وقد وُصفت في الفصل الأخير. جاءت من نفس المصادر إفتراضياً. مع ذلك، وكما يجوز أن يكون متوقعاً، تَبيّن المواد المجلوبة من فترة بلانة نفوذاً مسيحياً كبيراً أشد مما تُبينه أزمان سالفة. إن التقليعات الوثنية، والهلينية غالبة الأثر، غير أن الصليب دائماً ما يبرز جنباً إلى جنب معها. هذا المزيج من التقاليع الوثنية والمسيحية يجعل في الإمكان إرجاع تاريخ جمع الأشياء المجلوبة التى وجدت في قبور بلانة وقسطل إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين [٩٨].

علاوة على الغلبة السائدة للنفوذ الإغريقى والبيزنطى، لا ينفك قليل من المواد التى وُجدت في بلانة وقسطل على طَيّعَةٍ للتقاليد الفنية والأيدولوجية للأزمان المّروية والفرعونية. على رأس تلك المواد تيجان الفضة التى عُثر عليها في أو بالقرب من رؤوس عشرة من جنازات بلانة. هى إستدارات عريضة من الفضة المضروبة، مرصعة السطح بالجواهر الثمينة ومُزدانة بكل أنواع الشعارات الملكية والمقدسة من عصور مندثرة. بين التقليعات المقدسة تمثلات لحورس، وإيزيس، ورأس كبش يحتمل أنه يرمز إلى آمون أو (أقل احتمالاً) خنوْم الإله النوبى القديم، وثعبان أورايوس مع أجنحة وبدونها، وعين الواتشت القدسية التى تظهر دائماً كتقليعة زخرفية في أزمان فرعونية ومَروية. يوجد تاجان كذلك مرفوعات بأشكال بشرية تلبس تاج أتيف المعمول على هيئة الريش والذى كان واحداً من الرموز التقليدية للسلطة الفرعونية [٩٩].

أكثر ثلاثة تيجان مفّصلة من بلانة تتشابه كلها عن قرب في الصوغ. فهى دائرية عريضة، يطل من حافتها العليا رأس كبش فضى مكتمل الرسم جانبياً. إن الحيوان نفسه متّوجٌ بعُرفٍ جليل في أعلى طاسته مرصعاً بالجواهر من رياش أتيف (الصورة ١٩ ـ ف). الإهتمام الخاص بهذه التيجان عينها يقع في تمثلها اللصيق للغاية أطواق الرأس الملكية المبينة في رسومات المعابد والمدافن الملكية في مَروى والنقعة [١٠٠]. ونظراً للنهب الكامل على وجه التمام الذى حاق بالمدافن الملكية الكوشية، لم يعثر أبداً على تيجانٍ حقيقية للفترات النَّبتية والمَروية، لكن رسومات المعبد والقبر يفترض أنها تعطيها تمثيلاً دقيقاً بمستوىً معقول. هكذا تعد تيجان بلانة الصلة المرئية الوحيدة للتواصل الأيدولوجى بين ملكيات الأزمان المَروية وما بعد المَروية .

وبالرغم من أن إمرى اعتبر أن "... المدفن التّلى للمجموعة المجهولة هو السليل المباشر للأهرام المَروى، مع إخفاء مدخل السلم المدرج تحت سقف البناء ..." [١٠١]، فإن التماثلات بين جنائز كوش وبلانة الملكية عامة كلها بالتقريب أظهر منها محددة. يقينا أن الأسرتين تقاسمتا رؤيةً عامة للحياة الأخرى ومكانهما فيها، غير أن الإستعدادات المعّينة التى يعدانها من أجلها تختلف في عدد من الجوانب الهامة. فالتّل الترابى المقبّب، وهو البناء الفوقى المعيارى لكل المدافن في فترة بلانة، قريب المقارنة بمدفن أزمان كرمة التلى لمدىً بعيد من أى مما بُنى في مدة ال ٢٠٠٠ عام الداخلة بينهما [١٠٢]. لربما ذكر، إضافةً لهذا، أن اكبر مدفن تّلى فّي بلانة، ويبلغ قطره ٢٥٣ قدماً وعلوه ٤٠ قدماً [١٠٣]، يفوق وُسعاً أى هرم من الأهرامات الترابية المرتفعة في بلانة بالحصا الأبيض [١٠٥]، وهى عادة كانت أيضاً شائعة الإنتشار في أزمان كرمة (مع ذلك، لم تُرقَّب في قسطل أو في أى جَبانة أخرى لفترة بلانة).

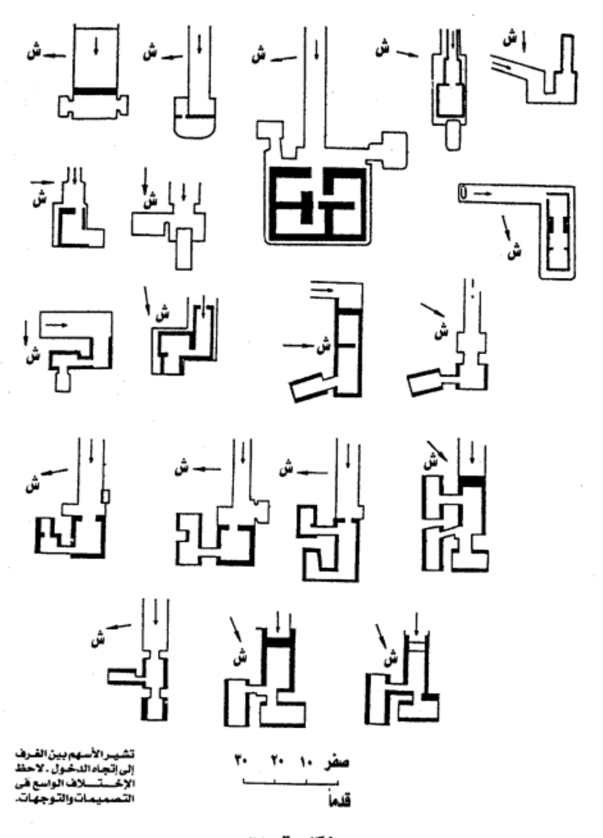
أسفل الأرض، تمثل قبور بلانة وقسطل الملكية القبور الكوشية الأولى إلى الحد الذى كانت فيه سلسلة من غرف موصولة بعضها البعض يُتقدم إليها عن طريق سرداب طويل، منحدراً من الشرق. من الجانب الآخر، فان الترتيب الحقيقى للغرف في بلانة وقسطل كان متنوعاً وغير منتظم بوجه ملحوظ؛ في حالة منفردةٍ فحسب إتُّبع الرسم البسيط ببعدٍ مستقيم (وهو فيما يبدو استرجاع مصغر لصِفات المعبد الكوشى) الذى كان خاصيةً مميزة للقبور في نُبتة ومَروى. اما أغلب ترتيب مشترك فتكون من حُجَيرة جنائزية تفتح مباشرةً على عتبة مدخل الفجوة، وغرفة للقرابين عبر طرفها الأبعد، وغرفة أخرى للقرابين تفتح من خلال جدارها الشمالى (انظر الشكل رقم ٦٨). أياً تم ذلك، كانت هنالك إنحرافات عديدةٌ عن هذه الخارطة، وفى الحقيقة لم يتماثل قبران من قبور بلانة وقسطل في تصميم الشكل؛ فكما ذكرنا آنفاً، كان ذلك ناجحاً بدرجة ما في حالات قليلة. إن خاصيةً غير متوقعة لقبور بلانة ـ قسطل هى وضع الجنازة الرئيسة في أقصى غرفةٍ خارجية، بدلاً عن الغرفة الداخلية كما في كل المدافن الملكية الأولى .

يمكن تمعن عمليتين إضافيتين في قبور بلانة، تهيئان صلة بالماضى، وتتعلقان بجنازة السرير والضحية البشرية. إن كلاهما حدث إلى حدٍ ما في الفترة المَروية، لكنهما، مثل عدد بالغ من طقوس بلانة الجنائزية غيرهما، يترسمان بتحديدٍ أوثق خُطى ثقافة كرمة ما قبل الأزمان الفرعونية. جمهرة كبيرة من الموتى الملكيين في بلانة يبدو أنها أُسجِّيت على أسرة *عناقريب* من طراز حديث [١٠٧]، فمعظمهم كان مصحوباً بإثنين أو ثلاثةٍ على الأقل من الخدم الذين ضُحى بهم. أما أعلى عدد من ضحايا البشرية التى يمكن التعرف عليها بتحديدٍ في أى قبر واحد فكان سبعة عشر [١٠٨] ـ رقماً أصغر بكثيرٍ من ٣٠٠ ضحية أو نحوها التى وجدت في بعض قبور كرمة، لكنها لاتزال أكبر لحدٍ بعيدٍ من عدد الضَحايا التى عُثر عليها في أى قبر بالفترة الجائلة بينهما .

من الجلّى أن سوابق الممارسة الجنائزية البلانية، وعلى وجه الخصوص الممارسة الجنائزية الملكية، لا توجد بصورةٍ مطلقة في الفترة المروية السابقة [١٠٩]. وبينما هنالك بعض المتواصلات الواضحة، تبدو وجوه عديدة من مركب الدفن ما بعد المَروى ممثلة لإفتراق متعمدٍ عن التقليد، وإحياءاً لممارسات ما قبل عهود الفراعنة، الأقدم زمناً. ربما جاز لنا في هذه المجموعة المصنفة أن نلحظ بعنايةٍ إحلال المدفن التلّى، عِوضاً عن أهرامات الطوب أو الحجر، والتخلى عن ترتيب شكل المعبد المستقيم لغرف الأقبية السفلية، والإختفاء شبه الكامل لفن الزخرف والنقوش المطهّمة. إن هذه ربما لا تعنى ما يعدو اندثار بناة الحَجر، وفنانى الصياغة والنقش، والخطاطين في أزمان مُفقرة؛ وفى ضوء بينات أخرى، مع هذا، يبدو جائزاً أن شيئاً أكثر من محض تحللٍ ثقافى كان في الحُسبان. إن ملامح معينة من حضارة بلانة يبدو أنها تعلم عن رفضٍ متعمد لتقليدٍ عريق النشأة، سوف يُعتبر ماله من شأن لاحقاً ("الأيدولوجية والديانة في الفترة ما بعدَ المروية"، بأدناه).

أما أن بعض القبور في بلانة وقسطل كانت قبوراً لملوك وملكات فحقيقةٌ يصعب أن يصيبها شك. إننا نتعرف فيها على عديدٍ من رموز المكانة الملكية الخالدة: مدافن تلّية هائلة، ضحايا بشرية وحيوانية متعددة، ثروة طائلة من القرابين، وألبسة رأس ملكية محلاة بالشعارات الملكية والمقدسة. إلا انه يصدق مع هذا أن معرفتنا بملوك بلانة، كما هى بالنسبة لأسر نوبية متعددة قبلهم، تبدأ وتنتهى بجّباناتهم. وفيما خلا استثناءاً واحداً جديراً بالملاحظة (سيجرى اعتباره فيما بعد) ما تركوا سجلاً آخر عن أنفسهم، ومضت حياتهم ومنجزاتهم غير مذكورةٍ من جيرتهم المتعلمة. هكذا لا نستطيع أن نُسّمى بوجه مستيقن حاكماً بلانياً واحداً، ولا نعلم شيئاً عن أصولهم، وعلاقتهم بعضهم البعض، والإقليم الذى حكموه، أو مدة أسراتهم زمنياً. إن السوالف السياسية لحكمهم غامضة مثل ما عليه السوابق الثقافية لقبورهم. في كلمات تريقر "تقف بلانة وقسطل في فراغ تاريخى" [١١٠].

إعتقد المنقّبون الأصليون لبلانة وقسطل أن المقبرتين مَثّلتا تطوراً متعاقباً، فالقبور في قسطل



شكل رقم ٦٨

تصميمات لغرف دفن سُفلية ، القبور الملكية فى بلانة وقسطل

أقدم من قبور بلانة [١١١]. وفي وقت قريب، إقترح تريقر أن الموقعين ربما كانا قيد الإستعمال في آن واحد، إذ أن القرابين الجنائزية متماثلة بدرجة كبيرة في كل من المكانين [١١٢]، فإذا كان ذلك صحيحاً، فإننا مواجهون بسر إضافي: لماذا اختار بعض الحكام الدفن على الضفة الشرقية للنيل، واختار البعض الآخر الدفن على الضفة الغربية؟ ليس بوسعنا أن نكون على ثقة إيجابية نحو افتراض أن الجّبانتين لم تكونا جّبانتين لأسر متنافسة قبضت زمام الحكم على الجانبين المتقابلين من النهر، بالرغم من أن هذا الفرض يبدو غير محتمل بالنظر إلى التماثل اللصيق لطبقات سطح الأرض في الجّبانتين.

يثور تعقيد إضافي من الحقيقة التي مؤداها أن جّبانات بلانة وقسطل لم تكن محجوزةً للإستعمال المطلق للعائلة أو العائلات المالكة. فقد كانت المدافن التّلية العظمى محاطةً بأعداد من قبور تصغرها بمدى، معظمها يبدو كأنه ما كان بأى طريقة مختلفا عن القبور العادية التى يمكن العثور عليها في أى جّبانة في نفس الفترة. (هنا ثانية كانت التقاليد الجنائزية لبلانة وقسطل موازيةً بشكل أشد قرباً لتقاليد كرمة منها للفترات الكوشية الداخلة بينهما). إحتوت الجّبانة في بلانة على ١٢٢ قبراً وفى قسطل على واحد وستين قبراً؛ في كل مكان هنالك حوالى عشرون قبراً بارز الكبر والغنى يجوز أن تُرى على أنها ملكية. وُجد عشرة أفراد، في سبعة قبور، يلبسون تيجاناً، لكن هذه كانت بالطبع محفوظةً بمحض المصادفة. إن عدداً أكبر من التيجان يعدو ذلك عدداً ربما جرت سرقته من الناهبين. في الجانب الآخر، كما أشار إلى ذلك تريقر، ما كانت القبور الغنية واسعة الرقعة ولا التيجان الفضية بالضرورة متضمنةً لملوك حكموا عهوداً؛ فإن بعض الأفراد المتوجين في الحقيقة ملكات شريكات في الملك، وربما كان آخرون أمراء وأولياء للعهد الملكى [١١٣]. ولما لم يكن لدينا طريق مؤكد لتمييز قبور الملوك الحاكمين عن أعضاء الأسرة الملكية التابعين لهم، لا نستطيع أن نعرف العدد الحقيقى للحكام الذين دُفنوا في بلانة وقسطل أو مدة أسرتهم المالكة .

أما مدى التواريخ التى في معظم الأحيان تُعّين لثقافة بلانة فيمتد من ٤٠٠ إلى ٦٠٠ ميلادية [١١٤]. إلى حد بعيد تعد هذه *بعدية وقبلية* لِحّدى الزمان. المدة الزمنية ما بين الإختفاء النهائى المحتمل للحكم المُروى والإعتناق العام المحتمل للمسيحية. لربما تكون هذه التواريخ منطبقةً منطقياً على المدة التى استغرقتها ثقافة بلانة ككل، لكن يجدر بنا الا نفترض بالضرورة أن أُسرات بلانة، كذاتية سياسية خاصة، كانت معايشة على امتداد الزمن لثقافة بلانة سواء في الزمان أو المكان. لقد أشار تريقر إلى أن بعض أنواع فَخار "المجموعة المجهولة" المتأخرة الذى قدم بوفرة في المساكن والجّبانات العادية في النوبة السُفلى لم يوجد بأى من المدافن الملكية؛ نتيجة لهذا، يعتقد أن المدى الزمنى الذى تمثله الجّبانات الملكيتان ربما كان قصّيراً للغاية [١١٥]. فإذا كان الأمر كذلك، فربما كان لا يزال هنالك ملوك نوبيون متأخرون ينتمون إلى الفترة ما قبل المسيحية، ما عُثر على قبورهم أبداً.

إننا نعلم كيفما جَرى الحال أين دُفن ملوك بلانةً وما فُتئنا بلا فكرة أين عاشوا. فإنه لا توجد بقايا سكنية مهمة في الجيرة المباشرة للمدافن الملكية، لكن كُلاً من فرس وجبل عدّا ليس على بُعد شديد، وكلاهما اقتُرح "عاصمة" لمملكة بلانة [١١٦]. فإذا كانا كذلك فربما أننا لن نعرف الحقيقة أبداً، ذلك أن كلا الموقعين إختفى تحت مياه النيل بما حملا من بقايا ما قبل المسيحية وهى غير محفوصة في قسط كبير منها [١١٧]. مع هذا هنالك سانحةٌ نائية أن قصر بلانة أو أحد قصورها ـ ربما يرى النور في قصر إبريم، رغماً عن مسافته التى يَغْلُب إعتبارها بعيدة عن الجّبانات الملكية. إن القلعة الكبرى كانت بلا جدال مكاناً يحتل الدرجة الأولى من الأهمية، تنطق بقاياها التى تم حفرها بحياة تكاد تكون "ملوكية" في أُسلوبها بأقوى مما تظهره القلاع في أى مستوطنة معروفة أخرى في الفترة ما بعد المروية [١١٨].

على نفس المنوال، تعد الحدود الإقليمية للسيادة البلانية غير مؤكدة. لقد افتُرض دائماً أنها

بطريقة أو أخرى متضمنة في توزيع فُخار "المجموعة المجهولة" (١١٩)، علي أنه لا يوجد أساس حيوى لمثل هذا الإفتراض. إن شبكات التجارة في الأزمان التاريخية تجاهلت باستمرار التخوم السياسية، وقد أوردنا أمثلةً وافرة في التاريخ السابق للنوبة نفسها. ومع أن البّينة عليها غير مباشرة، فإن النصوص التاريخية لفترة ما بعد المّروية توحى بأن حدود سيادة بلانة تضاربت في الحقيقة وفقاً للسلطة والحظوظ التى تمتع بها الأفراد الحاكمين. وفى الشمال النائى للنوبة، لم تنشأ سيطرةٌ فاعلة حتى تم الإخضاع لعدوٍ مضنٍ (انظر "إشكالية النصوص التاريخية"، أدناه).

لابد من تكرار القول أن قبور بلانة وقسطل هى البقايا الوحيدة من النوبة ما بعد الفترة المّروية التى تحمل إقتراحاً بسلطة ملكية. في قصر إبريم، وجُمّى، وفركة، مع ذلك، تجمعات بين القبور كانت تبدو في حجمها، وتعقيدها، وثروة قرابينها، وسيطةً لما بين القبور الملكية وقبور المواطنين العاديين (١٢٠). يكاد مُستيقناً أنها تمثل طبقاتٍ لنبلاء محليين أُولى بأس. إن تجمع قبورهم على مدى أجيال متعاقبة يحمل على الإعتقاد بأن قوتهم كانت وراثية، من ثم مستقلةً في جزء منها على الأقل عن قوة الملك. وسواء كانوا ولاةً لملك بلانة، أم أنهم حكموا عموديات مستقلة صغيرة، فربما لا نعلم حقيقته أبداً. وقد عَثر على رسالةٍ في قصر إبريم في ١٩٧٦ تلهم بالإحتمال القائل أنه، على الاقل لوقتٍ ما، كان هنالك ملكان صغيران أو ما يزيد على ذلك يحكمان في وقت واحد أجزاء مختلفة من وادي النيل (انظر "إشكالية النصوص التاريخية"، فيما سيلى). إنها كما يتفرس تريقر "أطلال لكم من الأُسرات التى ناضلت من أجل السلطة في هذا الزمن، ترقد مدفونةً تحت مياه بحيرة ناصر" (١٢١).

المعتقدات والديانة في العهد ما بعد المّروى

إبان عصور الأُسرات، ليس في النوبة وحدها بل في العالم القديم كله، كانت الكنيسة والدولة شيئاً واحداً متماثلاً؛ وعلى نفس الوتيرة كانت الأيدولوجية السياسية غير منفصلةٍ عن الديانة الرسمية. لقد قامت المؤسسات الدينية المعقدة في القدم لتحفظ النظام بين الإنسان وأخيه الإنسان بقدر ما حافظت على النظام بين الإنسان والآلهة. وعندما نهض التحزب السياسى، أذاب نفسه في أتون صراع للسيطرة على المؤسسة الدينية. صعدت أُسرات جديدة عندما استولت شيع متمردة فيما بين الدولة علًى رموز القداسة؛ وقامت دول وريثة عندما قبضت على زمام الأمور جماعات خارجية أقل حضارة. كدولة وريثة لمصر الفرعونية، قدمت إمبراطورية كوش لألف عام نموذجاً مأثوراً للمجتمع السياسى الإمبريالى القديم. إن ملكاً مقدساً كان يُدّعم سياسياً من جانب عُصّبة كهنوتية تحكم فساداً وأنانية، ويؤازر أيدولوجيا بتشكيلةٍ معقدة من الرموز المُبالِغة - أثّرية، وفنية، وغيبيةً، وطقوسية .

لقد شدد امرى وكيروان، اللذان اكتشفا سوياً قبور بلانة تأكيداً عظيماً على الرمزية الطقوسية لتيجان بلانة أنها تتضمن تواصلاً أيدولوجياً بين الملكيات المّروية وما بعد المّروية (١٢٢). وما من شك بمستطاع إلا قليلاً أن هؤلاء الملوك الذين لا توجد أسماء لهم في العصر المظلم ما بعد المّروى قد أسسوا بالفعل مطلبهم للحكم على قوائم نفس التفويض الإلهى كما فعل أسلافهم المّرويون والنّبتيون؛ إلى ذلك المدى لابد أن مملكة بلانة تم التسليم بها كدولة وريثة لكوش (ولا يشترط بالضرورة أن تكون الدولة الوريثة الوحيدة). إلا أنه مما هو حقيقى أيضاً مع ذلك ان المتناسقات الأيدولوجية بين الفترات المّروية والبلانية تكاد أن تكون منحصرةً في التيجان الملكية وجوانب أخرى معينة من الممارسة الجنائزية الملكية. فإذا نُظر إليها برؤيةٍ أوسع، فإن أوجه التباعد الأيدولوجى بين الفترتين لهى أشمل تعدداً وأقوى ظهوراً بدرجة عالية مما يكتنف الأوجه المتناسقة.

تحت الإمبراطورية الكوشية، كان القبر الملكى واحداً وحسب من تعابير رمزيةٍ عديدة للسلطة السياسية. المعابد، والقصور، وفن النقش، والألواح المنحوتة، والتقاليد والأساطير التاريخية،

والطقوس المعقدة عبرت عن هيبة الدولة ودعمتها كذلك، بما لا يقل عن تمجيدها لآلهة الدولة. ما من واحدٍ من هذه التعابير يمكن التعرف عليه بشكل محدد في البقايا الأثرية لثقافة بلانة. إن غياب أي نوع من معمار الصروح واحد من أشد الملامح بروزاً ومجلبةً للعجب في النوبة ما بعد المَروية؛ إختفاؤها يعني بالضرورة أيضاً نهاية الزخرف الصروحي. البنايات الوحيدة المشتقة من الحَجر التي يمكن أن تعرف بالتأكيد ضمن فترة بلانة هي مداخل الأبواب إلى بعض الغرف الجنائزية الملكية [١٢٣]. العتبة الفوقية في واحدٍ منها على الأقل كانت مزدانة بأشكال لأوريوس المجنّح جانبية المنظر [١٢٤]، على أن التمثل والحفر النّحتي مَرويين بطريقة مألوفة للغاية بما يوقظ فكرة أن الكتلة البنائية سبقت أزالتها من معبد أقدم عمراً .

المتمثلات المدركة الوحيدة للعبادات في فترة بلانة تجئ أيضاً من المدافن الملكية. إن الأعظم شأناً بينها شخوص حورس، وإيزيس و (ربما) أمون التي تظهر على التيجان الملكية؛ كانت هذه المعبودات دون شك من بين محروسات العائلة المالكة [١٢٥]. تبدو بضعة معبودات مصرية تقليدية أخرى أو الأشكال الملكية كأمزجةٍ غالبة على بعض البسة الراس، والسروج والصناديق المطهّمة الموجودة في الجبّانات الملكية [١٢٦]، لكن اهميتها ربما كانت زينةً أكثر منها أيدولوجية. نفس الشئ لابد أنه يسري بالتأكيد على المعبودات الإغريقية ـ الرومانية الوثنية التي تزين أشكالها كثيراً من أواني البرونز والفضة التي وجدت في القبور [١٢٧]. فمثل الحكام الأشمونيين بفارس في أزمان سلفت يبدو ملوك بلانة كأنهم تعهدوا بالرعاية تذوقاً للفن الإغريقي، بيد أنه ما من دليل انهم كانوا يُجلون ألهة الإغريق .

لعل فن الكتابة لم يندثر جملةً واحدة في نهاية الفترة المَروية. لقد وُجدت شقوق من الرسم الكتابي المَروي في البردي بأكداس النفاية ما بعد المَروية في قصر إبريم [١٢٨]، والمح قريفيث إلى أن رسالتين بالأبجدية النوبية القديمة (التي كانت قيد الإستعمال في القرن الثامن) يبدو أنها أخذت من مسبوقات مَروية [١٢٩]. غير أن بيّنة الكتابة شحيحة خلال فترة بلانة. ما وُجدت ألواحاً ولا كسور فخار ملون في مواقع المساكن والقبور عدا نقش تذكاري مفرد يمكن دون شك إثباته للفترة بأجمعها بين نهاية الحكم المَروي ومقدم المسيحية للنوبة. لقد كان مكتوباً على حائط معبد كلابشة الذي يفوقها قدماً بمراحل، فيما يبدو من القرن الخامس المتأخر أو بواكر السادس [١٣٠]، ويفصل الإنجازات العسكرية لملكٍ بعينه يُدعى سلكو [١٣١]. أما النص الحرفي فكان إغريقية ممعنةً في قلة الصقل فُكِرَ أنها من عمل كاتب مسيحي، إذ أن مرجعها الوحيد للمعبودات جاءت بعبارة "الإله مَنّحَنى النصر" [١٣٢]. لسوف يذكر الكثير عن هذا وغيره من مدونات نَصية لفترة بلانة في صفحات لاحقة (أنظر "إشكالية النصوص التاريخية"). الإعلان العسكري لسلكو يبين أن الكتابة لا تزال قادرةً على دفع مصالح الدولة في الفترة ما بعد المَروية سوى أنه في عصر يكاد يكون أمياً لابد أن أهميتها أضحت بالضرورة ضئيلة. الواضح أن ملوك بلانة لم يواصل إنشاؤهم الكتابي خدمتهم طويلاً؛ فقد تحتم على سلكو أن يستعير نظام الكتابة الذي كان جارياً وقتها في مصر .

إن إختفاء غلبةٍ من الفنون السامية للحضارة في النوبة ما بعد المَروية يمكن، وفي بعض الأحيان أمكن بالفعل، أن يُعزى إلى الفقر البسيط والتحلل الثقافي [١٣٣]. فالإنكماش الذي وقع بتجارة العالم عقب تفتت الإمبراطورية الرومانية كان له بالتأكيد أثره على حظوظ النوبة؛ عُكِس ذلك في الندرة النسبية للسلع المستوردة بين عامة الناس، في إنحطاط حضرية المجتمع البادية، وفي إختفاء طبقة وسطى بارزة. غير أن الملوك المدفونين في بلانة وقسطل ما كانوا بمرأى صاف. فلئن كانت الخزانة الملكية لم تعد قادرةً على إقامة صروح بالصخر المقطوع، لا يزال حقاً أن المدافن التّلية العظيمة في بلانة وقسطل، بأقبيتها السُفلية المركّبة، تمثل بذلا بدرجةٍ أعظم من العمل والإنفاق وأعتى مما تمثل أهرامات الطوب الأخيرة في مَروي. أما التغيير في شكل الهياكل الفوقية للمدافن الملكية فيكفي

شرحه بافتراض مؤداه أن الهرم توقف عن أن يكون رمزاً ذا معنى، كما اقترح تريقر (١٣٤).

وجوه جمة لثقافة بلانة ومجتمعها، مثل إحلال المدفن التلّي محل الأهرامات، لا تفترض تحللاً ثقافيا بمستوىً بالغ يعادل الرفض المتعمد للتقليد المّروى. في ضوء ذلك، لابد أن يُرى مؤكداً الغياب الكامل للمعابد والقصور. إن الملوك الذين شيدوا مدافن بلانة إمتلكوا بلا جدال الثروة والخبرة الضروريين لبناء هياكل عامة متواضعة نسبياً من النوع الذى ازدانت به المستوطنات التى تقف في جبل عدّا (١٣٥)، ومينارتى (١٣٦)، وربما بوهين (١٣٧)، وقد هُجر المعبد النّبتى القديم والمّروى في قصر إبريم وملئ جزءُ منه بالنفاية (١٣٨). بل إنه حتى في ترتيب غرف قبورهم السُفلية يبدو بشكل بارز أن ملوك بلانة تجنبوا بوعى قالب المعبد المّروى، الذى كان يعاد إخراجه دائماً في المعابد الملكية الكوشية الأولى (قارن الفصل الحادى عشر). أخيراً، يصعب الإرتياب بأن ملوك بلانة كان بمقدورهم أن يحتفظوا بإنشاء كتابى وفنى بالإنفاق الملكى إن كان متفقاً مع أغراضهم؛ بل إن إخفاقهم في القيام بهذا لابد أن يجرى تأويله كإنعكاس لعدم الإكتراث أو الجفاء بأرجح مما يُعد عجزاً.

إجمالاً، ربما يتضح أن حكام الأزمان البلانية إستعادوا التقاليد الملكية لكوش القديمة في حين تخلوا أو كبتوا أى شئ مصاحباً بتقاليد كهنوتية. تركيب السلطة المعقد والمتمايز في الأزمان الكوشية الذى (كما شاهدنا في الفصل العاشر) كان في بعض الأحيان مصدراً للنزاع بين الدولة، يبدو أنه أقُتلع من أساسه تحبيذاً لعودة الحكم الفردى. مرة أخرى، تصب كل أيدولوجية الدولة تركيزها على شخص الملك الإلهى، فأصبح مدفنه تعبيرها الرمزى الرئيس وربما الوحيد. بعد ٢,٠٠٠ عام عادت حضارة كوش الأسرية إلى نقطة أصلها ؛ لقد نكصت على عقبيها من إمبراطورية إلى زعامةٍ مطلقة السلطان.

المتوازيات المتعددة في صراحة بين ثقافتى كرمة وبلانة، على التوالى في مطلع عصر أُسرات النوبة ونهايته، ربما تعكس شيئاً يفوق المصادفة التاريخية. إن التواصل الوثيق ليس في الشكل وحده إنما كذلك في الحجم بين أكبر المدافن الملكية في بلانة وقريناتها في كرمة، وبنفس القدر في تغطية المدفن التّلى بطبقةٍ من الحصا البيض مُبتدراً الإحياء المتعمد لرمز قديم للسلطة الملكية، تماماً كما أحيا الحكام النوبيون الأوائل من قبل ١,٢٠٠ عاماً شكل الهرم الذى انطمر زمناً طويلاً في مدافنهم الملكية الخاصة (قارن الفصل العاشر).

من الممكن أن القبر ذا التّل الترابى بدثاره، حجراً كان أم حصا، بقى مستعملاً منذ ازمان كرمة في غرب السودان، وإن إعادة إدخاله في وادى النيل في الفترة ما بعد المّروية راجعة إلى أثر المهاجرين (انظر بخاصة "التاريخ ما بعد المروى في الجنوب"، بأدناه) مع ذلك، جدير بالتذكر أن حركات العود للقديم شّخصته المراحل الأخيرة لحضارات غفيرة (١٣٩). وعندما يصبح الثقل المتراكم من التقاليد عبئاً تنوء به إدارة شؤون الحياة اليومية، يصير من الضرورى أن يُبسُط، إما برفض الجديد أو بنبذ القديم. هكذا الأيدولوجيات، سياسية أو دينية على حد سواء، يضطرم إوارها على الدوام من قبل حركات تخليصية، وقومية، مستعيدةً للقديم من جهة، ومن طرف حركات تحديثية من جهة أخرى. في المعتاد أغلب الأحيان تسبق الأولى فتفسح الطريق للثانية. وكما سندرك في الفصل التالى، كان هذا هو تعاقب التطورات في النوبة - كما كان ديدناً خلال اكثريةٍ من العالم القديم - في الألفية الأولى الميلادية. إن حضارة بلانة المستعيدة لخطى القديم، والتى تظهر للوهلة الأولى مثل خطوةٍ للخلف صوب العصر القبلى، هيأت السبيل بحق لكل من المسيحية والإسلام. العوامل المحددة التى جاءت بهذه الأيدولوجية الإنتقالية الغريبة إلى الوجود في العصر ما بعد المّروى ستناقش بتفصيل أوفى لاحقاً (انظر "إشكالية النصوص التاريخية").

تبدو الديانة الخاصة في النوبة وكأنها ما أصابها سوى أثر قليل من التغيرات الأيدولوجية للفترة ما بعد المّروية. وكما هى دائماً، ظلت الطقوس الجنائزية بؤرة رئيسة للنشاط الدينى. التغيرات التى

لحقت بممارسة دفن الجنائز التى احتلت مكاناً في ازمان بلانة لم تكن ذات نسق رئيس، وقد أثّرت بالدرجة الأولى على الأرض الفوقية والملامح الخارجية للقبر. أما تبنى مدفن تلّي منَ التراب في مكان أهرام مِن الطوب فربما كان تطلعاً نحو التساوى بتقليد ممارسة أُنشئت سلفاً في الجنوب في أزمان مّروية متأخرة (١٤٠)، أو ربما ألهب طموحها بمستوىً أشد مباشرةً نموذج المدافن الملكية. إختفاء مناضد القرابين، وتماثيل *با*، واللوحات الجنائزية كلها بالطبع متصلة بإختفاء صنعة الكهنوت. وفي أسفل الأرض، من الناحية الأخرى، بقى ترتيب الغرف الجنائزية، وأجساد الموتى، والقرابين متماثلاً لمدىً بعيد كما في أزمان سابقة .

وجه آخر للديانة الخاصة إنتُقل به من أزمان مّروية إلى بلانة كان عبادة إيزيس في فيلة (قارن الفصل الثانى عشّر). أهميته المتواصلة مُثبتة بنصوص تاريخية متعددة من مصر، وسيُناقش بعضها لاحقاً في محتوى آخر. من هذه المصادر نتعلم أن عبادة إيزيس كانت مصونة، لمنفعة معتنقيها المخلصين، النوبيين، ردحاً طويلاً بعد أن صارت مصر إلي المسيحية رسمياً (بما في ذلك فيلة نفسها). إن مرسوم ثيودوسيوس الأول (٣٩٠م)، الذى قضى بإغلاق كل المعابد الوثنية في كافة أرجاء الإمبراطورية، لم ينفذ في فيلة (١٤١)، وبدا أن مساعى جرت مؤخراً لكبت عبادة إيزيس أثارت إشتباكات مسلحة بين نوبيين ومصريين. أخيراً، في ٤٥٣ ميلادية، وُقعت معاهدة سلمت بحقوق الديانة التقليدية للنوبيين في فيلة. طبقاً للمؤرخ بريسكوس "... سوف يكون لهم وفقاً للعادة المألوفة عبور حر لمعبد إيزيس. ويكون لزاماً على المصريين مسؤولية القارب النهرى لأخذ تمثال الإلهة، لأن متخلفى الحضارة في فترة معينة أخذوا التمثال لأرضهم الخاصة، وبعد أن استعملوه لغرض إفتاء دينى، أعادوه إلى الجزيرة. لأن مناسباً لماكسيمنيوس (الفصل الرومانى في مصر) أن يبرم المعاهدة في معبد فيلة" (١٤٢). ظلت هذه الإتفاقية نافذة المفعول لحوالى مائة عام، حتى أُغلقت المعابد الوثنية واحدة في زمن جستنيان (١٤٣).

لقد عُثر على رموز مختلفة يُعتقد أنها مصاحبة لتقديس - إيزيس في المدافن الملكية وفى جبّانات أخرى من فترة بلانة (١٤٤). من الموحيات أيضاً دُمى فّخارية أنثوية، حوالى خمس بوصات في علوها عموماً، وُجدت في مواقع سكنية بلانية متعددة، بالرغم من أن شيئاً منها لم يعثر عليه في قبر بعد. إن التطويع الجامد للشكل، بلباس رأسها دقيق التفاصيل، ويديها المرفوعتين، والميدالية المرسومة على الجبهة، والميدالية المتدلية على الصدر، تُلهم بنوع ما من تمثيل الكهانة، مع انها ليست مدركةً على الفور كأى عبادة معروفة (١٤٥). ويجب الإقرار بأن الشكل ذا الملبس المهيب الذى يكاد لا يتخذ وجهاً معيناً، لا يمثل الشكل التقليدى لإيزيس، فربما أنها في الحقيقة بعض معبودات البيوت مثل قستا. بعض الأشكال مصنوعة من طين صلب لامع مائل للإحمرار يجعل منها بلا خطأ منتوجات من أسوان (أنظر الفصل الثانى عشر)؛ تبدو أخرى صُنعاً نوبياً. مع ذلك، فإنها حقيقة تثير الإستطلاع أن أياً من هذه الأشكال لم يُعثر عليه في موقع مصرى؛ فكل الأصناف المعروفة مؤكدة النسب تجئ من النوبة. وبما أنها فيما يمكن الأخذ به تمائم وثنية، يبدو معقولاً أن يُفترض أن المصنوع منها في مصر كان صنعه صراحةً من أجل التجارة النوبية .

بمنوال ما يمكن توقعه، يبدو نفوذ المسيحية ظاهراً في تزايد أواخر فترة بلانة. لقد جُلبت فوانيس للإبتهال حاملة أسماء قديسين وشعارات مسيحية واستُعملت في بيوت نوبية، صُنعت على غرارها مُقلّدات محلية، ورسوم تصويرية للصليب محفورة على أوانى فّخارية أخرى (١٤٦). إن شيئاً من ذلك لا يعنى بالضرورة أن أى نوبى في فترة بلانة إنتهج الإيمان الجديد نشطاً؛ إنها تعنى فحسب أن الصليب ورموز مسيحية أخرى أضحت الآن جزءاً من ديانة الدولة في مصر وإنها تكتسب جذباً وجدانياً معيناً وسط النوبيين بالمثل. وكما تمعن كيروان جيداً:

ما من فواصل محكمة الإنسداد ... إنشطرت بها أديان القدم، وفى مصر وُجدت معتقدات وممارسات وثنية

بما في ذلك ... عملية التحنيط مسيحيين، مخلوطةً في مزيج غريب ومحير. إن الإكتشافات التي أُجريت في القبر ٢ في بلانة ربما تُبين بجلاء معتقدات متعايشة مماثلة أو خرافات بين النوبيين الأقل حضارةً. في إحدى غرف الجنائز كان يرقد إلى جانب بعضهم البعض صليب ذهبي، وجعران، وأربعة قطع ملفوفةٍ من معدن. لقد برهنت قطعة الذهب على أنها *اجاجة*، تميمة للحب في إغريق الفاسقة، تتضرع لإيزيس. وكانت القطع الباقية مصنوعة من الرصاص وربما كانت مكتوبة كذلك، لكنها لا يمكن أن تُبْسط. إن تمائم من هذا القبيل، من الذهب إذا كانت صالحة، ومن الرصاص إذا كانت شريرة، كانت تُلبس في حجاب صغير يُعقّد من العنق. محتمل أن المواد الأربع كانت كلها في مرة من المرات مُودعة في حجابٍ كهذا، مانحةً تأسيناً كافياً للأحياء والأموات (١٤٧).

بين التيارات الأيدولوجية التى كانت في الخارج أثناء النوبة ما بعد المّروية، يجب أن يقام بعض الذكر لعشق العنب. وسواء كان تقليداً باخوسياً عالى التطوير أم لم يكن فذلك أمر غير جازم، لكن البقايا الأثّرية لا تترك شكاً فيما يتعلق بالإستهلاك الثقيل للنبيذ في أزمان بلانة. لقد كانت الحانات و/أو أقبية النبيذ وجوهاً بارزة لمستوطنات مثل سيالة، وقصر إبريم، ومينارتى (قارن الفصل الثانى عشر) (١٤٨). وكانت كميات الآنية الإغريقية [الأمفورة] وأباريق الشرب المكسرة التى تكسست بين هذه الميانى وحولها باعثةً على الدهشة. يمكن إضافة أن النفاية المترسبة لم توجد بالحانات وحدها لإنها في كافة مستويات الإقامة في بلانة وقصر إبريم ومينارتى لا تقل شيئاً عن كونها هائلة: الخرائب الباقية من هذه الفترة التى تمتد لمائتى عام تقدم تعليلاً لما يقارب ثلث المترسب الكلى في مينارتى (١٤٩)، وما يبلغ النصف من المترسبات في قصر إبريم (١٥٠). في كلا الموقعين كانت المساكن في فترة بلانة مملوءةً بمعنى الكلمة من الأرضية إلى السقف بكل نوع من فضلات الإقامة : روثا، وعُشبا، وفضلات من الطعام، ومعدات وأواني مكسورة أُستغنى عنها، إضافةً إلى أعداد وفيرة من أوانى فَخارية كاملة يبدو أنها كانت قد قذف بها أرضاً بلا اكتراث. هذه الأحوال لا تعكس ببساطةٍ تحويل المبانى من مساكن مأهولة إلى نفايات منبوذة، إذ أنها أُعيدت أرضياتها واستُعيدت الإقامة بها من فترة لأخرى من فوق الفضلات المتراكمة. في حالات كثيرة كان ضرورياً أن تُعلى الجدران بسبب عمق المادة المتراكمة بينها. وفى حين أن علاقة سببية لا يمكن بالطبع أن تستبان، من المغرى أن تُرى علاقةً واصلة بين عاداتٍ لمعيشةٍ غير آبهة بالنظافة وبين الشرب الثقيل لأزمان ما بعد مَروى، لربما يُربط ما بين الاثنين وما بين الصدأ الذى أصاب أيدولوجياتٍ أشد إلهاماً .

بقى على قيد الحياة قليل جداً من النفوذ المّروى أو القديم بالنسبة للفنون الدنيوية في فترة بلانة. إن الفَخار ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، كان على تبعية كلية لقواعد ورسوم رومانية وبيزنطية، حيث اختفى التقليد المفضل للأزمان المروية دونما أثّر. أما الملوك أنفسهم، رغماً عن البساطة القديمة لمدافنهم التّلية، فقد أظهروا تذوقاً مشهوداً للفن الإغريقى ـ الرومانى في إختيارهم للمواد التي تدفن معهم. هذا المركب الأيدولوجى، الذى يطالع في الحال رجعاتٍ إلى الخلف وخطواتٍ إلى الأمام، خاصيةً في كل مكان للعصر غير المستقر بين نهاية حضارةٍ قديمة والبدايات الجديدة التى تمثلها المسيحية والإسلام. إن الموقف في النوبة عند هذه النقطة الحرجة في التاريخ أوجزه مثالاً كيروان كما يلى:

مقدسين للآلهة المّروية القديمة وما فتئوا يمارسون أضاحى الطقوس الوحشية التى مارسها أسلافهم، أقام الملوك النوبيون ... في تباهٍ بتيجانهم المجوهرة والفضية، دولةً على النموذج البيزنطى، مستخدمين الإغريقية على أنها لغتهم المكتوبة، مستوردين لمصنوعات الفن من مشاغل الاسكندرية وانطاكية، ومؤخراً بدخول المسيحية مقلدين لدرجةٍ تكاد تبلغ تقليداً أعمي الإحتفال التفصيلى للبلاط الملكى البيزنطى (١٥١).

إشكالية النصوص التاريخية

إثنا عشر وثيقة تاريخية جرداء تشير صراحةً إلى النوبة والنوبيين في العصر ما بعد المّروى

[١٥٢]. إنها بإستثناء واحد أو إستثنائين، أعمال لمصريين، وإغريق، ورومان؛ معظمها يحوى إشارةً عابرة وأحياناً غامضة لا غير للأحداث في الأراضي الجنوبية. كمجموعة، تكتظ النصوص بتناقضاتٍ وخفايا مبهمة، من المستحيل أن يجرى التوفيق بينها بشكل مطلق أو فيما بينها وبين السجل الأثَرى. إن تعليقاً موسعاً عن المدونات التاريخية ما بعد المَروية سوف لا يكون له محل في الصفحات الحاضرة؛ سأقنع هنا بتلخيص محتواها بأوجز كلمات، وأن أشير إلى حلٍ ممكن لبعض المشكلات التى تثيرها، لا يشملها كلها .

لا يقدم كُتّاب الأزمان القديمة في مراحلها المتأخرة ذكراً لمروى أو كوش؛ إنهم يتحدثون بدلاً من ذلك عن شعبين نوبيين في النوبة السفلى، البلميين والنوباديين، الذين لم نسمع عنهم من قبل. بالتقريب يتفق كل الأساتذة المحدثين على تعريف البلميين بقبائل البجا اليوم والمدجو أو مدجاى القدم (قارن الفصل السابع) - بدو تلال البحر الأحمر الذين يعاودون الظهور في فترات زمنية طوال التاريخ النوبى [١٥٣]. أما أصول النوباديين فهي أعقد إشكالية، وقد اشتقها كتاب مختلفون من النوبة العليا [١٥٤]، وغرب السودان [١٥٥]، ومن ليبيا أو حتى شمال غرب إفريقيا [١٥٦]. وطبقاً لمؤرخ القرن السادس بروكبيوس [١٥٧] (الذى كتب طويلاً بعد الحدث)، جاءوا إلى النوبة السُفلى بدعوة من الإمبراطور ديو كلتيان [ديوقليتانس]، الذى كان يأمل أنهم سيكونون منطقةً عازلة بين مصر الرومانية والبلميين المحاربين [١٥٨].

بتفهم كافٍ، صرف دارسوا التاريخ ما بعد المَروى إهتمامهم الرئيس في مساعٍ لتعريف ثقافة بلانة ومملكتها مقرونةً بالبلميين أو بالنوباديين. فكلا الجماعتَان لهما أتباع [١٥٩]، عُلى أنه يتحتم الإقرار بأن إرجاع ثقافة بلانة بشكل مطلق لأى أناسٍ بمفردهم تُثير إشكالات تفوق ما تعالجه. إن جواً معَيناً من مجافاة الواقع يُحيط بكل مجادلة بالبلميين والنوباديين، ذلك أنها تتجاهل تجاهلاً كبيراً السؤال الذى يتعلق بما حدث للسكان المَرويين المنَعمين الذين عاشوا في رخاءٍ بنفس المنطقة منذ وقت قصير. إن الواحد يجوز أن يفكر أن الشعبين قد أخبرا بظهورهما وحاربا معاركهما على مسرحٍ خال [١٦٠]، بالرغم من أننا نعلم من السجل الأثَرى أن هذا كان بعيداً عن الصحة .

لعلنا إذَن، نوجز لغز النوبة ما بعد مَروى بملاحظةٍ مُتفحصة مؤداها أن المؤرخين ينبئون عن شعبين، البلميين والنوباديين، في حين تكشف الآثار عن ثقافةٍ واحدة؛ علاوةً على ذلك، يتركنا كل من التاريخ والآثار في جهل عن مصير المَرويين السابقين سكاناً وثقافة.

فى الوقت الراهن، أغلب حل محتمل للمشكلة (أو بالأرجح الأقل إستحالةً في الحدوث) هو أن تعرُف ثقافة بلانة وملكيتها بصفة أساسية مع النوباديين، وفى نفس الوقت يُسَلم بأن هؤلاء يحتمل أن يكونوا هم السكان المرويين السابقين في النوبة السُفلى كمرحلةٍ متأخرة من التطور، تحت إسم جديد. بهذه الطريقة، لا نظل ملزمين بالإعتقاد بـ "هجرة نوبادية" واسعة النطاق في الفترة ما بعد المَروية [١٦١] - وهو حدث لا تقدم له الآثار أى إثباتٍ حقيقى - ونملك إيضاحاً جاهزاً للمتناسقات الثقافية بين الفترات المَروية والبلانية. يمكننا كذلك أن ندرك أنه من قبل قرن أو قرنين فحسب وقعت بالفعل هجرة جماعية كبيرة للنوبة السُفلى: "الإندفاع نحو الأرض" في الأزمان المَروية المتأخرة التى أعقبت إدخال ساقية الرى (قارن الفصل الثانى عشر). في هذه الهجرة الباكرة، إن وقعت بأى مكان، يوجد المحل المنطقى للنظر إلى مقدم النوباديين وبالمصادفة تقديم الحديث النوبى إلى الإقليم حيث يوجد في الوقت الحاضر [١٦٢]. لربما جاء القادمون الجدد من مكانٍ ما غرب السودان حيث لا تزال هنالك "جُزراً" من الحديث النوبى حيةً باقية [١٦٣]، أو لعلهم حضروا من المقاطعات النهرية صوب منبع النهر، حيث توجد بَينة هناك أيضاً على وجود متحدثين نوبيين في أزمانٍ مبكرة للغاية [١٦٤]. أى حالة كانت، فقد جلبوا معهم للنوبة السُفلى اللغة التى كان عليها أن تتطور إلى اللهجات النوبية الحاضرة اليوم (قارن الفصل الثالث). بوصولهم للشمال، أصبحوا رعايا للصفوة الحاكمة الناطقة بالمَروية التى

كانت تحتل المنطقة آنفاً لأهداف إستراتيجية، هكذا حتى نهاية الإمبراطورية الكوشية بقيت المَروية لغةً للحكومة والطقوس، واللغة الوحيدة المكتوبة، مع أنها ربما لم تكن مفهومةً للدهماء متحدثى النوبادية .

لماذا، إن كانوا قد بلغوا النوبة السُفلى في الأزمان المَروية، لا نسمع أبداً عن النوباديين بمثل ما سمعنا قبل القرن الخامس؛ [١٦٥] إن الإجابة يجب أن تكون أن نوبادياً كمصطلح عرقى ولُغوى لم يكن لها، في مبدأ الأمر، مدلول سياسي. ولما أضحى المهاجرون، بعد وصولهم إلى النيل، رعايا لإمبراطورية كوش ومحافظة آكين [١٦٦]، فإنه تحت هذه الأسماء أياً ما كانت لم نسمع عنهم في أزمان مَروية. ما كان إلا من بعد إنكسار إمبراطورية كوش، عندما ظهر النوبيون في النوبة السُفلى كقوةٍ سياسية مستقلة، أن المؤرخ اصبح ملزماً لأن يطلق عليهم إسماً خاصاً بهم. اما الإسم الذى دوَّنه المؤرخ فيفترض أنه الإسم الذى دعوا أنفسهم به دائماً. وبعد حين قليلٍ أضحى إسماً رسمياً لأول مملكةٍ مسيحية، نوبادياً .

لكيما تدفع المسألة خطوةً إلى الأمام، أظن أنه من ناحية مرتعهم الأصلى كان هؤلاء الناس بدواً أقل حضارةً. أذعنوا، عندما وصلوا النيل، ربما على مضض، لسلطة كوش التى كان يمثلها موظفون رسميون وحاميات سبق إنشاؤها في النوبة السُفلى. مثل البدو في كل مكان، تبّنوا سراعاً الفنون الأليفة والتقاليد الاستعمالية لسكان الوادى المقيمين، إلى الحد الذى صارت فيه مساكنهم وقبورهم غير مميزةٍ عن مساكن البروليتاريا المَروية وقبورها في أى جزءٍ من أنحاء الإمبراطورية. مثل البدو ايضاً، مع ذلك، ربما أنهم عاينوا بالريبة أو بالعداء العلنى الصريح الجوانب التي كانت أشد تعقيداً أو صَفوية للحضارة الكوشية. من ناحيتها أظهرت الدولة المَروية إهتماماً قليلاً ببث التعليم الأيدولوجى لرعاياها الجُدد، فكانت قنوعة بالتعبير عن سلطانها في الشمال بمعانٍ دنيوية أساساً (قارن الفصل الثانى عشر). هكذا، لما تداعت الإمبراطورية الكوشية، لم يبذل النوبيون في النوبة السُفلى جهداً ليُبقوا على الحياة تقاليدها الكتابية، والفنية، أو الأيدولوجية. إنما أطاحوا بقدرٍ واسع أو كُليةً بالكتابة المَروية، وفن الصياغة نحتاً أو نقشاً، ومعمار الصُروح، ومراسم الدولة، وكل شئ يحتمل أنه اقترن في أذهانهم بكهنوت بالٍ وطاغوت .

من العناصر التى كُونت ذات مرة "التقليد العظيم" لكوش [١٦٧] أُبقى على مؤسسة الملكية المقدسة وبعضاً من شعاراتها الرمزية فحسب. بل إن حكام بلانة في مقابرهم الملكية، مع ذلك، نبذوا بعض تقاليد كوش الدهرية. وبهذه الطريقة أضحى النوباديون بحق مسؤولين عن الإندثار النهائى لكثرةٍ عظيمة من الفنون السامية للحضارة، وإن لم يجرَ ذلك بالطريقة المرئية والمزلزلة التى تُنسب إليهم أحياناً [١٦٨]. إن طريقتهم كانت ببساطةٍ دولة وريثةً أقل حضارة ذات ملامح بدائية بشكل إستثنائى [١٦٩].

مَنْ كان ملوك بلانة؟ بينما كانت كتلة السكان النوبيين في النوبة السُفلى في الأزمان البلانية متحدرةً بما يشبه اليقين من سكان أزمان مَروية، فإن إمكانية أن الحكام أنفسهم يمثّلون موجةً مندفعة جديدة من الهجرة إلى الجنوب أو الجنوب الغربى لا يمكن أن تستبعد كلية. وبالنظر إلى ما أخبرنا به للتو حول النبذ الأيدولوجي، يصعب علينا أن نفترض أنهم سليلة الصفوة الحاكمة القديمة للأزمان المَروية. لربما أنهم إنبعثوا من بين صفوف السكان النوباديين الذين سبقت إقامتهم في الشمال، ولكن في مثل تلك الحالة يجدر بنا أن نتوقع وجود تواصلٍ أيدولوجى وثقافى أقوى تناسقاً بين الفترات المَروية وما بعد المَروية مما عليه الحال بالفعل. على الإجمال، يبدو المفهوم القائل بأن حكام بلانة يمثلون صفوة أقل حضارةً وصلت حديثاً (وربما أنها أسدت ضربة *قاضية للنظام الشائخ* في الشمال) أفضل تحليل لكلٍ من التغييرات السريعة التى حدثت بالنسبة للطقوس الجنائزية التى قاموا بإدخالها وللملامح شديدة "الزنوجة" التى ظلت منسوبةً إليهم دائماً [١٧٠]. إلى ذلك المدى ربما أمكننا أن نواصل تسليمنا ببعض الصحة في فرضية "غزوة المجموعة المجهولة" القديمة .

يبقى دور البلميين موضعاً للإعتبار. إن هؤلاء المتأصلين في تلال البحر الأحمر، الممتلكين جدّة الجمَال والمقدرة العسكرية السائرة معها، يبدو أنهم أسسوا موطأ قدم لهم في الدوديكاسخيون حتى في ظل الحكم الروماني. في النهاية كانت غاراتهم الناهبة وعجز الرومان عن إحتوائها، هي التي نتج عنها التخلي عن المحافظة النائية وإنسحاب التخوم الإمبريالية إلى أسوان في عهد ديوكلتيان. تُرك البلميين في إمتلاك لا شريك فيه لأنأى مقاطعة للنوبة في الشمال حيث كان واضحاً أن جماعات منهم إستقرت بها واتّخذت في الحياة طريقاً للفلاحة ليس مختلفا بالضرورة عن جيرانهم النوباديين. بذا يجب إحتمالاً أن تُنسب البقايا الأثرية لثقافة بلانة للجماعتين بدلاً عن إرجاعها برمتها إلى أى واحدٍ منهما بمفرده. لقد كان النوباديون، بتشجيع من الرومان، يسنون الحرب على البلميين من وقتٍ لآخر، سوى أنه لِما يزيد عن قرن كانوا غير قادرينَ على نزعهم من مواقعهم الحصينة في الشمال. في تلك الأثناء تقاسمت جماعات من النوباديين والبلميين في بعض الأحيان قضيةً مشتركة في مواجهة عصر المسيحية حديثاً؛ إن عداءهم إستفزته فيما هو ظاهر مساعي بذلت لكبت ديانة إيزيس وإعادة تكريس معابد فيلة كنائساً. أما عندما كُفل حق الأقوام النوبية الجارى للعبادة كوثنيين في فيلة، سنة ٤٥٣ ميلادية، فقد توقفت هجوماتهم لما يزيد عن خمسين عاماً .

والى القومان النوبيان قيامهما بشن الحرب على بعضهما البعض حتى حقق سلكو، وهو ملك نوبادى معين، ربما في القرن السادس، نصراً نهائياً على خصومه. هذا الحديث موثق في نقش واحد لأزمان ما بعد مَروى يعود إلى أصلٍ نوبى لا شك فيه. وهو مكتوب بإغريقية موغلة في اللانحوية على جدران معبدٍ لكلابشة، وتُقرأ كما يلي :

أنا، الملك سلكو، ملك نوباديا وكل الأثيوبيين، ذهبت إلي تلميس وتفيس مرة. تحاربت مرتين مع البلميين ومنحنى الإله النصر. وبعد المرة الثالثة، مرةً واحدةً جامعة، قهرتهم ثانيةً وجعلت نفسى سّيدا على مدنهم. لقد أسست مُلكى هناك بقواتى لأول مرة. وقد توسلوا لى وعقدت السلم معهم. وأقسموا لى بحق آلهتهم ووثقت بقسمهم أنهم كانوا رجالاً شرفاء. ثم قفلت راجعاً إلى بلادى العليا. وعندما أصبحت ملكاً لم أتّبع ركاب ملوك آخرين لكننى [سرت] متقدماً عليهم .

أما ما يخص أولئك الذين ناهضوا معهم، فإننى لم آذن لهم بالإقامة في موطنهم الخاص مالم يُجِلُّونى ويدفعوا لى الجزية. ذلك أننى في البلاد السفلى أسدٌ ودُبٌ أنا في البلاد العليا.

لقد تحاربت مع البلميين من برم (قصر إبريم) إلى تلاليس (شلال؟) مرةً واحدة نهائية، وحاربت الآخرين جنوب نوباديا. أغرت على أراضيهم ودمرتها لأنهم تصارعوا معى .

إن سادة الأمم الأخرى الذين يتحاربون معى، لا أسمح لهم بالجلوس في الظل إنما خارجاً في الشمس، ولا يمكنهم أن يأخذوا شربة ماء في مساكنهم الخاصة؛ أما أولئك الذين يقاومونني، فإننى أقضى على نسائهم وأطفالهم (١٧١).

كانت حملات سلكو إضافةً إلى ذلك موضوعاً لرسالة مشهودة أُشهرت في قصر إبريم عام ١٩٧٦م. كُتبت بإغريقيةٍ أقل حضارةً، إما من طرف ملك النوباديا إلى ملك البلميين أو (أشد إحتمالاً) عكس ذلك. فيها يشكو الكاتب بشئ من الإسترسال من إنتهابات سلكو، ويستنجد بغوث نظيره في الملك لدرء الدّاعى. هنا دليل لا مجال للخطأ فيه على تواجد حاكم بِلّمى وآخر نوبادى في وادى النيل، كذلك تحالف، مؤقتاً على الأقل، بينهما .

اللغة إغريقية؛ والأسلوب المسترسل مبالغةٌ ممجوجة لا جدال في أنها أسلوب حكام مصر وكوش القدماء. كتابة سلكو لهذا، مثل كثير غيرها في الثقافة النوبية المعاصرة، علامة - إنتقالية، تطالع خلفاً وأماماً مرة واحدة. ولعلها كانت الأخيرة لإعلانٍ مثل ذلك يمجد النفس بلا حياء، مما أملاه ملك غربى بأى شكل من الأشكال .

كانت كتابة سلكو مصحوبة بتمثيل للملك :

... راكباً على جواد رشيق بَهّي الرداء تتدلى زينة حول عنقه ومحازاة الأرداف، يقبض في يده اليسرى على رمح دقيق للصنع، يخترق به عدوه، الذى يبدو للعيان ممرغاً في الغبار. في هذه الأثناء يحوم فوق رأسه [رمز] للنصر بجناحين، لا يُتَوجّه بغصن شرف روماني إنما بلباس رأس شديد الغرابة مصنوع من شعارات مصرية؛ قرون الإله الكبش خنثوم، وحزمة إيزيس من الذرة الشامية، وريش معات، وأورايوس الثعبان الملكى. أُلبس الملك على طراز أباطرة الروم المتأخرة درعاً قصيراً من المعدن يبلغ ركبتيه، ورداءاً رومانياً يَرِف من خارج كتفيه [١٧٢].

لعله من غير الضرورى أن يُضاف أن تاج سلكو، كما هو مضروب في كلابشة، يمثل عن قرب بعض التيجان التى وُجدت بالفعل في قبور بلانة [١٧٣].

إن عبارة "منحنى الإله النصر" فُسرت في بعض الأحيان لتعنى أن سلكو كان مسيحياً، على أن هذا كإحتمال هو أكبر دس لمكتوبٍ مسيحى (أو يهودى) قام بتوظيفه [١٧٤]. أما لباس الرأس الملكى، بمنظومته الفنية بالشعارات الفرعونية، فإنه يدل على الأرجح بأن الملك لا يزال تابعاً لبعض تقاليد كوش الدينية العريقة. مع هذا، لما يمضى وقت طويل، حتى جرى تحويل أحد خلفائه على العرش إلى المسيحية، وبلغت أسرة بلانة الوثنية الأقل حضارةً نهايتها و "بنهايتهم" يقول إمرى "تزول آخر معتقدات وتقاليد مستميتة لمصر الفرعونية" [١٧٥].

التاريخ ما بعد المّروى في الجنوب

التاريخ ما بعد المّروى للنوبة العليا، للمدى المحدود للغاية الذى يمكننا أن نستبصره فيه، يبدو أنه يعيد في قالبٍ أبعد تطرفاً قصة الإفقار الثقافى والتبسيط الأيدولوجى الذى تابعنا ملاحظته بدقة في الشمال. إن وثيقتنا التاريخية الوحيدة للفترة ما بين سقوط كوش ومقدم المسيحية هى لوح عيزانا، الذى مضت مناقشته في بداية هذا الفصل ("إضمحلال مروى وسقوطها"). هذا المنحوت يُوحى بأنه عندما بلغ الملك الأكسومى النيل، حوالى ٣٥٠م، وجد أرضى السهل التى كانت فيما مضى مّروية، في حوزة النوبا سلفاً. كان هؤلاء فيما هو مفترض النوباى الذين وصفهم اراتوستثينين وكتاب آخرين في وقت مبكر القدم على أنهم يعيشون غرب النيل [١٧٦]. إن الاسم يلهم بأنهم كانوا أقارب للنوباديين؛ ولعل القومين نبعا من أصلٍ مشترك في الغرب. في مرتعهم الجديد، ورثةً للمّرويين، أظهر النوبا استعداداً للفنون الأسمى للحضارة أقل من أبناء عمومتهم الشماليين. وفيما هو بادٍ، كما ينادى مكتوب عيزانا، كانت بيوتهم من عشب، وسرعان ما جعلوا مدن المعابد المصورات، والنقعة، ومّروى تتهاوى خراباً. إن بقاياهم الأثّرية الوحيدة المعروفة تلال تّرابية مرتفعة، مشابهة عموما لقبور ثقافة بلانة في الشمال، مبعثرةً على طول وادى النيل وعبر أراضى السهل من سنار في الجنوب إلى تنقسى في الشمال (الشكل رقم ٦٣) [١٧٧]. وفى هذه المدافن التّلية يمعن شينيك النظر:

توجد قبور بتّلال ترابية مرتفعة فوق مساحات ممتدة للغاية في أواسط السودان وشماله، لكنها ليس وفيرةً بأى مكان كما هى على الضفة الشرقية للنيل في منطقة الخرطوم، في إتجاه الشمال حتى المتمة على الأقل. إنها تقع في الغالب، في جماعاتٍ ذات أحجام متفاوتة، على بُعد مباشر من الأرض المزروعة، في أول ظهور لصحراء الحَصا. كُبرى وصُغرى (بعضها مجرد تّلة مرئية) لابد أن عددها الإجمالى بلغ الافاً عديدة. أما سطح التّلال الترابية فوق القبر فهو عادة من الحصباء، مقدماً في تماثلٍ كثيرٍ نفس مظهر الأرض المحيطة؛ لكنه حيثما توفر الحّجر بالقرب منها تُغّطى بكتلٍ صغيرة. من ناحية التسلسل الزمنى، يحدد زمنها تلك الفترة، التى لا يعرف عنها إلا القليل، مباشرة من بعد إختفاء المملكة المّروية. تصبح القبور بذلك معاصرةً لثقافة "المجموعة المجهولة" في الشمال البعيد؛ جرى تخمين أنه قام بعملها "النوبا" الذين أشار إليهم عيزانا أكسوم أنهم كانوا ممتلكين للمنطقة عندما اجتازتها قواته [١٧٨]

تتراءى المدافن التّلية للنوبة العليا متماثلة جداً من مقاطعة نُبتة إلى سنار، وقد أدى ذلك إلى افتراض أنها تمثل مجموعةً ثقافية واحدة عادةً ما توصف بثقافة تنقسي [١٧٩]، على اثر واحدة من أبرز مجموعات المدافن التّلية (أنظر أدناه). يجب الإعتراف، مع ذلك، أن عدداً قليلاً للغاية من هذه الهياكل المثيرة للإهتمام نُقب عنه مطلقاً، وأن الإفتراض بشأن التوحد الثقافي في كافة أنحاء النوبة العليا مؤسسٌ بشكلٍ موسع على تماثل المدافن التّلية. هنالك، إضافةً إلى ذلك، الحقيقة الملهمة بأن توزيع المدافن التّلية النوبية في النوبة العليا يتساوق بشكل عام مع التوزيع المعروف لفَخار علوة - الفَخار يدوي الصنع المتميز الذي وجد في بعض قبور تنقسي. إن فَخار علوة لهذا السبب يُعد في بعض الأحيان تشخيصاً إضافياً لثقافة تنقسي [١٨٠].

اقدم نماذج معلومة عن المدافن التّلية في النوبة العليا هي التى عُثر عليها في الجّبانات المشتركة (أى غير الملكية) في مَروى، التى نقبها قارستنق إبان السنوات الأولى من القرن العشرين [١٨١]. هذه الحفريات بُلغ عنها بمستوىً غير مكتمل لدرجة انه من المستحيل أن يُصاغ إنطباع دقيق عن القبور ومحتوياتها، وقد ظل هنالك حواراً معتبراً حول الترتيب السليم للتسلسل الزمنى لمجموعات القبور المختلفة [١٨٢]. يبدو مع ذلك، أن بعضها احتوى فَخاراً ملوناً إلفةً من مروى في حين احتوى بعض آخر فَخار علوة يدوى الصنع وحده؛ بناء على هذا يُستدل أن جَبانات مروى يقع مداها الزمنى بين أزمانٍ مَروية وما بعد مَروية. إن مقدم فَخار علوة، الذى ظهر أولاً فيما يسمى بالجّبانة الوسطى، يفسره كيْروان على أنه يتضمن وصول النوبا [١٨٣]. وحيث إنه لم يتم التبليغ عن أنواع الغرف أو مواقع الجنائز بأى تفصيل، مع ذلك، من غير الممكن أن يعرف ما إذا كان ظهور فَخار علوة قد تم في نفس الأوان مع تغيراتٍ أخرى في ممارسة الدفن .

جانباً عن القبور الكائنة في مَروى، المدافن التّلية الوحيدة في النوبة العليا التى أُبلغ عنها بلاغاً كاملاً [١٨٤] مدفنان تّليان عظيمان للغاية في تنقسي، بمنطقة نُبتة. إن الموقع موصوف كما يلى من شيني:

هنالك بعض ١٧٠ مدفناً تّلياً بأحجام مختلفة في الحقل الرئيس، و٣٠ إلى ٤٠ أزيد منها مجموعةً على مسافة قصيرة إلى الجنوب الشرقي. إن المدافن ألتّلية كائنها كلها مُشيّدة من أرض راسبية غرينية؛ أما الشكل الخارجى فيبدو أصلاً على انه مُغطىً بطبقة من الحصباء. كثير منها له كذلك مسحة خشنة من الحَجارة حول الحافة. ويمكن تقسيم المدافن التّلية، أساساً وفق الحجم، إلى ثلاثة شعب رئيسة:

(أ) مدافن عالية جداً (علو ٦ إلى ١٠ أمتار [٢٠ إلى ٣٢ قدماً]). هنالك ستة منها ... وهى كلها تبدو أصلاً أنها كانت قبابية، مع أن بعضها بات فاقد الشكل. إن عديداً منها له قبور ثانوية، مُغطاه بأكوام حَجرية، فيما يظهر متأخرة زمناً، على الأرداف. هذه القبور العالية كانت إفتراضياً مدافن للزعماء الاكثر اهمية.

(ب) مدافن متوسطة الحجم (علو ٢ - ٤ أمتار [٦ - ١٢ قدماً]). واحد من هذه الشعبة مشيد بكسور الطوب الأحمر. كثير منها له فجوة صغيرة في المركز، ربما بسبب النهب ... أو لعلها انهيار غرفة القبر. في بعض الحالات، للفجوة أبعاد كبيرة لدرجة انه ربما كانت وجهاً بنائياً. ليس هناك خط واضح المعالم على أساس الحجم بين هذه الشعبة والتى تليها .

(ج) مدافن منخفضة ومنخفضة للغاية. إن بعض القبور المنخفضة لها رؤوس منبسطة، تقدم صورةً جانبية مثل الصحن المقلوب. لها دائماً قطر كبير بالنسبة إلى ارتفاعها. إن الوفير من القبور شديدة الإنخفاض يبلغ حد إرتفاعاتٍ على الأرض من الصعب إدراكها، وعلامتها رقعة دائرية من الحَصا. ليس لها مطلقاً فجوات في المركز [١٨٥].

بما يكفى لإثارة الإهتمام، وُضعت جَبانة تنقسى عبر النيل مباشرةً من الجَبانة الكوشية القديمة في الكرو (الفصل العاشر). هذا الوضع مجموعاً مع الحجم الإستثنائي لبعض قبور تنقسى التّلية، قاد المنقبين إلى أملٍ لعلهم يلاقون بالصدفة مدافن ملكية في الأيام الأواخر مماثلةً للمدافن في بلانة.

هذا الأمل، مع ذلك، لم تصبه خيبة كاملة. فالهيكل الفرعى تحت واحد من القبور الأكبر حجما برهن على أنه حفرة كبيرة مربعة، في قاعها غاصت أربعة قبور مستطيلة عادية. إن ثلاثة منها كان ظاهراً أنه لم يستعمل أبداً. وكان الدفن في الثالث منتهباً بإتقان فلم يبق منه إلى القليل. نجا مدفن تَلّى ثان ذو اتساع عظيم من النهب، لكن هيكله الفرعى لم يكن شيئاً يعدو قبراً عادياً جانبى المخبأ من النوع الشائع في كلٍ من الثقافة المَروية وثقافة بلانة. إشتمل على دفن ضيق لجنازة، تبدو لأنثى، مقرونة بأربع أوانى من فَخار علوة، وعدداً من العقود، وخاتمى فضة (١٨٦). في الكم والنوعية يشابه أثاث هذا القبر لأقصى الحدود، بشكلٍ سلبى، عدداً عظيماً من الجنائز العادية في النوبة السُفْلى .

إذا كانت قبور تنقسى مدافن لملوك أو زعماء، كما يُقترح بحجم المدافن التَلية، فإن حكام النوبة العليا ما بعد مَروى لابد أنهم كانوا فقراء بحق. رغم هذا، هنالك مجموعة من مدافن تَلية أكبر حجماً بجوار شندى، لم يتم تحقيقها بعد. إن المدافن التَلية العظمى هنا تبلغ ١٠٠ إلى ١٣٠ قدماً في القطر، متشابهةً في التشييد لمدافن تنقسى. أما أكبر خمسة منها فهى تقع بين مسورات قوسية الشكل محاطةً بحيطان منخفضة، من حَجر خشن ـ ملمحاً ما جرت ملاحظته بإنتظام حتى ذلك الحد في أى مكان آخر. في كل حالة للمسور توجهٌ شمالى ـ جنوبى، مع وضع المدفن التَلى في الطرف الجنوبى (١٨٧).

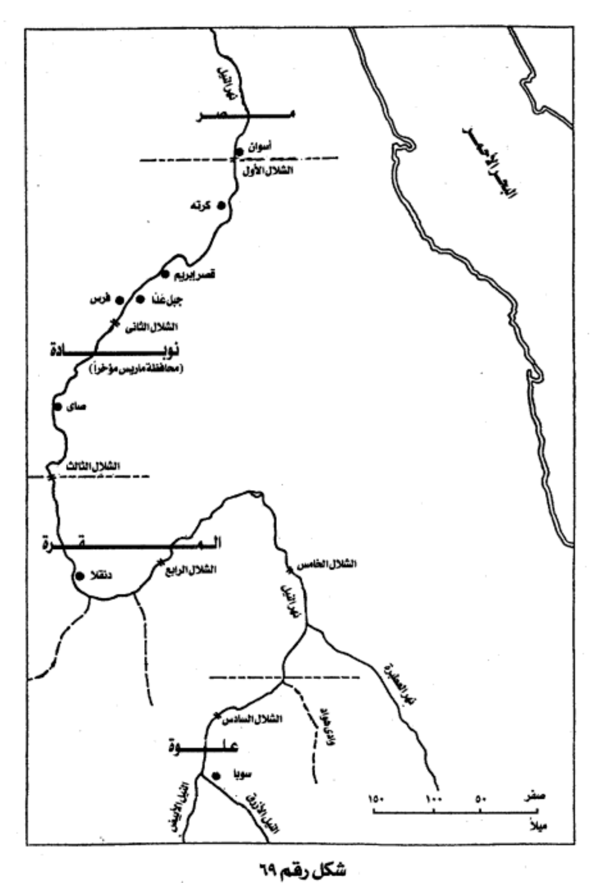
لا يخبر أياً من قبور تنقسى أو شندى بالضرورة عن القصة الكاملة للتطورات السياسية في الفترة ما بعد المَروية. وعندما نهضت ملكية مسيحية في وسط السودان نحو نهاية القرن السادس، ما كانت عاصمتها (وهى فيما هو واضح مركز حضرى لا غير) قائمةً بأى من الأماكن التى جرت مناقشتها آنفاً بخلاف سوبا، ليس بعيداً عن ملتقى النيلين الأزرق والأبيض (الشكل رقم ٦٩). هنا، ربما، يجدر بنا أن نبحث بالمثل عن مركز القوة للفترة السابقة مباشرة. وفى الوقت الراهن، تظل منطقة سوبا غير مستطلعة بدرجة عالية .

يبدو بيّناً أن الممارسات الجنائزية لثقافة تنقسى، مثل ممارسات الثقافتين المَروية والبلانية، لم تكن مُوحّدة بالمرة. إن واحداً من إثنين من المدافن التَلية التى نقبت في تنقسى إحتوى جنازة منحشرة الدفن، في حين تتراءى القبور في التشكيل الجنائزى الثانى (من شكلها) كأنها أُعدت لجنائز ممتدة. عُثر على دفن تنقسى منحشر في عُشارة (١٨٨)؛ وفى مَروى كانت الجنائز نوع تنقسي ممدودةً وراقدة على أسرة، على خطى الممارسة الكوشية القديمة قدم الدهر (١٨٩).

الهوية غير المميزة لمتاع قبور تنقسى تجعل من التاريخ الدقيق أمراً شبه مستحيل. إن بعض العقود التى وُجدت في تنقسى من نوع يعتبر تشخيصياً من أعراض فترة بلانة في الشمال، ولكنه بالطبع يؤرخ القبر الفردى الذى وُجدت فيه وحده (١٩٠). فَخار علوة، المنتوج المميز الوحيد الذى عُثر عليه في قبور تنقسى، متساوق عن قربٍ مع تقليد الفَخار اليدوى الخالد في السودان، لكنه جانباً عن حدوثه في المدافن التَلية يكاد لا يعرف شئ عن زمان أو مكان صناعته. إنه يبين نسُباً مقدراً مع بعض الأوانى التى لا تزال تصنع في وسط السودان اليوم (١٩١).

بما أن الفَخار اليدوى المروى لا يبدو موجوداً في نفس الزمان مع فَخار علوة، ربما بإستطاعتنا أن نأخذ آخر نهايةٍ للفترة المَروية كنقطة بعدية لثقافة تنقسى. وبدرجةٍ نوعاً ما أقل ثقة، لكنها لا تنفك معتبرة الإحتمال، بمستطاعنا أن نعزو هذه الثقافة إلى مجئ النوبا كجماعة أقل حضارة. لا يمكننا، مع ذلك، أن نُنشئ أى نوع من التاريخ لبداية ثقافة تنقسى ونهايتها على أساس المعرفة الراهنة. المدافن التَلية، وفَخار علوة، ولذاك الأمر، عادات الدفن الوثنية(*) ربما بقيت حية لزمان تحَدر إلى باطن ما ندعوه إسميا بالفترة المسيحية في أثناء وسط السودان .

(*) بمعنى عبادتها آلهةً أصناماً – المترجم.



شكل رقم ٦٩

الممالك الثلاثة للنوبة المسيحية

ملخص تفسيري

لقيت الأُسرة الفرعونية وحضارتها الأخيرة في كوش حتفها في النهاية في القرن الرابع الميلادي. إن الظروف التي تكتنف إختفاءهما النهائي غامضة، بيد أن إنكماش تجارة العالم وإغارات جماعات أقل حضارة من شرق النيل وغربه، وضغط المملكة الآكسومية في الحبشة ربما كانت جميعها عوامل مساهمة. بجمود أسرتها الحاكمة، بدا أن الإمبراطورية الكوشية تهاوت إلى مجموعة من الزعامات الصغيرة. إستحوذ رجال قبيلة النوبا من الغرب على أقسام واسعة من أراضي السهل المروي؛ وفي ظلهم عادت للوراء ثقافة النوبة العليا ومجتمعها إلى الأحوال البدائية للعصر القبلي.

الإقتراح الوحيد بدولةٍ وريثة لمَروى موجود في بلانة بالنوبة السُفلى، فهنا، مجموعة من مدافن ملكية أقل حضارة وثراء تعطى الدليل على نظام ملكي قوى ثابر على البقاء من فوق أجيال عديدة. وبمعنىً ما، عَدّ ملوك بلانة بجلاءٍ أنفسهم ورثةً لكوش، ذلك أنهم تبنوا بعض الشعارات الملكية الكوشية. إلا أن دولتهم إفتقدت تماماً الأيدولوجية المعقدة وبناء السلطة المتمايز في أزمان نَبْتية ومَروية. لقد كانت ملكية مطلقة تمثل بصورة أقرب إلفةً عصر الأُسرات الباكر.

أصول الملكية البلانية غير معلوم. إن الحكام ربما كانوا جماعةً أقل حضارة محدثة الهجرة من الجنوب أو الجنوب الغربي، أقاموا حكمهم على نظرائهم النوباديين المقيمين من قبل في النوبة السُفلى. لربما كانت مساحة هيمنتهم صغيرة مبتدأ الأمر، إذ أن المقاطعات النوبية الأقصى شمالاً سقطت تحت سيطرة رجال قبائل البلميين من الصحراء الشرقية إبَّان إنسدال الستار على الفترة المَروية. إن قرناً أو ما يزيد عليه من العداوات المتقطعة أُنهى بالإنهزام والإخضاع النهائي للبلميين، وأصبحت مملكة بلانة، التي عُرفت مؤخراً بنوباديا، القوة السياسية الوحيدة في النوبة السُفلى. وقت تحولها إلى المسيحية، في منتصف القرن السادس، إمتدت تُخومها من فيلة إلى أرض عبرى - دلقو النهرية .

ثقافة النوبة السُفلى، بين الأراضي التي سادها ملوك بلانة وربما كذلك ما وراءها، كانت مُركّباً من متبقيات مَروية وتأثيرات بيزنطية مصرية. رغماً عن ذلك، إستغنى النوباديون القبليون البسطاء عن الكتابة، والفن، والمعمار الصروحي، وغيره من فنون كوش وبيزنطية ذوات المستوى الرفيع. كان سكانهم، أيضاً، أصغر عدداً وأشد شتاتاً من الأزمان الأولى، وتعطى قبورهم بَينةً على ارتخاء عام في الرخاء. أما المراكز الحضرية للأزمان المَروية فيبدو أنها اجتازت نكوصاً جزئياً، واختفت بالفعل الطبقة الوسطى المتحضرة. إن التقسيم الإجتماعي الوحيد الذى يمكننا ملاحظته في فترة بلانة هو التقسيم القديم بين الحكام والمحكومين .

محرومةً من الفنون الأسمى للحضارة الكوشية، في حين أنها احتفظت بالفنون الأقل حضارة (محبيةً لها أحياناً)، تقدم ثقافة بلانة متشابهات عصية الأسرار لثقافة كرمة التي سبقتها بـ ٢,٠٠٠ عام سالفة. كلاهما ثقافات إنتقالية، تدل بالتوالي على بداية عصر حكم الأُسَرات ونهايته في النوبة. قد يُظهر لذلك كأنما دارت حضارة الأسَرات الحاكمة في السودان دورة كاملة، إنتهت حيثما بدأت [١٩٢]، خلا أن النوبة ما كانت في القرن السادس الميلادى في حالة الرُجعى إلى عصر قبلي. بدلاً عن ذلك، هيأت الثقافة أزمان بلانة المُبسُطة أيبةً للسلفِ سبيلاً لبداية أيدولوجيةٍ جديدة، ولعصر النوبة في العصور الوسطى.

الجزء الثالث

حضارات القرون الوسطى

الفصل الرابع عشر
بداية جديدة
تنصير النوبة

الشرق الأدنى، مهد الحضارات الأولى، أنجب كذلك الأيدولوجيات الدينية العظيمة في العصور الوسطى. إلا أن ظروف الإيجاد كانت مختلفةً إختلافاً سحيق الأعماق - بل إنها متعارضة تعارضاً مباشراً لا رجعة فيه - في الحالتين. ما نهضت الإيمانيات الموحاة للمسيحية والإسلام وريثة تعاليم دينية بالية لمصر ودول الحوض، ولكنها في مناهضةٍ مضادة لها. كلمات كروبر، المكتوبة على وجهِ التحديد لتصف ظهور الإسلام، موصولة الأثر بمطلع إنتشار المسيحية على حدٍ سواء :

... إنبعث الإسلام في عين منطقة ذلك الأتون الأول لكل الحضارات السامية - في الأرض الشرق أدنية. لثورة العصر الحَجرى الحديث، لأول زراعة ومدن وملوك وحروف. لكنه نهض في زمنٍ كانت فيه البواعث الثقافية البنّاءة قد رحلت منذ وقت طويل خارج ذلك الأتون، وقد بدأت تتحرك وراء اليونان بل وراء فارس؛ غير أنه زمناً كان لا يزال فيه الشرق الأدنى مدثراً بهشيم مفروضٍ عنوةً وغير متلائم إفتراضياً من الحضارة الإغريقية والإيرانية - هشيماً كان قد أضحى منذ بُعدٍ طويل أشد ثقلاً ومواتاً مع كل جيل. ما عاد هنالك فيما هو ظاهرٌ أى أمل ... لحضارةٍ عظيمة جديدةً خلاقّة بحق ... كى تنبعث في هذا الشرق الأدنى، بين مجتمعات مصر، وسوريا، أو مابين النهرين المتهرئة، المتعبة، والمسهوكة. فلو وقع مثل ذلك لكان من شأنه، فيما يجرى عليه القول، أن يحرق ثانيةً رماد ذلك الماضى. على أنه كانت هناك سانحة حضارةٍ مصوبة، قادرةً على استعادة الخُطى ... تُطيح جانباً بالنير الثقافى الدخيل وتتنشئ مجتمعه الحر - دونما فن، دونما استطلاع معرفى أو مبالغةٍ فكرية، دونما كثير من التطلعات المعادة في الحضارات - ولكنها مشبوبة في ذاتيتها الجديدة ...[1].

لثلاثة آلاف عام لحقت أسرة بأسرة وإمبراطورية بإمبراطورية، كلاً يتقبل - أو يستولى على - التفويض الإلهى من سلفه؛ كلٌ يسعَ ليبنى ويتوسع من فوق إرث الماضى، حتى فُقدت في آخر المطاف مصادر التقليد التى عاش فيها الناس وماتوا في بُعد القدم. إن "الدساتير" التى حددت العلاقات بين الناس وآلهتهم كانت محفوظة في نصوص قديمة ذات معان نصف منسية وأصل منسى تماماً؛ واعتمد الملوك والأباطرة بطرح الرُحى نفسه على معلمين أحباراً وكهاناً كان بوسعهم إكتشاف مصادر جبروتهم وتأويلها .

عندما شارفت الحضارات القديمة على منتهاها، أصبح قادتها الروحانيون أكثر عناءاً وأشد اكتراثاً بمساعى إسترجاع الماضى المفقود. في مصر، قلد آخر فراعنة مستقلين في الفترة الضاوية الأساليب الأدبية والفنية للدولة القديمة بوعى. وفى بلاد ما بين النهرين، أمر إمبراطور شلدونى بحفر معبد لأسلافه كان قد طال عليه النسيان، آملاً أن يستعيد بعض المعرفة عن طرائقهم. وفى فلسطين، حَثَّ خَلَفٌ من الأنبياء من أشعيا إلى ياؤول على العودة إلى الشرائع الحازمة على بساطتها في الأزمان الرعوية الماضية. هذه الحركات السلفية كانت كلها، بشكلٍ أو آخر، محاولات للتجديد الدينى، بيد أنها في النهاية عانت المصير المحتوم لإنبعاثات الطابع القومى المتعصب. إن رموز الماضى، وإن إمكن استرجاعها، فقدت معناها آنفاً في لجة تعقيدات العصر السالف .

فى كل مكان في العالم المأثور، وفوق كل شئ في الشرق الأدنى، ترك تآكل الأيدولوجيات القديمة فراغاً رمزياً وروحياً ما كان بوسع الدنيوية الهلينية أن تملأه. أضحت النتيجة إزدهاراً لديانات تطهيرية لملأ صفوى، في كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية وما وراء حدودها. لقد مُنحوا تبسيطاً

ثورياً للتعاليم والطقوس، على أنها تمركزت بأجمعها تقريباً في تقديس لبعض عبادة مألوفة أزماناً سالفة: إيزيس أو مثرا أو أحد أرباب المعبد الأولمبي (*).

كانت المسيحية منذ البداية تعليماً أكثر جذرية. فهي بمفردها من بين ديانات القدم الطائفية عرضت قطعاً كاملاً عن الماضي. إن إلهاً جديداً غير معروف من قبل (عدا لليهود)، غير ممسوس بفساد وتفسخ الأولمبيين، تحدث. وكانت رسالته مُبلّغةً من خلال المؤسسة الكهنوتية لكنها عبر ناطق شخصي من بين وسط البروليتاريا، عبارة محكمةً في لغة يومية لا يُجادل معناها. ولهؤلاء الذين كان بمقدورهم أن يقبلوا الرسالة، أصبحت لثلاثة الاف عامٍ من التقليد المتراكم غير ممكنة التطبيق. لقد جرى غُسلها، رمزياً، في شعيرة التعميد البسيطة.

لابد أن يد الماضي الميتة كان وزنها ثقيلاً غالب الثقل على بروليتاريي الحضر في الإمبراطورية الرومانية، ذلك أنه اكتسبت المسيحية اتباعها الأوائل بينهم. أما الفلاحون، وهم بحكم الموروث لا يأبهون بالتيارات الأيدولوجية الأرقى، فقد واصلوا إشباع رضائهم بطقوس دهماءٍ وثنية لقرون قادمة [٢]. كانت الطبقات المُنعَّمة معادية بما هو مُستنتج في بداية الأمر لتعاليم إجتثاث بدا أنها تهاجم الموروث المقام في كل ذرةٍ منه، غير أنه بين ظهرانيّ وقت قصير أصبحوا هم كذلك على وعي بالإمكانات التحررية للشرعة الجديدة. فإذا كانت المسيحية قد وهبت الفقير فرصة ليهرب من نوء الماضي، فإنها منحت الغنى ذا البأس سانحةً ليعيد ضم قوته ومكانته على أساس جديد أوسع شمولاً. في مدى ثلاثة قرون من تأسيسها كانت الشرعة الجديدة مقبولة ومحتملة في كافة أرجاء الإمبراطورية الرومانية؛ وفي مجئ أربعة قرون كانت ديانة الدولة الرسمية للإمبراطورية نفسها. إن الإسلام وحده، وسط حركات التأريخ الثورية، تمتع في وقت قصير بنجاح مقارنٍ كهذا النجاح.

لعل في الإمكان المجادلة بأن المسيحية، إذا تمت إقامتها ديانةً رسمية للدولة في روما وبيزنطة، لم تعد حركةً ثورية. إلا أن هذا ينسحب على معنى سياسي ضيق وحسب. فلئن لم تعد الشرعة الجديدة ذات إجتثاث سياسي، فإن قوتها الثورية في المحيط الأيدولوجي كانت، كيفما اتفق الأمر، مضاعفةً بمظاهرة الدولة الرومانية لها. إن ذلك التدمير الذي أوقع بصروح وشرائح مُبجلة زماناً كموضوع لسياسة بيزنطية متعمدة تجاوز ببعيدٍ أي تخريب وإنتهاب ألحقته بها حشود ثورية. بالنظر إلى خرائب حضارات الشرق الأدنى السابقة زماناً، يُشدَه الواحد مرةً وراء مرة بمدى التدمير وإزالة الملامح الخارجية الذي ضربه المسيحيون والمسلمون الأوائل على الصروح التي بقيت على قيد الحياة أحياناً لآلاف السنين، إلى أن وصلت أزمانهم. وخلافاً لأي من أسلافها، لم تكن للإيمانيات الجديدة، الملتزمة بالشرعة والمناهج، حاجةٌ لأن تمتلك أو تحافظ على الرموز الأيدولوجية للماضي. أُطيح بالمعايير المعمارية، والرموز الفنية، والأدبية، بما حملت سواء بسواء.

حالما أضحت الشريعة الرسمية لروما وبيزنطة، بات انتشار المسيحية لتعم "بروليتاريتهما الخارجية" المتطلعة لإرتياد آفاقها أمراً بلا مهرب. تسربت إلى النوبة في ظل ملكية بلانة معتقدات الدهماء المسيحية من قبل، وكانت تُنّمي تذوقاً للفن البيزنطي، كما شاهدنا في الفصل الثالث عشر. فلما تم تقديم الإيمان الجديد بصورة رسمية من طرف المبشرين في منتصف القرن السادس، بدا أنه كان مُتقبلاً بسرعةٍ من الحكام ورعاياهم على السواء من أسوان إلى ملتقى النيلين. بالرغم من أن كلاً من الدوافع ومن نجاح المؤمنين المتشددين الأوائل يجوز أن يُعزى جزئياً إلى اعتبارات سياسية (أنظر أدناه)، فإنه بمعنىً أوسع يعكس الإنتصار السريع للمسيحية جنوبي أسوان فيما هو محتمل أن يكون رغبة من النوبيين في اللحاق بالعالم المتحضر.

صاغ مقدمة المسيحية تحولاً أيدولوجياً في النوبة ليس له قرين منذ أن قدمت الحضارة نفسها. إن أثرها كان الأعظم في كل شئ لأنه، كما يرقب كراوفوت " كانت النوبة واحدةً من بلدان العالم

(*) المعبد الأُلمبي كان في إعتقاد الإغريق القُدامي مرَبَضاً جامعاً لكل الآلهة – المترجم.

القديم القليلة التى تَبَنت المسيحية دون أن تكون قد عُركت تحت نظام القانون الرومانى" [٣]. لقد تآكل جوى الأديان القديمة في عالم البحر الأبيض المتوسط الدنيوية الهلينية - الرومانية قبل أن تطيح بها المسيحية، سوي أنه في التخوم النائية للحضارة لم يتدخل "عصر عقلى" مأثور بين عصور الإيمان القديمة والوسطى. ما جاءت المسيحية للنوبة رد فعلٍ على دنيوية مأثورة أو كشرعةٍ ترغمها عليها إمبراطورية مجاهدة جديدة، لكنها جاءت إحلالا دَعت إليه الحاجة لتقاليد الفراعنة باطلة المفعول. كذا في كافة إحتياجات التأريخ النوبى لا يمكننا أن نُجلي إنكساراً أشد حدةً في إستمرارية التقليد الموروث من ذلك الذى يفصل عصر حكم الأُسرات من العصر الوسيط .

أثر المسيحية التحويلى واضح في وجوه عديدةٍ للحضارة النوبية في العصور الوسطى. والأقرب حاليةً وظهوراً أن المدفن الصَّخرى الملكى، الذى ظل ٢.٥٠٠ عاماً التعبير الأعلى للسلطة البشرية المقدسة، توقف بليلٍ عن أن يكون رمزاً ذا معنى. وفى حين أننا وضعنا أيدينا على قبور كافية تؤثث تفسيراً مبرراً لكل ملك نوبى من كشتا إلى سلكو، لم نجد مكان الدفن لحاكم واحد إبان الفترات المسيحية والإسلامية. والحصيلة لغز تاريخي مثير للغرابة : فإننا نعلم عن ملوكٍ نوبيين في الفترات ما قبل المسيحية بصفةٍ رئيسة من خلال صروحهم الجنائزية، ولا يكون لدينا دائماً مُدَّون آخر عن وجودهم، في حين أنه في الفترة الوسيطة تأتى معرفتنا الوحيدة عن الملوك من مصادر وثائقية، ولا نستطيع أن نعثر على بَينةٍ أثَريةٍ لهم .

إن المَلك الذى اشتهر مجده في فن، ومعمار، وأدب العصور الوسطى كان واحداً سماوياً، ما كان دنيوياً. وكما نعلم من المثال المناظر في أوروبا الغربية، لا يدل مثل هذا التطور بالضرورة على أي تقليل لسلطة الحاكم الزائل. لكنه، مع ذلك، يتضمن أنه لم يعد إلهاً، بالرغم من أن حكمه ربما يظل مُلزماً بهالةٍ من القداسة. لقد كان عيسى المسيح موصوفاً بجلاء لا مكان فيه لسؤال، بإسميه، كآخر فردٍ توحد فيه إنسان وإله؛ فكان من بعده فصل الملكوت الإنسانى والقدسى نهائياً وإجمالياً. ذلك الفصل هو الذى جعل من التمايز الأيدولوجى بين الكنيسة والدولة والذى أضحي الإنجاز المتَّوج للعصور الوسطى أمراً ممكناً .

الفصل ما بين الكنيسة والدولة له أثَر المُحَرِر عليهما. لقد توقفت الحكومة والقانون عن أن يكونا حقاً خالصاً للآلهة؛ منذئذ صار الناس احراراً فيَ خوض التجارب مع الأشكال السياسية والتشريعية دونما انتظارٍ لتنزيلٍ مقدس أو تعرضٍ لمخاطر غضب إلهى. أفسح واهبو القانون القدماء الطريق لشُراع القانوَن في القرون الوسطى. وأصلوا التوسل لإستسقاء مباركة السماء، لكنهم لم يعودوا طالبين قداسةً شخصية أو وحياً مباشراً. ونتيجةً لذلك ترعرع جسداً من قانونٍ وضعى دنيوى من صنع الإنسان جنباً إلى جنب القانون الكنَسى لأزمانٍ أولى. لقد تلقى أصوله من الدساتير الدنيوية للإغريق، وربما أنه أخذها على وجه الدقة من قانون *دات* لداريوس الأعظم [٤]، إلا أن تطوره الكامل كان عليه أن ينتظر الطلاق الرسمي بين الحكم والدين. متى حدث ذلك، أصبح تقنين القانون الدنيوى وتطوير قضاءٍ وضعى مستقل واحداً من المشاغل الآسِرّة لحضارة العصور الوسطى .

فى نوبة العصور الوسطى والت الحكومة القيام بوظيفتها بقدرٍ متسع دونما أى استعانة بمعينات كتابية مثلما كانت عليه في كل الأزمان. حصاد ذلك هو أن النظرةَ القانونية التى هى سمة شديدة التمييز للغرب في العصور الوسطى، وبشكل مماثل في العالم الإسلامى، أصبحت أقل صفاءاً للعَيان في بلاد النيل. على أنه يمكن أن يُرى بروزاً مفهوماً لقانونٍ من صنع الإنسان في المقارنة بين وثيقتين إنحَدرتا إلينا، واحدة من نهاية العهد القديم والثانية من باكورة العصور الوسطى. هاتان هما معاهدة فيلة النافذة في ٤٥٣م (وقد جرى وصفها في الفصل الثالث عشر)، والمعاهدة المسماة *بالبقط* التى أُعلنت في دنقلا بعد مائتى عام بالضبط .

إن كلاً من معاهدة فيلة ومعاهدة دنقلا قُصد منهما حكم العلاقات ما بين النوبيين وجيرانهم

المصريين. جدير بالذكر، مع هذا، أن النوبيين في فيلة كانوا راغبين بداية الأمر في إبرام إتفاقية لتسرى طوال حياة القنصل الرومانى العام الذى أملى شروطها وكفى [٥]. في هذا كانوا مهتدين كأساس بقاعدة القدم القانونية، أن عمل قانون كان دائرةً مطلقة للآلهة لا يخضع لتغيير. إنّ المعاهداتَ والمراسيم ليست لها قداسة في ذاتها؛ إنها تستمد أى قداسة تمتلكها كيفما كان حالها من مُعلنيها. لذا فإن القوانين الدائمة الوحيدة كانت تلك التى أُنزلت مباشرةً من الآلهة الخالدة؛ بينما أن نفاذ كل القرارات الملزمة الأخرى إنتهى بنهاية مؤلفيها. بَيْد أنه في دنقلا بعد مائتى عام لاحقة ظل النوبيون مُنَفذين معاهدة لم تتخطَ حياة من صاغوا مواردها بخمسة قرون فحسب، لكنَّها حدّدت تحديداً بعيداً مصير مجرى العلاقات الخارجية النوبية في العصور الوسطى. (سوف تناقش بتفصيل يعظم عن هذا كثيراً بأدناه؛ أنظر "النوبة المسيحية والعالم الإسلامى"). إن مُبرمى *البقط* إدّعوا التفويض الإلهى المعتاد، لكنهم لم يَدَّعوا قداسةً شخصية أو تنزيلاً مباشراً. وعلي ذلك، فقد تم قبول حكم الإنسان على الأقل من حيث المبدأ في النيل .

حادثةٌ صغيرة نسبياً في القرن التاسع كان لها مُعَقبات تاريخية كبيرة توفر دليلاً إضافياً على نفوذ القانون الدنيوى على عقلية النوبيين. لقد باع بعض النوبيين في ضاحية أسوان أراضيهم إلى مشترين مصريين من المسلمين، في خرقٍ لكل من إتفاقية *البقط* والقاعدة القانونية السائدة في القرون الوسطى التى تُفتى بأن كل الأرض ملكٌ للتاَّج فلا يمكن تحويلها إلا بخَتْم الملك. عُبر في النوبة عن هذا المبدأ بفرضيةٍ قانونية هي أن كل رعايا الملك كانوا عبيداً له. وكيفما قُضى الأمر، فإن الملك النوبى في القرن التاسع لم يُجَرِد هي المشترين من مشتراهم ببساطة ويعاقب بائعى الأرض قرب أسوان؛ بدلا عن ذلك رفع استئنافاً للخليفة العباسى للمساعدة في استعادة ملكيته. أرجع الخليفة الأمر إلى قاضٍ إسلامى، حكم بانه وفقاً لمبادئ القانون الإسلامى لا يمكن للنوبيين أن يُعَدوا قانوناً عبيداً لملكهم، لذلك فإن البيع نافذ. وإلى الحد الذى علمناه، لم يتحدَ الحاكم النوبى أو خلفته هذا القانون [٦].

تنبئ تصرفات الملك النوبى عن ضعفٍ سياسى أقوى من كونها احتراماً خارق العادة للقانون. وما يثير الإهتمام ويعكس الحقائق، مع هذا، أن قبول قرار القاضى الإسلامى في هذه الحالة المحددة ألزم الملك بأن يقبل إضافةً إلى ذلك السابقة القانونية التى أنشأها القرار. مُذاك صارت النوبة السُفلى مفتوحةً للإستيطان أمام المسلمين - وهى حالة تم منعها في تحديدٍ بمقتضى معاهدة *البقط* - وأصبح من الضرورى أن يُضفى وضعاً سياسياً خاصاً على المقاطعة الشمالية. هذا التطور سوف يجري إعتباره بشكل أكثر إستكمالاً في الفصل الخامس عشر؛ إنه مُقتطف هنا بسبب الضوء الذى يلقيه على العقلية النوبية في العصور الوسطى .

لئن كان الفصل ما بين الكنيسة والدولة قد حرّر الحكم من تقييدات التَزمُتْ الدينى، فإنه حَرّر الدين بالمثل من ربقة التلوث بالتكالب المتهافت على خدمة حكام دنيويين يسعون للتمتع بملذاتهم وشهواتهم الخاصة. وبذا مع نمو الكنيسة والدولة جانباً عن بعضهما بعضاً، شبّت الكنيسة ومجتمع العُبّاد في قربٍ معاً. إن هذا القيام بَينّ جَليّ في البقايا الأثرية للنوبة في العصور الوسطى. فبينما كانت معابد العصر الأسرى موضوعة في بعض الأحيان بعيداً عن مراكز السكان، موضع بلوغ في أى حالة لنخبة من الصفوة ليس إلا، كان موضع الكنائس مبسوطاً في أو إلى جانب كل قرية مُهمه. الظاهر بشكل بارز أيضاً، أن الكنائس تم توسيعها، أو أن بنايات جديدة إضطُلع بها، ليس لتمجيد ملوك أو أساقفة لكن لتسكين تجمعات دينية نامية. حاصل هذا أن العدد الإجمالى لكنائس نوبية لاتزال باقية (أكثر من ١٢٠ في النوبة السُفلى وبطن *الحجر* وحدهما) [٧] اكبر من ضعف عدد الهياكل الدينية في كل الأزمان الأولى مجتمعة .

الطبيعة الخارقة للعادة للإيمان المسيحى صاغت تحولاً إضافياً واحداً في الحياة النوبية.

فلمدى ثلاثة آلاف عام وما يزيد لم يذهب رجل أو امرأة ممن يحترمون أنفسهم إلى الدار الآخرة غير مصطحبين بأفضل ما عنده أو عندها من ممتلكات دنيوية. بمجئ المسيحية إختفى ذلك الإعتقاد وممارسته بليل، بالرغم من أنه كان سيُبعث على نطاق صغير في دفن الأساقفة وغيرهم من أعيان الكنيسة. بوجه عام، مع ذلك، تشتهر جنائز الفترات المسيحية والإسلامية ببساطتها وإفتقادها للقرابين. إن المبالغة معروضة، بأى حال ما وجدت عليه، في بناء الهياكل الفوقية للقبور، لكن اكبرها وأشدها تفصيلاً يعد متواضعاً حينما يقارن بالأهرامات والمدافن التَلّية لعصور خَلَت من قبل. وإذا كان إعتناق المعتقدات المسيحية قد فعل أى شئ آخر، لهذا السبب، فهو أنه أرسى نهايةً لصناعة نهب القبور الخَفية الشرِّيرة، التى لقرونٍ جرى توظيفها كترتيبٍ خَشن لنظام إعادة التوزيع في النوبة (قارن الفصل السادس).

لا يجب أن يُفترض أن إعتناق أيدولوجية جديدة جذرياً له آثار غير مباشرةٍ هامة في مسرى الحياة النوبية. بَيِنة الإتساق الثقافى بين فترات بلانة المسيحية أقوى في المحيط المادى عنها بأى نقطة إنتقالٍ أخرى في التاريخ النوبى. لقد واصلت مدن وقرى مجرى نمائها المنظم (أو غير المنظم أحياناً)، مع أنه في كل حالة بالتقريب أبرزت كنيسة مظهرها عاجلاً أم آجلاً على طول جانبَى المساكن. تبدو الحياة الإقتصادية والإجتماعية غير متأثرة بالملة الجديدة، بقدرٍ متساوٍ، لم تُحس الفنون مباشرة بأثرها. على أنه مهما سار الحال عليه، فقد كان كل تعبير رمزى للثقافة النوبية بحلول أعلى العصور الوسطى يعكس اشتغالاً بقِيمٍ ورُموزٍ مختلفة جذرياً عن تلك التى شَخَّصت ملامح الحضارة في عصر الأسرات .

تحول النوبيين

كانت مصر واحدة من أوائل منابت المسيحية. وطبقاً للرواية أسس الكنيسة المصرية الرسول مرقص، الذى كان يعظ في الإسكندرية في الجزء الأخير من القرن الأول. وبينما لا توجد بَيِنة مُخرصة لتؤيد هذا النبأ المتناقل جيلاً عن جيل، كانت المجتمعات المسيحية بالتاكيد تُونع في القرن الثانى ليس بالإسكندرية وحدها إنما في الأرياف المحدقة بها [٨]. كانت مصر بحقٍ واحدة من المحافظات الرومانية القليلة التى تجَذر الإيمان الجديد بها وسط الفلاحين بما يكاد يماثل تجذره وسط سكان المدن [٩]. وكان على الإسكندرية نفسها أن تنجب عدداً غير معتادٍ من علماء اللاهوت وأطباء الكنيسة الأوائل، بينهم كلمنت، وأرقين، والقديس أثنسيوس، والقديس سيريل .

وعلى الرغم من نجاحاتها المرموقة، كانت الكنيسة المصرية مُضطربةً منذ البداية بحركات إرتدادية وإنفصالية. إن معظمها تطور إسمياً من فوق مسائل لاهوتية تصعب على الإدراك، لكنها في قاع الأمر كانت متأصلة دائماً في شعور متعمقٍ معاد للإغريق يتقاسمه أغلب السكان المصريين الأصليين [١٠]. تضاعفت حدة المشكلة بعد أن اصبحت المسيحية الديانة الرسمية لبيزنطة، عند ذاك مَال الشعور القومى في مصر باستمرار ليوَثق صلته بالحركات الدينية الإنفصالية. "لذا كان طبيعياً" يقول بَيْلْ "إنه عندما كانت القسطنطينية ... مرتدةً كما كانت تحت الإمبراطور الأريوسى (*) قسطنطين، كان على مصر أن تكون كاثوليكية؛ وعندما كانت القسطنطينية كاثوليكية، كان على مصر أن تكون مرتدة» [١١].

تصاعد الشعور المعادى لبيزنطة في المحافظات الشرقية للإمبراطورية إلى ذروةٍ في المجادلة الخليقيدونية في القرن الخامس الميلادى. كانت هذه بالإسم مناظرةً لاهوتية حول ما إذا كان لعيسى

(*) "نسبةً إلي أريوس وتنظيره في اللاهوت المسيحي خاصةً أن ذات الإبن ليست من نفس الوهية الخالق، ولكنه مخلوق كوكيل لخلق العالم"، نحو ما جاء في قاموس وبستر - المترجم.

طبيعتان إنسانية إلهية منفصلتان أم ما إذا كانت صفاته الإنسانية والإلهية مُطّعمة في طبيعة واحدة. عملياً، أذابت المناظرة نفسها إلى صراع شيعي بين عناصر هلينية والعناصر المعادية لها بين الكنيسة. أيد القساوسة الإغريق بوجهٍ عام، في القسطنطينية وكافة أنحاء المحافظات الشرقية، الطبيعة الثُّنائية أو المذهب الملكاني، الذى يَنْسِب إلى عيسى طبيعتين منفصلتين. واصطف في مواجهتهم القسس من أبناء سوريا، وارمينيا، ومصر، الذين اتَّبعوا الطبيعة الوحدانية أو مذهب اليعقوبية، متمسكين بأن عيسى كانت له طبيعة واحدة فحسب .

حكم المجلس الخلقيدونى في ٤٥١م بأن "المسيح من نفس الوجود الأُلوهى مع أبيه فيما يتعلق بطبيعتها القدسية، ومن نفس الوجود معنا فيما يتعلق بإنسانيته"، وإنه "جُعل معلوماً لنا في طبيعتين" (١٢). لهذا تم حل المسألة رسمياً في صالح الملكانيين وضُمَّت جماعة الوحدانيين إلى القائمة الطويلة من المذاهب المحكوم عليها بالفسق. أياً كان ذلك، لم تُقبل القرارات الخلقيدونية أبداً من أغلبية المسيحيين من أبناء المحافظات الشرقية. وكما يتأمل شور "إن مثابرة المرتدين (القائلين بأن عيسى له طبيعة واحدة) على البقاء يمكن شرحها فقط كتعبير عن الإستياء السياسى والعواطف القومية من ناحية المحافظات، أُثيرت رياحه بمصر في ذكرى ضياع السبق من كرسى أسقفية الإسكندرية (مدينة الإسكندر الأكبر) لأسقفية القسطنطينية ... ما كانت فكرة توحد طبيعة المسيح أُلوهياً وإنسانياً في مبدأ الأمر أكثر من مَطية، أُوجدت على غموض لاهوتي لتبرر إنفصالاً ماثلاً من قبل" (١٣). لقرنين من بعد خلقيدون كان هنالك تنافس نشط وعنيفٌ بعض الأحيان للسيطرة على مناصب الكنيسة وممتلكاتها في مصر وسوريا، على نحو ما كان جارياً هناك في أوروبا الشمالية إبان حروب الإصلاح. ما كان أياً من المؤمنين بوحدة طبيعة المسيح الوهياً وإنسانياً من (اليعقوبيين) أو المؤمنين بالطبيعتين من (الملكانيين) قادراً في النهاية على أن يفوز باليد العليا، وفي عاقبة الأمر تركت صراعاتهما وعداوتهما المتبادلة المحافظات الشرقية فريسةً سهلة للفتح الإسلامى في القرن السابع الميلادي .

في مصر القرن السادس وفقاً لـ هـ. آى. بَيِّلْ :

... الكاثوليك أو حزب الملكانيين، معتمدين على مؤازرة الحكومة الإمبريالية ومن ثم نهباً لإعتراض أغلب الناس، ما تمتعوا إلا يسيراً من الرفعة وما أمروا إلا ملأً قليلاً. أما الوحدويون أو اليعقوبيون، يُشايعهم الرهبان الجهلاء، الذين كانوا مُعادين للثقافة اليونانية بكل أشكالها، فقد كانوا عاجزين تماماً عن القيام بأى مساهمةٍ هامة لفكر العصر. هكذا فإن مصر، التى كانت عاصمتها، الإسكندرية، في القرنين الثانى والثالث كُرسياً للمدرسة الشهيرة لتعليم المسيحين الجدد قبل نَيْل عضويتهم بالكنيسة بل إنها بنفس القدر أخرجت من أثنسيوس في القرن الرابع شخصاً رئيساً في التاريخ الكنَسى، باتت قِسماً أسقفياً معزولاً (١٤).

في مواجهة هذه الخلفية من تناحر الملل، وربما بمستوىً أكبر من ذلك بسببها، إضطُلع القيام بتحويل النوبة إلى المسيحية في القرن السادس. إحتفل ببدء المسعى الإمبراطور البيزنطى العظيم جستنيان كجزءٍ من سياسة عامة لنشر الإنجيل وراء التخوم الإمبريالية. "إن عهد جستنيان موسوم ليس بمسعىً مفصل لإدخال عديد من الشعوب الوثنية على حدود الإمبراطورية بين نيافة الكنيسة وحسب - حركةً مؤدية، بالتالى، إلى توسيع حدود الإمبراطورية المسيحية - إنما إضافةً إلى ذلك بمحاولةٍ جمة النشاط لمسح آخر أثرٍ باقٍ للديانات القديمة من ظهر الأرض" (١٥).

كانت أول حركة لجستنيان في مصر هى أن يأمر بالإغلاق النهائى لمعبد إيزيس في فيلة، وإزاحة تماثيله الوثنية إلى القسطنطينية (١٦). بعد وقت قصير أُعيد تكريس المعبد كنيسةً للقديس إستيفان (١٧). كما رأينا في الفصل الثالث عشر؛ فإن محاولةً مماثلة من قبل قرن مضى إستنفَرت النوبيين للتدخل المسلح، منتهيةً إلى معاهدة فيلة التى كُفل بمقتضاها حق الجنوبيين في العبادة

كوشيين في معبد إيزيس. إن المدى الذى تقدمته العاطفة المسيحية وسط النوبيين خلال القرن التالى ربما يُحكم عليه من حقيقة أن الإغلاق النهائى لمعبد إيزيس، في وقت ما حوالى ٥٤٠م، جرى قبوله فيما يبدو دونما معارضة (١٨).

إغلاق المعبد في فيلة كان متّبعاً، إن لم يكن على قدم المساواة مسبوقاً درجة خفيفة، بنشاط تبشيرى أشد حاليةً وإيجابية وسط النوبيين لجعلهم مسيحيين. إن العروض التى لا تزال باقية لبعثات التبشيرية الأولى إلى النوبة، والتى تم حفظها في عددٍ من التواريخ الكنسية، ما هى بصافية على إطلاقها أو متناسقة على التمام بالنسبة لمجرى الأحداث، لكنها تتفق بأجمعها في تقرير أو تضمين ما مفاده أن تحول الأقوام الجنوبية ـ حُكاماً ورعايا على السواء ـ كان مكتملاً بنهاية القرن السادس. لعلنا ننعطف نحو صرف هذه الإدعاءات بإعتبارها تهويلات متدينة لولا البّنية الأثَرية في الجّبانات النوبية، التى بإمكاننا أن نستجلى بها إختفاءاً سريعاً يكاد أن يكون كاملاً لممارسات الدفن الوثنى في القرن السادس المتأخر .

أفضل وأوفر تقرير مفصل عن النشاط التبشيرى الأولى في النوبة هو تقرير الأسقف المعاصر، يوحنا الأفسوسى (٩). طبقاً لسرده لم يجئ الحافز على تحويل النوبيين من جستنيان ولكنه جاء من زوجته المبهرجة ذات النفوذ ثيودورا. يؤكد سرد الأسقف يوحنا، كما أوجز صياغته جاد الله، النص الآتى:

كان جوليان، وهو قس مقتدر (كان في السابق صاحباً، يرافق ثيودوسيوس، بطريرك الإسكندرية القبطى، عندما كان في المنفى بالقسطنطينية)، ممتلئاً برغبةٍ عارمة ليُنّصر النوباديين، سكان نوباديا. نقل رغبته للإمبراطورة ثيودورا، النصير الأعظم للطائفة اليعقوبية التى تنادى بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح في عهد جستنيان. تقبلت ثيودورا المشروع المقترح بحماس مُسْتّعر وطلبت من جستنيان أن يرسل جوليان كمبشر لنوباديا؛ لكن الإمبراطور الذى كان يصون مراسيم خلقيدون، لم يكن ليقر يعقوبياً من أنصار الطبيعة الواحدة كوكيلٍ للتنصير؛ وهكذا أُرسلت بعثة (ملكانية) منافسة بإسم جستنيان. بالرغم من ذلك، أحبطت ثيودورا عمل هذه البعثة بإصرارها بالوعيد أن حاكم مصر العليا البيزنطى سيكون عليه أن يحبس بعثة الملكانيين حتى يبلغ جوليان محله المقصود. وصل جوليان النوبة عام ٥٤٣م تقريباً ورحب به في شغف وإعجاب النوباديون الذين دانوا بإله المسيحيين؛ قائلين "إنه هو الإله الحقيقى وليس هناك آخر جانبه". إن العبارة تُبّين أنه كانت هنالك إستجابة جاهزة؛ أما كلماتها فربما تعكس بوضوح قطيعةً ما بين أصحاب الطبيعة الواحدة والخلقيدونيين (الثُّنائيين) فيما يختص بطبيعة المسيح. وقد علّمهم جوليان المسيحية وحذّرهم من الخلقيدونيين بحيث أنه عندما بلغت البعثة الإمبريالية المضادة نوباديا لم تنجز أى نجاح .

ثم أن جوليان عاد إلى القسطنطينية بعد عامين من العمل الشغوف وخَلّفه ثيودور، أسقف فيلة، الذى صان ومتّن عمل جوليان. رجع ثيودور إلى فيلة عام ٥٥١ تقريباً ووالى العمل لونجينوس، وهو رجل مقتدرٌ آخر وجُعل أسقفاً للنوبة .

بسبب معارضة الملكانيين لاقى لونجينوس مصاعب مضنية للإفلات من القسطنطينية، ما تمكن من الزوغ منها إلا بالتخفى ليبلغ ميدانه عام ٥٦٩ تقريباً. قام لونجينوس بالفعل بعمل تبشيرى رفيع المستوى في نوباديا ـ فقد مَذْهَب للنوبيين تعليماً يانعاً من إيمان وممارسات الكنيسة القبطية، وعين القساوسة وبنىً لهم كنيسة. بعد ستة أعوام قضاها مع النوباديين، ولعميق تُعْسهم وشقائهم، غادر لونجينوس إلى مصر ليشارك في إنتخاب البطرياركية الوحودية .

لكن لونجينوس رجع إلى نوباديا في ٥٧٨م تلبيةً لرجاء ملك علوة، الذى تطلع ليجعل بلاده مسيحيةً نحو ما صارت إليه نوباديا التى كانت لعلوة معها علاقات صداقة. بيد أنه عندما سمع البطريرك الملكانى أن لونجينوس كان في سبيله لتعليم الوُحُودية في هذا المحيط الجديد، خَلَعه من منصبه، وأرسل أسقفين ملكانيين إلى ملك علوة ليخبراه بخلع لونجينوس ولتحذير الملك من أنه خلاف الأساقفة الملكانيين ما كان لونجينوس قادراً على القيام

بشعائر التعميد الكّنسية أو تعيين القسس. لكن ما جرى آنفاً في نوباديا، تعرض الملكانيان لإحباط محاولتهما بسبب إصرار ملك علوة على أن لونجينوس وحده الذى أجرى من قبل مراسم تعميد النوباديين في الكنيسة، لزام عليه أن يُعمد في الكنيسة أهل علوة. إتجه لونجينوس نحو علوة في ٥٨٠م، ولأن المقرة لم تكن صديقة كان عليه أن يتخذ دربا ملتفاً عبر أرض البلميين التى عانى فيها صعوبات جمة. في رسالة مثيرة للإهتمام من ملك نوباديا إلى ملك علوة نقرأ: "إلا أنه بسبب المكائد الخسيسة من ناحية هذا الذى يقيم بيننا (أى، ملك أرض المقّرة الداخلة بينهما)، فإننى أرسلت أبى القديس إلى ملك البلميين، مرتجياً أن يدله هناك بطرق بعيدة داخل البر؛ لكن مقريتا سمع بهذا أيضا، ووضع أناساً على المشارف بكل ممرات مملكته، في كل من الجبال والسهل ...".

لقد مُنح لونجينوس ما يستحقه ترحاباً عظيماً في علوة "وبعد أيام قلائل من التعليم، تم تعميد الملك نفسه وكل نبلائه؛ في وقت لاحق من مدار الوقت، عُمّد شعبه بالمثل. هنالك قابل كذلك أحباشاً معينين يتبعون هاليكارناسوس المرتدة (التى تدّعى أن جسم المسيح كان غير قابل للتحلل) وصّحح إعتقادهم" [٢٠].

سرد يوحنا الأفسوسي ملئ بالتفاصيل التى تثير الفكر فيما يختص بطبقات سطح الأرض ومناخ النوبة، مما يُضفى جواً من المصداقية على القصة ككل. وهى تمدنا أيضاً بأول معلومات سياسية يُعتمد عليها حول النوبة منذ زمن الإمبراطورية الكوشية. لقد كان هناك، فيما يظهر، ثلاث ممالك منفصلة ومستقلة عن بعضها البعض بين أسوان وملتقى النيلين: نوباديا في الشمال، المقّرة في الوسط، وعلوديا أو علوة في الجنوب. يمكننا أن نتعرف في نوباديا بما يشبه اليقين على المملكة العظيمة للنوبة السُفلى التى جرت مناقشتها بتفصيل في الفصل الثالث عشر. أما علوة، بعيداً في الجنوب، فكانت بوضوح مملكة النوبا التى كانت قد أُنشئت في أعتاب إنهيار القوة المّروية في أراضى السهل؛ وهى مذكورة أولاً (برغم ذلك كمدينة أبرز منها مملكة) في لوح عيزانا (الفصل الثالث عشر). المقرة مع هذا إسم غير معروف لنا مسبقاً، ولو أن قوما نوبيين يُدعّون المقريين مذكورين في وقت أسبق بمدى طويل من جانب بَطْلمى [٢١]. إن المملكة في زمن يوحنا الأفسوسى لابد أنها كانت ممركزةً في أرض دنقلا النهرية، وربما أن حكامها الأوائل فيما يمكن تصوره أهم الأفراد المدفونين تحت المدافن التّلية الكبرى في تنقسى، على أن فقد الجنائز نفسها يصعب أن ينبئ عن مكانة ملكية (قارن الفصل الثالث عشر). إنه لإحتمال متساوٍ على الأقل إن بقايا المقّرة ما قبل المسيحية مدفونة تحت موقع مدينة دنقلا العجوز المتناثر، الذى أنطلق مركزاً سياسياً للنوبة في العصور الوسطى، وسوف يناقش بتفصيل أوسع لاحقاً .

مما يجدر ذكره أن يوحنا الأفسوسى لم يقل شيئاً حول المجهودات الإنجيلية في المقّرة، مملكةً معادية بشكل ظاهر لكل من نوباديا وعلوة. إن المعلومات المفقودة يمدنا بها مؤرخ معاصر آخر، يوحنا البيكلارومى وهو ملكانى، أكد أن المقّرة تحولت إلى الإيمان الثنائى في ٥٦٩ أو ٥٧٠م [٢٢]. وكان صامتاً، من الجهة الأخرى، فيما يتعلق بكل من نوباديا وعلوة. يبدو محتملاً بما فيه الكفاية أننا مواجهون هنا بالتقارير المتحيزة لإثنين من المُرَوجين ملتهبى العاطفة، أحدهما وُحُودى والآخر مّلكانى، يهلل كل واحد منهما لإنتصارات طائفته الخاصة في حين يتجاهل إنتصارات منافسها. بسكوتهما البليغ، تبدو تواريخ يوحنا الأفسوسى ويوحنا البيكلارومى من الناحية الفعلية مؤيدة بعضها بعضاً. وبمزج معلوماتهما معاً نحصل على التعاقب التقريبى التالى للأحداث:

(١) تحول نوباديا إلى مسيحية وُحُودية تأثراً بالمبشر جوليان زماناً ما حول ٥٤٣م. من بعد ذلك بفترةٍ قصيرة، كانت بعثة ثنائيين ملكانيةُ منافسة غير ناجحة.

(٢) تحولت مملكة المقّرة، التى كانت بادية العداء لنوباديا، إلى مسيحية مّلكانية حوالى ٥٧٠ م.

(٣) حوالى نفس الزمن، ربما مدفوعة للحاق بالمقّرة، كانت هناك محاولة غير ناجحة لتحويل مملكة علوة الجنوبية لدعوة الملكانيين.

(٤) حوالى ٥٨٠ م، حُولت علوة بنجاح للوُحُودية من قبل لونجينوس المبشر [٣٣].

لعل المؤرخين الكُنسيين الاثنين تجاهلا أو شوّها عديداً من التفاصيل، لكنهما تركا بلاشك ما مفاده أنه كان هنالك تفجر قيم للنشاط التبشيرى في النوبة منتصف القرن السادس، كان فيه كلٌ من الوُحُوديين والثُنائيين نشطاً. ليس من الصعب أن يتعرف، كذلك، على أن الدوافع التى عَجّلت بإنجاز هذا الجهد الإنجيلى كانت سياسية بقدر ما أنها دينية. فكما حدث لأكثر من مرة آنفاً، سعت الملل المتنافسة في مصر لتقوية نفسها في مواجهة بعضها بعضاً عن طريق تأمين الدعم من النوبيين. وكانت النتيجة ما يقرب من التنافس والإندفاع غير الرشيد لجلب بركات الإنجيل للممالك الجنوبية [٣٤].

أما أن دوافع الملوك النوبيين في تقبل الإيمان المسيحى كانت بالمثل سياسية في جزء منها فيمكن الإستدلال عليه من حقيقة أن حكاماً نوبيين متنافسين، وفيما يبدو على عداء، يتراءى أنهم تخيروا انتماءات طائفية متنافسة. لعلهم كذلك رأوا سانحة لتقوية أنفسهم في مواجهة جيرانهم عن طريق التحالف من جهةٍ مع هيئة السلطة الكُنسية السائدة بمصر، ومع الإمبراطور بيزانطين من الجهة الأخرى، كيفما كانت تفضيلاتهم الطائفية، مع ذلك، فإن كل الحكام النوبيين للعصر ما بعد المّروى لابد أنهم استشعروا الحاجة لتأسيس أيدولوجى جديد. إن رموز كوش الملكية التى بَطُل مفعولها، ولا يزال يتعلق بها ملوك النوبة السُفلى (قارن الفصل الثالث عشر)، كانت تفقد معانيها في زيادة مضطرة بالنسبة لكتلة رعيتها، في حين أن عبادة إيزيس المحبوبة يبدو أنها لم توفر دعماً أو مجازاة معينة للملكية بمثل ذلك. إعتناق المسيحية لم يوفر فحسب عُروةً أيدولوجية بين الحكام والرعايا ، لكنه مَنَّ عليهما معاً شرعية واحتراماً جديدين في أعين جيرتهم الخارجية. فللمرة الأولى لما يتعدى القرنين، إستُرجعت النوبة إلى داخل التيار الأيدولوجى الرئيس للأزمنة السارية .

التفاصيل المحددة لعملية التنصير، بطبيعة الحال، غير مسجلة. لقد اقترح كيروان أن انتشار المسيحية في النوبة كان تدريجياً، وإنه قد تأثر "... بالواعظ المتجول بالهدايا أو الخطابة، "حكي القصص" مثل غراميات الشرق ... والحقيقة، أن اللاهوت الذى عُلّم بهذه الكيفية محتمل لأنه لم يكن من أنقى نوع، وإنه، بلاشك، إستصحب لمسة محلية اللون ليصير أشد تقبلاً للجمهور" [٣٥]. من الجانب الآخر فإن المؤرخين الكُنسيين، يوحنا الأفسوسى ويوحنا البيكلارومى، قد يبدو أنهما يوعزان بأن المبشرين الأوائل كانوا سفراء بمقدار ما كانوا إنجيليين (*)، وإنهم بدأوا مساعى تبشيرهم من القمة، مع الملوك النوبيين. إستدلالا على الأقل تُوج هذا العمل بالنجاح منذ اللحظة التى جرى فيها تعميد الملوك؛ ومن ثَم، إن عاجلاً كان أم لاحقاً كان تحول الهيئات الأدنى للمسيحية أمراً محتوماً.

إنّ كلاً من المنطق وعلم الآثار يظهران في سرد مؤرخى الكنيسة. فبينما كانت النوبة السُفلى مخترقةً بالتأكيد بمعتقدات الدهماء المسيحيين زمناً طويلاً من قبل تحولها الرسمى، يبدو من غير المحتمل أن رعايا مملكةٍ مطلقة السلطان مثل بلانة يتأتى لهم الإحتضان الصريح لإيمانٍ يُدين كثيراً من الممارسات التى ترتبط بالنظام الملكى البلانى. إن بَيّنة الجّبانات النوبية، كذلك، توحى بأن الإنتقال من الوثينة(**) إلى المسيحية في نهاية القرن السادس كان سريعاً لأقصى حد ومتقناً، لربما انطلق لذلك نتيجة لمرسوم رسمى. وفى حين أن أغلب جبّانات بلانة في النوبة ظلت قيد الإستعمال إلى دخول أزمان مسيحية، فإن القبور الوثنية والمسيحية المودعة بها ليست متداخلة فيما بينها بمستوىً دال الأهمية. في معظم الحالات يمكن رسم صف حاد ومتوالٍ بين مجموعتى القبور، يتسق بالطبع مع سعة الجبّانة في اللحظة التى يكون الإيمان الجديد فيها قد جرى تبنيه [٣٦].

يظهر أن أول مبنى لكنيسة في النوبة أقيم في قصر إبريم، التى كانت بالتأكيد مركزاً إدارياً

(*) أي دُعَاةُ للنصرانية – المترجم.

(**) بمعنى عبادة الأصنام وأشخاص الملوك – المترجم.

رئيساً إن لم تكن بالفعل مقراً ملكياً. لقد شُيدت بإعادة ترميم وتشكيل لجزء من المعبد الطوبى القديم الذى كان قبل ألف عام سلفت قد بناه تهارقا (قارن الفصل العاشر). التاريخ الحقيقى للإلحاق الكنّسى غير مدون، لكن علم الآثار يبين أنه كان في وقت ما انفكت فيه أنواع مألوفة من فَخار بلانة مستعملة أوفر من أنواع مسيحية محددة .

بأى ما اتفقت عليه حالة الظروف السياسية، كان الإنتشار النهائى للمسيحية في النوبة محتوماً منذ اللحظة التى أصبحت فيها الديانة الرسمية للدولة في مصر. فعلى مدى التاريخ وضع القطر الشمالى معيار الحضارة للنوبة، ما من أيدولوجية نمت هنالك أبداً، من عبادة الفرعون إلى طائفة ناصر، وأخفقت نهاية المسعى في أن تسود في النوبة على حد سواء. بحلول نهاية القرن السادس فإن جذب المسيحية الأيدولوجى، الذى ما كان مقترناً لأكثر من قرنين مع تحضر مصر وثقافتها فحسب، إنما بأمجاد روما وبيزنطة التى لاتزال أعظم شأناً، لابد أنه كان قوياً بحق على كاهل الشعوب وراء التخوم الإمبريالية. ربما لذلك السبب كان الإعتناق النهائى للإيمان الجديد من ناحية ملوكهم مباركةً وراحة لجمهرة النوبيين، الذين أبدوا آنفاً عطفات شديدةً نحو المسيحية (٢٧). إن هذا على أقل تقدير هو ما يلهم به الاختفاء السريع والكامل لآخر آثار متبقية لحضارة وثنية في نوبة القرن السادس.

خصائص المسيحية النوبية

الخلاف الدينى الذى نتج عن تحول نوباديا والمقُرة إلى مذاهب مسيحية متنافسة ما كان ممكناً أن يتشبث بالبقاء لمدة طويلة، ذلك أنه في وقت ما من القرن السابع فُتحت نوباديا أو أنها استُوعبت من جارها الجنوبى (أنظر بأدناه) . بعد ذلك حتى نهاية العصور الوسطى كان هنالك، على الأقل نظرياً ، مملكة نوبية شمالية واحدة لا غير، تمتد من أسوان إلى ضاحية مَروى. محصلة ذلك كان يجدر بها أن تكون نصراً للمسيحية الملكانية عبر أنحاء المملكة حديثة التوحد – تطوراً إقترحه في الحقيقة مؤرخان متأخران أوتيشيوس والمقريزى. إن كل واحد منهما أكد أن الكنسية النوبية كانت "اصلاً" ثنائية، وأن تحولها للدعوة الوُحُودية جاء في وقت متأخر، بعد أن برزت الكنيسة القبطية الوحودية على أنها الطائفة المسيحية السائدة في مصر تحت ظل الحكم الإسلامى (٢٨) . كيفما جرى الحال ، فهناك بَينة وافرة تثير فكرة أن كنيسة نوباديا والمقُرة المضمومة كانت وُحودية منذ البداية، بالرغم من إنتماء المقّريين الملكانى السابق (٢٩).

الإنتماء المذهبى والسياسى للكنيسة النوبية الباكرة مسألة جدال طويل، تحاوره العلماء لأكثر من جيل. لقد أشير إلى بَينة متنوعة – معمارية (٣٠) ، وأدبية (٣٢) إضافةً إلى بَينة تأريخية – لصالح كل من الإنتماء الثنائى والوُحُودى. أما التحقيقات الأشد قرباً في الزمان فقد أظهرت، مع هذا، أنه ما من بَينة منها نهائية (٣٣) . كان الحوار بين الطائفتين في قاعه سياسياً أقوى منه مذهبياً، ويبدو الآن أنه لم تفصل بينهما اختلافات تعبدية صارمة. نفس المبانى، ونفس الشعائر ونفس الصيغة الأدبية واضح أنها يمكن أن تخدم أغراض الطرفين معاً . بالتالى فإن أمراء وأساقفة طموحين أو إنتهازيين يمكن أن يُغّيروا جانبهم بلا تردد وفقاً لمهب الرياح السياسية. في هذا الخصوص يجدر ذكر أن مشايعة المقُرة في الأصل للمذهب الثنائى ربما ألهبها بشكل رئيس المعاداة الموجهة نحو نوباديا الوحودية، ولذلك أصبحت غير ذات بال أى وقفة سياسية بعد إزالة المملكة الشمالية. في هذا الوقت، إضافةً إلى ذلك، كان الوُحُوديون يكسبون بصفاء اليد العليا في مصر ، في حين ترتخى القبضة البيزنطية . لذلك فإن ما قد وقع ليس ممكناً وحسب بل إنه من المنطقى أن تتبنى المقُرة منتصرةً، كموضوع للفعالية السياسية، إيمان نوباديا المهزومة في الوقت الذى كانت فيه المملكتان متحدتين. لسوف يقال الكثير في هذا الموضوع عندما نناقش التنظيم اللاحق للكنيسة والدولة في نوبة العصور

الوسطى (الفصل الخامس عشر) .

أياً ما كانت عليه هويتها الأولى، كانت الكنيسة النوبية بالضرورة وُحُودية وقبطية بعد القرن السابع. أضحى هذا التطور مصيرياً عندما خرج الوُحُوديون منتصرين تحت ظل الحكم الإسلامى في مصر. بعيداً عن مقاومة الغزاة العرب في القرن السابع، رحب مسيحيوا مصر والشرق الأدنى في حالات عديدة بهم مُحَررين من العناء البيزنطى. إن المحافظات البيزنطية التى سقطت سقوطاً فورياً لجيوش الإسلام كانت، بحق، تلك التى أضعفها وقَسمها النزاع الطائفى على وجه الدقة، وكانت كتلة سكانها وُحُودية معادية لبيزنطة . مكافأةً لولائهم دُعِّم المسيحيون من أهل مصر والشرق الأدنى وشُجعوا في ظل الخلفاء الأوائل، في حين أن طائفة الملكان المؤيدة لبيزنطة إضُطهدت وكُبتت من وقت لآخر [٣٤] . هكذا حققت الوُحُودية تحت الإسلام السيادة بين المجتمع المسيحى التى أُنكرت عليها تحت بيزنطة؛ لقد أُنجزت، مع هذا، على حساب وضعية الأقلية في الإمبراطورية الإسلامية. ونتيجة لذلك كانت وحدات الكنائس الوُحُودية المستقلة التى تمت في مصر، وسوريا وأرمينيا في خُطى فتوحات المسلمين بالضرورة تنظيماً بطرياركياً (*) مُغلقاً على ذاته الأبوية ، ومفتقداً للنظرة العالمية للمسيحية الغربية .

فى مصر، إكتسبت الكنيسة القبطية ، برئاسة بطرياركية الإسكندية الوُحُودية، سيادةً شبه مطلقة بين المجتمع المسيحى بحلول القرن الثامن. لقد كانت بالضَرورة كنيسة قوميةً مصرية، محدودة في رؤيتها وتوظف اللغة القبطية، المتحدرة في موروثها من حديث الفراعنة، في طقوسها التعبدية. بل إنه قبل الفصمة النهائية عن القسطنطينية طورت أنفاً معاييرها المعمارية والفنية المميزة، التى امتزجت فيها تأثيرات من أيام فرعونية مع أخرى من اليونان وبيزنطة [٣٥].

بهذه الكنيسة البطرياركية المصرية بشكل أساسى التحق النوبيون المسيحيون بعد العصور الوسطى الأولى ، إن لم يكن من البداية [٣٦] . وبالرغم من أن النوبة لم تلاق مصير مصر السياسى ، وقد قاومت ما يقرب من ألف عام الإحتواء لجوف الإمبراطوريات الإسلامية ، تركت فتوحات المسلمين لمصر والشرق الأدنى المملكة الإفريقية مقطوعةً عن بقية العالم المسيحى. ولما أُزيل النفوذ السياسى والآيدولوجى للقسطنطينية، لم يعد هناك مَعْدى من أن تقع الكنائس الأهلية لكلٍ من النوبة والحبشة بين مدار الوُحُودية الإسكندرانية . هكذا من القرن الثامن على الأقل وما تلاه سَلَّم النوبيون بالبطريرك القبطى زعيماً روحياً، وُعَين أساقفتهم من الاسكندية. إن كثيراً من القساوسة والرهبان في الأقطار الجنوبية يحتمل أنهم كانوا من أصل مصرى، وقد خدمت النوبة في فترات معينة كملجأ للأقباط الفارين من الإضطهاد في مصر [٣٧]. أما الفن، والمعمار، والأدب في نوبة العصور الوسطى فكله استحذاء غير أصيل لنفوذ مصر القبطية السائد، مع أنّ الكنيسة النوبية إحتفظت حتي النهاية بملامح مميزة تُعَين ذاتيتها، كما سيُذْكَر لاحقاً.

يبقى مما يضاف أنه حتى الفتح الإسلامى لم يُضَعْ حد نهائى للمجادلة الخلقيدونية. وبينما كان الأساقفة الارثوذكسيون المعترف بهم ملكياً والمقيمون في فرس، عدا استثناءات قليلة ربما، وُحُوديين يبدو أنه وجد، على الأقل في الورق، كرسى أسقفٍ ملكانى منافسٌ في تايفا . أما انه شُغل أبداً أم لم يتم ذلك فغير صاف [٣٨]. تدقيقاً في فرس، رغم ذلك، هنالك تبديات بنفوذ ملكانى إلى وقت متأخر حتى القرن الحادى عشر [٣٩]. "لقد أثار بيير فانتيني إنتباهنا إلى حقيقة أن الخليفة الحكيم (١٠٢١ هـ)، الذى كان إبنا لجارية ملكانية إغريقية، كان يُحابى الملكانيين وسمح لهم بالذهاب إلى سوريا والنوبة، في حين كان الأقباط ممنوعين من مغادرة مصر. ويخبرنا ميكائيل السورى، وهو كاتب وُحُودى في القرن الثانى عشر، أن بطاركة الإغريق وأساقفتهم الخلقيدونيين قاموا بقلقلة سوريا، وفلسطين، ومصر وتضليلهم، على صعيدٍ واحد يضم النوبيين والأحباش، كلما عَنّت لهم سانحة [٤٠].

(*) اي إجتماعياً أبوياً – المترجم.

وفيما كان عليه الحال في قرون سابقة، ليست البّينة على نفوذٍ ملكانى في نوبة القرن الحادى عشر مما لا يجادل بشأنها، على أنه يبدو مؤكداً على الأقل أن الكنيسة النوبية لم تكن متحررة كُليةً من مجادلاتٍ مُتشيعة ساخنة (٤١).

فى الأغلب، إن لم يكن في كل تاريخها آنذاك، ما كانت النوبة المسيحية ملتحقةً بكنيسة الغرب العالمية إنما التحقت بالكنيسة الأهلية الأسيرة و (طبقاً للمرسوم الخلقيدونى) الخارجة عن القانون. هذه الحالة تركت النوبيين محرومين من السند السياسى الخارجى، كأنما تُؤكد خضوعهم النهائى للإسلام. طوال العصور الوسطى لم يبدِ مسيحيو أوروبا إهتماماً بالأُخوة الإفريقية، وقاوم النوبيون والأحباش قرنا وراء قرن إحاطة الإسلام بهم دونما مساعدةٍ من الغرب. ولما باتت الكنيسة النوبية أخيراً على حافة الإنهيار، في القرن الخامس عشر، ذهبت رجاءاتها للعون أدراج الرياح بلا مجيب، ليس من قبل روما وحدها، ولكن بنفس القدر من مصر والحبشة المجاورتين والمتعاطفتين إفتراضاً (٤٢). كانت الكنيسة الحبشية أفضل حظاً، ذلك أن إهتماماً تجارياً متنامياً في المحيط الهندى إستجلب البرتغاليين إلى شرق إفريقيا في الوقت المناسب لإبعاد إنقضاض الهجوم الإسلامى الكاسح، وليحفظ إستقلال هذا الموقع النائى كآخر معقل حرٍ للمسيحية الوحودية .

المدونات الكتابية

بالرغم من أن كتلة الشعب النوبى ظلت أميةً في كل الأزمان، فإن معرفة الكتابة يحتمل أنها كانت أوسع إنتشاراً في العصور الوسطى منها في أى وقت قبلها أو بعدها. اللسان الأهلى (النوبة القديمة) كان يكتب خلال معظم الفترة المسيحية، كذا وُظفت الإغريقية والقبطية إلى حد ما في النصوص المكتوبة. واستُعملت العربية في التراسل مع التجار والمقيمين المسلمين في النوبة السُفلى. إن قصاصات من مخطوطات ورق البرشمان النفيس شائعة التواجد في الكنائس والأديرة مثلما توجد في إعتيادِ مكتوبات سطحية على تلوين وطول. تحمل شواهد القبور دائماً صيغة جنائزية مُفَصلة. وهناك أدب أقل شكلية تمثله رسوم تصويرية تخدش أسوار الكنائس والمساكن، وشقوق فَخارية مكتوبة لا حصر لعددها .

إذا كانت القراءة والكتابة في نوبة العصور الوسطى أوسع ذيوعاً وانتشاراً عنها في أزمان سالفة، فإن دورها الوظيفى، مع هذا، لا يبدو وساعه مصاحباً لها. النصوص الباقية، رسمية وغير رسمية، في معظمها ذات طابع دينى؛ إنها تخبرنا نذراً قليلاً عن الحياة اليومية أو ما يتعلق بالتاريخ الدنيوى. لسوف يظهر طوال العصور الوسطى أن التبادل السلعى والحكم أدّيا جزءاً كبيراً من مهامهما دون انتفاع بالكتابة. وعلى حد التكافؤ لم تجد دعاية الدولة تعبيراً مكتوباً، كما كان عليه حالها تحت الإمبراطُورية الكوشية وما تواصل في عهد سلكو (الفصل الثالث عشر). الفصل الأيدولوجى ما بين الكنيسة والدولة في نوبة العصور الوسطى ليس مشهوداً عليه في أى مكان بأصفى من حقيقة أن الملوك المسيحيين، رغماً عن قوة بأسهم، لم يشيدوا أى صروح كتابية فيما نعلم. لقد بقى الفن الكتابى بجلاء في أيدى المؤسسة الدينية لمدى بعيد، ما عاد مستعملاً لتمجيد قوة موقوتة.

بالنسبة للتعميم الماضى، كما تعميمات عديدة أخرى، يبدو أن قصر إبريم يمثل حالةً إستثنائية. إن القلعة العظيمة، التى كانت من قبل نقطة شحن رئيسة في أزمان ما قبل المسيحية (قارن الفصل الثالث عشر)، تولت بدرجة أعلى إبان العصور الوسطى أهمية تجارية وسياسية أعظم. لقد كانت مركزاً لتبادلٍ سلعى شديد النماء، وكانت إضافة إلى ذلك مقراً لمسؤول الدولة النوبى ("الإبارش"(٤٣)) المناط به بصفةٍ محددة إدارة العلاقات مع مصر المسلمة. لقد غلّت الحفريات في قصر إبريم كميات هائلة من المادة المخطوطة ـ أوفر في الحقيقة مما جادت به كل المواقع الأخرى مجتمعة ـ على جلود

الضأن أو العنز والبردى، والورق، والجلد. مصاحبةً للعدد والنوعية المعتادة من النصوص الدينية، تبدو مادة قصر إبريم كذلك محتويةً على عدد كبير من الوثائق التجارية والقانونية. الوثائق التى تعنى شئونا محلية خالصة مكتوبة بالنوبة القديمة، بينما النصوص ذات الصلة بمعاملات مع مصر أو مع مصريين مكتوبة بالعربية (٤٤). معظم المعثورات من النصوص الحرفية من قصر إبريم لايزال واجباً ترجمتها أو تحليلها؛ من ثم يجب أن يضيفوا لصورتنا عن الحياة اليومية والتبادل السلعى إضافةً غنيةً للغاية، على الأقل في هذا المركز الحضرى الواحد. لا يبدو أن النصوص مع ذلك مما ينطوى على محتويات تاريخية دقيقة بالتحديد. كالعادة، يجئ إلمامنا بالأحداث والشخصيات التاريخية النوبية في العصور الوسطى في أكبر أجزائه من مصادر خارجية .

مع انشطاره نثرا، يظل السجل التاريخى للنوبة في العصور الوسطى أتم إستكمالا، وأغنى إنباء بمستوى أعلى بمراحل من أى فترة سابقة. هذا الظرف يرجع غالبا إلى الإستقصاء الفكرى والطلعة العريقة التى ميزت زمنا مجتمع الإسلام العليم. إن فتح العرب مصر، الذى أعقب بأقل من قرن مسيحية النوبة، ترك الممالك الإفريقية مستقلة سياسيا لكنه إقتصاديا وثقافياً قام بتوجيهها نحو العالم الإسلامى. مذاك وما تلاه كانت العلاقات النوبية اللصيقة تجرى مع الأقطار المسلمة بلا منازع، ومن ثم جاءت معرفتنا بالشخصيات في فترة العصور الوسطى وما وقع من أحداث بناءاً على تقارير المؤرخين والجغرافيين العرب في الغالب. لقد كانوا سُعداً، أفضل علما وأقل تحيزا من معظم رواة الأزمان السابقة. ولأنهم كانوا بأنفسهم ورثةً لحضارة صحراء "حديثة النعمة"، فقد كانوا أقل ميلا من سابقيهم للنظر بإستعلاء إلى الإفريقيين لإعتبارهم أدنى مكانة أو للثناء عليهم تشدقا بأنهم متوحشين مسرورين(*). في سرودهم غير العاطفية والتى تتسم بالإستقامة إكتسى النوبيون، يكاد لأول مرة في التاريخ، شخصية أُخوة إنسانية: عاديين، لا تتخطفهم العيون .

جاء تيقظ إهتمام علماء الغرب بالنوبة في العصور الوسطى في وقت قريب بشكلٍ غير عادى. فقد كرّس بدج في عمله الرائد عن التاريخ السودانى، الذي كُتب في بداية هذا القرن، أكثر من عشرين صفحة لثمانية أو تسعة قرون من هيمنة النفوذ المسيحى. (٤٥). وتُركت البقايا الأثرية الوفيرة جيدة الحفظ للنوبة المسيحية غير محققة من المسح الآثارى الأول، متى كُشف النقاب عن أن القبور المسيحية كانت خاليةً من القرابين (٤٦) . لقد إعتُقد، فيما هو ظاهر، أن الكنائس ومواقع المدن لا تحمل جديداً تخبر عنه؛ توصيفهم "أقباطاً" أنبأ بكل شئ حولهم (٤٧). بل إن رايزنر العظيم يبدو غير ذى اهتمام بالبقايا الأثرية للنوبة المسيحية، مع أنه كان المحقق الرائد في كل فترة تاريخية أخرى من ثقافة المجموعة الأولى إلى ثقافة المجموعة المجهولة .

لقب الرائد في الدراسات النوبية المسيحية يعود إلى معاصر رايزنر ف. ل ١ . قريفيث الذى حقّق في باكورة القرن العشرين عدداً من الكنائس والبقايا المسيحية الأخرى في ضاحية فرس، (٤٨)، وحوالى نفس الزمن إفتتح كذلك الدراسة اللغوية للنصوص النوبية في القرون الوسطى (٤٩). ومع أن مناهجه الميدانية كانت بشكلٍ ملحوظ غير مُحْكَمة، يستحق قريفيث حمدا جزيلا لإهتمامه اليقظ تجاه حقلٍ متجاهل بلا عدل. إن العبقرى المنظم للدراسات المسيحية كان مع ذلك عالما في الجيل التالى، أوقو مونرى دى فيلار. مُستَحثّا بجهده الذاتي في غالب الأمر، كلف أثناء المسح الآثارى الثانى (١٩٢٩-١٩٣٤) ليقوم بمسح تمحيصي للبقايا الأثرية ليس في المنطقة المهددة مباشرة وحسب، ولكن في طول النوبة بأسرها من أسوان إلى الخرطوم. لقد سمح هذا التدبير للمسح الجارى في إنتظام، بإشراف امرى وكيروان، بأن يُكرس جهده بوجهٍ كلى لبقايا الفترات السابقة. إنه لمما ينبغى ذكره (وبشكل خاصيةً) مع هذا أن مونرى دى فيلار لم يُزَوّد فعليا بأى أموال للتنقيب، وكان جرد *الصروح*

(*) يجب التنبه إلى رفض المؤلف مبدئياً لكلٍ من السلوكّين ؛ أنظر بوجهٍ خاصٍ الفصل العشرين ، دروس النوبة – المترجم.

الممحص [٥٠] الذى جاء محصلةً لجهوده مؤسسا يكاد بكليته على ملاحظات ممنهجة على السطح [٥١]. لمدى كبير للغاية، كان على التنقيب المنظم إجرائيا للبقايا المسيحية أن ينتظر حملة الإنقاذ في الستينيات .

تابع مونرى دى فيلاد تحقيقاته الميدانية بمسح يساويها تمحيصا لمواد المصادر الكتابية العربية، والقبطية، والمأثورة من القدم. من مراجع متقطعةٍ لا حصر لعددها إستجمع، بأوسع قدر ممكن، تاريخا ووصفا سياسيا للنوبة في العصور الوسطى. يبقى عمله *قصة النوبة المسيحية* [٥٢]، بعد ثلاثين عاما، المحاولة الوحيدة من نوعها التى اضطلع القيام بها، وخدمت كنقطة إنطلاقٍ لكل الدراسات اللاحقة. إن حفريات السنوات الراهنة أضافت في الحقيقة نذرا قليلا لصورة مونرى التاريخية [٥٣]، ذلك أن إستطلاع المؤلف للمصادر الوثائقية كان مُتقَنا بجهدٍ مرير. لقد ساهم علم الآثار مساهمة ضخمةً في المعرفة الثقافية والإجتماعية عن النوبة في العصور الوسطى منذ أيام مونرى دى فيلار، لكنه حول تاريخ المنطقة أخبرنا من الجديد هَوْنًا. وما يتلو من سردٍ مأخوذٌ لذلك السبب بتوسعٍ كبيرٍ جدا من صفحات مونرى أو من مصادرٍ إكتشفَها بنفسه .

النوبة المسيحية والعالم الإسلامى

ما مضى حين على إذعان النوبة لعقيدة مصر، كما وُصف في الصفحات السابقة، حتى كان القطر الشمالى مكتسحا مقهورا من لدن غزاة يحملون إيمانا جديدا. عُلّمت بداية السقوط البيزنطى في مصر بغزوٍ وإحتلالٍ ساسانى (فارسى) للقطر بين ٦١٦ م و٦٢٩ م. تقدمت الجيوش الفارسية طبقا لبعض المصادر إلى تخوم النوبة، أو حتى وراءها [٥٤] ، رغم أنه لا توجد بّينة أثّرية على حضورها. ومن بعد طردهم فيما لا يعدو حقبةً من الزمان جاء الهجوم العربى العاصف الذى كال نهايةً حاسمة للحكم البيزنطى، ولكل الأغراض العملية للحضارة القديمة، على نهر النيل. بدئ فتح مصر في عام ٦٣٩ ، سبعة أعوام فحسبٍ بعد وفاة محمد (*). ما كانت إلا مقاومةً هينة عدا الإسكندرية، وعُضدت قضية العرب بشكل معتبرٍ من قسم كبير من السكان الأقباط. وبعد تسليم الإسكندرية في ٦٤٢ م أصبحت للمقاصد العملية فيْ أيدى العرب، كما ظلت أبدا منذ ذلك الحين [٥٥].

إن القائد العربى عمرو بن العاص لم يكد يكمل إخضاع مصر حتى وجه انتباهه للجنوب فجُردت قوة فرسان من ٢٠٠٠٠ رجل إلى باطن النوبة، ولكن بُعْد توغلها إلى بُعْد دنقلا، بين الشلالين الثالث والرابع، لقيت مقاومةً لم يلاقِ مثلها أى جيش عربى آخر في القرن الأول من التوسع الإسلامى. كانت معركة دنقلا الأولى نَكالا علَى الفاتحين، الذين أُجبروا على التفاوض والإنسحاب. ومما يستحق الذكر أن رواة العرب، الذين دّونوا هذا الحدث، كانوا على وجه الخصوص مبهورين بالفعالية القاصمة للنَّبالة النوبيين [٥٦] ؛ لقد ظلت النوبة محفلا يُزْدَهي لرُماة نِبالها منذ ماضٍ يعود إلى الدولة [الفرعونية] الوسطى .

هجوم آخر أشد تناسقا شُنَّ على النوبة في ٦٥١ – ٦٥٢ م. مرةً ثانية تقدم الفاتحون إلى دنقلا، حيث وقع التحام آخر عنيف. طبقا لشاعرٍ عربى "لم ترَ عينى مثل يوم دُنقُلَةْ والخيل تغدو بالدروع مُثْقَلَةْ" [٥٧]. أُطلقت القذائف على أسوار المدينة النوبية، وهُدمت كنيستها الرئيسة أو دُمرت .

كانت معركة دنقلا الثانية بشكلٍ جَلِى غير حاسمة عسكريا، وانتهت بهدنة جرى التفاوض حولها. أما المعاهدة التى بلغها الطرفان ويدعوها المؤرخون العرب *البقط* (فيما يظهر من pakton الإغريقية) فقد فُسرت بتأويلاتٍ شتى في أنها جزية مفروضة ومعاهدة للتبادل السلعى بين قوتين ذاتى سيادة [٥٨] . أما الشروط، وفقاً للجغرافى المقْريزى، فكانت:

(*) نبي الإسلام محمداً عليه افضل الصلاة والسلام – المترجم.

عهدٌ من الأمير عبدالله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته. عهدٌ عقده علي الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة أن عبدالله بن سعد بن أبى سرح جعل لهم أمانا وهُدنة جاريةً بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة [الدهماء، أى المسيحيين واليهود].

إنكم معشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبى صلعم، على أن لا نحاربكم، ولا ننصب لكم حرباً، ولا نغزوكم، ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم .

[تحديداً:] على أن تدخلوا بلادنا، مجتازين غير مقيمين فيها، وندخل بلادكم مجتازين غير مقيمين فيها. وعليكم حفظ من نزل بلادكم أو يطرقها من مسلم أو معاهد، حتى يخرج عنكم .

وإن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين، حتى تردوه إلى أرض الإسلام. وعليكم رد من لجأ إليكم من مسلم محارب للمسلمين، وأن تخرجوه من بلادكم إلى أرض الإسلام ولا تستميلوا عليه[تعينوه]، ولا تمنعوا منه (الرجوع].

وعليكم حفظ المسجد الذى بناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مُصَلّيا، ولا تعرضوا لمسلم قصده وجاور فيه إلى أن ينصرف عنه. وعليكم كنسه، وإسراجه، وتكرمته .

وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأسا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، فيها ذكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم. تدفعون ذلك إلى والى أسوان. وليس على مسلم دفع عدوٍ عرض لكم، ولا منعه منكم، من حد أرض علوة إلى أرض أسوان.

فإن أنتم أويتم عبدا لمسلم أو قتلتم مسلما أو معاهدا، أو عرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس والستين رأسا، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سوء حتى يحكم الله بيننا . وهو خير الحاكمين.

وعلينا بذلك أن عهد الله وميثاقه وذمته، وذمة رسوله محمد صلعم ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم. الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك. (٦٠)

بمقتضى شروط *البقط*، تبدو النوبة ممنوحةً شيئا يعدل مكانة مملكة عميلة للإمبراطورية الإسلامية لحد بعيد مثلما استعلى على نوباديا مرةً كمملكة عميلة لروما (٦١). أما إذا ما كان ما رُتِّب يمثل إنتصارا للنوبيين أو للعرب فإنه ظَلّ هدفا لمساجلة طويلة. من جانب واحد كان الطهر السياسى والدينى مكفولا مدى الحياة؛ وفى الجانب الآخر أُطبق على النوبيين بتعويضٍ سنوى مُثْقِل ٣٦٠ من الرقيق، دعك عن الإذلال بكنس الجامع في دنقلا وإنارته. إن حساباتٍ أخرى للمعاهدة، مع ذلك، تتحدث عن تبادل بضائع متساوية القيمة كان علي النوبيين أن يقوموا بتسليمها عندما يُسَلّمون عبيدهم لأسوان .

يُورد على خليفة حميد بن هشام البحيرى، أن الشروط المعقودة للسلم مع النوبيين تكونت من ثلثمائة وستين رأساً من الرقيق إلى سقيفة المسلمين، وأربعين لوالى مصر، وأن عليهم أن يستلموا في المقابل الف أردبٍ من القمح، ولمناديبهم ثلثمائة أردباً منها؛ نفس الكمية من الشعير تُعطى ، بالإضافة إلى الف كنيرٍ من النبيذ للملك، وثلاثمائة كنيرٍ من النبيذ للمناديب، مصحوبةً بمهرين من افضل نوع، تليقان بالأمراء. فوق ذلك، من الأصناف المختلفة للكتان والقماش مائة قطعة (٦٢) ، ومن النوع المسمى كوباتى أربعة قِطَع للملك وثلاثة للرسل المبعوثين، ومن النوع المسمى باكترى ثمانية قِطَع، ومن المَلام خمسة قِطَع، وعلاوةً على ذلك جبةً للملك. من القمصان المسماة علاى باكتار، عشرة قِطَع، ومن أجود نوع من القمصان عشرةً بالمثل، كلُ واحدٍ منها يساوى ثلاثةً من النوع العادى (٦٣).

معاهدة *البقط* ، كافلة كما فعلت لسيادة أُمّةٍ غير مسلمة ، لم يكن لها سابقة في التاريخ الأول

للإسـلام. وحيدين بين شـعوب العالم، أُبعد النوبيون على صعيدٍ واحد من *دار الإسلام* (مسكن المؤمنين) ومن *دار الحرب* (شكلياً، مسكن العدو)، الطائفتان اللتان قُسِّم في داخلهما باقى العالم (٦٤) . يسبب طبيعتها المفارقة، كان معنى المعاهدة مَثاراً للجدل حتى من ناحية الفقهاء العرب المعاصرين. طبقاً ل فوراند، "... مع أنها دُعِيَت صُلحاً من البعض، فهى لا تقع ضمن تلك الطائفة كما هو مفهوم عموماً. فالكلمة *صلح* عادة تضمّن معناها أن المسلمين إحتلوا بلداً وإنهم كانوا في موقع الأمر والنهى ... ماساد أياً من هذه الظروف في ذلك الوقت؛ فالحقيقة ، أن النوبة لم تكن قد أُحضرت مطلقاً تحت سيطرة المسلمين خلال قرون الإسلام الأولى . كانت المعاهدة حالة خاصةً جداً؛ لم تكن معاهدة أو عهداً بالمعنى المألوف. لقد اعتُبرت في راجح الأمر "هدنة" ... أو كأداة "للتحييد" أو "المصالحة" (٦٥).

كيفما جاز وضعها القانونى، فإن المنطق وراء *البقط* يبدو صافياً بما فيه الكفاية. المعاهدة نفسها تعلن إهتمام العرب الرئيس بالنوبة مصدراً للرقيق. ولما كان أياً من المسلمين أو المسحيين الذين يعيشون تحت وصايتهم (الدهماء) مما لايمكن إسترقاقه، كانت هناك منفعة تُجنى من الحفاظ على نوبة مستقلة ولكنها مُحَيدة سياسياً خارج حكم الإسلام. ولبعض فقهاء العرب المتأخرة مجادلة أن المعاهدة أضفَت على النوبيين في حقيقة الأمر وضع الدهماء ، لذلك كان أخذ الرقيق منهم غير أخلاقى ، بيد أن القضية تمت معالجتها بإفتراض أن النوبيين أنفسهم كانوا يأسرون الرقيق من جيرانهم الوثنيين (٦٦).

لم تبق معاهدة *البقط* نافذةً وحسب لكنها حددت مصيرياً لمدى عظيم مجرى العلاقات الإسلامية – النوبية لستمائة عام. مبتدأ الحال أن النوبة تُركت في سلام طوال القُرون عندما كانت جيوش الإسلام تجتاح شمال إفريقيا، وإسبانياً ، وإمبراطورية بيزنطة المتناقصة دوماً، وآسيا الوسطى. كانت أسوان وحدها بحق التخوم الثابتة التى اعترفت بها رسمياً الإمبراطورية الإسلامية أبداً. في نفس الوقت، أمَّنت عملية تأسيس العلاقات الاقتصادية بمقتضى شروط الإتفاقية إهتماماً مصرياً مستمراً في الأرض الجنوبية. إن الصعوبات التى ثارت بين النوبة المسيحية وجيرتها الإسلامية كانت في أغلبها محصلةً لعجز النوبيين أو رفضهم لمقابلة شروط *البقط*، بالتالى تشخَّص المعاهدة في عمقٍ في تاريخ دبلوماسية القرون الوسطى .

يستحق الذكر أن مدونات العرب للحملات النوبية لا تذكر شيئاً عن مملكة نوباديا الشمالية. لقد زحف الغزاة للجنوب مباشرةً إلى دنقلا (٦٧)، مدينة لانملك عنها معرفةً سابقة ، لكنها كانت واضحة خلال ذلك الزمن كعاصمة لمملكة المقُرة. إن المعاهدة التى تفاوضوا بشأنها كانت إلزامية على "عظيم النوبة ولجميع أهل مملكته ... من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة" (٦٨) . فالملك المقُرى كان لذلك محسوباً كسيدٍ على كل النوبيين الشماليين .

ضمت المؤرخين العرب فيما يتعلق بنوباديا قد يبدو بما لا يمكن تخطئته مُوحياً بأن المملكة الشمالية كانت قد توقفت عن الوجود سلفاً كوحدة سياسية مستقلة بحلول منتصف القرن السابع (٦٩) . من الجانب الإخر جادل مونرى دى فيلار (٧٠) وآخرون (٧١) بأن إخضاع نوباديا من قبل المقُرة أخذ مكاناً في زمان متأخر، تحت حكم الملك المقرى مركوريوس، الذى يدعوه مؤرخو القبط "قسطنطين الجديد" . هو في كل حالة أول ملك مقُرى يُذكر اسمه في كتابات تكريسية للنوبة السُفلى، يرجع تاريخها إلى ٧٠٧ و ٧١٠ م (٧٢) . منذ ذلك الوقت وما أعقبه من زمن إتَّفقت كل الأطراف العليمة أنه كانت هنالك مملكة نوبية شمالية واحدة، تمتد من أسوان وتبعد جنوباً حتى الشلال الخامس على الأقل، بدنقلا مقراً ملكياً وحاضرةً رئيسة (الشكل رقم ٦٩) (٧٣).

لايبدو أن المملكة المتحدة لنوباديا والمقُرة كان لها إسم مميز؛ إنها تُدعى أحياناً بإسم محافظتها المنيعة، المقُرة، وأحياناً أخرى بإسم حاضرتها، دُنقلا. إستمرت منطقتها الشمالية

موصوفةً على وجه منفصل من ناحية كتاب عديدين بالإسم القديم نوباديا أو، في أزمان متأخرة، كمحافظة ماريس [٧٤] مثلما سنرقب في وقت لاحق (الفصل الخامس عشر)، إحتفظت المنطقة الشمالية بهوية عرقية ووضعية سياسية خاصين بها تحت هيمنة المقُرة .

هنالك أسطورة أنه في عام ٧٤٥م، أي بعد مائة عام بعد *البقط*، غزا جيش نوبي من ١٠٠,٠٠٠ رجل مصر وأجبر الحاكم العربي على إطلاق سراح بطريرك الإسكندرية، الذي كان قد أودعه في السجن إنفاً [٧٥] . إن القصة يُحتمل أنها من نسج الدعاية المصرية المسيحية، لا تدعمها بيّنه يعتمد عليها، لكنها تدعو بالفعل للتأثير بأن البطارقة الأقباط ربما أنهم نظروا إلى النوبة للدعم السياسي ، بمقدار ما كانت الكنيسة البيزنطية مُجبرة للتوجه إلى قيصر روسيا عقب الفتح التركي للقسطنطينية. وسواء كان حقيقياً أو مُتخيلاً ، محتملٌ أن التهديد بغزو نوبي أعطى المسيحيين المصريين فعالية سياسية معينة في موقفهم الذي كان من غير ذلك فاقداً للسلطة في ظل نظام الحكم الإسلامي [٧٧].

في ٧٥٨م كتب حاكم مصر العباسي الجديد إلى الملك في دُنقلا يتذمر من إخفاق النوبيين في إيفاء بعض التزاماتهم بموجب *البقط*. مقرونةً بمظالم أخرى إتهم المصري أن إنتهاباتٍ إرتُكِبَتْ في مقاطعة أسوان من البلميين (البجا) ، والواضح أن النوبيين إعتُبروا مسالمين، وفق المعاهدة ، عن السلوك الحسن لجيرانهم الصحراويين بالمثل. إن وجود رسالة الحاكم كان غير مرتاباً فيه حتى عام ٢٨٩١م عندما رأت الرسالة نفسها النور في قصر إبريم. كان من المُتبين أنها تم تقديمها من ملك دنقلا إلى الإبارش في قصر إبريم بإعتباره موظف الدولة صاحب أقرب إختصاص مباشر. ثم وُضعت نهاية الأمر في قُبو للتخزين رفق وثائق أخرى بالقبطية، ربما كان أحدها مُسودة لرد الإبارش. ومع أن الوثائق القبطية في حالة منشطرةٍ وغير مكتملة، تكاد رسالة الحاكم أن تكون مُتقنة الحفظ، وهي حتى حينه أكبر نموذج ظل باقياً للكتابة العربية من تاريخ باكر كمثل ذلك الوقت. مخطوطةً على قطعة من البردي عرضها ثلاثة أقدام وفوق الثمانية أقدام طولاً، تشمل تسعة وستين خطاً في نص صافٍ جميل الصنعة. إن المراسم (بما فيها اسم الملك لسوء الحظ) مفقودة [٧٨].

وقع أحد أعظم الأحداث قيمة وأهمية في تاريخ الدبلوماسية النوبية في مطلع القرن التاسع. إنقسم الرأي ثانيةً ما إذا كان الناتج يمثل نصراً أم هواناً للنوبيين. فخلال فترةٍ من الإضطراب الديني والإضطهاد الموجه للأقباط في مصر، توقف ملك المقُرة لأسبابٍ مفهومة عن تدبير الجزية السنوية المقررة *بالبقط*. ولدى تناهي الموقف إلى علم الخليفة المعتصم في بغداد، بعث رسالة لا يطلب أداء الجزية فحسب بل إعادة الدفع لتعويض أربعة عشر عاماً ، ما يربو على ٥٠٠٠٠ من الرقيق. ولما كان الملك النوبي غير قادر على مقابلة مثل هذا الطلب الثقيل، فقد بعث بإبنه، الملك جورج الأول في وقت لاحق، إلى بغداد ليفاوض بنفسه الخليفة . لقد كان ، إلى المدى الذي أدركناه، أول أمير نوبي يظهر في بلاطٍ خارجيٍ منذ تنوتامون، وريث تهارقا (الفصل العاشر).

إن السفارة النوبية إلى بغداد، مثل حملات دُنقلا ومعاهدة *البقط*، مشهورة في الأدب العربي، ومشار إليها في عدد من روايات مختلفة [٧٩]. مع ذلك فإن " كل المؤرخين الذين ذكروا الرحلة يقولون إنها كانت مكللةً بالنجاح. فقد خلصت إلى معاهدة ثُنائية بعدم الإعتداء وعدم التدخل، كافلةً لأمن تخوم المسلمين (مصر العليا) وتخفيض *البقط*" [٨٠] . وسط التنازلات المحددة التي يبدو أن الأمير جورج حصل عليها الإفراج عن سجناء نوبيين معَينين، وموالاة ما انقطع من دفع مصري لسلع مقابل الرقيق النوبي ، وبند أضيف أن التبادل يجب أن يُجرى كل ثلاثة أعوام بدلاً عن كل عام [٨١] . إضافة إلى ذلك، فإن الخليفة " أعطاه هدايا وفيرة، وأعاده إلى وطنه بالتشريف والتكريم" [٨٢] . هنالك إمكانية، مع هذا ، أن جورج قام برحلةٍ ثانية إلى بغداد في ظروف أقل سعادة، كسجين عسكري عقب هزيمة مُنّي بها من المصريين. إن مصدر هذا النبأ غامض؛ ويجوز أنه رؤية إسلامية غيورة معادية للنوبيين منذ الزيارة الأولى وكفى [٨٣].

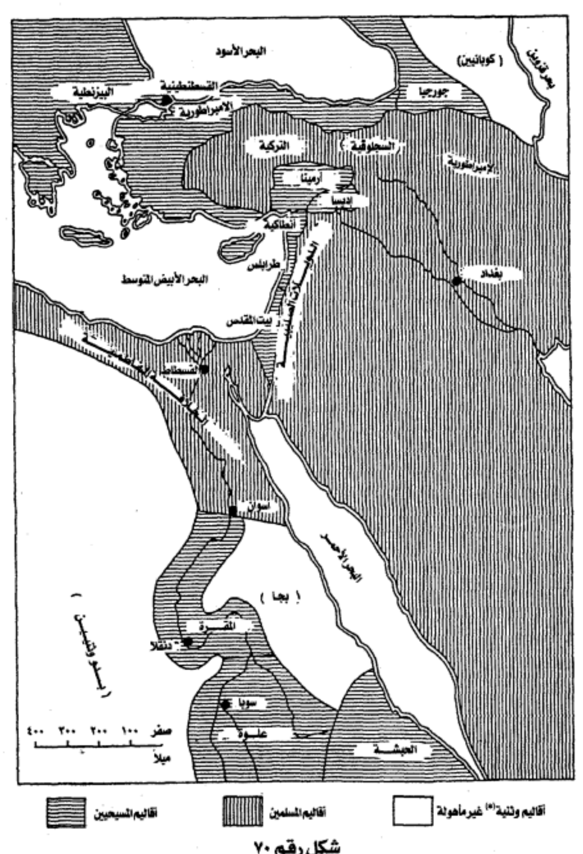
القرون التى تلت السفارة النوبية إلى بغداد شهدت أوج القوة السياسية النوبية المسيحية، لكنها كانت زمناً من الضعف والقلقلة فيما بين مصر . نتيجةً لذلك يبدو أن الهدنة التي أُنشئت من قبل تحت *البقط* وأُعيد التأكيد عليها في بغداد إنتهكت في معظم الحالات مكرراً من النوبيين أكثر من المصريين. بعد الإطاحة بسلطة العباسيين في ٨٦٨، غاصت مصر في جوف فترة طويلة من التأجج السياسى . إن الأسر الطولونية والأخشيدية قصيرة الأجل قلما كانت قادرةً على أن تحكم بفعالية في المحافظات، وبوجه خاص في مصر العليا. أغلبية المصريين في مصر العليا فيما هو جائز ما انفكوا اقباطاً في هذا الزمن، لذلك ربما كانوا بأشد تعاطفٍ مدفوعين بَيْنَ بَيْنَ نحو النوبة المسيحية منهم صوب حكومات المسلمين على فسادها وطغيانها في وطنهم نفسه. منح ضعف الحكومة المركزية على كل حال لكل من النوبيين النهريين والبجا سانحةً لإستئناف الإغارة من وقت لإخر على مصر العليا والواحات، ديدنهم من قبل أزمان ما قبل المسيحية (الفصل الثالث عشر) . وبعد إغارة مفاجئة كانت مثلاً لتلك الإغارات ، في ٩٦٢م ، يبدو أن جزءاً واسعاً من مصر العليا إعتُبر دافعاً الجزية لمملكة المقّرة فترةً بلغت عدة سنوات [٨٤].

فى ٩٦٩م ، عندما تقلدت الخلافة الفاطمية السلطة في مصر، كانت *البقط* مرة أخرى واجبة السداد. في هذه المرة كان الدور على المصريين لعمل مقدمات دبلوماسية . فأرسل جوهر، الحاكم الفاطمى جديد التعيين في القاهرة، مبعوثاً خاصاً برسالةٍ للملك النوبى ، يرجو منه في أدب إما أن يعتنق العقيدة الإسلامية وإما أن يوالى دفع الجزية. " حال وصوله البلاط الملكى في دُنقلا، إستقبل الملك سفير المسلمين بأدبٍ جم. ثم التقى الملك كل أساقفة مملكته وعلمائها ليجتمعوا بالسفارة المسلمة. بعد نقاش مفتوح ، قرأ الملك على الجمعية دعوةً إلى جوهر ليقبل الإيمان المسيحى. إن الشهادة الشجاعة للنوبيين المسيحيين لابد أنها بهرت المسلمين بشكل معتبر، ذلك أن جوهر إمتنع عن القيام بأى تدخلاتٍ عسكرية في النوبة" [٨٥] . إننا لا نعلم، من هذا السرد، ما إذا كانت *البقط* قد استؤنفت أم لا؛ فهى لم يرد ذكرها ثانيةً في المدونات العربية لثلاثمائة عام. لقد كانت العلاقات بين الممالك النوبية ومصر الفاطمية، في كل الحالات، صافية على العموم.

كانت الإطاحة بحكم الفاطميين في ١١٧١م من صلاح الدين الأيوبى، الشهير في المدونات الغربية بسلادين، نذيراً لعداوات مُجّددة في الجنوب. قام جيش نوبى بأسر أسوان وسبيها وكان يتقدم شمالاً، أما في بحث عن الغنائم نهباً أو دعماً لقضية الفاطميين، حتى بلغت الكلمة المسامع أن صلاح الدين يتهيأ لهجوم مضاد. عند ذاك تراجع النوبيون إلى عقر دارهم، حيث أحاط بهم المصريون متعقبين لهم، ووقعتْ معركة غير حاسمة.

إتخذ صلاح الدين في العام التالى إجراءاً اقوى تناسقاً في مواجهة النوبة. إن اهتمامه بالأرض الجنوبية، وفقاً لتقرير واحد، حرك دوافعه إعتبار أنه ربما يتقهقر عليها كقاعدة لعملياته إذا أُجبر على مغادرة مصر، سواء كان ذلك من جهة الصليبيين أو من أعدائه المسلمين[٨٦]. بالتالى ، أرسل أخاه، شمس الدولة، على رأس تجريدة عسكرية إستولت على قلعة قصر إبريم في النوبة السُفلى واحتلتها – نفس النقطة القوية التى استولى عليها الرومانى بترونيوس قبل ألف عام سلفت (الفصل الثاني عشر) . إن سرد " أبو صالح" المعاصر يشير إلى أن الغزاة أخذوا الجمع المستحيل ل ٧٠٠,٠٠٠ سجين ، ثم بيعهم جميعاً كرقيق، وإنهم قتلوا ٧٠٠ خنزيراً. أما الكنيسة الرئيسة في قصر إبريم فقد حُولت مؤقتاً إلى جامع، وسُجن الأسقف وعذب . مع ذلك، فإن تجريدة عسكريةً إلى دُنقلا اقنعت شمس الدولة بأن البلد كان غير منتج ليخدم كقاعدة سياسية أو عسكرية، وصرف صلاح الدين النظر عن اى طموحات إضافية في ذلك الإتجاه . ثم سُحبت القوة المحتلة من قصر إبريم، وساد السلام في النوبة لمائة عام أخرى[٨٧].

بدأت الصراعات التى كانت أخر المطاف خاتمةً لمصير المسحية في النوبة وقتاً قصيراً بعد ١٢٦٠ ، عندما استولى المماليك البحرية على حكم مصر. في ذلك الزمن كانت المملكة النوبية



شكل رقم ٧٠
الشرق الأدنى فى زمن الحرب الصليبية الأولى

(*) لا يدين سكانها بالإسلام أو المسيحية أو اليهودية - المترجم.

الشمالية مغلقة في ذاتها بإضطرابات أسرية، وكان دور للمصريين للمرة الثانية ليصطادوا في مياه سياسية عكرة. إضافة إلى ذلك، كان النوبيون المسيحيون مهددين الإن على طول جنبهم الصحراوى من بدو الأعراب الذين تدفقوا إلى داخل تلال البحر الأحمر خلال القرن الماضى، وكانوا في وقت لاحق قد تسربوا مخترقين مملكة دُنقلا نفسها. ثابر المماليك، عسكراً معتدين على سياسةٍ نحو الجنوب أشد نشاطاً بمستوى يزيد عما قام به أى أحد سابقاً لوجودهم، وَقلّب تدخلهم المتواصل في الشؤون النوبية بعد القرن الثالث عشر ميزان القوى لصالح العنصر الإسلامى المتنامى في السكان . تلك القصة ، بأى قدر كانت، تنتمى إلى عصرٍ أخر، ولسوف يجرى حسابها في فصل متأخر (الفصل السادس عشر). وقبل أن نعتبر إضمحلال المسيحية النوبية وسقوطها، علينا أن نتوقف هُنيئةً فنُلقيَ نظرةً تمتد نحو "العصر الذهبى الثانى" الذى تمثله حضارة الفترة الوسطى.

الفصل الخامس عشر

التاج والصليب

حضارة النوبة المسيحية

عُنينا في الفصل الأخير بمكانة النوبة في العالم الأكبر للعصور الوسطى - وهو عالم سادته المواجهة بين المسيحية والإسلام ستة قرون. علينا الآن أن ننقل مجهرنا إلى البوصلة الأضيق للأحداث والأحوال فيما بين حدود النوبة. هنا كما جرى من قبل، يَشّح السجل التاريخي، إلا أنه في هذه الحالة يهَب علم الآثار هبةً كبرى لأسعافنا. إن النوبة تخوض غمارها بلا قرار وصوفاً موجزةً في إثارة، تركها لنا كتاب العصور الوسطى (انظر أدناه) ملحقةً بسجلٍ غنى منوع المادة، وقد بدأ بشكل نهائى إبان الحقبة الأخيرة في تلقى التنبه الذى يستحقه. نتيجةً لذلك يصير إلمامنا بالحياة اليومية في فترة العصور الوسطى أوثق كمالاً منه في أى زمن سابق أو متأخر .

إن أزيد من ربع المواقع الأثرية يبدأ تاريخا من الفترة المسيحية [1]. تشمل هذه ما يفوق المائة كنيسة عدداً، مراكز حضرية عظيمة مثل قصر إبريم، وفرس، ودُنقلا العجوز، عشرات من المدن والقرى الأصغر، قلاعاً، وأديرةً، ومواقع صناعية، ومدافن بالطبع. معظم هذه البقايا محفوظة بفضل عمرها الشبابى أحسن من بقايا الحضارات الأولى؛ وقد وُجدت بعض الكنائس وعديد من المساكن النوبية صالحة بالفعل. برز آنفاً ذلك التحقيق المنظم بمنهجيةٍ للآثار المسيحية، الذى كان قد بدئ بجديةٍ بالغة في ١٩٦٠م، كإنجاز باهر لحملة إنقاذ أسوان الثالثة والأخيرة، مُعوضاً عن أشد حالةٍ بادية من الفقدان في الحملتين السابقتين. التنقيب الحفرى متواصل في المساحة جنوب النهر من خزان أسوان، بالإضافة إلى قصر إبريم، وتمنح دراسة التاريخ والآثار النوبية في العصور الوسطى كل وعدٍ مبشر بالولوج إلى حقل جديد على دوام من الجهد العلمى [2]. إن أمر تطويره صار بلا ريبٍ مُستثاراً بأعظم كشفٍ أثرى مثير في أجيالنا: ألا وهو الرسومات الحائطية في فرس (انظر "الدين والكنيسة"، بأدناه، والصور ٢١ - أ إلى ج).

لزمنٍ طويل يحتمل أن مجرد الكم والنوع لبقايا الآثار المسيحية شكّل كابحاً لتحقيقٍ يُنّظم بمنهجية. علاوة على ذلك، كانت مسألة وضع التواريخ والتسلسل الزمنى دائمة الحضور. في النوبة دائما، يمكن تأريخ حفنة مبانٍ لا أكثر من الفترة المسيحية بالدليل المباشر [3]؛ أما الأغلبية العظمى فلا يمكن تحديد مصيرها سوى لفترة تمتد ثمانية أو تسعة قرون ما بين دخول المسيحية وإختفائها النهائى. في الحِقبة المنصرمة، أياً ما اتخذ وضعها، عكست دراسات لطبقات المسح أجريت على الفّخار [4]، والمعمار [5]، والرسم [6] تعاقباً تطورياً يَعِدُ بفصل عناصر المتشابك الأثّري العّصِي. فأغلب المواقع يمكن تأريخها الآن بين قرن أو قرنين على أساس بقاياها الأثّرية والخزفية، ويمكن تقسيم الفترة المسيحية بأكملها أفرعاً إلى مراحل باكرة، ومأثورة، ومتأخرة، ونهائية [7]. هكذا مستبصراً عبر منظور تطوري، لا يدوم ما ظل يقدمه فن فترة العصور الوسطى ومعمارها من بلبلةٍ في الأساليب والممارسات بمثلما بدت عليه الحالة في إحدي المرات .

البقايا المادية للعصور الوسطى النوبية نحو ما هى دائماً عليه، غنية الإعلام بظروف الحياة المعيشية اليومية. إن البضائع المتداولة التى ظلت باقيةً تمنحنا مقياساً بلا تدقيق للتجارة وتموجاتها، إضافة لذلك يخبرنا رسم المدن والقرى، الذى يمكن إدراكه بصفاء يفوق مراحلاً ما أُدرك في العصور

الوسطي بالأزمان السالفة، قدراً عظيماً من الأحوال الإجتماعية ومتغيراتها [٨]. في المحيط الأيدولوجي نحصل كذلك على نظرة ثاقبة نحو باطن الحياة الدينية لتلك الأزمان، إذ أن ثقافة العصور الوسطى النوبية كانت ثرةً في الرمزية الدينية إلى حد إقصاء كل أنواع الرمزية الأخرى. لهذا السبب عينه فإن السجل، مع ذلك لا يُنبئ شيئاً عن التاريخ السياسي الدنيوي؛ ومن هنا يجب علينا أن نواصل الإعتماد على البّينة النّصية المنشطرة وغير المرضية دائماً كما تَحدّرت إلى علمنا .

عروض معاصرة للنوبة في العصور الوسطى

مع أن صورتنا عن الحياة اليومية في العصور الوسطى لابد أن تؤسس إلى حد بليغ على البّينة الأثرية، بوسعنا أيضاً أن نستمدها من ثلاثة سرود لمراقبين معاصرين: العُمري، وابن سليم الأسواني، وأبو صالح "الأرمني". إن أياً من تلك السرود، مع ذلك، لم تتحدر إلينا في صيغتها الأصلية كاملة. مغامرات العُمري والوصف الجغرافي الذى كتبه ابن سليم معروفين لنا من مقتطفات في جغرافية القرن الخامس عشر للمقّريزى [٩]، بينما مؤلف أبو صالح *كنائس وأديرة مصر وبعض أقطار مجاورة* يظل باقياً في نسخة من القرن الرابع عشر غير مكتملة وشديدة الخرق [١٠]. حتى في هذا الشكل المتمزق ، برغم ذلك، يوفر المؤلفون (وعلماء متأخرة لا حَصْرَ لهم كانوا قد نسخوا بوضوح عنهم) البصيص الأصلي الوحيد الذى نملكه عن الأحوال في النوبة بالعصور الوسطى، فالقيمةُ التأريخية لتقاريرهم لا يدركها ثمن .

كان العُمرى صُعلوكاً عربياً يغلب أن يكون على غرار المغامرين العسكريين الأمريكيين غير النظاميين الذى أشاعوا الرعب في جمهوريات أمريكا الوسطى قبل مائة عام خلت. غزا النوبة على رأس ما يرقى إلى جيش خاص في الجزء الأخير من القرن التاسع، بهدف السيطرة على مناجم ذهبها المخزون. وسواء أكانت المناجمُ بالفعل منتجةً في هذا الوقت، أم أن العُمرى فعلت به ما فعلت أحاجي ثرواتها في الأيام الخوالي، فأمر غير مُستيقن. أقام نفسه على كل حال في الجبال فوق أبو حمد، بالقرب من الشلال الخامس، ولعدة سنوات أبقى في عزم دولةً مستقلة بالفعل، جانباً بقوة السلاح وجانباً بالمداخلات المستمرة مع كل من دنقلا وعلوة. وبعد مسيرة حافلة بالمصالح المتعددة مكتظةً بالخيانة والأخطار أزاحة أخيراً الملك المقّرى، وأغتيل في النهاية. إن قصة مغامراته، كما أعاد روايتها المقّريزى، قصيرة في تفاصيلها الوصفية، لكنها تضيف مسحةً من الألوان والحركة الإنسانية لعصر ناء غير معروف عداها [١١].

كذلك محفوظاً في مقتطف للمقّريزى وصفٌ للنوبة مكتوباً في نهاية القرن العاشر من ابن سليم الأسواني. وقد كان مسئولاً مصرياً إضطلع حوالي عام ٩٧٠ بمهمة دبلوماسية للحاكم الفاطمي في القاهرة لدى البلاط الملكي في المقّرة، كما أُشير إلى ذلك في الفصل الرابع عشر. على الرغم من إخفاق مساعي الدبلوماسية يبدو أن ابن سليم كان مراقباً واسع الأفق عطوفاً؛ إن وصفه (كما رواه المقّريزى) يعكس تقديراً مُعتبراً لجاذبيات النوبة وفضائل قومها. يكتب عن مقاطعة دُنْقُلا:

ما رأيت في النيل مكاناً مثل هذه الضفاف العريضة. لقد قَدّرت أن النهر ينساب من الشرق إلى الغرب في رحلة لخمسة ايام (يصف هذا المنحنى العكسي فوق دُنقلا ـ أنظر الشكل رقم ٥). إن الجزر تتقطعه وبينها تجرى المياه عَبر أرض خصبة تلاصق بها بعضها بعضاً قرى ذات مباني حسنة وبيوت للحمام، وبقر وقطعان، تمون معظم إمدادات مدنهم . من أطيار النقيط، والنوبي، والببغاء وطيور خلابة أخرى. معظم قصور زعيمهم في هذه المحافظة. لقد كنا ذات مرة ... معه حينما مررنا عبر قنوات ضيقة في ظل الأشجار النامية على كل من الضّفتين . يقال أن التماسيح لا تؤذى الناس أبداً هنالك. ولقد رأيت أناساً يقطعون سباحةً أنحاء عديدةً من هذه المياه. ثم تأتى صفد *بقال*، مقاطعةُ ذات ضفاف ضيقة، تمثل الجزء الأول من بلادهم، عدا أنه توجد بها جزر خلابة وعلى مسافة أقل من

يومين إرتحالاً حوالى ثلاثين قرية ذات بنايات جميلة وكنائس، وأديرة ووفرة من أشجار النخيل، والعنب، والحدائق، والحقول ومراع كبيرة ترعى إبل حسنة المنظر جيدة النشأة. إن زعيمهم يتردد على زيارتهم هنا، لأنها في جنوبها تقع على حدود عاصمتهم مدينة دُنقلا [١٢].

إبن سليم واحد من المؤلفين القلائل الذين تولوا تزويدنا بأيما أنباء عن المملكة النوبية الجنوبية علوة. مع هذا، فإنه يتضمن بأشد مما يقرر أنه زار المملكة القديمة بشخصه، وتفتقد نصوصه نغمة المصداقية فيما يبدو واضحاً للغاية في وصفه للمقّرة. فقد وصف ملك علوة بأنه أغنى من ملك المقّرة، يأمر مهوراً أزيد وجنوداً أكثر. وإن سوبا، عاصمة المملكة الجنوبية، كانت مُزدانةً بمبانٍ كثيرة رائعة، وكنائس مطهمة بالذهب ومجملة بالحدائق، ولها ضاحية تقع جانباً للمسلمين [١٣]. هذه الإدعاءات التي يرجح أنها خيالية لم تحملها البقايا الأثرية غير الفارهة لسوبا (مع أنها غير محفورة بعد في معظمها) [١٤]؛ إنها توحي بأن معلومات المؤلف ربما كانت قد أُخذت من سرود لمسافرين مهولاً فيها، أحيط بها علماء أثناء إقامته في دُنقلا .

آخر مصدر هام لنا عن النوبة المسيحية في أيامها هو أبو صالح. خلا النسخة الواحدة الباقية لعمله لا يُعرف أى شئ أياً كان عن المؤلف؛ إن فقرات في نصه تومئ إلى أنه كان عضواً في المجتمع الأرميني في مصر [١٥]. ثمانية فقط لا أكثر من صفحاته المرقمة البالغة ١١٢ مُكرسة للنوبة [١٦]، وليس مستيقناً أنه زار المنطقة بشخصه. بالرغم من ذلك، تثبت معظم معلوماته ما أورده ابن سليم. والواضح أن أبو صالح كان داعيةً مسيحياً متزمتاً، فهو يصف كُلاً من دُنقلا وسُوبا كأماكن للعجائب، مليئةً بالكنائس الجميلة ذات الثراء. إن أقيم معلوماته، وربما أشدّها بعثاً للثقة، تنطوى طبيعة سياسية، وسوف تناقش في القسم القادم .

تنظيم دول القرون الوسطى

تسمح لنا عادة بقايا الصروح من الحضارات النوبية الأولى أن نستخرج شيئاً حول الأحوال السياسية الجارية أثناءها، ولو لم تخبرنا شيئاً عداها. في الجهة الأخرى تكاد الآثار لا تسهم بشئ في جانب إدراكنا للتنظيم السياسى في العصور الوسطى. دينيةً مطلقة وأخروية رمزيةً هذه الفترة لدرجة أنه، إن لم يكن لدينا شئ آخر ليأخذ بيدنا، فلسوف نخلص كإحتمال إلى أن النوبة كانت في قبضة طغيان لنخبةٍ دينية - كما كانت بلا شك في معنىً واحد. مع ذلك، فإن التعايش المشترك مع ملكية دنيوية مثبت بمستوى كافٍ بمصادر وثائقية إن لم يكن بسجل أثرى [١٧]. القليل الذى نعلمه بتفصيل حول تنظيم دول العصور الوسطى يأتى أساساً من نفس المراقبين الغرباء ولو أنهم متعاطفون، نستقى منهم معرفتنا بالتاريخ المعاصر (قارن بالفصل الرابع عشر).

إبان وقت تحويلها للمسيحية كانت النوبة، كما شاهدنا مسبقاً، مقسمةً إلى الممالك المستقلة الثلاثة، نوباديا، والمقّرة وعلوة. بعد وقت قصير، وتحت ظروف غير مدونة، إندمجت المملكتان الشماليتان في نوع من الكونفدرالية التى كانت فيها المقّرة غالبةً. إن الحكم المتحد إنتمى إسمياً إلى الملك المقّرى، الذى كان مقّره الرئيس في دُنْقُلا العجوز. إمتد سلطانه من أسوان إلى ضاحية أبو حمد، ومن الممكن أنه امتد أبعد من ذلك إلى الجنوب بشكلٍ مُعتبر (الشكل رقم ٦٩).

القاعدة الأيدولوجية والقانونية الملكية النوبية يبدو أنها كانت مختلفةً قليلاً من القاعدة التى كانت عليها دول أخرى في العصور الوسطى. لقد كانت السلطة الموقوتة للملك، نظرياً، مطلقة، يعتبر رعاياه عبيداً له. المالك الوحيد لأراضى المملكة، يفرض الإيجارات ويلغيها كما يشتهى. أما إذا كانت السلطة الملكية مقيدةً عملياً بأى نوع من المجالس الحاكمة فأمر غير مؤكد؛ ما هنالك إثبات على وجود هيئة بعينها مؤسسة رسمياً في الوثائق المعاصرة [١٨]. مع ذلك، فإن المجمع الخاص من

"الأساقفة والعلماء" الذى دُعى بأكمله ليناقش سفارة ابن سليم (انظر الفصل الرابع عشر) يظهر أنه قام بوظيفة مجلس تنفيذى غير رسمى على الأقل .

طبقاً لأبو صالح كان للملك سلطات دينية ودنيوية بالمثل؛ إن بوسعه أن يدخل دائرة العبادة في الكنيسة ويحتفل بالشعائر كأى قسيس. إلا أنه، يسحب هذا الإمتياز إذا كان قد سفك دماً بشرياً [١٩]. الظاهر في جوانب أخرى أن سلطة الملك في المحيط الدينى كانت تبعد عن أن تكون سلطة مطلقة، ذلك أنه لم يكن بمقدوره (خلاف الملوك الكاثوليك في أوروبا الغربية) أن يُعَين الأساقفة في دائرة حكمه. يسمون من قبل بطريرك الإسكندرية، الذى كان يُعد أعلى من الملك في الشؤون الدينية.

يشير كتاب عرب إلى الملك النوبى الأعلى أنه "ملك المقُرة والنوبة" أو "الملك العظيم" في بعض الأحيان. هذه المسميات وصفيةً بجلاء، لا تخرج في المراسم الملكية الرسمية. وتتحدث مصادر قليلة إلى جانب ذلك عن الملك النوبى بأنه يحمل اللقب الوراثى كاميل أو كابيل، لكن هذا بدوره غير مُدّون في وثائق أهلية. أما تلك النصوص النوبية التى تقدم إشارةً ما عن هذا النظام الملكى فهى مفتقدة بشكل بارزٍ للمراسم المُسرفة للأيام السالفة؛ إنها تستعمل ببساطةٍ اللقب الإغريقى باسيليوس ("ملك") أو بُديلها النوبى "أورو" [٢٠].

وفقا لمونري دى فيلار تكونت الشعارات الملكية من عرش، وشمسية خفيفة وتاج [٢١]. من هذه نعرف العرش والشمسية فحسب من عُروضٍ تاريخية موضع الريبة نوعاً ما. على الجانب الآخر تصور بعض رسوم الكنيسة النوبية التى وُجدت منذ وقت وجيز في فرس حكاماً حقيقيين في مظهرهم الخارجى الملكى [٢٢]. رُسم الملوك ملتحفين بجلابيب مُطّرزة بثراء مُتّوجين بعُصابات من ذهب مُحلاة بالجواهر (الصورة ٢١ ـ أ)، إن نوع كلٍ من الأرواب والتيجان بيزنطى بما لا خطأ فيه ـ يوحى بدرجة عالية كأنما الفنانين كانوا مُلهمين تقاليعَ معاصرةً للزُخرف الحائطى أشد منها نماذجَ حقيقية [٢٣].

يبدو واضحاً من عدد المُدونات أنه في نوبة العصور الوسطى الباكرة إنتقلت الوراثة الملكية من أب إلى إبن بالتقليد المسيحى المعتاد [٢٤]. بعد القرن الحادى عشر، مع ذلك، يمكننا أن ندرك رجوعاً يثير الغرابة لتقليد أعمق منه قدماً. "لقد قيل أنه عادةً وسط النوبيين، عندما يموت ملك ويترك ابناً، وابن أخت كذلك، يحكم الأخير بعد خاله، بدلاً من الإبن، غير أنه إذا لم يكن هنالك إبن للأخت، فإن إبن الملك نفسه يخلُفه حينذاك" [٢٥]. ووفقاً لابن خلدون، الذى دَوّن نفس العادة، كانت تلك قاعدة الوراثة الأمومية التى أدت لإسلام النوبة بالجملة بعد أن بدأت النساء المسيحيات يتزوجن مهاجرين مسلمين (أنظر الفصل السابع عشر) [٢٦].

يقيناً كانت دنقلا العجوز أهم إقامةٍ إن لم تكن المقّر الملكى الوحيد طوال العصور الوسطى. لقد كانت مدينة كبيرة الحجم منتشرة على طول قمة رابية منخفضة تعلو النيل مباشرة، على شاطئه الشرقى. مع أنه ليس هناك دليل على استيطانٍ هنا قبل الفترة المسيحية، فإن موقف دنقلا العجوز كان بشكلٍ إستثنائى نافعاً من زاوية الزراعة، ذلك أنه يقع مباشرةً في إتجاه مجرى النهر جنوباً من حوض لتى، أحد المناطق القليلة في النوبة التى يمكن فيها ممارسة رى الحياض الطبيعى. إلا أن مدى اثر هذا العامل في اختيار دُنقلا كمقرٍ ملكى غير معروف. أما أطلال المدينة، التى تغطى مساحة من عدة مئات من الأفدنة، فبدأت على الأقل تتلقى تنبه علماء الآثار؛ وربما تُضيف بمضى الوقت علماً وفيراً إلى معرفتنا عن التنظيم الدنيوى في النوبة إبّان العصور الوسطى [٢٧]. إن مبنى مزخرفاً واسعاً، محددةً ملامحه منذ قدم بأنها كنيسة، يُعتقد الآن من ناحية المنُقبين انه كان مقراً ملكياً، مع أن هذا لم يؤيد بعد بدليلٍ إيجابى [٢٨]. أُعيد تكريس المبنى كجامع في القرن الرابع عشر، طبقاً للوحة مخطوطةٍ لاتزال منظورة في واحدة من الحجرات [٢٩].

جانباً عن دُنقلا نفسها، ما من مراكزٍ حضرية هامة معروفة عن المقُرة، مع أن هناك عديداً منها

في المقاطعة الشمالية لنوباديا (الشكل رقم ٧١). كيفما كان الحال، فقد بلغ أبو صالح أن "عدد الملوك في النوبة ثلاثة عشر، حكموا كلهم الأرض تحت سيادة ... الملك العظيم" [٣٠]. قد يكون هؤلاء إفتراضياً ملوكاً محميين حكموا محلياً أجزاء مختلفة من وادى النيل. إن وجود مملكة واحدة من هذا القبيل قد أثبتت بمعثورات في قصر إبريم منذ وقت قريب.

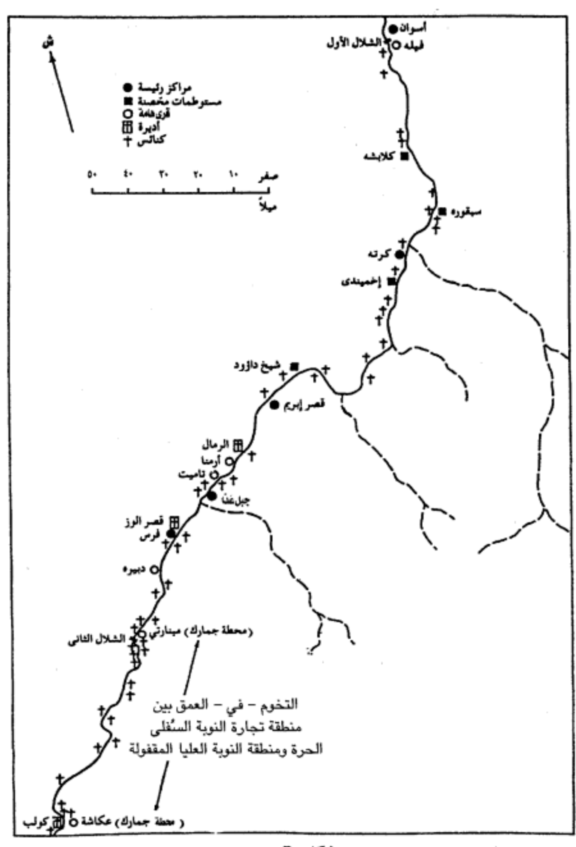
بعد اتحادها بالمقّرة كانت منطقة نوباديا المستقلة سابقا لا تزال محتفظةً بخصائص هوية ومكانة سياسية خاصةً بنفسها. في وثائق عربية متأخرة يشار إليها عادة على أنها محافظة ماريس، من كلمة قبطية "للجنوب" [٣١]. لقد كانت محكومة، من القرن الثامن وما بعده، من قبل نائب ملكى خاص يحمل اللقب الإغريقى إبارش [٣٢]. يُشار إليه مكرراً من كتاب العربية بلقب "سيد الجُبل"، بالرغم من أن معثوراً قريباً كشفه في قصر إبريم يحمل على الإعتقاد بأن اسمه يمكن عده بالمثل "صاحب الخيل" [٣٣].

يبدو أن الإبارش كان بالضرورة والياً على النوبة السُفلى. إن مكانته يجوز لذلك أن تُقارن بمكانة بِسَتَّي المَروى، الذى فيما كان ظاهراً حكم نفس المنطقة كنائب للبَكَرْ (قارن الفصل الثانى عشر). جَلَّى أن الإبارش كان بوسعه أن يؤدى عدداً من الوظائف الملكية التقليدية، مثل تأسيس الكنائس وصلواتها الإحتفالية. (صُوِّر في رسم حائطى في زمن متأخر جداً وُجد في عبد القادر ممسكاً بنموذج الكنيسة بيديه) [٣٤]. إضافةً لذلك، يبدو أن الإبارش كان مسؤولا على وجه التحديد عن سير العلاقات مع مصر المسلمة؛ حقيقة إن هذه الوظيفة يجوز أن تفسر الظهور والأهمية اللاحقة لمكتب إبارشى منفصل. وطبقاً لإبن سليم، فإنه "... واحد من حكامهم الأساسيين، لأنه قريب جداً من إقليم المسلمين. حيثما ارتحل مسلم إلى هذا البلد، وكانت بحوزته تجارة للبيع، أو هدية للملك أو للحاكم، يتسلمها الأخير كلها، ويرجع القيمة عبيداً؛ غير مأذون لأى واحد، مسلماً أم غيره، أن يقدم نفسه بشخصه للملك أبداً" [٣٥].

دليلٌ إضافى على صفقات الإبارش التجارية أُلقى عليه الضوء منذ عهد قريب مضي وسط المراسلات التى وُجدت في قصر إبريم. طبقاً للمنَقب هناك "... سبع رسائل بُعث بها إلى الإبارش من مسؤول بالقصر الفاطمى يمتلك سُفناً في ميناء عيذاب على البحر الأحمر وله كذلك عمل تجارى ممركز في قوص. يبدو أنه تصرف كوكيل للحكام النوبيين، يُرسل إليهم بضائع مختلفة ويشترى عبيداً لحسابهم، إلخ. إن الرسائل... تحتوى تفاصيل عديدة تثير الإهتمام عن التجارة الجارية بين مصر والنوبة..." [٣٦].

كان الإبارش في القرن التاسع مُعَيناً ملكياً بناء على إفادة ابن سليم. لكن كُتاباً لاحقين تضمنت كتابتهم بالعربية أن المنصب كان وراثياً. يبدو على صعيد واحد إنه في الفترة المسيحية المتأخرة كان الدفاع عن التخوم الشمالية واحداً من مسؤوليات الإبارش الرئيسة؛ لقد كان بتعبير آخر منوطاً به تسيير دفة علاقات خارجية من نوع آخر [٣٧].

وسط رسوم الكنيسة في فرس وعبد القادر عدد من تمثلات الإبارش [٣٨]. إنها موصوفة بنفس التقاسيم المنمُطة والمظهر الثرى كرسم الملوك والأساقفة على نفس الجدران. مهما سار من ذلك بمقدورنا أن ندرك في لوحاتهم علامةً إبارشية مميزة واحدة على الأقل: غطاء رأس بزوج واحد أو اثنين من القرون البارزة، أحياناً يعتلى هامة هلال. إن أصول هذه الأداة وقيمتها جرت مناقشتها بإستفاضة [٣٩]؛ يعتقد ميخالوفسكى أنها استعارها النوبيون من الفرس الساسانيين [٤٠]. ووفقاً لرأيه يجوز أن يلبس التاج ذا القرون ملوكٌ كما يفعل إبارشة [٤١]، لكنه مُثبت على وجه أفضل بدرجة عالية في حالة الأخيرين. (رغما عن ذلك في أزمان ما بعد المسيحية لبس التيجان المقرّنة عدد من الملوك في أنحاء متفرقة من السودان) [٤٢]. إضافةً إلى غطاء رأسه وصف الإبارش في عبد القادر وهو يلبس رداءاً مزركشاً في أجزاء عديدة منه بالنسر البيزنطى المزدوج [٤٣] - رمزاً لسلطة غير متوقع للغاية في



شكل رقم ٧١

النوبة السُفلي في الأزمان المسيحية المأثورة

نوبة القرن الرابع عشر .

َبينت كشوف أُجريت عما قريب في قصر إبريم أن الإبارش لم يكن هو السلطة المدنية الوحيدة في النوبة السُفلى. إن عدداً من الوثائق من أواخر القرن الثاني عشر لا تعطي الأسماء للإبارشة وغيرهم من موظفي الدولة الآخرين فحسب، لكنها بالمثل تقدم أسماء "ملوك دوتاو" (٤٤). كانت هذه فيما يفترض ضمن ملوك دُنقلا الذين تولوا الحكم واشار إلى وجودهم ضمنياً إبن سليم (أنظر أعلاه). الموقع الدقيق لدوتاو غير معروف، لكن المفترض أنها اشتملت المنطقة المحيطة بجبل عدّا، التي كان اسمها في القرون الوسطي (فيما هو ظاهر) دو أو داو (٤٥). إن وجود هذه المملكة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر عُرف من معثورات وُجدت مبكراً (٤٦)، لكنها نُظر إليها دائماً على أنها دولة صغيرة خرجت إلى الوجود بعد تفكك المقّرة (قارن الفصل السادس عشر). واضح الآن بشكلٍ أو آخر أنه كان هنالك نظاماً ملكياً لدوتاو قبل وقت طويلٍ من الإضمحلال النهائي لدنقلا.

من الصعب أن نعلم من البّينة الشحيحة التي أمكن توفرها، ماذا كانت عليه العلاقة بين الإبارشة والملوك التابعين. في الوثائق التي تذكر الإثنين، يبدو إسم الملك ممنوح السبق، لكن ربما أن هذه مراسم متفق عليها ولا تعكس بدقةٍ سلطاتهم المقررة. كان الإبارش بالطبع النائب المباشر "للملك العظيم" في دُنقلا؛ وبهذه الكيفية لعله كان مسؤولا عن الإشراف على عددٍ من الممالك المحمية. ومما يحفل بالمعاني، أن الإبارش لا الملك هو الذي يحمل لقب "نوباديا" بذا يظهر أنه يُخَلد سلطة الملكية الشمالية المستقلة التي سادت فيما مضى. في غياب بّينة أكثر مباشرةً يبدو منطقياً أن يفترض أن الإبارش كان مشرفاً عاماً، لكنه كان مسؤولاً بتحديدٍ دقيقٍ عن تسيير العلاقات الخارجية، في حين أدار الملوك المحميين شؤون الحكم اليومية في عمودياتهم المُعنية .

يقوم بخدمة كُلٍ من الملوك في دنقلا والإبارشة في الشمال حَشم في قصور مختلفة تناهت ألقابهم إلى علمنا على أنها دومستكوس، وبروتودوميستكوس، وميزون، بروتوميزوتروس، وبريميكريوس. كل هذه ألقاب إغريقية، مألوفة من العصر البيزنطي في مصر وشمال إفريقيا (٤٧). إن الوثائق النوبية المجزأة التي ذُكرت بها لا تمنحنا لسوء الحظ دالةً فيما يتعلق بوظائفها، وليس بإستطاعتنا بالضرورة أن نفترض أنها كانت مماثلةً لما كان بمصر أو بيزنطة (٤٨). مثل معظم "البروليتاريين الغرباء" كان النوبيون قابلين بأعلى قابلية لتبني رموز السلطة، شفاهياً وحِسياً على السواء، ولو لم يدركوا معانيها، وربما كان التمثل المتَّخيل بين البلاط النوبي والبلاط البيزنطي تظاهراً أصدق منه أمراً حقيقياً (٤٩). أياً ما كانت الحال عليه، فإن مثابرة الألقاب الإغريقية على البقاء، واستخدام الإغريقية لغةً للمراسم، وأداة النسر المزدوج التي بدت على رداء الإبارش (كما وُصفت في عبد القادر) تشهد كلها بالسلطان الذي لا يزال معلقاً بمؤسسات بيزنطية طويلاً بعد انهيار سلطة بيزنطية في الشرق الأدنى .

أما "عاصمة " نوباديا أو ماريس فقد أدلى معظم كتاب العربية على أنها كانت في فرس. كانت هذه بالطبع أهم كرسي أسقفي للنوبة السُفلى، كما تشهد به في جزالة البّينة الأثّرية (انظر ادناه). إقتُرحت فرس كذلك مقراً للحاكم المدني (٥٠)، لكن حجم التراسل إلى الإبارش ومنه ما عُثر عليه في قصر إبريم يجعل من الأرجح إحتمالاً أن قصر إبريم كان مقره الرئيس (٥١). في نصوص أخرى، مع ذلك يتنوع ربط الإبارش بتلميس (٥٢)، وجبل عدّا (٥٣)، وجزيرة ميكائيل (مينارتي؟) (٥٤)، بمكانٍ غير معروف يسمى بوساكا (الشكل رقم ٧١) (٥٥). ولما كانت وظائف الإبارش في المقام الأول (بخلاف مهام الملك) عمليةً أكثر منها رمزية، يبدو ممكناً أن مقّره كان واحداً متحركاً، ليس متجذراً بثبات في أي محلٍ واحد. بعد القرن الثالث عشر، عندما قاست فرس تداعياً مريُعاً، بدا هنالك أن الكرسي الرئيس لكُل من الإبارشة والأساقفة كان بلا شكٍ في قصر إبريم (٥٦).

لم تقم معاهدة *البقط* تمييزاً سياسياً أو إقتصادياً بين أجزاء مختلفة من النوبة؛ لقد منعت

إستيطان المسلم من أسوان إلى تخوم علوة (انظر الفصل الرابع عشر). في زمن إبن سليم، مع ذلك، تبدو النوبة السُفلى مفتوحةً لإستيطان المسلمين. ومع أن خلفية هذا التطور بعيدة عن الصفاء، يحتمل أنه نتج عن الحكم القانوني، الذى تمت مناقشته في الفصل الرابع عشر، والذى قضى بأن النوبيين في النوبة السُفلى لم يكونوا عبيداً لملكهم وإنهم لذلك أحرار للتصرف في أراضيهم لأى من اختاروا (٥٧). يبدو أن هذه فتحت الباب لإستيطان المسلمين بين الشلالين الأول والثانى، كما لا يشهد بذلك سرد إبن سليم وحده إنما بعددٍ من شواهد القبور العربية التي رأت النور في أجزاءٍ كثيرة من النوبة. إن كُلاً من هذه مما يمكن تاريخه يقع في الفترة الزمنية بين ٨٣٢ و١١٣٧ م (٥٨).

ليس هناك شئ في السجل الأثَرى لينبئ عن وجود مجتمعات مسلمة منفصلة في النوبة السُفلى. ربما كان أغلب المستوطنين في زمن إبن سليم تجاراً أو حرفيين إتّخذوا الإقامة بين المدن المسيحية الكبيرة. وقد يظهر أن بعض المساجد أُنشئت، رغم أن أياً منها لم يتم التعرف عليه أثَرياً (٥٩). يُبَلِّغ إبن سليم أنه في النوبة السُفلي سارت التجارة بحريةٍ بين النوبيين والمسلمين، وكان المال متداولاً. في الجانب الآخر بقيت المنطقة وراء الشلال الثانى مغلقة أمام الإستيطان العربى والتبادل السلعى العربى على السواء:

فى الشلال الأول للنوبة (أى: الشلال الثانى للنيل) تقع المدينة المُسَمّاة تاكوا، على أرض منبسطة، حيث تتوقف مراكب النوبيين الصاعدة من القصر في العادة. إن المراكب لا تجرؤ على المرور عبر هذه القرية، وليس من مسلم، أو أى شخص آخر، بقادرٍ على أن يصعد النهر بُعيد الجنوب، دونما إذن من صاحب الجبل. من هنا إلى مقس العليا رحلة ستة أيام. تواصلُ الشلالات كل الطريق صاعداً. هذه هى أسوأ أجزاء النوبة التى رأيتها... النهر متقاطع دواماً بمساقطٍ سريعة وجبالٍ ناتئة ... تنتمى المقاطعة إلى إقليم ماريس، ويحكمها صاحب الجبل. أما الحامية في مُقس فهى محكومة حُكماً صارماً من ضابطٍ اسمُه زعيم النوبة العظيم، لدرجة أنه عندما يعبر الزعيم العظيم نفسه ذاك الطريق، يقف الحاكم إلى جانبه ...

لا يُتداول مال ولا دينار هنا؛ إنها تستعمل في الحركة التجارية صادراً وواردأ مع المسلمين شمال الشلالات فحسب؛ غير مُصَاحبة ببيع أو شراء جنوب الشلالات. تجارتهم محدودة بالمقايضات المتبادلة للبقر، والرقيق، والإبل، والحديد والحبوب. لا يُتابع أحد سيره إلا بإذن الملك؛ ومخالفة هذا الأمر جزاؤها الموت. حاصلاً لهذا النظام من المنع لا تصل إستخبارات أبداً عن تحركاتهم ... (٦٠)

قد يبدو من وصف إبن سليم أن مُقس العليا كانت نوعاً ما بالقرب من الحد الجنوبى *لبطن الحجر*. يضيف أبو صالح أنباء أخرى أنها كانت تقع إلى جوار نبع ساخن (٦١)، يجعل من الممكن أن يتم تعرف حدسى على قرية عكاشة الحديثة، التى يُلاصقها النبعُ الساخن الوحيد في النوبة (٦٢). يتحدث إبن سليم عن المكان كنقطةٍ لحامية، في حين يصفه أبو صالح بدقةٍ أفضل تحديداً كمحطة جمركية: "ما من أحدٍ يؤذن له بالمرور بجانب سكان هذا المكان دون أن يفتش ولو كان ملكاً، فإذا واصل أى واحدٍ إندفاعه ورفض أن يُجرى عليه التفتيش، قُضى عليه بالموت" (٦٣).

إن وجود محطات جمركية في كل من تاكوا ومُقس العليا، في الحدود السفلى والعليا *لبطن الحجر* بالترتيب، تفترض أن هذه المنطقة الجافية خدمت كنوعٍ من التخوم في العمق بين المنطقة الحرة للنوبة السُفلى وباقى مملكة دُنقلا (قارن الشكل رقم ٧١). إننا نذكر نهاية الأمر أنها كانت محميةً لنفس الغرض منذ ثلاثة آلاف عام سلفت، بالرغم من أن المصلحة السياسية كانت آنذاك نابعةً من الجانب الآخر. سياسة الملك النوبى في العصور الوسطى، أنه "لا يجرؤ مسلم، أو أى شخص آخر، على صعود النهر ناحية الجنوب، دونما إذن من صاحب الجبل" (٦٤) تقيم مناقضة مذهلة تهكماً على إعلان سمنة من سنوسرت الثالث: "... يمنع أى زنجى أن يعبرها، عبر النهر أو بالبر ... فيما عدا زنجى يكون عليه أن يأتى ليتاجر في آيكن، أو مبتعثاً" (قارن الفصل السابع) (٦٥).

صورة العلاقات النوبية مع المسلمين التى تخرج من صفحات إبن سليم وأبو صالح واحدة مألوفة من التصالح السياسى والإقتصادى. سواء بالرسم المخطط أو من خلال العجز السياسى، كان الملك النوبى ملزماً بحفظ منطقة عازلة في النوبة السُفلى مأذوناً بينها بتداخل حر بين النوبيين والمسلمين. إن الإشراف على هذه الحركة التجارية كان بجلاء المسؤولية الكبرى للإبارش. في نفس الوقت، وتعويضاً لسياسة التخوم المقترحة، إتُخذت تدابير صارمة ورادعة لتحول دون تسرب النفوذ الإسلامى إلى جوف الأجزاء الجنوبية من المملكة المسيحية (٦٦).

مهم أن يلاحظ أن التمييز السياسي بين المنطقة العازلة للنوبة السُفلي وباقي مملكة دُنقلا لا يتماشي مع التمييز الجغرافى بين ماريس (أو نوباديا) والمقُرة الذي أقامه معظم الكتاب العرب. وطبقاً لإبن سليم الذى كانت معلوماته الجغرافية دائماً دقيقةً وصريحة، تقوم الحدود بين ماريس والمقُرة في مكانٍ ما إلى الجنوب من جزيرة صاى وفى ضاحيةٍ لشلال عظيم، لا يمكن أن يكون سوى الشلال الثالث (الشكل رقم ٦٩) (٦٧). المؤلف كان يصف بوضوح حدوداً عرقية ولغوية أكثر منها واحدة سياسية، بطريقةٍ أو أخرى؛ يتحدث عن سكان ماريس والمقُرة كأقوام مختلفة تنطق لغات مختلفة (٦٨)، لكنه لا يذكر أى محطات جمركية أو منشآت عسكرية على التخوم بينهما. يستحق الذكر إضافة لذلك أن حدود اللهجات الحديثة بين النوبيين متحدثى المحسية ومتحدثى الدنقلاوية قريبة من التخوم التى عرفها إبن سليم (٦٩). من هذا وأمثلة عديدة أخرى، يبدو بصفاءٍ أن المسميات التى أعملها علماء عرب في العصور الوسطى لها قيمة وأهمية عرقية ولغوية أشد منها سياسية (٧٠) طوال العصور الوسطى تضاربت التخوم السياسية تبعاً لثروات الحكام كأفراد؛ ما لقيت حدودٌ دواماً سوى الحدود الثقافية .

لعل المملكة النوبية الجنوبية تمثل إستثناءاً جزئياً عميقاً للتعميم الذي مضى ذكراً. إن المسعودى تحدث عنها كتابع للمقُرة (٧١)، علي انه يتفق كل كاتب آخر أن علوة كانت دولة مستقلة، كما هو مُتضمن بياناً في معاهدة *البقط* (الفصل الرابع عشر). جانباً عن حقيقة وجودها، مع هذا، لا نُخطر شيئاً يُوثَق به حولها. الأوصاف الباقية من إبن سليم (٧٢) وأبو صالح (٧٣) ليست مصادفةً كلها؛ إنها تحتوى في وضوح مزجاً من الحقيقة والخيال. يبدو أنها تعود إلى ذلك الجناس من أدب البديع الذى ينمو بدوام ملحوظٍ حول ممالك نائيةٍ ذات شهرة قليلةٍ في غياب معرفةٍ موثوق بها .

وفقاً لإبن سليم كانت المسافة أبعد من دُنقلا إلى تخوم علوة مما كانت عليه من دُنقلا إلى أسوان (أى فوق ٥٠٠ ميل) (٧٤). غير جائز أن تكون هذه هى الحالة، لأنها تضع ولقد الغى المهدى الضرائب المثقلة للنظام التركى - المصرى تخوم علوة بعيداً إلى جنوب ملتقى النيلين، حيث تقع حاضرة مدنها كما نعلم. وعلى أساس معلومات أخرى، مع هذا، يعتبر كيروان أن الحدود الشمالية لعلوة كانت في مكانٍ ما بالقرب من خرائب مَروى (الشكل رقم ٦٩) (٧٥)، في حين يضعها أركيل أبعد بمسافة صوب الشمال (٧٦). يبدو محتملا أنه ما كانت هنالك في الحقيقة تخوم سياسية ثابتة بين المقُرة وعلوة؛ فالإقليم الصخرى غير المنتج بين الشلالين الرابع والخامس سوف ينصب منطقة عازلةً طبيعية ذات أثر، لربما أن سكانها الأقلة لم يكونوا مسالمين بشكل متسق لأى من الملكين (إنه في هذا المكان بدقةٍ كان العمرى قادراً على إقامة دولته المتمردة في القرن التاسع، كما أشير مسبقاً). وربما كانت التخوم العلنية لعلوة التى أشار إليها إبن سليم حدود لهجةٍ أخرى (٧٧).

بناءاً على تقرير إبن سليم "زعيم علوة شخص أعظم من زعيم المقُرة، وله جيش أقوى، وبلده أزيد إمتداداً وخصوبة" (٧٨). فإذا كان هذا صحيحاً بحذافيره، لابد أن المملكة شغلت معظم ما يشكل أواسط السودان اليوم. وبصرف النظر عن ذلك، وُجدت بقايا أثرية منبئة بإقامة مسيحية حتى اللحظة في مساحة محدودة للغاية من ملتقى النيلين وحسب، فما يحده شمالاً يبلغ عن مواقع مسيحية الفينة والأخرى لبُعدٍ يصل جنوباً حد سنار على النيل الأزرق، بل ومن غرب السودان (٧٩)، لكن شيئاً منها لم يثبت بالأدلة ما طرحته هذه المقولات وفق ما جرى العُرف عليه. (فى هذا الجزء من القطر هنالك ميل

غير محظوظ الطالع لتصنيف أى خرائب حمراء الطوب بأى عصر كانت على أنها "مسيحية" أو "كنَيسة" على حد سواء). إن عدد مثل هذه البقايا ليس كافياً في أى حالة ليشير إلى حجم سكانى كبير كان مستقراً بها. فإذا كانت علوة بحق قد امتلكت أقاليم شاسعة إلى جنوب وغرب عاصمتها، لابد أنها كانت مسكونة بأقوام من رعاياهم البدو أساساً (وربما كانوا غير مسيحيين) (٨٠).

مهما كانت البّينة إستدلالية في كليتها، يبدو من الممكن أن يخلص إلى أن علوة كانت في مقامها الأساسى دولةً لتجارة الرقيق، كما كانت وريثتها مملكة الفونج في العصور الوسطى المتأخرة (الفصل الثامن عشر). إن تجاور أقاليم أعالى النيل وكردفان (*) الوثنية الشاسعة وفر فرصاً أوسع بمدىً بعيد لإغارات الإسترقاق عما كانت تتمتع به المقَرة، المحاطة على ما هى عليه بقسط وافر من الصحارى غير المأهولة بالسكان. وصف إبن سليم يشير أيضاً لفكرة أن أعداداً كبيرة من التجار المسلمين كانت تقيم في حاضرة مدن علوة؛ (٨١) بإفتراض أن مصالحهم كانت على الأقل موجهةً جزئياً نحو الإتجار الدهرى بالعاج والرقيق لأمد غير محصور. أخيراً، إن العلاقة الودودة بشكل غريب التى يبدو أنها كانت موجودة بعد عام ١٢٥٠ بين الملوك المسيحيين الجنوبيين (٨٢) وسلاطين المماليك (قارن الفصل السادس عشر) يمكن أن تكون قد دفعت بمصلحة تجارية قوية لا غير، هى ثانيةً في الأرقاء أغلب الاحتمال .

ما بين الإقليم الذي يُنْسَب بأكمله إلى مملكة علوة، كانت بقايا مدينتها العاصمة سوبا هي البقايا الأثرية الوحيدة التى تحمل أى أهمية أو قيمة رأت الضوء لتوها (٨٣). لقد أُقيمت على الضفة الشرقية للنيل الأزرق، حوالى ثلاثة عشر ميلاً في إتجاه النّهر جنوبا من ملتقاه مع النيل الأبيض (أى من موقع الخرطوم الحديث). كانت سوبا بشكل واضح مكاناً ذا حجم مُعتبر، لأن خرائبها تمتد لما يفوق بالتقريب ميلاً مربعاً وتشمل حوالى مائة قبر تَلى منفرد (٨٤). كيفما جرى حالها لا يوجد شئ يوحى بالثروة والرخاء مما وصفه إبن سليم. أما سطح الموقع فهى مُغطىً في كثافة بشقوق متناثرة من الطوب الأحمر، لكن التنقيب الذى أُجرى على أكبر قبرين تَلّيين في سوبا خلال ١٩٥٠ - ١٩٥٢ كشف عن هياكل بُنائية من اللَّبن ليس إلا، لا تحمل أياً منها خصائص صروحية (٨٥). ومن الأربعمائة كنيسة في وصف إبن سليم (٨٦)، خرجت واحدة لا غير للنور، بمخَلّفات قليلة جداً من بقاياها. أما ما يبقى غير ذلك مما نأمل في تعلمه عن المملكة الجنوبية وعاصمتها فينبغى عليه الإنتظار لإستطلاع أثَرى عميق وأشد منهجيةً ونظاماً .

الديانة والكنيسة

يهبنا علم الآثار صورة غنيةً ومفَصلة عن الجوانب النسكية والتعبيرية للديانة النوبية في العصور الوسطى (أنظر "الفن والأدب الدينى"، بأدناه)، لكنه لا يملك أضفى من ذلك ليخبرنا عن التنظيم الإدارى للكنيسة بما يتعدى ماليه عن تنظيم الدولة. في هذه المساحة لا نزال ملزمين بالإرتكاز على بَينة وثائقية شحيحة وغير مُرضية نوعاً ما .

تبعاً لكاتب مصرى في القرن الثامن كانت الكنيسة النوبية يترأسها رئيس متروبولى، يُعَينه بطريرك الإسكندرية، الذى يتولى مسؤولية مباركة الأساقفة والقسس في كافة أنحاء البلدان الجنوبية (٨٧). إن لقب "متروبولى" مرتبط بأسماء خمسة من أساقفة فرس، ومن هذا افتُرض في بعض الأحيان

(*) لا يعني وصف الأقاليم المذكورة "بالوثنية" أنها بالضرورة لم تكن حاويةً لديانات إفريقية تؤمن بنظام أخلاقي كريم بما فيه الإعتقاد بالإله الواحد. وما يؤكده المؤلف في هذه النقطة يُركز بالتحديد علي إستغلال نوء تلك الأقاليم وعذريتها من قبَل القوي المسيحية والإسلامية علي السواء لتفوقها العسكري وقناعتها الأيدولوجية، وهي في رأينا ما اعتمدت عليه تلك القوي لمواصلة عملية إسترقاق الإنسان الذي خُلق حراً في تلك الأقاليم في خرق واضح لحق التعايش السلمي ومقتضي التعاليم السماوية والأخلاقية السمحة – المترجم.

أن أساقفة فرس كانوا في الحقيقة أولى سَبقاً في الكنيسة النوبية [٨٨]. مع ذلك، فالملاحظ أن اللقب الذي يدّعيه هؤلاء الأساقفة كبار القسس كان "الأسقف المتروبولى لفرس"، وليس "الأسقف المتريولى للنوبة" أما إضافة كلمة واحدة إضافية للقبهم المعتاد فيجوز أنها مسألة تتعلق بأُسلوب مُفَضل ليس إلا، لا ترتب أي مكانة عُلوائية خاصة .

إستدلالاً على أقل تقدير، هنالك الكثير لإقتراح أن الكنيسة النوبية لم تكن أبداً منظمة على أساس مستقل من الإشراف الكَنَسى الباترياركى الخارجي أو على أساس قومي، مثل كنيسة أثيوبيا . ليس هنالك إدّعاء محدد بالسبق على الآخرين في الألواح الجنائزية لأى من الأساقفة، ويمكننا أن ندرك أنه لم يكن هناك لقب كنَسى يقارن بلقب أبونا الحبشى [٨٩]. والحقيقةُ، أن غياب أى ذكر لرؤساء دينيين في اللوح التذكارى للأسقف وجه مثير للتنبه لا سيما وقد ذكر بعضهم بوجهٍ خاص ملوكاً أو إبارشة معاصرين [٩٠] لعلنا نميل إلى أن نستنبط من هذا أن الأساقفة النوبيين كانوا معينين من التاج، تتبعاً للتقليد الأوروبى، بيد أن كل مصادرنا الكتابية تصر أنهم كانوا يُسَمُّون من قِبل بطريرك الإسكندرية [٩١].

من البيّنة المتوافرة يبدو أدعى إطمئناناً أن نخلص إلى أن الأساقفة النوبيين كانوا يُعَيَنون أفراداً من البطريرك، وكانوا مُسالمين بشكل منفصل له بأرجح من مسالمتهم لواحدٍ من جمعهم الذاتى. إن هذا بأى حالة كانت يتماشى مع السيرة الممركزة تقليدياً للكنيسة القطبية المصرية [٩٢]. ما كان هنالك، لذلك، شئٌ مثل كنيسة نوبية بالمعنى العضوى؛ كان النوبيون ببساطةٍ أعضاء بالكنيسة اليعقوبية (القبطية) في مصر، غير مُمَيَزين عن أقرانهم الدينيين في القطر الشمالى. يكاد منذ البداية، مع هذا، أن النوبيين المسيحيين طوروا تقاليد فنية وكتابية خاصة بهم، حتى أنه بإمكاننا الحديث عن كنيسة نوبية بمعنى طُقوسى شعائرى إن لم يكن بمعنىً كنَسى .

طبقاً لسيرة واحدة كان هنالك ثلاثة عشر كُرسياً أسقفياً في النوبة؛ سبعة في مملكة المقّرة وستة في مملكة علوة. إن قائمتهم تحدّرت إلينا من تأريخ القرن السابع عشر لكنيسة الإسكندرية، والأصل مخبوء [٩٣]. كان ذلك العمل قد جرى تكوينه زمناً طويلاً بعد الإختفاء النهائى للمسيحية في النوبة، ولابد لذلك أنه استُجمعت أطرافه من مصادر أقدم منه بمراحل. من الأسقفيات السبع التى أودعت بالقائمة الخاصة بالمملكة النوبية الشمالية، فإن المذكورة منها في كرتا، قصر إبريم، فرس، صاي، ودُنقلا تأيد وجودها بمعثورات أثَرية أو نَصية [٩٤]. أما وجود الكرسيّين الشماليين الآخرين، وكل الموجود منها في مملكة علوة، فيظل غير مؤكد .

إفتراضاً تمتع أساقفة فرس ودُنقلا تفضيلاً معيناً في المحيط الدنيوى بحكم إقامتهم بالقرب من مقاعد السلطة الموقوتة [٩٥]. على الأقل، يمكننا أن نستدل على ذلك من النِسَب الجليلة لكاتدرائيتهم (أنظر بأدناه). في الوقت الراهن نعلم كثيراً عن أساقفة فرس وأنشطتهم بقدر يفوق ما نعلمه عن أى من الأسقفيات الأخرى، والفضل في ذلك يعود إلى الإكتشافات غير العادية والجهود المضنية للبعثة الأثَرية البولندية في فرس بين ١٩٦١ و١٩٦٤ [٩٦]. منقِّضين على مصطنع هائل لقبر تَلّى برز في وسط قرية فرس الحديثة، كان يُعتقد على العموم أنه كان تَلاً من طبقات، وجد البولنديون بدلاً منه الكاتدرائية والقصر الأسقفيين القديمين، كلاهما لم يمسه سوء بدرجة كبيرة. لقد تم دفنها في الرمال حتى رؤوس السقوف تقريباً أثناء القرن الثالث عشر، حينما كانت حضارة النوبة المسيحية ما فُتئت في كمال ازدهارها . وُجدت على جدران كاتدرائية فرس رسوم ملونة تبلغ ١٦٩ رسماً، نسبة عالية منها محفوظة حفظاً متقناً وتمثل أرقى مجموعةٍ لفن حائطى من افريقيا المسيحية. من بينها لوحات لأربعة عشر أسقفاً، علاوةً على لوحات لملوك وإبارشة أُشير إليها آنفاً. إلى جانب الرسومات مئات من المخطوطات والرسوم التصويرية شاملةً لقائمة من سبعة وعشرين أسقفاً شغلوا كرسى فرس. وضعت ألواح جنائزية لبعض الأساقفة إلى داخل حيطان الكاتدرائية، وبعض من أعدادها مدفون في

القبور الواقعة على طول المبنى. يُعتقد أن مبنىً واسعاً من طابقين يلاصق الكاتدرائية من شقها الشمالي كان هو القصر الأبسكوبالي الأسقفي [٩٧].

التمثلات التصويرية للأساقفة في فرس لا يمكن أخذها كلوحاتٍ حقيقية، ذلك أنهم مثل الملوك والإبارشة صُوروا بتقاسيم وثياب مُنَمطة. مع ذلك، يحتمل أنها تؤثث صورةً دقيقة بشكل معقول للمظهر الأسقفي الخارجي. صُوِّرَ كل الأساقفة في مظهر ثرى بجلباب داخلي ورداء خارجي، ووشاح مزخرف للمنصب يتدلى من الأكتاف (الصورة ٢١ ـ ب). يثير العجب أنه لا يظهر صليب على الصدر أو عصا للأسقف بأي من اللوحات، حيث أن الصليب والعصا وُجدوا في قبور الأساقفة في فرس وقصر إبريم [٩٨]. خلافاً للملوك والإبارشة، يُرى أساقفة فرس إما بلا غطاء للرأس أو مدثّرين بشال (غطاءاً كتفياً) أبيض اللون رفيع الصنعة ولا شئ غير ذلك. إن كلاً منهم يحمل في يده اليسرى كتاباً مقدساً مُمّعن الزخرفة، ويُبدى علامة المباركة بيده اليمنى [٩٩].

أما القُسس من الدرجات الأدنى فغير مُمّثلين في الرسوم بفرس أو أي مكان آخر. من بَيِّنة شواهد القبور يبدو أنهم يحملون اللقب الاغريقي بروسبيتورس. هنالك كذلك مراجع نَصية وفيرة للقسس المرافقين (الديكونوس)، وبضعة من رؤساء القسس مُساعدي الأسقف في الإحتفالات والادارة، و "لرتب أقل وقُسس مساعدين"، و "قُسس صغار". وتكونت أنظمة الأديرة من الرهبان ورؤساء الأديرة [١٠٠].

إذا كان *التاريخ الكنسي* ليوحنا الأفسوسي مُصَدقاً، فإن أول كنيسة نوبية شُيدت من قبل المبشر لونجينوس حوالى ٥٧٠ م (أنظر الفصل الرابع عشر) [١٠١]. وعلى سبيل الإفتراض كانت أمراً غير ذي شأن أُقيم على عجل ولم تبقَ على قيد الحياة. يثير الإهتمام أن يذكر، مع هذا، أننا نجد في النوبة السُفلى بقايا لبنايتين تبدوان في شبهٍ شديد للغاية منازل عادية جرى تكييفها للإستعمال الكَنسي بإضافة تعديلاتٍ معمارية بسيطة [١٠٢]. لا يمكن تأريخ أياً منهما بدقة، لكنهما ينتميان بلا شك إلى القرن الأول والثاني من الفترة المسيحية .

في وقت سريع للغاية من بعد دخول المسيحية رسمياً، إتّخذ معماريون كَنَسيون على تدريبٍ حُضوراً لأنفسهم في النوبة. إن بعضاً من أكبر الكنائس وأشدها زينةً في القطر تم بناؤها حقاً أثناء القرنين الأولين بعد نصرانية النوبة. لربما كانت أول واحدة منهم هي الكاتدرائية الأسقفية في قصر إبريم، التي ظلت طوال العصور الوسطى أرقى نموذج للمعمار الكنسي جنوب أسوان [١٠٣]. فقد بنيت خلاف أي كنائس أخرى في القطر بحجر مُشكل بعناية، ويعرض رسمها التصميمي بعضاً من الخصائص المتفردة التي سرعان ما جاءت لتميز معمار الكنيسة النوبي [١٠٤].

مثل أغلب كنائس الشرق المسيحي، إستمدت الكنيسة النوبية قالبها المعماري الأساسي من هندسة الكنيسة الإغريقية ـ الرومانية القديمة بدأً عن هياكل دينية سابقة. لقد كانت مبنى على شكل مستطيل طويل نسبياً، موجهةً شرقاً غرباً، ومقسمةً بأعمدة داخلية إلى داخل قاعة مركزية وجانبين مشتقين من نفس العرض تقريباً. أما المذبح وغرفة العبادة فموقعهما في الطرف الشرقي من القاعة التي تمتد بإمتداد حائطٍ نصف مستدير. في الكنائس النوبية كانت القاعة نصف مستديرة مُحَرّزةً فيما بين بنيانٍ مستطيل غير مكتمل الداخل (الشكل رقم ٧٢)، حتى أن شكلها لا يبدو ظاهراً من خارج المبنى. أما المساحة المخصصة للعبادة (وتسمى الهيكل في الكنائس القبطية) فقد وُضعت جانباً عن باقي بناية الكنيسة عن طريق "قوس نصر" يستند على أعمدة حَجرية، وترمز إلى بوابة الجنة. على كل جانب من محل العبادة، بالأطراف الشرقية من جانبي الكنيسة المفصولين عن القاعة، غرفٌ مقفلة صغيرة لخدمة الإجتماعات والدروس ولأغراض أخرى مختلفة تتعلق بالقساوسة. كل هذه الترتيبات كانت متمشية مع *الدساتير الرسولية* مرسوم القرن الرابع: "دَعْ البناء طويلاً مع رأسه إلى الشرق، وعلى جانبي طرفه الشرقي غُرف خدمات القساوسة، بذا يكون كالسفينة. في الوسط فليكن

عرش الأسقف موضوعاً، وعلى جانب منه دَعْ رئيس القساوسة ليجلس؛ أترك القسيس ليقف بالقرب من رأسه، بجلباب مضموم؛ لأنهم مثل الملاحين وربانية السفينة" [١٠٥].

كانت الكنائس النوبية الأولى غير متمايزة من الكنائس في مصر، وربما كانت مبنيةً من قبل معماريين مصريين. كثير منها من حجر مُنْعم السطح بلا تدقيق أو بمركب من الحَجر والطوب الطيني (قارن الصورة ٢٠ ـ ب). للكنائس الكبيرة سقوف من الخشب، منبّسطةً دائماً تقف على أعمدة ركائزية، بينما كان للمباني الأصغر عروش طوبية. إن الطريقة الأخرى للسقف، التي أصبحت عالميةً بعد القرن الحاضر، جعلت من الضروري إستعمال بناءات جانبية فاصلة في محل الأعمدة، حيث أن السقف غير المتعادل الذي يستخدم في النوبة (المدعو بالعرش المائل) يقتضي قاعدةً متينة للغاية [١٠٦].

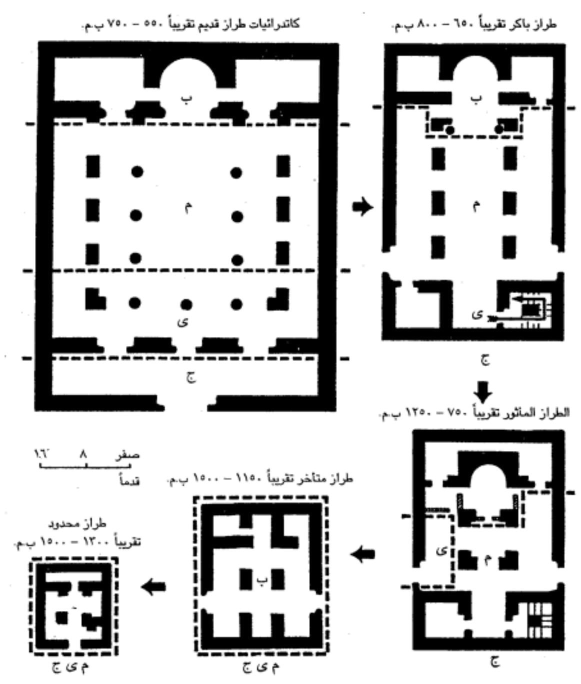
بمجئ القرن الثامن إكتسبت الكنيسة النوبية عدداً من الخصائص المعمارية المتميزة التي كان عليها أن تظل قيد الإستعمال لعدة قرون. إن أشدها خروجاً عن المألوف كان ممراً ضيقاً في الطرف الشرقي من المبنى، يجرى وراء القاعة نصف المستديرة ويصل ما بين حُجّرتي الأركان (الشكل رقم ٧٢). بالرغم من أن هذا الشكل ربما كان موجوداً منذ البداية في قصر إبريم، فهو غير موجود بطريقة غير ذلك في النوبة قبل مجئ القرن الثامن. هنالك نماذج قليلة جداً معروفة من أماكن أخرى في العالم، وتبقى الأصول القَيِّمة للممر الشرقي وأهميتها شيئاً من الأسرار [١٠٧].

توسيع المساحة المخصصة للعبادة لتشمل جزءاً معتبراً من القاعة المركزية تطورٌ آخر تواصل للقرن الثامن وقرون متأخرة. أضحى هذا ضرورياً لأن القاعة الشرقية نصف المستديرة، حيث كان المذبح يُوضع فيما مضى، أصبحت وقتذاك مشغولةً بصفوف من كراسي لأداء الشعائر، لذلك كان على المذبح أن يحل محلها نحو الغرب البعيد في الكنيسة. في نفس الوقت صارت المساحة المخصصة الآن للعبادة، والتي وُضعت فيما سبق جانباً عن الجمع عن طريق "قوس نصر" رمزي، مغلقة طبيعياً وراء حائط يخفيها يعادل الإيكونوستاسيس في الكنيسة الاغريقية، أو *الحجاب* كما يدعى بالقبطية. هذا الحاجز العضوي بين القسس وجمع المصلين، وتوسيع محل العبادة على حساب جسم الكنيسة، يشهد بالشخصية الصّفوية المتزايدة للطقوس الأرثوذكسية كما تطورت في العصور الوسطى المتأخرة.

المساحة المتوافرة لإستعمال المصلين خُفضت تخفيضًا إضافيا بإشتقاق حجرات صغيرة بالأركان الغربية من الكنيسة (الشكل رقم ٧٢) . أُدخلت هذه فيما يبدو كتوازن معماري لحجرات الركن الشرقي خالقةً أثراً لصليب وُضع من أعلي فوق مربع يظهر في الأرضية المسطحة للمبنى. إن واحدة من حُجرات الركن الغربي تحمل عادةً سلماً للسقف؛ في حين أن وظيفة الحُجرات الأخرى لم تكن أبدًا صافية . ومتى تم بناء خطة وضع الصليب – في – المربع ، نقل المدخل المؤدى إلى المبنى من الطرف الغربي إلى الجانبين الشمالي والجنوبي .

إنّ أشد الكنائس المسيحية أخذاً للإنطباع مما ظهر إلى النور حتى الآن هي الكاتدرائيات الأسقفية في قصر إبريم، وفرس، ودُنقلا، وبيناةً ربما كانت كذلك كاتدرائية في جبل عدًا. هذه الهياكل إحتوت معظم الخصائص المعمارية للكنائس النوبية الصغرى، لكنها كانت بارزةً لحجمها وفوق كل شئ لحقيقة أن القاعة الكبرى كانت مردوفة على كل جانبٍ بشقين جانبيين بدلاً عن الشق المعتاد.

مع أن رسمها العام ظل كما هو عليه، يبدو أن كنائس النوبة أصبحت أصغر وأقل تطلعاً جيلاً عن جيل بين القرن الثامن والقرن الثالث عشر. إن متوسط حجم الكنائس الأولى (بإستبعاد الكاتدرائيات) كان حوالى ٦٥ قدماً في ٣٢ قدماً؛ بحلول القرن الثالث عشر إنكمشت هذه الأبعاد إلى حوالى ٤٨ قدماً في ٣٠ قدماً. خُفضت السقوف بالتالي؛ وفى الكنائس الأقدم، كانت السقوف الخشبية



تتضمن الأسهم الغليظة تعاقب التطور الخاص بالتسلسل الزمنى
ب البيما ، أى المذبح ، (الحرم) ، مقتصرة على القسس وحدهم
م جزء الكنيسة المخصص للرجال
ى جزء الكنيسة المخصص للنساء
ج جزء الكنيسة المخصص للتائبين

شكل رقم ٧٢

تصاميم الكنائس النوبية مبّينة للتطور المعماري خلال الزمن

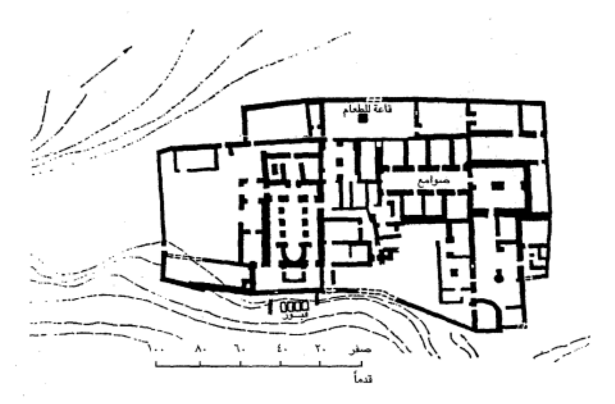
الأصلية تُستبدل تدريجياً بسقوفٍ طوبية معقودة. وجعل هذا من الضرورى إسقاط أعمدة الحَجر الضخمة التى كانت ملمحاً لكنائس قديمة غفيرة، واستبدالها بفواصلٍ من ركائز مبنية. أما الأعمدة التى صُرف عنها النظر فتُوجد في بعض الأحيان خارج الكنيسة أو، في حالة واحدة، مدفونةً تحت الأرض.

مرور السنين جاء بنفس الحُمولة المثقلة من الرمال تذورها الرياح على الكنائس كما فعلت بمساكن النوبة. خلاف المنازل، مع ذلك، لا يمكن ترميم الكنائس أو إعادة بنائها بالرخيص. عوضاً عن ذلك، أُدخلت دفاعات معمارية متنوعة، دُعمت الحيطان ومُتّنت بهياكل بارزة، واستُبدلت الأعضاء الخَشبية بالحَجر أو الطوب. ومع زحف مستوى الرمال المتراكمة للأعلى أصبح ضرورياً كذلك سد النوافذ الأصلية، على وجه الخصوص بالجدران الشمالية والغربية، وأن تقتطع نوافذ جديدة على مستوى أعلى. ثم جُعل الإرتياد المتواصل ممكناً بتشييد أسوارٍ تحفظ الرمل تحيط بالمداخل. بمضى الوقت أُغلقت المداخل الشمالية (فى جانب مهب الريح) لكنائسٍ وافرة وأُبطل استعمالها، بينما بلغت المداخل الجنوبية عن طريق دهاليز منحدرة أو مدرجات سلالم لزم تطويلها في كل جيل. سنواتها الأخيرة، كانت الكنائس في عبدالله نرقى [١٠٨] وفى مينارتى [١٠٩] للأغراض العملية كلها مبانٍ تحت الأرض تُبْلَغ عن طريق مدرجات لسلالم تنحدر من مستوى عالٍ مثل سقوفها الأصلية. أما ثقل الضغط المتواصل المضروب على الجدران الخارجية بأطنانٍ من الرمال المتراكمة فقد كان بالتأكيد خطيراً بدرجة هائلة، وقاد في نهاية الأمر إلى التخلى عن هذه الكنائس زمنا طويلاً من قبل نهاية الفترة المسيحية. لهذا العامل يُزجى علماء الآثار اليوم حمدهم للحفظ الإعجازى لرسومات الحائط في مثل هذه الكنائس كما في عبد الله نرقى، وفرس، وسونقى (أنظر "الفن والأدب الدينى").

عندما كان العديد من الكنائس النوبية القديمة في القرن الثالث عشر يستسلم للرمال المحيطة بها، أُدخل قالب جديد ومبسط بشكل جذرى من الكنائس. لقد ألهم به فيما هو ظاهر نوع من "كنائس - الكبولا [القبابية] " الصغيرة في اليونان والأناضول. إن الكنائس النوبية المتأخرة مربعة بالتقريب في رسمها، تصل مقاييسها بصعوبة لأبعد من ٣٠ قدماً في الجانب، وتتوج بسقف مركزى طويل يرتكز على قاعدة مستديرةٍ في آن واحد [١١٠]. إحتفظت بالتقسيم الثلاثى الأساسى للكنائس القديمة، لكنها تخلصت تقريباً من كل الطرائف المعمارية مثل الممر الشرقى، والقاعدة نصف الدائرية، وموقع العبادة المنفصل، وأحياناً واحدة أو كُلياً من حُجرتى الركن الغربى .

الإفتقاد إلى *آيكونوستاسيس* أو الحجاب، ليخفى محل العبادة عن نظر جمع المصلين، ربما يُجادل به من أجل العودة لنظام أدق صفوية وعمومية في الكنيسة النوبية المتأخرة. مع ذلك إن كان لنا أن نحكم من مواقف موازية في اليونان، يبدو أقوى احتمالاً أن العكس كان صحيحاً. إن مبنى الكنيسة برمته أضحى الآن مكاناً للعبادة، لا يستطيع إرتياده سوى القُسس وقليل من الأعضاء المتميزين عن الجمهرة. يحتمل أن القسط العام من الصلاة يُحتفل به خارج الأبواب، ويقرأ الدرس من مدخل باب الكنيسة، كما هو اليوم في كنائس الحبشة. الفجوة المتسعة بين القساوسة وجمهرة المؤمنين التى يبدو أنها كانت باديةً طوال تاريخ الكنيسة النوبية - يجوز أنها ساهمت في الإضعاف النهائى للمسيحية وإختفائها في النوبة في العصور الوسطى المتأخرة (قارن الفصل السادس عشر).

بعد القرن السابع يُبّين التطور المعمارى للكنيسة النوبية أثراً ضئيلاً جداً من مصر. فكلٌ من رسم الصليب - في - المربع للفترة المسيحية القديمة، وكنيسة الكبولا ذات السقف القبابي المستدير على قاعدةٍ مستديرة في الفترة المتأخرة يبدو أنهما وفدا مباشرة من الشرق الأدنى، لا يوجدان في مصر. على الوجه الآخر لم تدخل ملامح مميزة بعينها للمعمار القبطى المصرى إلى النوبة مطلقاً. فرغماً عن قرابتهم المذهبية مع الإسكندرية كان النوبيون بشكل واضح على اتصال بمجتمعات مسيحية أخرى سواءاً بسواء، قادرين على امتصاص تأثيراتهم مباشرة. هذا الظرف يتبدى كذلك في



شكل رقم ٧٣
مخطط لدير نوبي، قصر الوز

فنهم الدينى (انظر بأدناه). وهناك مُدونات متعددة لحجاج نوبيين في الأرض المقدسة، وربما كان عبر ذلك الممشى من الإتصال وَجدت التأثيرات الفنية طريقها من سوريا وفلسطين إلى النيل العالى [١١١].

مثل المعابد التى سبقتها، تبدو بعض الكنائس النوبية الباكرة وقد بُنيت بإهتمام أكبر من أجل وضع طبيعى بارز يتعدى مجاورة المستوطنات. في سنواتٍ لاحقة، مع ذلك، كانت هناكَ دائماً علاقة طبيعيّة لصيقة بين الكنيسة والمجتمع. إن كاتدرائيات فرس وقصر إبريم العظيمة وقلة من الكنائس الأخرى وُضعت في مراكز مدنها، لكن الموضع الإعتيادى للكنائس كان في أطراف المستوطنة. كان هذا ضرورياً في حالة إحاطة المبنى بجّبانة، كما وقع ذلك فعليا في معظم الحالات. الكنائس والمساكن تُبنى دائماً في تجاور وثيق، لكن الكنيسة لم تكن أبداً على صلة حقيقية بالمبانى الدنيوية. ولعلها مع ذلك كانت تصل بزوايا عبادة تدور حول فلك الكنيسة، ومقر لقساوسة، أو منشأة رهبانية.

فى حين أن كل مستوطنة نوبية لأى تبعيةٍ كانت لها كنيسة واحدة على الأقل، كان للمدن الكبيرة وعلى حد السواء بعض القرى غير المهمة نسبياً ما يبلغ خمسة أو ست كنائس [١١٢]. لا يبدو عدد الكنائس في كل مجتمع شديد الإرتباط بحجم السكان؛ ولعله يعكس كإحتمال أكبر وجود تقسيمات عرقية أو عائلية بين المُجتمع. تشعب الكنائس بارز على وجه الدقة في الفترة المسيحية الأخيرة، عندما كانت مجتمعات مبعثرة تجذب بعضها بعضاً للحماية، لكنها بشكلٍ واضح رغبت في صون شخصية تجمعاتها المستقلة. كذلك فإنه يصدق القول أن عدد الكنائس في جملتها الكلية. وفى نسبتها إلى حجم السكان معاً، كانت أعظم لمدى بعيد في النوبة السُفلى منها بأى مكان آخر (قارن الشكل رقم ٧١)، منبئةً (كما تفعل ذلك مؤشرات عديدة أخرى) أن قوة الكنيسة وثروتها جرى تطورهما أساساً في الشمال، على حدود مصر .

شهادة مؤلفين مثل إبن سليم (١١٣) وأبو صالح (١١٤) قد توحى بأن الأديرة كانت وجهاً بارزاً للمنظر النوبى في القرون الوسطى. ربما لهذا السبب، ولأن حركة الأديرة كانت متطورةً بمستوى عالٍ في مصر القبطية، كان هنالك ميلاً لإضفاء صفة الدير على اى موقع تقريباً يكون نواة لقرية في الفترة المسيحية. إلا أن البيّنة الأثَرية المحددة على وجود الأديرة شحيحة لأقصى حد (١١٥). ثلاثة منشآت فحسب يمكن التعرف عليها أديرةً بتأكيد فعلى: في الرّمال (١١٦)، وقصر الوز (١١٧) في النوبة السُفلى، وفى وادى غزالى بالقرب من الشلالْ الرابع (١١٨). وفى كل حالة تجد كنيسةً مركزية داخلة بين جمع متلاحم من المبانى المتلاصقة، والكل محاط بسور مُحْكَم الإحاطة. في قصر الوز، طليعة الأديرة النوبية التى حُققت تحقيقاً كاملاً، بالإمكان أن يُتعرف على تجمع من غرف الرهبان الصغيرة، وقاعة مركزية للطعام ومطبخ، ومحلات للشغل (الشكل رقم ٧٣) (١١٩).

فى ضاحية عكاشة، في *بطن الحجر* (الشكل رقم ٧١) بقايا لعددٍ من مبانٍ مجمعة بداخل سور لعلها تشكل مجتمعات رهبان مُصغّرة. إن تقارير مفصلة عن هذه المواقع لم تتوافر بعد (١٢٠)، على أنه يصفو من كونها مشيدةً بطريقة محكمة التكامل ومن مسورها الخارجى أنها ليست قرى فلاحة عادية (أنظر "المدن، القرى والمساكن"، بأدناه)، كما أن ترتيبها ومواقعها لا تنبئ بوظيفة عسكرية. وفى إثنين على الأقل من المواقع القريبة من عكاشة كانت هناك كنيسة بين الأسوار (١٢١)، مع أنه في حالات أخرى ليس هناك أثر يمكن إيجاده، لكنيسة. إذا كانت هذه المستوطنات التى تكاد أن تكون طلمساً أديرة في الحقيقة، فإن تركز حفنة منها بين مساحة لا تعدو بضعة أميال قد يقترح أن عكاشة كانت في الحقيقة مكاناً مقدساً، ربما بسبب ربيعها الحار. إن الموقع يعود تاريخها أساساً إلى الفترة المسيحية المأثورة (القرون من التاسع إلى الثانى عشر)، كما هى الحال بالنسبة للأديرة التى اختُبرت بمستوىً أوثق في قصر الوز وغزالى .

ما من دير في النوبة يُقارن في الحجم أو المظهر بأى حالٍ من الأحوال بالمنشآت الرهبانية العظيمة في مصر (١٢٢). جدير بالذكر أيضاً أن كنائس الرهبان في الرّمال، والوز، وغزالى ذوات رسم تصميمى نوبى أشد منه مصرياً. إلا أن النصوص الكتابية ومثلها شواهد القبور التى تقاطرت إلينا من هذه الأماكن قبطية بقسطٍ وافر (١٢٣)، وهى لغة لم تكن مستعملةً معظم الأحيان من السكان النوبيين الأصليين (أنظر "الفن والأدب الدينى") (١٢٤). لذلك فإننا نُتْرَك في بعضٍ من الشك عما إذا كان رهبان النوبة يجرى تجنيدهم من السكان المحليين أم أنهم كانوا في المقام الأول لاجئين من مصر. إن عددهم على كل حال لا يبدو أنه كان كبيراً وربما أنهم لم يلعبوا دوراً في الحياة الإقتصادية والدينية بمثل أهمية ما أدته أديرة مصر وأوروبا. إضافةً إلى مجتمعات رهبنة منظمة ربما كان هنالك نساك إنفراديون يعيشون في كهوفٍ وخرائب هنا وهناك؛ إن محل السكن لواحدٍ من هؤلاء تم التعرف عليه أثَرياً (١٢٥). يزدان بمجموعة غير عاديةٍ من النصوص الدينية والسحرية وستجرى مناقشتها لاحقاً.

الرهبانية النوبية، على النحو الذى كانت عليه، تبدو كأنها بلغت أكمل إزدهارها في الفترة المسيحية وتدهورت سريعاً بعد ذلك. ليس مستيقناً أن أياً من المجتمعات المسورة التى تمت مناقشتها حتى الآن كانت مأهولةً بعد القرن الثانى عشر. من الجهة الأخرى يمكننا أن نستبصر، في الفترة المسيحية الأخيرة، إيحاءات بمجتمعات رهبنة صُغرى كانت معزولةً عن العالم المحيط بها بدرجة أقل تشدداً. في مينارتى وُجدت قاعة كبيرة لتناول الطعام مجمّلة برسوم دينية، ومحاطة بجمع مما يبدو أنه كان غرفاً صغيرة، غير أن المجمع السكنى ككلٍ لم يكن متمايزاً بصفاء عن الجزء الدنيوى الملاصق له من القرية (١٢٦). وفى تاميت، أيضاً، يبدو أنه كانت هناك مستوطنة رهبانية أو على الأقل دينية معلقة بحافة قرية للفلاحة العادية (١٢٧). إن أسباب تدهور الرهبانية النوبية، وما يتراءى كحالة من العلاقات الودودة للمجتمعات المترهبنة والدنيوية، ستعالج بتفصيل أكمل في محتوى عصر النوبة الإقطاعى (الفصل السادس عشر).

معظم الكنائس النوبية تجاور من الشرق بجّبانة، وفى بعض الأحيان من الشمال والجنوب. لقد كانت هناك إضافة إلى هذا جبّانات مسيحية عديدة (بما في ذلك معظم الكنائس التى لا تزال مستعملةً من أزمان سالفة) لم تكن مرتبطة بكنيسة. حوالى نصف المواقع الجنائزية المعروفة في النوبة السودانية يرجع تأريخها كليةً أو جزئياً إلى الفترة المسيحية [١٢٨].

فى أضاعها السُفلية تحت الأرض معظم القبور المسيحية بسيطة لأقصى حد ممكن. إن حفرة القبر لا تعدو كونها فجوةً رئاسية ضيقة يُوضع الجسد عليها بظهره، ورأسه إلى الغرب، دونما غطاء فيما عدا طوبات خشنة "مائلة" ربما فوق الرأس. يُلّف الجسد بغطاء، وفي بعض الأحيان تترك حبات صغيرة قليلة من المجوهرات الشخصية فوقه، إلاّ أنه لا توجد قرابين جنائزية. الإستثناءات الوحيدة لهذا التعميم يبدو أنها تمثلها جنائز أعيان كنَسيين، كانوا يُدفنون أحياناً في مظهر إحتفالى، تصحبهم شعارات منصبهم وقارورة أو قوارير تحوى الماء المقدس فيما هو مفترض [١٢٩]. إن وضع هذه الآنية يغرى بفكرة إستمرار الممارسة الجنائزية التقليدية في أزمان مَروية وبلانية. كُشف الغطاء عن جنازة قبل وقت وجيز بالقرب من كولبنارتى (بإفتراض أنها كذلك لمسؤول بالكنيسة) مدفونة على عنقريب محفوظاً حفظاً تاماً [١٣٠]. وهو بقاء مذهل أو إحياء لعادةٍ نوبية قديمة قدم الدهر اعتقد ذات مرة أنها اختفت في بداية الفترة المسيحية [١٣١].

إضافةً إلى الجنائز المنفردة أحرز قبر العائلة المسقوف، المألوف منذ أزمان سالفة، شعبيةً محدودة في الفترة المسيحية. في هذه الغرف يرقد الأموات المنفردة أحياناً مثل ألواح الخشب إلى عدد يبلغ خمسة عشر أو عشرين، ورؤوسهم تتجه دائماً ناحية الغرب. وفى كل مرة يُعاد فيها قفل القبو يترك فانوس الإبتهالات منارأ في داخل الباب المؤدى للقبر مباشرة، على الطرف الغربى.

أكثر غطاء للقبر المسيحى شيوعاً مستطيل مشغول من الطوب يوضع على الحافة. في طرفه الغربى يوجد في العادة "صندوق" مكون من طوبتين مستقيمتين وطوبة ثالثة عبر قمته يوضع عليها فانوس الإبتهالات. انه كان يشعل حيثما أقيمت صلاة على الميت. مع ذلك، فإن كثيراً من القبور المسيحية الفقيرة، المودع منها في الجّبانات الأصغر والأشد نأياً على الأخص، ما كان لها غير غطاء خَشن من بلاط الحَجر. في الجانب الأقصى المقابل كانت هنالك هياكل بنائية فوقية من الطوب جزلة التفصيل شُيدت في المقابر الملاصقة لبعض الكنائس الأعلى أهمية. أخذت هذه الهياكل تشكيلة واسعة من الصّيَغ: مُسّطحاً مرتفعاً مستطيلاً محاطاً بصليب مرفوع الجانب، أو مُسّطحاً مرتفعاً في شكل صليبى، أو غرفة مُربّعة صغيرة على رأسها قبة. كثير منها مغطىً بدهان أبيض أو ملون، وبعضها له شاهد قبر مقّوس موضوع إلى داخل وجهه الغربى. أما أبعاد الهياكل البنائية الفوقية فكانت محدودة عموماً بطريقة أو أخرى طبقاً لما يناظرها بالقبر الكامن تحتها، ما كان منها ما يدنو ولو عن بعدٍ من حجم أو شكل المدافن التّلية ما قبل الأزمان المسيحية (الفصل الثالث عشر). [١٣٢]

شواهد القبور من الفترة المسيحية متعددة نسبياً، تؤلِّف نصوصها جسداً هاماً من الأدب النوبى في القرون الوسطى (أنظر بأدناه). وكيفما اتفق الحال عليه، فإن بضعةً منها وُجدت *في الموقع الأصلى* بما يثير الدهشة. معظم القبور المسيحية يبدو أنها أُهملت بعد فترةٍ مختصرة نسبياً، وكان هنالك ميل من مقيمين متأخرين في الجوار لنزع البلاطات المريحة ووضعها لإستعمالات أخرى. ربما عُثر على شواهد قبور وافرةٍ كمقابض للأبواب وتعبيد الطرق لا كعلاماتٍ على القبر. في بعض الجّبانات وُجدت كذلك البناءات الفوقية وقد جرت تسويتها بنظام بعد فترة معينة، وأُعيد شغل الفناء بجنائز جديدة مُقحمة [١٣٣]على الجملة، تنادى البّينة بأن الطقوسُ الجنائزية لعبت دوراً أقل في ديانة العصور الوسطى عنها في أى وقتٍ مضى منذ بداية الفترة التأريخية .

يبدو الزخرف في الكنائس النوبية الأولى كأنه محصور في إستعمال المنحوت من الحروف الكبيرة، والأعتاب القائمة فوق فتحات البناء وحواف السقوف، من الحجر والخشب معاً (١٣٤). إن قليلاً جداً من هذه بقيت متينةً، حيث أنه بعد القرن الثامن أُستغنى عن مثل تلك الملامح. أما الأصناف التى وصلت إلينا فهى مماثلة للغاية لزخرف الكنيسة المسيحية الأولى؛ وهى مُشكلة بعناية لتصبح أنماطاً نباتية مفصلة من أصل إغريقى، مع صليبٍ أو طائر سلام مزخرف من وقت لآخر وحسب دلالة على أثر المسيحية (١٣٥).

محتمل أن الحروف الكبيرة وعتبات المبانى المنحوتة للكنائس النوبية الأولى كانت مرسومة بالمثل، على أنه لا يوجد إقتراح بشئ مثل زُخرف حائطى. في بداية القرن الثامن، مع ذلك، ظهر أسلوب فنى مسيحى خالص جديد في شكل رسومات حائطية ملونة في لمعانٍ مستلهّماً من ألوان الماء ولوحات من بيزنطة. سرعان ما أصبحت، وبقيت طوال العصور الوسطى، أسمى تعبير فنى للحضارة النوبية المسيحية. تناقصت بعد ظهورها الزخرفة المنحوتة بسرعة في شعبيتها، كما فعلت طوال الشرق المسيحى حوالى نفس الوقت .

التطور العالى لرسوم الكنيسة في النوبة إبّان القرون الوسطى مُثبت بقطَع من دهانٍ ملون لامع وبقايا لرسوم تشكيلية تطل من وقت لآخر ويمكن العثور عليها في عشرات الكنائس المهجورة في أرجاء القطر. بيد أنه حتى حقبةٍ مضت لم تعرف سوى بضعة أمثلة رسم معزولة على الأرجح بقيت بما يشبه شكلاً معروفاً (١٣٦). حتى هذه كانت محطمة بما يدعو للحزن، حيث أنها سبق أن عُرِّضَت ليس فقط لتخريب عناصرها وتدميرها إنما لتبديلٍ في ملامحها من قِبَل معتدين يجهلون قيمتها، فيما ألهم به الخوف من العين الشريرة أو لتحريم المسلمين للتمثلات. ثم جاء إكتشاف كاتدرائية فرس، مهجورةً وممتلئة بالرمال في أوج المسيحية النوبية، بزخرفها الملون الذى ما انفك متيناً لحد كبير (١٣٧). وقتاً قصيراً بعد ذلك أُجريت كشوف من نفس النوع، رغم أنها لكنائس أصغر بكثير، في عبد الله نرقى (١٣٨) وفى سونقى (١٣٩). معاً تُكَوِن الرسوم في هذه الكنائس الثلاثة داراً لنفائس من فنون القرون الوسطى لا يوجد لها مثيل موازٍ في إفريقيا المسيحية. إن إكتشاف رسوم فرس، بوجه خاص، لابد أن ينسَب على أنه العثور الأثَرى الباهر لهذا الجيل .

لئن كان اكتشاف رسومات فرس (التى تُدعى بصيت ذائع ولو أنه غير صحيح الواناً مائية) أفضل الكشوف حظاً لحملة الصروح النوبية، فإن حفظها ونقلها من حيطان الكاتدرائية كان إنتصارها الفنى الأعظم. وبرغم أن المبنى نفسه غاطسٌ الآن تحت بحيرة ناصر، فإن مالا يقل عن ١٦٩ لوحة تمت إزاحتها بنجاح من حيطانه، وهى مُقّسمة الآن بين المتحف القومى في وارسو ومتحف آثار السودان في الخرطوم (١٤٠). مثل معظم الكنائس النوبية أُعيد زُخرف كاتدرائية فرس من فترة لأخرى مما نتج عنه تراكمٌ لرسومات كل لوحة من فوق الأخرى. مهارة فنيّ المتاحف البولنديين أعانتهم على إزاحة الطبقات المتعاقبة للوحات كُلاً على حدة، وبذا أُجلى تاريخ تطورى بأجمعه لفن الكنيسة النوبية (قارن الصورة ٢١ ـ ج).

من المستحيل أن يُعْدَل بالكلمات لإيفاء حق رسومات فرس. ولحسن الحظ أُعيد إخراج بعضٍ من أجودها الآن بالألوان في عددٍ من الكتب الشائعة (١٤١). ولكيما يتم تقديرها على وجه التمام، ومع ذلك، يجب أن تُشاهد الرسومات في وضعها الأصلى توهجاتٍ للألوان اللامعة بين مناظر طبيعية من رمل صفراوى ـ بُنى موحدة الإيقاع بوجه عام. (بعض هذا الانطباع ينقله رسمٌ مبين في صفحة الغلاف الملونة لمؤلف ميخالوفسكى المسمى *فرس، كاتدرائية في رمال الصحراء* (١٤٢). وسط أعظم مناظر مذهلة لرسومات فرس الحائطية، منظر عُلوه ثمانية أقدام وطوله عشرة أقدام يصف الشبان اليهود الثلاثة في الفرن المتلهب، يحميهم الملاك المقرّب ميكائيل (١٤٣). أما الأشكال المتدثرة بأروابٍ

مزدانة فمشغولةٌ أساساً بالأزرق والذهبي على خلفية لهبٍ أحمر متصاعد).

منظران مهمان آخران متمثلان في فرس: ميلادية موسعة شديدة التفصيل (حُددت فيها، لأول مرة بأي وثيقة معروفة، شخصية الرُعاة المصاحبين بأسمائهم [١٤٤]) ومنظر للصلب. إن أغلب الرسومات الباقية لوحات مثالية، تشمل أشكالاً لمريم العذراء، والملائكة المقربين، ورسل وشهداء مختلفين، والملوك النوبيين، إبارشة وأساقفة تمت الإشارة إليهم آنفاً (الصورة ١٢١أ ـ ب). والأشكال مُرافقة في أغلب الحالات بكتاباتٍ مرسومة تُعَرِّفها بالاسم .

مكنتنا الإكتشافات في فرس، وعبدالله نرقي، وسونقي من إعادة تركيب الأشكال التي رُسمت في عددٍ عظيم من الكنائس الأخرى، ما بقيت منها الآن سوى أشطار قليلة. إنها تتوافق جمعاً في الأسلوب والرمزية الفنية، مع أن الرسومات في الكنائس الصغرى قلما تواكب نوعية وموسوعية ما في فرس. كنتيجة لذلك، يمكننا الآن أن نتحدث بعبارات عامة عن مدرسة نوبية لفن الكنيسة بالقرون الوسطى.

خلافاً للكنيسة البيزنطية، لا يبدو أن الكنيسة النوبية كانت تلتزم مشروعاً مُخَططاً بإملاءٍ صارم للزخرف الحائطي [١٤٥]. رغماً عن ذلك تقع نفس الأشكال أو ما يشبهها في نفس المكان بعددٍ كبير من الكنائس. فالقاعة الرئيسة يشغلها شكل مركزي للعذراء والطفل (*) يحيط بجنبيهما الحواريون [١٤٦]، في حين أن نصف القبة التي تتوج القاعة (ملمح وُجد في الكنائس الأولى وحدها) يطغى عليه رأس وأكتاف ماردة للمسيح وقد مُنح الهيمنة على العالم [١٤٧]. في إعتيادٍ شديدٍ يوجد منظر للميلاد في الشق الشمالي من القاعة [١٤٨]، وشكل قائم للملاك المقرب ميكائيل على رأس الشق الجنوبي من القاعة [١٤٩]، ورأس للمسيح برموز لكتب الإنجيل الأربعة على طول الحائط الجنوبي [١٥٠]. أما القديسون الفرسان فلون فني شائع آخر؛ وفي وسطهم يسعنا أن نتعرف على الشكل المعروف للقديس جورج وهو يطعن برمحه الوحش الخرافي [١٥١].

تمثل أربع فترات على الأقل تطور الأسلوب الفني في رسومات فرس الباقية على قيد الحياة. وصفها ميخالوفسكي بأنها التعبير بالأحمر والأزرق متوسط الألوان (القرن الثامن الباكر إلى منتصف التاسع)، والتعبير بالأبيض (منتصف التاسع إلى باكورة القرن العاشر)، والتعبير الأحمر ـ الأصفر (القرن العاشر)، والتعبير متعدد الألوان (في القرنين الحادي عشر والثاني عشر) [١٥٢]. هذه التوصيفات تعكس تفضيلات لونية متغيرة، إلا أن هناك تغيرات هامة كذلك في الأسلوب والرمزية الفنية. فالأسلوبان المبكران تشخصهما ألوان مخففة شفافة في الغالب وإستعمال مُقَيد للزخرف المفصل. أما الأشكال، طبقاً لويتزمان، فتميزها سمات "... خطوط مستقيمة تميل إلى بسط الأشكال بينما أنها في نفس الآن كانت نِسَبُها التي هي نوعاً ما الأثقل ظُهوراً تتبادر إلى الذهن بالتركيب الضخم لأجسادها، موضحاً بأقدامها الكبيرة التي تكاد تكون مُتصلبةً، ورؤوسها المربعة الثقيلة. كانت وجوههم مُصَمّمة بخطوط كأنها هندسية وبأعينٍ مهولة الكبر ذات نظرة ثابتة بلا تعبير" [١٥٣]. إن الفترات المتأخرة مُشَخّصة بألوان لامعة وتفصيلٌ فاحش الزينة في معالجة الأرواب، والأجنحة وغيرها من الملامح. أما تقاسيم الوجه فهي بدرجة مُقَدرةٍ أبرز إنسانيةً وحياة منها في الأساليب الفنية السابقة .

إلى أقرب ما نستطيع الإنباء به، يحمل نفس التتابع لتطور الأساليب الفنية خاصيةً دالة على كل الكنائس النوبية، بالرغم من أن التعبير متعدد الألوان يبدو مكتمل التطور في فرس وحدها. بأماكن أخرى واصل التعبير بالأحمر ـ الأصفر شعبيته حتى نهاية الفترة المسيحية. إن بعض الكنائس المتأخرة للغاية، كنائس عبد القادر، تعرض أسلوباً شديد التبسط متدنياً إلى حد ما غير ممثل في فرس وربما تطور بعد التخلي عن كاتدرائية فرس [١٥٤].

(*) مريم إبنة عمران وإبنها المسيح عيسي عليهما السلام – المترجم.

سيطرة الأثر القبطى على الرسوم النوبية ظاهر للعيان. كذلك يمكن ملاحظة أغلب الكتابات المصاحبة لها باللغة القبطية، تتنادى بإحتمال مؤداه أن الرسامين كانوا صناعاً مصريين إستُجلبوا لغرض زخرفة الكنائس النوبية. لقد عملوا افتراضياً من كتاب منسوخ، حيث أن هناك تشابه مُحْكَم في تفصيل (مع إنه ليس تاماً بالمرة) بين الرسوم في الكنائس بكافة أرجاء القطر. ولو كان الأمر كذلك، فإن فن النوبة الحائطى ليس تقليداً مخلصاً للفن المسيحى المعاصر لمصر ببساطة؛ إنه يختلس أيضاً تأثيرات من فلسطين وسوريا، وبيزنطة [١٥٥]. أُضيفت له مسحةً محلية وواقعيةٌ خالصة من تصوير الحكام والأساقفة الوطنيين بملامح داكنة [١٥٦]، تبايناً مع الوجوه البيضاء للعائلة المقدسة، والقديسين، والملائكة المقربين، وبالتقريب كل الأشكال الموصوفة الأخرى. في الفن، كما المعمار، يبدو أن النوبيين كانوا قادرين على تمثل تأثيرات من مصادر مختلفة ودمجها، مع إضافة لمساتهم الخاصة إليها .

مشكلة الكتابة في النوبة في القرون الوسطى واحدة متزايدة التعقيد [١٥٧]. في الوقت الذى أُدخلت فيه المسيحية ما كان هنالك، كما رأينا، لغة مكتوبة مؤسسة. كانت المَروية لكل الأغراض العملية مبعَدة، والإغريقية، مع أنها استُخدمت في بيانات من ملك أو ملكين ما قبل المسيحية، انها لم تكن مدركةً من النوبيين الأهليين .

كانت لغة الكنيسة المصرية الأولى هى الإغريقية، وأصبحت اللغة الشعائرية للنوبة بالمثل بعد إدخال المسيحية. ومع انتقال الكنيسة المصرية من الاغريقية إلى القبطية بعد انشقاقها النهائى عن بيزنطة، كيفما جرى ذلك، لا يبدو أن الكنيسة النوبية إتّبعَت الخطى. بقيت الإغريقية قيد الإستعمال، رغماً عن أن صنعتها تزايدت قلةً في الصَقل والنحو، طوال العصور الوسطى. النصوص الإبتهالية الإغريقية معروفةٌ منذ تأريخ يعود إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر [١٥٨]، وأغلبية شواهد القبور النوبية مكتوبةٌ إضافةً إلى ذلك بالإغريقية. بعد القرن السابع، مع هذا، هنالك نصوص وكتابات إضافية بكلٍ من القبطية والنوبية القديمة ـ اللغة الأصلية للنوبة مكتوبةً بالأبجدية القبطية [١٥٩].

أشار جاكوبليسكى أن نصوص القرون الوسطى في النوبة تقع بصفاء في مجموعتين، مجموعة تحوى الإغريقية والنصوص النوبية القديمة ومجموعة أخرى تشمل النصوص القبطية [١٦٠]. تظهر الإغريقية والنوبية القديمة دائماً واحدة فوق الأخرى في نفس المخطوط، وتبين الأخطاء النحوية المعتادة في المقالات الإغريقية أثَر اللغة النوبية [١٦١]. في الجانب الآخر، نادراً ما توجد القبطية المكتوبة في صُحبة اللغات الأخرى، ونصوصها عموماً خالية من الأخطاء النحوية. من هذه يخلص جاكوبيلسكى إلى أن الوثائق بالإغريقية والنوبية القديمة معاً كانت عملاً لنوبيين وطنيين، في حين أن النصوص القبطية كانت مكتوبةً من مصريين أقاموا في القطر. إن امتناع النوبيين عن الإنضمام إلى إخواتهم المصريين في الانتقال من الإغريقية إلى القبطية ربما يفسر حقيقة أن الإغريقية كانت قد اكتسبت مكانةً سامية ذات خصوص في النوبة ليس لأنها لغة للشعائر فحسب، لكن لأنها كانت لغة البلاط لنوباديا والمقُرة (قارن الفصل الرابع عشر). هكذا يحتمل أن النوبى المتعلم في العصور الوسطى وظَّف النوبية القديمة في معترك الحياة اليومية والإغريقية للتراسل والكتابة الرسمية، تماماً كما تُستخدم النوبية الحديثة والعربية اليوم على الترتيب. في الوقت نفسه ربما يتضح أن القساوسة المصريين في النوبة أصرّوا، بوَصايةٍ أبوية مألوفة على استخدام لسانهم القبطى. يجدر ذكراً في هذا الشأن أنّ أساس كاتدرائية فرس العظيمة في ٧٠٧م جُسدت ذكراه بلوحين متوازيين، واحد بالقبطية والآخر بالإغريقية [١٦٢]. كإفتراض يمثل هذا تصالحاً بين البلاط الناطق بالإغريقية والقساوسة الأقباط وهو ما يبدو وقتها أمراً سائداً في فرس .

الفوضى اللغوية في نوبة القرون الوسطى إعتُبرت في بعض الأحيان بَينة على مناهضة مستمرة بين اليعاقبة الوُحُوديين والملكانيين الثنائيين (قارن الفصل الرابع عشر) [١٦٣]، لكن هذا الإعتبار غير

مُبّرر بالأدلة. فكل اللغات الثلاث فيما هو واضح كان لها وضع رسمي يُمكّنها إفتراضياً من أن تُستعمل في الشعائر، كما أمكن للعربية بعد القرن الرابع عشر. وفى الأماكن التى كان للمصريين بها مواقع السلطة، كما في الأديرة في فرس إحتمالاً، ربما مُنحت القبطية الأفضلية لأكثر المخطوطات أهمية [١٦٤]، غير أنه في الأمكنة الأخرى كانت الإغريقية والنوبية القديمة أوسع شيوعاً في الإستعمال. رغم ذلك، وُجدت شواهد قبور قبطية من وقت لآخر في أنحاء عديدة من النوبة، لعلها شهادة بعدد القساوسة المصريين أو أثرهم وسط القسس النوبية .

بقيت حيةً خمسة كتب نوبية فحسب من الفترة المسيحية [١٦٥]، رغم أن صفحات سائبة في أشطار صغيرة توجد دائماً. إن أدب العصور الوسطى محفوظ، أياً كان ذلك، على خُطى نسق ما في أشكال متعددة أخرى. نشر جاكوبليسكى قائمة مصّنفة لبقايا النصوص التى عُثر عليها في فرس، تعطى فكرة عن مدى تنوع الأدب الدينى في القرون الوسطى:

نقوش منحوتة في الحجر: نصوص ووثائق تأسيسية ذات طبيعة رسمية، ٦؛ ألواح محفورة، ١٧؛ نصوص هويتها تذكارية ٧؛ رسوم تصويرية على كتل أو عناصر معمارية، ١٢؛ توقيعات بأحرف لأسماء ٨.

نقوش على دهان بنايات مكتوبة بحبر أو محتفرة: فصول من رسوم حائطية، ٦١؛ كتابات تحيّى ذكرى مؤسس الرسومات (إهداءات) ١٣؛ أجزاء من صلوات غير متبوعة بتوقيعات الزوار، ٤٠؛ نصوص دينية وسحرية: مجموعة من مخطوطات قبطية عام ٧٣٨م مكتوبة على جدران الناسك فروتو من الراهب ثيوفيلوس؛ قوائم بأسماء القساوسة، ٦؛ توقيعات لأشخاص زارو المبنى ـ رسوم تصويرية تشمل أسماء مسبوقة أو غير مسبوقة بإبتهالٍ قصير، ٨١؛ أسماء منفردة بدون ألقاب ـ أغلبها أسماء لقديسين، ٦٤؛ أجزاء من قوائم لمأدب متحركة أو فهرس أبجدى بتقويم زمنى، ٢؛ تواريخ مفردة ـ شهراً، يوماً أو أعداداً، ٩؛ مخطوطات مدرسية، الأبجدية، قائمة بحروف مُتحركة؛ عينات كتابية، ٦؛ توقيعات بأحرف أسماء ٣٠؛ أجزاء من رسوم تصويرية غير معروفة، ٩٢؛ حروف مفردة، ٤٤.

نقوش على الفخار: شقوق فَخارية مكتوبة، ١٠؛ رسوم تصويرية على أوانى، أسماء أو توقيعات بأحرفٍ لأسماء ٥٠؛ كتابات على أختام، ٢؛ كتابات باللون الأبيض على طوب يحوى أسماء القديسين، أُنجزت لأسبابٍ غير معروفة لنا، ٥.

قطع من مخطوطات على ورق بارشمان مصقول: ورقة من الثوتوكيا بالإغريقية مع مداخلات بالنوبية القديمة؛ بقية من ورقة لمخطوط شعائر بالإغريقية؛ قطع صغيرة لحوالى ٥٠ ورقة من مخطوط قبطى (الجزء الأيسر الأدنى محفوظاً من كتاب، محتوياته غير معروفة)[١٦٦].

إضافةً إلى المعثورات في فرس، أُثرى جسد البقايا النَصية النوبية في القرون الوسطى بدرجة قصوى في الحقبة الماضية بالعثور على كتاب الإنجيل مخطوطاً بالنوبية القديمة في سَرة (فيما يبدو مماثلاً لواحدٍ نَشره قريفيث منذ سنوات مضت) [١٦٧]، وكتاب للصلاة بالقبطية من قصر الوز [١٦٨]، ومجموعة غير عادية من الوثائق الدينية، والقانونية والإدارية من قصر إبريم [١٦٩]. هذه المعثورات الجديدة لم تحلل بعد ولم تنشر بتفصيل .

الأمثلة الباقية حية من الأدب النوبى في القرون الوسطى غامرة التدين في خصائصها. تحتوى النصوص المطولة تعاليم مكتوبة (الأناجيل بصورة جوهرية)، وحياة القديسين وأقوالهم، وصلوات، وتشكيلة من صيغة شعائرية، معظمها مشهور من عالم المسيحية الأولى [١٧٠]. ومثل قدر عظيم من الأدب في القرون الوسطى يبدو أنها تتراوح في حرية بين الهموم الدنيوية والأخروية، وبين مدركات أخلاقية عليا، وفتشية (*) طقوسية بدائية. مع ذلك، يصعب التعرف على ملامح أى شئ نوبى على وجه التحديد وسط هذا المزيج المتنافر بالمعني الحرفى للعبارة .

(*) الفتشة هي ظاهرة التمسك بالأشياء – المترجم.

ربما أن أصفى فكرةٍ عن محتوى الأدب النوبي ونوعيته في القرون الوسطى محمولة في كتابات "الناسك قروتو" بمقربةٍ من فرس. هنا في القرن الثامن إتخذ راهب لخلوة صومعته مقاماً في غرفة خارجية لمدفن صخرى من الدولة الجديدة؛ شرع عبر السنين في تزيين جدرانها بسلسلةٍ من كتابات توفر رؤيةً متفردة إلى باطن ما رآه رجل بشأن معنى المسيحية. إن قريفيث، الذى نسخ الكتابات قبل ستين عاماً سلفت، أعطى الوصف التالى للناسك قروتو:

أكثر تذكار يثير الإهتمام تركه لنا الناسك سلسلةٌ من النصوص القبطية التى رسمها على حيطان بيضاء الطلاء، في شقق مربعة مثل صفحات كتاب هائل التكبير. الأول على الحائط الشمالى هو " المنسك النايسيني " (*)؛ والبقية إلى الحد الذى بقيته على قيد الحياة تنسب قصصاً وأقوالاً منيرة للقديسين، على نحو ما كان سارياً في مجموعات كبيرة بالإغريقية، والسورية المرتكزة على الأرمية، والقبطية؛ لكنها لا يظهر أنها تتفق مع تلك التى تضمها أى مجموعة معروفة . إن ٤ ، ٥ و ٦ فحسب يمكن أن يُتعرف عليها في مجموعة سورية، توجد هنالك على حد سواء في صيغة مختلفة للغاية. تواصلت هذه السلسلة على الحائط الجنوبى. فرقم ٤٢ في منتصف هذا الحائط صلاة للناسك نفسه، " ثيوفيلوس، هذا الأقل من بين كل الدهبان، الذى كتب هذه الكتابات على مسكني " ، مؤرخة في العام ٧٣٩م. على هذه الصلاة تتبع سلسلة من نصوص تعويذية قوية مثل التى بكتابٍ في مجموعة ليدن. تحتوى بدايات للاناجيل الأربعة مكتوبة في دوائر، تبلغ نهاية الحائط؛ شاغلةً الركن غير المنتظم وبداية الحائط الغربى إلى شمال الباب ، رسالة المسيح إلى الملك أبقاروس ملك إديسا ، وقائمة شهداء سباست الأربعين، وعبارة دائرية باللاتينية شائعة الخطأ (معنونة هنا " أسماء مسامير المسيح " ، أسمال النائمين السبعة لأفسوس، إلخ، يعقبها صليب واضح مزدان [١٧١].

النصوص الجنائزية المكتوبة على شواهد قبور نوبية مسيحية تمثل طبقةً خاصة من أدب القرون الوسطى . تحتوى في العادة عشرة أو ما يزيد من السطور طولاً، تشكيلة معتبرة من الصيّغ. والأوسع إنتشاراً منوعات من نص بيزنطى مشهور، " المدح العظيم" [١٧٢] . إن عينةً مألوفة للغاية من دبيرة تُرجمت كما يلى من كروم :

عيسى المسيح، نور الحياة . عبر هدى الرب، حاكم الخلق، هو الذى قال لآدم، أول إنسان، " أنت من تراب ، وإلى التراب ستعود ثانياً " ، على هذا المنوال ذهب المتوفى بيتر عامل الكنيسة للراحة الأبدية – الإبن الروحى لأبا جورج، أسقف قُرتا – في اليوم السابع من شهر أبيب في عام ٧٤٥ [١٧٣] . وليعطى الرب الخَيِّر العطوف الراحة لروحه في الملكوت السماوى، ويرقده على صدر إبراهيم وإسحق ويعقوب، في جنة السرور، حيث يتبدد البكاء والحزن والنحيب، وليجعل ميكائيل الملاك المقرب في الطيبة ليرعى عظامه؛ وليجعله سامعاً لذلك الصوت المبارك الذى سيقول " تعال ، أنت أيها المبارك من أبى ، ولتُورَث الملكوت الذى هُيىء لك منذ أن وُضع العالم" . لأنك أنت الراحة والمعين لخادمك، بيتر عامل الكنسية، وإليك نرفع الثناء، وإلى الآب والإبن والروح القدس، الآن وإلى الأبد وآباد الدهور. آمين [١٧٤].

المدن، القرى، والمساكن

فى الشمال على الأقل، كان المجتمع النوبى أوسع حضريةً عنه خلال أى فترة سابقةً إحتمالاً. مستوطنات قصر بريم، وجبل عدّا، وفرس ربما بلغ تعدادها عدة آلاف من السكان، وكانت هناك قرى عديدة سكانها يعدون بالمئات. في النوبة العليا، ربما كانت حواضر المدن دُنقلا وسوبا كبيرة لا تزال، غير أنه في هذه المقاطعات بيّنه قليلة على الإستيطان الحضرى بعيداً عن العواصم نفسها.

المداكز الحضرية الكبرى كالعادة كان التحقق منها أقل منهاجاً ونظاماً وكانت أقل ما تم فهمه بين تعابير الحضارة النوبية في القرون الوسطى . لم يُضطلع بعد بالتنقيب حفراً في دنقلا، وسوبا،

(*) عادات وشعائر تتصل بالمجلس الكَنسي النايسيني تبدأ ب "إنني أؤمن بإلهٍ واحد" تعود إلي عام ٣٢٥م – المترجم.

وقصر إبريم [١٧٥] على نطاق عريض في حين أن فرس وجبل عدّا أُهديتا الفيضان مع كتلة بقاياها بلا تحقيق . وبنظرةٍ مسطحةٍ لا تعمق فيها، تحمل كل هذه المستوطنات إلى مدى بعيد نفس الإنطباع كما تحمله المجتمعات الأوروبية في القرون الوسطى : زحاماً غير متجانس ودون تخطيط لمساكن يغلب أن تكون غير متينة البناء تتجمع حول واحدٍ أو ما يزيد عليه من البنايات الصروحية. إن المدن الشمالية، على سبيل إفتراضي، كانت النواة لإزدهار التجارة التى وصفها إبن سليم [١٧٦]، بيد أننا لم نتعرف على سوقٍ خاصة أو مساحة لمحلات التشغيل بين بقاياها .

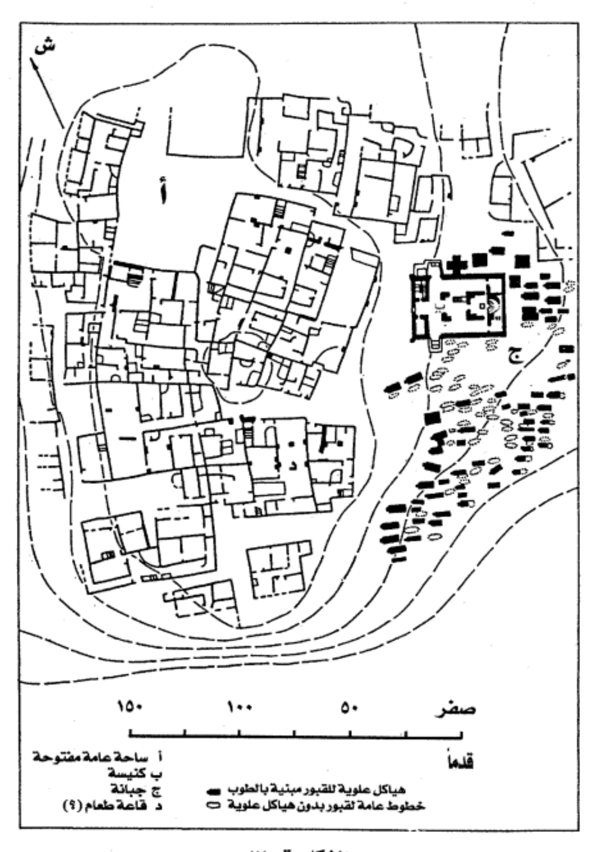
مع أنها أصغر في الحجم، كانت القرى العادية للنوبة السُفلى كثيفة الحضرية دائماً كما كانت المدن الكبرى. [ولكن القرى] عدا حالات قليلة، إختلفت [عن المدن] بمستوى رئيس في جانب الإفتقاد لأى نواةٍ يمكن إدراكها لمبانٍ عامة أو مربع للسوق. الأمثلة على مثل تلك القرى التى تم التحقق منها في معرض حملة الإنقاذ القريبة كانت في أرمينا [١٧٧]، وتاميت [١٧٨]، ودبيرة غرب [١٧٩]، ومينارتى [١٨٠]، وكاسانارتى [١٨١]، كل هذه الأماكن يبدو كأنما كان في المقام الأساسى مجتمعاً فلاحياً يعد سكانه ما بين ٢٠٠ و٤٠٠ إنسان. ما كانت هنالك خطة مركزية أو نواة لأى من القرى؛ المساكن مجمّعة في تلاصق إلى "أحياء" غير منتظمة وهى مفصولة بأزقةٍ متعرجة، في ضيق. وما بقيت الملامح المعمارية ثابتة لأى قدر من الزمان، فقد أُضيفت حجرات أو مساكن جديدة دورياً للتجمعات القائمة، بينما جرى تفريغ القُدامى، وحُولت من إستعمال الإنسان إلى الحيوان، أو تُخلى عنها للرمال المجتاحة. نتيجةً لذلك ليس ميسوراً بصفةٍ دائمة أن يُخبر أين تنتهى وحدة سكنية وأين تبدأ أخرى .

كل من المجتمعات المسماة بأعلاه إحتوت على الأقل كنيسةً واحدة، عُيّن موقعها على طرف المستوطنة. كانت مينارتى إضافة لذلك مقراً لمستوطنة صغيرة للرهبنة، بالرغم من أنه، كما ذُكر آنفاً، ما كان ذلك وضعاً مميزاً بحدة عن الشق الدنيوى للقرية. يتراى علاوة على منشآتهم الكنسية أن قرى وفيرة إحتوت بناية أو بنايتين خدمتا بعض الوظائف العامة. في أرمينا كانت هناك مجموعة من الحجرات تفتح إلى باطن فناء مركزى، لعله يمثل حوانيت [١٨٢]؛ وفى مينارتى ربما كانت هنالك حانة لبيع النبيذ في الفترة المسيحية الباكرة [١٨٣]. وفى القرية الأخيرة كان هناك بالمثل، على الأقل لزمنٍ ما، مرحاض عام في موقع مركزى [١٨٤].

قرية مينارتى، على خلاف المواقع الأخرى المذكورة إلى هذا الحد، كانت مؤهلة طوال فترة القرون الوسطى بأكملها، وتكون طبقات أرضها السطحية الأثنى عشر [١٨٥] نوعاً من الكون المصغر الذى نستطيع أن نتتبع فيه الأقدار الإجتماعية والإقتصادية للنوبيين المسيحيين من البداية للنهاية [١٨٦]. كانت المدينة قد أُسست بالفعل في أزمان مّروية متأخرة، على جزيرة من الرواسب الطمئية المنبسطة التى تقع تماماً أسفل الشلال الثانى وقد وُصف تاريخها الأول إلى حد ما في الفصلين الثانى عشر والثالث عشر .

فى الوقت الذى كانت فيه المسيحية فيه قد جرى إدخالها إلى النوبة، شكلت قرية مينارتى تكدساً من المساكن الصغيرة دونما أى مبانٍ عامة. بعد ذلك سرعان ما أُضيفت كنيسة، مع ما يبدو أنه كان مرحاضاً عاماً، إلى الجانب الشرقى من المجمع إلا أنه لم يُرصَد تغيير آخر في خطة القرية أو المساكن. باكورة الفترة المسيحية، مع ذلك، إرتفع مستوى فيضانات النيل إرتفاعاً معتبراً [١٨٧]، ودمرت المنازل في مينارتى تدميراً شديداً ومتكرراً بفعل الماء العالى. لقد سعى السكان زمناً ما لحماية انفسهم بدعم وأحياناً بمضاعفة كثافة حيطان منازلهم التى يرجح أنها كانت هشة؛ ثم يبدو أنهم استكانوا، ما شيدوا من المساكن لقرنٍ أو أكثر إلا الأزيد هشاشة. أبقى على الكنيسة في صونٍ لكن المرحاض لم يُعَدْ بناؤه أبداً بعد تدميره بفيضان عارم على وجه دقيق .

أثناء الفترة المسيحية المأثورة، ربما نهاية القرن العاشر، كان هنالك "تجديد حضرى" ذو سعة في مينارتى التى شهدت إعادة بناء القرية بأكملها خلال سنوات معدودة. إن المساكن الجديدة لم تكن



الشكل رقم ٧٤

قرية من الفترة المسيحية القديمة، مينارتي

بنايتها متينة، تزاحمت على بعضها البعض كما كان حالها في السابق (الشكل رقم ٧٤). لكنها على المستوى الفردى كانت أبسط فناء من أى إقامات نوبية ماضية عدا المنازل "الفخمة" للصفوة المَروية (قارن الفصل الثانى عشر). كذلك أُعيد بناء كنيسة القرية مرة ثانية. أما أن النوبيين يتولون مشروعاً مخططاً لبناء مكلف مثل ذلك فأمر يُفترض أنهم كان لهم سبب للإعتقاد بأن عهد الفيضانات العالية قد ولى، وأن القرية في حقيقتها لن تدمر ثانية بمستوى خطير بمياه الفيضان .

فى الفترة المسيحية الأولى يصعب التعرف على أى خطة سكنية نوبية ذات تميز، سواء في مينارتى أو مستوطنات أخرى. في قرية مينارتى التى أُعيد بناؤها من جديد في الفترة المأثورة، مع ذلك، يمكننا أن نميز عقلياً خُطة سكنية بشكل أو آخر استُخدمت للمجتمع بأكمله بالإضافة إلى مواقع أخرى في نفس العهد. المساكن مبنية من طوب مصفوف بأجمعه في "أطواف" (طولية)، حتى يكون سُمك الجدران موحداً بثمانى بوصات، مساوية لعرض طوبة واحدة. كانت السقوف كلها خفيفة الوزن لإقامتها من أعمدة الشجيرات البرية أو حصائر من العشب الجاف. كل منزل وحدة مستطيلة أو مربعة، متوسطها حوالى ١٦ قدماً على الجانب، ولها مدخل واحد من الخارج. أما المدخل فيفتح داخل "غرفة للضيافة" رحبة تشغل ما يماثل نصف المساحة الكلية للمنزل. وهى دائماً ما تكون لها نافذة واحدة أو نوافذ مربعة صغيرة توضع عالياً في الجدار، إضافةً إلى باب الدخول. بنيت (مصطبات) مرتفعة بسطح الدار من الطين في مواجهة واحد أو ما يتعداه من الجدران الطويلة، لتخدم كأمكنة للجلوس في النهار وكأسِرَّة في الليل. وراء الغرفة الرحبة الأمامية واحدة أو أزيد من الحجرات الصغيرة التى كانت تستخدم أساساً لتخزين وإعداد الطعام؛ وتحتوى مجموعة كبيرة منها على قبو أسطوانى كبير من الطين لتخزين الحبوب. وبكلٍ من الحجرات الأمامية والخلفية في العادة جُرر فَخارية رخيصة مدفومةٌ في الأرضيات بالأركان، يمكن أن توقد بها نيران الفحم للتدفئة .

بكل منزل ممر ضيق يتخذ من الحجرة الأمامية على طول جانب الحجرات الخلفية، ينعطف زاويةً يُمنى وينتهى إلى مرحاض في ظهر المنزل. هنا على قمة مرتفع مبنى من أعمدة خشبية تم وضع مرحاض خزفى. تسمح "حفرة تنظيف" من خلال الحائط الخارجى خلف المنزل بالإزالة الدورية للفضلات المتراكمة. إن هذا الإكتراث "بتصريف المياه الداخلية" يمثل واحداً من أشد التطورات أخذاً للنفس في معمار السكن النوبى في القرون الوسطى؛ إنه ليس موجوداً بمستوى متماسك في أى فترة أخرى في التاريخ قبل الأزمان الحديثة .

إعادة بناء قرية مينارتى في أزمان مسيحية مأثورة تبعته فترة استقرار طويلة كانت خلالها التعديلات المعمارية الجوهرية منصبّةً في طبيعة دفاعيةٍ لمواجهة الرمال المتراكمة. إن المتاريس وأسوار صد الرمال بُنيت هنا وهناك. وفى مساكن عديدة عندما كان ضغط الزوابع على الأسوار الخارجية عظيماً بقدر يُبطلُ مفعوله برفع مستوى الأرضيات الداخلية قدماً أو قدمين. جعل هذا بدوره من الضرورة كما هو معتاد رفع مستوى السقف بإضافة بضعة أطواف أخرى من الطوب على رؤوس الأسوار. إن مبنى واحداً في مينارتى رُفع بالفعل ثلاث مرات بهذه الكيفية، حتى أن أسواره عندما أُزيلت للأساس الأصلى، بلغت فعلياً علو طابقين إرتفاعاً .

بحلول منتصف القرن الثانى عشر كان معظم القرويين في مينارتى فيما يبدو قد تركوا الكفاح نهائياً ضد الكثبان الزاحفة حولهم. هُجرت مساكنهم وخلال وقت قصير نسبياً ترملت عروشها، وقد وُجدت متينةً في حالات عديدةٍ من قِبَل علماء الآثار. أما إلى أين مضى الناس خلال هذه الوقفة الزمنية فسؤال عويص، عدا أنه عقب إكتمال عملية إرتفاع الرمل بوقت قصير، قاموا هم (أو بعض جماعة جديدة غيرهم) بإعادة شغل الموقع، وشُيدت مساكن جديدة على قمة المرتفع الترابى دائم ـ الإرتفاع في القرية. لقد إتَّبعوا دائماً محاذاة المبانى القديمة، بإستعمال رؤوس الأسوار المدفونة أساساً.

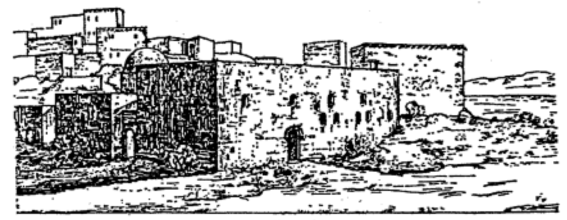
المسـاكن التي بُنيت في مينارتي من القرن الثاني عشر وما بعده من نمط مألوفة وفي أرجاء النوبة أثناء الفترة المسيحية المتأخرة. إنها مشابهة في الحجم ورسم الأرضية التخطيطي للمنازل المسيحية المأثورة، مع نفس التجميع للحجرات الأمامية المتسعة، والغرفة أو الغرف الخلفية الصغرى، والممر ذي الدرجة القائمة، والمرحاض. مع هذا، فإن البناء الهش للفترة المأثورة حلت محله أسوار أقوى بمستوى بالغ، عادة قدمين وأحياناً لثلاثة اقدام سمكاً. إن السقوف الخشبية الخفيفة لأزمانٍ أولى أفسحت الطريق لسقوفٍ طوبية معقودة واستُغنى عن النوافذ الخارجية. أما حجرة التخزين الداخلية في بعض المساكن فلم يعد لها مدخل في مستوى الأرض؛ لا يتاح الولوج إليها إلا بالسقف عبر سلالم فوقية .

إنها حقيقة مثيرة للعجب كيف أن المساكن المسيحية المتأخرة بمتانتها في مينارتي، على غير مساكن الأزمان الأولى، لم تكن مشيدة أبداً في وصل بُنائي حقيقي. في حالةٍ واحدة، بُنى منزلان إلى جانب بعضهما البعض بتلاصق جعل المسافة بين أسوارهما من الضيق بحيث لا يجتازها رجل، ورغم ذلك فإن مبدأ التلاصق الفعلي بدا أنه جرى تجنبه. في قرية أخرى، كاسانارتي، كانت المساكن المسيحية الأخيرة متلاصقة طبيعياً، غير انه لم يتقاسم أي اثنين منها سوراً عاماً [١٨٨]. في هذا الجانب تمثل المباني في حي مدينة حديثة ـ كل مسكن مكتفٍ بذاته هيكلياً لكنه ملاصق لجيرته من كل ناحية بنائية. بالمقارنة، كانت المنازل المتلاصقة في الفترات المأثورة والتي تسبقها قِدماً في مينارتي تتقاسم دائماً حائطاً أو حائطين عامين. وفي حين أن من الصعب جداً تأويل الأهمية والقيمة لهذا التغيير، هنالك على أقل تقدير لإقتراح بأن الحس المجتمعي القوي الذي يبدو واضحاً في الفترة المسيحية المأثورة كان يندثر مفسحاً المُجال لسلوكيات أشد إنفرادية .

المنازل ذات البناية المتينة مثل القائمة في مينارتي وكاسانارتي ظهرت في كل أنحاء النوبة الشمالية في الفترة المسيحية الأخيرة. لقد كانت، بمحض الصدفة، أفضل عدة تتحمل الزحف الرملي بدرجة أعلى مما كان أسلافها عليه، من الواضح أن اعتبارات دفاعية من نوع آخر كانت مشمولة في تصميمها. وبانقضاء الوقت أصبحت بشكل متزايد مُحَصّنةً صعبة الإرتياد، تزود أحياناً بأقبية أو غرف مخفية بعناية فائقة. هذه المباني تدل ضمن دلائل عديدة على انشغال مسبق بالدفاع ظل متنامياً، ووجد تعبيره الأوفى في عصر النوبة الإقطاعي. بالتالى فإن الإعتبار الأوفى للمساكن المسيحية المتأخرة وتطورها سيبقى محفوظاً على أفضل الوجوه حتى الفصل القادم .

نمط المسكن المسيحي المأثور ورسم القرية التخطيطي الموجودين في مينارتي أُعيد العمل بهما في إختلافات يسيرة ليس إلا، في دبيرة غرب [١٨٩]، وارمينا غرب [١٩٠]، وأماكن أخرى. هذه المستوطنات ذات التلاحم الكثيف لم تكن، مع ذلك، النمط الوحيد للقرية النوبية في الفترة المأثورة. لسبب ما كان جارياً في نفس الوقت نزوحاً عظيماً من السكان إلى داخل المقاطعة الصخرية الجافية في الشلال الثاني وبطن الحجر. فوق جزر كثيرة كانت فيما مضى غير مأهولةٍ مسبقاً، إلى المدى الذي يسعنا الإخبار عنه، تناثرت أكواخاً ومنازل في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. إن الهياكل البنائية في معظم الحالات غير متقنة وغير منتظمة مقارنةً مع منازل مينارتي الفسيحة، مُشيدةً تكاد في معظمها من حَجرٍ محلي خَشن المقطع. تتجمع بعض الأحيان في تلاصق، لكنها أحياناً بالغة البعثرة بطريقة غير منظمةً على حوافي جبال جزر الشلالات ومنحدراتها. في أماكن جَمة يبدو عدد مثل هذه المساكن خارجاً عن كل النسب بالنظر للموارد المحلية، علي أن بقايا الفَخار المزخرف وغيره من السلع الفاخرة الموجودة بينها لا تعكس مستوىً معيشياً منخفضاً بجلاء [١٩١].

إن الأسباب التي يمكن أن تفسر الهجرة المفاجئة إلى منطقة الشلال في وقت سلام ورخاء غير ظاهرة علي الإطلاق. فلعل إنفجاراً سكانياً في النوبة جعل تذليل أراضي جديدة أمراً ضرورياً، مع هذا لا نجد توسعة أو تضاعفاً للمستوطنات في الأجزاء المفضلة على سواها في القطر. لقد إقترحت



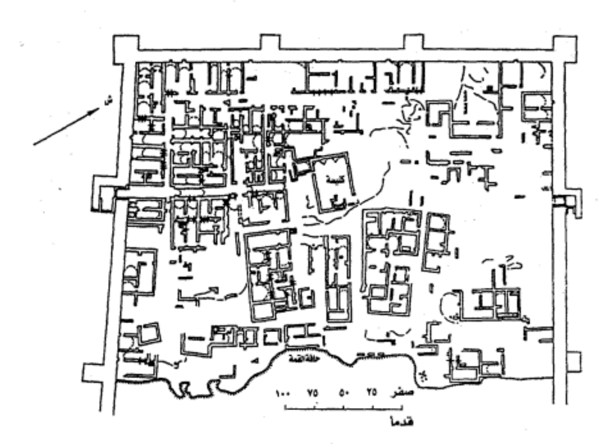
الشكل رقم ٧٥

إعادة فنية لبناء قرية تاميت النوبية في القرون الوسطي

مرةً أن مواقع الشلال قُصد بها أساساً أن تكون ملاجئ من فيضان الماء في زمن غير معتاد من إرتفاع النيل، وإنها لم تكن مصممةً لإسكان دائم [١٩٢]. هذه الفرضية تجد بعض التأييد لأن مستويات النيل كما دُونت في مصر كانت عاليةً بشكل إستثنائي في الحقيقة طوال القرن الثاني عشر [١٩٣]؛ أياً جرى الأمر، يجب أن يُذكر ايضاً أن مستعمرات الأكواخ وُجدت في صورة مبدئية في مواقع محلية بالجزر أكثر منها على المرتفعات المحمية بنفس القدر شرق النيل وغربه. وقد تخطر فكرة الدفاع العسكري بصفاء كتفسير، سوى أنها لا تتسق مع التطور المعاصر لقرى مثل مينارتي وأرمينا. وفي أزمان مسيحية متأخرة، عندما أصبح الدفاع هماً بيِّناً للمسيحيين النوبيين، هُجرت معظم مستوطنات الأكواخ بالجزر في الحقيقة. إن تاريخ هذه المستوطنات كان لذلك موجزاً بالمقارنة، ويبقى سبب نمائها واحداً من أسرار النوبة العديدة التى لم تكشف بعد. كانت المستوطنات المسورة غير شائعة في القرون الوسطى الأولى في النوبة. ومع أن المراكز الإدارية الكبرى في قصر إبريم، وجبل عدّا، وفرس كانت مُحّصنة في أزمان مّروية، فإن هذه المستوطنات في الفترة المسيحية تَخّطت بنموها أسوارها المحيطة بها بنفس الطريقة التي توسعت بها قلاع أوروبا في القرون الوسطى لحد بعيد. في قصر إبريم وجبل عدّا تكدس من مساكن أشتاتاً تهبط بعيداً أسفل المنحدرات تحت حيطان القلعة. لم تكن قرى رغدة مثل أرمينا أو دبيرة ومينارتي موضع دفاع أبداً؛ في معظم النوبة كانت الأديرة وحدها محاطة بالأسوار، مقصوداً روحياً أشد منها دفاعاً طبيعياً في مواجهة العالم. ما أصبح تسوير المجتمعات الدنيوية وجهاً عاماً حتى مجئ العصر الإقطاعي.

حسبما سار أمرها، كانت هناك مستوطنات قليلة مسّورة في النوبة حتى في الفترة المسيحية الأولى، يختلف رسمها التخطيطي وبناؤها إختلافاً ملحوظاً عن تلك التى وُجدت في القرى العادية بالقرون الوسطى. أبرز هذه وضوحاً في الشمال البعيد كلابشة [١٩٤]، سبقورة [١٩٥]، شيخ داود[١٩٦]، وإخمندى [١٩٧]. في كل من هذه الأماكن ساحة مربعة أو مستطيلة متسعة بدرجة بالغة بين سور حجرى هائل، مدعّم بمتاريس وزوايا لأبراج خارجية (الشكل رقم ٧٦). كان الدخول عن طريق بوابة واحدة محّصنة أو بوابتين محّصنتين. بين ذلك في صفاء، يشير الترتيب المنظم وهو مُوّحد للمبانى إلى تخطيط مركزى يتناقض بحدة مع خطة البناء خبط عشواء للقرية النوبية المألوفة. وفي إخمندى [١٩٨]، وشيخ داود [١٩٩] تشغل كنيسة مكاناً مركزياً بين المجمع السكنى [٢٠٠].

تبدو كل المستوطنات المسّورة في النوبة السُفلى كأنما أُسست في الفترة المسيحية أو في وقت قصير بعد بداية الفترة. اقترح المنقبون أن الأسلوب المعمارى للتحصينات كان من أصل سورى أو فلسطينى، وقد واكب إدخاله إلى النوبة دخول المسيحية نفسها [٢٠١]. في إخميندى، كتابة مهداة



الشكل رقم ٧٦

تصميم لمجمع مسيحي مُحّصن ، إخميندي

لإحياء ذكرى تشير إلى أن المسور بُنى "لحماية الإنسان والحيوان" (٢٠٢). هذا، وحقيقة أن المستوطنات المحّصنة شمال النوبة تقع كلها بالقرب من نهاية طرق القوافل الصحراوية (كمثال وادى العلاقى)، تعزى لزعم مفاده أنها ربما كانت قد بنيت أساساً إستراحات (٢٠٣). ما من منشآت كهذه وُجدت في أجزاء أخرى بالنوبة .

الفنون الدنيوية

من ثقافة المجموعة الأولى إلى ثقافة المجموعة المجهولة، جاءت معرفتنا بفنون النوبة المادية بشكل رئيس من محتويات القبور. بمقدورنا أن تعثر فيها على نماذج حية غير ممسوسة بسوء لمعظم الأشياء التى كانت قيد الإستعمال اليومى، من أدوات المطبخ المتواضع إلى أثاث لأفحش المترفات غُلواً. في القرن السادس، مع ذلك، وضع تبنى المسيحية حداً لممارسة دفن القرابين المادية مع الميت. إلمامنا بالفنون الدنيوية للعصور الوسطى، كما كانت عليه، يجئ من مواد منسية أو مستغنى عنها وُجدت على أرضيات المنازل، وفوق كل شئ في أكداس الفضلات. هذه السلع بوجهٍ عام في حالة متكسرة، قلما تحتوى ممتلكات قيمة. المواد المعدنية من جميع الأنواع نادرة على الأخص، لأن شقوق البرونز والحديد يمكن دائماً بالتقريب أن يتم وضعها لبعض إستعمالٍ عملى، فلم يستغنى عنها .

لا يُثير عجباً، بالنظر إلى سيرة بقاياها المادية، أن الفترة المسيحية في النوبة كانت تُعد لوقت طويلٍ واحدة متخلفة في إفقار (٢٠٤). فإن كان لدينا اليوم رأى مختلف للغاية، فمرده في جزء معتبر لمعثورات قليلة من منازل أوجدها الحظ إذ تُخلى عنها لسبب أو آخر مع قسطٍ كبيرٍ من مخزونها المادى *في الموقع الأصلي*، ثم إنها لم يُعَدْ شغلها ثانية على الإطلاق. معثورات عديدة من هذا النوع إكتُشفت في مينارتي، تظل إلى الآن مصدرنا الرئيس للمعلومات حول الثقافة المادية النوبية في القرون الوسطى (٢٠٥) إضافةً إلى ذلك أمدنا الفرز والتدوين المنهجي بمواد من أكداس الفضلات معياراً كمياً غير دقيق للثروة المادية. وما ندركه الآن نتيجةً لذلك هو أن الفترة المسيحية المأثورة كانت عهداً للرخاء لا يسبقه رخاءاً سوى العهد المَروى .

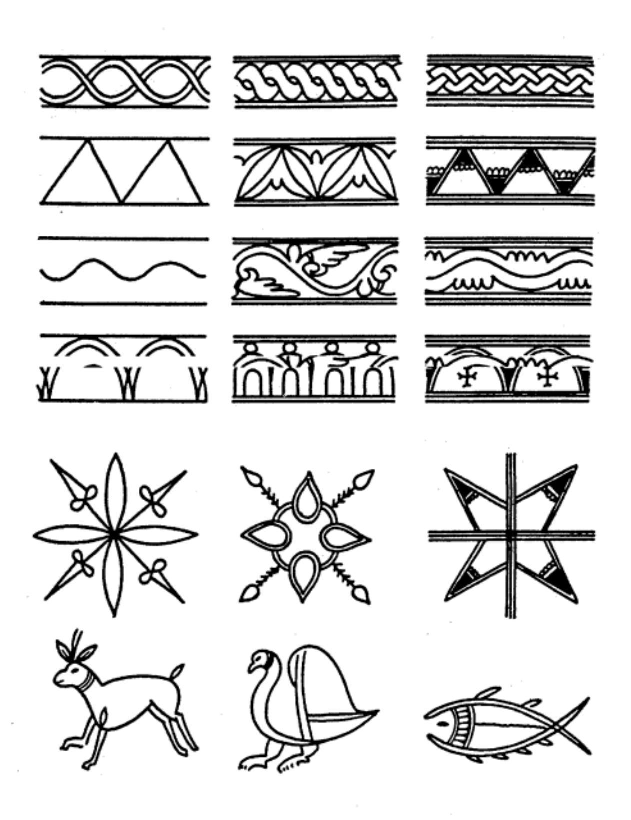
إن نولاً كبيراً من الإمداد المادى النوبى المعتاد في القرون الوسطى تكون من منتجات مصرية الصنع. تواصل إستجلاب البرونز، والزجاج، والفخار المصقول، ومواد الترف من عاج وأبنوس من الشمال بشكل كُلى، واستُوردت السلع المستهلكة من الفخار والحديد بكمياتٍ كبيرة في نفس الوقت على الأقل إلى داخل النوبة السُفلى. في أزمان تبلغ هذه المستوردات ما يصل إلى ٥٠ في المائة من إجمالى المخزون المادى للمواقع النوبية الشمالية. مع ذلك إزدهرت صناعات عمل الفَخار الوطنية المألوفة، والنسيج، وتجارة الحديد كلها خلال معظم الفترة المسيحية، وكانت منتجاتها ممثلة بوفرةٍ في مجموعاتنا الأثَرية .

إستمر الفَخار النوبى في الفترة المسيحية الباكرة في تقليد التقاليع المتكررة التى كانت سائدةً في مصر البيزنطية (٢٠٦). إن الكؤوس والزجاجات الشعبية في أزمان بلانة فتحت المجال بمستوى متزايد للصحون ذات القواعد والجرر مفتوحة الفم، على أنه كان هناك تفضيل متواصل لأوانى حمراء غير مخططة في التقليد الرومانى العام. وحوالى القرن التاسع أياً كان رسمها، انتعشت صناعة الفَخار النوبية فجاةً مع سلسلة كاملة من الأشكال والرسومات الجديدة. إختفت تقريباً الأوانى الحمراء، غير المخططة؛ وحلّت في مكانها كل أنواع القداح، والزهريات والقوارير بزخرفٍ ملون، شديد التعقيد تجمع أشكالاً متكررة هندسية، ونباتية، وحيوانية (الشكل رقم ٧٧). يُبَين التعليم الفنى المسيحى المأثور تمثلاً أقرب بدرجة عالية لأزمان مَروية بأكثر مما يبينه لأى شئ في القرون الخمسة المتداخلة بينهما.

إستلهام الإبداعات الفنية المسيحية المأثورة لا يوجد في الفَخار المصرى المعاصر، الذى كان بكُلّيَتِهِ أثناء ذلك الوقت تحت النفوذ الإسلامى. يبدو أنه جاء من الزخرف الحائطى للكنائس على الأرجح إذ كان وقتها في بداية إزدهاره (انظر "الفن والأدب الدينى"، بأدناه). إن الحواشى الزخرفية المفصلة التى تعرف بالضفيرة والإستعمال الثر للزينة الهندسية التى تشيع في زخرف الفَخار ورسم الكنيسة معاً ربما أنها جذبت إستلهامها النهائى من الرسومات المصغرة وتبيان المخطوطات القبطية والبيزنطية (٢٠٨). الترفع والتدقيق الأقصى للتنفيذ في تصميم الفخار المسيحى المأثور يعرض بحقٍ أن المصممين ربما كانوا قد تلقوا تدريبهم كمعلمى خطوط .

رغماً عن أنها تقنياً وفنياً على سواء يتخطاها الفَخار المروى، تمثل الأوانى المسيحية المأثورة بأى حال واحداً من أعلى المنجزات الفنية للنوبيين القدماء. وفرتها وتنوعها ينبئان أنها ربما كانت مُنتَجةً في مراكز مختلفة عديدة. إن واحداً من أهم المصانع ، وموقعه فرس، إكتُشف في السنوات الأولى من القرن العشرين (٢٠٨)، ونُقب عام ١٩٦٠ بمستوى أوفى كمالا (٢٠٩). إنه، للمدى الذى أعلمه، أكمل نموذج لمصنع فَخار لاستيفاء التحقيق عنه في أى مكانٍ في العالم القديم .

يظهر فخار فرس على أنه في الأصل منشأة لأديرةٍ أُسست في وقت مبكر للغاية في الفترة المسيحية. كان الفَخار في البدء يُنتج على نطاق صغير، وربما ليمد الحاجات الحالية للرهبان، بين حجرة أو حجرتين وُضعتا جانباً لذلك الغرض. ثم، بعد أن دُمر الموقع تدميراً شديداً بفيضان أو



الشكل رقم ٧٧

رسوم فخار نوبية مسيحية :

رسوم مسيحية باكرة علي اليسار ؛ مسيحية مأثورة في الوسط ؛ مسيحية متأخرة علي اليمين (ماعدا الأشكال الحيوانية في الصف الأسفل ، وهي مسيحية مأثورة)

عاصفة مطرية، يبدو أنه أُعيد العمل به كمصنع ليس إلا. استبدلت القمائن الصغيرة الكائنة داخل المبنى بأنواع بالغة الضخامة، مزدوجة الغرفة أسطوانية كما هو معهود آنفاً في أنحاء أخرى من القطر في أزمان بلانة (قارن الشكل رقم ٦٧). إن خلط الأحواض وغيرها من أدوات صنع الفَخار أُقيم في حجرات الدير السابقة؛ وبمضى الوقت غُطيت الجدران بشقوق طينية وآثار أخرى لطبع الأيدى على الأسطح. في قمة إنتاجها شملت مصانع فَخار فرس أربعة قمائنَ كبرى على الأقل خارج المبنى، كل واحدة حوالى سبعة أقدام في قطرها، وقمائن صغرى عديدة بين المبنى .

أول منتجات صنعت في فرس كانت أوانى حمراء سطحاء من الأشكال المسيحية المألوفة الأولى. وحالما تحول المكان إلى مصنع خالص البساطة، بطريقة أو أخرى، بدا أنه تخصص مبدئياً في إنتاج آنية الأمفورا الإغريقية. ولما يمض وقت طويل بعد ذلك حتى بدأ تصنيع الأوانى المسيحية المزخرفة المأثورة برُقيها، وظلت فَخاريات فرس لقرنٍ ربما واحدةً من المراكز التى تتزعم إنتاجها. زهريات وقداح رفيعة المستوى، جميلة الزخرف وُجِدت في أنحاء المبني بكل أوضاع التصنيع، وشملت الفضلات بين واحدةٍ من القمائن بقايا ما يزيد على ٢٠٠ إناء كان بيّنها أنها دُمرت عندما انكمشت أرضية القمينة أثناء عملية الحرق .

توقف الإنتاج في فرس في القرن العاشر أو الحادى عشر. إن التخلى عن المصنع كان مفاجئاً وغير متعمد، كما تشهد بذلك الأوانى الكثيرة مكتملة الصنع جزئياً والمتروكة في كل أرجاء الموقع، مزخرفة بأكملها ومهيأة للحرق بالقمينة. أما الذي أحدث ربكةً في هذا الموقف فسوف لن نعلمه أبداً؛ لربما كان مرد الأمر إلى انهيار آخر القمائن إنتاجاً في الموقع. وبتوقف الإنتاج في فرس أصاب الخسوف صناعة الفَخار النوبى لقرنٍ أو ما يزيد عليه؛ فلم تكن الأوانى يُوالى صُنعها في مصانع أخرى متعددة بوجهٍ خاص، وافتقرت الزخارف المأخوذة من الطبيعة الإتقان الرفيع لأرقى منتجات فرس. لزمن ما بيعت بالفعل مقايضة، على الأقل في النوبة السُفلى، مقابل مصنوعات مستوردة بثمن رخيص من أُسوان .

فى الفترة المسيحية المتأخرة إنتعشت صناعة الفَخار المحلى مرة أخرى، واستعادت قدراً معتبراً من نوعيتها الجيدة وذوقها الزُخرفى. إن الإبداع الرئيس للفترة المتأخرة كان تحكماً أوثق في حرارة الحرق وأجوائه التى تأذن بإنتاج أوانيَ ذات ظلالٍ متنوعة برتقالية وصفراء، علاوة على المصنوعات الحمراء والبيضاء التى كانت واسعة الإنتشار في الأيام الخوالى. مرة ثانيةً أضحى الزخرف الملون تفصيلاً متطوراً، لكن الأشكال التمثيلية لم تُبعث من جديد. الشكل الزخرفى لفَخار مسيحى متأخر عادةً ما يكون مستطيلاً هندسياً في بساطةٍ يزدان على الأرجح بأى طريقةٍ ممكنة بمنحنيات مقَّوسة، وبارزة، وبالنقط، وما إلى ذلك من رسوم الأطراف (الشكل رقم ٧٧). إن الدرجة العالية للمعيارية المعروضة في المصنوعات المسيحية المتأخرة تُوعز بأنها كانت تُنتج في مصنعٍ واحد، لكن موقعه لم يُكتشف بعد .

ما لعب الفَخار المستجلب إلا دوراً صغيراً في المخزون المادى للنوبيين المسيحيين الأوائل منهم والمأثورين. إن تقليد المصريين للصنعة الحمراء السطحاء التى أظهرت نفسها أولاً في الفترة المَروية، تواصل إستجلابه بكمياتٍ صغيرة حتى منتصف القرن الثامن. ثم، ربما في نفس الوقت مع النهوض السريع والمفاجئ للإنتاج المحلى، كاد إستيراد الفَخار المصرى أن يتوقف خلال الجزء الأسبق من الفترة المأثورة. وبعد توقف الإنتاج في فرس عادت المصنوعات الشمالية بقوةٍ لقرنٍ أو ما يعادله، لتضمحل ثانيةً مع إنتعاش صناعة الفَخار النوبى في أزمان مسيحية متأخرة .

شهد القرنان التاسع والعاشر مفارقة جديدة في الحقل الخَزفى: الإزدهار الأول لصناعات الأوانى الإسلامية المصقولة. بمرور الوقت، كان على منتوجاتهم أن ترتقى وسط أرفع الإنجازات الفنية للحضارات الإسلامية [٢١٠]. ورغم أن الأغلب شهرةً من الأوانى المصقولة كان يُصنع في بلاد

ما بين النهرين وفارس، كان مركز هام يقوم بإنتاج الأواني اللامعة في الفسطاط، المَعْلم السابق للقاهرة الحديثة [٢١١].

بدأ الفَخار المصقول من الفسطاط في الظهور في النوبة إبّان القرن العاشر [٢١٢]، ولم يكن غائباً أبداً من مواقع الفترة المسيحية الأخيرة. إن الشقوق ذات الألوان اللامعة من أزرق، وأخضر، وأصفر وبُنى تنتصب بحدة في وسط مصنوعات نوبية في غالبيتها العظمى حمراء وبيضاء. أوائل الأواني المصقولة إما إنها كانت من لون واحد أو مزخرفة بأشكال ملونة بسيطة لها دائماً مظهر غامض و "سارح" - حالة لا مَعْدَى منها عندما يُستعمل صاقلٌ رصاصي. أما إحلاله بصاقل قلوى بعد القرن الحادى عشر فقد جعل من الممكن إجراء زخرفة ملونة أعلى دقة، وفى الفَخار المجلوب من الفترة المسيحية المتأخرة نجد أشكالاً هندسية ونباتية رفيعة التشكيل. مع ذلك، فإن بعض مصنوعات الفسطاط المتميزة بمستوى رفيع وأشد إرضاءاً للذوق الفنى عبارة عن أوانٍ من لون واحد لها رسوم عربية مخططة تحت مادة الصقل .

رغماً عن شعبية الفَخار المصقول في العصور الوسطى الأخيرة، لا يبدو أن صناعته إضطُلع بها سواء في مصر العليا أو النوبة بالمرة. وإلى المدى الذى نستطيعه من الإخبار، جاءت كل الأوانى اللامعة التى نجدها في المواقع النوبية المسيحية المتأخرة من الفسطاط أو حتى من خارج أبعد منه. لا يثير غرابةً أن هذه الأواني لم يكن أبداً كبيراً؛ يحتمل أنها كانت وسط أغلى سلع التفاخرُ ثمناً في النوبة في القرون الوسطى .

بدأ في يد تطور الفَخار المصقول سار إحياء صناعة الزجاج في الشرق الإسلامى [٢١٣]. لقد كانت الأوانى الزجاجية من الأنواع الرومانية شائعة الإنتشار في النوبة السُفلى المَروية، لكنها اختفت تقريباً في فترات بلانة والمسيحية الأولى. ثم بدأت في الظهور من جديد بكميات حوالى نفس الوقت الذى ظهر فيه الفَخار المصقول. وسط معظم الأوانى إنتشاراً كانت هنالك زجاجات تجميل صغيرة، ولكن وُجدت إضافةً إلى ذلك أكواب، وكؤوس، وزجاجات متنوعة. أشمل الأساليب الفنية للزخرفة التى يمكن التعرف عليها للنسيج الزجاجى (خيوط زجاجية ملفوفة بألوان متعارضة)، والتلوين، والزخرف القاطع، وكل أنواع الوسائل الفنية لنقل الزخرفة إلى سطوح كبيرة. لا غرو، أن مجموعاتنا الزجاجية من النوبة المسيحية تتكون بشكل رئيس من قطع ملونة صغيرة، غير مستطاع دائماً أن تدرك منها أنواع أصلية للأواني أو أشكال زخرفية. حوالى ٣٠٠٠ من الشقوق الزجاجية وُجدت في مستويات الإقامة العليا (أى المسيحية الأخيرة) في قرية مينارتى. ويُعتقد أن الأغلبية العظمى من الأوانى جرى تصنيعها في الفسطاط، الذى يتساوى أهميةً كمركز تصنيعى للزجاج والفخار المصقول [٢١٤].

ما كانت المواد المعدنية موجودةً كأشياء عامة في المواقع النوبية المسيحية، لأسباب ذُكرت آنفاً. كان البرونز مستعملاً إلى حدٍ ما للقداح الصغيرة ولأنواع صغيرة مختلفة من المعدات وأدوات الزينة؛ أغلب أدوات البرونز وجوداً في المواقع النوبية في القرون الوسطى هى مراويد مزخرفة رفيعة كانت تستعمل لتظليل العين *بالكحل*. ويحتمل أن يعود تكاثرها إلى *الصدفة* فشكلها الذى يشبه الإبرة يجعل من الميسور فقدانها أو صرف النظر عنها. السلع البرونزية في المواقع النوبية كلها من أنماط مصرية مشتهرة، كاد صنعها في الخارج أن يكون مُستيقناً. أما الحديد، الذى كان يُصنع محلياً فيما هو مفترض، فقد كان يُستخدم للمعدات الزراعية والخناجر وأدوات الزينة مثل الصُلبان المعلقة على الصدر من وقت لآخر.

وجدت خِرَق من ثياب مغزولة في المواقع النوبية المسيحية بوفرة، ومعظم الجنائز المسيحية ملفوفة بكفن من الكتان. إن أغلب بل ربما كل منسوجات الكتان المستعملة من طرف النوبيين لعلها كانت صناعةً مصرية؛ ونعلم من سرد إبن سليم (المقتطف آنفاً) أن بضائع الكتان كانت من بين المواد الرئيسة التى تستلم مقابل القن بمقتضى معاهدة *البقط* [٢١٥]. كيفما كان ذلك، فقد وُجدت في

مينارتي وغيرها من الأماكن بقايا لكثرةٍ عظيمة من أردية الصوف المغزول. هذه الجلابيب ليست لها نظائر معروفة في مصر، ولعلها كانت من صُنع محلي. يعرض معظمها أنماطاً واضحة من الخطوط العريضة والضيقة في ألوانٍ لامعة تشكيلاً؛ ولواحد أو إثنين منها رسومٌ مزركشة في تفصيل موسع [٢١٦]. ما لقطعة أي علامةٍ على قصٍ أو حياكة؛ لقد كانت فيما هو ظاهر أردية مستطيلة أو بطانيات. وبقدر مثير للإستطلاع، هنالك بَيِّنةٌ قليلة على النسخ المتواصل للقطن في أزمان مسيحية (قارن الفصلُ الثاني عشر) .

الصناعات البلدية الأخرى في النوبة المسيحية هي تلك المألوفة لنا من كل العصور: صنادل الجلد وسيوره، كل أنواع السلال والحصائر، القداح الخشبية، معدات المساحن الحَجرية، وأدوات الزينة للمناسبات في حَجر وصدف رفيع. إنتاج الحصائر من مشتقات النخيل والصنادل، يبدو أنه كان صناعةً متخصصة في المواقع المسيحية المتأخرة في آتيرى وكولبنارتي، حيث عُثر على كميات هائلة من الحصير في فضلات الإقامة [٢١٧].

المجتمع النوبي وإقتصاده في القرون الوسطى

بالرغم من غنى بقاياها الأثَرية، لا نزال نجهل بعض الملامح التي تُعتبر أشد أساسيةً للحضارة النوبية في القرون الوسطى. فكما لاحظ تريقر بدقةٍ في المقام المناسب تماماً:

... من الميسور أن نغالي في تقدير المدى الذي نعرفه عن التاريخ الثقافي للمنطقة وأن نقلل تقديرنا لفاقد المعطيات التاريخية الذي نتج عن بناء السد العالي. أسباب هذا صافية وفي الغالب مُدركة. إن علماء آثار قليلين ممن عملوا في النوبة السُفلى وصلوا هنالك بأهداف محددة في الذهن؛ كان مرماهم أن ينقذوا مادة أثَريةً بأعلى نسبةٍ ممكنة قبل أن تغمر المياه المنطقة. وفي الوقت الذي قادهم بحثهم إلى صياغة مسائلٍ أدق تفصيلاً لتاريخ الثقافة النوبي، لم يعد العمل الميداني ممكناً. بسبب هذا، أصبح كثير من العمل الأثَري الذي أُنجز في النوبة السُفلى مكرراً أظهر منه موجهاً نحو المسائل، وتتعدى كمية المادة التي جمعها لدرجة عظيمة أهميتها القَيمة [٢١٨].

الفجوة في معرفتنا تضحى باديةً عندما نحاول أن نضع بشكل ملائم قطع المعلومات الوفيرة التي نملكها في تفصيل إلى داخل صورةٍ كليةٍ للمجتمع النوبي في القرون الوُسطى. من جانب واحد، يتحدث إبن سليم وكتاب عرب آخرون عن النوبيين أنهم كانوا عبيداً لملكهم بالقانون [٢١٩]. لربما كان هذا عبئاً حقيقياً ناء به كاهلهم، أو ربما أنه لم يزد عن توهم بقانونيته كسمةٍ مميزة للقرون الوسطى، إحتضاناً لمبدأ "السيد المطلق" (*) الممثل في شخص الملك. إن غياب الرموز التقليدية للسلطة ـ مدافن ملكية، وصروحاً، ونقوشاً منحوتة ـ يتركنا في شكٍ من مدى الثقل الذي كان نوء الدولة بالفعل يضغط به على السكان النوبيين وفي نفس الوقت يحرمنا إختفاء القرابين الجنائزية مما كان حتى هذه اللحظة واحداً من مقاييسنا الأرسخ تناسقاً وثبوتاً في تجربة التمايز الإجتماعي والإقتصادي. نترك لنحكم على الحالة الإجتماعية والإقتصادية للنوبيين في القرون الوسطى بصورة رئيسة على أساس مساكنهم والفضلات الموجودة فيها وحولها. هنا بوسعنا أن نرقب هيئةً موحدةً تثير الدهشة وسط المساكن في أي مجتمع واحد، لكن باختلافٍ مُعتبر من قرية إلى أخرى، كأنما الرخاء كان شأناً تجمعياً أبرز منه وضعاً فردياً أو عائلياً .

بوجه عام تحمل البقايا الأثَرية للنوبة في القرون الوسطى إنطباعا بمجتمع رخاء لكنه في نفس الآن حراً وعلى مساواةٍ بما يبعث على العجب، جامعاً فيما يبدو أرقى الملامح لأزمان ما قبل الحضارة وأزمان حضارية. يجوز، مع ذلك، أن السّجل الأثَري مخادع في هذا الخصوص. إن الفروق

(*) المقصود حق الدولة في أخذ الملكية الخاصة للإستعمال العام بمقتضي الحكم الأعلي لسلطة السيادة علي كل الأراضي الواقعة في دائرتها – المترجم.

في الرتبة والقوة لا تحتاج لأن تعكس في مغالاةٍ الظهور المادى، على وجه التدقيق في عصر معروفٍ بشواغله الأخروية. تطور التصنيع والتجارة يجادل بوجود طبقة "وسطى"، على الأقل في النوبة السُفلى، حتى ولو لم يكن لدينا بَينة أثَرية مباشرة .

إلى مدى ما نستطيع الإلمام به، في المسرح الباكر للقرون الوسطى، يتوسط ترتيب إجتماعي ما بين الملكية وطبقة الفلاحين التى لم تتغير، ويبدو ممثلاً في القساوسة. هنا نملك توازياً مرئياً مع أوروبا الغربية، حيث كان النفوذ الإقتصادى والسياسى للكنيسة قوياً بحق في بداية العصور الوسطى. لم يكن هذا ببساطةٍ موضوعاً لعلاء أيدولوجي: إنه يعكس الحقيقة القاضية بأنه بعد إنكسار شوكة المجتمع القديم كانت الكنيسة دائماً ما تُترك على أنها الهيئة المنظمة الوحيدة بثروةٍ وسلطةٍ منيعة لتُشْغلَ بأنواع عديدة من العمل الجماعى المنظم الذى كان جارياً ذات مرةٍ على أيدٍ حكومية أو خاصة. إلا أنه مع ذلك لم يكن الموقف في النوبة قابلاً للمقارنة في كليته، ولا نستطيع أن نقبل *بداهة* الإقتراح القائل بأن القساوسة النوبيين إحتلّوا كذلك الأدوار التقليدية للطبقة الوسطى. ماذا كان في الحقيقة، دور الكنيسة النوبية وأثَرها في الشؤون الدينية؟ هل كان جمع الضرائب المحلية مفوضاً أساساً للقسس؟ هل كانوا مستغرقين، إدارياً أو مالياً، في تنظيم الإنتاج والتجارة؟ لسوء الحظ لا يمدنا علم الآثار ولا التاريخ بإجابات مباشرة. افضل ما نتخذه أن نعتبر ما نعلمه عن الإقتصاد النوبى في القرون الوسطى، وأى دورٍ كان بمقدور الكنيسة وفق إستعداداتها أن تلعبه .

واضح من البَنية التاريخية والأثَرية أن الفلاحة على نطاقٍ صغير تواصل إمدادها لقوام المعيشة في النوبة في القرون الوسطى [٢٢٠]. ما من شئ ينبئ بأن المحاصيل أو الوسائل كانت مختلفةً عن سابقاتها في أزمان سلفت، بالرغم من أن نمو السكان وتوسع المستوطنات يشير إلى أن حجماً واسعاً من أرضٍ جديدةٍ أُدخل في الفلاحة أثناء الفترة المسيحية. كان ذلك صادقاً بحقٍ في مناطق الشلالات، التى رُبما امتصت جزءاً مقدراً من إنسياب السكان الجارف من النوبة السُفلى. هنا كانت الحاجة إلى أسوار للصدّ ضخمةً من الحَجر لتحمى الموارد الغرينية الشحيحة كيلاً تُحمل بعيداً من الفيضانات الدورية؛ كانت كل *بطن الحجر* طولاً وعرضاً محاطةً بتلك الأسوار التى بُنيت أصلاً فيما يبدو في الفترة المسيحية [٢٢١]. رعى الفلاحون النوبيون البقر والأغنام بأعدادٍ صغيرة كما كانوا في السابق، وظهرت عظام خنازير بكميات لأول مرة في مواقع الفترة في القرون الوسطى [٢٢٢].

إفتراضياً كان كل من الأديرة النوبية محظياً بمقاطعات من الأرض كافيةً في وفرة لدعمه. جانباً عن ذلك، مع هذا، لا نملك بَينة قاطعة سواء بإيجار إقطاعى أم بأعمال إقطاعية في الفترة الأولى من القرون الوسطى. نمط المستوطنات والحقول يقترح بشكل أرجح أن معظم الأرض كانت قِطَعاً عائلية صغيرة تكّرس لمحاصيل الإعاشة، كما هى اليوم. إلى المدى الذى انتفعت فيه الدولة والكنيسة من الزراعة، لذلك، لابد أنه تم أساساً من خلال جَبى الضرائب على الأرض (ربما كذلك على الحيوانات وآلات الرعى) أعلى منها عبر أعمالٍ مباشرة. لا نعلم لسوء الحظ شيئاً عن أنظمة الضرائب في النوبة خلال القرون الوسطى. كل الأرض تعود نظرياً للملك، لكن ما إذا كانت الكنيسة تفرض ضرائب صغرى بإنتظام إضافةً إلى الجّبانة الملكية، أو ما إذا كان الحق المنحصر لفرض الضرائب على أراضٍ معينة ممنوحاً لمنشآت كنَسية (كما كانت عليه الحال في أوروبا وكذلك الحبشة المجاورة) [٢٢٣]، فما بمستطاعنا قوله. يمكننا التمعن فقط في أن الرخاء المعروض بالكنائس النوبية الأولى لابد أنه كانت له بعض قاعدةٍ في الإقتصاد المحلى، وأن نخّمن أن القساوسة ربما خدموا كمحصّلى ضرائب لأنفسهم وللملك معاً، أو أنهم كانوا يستعملون إكراميات ملكية في صيغ أخرى .

كما ذكرنا أنفاً، ليس هنالك شئ يفيدنا بأن أديرة النوبيين كانت مراكز أعمال تصنيعية وتجارية بأى شكلٍ يُقارن ببعض الأديرة المصرية والأوروبية. مع ذلك، كان كل دير مُنكّباً فيما هو مفترض على إنتاج أنواع مختلفة من البضائع المصنّعة مما يحتاجه الأعضاء أنفسهم، وهنالك دليل على أن

المنتجات على الأقل في بعض الحالات كانت تصدر وراء الأسوار. نستعيد ذكراً أن مصنع الفَخار في فرس بدا ما يبدو أنه كان ديراً؛ ورغم أنه بعد زمن توقفت المباني عن أن تكون لها أى وظيفةٍ دينية، لا يوجد سببٌ يمنع بقاء العمل موضوعاً تحت إدارة كَنسية. لربما أن الأرباح جُنيت لصالح واحدةٍ من كنائس فرس المتعددة، أو للدير القريب من قوز الوز [٢٢٤]. هذا الإنتساب المستمر عَلّه يشرح المتوازيات اللصيقة بين زُخرف الفخار المسيحى المأثور وزَخرفة الكنيسة .

ألمح الكتاب العرب ذكراً في مناسبات لحدائق العنب، وعلى الأخص في الجزء الجنوبى من النوبة السُفلى. لقد ذكرنا كذلك أن صناع الفَخار في فرس تخصصوا لوقتٍ ما في إنتاج الأمفورة بكميات تجارية، وهى ما كانت إلا للنبيذ. ليس بحوزتنا معلومات أخرى حول إنتاج النبيذ النوبى، لكن تربية العنب عمل يتطلب قدراً معتبراً من الجهد الجماعى، لذلك السبب ترافق بإنتظام مع الأديرة في كلٍ من مصر وأوروبا [٢٢٥]. لذا فهناك بعض إمكانية بديهيّة أن حدائق العنب في النوبّة كانت بالمثل واقعةً تحت إدارة الأديرة، لأنها كانت بتدفق مركزةً في المساحة التى كانت الأديرة مُثبتة بها على أفضل الوجوه .

فيما عدا حالات لفَخار مزخرف، واستدلالياً حالة النبيذ، نملك بَينة ضئيلةً جداً على تصنيع متخصص أو تجارة داخلية في النوبة في القرون الوسطى. صنع السلال، والحصائر والفَخار اليدوى يبدو من الصعب شغله في التبادل السلعى التجارى، على الأقل حتى الفترة المسيحية المتأخرة. في معظم الأمر انها كانت تُنتج من النسوة لإستهلاك البيت في كل جزءٍ من القطر. أما الاتجار بالحديد، وأعمال الجلود، والتجارة، وصنع الأوانى للإستعمال بالساقية فالمفترض أنها كانت مهَناً أدق تخصصاً، عدا أنه لابد أن ممارسين وُجدوا لهذه المهن في كلٍ من المراكز السكانية ذات الأهمية الأعظم. نجد هذا مثبتاً بتحديدٍ في حالة أوانى الساقية؛ وبقايا القمائن التى ما أنتجت شيئاً غيرها وُجدت في أماكن كثيرة [٢٢٦]. ليس من سببٍ ليُفترض أن مثل هذه الأعمال كانت منظمةً أو مُدارة سواء من الكنيسة أم من الدولة، مع أن الضرائب كانت تُجبى منهما افتراضياً بواحدةٍ من الوكالتين أو الإثنتين.

ظاهر من بَينة أثَرية ومن بنود معاهدة *البقط* معاً أن التجارة العالمية كانت عاملاً هاماً في الإقتصاد النوبى في القرون الوسطى، مثلما كانت عليه في كل الفترات الرّخية في التاريخ النوبى. أياً كان أمرها، فإن كلاً من حجم ونوعية السلع المستوردة تضارب بشكل معتبرٍ من قرن لآخر. كان الطلب النوبى المتزعم في الفترة المسيحية الأولى، كما في أزمان بلانة، فيما يبدو هو الحصول على النبيذ [٢٢٧]. وبسبب ندرة السلع المستوردة بخلاف أمفورة النبيذ يُتوقع أن تعطى مواقع العصور الوسطى الأولى إنطباعاً بالفقر عَلّه لم يكن مسوغاً على سبيل الإجمال؛ ولربما يصير من الأصوب أن يقال أن النوبيين في ذلك الوقت فضلوا سلع الترف المستهلكة على السلع غير المستهلكة .

بعد القرن الثامن كان هناك تخفيضٌ صارم في حجم استيراد النبيذ، ربما لأن الخليفة المعتصم على وجه التحديد منع إدخال النبيذ في مقايضات *البقط* [٢٢٨]. (حوالى نفس الوقت بدأ الإنتاج واسع النطاق للأوانى الإغريقية الأمفورة في فرس، مما ينبئ بإمكانية قيام النوبيين بتربية العنب ليعوضوا الخسارة في تموينهم الخارجى) [٢٢٩]. تبدو التجارة الخارجية كأنما بقيت في جَزْرٍ منخفضٍ أثناء الجزء الأسبق من الفترة المسيحية المأثورة، خلال وقت كانت فيه المصنوعات النوبية الوطنيَة في أكمل إزدهارها. ثم، مواكبةً لتوقف صناعة الفَخار في فرس، بدأ الفَخار والزجاج المستجلب يفيض على النوبة. وبين ١٠٥٠ و١١٥٠م كانت أوانى رخيصة، مصنوعةً على نطاق واسع في أسوان، شائعةً وسط النوبيين في النوبة السُفلى مثلما كانت المنتجات المحلية. إنها حقيقة مثيرة للإهتمام أن هذه المصنوعات وُجدت بغزارةٍ أكثف في النوبة عنها بمصر، ملقية لإمكانية تصنيعها أساساً للسوق النوبى. وبعد القرن الثانى عشر إنخفضت أعدادها نوعاً ما، لكن مكان الأوانى المزخرفة إحتلته جزئياً

المصنوعات المصقولة من مصر السُفلى. أما أوانى الطهى المستجلبة من أسوان فظلت شعبيةً حتى نهاية الفترة المسيحية (٢٣٠). الأقل عاميةً وما فُتئ ظاهر الوجود في البقايا الأثَرية للنوبة المسيحية سلع تفاخر من البرونز، والعاج، والأبنوس، كلها فيما هو واضح صناعة مصرية. كذلك فإنها مذكورةٌ بشكل غالبٍ في السرود التاريخية، وأحياناً موجودة أثرياً، أنواع من بضائع إسلامية مغزولة .

إلى المدى الذى يسعنا تحديده، لم يكن للكنيسة يد في تجارة النوبة العالمية. إن سرود إبن سليم وكتاب آخرين لا تترك شكاً في أن التجارة المستوردة في النوبة السُفلى كانت متزعمةً بأيدى رجال أعمال مسلمين، كان مسموحاً لهم بعد القرن التاسع بالترحال والإقامة بحريةٍ في الجزء الشمالى من القطر. (كإفتراض كان هؤلاء الأفراد هم الذين تركوا لنا شواهد القبر العربية الموصوفة في قسم سابق (٢٣١)، إضافةً إلى عدد عظيم من وثائق التبادل السلعي العربية التى عُثر عليها في قصر إبريم) (٢٣٢). تحت رعايتهم طورت النوبة السُفلى إقتصاداً نقدياً، ربما لأول مرة في تاريخها. وفى الجانب الآخر بقيت التجارة فيما وراء الشلال الثانى بشكل مطلق إحتكاراً ملكياً وطبقاً لإبن سليم، كانت لا تزال سائرة بجمعائها بالمقايضة. لربما يفسر لنا هذا جزئياً لما كانت السلع المستوردة نادرةً جداً جنوب الشلال الثانى غير ما كانت عليه في النوبة السُفلى .

السلعة الرئيسة التى تُبادل بها النوبة النبيذ المصرى، والفَخار، وسلع التفاخر كانت هى العبيد. كيف وبمن كانت تجارة الرقيق تنظم، وأى دور لعبت في الإقتصاد النوبى في القرون الوسطى، تقع هذه ضمن أهم الأسئلة التى لم يُجب عنها بعد في التاريخ النوبى الأخير. كان عدد ٤٠٠ عبدٍ المقرر سنوياً في *البقط* يتكون أساساً من أسرى الحرب بوضوح، حيث أنه في القرن التاسع شكا النوبيون من أن عدم قدرتهم على الحصول على عدد كافٍ من السجناء كانت تلزمهم بدفع أبنائهم للإسترقاق (٢٣٣). لسوف يكون مثيراً للإهتمام بحق أن يُعْلم من كانوا ضحايا لغزو الرق النوبى في القرون الوسطى. إن مملكة علوة المسيحية تقع بين دنقلا وأرض الإسترقاق التقليدية في جنوب السودان، لذا فإنه من المحتمل أن المقُريين كانوا قادرين على الإنعطاف في ذلك الإتجاه كمورد للرقيق. والأقوى إحتمالاً أن العبيد كانوا يستحصلون إما من قبائل في تلال البحر الأحمر أو من الشعوب الزنجية في كردفان ودارفور، غرب النيل. وفى أى حالة، لابد أن نطاق العمليات الحربية كان ذا اعتبار، مما يثير فكرة (كما تفعل بنود معاهدة *البقط*) أن صفقات الرقيق لم تكن عملاً تجارياً للدولة فحسب، بل لعله كان القوام الإقتصادى للتاج النوبى في القرون الوسطى. مع هذا، يخطر بالبال كذلك إنه كان هنالك قدراً مُعيَناً من صفقات الرق الخاصة، على الأقل في النوبة السُفلى (٢٣٤).

فى المحيط الإقتصادى الخالص، ربما كان لمعاهدة *البقط* أثَر على مجرى التاريخ النوبى بأقوى مما كان لإدخال المسيحية. فإذا لم يكن النوبيون من قبل غزاة رقيق متمرسين، فإن ضرورة تسليم عدد سنوى مقرر من ٤٠٠ إنسان سرعان ما أدارهم نحو ذاك الإتجاه. نتيجةً لذلك بلغت تبعيتهم المنغلقة على بيئتهم النهرية نهايتها. ومع سير القرون أُجبروا على ركوب أنواعٍ أكبر فأكبر، في نظر أبعد فأبعد خارج مجالهم، لسلعةٍ يُحتاج لها ليس فقط من أجل تجارة للترف، إنما لتأمين إستقلالهم المتواصل عن السلطان الإسلامى. بنهاية العصور الوسطى، عُرف النوبيون بأنهم السماسرة الرئيسون لتجارة الرقيق في النيل، وتحولت إحتمالاً أعداد عظيمة من الرجال الأقوياء من الفلاحة إلى غزو الرقيق كمصدر حيوى للمعيشة. في القرن الخامس عشر كان هنالك آنفاً نوبيون يعقدون صفقات الرقيق في القاهرة (٢٣٥)، وكان الإنفجار الهائل للرق الذى أعقب الفتح المصرى للسودان في ١٨٢١ في قسطٍ وافرٍ منظماً وموجهاً من نوبيين دناقلة (٢٣٦). توقفت النوبة، تحت وطأة هذه الظروف، من أن تكون محافظةً إقتصادية متميزة؛ إن تاريخها الأخير لا يمكن فهمه إلا على أساس تداخل متنامٍ مع بقية السودان (٢٣٧).

أى ملخص للخصائص الإجتماعية والإقتصادية للحضارة النوبية في القرون الوسطى لابد أن

يبدأ، كما حدث دائماً في الماضي، بالتمييز بين النوبة السُفلى والنوبة العليا. في الشمال يبدو أننا نستبصر مجتمعاً وإقتصاداً على حرية نسبية، مكوناً من حكومة (ممثلة في الإبارش إضافةً إلى الملوك المحميين)، ورجال الأعمال الخاصة (ومعظمهم مسلمون) والفلاحين النوبيين. ربما أن الكنيسة أدت بعض وظائف الحكومة المحلية، كذلك شُغلت على نطاق ضيق بالتصنيع والتجارة. في النوبة العليا، من الجانب الآخر، يمكننا أن نستبصر حتى هذا المدى التقسيم الدهرى بين الحكام والمحكومين فحسب، مع حكومة محتكرة للتجارة الخارجية مستمدة ربما دخولها الرئيسة من هناك. إنّ أى دور لعبته الكنيسة في مشروع النوبيين في النوبة العليا لمما يبقى مجالاً للتحديد؛ أما الآن فيكفى أن يلاحظ أن كنائس النوبة العليا لم تكن بالتقريب متعددةً جداً أو غنية للغاية نحو ما كانت عليه الكنائس في الشمال .

ملخص تفسيرى

شهد افتتاح العصور الوسطى، في تعاقب سريع، حادثين لهما أهمية وقيمة بالغان للتاريخ النوبى. الحادث الأول هو إدخال المسيحية في الجزء الأخير من القرن السادس؛ والحادث الثانى هو سقوط مصر والأقطار المجاورة لجيوش الإسلام في أقل من مائة عام لاحقة. بذا احتضنت النوبة إيمان الغرب المتحضر في تمام الوقت الذى ستُقطع فيه بعيداً عن بقية العالم المسيحى بالهجوم الإسلامى الكاسح، مُلزمةً طوال العصور الوسطى بالحفاظ على حياد إتقانى في بعض الأحيان أثناء المواجهة الطويلة بين الشرق والغرب .

صاغ مقدم المسيحية تحولاً أيدولوجياً في النوبة ليس له موازٍ منذ مجئ الحضارة نفسها. خلال بضعة أجيال بل سنين قليلة إستُغنىّ عن تقاليد الفراعنة، التى لمدّة ٢.٥٠٠ عاما إنتّصبت كأنها محكات بسيطة لإختبار مصداقية الحضارة، لصالح توجهات رمزية جديدة. كأنما بليل، إندّثرت مدافن ملكية ومعابد، وإعلانات للتمجيد المُغَالى فيه، وفن للتطهيم، وأثاثاً جنائزياً، وإعتقاداً في قُدسية الملوك، وحلت محلها تعاليم جديدة في العقيدة، والفن، والأدب.

ما كانت مسيحية النوبة في القرون الوسطى إيماناً كاثوليكياً كغرب أوروبا لكنها المسيحية ذات الوصاية الأبوية والنظرة المنكبة على الداخل للكنيسة القبطية المصرية. لقد اعتُبرت مُرتّدة من قبل روما والقسطنطينية معاً، وبعد القرن السابع كانت الكنيسة في مصر مضطرةً إضافة إلى ذلك لتقبل وضعية ديانة الأقلية بين إمبراطورية الإسلام. برغم هذه القيود برهنت المسيحية أنها مصدر خصب للإلهام الكتابى والفنى؛ طوال العصور الوسطى إستُمدت كل التعابير الرمزية للحضارة النوبية تقريباً من إيمانها المسيحى. كان مَلِك السموات في الأيدولوجية النوبية في القرون الوسطى جباراً قوياً إلى حد أنه من الصعب أن توجد معلومات كثيرة عن الملوك الدنيويين وفعائلهم .

تبدو الحياة الإجتماعية والإقتصادية للنوبة على أنها نمت في نعومة دونما مقاطعة خطيرة أثناء الجزء الأول من الفترة المسيحية. إن الملكية التى كانت قد أنشئت في النوبة السُفلى في فترة بلانة ثابرت زمناً بعد إدخال المسيحية، ثم استُوعبت في باطن دولة أكبر كانت عاصمتها في دُنقلا. أما مركز الجذب السياسى فقد قفل هكذا رجوعاً إلى النوبة العليا، لكن المنطقة الشمالية ظلت في مقدمة التطور الإقتصادى والثقافى حتى نهاية العصور الوسطى .

مملكة المقُرة المسيحية بعاصمتها في دُنقلا، تمسكت بالبقاء على الأقل حتى القرن الرابع عشر. إمتدت تُخومها من أسوان في الشمال إلى ما وراء الشلال الخامس ربما في الجنوب. ووراءها في أراضى السهل في أواسط السودان، كانت مملكة أخرى، علوة التى لا نعلم عنها إلا شيئاً قليلاً. ظلت النوبة السُفلى تحت إدارة المقُرة حتى نهاية العصور الوسطى. بيد أنها بعد القرن التاسع مُنحت

وضعية خاصةً كنوع من منطقة التجارة الحرة بين النوبة المسيحية ومصر المسلمة. هنا كان التجار الأجانب يُؤذن لهم بالسفر والإقامة، والسلع تُتبادل بحرية، والنقود متداولة. والحاصل، أن النوبيين في النوبة السُفلى يبدو أنهم تمتعوا بمستوىً معيشى عالٍ بدرجة معتبرة عما لقيه جيرانهم الجنوبيون. حياة المدينة كانت أشد تطوراً في الشمال، الكنائس أعطى تعدداً وأغنى، وفن القرون الوسطى وأدبها يبدو كذلك وقد بلغ ذورة رُقيه في النوبة السُفلى. في تلك الأثناء، كانت النوبة العليا في مباشرةٍ أمضى وربما قهراً أعتى محكومةً بملكها، وظلت التجارة إحتكاراً ملكياً. على الجملة، تبدو النوبة السُفلى كأنما شهدت شيئاً مثل إحياء الحضارة الحضرية لأزمانٍ مَروية، في حين أن النوبة العليا كانت تتميز بخاصية بلاطٍ ملكى، على غرار ما كان عليه حالها عصوراً سالفة كثيرة .

الفتح الإسـلامى لمصـر في ٦٤٠ - ٦٤٢ كـأنمـا تبعـه مـبـاشـرةً غزوٌ للنوبة. ومع ذلك، لم يكن المسلمون قادرين على كسب موطأ قدم في الجنوب، وبعد بضعة إجراءات حاسمة تم التوصل إلى هدنة، *البقط*، وظلت نافذة ٦٠٠ عاماً. بمقتضى بنودها كان على النوبيين أن يسلموا مصر عدداً مقرراً من الرقيق، وأن يستلموا بالمقابل سلعاً متنوعة مصنوعاً مصرياً .

كان لمعاهدة *البقط* أثر هائل على التاريخ النوبى اللاحق. لمدى ٦٠٠ عام حَررت النوبة من تهديد الفتح الإسلامى، بذا جعلت الحضارة الرّخية من المُسَالمة أمراً ممكناً بقدرٍ كبير في الفترة المسيحية المأثورة. في نفس الوقت جعلت العلاقات التجارية مؤسسية مع العالم الإسْلامى، وربما ساهمت في رخاء كلٍ من مصر والنوبة. في النهاية، كيفما اتفق ذلك، شجعت النوبيين وربما أجبرتهم على الإنعطاف أكثر فأكثر من مساعيهم الزراعية والإقتصادية التقليدية إلى غزو الرقيق، وهكذا فتحت عهداً جديداً في التاريخ النوبى سوف يناقش بتفصيلٍ أوفى في فصول أخيرة .

الفصل السادس عشر

العصر الإقطاعى
إضمحلال الأنظمة الملكية المسيحية وسقوطها

أوج حضارة القرون الوسطى، كما وُصفت في الفصول الأخيرة، يمثل واحداً من أنصع الصفحات تألقاً في التاريخ النوبي. إبن سليم، وأبو صالح، ومراقبون آخرين تركوا لنا صورةً عن الممالك الرّخية حسنة النظام، التى كانت تعيش عموماً في علاقات جيدةٍ مع بعضها بعضاً ومع جيرانها المسلمين. ثم بغتةً، سقط ظلٌّ على المنظر. لمائة عام بعد أبو صالح يصمت التدوين التاريخي؛ وعندما تُستأنف القصة، مؤخراً في القرن الثالث عشر، تتمخض تلك التى تصادف أعيننا عن نوبة مُبْدلة بما يدعو للحزن. إحتجبت مملكة علوة بأجمعها عن النظر، بينما كانت المقّرة تترنح في وضوح نحو السقوط. توفر لنا المصادر العربية الأخيرة سجلاً إكتئابياً كأنه متواصل لمداخلات أسرية وحروبات شيعية، تُوجت في ١٣٢٣ ببلوغ أمير مسلم لعرش دُنقلا التاريخي. خلال حقبة وجيزة تحللت المملكة النوبية الشمالية، التى كانت قد حافظت على تكاملها منذ ما قبل الأزمان المسيحية إلى مجموعةٍ من عُموديات متحاربة. مشابهاً لهذا، كتب ابن خلدون، المؤرخ الأعظم للعصور الوسطى، فقرةً ملائمة عن حضارة النوبة المسيحية باكراً في القرن الرابع عشر:

> مُزقت مملكتهم إرباً إرباً واخذ عرب جهينة ملكية بلادهم. ما كان ممكناً أن تنهض حكومة أو أن تنشأ سياسة ملكية بسبب الخراب الذى منع قيام أى اتحادٍ بين الأمراء، وقسّمهم شيعاً في ذلك الوقت. وما من أثر لسلطةٍ ملكية بقى في البلاد، فالناس الآن أصبحوا بدواً، يَتْبعون خُطى الأمطار كما يفعلون في شبه الجزيرة العربية [١].

أسباب مختلفة كانت موضعاً للتفكير في شأن الإضمحلال فالإندثار النهائى للممالك النوبية. أنحى ابن خلدون باللائمة المُطبقة على البدو، أناساً يُحقّر من مكانتهم كأعداء بالوراثة للحضارة والتعليم [٢]. وأشار كتاب آخرون للنزوع القتالى المتزايد لمصر تحت حكم المماليك، أو للإنتهابات التى ارتكبها النوبيون المستعربة بين محافظة ماريس الشمالية أو للتصرف المجموع لهذه العوامل مختلفةً للإسلام. يتفق كل الكتاب بالتقريب، كيفما اتفقوا، أن مصير الممالك النوبية كان قد خُتم منذ أن أُحيط بهم واختُرقوا من شعوبٍ مسلمة؛ ومنذ زمن ابن خلدون أُخذ الظل الذى غسقَ فيه تاريخ النوبة الأخير على وجه العموم بأنه ظل الإسلام .

البّينة الموجودة الآن، بما في ذلك قدرٌ عظيم مما خرج إلى النور في السنوات العشرة الأخيرة(*)، تنبئ بأن هذا الرأى التقليدى للتاريخ ما بعد المسيحى للنوبة ليس دقيقاً في إجماله. إن النصوص التاريخية تُلقى ضوءاً خافتاً في تقطع وحسب على آخر قرون للفترة المسيحية، وربما لا نعرف أبداً بدقةٍ متى ولماذا تخلى النوبيون عن الإيمان الذى دافعوا عنه بقوةٍ ومراس لما يزيد على سبعمائة عام. الذى يبدو ظاهراً، مع هذا، هو أن نفوذ إيمان منافس ما كان إلا واحداً من عدة عوامل مهلكة كانت عاملة في النوبة في القرون الوسطى الأخيرة. ظاهر أيضاً أن الديانة المسيحية ظلت باقيةً زمناً طويلاً بعد سقوط النظام الملكى المسيحى، على الأقل في الشمال، بنما البّينة على ممارسة الإسلام كدين شائع الإنتشار لم توجد حتى تاريخ كان لا يزال متأخراً. تأكيداً ما كان هنالك أبداً نزال سياسى بين الإيمانين، أما الرأى التقليدى بعلاقة سبب - و - نتيجة بين مجئ الإسلام وإختفاء

(*) (١٩٦٦ - ١٩٧٦) - المترجم.

المسيحية فهو مغالاة في التبسيط بشكلٍ مُعتبر. يبدو أفضل، في الحقيقة، أن تقدر العمليتان كلاً على حدة. في هذا الفصل سوف نعنى بالأحداث والعمليات التى قادت إلى الإبعاد النهائى للنوبية المسيحية؛ وفى الفصل الذى يليه نقدر انتشار الإسلام في الفترة ما بعد المسيحية.

لا تترك الدقائق المعاصرة إرتياباً في أن الممالك النوبية في القرون الوسطى كانت في حالةٍ من الفوضى دهراً طويلاً قبل أن تُهدد تهديداً خطيراً من الخارج، أسباب إنهيارها ما كانت في جزء منها إلا خارجيةً فحسب. كانت الممالك، بحلول القرن الثالث عشر، تتعدى ستمائة عام عمراً، وكانت فيما بدا للعيان تبدأ في عرض علامات الشيخوخة السياسية. الكنيسة النوبية، بدورها، أمست وحيدة قَصية بمدى متزايد عن الشؤون اليومية وفقدت جزءاً كبيراً من رجانها الشعبى، نحو ما رأينا في الفصل الخامس عشر. في هذه الأثناء أُضعف دعمها الخارجى بالإضطهادات التى شنت بحق الكنيسة في مصر تحت نظام المماليك. أخيراً، علينا أن ندرك الحجم المتنامى من تجارة القوافل عابرة الصحراء في غرب افريقيا، التى يحتمل أنها اقتطعت في العمق من حصة النوبة المتناقصة أبداً من التجارة في الذهب، والعاج، والرقيق.

فى نفس الوقت الذى كانت تتآكل فيه المصادر التقليدية للقوة والسلطة، يمكننا أن نستبصر في نوبة القرون الوسطى المتأخرة نفوذاً متزايداً لأيدولوجية جديدة ما كانت مسيحية ولا إسلامية. كانت هذه هى روح الإقطاع العسكرى الذى كان، بحلول القرن الثانى عشر، قد صاغ آنفاً تحولاً واسعاً في مجتمعات أوروبا والشرق الأدنى. ومع أنه دائماً ما كان يشكل سبباً مشتركاً مع الدين، فإن النظام الإقطاعي في قاعه كان واحداً دنيوياً؛ سلطة الصفوة العسكرية الطاغية ما توسدت كتاباً مقدساً لكنها قامت على تركيبٍ معقد من الإلتزامات القانونية والتعاقدية. كان عناؤها، علاوةً على ذلك، للأمن والنظام في هذه الدُنيا، ما لخلاص في الآخرة. ولما حان الوقت ليتقاسم ذلك العناء قسم كبير من عالم القرون الوسطى، أتاحت مجتمَعات الأزمان السابقة الممركزة في الكنيسة - و - المسجد مكاناً لمجتمعات العصور الوسطى المتأخرة وهى تتمركز وراء أسوار القلاع.

رغماً عن أن البَيِّنة إستدلالية بإسهاب، يبدو مؤكداً أن تحولاً أيدولوجياً من هذا النوع اتَّخذ مكانا في مجتمع النوبة في القرون الوسطى المتأخرة. محتمل أن إستلهاماً جاء أصلاً من الحروب الصليبية - البلاء العظيم الذى انصهرت فيه وأتقنت التقنية العسكرية والأيدولوجية الحربية التي احتدمت في العصور الوسطى [٣]. من هنا انتشر نفوذهم، بمضى الوقت، فوق معظم العالم الحضارى. لم يتول النوبيون دوراً مباشراً في الحروب المقدسة، ولا نستطيع أن نعرف بوجهٍ قاطع أين كان تعاطفهم واقعاً؛ لكن من الصعب أن نرتاب أنهم كانوا مراقبين حذرين للصراع وكانوا على أثر منه عالٍ.

ربما كان الحادث المحدد الذى أشعل نمو نظام إقطاعى في النوبة هو غزو شمس الدولة للنوبة في عام ١١٧٢ - نفسه ناتجاً متفرعاً عن الحروب الصليبية (قارن الفصل الرابع عشر). لقد كان أول عملية حربية متناسقة ضد النوبيين لمدة تكثر على خمسة قرون، ويبدو أنه أيقظ فيهم إكتراثاً بأمنهم الجماعى لم يكن بادياً على الإطلاق في الفترة المسيحية الفائتة. تماماً حوالى نفس هذا الزمن يمكننا أن نرقب أول ظهور للمساكن المسيحية المتأخرة ذات البناء المتين، والتوجه الدفاعى (الفصل الخامس عشر، ومنْ بعد ذلك تطوراً متزايداً وتوسعاً مُفَصلاً للمعمار العسكرى على حساب المعمار الكَنسى. في نهاية العصور الوسطى تخَطت القلعة كُلاً من الكنيسة والمسجد كرمزٍ للسلطة لمدى ليس له موازٍ في أى قطر أوروبى أو في الشرق الأدنى.

علينا، إذَن، أن نُزيح جانباً التوصيفات التقليدية "مسيحية" و "إسلامية" وأن نسمى فترة القرون الوسطى النوبية المتأخرة كعصرٍ إقطاعى. لقد بدأ بالفعل قبل الإختفاء النهائى للمسيحية النوبية، واستمر طويلاً من بعد. ما كان إلا في تدرج، أثناء الفراغ الذى خلفَه انهيار كنيسة منظمة أن تقاليد الإسلام قامت بتكوين أساسٍ لرؤية النوبيين للعالم. وفى هذه الأثناء لم يكن المقطع

اللّحنى المصاحب لحضارتهم مُزّوداً به من المسيحية أو من الإسلام، إنما بروح العصر الإقطاعى الدنيوية الحربية. ولأن أصّفى مؤشر لهذا التطور يوجد في البقايا الأثرية للنوبة في القرون الوسطى المتأخرة، سنقّدر دلائلها أولاً.

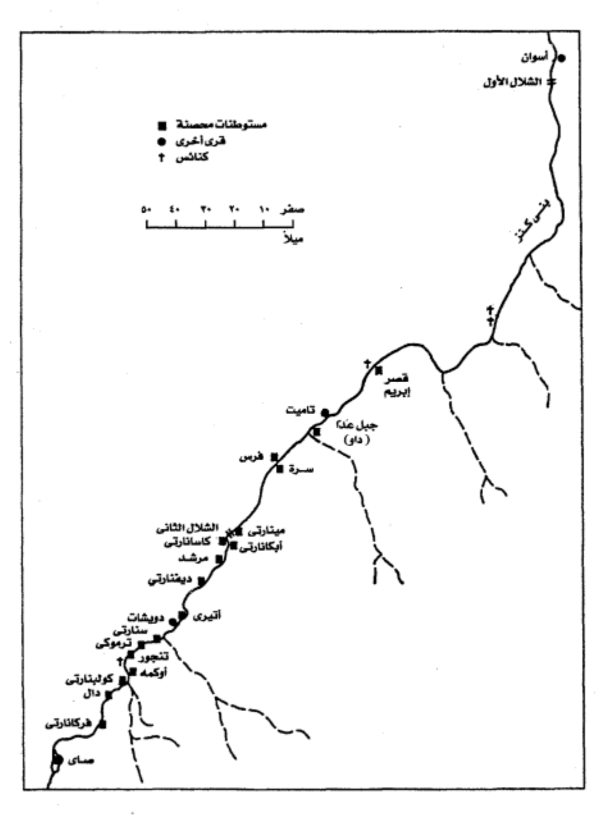
المعطيات الأثرية

نعلم عن آثار العصر الإقطاعى أقل مما نعرف عن أى فترةٍ سابقة منذ الفترة النّبتية. فما رُصد في أى حَملةٍ من حَملات الإنقاذ للنوبة أى بندٍ للتحقيق عن بقايا "إسلامية"، وكثيرٌ من المواقع التي تدل علي إستعدادٍ على الإنباء نتج عن ذلك تخطيها. وفى المواقع العظيمة متعددة المراحل مثل قصر إبريم وجبل عدّا، وفى بعض القلاع الفرعونية التى أُعيد شغلها في العصور الوسطى، مُنح إهتمام علماء الآثار الأكبر بشكل مفهوم لبقايا الفترات الأولى، أما فترات العصور الوسطى فقد جرت معالجتها بإيجاز غالباً. هُنالك، على أى حال، قلةٌ واضحة في مواقع القرون الوسطى المتأخرة في النوبة السُفلى، حقيقةٌ سوف نناقشها مناقشةً ضافية في لحظة .

الصورة نوعاً ما أسطع في *بطن الحجر*، حيث أن المواقع المتأخرة متعددة ومحفوظة جيداً على سواء. معظم معرفتنا بالتطورات الأثّرية في العصر الإقطاعى تأتى بحقٍ من هذه المساحة، وعلى وجه الدقة من مجموعةٍ من المواقع كان قد نُقّب عنها خلال السنوات الأخيرة من حَملة إنقاذ السد العالى. جنوب الدال تكاد لا توجد لدينا، كلها لا تزال تنتظر تنبه علماء الآثار إليها. التعميمات المعمولة في هذه الصفحات يجوز لذلك أن تُطّبق بثقةٍ على النوبة السُفلى و*بطن الحجر* وحدهما .

الفترة المسيحية المتأخرة بشكل واضح للغاية شهدت واحدةً من الإنتقالات السكانية الكبرى في التاريخ النوبى. في النوبة السُفلى مواقع المدن أكبر لكنها في آنٍ واحد أقل تعدداً لحد ملحوظ عنها في أى وقت منذ إعادة شغل المنطقة لألف عام سابقة. من مستوطنات الفترة المسيحية المأثورة والمبعثرة عريضاً، حفنةٌ فقط تُبّين علامات على الإقامة بعد القرن الثانى عشر. ربما أن نسبةً مرتفعة من سكان النوبة السُفلى النوبيين تركوا المقاطعة مرة واحدة؛ أما الذين مكثوا مقيمين فتجمعوا معاً في بضعة أماكن مَحْمية. ناتجُ ذلك فيما يمكن أن يقال إن المجتمع النوبى في النوبة السُفلى بلغ قمة تحضره تحت ظروف غير أكيدة من العصر الإقطاعى .

لا يضم مخطوط عربى من القرن الثالث عشر في قائمته ما يزيد على سبع مستوطنات كبرى بين الشلالين الأول والثانى: عمادة، داو (جبل عَدّا؟) قصر إبريم، أديندان، فرس، سَرْة (؟) ومينارتى (الشكل رقم ٧٨). من هؤلاء، فإن فرس، التى كانت مرةً عاصمة المحافظة، في حالة إنتقاص محزنة، إمتلأت كاتدرائيتها بالرمال ونقلت وظائفها الكَنسية فيما يبدو إلى قصر إبريم [٥]. بقيت ميناَرتى كما كانت غالباً من قبل مستوطنةً في جزيرةٍ صغيرة على قدم الشلال الثانى، مع أنها الآن مُستثمرة بوظائف إدارية هامة. سَرْة كانت مجتمعاً جديداً، تلتف بين أسوار قلعة الدولة الوسطى التى طال هجرها [٦]. إنها لا تعرض أقل من أربع كنائس، كلها ذات صِغَرٍ من النوع المسيحى المتأخر، مُنبئةً بأن مجموعة من المستوطنات التى بُعثرت من قبل قد تجمعت سوياً للحماية لكنها اختارت أن تحتفظ بخصائصها الكَنسية المنفصلة. قلاع قصر إبريم وجبل عدّا في قمم الجبال بقيت المراكز الرئيسة للقوة والسلطة، كما كانت بشكل مُتقطع منذ أزمان مَروية. إن كلاً منهما مذكور بطريقة متكررة في وقائع الأحداث السياسية والعسكرية السُنوية للعصر الإقطاعى. في هذه الأمكنة، كما في سَرْة، قد يظهر أن سكاناً مدنيين جاؤوا بحجم كبير يتجمعون للحماية بين الأسوار المحَصنة القديمة وتحتها. إحتوى جبل عدّا في نهاية الفترة المسيحية سبع كنائس على أقل تقدير [٧]، وأربع في قصر إبريم[٨]. جدير ذكراً، من الجانب الآخر، انه خارج المجتمعات التى سُميت للتو ما كان أكثر من ست كنائسٍ من



الشكل رقم ٧٨

النوبة السُفلي وبطن الحجر في العصر الإقطاعي

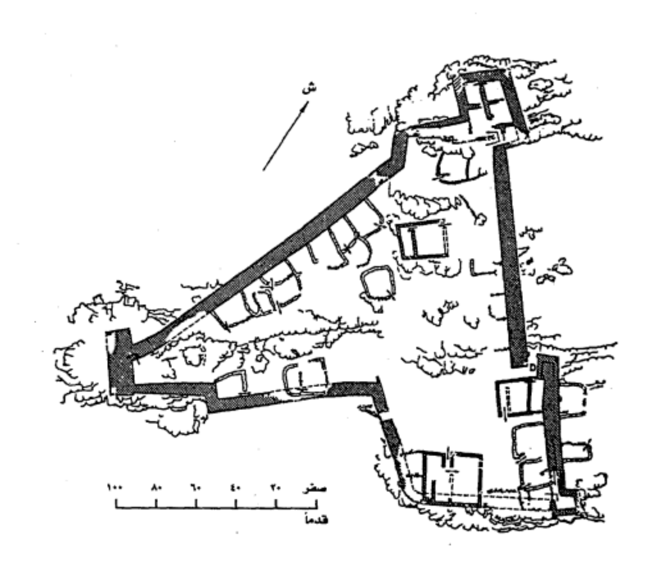
النوع المسيحى المتأخر الموسوم (قارن الفصل الخامس عشر) ليوجد في النوبة السُفلى بأجمعها(٩).

فى *بطن الحجر* تواجهنا صورةٌ مختلفة للغاية. هذه المنطقة الصخرية الجافية، التى لم تُدّعم أبداً من قبل لم تتعدَ كونها أكواخاً صغيرةً متناثرة، تبرقعت ببقايا كبيرة وصغيرة معاً لمجتمعات مسيحية متأخرة. إن المسح الإستطلاعى الأول من جُمى إلى الدال (الشكل رقم ١١) سَجّل أزيدَ من ١٥٠ موقعاً للفترة المسيحية المتأخرة، تشمل حوالى ٦٥ في المائة من كل المواقع التى أُتّى عليها (١٠). أكبرها لا يدنو في الحجم من المراكز الحضرية العظيمة في قصر إبريم وجبل عدّا، ولكنها تتخطى لمدى بعيد أى شئ رُؤى في السابق في *بطن الحجر*. لا يمكن أن يوجد سوى شك هين أن هذه المنطقة الفقيرة المعزولة، التى تجانبها طرق القوافل الرئيسة في العصور الوسطى، خدمت كملجأ أساسى للسكان الفارين من الإضطرابات السياسية في الشمال .

مَعلمٌ بارز للمستوطنات المسيحية المتأخرة في كلٍ من النوبة السُفلى وفى *بطن الحجر* هو ملامحها الدفاعية. كثير منها يحمل في الحقيقة تمثلاً صارخاً للمدن الجَبلية لأوروبا القرون الوسطى المتأخرة: مستوطنات في وضع يزحم جوانب القمم الجبلية وأعاليها. لقد كانت طبقات الأرض السطحية في *بطن الحجر*، بجزرها النهرية المتعددة، بتدقيق، ملائمة تماماً لتطور مثل هذه المجتمعات، أكثر من إثنى عشر واحداً منها يمكن أن يُشاهد بين جمى والدال. واحد من أشدها ظهوراً للعيان كان دينارتى، جزيرةٌ قريةٌ بالقرب من صرص مساكنها تتعلق بكل نتوء، وكتلة متآكلة مما يتوفر على جوانب قمة جبلية كأنها رأسية (الصورة ـ ٢٢ ـ أ). تتوج القمة كنيسة صغيرة (١١). وفى الشمال عُرض ظهورٌ مماثل للقلاع الجَبلية في جَبل عدّا وقصر إبريم (الصورة ١٦ ـ ب).

كما ذكرنا في الفصل الخامس عشر، كانت المجتمعات المسّورة للفترة المسيحية السابقة هى أديرة ربما بضعة فنادقٍ صغيرة لراحة القوافل في الشمال. في الفترة المتأخرة شُيِدت أحياناً أسوار محيطة حول مجتمعاتٍ دنيوية كإضافة، على أن استعمالها لم يتبينَ أبداً بشكل منهجى. في سَرّة، ربما على نطاق مُصّغر في بعض قلاع الشلال الثانى، نفع المسيحيون المتأخرة أنفسهم بالأسوار المحيطة التى لاتزال شامخة، ما أجروا عليها سوى ترميماتٍ طفيفة. خلال الأيام الفرعونية، في جبل عدّا وقصر إبريم أُبقيت التحصينات المَروية مُصانة، مع أن عديداً من السكان المدنيين كانوا ملزمين بالإلتفاف حولها. مع ذلك، في *بطن الحجر*، أحاط عدد من المجتمعات المسيحية المتأخرة نفسه بأسوارٍ حِصنة قوية. خلاف الحصون الفرعونية والمَروية، كانت تحصينات فترة القرون الوسطى في العادة غير منتظمةٍ للغاية في رسمها، عاكسةً للطبيعة المتكسرة لأرض المنطقة ومقترحةً كذلك أن الأسوار التى تحيط بالمستوطنات كانت دائماً تبنى في وقتٍ يعقب بناء المستوطنات. إن واحداً من أفضل النماذج حفظا ودلالة على مثل ذلك المجتمع يقع في جزيرة سونارتى، حيث سُور اثنا عشر منزلاً أو ما يزيد على ذلك داخل سورٍ ضخم من حَجر جاف (١٢). إن المسّور، الذى كان مثلثاً بلا تدقيق في التصميم، له استحكامات بارِزة في الزوايا تخترقها بوابةٌ مزدوجة في تحصين (الشكل رقم ٧٩). فوق عامل العزلة وما وراءه، مع ذلك، يبدو أن معظم النوبيين ما اعتمدوا في الحماية كثيراً على الدفاعات الجماعية بمثل ما اعتمدوا على الطبيعة المحّصنة لمساكنهم الفردية. هذه أيضاً ربما تقول شيئاً عن شخصية مجتمع القرون الوسطى في فترته المتأخرة، التى سنعود لها فيما بعد .

لاحظنا مسبقاً في الفصل الخامس عشر، أول ظهورٍ لنوع المسكن النوبى المتأخر، ذلك فيما يبدو في الجزء الأخير من القرن الثانى عشر. في قالبه الأقدم كان يختلف قليلاً عن المسكن المسيحى المأثور، عدا تشييده الأشد متانةً وإستقلاله الهيكلى عن البنايات المحيطة. كانت مكوناته الأساسية حجرةً كبيرة في المقدمة، يُدخل عليها عن طريق باب مُفرد من الخارج، وحجرةً صغرى واحدة أو ما يتعداها خلف الحجرة الكبيرة، وممراً ضيقاً في شكل L يقود وراء الحجرات الصغيرة



الشكل رقم ٧٩

تصميم لمَجْمَع مُسّور مسيحي متأخر، صنارتي

إلى مرحاض في ظهر البيت .

بالرغم من أن هذا القالب الأغلب تبسطاً "لوحدة السكن" في الفترة المسيحية المتأخرة بقى شعبياً حتى إسدال الستار على الفترة المسيحية، فإن أنواعاً أكبر وسعاً وأعطى تفصيلاً أبرزت وجودها كذلك في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. بُنيت بعض المنازل دون مدخل جانبى إلى حجراتها الداخلية، ولا يمكن بلوغها إلا عن طريق سلم أو دَرَج من السقف. علينا أن نفترض في هذه الحالات أن الحجرات الداخلية لم تؤدِ أى وظيفة عملية في الأنشطة اليومية، لكنها قُصد بها أول ما قصد التخزين الآمن لأغلى ممتلكات الأسرة، بما في ذلك ربما مخازن حبوبها. كانت "خزائن" في شكل جنيني. وجود مثل هذه الغرف عنى، بالطبع، أن وصولاً آخر نوعاً ما للسقف كان كذلك ضرورياً، سواء بين المنزل أو خارجه. إفتراضياً كانت سلالم متنقلة تستعمل لهذا الغرض. ولما كانت المنازل المسيحية المتأخرة معروشةً بسقوف طوبية وفيرة، قادرة على دعم أى ثِقَل من الأوزان، يبدو محتملاً أنه بمضى الوقت صار قدرٌ عظيم من نشاط الحياة اليومية يجرى على السطوح. يوحى بهذا في كل الحالات النموذج الموازى للبويلو (*) في أمريكا الشمالية .

خُطوة منطقية أخرى كانت إضافة طابق عُلوى. إننا لا نعرف متى برز ظهور الوحدة السكنية ذات الطابقين لأول مرة، ولكن أثناء القرن الرابع عشر كان لمثل تلك المبانى أن توجد في معظم المستوطنات الكبرى للنوبة الشمالية. ربما أنها بُنيت في الجنوب بالمثل، على أن البيّنة من هنا مفقودة حتى الآن. إن أرقى مجموعة حفظاً من الوحدات السكنية ذات الطابقين وأكملها دراسة تقع في الجزء الجنوبي من *بطن الحجر*، في مجتمعات جزيرة كولبنارتى ودال (١٣). في كلٍ من هذين المكانين بضعة مبانٍ تغلب عليها بنايات من طابقين شديدة التناثر، تعلو كالأبراج من فوق تجمع لمنازل من طابق واحد تحط بها. إنها تتفاوت في الحجم بشكل معتبر، لا يتماثل إثنان منها رسماً، لكنَّ بنايات الطابقين كلها تعرض نفس الملامح الحيوية. أُعيد شكل الرسم البنائى للبيت المسيحى المألوف، بحجرة أمامية، وحجرة أو حُجرات خلفية، وممر، ومرحاض بالنسبة للطابق الأعلى، بينما الطابق الأرضى جرى تفريغه لحفائر تخزين مسقوفة. الرسم العام لهذه المباني دائماً ما يكَون متاهةً ويبدو مصمماً ليُربك أى واحد غير معتادٍ الإلفة بالدار. الخاصية المحددة لكل المساكن ذات الطابقين في كولبنارتى، على الأقل إثنان منها في الدال، هى إدخال قبو سرى على الطابق الأرضى وهو مخفى بذكاء بين سمك الجدران المتلاصقة لدرجة أن وجوده يكاد يكون مستحيلاً كشفه. وجهٌ قريب الشبه بهذا وُجد كذلك في منزل من طابقين في قصر إبريم (١٤). إن التفاصيل المعمارية الدقيقة للرسم التخطيطى وموقع هذه الأقبية المخبأة ليست متماثلة في أىٍ من الحالتين: كل واحدة تمثل ممارسة متفردة في المهارة الإبداعية .

الوصول الخارجي الوحيد لأى من هذه البيوت ذات الطابقين في كولبنارتى ودال يتم عبر مدخل في مستوى الطابق الأعلى، يفترض بُلوغه عبر سلم متحرك. أما غرف الطابق الأرضى، مع أنها دائماً طويلة كالتى في الطابق الأعلى، فلا يمكن إدراكها إلا عن طريق سلالم أو مُدَرّج فوقى بأعلى الأنحاء السكنية. أحياناً تكون كل الحجرات بأسفل الدار موصولة بعضها ببعض، حتى يمكن بسلم مفرد أن يتاح الوصول لها جميعاً؛ في حالات أخرى قد تكون هناك غرفتان أو ثلاثة غرف غير موصولة أو مجموعات من الغرف؛ كل واحدة تتطلب سلمها من الأعلى. إضافة إلى الحفر الرئيسة المدفونة في الطابق الأرضى، تشغل أقبية صغيرة الفراغات الماثلة بين سقوفها المعروشة بالطوب (قارن الشكل رقم ٨٠)، وهذه بدورها تُبلغ عن طريق سلالم أو مدارج من الأنحاء السكنية بالأعلى .

الشخصية الدفاعية للمعمار السكنى المسيحى الأخير واضحة بما فيه الكفاية، ويبدو أنها تجد تعبيرها الأكمل في وحدة المساكن ذات الطابقين. من فوق الإعتبارات العملية للأمن وما وراءها، مع

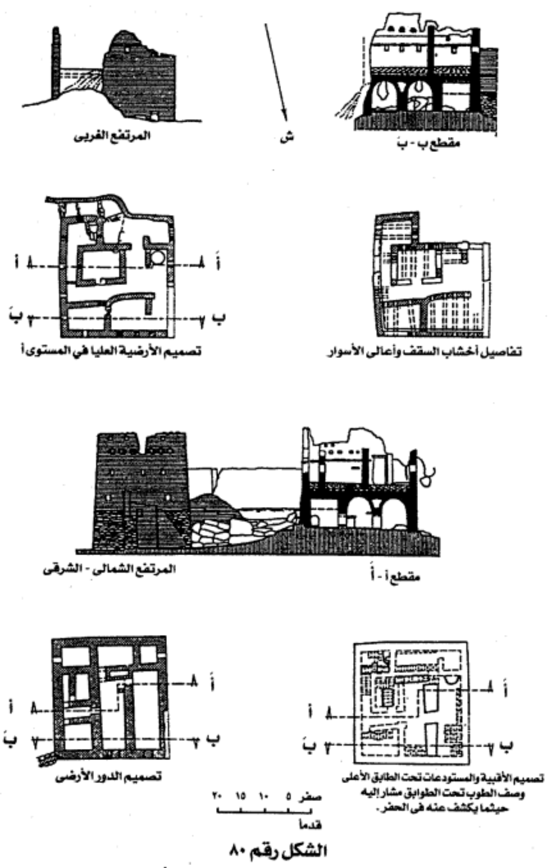
(*) إحدى قبائل الهنود الحمر – المترجم.

ذلك، من الصعب أن يُتهرب من الإنطباع القاضى بأن هذه المبانى تمثل لونيةً معمارية متطورة على التمام كانت قد فصّلت جزئياً لمصلحتها الخاصة. تفترض هذا بوجه خاص المنازل في كولبنارتى ودال، بإختلافاتها المتوالية ذات التعمد في وضوح على أمرٍ ما كان مقرراً. تمثل كل واحدة مارسة محددة في أصالة خلاقة في نطاق حدودٍ متمرسة بشكل جامد. يبدو محتملاً كذلك أن المبانى في *بطن الحجر* العليا وربما في أماكن أخرى كانت تعمل جماعة من المعماريين المهنيين. ربما كانوا نوبيين أو، كما في فترات أخرى عديدة من التاريخ النوبى، مهاجرين من مصر؛ يبدو مُستيقناً في كل حالة أنها استمدت قليلاً من إستيحائها من معمار القلاع المعقد والمتميز بالمهارة في العصر الإقطاعى الأوروبى وفى الشرق الأدنى .

المساكن ذات الطابقين التى تقع في أماكن مثل سَرّة [١٦]، كولنارتى، ودال، تناثرت وسط بناءات أقل متانةً تفوقها كثرة، ويحتمل أنها تمثل ببساطة مساكن "فخمة" لفترة القرون الوسطى المتأخرة - أول ظهور من جديد للمسكن كرمز للمكانة منذ الأزمان المَروية . في بعض القرى الصغيرة في منطقة الشلال، مع ذلك، يُقتَرح تفسيرٌ مختَلف نوعاً ما . في مينارتى [١٧]، وأبكانارتى [١٨]، وكاسانارتى [١٩]، وعدد من الأماكن في الجنوب البعيد [٢٠] ما كان هنالك سوى هيكل واحد من طابقين، فسيح الأرجاء على نطاقٍ أكبر من أى بناية أخرى في القرية، ويشغل موقعاً سامق الأهمية بوجه خاص. مثالاً بارزاً كان "الدار الصماء" الذى ساد القبور التّلية المرتفعة في مينارتى أثناء أزمان مسيحية متأخرة: تقدر بحوالى خمسين قدما في الجانب، وأسوارها الخارجية تعدو الثلاثة أقدام سُمكا. الرسم البنائى متاهة، له غرف مخبوءة وعدد من الغرف المسقوفة لا يمكن الدخول إليها إلا بعد صعود السقف عبر سلسلة من الممرات المتعرجة [٢١]. يبدو من غير الممكن أن مثل هذه المبانى قُصد منها أن تكون إقامات خاصة فحسب، رغم أنها كذلك كانت حتماً. المحتمل أنها قامت بَدورٍ إضافى، مع ذلك، دُوراً للجوء كل المجتمع وبضائعه وقت المحن - حيث يكفل النبيل المحلى الحمايةَ لجيرانه الفقراء وربما التابعين له. هنا، من ثَم، يمكننا أن ندرك الأساس للقلعة النوبية، ولنظامٍ إقطاعى ربما على قدم المساواة .

لم يرتَق بناء الحصون في النوبة الشمالية أبداً إلى مستوىً مهم ذى قيمة وراء مرحلة "الدار الصماء"، فيمَا عدا "قلعة العرب" ربما في فرس، وهي بناية مسورة تاريخها غير مؤكد شُيدت مباشرةً على قمة الكاتدرائية المغطاة بالرمال [٢٢]. في أماكن أخرى تواصل إعتماد الإقطاعيات الكبرى للأزمان المسيحية المتأخرة وما بعد المسيحية على التحصينات المَروية جيدة الحفظ في جبل عدّا وقصر إبريم، بينما قنعت الإقطاعيات الأصغر بنوع المساكن المتسعة ذات الطابقين التى وصفناها للتو. في الجنوب، مع ذلك، كانت هنالك تفصيلات معمارية إضافية. في كولبنارتى واحد من أكبر "وحدات المساكن" ذات الطابقين، ربما كان بداية مقاماً سكنياً وحسب، جرى تكبيره إلى قلعة حقيقية بالإضافات المتتالية لفناء مسوّر كبير، وبُرج بفتحات بارزة [٢٣]. خلاصة هذه التعديلات أنها كانت أوسع من أى مبنى في المنطقة المحيطة، وتحكمت في الريف لأميال طويلة (الصورة ٢٢ - ب). أُجريت تحولات مشابهة في واحدٍ من المساكن ذات الطابقين في دال، بضعة أميال إلى جنوب كولبنارتى .

معظم القلاع "والدار الصماء" للنوبة الشمالية شُيدت على جزر أو على أراض عالية تطل على النيل في بروز. إن مواقعها الإستراتيجية تشير إلي أن واحداً من وظائفها الهامة كأن عليه أن يتيح نقطة ذات نفع تُراقب منها حركة المرور على طول النهر وضفافه. ربما أن هدف البنائين في البداية كان دفاعياً خالصاً، غير أنه في مسار الزمن جاءت القلعة النوبية - مثل القلعة الأوروبية - لتلعب دوراً أشد عُدوانية. فبعد انهيار ممالك القرون الوسطى تَبَدل كثير من إقطاعيى النوبة المحليين "أسياداً ناهبين" يعيشون بشكل مُتَزَعم على الجزية التى ينتزعونها من التبادل السلعى السائر عبر مقاطعاتهم. إن معاقلهم الجزائرية حينذاك أدت دور نقاط لتحكمٍ مسلح منها يهددون، وإذا دعت الضرورة،



الشكل رقم ٨٠

تصاميم ومصاعد لقلعة في القرون الوسطي المتأخرة، كولبنارتي

يهاجمون المراكب والقوافل العابرة. تُثير هذه الفكرة بوجه خاص قلعة كولبنارتي، التى تعج بالفتحات وتعرض واجهة ناحية النهر رهيبة التوعد (الصورة ٢٢ ـ ب). الإستلهام بشأن هذه التطورات يجوز أنه جاء بصحة تامة من قلاع "السيد الراهب" في الراين والدانوب، التى تحمل تمثلاً معتبراً لها بعض قلاع النوبيين [٢٤]. وسيُقال ذكراً مفصلاً عن هذه المرحلة من تاريخ النوبة السياسى في الفصل القادم.

بلغ بناء القلاع النوبى أكمل نمائه في المنطقة بين الشلالين الثالث والرابع: قلب مملكة دُنْقُلا القديمة. في أماكن مثل خناق، والخندق، وبخيت [٢٥]، والكاب، والكُرو [٢٦] هنالك أكوام من قطع الطوب والحجارة الصغيرة لمسافة شاسعة، تفوق كبراً بمراحل أى شئ في الشمال، وتمثل بالتأكيد قمة التعبير لعصر النوبة الإقطاعى. إنها جميعاً تحتوى مُسّورات بارزة وأبراجاً ظاهرة، لكن المعرفة المفّصلة لمعمارها علاوةً على تاريخها عليها أن تنتظر تنقيباً منهجياً في نظام. أما بالنسبة للحاضر فما من قلعةٍ من قلاع النوبيين في النوبة العليا مُسحت بعنايةٍ سواءاً بسواء.

يُرجع الأثر القلاع النوبية في النوبة العليا إلى فترة الفونج (ما بعد المسيحية)، عندما حققت بلا شكٍ أقصى تطورها وأهميتها. يبدو مُستيقناً، رغم ذلك، أن أصولها تعود إلى أزمان مسيحية، لأنه على الأقل في حالتين هنالك كنائس بالجوار يبدو أنها من نفس عمر التحصينات [٢٧]. يستحق النقل، في هذه الصلة، سرد مملكة علوة الذى تركه في القرن السادس عشر المبشر فرانسيسكو ألفارس: "إن كنائسهم كلها في قلاع قديمة عتيقة تمتد هناك في طول أرجاء البلد، وعلى وفرةِ ما يوجد بها من قلاع، يكون لديهم كثرةٌ من الكنائس" [٢٨].

البّينة التى اقتُطفت اللحظة قد توحى بإنه في النوبة العليا استمرت الكنيسة في الازدهار إبّان الجزء الباكر من العصر الإقطاعى، وتمتعت على سبيل الإفتراض بحماية النبلاء الإقطاعيين. لم تكن هذه بشكلٍ مُوّحد هى الحالة في الشمال. فهنالك في النوبة السُفلى و*بطن الحجر* إضمحلال ظاهر مواكب في البناء الكنسى، إفتراضياً في حالة جزئية، بسبب الإنشغال المتنامى بالمعمار العسكرى. كانت الكنائس المسيحية المتأخرة على أفضل تقدير صغيرة على بساطة في رسمها التصميمى (الشكل رقم ٧٢)، وأصبحت كذلك على ما هى عليه بشكٍ متزايد بمرور الزمن [٢٩]. في نفس الوقت الذى جرى فيه تقديمها، تُخُلى عن أغلب الكنائس الأقدم عمراً وأوسع تفصيلاً علاوةً على ذلك، وتُركت لتهبط في الخراب، كما كان عليه تقريباً حال كل الأديرة المعروفة. بعض الكنائس متأخرة التشييد في النوبة، في ديفينارتى وعبد القادر، يمكن أن تُوصف بأنها صغيرة وحسب؛ في شكلها الأصلى نادراً ما بلغ قياسها ما يعلو على ١٦ قدماً في الجنب، وما كان بوسعها أن تحمل أزيد من إثنّى عشر شخصاً [٣٠]. في كُلٍ من هذه الكناس أفسح الترتيب التقليدى لثلاث غرف شرقية (قارن الفصل الخامس عشر) الطريق لغرفة عبادة مفردة بزوايا قائمة ـ وجهاً. يعود كل الطريق قافلاً للكنائس النموذجية في القرنين السادس أو السابع الميلادى [٣١].

ملمحٌ جديرٌ بالملاحظة للعديد من الكنائس النوبية المتأخرة هو فصلهم الطبيعى عن المجتمع. فكما شاهدنا آنفاً في فصل آخر كانت معظم الكنائس النوبية بعد القرن السابع موضوعة على حافة المستوطنات، لكيما يُسمح بفضاءٍ لنمو الجبّانات. عدد كبير من الكنائس التي شُيدت بعد القرن الثانى عشر، مع ذلك، كانت مزالةً لمدى بعيد من أقرب مسكن، وكثير من الكنائس المتأخرة في جبل عدّا [٣٢] وقصر إبريم وُضعت بعيداً بالمثل من المستوطنات، في حين أن كنائس الفترة الأولى كانت تقف مباشرة في منتصف المدينة. الكنائس التى خدمت مجتمعات الجزيرة مينارتى [٣٣] وكاسانارتى [٣٤] في نهاية الفترة المسيحية كان موضعها على الضفة الغربية للنيل، ليس على الجزر بمن فيها من أعضاء الأبرشيات (*). في كولب وكولبنارتى [٣٥] بنفس المستوى، كان وضع الكنائس المتأخرة على بُعدٍ من القرى غير ضرورى. من الناحية الأخرى كانت المدن الجبلية ديفنارتى وأتيرى [٣٦] يُتوج كل

(*) الوُحدات الفرعية للكنيسة – المترجم.

منها بكنيسة صغيرة شُيدت على أعلى قمة راسية في الجزيرة، تجمعت المساكن حولها وتحتها. قد يبدو أن بعض المسيحيين المتأخرين رغبوا في التجمع لأقرب ما يمكن حول كنيستهم، في حين حاول الآخرون فصل أنفسهم عنها. هذه الإستجابات المتفاوتة لها بعض القيمة والأهمية الإجتماعية، وسوف تُناقش بإتساع في صفحات قادمة ("مغيب المسيحية" بأدناه).

كما أومأتُ مرات عديدة من قبل في هذا الكتاب، أعتقد أن معمار الصروح ربما يتيح دائماً واحداً من أشد المؤشرات حساسيةً للنظرة الذاتية والرؤية الكونية لقوم ما. يصح هذا على العصر الإقطاعي بما لا يقل عن الأزمان السالفة. إن "وحدات المساكن" المستقلة في متانةٍ، و "الدور الصماء" والقلاع ربما وجدت مسوّغاً لها في أحوال سياسية مباشرة، لكنها ربما كانت بنفس القدر السبب المناظر للأثر الذى يحدثه تحلل مجتمع سياسى مركزى متحلل. في كل الظروف لابد أن تشاهد، في أوسع معنى، كتعبيرٍ عن روح زمانها. لقد اقترحت مسبقاً أن "الوحدة السكنية" ذات الطابقين تمثل لونية معماريةً موسعة التفاصيل في نفسها، وأن القلعة الحقيقية تعلم عن خطوةٍ إضافية في عين الاتجاه. بنهاية الفترة المسيحية كانت قد تخطت كلية الكنيسة كوسيط سعى من خلاله بُناة النوبة وحكامها للتعبير عن مهارتهم الإبداعية الخلاقّة. لقد تنافست القلعة دائماً مع الكاتدرائية كأغلى رمزٍ لعصرها في أوروبا القرون الوسطى المتأخرة؛ وفى النوبة انتّصبت القلعة بلا منافس. هنالك على الأقل أهمية وقيمة ذات معانٍ روحية في الحقيقة التى تقضى بأنه عندما أضحت كاتدرائية فرس الرائعة مملوءةً بالرمال، ما بُنيت فوقها كنيسة أخرى بل بنيت قلعةً حصينة [٣٧]، وفى حين أنه في مينارتى كانت "الدار الصماء" المّروعة للفترة المسيحية النهائية مشّيدةً برسم متماثل فوق بقايا الدير الذى اجتاحته الرمال. ما كان الإيمان المسيحى ميتاً من الناحية الرسمية، إذ أن "الدار الصماء" كانت مزخرفةً تزدان بنص إبتهالات مسيحية [٣٨]، بيد أن الروح الأخروية التى غذّت الأرواح وألهمت المعمار في الفترة الباكرة من القرون الوسطى كانت قد ماتت بالتأكيد [٣٩].

لئن كان معمار الصروح يوفر معياراً لتطلعات شعب، فإن تطور الفنون الأدنى يعكس بمزيدٍ من الدقة الأحوال الإجتماعية والإقتصادية يوماً بيوم. وقبل ترك بّينة علم الآثار، يجدر بنا أن نقّدر في اختصارٍ الفّخار وبقايا مادية أخرى للفترات المسيحية المتأخرة وما بعد المسيحية. صناعة الفّخار الأهلية، كُما رأينا في الفصل الخامس عشر، تمتعت بإحياءٍ رئيس في القرن الثانى عشر عقب خسوفها المؤقت في الفترة المسيحية المأثورة في مراحلها الأخيرة. لقد واصلت إزدهارها لما لا يقل عن قرن، ولربما بلغ الخّزف الفاخر بالفعل قمة وفرته في هذا الزمن، مع أن الأنواع والأشكال لم تستعد أبداً المستوى الرفيع في الفترة القديمة، إننا لا نعلم أين كانت تقع مصانع الفّخار (أو حتى بإحتمال أقوى، مصنع مفرد، بالنظر إلى المعمارية العالية للمصنوعات المسيحية المتأخرة)، لكن منتجاتها موزعة في نطاق واسع على كل المنطقة من الشلال الرابع إلى أسوان. يقترح هذا عملية لشبكةٍ مجّودة التنظيم واسعة الإنتشار على غرار ما يمكن أن يزدهر في أزمان السلم وحدها. أما السلع المستوردة مثل الزجاج، والمصنوعات المصقولة والبرونز فكانت شائعةً أيضاً بشكل ملحوظ على الأقل في مينارتى، بين حوالى ١١٥٠م و١٢٥٠م. الواضح أن هذا القرن الإفتتاحى للعصر الإقطاعي (الذى نفتقد عنه المدونات التاريخية إطلاقا) كان واحداً من رخاء إقتصادى متواصل وإستقرار إجتماعي، حتى لو كانت الأديرة والكنائس تضعف سراعاً. إن إكتساح شمس الدولة في ١١٧٢ (الفصل الرابع عشر)، مع أنه ربما يكون هو الحادث الذى وضع النوبة على الطريق المؤدي للإقطاع، يبدو غير ذى أثرٍ دائم على التجارة المزدهرة مع مصر.

بعد ١٢٥٠ تغيرت الصورة بسرعة. هناك تناقص متزايد في كل من نوعية الفّخار النوبى المصنوع بالعجلة. كثير من أوانى الفترة المسيحية النهائية (كما وُصفت في مكان آخر في القرن أو القرنين الأخيرين للمسيحية النوبية) [٤١] كأنها لخشونتها وثقلها رسمٌ لوحش خرافى، تفتقد لأى من

الظلال اللونية السابقة شكلا وزخرفاً. الإفتقاد الأقصى للمعيارية في هذه المصنوعات ينبئ أيضاً بأن عدداً من المصانع المنافسة كانت تتسابق فيما تبّقى من سوق التفاخر، ما كان هنالك طابع فنى مقبول عموماً (٤٢). عملية الإضمحلال بلغت ذروتها إما وقتاً قصيراً من قبل أو من بعد الفترة المسيحية، عندما أخلى فن صناعة الفّخار بالعجلة عن الساحة مرةً واحدة (٤٣). مُذاك حتى اليوم الحاضر أصبح الطلب على الفّخار المصنوع محلياً ممّوناً بالمنتجات اليدوية للنسوة النوبية، كما كان حاله في أزمان ما قبل التاريخ. صانعات الفّخار من النساء يبدو في البداية أنهن بذلن بعض الجهد ليعوضن إختفاء مصنوعات الترف المعمولة بالعجلة؛ إن منتجاتهن في الفترات المسيحية النهائية وأوائل ما بعد المسيحية كانت مزخرفةً في تفصيل أوسع عنها في أى وقت قبل ذلك أو أثناءه (٤٤). مع ذلك وبنفس القدر، سرعان ما تُخلى عن هذا الترف اليسير لصالح مصنوعات مستهلكة بشدة للقرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة. أخذ الناس الذين انتجوا ذات مرة المصنوعات المّروية والمسيحية المأثورة رفيعة المستوى بفّخار لسد الحاجة ما كان تقنياً أو فنياً متفوقاً في الجودة على الفّخار الذى صنعه أسلافهم فجر التاريخ .

يتساوى قدراً في إستحقاق الملاحظة إختفاء كافة أنواع السلع في العصر الإقطاعى الأخير. من المواد المبينة بالقائمة التى أستُعيدت من موقع القرون الوسطى المتأخرة في كولبنارتى أقل من ١٠ بالمائة كانت من صنع خارجي، ويحتمل أن يعود تاريخ معظمها إلى ماض وجيز للغاية (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر). في وسط شقوق الفّخار غير المودع بالقائمةُ كانت نسبة المواد المستجلبة لا نهائية النسبة: قليلاً فوق ٦٠٠ من الشقوق لما يزيد عن ٢٠٠,٠٠٠ (٤٥). يبدو، إذّن، أن كلاً من التصنيع والتبادل السلعى جئ بهما بالفعل إلى وقفةٍ عن طريق القلاقل السياسية والزحزحة الإقتصادية في العصر الإقطاعى. ما كان بوسع النوبيين أن يحصلوا على سلع مصنوعة من الخارج، أو أن يقدموا المنتجات الراقية من الصناع المحليين. تساقط التخصص الإقتصادى إلى لا شئ ونكصت النوبة على عقبيها لشئ قريبٍ جداً من الإقتصاد المعيشى لأيام موغلةٍ في القدم .

العصر الإقطاعى في مصر

مع أن علم الآثار يقدم، فيما اعتقد، صورة دقيقةً عن الأحوال الإجتماعية والثقافية المتغيرة في نوبة القرون الوسطى المتأخرة، علينا بالطبع أن نتجه صوب بّينة التاريخ للحصول على مدوّن لأحداث محددة تؤدى صاعداً إلى ضمور وُزواء ممالك القرون الوسطى. السّجل التاريخى مطبق الصمت في القرن بأكمله ما بين ١١٧٢ و١٢٦٨، كما أبصرنا. تقترح الآثار أن هذا كان زمناً لسلام ورخاء متواصل، وربما لذلك السبب أخفقت النوبة في جذب لحاظ المراقبين الأجانب. ثم، بين ١٢٦٨ و١٣٢٣ ، نملك مدّوناً مفّصلاً غير عادى لقعقعة جحافل عسكرية وصفصفتها في مملكة دنقلا. مصادرنا كلها مصرية؛ ويعود غنى معلوماتهم عن الأحداث في القطر الجنوبى إلى حقيقة أن هذا الزمن بلغ نصف قرن لما كاد أن يصير تدخلاً مملوكياً في شؤون الشمال. إلماماً بخلفية هذا التطور علينا أن نقدر بإيجاز المنظر السياسى المعاصر في مصر .

الأسرة الأيوبية في مصر التى أسسها صلاح الدين (سلادين) في ١٧١١، عارضها النوبيون في البداية، كما رأينا في الفصل الرابع عشر. إن تدخلهم في مصر العليا، لمؤازرة الخليفة الفاطمى المنافس تظاهراً، إستفّز حملة شمس الدولة التأديبية التى بلغت ذروتها بأسر وغنم قصر إبريم (٤٦). وعندما أحكم الأيوبيون قبضتهم على مصر، مع هذا، بدأ النوبيون في صلّح عجولٍ معهم، إذ أنه ليس هناك تدوين إضافى للعداوات من أى طرفٍ منهما خلال ما تبقى من حكم الأيوبيين قصير العمر. كان الحكام الذين خّلفوا صلاح الدين في كل حالةٍ ضعفاء للغاية مستغرقين في شؤون ديارهم دون أن يلجوا في مغامرات عسكرية في الجنوب .

أُغتيل آخر سلاطين الأيوبيين في ١٢٥٠م على يد أفراد من حراس قصره، المماليك المرعبين. فرقةً من قوات النخبة التي خدمت حرساً خاصاً لشخص الحاكم، وكانوا في الحقيقة عبيده قانوناً. جُنِّدت صفوفهم بشراء أطفال الرقيق، وجُلهم من السكان الأتراك المسيحيين من جنوب - شرق آسيا، الذين كانوا وقتها قد استجلبوا جنوداً مكرسين كمسلمين متعصبين - أحاطت "جيوش أرقاء" من هذا الطراز بالحكم وقامت نظرياً بحماية لمتوالية عظيمة من حكام المسلمين في العصور الوسطى؛ وبنظامهم العسكري الموثوق وإفتقادهم للروابط الخارجية سرعان ما بلغوا أقوى تكوين لأشد قوات حربية يعول عليها زمانهم بأساً ومراساً. لا غرو أنهم أضحوا دائماً السلطات الفعلية في ممالكهم، قادرين على تنصيب السلاطين وعزلهم كما يشتهون، أو قبض زمام السلطة بنفس القدر لأنفسهم، كما فعل مماليك مصر في ١٢٥٠.

كان على "الملوك الأرقاء" أن يحكموا مصر لما يقرب من ستمائة عام أولاً كحكام مستقلين، ثم بعد ١٥١٧، ولاةً لإقطاع مأمور من الإمبراطور العثماني. وبالرغم من أن عديدين منهم نالوا لقب سلطان، لم يحقق المماليك أبداً نظاماً ملكياً ثابتاً. لقد ظلوا، كما بدأوا، نوعاً من حكم بلا زعيم لطغمة عسكرية باغية يذهب الحكم فيها للأقوى برضاءٍ عفوي أو إحتكاماً للسلاح. إستمر تجنيد صفوفهم أساساً عبر شراء العبيد أغلب مما تجريه الوراثة، ذلك أن مجتمعهم كان منغلقاً على الرجال، محَّرماً عليهم من الناحية النظرية التزوج خارجه. في كلمات مؤرخ أوروبى :

اللقب الوحيد للملكية وسط هؤلاء النبلاء هو البأس الشخصي وإمرة أكبر عددٍ من التابعين. في غياب تأثيرات أخرى كان مبدأ الوراثة من غير شك مُتَّبعاً، بل إننا نجد عائلة واحدة ... تصون تعاقبها على العرش أجيالاً عديدة؛ على أنه كقاعدة كان وارث السلطة الملكية أقوى سيدٍ في زمانه شكيمةً، تعتمد قبضته على العرش غالباً على قوى أتباعه وتصالحه مع النبلاء الآخرين. إن وقائع سيطرة المماليك ملأى بمواقف لسيد عظيم ينتقص سلطة السلطان الحاكم إلى ظل، ثم ينقض من فوق جسده المقتول على العرش. معظم هؤلاء السلاطين لاقوا حتفاً عنيفاً على أيدى أمراء يعشقون الحكم. إرتكزت سلامة الحاكم في ذلك الوقت أساساً على عدد حراسه وشجاعتهم (٤٧).

بينما كان أقوى نبلاء المماليك يتولون حكماً هشاً في القاهرة، كان نبلاء أقل شأناً يقيمون بجانب الحكومة أو في تحدٍ لها بمراكز إقليمية في أنحاء المملكة، محتفظين فعلياً بحكم مستقل عوناً بما يملكون من جيوش العبيد (٤٨). فترة سيطرة المماليك، على الأخص قبل ١٥١٧، تمثل بلا ريب قمة العصر الإقطاعي لمصر نفسها. كان هذا نموذج الحكم الذى أمسك به القطر الشمالى قبالة النوبيين في العصور الوسطى المتأخرة، لا يبدو مثاله مفقوداً بينهم.

يمثل نبلاء المماليك روح الإقطاع العسكرى. مُدرَّبين جنوداً محترفين، لا يعلمون فناً سوى فن الحرب، إذ كان لهم إدراك قليل بفن إدارة الدولة وتقدير هين للتجارة. كانت انجازاتهم الدائمة الوحيدة، مشكورةً ومنكورةً على حد سواء، في ميدان المعركة. طردوا في الشمال آخر الصليبيين من شرق البحر الأبيض المتوسط، وكذلك اداروا للخلف نهائياً قبائل المغول البدوية، كلاهما أثناء الخمسين عاماً الأولى من حكمهم. خلال نفس الفترة، مع هذا، خاضوا الحروب الدائمة على بعضهم بعضاً وانطلقوا بها لتحقيق أى هدفٍ آخر يريح عدوانهم، بين حدودهم وما وراءها على صعيد واحد. بل إن السلطان في القاهرة عندما أجبرته إعتبارات التحسب والحذر ليتخذ سياسة وفاقية تجاه جيرانه، قلما كان قادراً على ضبط المخاطرة العسكرية لمن كان اقل شأناً ونظاماً وأشد مشاكسةً من النبلاء.

وسط الضحايا الأوائل لجبروت المماليك كان المسيحيون المصريون الذين اضطُهدوا بقسوةٍ بالغة وأبصروا كثيراً من كنائسهم تُحرق وتنهب. غير أن قبائل البدو العربية ، التى كانت نفسها ذات مرة زاداً لصفوة مصر العسكرية، لم تجر أحوالها حُسناً إلا بصعوبة تحت حكم المماليك. إستبعدوا من أى قسمةٍ في الحكم وغنائم الحرب، وحُملوا إضافةً لذلك ضرائب مثخنة ليدعموا حملات المماليك

في سوريا. فلما ثارت القبائل التى استقرت في مصر العليا ورفضت أن تدفع ضرائبهم، شُنّ الهجوم عليهم وضيق عليهم الخناق حتى أُجبر كثيرون منهم على الهجرة جنوباً، على تلال البحر الأحمر غالباً، إلى داخل ما يعرف الآن بالسودان. مقيمين فيما بين تخوم مملكة دنقلا وعلى حدها، استمروا في تهديد الأمن لكلٍ من النوبة ومصر العليا (٤٩).

قبيلة "عربية" مثيرة للمتاعب على وجه الخصوص خلال فترة المماليك كانت بنى كنز. إن أصولهم يمكن تتبعها إلى هجرة قسم من قبيلة ربيعة من شبه الجزيرة العربية إلى مصر العليا باكورة العصور الوسطى. بحلولهم في تلال البحر الأحمر، تزاوجوا وتكاثروا مع البجا المحليين من قبيلة الحدارية، الذين توّحدوا معهم تماماً بمضى الوقت. مدوا سيطرتهم مع نمو أعدادهم ونفوذهم، على الأقل بشكلٍ متقطع، على أسوان وأجزاء متقابلة من وادى النيل. إن قائد هذه القبيلة العربية ـ البجاوية المركّبة كانَ قد سلّم به على العموم كحاكم لأسوان بحكم الواقع في أزمان الفاطميين. إستُمد قسطٌ وافرٌ من سلطة بنى كنز من استعدادهم للتُحكم في طريق القوافل بين مصر العليا وميناء البحر الأحمر عيذاب، الذى كان إبّان العصور الوسطى نقطة عبور النقل البحرى الرئيسة للشحنات من المحيط الهندى، وكان أيضاً الميناء الأكبر لسفر الحّجيج إلى مكة (٥٠).

في ١٠٠٦ م أعان الشيخ حاكم بنى كنز الخليفة الفاطمى في القبض على غريم سياسى، وعلى هذه الخدمة كافأه بلقب "كنز الدولة". أصبح اللقب وراثياً، يتقلده كل قائد لاحق للقبيلة. لقد كان عبر ذلك الحدث أن القبيلة ككل عُرفت ببنى كنز (وبدقة أشد بنوٌ لكنز)، أو أحفاد كنز الدولة (٥١).

أثناء الفترة الفاطمية في فترتها المتأخرة ترّسخ بنو كنز بمضاءٍ في مصر العليا ليتّحدوا سلطة الحكومة المركزية وشُنّ هجوم بحقهم في ١١٠٢ نتج عنه أسر وإعدام كنز الدولة آنذاك. إن العداوات إنفجرت ثانية في ١١٧٤ عندما وَلى الأيوبيون كمنتصرين جُدد واحداً من أفرادهم حاكماً على أسوان متجاهلين الإدعاء التقليدى لكنز الدولة. عجّل بنو كنز بقتل الحاكم الجديد؛ فأرسل صلاح الدين رداً إنتقامياً حملةً كبرى ساقت العُصاة خارج أسوان وقتلت قائدهم. لربما عادت غلبة عظيمة من اللاجئين إلى مرتعها التقليدى في تلال البحر الأحمر، لكن جمعاً حاشداً منهم ممن فضلوا الحياة الجلوسية المستقرة في وادى النيل إنسحبوا إلى جزء النوبة المجاورة، مباشرة إلى جنوب أسوان. كانت هذه المقاطعة، كما شاهدنا في الفصل الرابع عشر، مفتوحة قانوناً للإستيطان من ناحية المسلمين منذ القرن التاسع (٥٢). تزاوج بنو كنز سريعاً مع السكان النوبيين المحليين وبمضى الوقت أصبحوا من النوبة جزئياً في اللغة والثقافة، مع أنهم إحتفظوا بإيمانهم الإسلامى. نتاج هذا المدمج العرقى هو النوبيون الكنزيون (الجمع كُنُوز) الذين في الأزمان الحديثة شغلوا أقصى الجزء الشمالى للنوبة، بين أسوان والمحّرقة. (٥٣).

بعد غلبهم في ١١٧٤ وانسحابهم إلى داخل النوبة لم يلعب بنو كنز دوراً إضافياً في الشؤون المصرية لما يقارب القرنين. إن طموحاتهم في الشمال كانت خامدة مؤقتاً، إذ أنهم هبّوا ثانية بقوة في القرن الرابع عشر، كما سنلاحظ لاحقاً. في هذه الأثناء، مع ذلك، أصبحوا في وضوح قوةً يحسب حسابها في مرتعهم الجديد. لا نملك سجلاً للأحداث التي وقعت في النوبة خلال معظم القرن الثالث عشر، إلا أنه بنهايته أضحى إقليم بن كنز في الشمال ما يبدو أنه كان عمودية مسلمة شبه مستقلة (٥٤)، وقائدها، كنز الدولة، شخصٌ ذو أهمية في المملكة النوبية ككل. لربما كان بقدر متساو قد تقلّد في بعض الأحيان منصب الإبارش (صاحب الجبل)(٥٥) التقليدى، مع أن هذا غير مثُبتٌ بصفاء قبل القرن الرابع عشر (٥٦). لقد كان في كل الأحداث القائد المُسلّم به للعنصر المُسْلِم المتنامى بين مملكة المقُرة. لا يزال الأدعى أهمية، أنه هو وأسرته أصبحوا حلفاء بالزواج مع البيت الحاكم في دُنقلا نفسها ـ علامة مؤكدة على أن الولاء الدينى لم يعد ذا أهمية فائقة في المحيط السياسى (٥٧). إن تحالفاً بين ملوك مسيحيين يزدادون ضعفا وإقطاعيين مسلمين تابعين لهم يزدادون قوة في الشمال كان تنازلاً بّيناً للفعالية السياسية .

هكذا كان الموقف السياسى الفوضوى في النيل إبان زوال القرن الثالث عشر. كان المسرح مُعّداً لصراع القوى وسط ثلاثة غرماء رئيسين: البيت الحاكم في دُنقلا، وسلاطين المماليك، وبني كنز، ومع أن صراعهم كان سينشب ويدمر أخيراً المجتمع السياسى المسيحى للنوبة، ما كان أياً منهم مدفوعاً بإعتبارات دينية في المقام الأول. كان ملوك دُنقلا متلهفين بأى وسيلة للإحتفاظ بقبضتهم الضعيفة على السلطة، أقرب إلتصاقاً بعرشهم في النهاية مما التصقوا بإيمانهم؛ والمماليك كانوا معادين للمسيحيين وللعرب على حد سواء، يتأرجحون بلا قرار بين سياسةٍ لنزع النوبة من المسيحيين وأخرى لحماية مصر العليا من بنى كنز، وعلى مشارف إغتنام أى سانحةٍ لتوسيع مصالحهم كان بنو كنز، على أهبة الإستعداد ليتحالفوا مع أى من الطرفين لذلك الغرض [٥٨]. لما أصبحت روح الإقطاع منتصرة، أضحت مسألة الإنتماء الدينى كأنّها عَرّضية .

ضمور المقرة وسقوطها

يمكننا أن نتجه الآن لإعتبار الأحداث المحددة التى أخذت بمملكة المقرة المسيحية إلى حتفها. تجئ أنباؤنا من أربعة مصادر رئيسة: النويرى (المتوفى ١٣٣٢)، الذى يحتوى كتابه في عموم المعرفة سرداً لحملات المماليك العسكرية في الجنوب [٥٩]؛ مُفّضل (تقريباً ١٣٤٠)، الذى كتب سيرة ذاتية عن سلطان المماليك قلاوون، واحداً من الممثلين الرئيسين في الأحداث المتحركة [٦٠]؛ ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦)، الذى نُقل مسبقاً عن سره للموات النهائى للممالك المسيحية [٦١]؛ والمقريزى (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢)، الذى كتب عدداً من الأعمال الهامة عن التاريخ والجغرافيا المصرية [٦٢]. إن المؤلفين الإثنين الأخيرين كانا بين أشهر العلماء في عصرهم، ولكن التاريخ الذى تركوه لنا يبدو أنه ينتمى غالباً إلى اللونية الرومانسية التاريخية للقرون الوسطى: جولة لا حد لها من المعارك، والمذابح، ودسائس البلاط المفجعة. إن غزارة الأشخاص والأحداث ـ بصرف النظر عن إلتباساتٍ متكررة عميقةً ـ تكاد تجعل من غير الممكن تصفية صورة متناسقة بوجه كُلى للشخصيات والحوادث من صفحاتها. مجردةً إلا من ضرورياتها، وفى تجاهلٍ لتناقضاتٍ عديدة، يبدو أن قصة ضمور المقّرة وسقوطها تجرى على النحو التالى [٦٣]:

فى ١٢٦٨، أرسل ملك نوبى معين يدعى داؤود، الذى تبوأ الملك منذ وقت قريب بخلع خاله لأمه، بعثة إلى مصر ساعياً للإعتراف به من السلطان المملوكى، بيبرس. رد السلطان بجفاء نوعا ما مطالباً بإستئناف حالي لدفعية *البقط*، التى كانت فيما هو ظاهر قد سرى إهمالها زمناً طويلا. لم يبدِ الملك النوبى إستجابةً مباشرة لذلك الطلب؛ وبعد أربعة سنين (فى ١٢٧٢) عَبّر عن ضجره بمهاجمة ميناء البحر الأحمر عيذاب ونهبها، وكانت واحدةً من مرتكزات رخاء مصر التجارى. فأرسل الحاكم المملوكى لمصر العليا قوةً تأديبية للنوبة السُفلى أسرت عدداً كبيراً من السجناء بما في ذلك صاحب الجبل، الذى أُعدم فيما بعد في القاهرة .

وفى ١٢٧٥ ظهر في القاهرة أمير نوبى اسمه شكنده، ساعية آخر لعرش دنقلا، ليسأل عن عون المماليك لخلع خاله داؤود. فرحب السلطان فيما هو ظاهر بهذه الدعوة للتدخل في شؤون النوبة السياسية، وأمد شكنده بقوةٍ ذات حجم. بخلت الحملة النوبة السُفلى في يناير ١٢٧٦، وبعد معارضةٍ ما تم إحتلال قلعة داو (جبل عدّا؟) وجزيرة مينارتى. في هذه النقطة رمى صاحب الجبل الجديد غِنمه مع الغزاة، مقسماً يميناً من الإخلاص المتواصل لسيده الإقطاعى الأمير الخارج شكنده وضم قواته الخاصة للقوات التى وفرها المصريون. يفترض كذلك أن بنى كنز انضموا إلى القوة المبتعثة في هذا الوقت، إن لم يكونوا فعلوا ذلك حقيقةً منذ البداية .

تابعت الحملة سيرها للنوبة العليا، حيث وقع اشتباك حاسم قبالة دُنقلا في أبريل ١٢٧٦. سُحقت القوة المدافعة ولاذ الملك داؤود هرباً للأبواب في الجنوب (إفتراضاً آنذاك، كما كانت من

قبل، أنها المقاطعة الشمالية على تُخوم مملكة علوة)، تاركاً معظم عائلته وراءه سجناء في أيدي المماليك. ونُصِّبَ شكنده من ثم ملكاً للمقرة، لكن الثمن الذى فرضه المماليك مقابل دعمهم كان سحيقاً. أقسم الملك الجديد يميناً بالولاء والطاعة لسلطان المماليك مما جعل النوبة بالتالى دولة تابعة لإمرة مصر. مُنح الشعب النوبي الخيارات الثلاث التى كانت تُشْهَر تقليدياً أمام سكان الأقاليم المفتوحة: أن يعتنقوا الإسلام، أو يُثْخنوا بالسيف أو يدفعوا ضريبة عين سنوية (*الجزية*) صاغرين لأربابهم. بإختيارهم البديل الثالث، دفع النوبيون مذاك للقاهرة ضريبة سنوية ديناراً عن كل مواطن بالغ. ووافق الملك نفسه أن يرسل سنوياً ثلاث زرافات وخمسة نمور إناثاً ومائة من الإبل الهجين، وأربعمائة ثور. إضافة إلى هذه الجزية إفترض أن البنود المنتظمة *للبقط* سوف تبقى كذلك نافذة. أهم من كل ذلك، أن محافظة ماريس (سابقا نوباديا؛ أى النوبة السُفلى وبطن *الحجر*) سلِّمت لإدارة المماليك المباشرة، يعود ريعها للقاهرة ويبقى صاحب الجبل بالتالى مأموراً إقطاعيا للسلطان بدلاً عن الملك النوبى [٦٤]. مع هذا، لا يبدو أياً من هذه الشروط موالى النفاذ لأى قدر من الزمن .

بعد تنصيب شكنده على العرض إنسحبت المماليك إلى القاهرة، آخذة معها عدداً من الأمراء النوبيين رهائن، وبعضهم كان ممن تحق له المطالبة بالعرش. أما الملك الهارب داؤود نفسه فوصل في يونيو ١٢٧٦، بعد أن أُسر وأرسل سجيناً مقيدا بالأصفاد من ملك الأبواب (علوة؟) الذى كان يرتجى اللجوء في أملاكه .

ما تمتع شكنده فيما واضح بفضل المماليك زمنا طويلاً، ذلك أنه، وقتاً ما بعد صعوده العرش، إغتاله قاتل لحساب السلطان المصرى، وأخذ العرش ملك إسمه براك. برهن بدوره على عدم رضاء أربابه الأسميين عليه، فخُلع وقُتل من حملة جُردت عليه. إنتقل العرش بعد ذلك إلى أمير بعينه يدعى شمامون، الذى ربما كان واحداً من الرهائن المأخوذة إلى القاهرة في ١٢٧٦.

بدا شمامون رجل أزمانه ـ ماكراً لا مبدأ له، وفي النهاية قادراً على ضرب المماليك بنفس لعبتهم من الدسائس السياسية. لإثنى عشر عاماً أو تزيد نازلهم لعبة الخفاء والظهور، متحدياً سلطتهم عن بعد ومتراجعاً بحكمه خارج المرمى كلما أرسلت قوة لتأديبه. خلعته جيوش المماليك مرتين (معانة من كنز) وهرب إلى الأبواب، في حين نُصب ابنُ أُختِه مكانه. عاد في كل مرة إلى دُنقلا حالما غاب الغزاة عن الأبصار آمنا، ونجح في استعادة عرشه. بعد عودته الثانية في ١٢٩٠ قام شمامون بمبادرة سلام وخضوع للسلطان مرسلاً هدية كبيرة من العبيد وواعداً بإستئناف *البقط*. قنع الحاكم المملوكى، الذى كان آنذاك مستغرقاً في سوريا ولابد أنه كان متعباً من لعبة الخلفاء والظهور باهظة الكلفة غير المثمرة في النوبة، فتركها على ما بلغته، ولم يضايق شمامون ثانية. لا يعرف شيئ عن سنوات حكمه الأخيرة أو عن مصيره النهائى .

فى ١٣٠٤ بدأت بحذافيرها من جديد قصة ملتوية من الخيانة والمكائد. ظهر ملك معين يسمى أمّى، كان في هذه الأثناء قد خلف شمامون في بلاط السلطان، ساعياً للعون ضد متمرد. أعيد بدوره إلى السلطة بنجاح بمعاونة جيش مملوكى، واغتيل بدوره بعد بضع سنين تالية. كان أخوه ووريثه، كرنبس [٦٥]، آخر ملك مسيحى للمقّرة ممن نملك معرفة عنه لا لبس فيها .

لبلوغه العرش مباشرة، ذهب كرنبس بشخصه إلى القاهرة، آخذاً معه هدية كبرى إضافة إلى الجزية المنتظمة ومؤدياً يمين الولاء للسلطان. لدى عودته للنوبة، مع هذا، إستأنف اللعبة القديمة من تحدى السلطة والمروق عليها. جرد الحاكم المملوكى كالعادة جيشاً لخلعه وتنصيب أمير نوبى آخر، برشمبو، في مكانه. في هذه الحالة، مع ذلك، كان الوريث الوصى على عرش دنقلا مسلماً، بعد أن تحول للإسلام بينما كان يعيش رهينةً في القاهرة. وعندما علم كرنبس بخطة السلطان، قام بإقتراح معارض يصيب بالذهول. فقد أرسل ابن شقيقته، الذى كان أيضاً كنزاً للدولة، إلى القاهرة برسالة يقترح فيها أنه إذا كانت نية السلطان أن يُنصب مسلماً على العرش النوبى في مكان كرنبس، فإن

الوراثة يجب أن تذهب مذهباً سليماً إلى كنز الدولة، الذى كان مستحقاً لها طبقاً لنظام التوريث الأمومى النوبى (قارن بالفصل الخامس عشر).

حتى هذا المبلغ إتّخذ بنو كنز بوجه عام ناحية المماليك في النوبة، مشتركين في الحملات بحق كل من داوّود وشمامون. بغض النظر عن ذلك كان السلطان الناصر داهيةً بما يكفى لإدراك أنهم مثلوا على الأقل تهديداً لمصالح المماليك في النوبة بمقدار ما فعل الملوك المسيحيون الخارجون عن الطاعة. إن الإقتراح القاضى بأن عرش النوبة يجب أن يذهب إلى كنز الدولة، القائد الوارث لبنى كنز، كان لذلك أمراً غير مرحب به لدى السلطان، فأجابه بإفضاء كنز الدولة إلى السجن. ثم خرجت القوة التى جُردت لدُنقلا كما خُطط أصلاً، ونُصب برشمبو ملكاً في حينه. هرب كرنبس صوب نبع النهر إلى الأبواب، كما فعل إثنان من أسلافه، وهناك في عودته أُسر وأُرسل إلى القاهرة سجيناً .

مع كرنبس بالحبس في أمان وبرشمبو مُنَصّباً على عرش دنقلا، أحس الحاكم المملوكى فيما هو جَلىّ بأن الأمور في النوبة باتت مسيطراً عليها بإحكام، فارتضى أن يطلق صراح السجين كنز الدولة بناء على وعد قطعه بأن يعود إلى أسوان ويهتم بشؤونه الخاصة (٦٦). ما خرج آمناً من القاهرة، مع ذلك، حتى اتجه قائد بنى كنز مباشرةً للنوبة. أُعلن في داو ملكاً من السكان المحليين (لعلهم كانوا غالباً من خاصة أتباعه بنى كنز)، ومن هناك سار إلى دُنقلا. أُغتيل برشمبو نتيجةً لدسائسه من بعض أهله، وأخذ كنز الدولة العرش .

من هذه النقطة وما تلاها أمسي النوبيون المطالبون بالعرش دُمى لا أكثر في النضال من أجل السيطرة على مملكتهم؛ وكان المتعاركون الحقيقيون هم المماليك وبنو كنز. لقد رأى السلطان مرة ثانية مطامحه في المملكة الجنوبية مهددة، مرة أخرى أحس أنه مضطر للتدخل. أرسل أبرام، شقيق كرنبس وكان مسيحياً فيما هو ظاهر، على راس جيش مملوكى ليخلع إبن خاله كنز الدولة. بوصوله دنقلا، كان، وفقاً لبعض السرود، معترفاً به في الحال على أنه الحاكم الشرعى من قبل إبن خاله، الذى تنحى طائعاً (٦٧). إن أبرام كيفما كانت الحال لم يثق بسلفه المخلوع وزج به في السجن، قاصداً أن يعيد إرساله إلى القاهرة، لكن الموت غير المتوقع للملك الجديد بعد ثلاثة أيام من ذلك أبطل هذا الحدث. وما وجد كنز الدولة فيما يرى العيان صعوبةً لتولى العرش من جديد .

أصبح الأمير كرنبس الآن آخر سهم في يد السلطان. أطلق سراح الملك السابق، وفى ١٣٢٣، أُعيد إلى النوبة في مسعى واحد أخير لإستعادة العرش نهائياً من كنز الدولة إبن الأخت نفسه الذى كان قد أوصى هو بنفسه أن يخلفه في الملك من قبل ثمانية أعوام سلفت. هذه المرة لم ينتظر كنز الدولة ليرحب بخاله، لكنه هرب مرة أخرى إلى الأبواب، ونُصب كرنبس مجدداً دونما معارضة. إن إبن أخته، مع ذلك، إستعار ورقة من كتاب شمامون؛ ما غادر الغزاة دُنقلا حتى ظهر بها من جديد، وطرد كرنبس، مستعيداً في الحال عرشه. قفل الملك المخلوع عائداً إلى أسوان، حيث قبع منتظراً بلا جدوى تعزيزات المماليك. لننقل كلمات يوسف حسن: "ما جاء العون المنتظر أبداً؛ والحقيقة أنه في مناسبات نادرة وحسبُ تدخل المماليك بالمرة في الشؤون النوبية ثانية. إن أسباب هذا التعبير المفاجئ غير واضحة. ومع أن المماليك الآن تركوا النوبة لتواجه مصيرها الخاص في ظل بنى كنز، فقد كانوا هم الذين لعبوا دوراً رئيساً في إضعافها بما لا رجعة فيه" (٦٨).

بلوغ كنز الدولة العرش إعتُبر على وجه إتفاقي معلماً لنهاية الحكم المسيحى في النوبة الشمالية، لذلك تعرف سنة ١٣٢٣ أحياناً كبداية للحكم الإسلامى (٦٩). هذا التأويل لم يعد مسوغاً سواء بمعنى ضيق أو عريض. فمن ناحية واحدة يتضح، كما سنرى للحظة، أن أجزاء من النوبة السُفلى بقيت تحت حكم أمراء مسيحيين غير مهمين لمدة ١٥٠ عاماً أخرى. وفي الناحية الأخرى، توقفت المقّرة بمعنى أوسع من أن تكون مملكة مسيحية في العصر الإقطاعى آنفاً. إن الحقيقة التى مؤداها أن المسلم يمكنه أن يصعد إلى عرشها بموافقة معظم رعاياها، دونما عودة للقلاقل الداخلية

الخطيرة، هى أفضل برهان على صحتها. كانت المقُرة في القرن الرابع عشر ملكية دنيوية معظم أتباعها من المسيحيين، وواقع كذلك أن حكامها كانوا يتخذون الإيمان المسيحى حتى ١٣٢٣. غير أن الحلف اللصيق، القديم بين الكنيسة والدولة كان ميتاً؛ شكنده، شمامون، وكرنبس ليسوا مرسومين على أى حيطان لكنائس أو معروفين في نصوص تكريسيه حُداةً وحُماةً للدين. [٧٠]

إن تاريخ المقُرة تحت حكم المسلمين قصير وغامض معاً. كنز الدولة أو أحد أحفاده كان بشكل جَلىّ لا يزال على العرش في ١٣٤٩، حيث أن العُمرى، الذى كتب في ذلك العام، وصف النوبة بأنها بلد مسيحى يحكمه ملوك مسلمين من عائلة بنى كنز [٧١]. بيّن كذلك أن المملكة كانت تابعة لسلطان مصر، ولربما كان ذلك الوصف صادقاً نظرياً أبرز منه وضعاً حقيقياً [٧٢]. بحلول عام ١٣٦٥، مع ذلك، تبدو الصورة وقد تغيرت ثانية. في ذلك العام جاءت إلى مصر سفارة من ملك نوبى غير مسمى تسعى لعون ضد قبائل عربية معينة كانت تغزو المملكة نهباً وتخريباً، تشمل، فيما يبدو، بنى جعد، وبنى عكرمة، وبنى كنز. إن ظروف هذه البعثة ونتائجها على حد سواء، كما أشار إليها المقريزى [٧٣]، تستحق إعتباراً للحظة، حيث أنها تلقى الضوء الوحيد الذى نملكه على متوالية لأحداث في فترة زمنية حرجة في التاريخ النوبى .

زمنا ما قبل ١٣٦٥ كان هنالك فيما يبدو ثورة أخرى من ثورات القصر النوبى التي لا تنتهى في دنقلا، وفيها ـ نحو ما يقع دائماً في التاريخ النوبى ـ خُلع ملك حاكم وقُتل على يد إبن أخته. إن مسعى إبن الأخت دعَمه بنو جعد، قبيلة عربية إستقرت في أعداد كبيرة بمنطقة دُنقلا. عندما نُصّب على العرش، بأى كيفية كانت، إنقلب الملك الجديد على حلفائه الأخيرين وذبح معظم قادتهم. بعد هذه الفعلة الخيانية وجد موقعه في دُنقلا غير قابل للدفاع، فانسحب هو وأفراد بلاطه صوب الشمال إلى داو (جبل عدّا؟)، تاركين عاصمته والمقاطعة الجنوبية تحت رحمة بنى جعد. إن العرب يبدو أنهم تدبروا نوع الإنتقام الذى وسعهم فعله بنهب المدينة وتدميرها عقب رحيل الملك. وفى الشمال، ألفى الملك نفسه مهدداً من بنى كنز وحلفائهم بنى عكرمة حتى أن وضعه أصبح بصعوبة أفضل أماناً عما كان عليه في دنقلا. لقد حدث في هذه اللحظة، انه قرر أن يلتجئ إلى السلطان للعون .

أما المماليك، فالبادى أنهم نسوا دروس جيل من قبلهم، إذ قبلوا هذه الدعوة الإضافية ليتدخلوا في الشؤون النوبية. وكان للحملة التى جردوها في حينه طبقاً لحسن ثلاثة أهداف كبرى: إعادة الملك النوبى إلى عرشه في دُنقلا، ومعاقبة بنى كنز وبنى عكرمة، وإقامة سطوة المماليك من جديد في النوبة [٧٤]. إن الهدف الثانى وحده بين هذه الأهداف هو الذى تحقق . فقد شتّت فرسان المماليك بنجاح بنى كنز وبنى عكرمة وأسروا قادتهم، بذا أزاحوا التهديد الحالى عن داو، بيد أنهم لم يتخذوا تقدماً أبعد من ذلك نحو الجنوب. قرر الملك النوبى أن يبقى حيثما هو بدلاً عن محاولة إسترجاع عاصمته المخّربة والمقاطعة المعادية التى تحيط بها، وكان قراره مؤيداً من القائد المملوكى، الذى رجع مذاك إلى مصر .

الأجزاء الجنوبية من المملكة، عاصمتها ولُبّ أرضها التقليدية، تُخلى عنها هكذا للعرب المشاكسين، وتوقفت المقُرة كمجتمع سياسى عن الوجود. منذ ذلك الوقت وما أعقبه ما كان لها أن تعرف حكومة عدا الأسياد الناهبين، حتى أن رحالة أوروبياً لما يزيد عن قرن بقليل بعد ذلك كان بإمكانه أن يكتب: "... على الطريق الذى يؤدى إلى محافظة النوبة وراء النيل أناس سيئون، نهابون، قتلة، ومعظم هؤلاء في محافظة النوبة" [٧٥].

إن سرد المقريزى لهذه الأحداث بعيد عن الوضوح. توحى جوانب من القصة، برغم ذلك، أن حكام المقُرة الأخيرين ـ الذين لم يُذكروا بالإسم في أى مكان ـ ربما صبأوا للإيمان الذى ما فتئ متخذاً من الأغلبية العظمى لرعاياهم. اما إنهم لم يعودوا أعضاء لبنى كنز فأمر بيّن. تجدد العراك الأسرى بين خال وابن أخته (وهو حدث منتظم في الأزمان المسيحية المتأخرة بسبب قاعدة الوراثة

الأمومية) يشير أيضاً بأن التوريث الأمومي ربما تم إحياؤه، وهو ما يصعب وقوعه في ظل نظام إسلامي. أخيراً، ربما يكون تراجع الحكام إلى داو، وقرارهم بالبقاء فيها، مرتبطاً بحقيقة أن هذا كان هو كرسي دولة دوتاو المسيحية الوريثة، التي سيقال المزيد عنها في الوقت الحاضر .

العلاقات بين الملوك النوبيين وسلاطين المماليك، التي برهنت على أنها غير مريحة لكل منهما، لم تصل تماماً نهايتها. في ١٣٩٧ أعيدت القصة القديمة مرة واحدة أخرى: جاء ناصر وهو ملك نوبي معين (عاصمته غير مذكورة) إلى القاهرة يبحث عن مساعدة في مواجهة ابن عم خارج عليه [٧٦]. قابله السلطان بالتكريم والتشريف وأمر حاكم أسوان بإعانته، لكن يحتمل أن هذا الأمر أدركه الجانبان كمجاملة جوفاء. في هذا الزمن أحال بنو كنز أسوان والمقاطعة الدائرة حولها إلى حالة من الفوضى، وأُجبر الحاكم نفسه على الالتجاء للنوبة في العام الذي سبق ذلك لا غير. بهذا الجزء من الأحداث التي يغلب عليها زبد القول يأتي التاريخ المدون للنوبة في القرون الوسطى إلى نهاية حتى مقدم الحكم العثماني لاحقاً بما يزيد على قرن من الزمان .

خلفاء المقرة

بسقوط المقّرة بلغ العصر الإقطاعي في النوبة محله على أكمل وجه. إن القوة التي كان يباشرها ملك مفرد من قبل مقسمة الآن بين ثلاث جماعات على الأقل: العرب النوبيين بني كنز في الشمال، ودولة دوتاو الوريثة بالقرب من الشلال الثاني، ورجال القبائل العربية الذين تولوا السيطرة على إقليم دنقلا.

كما شاهدنا لفَينةٍ مضت، إن قائد بني كنز إعتلى عرش المقّرة في ١٣٢٣، لكنه فقده فيما يظهر مرة ثانية في الوقت الذي انهارت فيه المملكة أربعين عاماً لاحقة. منذ ذلك الزمن وما جَدّ بعده لا نسمع عن كنز الدولة بالإسم مجدداً، لكن الصافي أن سلطة بني كنز لم تكن بأي حال من الأحوال منتهية. من بعد تسليمهم (فيما يبدو) سهماً ما في حكومة مسؤولة، نكصوا على أعقابهم لدور النهب والسلب في الأزمان الغابرة. طوال تاريخهم كانوا طبعاً وإختياراً "فرقة مقاتلةً أقل تحضراً" [٧٧] مقصودهم في العادة أن ينتهبوا أكثر من أن يحكموا .

سواء لعب بنو كنز أي دور إضافي في الشوؤن السياسية النوبية بعد هزيمتهم في داو عام ١٣٦٥ أم لم يفعلوا فأمرٌ غير مستيقن، على أنه من الواضح بعد ذلك الزمان وُجه إعتداؤهم بصورة غالبة في مواجهة مصر العليا وحكامها المماليك. أربع مرات بين ١٣٦٥ و١٤٠٣ هاجموا أسوان ونهبوها بمفردهم، وحيناً آخر في تنسيق مع قبائل أخرى، مرتكبين فظائع يكيل عليها المماليك الصاع أضعافاً مضاعفة. بنهاية القرن الرابع عشر نجحوا في إنزال منطقة أسوان إلى حالة من الفوضى: كانت سيطرة المماليك الفاعلة تجتاز نهايتها، مُزق التبادل السلعي على الطريق الصحراوي إلى عيذاب تماماً، وغاص ميناء البحر العظيم شيئاً فشيئاً في الخراب. إبتداءاً من ذلك إلى ما تلاه حتى مجئ الأتراك في ١٥١٧ كانت مصر العليا والجزء الملاصق لها من النوبة السُفلى بكل النوايا والمقاصد مقاطعةً إقطاعية لبني كنز وحلفائهم [٧٨]. من الصعب أن يجري وصف مجتمعهم السياسي كدولة أو حتى كعمودية، بالنظر إلى شخصيته الإنتهابية بالضرورة، لكنها في كل الحالات كانت واحدة من ورثة المقّرة.

جنوب بني كنز، وعلى خفية من نظر العالم الخارجي بسببهم، كانت مملكة دوتاو المسيحية في الظل، وربما صاحبتها ممالك منشطرة أخرى تثابر على البقاء زمناً ما [٧٩]. إن تفاصيل تاريخهم ربما لا تعرف أبداً؛ فإن علمنا الوحيد بوجودهم يأتي من مراجع عابرة، بضعة نصوص نوبية متأخرة، مؤيدةً إلى حد ما بدليل أثري. أما المراجع المعروفة عن دوتاو وحكامها، وكلها باللغة النوبية القديمة، فهي الآتية:

١ ـ نص دينى غير مؤرخ، مكتوب على ورقة بارشمان مصقولة، تحوى وسط المراسم عبارة «التيت... كونه ملك دوتاو». إن مكانها الأصلى غير معلوم. [٨٠]

٢ ـ وثيقتان وجدتا في الموقع المصرى إدفو في مصر العليا، مؤرختان في العام ١٣٣١، تذكران سايتى بعينه، ملكاً لدوتاو .

٣ ـ رسوم تصويرية في أربعين خطاً على حائط معبد مشتق من الصخر في حُورمُحب جوار جبل عدّا (الذى في الأزمان المسيحية كان مزخرفاً ومهيئاً ليكون كنيسة)، تبدأ: "بإسم الأب والإبن والروح: أنا، ياؤول، ملك ملوك دوتاو، الذى له كتب هذا النقش في غار أبيماكو (القديس الراعى للكنيسة في جلاء)". باقى النص غامض، لكنه يبدو قائمة من مسؤولين دينيين والتزاماتهم [٨٢].

٤ ـ رسوم تصويرية مجموعة في نفس الغرفة تذكر ملكاً يدعى كودلانيل، لم تُسَم مملكته، وفيما يبدو وجه بإستعادة واحد من الرسوم الملونة في كنيسة الغار، وملكاً إسمه تينوسىَ إيلانات، الذى ابتعث سفارة إلى كنيسة الغار. ولما كان ياؤول الذى ذكر آنفاً يدعو نفسه "ملك ملوك دوتاو"، ربما يستدل أن تينوسى كان مليكاً تابعاً. وربما كان كودلانيل ملكاً على دوتاو أو مليكاً تابعاً [٨٣].

٥ ـ رسالة وجدت في جبل عدّا عام ١٩٦٦ يصفها المنّقب بأنها "... وثيقة من جلد رفيع المستوى من القرن الخامس عشر المتأخر، مؤرخة في عهد حكم ياؤول ملك دوتاو، تذكر قائمة طويلة من مسؤولى البلاط والقساوسة بالطريقة المتبعة. ظهر وسطهم مركى أسقف قصر إبريم وقسيس آخر، أورتيقادى، الذى يُعاد ذكر إسمه منسوخاً في شق من وثيقة مماثلة وُجدت في واحدة من غرف التخزين في القصر" [٨٤]. نص هذا المعثور الأخاذ لم ينشَر بعد، لكن التاريخ المبين أنه ١٤٨٤ [٨٥] ـ ما يزيد على ١٥٠ عاماً بعد الإختفاء المفترض للحكم المسيحى في النوبة!

٦ ـ لمدى بعيد فإن أهم حرز للمعلومات حول دوتاو مما خرج إلى النور حتى الآن مودعٌ في مجموعة من لفائف الجلد أُميط عنها اللثام في قصر إبريم عامى ١٩٦٤ و١٩٦٦. في هذه الحالة أيضاً، جدير بالنقل عرض المكتشف:

يمكن تقرير أن الوثائق كلها مسيحية، حيث تبدأ كل واحدة بإستهلال بالثالوث المقدس. الكل يظهر أنه يحتوى أسماء ملوك مختلفين لمملكة دوتاو مصحوبةً بأسماء مسؤولين ومناصبهم الملحقة بهم. ومما ينطوى على إثارةٍ خاصة للإهتمام أن بعض الوثائق مؤرخةٌ بصفاء. إن فحصاً إضافياً ربما يكشف عن تواريخ أخرى. في حين تقترح تحقيقات حاضرة أن هذه اللفائف الجلدية تغطى فترة قرنين.

... آخر اللفائف تحمل التاريخ ١٤٦٤. ذكر الملك ياؤول أنه حاكم دوتاو، جبل عدّا الحديث ... آخر لفيفة من إبريم إلى جانب ذكرها للملك ياؤول تحتوى أيضاً إسم مرقس [٨٦] أسقف أو باباس (متروبولى) إبريم. وفى لفيفة إبريم أسماء مدونة لخمسة أشخاص آخرين يتقلدون مناصب عالية.

التواريخ المؤكدة الأخرى التى يمكن قراءتها على لفائف أخرى هى ١٣٣٤ و١٢٨٧ و١٢٨١. أما اللفيفة المؤرخة لعام ١٣٣٤ فتدون أن ملك دوتاو كان سايتى الذى أثبتت إسمه مصادر عربية. لفيفة ثانية، غير مؤرخة، تُعَين كذلك عهد حكمه. في ١٢٨٧ كان ملك دوتاو جورج سيمون. تنتمى لفيفة أخرى كذلك لزمانه، لكن هذه الوثيقة وُجدت في حالةٍ تالفةٍ في الموضع الذى يتوقع أن يقع فيه التاريخ. واللفيفة المؤرخة الأخيرة، ١٢٨١، تذكر ملكاً لدوتاو يبدو أن اسمه بـ (ى) ارل. ولفيفتان أخريتان لا يمكن تحديد تاريخهما بعد، تنتميان لعهد ملك اسمه دايفيد. في كل من هاتين اللفافتين يظهر اسم إبريم في شكله القديم "فريم" المعمول به في القرون الوسطى باسم أسقفها، شال. في ثلاثة من اللفائف كان اللقب باباس، وربما يعادل متروبولى، بادياً. هكذا نعثر على شنوداً في عهد دايفيد، وكوسمس في عهد سيمون، ومرقس في عهد ياؤول [٨٧].

٧ ـ لما مضى يجب أن تُضاف الآن سلسلة من وثائق ورقاً وجلداً وجدت في قصر إبريم عام ١٩٧٤. على أساس فحصٍ أولي للغاية يبدو أنها تقارير قانونية و/أو إدارية، على وجه العموم شبيهة

بتلك التى عثر عليها في ١٩٦٤ و١٩٦٦. وسط الأسماء المذكورة إثنان أو ثلاثة من ملوك دوتاو: موسس جورج، وجورج (الذى يجوز أو لا يجوز أنه كان فرداً مختلفاً عن الأسماء المذكورة سابقاً)، وبازل، مصحوبين بإبارشة، وأساقفة، ومسؤولين رسميين. إن أكبر وجه غير متوقع في هذه الوثائق التى وجدت هو تواريخها، التى تتراوح من ١١٤٤ إلى ١١٩٩ (٨٨). إننا نعلم الآن لأول مرة أن دوتاو كانت في الوجود مسبقاً - إفتراضيا كتابعة للمقرة - في وقت كانت فيه مملكة دُنقلا لا تزال في علو قوتها (قارن الفصل الخامس عشر).

٨ - اسم ياؤول (الذى يظهر كآنشط ملوك دوتاو، وبقدر متساو آخر مَنْ نملك عنه معرفةً) وجد أيضاً قبل وقت وجيز في نحتٍ مكرس لكنيسة في تاميت (٨٩)، وربما كذلك في فرس (٩٠).

مع أن اسم دوتاو غير وارد من ناحية أى مؤرخ معاصر، هنالك بضعة مراجع غير مباشرة مُسَلم بغموضها بالنسبة للوجود المستمر لممالك مسيحية في النوبة الشمالية بعد ١٣٢٣. فالعمري، الذى كتب بعد عام ١٣٤٢، يذكر «"الروم" [مصطلحاً يستخدمه العرب لوصف عموديات "رومانية"، أى مسيحية] (٩١) في النوبة وراء الشلال (٩٢). إن سرداً حبشياً للحج إلى بيت المقدس بين ١٣٢٧ و١٣٣٩ يتحدث عن الملك المسيحى سبعانول الذى حكم في النوبة في ذلك الوقت (٩٣). وأخيراً كتاب *معرفة كل الممالك* الذى كتبه راهب أسبانى مجهول في وقت ما بعد ١٣٦٠ لا يتحدث وحسب عن ملك نوبى في دنقلا (!) لكنه علاوة على ذلك يقلد تماماً حلته المزركشة بالأوسمة والقلائد تُحليها (٩٤). أياً كان ذلك، يقدر بصفة عامة أن هذا مصدراً لا يوثق به لحدٍ قصى (٩٥).

من هذه المراجع القليلة المتناثرة يمكننا أن نستنبط محددات يسيرة وحسب عن تاريخ وهوية دوتاو، إن "المملكة" (ربما أن عمودية كلمة أفضل منها) ظلت باقية لثلاثة قرون ونصف تقريباً، من وقت ما قبل ١١٤٤ إلى زمن ما عقب ١٤٨٤. شملت على الأقل ثمانية ملوك: موسس جورج، بازل، بـ (ى) ارل، جورج سيمون، دأيفيد، سايتى، التيت، وياؤول. إليهم ربما يجب أن نضيف كذلك أسماء جورج، وكودلانيل، وربما كان هناك ملوك تابعون علاوة عليهم. ما كان الحكام مسيحيين فحسب، لكنهم عدوا أنفسهم رعاة للكنيسة وحُماتها، في توافق مع تقاليد العصر ما قبل الإقطاعى. حقيقةً، يدعو الإفتقاد إلى التمايز بين المسؤولين الدينيين والمدنيين في نقوش ياؤول إلى أنه في سنوات مغيب المسيحية النوبية ربما أعيد توحيد الكنيسة والدولة من جديد في هيئة واحدة. يجوز في أى حالة أن تعتبر دولة دوتاو، وربما أنها اعتبرت نفسها، وريثة الشرعية الوحيدة للمقّرة المسيحية.

المدى الإقليمى لدوتاو لا يمكن إلا تخمينه. إن المملكة بلا شك كانت ممركزة في الجزء الجنوبي من النوبة السُفلى، لربما كانت عاصمتها أو واحدة من عواصمها في جبل عدًا. أما إنها امتدت شمالاً حتى قصر إبريم فجلي للعيان من معثور المخطوطات العديدة التى وُجدت هناك، ومن ذكر أساقفة إبريم بين حاشية الملك. وإلى الشمال من قصر إبريم لا توجد فيما يكاد بقايا معروفة لفترة القرون الوسطى الأخيرة؛ كانت هذه هي المنطقة التى خربت تماماً من قبل بنى كنز فيما هو واضح، وربما لاذ جمع من سكانها بالهرب جنوباً، كما رقبنا في مطلع هذا الفصل. في الجنوب، تلهم الدلائل المتعددة على بقاء متأخر للمسيحية في *بطن الحجر* (٩٦) بإمكانية لإفتراض أن هذه المنطقة ربما كونت جزءاً آخر من إقليم دوتاو.

يعتقد ميليه أنه اكتشف بين القلعة الرابضة في قمة المرتفع بجبل عدًا بقايا قصر لملوك دوتاو (٩٧). كان هذا مجتمعاً من مبانٍ طوبية صروحية مُرَتّبَة في شكل U (*)، يواجه طرف فتحته الفناء المركزى للقلعة. وشكّلت كنيسةٌ إحدى طرفي نهاية المنحنى، تلاصقها بصورة مباشرة بنايات أخرى للمجمع. معظم هذه كانت مهدمة للغاية بحيث لا تأذن بأى إعادةٍ لتركيب تفصيلى،

(*) منحني مقلوب - المترجم.

التعرف عليها كقصر ضرب من التخمين. مع هذا، فإن الرسوم التصويرية ذات التنوع في غار حُورمُحب المجاور إضافةً إلى وثيقة الجلد التي ألمح إليها سابقاً تشير إلى أن جبل عدّا كان موقعاً ذا أهمية بين المملكة.

في النوبة الحديثة تدل الكلمة تاو في آخر الأسماء على "تحت" أو "أسفل"، وتطلق دائماً على أسماء الأمكنة. يبدو لذلك منطقياً أن يعتقد أن دوتاو تعني "البلد أسفل دو"، أو ربما بتشكيل أدق "العمودية المحكومة من دو" - التي لابد أن تكون بتأكيد داو المذكورة في المخطوطات العربية (٩٨). وبالنظر إلى التداعيات المتعددة لكل من الإسمين مع جبل عدّا يبدو أشد إحتمالاً أن دو، داو، وجبل عدّا (٩٩) - شئ واحد لنفس المكان الواحد (١٠٠)، بالرغم من أن محاولات بُذلت كذلك لتعرف داو بالدِّر (١٠١)، وبشيخ داؤود (١٠٢) بل بقلعة دو الفرعونية في أرض عبرى - دلقو النهرية (١٠٣).

لقد اقترح مُونَير دى فيلار (١٠٤) وميخالوفسكى (١٠٥) أن أسرة ملوك دوتاو أسسها إبارشة النوبة السُفلى، الذين أعلنوا إستقلالهم عن دنقلا بعد تتويج كنز الدولة في ١٣٢٣. هذه نظرية لم تعد صالحة بالنظر إلى المعثورات القريبة من قصر إبريم، التي لا تبين فقط أن دوتاو كانت ماثلة في الوجود زمناً طويلاً قبل إضمحلال المقُرة، ولكنها كذلك تذكر الملك والإبارش بالاسم كأفراد مختلفين. علينا لذلك أن نفترض أن ملوك دوتاو الأوائل كانوا مأمورين لدُنقلا وإبارشها، مع أن الملوك المتأخرة يفترض انهم أعلنوا إستقلالهم. معثور آخر من قصر إبريم يبين انه كان لا يزال هناك إبارش (أو على الأقل مسؤول يُخَاطب بالعربية على انه "صاحب الجبل") في القرن الثالث عشر المتأخر أو الرابع عشر الباكر (١٠٦). بعد ذلك لا نسمع ما يعلوا على ذلك ذكراً عن منصب إبارشى منفصل، ربما لأن ملوك دوتاو المتأخرة أعلنوا إستقلالهم من المقُرة وولايتها. جدير بالذكر مع ذلك انه في ١٣٦٥ إنسحب الملك الحاكم نفسه من دُنقلا إلى داو، حيث أقام مقّره مذاك. وطبقاً لسرد المقريزى، عقد إبان وصوله داو سلاماً مع ملّةٍ كانت مقيمة بها من قبل (١٠٧). يبدو لذلك ممكناً أنه بعد ١٣٦٥ تمثل أسرة دوتاو إستمرارية ليست قاصرةً على الخط الإبارشى لكنها تواصل للأسرة التقليدية الحاكمة للمقُرة نفسها.

حَرّى بالملاحظة في زحام الظروف السياسية الفوضوية للعصر الإقطاعي، أن دولة دوتاو الرقيقة إستطاعت أن تحافظ على البقاء لما يبلغ القرنين دونما مضايقة فيما تراءى من جيرانها المسلمين ناحية الشمال و إلي الجنوب. إن بقاءها قيد الحياة يمكن أن يعزى إلى صدق التاريخ والجغرافيا. وفيما يظهر فإن بنى كنز، بعد طردهم من دُنقلا، كانوا مستغرقين تماماً في مسعى لإعادة سيطرتهم على مقاطعة أسوان، التى يفزعونها بإستمرار أو يحتلونها بشكل متقطع. هكذا كونت عداوة بنى كنز المستحكمة عازلاً يحول دون التوسع الجنوبي للمصريين المماليك، وكان بادياً وراء ذلك الستار من الحماية غير المقصودة أن دوتاو بقيت علي قيد الحياة. في هذه الأثناء كانت الملكية في دُنْقُلا وهي تُجْتَاح موجة بعد موجة بهجرات العرب، أضعَف لأقصي حد من أن تقرر إدعاءها التاريخى للنوبة السُفلى. أضحى رواق النيل الآن مقعداً خلفياً، مُتخَطياً من ناحية التجارة الرئيسة ودروب الهجرة ويمثل لذلك مصلحة هوناً لأى قوة خارجية. لقد كان في تلك المؤخرة السياسية والثقافية أن المسيحية النوبية عانت نهائياً موتها البطئ، رغم أننا يحتمل ألا نعلم أبداً بالظروف التى رزحت تحتها. إن ياؤول هو الملك الأخير لدوتاو الذى نملك عنه معرفةً ما؛ ظاهر أن أى أثر لمملكة أو لأى إيمان مسيحى منظم على حد سواء كان قد اندثر عندما ضم الأتراك العثمانيون النوبة السُفلى في باكورة القرن السادس عشر (قارن بالفصل الثامن عشر) (١٠٨).

التاريخ السياسى للنوبة العليا بعد تراجع البلاط من دُنقلا لا يمكن إلا أن يُتَصّور تخميناً. لقد كان هناك ثانيةً ملك في دُنقلا إبان القرن السابع عشر - مأموراً للفونج - معدوداً كأقوى قادة

الحرب(*) العديدين في أرض دنقلا النهرية (قارن الفصل الثامن عشر)، خلا أنه ما إذا كانت هذه الملكية وريثاً مباشراً لملكية المقُرة أم ما إذا كانت قد بعثت في تاريخ متأخر فأمرٌ غير معلوم. وفى غياب بيّنة أخرى ليس لنا خيرة سوى أن نقبل كلمة إبن خلدون "ما كان ممكناً قيام حكومة ملكية بسبب الخراب الذى منع أى اتحاد بين الأمراء وفصمهم إلى شيع ..." (١٠٩). إنه ليبدو أن النوبة العليا لزمن معتبر كانت تحت رحمة عصابات حربٍ ناهبة من نفس شاكلة بنى كنز. (١١٠).

نهايـــة علــوة

تاريخ المملكة النوبية الجنوبية مستور في كل الأزمان (قارن الفصل الخامس عشر)، ومصيرها النهائي مضاعف كذلك. ندر أن نسمع اسمها مذكوراً في السرود التاريخية التى اقتطفت آنفاً في هذا الفصل؛ إنها تتحدث من وقت لآخر عن ملك الأبواب، لا عن ملك علوة. و"الأبواب" كانت فيما كان مأثوراً مقاطعة التخوم الشمالية لعلوة (الفصل الخامس عشر)، إلا أننا لا نعلم ما إذا عنى ذلك أن "ملك الأبواب" يجب أن يقرأ مرادفاً "لملك علوة" أو ما إذا كانت المملكة قد تمزعت من قبل عموديات إقطاعية. وفقاً لاسبولدنق (١١١)، "الحفريات في سوبا تسفر هبوطاً بالغاً في الثقافة المادية لعاصمة علوة خلال القرن الثالث عشر (١١٢). أخطر جغرافى في القرن الثالث عشر هو الحورانى أن عاصمة النوبة الجنوبية إنتقلت من علوة إلى "وايلولة" (١١٣). في حين أن معاصره، المبعوث المملوكى علم الدين سنجار، وجد أنه كان عليه أن يتعامل مع تسعة أفراد حاكمين أثناء مهمته في علوة (١١٤). كانت ممالك النوبة الجنوبية قد دالت إلى هذا الدرك، لا إلى فوضى، إنما إلى أجزائها المكونة لها".

لابد أن علوة، التى شملت مقاطعتها بعضاً من أغنى الأراضى الرعوية في السودان، كانت مخترقة بكثافة أكبر من المقُرة ومهددةً بمستوى أخطر من ناحية القبائل البدوية الراحلة التى جاءت السودان بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر. كانت أقوى القبائل التى استقرت في الأقاليم الجنوبية جهينة وقريش ـ وكلاهما أقوام من الحجاز هاجروا آنفاً إلى مصر العليا في أزمان الفاطميين ثم، تحت ضغط المماليك إنتقلوا صوب الجنوب سعياً للمراعى الأخضر. طبقاً ليوسف حسن:

> لم يأت المهاجرون في شكل رُحل يغزون إنما فرقاً صغيرة متعاقبة ... إن النمط العام لهذا التسرب ربما كان واحداً مسالماً، غير أن الظهور البادى للصدام المحلى والقتال القبلى كان أمراً محتوما. في مساعيهم للسيطرة على أراضى المرعى، ربما أن البدو فيما يجوز تصوره دفعوا العُصبة الأصلية خارجاً أو غزوا الأراضى النهرية الغنية. إن حضورهم على كل حال في مملكة علوة لابد انه والى ضغطاً على الحكومة ـ لا يُعلم عنه إلا القليل. كانت دولة علوة مبدأ الأمر قادرةً على الدفاع عن نفسها وإجبار جماعات صغيرة من العرب لتحترم سلطتها. ومع ذلك، بالزيادة في أعداد العرب المهاجرة وتكون روابط قبلية كبيرة، إختل الميزان جذرياً...(١١٥).

لم تكن الموجة البدوية هى المهدد الوحيد الذى كان على حكام علوة أن ينازلوه. فقد بدا كذلك أنهم كانوا على علاقة مترببة دائمة مع حكام المقُرة، بصورة جائزة نتيجة لحملات الرق المقُرية في إقليمهم (١١٦). فوق هذه المشاكل وما وراءها، مع هذا، كان على حكام علوة أن يواجهوا خطراً جديداً غير معتاد من قبل: القوة الناهضة للقبائل السوداء إلى جنوبهم وغربهم (١١٧). لقد كان في جزء على الأقل من هذا الاتجاه أن الدمار حاق بهم أخيراً .

هنالك ملاحظتان لا غير مهمتان تتعلقان بعلوة في القرن الثالث عشر. في أوائل القرن الرابع عشر بلّغ كاتب اسمه الدمشقى أن ملك علوة أقام بمكان اسمه كوشة، غرباً من النيل بعيداً، حيث كان يحصل على الماء من آبار تحت الأرض. لربما ينبئ هذا بأن الملك كان قد طرد من دياره التقليدية

(*) أي الذين يحكمون مجتمعات مدنية بالقوة العسكرية – المترجم.

على النيل من العرب الغزاة؛ مع ذلك، فإن رواية الدمشقى غير مؤسسة على معلومات أصلية وقيمتها موضع للتساؤل (١١٨).

يرفد مأثور سودانى مثابر السقوط النهائى لعلوة ومدينتها العاصمة سوبا لهجومات مجتمعة من العرب البَداة وسلاطين الفونج السود، الذين سنُعنى بهم في تفصيل مطول في الفصل الثامن عشر. تاريخ الفونج *"سجل أحداث الفونج"* صار مكتوبا متأخراً في القرن التاسع عشر من تصنيف للوثائق وتقاليد شفاهية سابقةٌ له في الوجود بمراحل (١١٩)؛ إن سرداً للإحاطة بعلوة يشكل فصلها الإفتتاحى. وتبدأ القصة بالكلمات الآتية، بعد الإستهلال العادى:

منسوباً في التواريخ التى رأيتها أن الأول من ملوك الفونج الذين مُكنوا بالقوة الملكية كان الملك عمارة دنقس، مؤسس مدينة سنار في ٩١٠ هـ [١٠٥٤ م]. قبل ذلك التاريخ أطاح الفونج بالنوبة وجعلوا مدينة سوبا حاضرتهم؛ في تلك المدينة كانت بنايات جميلة وحدائق ودار ضيافة يشغلها المسلمون. [يتبع ذلك من وصف لسوبا في أزمان مسيحية أُخذ بوضوح من وصف ابن سليم، كما هو محفوظ في المقريزى (١٢٠). ثم يتواصل النص:] دعنا الآن نعود إلى موضوعنا. فأعلم أن عهد عمارة دنقس بدأ بتجميعه الناس حوله وتوالوا يتزايدون وكان يقيم معهم في جبل مويه، الواقع غرب سنار. هنالك جاءه عبد الله جماع من عرب القواسمة ... قرر الفونج شن الحرب على ملوك سوبا وقرى. لذلك هبُّ عمارة وعبدالله جماع بجيشهما، حاربا ملوك سوبا وقرى ومنوهم بالهزيمة وذبحوهم. بناء عليه إتفقا سوياً أن عمارة يجب أن يصير ملكاً في محل ملك علوة، أى سوبا، حيث أنه كان الأعظم، وأن عبد الله جماع يجب أن يصير في محل ملك قرى. إستمر عمارة وعبدالله كالأشقاء، لكن رتبة عمارة تأخذ السبق على رتبة عبدالله إذا كانا معاً في نفس المكان (١٢١).

بقراءة "تسلسل الأحداث الزمنى" ما بين السطور، يبدو كأنما أقاليم علوة التى كانت ممدودة مرة إلتُهمت بالتغول البدوى حتى لم يبق منها شئ سوى المقاطعة النهرية بالقرب من ملتقى النيلين؛ ثم قرر العرب والفونج الإجهاز على المملكة المضعضعة وتقسيم أقاليمها المتبقية بينهم .

إن صعود عمارة دنقس، الأول من السلاطين السود لسنار، مشهود تاريخياً (١٢٢). مع ذلك ألقى العلم الحديث الريبة على الأثر المأثور بأن عهده بدأ إطاحةً بعلوة. فالمعتقد الآن أن هذا كان عمل العرب وحدهم، وإنهم بدورهم أُخضعوا من الفونج في تاريخ لاحق. إستحوذ المنتصرون بعد ذلك لتاريخهم الخاص إنجاز سلفهم الباهر (١٢٣). وسواء كان ذلك قصةً حقيقية أم لم يكن، رغماً عن كل شئ، فإن النسخة التقليدية للحكاية كما أُخبر بها في *سجل أحداث الفونج* مثيرة للإهتمام بسبب موسقتها لدعاية الدولة. إن السلاطين السود فيما هو مرئى قدّروا إكساب حكمهم الشرعية بتعريف مملكتهم في سنار كدولة وريثة (بحق الفتح) لعلوة. ولما كان الفونج أنفسهم لم يحكموا ابداً من سوبا، يُعهد الوصف الممتد لقوة المدينة وثروتها في أزمان المسيحية، الذى يُستهل به تسلسل الأحداث الزمنى، مفهوماً كمحاولةٍ وحسب لعكس بعض مجدها لفاتحيها. يبدو، بالتالى، أن إسم علوة وسمعتها - أياً كان التاريخ الحقيقى لسقوطها - لا يزال باعثاً على الإحترام والسلطة في القرن السادس عشر، لذلك فإنه يهم حتى في نهاية القرن التاسع عشر .

تقليد ما يختلف تنوعاً حفظه العرب العبدلاب (كما اشتهر مدمروا سوبا على أثر أيام قائدهم الذى ينسب له الإسم) يؤكد أن آخر أحياء عقب هجوم العرب فروا من سوبا وقاموا بوقفة أخيرة في حصن في قرى، نحو أربعين ميلاً إلى الشمال (١٢٤). وعلى أساس هذا الفصل من الرواية تعرف هـ. ن. شينيك على مجمع في قمة تل يغلب عليه تحصين خشن على مدخل شلال السبلوقة، بالقرب من قرية قرى الحديثة، على أنه "آخر معقل مسيحى في السودان" (١٢٥). جانباً عن المصداقية موضع المساءلة بالنسبة لهذا الموقع، مع ذلك، يبعد *سجل أحداث الفونج* من أن يكون واضحاً في شأن دين علوة وقت الإطاحة بها. إن الذكر الوحيد للمسيحية جاء في ذلك الجزء من النص الذى أخذ من سرد ابن سليم السابق له بزمنٍ طويل. ولما كان الإتصال بالإسكندرية قد توقف في القرن الرابع عشر.

(انظر أدناه) يبدو ممكناً للغاية أن علوة ربما كانت قد دُمرت بقوة حكمٍ مسلم، غير معروف للعالم الخارجى، ردحاً بعيداً من قبل سقوطها النهائى .

شوهدت مدينة سوبا آخر مرة كمجتمع مأهول في ١٥٢٣، عندما مر خلالها رحالة يهودى جسور اسمه دايفيد ريونى في طريق إيابه على النيل من الحبشة إلى القاهرة. لقد وجد المكان في خرابٍ وسكانها الأحياء يعيشون في "مساكن خشبية"، يصعب أن تكون أى شئ غير *رواكيب* [١٢٦]. في قرون متأخرة أصبح اسم سوبا إستعارةً للخراب الكامل في وسط العرب السودانيين [١٢٧]، وسنرى أنه في زمن وشيك مثل ١٩٣٠ عُرف أعضاء من قبيلة الهمج، التى كانت مرةً من رعاياها، بحلفهم اليمين باسم "سوبا وطن ابائى وأمهاتى، التى تستطيع أن تجعل الحجر طفواً والقطن بذرة تالفة" [١٢٨].

مغيــب المســيحية

لقد اقتُرح أنه عندما انتقل عرش المقُرة من أيدى مسيحية إلى مسلمة في ١٣٢٣، أصبح الإختفاء النهائى للمسيحية النوبية محتوماً [١٢٩]. يجوز أن يعتبر هذا صحيحاً في أعرض معنى، لكن الصلة بين الحدثين ما كانت بأى حالٍ مباشرة أو حالية. إن علينا أن نستعيد الذكر فالمجتمعات المسيحية ثابرت على البقاء قروناً في ظل حكم المسلمين في أقطار أخرى، بما في ذلك مصر بشكل ملحوظ، وإنه لواضح الآن أنها فعلت ذلك لبرهة في النوبة بالمثل. ما من وقترٍبه بيّنة على عداوة صريحة نحو المسيحية من ناحية الحكام النوبيين المتأخرة أو رعاياهم. أما أُخريات الكنائس النوبية فإنها لا تُظهر علامات على السَّلب والإحتقار، عكس ذلك، كان العديد منها في منطقة الشلال الثانى محفوظاً حفظاً يتسم بالجودة عندما عاينها الأوروبيون لأول مرة في القرن التاسع عشر حتى أنه بدا من غير المتصور أنها كان لابد أن تهجر لمدة تبلغ ٥٠٠ عاماً سالفة [١٣٠]. ربما أنها لم تكن مهجورة. أضف إلى ذلك، إنه ليست هناك بَيّنة محددة، خارج مراكز إدارية كبرى مثل قصر إبريم ودُنقلا، لممارسة الإسلام حتى تاريخ قريب للغاية (قارن الفصل السابع عشر). من مجموع ١٥٠ كنيسة معروفة في النوبة [١٣١] تحولُ أقل من دستة منها إلى مساجد في أى وقت، وما من مبانٍ مسجدية لها قدم سحيق في هذه المنطقة. في مقابل هذه البَيّنة يبدو صافياً أن المسيحية لم تَستْكن للضغط الخارجى للإسلام لكنها استكانت نتيجةً لضعفها التنظيمى والروحى الخاص بها .

لقد رقبنا من قبل كيف أنه في الفترة المسيحية المتأخرة كانت الكنيسة المسيحية قد أصبحت بشكلٍ متزايد عاكفة على نفسها، بمعزل عن الشؤون اليومية، وإن قسطاً عظيماً من قوتها الأيدولوجية تآكل بالروح الدنيوية للعصر الإقطاعى. الكنيسة والملكية كانا لا يزالان نظرياً هما المرتكزان التوأمان للدولة، لكن علاقتهما الوثيقة متبادلة الدعم في أزمانٍ أولى كانت تجتاز النهاية. كان الملوك فوق كل شئ مصابين بروح الإقطاع، وحينما أُزموا في متأخِرة القرون الوسطى ليجدوا عوناً سياسياً في مواجهة غرمائهم لم يتجهوا ناحية الكنيسة النوبية إنما إلى سلاطين المماليك. في الجانب الآخر من الصورة، كان بمستطاع الدعم الأسمى لحكام مثل شكندة، وشمامون، وكرنبس أن يمثل فائدة ضئيلة للكنيسة. من فوق كل هذه الظروف وبأعلاها، كان الضعف المميت للكنيسة النوبية أنى سار الأمر، يكمن في إخفاقها في إقامة تطوير لتنظيم محلى فعال أو لجذور ثقافية متينة [١٣٢].

على العموم، كانت المجتمعات المسيحية التى وقفت على أفضل وجهٍ في ظل الحكم الإسلامى هى الكنائس الأهلية المستقلة عن الخارج مثل الكنائس في مصر، وسوريا، وأرمنيا. إن مفتاح بقائها حيةً هو التضامن والإنضباط التنظيمى مما مكّنها من وقت لآخر من بذل وزنٍ سياسى عظيم القدر حتى في وضعها كأقلية. لا يقوم تضامن هذه الكنائس على تنظيمٍ والتزام دينى فحسب، إنما يرتكز

على تيار جارف من القومية العرقية على قدم وساق: كل يحفظ بوعى المآثر المحلية فنا وكتابةً للأزمان ما قبل الإسلامية .

ما تمتعت الكنيسة النوبية بأى من هذه الفوائد. لم تكن لها جذور محلية، ثقافية كانت أم تنظيمية. كان أساقفتها وقساوستها الأعلي مصريين في الغالب، معينين من الإسكندرية، وبينها ما كان هنالك زعيم معترف به يمكنه أن يستجمع المؤمنين ليذود عنهم الحكومات المعادية والإستهتار الأجنبي. بقدر متساو كان الفن الدينى، والأدب، والشعائر أجنبية. الشئ الوحيد النوبى بشكل مميز للكنيسة "النوبيّة" كان لونيتها المعمارية، إلا أنه حتى تلك الخاصية توقفت عن أن تكون صادقةً بعد أن تهاوت الكنائس المستطالة شبه الدائرية العظيمة لتوقف إستعمالها واستُبدلت بكنائس الكبولا المتواضعة في الفترة المسيحية المتأخرة. في كل حال يصعب أن تكون هذه المبانى الرقيقة الزهيدة التي تخلو من المباهج قادرةً على الخدمة كرمزٍ تجميعى فاعل للعاطفة الدينية المشبوبة .

مؤسسة بهذا الشكل، ما كان للكنيسة النوبية إطار عضوى ينبعث من ذاتها؛ كانت قائمة بصورة مطلقة إما على "الكنيسة الأب في مصر أو على الملكية النوبية. وخلال معظم تأريخها كانت مدعومة بنشاط الإثنين، لكنها، في متأخر العصور الوسطى، عندما سحب مصدرا الدعم منها في وقتٍ واحد، كانت غير قادرة على أن تقف بمفردها: مهم أن يُعترف، أياً كان ذلك، بأن فقدان الدعم الخارجى لم يقع مرة واحدة، أو في كل أنحاء القطر في نفس الوقت. إن منطقة الشمال القّصى وقعت تحت سيطرة بنى كنز المعادين للمسيحية في القرن الثالث عشر؛ ذهب عرش دُنقلا لمسلم في ١٣٢٣؛ بينما في منطقة الشلال الثانى بقيت عموديةٌ مسيحية على قيد الحياة حتى زمن متأخر من القرن الخامس عشر.

لا نعلم على سبيل الدقة متى أو لما فقدت الكنيسة النوبية الإتصال بالإسكندرية على حد التكافؤ. الأحوال السياسية المضطربة في النوبة والإضطهاد الشديد في مصر ربما كانا عاملين مساعدين. فوق كل شئ، مع هذا، لابد أنها الفوضى التى أحدثها بنو كنز، خصوصاً بعد عام ١٣٦٠، تلك التى حالت دون قيام إتصالٍ فعال بين المجتمعات المسيحية إلى الشمال والجنوب من إقليمهم.

مدوناً في تاريخ البطرياركيات القبطية أنه بعد ١٢٣٥ لم يُبعث قس من الإسكندرية إلى النوبة، وتُركت الكنيسة النوبية لتدبير شؤونها بنفسها [١٣٣]. يبدو هذا مفهوماً بقدر كافٍ نظراً للأحوال السياسية الفوضوية في مصر، ومن الممكن كذلك في النوبة، في ذلك الزمان. أياً ما قضى الأمر، ربما كان إنقطاع العلاقات مؤقتاً ليس إلا، وربما انطبق على الأقسام الأسقفية وحدها في النوبة العليا (حيث أن المؤرخين القبط دائماً يميزون بين محافظات الماريس والنوبة، أو بالضرورة النوبة العليا والسُفلى). على أى حالٍ نملك الآن بّينة على وجود صلة بين النوبة السُفلى والإسكندرية في تاريخ متأخر بحسابٍ معتبر. إنْ أسقف فرس وقصر إبريم كان يُحتفل بتنصيبه في مصر إلى وقت متأخر حتى ١٣٧٢؛ ووُجدت وثائق تنصيبه مدفونةً إلى جانبه في قبره في قصر إبريم [١٣٤]. وفى الوقت الحاضر تمثل آخر دليل لنا يُحدد الإتصال بين الكنيسة النوبية وآخر بطريرك لها .

أما إنه لاتزال هناك كنيسة منظمة في النوبة السُفلى لمائة عام لاحقة فتشهد بصحته وثائق مقرونة بأسماء الملك ياؤول وملوك آخرين لدوتاو (انظر أعلاه). إن قدراً وفيراً من هذه قوائم يُنسب لمسؤولين دينيين، يعلو وسطهم إسم أسقف إبريم. لا نستطيع أن نتأكد أن تعيينه كان معترفاً به أو حتى معروفاً في الاسكندرية؛ يبدو ممكناً على الأقل انه بعد فقدان الإتصال بمصر إستوعب ملك دوتاو المسؤولين الدينيين ممن تَبّقوا في داخل حاشيته وتولى الإشراف العالى على كنيسةٍ أهليةٍ قصيرة الأجل. ما كان من دعم فعال لهذا الأثر الأخير للكنيسة النوبية في كل الأحوال متاحاً إلا من الملكية المحلية، وليس من الخارج. إفتراضاً لذلك إندثرت الكنيسة والملكية معاً في نهاية القرن الخامس عشر؛ فما من ذكرٍ لأى منهما بلغ سمعاً بعد عام ١٤٨٤.

نهجاً بالرجوع إلى ما مضى من وقائع، واضح أن الممارسة المنظمة للمسيحية زوت في أجزاء مختلفة من النوبة أزماناً مختلفة ولأسباب مختلفة في حاليتها. لابد أنها كانت قد اختفت أولاً في الشمال البعيد، تحت القهر المباشر لبني كُنز. إن هذا منبأ به في كل الحالات بخصائصها المشهود بصحتها تاريخياً وبغياب بقايا مسيحية متأخرة شمال قصر إبريم. المنطقة الثانية التى يذهب إليها يفترض أنها شريط دنقلا النهرى. هنا ربما توقف الإتصال بالإسكندرية في القرن الثالث عشر، حتى أن الكنيسة تُركت دون دعم عدا ما تقدمه ملكية ضعيفة ومنقسمة، وهو ما مضى تحت سيطرة مسلمة في ١٣٢٣. وفى نطاق مقاطعة دوتاو، بين المنطقتين اللتين مر ذكرهما ثابرت المسيحية المنظمة على البقاء ١٥٠ عاماً أخرى. هنا أيضاً فُقدت الصلة بالإسكندرية في نهاية المطاف، لكن الإيمان التقليدى بقى حياً تحت رعاية حكام أهليين ربما وضعوا أنفسهم على رأسه. في مملكة علوة الجنوبية ليس لدينا معرفة محددة عن مدة المسيحية، غير أن هناك بّينة (سوف تُناقش في الوقت الراهن) فهنا بالمثل بقى الإيمان حياً إلى ما يقارب نهاية القرن الخامس عشر .

إختفاء كنيسة منظمة لم يعن بالتأكيد الإبعاد الفورى لإيمان النوبة في القرون الوسطى. طوال القرن الرابع عشر وعلى نفس المنوال في باكورة القرن الخامس عشر واصل المؤرخون وصفهم لأهل منطقة دُنقلا إنهم مسيحيون [١٣٥]، رغم أنه يبدو غير محتمل أن تنظيمهم الكَنسى كان لا يزال حياً في هذا الزمن، بنهاية القرن الرابع عشر، مع ذلك، كتب ليو أفريكانوس إنهم "كانوا قد فقدوا إخلاص الإنجيل ونوره؛ لكنهم يحتضنون بالفعل مفاسد لا نهاية لها من الأديان اليهودية والمحمدية(*)" [١٣٦]. إن كاتباً عربياً في نفس الفترة وجد حالتهم بنفس القدر غير مرضية من وجهة نظر محمدية؛ فقد وصف دُنقلا بأنها "مغرقة في حيرة وبطلان" [١٣٧]. وكتب كذلك المبشر ألفارس في ١٥٠٤ "الناس ليسوا مسيحيين، ولا موريين (**) ولا يهود، لكنهم يعيشون مشتهين أن يكونوا مسيحيين" [١٣٨]. ويضيف ألفارس مقرراً "بينما كنا نحن في بلد برستر جون [أى إمبراطور الحبشة] جاء ستة رجال من ذلك البلد [علوة] كسفراء للبرستر، سائلين له أن يرسل معهم قسيسين ورهباناً ليعلموهم. ولم يختر أن يرسلهم ..." [١٣٩]. قرناً لاحقا لا يزال، وجد زائر إيطالى لمصر العليا مستوطنة من النوبيين (أو الأحباش؟) يعيشون بالقرب من دير إسنا الغرب. كانوا ما انفكوا يمارسون شعائر المسيحية الخاصة بالتعميد، والزواج، والدفن، لكنهم نسوا ما يقارب كل الأسس الأخرى لإيمانهم الموروث من أسلافهم [١٤٠]. هذه ونصوص غيرها تعطينا صورة لزمن مرتبك وغير مؤكد لإنتقال دينى، أثناءه ما كان للنوبيين سوى أنقص وقار لأى إيمان .

تُلقى رسالة اكتشفت من واعظ فرانسيسكى في إيطاليا ضوءاً إضافياً على البقاء المتأخر للمسيحية في النوبة. لقد كتبت من مبشر متنسك للكاردينال بلوجا في عام ١٧٤٢، وتحوى المقال الآتى:

> أياماً قليلة مضت تلقيت من خادم، بربرى، معى في المنزل، نبأ سبب لى دهشة عظيمة. هو: إنه في قريته، وتدعى تنقوس، وهى على جزيرة في النيل، في مملكة النوبة، لا يزال هناك بعض مسيحيين، بالرغم من أنهم تحملوا متاعب جمة، وإضرابات، وحروب من الأتراك، لإجبارهم على اعتناق المحمدية، فإنهم، حتى على حساب حيواتهم، عاشوا دائماً كمسيحيين ولا يزال في قبضتهم دير (من غير رهبان)، فيه كنيسة جميلة مزينة برسوم ملونة حائطية على قماش [١٤١].

هذا هو دليل محدد للمسيحيين في النوبة، بالرغم من أنه بعد جيل وصف جيمس بروس في

(*) حرص مفكرو الكنيسة في القرون الوسطى على وصف الإسلام "بالمحمدية" وذلك على سبيل إنكار الوصل الإلهي الأعلي الذي أنزل الإسلام علي رسوله الكريم محمداً صلي الله عليه وسلم. وكثيراً ما يرد مع ذلك كيل من السباب على نحو ما حواه وصف افريكانوس للأديان المذكورة في عبارته "بالمفاسد" - المترجم.

(**) العرب والبربر والأفارقة الأُخَر الذين فتحوا أسبانيا في القرن الثامن الميلادي، وأقاموا دولة الأندلس وحضارتها التليدة - المترجم.

النوبة العليا "عهداً لفرانسيسكيين متدينين، كي يتولوا سلوى الصابئين، أو المسيحيين المضطهدين في النوبة *عندما يكون بمستطاعهم إيجادهم*" (١٤٢).

العديد من النصوص الواردة سابقاً تعطى إنطباعاً بموقف ليس غير مألوف في أزمان الصراع الديني: مجموعة سكانية مقسمة بين أتباع مخلصين للإيمان السالف وأتباع غيورين على الإيمان الجديد، مع وجود العنصر الأكبر ربما من بين كل العناصر الأخرى ممسكين عن الإلتزام القوى بأي من الجانبين في إنتظار التطورات (١٤٣). يحتمل أن الإنقسام أخذ مكاناً دائماً على طول خطوط القرى، كما يجرى اليوم وسط الفلاحين في أراضي البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى. البيّنة الأثرية يبدو أنها تتيح بعض التأييد لهذا. أما تلك القرى التى تجمعت في قرب شديد حول كنائسها، مثل ديفينارتي وأتيري (١٤٤)، فربما تمثل جماعات مسيحية مستميتة. إن هؤلاء الذين كانت كنيستهم نائية للغاية، مثل مينارتي وكاسانارتي، ربما تصادف وقوعهم تحت سيطرة عناصر مسلمة، أو يجوز ببساطة أنهم رغبوا أن يحرروا أنفسهم من الرباط الوثيق بالكنيسة في حالة الهجوم من رجال قبائل عربية أو نُهاباً مماليك. أما أولئك الذين ما كانت لهم كنيسة، أو الذين سمحوا لكنيستهم أن تهوى في الخراب، فيفترض أنهم صائبون إعتنقوا الإسلام على الأقل إسمياً.

حالة الكنائس النوبية الباقية حية ترفد بضعة دلائل إضافية للموقف الدينى في نهاية العصور الوسطى. كثيرٌ من المبانى، على الأخص في منطقة الشلال الثانى، حشد الآن (أو كان حتى وقت قريب) في حالة جديرة بالملاحظة من الحفظ (١٤٥)، والواضح بجلاء أنه بصفة عامة كانت معاملتها تتم في إحترامٍ خلال القرون منذ أن تُخلى عنها. جائز أنه ارتُجى لفترة ما أن القساوسة سوف يرجعون إليها يوماً مًا؛ حتى عندما تلاشى ذلك الأمل لابد أن بعض البركة ما انفكت تلصق بالمبانى باعتبارها الصروح المدركة للناظرين لإيمانٍ وحضارةٍ نصف - منسية.

فى الماضى القريب خدمت كنائس كحظائر للحيوان، لكن هذا الوضع يحتمل أنه كان تصادفاً أكثر منه تعمداً، فلسوف تلجأ الأغنام النوبية إلى أى مبنى مفتوح. أما المعاملة الوحيدة للكنائس في تعمد وتنسيق بما يهز المشاعر غضباً ويبعث على الأسى فكانت موجهة لحيطانها: عُبث بالعيون وأحياناً بتقاسيم الوجه، ليس فقط في الأشكال الإنسانية وإنّما في رسوم الحيوان بالمثل. لقد فُسر هذا بأنه تحوطٌ من العين الشريرة وإستجابةً لتحريم المسلمين الأشكال التصويرية على السواء؛ في كل حالة وُجد هذا الرأي موّحداً من طرفٍ من النوبة إلى طرفها الآخر. (من هنا الأهمية الفنية القصوى لتلك الكنائس مثل عبدالله نيرقى، وفرس وسونقى التى دُفنت في الرمال قبل أن يُتمكن من العبث بملامحها). جدير بالذكر، مع هذا، أنه فيما عدا هذا النمط من تسوئ الوجوه الخاص بمحليته لمدى بعيد، ما كانت هنالك محاولة لإيذاء الرسوم أو تغطيتها، وفيما عدا الكنائس في قصر إبريم والجنوب الأقصى ليست هناك علامات بالكنائس أو إستعمال لها كمساجد (مما يتطلب تعديلات معمارية مدركة في سهولة وتحديد). الخطوط الكتابية العربية متعددة على حيطان الكنائس المهجورة، غير أنها ليست بأوفر من الإغريقية، والقبطية، والنوبية القديمة التى كُتبت عندما كانت لا تزال مستخدمة. وفي الاحتمال أن كتابة الأسماء والتواريخ في الكنائس مؤشر يدل على تواصل إحترامها بما يفوق أي فرضٍ عكسه.

كنائس نوبية قليلة تظهر علامات على استعمالها مساكن عادية في سنواتها الأخيرة (١٤٦). لقد إقتُرح أن شاغليها كانوا محض قاطنى كهوف، على أنه توجد بَيِنة بأن بعضاً من هؤلاء الساكنين في أخر الأيام بذلوا مساعى لصون المبانى (١٤٧). لذلك أفكر أنه من الممكن في الأيام الأخيرة للمسيحية النوبية أن صغار القساوسة المحليين، وربما أحفادهم من بعدهم، إستحوذوا على الكنائس من أجل حمايتها وربما ليُبقوا بعضاً من الآثار الأخيرة للعبادة المسيحية على قيد الحياة (١٤٨).

ملخص تفسيرى

شهدت العصور الوسطى الأخيرة التفكك التدريجي لحضارة النوبة في القرون الوسطى. إن إستقرار الممالك المسيحية ورخائها قُوض ثم دُمر في النهاية بتطورات بين حدودها وفيما وراءها على السواء. أكدت روح متنامية من الإقطاع العسكرى، مستلهمةً ما في أوروبا والشرق الأدنى المعاصرين، تواجدها في بروز قلاع ومعمار عسكرى، وفي نهوض إقطاعيات محلية يتزايد إستقلالها، وعراكاتٍ أسرية بين البيوت الحاكمة. في أثناء ذلك إستقر العرب البداة، وقد قُسروا خارجاً عن مصر بملاحقةٍ من الماليك، أعداداً متضاعفة على طول الجنبات الصحراوية والممالك النوبية وفي أماكن منتشرةٍ على النيل نفسه سواءاً بسواء، مبطلين على الدوام أى سيطرة فعالة من المماليك. كان لسلاطين المماليك في مصر طموحات سياسية لمصالحهم في الجنوب، وفاقم تدخلهم المتوالى بين ١٢٧٥ و ١٣٦٥ المشاحنات الأسرية بين مملكة المقُرة. تحت هذا التركيب المتجمع من الضغوط وأوجه الضعف تحللت المملكة النوبية الشمالية في آخر القرن الرابع عشر، وما بقى من قوتها تناهبته دويلات رقيقة ومحاربون بداة.

الموقف في النوبة الشمالية بعد انهيار المقُرة يذكر بأوروبا الغربية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية. كان جزء من السلطة في قبضة دويلات وريثة صغيرة حاولت أن تحفظ سلطة الإمبريالية المطلقة إبان تلاشيها، في حين كانت هناك أقاليم أخرى لا تعرف قاعدةً غير عصابات الحرب متدنية الحضارة. وبتداعى الأمن الداخلى تناقصت التجارة كأنما للا شئ، إختفت طبقة التجار، وعادت البلاد القهقرى للإقتصاد الزراعى المعروف من الأزمان الأولى. شيئاً فشيئاً خرج مجتمع إقطاعى مألوف لفلاحين زرّاع يتجمعون حول قلاع أسياد محليين مثلوا حمايتهم الوحيدة وحكومتهم الوطيدة. مصير المملكة الجنوبية لعلوة في الجانب الآخر كان لمدى واسع قريب الشبه بالإمبراطورية الرومانية الشرقية: نُزع إقليمها بعيداً عنها من ممالكٍ أدنى حضارة حتى لم يبق منها شئ سوى مخلفات كالحةٍ تحيط بالعاصمة، وكانت تلك مكتسحةً بهجوم أخير نهاية القرن الخامس عشر .

ظلت المسيحية الإيمان الرسمى للممالك النوبية حتى القرن الرابع عشر، لكنها منذ ذلك الوقت أفسحت الطريق للاقطاع العسكرى بوصفه روح زمانها الهادية. إزدادت الكنيسة عزلةً عن الشؤون اليومية وفى نفس الآن أضعفت وأُفقرت بالقلاقل السياسية للعصر الإقطاعى. والكنيسة المصرية مثل ذلك إستُضعفت تحت نظام المماليك القهرى فما كان بوسعها أن تشكل لأى مدىً ومن بُعدٍ قوةً حادية ومحمية من الخارج. وهكذا عندما سقطت أجزاء متتالية من النوبة في ظل حكم مسلم، سواء تم ذلك عبر توريث أسرى أو من خلال إجتياح عربى، جُردت الكنيسة من دعمها التقليدى الضرورى من الملكيات ومن الإسكندرية معاً. مع غياب مثل هذا العون بلغت الممارسة المنظمة للكنيسة نهايتها. لقد ثابرت على البقاء لمدة أطولٍ في الجزء الجنوبى من النوبة السُفلى تحت رعاية دولة خلافة نصرانية صغيرة عاشت إلي نهاية القرن الخامس عشر .

حتى من بعد إختفاء كنيسةٍ منظمة بقيت المسيحية على قيد الحياة قرنا أو إثنين كديانة شعبية وسط جماعات محافظة بعينها. طوال القرن السادس عشر كانت هناك فيما هو محتمل جيوباً لا تزال ربما لمسيحيين أوفياء إسمياً، كما تواصلت إفتراضياً جيوباً لمسلمين مُخلصين، بين سكانٍ ما كان لمعظمِ أعضائهم إنتماء دينى قوى. لكن الحضارة الرغدة وخلافة النوبة المسيحية لعلها لم تعدُ كونها إرثاً يُذّكر مُعتماً. إن مجتمعها السياسى، وأيدولوجيتها، وفنها، وأدبها، ومعمارها أمسوا على منوالٍ واحد خامدين. وإلي جوف هذا الفراغ الثقافى والروحى دخلت عقيدة الإسلام، تماماً مثلما كانت المسيحية نفسها: دُفعت إلى داخل الفراغ الأيدولوجى الذى تركه تحلل الحضارة الفرعونية من ألف عامٍ سابقة .

الفصل السابع عشر

سندان الإسلام
الهجرات العربية وتعريب النوبيين

فى أول عمل له عن النوبة، ارتأى رايزنر أن "... تأريخها يصعب أن يزيد على عرض لإستعمالها أو لتجاهلها من مصر، ويجري إثراؤها أو إفقارها بتغير النيل والمناخ" [1]. بينما ذلك الرأى يكاد لا يسدى عدلاً لمساهمات النوبيين الخاصة بتاريخهم، فإنه لحقٌ بالرغم من ذلك أنه منذ الأزمان الأولى حتى نهاية العصور الوسطى يمكن أن تروى قصة تطورهم الثقافى بإتساع شديد فيما يتعلق بنفوذ جيرتهم الشمالية. مرةً واحدة لاغير، ولوقتٍ قصير، يدخل الصورة "طرف ثالث" بالفعل، عندما يجوز أن الغزاة الأكسوميين وجهوا ضربة *قاضية* للإمبراطورية المَروية (الفصل الثالث عشر). إلا أن الأحباش سرعان ما عادوا لحصنهم الجَبلى، ما ظهروا أبداً على النيل ثانية. إن أقوام أرض الهامش(*) البدائيين على شتاتهم وقد كانوا أقرب جيران مباشرين للنوبيين لم يعملوا مساهمة مهمة ذات قيمة لتاريخهم؛ مثلوا لسكان الوادى تهديداً متقطعاً وحسب، وبقدر ذلك مثلوا مصدراً لإستغلالهم. وقد كان بوسع النوبيين في المعتاد أن يسودوا عليهم ويرهبونهم من خلال عددهم الأعلى وحضارتهم الأسمى، وكان هؤلاء أنفسهم يسودهم المصريون ويرهبونهم دائماً.

أُنهى ذلك الموقف إلى الأبد في آخر العصور الوسطى بظهور "طرف ثالث" لم تذهب ريحه عنهم. فمع أنهم جاءوا أساساً عن طريق مصر، ما كان رجال القبائل العربية الذين تدفقوا عبر تلال البحر الأحمر ثم غرباً بقطع أراضى المرعى السودانى مصريين ولا نوبيين؛ كانوا - بحق - الأعداء الموروثين لكل شعوب الوادى المستقر. غير أنه في معظم الأمر كان هؤلاء البدو الأميون هم الذين صاغوا آخر تحول رئيس في التطور الثقافى للنوبيين. فلئن كانت جيوش المماليك هى مطارق الإسلام، فإن قبائل العرب التى جاءت لتحيط بالنوبيين في الجنوب والشرق، والغرب، كانت هى السندان الذى صُهر عليه مجتمعهم ما بعد النصرانية.

مجئ العرب وضع نهايةً للأبد للمكانة الشامخة التى تمتع بها النوبيون بين جيرانهم الأفارقة. إكتسح الغزاة أراضى النيل الداخلية في سرعةٍ خاطفة، يحتوون غالبية السكان المبعثرين آنفاً، حتى زادت أعدادهم حجماً معتبراً بمضى الوقت عن أعداد المقيمين في الوادى. كذلك إمتلك العرب روحاً قتالية ودرجةً من الحراك إفتقدهما النوبيون. بالتالى اختل ميزان القوة العسكرية، لأول مرة في التاريخ، بعيداً عن الشعوب النهرية لصالح قبائل السهل والصحراء التى أحاطت بهم. النوبيون عاشوا مذاك، بمعنى أو آخر، رعايا في كنف أقوام أرض الهامش بوصفهم أشد قوة وبأساً.

ولئن كان التفوق العددى للنوبيين قد أُنهى بمجئ العرب، فإن تفوقهم الأيدولوجى أُنهى بالمثل بمجئ الإسلام. إن عمليات التعريب والإسلام يجب الا تخلط، بالرغم من أنها في النوبة سارت يداً بيد [2]. (وهى عادة مختلطة في أذهان النوبيين أنفسهم، كما سنرى الآن). حوَّل العرب موقف النوبيين بأعدادهم الأعلى؛ وبدَّل الإسلام موقفهم بطريقة أغنى تنوعاً واستدامة بإرتجائه الأسمى لأناسٍ مكثوا

(*) الهامش الحضري والثقافي لأرض الداخل التي كانت أكثر حضارةً جلوسيةً مستقرة - المترجم.

طويلاً خارج مشارف الحضارة. هكذا، بينما كانت هجرات بدوية على نطاق واسع محصورة في السودان الشرقى (أرض النوبة الداخلية من الساحل) إجتاح الإسلام تلك الأرجاء في نهاية العصور الوسطى عبر إفريقيا شبه الصحراوية من البحر الأحمر للأطلنطى.

إن حضارة الإسلام القتالية في أصولها، تَجَدد إحياؤها بدلاً عن تقويضها بالروح الإقطاعية. تبعت الإبعاد الناجح للصليبيين والمغول من الشرق الأدنى موجةٌ من التوسع الإسلامى لم يسبقها إلا التوسع الذى أُجرى آنفاً في القرن السابع. ما في النوبة وحدها، إنما عبر إفريقيا بأجمعها إنتقل أتباع الإيمان المبنعث من جديد جنوبا فوق آثار القوافل الصحرواية إلى باطن أراضى السهل الغنية التي تمتد وراءها ولو أنها متخلفة ثقافياً. سواء كانوا بداة من مصر أو جنوداً، أو تجاراً، أو معلمين من المغرب (شمال - غرب إفريقيا)، إخترقوا جوف مناطق لم يقم رسل حضارة بزيارتها أبداً من قبل. إضافةً إلى ذلك أحضروا معهم نوعاً مُستخصاً من التقليد الحضارى: حضارة مصنوعة من سكان الصحراء ولأجلهم. ما فرضت تعلماً ولا كتابة، إنما اقتضت إشهار العقيدة وتأديةً لبضع إلتزامات يُسرى [٣]. كذلك ما فرضت خُضوعاً لكنيسة منظمة، يتاح التماسك الإجتماعى بغير ذلك عن طريق قرابة تُحكي بالعشرة وتظل ألصق منها إلفةً بكثير (أنظر أدناه).

حيثما كانت المسيحية والحضارات الأولى، بطبيعتها الكامنة، غير قادرة على التوسع ما وراء السكان المستقرين في حوض البحر الأبيض المتوسط ووادى النيل، إنتشر الإسلام كنار في هشيم وسط رجال قبائل الحزام السودانى. كان أول تقليد حضارى في التاريخ يوفق في إختراق أرض الهامش الإفريقى؛ شعوباً لآلاف السنين كانوا مُتخطين من التيارات الكبرى في التاريخ، يُسامون خسفاً ويُستغَلّون من جيرتهم الشمالية، الآن أصبحوا جزءاً من *عالم جديد* [٤]. بذا قُضى على شموخ النوبيين الثقافى القديم قدم الدهر في جوف إفريقيا؛ وجدوا أنفسهم آخر الأمر محاطاً بهم من حضارة منافسة، ولئن لم تكن أسمى تقدماً من حضارتهم، فقد كانت أفضل تكيفاً مع كل من بيئتها وأزمانها.

توسع الإسلام في باطن أرض الهامش الإفريقى أنهض كأنما لفوره سلسلةً من إمبراطوريات قصيرة العمر ولكنها قوية ما وُجدت قبلها سوى زعامات لا وزن لها، زماناً يسيراً. بدأت الحركة الإمبريالية في غرب إفريقيا، وزحفت تقطع القارة بالتدريج شرقاً. مالي وسونغاى، وريثا غانا القديمة، إحتلا في تقدم أقساماً أكبر من الأراضى المغمورة بالنيجر؛ كانيم ثم بورنو أبديا الظهور في حوض تشاد [٥]؛ أما سلطنات دارفور والفونج فقد ورثت قوة النوبة المسيحية؛ وفى الحبشة قامت إمبراطورية القالا قصيرة الأجل لتتحدى سؤدد الأمهرا المسيحية طويلة الأمد. كل هذه كانت دولاً إفريقية غير عربية، لكنها بجمعائها استمدت عنفوانها الأيدولوجى من دين الإسلام الذى أُدخل حديثاً. لقد كانت أيدولوجيتهم في البداية عبادةً صفوية أنشأت عن طريقها الطبقات الحاكمة حقها الإلهى لتحكم رعيتها الوثنية بين ظهرانى قبائلها الخاصة والقبائل المحيطة التى غنموا إخضاعها على قدم المساواة [٦]. وفيما بعد، كان لموجة من حركات التطهير أن تخلص إلى إسلام الرعايا بالإضافة إلى الحكام، وإلى قهر ممارسات وثنية معلومة، مع هذا، يعرض إسلام إفريقيا الوسطى والغربية إلى هذا اليوم عنصراً أصلياً وثنياً(*) قوياً [٧].

من نواحى كثيرة يوازى تاريخ "إمبراطورية السهول" تاريخ كوش من قبل ٢٠٠٠ عاماً سالفة.

(*) ربما قصد المؤلف ممارسات وطقوس قديمة لا تتفق بالضرورة مع بعض تفاسير الأديان السماوية، ولكنها تواصلت كجزء أصيل من ثقافة المجتمع وقيمه الروحانية. ومثال ذلك الأديان الإفريقية السابقة لرسالات التوحيد المعروفة. إن دراسات أنثروبولوجية متعمقة فى علم إجتماع الأديان المقارن ربما تُفصح عن أوجه للإتفاق بين معتقدات إفريقيا القديمة والحديثة ومن ذلك الإيمان بالخالق الواحد الأحد الذى دعا له فى وادى النيل إخناتون واحترام المراة والعائلة – المترجم.

جمعت كل واحدة منها سحر الجذب الأيدولوجي لإرثٍ حضاري مجلوب، رخاءاً تجارياً مشتقاً من تجارة الذهب، والعاج، والأرقاء، وقوة عسكرية منبعثة من بأسهم الذاتي في القتال. كانت كل واحدة منها دولةً ذات حضارة أدنى على تخوم الحضارة، يعتمد وجودها على صون التجارة مع ممالك حوض البحر الأبيض المتوسط بقوتها الأشد. فإذا كان تاريخ إمبراطوريات القرون الوسطى موجزاً بما لا حد له بالنسبة لتاريخ كوش، فهو يرجع في جزء منه إلى أنه مامن واحدة منها تمتعت بإحتكار الحضارة التي امتلكها النوبيون من قبل، لكن بما يعدو ذلك لأنها كانت ستُجتاح بقوة الإمبرياليين الأوروبيين وهم أعظم قوةً لمدى بعيد.

ما كانت النوبة، إذّن، بمحضها إنما [طالها التغيير] في نطاق إفريقيا شبه الصحراوية بأكملها تلك التي تحولت بالموجة الإسلامية في العصور الوسطى المتأخرة. وما عادوا ببساطةٍ نقطة خارجية لحضارة البحر الأبيض المتوسط في ظلام أرض الهامش الإفريقي، وجد النوبيون أنفسهم شطراً من لوحة جديدة مستجمعة الألوان لحضارة سودانية شائعة في تقدم يقطع القارة. إن دين الإسلام الجامع، والحكاية المتقاسمة للسلالة العربية، وتصاحب العضوية في نظام قبلي بعرض المنطقة، إجتمعت معاً لتسوّي الفرق الثقافي الكائن بعمر الدهور بين الفلاحين النهريين والبدو الصحراويين، ولتخرج حساً لمجتمع بينهم ما وُجد له مثيل منذ ما قبل الأيام الفرعونية. فمن العصور الوسطى حتى أزمان حديثة، رُبط مصير النوبيين بدرجة أقل بالمصريين مقارنةً بالشعوب السودانية التي تحيط بهم.

يجوز لذلك أن يُرى إسلام النوبيين في عبارات عامة كجزءٍ من عملية واسعة بإتساع القارة؛ ومع ذلك، فقد اختلفت في جوانب هامة عن إسلام الأفارقة بالأواسط والغرب. تبدو العملية الحقيقية للتحول الديني والثقافي في جوانب عديدة أقرب للعملية التي وقعت أثناء الموجة الأولى للتوسع الإسلامي في داخل الأراضي المسيحية للشرق الأدنى. فالنوبيون، مثل المصريون والسوريين من قبلهم، ما كانوا وثنيين يتوقون للقبول في باطن العالم ذي الحضارة ولكنهم أتباع لإرث قديم وفي بعض الوجوه أكبر تقدماً من إرث أساتذتهم المرشدين. يضاف إلي ذلك أن الوكلاء الأوائل لتبديلهم ما كانوا مبشرين ولا أهل علم إنما كانوا أرباباً بدويين في أمية؛ التبدل في معظمه ما كان عملية أيدولوجية مثلما كان وحدة إجتماعية وسياسية. على نهج ما قال تريمنغهام "البدوي العربي، الذي يندر أن يكون متعصباً والمجرد تماماً من الحماس التبشيري المشبوب، لا يبذل جهداً لتجنيد الإيمان الديني. كان إنتشار الإسلام في مجراه العام سائراً من خلال النفاذ، والتزاوج، وسياسة إستراتيجية لكسب الزعماء وقادة الجماعات (تشمل تدابير إرغامية)، والتجارة، وامتلاك العبيد. وكمثل الأيام الأولى للفتح الإسلامي الأساسي، كان من شأن التحول للإسلام أنه يجعل من يعتنقه تابعا موصولا بنظام العرب القبلي" [٨].

في إيجاز، كانت عملية الإسلام في النوبة، كما في مصر والشرق الأدنى في تاريخ سابق، موثوقةً بما لافكاك منه بالتعريب. يلاحظ آي. م. لويس أن "... التجربة المباشرة، لأول مرة، لُلإسلام العربي ... كان لها أثر عظيم الشأن بادٍ للعيان بسهولة في ترابط الإسلام الوثيق بالهُوية العربية. فالسوداني [الشرقي] أشد من أغلب مسلمي الشعوب الافريقية الأخرى، يعتقد أن من يكون مسلماً لابد أن يكون عربياً. إنه هذا التمثل العميق للإسلام والإنتماء لثقافة العرب ومجتمعهم ما يُعبُّر عنه بالإدعاء العام لسلسلة النسب العربي والسريان الغالب [للغة] العربية" [٩].

معظم مسلمي غرب إفريقيا كذلك يدّعون سلالةً عربية، لكنهم ينزعون لذلك على أساس شجرة نسب فردية بدلاً من أنسابٍ قبلية أو روايات للهجرة. وبهذه الكيفية لا يتعارض إدعاء التحدر من سلفٍ عربي بالضرورة مع العضوية في قبيلة غير عربية أو مع التحدث بلغة غير عربية [١٠]. في الجانب الآخر يدّعي السودانيون بمن في ذلك النوبيون أو البجا الذين لا يتحدثون العربية على حد سواء، أنهم

عرب على أساس قبلى اقوى منه فردياً. لذلك يجوز أن يقال إنه في حين يدُعى السودانى الغربى أنه عربى، *إصطناعاً*، لأنه مسلم، فإن السودانى الشرقى يدُعى وقيمتها أنه مسلم لأنه عربى، الإسلام دينه القبلى. إن أهمية هذه الرؤية الغربية للملامح الإسلامية وقيمتها سوف تناقش في تفصيلٍ أدق كمالاً عبر صفحات لاحقة (أنظر "الإرث النسبى") بادناه).

الهجــرات العربيـــة

على الرغم من أنه، كما سنرى، لم يستقر بداة كُثُرٌ بالفعل ما بين ظهرانى النوبة، فقد كانت الهجرات العربية بصرف النظر عن ذلك واحدةً من أهم الحركات السكانية في التاريخ النوبى لأنها غيّرت بشكل دائم التوازن الأيكولوجى بين الصحراء والأرض المزروعة ولأنها أدت إلى آخر تحولٍ رئيس في الثقافة ألنوبية. علينا أن نثّمن لذلك، بتفصيلٍ أدق نوعا ما من فصول سابقة، الظروف التى جاءت بتلك الأقوام التى لا يهدأ لها قرار ولا تذعن لسلطان إلى سودان كان في مرةٍ خالياً. خلاف الهجرات الماضية في المساحة ذاتها، لم تذهب هجرات البدو غير مدونة من مراقبين معاصرين. فالعديد من تحركات القبائل من خلال مصر مذكورة من أمثال ابن خلدون والمقريزى اللذين أوردت سرودهما في الفصل الماضي. فوق شهادة هذين الشاهدين موضع الثقة الكبيرة وما وراءها، ثروة - بل ضُخَام - من الإرث الشعبى يتعلق بالهجرات العربية، ذلك أن فصول الهجرة موثقة بأنساب محفوظة بإخلاص مع معظم القبائل السودانية. ولأسباب سوف تظهر فيما بعد (انظر "الإرث النَسّبى")، فإن هذه الكتلة من الشهادة المختلطة في تعارض تبدو بعيدة بعض الأحيان عن النتائج الثابتة، تكاد في تركيبها الداخلى وخطها العام لا تصلح خامّةً لإستعمال المؤرخين (١١). مع هذا، أُجرى تحليل مُمّحص إنتقادياً للتاريخ الشعبى السودانى قبل نصف قرن مضى من السير هارولد ماكمايكل الراحل قبل وقت وجيز، ومن دراساته خرجت صورة متماسكةٌ سليمة عن التحركات القبلية السودانية. إن مؤلف ماكمايكل الرائد *تاريخ العرب في السودان* أصبح الخط القياسى لكل الدراسات التاريخية اللاحقة، وسوف يُتّبع بتوسع هنا (١٢).

يؤكد تقليد سودانى عريق أن قبائل معينة - هاجرت مباشرةً بعبور البحر الأحمر من شبه الجزيرة العربية إلى السودان (١٣). إن عدد الرجال والحيوانات الذى يمكن أن يؤدى عبوراً كهذا صغير، كيفما جرى، بالضرورة (١٤). والواضح أن الكتلة الأعظم من هجرة البدو جاءت إلى النوبة وأراضى السهل الموصولة عن طريق مصر. تبدأ قصتنا لهذا مثل كل تطورات متحولة في التاريخ النوبى، في القطر الشمالى.

تحدثاً عاماً، لم يلعب البدو دوراً هاماً في التاريخ المصرى. إن الصحارى التى لا حياة فيها والممتدة بعيداً عن جنبات النيل، لم تمنح معيشةً حتى لأشد الناس والحيوان تقشفاً. المرتفعات الأعلى لتلال البحر الأحمر، والشريط الساحلى للبحر الأبيض المتوسط، والواحات في الصحراء الغربية وحدها هى التى أتاحت وطناً ملائماً للبدو الرعويين، عدا أن هذه الأقوام أزمان ما قبل الإسلام كانت على العموم قليلة جداً ونائية عن النيل ليكون لها أى أثرٍ نافذ الأهمية على سكان الوادى. ألحقت كذلك جماعات بدوية نفسها من وقت لآخر بتخوم الوادى المزروع، لكنها في النهاية يجرى استيعابها دائماً في بوتقة المزارعين *الفلاحين* وتفقد عاداتها الرعوية وخصائصها القبلية.

كان فتح العرب لمصر في ٦٤٠ - ٦٤٢، يواكب في حدوثه، أول هجرةٍ بدوية كبرى لوادى النيل. فالجيش الغازى كان مكوناً بنسبةٍ عظيمة للغاية من رجال القبائل، أخذوا عياناً دون تمييز من أغلب القبائل بشبه الجزيرة العربية. بحلول عام ٦٤٢ يقال إنهم بلغ عددهم بالتقريب ٢٠.٠٠٠ رجلاً (١٥). وهذا هو الرقم الذى يُعطى عادةً كحجم للجيش المسلم الذى غزا النوبة بلا نجاح في ٦٤٢ (الفصل الرابع عشر) (١٦). غير ممكن أن يقال كم من هؤلاء المهاجرين إستقر بمصر بعد الفتح، إلا أنه من المحتمل أن الغالبية فعلت ذلك. تضخمت أعدادهم أثناء القرنين التاليين من خلال الهجرة. طبقاً لِ

ماكمايكل "المناسبات الزعيمة للهجرة المقيمة كانت وصول حكام جدد. كل واحد يحميه جيش مرافق من أى عدد إلى ٢٠٠٠٠ رجلاً، عديدون منهم لم يرجعوا أبداً إلى سورية أو بلاد العرب. إن نسبةً من هذه الحشود المتدافعة كانت فُرساً، وأتراكاً وقبائل أخرى، غير أن الأغلبية كانوا عرباً مألوفاً أن يكونوا أعضاء من قبيلة الحاكم نفسه" (١٧). إضافةً إلى هذه الزيادات المنتظمة،أُغرى أعضاء من قبيلة قيس عيلان ليستقروا في مصر السُفلى ثقلاً مضاداً لنفوذ الأقباط بتمردهم المتزايد. بعيداً عن تدعيم أمن الحكومة المركزية، مع هذا، أصبح رجال القبائل أنفسهم نواةً دائمة للعصيان (١٨).

بداية الأمر لم يذهب معظم العرب في مصر للحاق بالجماعات البدوية التى كانت مقيمة من قبل في تلال البحر الأحمر والواحات الغربية، إذ أنه على خلاف البدويين الأوائل لم يكونوا ملزمين بإقامة وأدهم كليةً أو حتى بأنشطة رعوية أساساً. نُشروا كقوات حماية غير نظامية في محافظات مصر السُفلى والوسطى، على غرار ما نُشرت عليه جماعات عربية في المناطق المفتوحة من سوريا والعراق. مكّنهم هذا من رعى حيوانهم، كما كانوا يفعلون على طوال الأطراف وفوق الحقوق المحصودة في وادى النيل، برضاء *الفلاحين* أو من غيره. الأشد أهمية، مع ذلك، أنه مكّنهم من فرض ضريبة على *الفلاحين* أنفسهم. العرب في مصر، مثل جماعات بدوية أخرى عديدةً قبلهم ومنذ أيامهم، عاشوا طفيليين أكثر منهم رعويين.

ولترسيخ فعاليتهم وحراكهم العسكرى، مُنع العرب في مصر والمحافظات المفتوحة الأخرى من إمتلاك الأرض أو الإشتغال بالفلاحة (١٩). هذه السياسة قصيرة النظر كانت تبرهن إضرارها بالنظام المدنى. فما كان العرب على استعداد دربةً ولا إرثاً للدور العسكرى الذى عُين لهم متى انقضت حروب الفتح؛ كانوا لأقصى حدٍ مشاكسين ليؤدوا الخدمة كحاميات إقليمية ولا يمكن للغاية أن يعتمد عليهم ليخدموا كقواتٍ لرعاية الديار. في نفس الوقت حال النهى عن إمتلاك الأرض دون إستقرارهم في حياة مفيدةٍ بين أعطاف المحافظات المفتوحة، وحُكم عليهم عملياً بالعودة لشريعة الغاب اللاقانونية بالسلب والنهب أزمان ما قبل الإسلام ولو تمنّوا غيرها.

بعد ثورة العباسيين في ٧٥٠ (٢٠) وجد العرب دورهم العسكرى منزوع المبادرة بمستوى متزايدٍ من جيوش لأرقاء من أصل فارسى وتركى. الناتج كان مسلسلاً طويلاً من العصيان العربى الذى سلخ رجال القبائل من الحكومة مدى بعيداً وقد كانوا أعانوا على خلقها. أخيراً، في ٨٣٤، "إستهل الخليفة المعتصم حكمه بإصدار أمرٍ إلى واليه في مصر بإزالة أسماء كل العرب من سجل المعاشات وأن يُوقف دفع رواتبهم. كانت تلك بحقٍ نقطة تحول في تاريخ العرب في مصر. إختصاراً ما كانت ثمة حاجة لخدمتهم كمحاربين: لقد استُبدلوا بعبيدٍ عساكر اتراكاً..." (٢١). وبلغت إزاحة العرب ذروتها في ٨٦٨ عندما قام واحد من حكام مصر الأتراك، ابن طولون، بخلع ولائه للخليفة وأسس أول الأسر التركية الحاكمة في مصر.

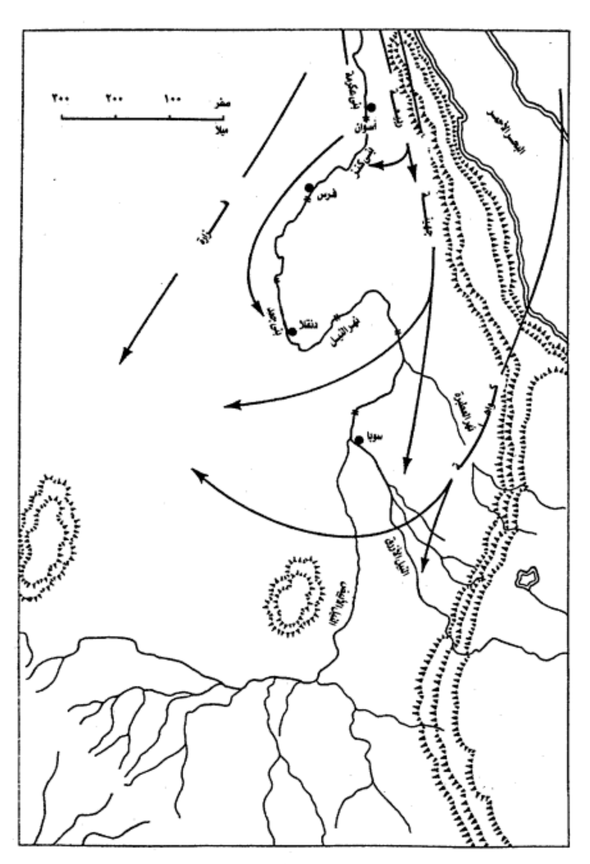
بما لا يثير عجباً بدأ عديد من العرب المصريين ساخطين منزوعة أملاكهم في النزوح بعيداً عن وادى النيل إياباً إلى الحياة البدوية في أزمان سالفة. تبع بعضهم النيل لمنطقة أرحب حرية نسبياً في مصر العليا؛ وانتقل آخرون غرباً يقطعون شمال افريقيا؛ يجتاحون ويستعربون مصادفةً رصيفاً من قبائل البربر الأصلية؛ وما فتئ آخرون يلتحقون بالبجا في التلال الشرقية وعلى طول ساحل البحر الأحمر. "إنها حقيقةٌ أخاذة، لكنها غير مدهشة بالمرة"، يقول ماكمايكل "كان ميل كل أسرة متعاقبة حكمت مصر وبدرجة متزايدة الا يُعَد الأعراب، أى البدو، تشكيلاً لجزء متكامل من الدولة بما يتعدى إعتبارهم كعنصرٍ للخطر والقلاقل المتراوحة على حدود البلاد، يُستعملون متى رُغب في إستخدامهم إنما يجب ألا يُمنحوا أبداً وزناً أكبر مما كانوا يملكونه من قوة للإبتزاز" (٢٢). وبعد ما لم يتخطَ ثلاثة قرونٍ من بزوغ نور الإسلام، وجد البداة أنفسهم في الوراء حيثما كان مبدؤهم: بروليتاريا خارجية. مذاك حتى أزمانٍ حديثة إنصرفت طاقاتهم بصورة أساسية كقوة مُخَرِبَةٍ إلى ما بين الإمبراطورية التى

أعانوا آنفاً على بنائها وفي قُبالتها.

نحو ما رأينا في الفصل الرابع عشر، أقام تجار عرب وربما مقيمون آخرون في أقصى جزء شمالي النوبة قبل أيام بني كنز (قارن الفصل السادس عشر). وإلى الحد الذي تقدر فيه الهجرة واسعة النطاق، مع ذلك، كان الطريق جنوباً على طول النيل مسدوداً بالعداء العلني من الممالك المسيحية (المدعومة بميثاق معاهدة *البقط*) وبمصادر النوبة السُفلى وبطن *الحجر* الرعوية الشحيحة على حد سواء. المفتاح الحقيقي للإختراق الجنوبي كان تلال البحر الأحمر فهنا انطلق أول إختراق عربي.

بداية القرن التاسع عشر كانت معظم قبائل البجا التي عاشت في تلال البحر الأحمر لاتزال وثنية، مع أن قلةً كانت قد تبنت المسيحية إسمياً، وآخرين، على الأخص في المقاطعات الساحلية، ربما كانوا اعتنقوا عقيدة الإسلام من قبل [٢٣]. والى رجال القبائل الإغارة على مصر العليا عندما طرحت السانحة نفسها، وفي ٨٣١ إضطُلع بحملة تأديبية بحقهم من الخليفة المعتصم. كان هذا طبقاً ليوسف حسن هو الحدث الحاسم في فتح تلال البحر الأحمر لإستيطان العرب [٢٤]. غُلبت البجا وأُجبرت على توقيع إستسلام يعترف بالخليفة سيداً مطاعاً عليهم ويدفع جزية سنوية. إحتوت الإتفاقية جملةً من نفس الفروض كما فعلت معاهدة *البقط* مع النوبيين [٢٥]، خلا أنها كانت إستسلاماً أحادياً ما كفل شيئاً للبجا مقابل خضوعها. ثم مُنع رجال القبائل من أن يدخلوا مدن مصر وقراها، ولكن لم يكن هنالك بند، كما في حالة النوبة، في مواجهة المصريين أو الأعراب الداخلين والمقيمين في بلاد البجا. وتبعاً لحسن "بالموافقة على دفع الجزية عومل البجا كقوم مقهورين. وعندما اعترف كَنُّون [عماد زعماء البجا] بالولاية العباسية وأمسى مأموراً لها، وجد الأعراب المنتصرون الفرصة ليمدوا من نفوذهم الخاص، في الورق على الأقل، بعيداً صوب الجنوب حتى بادي. كانت مكاسب العرب لذلك من الضخامة بمكان وعملت المعاهدة رأس حربةٍ لفتح البلاد لنفوذ العرب. أضحى الأعراب أحراراً في التنقل حول المنطقة أو الإستقرار بها؛ وأمنت مصالحهم التجارية، وحريتهم الدينية، وسلامتهم الشخصية جميعها بهذه الإتفاقية" [٢٦]. ثم يضيف ماكمايكل إن "النتيجة الرئيسة في مصر كانت توقف الإغارات على حدودها الجنوبية، وبالنسبة للبجا إكتساب كل السيطرة القبلية بنخبةٍ عربية طاغية" [٢٧].

في حين أنه يصعب أن يفرد حدثٌ تاريخي معين كبداية لحركةٍ سكانية كاسحة، ليس ثمة شك أن العهد الذي أعقب مباشرةً حملة المعتصم ومعاهدته شهد حركة ذات نطاقٍ واسع للأعراب إلى داخل بلاد التلال شرقاً وجنوباً من مصر. مرة ثانية طبقاً لحسن، كانت حمى الذهب واحدة من البواعث الزعيمة لهجرة العرب الباكرة، لقد كان خلال هذا العهد أن المغامر العُمَري أسس دولته المارقة في منطقة التعدين فوق أبو حمد (الفصل الخامس عشر) [٢٨]. إن المستوطنين العرب والنفوذ العربي إنتشروا إلى الجنوب تدريجياً على امتداد إقليم البجا برمته إلى بُعْدٍ بلغ حدود الحبشة؛ تحولت القبائل الأصلية إلى الإسلام من خلال العمليات العادية للتزواج والتحالف، كما كان على النوبيين أن يصيروا إليه فيما بعد. أما الجماعتان العربيتان اللتان شملتهما هذه الحركة في المقام الأول فهما رَبيعة وجُهينة ـ وكلاهما في الأصل قبائل من الحجاز إستوطنت مصر العليا قبل هجرتها إلى الجنوب [٢٩]. لوقتٍ ما حكم البجا أعضاء من القبيلتين نخبةً طاغيةً من الخارج [٣٠]؛ ومع ذلك تعايشت ربيعة مع رعاياها في نهاية الأمر لتكّون بني كنز (قارن الفصل السادس عشر) وربما قبائل بجاوية مهّجنة أخرى، فقدت إسمها وملامحها الأصلية. ربما امتزج كذلك بعض أعضاء جُهينة مع البجا، لكن الجزء الأعظم من هذه القبيلة الكبيرة المتماسكة بشكلٍ إستثنائي تمسك بخصائصه ولغته المنفصلين، واستأنف سيره فيما هو بادٍ من بلاد البجا إلى المراعي المفتوحة وراء النيل (قارن الشكل رقم ٨١).



الشكل رقم ٨١

الهجرات العربية الرئيسة في القرون الوسطي

من القرن التاسع إلى الرابع عشر إنحصر إستيطان العرب ونفوذهم في المنطقة الكائنة شرق النيل؛ أي بالضرورة بلاد البجا. واصلت الممالك المسيحية قيامها كحاجز في مواجهة هجرة البدو المتجهة غرباً. وتكاثر الضغط عليها في ثبات مع هجرات العرب المستمرة، ثم أصبح قاسياً بعد أن بدأ المماليك سياسة مضايقتهم للبدو في مصر. وانداح جزء من الحاجز المسيحي عندما اخترق النوبيون الشماليون ودُمجوا مع بني كنز، على أن طريق النيل بقي غير صالح للهجرة على نطاق واسع، ولم يعقب إستعراب الكنزي تدفق غزير. أُقفلت الطريق إلى الغرب من مُحافظة دُنقلا، ليس النوبة السُفلى، وعندما تقطعت الأسباب بالمملكة النوبية العليا في القرن الرابع عشر المتقدم فترة، إنفجرت أبواب الفيضان مفتوحةً على مصراعيها.

يعزو التاريخ الإطاحة بدُنقلا إلى تركيبة من المماليك، وبني كنز، وبني عكرمة (قسم صغير من عرب قبيلة قيس عيلان التي كانت قد انتقلت إلى مصر العليا وتظاهرت دائماً مع بني كنز وبني جعد (وهم بدورهم فرع من بني عكرمة، إستوطن أرض الهامش الحضري والثقافي لدُنقلا) [٣١]. سيكون مذكوراً أنه عقب هجوم غادر على بني جعد إنسحب آخر حاكم نوبي من دنقلاً، تاركاً المدينة والمقاطعة المحيطة بها في أيدي الأعراب. على أن المنتفعين الحقيقيين من الإطاحة سوف يبين أنهم كانوا جُهينة. فطبقاً لابن خلدون كانو هم الذين اكتسحوا المملكة إلى أقصى مشارفها، وتقسموها بالتالي عموديات متحاربة [٣٢]. كذلك كانوا هم أساساً الذين تحركوا، في أعداد متزايدة أبداً، نحو الغرب بقطع أرض دنقلا النهرية الخاضعة حديثاً إلى جوف مراعي كردفان ودارفور التي ما استعملت إلا قليلاً. نتج عن هذا، أن كل بدو البقر والإبل تقريباً في السودان الحديث يدَّعون سلفاً جُهينياً. وفي الجانب الآخر إختفى بنو كنز، وبنو عكرمة، وبنو جعد من التاريخ.

متباطئةً، بعد أن استُعمر غرب السودان، بدأت موجة نهائية من هجرة البدو مباشرةً من مصر إلى كردفان ودارفور، في أعقاب القوافل في غرب النيل الذي كان سيصبح مشهوراً بدرب الأربعين "طريق الأربعين يوماً". بعض المهاجرين على طول هذا الطريق كانوا من البربر المصريين (الهوارة)؛ وآخرون أعضاء من قبائل فزارة التي ربما مَثَّلت فرعا مبكراً من قيس عيلان. هذه الهجرة الغربية المتأخرة كان لها أثر هام يلاحظ وإن لم يكن مباشراً على موقف النوبيين، إذ أنها افتتحت إقليماً غنياً في جدَّمٍ لصيد الناس رقاً. محصلة لذلك فإن الحمولات البشرية التي اجتازت ذات مرة شمالاً عبر الممالك النوبية، جالبةً الرخاء لحكامها مباشرة أو غير مباشرة، إرتحلت الآن بدلاً منها على الطريق الصحراوي وهو ما سيطلق عليه الأوروبيون "درب الأربعين الشهير" [٣٣].

بالرغم من أن البدو استمروا في دخول السودان بلا نظام حتى القرن التاسع عشر [٣٤]، كانت الموجة الرئيسة لهجرة العرب فيما هو محتمل منقضيةً بحلول القرن السادس عشر الميلادي [٣٥]. لقد أُتبعت بفترة تَمثُّل نكاد لا نعلم عنها، لسوء الحظ، شيئاً. وفي هذا الموضوع إما أن التواريخ القبلية صامتة أو مُضلّة عمداً، متجاهلةً المساهمة الأهلية لثقافات السودان الحالي اليوم أو، فيما عدا ذلك؛ صارفةً لها كناتج بالمصادفة التي لا دلالة لها لتزواج العرب مع عدد صغير من نسوة الوطنيين [٣٦]. يضاف إلى هذا، أنه ما من مراقبٍ خارجي ترك لنا تدويناً متَّسقاً للأحداث في النوبة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. والحاصل، أن القليل الذي نعلمه عن الفترة الحرجة للإستعراب لابد أنها بلغت بدرجة عالية عن طريق الإستدلال المنطقي بناءاً على الأحداث العامة. في الصفحات القادمة سوف نقدر ثلاثة وجوه لعملية التمثل: أولاً، التداخل الإجتماعي والثقافي للأعراب والأهالي الأصليين؛ ثانياً، "الإستعراب الروحي" للنوبيين، وهو أمر لا يعود للتغير الثقافي لكنه رؤيةٌ لذات أُعيد تعريفها؛ ثم ثالثاً إنتشار الإسلام، الإيمان الذي أصبح القاسم العام الأصيل لكل أقوام السودان شمال المدارين.

كما أبان تريمنغهام، إن التمثل الثقافى والعرقى الذى أخذ مكاناً بعد هجرات العرب كان عملية ذات طريقين، تشمل في جانب إستعراب السوداني الأصيل وفى الجانب الآخر "تأصيل المهاجرين" [٣٧]. كانت الغالبية العظمى من القادمين الجدد بداة، يَقْرُب الأثر الثقافى الذى قاموا ببثه بين الأقوام السودانية من واحدٍ منتظم. من ناحية أخرى عرض السكان الأصليون الذين تم اكتساحهم تشكيلةً من الثقافات واللغات متفاوتة الأثر على الفاتحين بقدرٍ متماثل. إضافة إلى ذلك كانت هناك إختلافات بيئية غفيرة فيما بين موطن العرب الجديد سرعانَ ما أوجبت عليهم أن يتكيفوا مع عددٍ من الأحوال المحلية. وقد نتجت من خلال عملية التمثل بالتالى صورةً مشكّلة جديدة من الأقوام والثقافات لا تزال باقيةً على حالها إلى اليوم الراهن. إن قاسمها المشترك الأعظم هو العقيدة الإسلامية وحدها: حيثما نفذ العرب، إنتصر دينهم على كل المنافسين. كذلك أصبحت اللغة العربية شائعة الإنتشار في تضاعف، مع أن أناساً مثل النوبيين الشماليين والبجا لم يخرجوا عليها فحسب لكنهم إستوعَبوا عدداً من المهاجرين الناطقين بالعربية سابقاً في مجموعات لهجاتهم الخاصة.

رغماً عن أن السكان الحديثين في السودان المستعربة [٣٨] يعدون أنفسهم أعضاء لما يتعدى مائة قبيلة فردية [٣٩]، يمكن التعرف على خمس تقسيمات ثقافية و/أو لغوية كبرى بينهم. ساحل البحر الأحمر والمرتفعات تستمر مشغولةً بقبائل بجا غير متمثلة أو متمثلةً بشكل غير مكتمل، ما انفك معظمها يتحدث لهجات حامية موروثة من السلف. كانوا منظمين وما زالوا، فرقاً صغيرة مبعثرة، بدلاً من إتحادات قبلية عظيمة مثل بدو العرب [٤٠]. على طول النيل من أسوان إلى الدبة (على أسفل المنحنى العظيم فوق دُنقلا) يظل النوبيون غير المتمثلين، حُولوا للإسلام لكنهم يحتفظون بلغتهم الإفريقية والمزاج الزراعى للحياة الذى اتبعوه منذ أيام الفراعنة. وعلى اتجاه مصب النهر من حيثما وُجد النوبيون الحقيقيون إلى مسافةٍ تصل ملتقى النيلين الأزرق والأبيض ما يدعى بقبائل الجعليين. إنهم مع إدعائهم شجرة نسب عربية خالصة [٤١] في الحقيقة نوبيين مستعربية اغلب تكوينهم مع مزيج صغير فحسب من الدم العربى الأصيل [٤٢]. معظم قبائل الجعليين كذلك تواصل حياة الفلاحةً النهرية لأزمان ما قبل الإسلام، بالرغم من أن قلة تبنت وجوداً شبه بدوى في هامش أرض النيل وفى جنوب كردفان.

شرقاً، غرباً، وإلي الجنوب من الجعليين قبائل لا حصر لها من بدو الإبل يتبعون حياة رعوية شبيهة ببلاد العرب، وهم بين جميع السودانيين من يملكون أعظم إدعاءٍ شرعى لأن يكونوا عرباً حقيقيين. فمثل بداوة شبه الجزيرة العربية يتجولون فوق مقاطعات شاسعة في هجرات جماعية، عظيمة [٤٣]. ويدَّعى كل بدو الجمال بالتقريب جُهينة أسلافا لهم. أخيراً، في أراضى العشب الجنوبية لكردفان ودارفور، غرب النيل، تطورت جماعة خاصة من البدو - قبائل البقّارة - تعيش على البقر بدلاً من الإبل، والأغنام والضأن. اغلب البقارة ايضاً يدَّعون تسلسلاً من نسب جُهينى، على أن هذه القبائل إستوعبت كذلك أقواماً أصليين بأعداد كبيرة، مثلما أن طابع رعيهم الخاص إفريقى أشد منه عربياً [٤٤].

الجماعات الخمس المذكورة آنفاً تشغل كل الصحراء وأراضى السهل في السودان الحديث، فيما عدا بعض الجيوب القبلية في الغرب البعيد. الغالبية العظمى من السودانيين اليوم تنتمى للجماعات الثالثة، والرابعة، والخامسة، أى للجعليين والبدو متحدثى العربية. إنهم شائعوا الإنتشار لدرجة أن أسماء الجعليين وجُهينة صارت بوجهٍ خاص مصطلحات نوعية عملياً للمزارعين النهريين والبدويين بالترتيب، وفقدت أى دلالة ذات قيمة قبلية محددة [٤٥]. إلى الجنوب من الجماعات الخمس تبقى قبائل الغابة والسافنا زنجية خالصة، وثنية[*] سابقاً والآن مسيحية في الغالب، غير متأثرة

(*) يُرجى الرجوع إلى الهوامش السابقة حول مفهوم الوثنية – المترجم.

بمستوى بالغ بالنفوذ العربي. هؤلاء الناس ما جُذبوا إلى ثنايا صلة فعلية مع الشمال المستعرب حتى مجئ التوسع المتجه جنوباً غارات لطلب الرقيق في القرن التاسع عشر، وماهم بجزءٍ من قصتنا. مع ذلك، ظل تمثلهم هدفاً رئيساً وإشكالاً دائماً للحكومات السودانية الحديثة (قارن الفصل التاسع عشر).

ولأن هذا الكتاب في وضعه السليم تاريخ للنوبة أبرز منه تاريخاً للسودان(٤٦)، سوف يقتصر عناؤنا في الصفحات التالية على استعراب النوبيين والجعليين، النوبيين السابقين. بل إنه بالنسبة لهؤلاء الناس لا نستطيع أن نصف عملية التمثل بأى تفصيل، ذلك أن سردنا التاريخى الوحيد عنها هو سرد ابن خلدون : "أفخاذ عديدة لقبيلة العرب جُهينة إنتشرت في أنحاء بلادهم واستوطنت هناك. إن ملوك النوبة حاولوا، في البداية، طردهم بالقوة. أخفقوا، فغيروا وسائلهم وحاولوا كسبهم إلى جانبهم بمنحهم بناتهم أزواجاً. هكذا تحللت مملكتهم، لأنها صارت لأبناء جُهينة من أمهاتهم النوبيات في إتساقٍ مع ممارسة الوراثة غير العربية بالأخت وأبنائها" (٤٧). ونحو ما ذكرنا مُسْبَقاً (الفصل السادس عشر)، لا يمكن أخذ هذه المقالة المنقولة دائماً تفسيراً لسقوط الممالك النوبية المسيحية. من الجانب الآخر يحتمل أنها تعطى نظرةً صحيحة إلى باطن عملية التعريب اللاحقة، موحية بأنها كانت بادئ ذى بدء عملية إجتماعية وليست أيدولوجية إلا بدرجةٍ ثانوية فحسب.

فى غياب معلومات تاريخية تفصيلية يمكننا فقط أن نحكم على عملية التعريب بحساب ناتجها النهائى؛ أى، أن باستطاعتنا أن نرصد الدرجات المتفاوتة للإستعراب وسط النوبيين الحاليين اليوم والنوبيين السابقين، ونحاول أن نعللها بالنظر إلى اختلافات في البيئة والتجربة التاريخية.

النوبيون الكنوز في الضاحية المباشرة لأسوان هم بلا ريب أول من يحس بأثر الهجرات العربية، حيث أنهم كانوا إضافةً إلى ذلك أول نوبيين تحولوا بتأكيدٍ للإسلام. قصة إختراقهم بالداخل ودمجهم النهائى مع قبيلة بنى كنز العربية ـ البجاوية أُخبر به مسبقاً (الفصل السادس عشر). بالرغم من الدور التاريخى الكبير الذى لعبه بنو كنز، لابد أن العنصر العربى كان في وسطهم صغيراً نسبياً، إذ أنه ابتُلع نهاية المطاف في حَوق السكان الأصليين. يبدو، أيضاً، أن صلةً نشطة وتمازجاً إنحصر بين النوبيين الشماليين والأعراب في الفترة الأولى من الهجرات العربية، بين القرنين التاسع والرابع عشر. متى افتتحت بلاد البجا، تبع معظم البدو مراعى جبال البحر الأحمر في تفضيل على وادى النيل غير المنتج بأعلى أسوان. معزولين بهذه الصورة من حركات العرب الأخيرة، عاد الكنزيون بشكلٍ متزايدٍ قبيلة نوبية خالصة. ويجب أن يذكر، مع ذلك، أنه في العهد الحديث إستوطنت جماعات خارجية معينة ـ عرب العقيلات والعبابدة المتحدثين بالعربية ـ وسط الكنوز دون أن يتمثلوهم (٤٨).

الكنوز، الذين تختلف لهجتهم عن لهجة النوبيين المحس إلى جنوبهم يحتفظون بحسٍ قوى صفاتهم القبلية. يدَّعى معظمهم سلالة ربيعة الموروثة لبنى كنز (٤٩)، التى تملك قاعدة شرعية معَ أنها مضّخمة في الحقيقة التاريخية. أياً كان ذلك، يظهر أن بعض الكنزيين تبنوا إدعاء التسلسل في النسب إلى العباس، عم النبى، وهو نسب شائع لكل قبائل الجعليين (انظر أدناه) (٥٠).

من بين كل النوبيين ظل متحدثوا المحسية، الذين يمتد اقليمهم من المحرقة في الشمال إلى ما يقرب من كرمة في الجنوب، الأقل تأثراً من الناحية المباشرة بالهجرات العربية. ما كان بلدهم الجافى مُتجنباً بمفرده من كل حركات السكان الرئيسة في العصور الوسطى وحدها، إنما من خلال وقائع الجغرافيا، يُفصل موطنهم عن المراعى المأهولة بشريط صحراوى عريض أكثر مما عليه أى جزء آخر بوادى النيل (الشكل رقم ٩). كما يقول حسن "... لم يُجذب أغلب المهاجرين بالصحارى النوبية ولا بالشريط الضيق للأراضى المزروعة على طول النيل. طرقوا ارتحالاً بعيداً. إن عدد الذين امتزجوا بالنوبيين شمال دنقلا لم يكن من الكبر بما يكفى لتحويل السكان إلى سكانٍ يتحدثون العربية. أما الذين استوطنوا فكان عليهم أن يعلموا تقنيات الزراعة وأن يكتسبوا لغة الفلاّحين المستقرين، التى

كانت ... نوبية، وفي وقت سريع فقدوا هويتهم" [٥١]. لقد أمعنّا النظر من قبل في منطقة المحس النوبية عاشت فيها الممارسة المنظمة للمسيحية حياة أطول عمراً (الفصل السادس عشر)، وإنه وسط محس *بطن الحَجر* توجد أوضح متبقيات مسيحية [٥٢]. في العصر ما بعد المسيحي، علاوة على ذلك، ما حُكم النوبيون من العرب، إنما حكمهم الأتراك المعينون من النظام العثماني في القاهرة.

ليس للنوبيين المحس حس متطور ذو مضاء بالقبيلة. إنهم يتحدثون عن أنفسهم بشكل إتفاقي يُجمل إنتماءهم في ثلاث مجموعات: المحس الأصليين، والسكوت والفديجا، لكن هذه في الحقيقة كلمات جغرافية تشير إلى أجزاء مختلفة من وادي النيل. لقد كان هناك توثيق قليل تاريخياً لزيجات العرب المتداخلة حتى أن محساً كثيرين يَدّعون إلتزامهم بسلالةٍ مسلمة من الأتراك - أربابهم المستعمرين السابقين، من دون الأعراب [٥٣]. خلافاً لذلك، تدّعي الجماعة ككلٍ تحدراً إما من جُهينة أو من الخارج، وفقاً لنسبين يبدو كلاهما نائياً [٥٤].

في لُغْزٍ مُحَيّرٍ برغم حقيقته، فإن المحس في بعض الجوانب أفضل إسلاماً، مع أنهم أقل النوبيين إستعراباً. من فترة باكرة - ربما بسبب بعض تقليد مطول نُقل من أزمان مسيحية - وضعوا قيمة عالية للتعليم، وفي الفترة الحديثة الأولى أخرجوا عدداً غير عادي من *جماعة الفكي* (*)، أو المتفقهين في الدين. طبقاً لماكمايكل "في بعض تاريخ مبكر، ربما حوالي زمن تأسيس مملكة الفونج، ترك بعض المحس وطنهم في إدعاءات مفترضة لعصبةٍ نبيلة وقدراً معيناً من التعليم ونصّبوا أنفسهم رجال صلاح بين خليطٍ حابل ونابل وعلى أشد الجهالة من الأعراب، والفونج، والنوبة في الجنوب. بذا نهضت مستوطنات المحس في الأراضي النهرية السُفلى للنيل الأزرق وحول الخرطوم ..." [٥٥]. بعض هذه القرى لا تزال تستمد دخلاً وفيراً مما يدعوه تريمنغهام "متاجرة الفكي" [٥٦]. هؤلاء النوبيون المهاجرة أصبحوا مستعربين حتى النخاع، فقدوا حديثهم الأصلي، والآن يعدون أنفسهم أعضاء فيما يقارب إثنتي عشرة "قبيلة" [٥٧]. مع ذلك فإنهم يحتفظون بآثار معينة من أصلهم الشمالي، مثل ممارسة تغطية القبور بحصا أبيض (الممارسة النوبية الخالدة لثقافات كرمة وبلانة) وترك قداح من الماء بجانب القبور [٥٨].

الدناقلة (حرفياً أهل دنقلا)، إمتداداً بلا تدقيق من الشلال الثالث إلى الدبة، هم الأقصى جنوباً من الجماعات النوبية الباقية على قيد الحياة. يظهرون نفوذاً عربياً أقوى بمراحل من جيرتهم الشمالية ولذلك السبب صنّفهم ماكمايكل [٥٩] وهولت [٦٠] وسط قبائل الجعليين بدلاً عن تصنيفهم برابرة (المصطلح الجماعي الحديث الذي يستخدم اليوم للمتحدثين بالنوبية) بالرغم من أنهم يحتفظون بلهجتهم الأهلية.

لقد رأينا أن الإطاحة بمملكة دُنقلا في القرون الوسطى تم إنجازها بتجمع من القبائل العربية وبني كنز العرب - النوبيين. منذ ذلك الوقت يعيش الدناقلة في إحتكاك وثيق ومتواصل مع العرب. لزمنٍ طويل كانوا خاضعين سياسياً لنخبةٍ عربية طاغية، بالرغم من أنه بمضي الوقت تزاوج زعماء العربِ مع الأهالي، وفي المقاطعات الشمالية عادوا إلى استعمال اللغة النوبية. إضافة إلى حضور أرباب عرب، كانت أرض دنُقلا النهرية ملاصقةً من الجنوب والغرب لمراعٍ هامشية محتلة منذ انهمار العرب من الكبابيش والهواوير، الأوائلة من فرع جُهينة [٦١] والأخيرين قبيلة بربر مستعربة [٦٢]. نتيجةً لذلك كان هناك، على الأقل موسمياً، سكان بداة على اعتبار في منطقة دنقلا، مثلما كان الحال عليه في كل المقاطعات النوبية بالجنوب البعيد. أخذ بعض الدناقلة أنفسهم لحياة بدوية أو على غرار

(*) ثَنَّينا بجمع كلمة "الفكي" التي إستخدمها المؤلف، مبشرين لها "بجماعة الفكي" مرادفةً بشكل عام لكلمة "الفقيه" و "جماعة الفقيه" ؛ و "الفكي" مصطلح شائع في العربية العامية السودانية بمضامينه الإجتماعية والدينية التي تدل على مكانة "الفقيه" أي الشخص الذي تفَقّه في علوم الدين بالدراسة في معاهد دينية؛ وكثيراً ما يُمَيّز بينه وبين "الفكي" الذي يتلقى إلمامه بالدين من شيخ صوفي بعَينه أكثر من معهد ديني معروف. – المترجم.

البداوة، وانتقل بعضهم إلى الجنوب الغربي داخل كردفان، حيث صاروا اليوم، رعاة ومزارعين على حدٍ سواء [٦٣]. في وقت الصق قرباً تسربت أعداد وفيرة من أفراد الدناقلة إلى داخل غرب السودان سعياً وراء التبادل السلعي وتجارة الرق [٦٤].

الدناقلة كجماعة ليس لهم حس بالتضامن العرقي، لكنهم بدلاً من ذلك يعدون أنفسهم أعضاء لعددٍ من قبائل "عربية" مختلفة كل واحدة منها حتى القرن العشرين لها *مك* خاص أو ملك صغير [٦٥]. على نهج الإفتراض، كان هؤلاء أحفاداً للنخبة العربية الطاغية التى انتشت بأصالةٍ في الأيام اللاحقة بالمملكة المسيحية. لقد كان *مك* قبيلة البديرية هو الذى في القرنين السابع عشر والثامن عشر اقام بدنقلا العجوز كآخر وريث للملوك المسيحيين (قارن الفصل الثامن عشر)، بالرغم من أنه في الحقيقة كان مأموراً لحكام اشد قوةً في الجنوب [٦٦]. قبائلٌ دناقلةٌ أخرى إلى جانب البديرية هى الطريفية، والحكيماب، والجوابرة [٦٧]. والأخيرون، في الأصل فرع من بنى عكرمة [٦٨]، يقال إنهم جرى نفيهم من مرتع سابق في النوبة السُفلى من ناحية الأتراك، بالتالى، أضحوا أفضل القبائل رخاءاً في منطقة دنقلاً [٦٩]. كل قبائل الدناقلة، مثل أبناء عمومتهم الجعليين المستعربة، يدَّعون تحدراً من العباس، عم النبى [٧٠].

ما من شرح مُرضٍ قدم بعد للتوزيع الخارج عن المألوف للهجات النوبية الحديثة؛ أى، العلاقة القريبة للكنزى والدنقلاوى ومسافتهم القَّصيّة عن اللغة المحسية الداخلة بينهما (قارن الفصل الثانى). إن الإختلافات النزيرة نسبياً بين الكنزى والدنقلاوى يعتقد أنها ترجع لما لا يزيد عن ٥٠٠ عام [٧١]، في حين أن مفارقة هذين الإثنين للمسيحية (التى هى أقرب كثيراً للنوبة القديمة في العصور الوسطى) يعود تاريخها بمنهج التسلسل الزمنى - اللغوى إلى الجزء الباكر من الفترة المسيحية [٧٢]. ناتجاً لكل هذا، تبدو بعض حركة الناس حول إقليم المحس ضرورية لتعلل حضور لهجات قريبة الصلة إلى شماله وجنوبه. أما أخذ تدوين مثل هذه الهجرات من بنى كنز، وبنى جعد، والجوابرة، فيغرى بالقول لأن يقترح أن واحداً أو آخر من هذه الجماعات العربية المتَنَوِّبة نقلت غرس اللغة الشمالية إلى داخل أرض دنقلا النهرية. مع هذا، يعتقد ميليه أن "... فترة تدخل الكنوز في الشؤون الداخلية لدُنقلا في القرن الرابع عشر حسنة الإثبات تاريخياً ويبدو أنها كانت مختصرة للغاية دون أن يكون لها تأثير بشكل دائم على لغة تلك المنطقة" [٧٣]. علاوةً على ذلك، تشير بَيِّنة ابن سليم بصفاء إلى أنه كان هنالك فرق في اللهجة بين سكان ماريس (النوبة السُفلى و*بطن الحجر*) ولهجات المقُرة (النوبة العليا) في وقتٍ مبكرٍ يعود إلى القرن العاشر [٧٤]. في نفس الوقت لا تثير النصوص النوبية القديمة الحية ما إن كان يوجد فرقاً في اللهجة مقارناً بين مقاطعات النوبة السُفلى المعروفة اليوم التى تتحدث بالكنزية وتلك المتحدثة بالمحسية. وبوضع هذه الظروف في الإعتبار ربما علينا أن نقدر إمكانية أن أوجه الشبه بين الكنزى والدنقلاوى لا ترجع إلى هجرة المتحدثين بالكنزية صوب الجنوب إنما إلى نقل لهجة دنقلا غرساً صوب الشمال لفرس في نهاية العصور الوسطى. ودون محاولةٍ لحل المسألة نهائياً، من المحتمل أنه من المأمون على الأقل إفتراض أن الحركات السكانية المتعددة بين النوبة الشمالية وأرض دنقلا النهرية المشهود بها في الفترات المسيحية الأولى وفترات ما بعد المسيحية لها شأن بتأسيس و/أو صون علاقة لغوية قريبة بين المنطقتين [٧٥].

بإتجاه منبع النهر من الدبة لا يوجد متحدثون بالنوبة على قيد الحياة على طول النيل، بالرغم من أن معظم القبائل النهرية إلى بعد كالخرطوم جنوباً - ما يسمى بقبائل الجعليين - معروفة بأنها مكونة بصورة أساسية من نوبيين مستعربة . هذه الأقوام إستسلمت تماماً للعاطفة العربية نحو اللامركزية السياسية، وهى الآن تستجيب لما يتخطى أربعين إسماً قبلياً على اختلاف [٧٦]. في تتبع لإتجاه منبع النهر من الدناقلة النوبيين الحقيقيين، أهم قبائل الجعليين هى الشايقية، والرباطاب، والمناصير، والميرافاب، والجعليون الأصليون [٧٧]. كل هذه الجماعات تتقاسم شجرة نسب عامة، تقص تسلسلها

من العباس عن طريق إبراهيم جَعَل، جدهم المسمى بعينه (٧٨). وفقاً لحسن "يخرج إستنتاجان ذوا أهمية وقيمة من تحليل عصبة الجعلى: الأول هو المحاولة المقصودة لتجاهل الشريحة الفرعية النوبية التى طغى عليها المهاجرون العرب. والثانى ميل علماء الأنساب لعمل قياس موحد للعلاقات الداخلية بين هؤلاء النوبيين المستعربة وأن يصلوها بأجمعها لأصول جماعات الجعلىّ - العباسى. والحقيقة أن غالبية المهاجرين ما كانوا عباسيين لكنهم أعراب من تركيب مختلط" (٧٩).

إن استعراب الجعليين ربما كان راجعاً بأوسع معنى إلى خضوعهم لأرباب عرباً وإلى اتصالاتهم اللصيقة بعض الشئ بأقوام بدوية متنوعة؛ على أنه يجب ألا يفترض أن عملية التمثل أخذت مكاناً في كل ناحية بنفس الوتيرة أو تحت نفس الظروف. أرض أبو حمد يجوز أنها اختُرقت واستُعربت جزئياً حتى من قبل سقوط الممالك المسيحية ذلك لأن هذه المنطقة الصخرية ما كانت مأهولةً بدرجة رقيقة فحسب بالسكان. لكنها تقع بالقرب من طريق الهجرة عبر تلال البحر الأحمر أكثر من أى جزء بعيد من النيل بإتجاه مصّب النهر (الشكل رقم ٨١). أضف إلى ذلك، إن مناجم الذهب التى كانت مسرحاً لنشاط عربى جَم في القرنين التاسع والعاشر لا تقع إلا على مسافة قصيرة منها (٨٠).

صوب منبع النهر شمالاً من أبو حمد، كان إستعراب المنطقة حول الشلال الرابع متأثراً بقسر لعله ما كان بلا دراية من محاربى الشايقية الضوارى، نخبةٌ عربية طاغية سيعاد سرد أنشطتها بتفصيل أوفى في الفصل القادم. إن جباياتهم الغليظة على كاهل المزارعين النهريين أجبرت عديداً من النوبيين على الهجرة شمالاً لدُنقلا، في حين كانت البقية التى لا زالت حيةً من الضعف بحيث لا تملك أن تنشئ هوية منفصلة ثقافياً أو لغوياً (٨١). أما نوبيوا مقاطعة بربر، فوق الشلال الخامس، فكانوا خاضعين لعرب العبدلاب أرباب القتال بالمثل (٨٢)، لكنهم انفسهم كانوا بمستوىً أعظم أكثر عدداً ورخاء من نوبيى أرض أبو حمد النهرية. بقيت في وسطهم جيوب من الحديث النوبى إلى وقت متقدم كالقرن السابع عشر.

يبدو محتملاً أن السكان النوبيين لمملكة علوة - الذين ربما كانوا دائماً صفوة حاكمة صغيرة - قتلوا أو تم نفيهم انفاً لمدى بعيد بأمر الفاتحين الفونج أو "العبدلاب"، كما هو متضمن في *سجل أحداث الفونج* (الفصل السادس عشر). وعلى كل حال كان جبل حَجَر العسل الذي يقع شمال قَرِي في زمن مملكة الفونج، محسوباً من الناحية التقليدية بإعتباره التخوم الجنوبية للنوبة (٨٣). مع ذلك، هنالك عدد من قبائل جعلية غير هامة في شمال الجزيرة ربما كان لها أصل نوبى جزئى (٨٤).

الأثـر النسـبى

إلى أى مدى متقن تحولت نظرة النوبيين بمجئ الأعراب يجوز أن يحكم عليه من سرد تاريخهم الذى أعطوه للمكتشف السويسرى بورخارت في ١٨١٣: "طبقاً لتقاليدهم الخاصة يستمد النوبيون الحاليون أصلهم من العرب البدو، الذين غزو البلاد بعد إشهار الشرعة المحمدية، القسم الأعظم من السكان المسيحيين ... فروا أمامهم أو قتلوا؛ قلة ... إعتنقت دين الغزاة" (٨٥). هذا الإرث الشعبى شائع الإنتشار، الذى بقى سائراً حتى اليوم الحاضر، رمز للإستسلام النوبى للعرب الغزاة. ما أصبحوا مسلمين وحسب، لكنهم في رأيهم الخاص، عرب إلى جانب ذلك. ذهبت كل ذكرى الأمجاد الشرعية للماضى النوبى؛ إن وَرَثَة بعنخى وملوك القرون الوسطى بدلاً من ذلك يستمدون سلالتهم السالفة من قبائل أدنى حضارة بلغوهم عبوراً من وراء البحر الأحمر (٨٦). في إنتقالهم من عالم المسيحية إلى عالم الإسلام ما احتضنوا مصيراً جديداً فحسب إنما تاريخاً جديداً. بل إن الأشد أخذاً بالمجامع إنقلابهم على أعقابهم، بعد قرون من النظام الملكى والإمبراطورى، إلى نسق قبلى من

التنظيم الذي يثوب كل الطريق رجوعاً إلى أيام ما قبل فرعونية.

إن التاريخ الشعبي للنوبيين الحديثين إذا اعتُبر بحرفيته بطلانٌ مبين. فاللغة، والثقافة، والخصائص الطبيعية كلها تقرنهم بما لا جدال فيه بمسيحيي القرون الوسطى، الذين حقيقةً ما طُرد معظمهم ولا قُتلوا من العرب الغزاة. بالقدر نفسه، ما في الجعليين المستعربة إلا مزيج قليل من الدم العربي الأصيل (٨٧)،والنوبيون المحس الذين شكلوا مصادر بورخارت الرئيسة ليس لهم أثر محسوس إلا بصعوبة. غير أن إدعاء النوبيين بالسلالة العربية أياً كان ليس زعماً ومجرد هوى ببساطة، ذلك أنه، إذا ما اعتبر سليماً، نسب اجتماعي أقوى منه وصلا بيولوجياً. إنه ميثاق عضوية النوبيين في المجتمع الإسلامي(٨٨). ولكيما تثّمن اهميته، يجب إعتبار ملامح خاصة للنظام الاجتماعي الإسلامي.

كل من مسيحية القرون الوسطى وإسلام القرون الوسطى كان مشبعاً بحس مجتمعي؛ كل منهما كان نسقاً إجتماعياً وسياسياً وواحداً دينياً. كان التماسك الإجتماعي يصان للمسيحيين من خلال مؤسسة كَنسية عالية التنظيم. إشتمل التحول إلى المسيحية ما يعلو على التقسيم بملخص شخصي؛ وفوق كل شئ آخر فقد عنى تقبل سلطة الكنيسة ونظامها (٨٩). هكذا كان محتوماً أنه عندما لا يعد الحفاظ على كَنيسة منظمة مقدوراً في النوبة، فعلى الإيمان المسيحي أن يزوى معها. وفي الفراغ الروحي الذي أعقب هذا، كان محتوماً أيضاً أن النوبيين كان لزاماً عليهم أن يتجهوا لإيمان الإسلام المنافس. ما كانت آنذاك مكتسحة بأمر شديد السهول شبه الصحراوية وحسب، لكن حضارة الإسلام - بوجه متفرد علي نحو ما مثّلها البدو الرحل الذين كانوا أتباعها الزعيمين - كانت ملائمة بشكلٍ مثالي للأحوال المنشطرة والمفقرة ثقافياً في العصر الإقطاعي.

مع أن الإسلام "ما كان قالباً دينياً سلطوياً بمثلما أنه نظام إجتماعي" (٩٠) وقد ظل كذلك، فهو لا يملك كنيسة منظمة ويفتقد دولة فاعلة معاً، يجوز للمتعلم الذي يؤمن بأصالة، أن يتاح حساً بالمجتمع يقرب من الكفاية عن طريق تقليد ديني معين وعضوية في هيئة منتظمة من العابدين. أما بالنسبة للبدو الأمي وجمهرة الفلاحين الذين شكلوا دائما كتلة المجتمع الإسلامي، بشكل أو آخر، فقد كان التماسك الإجتماعي يحفظ منذ البداية من خلال مبدأ تنظيمي أقدم باعاً: مبدأ القرابة. إن نسيجاً معقداً من الأنساب الأصيلة منها والمختلق، تقرن كل مسلم من السنغال إلى جافا وتجعلهم كلهم أحفاداً للنبي وصحبه الأوائل (٩١). المجتمع الإسلامي لذلك، في عبارات أنثرَبولوجية نظام عشائري قطاعي في سعة. هذه القاعدة المنظمة، التي لم يُسلّم بها أبداً في الفكر السياسي الأرثوذكسي (*) (٩٢)، وبصرف النظر عن ذلك، واحدةٌ من الموروثات الجاثلة في بلاد العرب ما قبل الإسلام والمتواصلة إلى حضارة الإسلام (٩٣).

نظام العشيرة القطاعية للعرب هو أول ابن عم لنظام اليهود، كما أُرسى في سفر التكوين (**)، يؤدي نفس الوظيفة، شبكة مدونة بعناية من القرابة توحد كل القبائل بشبه الجزيرة العربية، محددة بدقة درجة علاقتهم بعضهم بعضاً وبالتالي كيف يجب عليهم أن يسلكوا الواحد تجاه الآخر. هذا المبدأ الممنهج وصف بأنه "نظام بلا حكومة"؛ أي، أن القرابة الكلية تأخذ مكان مؤسسات الحكم الرسمي (٩٤). أينما أصبحت قبيلة من الضخامة بحيث لا يمكن أن تحكم بمثل هذه القاعدة غير الرسمية، تنفطر إلى كينونة قبائل أصغر تحتفظ بعلاقة قريبة من خلال إمتلاكها لشجرة نسب مشتركة. الأنساب القبلية لذلك

(*) اي الفكر المحافظ في الغرب الذي يَضع معاييره السياسية إنطلاقاً من تطورات المجتمع الصناعي والحضري في اوروبا والولايات المتحدة، فلا يري بينها وبين نظم الدولة والمجتمع في الشرق وما يحكمه من قواعد إجتماعية (مثل العصبية والأنساب العرقية والإجتماعية) اثراً مقارناً: إن إقرار الأستاذ ويليام آدمز بهذه النظم وإشارته القوية إلي المفكر ابن خلدون في اكثر من موقع في كتابه هذا تدل علي تقديره العميق للخصائص الثقافية ومميزاتها الإجتماعية والدينية المختلفة - المترجم.

(**) في التوراة - المترجم.

هى الدساتير غير المعرّفة (وغير المكتوبة دائماً) للعرب ونظائرهم من الأقوام المنظمة. عن هذه التقاليد لاحظ ماكمايكل بتمعن أنه "... رغم أن عديداً من المزاعم لعلماء النسب يجوز أن تكون غير جائزة الحدوث بوصفها بيانات لُفظية للحقيقة، إلا أنها ذات فائدة معتبرة إذا تم إدراك معانيها بمعنى تصويرى - إذا أخذت، بعبارة أخرى، على أنها روايات قصيرة ذات معنى" [٩٥].

فى أزمان ما قبل الإسلام حُصر نظام العُصْبَة العربى فى قبائل شبه الجزيرة العربية. ولما كان جمع غفير منها قد انشطر آنفاً من سبط سلالة عامة بحق، يحتمل أن أنسابهم كان لها معيار معين من الحقيقة الموضوعية التاريخية. بعد موجة الفتوحات الإسلامية، مع ذلك، أُلحقت كل أنماط الشعوب غير العربية بالولاء للقبائل العربية المختلفة التى سادتهم بالقوة، وامتلكوا بمرور الزمن أنساب أربابهم. أضف إلى ذلك، أن العرب تزاوجوا فى حرية مع كل رعاياهم من السكان ولما كان السلف العربى الواحد كافياً لفرض النسب العربى، أضحى التمييز بين المسلمين العرب وغير العرب محتجباً كأصعب ما يكون. كان هذا صحيحاً على وجه التدقيق بعد أن بات استخدام اللغة العربية عاماً فى كل أنحاء الإمبراطورية، بيد أنه على صعيد واحد لم يكن الإحتفاظ بلغةٍ غير عربية رادعاً لإدعاء السلالة العربية، كما يمكن أن يُرى فى حالة النوبيين. القصة فى مثل هذه المواقف دائماً واحدة: الأسلاف "الأصليون" كانوا عرباً، لكن الحديث والعادات الأخرى غير العربية إكتُسبت خلال تزاوجهم مع نسوة وطنية [٩٦].

فى ربوع *دار الإسلام* (العالم الإسلامى) حملت الهوية العربية منافع عملية وروحية. تحت الخلافة الأولى حكم العرب من فوق رعاياهم غير العرب بحجمهم الأكبر، نخبةً عسكرية طاغية، معفاة من الضرائب وتتمتع بإحتكار لغنائم الحرب. وعلى صعيد واحد بعد أن تولى الفرس والأتراك وظائف الحكومة والحرب بقسطٍ وافرٍ، أيام الخلفاء العباسيين، ما فتئت السلالة العربية تلقى مكانة نبيلة بين شرائح المجتمع العالية فى إسلام القرون الوسطى [٩٧]. غير أنه ليس كافياً أن يقترح أن كل المسلمين يدّعون نَسباً عربياً من أجل هذه المنافع. إن البدو وجماعات الزراع، على أخص ذكر، يدعون كذلك تحدراً عربياً لأنه بين المجتمع الإسلامى ليس هنالك نظام عشائرى آخر معترف به سوى النظام العربى، والعضوية فى مثل هذا النظام هى، بالنسبة لهم، القاعدة الضرورية للتفاعل الإجتماعى. عمق إحساس المسلم فى هذا الموضوع عبر عنه بفصاحةٍ فى مقدمة لشجرة نسب عربية سودانية مما دَوّنَه السير هارولد ماكمايكل:

> هذه شجرة نسب تعطى أصول العرب؛ إذ أن حفظ مثلها وحراستها شيئ إلزامى بسبب تدوين علاقات الدم التى تحتويها. هدف حفظها ليس إحداث مقارنات تتباهى بالأنساب؛ ذلك أنه، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ... "أنتم تعلمون من أنسابكم وصلكم". يقول بعض المتعلمين إن عمر ربما سمع ذلك من النبى ... لكن معرفة أنساب الأشخاص الذين لا قرابة بينك وبينهم مما لا طائل وراءه ... والحديث التالى للنبى ... عن واحد كان ضليعاً فى الأنساب يحمل ذلك المعنى: "العلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضر".
>
> لكن إذا كرس إنسان نفسه لدراسة مالا يهمه فإن عمله غير ذى تقوى: يحدث هذا فى أوقات الحُب والمودة المتبادلة؛ عداً أنه فى هذه الأيام الحاضرة من الكراهية والغيرة المتبادلة فإن دراسة الأنساب إلزامية، حيث أنه فى نهاية العمر سوف يسود إستعمال الكنى الجارحة، وسوف لن يعالج الإشكال إلا بطرائق الأنساب. إذّن فإن حفظ الأنساب له دواعيه، فليس من الواجب تجاهلها، ومن يفعل ذلك منهم فهو مارق، بسبب خطر الإضطراب الذى أُحدث وسط الناس، والقلقلة التى أُدخلت فى أفئدة الأمم المختلفة. هكذا تكون دراسة الأنساب ضرورية لأن مراقبة علاقات الدم إلزامية بمقتضى سلطة النص القانونى والإجماع ...
>
> الناس موثوق بهم فيما يخص انسابهم؛ وأى إنسان مهما كان ما بلغه من ابيه أو سلفه من أمرٍ يتعلق نسباً، يكون بحقٍ أياً ما يبينه له ذلك النسب [٩٨].

كما تنبئ المقالة الواردة سلفاً، سعى محمد نفسه لأن يكبت مبدأ العصبية وأن يخلق عوضاً عنها مجتمعاً من المؤمنين دونما تمييز إجتماعى؛ ووفقاً لتعاليمه "ليس فى الإسلام أنساب" [٩٩]

لكنه إلى جانب ذلك يحسب أنه قال "تعلم من نسبك ما يكفي لوصلك بأقاربك" (١٠٠). إنه المبدأ الأخير ذلك الذي أثار إستجابة متعاطفة للكتلة الأمية من اتباعه. وهكذا أنشئ النظام الإجتماعي الإسلامي ببثٍ راقٍ لشريعة النبي وبسط نظام العصبية العربية الذي سعى النبي أنفاً لتحجيمها! وحيث أن صيرورة المرء مسلماً تعد، للمجتمع ما عدا الصفوة المتعلمة، موضوعاً للإنتماء أقوى منها موضوعاً للإيمان، يأخذ النسب العربي قصب السبق حتى على انتهاج الإيمان (١٠١)، تماماً مثلما أخذت السبق عضوية الكنيسة في مسيحية القرون الوسطى فوق الإلتزام الشخصي. إنه من أجل مثل هذه العضوية الإسلامية تنكّر النوبيون، للمرة الثانية في تاريخهم، لماضيهم الشرعي تحبيذاً لإنتماءٍ مصطنع بقدر كبير.

حفظة الإرث النسبي في السودان هم جماعة الفكي - رجال يعلمون نظرياً في الفقه أو اللاهوت، لكنهم في الحقيقة دائماً يتاجرون بالنسب (١٠٢). إن عديداً من الأنساب القبلية السودانية الأقدم والأوسع إنتشاراً يقال إنها قد جُمعت أصلاً من السمرقندي، وهو فقيه مهاجر (إفتراضياً من آسيا الوسطى، كما ينبئ إسمه) ألحق نفسه ببلاط الفونج بسنار في القرن السادس عشر (١٠٣). أخرج هنا بناء على طلب الأنساب النبيلة على الفونج وقبائل أخرى من الذين جرى تبديلهم وكانوا يشتهونها بشغف ولهفة. ينسب للسمرقندي من المتشككة المحدثين فصل تقليد الأصل العباسي لقبائل الجعليين (١٠٤)، ربما إضافةً إلى ذلك الإدعاء مبالغةً للفونج بانهم انحدروا من عصبة للنبي (١٠٥). وفي الأيام المتأخرة إدّعى عدد كبير من جماعة الفكي أنهم توصلوا إلى مخطوط السمرقندي، أو إنهم يستحضرون أجزاء عريضة منه، بالرغم من إنه ما من نسخة معلومة لهذا العمل موجودة الآن (١٠٦).

حيازة مخزونٍ وفير من معرفة الأنساب سواء كانت محفوظة بالذاكرة أم في شكل مخطوط مصانٍ بغيرةٍ، ربما تُوظّف وكأنها سلعة تتاجر بها عائلة من جماعة الفكي لأجيالٍ عديدة (١٠٧). يملك قسم واسع للغاية من السكان السودانيين بالفعل أنساباً، أو أشطاراً من أنساب مكتوبة، أخرجت لهم من جماعات الفكي. هذه مستخرجات نظرية من أعمال أكبر منها في حوزة الفكي، على أن المحاولة لتتبعها قياساً بالوثائق الأصلية نذر أن تكون ناجحة (١٠٨).

بينما أن حيازة نسب عربي ضرورة للمشاركة الكاملة في المجتمع الإسلامي، فإن أهميتها إجتماعية أرجح من كونها سياسية بحتة. ما من إلتزام دائم بأي قبيلة بعينها أو بفرع منها متضمنا لحيازة نسبٍ ما. إنها لغز محير للنظام القبلي العربي (ولمعظم النظم القبلية البدوية الأخرى) لدرجة أنه، بالرغم من أن مبدأ التضامن المعروف وحده هو مبدأ علاقة الدم، "فالقبيلة" هي في الحقيقة سلم سلطوي لين العريكة لجماعات مترافقة طوعياً ذات قرابةٍ متوهمة إلى مدى بعيد. "القبائل" بطون مكونة من "قبائل فرعية"، و "أفخاذ" "لأقسام" و "أقسام" "لأقسام فرعيةٍ" و "أقسام فرعية" "لفرقان" وهلم جرا (بتفاوتٍ في المصطلح وعدد مستويات التنظيم من جماعة لأخرى)، كلها تدّعي سلفاً وأحداً، لكنها بأجمعها معقودة معاً في الحقيقة بلا أي قوة سوى قيادتها التي تسحرها بجذبها الأيدولوجي (١٠٩) ينتقل الأفراد والأسر بإستمرار جيئةً وذهاباً من قسم لآخر؛ أقساماً تنتقل من قبيلة لأخرى. لقد شخّص كنيسون في بلاغة هذه العملية من الحركة الدائبة وسط عرب البقارة الحديثين في غرب السودان.

عملية الإنفصام، فالهجرة، وإعادة التوطن التي بعثت التوزيع الحالي لجماعات القارة نشطة كذلك بين قبائل بمفردها. إن أقساماً تنشق، تنتقل إلى جزء جديد من المنطقة القبلية، وتقيم أخوة مع أقسام تقرب منها عن بعد؛ ويعتبرون في الحال ذوي قربى لجيرتهم الجديدة. تنتقل العشائر في حالة سخطها من *عمودية* لأخرى؛ *الصُرات* تنتقل لتحلق بعمودية أخرى أو بعشيرة أخرى في نطاق *عموديتها* الخاصة. أخيراً يذهب الأفراد من مناسبة لأخرى يلتحقون *بصُرات* أخرى (١١٠).

يسير بلا مقال أن النظام القبلي العربي ظل، ولا يزال، غير مستقر لأقصى حد. لمدى مقدر فإن هذا ميكانيزم تكيفي وضروري لأناس يعتمد بقاؤهم أحياء على أمطار غير مؤكدة. كلما جفت

المراعى المعتادة في جزء من البلاد وأزهر النوار في مراع جديدة أخرى، ذابت تجمعات قديمة وتكونت جديدة غيرها. وفى حين أن بعض القبائل تمكنت من الإحتفاظ باسم قبلى وحس بالهوية عبر مئات السنين في مثل هذه المتغيرات الطبيعية.الشاقة، لم تعش قبائل عديدة خلافها لما يتخطى بضعة أجيال. إن قسماً أو حتى جماعة صغرى، تحت رعاية قائد قوى المراس، يجوز في أى وقت أن تنشق عن قبيلتها القديمة لتكّون النواة التى تلتف حولها قبيلة جديدة، كل أعضائها يدعون لاحقاً قائدهم الأصلى كسلفهم المسمى. بهذه الكيفية تظهر أسماء قبلية جديدة في مفاجأة وسرعة من فترةٍ لأخرى في تواريخ الأنساب. في نفس الوقت فإن قبائل كانت من قبل مستقلةً إنخفضت في حجمها ونفوذها بسبب تقلبات بيئية أو قيادة ضعيفة ستلحق نفسها بما لا محيص عنه كأقسام لبعض جماعة أكبر منها وأشد قوة، ولسوف تختفى أسماؤها القبلية. هذا الجذر والمد المتواصل يعلل النوعية اللامتناهية للتاريخ القبلى للبدو؛ كذلك تعلل الموجات الدورية للهجرة الكاسحة والمنازعات المنبعثة من أراضى السهل.

ربما بسبب إهتزاز إستقرارهم، لا يوجد مصطلح معيارى لمستويات التنظيم المختلفة بين النظام القبلى العربى. بمبالغتهم العربية المألوفة، لكأنه يجوز أن يوصف أياً منهم في أى وقت واحد أو آخر بأنه "قبائل". إن المسح الموسوعى لماكمايكل يقدم قوائم لما يزيد عن مائة قبيلة "عربية" في السودان وحده (١١١)، أغلبها له أقسام مسماة فردياً بما لا حصر له، كل واحدة منها يمكن بالمثل أن تدعو نفسها قبيلة، إلا أنها كلها كذلك تدّعى عُضوية أو تحدراً لا يتعدى إثنى عشر قبيلة كسلفٍ لها. هكذا عندما تنطق المدونات التاريخية بتحركات "قبائل" عربية وفتوحاتها، لا يمكننا أبداً أن نستيقن ما إذا كانت هجرات كاسحة فحسب هى المشمولة بذلك أم أنها إعادة لتوزيعات سكانية صغيرة.

خلافاً للعرب الحقيقيين ما كان النوبيون أبداً شعباً بدوياً، ومن الزمن الذى تقلدوا فيه حضارة الفراعنة حتى مجئ العرب لم يكونوا شعباً قبلياً. كان مبدأ القرابة لديهم قد فتح الطريق زمناً طويلاً لمبدأ الإذعان للحكومات المركزية، وقد كانوا رعايا على أيامهم مثلما كانوا حكاماً لبعض الإمبراطوريات الشهيرة. بيد أنه عندما احتضنوا نظام العصبية العربى، من أجل هُوية إسلامية، إحتضنوا إلى جانب ذلك بالضرورة النظام القبلى العربى. لوقتٍ ما في الفترة الحديثة الأولى ما عرفوا حكومة رسمية بأعلى من الحكومة التى وفرها النظام القبلى، بل إنه بعد ظهور أنظمة ملكية أرسخ ثباتاً من جديد (قارن الفصل الثامن عشر) واصلوا التفكير في أنفسهم كرجال قبائل بأشد مما عدُّوا أنفسهم رعايا أو مواطنين، على غرار ما يقوم به معظمهم في الحقيقة إلى اليوم الحاضر (١١٢). بذلك نكصوا على أعقابهم نظرياً إلى نظام من الحكم، ولاذوا عملياً برؤيةٍ للنفس، قريبةً بمستوى يأخذ بالأذهان من تلك التى نسبناها إلى ثقافة المجموعة الثالثة (قارن الفصل السادس) (١١٣).

إنتشار الإسلام

كان تريمنغهام قد كتب قائلاً:

> القادم أول مرة للسودان، وقد قرأ بعض مراجع نموذجية عن الإسلام يجنح لأن يوقن بأن ديانة الناس هى ما يمليه القرآن والشرع. إن المسجد في العادة هو أبرز شئ يراه وهذا يجعله يخفق في فهم أن هذا ما هو بمركز دينهم الوحيد، أو رمزه الأهم. إن رمزاً أعلى أهمية وأبلغ قيمةً يتبدى إيماناً حول السودان ويتبعثر بغزارةٍ أعظم من المسجد هو الضريح ذو القبة البيضاء لولى ما، يجوز أن يُعد الأول رمزاً للنظام والآخر رمزاً للإيمان الحى (١١٤).

قباب الصالحين خاصة (أى المدافن ذات القباب) ليست مجرد مراكز لطرق شعبية لا حصر لها، برغم ذلك، إنها إضافة إلى هذا صروح تاريخية مشروعة للرجال الذين جلبوا بداية معرفة الإيمان الإسلامى (تمييزاً لها عن عضوية المجتمع العربى) إلى باطن تيه السودان الروحى. وإذا كان هؤلاء

المبشرون الرواد مذكورين في بعض الأحيان بدرجة أفضل ومُبّجلين بأصالةٍ أكثر مما يُذْكَر الإله والنبي البعيدين نوعاً ما ويُجّلان وتُقام الدعوة [أصلاً] لهما، فإن هذا لمما يتماشى مع الطبيعة الخالدة للديانة الشعبية. كما يقول هيللسون "... الفرد، في نزوعه ليعلم ويخلص، يتطلب وسيطاً بين نفسه وبين إلهٍ لا يمكن الدنو منه ولا يمكن أن يرى، وإنها لحقيقة أن الأنبياء والأولياء، والصالحين يُبصرون كوسطاء ... مما يمنحهم فضيلةً من نوع خاص، ويشرح القوة التي لا تقاوم التي يجتاحون بها عقول أتباعهم وأفعالهم" [١١٥].

تماماً مثلما أن إرثاً نسبياً يدون مجئ العربِ للسودان، فإن جسماً عظيماً آخر من الأدب الشعبي يدون إنتشار الإيمان الإسلامي. يحتوى هذا على عدد غير محصور من سيرة الأولياء والصالحين الذين حملوا منذ البداية تعاليم النبي للسودان، والذين تحدر منهم روحياً كل معلمي الدين اللاحقين. هذه بدورها موروثات نسبية من نوع ما، تدون بعناية أسماء المعلمين الذين تتلمذ أول مبشرين على أيديهم إضافةً إلى تسجيل قائمة بحواريهم. إن للتعلم النبيل، لا أقل من العصبة النبيلة، شجرة للنسب وسط الأقوام الأمية [١١٦]، يقال أن "الواحد الذي يدرس من غير شيخ لا يستطيع أبداً أن يصبح عالماً حقيقياً" [١١٧] (كلا اللفظين يشير في هذه الحالة لأساتذة علماء دينيين).

من حسن الطالع أن الجسم الهائل من الموروث الشعبي الذي يحيط بحياة الأولياء قد جمع إلى جانب ذلك ودُوّن - ليس عن طريق دارس أوروبي في هذه الحالة إنما من فقيه سوداني متعلم في أوائل القرن التاسع عشر، محمد ودضيف الله. إن كتابه *طبقات ودضيف الله* [١١٨] المعروف إتفاقاً تجميع ل ٢٦٠ سيرة حياتية كانت جاريةً في السودان في زمانه [١١٩]. "قيمة الكتاب" يقول ماكمايكل "ليست لمجرد أنه يخبر الواحد لمن بُنيت أغلبية القبب التي تبرشم السودان، وإنما لأن الواحد يجنى بعض الرؤية الغامضة في باطن أساليب الحياة والتفكير وحديث أهل البلد في القرنين السابع عشر والثامن عشر. فالكثير من معتقداتهم وعاداتهم وخرافاتهم وأفكارهم العملية يماط عنها اللثام ..." [١٢٠].

ويضيف هيللسون :

> إن دراسة هذه المعتقدات والعادات ليست ذات قيمة تاريخية وحسب، لكنها تملك إثارة الحقيقة لهؤلاء الذين يجهدون لفهم حياة أفكار عرب السودان في الوقت الراهن. صحيح أنه منذ أيام ودضيف الله نهضت طبقة متعلمة تَشكلت أفكارها الدينية في الأطر التي أمدها بها عالم المسلمين الحديث؛ ... ورغماً عن أن المتعلمين يشنون الحرب في مواجهة "خرافات" بني جلدتهم الريفيين غير المتعلمين، ورغم أن فيضاناً من أشياء جديدة وأفكار جديدة قد تدفق إلى داخل القطر منذ أيام محمد علي، فإنها لا تزال حقيقة أن العالم الفكري والعاطفي لأبطال ودضيف الله ما انفك عائشاً وسط الأغلبية الأكبر... [١٢١].

الطبقات غير عادي بما يجعله جديراً بالملاحظة ليس لمحتوياته وحسب لكن لأنه مكتوب في عربية عامية سودانية - مفارقةً ما سُمع مثلها من فَقيهٍ كان عالما في مطلع القرن التاسع عشر [١٢٢]. يكون الكتاب الأساس لكل معرفتنا بالتقريب عن إنتشار الإسلام في السودان، مثلما أن تجميع ماكمايكل لموروثات الأنساب يشكل القاعدة لمعرفتنا عن إنتشار العرب.

السير الحياتية في *الطبقات* يعتقد أنها تغطى الفترة من حوالى ١٥٠٠ إلى ١٨٠٠ [١٢٣]. مع هذا، هنالك موروثات أخرى، أشد غموضاً تحكى عن معلمين دينيين في السودان إبان فترة لا تزال أقدم. رجل عابد من اليمن، غلام الله بن عائد، يقال إنه استوطن دُنقلا في القرن الرابع عشر المتأخر لأن المدينة كانت "عائمةً في تخبطٍ وبطلان" [١٢٤]. شيّد جامعاً ودَرّسَ القرآن والعلوم الدينية. وفي القرن التالي، وبحسب موروث آخر، إستقر معلم إسمه حمد أبو دنانه في مقاطعة برير (بالقرب من الشلال الخامس) في وقت ربما كانت فيه تلك المنطقة لا تزال خاضعةً لمملكة علوة المسيحية [١٢٥]. ما من شئ يؤيد التواريخ المنسوبة إلى هؤلاء المعلمين الإسلاميين الأوائل، أو حتى لحقيقة وجودهم [١٢٦]. إن نفوذهم على أي حال لا يبدو أنه كان كبيراً، وتفتتح *الطبقات* بعبارة أنه قبل زمن الفونج (أي قبل القرن السادس عشر) "... لم تزدهر مدارس للعلم ولا لقراءة القرآن؛ يُقّال إن الرجل ربما يطلق زوجته

ويتزوجها آخر في نفس الوقت دونما فترة للعدة، حتى جاء الشيخ محمود العركى من مصر ودَرّس الناس ليطّبقوا القوانين ..." (١٣٧).

محمود العركي الأول في الشيوخ المثبتين تاريخياً (١٢٨) من الذين ظهرت سيرتهم الحياتية في *طبقات* ود ضيف الله. وبعد أن دَرّس في مصر رجع إلى موطن أهليته السودان ليؤسس مدرسة للقانون الدينى الشريعة الإسلامية في منطقة الجزيرة، بين النيلين الأزرق والأبيض (١٢٩). حوالى نفس الوقت جاء إبراهيم البولادى، الذى درَّس أيضاً الشرع في مدرسة في الجزيرة (١٣٠). في وقت متأخر من القرن السادس عشر أقام الشيخ تاج الدين البُهارى سبع سنوات في بلاط الفونج بسنار، وإليه يرجع الفضل في نقل غرس الطريقة القادرية إلى السودان (أنظر بأدناه) (١٣١). في نفس العصر جاء للسودان صوفي آخر يُذْكَر فقط بالتلمسانى (رجلاً من تلمسان، شمال غرب افريقيا) ليدّرس باقة من العلوم الدينية (١٣٢).

أخذ إسلام السودان مكانا في زمن كانت فيه *الصوفية* أو الطرق الغيبية في قمتها بالعالم الإسلامى (١٣٣). *الصوفية*، مثل المسيحيين الأوائل وبعض طوائف البروتستانت الأخيرة، أمنت بالخلاص من خلال التحلق الروحى بدلاً عن دراسة النصوص المكتوبة؛ يعّيرون دائماً التعلم المألوف والكتابة على حد سواء. إلا أنه بعد القرن الثانى عشر كان *المتصوفة* أنفسهم مشدودى الوثاق بالأزهر. تجمّعوا طوائف لاحد لها، لكل واحدة منها *طريق* أو "نَهْجٌ للإستنارة" محفوظ بعناية يتكون من تركيبة من النواهى الإحتفالية والأذكار أوراداً مكتوبة، بعضها بالغ التعقيد. *الطرق الصوفية* الأوثق إلفةً لغير المسلمين هى التى تمارس وهباً للنفس في إغراق حِسي غير معتاد مثل القطع بالسيف، والمشى على النار، والرقص المستهام "الدراويش الدائرون" (١٣٤).

ما كان للطرق الصوفية حتى القرن التاسع عشر تنظيمٌ شكلى للغاية (١٣٥)؛ كانت العضوية موضوع قضاء لفترةٍ من التلقين على يد شيخ معترف به تلّقى بدوره تدريباً من شيخ سابق له، في صف يمتد إلى الوراء إلى مؤسس الطريقة نفسها. كل شيخ يجمع حوله جماعة من المريدين، واحداً منهم (دائماً ابنه) يرث دثار بركته المتفردة بعد موته، في حين ينتشر الآخرون ليقيموا مدارس جديدة وينشروا طريق القوم إضافةً إلى ذلك. الهيكل التنظيمى للحركة الصوفية أو افتقاده هكذا يمثل عن قرب نظام العصبية العربى. في الصوفية، كما بين القبائل العربية، هنالك إنقسام وإستجماع يسريان في توالٍ للطوائف. (١٣٦).

خلال مؤسسة المدارس المحلية مثل التى وصفناها قبل هنيئة نُشرت معرفة الإسلام وممارساته في السودان إلى مدى واسع بعد القرن الأول لنشاط التبشير (١٣٧) بالدعوة. على أنه كيفما اتفق، لم يكن المعلمون الدينيون الأوائل متصوفة؛ ولقد ذكرنا من قبل أن بعضهم كانوا يعّلمون القرآن والشرع. في إتساق مع هللسون:

> ... أغلب تيارات الفكر التى قدحت في أزمان متفرقة زناد الرأى الإسلامى وجدت قناةً إلى داخل هذا التخلف النائى لعالم المسلم، و... إن العلماء والأولياء الذين ملأوا مرحلة *الطبقات* يعكسون في سلوكياتهم وأنماطهم المختلفة تشكيلةً من المذاهب الروحية والفكرية التى ظلت موضوعاً للدراسة التوحيدية والمناظرة في الإسلام. ليس مستغرباً بالنظر إلى عزلة البلاد وتخلف درجة التعليم أن إنعكاس ذلك ضئيل لأقصى حد، وأن الرؤية الثاقبة في تعمق من العلماء والمتصوفة.. إنتُقصت إلى المستوى الذى تتطلبه الدراسة الضحلة والإدراك الساذج (١٣٨).

بالرغم من المدى الذى بلغه التدريس السلفى، يبدو مع ذلك أن التكثف الصوفى غير العادى الذى يبدو بجلاء للعيان في إسلام السودانيين الحديث (أنظر أدناه) كان غالباً مسيطراً منذ البداية. إنه لجدير بالذكر أنه بنفس القدر كان بعضٌ من أرفع جماعة الفقهاء علماً، وفقاً لمرجع ودضيف الله، مدفوعين ليدرسوا بالأحلام والرؤى لا ليعلّموا بكلمات النبى. يقتطف هللسون ثانية "... إنها خاصية للعصر والبلد إنه حتى قادة التعليم النظامى يعيشون في عالم من الرؤى والأحلام ويلقون بثقلهم على الأوراد التى بطبيعتها الحيوية لا تختلف عن أذكارها [*الصوفية*] " (١٣٩). نتيجةً لذلك، فإن الجدل

الراسخ في عنف أحيانا بين المتصوفة والمؤسسة الدينية السلفية الذى أقضى مضاجع أجزاء أخرى في العالم الإسلامى لم يتطور أبداً إلى مدى محسوس في إسلام السودان. "أهم وجه لهذا الإسلام"، يقول تريمنغهام " كان المزيج المتجانس *للفقه*، و *التصوف*، أى تكييف الشرعة [المتشددة] مع الصوفية [المتسامحة]. إننا لا نجد ذلك العنت الذى يشّخص قادة المسلمين في نيجيريا الشمالية. لقد كان رجال الدين مرة واحدة وفى نفس الوقت فقهاء [عالمين بالشرع] وفقراء [عارفين بالله] (١٤٠).

معظم معلمى الإسلام السلفيين نالوا تدريبهم في مصر، بينما جاء دعاة التصوف على نطاق عريض من منطقة الحجاز في شبه الجزيرة العربية (١٤١). أيا كان ذلك، فسرعان ما اضحت طرق الصوفية، متى نقل غرسها للسودان، كفيلة بنفسها في حين أن معرفة متقدمة للقرآن والشرع لا تزال تتطلب فترة من الدراسة بالخارج، حيث لم تتطور أبداً في السودان مؤسسات للتعليم العالى تقارن بجامعات مصر، ودمشق، وبغداد. تعين هذه الحالة بلاشك على شرح الغلبة الجامعة لجانب الإسلام الصوفى، المعاكس للفكر في السودان.

لعله جرت ملاحظة أن القرن الأول للإنتشار الإسلامى النشط في السودان (القرن السادس عشر) يواكب بدايات هيمنة الفونج (قارن الفصل السادس عشر والفصل الثامن عشر)، وأن معظم مراكز التعليم المؤسسة في إقليم الفونج، تقع جنوب مجرى النهر من ملتقى النيلين الأزرق والأبيض. يبدو واضحاً أن حكام الفونج، في قلقهم لإضفاء الشرعية على ملامحهم الإسلامية، شجعوا ومولوا هجرة المعلمين الدينيين ليقيموا معهم، حتى أن الإنتشار المبدئى للتعليم الإسلامى في السودان يمكن بالفعل أن يؤول فضله إلى هؤلاء الذين أسلموا حديثاً (١٤٢). وإلى الحد الذى بقيت فيه السلطنة، كانت المراكز الرئيسة للتدريس الدينى دائماً في إقليم الفونج، بوجه خاص على طول النيل الأبيض، حيث إلى عام ١٦٨٤ (وهو عام كارثة مجاعة وجفاف) ما كانت هنالك مدارس دينية أقل من سبع عشرة (١٤٣).

المدارس *الصوفية* تقدم متوازيات مرئية لمنشآت الأديرة في العالم المسيحى. كلاهما متصور في جزء منه كمهرب من فساد الحياة اليومية، إلا أنه في العصر الإقطاعى أصبحت في مرات عديدة مراكز لعمل دنيوى متسع.

بطرائق جَمّة اقحمت الدنيا نفسها [في حياة] أولئك الذين بهروا معاصريهم بقوتهم الروحية [يقول هلسون]. إن الثروة تهطل عليهم في شكل أراض يهبها ملوك وحكام، أو هدايا معسولة يجلبها المؤمنون. وعلى الرغم من أن النوع الحازم ربما يرفض كل القرابين لا يتورع آخرون عن فرض رسوم منتظمة للمعالجات وتمائم الأحجبة. أما حشود المريدين التى تحيط بصاحب الهالة فيجب الحفاظ عليها على حساب شيخهم، ومع أن الزوار ربما يحضرون هدايا، فإن راحتهم ستتكلف غالياً. في عصر من الإقطاع سوف تشكل قرية العابد الصالح ... دولة مستقلة صغيرة، فلقد أبصرنا من قبل كيف كانت الدامر في القرن الثامن عشر محكومة بالفعل بأسرة من الأولياء (١٤٤). إن ملوك سنار والحلفاية، وأرباب الأسر الصغيرة بوفرتها في القطر، تقاسموا تماماً المخاوف الخرافية مع العامة. نسمع كثيراً عن الإحترام الذى أظهروه للأولياء وما أغدقوا عليهم من هدايا (١٤٥).

بسبب مطالبهم الإقتصادية المعتبرة، لابد أن المدارس الدينية الكبرى حصرت في المقاطعات النهرية التى تحظى بمستوى أعلى من الرخاء. وفى دقة تلك التى يمكن لهم أن يتمتعوا فيها برعاية *المكوك* المحليين وجمايتهم. أما خارج سيطرة الفونج المباشرة في الجزيرة فإننا نسمع عن مثل تلك المدارس على طول النيل من شندى إلى دُنقلا حيث تقع أغلبيتها؛ مساحات كانت حتى القرن السابع عشر تحت هيمنة الفونج. يبدو من غير المحتمل جداً أن التلقين الدينى كان بوسعه أن يزدهر بنفس المقياس في ظل الأحوال المفقرة وفوضوية الحكم التركى شمال الشلال الثالث (الفصل الثامن عشر)، وفى الحقيقة ما بحوزتنا موروثات أياً كانت تتصل بإنتشار الإسلام في هذه المنطقة الشمالية سوى أن رواداً للإيمان مجتهدين، وإن كانوا غير ذى صيت، لابد أنهم كانوا هنا يعملون على قدم المساواة، ذلك أنه في تاريخ باكر بما يثير الدهشة بدأت جماعة *الفكى* النوبية المحسية في الظهور في الأراضى الواقعة تحت سلطان الفُونج (١٤٦).

الوثائق العديدة باللغة العربية التى عثر عليها في قصر إبريم (١٤٧) تفصح عن درجة عالية من الكتابة بالعربية إبان إنسدال الستار على الفترة المسيحية وأثناء العصر ما بعد المسيحى مباشرة، لربما نخاطر بتخمين مفاده أنه في هذا المركز الحضرى عريق النشأة في الشمال إكتسب المحس إدعاء العلم الذى كان سيجعل لهم حظوة ونفعاً في المناطق الأمية إلى الجنوب البعيد. وليس من غير المتوقع أن أعضاء من الطبقة المستنيرة النوبية، التى كانت قد جُردت منذ وقت قريب من أى وظيفة مهنية بسبب إختفاء المسيحية المنظمة، ربما اتجهوا للتعليم الإسلامي وإلى أملاك سلطان الفونج السوق الوحيدة الباقية لمهاراتهم المهنية. لقد كان التعليم الدينى دائماً مسلكاً للإرتقاء الإجتماعى للمحرومين في العالم الإسلامى (١٤٨)، وكان دوراً تأهل النوبيون لشغله بشكل مثالى بحكم خبرتهم الطويلة بالتقاليد الكتابية. فإذا كان هذا التخمين الخفيف صحيحاً، ربما يمثل قصر إبريم حلقة الوصل ـ الوحيدة المعروفة ـ ما بين التعلم والكتابة في العصرين المسيحى والإسلامى.

سيرة الإسلام السودانى

الديانة الشعبية للإسلام كما توجد اليوم في السودان ربما تختلف في تفاصيل صغيرة فحسب عن التى كانت سائدةً في زمن ود ضيف الله. إنها توالى وقوعها تحت سيطرة عناصر الصوفية غير السلفية وفى أحيان المعادية للسلفية. إن أهم ملامحها المعرفية لا يزال الإعتقاد في الأولياء والكرامات؛ يبقى بناؤها التنظيمى الرئيس كما هو للشيوخ الذن لا حصر لعددهم ومدارسهم.

الإعتقاد في الأولياء ـ خاصةً الأفراد الواصلين الذين بمقدورهم الإنتقال جيئةً وذهاباً بين عالم البشر وعالم السماء والتوسط بين الإثنين ـ يجوز إعتباره المرتكز الجوهرى للصوفية. كل الشيوخ وأتباع مدارسهم يُحْسَبون أهلاً للورع والإصلاح. إنهم مغمورون بالبركة، صفةً للمباركة المقدسة يمكن أن ينقل جزء منها للآخرين بكلمة أو لمسة، وتنسحب في العادة على خلَفهم (١٤٩).

وكما يقول هللسون:

أهم منصب دنيوى يتقلده الولى هو أن يلقى بالنفع الروحى على أولئك الذين يتصلون به، نتيجةً لا تتحقق بالوعظ أو التدريس، أو بنموذج حياة عابدة تقية، إنما من خلال (*البركة*) الكامنة فيه، التى تباشر نفوذاً على ما يحيط به. إنه يزار من المريدين هادفين لأن ينالوا حظاً من هذا الأثر... ورغم أنه يجوز أن يمنح عوناً مادياً كمعالج وصانع للمعجزات، فإن الراحة الروحية لحضوره هى التى يسعى لها بشغف حواريوه والحاجُّون إليه (١٥٠).

قوة الولى تغدو مؤكدة لحوارييه عبر أداء الكرامات. إن قسماً طيباً من *طبقات* ود ضيف الله تكتظ في الحقيقة بذكر الكرامات التى قام بها الشيوخ، وهى تتضمن سير حياتهم على اختلافهم. في هذا الصدد يشابه الكتاب عدداً كبيراً من السير المكرمة للمسيحيين (مثل مسلمين آخرين)، والكرامات المذكورة قريبة الشبه بحقٍ بتلك التى بهرت واستهوت عالم المسيحية في القرون الوسطى (١٥١).

يغنى عن الحديث أن يقرر أن القوى الإعجازية للأولياء تملك مدى عريضاً فيما وراء العادة [يقول هللسون]، وتشمل كما هى معرفة أفكار الرجال المخبوءة وأحداث المستقبل، القوة فوق الحيوانات والجمادات، القدرة على التحليق في الهواء والمشى على سطح المياه، فن العلاج بالصلاة والتعاويذ؛ بل إعادة الموتى للحياة. هذه القوى عادةً ما تمارس لأغراض نفع البشر، لكنها يجوز أن تستخدم لتنزل العقاب بالموتورين الحاقدين الذين يحل بهم مرض أو موت مفاجئ ... (١٥٢).

تبعاً لواحد من تقاليد *الصوفية* الأكثر تعقيداً تُذْكَر ثلاث طوائف للأولياء. "الدرجة الأدنى هى أن الولى باستطاعته أن يطير في الهواء، وأن يمشى على الماء ويتكلم عن أشياء خفية. والدرجة الوسطى أن الإله منحه القوة الخلاقة بحيث يمكنه أن يقول لشئ "كن" فيكون. والدرجة الأعلى هى درجة *القطب* [حرفياً "القطب الشمالى"، أو بكلمات اخرى شيخ كل الأولياء] (١٥٣). إن أسمى السير المكرمة تؤكد بالفعل أن القطب قد حقق وجوداً سماوياً متصلاً بالله مباشرة (١٥٤).

تحيا بركة الولى بعده في الأماكن التى عاش فيها وعلّم بها، وبأقصى درجة إستثنائية في المكان الذى دفن فيه [١٥٥]. لا جرم لذلك أن كل هذه الأمكنة تصبح أضرحةً للتعبد، وربما أن الحجيج الطائف عليها هو أهم صفةٍ للديانة الشعبية في السودان. طبقاً لتريمنغهام:

قد لا يكون الناس متأكدين دائماً من فعالية بركة جماعة الفكى الأحياء، لكنهم لهم إيمان أعمى بشيخهم الولى المتوفى، الذى يناغمونه في المألوف "شيخنا" على الدوام كأنما كان حياً. يفترض في الحقيقة أنه في غفوة ويبين نفسه للناس في الأحلام والحضرات الروحية. إن مقدراته ليبارك أو لينزل البلاء كأنها تفئ بكل جزء من حاجة الإنسان. قوته تشهد عليها الكرامات التى تترى لا لمنفعة أسلاف الواحد من الموتى فحسب، إنما لأسرته الحية بالمثل. من غير الممكن أن يدير واحد شؤونه إدارةً سليمة دون عونه... [١٥٦].

أدق الضرائح تفصيلاً وسعة هى بنايات القباب التى تغطى أماكن دفن الشيوخ المشهورين تاريخياً (الصورة ٢٣ ـ ب). ورغماً عن أن السودان الشمالى بأكمله مبرشم بهذه البنايات، فإنها تزداد عدداً بالأضرحة الأدنى التى لا تزال أضخم عدداً ويمكن أن تكون بناءاً طينياً بسيطاً، بسقف أو دونه أو بلا شئ وقد لا تعدو حلقة من حجارة مكومة بطريقة بدائية. بعض تلك الضرائح المتواضعة يقال إنها قبور، في حين أن عدداً أعظم يحى ذكرى أمكنةٍ شاع فيها أن الولى ذهب للنجوع أو عرض كرامة، أو ربما أعم حدوثاً من كل ذلك، إلى مكان يُظهر فيه نفسه في حلم [١٥٧]. الأضرحة الأدنى أغلب ما تكون في قمم الجبال أو في رؤوس صخرية تطل على النيل، يكشف عن حضورها شتات من أعلام خشنة الصنع (معمولة من أى خرقة قماش مربوطة إلى عصا) يتركها زوار أتقياء. بعض هذه الأماكن يحتمل أنها كانت قبلة للزيارة والتعبد منذ أزمان قبلية قديماً؛ إن سيرة تقواهم يعاد تأويلها مع مجئ كل جماعة جديدة من العباد.

القباب وضرائح أخرى تكرم كغرف للعبادة حيث يثوب إليها لجوءاً الهاربون من الثأر أو من العدالة. وفاقاً مع رأى تريمنغهام:

الولى، أيضاً، يحمى أشياء موضوعة على قبره حرزاً لها. فالمحاريث يتركها الفلاحون الذين تتناثر مزروعاتهم من الذرة فوق مساحة عريضة. لقد ذكر ماكمايكل أنه رأى أدوات مثل خيام الشَعَر، والقداح، وحجارة السحن، التى خلفها أعراب على قبر حسن ود حسونة إلى حين عودتهم في نهاية الموسم. وما فتئ التجار الذين يذهبون إلى مصر يتركون فوائض بضائعهم على قبر أبو حمد على نحو ما جرى عندما مر بهم كاالليود في ١٨٢١. شعر، قصاصات أظافر، وسنون ما أكثر ما تترك لتمنع الآخرين من أخذها لأغراض السحر. أما التراب أو الأحجار التى تؤخذ من قبورهم فإنها كذلك تحمي. تلصق عادة بأحد الأعمدة كساقية غير مستعملة لتمنع سرقتها. إن أعظم قسم يمكن أن يعتمد لأغلب الناس يُحلَفُ به في قبر شيخهم، بينما لا يحفلون بالقرآن لقسم حُنث به [١٥٨].

يأخذ التعبد في ضرائح الأولياء عادةً شكل زيارات فردية، يمكن أن تؤدى في أى وقت، مع أن بعض المناسبات أشد نفعاً من غيرها. مثل هذه الزيارات ممكنة لغرض عمل النذور، أو لسؤال الشيخ طلباً محدداً. في كل حالة تؤدى أذكار متنوعة، تعتمد صيغتها أكبر إعتماد على طريقة الشيخ نفسه. قرابين الطعام، والهدايا، والبخور تترك في عودٍ دائم على القبر. إضافة إلى هذه الصور من التقرب هنالك إحتفالات عامة تجرى في إنتظام في بعض من أشهر القباب في السودان تحيى ذكرى ميلاد الولي أو يوم وفاته. هذه حفلات لقرى كبرى أو لإقليم على سواء مقارنةً بإحتفال يومٍ لقديس راع في المدن الأوروبية في القرون الوسطى [١٥٩].

إن مقياساً للأهمية لطرائق الشيوخ وسط النوبيين في اليوم الحاضر يُقترح في المقالة التالية من دراسة تمت قبل وقت وجيز لقرية دهميت:

فى مقاطعة الكنوز بدهميت ما يقرب من ١٥٠ ضريحاً لها أهمية مختلفة، بين سكان مقيمين يقلون عن ألف وخمسمائة شخص. بعض هذه الضرائح، التى لا تتعدى من الناحية الطبيعية كوماً من الحجارة، كانت موضعاً للتنبه من قبل عائلة، إمرأة بمفردها، أو بالمثل أطفالاً في بعض المرات، يقلدون كبارهم بتمثيل أنشطة الطريقة كنوع من اللهو. إن أهم طريقة [صوفية] تخص القبيلة كلها، بينما *الطرق* أقل شأناً ترتبط بعشائر صغرى ذات عضوية محدودة

نقل [عن الطريقة الشائعة] بمراحل (١٦٠).

جانباً عن الإحتفالات السنوية في قبور شيوخ معينين، يحتل معظم الذكر العام مكاناً في "مساجد" تنتمي للطرق الدينية المختلفة، تسمى *جوامع الزاوية*. إن من النادر جداً أن تميز هذه [الزوايا] بمنارات أو ملامح أخرى للمعمار الشعائري؛ يغلب أن تكون مسورات بسيطة من الطين أو العشب الجاف [القش]، بسقف أو بدونه. لا تؤدى فيها صلوات الجمعة وحدها إنما الأوراد (*الذكر*) التقليدية للطرق التى إليها تنتمى (١٦١).

إيمان دينى آخر للصوفية لعب دوراً مختصراً لكنه دراماتيكى يلهب المشاعر والدوافع في تاريخ السودان، هو الإعتقاد بالمهدى أو المنقذ المنتظر، الذى سيعيد الإستقامة للعالم في أيام ما قبل يوم الحساب. الإعتقاد في المهدى مذهب بوجه قاطع لطائفة الشيعة الإسلامية، الخارجة، الذى يزدهر بتزعم في إيران، لكنه مثل عدد من مذاهب الشيعة الأخرى جرى استيعابه، بشكلٍ ما في صيغة مائلة عنه، إلى باطن علم الساعة في الطرق الصوفية (١٦٢). ظل الإيمان بالمهدية شائعاً وسط الناس في إفريقيا شبه الصحراوية؛ في الفترة التى تزيد قليلاً عن قرن بين ١٧٧٦ و١٨٩٨. إجتاحت موجة من دول النمط المهدوى عبر التخوم الجنوبية للصحراء في الغرب إلى الشرق (١٦٣). وفى التاريخ المدون للسودان ما كان به سوى اثنين فحسب أعلنا نفسيهما مهديين، أولهما كان غير موفق بدرجة عالية (١٦٤)؛ إلا أن الإجماع الذى التف به السودانيون من كل الطوائف والخلفيات حول لواء المهدى محمد أحمد في ١٨٨١ يبين كيف كان الإيمان الكامن في المهدى المنتظر متجذراً بعمق. إن قصة مهدية محمد أحمد سوف تسرد في الفصل القادم.

فى القرن التاسع عشر، في مواكبةٍ لإنشاء حكومة مركزية تحت محمد على (الفصل الثامن عشر)، كانت هناك حركة راكزةٌ وسط الطرق الدينية في السودان. جمهرة من الطرق القديمة، ذات الأصل إختفت في ذلك الوقت، بينما تكونت وحدات أخرى جديدة إقليمية ودولية بقدرٍ متساوٍ (١٦٥). واليوم تنتمى أغلبية السودان لما لا يزيد عن إثنى عشر طريقة، يعود أصل ما يزيد عن نصفها إلى القرن التاسع عشر (١٦٦). الأغلبية الغالبة للنوبيين تنتمى *للميرغنية* أو الطريقة *الختمية*، التى أسسها في طليعة القرن الماضى محمد عثمان الميرغنى من مكة. يبدو نجاحه وسط النوبيين وسودانيين شماليين آخرين كأنه نتيجةٌ في جزء منه لزواجه من إمرأة دنقلاوية، ومن خلفته أولئك الذين حكموا الطريقة إلى الأزمان الحديثة (١٦٧). طبقاً لتريمنغهام "إن الطريقة صارمة جداً في إصرارها على قدسية العائلة لذلك ترفض أن تأذن لأتباعها بنسبة أنفسهم إلى أى طريقة أخرى أو أخذ أى دور في مناسكها على قدم المساواة" (١٦٨).

تشكيلةٌ منوعة من المعتقدات الوثنية وما قبل الإسلامية، رغم أنها لا تقرها الطرق سلفية كانت أم صوفية بصورة رسمية، تشكل كذلك جزءاً من الديانة الشعبية في السودان. بين هذه الإعتقاد بالسحر الأسود، والعين الشريرة، والإقتران بالجن وأرواح أخرى. هناك صيغ عديدة - معظمها روحانية بمستوى عال - لإزاحة أو طرد هذه التأثيرات الشريرة خارجاً (١٦٩). في قرية دهميت وُجد إعتقاد نشطاً في الأرواح التى تقيم في النيل، ويمكن أن يبتهل لعونها في شؤون الحياة اليومية عن طريق ممارسين متخصصين أصبحوا بشكل مؤقت ممتلكين لأرواح النهر. هذه المعتقدات والممارسات تزعمت أوساط نسوة القرى (١٧٠). إن بقايا من نمط آخر لا تزال حية هى الممارسات الإحتفالية التي تقام لإجتياز المناسبات الحياتية، وهي ممارسات عالية التطور تصاحب في دِقَّةٍ غير عادية الأختنة، والأعراس، والجنائز، التى تؤسس مناسبات التقاليد الإحتفالية المهيمنة على الحياة النوبية والسودانية الحديثة (١٧١).

جنباً إلى جنب مع الديانة الشعبية بثرائها وتعددها توجد، كما في كل انحاء العالم الإسلامى،

الطريقة الدينية السلفية (*) ورمزها المسجد عوضاً عن قبر الشيخ. على رأسها بالإتفاق الشائع (رغم أنه ليس متصدراً بأمر رسمى) *العلماء* أو أساتذة التوحيد، الذين يمكنهم أن ينصحوا الحكومة في الأمور الدينية والقانونية. بدرجة خفيفة، وإن كانت لا تزال عالية التعليم، طبقة من المسؤولين هم *القضاة* الذين يرأسون محاكم الشرع الدينى. هؤلاء الأفراد يوجدون في المدن الكبرى وحدها. مع ذلك، فكل المدن الكبرى والصغرى وبعض القرى على حد سواء لها مسجد يلتزم مذاهب السلفية ويسيره على الأقل أربعة موظفين: إمام ليقود صلاة الجمعة المنتظمة، وواعظ، و مؤذن يرفع الآذان للصلاة، وخادم [١٧٢]. تسمى المساجد المعهودة *جامعاً* "أماكن للإجتماع" تمييزاً لها عن مساجد الزاوية للطرق الصوفية. معظم هذه شيدت في السودان في نطاق القرن الحالى، جزئياً على حساب الحكومة، ونحو ما يرقب تريمنغهام "لا يحس السودانى العادى أنه في داره عندما يكون فيها بمثل ما يحس في جو النادى الدينى *بالزاوية*" [١٧٣].

إن أدنى خطوة على سلم الطريقة الدينية السلفية تمثلها جماعة *الفكى*، يكتب معظمهم بصعوبة، ويقيمون أودهم بتدريس القرآن في مئات لا تحصى من مدارس القرى غير الرسمية.

فى مختلف أرجاء السودان، في حوش، تظلله راكوبة، أو تحت شجرة في *السوق*، يمكن أن تشاهد حلقات من الأولاد حول فكى يجلس مستلقياً على عنقريبه. يرتل الجميع في نغمة واحدة، يراوحون الإيقاع جيئةً وذهاباً، يكررون الآيات بلا نهاية حتى يحفظوها. يملى *الفكى* من الذاكرة وتنسخ الايات على ألواح خشبية بقلم مسنون مغموس في حبر محلول من رماد محروق، وصمغ، وماء. القرآن لمعظم السودانيين معصوم؛ إنهم لا يدرسون معنى اللغة لأن الترتيل نفسه عمل مُشرف [١٧٤].

التأكيد المستمر على استخدام اللغة العربية الفصحى (وهى غير سهلة الإدراك لمتحدثى اللهجات الحديثة) في كل التلقين الدينى يُعين على شرح السبب لما كان لجوانب الإسلام السلفية شفع قليل في السودان.

ما كان هنالك بأغلب السودان حتى وقت قريب تعليم آخر سوى تعليم فكى القرية. في مساجد قليلة بالمدن الكبرى يمكن لأولاد في سن الثانية عشرة وما فوقها أن يتقدموا بناء على القرآن إلى دراسة التوحيد والشرع الدينى، وقد قدم الجامع في أم درمان خلال سنوات قريبة تدريباً متقدماً مبنياً على نموذج التدريب في جامعة الأزهر بالقاهرة [١٧٥]. الخريج في مثل هذا التدريب يمكنه أن يثابر على احتراف مهنى *كإمام* أو *قاض*؛ وسوف يأخذ مكانه في كل الظروف وسط الصفوة المحدودة التى تكاد أن تكون مقفولة على طبقة حضرية من المسلمين السلفيين [١٧٦] وهم الذين يملكون بعض معرفة أصيلة بالموروثات الأولى لإيمانهم، يحضرون "مساجد الجمعة" تفضيلاً لها على *الزاوية*، وأذكارهم محدودة "بالأعمدة الخمسة" (إشهار الشهادة، الصلاة، إيتاء الزكاة، الصوم والحج) كما وضعها محمد نفسه. هؤلاء الأفراد، وحدهم وسط السودانيين المسلمين، يمكنهم أن ينجزوا محاولة أصيلة ليلاحظوا في دقة متطلبات دين ملتزم بالمذاهب، رغم أنه قلما تم ذلك بثبات مطلق [١٧٧].

من بين جماعة الصفوة الملتزمة بالمذاهب من المسلمين يشكل النوبيون نسبة عالية غير عادية، ويعود شطر من ذلك إلى احترام دهرى للتعلم، وشطر آخر لأن عدداً كبيراً منهم يشتغل بالتجارة، وفيها تعود سمعة التقوى بالنفع علي صاحبها [١٧٨]. يقول تريمنغهام عنهم "إنهم مسلمون متعصبون، لكن إسلامهم يفتقد التعمق ما لم يستتر بالسمات الأخرى غير الدينية لحركة مثل *المهدية* أو بولعهم بالتجارة" [١٧٩]. وراء حدود المدن، مع ذلك، تواصل كتلة النوبيين، مثل سودانيين آخرين، تفضيل محافل الطرق الصوفية بألوانها الصارخة وتعلقها الخاص بأحاديث النبى والعلماء.

(*) بمعني الملتزمة بالمذاهب الأرثوذوكسية المحافظة ـ الآخذة بأراء الفقهاء والقضاة ممن تلقوا علوم الدين في المعاهد والجامعات الرسمية مُغَلبين لآرائهم ومراجعهم علي شيوخ الإسلام الشعبي الذين تقودهم جماعة الصوفية في أغلب الحالات – المترجم.

ستون عاماً ماضية، سوّغ رايزنر قراره بألا يتحرى بقايا الفترة المسيحية بملاحظة أن "كلمة واحدة لا غير يمكن أن تقال: النوبة المسيحية يبدو أنها اختلفت قليلاً عن النوبة المسلمة الحديثة" (١٨٠). هذا الحكم كان حدسياً بقسطٍ وافر في وقته، حيث أن قلة شديدة من مواقع أى من الفترتين كانت قد فُحصت فحصاً كافياً، لكنه حكم تقاسمه جيلان من خلفاء رايزنر. إن المضمون الباعث على اعتبار أن الإثنولوجيا (أى معرفتنا بالنوبيين المحدثين) يمكن أن تطلعنا على كل ما نحتاجه للتعرف على الحياة اليومية في أزمان القرون الوسطى حال دون أى أداءٍ لتحقيقٍ منهجى مُنَظَّم لمواقع المدن المسيحية حتى زمن حملة إنقاذ السد العالى، وقد تواصل كبحه لتحقيق مواقع ما بعد المسيحية إلي اليوم الحاضر. البقايا القليلة للغاية التى تم التعرف عليها للفترة الإسلامية وتصادف وجودها في مجرى حملة الإنقاذ في الستينيات جرى تخطيها على وجه العموم لكونها وجيزة جداً ومألوفة للغاية لتصير دالة بالمعلومات، بينما تواصل مواقع القلاع في النوبة العليا إثارتها المهيبة للإنطباع إنتظاراً للتحقيق، كما تفعل تقريباً كل المواقع الأخرى في هذه المنطقة التى طال تجاهلها.

تَشُح المواقع التى يمكن التعرف عليها لفترة ما بعد المسيحية في النوبة السُفلى للغاية لدرجة أننى ذات مرة إقترحت أن جزءاً كبيراً من هذه المنطقة تُخلى عنه مرة واحدة بعد سقوط الممالك المسيحية (١٨١). وبينما أُرغمت مذاك على تعديل هذا الرأى المتطرف نوعاً ما، فإن البّينة على تداعٍ كبير في السكان لا تزال غير خاطئة. وهى كذلك ظاهرة الآن، رغماً عن ذلك، حتى إن بعض النوبيينَ الذين مكثوا في الشمال نكصوا إلى حالة من الحياة بدائية للغاية بحيث أنها تركت قليلاً جداً مما يجده علماء الآثار.

ثلاثة مواقع تبين دليلاً محدداً على الإقامة المستمرة في فترة ما بعد المسيحية هى قصر إبريم، وجبل عدّا، وفرس - المراكز الحضرية الكبرى للشمال منذ أزمان مّروية. قصر إبريم وجبل عدّا كانا محتلين بعد القرن السادس عشر بحاميات "تركية" (مكونة بالفعل من خليط لقوات بلقانية ومن الشرق الأدنى - أنظر الفصل الثامن عشر)، وتُعزى بصفة عامة حظائر الطوب والحجر المتفرقة التى تكوّن المستويات الأثرية الأعلى في الموقعين لهؤلاء الدخلاء (١٨٢). بيد أننا نعلم من البّينة التاريخية أن حاميات التخوم العثمانية هذه نَدّر أن يُخَفّف حَملها أو يُبَدل طاقمها (١٨٣) نتيجةً لذلك ما طال عليها الوقت حتى أضحت نوبية، والطراز العام لمعمارها السكنى (إذا كانت المبانى في قصر إبريم وجبل عدّا تابعة لهم حقيقة) نوبى لا تخطئه العين. إنه لمن سوء الطالع أنه لم تجر دراسات مفصلة بعد عن البقايا ما بعد المسيحية في إبريم وجبل عدّا وهى مما كان سيسمح بالمقارنة بالمواقع ما بعد المسيحية التى تم تحقيقها قبل مدة قليلة في *بطن الحجر* (انظر أدناه).

فى فرس لا يوجد تدوين لحامية تركية، ولابد أن يفترض لذلك أن المسّور غير المنتظم الذى كان قد بُنى على قمة الكاتدرائية التى دفنتها الرمال مع قصر الأسقف كان من عمل النوبيين. لقد نسب المنقبون هذا الهيكل لفترة "عربية" من غير تاريخ مبين (١٨٤)، لكن الحقيقة أنه يضم في داخله كنيسة وديراً متأخرين للغاية، في شكل رزّي، شيدا على قصر الأسقف السابق (١٨٥)، تلهمنى أن أصلهما يعود إلى الفترة المسيحية المتأخرة. إن المسور (المسمى "بالقلعة" من قريفيث (١٨٦) وميخالوفسكى (١٨٧)) إستمر بلا شك مشغولاً بإستمرار إلى القرن التاسع عشر، وأُجريت على تحصيناته الخارجية ترميمات وتعديلات مُعادة (١٨٨). وبين الجزء الغربى من القلعة إثنا عشرة غرفة طوبية، ربما تمثل اربعة أو خمسة منازل (١٨٩)، يُذَكر جمعها اللصيق إلى مدى بالغ بالمعمار السكنى المسيحى المأثور (قارن الفصل الخامس عشر) أقرب من أى شئ في الحاضر القريب مع أنها بتأكيدٍ تعود إلى تاريخ متأخر أقدم من ذلك.

عدم الإقتناع بحالة معرفتنا الراهنة عن النوبة ما بعد المسيحية هو الذى قادنى في ١٩٦٩ لأن

أُنظم بعثة بالغرض العاجل للتنقيب عن بقايا هذه الفترة (١٩٠). الموقع الذى تم اختياره كان في كولبنارتى، *بطن الحجر*، مستوطنة أسست في الفترة المسيحية المتأخرة التى وصفت آنفاً بشئ من التفصيل في الفصل السادس عشر. وعلى قدم وساق مع التنقيب الرئيس نقب عن حوالى إثنى عشر موقعاً من المواقع السكنية الأخرى في جزيرة كولبنارتى، وطُرحت ملاحظات موسعة على موقع مدينة عريض كان مسيحياً متأخراً ولما بعد المسيحية في دال، بضعة أميال في اتجاه جنوب النهر. إن أياً من هذه المواقع ما كان ممكناً تأريخه بشكل مستيقن، ومع ذلك أمكن القيام بالمهمة من خلال دراسة طبقات سطح الأرض والتسلسل الزمنى للتعرف على تعاقب التغيرات المعمارية والسكانية التى تمت من القرون الوسطى المتأخرة إلى الحاضر (١٩١). إلى الحد الذى تأذن لنا فيه معرفتنا المحدودة جداً بمواقع أخرى لأن نعقد مقارنة، تبدو هذه التغيرات كأنها نموذجٌ لإقليم متسع لا لنمطٍ محلى وحسب.

فى كولبنارتى، تواصل شغل مساكن الوحدة الضخمة للفترة المسيحية المتأخرة مادامت في حالة يمكن للحياة أن تجرى فيها، إلا أنه عقب الفترة المسيحية كان بالساحة عدد من التعديلات في المساكن ذات الطابقين من أجل الراحة. شقت مداخل للطابق الأرضى خلال الجدران، مُزيلة الضرورة الشاذة للنزول إلى الغرف التحتية عن طريق ممرات مدرجة من الأعلى (انظر الفصل السادس عشر)، كذلك فتحت منافذ إلى داخل الأقبية التى تحتل المسافات بين السقوف المعروشة. (هذه التعديلات تصادف وجودها كذلك في "الدار الصماء" في مينارتى (١٩٢). لقد تدهورت مادة البناء تدريجياً بإضطراد كلما نَقُص الجهد المنظم للصيانة، وفى نهاية المطاف (ربما قبل القرن الثامن عشر) تخلى عنها جميعاً فيما عدا المنزل الواحد ذى الطابقين الذى كان قد توسع بدرجة متقدمة إلى قلعة، كما وُصف في الفصل السادس عشر (قارن كذلك الصورة ٢٢ ـ ب). كانت القلعة محفوظة الصيانة كمقر لحاكم عسكرى محلى وقواته بالدار، واستمرت محلاً للإقامة على الأقل بشكلٍ متقطع حتى بداية القرن العشرين.

لم تشَيد كثرة من المنازل الموحدة ذات البناء المتين سابقة الذكر بعيد نهاية الفترة المسيحية(١٩٣). صحيح أن الرسم المعهود بنائياً للغرفة الأمامية الكبرى، والحجرة الصغرى خلف الدار، فالممر، والمرحاض (قارن الفصلين الخامس عشر والسادس عشر) قد توالت ردحاً، ولكن المنازل المتأخرة في كولبنارتى بُنيت بناءاً خفيفاً نوعاً ما بغير انتظام، بمزيج من الطوب والحجر دائماً (١٩٤). الجدران خفيفة وأحياناً منحنية بشكل ملحوظ، ما كان بالإمكان أن تدعم بغير سقفٍ خفيف من الأعمدة والعشب الجاف (لاحظ الجدران العديدة المنحنية في غير انتظام كما يبينها الرسم البيانى لقرية كولبنارتى، الشكل رقم ٨٢). إن هذه المبانى، إفتراضياً، مثل البيوت النوبية خلال معظم فترات التاريخ، شُيدت من طرف سكانها المعنيين، ليس بأيدى بنائين محترفين، نحو ما كانت عليه مساكن الوحدة المسيحية واضحةً للناظرين.

فى فترة ما قبل الأزمان الحديثة حدث تبسط لا يزال أقوى راديكالية في المعمار السكنى النوبى. إن تصميم مسكن الوحدة "بإستقامته الداخلية" افسح الطريق لأخشن قطاطى من غرفتين فيها غرفة واحدة يفترض أن يشغلها الأعضاء الذكور للعائلة والأخرى للإناث. في هذه الحظائر على وجه التمام وجد بوركهارت غالبية النوبيين يعيشون في ١٨١٣ (١٩٥)، وفى قرى مقاطعات بربر وشندى ظلت شائعة إلى اليوم الحاضر. في كولبنارتى ومواقع أثرية أخرى في *بطن الحجر* ليس هنالك شكل موحد لهذه الهياكل؛ بعضها مبنى من الطوب، وبعضها أكوام من الحجر الجاف، والبعض الآخر مركب من الإثنين، ويمكن أن تكون الحجرات مستطيلة أو مستديرة. تكاد لا توجد بينها أبداً أرضية صلبة الحشوة أو أى معالم مبنية عليها مثل المدفأة أو المصطبة.

تحديثاً لم يدم طويلاً في البناء كان إستعمال طوب عريض رفيعاً للغاية، طوله غير الطول المعروف، يوضع طولياً على نحو ما يطرح عليه البلاط الحجرى. المنازل المشيدة على هذا الطراز



شكل رقم ٨٢

قرية من فترة القرون الوسطى المتأخرة، كولبنارتي

رصدت في عدد من المواقع في *بطن الحَجر* العليا، يعود تاريخها بأجمعها فيما يبدو إلى فترة وجيزة نسبياً بين القرنين السادس عشر والثامن عشر (١٩٦). إنّ تحديثاً أقرب بدرجة بالغة من ذاك كان ظهور الجالوص أو بناء طوب طيني جار (*) بدلاً عن الطوب الطينى المألوف منذ وقت سابق ببعيد. ومع أن الجالوص كان رهن الإستعمال في غرب إفريقيا أسبق من ذلك بمراحل (١٩٧)، لا يبدو أن ظهوره في النوبة سبق القرن التاسع عشر (١٩٨). إنه مادة البناء القياسية في كافة أرجاء السودان اليوم، بالرغم من أن الكنوز النوبيين في مصر يتمسكون بإستخدام البناء باللّبن على قِدَمه كما مضى. كانت أول بيوت بالجالوص وجدناها في كولبنارتى لا تزال قطاطى من حجرتين؛ أما المسكن ذو الفناء الفسيح للنوبيين المحدثين فيبدو في الحقيقة منحصراً في صفوة النوبيين حتى القرن العشرين (١٩٩).

بقايا السكن في كولبنارتى تتحدث عن نمط عبر ثابت للغاية من الإقامة في الفترة المسيحية. وفى حين أنه ليس من غير الشائع أن نجد مواقع لقرى من فترات سابقة كانت مستوطنة لعدة قرون، لم يكن أى من الإثنى عشر موقعاً سكنياً أو يزيد مما جرى تحقيقه في كولبنارتى مأهولاً باستمرار منذ أزمان القرون الوسطى إلى الحاضر. في الجانب الآخر، أظهر عديد منها بيّنة على الإقامة بها لأكثر من فترةٍ فوق المرة الواحدة. إن القرية الرئيسة التى تقف في ظل القلعة تبدو كأنها مهجورة (عدا القلعة نفسها) زمناً ما بعد ١٦٠٠ ـ عقب تبسيط معمار مسكن الوحدة ومن قبل ظهور قطية الحجرتين أو الطوب النئ منبسطاً، رفيعاً. بالفعل فيما تلا ذلك تبّدت قطاطى قليلة في حالة مزرية للغاية بين الخرائب القديمة، غير أنها ما كانت أبداً وافرة بقدر كافٍ لتصبح مجتمعاً سارياً، ومعظمها يُظهر تاريخه لمدى بعيد أنه يرجع إلى ماضى قريب.

بعد التخلي عن قرية كولبنارتى الرئيسة تشتت السكان فيما هو ظاهر إلى عدد من المستوطنات الصغرى التى كانت قد برزت في الوقت ذاته. بعضها كان مبنيا من قبل وهجرت مرة آنفاً؛ أما البعض

(*) في أطواف – المترجم.

الآخر الذى بُنى من جديد فكان عليه أن يهجر ثم يعاد شغله من بعد في وقت متأخر من الفترة ما بعد المسيحية. هذا النمط من الإقامة المنقطعة يبدو وجهاً منتظماً للمواقع التى تم تحقيقها في منطقة كولبنارتى (٢٠٠). لعل ذلك يعود في جزء منه إلى التدهور السريع في منازل بائسة البناء وإلى تلوث المواقع الحية بالحشرات الضارة والجوارح وروث البهائم، لكننا نحتاج لأن نتذكر كذلك ما تمعنه بورخارت من أنه في القرن التاسع عشر كانت القرى الفقيرة جارية الخراب باستمرار، وسكانها في شتات، نتيجة للجبايات الجشعة من الحكام "الأتراك" (٢٠١). موصولاً بذلك في هذا المقام، ربما أن التخلى الذى يقارب الكمال لقرية كولبنارتى الرئيسة بعد القرن السادس عشر يعكس رغبة السكان المقيمين لنقل أنفسهم بعيداً عن المجاورة المباشرة للقلعة ومحتليها.

معظم المواقع في "فترة الشتات"، التى أعقبت التخلى عن قرية كولبنارتى الرئيسة، كانت واقعة على رؤوس جبال عالية بشكل إستثنائى أو على جزر منفصلة صغيرة. ما كان حتى حوالى بداية القرن التاسع عشر (فى الآن نفسه مع إدخال معمار الجالوص) أن المستوطنات بدأت في الرجوع إلى داخل الجروف المنخفضة أو الأقرب بلوغاً بالقرب من النيل، حيث تم إنشاء معظم منازل كولبنارتى في الأيام الراهنة.

بين مركب التغييرات المعمارية والديمغرافية التى أخذت مكاناً في كولبنارتى إبان الفترة ما بعد المسيحية من غير الممكن أن يُتعرف على أى شئ ينسب في تحديد إلى مجئ العرب أو الإسلام، مالم يكن تصميماً للمساكن ذات الغرفتين. ليس هناك مسجد يمكن التعرف عليه أو *زاوية* بين البقايا الأثرية (وهو ما يصعب أن يثير الدهشة بالنظر إلى السمات التى لا يسهل وصفها لهذه الهياكل)، والبّينة الواضحة المفردة لممارسة الإسلام تحتوى على ثلاثة شقوق فّخارية. منقوش عليها بالعربية آيات من القرآن، يمكن أن تؤرخ إلى القرن التاسع عشر (٢٠٢). بالنسبة للبقية، لا تعكس التغيرات التى جَرَت في كولبنارتى إختفاء المسيحية ولا مجئ الإسلام،إنما تعكس مواصلةً وتكثفاً في الفقر والإضطراب الإجتماعى للعصر الإقطاعى وحسب.

إنطباع الفقر وعدم الإستقرار الإجتماعى الذى تعطيه مواقع القرى للنوبة ما بعد المسيحية تدعمه بقاياها المادية الضئيلة. هنالك غياب كأنه كلى للسلع الفاخرة من أى نوع، على نقيض وفرة الزجاج، والبرونز، والفّخار المزخرف، والأقمشة الملونة للفترة المسيحية المتأخرة (قارن الفصل السادس عشر). إنكمش إنسياب البضائع المجلوبة إلى ما يقرب من لا شئ، وتوقف الانتاج المحلى للفّخار المزخرف. مصنوعات العصر ما بعد المسيحى هى الأقل إثارةً للإهتمام مقارنة بأى فترة في التاريخ النوبى؛ إنها محصورة في أوان سطحية حمراء وسطحية سوداء. أغلبها سميك، وثقيل، وهى غير متساوية الشكل.

تنتظر علماء الآثار في النوبة العليا سوانح وافرة لتوسيع المعرفة الشحيحة عن نوبة ما بعد المسيحية التى جُنيت في كولبنارتى. صورة الأحوال الثقافية والإجتماعية فيما يمكن الحصول عليه في بعض مواقع المدن الكبيرة، وعلى سبيل الدقة في مقر إقامات *المكوك* الإقطاعيين، يجوز ألا تكون محبطة للغاية كتلك التى طرحتها بقايا القرية في *بطن الحجر*. دُنقلا العجوز، مثالاً، كانت لا تزال أقوى مركز سياسى هام في النوبة العليا، ومقراً *لمَك* البديرية، في نهاية القرن السادس عشر (مع أن الزائر الفرنسى بونسيه وصف المنازل بأنها سيئة البناء والشوارع "نصف مهجورة ملأى بأكوام من الرمل"(٢٠٣) الحفريات هنا لم تتخط ما وراء الكنائس الباهرة لعصر سابق (٢٠٤). إن المواقع المغرية حقاً في النوبة العليا ما بعد المسيحية هى القلاع العظيمة *لمكوك* الدناقلة والشايقية، تبقى إلي هذا اليوم بين أكثر البقايا المعمارية أخذاً بالمجامع في السودان، وقد تم تجاهلها طويلاً من الأثريين.

منحنا بعض التنبه آنفاً في الفصل السادس عشر، لقلاع النوبة العليا التى يبدو أنها تؤرخ من الفترة المسيحية المتأخرة. ولا تزال هناك في ديار الشايقية حصون عُيِّن أنها تنتمى لزمن أخير.

ورغم أن شيئاً منها لم يُحقق بعد بتفصيل، يمنحها كراوفورد ما يلي من وصفٍ عام :

تلك التى رأيتها منها متميزة للغاية ولها، جانباً عن طرق البناء، سمة مميزة واحدة: إن الأبراج على هامش السور ليست بأبراج بقدر ما هى مساكنُ مضمومة معاً بذلك السور. يبرز ظهورها الفريد بخفةٍ أمام السور؛ لها ما يزيد على طابق واحد؛ حجمها كبير بالنسبة للسور الذى بنيت عليه؛ وهى مستطيلة دائماً. بين السور بقايا لما يبدو أنه كان منازلاً مشابهة. يماثل باقى الرسم البنائى تماماً المنزل ذو الفناء الحديث الذى يمكن أن يرى في أى مدينة بين شندى وبربر. الحصون ببساطة بيوت محصنة ذات فناء، وينبغى أن تربط بهذه البيوت نوعياً. غير أننا لا نعلم تدقيقاً كيف تطورت البيوت ذات الفناء في المنطقة الجنوبية إلى قلعة في دُنقلا [٢٠٥]. وبالبّينة الحاضرة، يمكن للواحد أن يقول فحسب، إن أياً من هذه الحصون لا يبدو أنه بُنى حتى ما بعد الفترة المسيحية؛ إن تاريخاً متأخراً مثل القرن الثامن عشر جائز بنفس الإحتمال لبعضها [٢٠٦].

النوبة في نهاية العصر الإقطاعى

بما أن هذا الفصل معنيّ قبل كل شئ بثقافة النوبة في العصر ما بعد المسيحى، يبدو سليماً أن تجرى خلاصته بمقتطف مستمد من مجلة للمكتشف ج. ل. بورخارت، المكتوب في ١٨١٣. هذه الوثيقة المُدركة ثاقبة وعليمة بمستوى مرموق وتحتوى أول وصف تفصيلي للنوبة والنوبيين منذ زمن ابن سليم (الفصل الخامس عشر). ورغم أنها ما كانت سوى طليعة لسلسلة من سرود الرحالة المتميزين مما أخرج في باكورة القرن التاسع عشر [٢٠٧] فإن وثيقة بورخارت هى الوصف الوحيد الذى يسبق التقلبات الجذرية بإعتباراتها الإجتماعية والثقافية التى هوت بها جيوش محمد على [على البلاد] (انظر الفصل الثامن عشر) [٢٠٨]. إنها لذلك تمنحنا لمحة متفردة للحياة في النوبة أثناء الأعوام الأخيرة للعصر الإقطاعى.

كتب بورخارت [٢٠٩]:

... النوبة مقسمة إلى جزئين، يدعيان وادى كنوز ووادى النوبة ... يمتد الأول من أسوان إلي وادى السُبوع، والأخير يشتمل على البلاد بين السبوع والتخوم الشمالية لدُنقلا. إن سكان هذين الجزئين يُقَسمون بلغتهم، لكنهم يظهرون في السلوك شيئاً واحداً.

شحن من البغضاء تسرى بين الكنوز وجيرانهم الجنوبيين النوبة [أى المحس]: إن الأخيرين يتهمون السابقين بالطمع وسوء النية، في حين ينعت الكنوز النوبيين بأنهم أرقاء فاحشين، يحيون مثل أهل السودان. وما أكثر ما تنشب المشاحنات والعراك الدموية بالتالى بين سكان القرى المتجاورة ...

السكان على ضفاف النيل، من الشلال الأول إلى تخوم دُنقلا، لا يحرثون حقولهم بعد أن ينحسر غمر المياه عنها جانباً، كما يُفعل في مصر، فالمياه فوق الشلال لا ترتفع أبداً بقدرٍ كافٍ لتغمر الشاطئ. أمكنة معينة حيث الأرض المزروعة أعرض من المعتاد ... هنالك قنوات تنقل الماء صوب الحقول على جانب الجبل، لكن الماء الكائن بها غير عالٍ بما فيه الكفاية، كما مصر العليا، ليروى الأراضى المنخفضة بالقرب من التلال. الرى في النوبة لذلك يجرى كلياً عن طريق السواقى، تُروى بهم الحقوق بعد أن ينحسر النهر مباشرة. تزرع أول بذرة للذرة، ويُحصَد محصوله في ديسمبر ويناير؛ ثم تروى الأرض ثانية، ويزرع الشعير؛ وبعد حصاده تزرع الأرض للمرة الثالثة لمحصول الصيف أحياناً [٢١٠]. الشعير يباع مقابل الذرة أو يؤكل أخضر في الحساء. يعانى الحصاد معاناة عظيمة من التخريب الذى تلحقه به أسراب هائلة من العصافير، لا تفلح دائماً الجهود الموحدة لكل الأطفال في القرية لجعلها بعيداً. إن دودة صغيرة تصعد سيقان النبات ما أكثر ما تدمر حقولاً بأكملها من الذرة والشعير. التبغ مزروع في كل مكان؛ إنه يحتفظ عند تجفيفه بلونه الأخضر، ويمثل بالضبط ما يوجد في الجبال على الجانب الشرقى للبحر الميت. يشكل التبغ الترف الرئيس لكل الطبقات، التى تدخنه أو تمتصه، خلطاً بالعطرون، وضعاً بين اللثة السفلى والشفة.

المساكن النوبية مبنية بالطين أو من حجارة بلا تمتين. فالتي من الحَجر، كما تأملتها من قبل، تنتصب عامة في منحدرات التلال، وتتكون من بنايتين مستديرتين على انفصال، إحداهما يشغلها الذكور والأخرى إناث العائلة. أما بيوت الطين فهي بوجه عام منخفضة للغاية حتى أن الواحد لا يستطيع أن يقف مستقيم القامة فيها؛ السقف مغطى بسيقان الذرة التي تبقى حتى يأكلها البقر، في حين تطرح غصون النخيل تقاطعاً معها. المساكن في الدر، والأخرى التي يملكها السكان الأغنياء في القرى الكبرى، متينة البناءة، لها مساحة كبيرة في المركز بها وحدات سكنية تحيط بكل المكان، وفاصل بين بيوت الرجال والنساء. الأواني المستهلكة في المنزل النوبي تتكون من حوالي نصف دستة من الجرار الفَخّارية، من واحد إلي قدمين قطراً وحوالي خمسة أقدام في الإرتفاع يحفظ بها كل تموين العائلة؛ بعض الصحون الخزفية؛ طاحونة يدوية؛ طورية؛ وعصي دائرية قليلة يُلقى فوقها النول.

إلى الشمال من الدر اللباس عادة قميص من الكتان لا غير، تلبسه الطبقات الأغنى أزرق اللون، أو الجلباب الصوفي لفلاحي مصر العليا؛ غطاء الرأس مطوقة بيضاء صغيرة من الكتان تلف حولها أحياناً خرق قليلة كالعمامة. يمشي الأولاد والبنات الصغار عراة؛ النساء يربطن أنفسهن بقطع من الكتان أو بجلباب فضفاض من الصوف الأسود؛ يلبسن أقراطاً في الأذنين وأساور من الزجاج بالمعصمين، واللائي لا يستطعن أن يشترين الأسورة يصنعنها من العشب الجاف. يتهدل شعرهن ضفائراً طويلة على العنق، وعلى الجزء الخلفي من الرأس يلبسن زينات مفتولة من الزجاج أو الحجارة، تجميلاً وتمائم على السواء. تلبس الطبقات الأغنى حجولاً من النحاس أو الفضة حول القدمين. جنوب الدر، بصورة رئيسة في سكوت والمحس، يسير الفتيان عراةً على التمام فيما عدا الأجزاء الجنسية، التي يغطيها الرجال بإزار صغير. شعر الناس في المحس كثيف جداً لكنه ليس خشناً أو بلا نظام. يلبس كل الفتيان قرطاً واحداً، إما من فضة أو من نحاس، في الأذن اليمنى وحدها، ويحمل الرجال من كل الطبقات في العادة مسبحة تتدلى حول العنق، لا يزيلونها أبداً عنهم؛ كذلك يربطون حول ساعد واحد، فوق الكوع، عدداً من الأحجبة مغطاة بالجلد حوالي ثلاث أو أربع بوصات عرضاً، تحتوي كتابة غيبية وصلوات، تباع لهم من *جماعة الفكي*.

قلما يسير النوبيون بلا سلاح؛ ما أن يشب غلام عن الطوق حتى يصبح أول مسعاه أن يشتري خنجراً مائلاً، على قصر، يلبسه الرجال ربطاً بأعلى الكوع الأيسر، تحت القميص، يشهرونه على بعضهم بعضاً عند أدنى عراك. أينما سار النوبي من قرية إلى أخري يحمل عصا طويلة ذات ثقل بجلل الحديد إحدى طرفيها، أو رمحاً ودرقةً صغيرة. الرمح يقرب في الطول من خمسة أقدام، بما في ذلك رأس الحديد؛ وللدرقات أحجام متنوعة بعضها مستدير له في المركز مصدم؛ والأخرى تناهز الدرع المقدوني القديم، مستطالة القالب، أربعة أقدام طولاً ولها أطراف مقوسة، تكاد تستر الجسم كله. هذه الدروع، التي يبيعها عرب الشايقية، مصنوعة من جلد فرس البحر، وهي حائل دون طعان الحراب أو ضراب السيوف. إن هؤلاء الذين بمستطاعهم حيازتها يمتلكون كذلك سيفاً مثل السيوف التي يحملها فرسان العصور الوسطى رسماً؛ نصله مستقيم له طول وعرضه بوصتان تقديراً، ذو مقبض كالصليب شكلاً. أما الغمد، من أجل التقليعة السائدة، فهو أعرضُ قربَ الحافة عنه في القمة. هذه السيوف من صنع ألماني تباع إلى النوبيين من تجار مصر بأربع إلى ثماني دولارات للقطعة (٢١١). السلاح الناري غير منتشر؛ تملك الطبقات الأغنى أعواد كبريت بطيئة الإشتعال. الذخيرة نادرة جداً وذات قيمة عالية؛ لذلك يفعل الرحالة خيراً إذا حملوا معهم بضع عبوات، هدايا رحيبة القبول. وعندما تركت معسكر محمد كاشف [أحد الحكام الإقليميين] في تيناره، جرى ابن أخته خلفي ميلين على الأقل ليحصل على عبوة ذخيرة واحدة مني، وأخبرني أنه أطلق الوحيدة التي لا يملك غيرها خلال ابتهاجات اليوم السابق.

لقد أوردت سابقاً الأطعمة المعتادة للنوبيين. خبز الذرة شائع لأقصى حدٍ من غير ملح يصنع. علي *صاج* أو لوح حديد رفيع يعدّ، وبين أعراب البدو يستعمل، غير أنه بسبب أن العملية الكلية للطحن، والعجن، والخبز لا تشغل ما يتعدى عشر دقائق، يمكن بسهولة أن يفترض أنه لا يخبز أبداً بإتقان. الذرة الذي يستعمل أثناء اليوم تسّحنه النسوة في الصباح الباكر، لأن النوبيين لا يحتفظون أبداً بوجبةٍ في مخزن. وفي سكوت والمحس يصنع الخبز أقراصاً مستديرة شديدة الرهافة، توضع فوق بعضها بعضاً عندما تقدم في الوجبات. أما لحم الحيوان فنادراً ما يتذوقه النوبيون؛ بل إنّ الحكام لاياكلونه في كل يوم. يشيع نبيذ البلح في القري الكبيرة؛ إنه ليس غير سارٍ في

التذوق رغم أنه حلو وثخين جداً ليُشرب بأى كمية مقدرة. يصنع النوبيون إضافةً إلى ذلك خمراً معصوراً اسمه *بوظة*، يمثل الجعة كثيراً. يستخرج من الذرة أو الشعير، على أن الأجود يستحضر من الشعير. وهو ذو لون حمئ ومقزز للغاية. في القاهرة وفى كل مدن مصر العليا وقراها هنالك حوانيت لبيع *البوظة*، يقوم عليها النوبيون بلا منازع. كميات عظيمة من النبيذ والخمر تقطر من البلح وتشرب في الدر، حيث تباع في حوانيت تدار لهذا الغرض، وحيث الطبقات العليا مخمورة حتى الثمالة كل مساء (٢١٢). يستخرج نوع من العصير الحلو أو العسل من البلح يؤدى للأغنياء دور الحلوى. وفيما عدا أشجار البلح وقليلاً من حدائق العنب التى شاهدتها في الدر، ليست هنالك أشجار للفاكهة في النوبة.

الرجال في النوبة عموماً في خلقة حسنة، أقوياء مفتولو العضلات، ولهم ملامح دقيقة؛ يقلون في طولهم الطبيعى نوعاً ما عن المصريين. ليست لهم شوارب وما بهم سوى لحى صغيرة، ينبتونها تحت الذقن وحسب ... في المرور على طول وديان النوبة يقع لى دائماً أن اذكر أن حجم السكان وشكلهم كان منسجماً بوجه عام مع عرض تربتهم الصالحة للزراعة؛ حيثما كان السهل عريضاً والفلاحون ... في ظروف أيسر بالمقارنة، تجدهم أطول قامةً وأقوى عضلات وصحة؛ لكنهم في المقاطعات الصخرية حيث لا يزيد السهل عن عشرين أو ثلاثين ياردة في العرض لهم هيئات هزيلة على فقر، يظهرون في بعض الأماكن كأنهم هياكل عظمية تمشى.

النساء جميعهن على خُلُق حسن، ومع أنهن لسن وسيمات، فإن لهن على العموم طلعة حلوة وسلوكيات مرضية للغاية؛ لقد رأيت جميلات بينهن ... لكنهن في إعياء يتداعى منذ السنوات الباكرة بسبب العمل المتواصل، كل عمل المنزل متروك لهن بينما الرجال في شغل مطبق يفلحون التربة. من كل نساء الشرق أولاء اللواتى في النوبة هن الأعظم فضيلة؛ هذه هى أسمى ما يمتدح إذ أن ضاحيتهن كائنة في مصر العليا، حيث العُهر لا يعرف حدوداً، وكان متوقعاً أن يكون لها أثرا ما عليهن (٢١٣).

يحصل النوبيون على زوجاتهم من الوالدين: المهر الذى يدفع عادة بين الكنوز يبلغ إثنى عشر محبوباً، أو ستة وثلاثين قرشاً (٢١٤). يتزاوجون في معاودة مع عرب العبادة، الذين يفلح بعضهم التربة مثلهم. الفتاة العبادية مهرها ستة جمال. تدفع هذه لأبيها، الذى يعيد دفع ثلاثة منها لابنته كى تصير ملكية لها ولزوجها. فإذا وقع طلاق، تذهب نصف قيمة الجمال الثلاثة للزوج. النوبى غيور لأقصى حد على شرف زوجته، ولأخف إرتياب في تنصلها من ولائها نحوه يحملها في الليل إلى جانب النهر، يفتح صدرها بخنجره، ويقذف بها إلى غور الماء "لتصير طعاماً للتماسيح"، كما يصطلحون على ذلك. حالة من هذا النوع حدثت مؤخراً في أسوان (٢١٥).

عامة النسوة اللاتى يُقابلن بالآلاف في كل جزء من مصر، لا يُتحَمّل وجودهن في النوبة عدا في الدر [عاصمة المحافظة في زمن بوركهارت]، وأولئك لسن مواطنات أصليات لكنهن إماء حررن وكن، لتركهن مشردات، يدفعن أنفسهن لهذه المهنة الرذيلة ليكسبن عيشهن. إن الإستعدادات الفاجرة [أى نكاح الغلمان] التى جعلها المماليك شائعة في مصر، حتى في أواسط ادنى الفلاحين، مُمسكٌ عنها بإسترهاب في النوبة بإستثناء الكشاف [موظفوا الدولة الحاكمين - انظر الفصل الثامن عشر] وأقاربهم، الذين يسعون لمحاكاة المماليك في كل شئ حتى أسوأ رذائلهم مبعثةً على الإستهجان.

المغازل الصغيرة ما أغزر ما تشاهد في بيوت النوبيين؛ بها تنسج النساء أغطية صوفية وأقمشة قطنية شائعة للغاية يصنعنها قمصاناً. ومن أغصان شجرة النخيل يشكلن إضافة إلى ذلك حصائراً، وأقداحاً صغيرة للشرب، وأطباقاً كبيرة عليها يقدم الخبز في المائدة؛ ومع أن هذه المواد مصنوعة في جمعاتها باليد، فإنها جعلت بطريقة بديعة للغاية بحيث أنها تأخذ مظهر المصنوع بالآلات. والمذكورة بعاليه هى المصنوعات الوحيدة في النوبة؛ كل شئ عداها مجلوب من مصر.

الآلة الموسيقية التى رايتها في النوبة كانت نوعاً من *الطمبورة* (عود) المصرية بخمسة أوتار، ومغطاة بجلد غزال ... (٢١٦) البنات مولعات بالغناء، والأجواء النوبية حافلة بالأنغام (٢١٧).

لعبة الشطرنج عامة في الدر، وتلك المسماة بياضاً ما أدومها لعبة كذلك.

وجدت النوبيين عموماً ذوى إلفة حانية، ليس لديهم تلك الإستعداد للسرقة الذى يعد خاصية للمصريين ـ على الأقل أولئك إلى الشمال من أسيوط. النشل حقيقة يكاد لا يُعْرَف بينهم، وأى شخص يدان في مثل هذه الجريمة سينفى من القرية عن طريق تصويت سكانها بالإجماع (٢١٨). لم أفقد ولو أتفه المواد قيمة خلال رحلتى عبر البلد، بالرغم من أننى أنام دائماً في الهواء الطلق أمام المنزل عندما أستجمع قبلتى ليلاً (٢١٩). إنهم على العموم مضيافين تجاه الغرباء، لكن الكنوز وأهل سكوت أقل ممارسة لذلك من السكان الآخرين. حب الإستطلاع يبدو أنه أشد الخصائص غَلبةً في شخصيتهم، يسألون ضيفهم بوجه عام ألف سؤال عن المكان الذى جاء منه، والعمل الذى جاء به إلى داخل النوبة.

لو لم تكن الحكومة طاغيةً إلى أقصى حد [قارن الفصل الثامن عشر] ربما أصبح النوبيون جيراناً خطرين على مصر، ذلك أن روحهم أعلى جرأة واستقلالاً من المصريين، ويلتصقون في شغف بترابهم الوطنى. تذهب أعداد كبيرة منهم إلى مصر سنوياً، حيث يعملون على وجه العموم حمالين، ويُفضّلون على المصريين تقديراً لأمانتهم. بعد بقائهم هناك لست أو ثمانى سنوات يرجعون إلى وادى أهاليهم بالملكية الصغيرة التى أدركوها، رغم أنهم يعلمون جيداً أن ألوان الترف الوحيدة التى يمكنهم توقعها [في القرية]، مقابل ما يوجد منها في مصر، هى خبز الذرة وقميصاً من كتان. إن أولئك الذين لا يسافرون إلى مصر يصعب بالمرة أن يذهبوا وراء مشارف قريتهم، ذلك أن النوبيين عامة ليس لهم ميل نحو المخاطر التجارية. لاقيت في إبريم رجلين عجوزين أكدا لى أنهما مازارا الدر أبداً، مع أنها تبعد مسافة خمس ساعات فحسب. هؤلاء النوبيون الذين أقاموا في مصر وبوسعهم التحدث بالعربية وهم مسلمون ملتزمون كقاعدة عامة، ويقيمون صلواتهم يومياً، على أن الصلاة الوحيدة التى يعرفها الآخرون بصورة عامةٍ هى هتاف قوى «الله اكبر» [الإله أعظم قوة]. قليلون يقومون بالحج لِمَكّة عن طريق سواكن.

قدِّرت كل سكان النوبة، من أسوان إلى الحدود الجنوبية للمحس، في إمتداد لقطر طوله حوالى خمسمائة ميل ومتوسط عرضه نصف ميل، بمئة ألف نسمة (٢٢٠).

على النقيض من الفقر والقمع اللذين كانا في كل مكان ظاهرين في النوبة الشمالية، صادف بورخارت مركزاً لسوق مزدهر في شندى، ليس بعيداً عن خرائب مَروى القديمة. في وصفه المزدان لوناً في إستبصار للسوق، مسترسلاً فيما يقارب المائة صفحة (٢٢١)، يؤثث صورة لجانب مختلف للغاية عن حياة القُرون الوسطى في السودان. (إسم "النوبة" لا يمكن لأى مدى أبعد من ذلك أن يطبق فنياً على هذا الجنوب البعيد، حيث أن قبيلة الجعليين الذين كانوا عماداً لسكان شندى توقفوا عن التسليم بأى سلالة نوبية لهم في زمن بورخارت). وبسبب طول الوصف الأصلى، من الأفضل أن ننقل هنا ملخصاً فصيحاً لآلن مورهيد:

البساط الأخضر هنا على كلٍ من جانبى النهر ما هو بعريضٍ جداً ... وراء بضع مئات من الياردات لا يرى شئ سوى نتوءات بارزة في جمود لصخر مسوَّد في سهل شاسع من الرمل والحصا، يتراءى السراب في حرارة منتصف النهار، وكثيراً ما تجتاح سحب عظيمة من الجراد والعواصف الخانقة أجزاءاً من البلد. لربما يفكر الواحد، لذلك، أنه لم يكن هناك إغراء شديد لبنى الإنسان كي يقيمو هنا. إلا أن بورخارت وجد المنطقة مأهولة بالسكان، وشندى نفسها، بحوالى ستة آلاف مقيم، كانت أكبر مدينة في وسط السودان.

بنظرة صافية كان هنالك سبب خاص لما كان على أناس غفيرة للغاية أن تختار الحياة في هذا المكان غير الجذاب، والإجابة، نحو ما اكتشف بورخارت سريعاً، تكمن في سوق شندى. لقد كان سوقاً كأنه من نسج الخيال بالنسبة لمكان شديد الصغر كهذا المكان. في فضاءٍ مفتوح بقلب المدينة ثلاثة صفوف من القطاطى المنصوبة، هنا كل جمعة وسبت، على بعد آلاف الأميال من أى جزء في العالم للواحد أن يدعوه حضارياً، يمكنك أن تشترى أشياء مثل التوابل وخشب الصندل من الهند، وكحلاً لسواد جفون العين، وأدوية، وسيوفاً ومدى ألمانية، وسروجاً وبضائع جلدية من كردفان، وورقاً للكتابة وعقوداً من جنوا والبندقية، وقماشاً، وفَخاراً، وسلالاً من كل نوع، وصابوناً من مصر، وقطناً، وملحاً، وذهباً إثيوبياً. كان هناك مبيع حى للقرود المدربة لعمل الحيل؛ وصحون شندى الخشبية، مطروقة ومسودة بوضعها على النار، شهيرةٌ كانت (٢٢٢). السوق كذلك كان ذائع الصيت لبيعه خيول دنقلا، والإبل

وحيوانات أخرى لتحمل هذه البضائع قاطعةً بها الصحراء.

أما الأجنحة حيث معظم التجارة معروضة، فقد كانت بائسة، زنازين صغيرة مقاييسها ستة أقدام طولاً وأربعة أقدام عمقاً بحصائر من العشب سقفاً. ما كانت تحوي وسائل لإغلاق هذه الأجنحة - في غياب المسامير تعقل الأبواب معاً بحبل - وهكذا في كل ليلة يُكَوِّم التجار بضائعهم ويأخذونها لبيوتهم في المدينة. إن أموالهم (بشكل رئيس هي الدولار الإسباني، لكن أي عملة تؤدى الغرض) يقومون بدفنها في الأرض، على صعيد واحد يصطنع أغنى الرجال ضنك الفقر في الحياة بغرفة واحدة، ينامون على التراب ويلبسون مالا يزيد على إزار. ما كان للسوق أسعار محددة (رأى بورخارت أن المساومة كانت تبدو كأقرب ما تكون عليه غشاً لا مراء فيه)، تأخذ المقايضة محل النقود مجدداً، والشجار مستمر. كانت لشندي زراعة قليلة، والحرف المحلية ما كانت شيئاً يثير مبلغ العجب. "التبادل السلعي" يقول بورخارت "كان إكسير حياة المجتمع"، ولا ينظر الناس أبداً إلى مدى أبعد من حانوت *البوظة* أو خلايا البغايا لرذائلهم. إلا أن ذلك كان جواً مفعماً بالحياة، والتجار، الذين يتراوحون بين الأشد عروبة إلى الأحلك زنوجة، من المحمدانيين (*) بالعمائم والأرواب إلي الوثنيين العرايا، كانوا خليطاً عجيباً من القبائل، والأجناس من شمال شرقي إفريقيا. في الحرارة والغبار يجلسون على أقدامهم أمام أجنحة معروضاتهم، يساومون منذ فجر الصباح إلى وقت متأخر من الليل، هنالك دائماً وصول لقافلة جديدة، وأخرى تشرع في الرحيل ثانيةً إلي باطن الصحراء.

أما الذى اكتشفه هنا، في الحقيقة، فكان طرق النيل المتقاطعة العظيمة. فالنهر في هذه النقطة يجرى بأقرب دُنو له من الطرف الجنوبي للبحر الأحمر، وبذا كان الطريق مفتوحاً لشبه الجزيرة العربية والهند، والشرق الأقصى. إلى الغرب قادت طرق القوافل، محافظة بأكبر قدر ممكن على سيرها في نطاق غطاء حزام المطر وجنوب الصحراء، من واحة إلى واحة، إلى بحيرة تشاد وتمبكتو. أتاح وادى النيل نفسه طريقاً إلى مصر في الشمال، ويمكن الوصول إلى أثيوبيا بالأثر الذى قاد عبر المتمة إلى قندار. في طريقة غريبة لكنها محتومة تتجمع هنا كل مواضيع النهر. الغزوات، والمغيرون من أجل الرقيق وقوافل التجار وحجيج مكة - عرفتهم شندى جميعاً لألف عام، ومحل سوقها ما انفك صُرة أصيلةً للماضي. كانت هناك أسواق أخرى صوب النهر نحو مجراه جنوباً وإلى أسفل هذا الجزء من النيل، لكن شيئا منها ما كان مهماً كهذا، ما منها من مَدُّ اتصالا لهذا الحد، ما منها من كان له تقليد متصل كهذا أو كان قادرا على أن يعكس ما به بمثل تلك الكثرة. لقد كانت، في ناحية، عالماً مصغراً للنهر...

ختاماً يمكننا أن نرقب أن الفارق بين هاتين المقالتين من بورخارت هوى إلى حد بعيد كالفارق الذى يعيش اليوم، في أذهان النوبيين - بين أنفسهم - وبين جيرانهم "العرب" إلى الشمال والجنوب، في جانب واحد النوبيون الفقراء لكنهم على استقامة موقرى النفوس؛ وفى الجانب الآخر "الأعراب" شائخين ومفسدين.

ملخص تفسيرى

من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر تدفق العرب جنوباً من مصر إلى السودان، أولاً علي طول تلال البحر الأحمر ثم غرباً إلي النيل وما وراءه، يدمرون في العملية البقايا الأخيرة للممالك المسيحية المستضعفة من قبل. غيَّر مجيئهم بشكل دائم التوازن الإيكولوجى بين الصحراء والزرع: من القرون الوسطى إلى أزمان حديثة طغى عدد من رجال القبائل في أرض الهامش على المزارعين بامتداد النيل، وسيطروا عليهم بصفة عامة سياسياً. وبالرغم من أن عديداً من المهاجرين العرب واصلوا مثابرتهم من أجل وجود بدوى في السودان، إستوطن آخرون أرياباً للنوبيين وجماعات سكانية مستقرة أخرى، توحدوا معهم إمتزاجاً بالتدريج.

بخضوعهم للعرب الفاتحين، وتحلل مجتمعهم السياسى إبان القرون الوسطى، صار النوبيون منتمين بالإختيار والضرورة للنظام القبلى العربى. وبمضى الزمن إستعرب النوبيون تجاه النهر جنوباً

(*) أي المسلمين اتباع النبي محمداً عليه افضل الصلاة والتسليم - المترجم.

من دُنقلا، وهم الذين كانوا تحت حكم عربي مباشر وعلى صلة دائمة مع أعراب البدو، إلى حد فقدان لغتهم الوطنية ذات الأصالة وكل ذكرى لأصولهم القديمة، رغماً عن أنهم ظلو متمسكين بحياة الفلاحة الجلوسية المستقرة لما قبل الأزمان الإسلامية. كما يبصرون أنفسهم وفى عيون جيرتهم توقف هؤلاء الناس من أن يكونوا نوبيين. عدا أن الترتيب الإجتماعي لنظام العشيرة العربى كان من الذيوع بحيث أن النوبيين الذين يعيشون في إتجاه النهر شمالاً من دُنقلا، وقد أبقوا على لغتهم الأصلية وكانت لهم خبرة مباشرة قليلة بحكم العرب، بلغوا مع مضى الوقت حد التفكير في أنفسهم كعرب ورجال قبائل. في أزمان وأمكنة أتاح النظام القبلى العربى الحكومة الوحيدة التى يعرفونها، بل إنه بعد ظهور حكومات أشد مركزية ظلت رؤيتهم للوجود بالضرورة واحدة قبلية، وما فتئت كذلك إلى هذا اليوم في بعض الوجوه.

أصبح النوبيون بصيرورتهم "عرباً" إلى ذلك "مسلمين بالإلتحاق" كنوع من أنواع الحديث، بيد أن معرفتهم الجوانية بدينهم الجديد، الذى اكتسبوه بطريقة رئيسة من البدو الأعراب غير المتعلمين، كان صعباً أن يمتد إلى ما وراء إعتناق الإيمان. ومثل ما يبين وصف بوركهارت، كان ذلك لا يزال صحيحاً في بداية القرن التاسع عشر. للنوبيين وما يقرب من كل أقوام السودان الأخرى لأن يكون المرء مسلماً فذاك يُتَضمّن كونه عربياً؛ لقد كان إنتماءاً [للعرق] أرجح منه إيماناً بالعقيدة.

إلى المدى الذى كان أى نشاط دينى حقيقى متواجداً فيه لدى سودان ما بعد المسيحية، ما كان ذلك عملاً لأعراب البدو ولكنه تُرك لحفنة من معلمى الدين الأتقياء الذين دعاهم إلى داخل القطر سلاطين الفونج. كانوا في الغالب الأعم ممثلين للطرق *الصوفية* الغيبية، وكان نوع الذِكر الذي غرسوه هو ما حملته طوائف لا حصر لعددها، الإعتقاد في الأولياء والكرامات، التى دائماً ما ارتبطت بالصوفية، وتظل خاصيةً لإسلام السودانيين اليوم. المدارس التى أُسست من الدعاة الأوّل كانت بصورة متزعمة في إقليم الفونج بالجنوب، لكنه مع تشعب الحركات أنشئت مدارس أخرى شمال مجرى النيل إلى مسافة كدُنقلا، وفى غرب السودان. عبر وكالة هذه المدارس وشيوخها القائمين برئاستها أضحى نوبيون كُثر منتسبين لواحدة أو أخرى من الطرق الغيبية، واكتسبوا على الأقل معرفة أولية بطريقها الخاص أو "نهج استنارتها". إننا لا نعلم شيئاً عن التعليم الدينى في النوبة الشمالية، غير أنه في تاريخ باكر يثير الدهشة بدأت *جماعة الفكى* نوبية محسية في الظهور أعداداً معتبرة في الأراضى الخاضعة للفونج.

رغماً عن أن تبنى الإسلام ونسب العرب المصطنع غيرا جذرياً نظرة النوبيين لأنفسهم، فإن ذلك لم يؤثر بالمثل على نظرتهم للعالم من حولهم على غرار ما فعل تبنيهم للمسيحية قبل ألف عام سالفة. فكما رقبنا آنفاً، إن الكونيات بالنسبة لمسيحية القرون الوسطى وإسلام القرون الوسطى متشابهة بالضرورة، بتأكيدها على الأولياء والمعجزات، وحجيجها وتوباتها المتنوعة، وتوقعها لمخلص قادم. علاوة على ذلك كانت الظروف الدنيوية للنوبيين متأثرة في صعوبةٍ بدينهم الجديد أو بمجئ العرب على قدم المساواة. الأرباب الجدد ما فعلوا سوى نقل بذرة لنظام إقطاعى أقدم باعاً كأنما كان على حد سواء منشطراً، وخبر النوبيون مواصلة للفقر والإنشقاق السياسى اللذين كانا قائمين قبل وقت طويل من مجئ العرب. لكل هذه الأسباب يبدو مشروعاً، بالرغم من الإفتقاد إلى تواصلٍ معروف، أن تعتبر الفترات المسيحية والإسلامية معاً لكونها أقامت أفقاً للقرون الوسطى يُعَد تعريفه أعرض إتساعاً (٢٢٤) – طوراً لم ينتهِ حتى مطلع القرن العشرين، وفى بعض الجوانب ما انتهى بعد.

الفصل الثامن عشر
عودة للولاية
السودان في ظل حكم الفونج، والأتراك والمصريين

القول المأثور بالنسبة للعرب، "ليس هناك تاريخ؛ هنالك سيرة حياة فحسب" [١] كأنه حق بأحرفه . إن ثقافتهم، مثل ثقافات معظم شعوب الشرق الأدنى، موجهةٌ نحو أشخاص الناس بمستوى غير عادي. الحركات الدينية، والملل السياسية، ومدارس القانون حتي الحكومات والإمبراطوريات، لاتتطور حول مناطق جغرافية أو أفكار مجردة لكنها ترتقي حول ارتجاء الأثر الجاذب للسحر الأيدولوجي لشخصيات فردية. بنفس القدر، تبدى الأعمال التاريخية لمفكرين متعمقين وناقدين أمثال ابن خلدون والمقريزي نكهة قوية للسيرة الحياتية، بينما التواريخ الشعبية للحشود الأمية لا تعدو إلا قليلاً كونها متشابكاً من أشجار النسب والسير الذاتية للأولياء. هذا الدفق الموروث، كما رأينا في الفصل السابق، يمكن أن يساهم مساهمةً هائلة، ولو بصورة غير مباشرة، في فهمنا للتاريخ الثقافي، بالرغم من أن قيمتها زهيدة لكاتب السيرة التاريخية المعهود.

من وجهة نظر التاريخ السياسي، تظل الفترة ما بين حوالي ١٥٠٠م و ١٨٠٠م إلى هذا اليوم واحدة من أشد العصور ظلاماً في التاريخ النوبي [٢] . بين النوبيين، إختفى كل من فن الكتابة وتثمين تاريخهم الخاص وفى صحبته الإيمان المسيحي، ما كان حتى القرن التاسع عشر أن اللغة العربية المكتسبة حديثاً عمل بها لأى مدى لنصوص غير دينية. إضافةً إلى ذلك، عقب الزيارة الخاطفة لدايفيد روبيني في ١٥٢٢ [٣] (قارن الفصل السادس عشر) لم يقطع زائر أجنبي البلاد الممزقة نزاعاً، على افتقارها، لمائة وخمسين عاماً، بل اعتُبر المرور عبر النوبة السُفلى و*بطن الحجر* في القرن الثامن عشر من الخطورة الشديدة حتى أن حفنة من الرواد الأوروبيين الذين صعدوا للحبشة [٤] فضلوا مشاق طريق القوافل الصحراوية على ضراوة مكوك النوبيين والجعليين [٥] . ما كان حتى عام ١٨١٣ أن بورخارت الشجاع بهمته العالية قام بأول صعود من أسوان ألى دنقلا، وترك لنا بمحض المصادفة أول وصف تفصيلي للنوبيين وبلادهم منذ زمن ابن سليم [٦] . لذلك يقع على عاتقنا إعادة بناء التاريخ السياسي للنوبة بدرجة غير معتادة في الفترة المباشرة لما بعد المسيحية، إسهاباً من الإستنباط والإستدلال .

يبدو واضحاً أنه، فيما عدا الجنوب القاصي (أنظر أدناه)، ما كان هنالك خلفاء حاليون لسلطة الممالك النوبية المسيحية. كان الدفع الكلي للتطور السياسي في الجزء السالف من العصر الإقطاعي (بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر) واحداً من اللامركزية المتزايدة. الأنظمة الملكية في القرون الوسطى أضحت مستضعفة حتى في نطاق الفترة المسيحية بنهوض الإقطاعيين المحليين، وهؤلاء بدورهم أطيح بهم وَحلّ محلهم النظام القبلى العربي الذى كان ولا يزال أشد لامركزية وإفتقاداً للسلطة الحاكمة. كما رقب المهدى في بلاغة "عندما دخلت قبائل العرب السودان كانت أولاً غير قادرة على منح الأقاليم المفتوحة حكومةً مركزية من أى نوع . بدلاً عن ذلك تقسمت البلاد فيما بينها، وحصيلة لذلك، كان النوع الوحيد من الحكومة التى قامت في السودان هو المشيخة العربية التقليدية التى تقوم على القبيلة" [٧].

لقد أوردنا آنفاً في الفصل السابع عشر عدم الثبات السياسى لأقصى حد للنظام القبلى العربى السائد بين جماعات أعراب البدو. وعندما استوطن العرب الفاتحون وتزاوجوا مع رعاياهم النوبيين، كيفما تم ذلك، كان مما لا مهرب منه أن عليهم أن يكونوا تجمعات "قبلية" أرسخ ثباتاً ودواماً وقد كانت – على غير ما عليه تجمعات البدويين – موثوقة عن قرب ومستديمة بالنسبة لأقسام محددة من وادى النيل. هكذا كانت "قبائل" الجعليين والنوبيين وما انفكت إلي اليوم. إن القادة، أيضاً، كان باستطاعتهم أن يوطدوا مواقعهم وأن يحققوا درجةً من الحكم الوراثى بصفوته الطاغية التى نادراً ما يؤذن بها لزعماء البدو. صار شيوخ القرن السادس عشر مكوكاً في القرن السابع عشر: أرباباً لأسر محلية حكموا أقاليم صغيرة بعون جيوش مهيأة مكونة دائماً من العبيد – وعاشوا عن طريق إستخراج الجباية أساساً من رعاياهم الزراعيين ومن القوافل العابرة. (إن لقبهم تحريف *لمليك*، الكلمة العربية لـ "ملك") بذا ورث *مكوك* الجعليين والنوبيين، أو إنهم أحيوا في تعبير أبلغ سلامة، نوع السلطة التى كانت تباشر من الإقطاعيين المحليين في أزمان مسيحية متأخرة ومثل أسلافهم إتخذوا الحصن تعبيراً رئساً لسلطتهم.

بحلول القرن السابع عشر كان وادى النيل شمال سوبا (أى ملتقى النيلين الأزرق والأبيض) مجزأ بين مكوك مما لا حصر له: قرى، وشندى، وبربر، زيادة على مدينة الدامر الدينية المستقلة، في المنطقة التى تعلو الشلال الخامس، مكوك الشايقية الأربعة في عمرى، ومروى، وكجبى، وحنك، ومقاطعات دفار، وأبكور، وجزيرة تنقسى، ودنقلا العجوز، والخندق، وخناج وجزيرة أرقو في أرض دنقلا النهرية (القائمة مكتملة من مكوك الجعليين والنوبيين، و " قبائلهم" التابعة لهم أنظر الشكل رقم ٨٣). إلى الشمال من الشلال الثالث ما كان هنالك *مكوك* مثل هؤلاء؛ كانت المنطقة محكومة بموظفين مسؤولين عينهم الأتراك يدعون *الكشاف*، سنعرض تاريخهم بتفصيل أوفى مؤخراً (أنظر الحكم العثمانى في الشمال). مع هذا، ما كان ولاء *الكشاف* للسلطان العثمانى إلا إسمياً؛ كان حكمهم غير مميز عن حكم *المكوك* عملياً. لثلاثة قرون كان على هذه الإقطاعيات الصغرى– *الكشاف* في الشمال و *المكوك* في الجنوب – أن تزود الإطار الثابت دون سواه للحكومة في وادى النيل. حافظ بعض من أقوى *المكوك* على مواقعهم تحت الأنظمة الإستعمارية للقرنين التاسع عشر والعشرين؛ وأُلغى آخرهم في ظل الحكومات الثورية في الستينات.

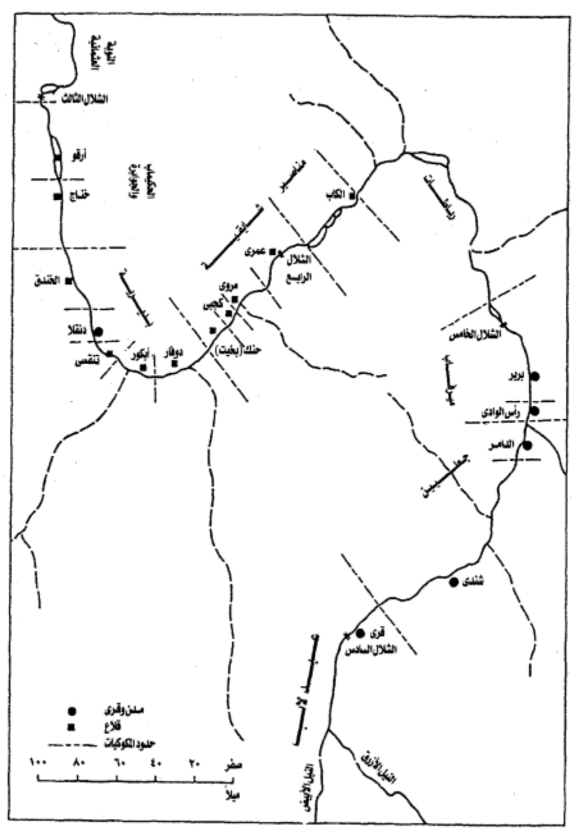
كان مكوك الجعليين أولاً وفوق أى اعتبار آخر قادة عسكريين يمارسون سلطة مدنية بالقوة. إن أولئك الذين كانوا في الجنوب (فى قرى وشندى) حكموا أجساماً كبيرة من قوات الرقيق، بينما كان حكام الشايقية أعضاء لصفوةٍ محاربة تدعمهم بعيدة كل البعد عن الزراعة والتجارة. من خلال حروبهم المميتة خرج بالتدريج نظام سلطوى متسلسل بين الإقطاعيات المختلفة: عادت إلى السودان حكومة ممركزة طرازاً ما. وفى منطقة دُنقلا، طبقاً لتقليد نوبى "لعدة قرون كانت النوبة محتلة من ... أعراب في حرب متواصلة بعضهم ببعض، إكتسب ملوك دُنقلا من إوارها نفوذاً واسعاً بحقهم حتى بات بمقدورهم أخيراً أن يفرضوا عليهم دفع الجزية" [٨] . وقع فيما هو واضح نفس هذا النمط من الأحداث في بربر وشندى. بنهاية القرن السادس عشر كان هؤلاء "المكوك العمادين" خاضعين بدورهم لسلطة لا تزال أعلى، مُودعةً في سلاطين سنار السود (أنظر أدناه) . غير أن نوع الحكومة الممركزة التى قاموا بتحقيقها كانت صرخة نائية عن الإدارة الدينية الحازمة للملكيات المسيحية السالفة. إتساقاً مع ما كتب كراوفورد:

الإدارة كانت ... مرتخية، والحكام النهريون التابعون، متى حصلوا على مناصبهم، كانوا يتركون لحالهم. إن علينا، في دراسة تاريخ هذه المناطق، أن نحرر عقولنا من الخطأ بالنسبة لكل تصورات أوروبية حديثة عن الحكومة. كان مفهوم الوصاية غير معلوم تماماً؛ تمارس السلطة السياسية غاية واحدة لمنفعة أولئك الذين أمسكوا بزمامها (بالقوة أو بالإتحاد الوثيق) دونما اعتبار لمصالح الرعية. القانون والنظام في صون لانه، بدونهما، تتعرض قواعد الجزية للخطر، لا يحس الحاكم الاعلى بمسؤولية اخلاقية نحو خير رعاياه. إن نظام القرابة في إنجلترا القرون الوسطى كان قائماً على نظرية سياسية مماثلة ... [٩].

الجدول السابع

مدونة زمنية للزوار الأجانب للنوبة والسودان ، ١٥٢١ - ١٨٢٢

السنة	الزائر	خط السير	الغرض	التقرير المنشور	
١٥٢١-١٥٢٢	ديڤيد روبني	سواكن إلى الحبشة (؟) برأ إلى سنار؛ وعن طريق النيل إلى مصر	تجاري؟ دبلوماسي؟	(لا شيء)	حضارات القرون الوسطى
١٦٧٢-١٦٧٣	إيڤلياكيلبي	طريق النيل إلى الحبشة؛ عاد إلى مصر عن طريق البحر الأحمر	تجاري؟ دبلوماسي؟	رحلات إيڤليا كيلبي (بالتركية)، المجلد العاشر (إستانبول، ١٩٣٨)	
١٦٩٨-١٧٠٠	بونسيه ويريڤدون	طريق الواحات الغربية ، مصر إلى دنقلا؛ طريق النيل إلى سنار؛ برأ إلى الحبشة؛ عادا إلى مصر عن طريق البحر الأحمر	طبي رسولي	بونسيه ، رحلة إلى إثيوبيا (لندن ، ١٧٠٩)	
١٦٩٨-١٧٠٨	البعثات الفرنسيسكانية	نفس الطريق إلى إثيوبيا مثل بونسيه ويريڤدون؛ عاد أعضاء عديدون إلى مصر دروباً مختلفة في أوقات مختلفة	رسولي طبي	كرمب Höher und Fruchtbärer Palm Baumdes Heiligen Evanglij (أغسبرج ، ١٧١٠)	
١٧٠٤-١٧٠٥	لانوار دو رول	طريق الواحات الغربية، مصر إلى دنقلا؛ طريق النيل إلى سنار (قُتل في سنار ١٧٠٥)	دبلوماسي	(لا شيء)	
١٧٣٧-١٧٣٨	فردريك نوردن	طريق النيل، أسوان إلى در وإياباً	كشفي	رحلات في مصر والنوبة (لندن،١٧٥٧)	
١٧٦٩-١٧٧٣	جيمس بروس	طريق البحر الأحمر إلى الحبشة؛ عاد إلى مصر عن طريق سنار، وبربر، وطريق الصحراء الشرقية إلى أسوان	كشفي	رحلات لاكتشاف منابع النيل (أدنبره ، ١٧٩٠)	
١٧٩٣-١٧٩٦	ي. ج. براوني	طريق الواحات الغربية (درب الأربعين)، مصر إلى دارفور وإياباً	كشفي	رحلات في إفريقيا ، ومصر ، وسوريا (لندن ، ١٧٩٩)	
١٨١٣	توماس لي	طريق النيل ، أسوان، إلى قصر إبريم وإياباً	كشفي	وقائع رحلة في مصر (لندن، ١٨١٧)	
١٨١٣	جي.ل.بورخارت	طريق النيل، أسوان إلى دنقلا وإياباً	كشفي	رحلات في النوبة (لندن، ١٨١٩)	
١٨١٤	جي.ل.بورخارت	طريق الصحراء الشرقية، أسوان إلى بربر؛ طريق النيل إلى سنار؛ برأ إلى سواكن والبحر الأحمر	كشفي	رحلات في النوبة (لندن ١٨١٩)	
١٨١٦-١٨١٧	ج. بلزوني	طريق النيل، أسوان إلى الشلال الثاني وإياباً	كشفي	وقائع لعمليات وإكتشافات حديثة في مصر والنوبة (لندن، ١٨٢٠)	
١٨٢٠-١٨٢١	واد ينغتون وهنبري	طريق النيل، أسوان إلى جبل البركل وإياباً (في رفقة جيش إسماعيل باشا)	كشفي	سرد لزيارة إلى بعض مناطق إثيوبيا (لندن ١٨٢٢)	
١٨٢٠-١٨٢٢	فردريك كوليود	طريق النيل ، أسوان إلى سنار؛ قطع النيل الأزرق إلى الحدود الحبشية (مرافقاً جيش إسماعيل باشا)	كشفي	رحلة لمروى والنيل الأبيض (باريس ، ١٨٢٦)	
١٨٢١-١٨٢٢	دي بلڤوند	طريق النيل، أسوان إلى سنار وإياباً (في صحبة جيش إسماعيل باشا)	كشفي	يوميات رحلة لمروى (الخرطوم ، ١٩٥٨)	



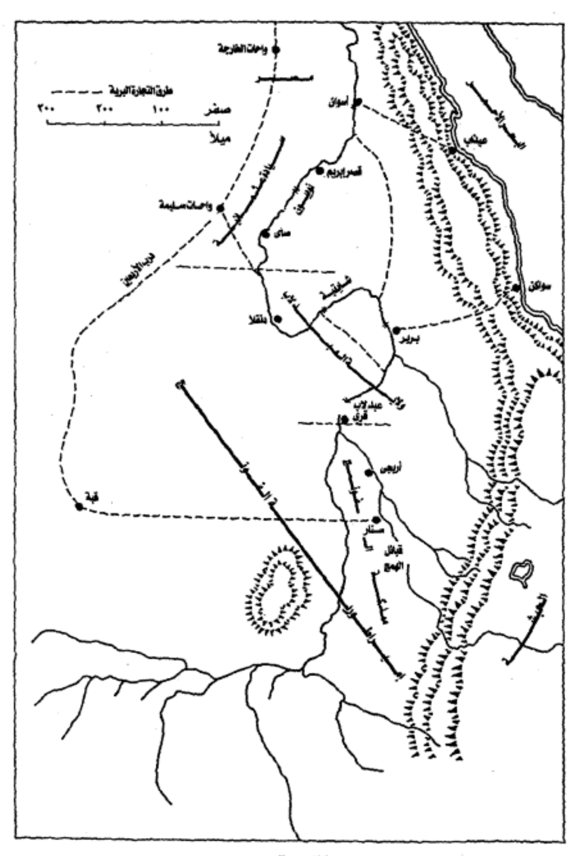
الشكل رقم ٨٢

المكوكيات والقبائل الحاكمة فى النوبة العليا فى القرن الثامن عشر

على رأس الهرم السياسى في ما بعد السودان المسيحى تبوأ الحكم سلاطين الفونج السود في سنار. كانت الأرض التى ملكوا عليها سلطاناً مباشراً صغيرة نسبياً وواقعة بعيداً إلى الجنوب من الممالك والإمبراطوريات النوبية السابقة. اقاليمها العمادية منطقة الجزيرة ("الجزيرة"، الواقعة ما بين النيلين الأزرق والأبيض) والمشارف العليا للنيل الأزرق وروافده، على الحدود لما يعرف الآن بإثيوبيا (أنظر الشكل رقم ٨٤) . إن مدينة سنار، التى اختاروها عاصمةً لهم، تقع على النيل الأزرق بما يزيد على ١٥٠ ميلاً من ملتقاها بالنيل الأبيض؛ تواصلت بما يقرب من التمام مع الحد الجنوبى المعروف للأثر المّروى في أزمان سالفة (قارن الفصل الحادى عشر) . في أوج قوتهم في القرن السابع عشر، بطريقة أو أخرى، مارس سلاطين الفونج هيمنةً غير حازمة على وادى النيل في الشمال إلى مبلغ الشلال الثالث ومن البحر الأحمر شرقاً إلى كردفان في الغرب (الشكل رقم ٨٤). إن مدى الأراضى الواقعة تحت سلطانهم مازاد عليها سلطان في أزمان سابقة سوى إمبراطورية كوش في ذروة علائها. كان الفونج أرباباً إسميين لكل قبائل الجعليين النوبية السابقة، والنوبيين الدناقلة، وقبائل عديدة بدوية من البجا والعرب، ولعدد كبير جداً من الأقوام السود الأصليين في أعالى النيل و كردفان.

أصول مملكة الفونج، طبقاً "لسجل أحداث الفونج"، تم سردها في الفصل السادس عشر. حول هذا الأثر ينسب أنه في بداية القرن السادس عشر تجمع الفونج وعرب العبدلاب للإطاحة بالبقايا الأخيرة لمملكة علوة المسيحية، التى تقسم إقليمها فيما بينهم، وتقلد الفونج السبق بسبب قوتهم العسكرية الأعلى [١٠] . مع هذا توحى الدراسة العلمية الحديثة بأن "سجل أحداث الفونج" في جزء منه كان اصطناعاً لخبراء الدعاية من الفونج المتأخرة، وأن الإطاحة بعلوة أُنجزت بالعبدلاب وحدهم[١١] . لقد كانوا، فيما يظهر، تحالفاً عريضاً لقبائل جُهينة الذين جمعوا معاً بعبد الله جماع "الجامع" عينه، الذى ينبىء إسمه الأخير في رجحان بالأصول المعددة لأتباعه [١٢] . بعد انتصارهم على علوة كَوّن العرب انفسهم بوتقةً في قبيلة جديدة وتبنوا عبد الله جماع سلفهم المسمى، لقد عرفوا مذاك بالعبدلاب "احفاد عبد الله" [١٣] . وفقاً لموروثهم القبلى الخاص [١٤] كانوا هم، بدلاً عن الفونج، الذين "ورثوا تاج الملوك [النوبيين] المجوهر" [١٥]. هذا الكلمات تشير إلى أن شيوخ العبدلاب إعتبروا أنفسهم الخلفاء الشرعيين لحكام علوة، والورثة لكل الأقاليم والجزية التي ادعتها في السابق المملكة المسيحية. لقد كان إفتراضاً من أجل نفس النسب السياسى أن سلاطين الفونج في وقت متأخر حازوا علي تقليد العبدلاب موروثاً لهم (قارن الفصل السادس عشر). العبدلاب مع ذلك لم ينشئوا رئاستهم في العاصمة المسيحية القديمة في سوبا، حَبّذوا بدلاً منها قرية قَرِّى، مسافةً قصيرة إلى الشمال من التقاء النيلين الأزرق والأبيض.

يبدو، إذّن، أن بدايات حكومة مركزية في ما بعد السودان المسيحى لابد أن ترجع ليس إلى الفونج إنما إلى التحالف القبلى العربى للعبدلاب. إن خروجهم (وافتراض إطاحتهم النهائية بعلوة) يعتقد أنه يؤرخ من الجزء الأخير للقرن الخامس عشر [١٦] بالرغم من أن تاريخاً دقيقاً غير ممكن[١٧]. بعد أن امتلكوا المملكة المسيحية الجنوبية ذات القدم، يبدو محتملاً أن العبدلات بدأوا في توسيع إقليمهم إلى الشمال، مخضعين أقساماً من مملكة المقّرة السابقة إضافة إليه. لسوف لا نعلم أبداً فيما هو محتمل إلى أى حد كانت فتوحاتهم سائرةً عندما قام الفونج بغزو مملكتهم من الجنوب أو الغرب، بداية القرن السادس عشر. إنتهت فترة موجزة من العداوات بين القومين فيما يظهر عبر إشتباك حاسم في أربجى، عام ١٥٠٤، كان فيه القادمون الجدد منتصرين [١٨]. بعد ذلك اضحى العرب وكل دائرة نفوذهم تابعين للفونج، الذين أضحوا في سنوات قادمة موسعين إضافة إلى ذلك الإقاليم التى استولوا عليها بالقوة. إن المقترح الآن أن المعركة التى وقعت في ١٥٠٤، والمّدونة في "سجل أحداث الفونج" كهجوم مشترك على سوبا من الفونج والعبدلاب (الفصل السادس عشر)، هى



شكل رقم ٨٤

الأملاك العثمانية والفونجية في القرن السابع عشر

في الحقيقة الإشتباك الذى اعتصر فيه الفونج من العبدلاب إنتصارهم المسبق على سوبا [١٩].

أصل الفونج ظل، ويستمر كذلك، مصدراً للجدال. ما التعبير بواحدٍ عرقي. ليس هنالك شئ مثل قبيلة الفونج أو اللغة الفونجية [٢٠]. لقد كانوا، على الأرجح، طائفة حاكمة بالوراثة ورعاياها جماعة من قبائل أصلية غير عربية في أعالي النيل الأزرق، وتوصف عادة بالهَمَج كصفة جماعية [٢١]. بحلول الوقت الذى احتك بهم فيه أجانب لأول مرة كان الفونج مسلمين آنفاً، يتحدثون العربية ويدّعون نسباً أموياً، مع أنهم لا يشهرون لمحة لسلالة عربية في مظهرهم الطبيعي. كانوا بحق يعرفون تقليدياً بالسلاطين الزرق [٢٢]، ويبدو جائزاً أن سلالتهم كانت اكثر سلالة إفريقية خالصة من بين كل الجماعات التى تولت السلطة في السودان. مع هذا، في غياب البّينة الأثنولوجية واللغوية يتبخر كل أمل في إكتشاف أصلهم القبلي المحدد. لقد بلّغ جيمس بروس، الذى زار سنار في ١٧٧٢، أن ملوك الفونج تحدروا من رجال قبائل الشلك في النيل الأبيض [٢٣] إقتراحاً ليس غير واعدٍ بالنظر إلى طبيعة الشلك الملائمة للقتال وحقيقة أنهم ألصق قبائل زنجية في السودان قرباً من الشمال ووقوعاً في تأثير العرب. ورغم هذا، أرجع كُتّاب مُتأخرة الفونج أصلاً إلى دارفور في الغرب [٢٤] ومن سفوح الجبال الحبشية في الشرق [٢٥]، وفيما بينهم ينسبون هُمْ أنفسهم سلالتهم إلى عائلة النبى مباشرةً [٢٦]. أياً كانوا، يبدو أنهم انتقلوا إلي داخل الجزء الجنوبى من الإقليم الذى كان أُخضع قبل وقت وجيز من قبل العبدلاب، وإنهم وضعوا أنفسهم على رأس تحالف لقبائل الهمج التى شكلت الأتباع الأساسيين للفونج وكانت رعايا سابقة الولاء لعلوة [٢٧]، حتى أن قيام الفونج بالمناضلة لقضيتهم ضد العرب ربما يمكن عده إستعادةً بدلاً من تحطيم للموقف السياسى الذى وجد مُسبقاً في ظل المملكة المسيحية.

إنها لمفارقة تاريخية أن أول ملك للفونج، عمارة دنقس، مثبت ثبتاً تاريخياً جيداً بسبب عرض بطولاته في "سجل أحداث الفونج" [٢٨] ولأنه تصادف أنه كان على العرض عندما اجتاز المغامر دايفيد روبنى السودان في ١٥٢٢ [٢٩] - آخر زائر أجنبى لقرن ونصف ويترك عرضاً لأسفاره. وبعد عمارة، من الجانب الآخر، نعلم بصعوبة شيئاً يتعدى أسماء سبعة حكام من بعده، كان تعاقبهم غير ذى قطع بنفس المستوى [٣٠]. إن الملك الخامس، دكين، وحده موصوف بأى شئ من الوصف في "سجل الأحداث": "كان واحداً من أعظم ملوك الفونج. أعاد تنظيم الإدارة على أمثل وجهٍ ممكن، وجعل قوانين مثبتة لا يمكن لواحدٍ من الناس كلهم في مملكته أن يتخطى حدودها؛ وعلى كل مقاطعة بمملكته عين زعيماً، وفى حالة أن يرغب في الجلوس أمامه أعطى ترتيباً محدداً للحضور لدى جلوسهم في ديوان المجلس؛ ولم يتوقف عن تكريس نفسه لتنظيم أركان مملكته حتى توفى في (١٥٧٧)م بعد حكم دام خمسة عشر عاماً " [٣١]. هذه الصورة لإدارة ديوانية تتكامل في حزم لاتدعمها المعرفة التى بحوزتنا عن إمبراطورية الفونج في تاريخ لاحق.

مدون أفضل تماسكاً وأشّد تفصيلاً لتاريخ الفونج يُستهل بحكم الملك عدلان، في فاتحة القرن السابع عشر. في ذلك الوقت إستّن العبدلاب العصيان المسلح ربما لغير المرة الأولى [٣٢] - بقيادة شيخهم عجيب المانجلك [٣٣]. أخمدت جذوة العصيان بنجاح، قُتل عجيب، ودُفع أفراد من أسرته خارج إقليمهم إلى داخل دُنقلا، منطقة ربما كانت آنفاً تحت سيطرة العبدلاب. إقتفى أثرهم ملك الفونج، لكنه عندما بلغ دُنقلا واجتازها خلعته قواته، وعين خلف له. بعد ذلك أجرى تفاوض من أجل إتفاقيةٍ بين الفونج والعبدلاب نُصّب بمقتضاها ابن الثائر عجيب في مكان أبيه، وحكم هو وكل خلفائه ليس شيوخا على العبدلاب وحدهم إنما كولاة، بالإنابة عن الفونج، على كل قبائل العرب، والبجا، والجعليين في الجزء الشمالى من الإمبراطورية. بذا أعيد تسليم العرب بالفعل الجزء الأكبر من الإمبراطورية التى اعتصرها الفونج منهم قبل قرن مضى، شريطة أن يحولوا جزءاً معيناً من جزيتها للحكام في سنار. هذا التصالح العملى برهن فلاحاً كافياً ليظل نافذاً لأكثر من ١٥٠ عاماً، وقد أثار

قيامه تقليدا للتعاون اللصيق لا شك فيه بين الفونج والعبدلاب مُحرَزاً في "سجل أحداث الفونج". تاريخ الإتفاق الأصلى وضع على اختلاف في ١٦٠٧ - ١٦٠٨ (٣٤)، ١٦١٠(٣٥)، و١٦١١ - ١٦١٢(٣٦).

أثناء القرن السابع عشر، نتيجة لتعضيد العبدلاب، ضمن عوامل أُخري، بلغت إمبراطورية الفونج أوسع مداها. كان العبدلاب مسؤولين بقدر كبير عن إخضاع البدو من العرب والبجا شرق النيل. وعن حالهم كتب جيمس بروس:

مقر أمير [العبدلاب] ... كان في قَرى، مدينة في الحد الفاصل بالفعل للأمطار المدارية... إن هذا موقعاً أُحسن إختياره على أفضل وجه لكونه كان جباية لا مهرب منها. يمسك بكل العرب الذين يملكون القطعان، والذين، بسبب حياتهم بين الأقطار في بلاد كلها ذات تراب خصيب، كانوا كل عام، حوالى شهر مايو، مضطرين هرباً من ذبابة التسى تسى للمسار، على نحو مستعاد، كيما يحلوا غدوهم نجوعاً في الصحراء الرملية التى تخلو من الأمطار المدارية ... وقف زعيم [العبدلاب] بجيش عرمرم من فرسان خفاف لا يعيقهم شئ، في طريق رجوعهم إلى مراعيهم حتى يدفعوا أعلى قدر من الجباية في ذلك الديون واجبة السداد إن كان منها شئ (٣٧).

حتى وقت متأخر من القرن السابع عشر كانت كل المقاطعات النهرية شمال ملتقى النيلين، إلى بُعد كالشلال الثالث، تدفع بنفس المنوال جبايةً للفونج من خلال توسط العبدلاب. ليس مؤكداً متى وعلى يد من ضمنت هذه المقاطعات الشمالية لإمبراطورية الفونج؛ لربما كانت تشكل من قبل جزءاً من دائرة سلطة العبدلاب في الوقت الذى كانوا فيه قد هزموا من الفونج أو ربما جاز أنها أخضعت مباشرة من الفونج في تاريخ لاحق (٣٨). لقد خرج الشايقية في النيل الأوسط أحراراً في نهاية القرن السابع عشر (انظر أدناه)، على أنه في زمن زيارة بروس في ١٧٧٢ كان *مك* دنقلا يُسَمى من حكام الفونج (٣٩). إشتملت الجباية من دُنقلا أكبر ما اشتملت على خيل (٤٠)، إشتهرت بها المنطقة منذ أيام الأوائل من ملوك نُبتة (انظر الفصل العاشر).

بينما تولى العبدلاب الشمال وأداروه، وَجّه السلاطين الزرق عزمهم ناحية الغرب في عهد حكم بادى الثانى ("أبو دقن") وخلصت حملة ناجحة في كردفان إلى إخضاع قسم من منطقة جبال النوبا. لربما كانت الحملة مضطلعاً بها في المقام الأول من أجل الرق؛ امست منطقة جبال النوبا في كل الحالات، وظلت طويلاً، أرضاً مفضلة لصيد المستعبدين. وفقاً لهولت "أحضر بادى معه سجناء عديدين أقام لهم مستوطناً في قُرى حول سنار. شكل السجناء وأحفادهم، وقد تضاعفوا كُثراً بالإغارة والشراء، جيشاً من العبيد لحماية العاصمة وحاكمها. هذه النقلة في القاعدة العسكرية لحكم الأسرة، من عصبة لمحاربين أحرار، هم صفوة الفونج الطاغية، إلى قوات عبيد تعتمد مباشرةً على الملك، ولها ما يوازيها في دول إسلامية أخرى، وبصورة ملحوظة في الإمبراطورية العثمانية نفسها" (٤١).

الرغم من أنه كانت ستجرى فتوحات متأخرة وعلى وساع في الغرب تُعلم أول حملة لكردفان المد العالى لتوسع الفونج الإمبريالى. في نفس الوقت تقريباً أفلح الشايقية عصياناً مسلحاً، وفى القرن الذى تلاه إنشقت الأقاليم الناطقة بالعربية والنوبية في الشمال واحدةً بعد الأخرى. وفي نهاية أيامها (عام ١٨٢١م) أضحت مملكة الفونج تحالفاً سودانياً جنوبياً، يمتد بشكل رئيس شرقاً لأعلى النيل وغربه، بدلا عن إمبراطورية تمتد أعلى النهر العظيم وأسفله.

إدارة إمبراطورية الفونج في أوج أيامها وصفها تريمنغهام على النحو الآتى.

هذه المملكة كانت تحالفاً عريضاً مُحاكاً بغير شّد بدلاً من أن تكون دولة. ما كان بها تركيز على السلطة ولا مؤسسات عامة. الأرض وحدها بين النيلين كانت مباشرة تحت حكم سنار، إذ أن الفونج إحتفظوا بحكام إقليميين ملوكاً تابعين وأذنوا لكل المؤسسات الأصلية أن تستمر كما كانت. مارس سيد سنار سلطته من خلال الإحتفاظ بحق إختيار خليفة لواليه، وفرض الجباية. الرابطة إذَن كانت في غاية الضعف وكثيراً ما يرفض واليه الجباية. *مك*

سنار، مع هذا، كان يصون جيشاً جحفلاً على استعداد من عبيد النوبا (١٤.٠٠٠ مشاة و١.٨٠٠ على الجياد في زمن بروس)، وخلال الأيام الرخية لمملكته كان بمستطاعه أن يفرض سيادته. في ١٦١٠، كمثال، أجرى والى العبدلاب عصياناً مسلحاً وهُزم وقُتل، ولكن ملك الفونج أعلن اسم ابنه ... في محله.

الفونج أعطوا هؤلاء الملوك التابعين لقب *مانجل* (أو مانجُلك). وبعد وفاة *المانجل*، يحضر المرشحون لسنار يكيدون لبعضهم بعضاً. فإذا اختير منهم واحداً دشنه الملك بمنحه *الككر* أو مقعداً للحكم (٤٢)، و *الطاقية* أم قرنين أو غطاء رأس في هيئة قرنين (٤٣)، وعمامة، وسيفاً، وأحياناً قلادةً ذهبية.

[شيخ] العبدلاب، كسيد مطلق على قبائل "العرب" شمال أربجي، يعين بنفسه الزعماء التابعين له، ويدشنهم بالطاقية. يكتب شقير: "عندما يموت واحد من هؤلاء *المكوك* تجتمع القبيلة كلها معاً، تختار *مكاً* ليرأسها، وتذهب به لشيخ [العبدلاب]. ثم يحلق الشيخ رأسه، متوجاً له ب *الطاقية* ذات القرنين وهى محشوة بالقطن، ويجلسه على المقعد المسمى ب *الككر*. ثم يخاطبه بلقب "مك" قائلاً "بورك فيكم"، ويقبل *المك* يده ويدعو له. ثم يأمر الشيخ بضرب *النحاس* (طبل قبلى)، بذا يشهر تعيينه *كمك* على قومه"(٤٤).

الفونج، مع هذا، مارسوا حكماً مباشراً في الجزيرة نفسها على كل القبائل، بما فيها العرب. كان هناك وزير [رئيس وزراء]، أقارب *للمك* لهم سلطة إضافة إلى ذلك ... في زمن بروس كان قانون لا يزال سائداً أن الملك يمكن "أن يُعرض للموت شرعاً من رعيته أو عبيده، بناء على مجلس يعقده الضباط العظام، إذا قرروا أنه ليس في مصلحة الدولة أن يُعهد إليه بالحكم لأى فترة تالية"(٤٥). إن سيد دار الملك، المدعو سيد *القوم*، له واجب القيام بقتله(٤٦).

ليس مؤكداً متى ومن أى جهة تحول حكام الفونج بدايةً لإعتناق الإسلام. إن سرد دايفيد روبينى يتضمن بصفاء، مع أنه لا يقرر ذلك صراحةً، أن عمارة دنقس، أول مليك مسجل، كان مسلماً سابقاً في زمن زيارة روبينى (١٥٢٢)(٤٧). وبعد قرن ونصف أكد جيمس بروس (الذى يعد قصه ذو الخمس مجلدات عن أسفاره للحبشة المصدر لغفرة من معلوماتنا حول الفونج) أن السلاطين الزرق أصبحوا مسلمين "من أجل التجارة مع مصر"(٤٨). يقترح موروث آخر أن عمارة دنقس إعتنق الإيمان الإسلامي لكى يحول دون غزو مملكته من السلطان العثمانى سليم الأول، الذى ضم مصر والنوبة السُفلى في نفس الوقت تقريباً الذى نُسبت فيه هيمنة الفونج في الجنوب (انظر "الحكم العثمانى في الشمال"، أدناه).

القصة أنه بعد أن فتح سليم، سلطان تركيا، مصر في ١٥١٧، أرسل جيشاً داخل النوبة ... وكذلك أنشأ قواعد في سواكن ومصوع، بذا هدد إستقلال البجا والحبشة. أخذ عمارة [دنقس] حذراً من هذا كمهدد على مملكته وأرسل رسالة يبين فيها إنه إذا كان سليم يفكر في شن *الجهاد* [الحرب المقدسة] عليه، فإن واجباً عليه أن يعلم إنه هو وقومه عرب ومؤمنين حقاً. دليلاً على ذلك أرسل جداول للنسب رسمها واحد يقال له السمرقندى وهو مسؤول عن معظم الأنساب المُخْتَلقة في السودان [قارن الفصل السابع عشر]، ليبرهن أن الفونج إنتموا إلى بنى أمية (٤٩).

كما أبصرنا في الفصل السابع عشر، إنه ما إن تحول حكام الفونج إلى الإسلام حتى فتحوا سريعاً أبواب مملكتهم لمعلمى الدين الإسلاميين. حاصلاً لذلك كان إنتشار المعرفة الإسلامية أمضى سرعةً بمراحل في الجنوب الذى تحول حديثاً من مقاطعات الجعليين والنوبيين التى يسيطر عليها العرب. وعلى خلاف السلاطين والمسلمين الأوائل في غرب إفريقيا، يبدو الفونج كأنما لم تكن لهم رغبة في الإحتفاظ بالإسلام كدين يقتصر على الطبقة الحاكمة وحدها (٥٠).

على الرغم من مدى هيمنتهم الإسمية في الشمال، ظاهر أن الفونج ما كانوا في المقام الأساسى معنيين بالمقاطعات النهرية وجبايتها. كان عناؤهم إمبراطورية تتاجر بالرقيق كما بالتأكيد كانت السلطنات في الغرب البعيد ـ مالى، سونغاى وبورنو ـ التى ربما كانت تطلعاً لهم. جدير بالذكر أنه بينما كان الفونج قانعين بتسليم السيطرة المباشرة للمقاطعات الشمالية الإسلامية لولاتهم العبدلاب،

كانوا حريصين على إبقاء الجنوب الوثنى في قبضتهم المباشرة. وفى حين مد العبدلاب دائرة سلطانهم على أعراب البدو وعلى البجا، ركز الفونج لا أحد سواهم تيقظاً على أرض كردفان التى كانت قابلة للإسترقاق. يبدو محتملاً على نفس الصعيد أنّ الميزة العسكرية التى تمتع بها الفونج بالنسبة لجيرانهم العرب كانت ترجع في جزء إلى إمتلاكهم جيوشاً من العبيد، وإلى تناولهم الأقرب لأقاليم اصطياد المستعبدين التى يمكن إستحصال التعويضات منها.

عصيان الشايقية المسلح وتداعى الفونج

من التجمعات القبلية المختلفة التى ظهرت في النوبة ما بعد المسيحية لم يلعب أحد دوراً تاريخياً أشد بروزاً من الشايقية الذين يمتد إقليمهم من الشلال الرابع إلى الدبة، في سفح المنحنى العظيم للنيل (الشكل رقم ٩). إنهم أقصى شماليين من قبائل الجعليين المتحدثة بالعربية والجيران الملاصقين للنوبيين الدنقلاويين. مثل قبائل الجعليين الأخرى هم اليوم جماعة متجانسة لمدى بعيد، نتاجاً لدمج عدد صغير من الفاتحين الغرباء مع عدد يفوقهم كبراً من رعاياهم النوبيين. يبدو، لهذا، أنه في زمن الفونج لم يكن دمج الحكام والرعية قد أخذ مكاناً بعد: كان كبار القادة العسكريين للشايقية صفوة عسكرية يلوذون بعداً صارماً عن الفلاحين النهريين، لا يستسيغونهم ويرعبونهم من وقت لآخر.

أصول القادة العسكريين للشايقية كانت موضوعاً لتخييلٍ يماثل بالتقريب مانالته أصول الفونج من ترديد. وصف ماكمايكل الشايقى المألوف بأنه "مخْضَّر أصفر السحنة" و "دائماً ما يصعب تمييزه من تركى "مولّد" (أى مولود في السودان...)"؛ على هذا الأساس كان يميل لأن يشتق أصولهم من قوات الحامية (وأغلبها من أصل بلقانى وأناضولى) المرابطة بأمر العثمانيين في النوبة الشمالية (أنظر أدناه)[٥١]. مع ذلك قبل قرن سابق وصف الرحالة وادينغتون الشايقية بأنهم "سواد حالك، بارق، صافٍ"؛ إقترح تريمنغهام أصلاً بجاوياً لهم [٥٣]، وكتاب أخرون قنعوا بالحديث عنهم كأناس تكتنف وجودهم الأسرار [٥٤]. إن السر الذى يحيط بهم ينبعث من حقيقة أنه، لحدٍ عظيم البعد عن أقوام أخرى استوطنت بوادى النيل، إستطاعوا أن يحفظوا نظاماً لأعراف صفوةٍ محاربة، بالإضافة إلى العادات الضارية أيام عرب البدو. ويقول عنهم مورهيد إنه "كان هناك بعض الهيجان في دمائهم ... هو الذى جعلهم ينهضون فوق كل القبائل المحيطة، وفى بأسهم ومظهرهم كانو في كل ذرة بمثلما كان المماليك عليه، للهلع يثيرون. عاشوا على استلاب المجتمعات المستوطنة على طول ضفاف النهر، وقد قيل أنهم قادرون على حشد عشرة آلاف محارب، ألفان منهم ركوباً على الأقل. في كافة أرجاء هذا الجزء من السودان كان اسمهم مثلاً دالاً على القرصنة والدمار"[٥٥].

وصف بورخارت الشايقية في ١٨١٣ في جزالة معهودة:

هؤلاء الناس المختلفة في حرب متواصلة مع بعضهم البعض، ويقوم شبابهم بحملات النهب إلى مسافة دارفور في الغرب ووادى حلفا في الشمال. يقاتلون بأجمعهم على ظهور الجياد، في معاطف مدرعة يبيعها لهم تجار سواكن وسنار. الأسلحة النارية غير شائعة بينهم، أسلحتهم الوحيدة كانت رمحاً، ودرقة، وسيفاً؛ يرمون الرمح مسافة عظيمة بمهارةٍ فائقة، ويحملون دائماً أربعة أو خمسة رماح في اليد اليسرى عندما يحملون على عدو. يمتطون كلهم فُحولاً من خيول دُنقلا ويشتهرون بخيالتهم كما كان المماليك في مصر؛ يدربون جيادهم لتقوم بقفزات عنيفة بأرجلها الخلفية بينما هى تعدو. تشبه سروجهم الرسوم التى شاهدتها في الحبشة، ومثل خيالة الحبشة يضعون الأصبع الكبير وحده في الركاب.

الشايقية قوم مستقلون على وجه الإتقان ويملكون ثروة عظيمة من الذرة الشامى والبقر؛ مثل الأعراب البداة في بلاد العرب لا يدفعون نوعاً من الجزية لزعمائهم، الذين لا تعادل قوتهم بأى حالٍ من الأحوال قوة زعماء دُنقلا. وهم مشهورون تحميداً لكرم ضيافتهم، شخص ضيفهم أو صاحبهم مبجل. وإذا حاز المسافر صديقاً بينهم، ونُهب

في الطريق، تعاد له ممتلكاته، ولو أخذها الملك.

مثل الشايقية كما الجنود، رجال غير متعلمين، ينغمسون في الإستعمال المعاود للنبيذ والخمور المصنوعة من البلح. وسلوكيات نسائهم يقال إنها سادرة عن المألوف[٥٦].

لهذا التشخيص الموجز أضاف وادينغتون:

فُرادى لا يهابون شيئاً في الهجوم، يركبون حتى يلاقوا وجوه عدوهم في استهتار وإنشراح قلبى، كأنما لحفل، أو في حُبور، كأنها مقابلة بين أصدقاء إستطال تباعدهم، ثم يُحيون "السلام عليكم" ـ سلام الموت، يرافق الرمح ويتبع التحية من فورها: تمنح الضربات القاتلة وتتقبل بكلمات الحب على الشفاه. هذا التهوين من شأن الحياة، هذا التهكم على أعظم ما يخيف، إختصوا به نفوسهم ـ القوم الوحيدون الذين لهم السلاح ألعاباً والحرب رياضة؛ الذين بين أعدائهم لا يسعون لشئ سوى اللهو، وفى الموت لا يهابون شيئاً سوى الراحة الأبدية [٥٧].

رأيان إضافيان منذ وقت قريب عن الشايقية يستحقان النقل. في زمن متأخر من القرن التاسع عشر كان الجنرال غوردون مضطراً لأن يعتمد إلى حد ما على إخلاص الشايقية في محاولته سيئة الطالع ليدافع عن الخرطوم في مواجهة المهدى (أنظر "المهدية"، أدناه)، إلا أنه وجدهم موضعاً لإختبار متواصل. في مجلاته المنشورة بعد موته شكاً مراراً وتكراراً من نفاقهم ودسائسهم [٥٨]، وفى إحدى اللحظات إنفجر صارخاً "هؤلاء الشايقية! لسوف أظاهرهم وأصهر إحتمال الرجل بإيلام أشد من أى أناس آخرين في العالم بأسره، ليس هذا فحسب، بل في الكون" [٥٩]. أخيراً، في باكورة القرن العشرين رُقب ماكمايكل أن "الشايقى جانباً عن أي قبيلة أخرى في السودان لكونه أوفر مغامرة، وأشد إشتجاراً، وبوجه الدقة، أُعطى إستعداداً ليؤدى الخدمة كمقابل مرتزق تحت أى مخدّم. إن الشايقى المألوف مُخْضَّر أصفر السحنة، معروق ويقظ، سكير عربيد، مغرم بالرهان، وكاذب بالميلاد"[٦٠].

بالرغم من إنه أصبحت تقليعة أن ترجع الشخصية القتالية لهيجان ما خارجاً عن المألوف في دمائهم، فإنهم في الحقيقة يبدو أنهم كانوا قابلين للطاعة في البداية بقدر كاف. خضعوا لقرن ونصف دونما معارضة مارقة لولاية العبدلاب والفونج، لا نسمع عنهم شيئاً سابقاً لعصيانهم المسلح الناجح في الجزء الأخير في القرن السابع عشر، وأنجزت بطولاتهم القتالية العظيمة ـ والضارية ـ كلها في دائرة أجيال قليلة من بعد ذلك. يبدو محتملاً لذلك أن عسكرية الشايقية ألهبها النموذج الناجز للفونج والعبدلاب، وليست هجرة جاءت متأخرة لبعض جماعة محاربة إلى داخل إقليمهم. إن الفارق الذى أزاح الشايقية جانباً عن قبائل الجعليين الأخرى هو نفس الفارق الذى فصل الإسبارطيين من أقرابهم الأغاريق، وفصل شين من الدول المجاورة لها في الصين القديمة. لقد كان نتاجاً للجغرافيا وانتهاز السوانح، ليس للوراثة. إن كبار القادة العسكريين للشايقية ربما كانوا في الواقع ما يقرب من نوبيين خالصين، على الرغم من استعلائهم المعلن على النوبيين الخاضعين لهم؛ أما الإدعاء بأنهم عضوياً متميزون عمن كانوا واقعين تحت سيطرتهم فقد طرحته برتابةٍ أغلب جماعات الصفوة الموروثة أزماناً سالفة. وهناك تقارير أن الشايقية تحدثوا بالفعل لهجةً نوبية قبل القرن التاسع عشر [٦١].

تضم منطقة الشايقية أرض الهامش الأصلية لنُبتة (الفصل العاشر): المقاطعة المثمرة التى تقع مباشرة على الشلال الرابع في إتجاه مجرى النهر شمالاً. رغماً عن ثروتها الزراعية كانت هذه المنطقة تحت حكم الفونج طريقاً مسدوداً، تتخطى من طرق التجارة الرئيسة التى عقدت الصلة بين الأجزاء الشمالية والجنوبية للإمبراطورية (الشكل رقم ٨٤) [٦٢]. نتيجةً لذلك كانت دخول المقاطعة من ريعها خفيفة على وجه الإحتمال، وربما كان اكتراث أرباب العبدلاب والفونج بتأمينها خفيفاً في نسبته. من ناحيتهم لابد أن مكوك الشايقية طالعوا بعين حاسدةٍ الجبايات الطائلة التى كانت الأقوام المجاورة لهم قادرة على استخراجها من حركة القوافل، والتى كانوا هم أنفسهم محرومين منها

لموقعهم الجغرافي غير المرغوب فيه. وعلى أى حال، إتّحد مكوك الشايقية في الجزء الأخير من القرن السابع عشر بشكلٍ موقوت لتأكيد إستقلالهم عن سيطرة الفونج. لربما أنهم جُرّاهم على ذلك إنقسامٌ بين الفونج انفسهم (٦٣)، على أن بطش عداواتهم كان موجهاً ضد الولاة العبدلاب. وكان العبدلاب طبقاً لموروثهم الخاص الذى يصيب بالحيرة نوعاً ما قد هُزموا في معركة بجزيرة دولقا. أرسل الشايقية بعدها كلمةً بنصرهم لسنار، مطالبين بناء عليه بخلع *مانجل* العبدلاب من ولايته عليهم، والإعتراف بواحدٍ من شيوخهم في مكانه - طالبين بالتالى تأييد إستقلالهم (٦٤). ذلك فيما يبدو ضمن لهم بحكم *الأمر الواقع* إن لم يكن رسمياً. وُضع تاريخ عصيان الشايقية المسلح على اختلافٍ بين ١٦٦٠(٦٥) و١٦٩٠(٦٦).

لقد كان الشايقية الذين استقلوا حديثاً غير قادرين على صياغة نواةٍ ثابتة للقوة في النيل الأوسط. لو فعلوا ذلك لكان بإمكانهم قطعاً أن يحلوا محل العبدلاب كأرباب للمنطقة كلها من الشلال الثالث إلى ملتقى النيلين. مع ذلك، لمصداقية الموروث البدوى للأعراب المتعلق باللامركزية السياسية بالضرورة، إنشقوا إلى *المكوك* الأربعة المستقلة في عمرى، ومّروى(٦٧)، وكَجبى، وحنك. كل من هذه أضحى قاعدة لعمليات عصبة محارية أدنى حضارةً في شبهٍ قريب من بنى كنز خلال أيامهم القديمة (الفصل السادس عشر). مثل بنى كنز، فضل الشايقية حياة الضراوة على مسؤوليات حفظ السلام؛ خارج إقطاعياتهم الصغيرة كانوا قنوعين بترك سيطرة لإدارة إسمية في أيدى العبدلاب، وأن يستخرجوا نوع جباياتهم الخاصة بالقوة والإرهاب. في القرن الذى أعقب إستقلالهم، لذلك، تبددت القوة العسكرية للشايقية بحجم كبير في الحروب بين بعضهم بعضاً وفي إغارات السلب بحق المقاطعات المحيطة، بدلاً عن توسيع أو توطيد مكانتهم. "مثل هذه هى نتائج نيل الإستقلال الشريرة والتخريبية بأكملها". يكتب كراوفورد(٦٨). ولغزارة إنتهابات الشايقية وقسوتها الموغلة في منطقة دُنقلا هاجر في القرن الثامن عشر عدد عظيم من النوبيين غرباً إلى ربوع كردفان(٦٩)، بيد أنه لم تنته هيمنة الفونج على دُنقلا تماماً حتى ١٧٨٢(٧٠). في سنوات أخيرة وجه الشايقية علاوةً على ذلك عناءهم لأبناء عمومتهم الجنوبيين: كلاً من الجعليين الأصليين الذين يقيمون في شندى والعبدلاب في قُرى أحسوا بضربات مهاجمتهم اللاذعة في نهاية القرن الثامن عشر(٧١). مع ذلك، لم ينشئ الشايقية أبداً حكماً موطداً على الأقوام المجاورة لهم؛ كان حكمهم ببساطةٍ مرتعاً للصيد يزداد إتساعاً على الدوام.

مكوك الشايقية هم الذين بنوا الحصون النوبية الأكبر والأشد أخذاً للإنطباع في النوبة العليا، فيما وصف مسبقاً في الفصل السابع عشر. وكما تمعنها كايلليود في ١٨٢١، كانت بمستوى بارز للغاية سلالة لقلاع مسكونة (٧٢). كل *مك* من *مكوك* الشايقية يبدو أنه كان يتباهى في دائرة نفوذه الصغيرة، بقلعة عمادية وحصون فرعية عديدة (٧٣). الأخيرة من هذه وأكبرها يعتقد أن تاريخها يعود إلى القرن الثامن عشر - ذروة أيام الشايقية وقمة قرون العصر الإقطاعى النوبى(٧٤).

كان الشايقية بشكل رئيس هم الذين جعلوا من إسم النوبة مثلاً تسير به الركبان وسط المسافرين في العهد ما بعد المسيحي. كتب الأخ توماس القانجيتى(*) في وقت باكر يعود إلى العشرينات من عام ١٥٢٠ يقول "... على الطريق الواقع وراء النيل ... هناك أناس سيئون، نهابون، قتلة، ويتوفرون في محافظة النوبة عنهم في أى مكان آخر"(٧٥). مائتان وخمسون عاماً بعد ذلك كان على بروس أن يعلم أنه وراء سنار، بالسير شمالاً، ما كانت هنالك "حماية إلا من السماء"(٧٦). وحتى هزيمتهم على يد إسماعيل باشا في ١٨٣٠ (أنظر أدناه) واصل كبار القادة العسكريين للشايقية التمتع - فيما يبدو حرفياً - بسمعة النهابين والقتلة. قبل الهزيمة التي أُلحقت بهم مباشرة، وفقاً لوادينغتون "مَنْ أنتم سوى أمة من الناهبين؟" قال لهم تركى، أثناء بعض المفاوضات. "نهابين!" كانت الإجابة الغاضبة: "نهابين، إذّن، وُلِدنا! ونهابين سوف نموت!" (٧٧).

(*) نسبةً إلي قانجت - المترجم.

بينما كان الشايقية يكتسحون مناطق نفوذ الفونج الأخيرة في الشمال، إنشق العبدلاب أنفسهم أحراراً من أربابهم لهذا الزمن المديد في ١٧٧٠[٧٨]. بهذين الحدثين بلغ كل رمز لتحكم الفونج على قبائل الجعليين والنوبيين في السودان الشمالى نهايته. في ١٧٧٦ خُلع السلطان الأزرق نفسه من وزيره الهمجي، ومذاك أصبح ملوك الفونج الباقون دمى لكبار المسؤولين من الهمج، كما يبلغ هولت:

السنوات الأربعون الأخيرة ... للتاريخ، مليئة بتعارك المتنافسين على مقاليد الحكم، تجمعات لا متناهية للصفوة الطاغية من الفونج وزعماء العبدلاب، حروب مصغرة وكل أغراض الزعزعة السياسية. حكام الهمج سرعان ما ذهبوا على طريق سادتهم الفونج. الحاكم الرابع، ناصر... سلم إدارة الشؤون للارباب دفع الله وأغرق نفسه في البذخ. انضم إلى عصيان ضده إثنان من أشقائه؛ قُبض عليه وقُتل في ١٧٩٨ كعمل ثأرى من خاله ... مع أن أخاه وخلفه إستعاد النظام، فقد تولى السلطة خمس سنوات لا غير، وبعد موته أكدت ميول أسرة الهمج الرامية إلى الفرقة والشتات أهواءها من جديد [٧٩].

السنوات النهائية لحكم الفونج تظهر كأنها تعيد في تفصيل حزين قصة اضمحلال المقّرة وسقوطها (الفصل السادس عشر). في ١٨٢١ إستسلم آخر ملوك للفونج يحمل اللقب دونما مقاومة لجيوش إسماعيل باشا، وبلغ الحكم الإستقلالى في السودان نهايته.

الحكم العثمانى في الشمال

إذا كان القرنان السادس عشر والسابع عشر عصراً ظلامياً نسبياً في النوبة الجنوبية، فإنهما كانا في الشمال ظلاماً دامساً. في زمنٍ ما عقب فتحهم لمصر عام ١٥١٧م بسط الأتراك العثمانيون منطقة سلطانهم جنوب مجرى النهر إلى مدى بلغ الشلال الثالث، غير أنه يبقى مغيباً، كيف، متى و - لذلك الأمر - لماذا اتُخذ هذا. مصدر كل معلوماتنا حول الحكم العثمانى في الشمال هو بالفعل الموروث الشعبى الذى جمعه بورخارت في ١٨١٣، والذى يمكن إقتطافه هنا:

قبيلتا الجوابرة والغربية ... إستحوذا على البلد من أسوان إلى وادى حلفا، ومن ثم مدا سلطتهما على عدد عظيم من القبائل الصغري التى استقرت على ضفاف النيل في فترة الغزو العام، وبينها كان الكنوز... إن الجوابرة وقد كادوا يُخضعون الغربية، أرسل الأخيرون سفارة إلى السقطنطينية في عهد السلطان العظيم سليم، يسعون لعونٍ في مواجهة أعدائهم، وأفلحوا في استدرار قوة منظمة من عدة مئات من الجنود البوسنيين تحت قيادة قائد إسمه حسن قوصى، عن طريقهم دُفع بالجوابرة وأهل دُنقلا خارج النوبة (السُفلى)، إلى البلد الأخير(*)، وإلى هذا اليوم يُرجع سكان دُنقلا الأوسع ثراءاً أصلهم إلى قبيلة الجوابرة.

شيد الجنود البوسنيون القلاع الثلاث، أو بالأحرى أصلحوا المبانى القائمة، في أسوان، وإبريم، وصاى؛ وأولئك الذين قاموا بحماية القلاع إستحصلوا امتيازات معينة لأنفسهم ولأحفادهم بما ينبغى أن يكون ليتواصل إحتلال القلاع والإقليم الملاصق لها. واحد من هذه الإمتيازات كان اعفاءاً من كل نوع لضريبة الأرض، التى كان سليم وقتها قد أمر بفرضها لأول مرة في طول أنحاء الأراضى التابعة له؛ ولأنه كان يعتقد أن البلد غير قادرة على تهيئة غذاء كافٍ للجنود، عين لهم معاشاً سنوياً بالمثل من خزانة سليم في القاهرة. كان راتب حامية إبريم أربع حافظات، مساوية الآن لمئة جنية، فقط، لكنه يحتمل أن قيمتها آنذاك كانت أربعة أضعاف تلك الجملة. كذلك جُعلوا مستقلين عن باشوات مصر. وفى حين كان للباشوات [أى الولاة العثمانيون] كل نفوذ في مصر فإن المعاشات ستدفع، إلا أن المماليك يحتجزونها عموماً. حكم حسن قوصى النوبة بقواته، وهم فرسان أساساً، بينما كان حياً، دائب الحركة من مكان لآخر. دفع جباية الميرى سنوياً إلى باشا مصر، غير أنه في جوانب أخرى كان مستقلاً عنه. أحفاد مثل هؤلاء الجنود البوسنيين ممن تزاوجوا من قبائل الغربية والجوابرة لا يزالون يشغلون المقاطعات التى عينها لهم أسلافهم، في أسوان، وإبريم، وصاى، ويوالون التمتع بالحصانة من الضرائب والتبرعات من أى نوع

(*) اي دُنْقُلا في سياق النص – المترجم.

كانت. يدعون أنفسهم كالادشى، أو أهل القلاع، لكنهم مميزون عن النوبيين بإسم عثمانيلى (أتراك). لقد نسوا منذ زمن طويل لغتهم الأصلية، لكن ملامحهم لا تزال دالةً على أصل شمالى، ولون سحنتهم بنى خفيف في حين أن سحنة النوبيين تكاد تكون سوداء. إنهم مستقلون عن حكام النوبة، الذين يُغيرون منهم لأقصى حد، ودائماً ما يقارعونهم حرباً مفتوحة. يحكمهم اغواتهم، الذين ما فتئوا يتباهون بالفرمانات السلطانية التى جعلت منهم مسؤولين أمام السلطان وحده [٨٠].

فى سرد بوركهارت ليس هناك تاريخ معين للغزو العثمانى للنوبة. أياً كان ذلك، وحيث أن إسم السلطان سليم ("سليم العاتى") مذكور صراحة يفترض أنه حدث في وقت ما بين فتحه لمصر في ١٥١٧ وموته في ١٥٢٠. يبدو التاريخ الأخير مثبتاً بشكل إتفاقى من مؤرخين لبداية الحكم العثمانى في النوبة [٨١]. يقترح هولت، مع ذلك، أن الضم إحتل مكاناً جيلاً من بعد، في عهد سليمان الجليل (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦)، وكان موصولاً بالتغلغل العثمانىّ في منطقة البحر الأحمر [٨٢]. حتى لو كان الأمر كذلك، فالسؤال لِمَا يتجشم العثمانيون المتاعب والتكلفة لإخضاع مساحة بتلك القلة الشحيحة من الموارد وذلك الدخل الضئيل وحمايتها، متروك بلا تفسير. النوبة السُفلى في القرن السادس عشر ما تحكمت في طرق التجارة الرئيسة إلى البحر الأحمر أو أى مكان آخر.

غاب بشكلٍ واضح للغاية من التاريخ الشعبى الذى دوّنه بوركهارت أى ذكر لدوتاو أو بنى كنز ـ الوريثين الحاليين لقوة المقّرة التى، كما رأينا في الفصل السادس عشر، كانت لا تزال حيةً فاعلة في القرن الخامس عشر. ربما لن يعرف أبداً ما إذا استكانا مسبقاً للغربية والجوابرة، أم أن الأتراك أنفسهم تولوا الإجهاز عليهما *بالضربة القاضية*.

موروث شعبى آخر يؤكد أن تقدم العثمانيين إلى داخل النوبة جرت مقاومته إما من الفونج أو من العبدلاب. فقد دار قتال في حنك، على مسافة قصيرة شمال كرمة (لا يخلطن هذا مع مكوكيّة الشايقية في حنك، بعيداً بالجنوب)، هزم فيه المدافعون بلا منازع. أقام الأتراك بعد ذلك *قبة* في الموقع إحياءاً لذكرى إنتصارهم، وهذه باتت معلماً للحدود بين دوائر نفوذ الفونج والعثمانيين [٨٣]. إسم السلطان سليم مذكور كذلك في عرض واحد لمعركة حنك، غير أنه مرةً ثانية فإن تاريخ معركة حنك وتوثيقها التاريخى غير مؤكدين [٨٤]. يبدو أن إرتياباً قليلا يدور في الجانب الآخر ذلك أن الحدود بين أقاليم الفونج والعثمانيين ثُبتت في مكانٍ ما بضاحية حنك، التى تتماثل كذلك مع الحدود القديمة بين نوباديا (ماريس) والمقّرة، ومع حدود اللهجات بين نوبيى المحس والدناقلة، والحدود الإدارية الحديثة بين مقاطعات دُنقلا وحلفا.

الحكم العثمانى في مصر الذى استمر نظرياً في ١٥١٧ حتى ١٩١٤، ما كان ابداً أزيد من حكم إسمى، وفى النوبة لابد أنه كان في نفس الوقت أشد من ذلك إسميةً. في القطر الشمالى كان المماليك المستهترون قد أُخلى سبيلهم ليتابعوا إدارتهم الفوضوية للشؤون اليومية (قارن الفصل السادس عشر)، لا يدفعون سوى جباية سنوية صغيرة للقسطنطينية [٨٥]، وفى النوبة كان *الكشاف* "يجهدون لتقليد المماليك في كل شئ، حتى في أسوأ رذائلهم إثارةً للإستهجان"، وفقاً لبوركهارت [٨٦]. تماماً كما أمسك المماليك عن دفع الجباية للسلطان العثمانى متى أحسوا قوة كافية، كذلك إحتجز *الكشاف* دائماً الجباية دون المماليك [٨٧].

لقب *الكاشف* يقال إنه من أصل مملوكى [٨٨]. منح في مصر لمحصلى ضرائب قليلى الشأن نسبياً كانوا مسؤولين لسلطات إقليمية تعلو عليهم على اختلاف [٨٩]. وفى النوبة من الناحية الأخرى يبدو *الكشاف* وكأنهم ظلوا المسؤولين المدنيين الوحيدين الذين جرى تعيينهم أبداً، وكانت مسؤوليتهم العلنية مباشرةً لدى باشا مصر (أى الوالى العثمانى). كانوا بحكم *الواقع* حكاماً للبلد؛ إختلف موقفهم عن موقف *المكوك* في الجنوب المترامى في شئ واحد هو أنهم كان عليهم أن يتعايشوا مع قوات الحامية التى لم تكن تحت إدارتهم المباشرة. أول *الكشاف* كانوا إفتراضاً اتراكاً، والبانيين، أو

بوسنيين. مع ذلك، يبدو المنصب وراثياً منذ البداية (كما كانت معظم المناصب الإدارية الإقليمية في الإمبراطورية العثمانية)، وسرعان ما أصبح *الكشاف*، من خلال التزاوج، غير مميزين عن رعاياهم. ما كانت لهم فيما يظهر إقامة دائمة، وما كان عددهم ثابتاً. تقلد المنصب في زمن بورخارت ثلاثة أشقاء كلهم مقيمين إسمياً في الدِرّ، لكنهم قضوا معظم وقتهم يرتحلون حول مناطق نفوذهم بغرض جبى الضرائب والجزية.

الحاميات العثمانية العسكرية، مرة ثانيةً في إتِّباع لبورخارت، كانت مستقلة عن *الكشاف* ومسؤولة لدى السلطان العثماني نفسه. مثل *الكشاف*، يبدو أن قوات الحامية كانت موضوعة في البلد في مستهل نظارة السيادة ثم تركت تديم بقاءها بالتزواج. هي بدورها صارت نوبية بمرور الوقت، مع أنها احتفظت بموروث أصلها الشمالي. وبالرغم من أن القوات الأصلية معروفة إتفاقاً بأنها بوسنية، يبدو أنها اشتملت على عدد كبير للغاية من الجنسيات الأخرى إضافة إلى البوسنيين. تتحدث الموروثات النوبية الحديثة عن بوسنيين، ومجريين، وألبانيين، وأتراك، وشراكسة [٩٠]، ـ تركيبة مألوفة بدرجة كبيرة لحامية حدود عثمانية. وفي تاريخ قريب مثل ١٩٥٢ أصر سكان جزيرة المجراب، بالقرب من وادى حلفا، أنهم كانوا من أصل مجرى (مجر ـ آب تدل على "أحفاد المجريين"[٩١]). هذه الأقوام الشمالية المتنوعة كانت ولا تزال موصوفة من ناحية جماعية بالغوز (من غوز التركية، وهو إسم يصف أصلاً قبائل البدو التركية في آسيا الوسطى [٩٢]؛ يدَّعى نوبيون معاصرون كُثر أنهم سلائلهم[٩٣].

لم تكن القوات العسكرية في النوبة الشمالية منحصرةً بتلك الموجودة منها في قصر إبريم وصاي، الوارد ذكرها في عرض بورخارت مع أنها يمكن أن تكون الوحيدة التى تصان على حساب العثمانيين. يظهر أنه كانت في المنطقة قوة ما في جبل عدّا حتى القرن الثامن عشر [٩٤] وفى فرس حتى التاسع عشر [٩٥] وكانت بها قطعاً حاميات صغيرة في كولبنارتى [٩٦] ومواقع حصون أخرى في *بطن الحجر*. مع ذلك، ربما أن هذه كانت مصونة من *الكشاف* من أجل أغراضهم الخاصة. في زمن بورخارت، كما سنرى في لحظة، فقد كان *للكشاف* قوة خاصة من حوالى ١٠٠ جواد.

طراز الحكومة التى أتاحها *الكشاف* في النوبة الشمالية كان غير مختلف بأى شكل له مغزى عن *المكوك* إلى جنوبهم أو المماليك في الشمال. كانوا شديدى الغدر بالغرباء وفى حرب دائمة مع بعضهم بعضاً لدرجة أنه ما من زائر أجنبى أفلح في التغلغل إلي دوائر نفوذهم بعمق بالغ حتى القرن التاسع عشر. إن واحداً حاول أن يفعل ذلك كان فردريك لويس نوردن، ضابط بحرية دنمركى تصور عام ١٧٣٧م أن من الممكن أن يطمح إلى النزول لأسوان حتى الشلال الثانى [٩٧]. فما وصل إلا مسافةً لا تبعد عن الدرّ (حوالي ١٣٠ ميلاً جنوب أسوان بالتقريب)، حيث لأسابيع عديدة أُخذ بالفعل سجيناً بينما ابتز الكشاف ومن كان في صحبته كل شئ بحوزته أو كادوا بعضاً "هدايا" وبعضاً جزيةً. وعندما اعترض نوردن بأنه كان يسافر تحت حماية "السنيور الأكبر" (باشا) مصر، بلغه الكاشف "إننى أسخر من قرون السنيور الأكبر؛ إننى أنا نفسى هنا سنيور أكبر وسوف القنك أن تحترمنى كما يجب" [٩٨]. ولما علم أن الحاكم خطط لقتله متى استُولى على آخر ممتلكاته، كان نوردن سعيداً بالهروب إلى أسوان؛ "... وعندما اجتازوا الأماكن المختلفة على النهر كان الناس في كل مكان يتعجبون إذ يجدوا أن المسافرين كانوا لا يزالون أحياء، وإنهم فروا من أيدى حاكم الدرّ" [٩٩].

ما كان الموقف بأفضل منه بعد نصف قرن عندما حاول أوروبى مغامر غيره، ى. ج. براونى خوض السودان لأول مرة [١٠٠]. لقد إكتشف إنه "لسنوات عديدة ظلت دُنقلا، والمحس وكل حدود النيل إلى مسافة سنار... مسرحاً للخراب الطويل والمذابح الدموية، لا تملك حكومة مستقرة، لكنها ممزقة دائماً بإنقسامات داخلية وهى خائرة القوى من جراء الإغارات المفاجئة للشايقية وقبائل عربية أخرى" [١٠١]. محصلة لذلك إضطر براونى لتفادى طريق النيل برمته فسافر على طريق الواحات

الغربية، درب الأربعين، إلى كردفان ودارفور، ليصير مصادفة الأول وربما الأوروبى الوحيد الذى قطع أبداً ذلك الدرب الشهير بدرب العبيد (قارن الفصل السابع عشر) [١٠٢]. إن وصف براونى للحركة التجارية على درب الأربعين مثير للدهشة: لقد إرتحل هو نفسه مع قافلة من ٥٠٠ جمل، قُدرت قيمة حمولتها ١١٥.٠٠٠ جنيهاً إسترلينى [١٠٣]. كانت السلع المحمولة للتجارة تشبه لمدى بعيد السلع التى كان بورخارت سيصادفها بعد سنوات قليلة في السوق بشندى (الفصل السابع عشر). يبدو محتملاً بحق أن نسبةً عالية من البضائع في قافلة براونى كانت متجهةً لأسواق وسط السودان بمعدلٍ يزيد على اتجاهها نحو أصقاع كردفان ودارفور شبه الخالية؛ أما إنهم كان عليهم أن ينتقلوا عن طريق الصحراء الغربية غير المطروق إلتفافاً في تفضيلٍ له على النيل، فربما أنه أبلغ بَيِّنة دالة لنا على الفوضى السياسية والإقتصادية المطنبة بحياكة *الكشاف* و *مكوك* الشايقية.

مع أن بدايات الهجرة النوبية إلى مصر يمكن أن تعود إلى تاريخ وجيز آنفاً، يبدو أن نمط الهجرة السنوية المنتظمة - الذى كان على أهمية كبرى في الماضى القريب - صار قائماً بثبات في العصر العثمانى. إن توهم وجود حكومة عامة (السلطة العثمانية) وحقيقةُ وجود دين واحد (الإسلام) ربما شَجعت النوبيين ليزداد إحساسهم بأنهم في دارهم بالقطر الشمالى اقوى من أى وقت آخر منذ الأيام الأخيرة للفراعنة؛ في الوقت نفسه كانت ضرائب *الكشاف* والدمار الذى حاق بالتبادل السلعى يهئ كل إغراء لمغادرة بلادهم. نجد في كل حالة، بحلول القرن السابع عشر، أن النوبيين موصوفين بسيطرتهم على تجمعات عمال البناء، والغفراء، وسماسرة الرق في القاهرة. وعندما وصل علماء نابليون في نهاية القرن الثامن عشر (انظر أدناه) وجدوا كذلك النوبيين أغلبيةً بين حراس الجمارك، وخدام البيوت، وعمال الحمل [١٠٤]. بعد سنوات قليلة كان على بورخارت أن يكتب أنه "تذهب أعداد كبيرة منهم إلى مصر سنوياً، حيث يعملون بصفة عامة بوابين أو حمالين، ويفضلون على المصريين تقديراً لأمانتهم" [١٠٥]. مع هذا، يظهر أن الهجرات الإجمالية للماضى القريب لم تبدأ حتى وقت متأخر في القرن التاسع عشر، عندما توحدت النوبة ومصر بحزم ولو أنه توحدٌ موقوت تحت نظام محمد على (انظر أدناه) [١٠٦].

يبدو ملائماً إختتام هذا الجزء بمقالةٍ من بورخات مرة ثانية، واصفاً النظام الإستعمارى كما رصده في ١٨١٣. إنه يوفر بالمصادفة وصفنا التفصيلى الوحيد لنظام الضرائب الذى يحتمل أنه ساد من أيام الفراعنة حتى القرن العشرين:

... في الوقت الحاضر يمكن أن يُقال إن الحالة السياسية للبلد إسمياً على الأقل، هى نفس ما كانت هى عليه عندما امتلكه حسن قوصى. الحكام الحاليون، أحفاده، حسين، وحسن، ومحمد [١٠٧]؛ أبوهم كان اسمه سليمان، وقد نال سمعة ما من جبروت حكمه. لقب *الكاشف*، الذى تقلده الإخوة الثلاثة، يمنح في مصر لحكام المقاطعات. يدفع الإخوة جباية سنوية حوالى ١٢٠ جنيها لخزانة باشا مصر، بدلاً عن ميرى النوبة الذى يُساءل عنه الباشا [لإستانبول]. في زمن المماليك قلما كانت هذه الجباية تدفع، غير أن محمد على ظل يتسلمها بإنتظامٍ في الثلاث سنوات الأخيرة. *للكشاف* الثلاثة ما يقرب من مائة من الخيالة طوع خدمتهم مكونين في الأساس من أقاربهم أو عبيدهم. هذه القوات ليس لها راتب منتظم؛ تعطى لهم الهدايا في المناسبات، ويعدون في الخدمة عندما يقوم أسيادهم برحلة وحسب. الدرّ هى مقر زعامة الحكام، لكنهم يتحركون في حركة دائبة لفرض الضرائب وجبيها ممن يخضعون لهم، والذين لا يدفعون لهم إلا عندما تدنو قوتهم المتفوقة. أثناء هذه الرحلات القصيرة يرتكب *الكشاف* صنوفاً من الظلم الفادح حيثما وجدوا أنه ما من أحدٍ ليقاومهم، وهى الحالة المألوفة. يُتقاسم عائد الدخل بالتساوى بين الأخوة الثلاثة، بيد أنهم جميعاً جشعون، يغيرون من بعضهم بعضاً لأدنى درجة، وينهب كل واحد منهم خلسة باكبر قدرٍ ما يستطيعه. إننى أُقدر ريعهم السنوى بحوالى ٣.٠٠٠ جنيهاً لكل واحد، أو من ٨ الاف إلى ١٠.٠٠٠ جنيه على الإجمال. ما منهم من ينفق فوق ٣٠٠ جنيهٍ في السنة. تتكون ثروتهم العمادية من الدولارات [الإسبانية] والعبيد. في سلوكياتهم يؤثرون الأعمال المتكبرة وتصرفات العنجهية التركية، لكن ملبسهم، الذى هو أسوأ مما يود

الجندى التركى أن يتدثره، يكشف عن خطل هذا الجو المصطنع من الوقار.

الطريقة المتبعة لتقدير الدخل في النوبة لا تؤسس على امتداد مُعَين للأرض، مثل الفدان السورى أو المصرى، لكنها تقدر من كل ساقية يوظفها الأهالي. يتفاوت معدل الضريبة في أماكن مختلفة؛ لذا تدفع كل ساقية سنوياً في وادى حلفا ستة من الضأن السمين وستة ... مقاييس من الذرة. في المحس يأخذ المليك، أو الملك، على كل ساقية ستة من الضأن، وأردبين (٢٦ بوشلاً) من الذرة، وقميصاً من الكتان. كذلك يأخذ الحكام على كل نخلة كومين من البلح، أياً ما كانت الكمية المنتجة، ويفرضون رسماً على كل المركبات التى تحمل البلح في الدِرّ. إن نظام الضرائب بأكمله شفاهي وغير منتظم لأقصى درجة، والقرى الفقيرة ما أسرع خرابها من جرائه لعجزها عن مقاومة الجبايات المفروضة عليها، في حين يسدد الأغنياء جباية أدنى بمراحل نسبياً لأن الحكام يخشون من دفع السكان إلى أعمال المقاومة الصريحة. يستخرج *الكشاف* دخلاً مُعتبراً إلى جانب ذلك من مكتب قضاتهم، إدارة للقضاء لا تعدو مجرد أداة للتجارة.

بالرغم من أن حكام النوبة إبتزوا كميات جمة بالوسائل المختلفة التى ذكرت انفاً، إلا أن طغيانهم يمارس وحسب بحق ملكية رعاياهم، الذين لا يضربون أبداً ولا يقتلون فيما عدا حالة المقاومة العنيفة، التى لا تحدث بغير معاودة. فإذا هرب نوبى كان سيبتز منه مال، تسجن زوجته وأطفاله الصغار حتى يعود. وفيما يلي وسيلة غريبة إبتدعها حكام النوبة، لإبتزاز المال ممن يَذْعِن لحكمهم. يطلبون للزواج إبنة أى فرد ثرى إن كانت في عمر مناسب؛ يندر أن يجسر الأب على الرفض، يحس أحياناً أنه انخدع بالشرف، لكنه سرعان ما يفلس من قبل زوج إبنته القوى، الذى يبتز منه كل قطعة من ممتلكاته بإسم الهدايا لإبنته. تزوج كل الحكام بهذه الكيفية من النساء فيما يكاد بكل قرية لها مكانة؛ لحسين كاشف فوق الأربعين ابناً عشرون منهم تزوجوا بالأسلوب نفسه [١٠٨].

عودة الإستعمار المصرى

فى ١٧٩٨ حلَّ نابليون بونابرت في الإسكندرية يصحبه - أو سرعان ما تبعه - جيش لم يكن جنوداً فحسب بل إداريين، وماليين، ومهندسين، وبنفس المنوال علماء وفنانين. كان قصدهم أن يجعلوا مصر مستعمرة فرنسية، أن ينقلوا الغروس المباركة لعصر الإستنارة والثورة للتربة الشرقية، وعن طريق عرضى لتهديد المركز البريطانى في الهند. هذه المغامرة الخيالية بطيشها لم تدم أطول من ثلاث سنوات، ما حققت شيئاً لفرنسا في النهاية، لكنها كان لها الأثر الدائم في إيقاظ مصر مما كان سيدعوه محمد على "نوم العصور" [١٠٩]، وفى وضع القطر علي طريق للحداثة قرناً متقدماً على بقية العالم العربى [١١٠].

أهم نتيجة، ولو أنها غير مرئية، للإحتلال الفرنسى كانت نهوض قوة محمد على، الذى كان سيصبح أقوى شخص في التاريخ المصرى منذ صلاح الدين. ولد في اليونان، من أبوين تركيين أو ألبانيين[١١١]، في عام ١٧٦٩، وجاء إلى مصر في ١٧٩٩ مع تجريدة من قوات ألبانية أرسلت من السلطان العثمانى في مسعى لا جدوى وراءه لطرد الفرنسيين. ما من شئ معروف عن سيرته للعامين أو الثلاثة أعوام التالية، لكنه في الفوضى السياسية التي أعقبت رحيل الفرنسيين عام ١٨١٠ كان قادراً على تولى قيادة أغلب القوات العثمانية في البلاد وأن يمنع عودة المماليك للسلطة، وقد كان الفرنسيون أجروا نفيهم من القاهرة ومصر السُفلى. في ١٨٠٥ كانت في إمرته قوة من حوالى ١٠،٠٠٠ رجل، معظمهم ألبانيون، قوياً بما يكفى لخلع الباشا العثمانى واحتلال محله في رئاسة الدولة. تعيينه والياً تأيد من القسطنطينية في العالم التالى. وفى ١٨٠٨ هزم في يُسر قوة بريطانية صغيرة كانت قد أرسلت ضده، وشدد قبضته تشديداً عاتياً على القطر ضمن هذه العملية. مع ذلك، لم يكن توطيد أركان حكمه مكتملاً مادام المماليك يواصلون حيازة مصر العليا. إستضاف عدة مئات منهم في ١٨١١، باسطاً وعود الصداقة، ليحضروا حفلاً في القاهرة؛ وفى ختام الإحتفال إنقض

جنوده على الضيوف وذبحوهم كأن لم يبق إلا واحد. في نفس الآن شُن هجوم على نبلاء المماليك المتبقية في مصر العليا، وكان منهم حوالى ٣٠٠ رجل لا غير هربوا في آخر المطاف، برفقة زوجاتهم وخدمهم إلى جوف النوبة (١١٢). لقد إقتفى أثرهم إلى مسافة كقصر إبريم حينما فر الباقون، من بعد هزيمة لاحقة، إلى منطقة دُنقلا. هنا اقاموا مدينة حائطية عُرفت في مبتدئيها بالأردى (من التركية "لمعسكر") لكنها في وقت آخر حلت محل دُنقلا العجوز، العاصمة الإدارية للنوبة العليا (١١٣). إنها دنقلا الحديثة اليوم، تبعد سبعين ميلاً بالتقريب صوب إتجاه النهر إلى الشمال من مسميتها التاريخية على الضفة المقابلة (غرباً) للنيل.

فى الحقبة التى تلت قضائه على المماليك، كان محمد على مشغولاً بإعادة تنظيم الدولة في مصر وبحملة ضد طائفة الوهابيين الثائرة في شبه الجزيرة العربية. مع هذا لم ينس وجود أعدائه في دُنقلا؛ كما قال مورهيد عنه إنه "لم يسامح عدواً أبداً مهما كانت ذريعته"(١١٤). وفى ١٨٢٠ شن حملة في داخل النوبة بقيادة ابنه الأصغر إسماعيل باشا، الذى كان غرضه المستتر أن يطرد آخر من بقى من المماليك وأن يسحق قوة الشايقية الهدامة. كيفما تم ذلك، فالصافى أنه منذ البداية كان الباشا ينظر إلى ما وراء هذه الأهداف المباشرة: حاجته إلى عبيد يُجندون لجيوشه الجديدة .

كان محمد على وأتباعه عثمانيين، إن لم يكونوا على وجه التحديد أتراكاً؛ تحدثوا التركية مثل المماليك بدلاً من العربية، وتحت إدارتهم بقيت التركية لغة لجماعات الصفوة التى تحكم مصر والسودان حتى وقت متأخر في القرن التاسع عشر. كانت القوة التى غزا بها إسماعيل باشا النوبة علاوة على ذلك قوامها الخليط المعتاد من شعوب البلقان والشرق الأدنى الذين شكلوا الجيوش العثمانية. لهذا السبب عرف الغزو والنظام الإستعمارى الذى تلاه وسط السودانيين دائماً *بالتركية*(١١٥) - نظام الأتراك. غير أنه لابد أن يُفهم هذا التوصيف في معنى عرقى وحسب، لا بمعنى سياسى إذ أن ضم النوبة إضطلع به محمد على بمبادرته الخاصة ولأغراضه الخاصة، وليس (كما كانت بعض حروبه الأخرى) بمباركة السلطان العثمانى. ومع أن محمد على وخلفاؤه صوروا أنفسهم دائماً ولاة للقسطنطينية، ما كان السودان أبداً بعد فتحه معدوداً كجزء من مناطق النفوذ العثمانى باستثناء المعنى الأسمى نفسه الذى كان يحوق بمصر ذاتها. كان موظفوه المسؤلون يعينون من القاهرة، ليس من القسطنطينية، وكان بالتأكيد مستعمرة مصرية كما أيام الفراعنة. إننا لنا ما يسوغ ذلك عندما نتحدث عن الجيش الغازى كجيش مصرى، وعن النظام الذى تلاه كإدارة مصرية، مع أن المصريين الأصليين بالميلاد كانوا كمن لم يلعب دوراً فيه (١١٦).

دخل إسماعيل النوبة في ١٨٣٠ بقوة تقارب ٤.٠٠٠ رجلاً يقود حقيقةً أول قوة نارية فاعلة بما لم يسبق أن شوهد مثله أبداً في البلاد الجنوبية من قبل (١١٧). كانت الأسلحة النارية بين النوبيين من الندرة بحيث تكاد تكون أسلحةً إحتفالية؛ الشايقية وصفوف الفونج النظامية ما فتئت تقاتل بالحراب والرماح (١١٨). حاصل هذا أن الغزو المصرى يصعب أن يحسب أكثر من إستعراض بالنصر. سلم الكاشف حسن في النوبة السُفلى، بدون مقاومة للغزاة، وهو واحد من الإخوة الثلاثة المذكورين في سرد بورخارت منذ بضعة سنين خلت، بينما هرب أخوة حسين إلى كردفان. وسلم قائد الحامية "البوسنية" في صاى بالمثل (١١٩)، كما فعل الملك العمادى للدناقلة. قليل من المماليك في الأردى (مؤخراً دنقلا الجديدة) كذلك إستسلم، حين انسحبت الفرقة الكبرى جنوباً إلى شندى، لتلحق لجوءاً *بمك* الجعليين.

تالياً جاء دار الشايقية، وهنا، كما هو متنبأ به، كانت ملاقاة المقاومة الحقيقية الوحيدة للحملة. في معركتين أبلى فرسان الشايقية بكل النزق والشجاعة الجسورة التى ما أشد ما ألهبت إعجاب وادينغتون (أنظر أعلاه)، لكنهم مُزقوا إرباً بنيران حملة البنادق المصريين دون أن يُلحقوا بأعدائهم أى خسارة جسيمة. وبعد المعركة الثانية سلم واحد من مكّى الشايقية العماديين، بينما هرب الثانى

جنوباً إلي دار الجعليين. استأنفت الحملة من ثم إلى بربر، التى استسلمت دونما مقاومة، وإلى شندى، حيث كان آخر من في المماليك إضافة إلي *مك* الشايقية الهارب مخفيين تحت حماية نمر، *مك* الجعليين. بعد فترة من التفاوض إستسلمت شندى بدورها؛ أُعيدت أسرة الماليك إلى مصر، ليختفوا إلى الأبد من التاريخ[١٢٠]، بينما ألحق الشايقية مصيرهم بالغزاة. صحبوا بقية الحملة من القوة المصرية غير نظاميين، وظلوا إلى نهاية القرن التاسع عشر ملحقاً عسكرياً مهماً للنظام المصرى في السودان، وإن لم يُعتمد عليه.

بينما تابع الجيش سيره جنوباً إستسلم شيخ العبدلاب بدوره، وصار الطريق مفتوحاً إلى سنار. تهيأ والى الهمج محمد ودعدلان ليقاوم، لكنه اغتيل من فرقةٍ منافسة قبل وصول المصريين. فلما ظهر الجيش أخيراً، خرج آخر سلطان من الفونج، بادى السادس، بشخصه يقدم خضوعه. مُنح هو أسرته معاشاً، ظل مصوناً حتى الإطاحة بالحكم المصرى في ١٨٨١. وحينما دخل المصريون سنار في اليوم التالي دهشوا إذ وجدوها في حالة من الخراب المستحكم، والقصر الملكى الرائع ذات مرة أمسى أطلالاً. هكذا انتهى آخر نظام ملكى مستقل في النيل؛ بعد ٣٠٠٠ سنة عاد الفراعنة [١٢١].

كان فتح اسماعيل تقريبا بلا دماء، وسياسته نحو قادة السودانيين تصالحية في البدء على وجه العموم. إن إعادة فرض يد قوية ربما كان إغاثة مُرّحباً بها بالنسبة لعديد من السكان النهريين عقب تخبط القرن السالف [١٢٢]. مع ذلك، ما كان تبدد ذلك الوهم مستغرقاً في الزمن فقد ظل محمد على في مصر يُلح على ابنه كي يرسل المزيد من العبيد ـ جهداً غالياً في صعوبة حيث أن أسرى قليلين للغاية تم أخذهم ـ وارتأى مستشارو إسماعيل الماليين طريقاً للخلاص من الإشكال بفرض ضريبة تكاد تؤدى إلى إفلاس ملاك الرقيق والحيوانات الأليفة. ولما لم يكن هناك بالتقريب عملةٌ متداولة في السودان، كان المتوقع أن يكون واجبا دفع الضريبة عبيداً، وهذا مما يُرضى مطالب القائد [١٢٣]. نتج عن هذه السياسة، أن السخط إنتشر بسرعة خاطفة في أرجاء المقاطعات النهرية.

رجع إسماعيل إلى شندى صوب نهاية عام ١٨٢٢، ضيفاً على *مك* الجعليين، نمر، الذى كان قد خضع له مسبقاً. قدم الباشا آنذاك طلباً هائلاً لمضيفه للمال والعبيد؛ إستجاب نمر بأن أشعل النار على مقره ليلاً، نتيجة مؤداها أن القائد المصرى وأغلب حاشيته ذهبت ريحهم. كانت هذه هى الإشارة لمقاومة عامة عنيفةٍ ضد المصريين عمت طول الأنحاء بوسط السودان. أُجليت معظم الحاميات التى أُقيمت حديثاً في الجزيرة طرداً عنها أو قُسرت على التراجع إلى ودمدنى، حيث كان الغزاة قد أنشأوا آنفاً قيادتهم العسكرية. برغم هذا، كانت المقاومة العنيفة بدرجة كبيرة حركةً تلقائية بلا تنسيق، ما أفلح قادتها أبداً في الإتحاد سوياً. ولم تكن المقاطعات الشمالية متأثرة بالعصيان المسلح، شدد الحاكم في بربر قبضته، وظل الشايقية على ولائهم لأربابهم الجدد. وفى عام من الحملات الماهرة أفلح القائد الثانى المصرى، محمد خسرو، في إخماد لهب العصيان المسلح في مراكزه الواحد تلو الآخر، وعاد السلام للأرض ـ سلام الموت، كما وضعه مورهيد في عبارته [١٢٤]. كانت حملة التهدئة مقرونةً بفظائع وحشية ومناظر بهيمية لأشلاء الضحايا بديلاً رهيباً معوضاً للفتح الأصلى الذى خلا من الدماء؛ قُدِّر أن ٥٠٠٠٠ سودانياً قُتلوا انتقاماً لمقتل إسماعيل فيما أدلى بذلك الجميع.

النظام الإستعمارى

فى مصر يذكر محمد على كطاغية باغياً لا يرحم، إلا أنه كان إلى جانب ذلك مُصلحاً عصرياً وضع البلاد على طريق القرن العشرين. في السودان بالوجه الآخر ما كان حكمه مستنيراً خيراً من الفراعنة، مندفعاً كان بنفس الطمع الإستهلاكى للذهب والعبيد. على أن عودة السيطرة الإستعمارية المصرية بعد ٣٠٠٠ عام من الحكم المستقل، نفعت السودان في جانب واحد ذى أهمية: فقد وضعت حداً لتخبط النظام الإقطاعى. خُلع *المكوك* بإستهتارهم أو تركوا يؤدون وظيفة

إحتفالية بقدر جلّي، في حين تركزت السلطة الحقيقية في قبضة إدارة ديوانية تركية ـ مصرية جامدة. إن حضور جيش كبير على اهبة الإستعداد، مع حاميات في كل من المدن الكبرى، كان رادعاً فاعلاً دون إستئناف للحرب القبلية.

على رأس الحكومة الإستعمارية حاكم عام (حكمدار)، اقام بعد ١٨٢٥ في العاصمة الإدارية الخرطوم التى أُنشئت حديثاً في ملتقى النيلين الأزرق والأبيض. وضعت كل واحدة من المحافظات الأصلية الأربعة دُنقلا، بربر، سنار، وكردفان تحت حكم حاكم مديرية (مدير) أقام في أكبر مدينة في محافظته، بينما اقام نائب الحاكم (المأمور) تقليدياً في ثانى المدن حجماً. قسمت المديريات بدورها إلى مقاطعات أصغر يحكمها *كشاف* (منصب خُلق الآن في كل انحاء القطر، بدلاً من الشمال وحده كما في آزمان مضت)، وتحت *الكشاف* شيوخ القرى وجماعاتها [١٢٦]. ما من حاجة للقول أن أياً من هذه المناصب ما كان وراثياً، بمثل ما كان عليه منصب *الكاشف* في الأيام السابقة للمصريين. للحاكم العام السلطة المطلقة يعين ويعزل مديري المديريات، ولهؤلاء سلطة مماثلة على *الكشاف*، وهلم جرا نزولاً [١٢٧].

إحتوى جيش الإحتلال في السودان في البداية ١٠.٠٠٠ من المشاة و٩.٠٠٠ خيالةً فرساناً[١٢٨]. نُصبت وحدات الجيش في الخرطوم وعواصم المديريات؛ إضافةً إلى ذلك طُلب من كل *كاشف* أن يقيم قوة من اربعين رجلاً تحت تصرفه[١٢٩]. كانت القوات النظامية مسؤولة مباشرة أمام القائد العام المصرى في القاهرة بدلاً عن المسؤولين المدنيين في السودان. لكأنما منذ البداية جُعلت كتلة القوات من رقيق سود أُسروا أو شروهم آنفاً في البلاد، لكن الضباط كانوا أتراكاً، والبانيين وجنسيات عثمانية أخرى، تضاف إليهم قلة من جنود أوروبية محظية. إن الإستعمال الدائم للتركية لغةً للقيادة، علاوة على أنها مقتضى الكتابة للرتب الأعلى، أغلق بإحكام صفوف الضباط دون كل من السودانيين والمصريين الأصليين[١٣٠]. وإلى جانب القوات النظامية نشطت جماعة من غير النظاميين الذين ما كانوا خاضعين تقريباً لأى نظام على الإطلاق، واجباتهم الزعيمة جمع الضرائب والإغارة بهدف الرق[١٣١]. وسط هولاء كان الشايقية في الطليعة دائماً.

النظام التركى ـ المصرى حكومة إستعمارية نموذجية على أوفر شكل، ما كان بأى معنىً حكومة من الشعب أو له. كبار المسؤولين كانوا كلهم أتراكاً أو جنسيات عثمانية أخرى، كما كان متطلباً إستعمال التركية لغةً رسميةً للحكومة؛ وبعد ١٨٦٠ إنضم إليهم بضعة أوروبيين غربيين بالمثل. أما الثلاثة وعشرين حاكماً عاماً الذين تولوا الحكم بين ١٨٢١ و١٨٨٥ فشملوا ٨ شراكسة، ٥ أتراك، ٢ أكراد، ٢ أغاريق، البانياً، مصريا نوبياً وأربعة من أصل غير مدون [١٣٢]، وربما كانت رتب مرؤوسيهم مُشكلة بالمثل. أما الموظفون الكتبة ومحصلوا الضرائب الملحقون بالحكومات المركزية والمديريات فكانو كلهم بالتقريب أقباطاً مصريين، على منوال معظم الموظفين الماليين في مصر [١٣٣]. شارك السودانيون في الحكومة بصفة رئيسة في المستويات الأدنى، شيوخاً للقرى أو القبائل. وفى السنوات الأخيرة للحكم التركى ـ المصرى تنامى إضافةً إلى ذلك نظام للمحاكم المحلية لإدارة قانون الشريعة (اى قانون المسلمين الموروث) شارك فيها سودانيون [١٣٤]. عدا ذلك كانت القوانين الوحيدة للأرض هى النظم الإدارية التى حكمت الموظفين المدنيين والجيش، وهذه بالطبع مصممة من حكام الإستعمار المطلقين الذين يسيرونها [١٣٥].

إنتُقد النظام التركى ـ المصرى في السودان بعنفٍ من الأوروبيين لمظالمه وقمعه. ترك طبيب أو صيدلى ايطالى عمل في البلاد أثناء الأربعينات من عام ١٨٤٠م سرداً مفعماً بالرثاء عن جشع محصلى الضرائب [١٣٦]، أما الأحوال التى لاقاها السير صمويل بيكر عندما أصبح حاكماً على ميرية من بعد حقبتين تاليتين فقد أضحت أنكى وبالاً. وفقاً لبدج في إيجازٍ لعرض بيكر :

سوء الحكم، والإحتكار، والإبتزاز، والقمع كانت صواحب للحكم التركى. إن بُعْد القاهرة عن السودان كان له

أثر سيئ على شخصية المسؤول المصرى. كل مسؤول نهب؛ والحاكم ابتز من كل جانب، وَحَشا جيوبه اعتراضاً لكل حركة تجارية ليحصل على الرشاوى. شملت خيانة الأمانة والغش المسؤولين من أعلاهم إلى أدناهم، كلٌ ينهب بقدر درجته. جمع الجنود الضرائب، وبالطبع، حصلوا على ما تعدى المستحق. حاصلاً لذلك إكتفى الأهالى بإنتاج حاجتهم وحسب. أما أثقل ضريبة وأفدحها ظلماً فكانت على السواقى، التى اعتمد عليها الرخاء الزراعى للقطر. فر المستوطنون الجدد من قطيع محصلى الضرائب الذى انقض عليهم من ركابه، وبذا بقيت أراض شاسعة من البلاد غير مزروعة(١٣٧).

وفى كلمات كتب بيكر أن :

الوجه العام للسودان وجه للبؤس، ليس هناك ملمح مفرد من الإغراء ليعوض أوروبيا عن مساوئ المناخ المهلك والتجمعات الكاسرة ... وفى ظل الأحوال الكائنة ليست للسودان قيمة، فهو لا يملك قدرات طبيعية ولا أهمية سياسية؛ على أنه، كيفما اتفق الحال، هناك سبب عجل أولاً بإحتلاله من المصريين، وهو لا يزال نافذاً إلى اليوم الحاضر. إن السودان يمد بالعبيد. فمن غير تجارة النيل الأبيض تكاد الخرطوم تنمحى عن الوجود؛ وتلك التجارة هى الخطف والقتل ... (١٣٨).

مع كل نواقصه يدعو للريبة ما إذا كان الحكم التركى المصرى قد اشتهر بأنه أضل فساداً أو أبغى قمعاً من معظم الأنظمة التى سبقته، أو إنه لذلك الأمر أفحش سوءاً من أنظمة إستعمارية عديدة أخرى أُقيمت في إفريقيا حوالى نفس الزمن. ربما أن الأوروبيين أثيرت حفيظتهم على وجه الدقة بالحقيقة التى مؤداها أن السودان لم يكن من الناحية الفنية مستعمرة على الإطلاق، إنما جزءاً متكاملاً من مصر (١٣٩)، لكن هذا التمييز ما عَنَّى شيئاً لمحمد على. إن ملوك القرون الوسطى وأباطرتها إعتادوا أن يحكموا كل رعيتهم بالطريقة التى حكم بها الأوروبيون المتأخرة مستعمراتهم: دونما اعتبار لرضا المحكومين، وفى إعتبار نذير للغاية لرفاهيتهم. ولم يكن نظام محمد على أول نظام للقرون الوسطى في السودان، وما كان الأخير تماماً...

أعطى ريتشارد هيل صورة أفضل إتزاناً بطريقة ما للحكم التركى - المصرى مما قدمه كتاب سابقون:

مثل كل الأنظمة السياسية في الأرض كان للحكم التركى المصرى نقاط قوة ونقاط ضعف. إن من منافعه في الحالة التى كان عليها الزمن تحرره من الإعتماد على التقارير، حراكه. تكونت الهيئة الكتابية بأجمعها للحاكم العام أحمد باشا أبو ودان من خمسة أمناء ... ونقطة الضعف كانت الإفتقاد إلى اتصال فاعل بين الحكومة والمحكومين. لم تكن هناك الة إستشارية في السودان المحتل عاملةً بأسلوب مجالس السودانيين التي عبرها تستطيع الحكومة إذا رغبت، أن تتشاور مع دافعى الضرائب. بغض النظر عن ذلك وسيلةً واحدة إستطاعت بها الحكومة، بمعنى سلبى، أن تحس بنبض الشعب؛ كان ذلك بالسماح بحق الإلتماس المرفوع ضد الظلم المدعى عليه. لم يكن حق رفع الإلتماس للحاكم في السودان منظماً بأحكام كالإجراءات البرلمانية البريطانية لكنه كان مصَبّاً غير رسمى يتدفق تلقائياً بالسخط الشعبى. إن الراوى ينسب كيف أن عباس اغا، حاكم بربر، أُزيح عن منصبه بإلتماس شعبى. ندنو هنا من فجوة عميقة تفصل المفهوم العثمانى - الإسلامى لطبيعة الحكم عن المفهوم الأوروبى الغربى... إن شعباً مسلماً سوف يتحزب معاً لغرض تقويم ما يُعتقد أنه عوج غير محتمل أو إستجابةً لنداء بالدفاع عن الإيمان ... لقد وجدوا بشكل معاود أنه من الصعب أن يتحدوا من أجل مزيد من التوحد، كأهداف إيجابية، وعلى سبيل الدقة تلك التى تشتمل نظاماً جماعياً موطداً.

تقبل السودانيون في وادى النيل الحكم التركى - المصرى بعد أن بيَّن التشفى الدموى لعصيان ١٨٢٢ - ١٨٢٥ المسلح أنه لا جدوى للمقاومة. كل الحكومة كانت قوة خارجية، شفاهية في طبيعتها، لا ترتكن إلى قانون مكتوب؛ إن الذى لا يمكن تلافيه يجب تحمله. لقد كانت على الأقل حكومة مسلمة على نهج طرازها السائد، وقد تعلم القادة الدينيون والتجار كيف يجنون ربحاً من الطاغوت الجديد (١٤٠).

التوغل المصرى الأصلى في أحشاء السودان كان قد احتل ما كان بالضرورة أقاليم قديمة للعثمانيين والفونج: المقاطعات النهرية إلى مسافة إتجاه النهر جنوباً حتى سفوح الجبال الحبشية على النيل الأزرق ونقطة ليست بعيدة جنوب الخرطوم على النيل الأبيض، بالإضافة إلى مديرية كردفان الغربية. التوسع ما وراء ذلك إلى الجنوب كان مسدوداً، كما ظل منذ زمن لا بداية له، بسبب الإستعصاء العنيف للشلك وقبائل نيلية أخرى والإنتشار الشاسع لمستنقعات السدود. بقى ساحل البحر الأحمر بمينائيه التوأمين سواكن ومصوع من الناحية النظرية تابعين مفصولين للإمبراطورية العثمانية، وفى الغرب البعيد كانت دارفور محكومة بسلطة مستقلة. هذه الحالة من الشئون [الإدارية] ثابرت على البقاء لما يقرب جيلين، بالرغم من أن الإقليم الدائر حول كسلا، شرق العطبرة، إنتزع من قبيلة الهدندوة البجاوية في ١٨٤٠ (الشكل رقم ٨٥)[١٤١].

المرحلة الثانية العظمى لتوسع الإمبريالية في السودان بدأت في الستينات من عام ١٨٦٠م. خلال وقت أطول بقليل من حقبة زمنية تضاعف تقريباً الإقليم الواقع تحت سيطرة المصريين من خلال إضافة ما أصبح في وقت متأخر مديريات كسلا، ودافور، وأعالى النيل، وبحر الغزال، والإستوائية[١٤٢]. عبر هذه الفتوحات والأراضى التى تم ضمها بلغت حدود السودان المصرى ما هو بالضرورة رسمها الحالى (الشكل رقم ٨٥). التحكم في ساحل البحر الأحمر آل إلى مصر رسمياً من السلطان العثمانى في ١٨٦٥[١٤٣]، لكن المديريات الأخرى أُضيفت، وما كان أغلبها عن طريق مبادرة الحكومة بمقدار ما تم خلال الأعمال الجزيئة التى أنجزت في بغى وبلا هوادة أو رحمة من خاصة تجار الرقيق، والذين كانوا بعد ١٨٦٠ الحكام غير المنُصبين رسمياً على جنوب السودان.

أوج تجـارة الرقيـــق

توفير الأرقاء لأراضى البحر الأبيض المتوسط كان مرتكزاً أساسياً لإقتصاد النوبة الخارجى منذ أيام الفراعنة، لكن حركة التجارة بلغت أوجاً في الحجم والضراوة معاً أثناء الحقب الأخيرة للقرن التاسع عشر. بإلغاء الرقيق في الولايات المتحدة (١٨٦٥) والبرازيل (١٨٧١) أصبحت الإمبراطورية العثمانية وأقطار أخرى في الشرق المسلم آخر سوق إجمالى للعبيد. هكذا بينما انكمش نشاط صيد المُستَّرقين وتوقف بالمرة أخيراً في المنحنى الأطلنطى بإفريقيا، أدار المستعبدون تنبههم لأقاليم جديدة في الشرق. كانت مصادر المياه في النيل الأبيض ومناطق البحيرة في شرق إفريقيا آخر مخزون إحتياطى عظيم لم يطرق بعد لصيد الإنسان، ها هنا احتل الإنفجار النهائى لنشاط صيد الرقاب مكانا في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر. وكان منظموا هذه التجارة أمراء على التجار - أغلبهم عرب لكنهم يضاف إليهم بعض أوروبيين - خلقوا "إمبراطوريات للغاب" بالفعل، وقانوناً موجها نحو أنفسهم في مناطق تمتد وراء سيطرة أية حكومة حضارية. الخرطوم وزنجبار أمسيا أركاناً رئيسة لعملياتهم .

بعد فتح السودان بقليل كتب محمد على إلى حاكمه العام "أنت تعلم أن مبتغى كل جهدنا وهذا الانفاق هو أن نحصل على الزنوج. أرجو أن تظهر جم النشاط لإمضاء رغباتنا في هذا الأمر الجسيم"[١٤٤](*). هذا التوجه كان من شأنه أن يدشن العرض لستين عاماً قادمةً من الحكم التركى - المصرى في السودان. وهو يكشف أيضاً، مهما كانت مشاريعه الإدارية التى قام بها إلي ذلك اليوم، إن أفكار الباشا العسكرية كانت بإتقان تام حليفة القرون الوسطى. ما كان يريد العبيد للتبادل السلعى والكسب، إنما كأساس لجيش جديد (النظام الجديد) كان يأمل به أن يوسع من قوته في كافة

(*) يمكن مقارنة ذلك بما أورده شبيكة في مؤلفه *السودان عبر القرون* ، ص ١١٧ : « إن المقصود الأصلي من هذه التكلفات الكثيرة والمتاعب الشاقة هو الحصول علي عدد كبيرٍ من العبيد » – المترجم.

أنحاء الشرق الأدنى. إن حكاماً أخيرين أرقى إنسانية حاولوا أن يعكسوا هذه السياسية وأن يكبتُوا تجارة الرقيق، خلا أنه كان قد فات الأوان آنذاك؛ فالقوات التى بعثَ فيها محمد على الحركة ما عاد لجم زمامها أمراً ممكناً.

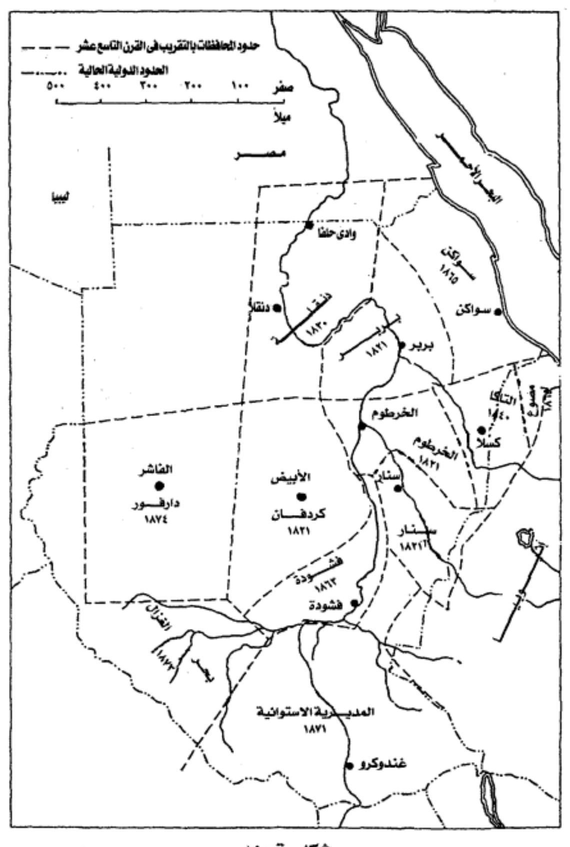
كانت الإغارة للرق في البداية، عمليةً حكوميةً في المقام الأول، بمثابة الدعم العمادى لنظام محمد على. إضطلع خورشيد، أول حاكم عام، بحملات للرق كل عام تقريباً بين ١٨٢٦ و١٨٣٣، وتواصل التقليد من خلفائه على نطاق أصغر (١٤٥)، معانين من الشايقية في حالات كثيرة. أصبح استمرار تجارة الرقيق الحكومية، مع هذا، يشكل حرجاً للحكام الآخذين بحضارة الغرب الذين رُفعوا للعرش بعد موت محمد على في ١٨٤٩. (واصل أحفاده حكم مصر، أولاً باشوات عثمانيين ثم ملوكاً مستقلين مؤخراً، حتى الإطاحة بالملك فاروق في ١٩٥٢). أنهى محمد سعيد، الثانى من خلفاء محمد على، الإتجار الحكومى بالرق في ١٨٥٤(١٤٦)، على أنه في ذلك الوقت كانت المبادرة في نشاط الرق قد استقرت أنفاً في أيدى أصحاب الأعمال الخاصة، عرباً أوروبيين معاً، الذين هرعوا إلى السودان بعد إلغاء الإحتكارات التجارية لدولة محمد على في ١٨٤٣ (١٤٧).

الحملات التركية ـ المصرية الأولى للرق كانت في كردفان وجنوب الجزيرة أشد نجاحاً، وهي نفس المناطق التى استمد منها الفونج في السالف معظم عبيدهم. ومهما كان من أمر ذلك، فإن الجمع ما بين الأسلحة النارية الحديثة والمركبات الحديثة في منتصف القرن التاسع عشر جعل من الممكن كسر الحاجز المزدوج لمحاربى الشلك ومستنقعات السدود، وأن تفتتح الأرض التى لم تطرق من قبل للرق في أعالى النيل وروافده. تمخض عن هذا التطور "إندفاع نحو الذهب" خاصةً من صيادى الرقاب في جنوب السودان.

أفلحت عام ١٨٣٩ والأعوام التى تلته أساطيل صغيرة من القوارب النهرية تحت إمرة سالم قبودان في إمتطاء النيل الأبيض إلى مسافة خمس درجات من خط العرض الشمالى، حيث أقاموا محطة خارجية في ضاحية ما عرف لاحقاً بالعاصمة الإقليمية للاستوائية. طبقاً لهولت:

رغم أن حملات سليم قبودان فشلت في إدراك آمال محمد على لإكتشاف منبع النيل والمعادن التى كان هو مطمئناً إلى أنها لابد أن توجد هناك، فقد فتحت الطريق لتجار الخرطوم. منعت القيود الحكومية وصولهم أعالى النيل بادئه الأمر، لكن إلغاءها في ١٨٥٣ إستجلب خلايا من التجار من أوروبا، ومصر، والسودان المصرى نفسه. لم يتغلغلوا في المجرى الرئيس للنيل نفسه وحسب، حيثما مثلت غندو كرو أنأى جنوب لهم، ولكنهم إخترقوا المنطقة الغربية لبحر الغزال زيادة على ذلك (قارن الشكل رقم ٨٥). وما كانت حالة من التجارة تتبع العَلَم؛ ... فالتجار لا تطالهم الإدارة، كما لا تعنيهم حكومة مستقرة. لكل عميد وكلاؤه وخدمه، جيشه الخاص من الأتباع المسلحين، وقد جُندوا بقسطٍ وافر من دناقلة الشمال وشايقيته. ولكلٍ محطاته المحصنة (الزرائب)، تسويرات محاطة بسياج شوكى، تؤدى لهم وظيفة مقر الرئاسة، مستودعات لشحن بضائعهم، ومواقع لحاميات ساعة الحاجة. جاءوا في الأصل بحثاً عن العاج، لكنهم انقلبوا بلا تبصر إلى مستعبدين للبشر. الحاجة كانت إلى الأرقاء جوارى وحمالين، ثم قوات من عبيد ... عادة ما تعضد جيوشهم الخاصة. أنشأوا مع الزعماء والقبائل المحلية تحالفات ضارية شاذة، وولجت الحرب القبلية الداخلية باب الإغارة على الرقاب. مطلع الأمر، كان موقف "الخرطوميين" هشاً، لكنهم في النهاية منحتهم الأسلحة النارية والتنظيم السيادة على الزعماء القبليين. كان أشدهم بأساً أمراء التجار، يحكمون مساحات عظيمة حكماً فعالاً. في تلك الأثناء، كان السوق المعد للعبيد في الشمال قد أحالهم من مزاولة عمل هامشى مربح إلى السلعة الرئيسة لتجارة الخرطوميين (١٤٨).

نظام الخديوى إسماعيل، الثالث من خلفاء محمد على (١٨٦٢ ـ ١٨٧٩)، مُشتهر في السودان بجهود أكبر بما لم يسبقه مثيل وباغلى نفقةٍ للسيطرة على وحش تجارة الرق الذى خلَّفه جده. إن المساعى الأولية لكبح حركة التجارة بالمرسوم، والضرائب التأديبية، وضبط السفر على أعالى النيل الأبيض برهنت كلها على إخفاقها التام، وفى النهاية لم تجد الحكومة بُداً من مد تحكمها المباشر على



شكل رقم ٨٥

مديريات السودان التركي - المصري ، مع تواريخ حيازتها

مناطق عمليات صيادي البشر [١٤٩]. لقد كان بذلك الأسلوب أن محافظات أعالى النيل (أصلاً فشودة)، والإستوائية، وبحر الغزال أُضيفت نوعاً ما بإمتعاض إلى مناطق نفوذ الخديوى بين ١٨٦٣ و١٨٧٣. أما المديرية الغربية البعيدة دارفور، وهى مقعد سلطنةٌ قديمة في طولٍ من الإستقلال، فقد فتحت بالمجان إنابة عن الخديوى عام ١٨٧٤ عن طريق واحد من أقوى أمراء التُجار، الزبير رحمة منصور، لأن سلطانها لم يكن قادراً على كفالة أمن قوافل عبيده [١٥٠]. أثر هذه الأراضى التى تم ضمها كاد أن يضاعف مساحة السودان المصرى، إلا أنه لم تكن هنالك زيادة متمشية مع ذلك في القوات العسكرية. حاصلاً لذلك أصبحت برهاناً على استحالة حفظ النظام في الأقاليم الجديدة، وكان لحاله الفوضى المطنبة لغياب القانون التى سادت هناك أثر على ثبات النظام في الخرطوم على حد سواء.

فى يأس من تركيع "الخرطوميين" بأى من معيته، لجأ إسماعيل في السنوات الأخيرة من حكمه لتعيين حكام أوروبيين للمحافظات السودانيةُ الجنوبية، أُرفدوا بما كاد أن يكون صكاً مفتوحاً لمعالجة الرق بأى كيفية تتاح لهم. إثنان من أوسع هولاء شهرة كانا السير صمويل بيكر والجنرال شارلس غوردون - كلاهما رجل قوى الشكيمة مستقل الرأى والتصرف، تصوراها بعثة كانها خلاصية بروح الصليب لإيقاف تجارة الرق [١٥١]. وقد وُفقا خلال عقد عملهما (بيكر من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٤ وغوردون من ١٨٧٤ إلى ١٨٨٠) في إنشاء تدبير معين من النظام في المديريات الجنوبية، عدا أنه كان بثمن مخيف. إن العاصفة التى هاجت فوق السودان أشهراً قليلة بعد رحيل غوردون (أنظر أدناه) كانت تماثل على الأقل بعثاً لعناصر تجارة الرقيق التى كان قد أنهك قواها بغاراته المتكررة عليها مثلما كانت إنفجاراً ضد مفاسد ولا مبالاة الحكم التركى - المصرى [١٥٢].

وقف النوبيون، الكنوز والمحس في تدقيق، بمنأىً عن معظم هذه التطورات في الجنوب، فمع أنهم كانوا الفرائس الأولى للغارات المصرية في داخل السودان، توقفوا هم وبلدهم دون أنْ يُثيروا أى إكتراث ذى بال بجيرانهم الشماليين طالما أن قاعدة العمليات المصرية قد أنشئت جنوب النهر بعيداً عنهم. وفى بعض الجوانب كانوا في الحقيقة المستفيدين الأكبر من نظام محمد على. كان حكم *الكشاف* الأخيرين، مع كل قمعه، بلا ريب مفضلاً على *كشاف* العصر العثمانى، السادة - الناهبين؛ إضافة إلى تحرر النوبيون من تهديد الشايقية ومن المماليك اللاجئين الذين قاموا بقمعهم مؤقتا. في السودان الذى جرت تهدئته حديثاً كان التعليم والكتابة اللذين طمح إليهما النوبيون منذ وقت طويل أغلى قيمة عملياً عنهما في العصر الإقطاعى، وكانوا قادرين على الصعود إلى داخل مراتب الطبقات الكتابية والتجارية المتنامية. أعداداً عظيمة منهم هُرعت إلى مصر،حيث اشتدالطلب عليهم خداماً في المنازل لكل من النخبة التركية والجماعات السكانية الأجنبية بحجمها الكبير الذى تعاظم في القاهرة والإسكندرية [١٥٣]. أخيراً، وجد الدنقلاويون والجعليون سوانح خاصة في تجارة الرق، إن إمبراطوريات الغاب التى أضحت مديرياتٍ لبحر الغزال والإستوائية كانت بأكبر قدرٍ من صنعهم[١٥٤].

المهديــة: ختام لعصر القرون الوسطى

لقد أوردنا من قبل (الفصل السابع عشر) أن توقع المهدى، أو المخَلِّص القادم، شائع في معظم طوائف الإسلام الغيبية التى تشعبت في كثرة لا متناهية بالسودان وبلدان مجاورة. في تاريخ إفريقيا المسلمة كان هنالك مهديون عديدون إدّعوا مهديتهم، بما في ذلك مؤسسو الأسر الفاطمية والموحدية في الشمال[١٥٥]، ورتل كامل من دول دينية منذ وقت وجيز في المنطقة شبه الصحراوية [١٥٦]. كان مفهومَ المهدية متأخراً في وصوله للنيل الأعلى، سوى أن المهدى السودانى، محمد أحمد بن عبد الله، هو الذى جعل كلمة "مهدى" معروفة حول العالم في نهاية القرن التاسع عشر.

محمد أحمد كان دنقلاوياً، إبناً لصانع مراكب، وقد ولد في مكان ما في الجزء الشمالى من

مديرية دنقلا في العام ١٨٤٨. إن القصة الملهمة التى تحفل بالأحداث في سيرته أخبر عنها في فصاحة بليغة - على وجه الدوام - آخرون [١٥٧] سيجرى تفصيل عرضها هنا؛ وإنني لا أستطيع أن أفعل أفضل من نقل سيرته الحياتية في صُرَّةٍ بقلم ريتشارد هيل:

إثر تركه مدرسة لتعليم القرآن في أم درمان ذهب إلى الجزيرة أبا، على النيل الأبيض، حيث كان أبوه وقتها يبنى المراكب؛ شاباً يافعاً بدأ في تكوين شخصيته بالدراسة والتأمل العميق. ألحق نفسه مبكراً بالطريقة الإسماعيلية(*) وأصبح تلميذاً للشيخ محمد شريف نور الدائم ... في خلاف مع أستاذه ولعدم رضائه على دنيويته ترك [داره] مع بضعة أتباع وعاش بالجوار. في ١٨٧٥ نقل ولاءه الدينى للشيخ القرشي ود الزين في الطريقة السمانية. حوالى ١٨٨٠ جال كردفان ووجد حالة البلد غير متوافقة مع معتقداته الدينية التى كانت تتقدم الآن نحو مرحلة التدخل السياسى؛ كانت القبائل البدوية خارج النفوذ المباشر للحكومة المصرية يتمزقها السلب والنهب والحرب الناشبة بينها، والقطر بأكمله يمور غلياناً من سوء إدارة الحكومة التى كان حكمها أشد فساداً في الذمة، إرتشاء وعجزاً منه قمعاً متعمداً. إن محاولات الحكومة الخائرة لكبت تجارة الرق إستفزت الحقد والرغبة في التشفي بين ظهراني بلد كان اقتصاده مؤسساً على الرقيق؛ كان السكان المتحرقين للخروج على السلطة في وسط السودان ناضجين لمغامرة دنيوية بعصيانٍ مسلحٍ في تنسيق ظل منكراً عليهم الإتيان به منذ تأسيس حكومة أجنبية قبل ستين عاماً سلفت من قبل. [محمد أحمد] مثَّل الأمل الظاهر بلا ثانٍ لتحقيق وحدة السودانيين وحريتهم. أعلن في مايو ١٨٨١ مهمته السماوية وأمر الناس بقتال الأتراك الكفرة كخطوة أولى لتقديم مجتمع طاهر قائم على المدركات الإسلامية. جمع تعليمه من عناصر موجودة في الحركات الوهابية والسنوسية، بما في ذلك عودة الإسلام في شكله الأول، ومعارضة البدع والتأثيرات الأجنبية، وتحريم كل من زيارة الضرائح وتبجيل الأولياء والموسيقى والتبغ. إن عنصر الصوفية القوى في تعليمه كان مُلهباً لمشاعر شعبٍ يتقبل موروثه الصوفى [١٥٨].

ترك خلع الخديوى المصرى إسماعيل في ١٨٧٩ وإستقالة غوردون كحاكم عام بعد أشهر لاحقة، السودان في حالة من الهيجان السياسى. دُمر أياً كان إنطباع القوة والثبات الذى استطاع النظام التركى - المصرى أن ينقله بهاتين الواقعتين؛ فالوقت كان ناضجاً لحركة إستقلالية. وكيفما مضى ذلك، ما كان منتظراً بأى حال في الزمان أن ذلك سوف يأخذ صيغة حركة دينية ألفية الحدوث؛ إن فلاح المهدى في توحيد السودان وتحريره يمكن أن يُعزى في قياس كبير إلى المحاولات الخائرة لحكومة الخرطوم دون فعلٍ لكبت حركته [١٥٩].

تجريده مبدئية لمواجهة المهديين في ١٨٨١ نتج عنها تراجعهم من الجزيرة أبا إلى جبال النوبا في جنوب كردفان، مساحة قاومت طويلاً سلطة الحكومات القائمة. هنا جند المهدى لقضيته قبائل البقارة البدوية، التى كانت ستوفر الدعم العسكرى الأساسى لنظام المهدية طوال تاريخه الوجيز. كان لهم إكتراث قليل بالمنطلقات الدينية للحركة، لكنهم استهوتهم مغانم *الجهاد* (الحرب المقدسة) ضد الحكومة الإستعمارية، لتمكنهم من استئناف حياة السلب والنهب في الأزمان السالفة. وبعد إنتقال المهديين لكردفان صُدت بحسم حملتان أرسلتا للقضاء عليهم، يدفع كل نجاح بمكانة محمد أحمد إلى المقدمة ويبدو مؤيداً لشرعية مهمته السماوية.

بعد هزيمة الحملة التأديبية الثانية أخذ المهدى لأول مرة مبادرة بالهجوم محاصراً وآسراً عاصمة المديرية الأبيض والحامية التى تلتها أهمية في بارة عام ١٨٨٣. نتيجة لهذا الفلاح وقعت كل كردفان في يديه. إن نقطة التحول الحقيقية في سيرة المهدى جاءته بعد بضعة أشهر عندما أبيدت عن بكرة أبيها حملة مصرية من ٧,٠٠٠ رجل بقيادة القائد البريطاني وليام هكس. اقنعت أنباء هذا الإنتصار الغالبية العظمى من السودانيين أن المصير ملقى مع المهدى، وأن كل رمز للتحكم

(*) السجادة الإسماعيلية أنشأها الشيخ إسماعيل الولّى الكردفانى وانتشرت فى أجزاء من الشمالية وكردفان والخرطوم. وهى لصيقة الصلة بالطريقة الختمية التى كان راعيها الولّى محمد عثمان الميرغنى استاذاً تتلمذ عليه الشيخ إسماعيل نفسه قبل أن يستقل بسجادته الصوفية. أما الشيخ نور الدائم فقد كان قيِّماً على الطريقة القادرية - المترجم.

المصرى تبخر خارج حاميات المدن الكبرى في قلب البلاد. أما حكام المديريات في دارفور وبحر الغزال فقد وجدوا أنفسهم محاصرين حالاً من قوات المهدية ومقطوعين عن أى دعم من العاصمة؛ أُجبر كلاً منهما علي الإستسلام خلال أشهر قليلة من هزيمة هكس. في هذه الأثناء إستجمعت قبائل البجا في مديرية البحر الأحمر لقضية الثوار من جانب قائد الهدندوة المهيب، عثمان دقنة. وفى ١٨٨٤ إنتقل هجوم المهدية، الذى كان قد بدأ نموه تلقائياً خاطفاً في أراضى الهامش، إلى مجرى النيل الرئيس؛ حوصرت بربر وأُسرت في منتصف مايو، وقُطع الإتصال بين الخرطوم ومصر مؤقتاً. وجدت الحاميات المصرية الآن نفسها معزولةً بلا أمل ومحاصرة في بلد بدا قبل سنتين فقط تحت سيطرتهم الجازمة.

لقد ساهمت السياسة المترددة دون قرار حاسم لبريطانيا العظمى في تلاشى الحكم التركى ـ المصرى في السودان بمقدار كبير، حطت قوات بريطانية رحالها بمصر في ١٨٨٢، لتقطع دابر حركة أحمد عرابى الوطنية العسكريةً في ظاهر الأمر ولكيما تعيد سلطة الخديوى محمد توفيق، الذى خلف إسماعيل في ١٨٧٩. وكان هدفاً أبعد مدى أن يرتب بيت المالية المصرى في نظام وأن تؤكد الدفعية المستمرة للديون الخارجية الضخمة التى أحدثها إسماعيل. أصبح المراقبون الماليون البريطانيون الذين بعثوا للقاهرة حكاماً للبلاد بحكم *الموقع*، وظلوا كذلك إلى وقت موغلٍ في القرن العشرين[١٦٠].

الإحتلال العسكرى لمصر، الذى مكث حتى عام ١٩٢٤، أعطى بريطانيا مسؤولية معينة لحماية المصالح المصرية في داخل الديار وخارجها. عنى هذا، بين أشياء أخرى، حماية المصالح المصرية في السودان. بيد أنه كان المديرون الماليون في القاهرة ورؤوساؤهم في لندن يتمنعون بما هو مفهوم عن التصديق بإعتمادات لعمليات عسكرية في السودان البعيد يمكن خلاف ذلك أن تسدد للدائنين الأوروبيين. "هكذا" كما يرقب هولت "قاد تجمع معْتَل المنطق الحكومة البريطانية بسبب إعتبارات سياسية، ومالية، وأخلاقية لا لتفادى التورط في المسألة السودانية، ولكن علاوةً على ذلك لتراجع مساعى الحكومة الخديوية لإتخاذ عملٍ ناجز في المديريات المُهَددة" [١٦١]. لقد كان محصلة لهذه السياسة غير الحازمة أن المصريين سمح لهم بتجنيد قوة هكس المبعوثة عسكرياً ذات المصير التعس على مسؤوليتهم الخاصة، لكنهم لم يمنحوا نصحاً ولا دعماً في المغادرة بالرغم من أن القائد نفسه كان بريطانياً.

بلغ التردد البريطانى دون قرار حاسم نحو السودان تَوُجه بإعادة تعيين غوردون حاكماً عاماً في ١٨٨٣ ـ مهمته الثالثة والأخيرة للبلاد المحاصرة. كانت مهمته الرسمية "متصورة" على الأقل في لندن، على أنها لترتيب إنسحابٍ منتظم للحاميات المصرية المتبقية من السودان، ومن ثم تسليم القطر لحكم المهدى دونما وقوع في حرج إستسلام رسمى. غير أنه كان، فيما عهد عن شخصيته، مشغولاً بمجموعتين بما يجب ترتيبه "واحدة تتحدث عن إستعادة حكومة طيبة، والثانية إعلان سياسة الإخلاء"[١٦٢]. وفى نزقٍ شديد أعلن الثانى من هذين الهدفين على الناس كانئما ساعة وضع قدمه في السودان، جاعلاً بذلك أى رجاء يُنتظر من سلطة النظام التركى ـ المصرى أمراً مستحيلاً. إلا أنه مع هذا بات حاكماً عاماً مقيماً في الخرطوم حتى حلّق إلى أقصى وجهة نظر معارضة، لكي "يسحق المهدى" كما عبُر بكلماته الخاصة [١٦٣].

على صعيد الواقع، كان الإفتقاد إلى عون من القاهرة ومن لندن قد جعل من غير الممكن لغوردون تنفيذ أياً من البدائل التى كان قد تأملها. إن هزيمة المهدى و"إستعادة حكومة طيبة" لم يتأملا في الخارج أبداً بطريقة جادة، بل إن الأمر المتعلق بالحاميات المخلصة التى كانت لا تزال باقية لتقاتل خلاصها خارج القطر كان سيقتضى قدراً من الدعم الخارجي ما كان آتياً. تُرك غوردون بلا خيرة سوى التعلق بالخرطوم مع بقية قواته الموالية، زائداً الشايقية المرتاب في ولائهم أبداً عبر النهر في الحلفاوية، في حين كانت نيران العصيان المسلح ملتهبةً تشتعل في أى مكان آخر بكل

أنحاء البلاد. إحتلت القوات المهدية مكاناً قوياً في أم درمان، بقطع النيل الأبيض من الخرطوم، في سبتمبر ١٨٨٤، ووصل المهدى بشخصه ليأمرهم في الشهر التالى. مذاك كان غوردون والعاصمة تحت الحصار.

قصة أعوام غوردون الأخيرة في الخرطوم أخبر بها في أسى عميق على صفحات مجلاته الخاصة (١٦٤)، التى كانت ترسل بما يشبه المعجزات بإختراق خطوط المهدى حتى شهرين قبل السقوط النهائى للخرطوم، وقد أعيد سردها من مؤلفين بارزين أمثال السير ونستون تشرشل (١٦٥) وألان مورهيد (١٦٦). يوماً إثر يوم أخذ الحاكم مكانه على سقف القصر يرقب النهر من أجل إشارة من بعثة الإنقاذ التى كان يطلب إرسالها بالحاح. كانت بعثة إنقاذ بريطانية قد نظمت بحق مؤخراً في ١٨٨٤، نتيجةً لضغوط الصحافة إلى حد كبير، لكنها بدأت سيرها في تباطؤ عبر إقليم غير مألوف وحافل بالعداء. مثل كل العمليات البريطانية تقريباً في إفريقيا حتى القرن العشرين كانت تعتمد بشكل مبالغ على نقل النهر، وأعاقت شلالات النيل بإستمرار تقدم البعثة. ما وصلت القوة الرئيسة أبداً لأبعد من المتمة جنوبياً، قبالة شندى، غير أنه من هنا أرسلتُ باخرتان صغيرتان رأساً للإستكشاف. وبعد إجتياز الشلال السادس والجريان بين قناصة المدفعية ووحداتها ونيران البنادق من ضفتي النهر وصلتا على مرمى نظر الخرطوم في ٢٨ يونيو ١٨٨٥، لا لشئ إلا ليجدا أن المدينة قد سقطت منذ يومين سابقين. كان قصر الحاكم في خراب، وغوردون ميتا. عادت كل البعثة بالتالى القهقرى تتبع أثر خطاها المثقلة بالخوَر من حيثما جاءت، متخليةً ليس فقط عن مواقعها المتقدمة بل عن الأقاليم جنوب وادي حلفا التى ما كانت ساقطة من قبل في أيدى الثوار. صار المهدى الآن سيداً على السودان المصرى بأجمعه بإستثناء ميناء البحر الأحمر سواكن الذى بقى في أيد بريطانية. غير أن هذا الذى هو أشهر قائد سودانى لم يكن ممنوحاً سوى فترة زمنية موجزة ليتمتع بثمار نصره. فخلال ستة أشهر من سقوط الخرطوم كان هو إلى جانب ذلك متوفىً، فيما يظهر بالتيفود (١٦٧)، في عمر السابعة والثلاثين (١٦٨).

الدولة التى أوصى بها المهدى خلفائه لم تحقق إلا أشد تنظيم أصوليةً. كان مشحوناً هو وأتباعه بفكرة إعادة خلق الدولة الإسلامية الأولى، نفسه كأنه النبى محاطاً بصحابته المأثورين، الخلفاء الأربعة. لذا كان على "مجلس وزراء" محمد أحمد أن يتكون من أربعة *خلفاء*، ورثة *الأربعة الراشدين* "أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلياً". واحد من هذه المواقع منح إلى قائد الطريقة السنوسية في ليبيا، التى كان المهدى نفسه تابعاً اسمياً لها، لكن الشيخ أمسك عنه ونتج عن هذا أن المنصب لم يملأ قط. مواقع "الخلفاء" الثلاثة الآخرين قدمت مكافأة، ربما عن طريق عرضى يبدو ذا صلة، لممثلين للعناصر الثلاثة التى كانت قد وفرت الدعم العمادى للمهدى: أصحاب الرؤى الدينية الأصلية الذين اجتاحت نفوسهم مهمته، ورجال الأعمال الدناقلة والجعليين الذين كانوا أقل إكتراثا بتعاليم المهدى من معاودة أنشطتهم في تجارة الرق، ورجال قبائل البقارة الذين كان طموحهم الزعيم أن يستأنفو الحياة الضارية للأيام الاقطاعية (١٦٩).

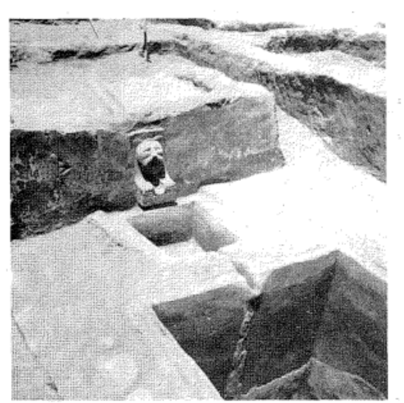
إضافةً إلى *الخلفاء* بَرَز في الحكم مسؤولان مهمان لاغير في الحكومة المركزية، رئيس بيت المال ورئيس القضاء. ولقد ألغى المهدى الضرائب المثقلة للنظام التركى - المصرى في صدق مع إلتزاماته الدينية ورجع إلى نظام خفيف نسبياً كان مفروضاً من النبى. ريع الحكومة يتخرج جلّه من غنائم الحرب، لأن دولة المهدية كانت في الأساس دولة محاربة، وكانت نية القائد المعلنة أن يَشُن الجهاد حتى يخضع كل العالم للإيمان الحقيقى للإسلام الأول. هكذا اعتبر حكام الأقاليم في الأساس عسكريين بدلاً منهم ضباطاً إداريين، ولقبوا *أمراء* (آمرون) بدلاً من *مديرين* (يراقبون). ما كان هناك، فيما لا حاجة لقوله، قانون مسلم به سوى قانون القرآن *والشريعة*؛ ما حكم المهدى من خلال آلة القانون لكنه حكم بمنشورات لها قداسة، كما فعل محمد نفسه.



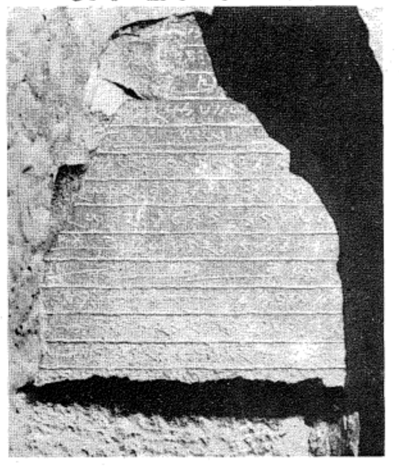
(١٥) أ- « القلعة » المروية في كارانوق



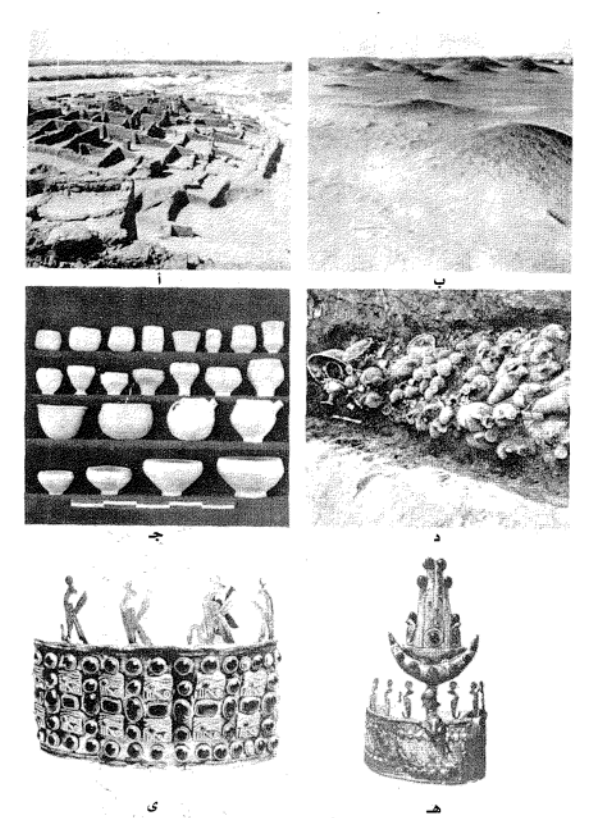
(١٥) ب - موقع لقرية مروية في الشوكان



(١٦) أ- معصرة خمر مروية ، مينارتى



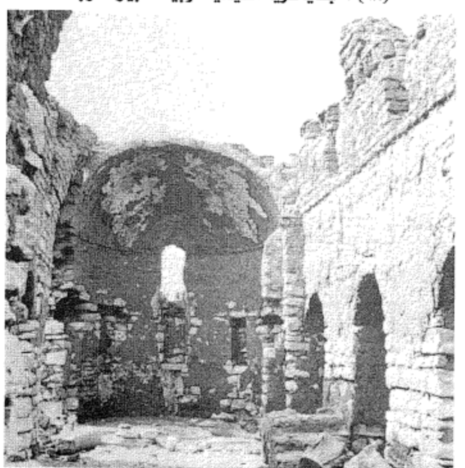
(١٦) ب - لوحة حجرية تحمل نقشاً باللغة المروية



(١٧) أ - بقايا قرية من الفترة البلانية ، مينارتى
ب - المدافن التلية في قسطل قبل التنقيب
جـ- آنية فخارية نموذجية من بلانة
د - محتويات حجرة القرابين في بلانة
هـ،ى - تيجان بلانة المجوهرة

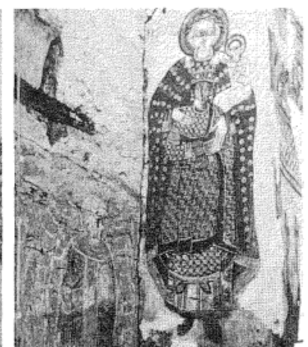


(١٨) أ- بقايا قرية مسيحية نوبية ، دبيرة غرب



(١٨) ب - خرائب كنيسة نوبية من العصر الوسيط (القرون الوسطى)

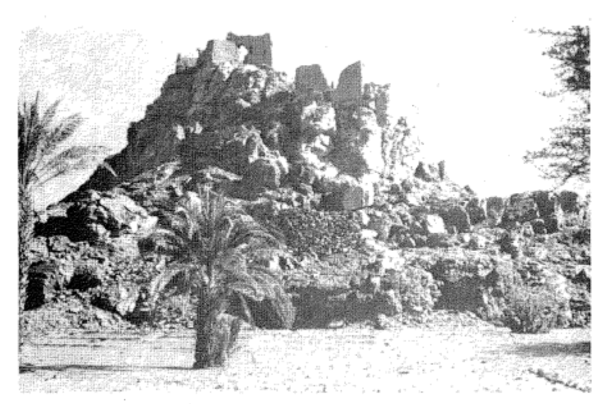




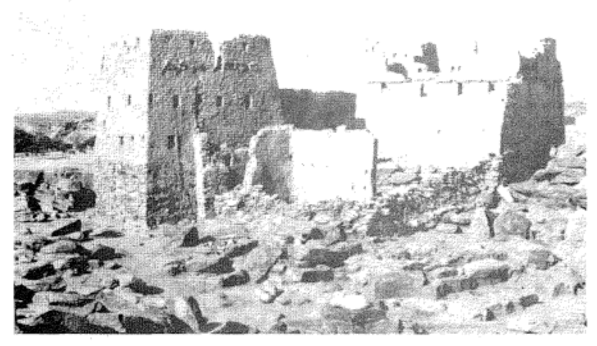
(١٩) أ - رسم حائطي لملك نوبى في حماية العذراء ، فرس
ب - رسم حائطى لأسقف نوبى ، فرس



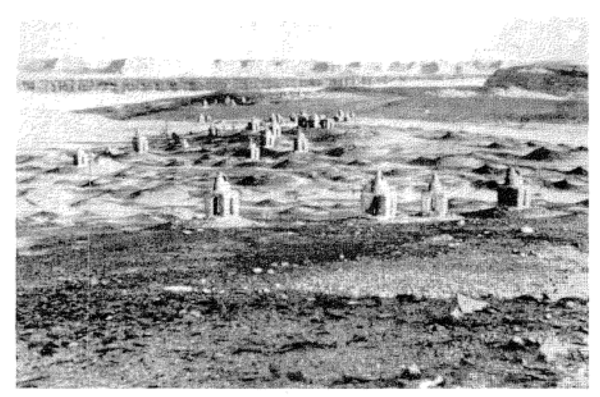
ج - رسم حائطى في فرس يبين شدراك ، ميشيل ، وأبيدنقو



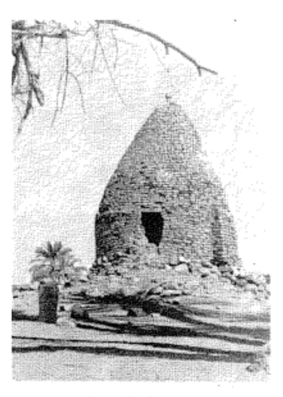
(٢٠) أ - موقع قرية دفاعى من العصور الوسيطة المتأخرة ، ديفنارتى



(٢٠) ب - قلعة من العصور الوسيطة المتأخرة ، كولبنارتى



(٢١) أ - قبور من فترة ما بعد المسيحية ، جبل عَدا



(٢١) ب - قبة في مشو ،
بالقرب من كرمة



(٢١) جـ - قبة المهدى
في أم درمان

(٢٢) أ - إغراق وادى حلفا القديمة



(٢٢) ب - منظر لشارع في خشم القربة (حلفا الجديدة) ١٩٦٥

وفاة المهدى غير المتوقعة، وقتاً طويلاً من قبل أن تُكَوّن أى أداة فعالة للدولة قد جرى تنظيمها، خلقت لا عجب إضطراباً بين أتباعه. تحرك أعضاء من أسرته ومن عنصر الدناقلة ـ الجعليين للإستيلاء على مواقع السلطة على أنها حقهم الطبيعي، عدا أنه في نبرة الحرب التى تمخضت عن ذلك أصبح بادياً للعيان أن القوة العسكرية الحاسمة في البلاد آلت لقبائل البقارة، الذين كان يمثلهم الخليفة عبد الله محمد تورشين. بعد اعتبار عاقل في حكمةٍ عمليةٍ لأفضل مصالحهم أذعن *الخلفاء* الآخرون إليه، وتولى عبد الله بالتالى لقب *خليفة المهدى*. وكان عليه بهذا أن يرأس الدولة المهدية حتى الإطاحة بها نهائياً في ١٨٩٨م.

أثناء السنوات الخمس الأولى من حكمه كان عبد الله كأنه في حرب مستمرة، جزئياً لإخضاع عناصر متمردة بين أركان حكمه وجزءاً أخر في التطبيق الجارى لسياسة الجهاد التى كان قد أعلنها المهدى. إن مديرية دافور الغربية (التى كانت توجهاتها الثقافية والجغرافية صوب حوض تشاد أقوى من إتجاهها نحو النيل) كانت قد صارت في قلقلةٍ منذ ضمها في ١٨٧٤، ومكث على تلك الحالة في ظل *المهدية*. ومن ١٨٨٥ إلى ١٨٨٧ كانت عصابات مسلحة أو متآمراً بها تصول وتجول على نحو متواصل حيث أن سلاطين دارفور المخلوعين كان يحاولون استرداد إستقلالهم. أضف إلى ذلك أن الحرب تواصلت على الحدود الحبشية، على خطى نمط مألوف من الإغارة ومردودها بالمثل مما كان قد بدأ في أزمان الفونج نتيجةً لطبيعة التخوم غير المحددة بوضوح بين سكان الهضاب المرتفعة والمنخفضات. في نقطةٍ ما إندفع جيشٌ سودانى إلى جوف الإقليم الحبشى مسافةً بَلَغت غندار، العاصمة القديمة، لكنه كان غير قادر على الإحتفاظ بموقعه في الأرض الجبلية غير المألوفة له. قصاصاً علي ذلك، زحف الأحباش، يقودهم الإمبراطور نفسه، إلى السودان عبر نهر العطبرا. بداية الإشتباك سلك المدافعون إتجاهاً غير أنه في نهاية المعركة قتلت رصاصة طائشة الحاكم الحبشى، وفى الحال إنسحبت قواته، مقدمة (فى صحة) النزاع من أجل الوراثة في وطنها علي ما عداه. موقف الحدود تم تثبيته بعد ذلك بالضرورة كما كان في السابق (ويبقى كذلك اليوم) بإغاراتٍ أشتاتاً من كل الجانبين دون إشتباكات كبرى.

أعلى أعمال عبدالله العسكرية طموحاً وأفرغها خُلواً من الحكمة في نفس الوقت هي غزوه لمصر في ١٩٨٩ بقيادة *الأمير* ود النجومي. سارت قوة الجبب المرقعة غزواً على طول الضفة الغربية للنيل متجنبةً نقطة التخوم المصرية وادى حلفا، حتى تقاطع معها وأبادها جيش مصرى بالقرب من توشكا(*) في النوبة السُفلى، إستوطن قليل ممن بقى على قيد الحياة في منطقة هزيمتهم؛ وكان أحفادهم مازالوا يعيشون بها ساعة تهجير النوبة في الستينات من عام ١٩٦٠.

الطموحات التوسعية لدولة المهدية إنتهت بالهزيمة في توشكى. بعد أربع سنوات من الحملات العنيدة، لم تحقق زيادةً ذات قيمة أو معنى في مناطق النفوذ التى ورثها *الخليفة* من سابقه. أياً ما صار الأمر إليه فإن الطور العسكرى شدد بقدر معتبرٍ من قبضته علي البلاد، كما يتم دائماً للحكام المطلقين. لقد كان قادراً على خلع عدد من قادة الجيوش ذوى الإستعداد للمروق عليه، بما في ذلك تعيينات عديدة أمضاها المهدى أصلاً، وأن يحل محلها رجالاً من ذويه. إن المجاعة والأمراض المعدية التى سقطت البلاد في براثنها خلال ١٨٨٩ و١٨٩٠ إضافةً لذلك أضعفت أعداءه باكثر مما حاقت به، حيث أن عبئها الأعظم أحَسّت به بشكل رئيسٍ القبائل النهرية التى كانت ساخطةً علي نظامه برفضٍ متصاعد. وفى ١٨٩١ أحس *الخليفة* بقوة كافية ليقوم بتصفية الأعضاء المتبقيين من أسرة المهدى وأتباعه الأوائل. كان بعضهم يتآمر مسبقاً للإطاحة به، لكنهم أُغرى بهم ليستسلموا في ظل وعدٍ بالعفو عنهم واسترجاع ألقابهم ومعاشهم. ثم إنه بصرف النظر عن ذلك، سُجن عديدون منهم أو نُفذ فيهم الإعدام خلال عام.

(*) توشكي في أدب المهدية السودانية ـ المترجم.

في السنوات الأخيرة من حكمه بدأ عبد الله يعرض الأعراض المألوفة لهذاءات العظمة التى تنطبق علي الطغاة. نحو ما يتمعن هولت "تحولت الدولة الدينية للمهدية الأولى إلى طغيان دنيوى كان يتبدى أمام الناظرين" (١٧٠). بل إنه عندما أصبحت قوته أرسخ أمناً إنسحب *الخليفة* شيئاً فشيئاً من الإتصال برعيته إلى داخل المبانى المسوّرة التى كان قد شيدها في أم درمان، حيث كان يُحاط بطانةً من الطامعين المتحذلقين. هنا صار يرتاب مضاعفاً في أولئك المحيطين به وفى آخر سنواته خلع وقتل عددا من كبار مسؤوليه المخلصين وقتل عدد آخراً، وبعضهم كان مرافقاً له منذ أيام المهدية الأولى. تُعطى الأوامر بصورة غير رسمية لرجال بلا رأى ما يزكيهم شئ سوى طاعتهم العمياء لزعيمهم. مثل طغاة كثيرين غيره، عاش عبد الله في النهاية في عالم من الخداع والدسائس كان لدرجة بعيدة من صنعه الخاص، ما كان يعلم مَنْ يُصدِّق أو لِمَنْ يُودِع ثقتهُ.

إن ثمن عزلة عبد الله عن رعاياه كان يكشف عن وجوده عندما أخذ البريطانيون بعد فوات الأوان في الأخذ بثأر غوردون وإعادة فتح السودان. ولإنجاز ذلك الهدف زحف جيش إنجليزى ـ مصرى تحت قيادة السير المهيب هربرت كتشنر جنوباً من وادى حلفاً في مارس ١٨٩٦. لم يكن النوبيون الشماليون أبداً أتباعاً مخلصين من قبل *للخليفة*، والدناقلة صاروا منذ فترة طويلة لا يعتريهم ضلال نحو نظام حكمه الذى يسطر عليه البقارة؛ دعم كل من الجماعتين الغزاة صراحة. أما القادة المعسولون من بطانة *الخليفة*، وقد شلهم الإفتقاد إلى أوامر محددة من أم درمان ولعدم قدرتهم على اتخاذ أى مبادرة بأنفسهم، فقد تراجعوا موقعاً وراء آخر دون إبداء مقاومة. في فركة وحدها كان هنالك إشتباك، ليس لأن المدافعين إختاروا أن يقوموا بهبة إنما بسبب أن معسكرهم أحيط به قبل أن يتمكنوا من الهروب. وكانت النتيجة خسارة لحوالى ألف رجل، مقابل إثنين وعشرين للبريطانيين. أكملت بعد ذلك إعادة مديرية دنقلا دونما مقاومة إضافية (قارن الشكل رقم ٨٦)(١٧١).

كان كتشنر حريصاً على الا يعيد خطأ أسلافه، وهو محاولة نقل الرجال والمؤن عبر مشاق شلالات النيل. بدلاً عن ذلك إضطلع بالإنجاز الباهر المتمثل في تشييد خط سكة حديدية يخترق الصحراء من وادى حلفا إلى أبو حمد ـ إمتداداً لا ماء فيه لمسافة تزيد على ٢٠٠ ميلاً. بذا أوقف سير العداوات ضد الخليفة لعام كامل بينما كانت الخطوط الحديدية تُدفع بلا تراجع حثيثاً بقطع الصحراء. لقد كانت القوة الغازية تستنزف بهذا العمل الشاق أضعاف مما تناله من حراب السودانيين. في هذه الأثناء إستولت فرقة سريعة كانت قد أرسلت جنوباً على النهر من مّروى على مدينة أبو حمد، حيث كان مقرراً للخط الحديدى أن يلتقى النيل ثانية، بعد اقل مقاومة ليس إلا. في يقظة هذه النكسة لم تخل قوات المهدية المقاطعة حول أبو حمد وحسب ولكنها أخلت عاصمة المديرية بربر، مفتاح الاتصال مع سواكن والبحر الأحمر. راقب *الخليفة* في أم درمان هذه الأحداث كأنما كان مشلولاً بمقدم نيمسيس آلهة القصاص الاغريقية، لا يعطى أوامر سواء كانت بمقاومة الغزاة أو لتقوية قواته المتبقية في الشمال.

نهاية أكتوبر ١٨٩٧ أُكمل خط السكة الحديدية إلى أبو حمد، وأُعيد إنشاء الإتصال بين بربر وسواكن قبل نهاية العام، في ذلك الوقت وحده، عندما صار العدو متعمقاً في أقليمه، ومؤنه وإتصالاته مؤمنة، أنهض *الخليفة* نفسه للعمل. جرد جيشاً ليقاطع البريطانيين في ملتقى عطبرة والنيل؛ هزم فيما كان، للغزاة، أشد إشتباك جسامةً في الحرب بعض ٥٦٠ فرداً منهم قتلوا، في حين شتت الجيش المدافع ١٢.٠٠٠ رجل دونما أثر. قتل حوالى ٣.٠٠٠ واختفى الآخرون في الأحراش.

بعد معركة عطبرة دام تأخير طويل آخر حينما انتظر البريطانيون التعزيزات وطقساً أبرد، بينما *الخليفة* يحاول يائساً أن يستجمع ما بقى من إمبراطوريته للمقاومة في خندق أخير. إستأنف كتشنر تقدمه في سبتمبر، واحتلت معركة الحملة الفاصلة مكانها على مسافة قصيرة شمال أم درمان، حيث كانت قوات *الخليفة* قد تكتلت آنفاً للدفاع عن عاصمتها. وفى يوم من القتال الشديد مُزق إرباً جيش

من ٥٢.٠٠٠ رجل، سلح أغلبهم بالحراب والرماح، بقوةٍ تقرب من نصف حجمه فيما كان على ونستون تشرشل، الذى لعب دوراً كملازم في الجيش البريطاني، أن يدعوه تشييع الفروسية في عالم الحرب[١٧٢]. فقد البريطانيون والمصريون قليلاً فوق ٣٠٠ رجلاً، مقابل ١١.٠٠٠ من المدافعين. وفرُّ الخليفة نفسه من ميدان المعركة، ليتوفى بعد عام في هبّة أخيرة لا طائل وراءها بأعالى النيل الأبيض، غير أن معركة أم درمان كانت علامةً لنهاية الدولة المهدية في السودان. وبمعنى أشمل كانت علامة إلى جانب ذلك على نهاية عصر القرون الوسطى.

فى فصول سابقة وصفنا ثقافات كرمة وبلانة على أنها تمثل نقاط إنتقال كبرى في التاريخ النوبي، بين العصور القبلية والأسرات وما بين الأسرات والوسطى على التوالى. كان كل واحد منها حركة سلفية، تحاول ان تخلد أو أن تستعيد الأحوال الثقافية لأزمان سالفة من جديد، إلاّ أن كل حركة هيأت الأرض في طرائق هامة إستشرفت العصور الجديدة التى كان عليها الحضور. تماماً بنفس الطريقة يمكن أن تعد الدفقة الأيدولوجية للمهدية دالةً على الإنتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة في السودان (إنه لمثير للإستطلاع ربما رمزياً أن كل واحدة من هذه الحركات الإنتقالية قصيرة الأجل كان لزاماً إحياء ذكراها بصروحها الجنائزية أساساً. فقبة المهدى المزدانة في أم درمان (الصورة ٢٣ ـ ج)، رغم أنها من الصعب أن تكون في مستوى واحد مع مدافن كرمة وبلانة التلية، هى رغما عن ذلك، أكبر صرح جنائزى تم بناؤه في البلاد منذ عصر الأسرات).

كان عزم المهدى لا يلين لإحياء إسلام القرن السابع الجماعى في صورته الأولى، وأن يزيل أغلب المتراكمات الثقيلة التي لا تتزحزح عبر السنين عن الحضارة، إسلاميةً كانت أم دنيويةً، في مرحلتها المتأخرة. بأى معيار يقيس التعقد كان نظامه رجعياً. غير أنه كان فضلاً عن ذلك، وبأسلوب حديث آخذ بالنفوس، وطنياً. وفى هذا الخصوص هيأ الأرض للأيدولوجية السائدة في القرن العشرين. أبعد درجة بكثير من المصريين الذين سبقوا أو البريطانيين اللاحقين، حاول المهدى أن يطهر نفاية الاقطاع والقبلية وأن يوحد أقوام السودان المتعددة في تطلع مشترك ومصير واحد. ما من غير الملائم أنه يعتبر "أبو الإستقلال" من طرف سودانيين حديثين على ما لهم من قناعاتٍ سياسيةٍ مختلفة[١٧٣].

ملخص تفسيرى

بلغ العصر الإقطاعى الذى كان قد بدأ في أزمان مسيحية متأخرة ذروته في العصر ما بعد المسيحى. أضيفت اللامركزية القصوى للنظام القبلى العربى إلى النظام الإقطاعى الذى كان قد أنشئ من قبل على النيل وطُعمت به. من هذه التركيبة من التأثيرات قام، في القرن السابع عشر، عدد لا حصر له من *المكوك* الذين سيطروا وفى بعض الأحايين روّعوا عدداً مضاعفاً من العموديات الصغيرة منطلقين من معاقلهم الحصينة على طول النهر.

إلى المدى الذى عادت فيه حكومات مركزية للظهور من بعد سقوط الممالك المسيحية، إكتسبت في ارتخاءٍ بلا ثبات شكل إتحادات إقطاعية مضمومةً بقوة السلاح. إن الأكبر والأطول بقاءاً كان إتحاد سنار، الذى استجمع أصلاً من عرب العبدلاب لكنه سيطر عليه مؤخراً سلاطين الفونج السود في سنار، على النيل الأزرق. في أوج بأسه مارس إتحاد سنار هيمنة صّعيبة غير مُيّسرة على كل قبائل الجعليين والعرب تقريباً جنوب الشلال الثالث، إضافةً إلى قبائل سوداء عديدة في جنوب السودان. مع ذلك، بعد القرن السابع عشر إنشق عدد كبير من الأقوام الشمالية أو جرى تشتيتهم بقوةٍ من مكوك شايقية النيل الأوسط المستقلين في ضراوة؛ في النهاية ما امتدت سلطة الفونج شمالاً لأبعد من ملتقى النيلين. أما الشمال الأقصى للنوبة فكان إسمياً تبعية عثمانية، لكنه في الحقيقة كان



شكل رقم ٨٦

إعادة غزو السودان، ١٨٩٦ - ١٨٩٨

محكوماً *بكشاف* وارثين على استقلال، ضوار، مثل *المكوك* القائمين إلي جنوبهم.

بلغ العصر الإقطاعى نهايته بإعادة فرض الحكم الإستعمارى المصرى في ١٨٨٢، وما بلغت القرون الوسطى نهايتها بعد. وعقب قمع وحشى لبداية عصيان مسلح بدأ في مواجهة سلطتهم، ألغى المصريون نظام الحكم القبلى، لا سيمًا وسط الأقوام النهرية، وأنشأوا في محله حكومة ديوانية ممركزة يظاهرها جيش قوى على أهبة الإستعداد. إستجلب النظام الإستعمارى معياراً من النظام والإستقرار للسودان الذى مزقته الحروب، لكنه ما كان سالكاً لمنفعة المحكومين أو تحقيق مشاركتهم لأى مدى. الدوافع التى جاءت بالمصريين إلى السودان في ١٨٢١ هى نفسها التى عجّلت بالفراعنة لفتح البلاد قبل ٣٠٠٠ عاماً سابقة: شبق العبيد والذهب.

لئن كانت تجارة الرق مبرراً لإحتلال المصريين للسودان، فقد كانت بالمثل سبباً لبطلانه. كان في الأصل عملاً حكومياً، إنتقلت التجارة بشكل متزايد إلى راحة أيد خاصة بعد ١٨٤٣. حمل أمراء التجار من الخرطوم أنشطتهم إغارة لإسترقاق الرقاب بعيداً ما وراء سلطة الحكومة، إلى مجاهل أعالى النيل الأبيض، حيث اشتقوا إمبراطورياتهم في الأحراش. وعندما سعت الحكومة الإستعمارية في وقت لاحق لكبح عملياتهم، وجدت أن قوتهم كانت أعظم من قوتها. إن الحملة الخائبة للتحكم في تجارة الرق خلال الستينات من عام ١٨٦٠ والسبعينات منه إستغربت قسماً معتبراً من السكان السودانيين، الذين اعتمد رخاؤهم على الرق، وقوضت إلى جانب ذلك الثقة في سلطة النظام الإستعمارى. هكذا، عندما أُعلنت الحركة الألفية للمهدى في ١٨٨١، إجتذبت أتباعاً ليس من المؤمنين حقاً فحسب، إنما من عناصر عديدة كانت قلقة للتحرر من جور المصريين، أو إنها ساورها شك ببساطة في مقدرة المصريين علي حكم البلاد. خلال عامين من تأسيسها إشتعلت حركة المهدية في أتون عصيان (*) وطنى مسلح؛ وفى نطاق عامين آخرين طردت آخر أجنبى وأصبحت دولة وطنية.

أسست حركة المهدية على مبادئ إصلاح دينى، غير أنه عقب موت موجدها في ١٨٨٥ صارت، تحت حكم *الخليفة* عبدالله، طغياناً دنيوياً يسيطر عليه بدو البقارة. فقد التأييد الشعبى وسط الأقوام النهرية تدريجياً، وعندما غزا جيش انجليزى - مصرى السودان في ١٨٩٦ لاقى مقاومةً ضئيلة حتى أوغل عميقاً داخل البلاد. معركتان دمويتان وخائرتان عام ١٨٩٨ دمرتا آخر القوات المهدية وأنهيتا النظام.

كانت دولة المهدية في نفس الآن آخر نظام في القرون الوسطى وأول دولة وطنية حديثة في السودان. كانت دينية بعزم لا مراء فيه تهدف إلي لا يقل عن استعادة المجتمع الإسلامى الأول للنبى، بيد أنها كانت كذلك أول نظام يوّحد سكان السودان على اختلافهم في قضية لأيدولوجية وطنية. يمكن لذلك أن تُعَرف المهدية بأنها واحدة أخرى من نقاط التحول الكبرى في التاريخ النوبى، التى تفصل العصر الوسيط عن العصر الحديث.

(*) لم يشأ المؤلف أن يصف حركة المهدية بأنها ثورة، كما ألمحنا إلي ذلك في تقديمنا للكتاب. (أنظر المقدمة) - المترجم.



خاتمة

الفصل التاسع عشر

إرث الغرب

النوبة والسودان في القرن العشرين

نظرياً، إستعاد النصر بأم درمان الهيمنة السياسية المصرية على السودان. خُططت الحملة لإعادة الفتح ومُولت [١] من بريطانيا العظمى، وسيّرها في الميدان ضابط بريطانيون، لكن اضطُلع بها باسم مصر. في خاتمتها أُعلنت سلطة الخديوى على كل أنحاء السودان، وخفق العلم المصرى مرة ثانية فوق الخرطوم وعواصم المديريات. بصرف النظر عن هذا أُنجزت الحملة بدرجة أعلى سعياً وراء مصالح بريطانية أكبر منها مصرية، وكان صافياً منذ البداية أن البريطانيين قصدوا البقاء.

سياسياً، كان موقف المنتصرين خارجاً عن المألوف[٢]. ألقى الرأى العام البريطانى عموماً اللوم لنهوض المهدى على فساد النظام الإستعمارى المصرى ولا مبالاته في آخر القرن التاسع عشر[٣]، إلا أن بريطانيا تدخلت لتسترجع نفس السلطة التى أُدينت على ذمتها الخَرِبة. تحت هذه الظروف كان الرجوع إلى *الحالة القائمة* ما قبل ١٨٨١ خارجاً في صفاءٍ عن دائرة السؤال. بدا أن بريطانيا، بعد أن استرجعت السودان للإدارة المصرية، يجب أن تبقى الآن في السودان لكيما تحمى السودان من المصريين. وجهة النظر هذه عبر عنها بوضوح اللورد كرومر حقبةً من الزمان بعد إعادة الفتح : "إن شرع الحكم الذى أجهز على حشود الدراويش (*) في أم درمان أعلن على العالم أن انجلترا ـ أو، ليكون الأمر أصوب بشكل جازم، أن مصر، تحت الوصاية البريطانية ـ قد أُنيبت بالواجب الموقّر لإدخال نور الحضارة الغربية في مسؤوليةٍ وسط شعب السودان الذى حُكم بمرارة" [٤].

كيفما جرى الحال، فإن تأكيداً لا مواربة فيه بالسيادة البريطانية، كان سيلقى مقاومة ليس من مصر وحدها لكن من القوى الإستعمارية الكبرى الأخرى، وربما كان سيلهب موقفاً أوروبياً متوتراً من قبل. طريقة نوعا ما خداعة المظهر للخروج من هذه الصعاب وُجدت في إتفاقية الحكم الثنائى لعام ١٨٩٩، تولت بمقتضاها مصر وبريطانيا العظمى سيادةً مشتركة على السودان. عن هذه الإتفاقية يكتب هولت:

> الحدود الشمالية للإقليم الذى اغتُنم حديثاً، وُصفت في الإتفاقية بأنها "مديريات معينة في السودان كانت على عصيان مسلح ضد سلطة صاحب السمو الخديوى"، تثّبت على خط العرض ٢٢ درجة شمالاً. مطالب الخديوى إعتُرف بها إضافةً إلى هذا في البنود التى مؤداها أن " العلمين البريطانى والمصرى سوف يستعملان معاً، كلاً على اليابسة والماء، في كل أنحاء السودان"، أن إجراء تعيين الحاكم العام وإحالته يجب أن يكون بمرسوم خديوى (لكن فقط بمبادرة من الحكومة البريطانية)، وأن قرارات الحاكم العام، التى لها قوة القانون، يجب أن يخطر بها رئيس مجلس الوزراء المصرى، بالإضافة إلى المندوب البريطانى في القاهرة.

هذه الأحكام جانباً، أبعدت الإتفاقية عمداً كُلاً من السلطات المصرية والدولية من السودان. كذلك تجاهلت

(*) إن المقصود "بالدراويش" الثوار السودانيين الذين أسسوا دولة المهدية الوطنية ودافعوا عنها في مواجهة الإستعمار الأجنبي في نهاية القرن التاسع عشر – المترجم.

تكتيكياً الإدعاءات الباهتة للسلطان العثماني كوصي على السودان. ما كان التشريع المصرى ليطبق على السودان مالم يصدر ذلك على وجه التحديد من الحاكم العام. ما من إمتيازات خاصة، كالتى آلت للأوروبيين في مصر في ظل قوانين حماية الإستثمارات الأجنبية، تصدر في السودان. إختصاص المحاكم المختلطة إستُبعد، وما من ممثلين قنصليين يسمح لهم بالإقامة في السودان من غير الموافقة المسبقة للحكومة البريطانية.

فى نطاق السودان، يعهد للحاكم العام بالقيادة العسكرية والمدنية العليا، وهو مسمى الحكومة البريطانية. ورغم أن الإتفاقية أطبقت صمتاً عن أمر الجنسية، فإن كل الحكام العموميين من ١٨٩٩ إلى ١٩٥٥ كانوا رعايا بريطانيين من المملكة المتحدة. بسلطات تنفيذية كاملة، جمع الحاكم العام ... سلطة كاملة يشترع القرار. إن مادةً بالإتفاقية وضعت السودان تحت قانون الأحكام العرفية لفترة غير محددة (٥).

هكذا كان الحاكم العام الإنجليزى ـ المصرى فعلاً، الأخير في متتالية من الولاة الذين حكموا القطر بصورة متقطعة منذ أيام الفراعنة.

يمضى هولت ليرقب أن :

إتفاقية الحكم الثنائى لم تكن دستوراً للسودان: كانت في بساطةٍ تمنح إعترافاً رسمياً بالموقف الكائن عشية إعادة الفتح. الإسم مضلل: ما خلقت الإتفاقية بأى معنى حقيقى حكماً ثنائياً حقيقياً، سيادة مقرونة على السودان، لكنها أعطت إعترافاً رسمياً فحسب للإدعاءات التاريخية للخديوى، في حين احتفظت بوحدة ذاتية كاملة بالتقريب لمسؤول ترشحه الحكومة البريطانية. ما كانت موضع سؤال بجديةٍ من القوى الأوروبية. ولم يرضَ عنها المصريون أبداً، وقد أحسوا في سخطٍ كئيب، أنهم إستُغفلوا في حقوقهم. فمتى خرجت مصر من نوء الحكم البريطانى، لم يعد في الإمكان إلغاء زيف الحكم الثنائى، ومن نهاية الحرب العالمية الأولى وما تلاها [صارت] بمستوى متضاعف مأزقاً حرجاً لمجالس الوزراء البريطانية المتعاقبة ولإدارة السودان على حد سواء ... (٦).

الحكـم البريطانـى فـى السـودان

فى ظل الحكم الثنائى، كانت إدارة المديريات والمقاطعات بادئ بدء مسترجعة بشكل أو آخر عبر الخطوط التى كانت قد أنشئت في أزمان ما قبل المهدية. المسؤولون الإداريون الأعلى كانوا بلا تغيير بريطانيين، بينما كانت المراتب الوسطى والدنيا (حيث الطلاقة في العربية ضرورية من أجل إتصالٍ فاعل مع المحكومين) مشغولة بالمصريين أو باللبنانيين عموماً (٧). وبسبب متشابهات التركيب الإدارى، والحضور المتواصل لأعداد من المسؤولين المصريين، يشار إلى فترة الحكم الثنائى في بعض الأحيان من السودانيين بأنها "التركية الثانية". بحجم متساوٍ قد يمكن أن يُشمل المسؤولون ذو الجنسية البريطانية بلقب "تركى" بذا يجعلون صلتهم بالنظام الإستعمارى ما قبل المهدية بالتالى أمراً مشروعاً (٨).

فى مستهل الأمر، وحقيقة لأغلب تاريخه، يُشخص النظام البريطانى في السودان بأبوة خيرة إن لم تكن نوعاً ما متعاطفة. خلق نظاماً من المدارس العامة، أساساً بقصد تدريب موظفى الخدمة المدنية في الدرجات الأدنى، لكنه كان مُسلماً به أن فترةً طويلة من الحماية الإستعمارية تُتطلب قبل أن يتمكن السودانيون الكائنون في أول عتبات السلم من تولى الإدارة على شؤون بلادهم. في هذه الأثناء حكم الحاكم العام بالمراسيم، وشرع في تطوير البلاد وتحديثها إلى الحد الذى تسمح به مواردها المتواضعة. ضمت المديريات المختلفة بعضها إلى بعض، حزماً أشد من الماضى، بشبكة من السكك الحديدية والبواخر، وأُكمل خط سكة حديدية من عطبرة إلى البحر الأحمر في ١٩٠٥، فأرفد القطر أول توصله الفاعل للتجارة البحرية، منهياً إعتماده التاريخى على النيل وعلى مصر. إنجازات مذكورة أخرى في المحيط المادى الملموس كانت إتمام عدد من مشاريع الخزانات والرى، وعلى وجه الخصوص مشروع الجزيرة الذى وضع تحت الزراعة مساحة كبيرة للغاية بين النيلين الأزرق

والأبيض، جنوب الخرطوم.

أول سنوات الحكم الثنائي كانت وقتاً من السلم والتقدم النسبي، مع انه لأطول من حقبة زمنية أقلقت راحتها حركات مجهضة من طراز المهدية في وسط السودان. قمع آخرها في ١٩١٢[٩]. زمناً ليس طويلاً بعد ذلك، برغم هذا، بدأ الإضطراب السياسي في تأكيد وجوده صيغةً جديدة أقرب شبهاً بالقرن العشرين، عبر أيدولوجية الحركة الوطنية في السودان، كما في أمكنة أخرى في عالم الإستعمار، إذ كان مقدم التعليم العام قد خلق آمالاً وتوقعات ما كان الحكام المستعمرون في وضع للوفاء بها. أضحى خريجو كلية غوردون التذكارية في الخرطوم، الذين استوعب معظمهم موظفين صغاراً في الحكومة، قوة منشقة بمرور الوقت تطالب بقسمة أعظم في حكم بلادهم. ولأنهم رأوا ألا أمل في الوقوف لمجابهة البريطانيين من غير عون خارجي، إتجهوا بوجه عام لمشايعة قوى وطنية كانت تتحدى السلطة البريطانية في مصر في نفس الوقت. بذا فإن انبعاث القومية العربية الذى أعقب الحروب العالمية الأولى، والذى قاد في النهاية إلى إلغاء الحكم الإستعمارى البريطاني في مصر عام ١٩٢٢، كانت لها عقابيل بعيدة الأثر في السودان. شكلت نوى لمنظمات وطنية في الخرطوم، وباتت عناصر في الجيش السوداني منسلخة الولاء[١٠].

فى نوفمبر ١٩٢٤ أُغتيل السير لى ستاك، حاكم عام السودان، من عربى قومى في أحد شوارع القاهرة. أتاح هذا الحادث للسلطات البريطانية الذريعة لأخذ إجراء ردعى بحق الوطنيين في الخرطوم وضد المصريين الذين اعتقد أنهم كانوا وراءهم في الآن نفسه. طلب الجنرال ألنبى، قائد القوات البريطانية في مصر، الإنسحاب الفورى لكل وحدات الجيش المصرى من السودان، وسرعان ما تلاها الموظفون المدنيون بالمثل. في هذه الأثناء تمت محاصرة وحدة متمردة في الجيش السوداني وأُبيدت في الخرطوم [١١]. منذ ذلك الوقت وما أعقبه فصل جيش السودان كلية من جيش مصر وجُعل على وجه الحصر فرقاً سودانية يأمرها ضباط بريطانيون. بأحداث ١٩٢٤ أُنهي كل رمز للمشاركة المصرية في حكومة الإدارة الثنائية، مع أن توهم الحكم المشترك ظل باقياً ثلاثين عاما آخرى.

كتدبير حيطى في مواجهة نمو إضافي للوطنية، تبنى البريطانيون بعد عام ١٩٢٤ ما كان يدعى بسياسة "التخويل" في السودان. كان هدفها أن تقلص ظل الحكومة الديوانية وأن تنمي في مكانها نوعاً ما من الحكم غير المباشر الذى بدا أنه يعمل بكفاءة في مستعمرات إفريقية أخرى [١٢]. بدلاً من بناء خدمة مدنية من الأهالى المتعلمين، كان على السلطة السياسية أن تعاد ما أمكن ذلك للزعماء القبليين والمشايخ.

> بالتطبيق القضائى متوالى التقدم للتدابير التخويلية في المقاطعات حيثما كانت الأحوال مناسبة، وبتأكيد أن الوكالات الأهلية التى كان عليها أن تكون مسؤولة عن إدارة هذه التدابير تتقاضى جزاءاً وافر المستوى ليمنحها قدرها المطلوب من المكانة والتوقير، يجب أن يكون ممكناً ليس لتقوية نسيج المؤسسة الأهلية فحسب، لكن، بينما أنها تصون هيئتنا الإشرافية بقوةٍ سليمة، تخفض بالتدريج عدد نواب *المأمير*، والكتبة، والمحاسبين والملحقين الديوانيين المشابهين في المقاطعات الخارجية [١٣].

فى نفس الوقت أوقفت بعض الدورات التدريبية للموظفين الإداريين أقل رتبة، وتركت المنشآة التعليمية التى كانت قد شُيدت بجهد جهيد في سنوات سالفة لتخبو. تبرم مدير سابق للتعليم في السودان، في عام ١٩٣٥، من أنه "بعد القلاقل التى بلغت ذروتها بقتل ستاك، ذعرت الإدارة المحلية البريطانية، وبالرغم من ولاء السودانيين المتعلمين للحكومة التى هيأت لهم الفرصة، فإن المشهد المروّع للرائى يمكن أن يعرض إداريين شباناً يبحثون في جدٍ عن قبائل مفقودة وزعماء مختفين، يحاولون أن يبعثوا من القبور نظاماً إجتماعيا تلاشى إلى الأبد" [١٤].

ويضيف هولت:

المفسرون لهذه السياسة من "الإدارة الأهلية" أو "الإدارة غير المباشرة" للبريطانيين لابد أنهم صُدموا عندما سمعوا عنها مقارنةً بنداء الخليفة عبد الله للبقارة، أربعين عاماً مسبقة، كلاهما نتاج لإخفاق الثقة. إنقلب الحاكم في الحالتين على آخر رعاياه تقدماً مَنْ ظلوا بغض النظر عن كل شئ حيويين لأداء آلته الديوانية، مُرتئياً إستخدام عناصر أقل مراساً لتكون الأداة والمعين لسلطته (١٥).

في ظل الحكم "التخويلي" بقى السودان هادئاً من الناحية السياسية خلال العشرينيات والثلاثينيات المتأخرة للأعوام ١٩٢٠ و١٩٣٠، لكن الوطنية السودانية أعادت تأكيد نفسها مع إنفجار الحرب العالمية الثانية. باكورة الحرب أخذ الجيش السوداني (الذى عرف فيما بعد ١٩٢٤ بقوة دفاع السودان) جانباً في الحملة الناجحة لطرد الإيطاليين من الحبشة، ويحتمل أن إحساساً بالقوة العسكرية والفخر ساعدا على إحياء الوطنية. أرسلت في ١٩٢٤ جماعة تدعى مؤتمر الخريجين العام، مكونةً من خريجي كلية غوردون التذكارية والمدارس الثانوية، قائمةً إلى السكرتير الإدارى البريطاني تحتوى عدداً من مطالب سياسية، أهمها حق تقرير المصير حالاً من بعد إنتهاء الحرب (١٦).

كانت رسالة الخريجين مرفوضة بإزدراء لا مساومة فيه من السلطات البريطانية، فكان أثر ذلك أن يولد فُرقة عميقة في صمود بين صفوف الوطنيين. إن أولئك الذين كان همهم الرئيس أن يتحرروا من التسيطر البريطاني في تاريخ مبكر شدوا وثاقهم بالمصالح المصرية، مثلما فعل وطنيو العشرينات من قبل، وقرنوا قضية الوحدة النهائية، أو على الأقل الإتحاد السياسي، مع مصر. وفي مواجهتهم تراوح مدى أولئك الذين أمنوا بأنه، في ضوء التاريخ والجغرافيا، مثلت مصر تهديداً إمبريالياً مستمراً أقوى مما فعلت بريطانيا. كان هدفهم أن يعملوا من أجل إستقلال تام في نهاية القصيد، حتى لو كان معناه تقبل الحكم البريطاني في تواصل ليصير من الممكن تطوُير مؤسسات مستقلة للأمة. هذه الجماعة الأخيرة وجدت تشجيعاً من السلطات البريطانية في سكوت حتى أضحى واضحاً أن التطلعات الوطنية بشكل أو آخر لا يمكن تجاهلها. هكذا باتت الجماعتان الوطنيتان الرئيستان في السودان معرّفتين بلا وعي بمصطلح القوتين المتنافستين اللتين كانتا إسمياً تتقاسمان حكم بلادهم. لم يعد من ثم السؤال هو ما إذا كان الوطنيون سيكسبون الجولة في النهاية، إنما أى جماعة وطنية تفوز.

بمضي الوقت كانت الجماعتان الوطنيتان السودانيتان قد تبلورتا إلى بوتقة أحزاب سياسية منظمة. الملة المؤيدة للمصريين عرفت أصلاً *بالأشقاء* "الأخوة" ومؤخراً بالحزب الوطني الإتحادى، بينما كان الحزب الأقوى تأييداً لبريطانيا ولايزال يسمى حزب الأمة. لقد بقيتا حركتين سياسيتين عماديتين في السودان نزولاً إلى الوقت الراهن، بالرغم من أنهما بالضرورة أصبحتا غير نشيطتين في أزمان الحكم العسكرى. وكما يجوز أن يتوقع، يستمد الحزب الوطني الاتحادى تأييده الأقوى من السكان النهريين في الشمال، بمن في ذلك النوبيين (على الأقل حتى صاروا في سخطٍ وغُبن من مسألة التهجير عقب إنطلاق السد العالى)، في حين يستمد *الأمة* قدراً واسعاً من تأييده من نفس القوى المناهضة للمصريين التى دعمت المهدية قبل ثمانين عاماً مضت. إن هذا مؤشراً على النفاذ المتواصل للدين في الحياة العامة السودانية فالحزبان الرئيسان تحالفا بمستوى لصيق مع إثنين من أكبر الطوائف الدينية في البلاد، *الختمية* و *الأنصار*(١٧).

مبدأ تقرير المصير النهائي للسودان إرتبط رسمياً بحكومة العمال التى اعتلت السلطة في بريطانيا في نهاية الحرب العالمية الثانية. على أنه بطريقة أو أخرى، عطل التحقيق الفعلي للإستقلال حقبةً زمنية نتيجة للنزاع المستمر بين بريطانيا ومصر وبين الشيع السياسية المتنافسة التى يظاهرونها في السودان. إن البريطانيين، يدعمهم حزب *الأمة*، إقترحوا إنشاء حكومة ذاتية بالتدريج، مما يؤدى في نهاية الدرج إلى خلق سودان مكتمل الإستقلال؛ مثل كل هذه التدابير كان معارضاً من المصريين والشيعة الإتحادية في القطر. مخفقين دون بلوغ إتفاقية مع شركائهم المصريين في

الوصاية على الحكم، إتخذ البريطانيون إجراء منفرداً عام ١٩٤٨ لإقامة جمعية تشريعية ذاتية ومجلس حاكم للسودان. عارض المصريون هذا الإجراء بقوة، وقاطع الإتحاديون إنتخاب الجمعية الذي أعقب ذلك؛ ومحصلةً لهذا، إنتخبت جمعية تشريعية ومجلس تنفيذى بعدد كبير من أعضاء حزب *الأمة* (١٨).

توالت مفاوضات الحكم مجهضة بين بريطانيا ومصر لثلاث سنوات أخرى بعد تكوين الجمعية التشريعية الأولى. كان إصرار مصر أن الحكم البريطانى في السودان والإدارة البريطانية لقنال السويس مسائل متصلة لابد أن يجرى التفاوض بشأنها جمعاً عقبة كؤودا دون أى تسوية نهائية. بلغت الأمور قمتها في ١٩٥١ عندما اتخذ المصريون بدورهم خطوةً إنفرادية، بإعلان بطلان إتفاقية الحكم الثنائى واقترحوا أن يُضفى على الملك فاروق لقب "ملك مصر والسودان" (١٩). إستنكرت حكومة السودان سريان مفعولية هذا الإجراء، وفى إبريل ١٩٥٢ أصدرت الجمعية التشريعية دستوراً للحكم الذاتى للسودان، قضى بإيجاد رئيس للوزراء، ومجلس للوزراء، وتشريع من ديوانيين للقضاء، بينما بقيت سلطات عسكرية ودبلوماسية مختلفة في قبضة حاكم عام يعينه البريطانيون. ما كان متوقعاً أن موافقة مصرية على هذا التدبير سيأتي أوانها، على أنه بعد أقل من ثلاثة أشهر من إصداره أُطيح بالملك فاروق علي يد طغمة(*) عسكرية، وأزيل من الوجود واحد من العقبات الرئيسة لتسوية المسألة السودانية.

الحكومة المصرية الجديدة التى ترأسها اللواء محمد نجيب، لم توافق فحسب على فصل مسألة السودان عن مسألة قنال السويس، لكنها قبلت مبدأ المصير للقطر الجنوبى. بعد ذلك كانت سياسات بريطانيا ومصر بالضرورة متوازية، مع أنها متعارضة لا تزال: كل أمة ترغب أن ترى السودان مستقلاً مادام نفوذ الأخرى ليس طاغياً. بعد تراوغ إضافى بدرجة عظيمة من أجل تعزيز المراكز وُقع، لذلك، على إتفاق إنجليزى - مصرى في فبراير ١٩٥٣، نظر صوب تكوين حكومة ذاتية إنتقالية للسودان يعقبها في تاريخ لاحق نظام وطنى، كامل الإستقلال. كان شكل الحكومة الإنتقالية بالضرورة هو الذى استصدر تنفيذه بقانون قبل عام مسبقاً، لكنه تم بتعديلات معينة رمت إلى تقييد سلطة الحاكم العام. لقد افتُرض أن تتولى الحكومة السلطة لثلاث سنوات، وخلال ذلك الزمن يؤسس دستور دائم ومؤسسات للحكم من الجمعية التشريعية نفسها (٢٠).

عقدت الإنتخابات في الجزء الأخير من عام ١٩٥٣، وباشرت حكومة السودان الجديدة الحكم في اليوم الأول من عام ١٩٥٤. ظهرت نتائج الإنتخابات نكسةً لبريطانيا، حيث أن الحزب الوطنى الإتحادى الموالى لمصر أحرز أغلبيةً صافية، وشُكل مجلس الوزراء التنفيذى لذلك من أعضاء الحزب الوطنى الإتحادى علي وجه الحصر. سعى المصريون ليحّسنوا من مكسبهم بحملة دعاية نشطة رمت لتحقيق وحدة نهائية للسودان مع مصر، بيد أن أنشطتهم ونفوذهم المتنامى قاد إلى عنف عام من الشيع المعادية للمصرين في الخرطوم وغيرها، وكشّف للحكومة خطر حرب أهلية تكمن بطبيعة الحال في سياسة موالاة المصريين بشكل صريح للغاية (٢١). وعندما عُزل اللواء محمد نجيب، في نوفمبر ١٩٥٤، عن قيادة الطغمة المصرية من جانب العقيد جمال عبد الناصر، سُحق أى أمل مما كان لا يزال متعلقاً بالوحدة. نجيب نصف سودانى، نال قسطاً من التعليم في السودان آنفاً، وكان محبوباً لأقصي حد في القطر الجنوبى، إن سقوطه غير المحتفى به سبب الإمتعاض والسّخط بين العناصر الموالية للمصريين في السودان (٢٢).

لقد عزم رئيس حكومة الحزب الوطنى الاتحادى الإنتقالية، الذى ربما رأى مركزه السياسى ينزلق في رفقة القضية الوحدوية، أن يدفع في إتجاه الإستقلال الكامل ليقع في تاريخ أسبق من الذى جرى تحديدة في الإتفاق الإنجليزى - المصرى. في أغسطس ١٩٥٥، حث الجمعية التشريعية لأن

(*) لم يُسّم المؤلف ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر علي طاغوت الملكية والإقطاع بما يتعد مفهوم الطغمة العسكرية؛ انظر تعليقنا الناقد لذلك الراي في مقدمة النوبة - المترجم.

تدعو لإنسحاب كل وحدات الجيش البريطاني والمصرى من البلاد، وكان هذا بالفعل منجزاً قبل نهاية العام. تلى ذلك، أن القوتان اللتان لازالتا تتقاسمان حكم السودان إسمياً سُئلا لعمل إستفتاء ليحدد المصير مرة واحدة على الإطلاق لمسألة الإستقلال أو للوحدة مع مصر. ولما كانت النتيجة بشكل مكثف في صالح إستقلال تام، أجاز البرلمان في ٢٢ ديسمبر قراراً يعلن فيه السودان مستقلا من فوره. إعتُمد دستور إنتقالى دعا بالتالى لإستمرار الآلة البرلمانية القائمة، مع نقل سلطات الحاكم العام للجنة عليا من خمسة سودانيين أعضاء. تم هذا الإجراء قبولاً بلا معارضة، وربما بإرتياح من القوتين اللتين كان حكمهما زمناً طويلاً مصدراً لإقلاق الراحة والحرج لكل منهما. في ١ يناير ١٩٥٦، أنزل العلم البريطانى والعلم المصرى من سارية قصر الحاكم في الخرطوم، ورفرف عالياً علم جمهورية السودان في محلهما.

ما بقى الحكم البريطانى في السودان لما يزيد على خمسين عاماً ـ قصراً أشد، لمدى بعيد من أى فصل سابق للسيطرة الإمبريالية في تاريخ البلاد. بصرف النظر عن ذلك فإن التحولات الثقافية التى احتلت مكاناً من خلال ذلك النصف من القرن يجوز أن تكون مماثلة في عظمتها لأى ما صاغ الفراعنة أو السلاطين في أزمان سابقة، هنالك بالتأكيد تقدم مادى وتقنى أكبر في النصفُ الأول من القرن العشرين عما كان موجوداً خلال الخمسة آلاف عاماً الماضية. ومع أن نظرة القرون الوسطى لا تزال تغص بها وجوه كثيرة في الحياة السودانية، فإنه كيفما مضى الحال صحيح بالمثل أنه تحت الحكم البريطانى كانت رموز حضارة القرون الوسطى ومؤسساتها مستبدلةً بحزم، وبكل الإحتمالات، نهائياً برموز ومؤسسات الوطنية الدنيوية الحديثة.

في قالب واحد أو آخر، وتحت رعاية بعينها أو بغيرها، كان مجئ الحضارة الفنية الغربية إلى السودان مما لا متعدى منه. أخذت بطريقة حيوية نفس عمليات التحديث، والعلمانية، والتطور المادى مكاناً في كل مقاطعة مستعمرة في إفريقيا، إضافةً إلي بلدان مثل الحبشة، وإيران وتركيا التى ما كانت أبداً مستعمرات. إلى ذلك المدى كان البريطانيون وكلاء لا غير لإمبريالية ثقافية كانت أقوى منهم هم أنفسهم. إن القالب المحدد الذى أخذته الحضارة الغربية في السودان هو، مع هذا، بريطانى بما لا جدال فيه. إنه لأشد إدراكاً ليس في المحيط المادى وحسب إنما في المحيط المؤسسى: في النظام التعليمى، والمؤسسات الحاكمة، وفوق كل شئ في نظام القضاء الذي يُعَد إرث الحكم البريطاني. سواء برهنت هذه [التطورات] أنها ورث باق، أمْ أنها سوف تتخطى أو تحول إلى قوالب أشد إلفةً وأصالة، فهذا مما لا يزال باكراً جداً ليقال عنه شئ. بعد حقبة زمنية ونصف أصبح فيها النفوذ البريطانى الإقتصادى والسياسى أقل وزناً بالقياس إلى النفوذ الأمريكى أولاً ثم النفوذ الروسى، ما انفك صحيحاً أن الإرث الثقافى البريطانى يظل مستأسداً بين التأثيرات الغربية قاطبةً في السودان .

السـودان منـذ الإسـتقلال

بالرغم من أن سبعة وخمسين عاماً من الحكم البريطانى جلبت تقدماً تقنياً جباراً، فإنه يصح بأى حال مما كان أن التقدم في السودان أخفق في مواكبة التقدم في بقية أنحاء العالم. هكذا، بما يخالف العادة، وجد القطر نفسه في زمن الإستقلال أدنى درجة في النماء مقارنةً بما كان عليه منذ قرن سابق. لقد هبط تطوره ليس فقط بمعايير الأمم الصناعية الغربية، إنما بالمقارنة بالعديد من جيرانه الأفارقة على حد التكافؤ. إن الايرادات الخارجية لا ترتقى لما يزيد على ٥٠ مليون جنيهاً سنوياً، وقد استُخرجت في غالبها الأعم من تصدير القطن طويل التيلة، سلعةً واجهت سوقاً متضارباً ومستقبلاً غير جازم [٢٣]. تصل شبكة من البواخر وخطوط السكك الحديدية الخفيفة (متبنية من السكك الحديدية العسكرية أصلاً عام ١٨٩٨، وما فتئت تشغل أطوال الخطوط التى فضلها كتشنر)

عواصم المديريات الرئيسة، غير أنه لم تكن هنالك خطوط فرعية، ولم تكن الطرق الممهدة موجودة بإستثناء المديريات الجنوبية. يبقى ما يتعدى ثلث القطر وأهله دون وسائل للنقل الحديث وتسهيلات الإتصال. خارج المدن الرئيسة والمدن الصغرى لم تكن هناك بالفعل مدارس، ودنت الأمية في المقاطعات الريفية من ١٠٠ في المائة. إنَّ تنمية إحساس بالهُوية الوطنية والهدف القومي أحبطت معنوياتها بهمةٍ سياسة "التخويل" في العشرينات والثلاثينات من عام ١٩٢٠، عددا بين القلة المتعلمة، حيثما وُجهت رؤية قبلية أو محلية لتسود [٢٤]. كل هذه المشكلات غائمة، مع ذلك بالقياس إلى المشكلة المتواصلة والتى تبدو بلا حلٍ للجنوب غير المتمثل [لثقافة الشمال].

المديريات الثلاث لأعالي النيل، وبحر الغزال، والإستوائية إحتوت حوالى ربع مساحة السودان وسكانه زمن الإستقلال [٢٥]. خلاف بضع إستثناءات كان السكان وثنيين أو مسيحيين عنهم مسلمين، لا يتحدثون عربيةً ولهم قليل مشترك مع جيرانهم الشماليين. كما رأينا في الفصل الثامن عشر، كانت المديريات الجنوبية قد ضُمت إلى السودان في أواخر القرن التاسع عشر، خلال الأعمال المنافية للقانون من تجار الرق بصورة أقوى من أى سياسة حكومية مقصودة. وفى ظل المهدية رجعوا إلى وضعهم القديم من أجل كل الأغراض العملية للإستقلال، لكنهم أُعيد فتحهم مع بقية أنحاء البلاد في ١٨٩٨[٢٦].

سياسة البريطانيين تجاه السودانيين الجنوبيين في مواجهة الشماليين، عكست بكل دقة سياستهم تجاه الشماليين في مواجهة المصريين. بعد أن أعادوا فتح الجنوب بإسم سودانٍ موحد، أقاموا حماية للجنوبيين من السودانيين الشماليين. نتيجة لهذا، كانت المديريات الجنوبية تحكم منذ البداية تماماً كأنما كانت مستعمرة منفصلة. خلال الحقب الزمنية الأولى للحكم الثنائى حُرم دخول كل من المصريين والسودانيين المسلمين إلى الجنوب الوثنى؛ كان الجنوب يحكم بصفة مطلقة بضباط بريطانيين في مقاطعات وشرطة محلية، بعون جمعيات تبشرية متنوعة وتشجيعها وقد كان مأذوناً لها أن تدعو لإعتناق المسيحية في حرية بالمديريات الجنوبية. أخذت مدارس البعثات التبشيرية مكان مدارس الحكومة، و كانت الإنجليزية لغةً للتدريس. الجنوبيون القليلون الذي أكملوا مقررات المدرسة الثانوية كانوا يبعثون لتدريب إضافى في كلية ماكريرى في يوغندا بدلاً عن كلية غوردون، مثل السودانيين المسلمين من المديريات الشمالية [٢٧]. هكذا شيد حاجز من الدين واللغة على طول جانب الحواجز العرقية [٢٨] والثقافية المعاشة مسبقاً التى فصلت السودانيين شمالاً وجنوباً. كانت السياسة البريطانية، دونما شك مدفوعة بإعتبارات غيرية، لكنها لم تكن مصحوبةً بأى برنامج عملى لتنمية جنوب مستقل يكون قادراً على تنمية نفسه. لذا فإن أثرها النهائى كان من شأنه أن يجعل التكامل السياسى للشمال والجنوب غير مكفول، في نفس الوقت الذى ما من حلٍ سياسى أخر جرى التأمل فيه أبداً بجدية.

فى تاريخ لاحق مثل عام ١٩٤٤، كانت المديريات الجنوبية مستبعدة من التمثيل النيابي في المجلس الإستشارى للأعيان السودانيين الذى أنشئ في ذلك العام ليعين الحاكم العام [٢٩]. مع المد الصاعد سريعاً للوطنية، بصرف النظر عن ذلك، كان لزاماً على السلطات البريطانية بعد مضى الأوان، أن تواجه المشكلة فيما يجب أن تتخذه حول الجنوب. عُقد مؤتمر جوبا في ١٩٤٧، وأعطى فيه عدد من قادة القبائل الجنوبية تأييدهم لقاعدة الوحدة الوطنية [٣٠]. في العام التالى، عندما دُعيت أول جمعية تشريعية للإنعقاد معاً، شملت أعضاء جنوبيين للمرة الأولى. أدخل تدريس اللغة العربية في المدارس الأولية في الجنوب عام ١٩٥٠، وبعد ذلك الوقت صار الطلاب من المديريات الجنوبية يبعثون ليكملوا تعليمهم العالى في الخرطوم بدلاً من يوغندا [٣١].

كما آلت إليه الأمور، كانت الجهود البريطانية نحو تكامل السودان في جنوبه ضئيلة ومتأخرة للغاية. ما كانت كتلة الجنوبيين بعد على استعداد لتقبل حكم العرب في مكان البريطانيين عندما

أصبح ظاهراً، في ١٩٥٥، أن إستقلالاً كاملاً لم يكن بعيد الحدوث. في أغسطس ١٩٥٥ تمردت الفرقة الإستوائية للجيش السوداني، متوقعة إستلام دعم بريطاني صوب إنشاء جنوب مستقل عن السودان. ما كان الدعم المتوقع قادماً؛ أمر المتمردون من الحاكم العام بأن يلقوا أسلحتهم، وفعلوا ذلك بعد مقاومة قصيرة في إختصار. في هذه الأثناء، مع ذلك إنتشر العصيان المسلح في الأحراش، حيث تصاعد دخانه في مستويات منتظمة على اختلاف ثم التهبت نيرانه مُذاك [٣٢].

صواباً أم خطأ، إعتبرت الجمعيات التبشيرية مصدراً دائماً للفرقة والعداوة في جنوب السودان من ناحية الحكومة الوطنية. فكان واحداً من أول إجراءات الحكومة السودانية المستقلة حديثاً أن تستولى من المبشرين على سير عمليات كل المدارس في الجنوب، وأن تدخل العربية على أنها لغة التدريس العامة. هذا التحرك أخرج إضطرابا إضافياً، أجّجه (طبقاً لحكومة الخرطوم) المبشرون أنفسهم. وبعد سنوات عديدة من الصعوبات المتزايدة واختلال الحياة المدنية، كان المبشرون الأجانب عام ١٩٦٤ مبعدين تماماً من مديريات أعالي النيل، وبحر الغزال، والإستوائية. إندلع عصيان مسلح علناً بصورة عامة يكاد من فوره، وكان خشناً على وجه الدقة في الأعوام ١٩٦٥ – ١٩٦٨ [٣٣].

منذ ١٩٥٦، وعدت كل الحكومات المتعاقبة التى جاءت إلي السلطة في الخرطوم (أنظر أدناه)، من بين أشياء أخرى، بحل للمشكلة الجنوبية. إلا أنه حتى الآن ما من أحدٍ ظل راغباً ليكفل ذاتية فدرالية أو إستقلالاً تاماً بناء على الشروط، التي يطلبها القادة الجنوبيون الأشد تطرفاً. نتاجاً لذلك، ما انفكت فترة من السكينة والتفاوض تتبع دائماً عقب إنشاء كل نظام وطنى جديد باستئناف للعداوة في الجنوب عاجلاً أم آجلاً [٣٤]. إن إتفاقية تمنح تدابير مقدرة من الحكم الذاتى للمديريات الجنوبية وُقع عليها رغم ذلك في مايو ١٩٧٢.

لا غرو، أن العدد الكبير من المشاكل التى ورثتها حكومة السودان من سابقتها الإستعمارية أسهم في خلق حالة من عدم الثبات السياسى في الشمال علاوةً على الجنوب. بقيت الحكومة البرلمانية الديمقراطية، التى خطت أولى خطواتها سنة ١٩٥٦ لأقل من ثلاث سنوات، تواترت خلالها أحلاف مراجعة بإستمرار لشيع وولاءاتٍ في الشمال. وفى نوفمبر ١٩٥٨ أُطيح بالنظام البرلمانى من طغمة عسكرية رأسها الفريق إبراهيم عبود، ولسبع سنين قادمة كان السودان محكوماً بمجلس عسكرى أعلى. أستعيدت الحكومة البرلمانية بعد إنتفاضة شعبية في ١٩٦٤، لكن النظام الجديد برهن على أنه غير مستقر مثلما كانت الحكومة المستقلة الأولى من قبل، ومرة ثانية توالت نقلاتٍ لا نهائية للقوة والمركز، تولى فيها الحزب الشيوعى السودانى لأول مرة دوراً نشطاً. في مايو ١٩٦٩، أمسكت بالسلطة طغمة عسكرية أخرى، وعطلت المؤسسات البرلمانية شوطاً ثانيا. أتاحت الأنظمة العسكرية، بصفة عامة، إستقراراً ووجهة أكثر مما حققته الأنظمة الديمقراطية، بيد أنه ما من أحدٍ منهما كان خالياً بوجه كلى من الإنشقاق والمحاولات الإنقلابية.

تنافسات القوى الكبيرة لا ريب أنها لعبت دورها في إستدامة الإضطراب السياسى في السودان. في عهد الإستقلال كانت الحكومة قد أعلنت سياسة للحيدة الصارمة في الشؤون الدولية، لكنها رغماً من ذلك إنزلقت بلا وعى وبما لا محيص منه إلى ساحة سياسات الحرب الباردة. إن منحة من العون الأمريكى الكاسح خلقت إنقساماً سياسياً حاداً بين البلاد في عام ١٩٥٨، وكانت أحد العوامل التى أسهمت في سقوط الحكومة البرلمانية الأولى [٣٥]. صُدِق على اتفاقية العون بلا تأخير، ومع أن الحكومة الديمقراطية سقطت بعد وقت قصير من ذلك، فإن النظام العسكري الذى خلفها صار واحداً من أكبر متلقى العون الأمريكى في إفريقيا. حتماً، أصبح نظام عبود معرّفاً في العقل الشعبى بالمصالح السياسية والإقتصادية الأمريكية. لذا، رجعت الحكومة المدنية التى بلغت السلطة عقب الإطاحة بعبود في ١٩٦٤ إلى مواقع أقوى حيدةً في حزم، وحُجّم النفوذ الأمريكى بشدة. حرب السويس عام ١٩٦٧ جاءت بقَطْعة كاملة للعلاقات مع الولايات المتحدة، وانعطف السودان، مع بقية

الأمم العربية، للكتلة الشيوعية لعونها الدولى الأكبر. بين ١٩٦٧ و١٩٧٠ أنشئت علاقات دبلوماسية مع معظم الأمم الشيوعية، وملأ الفنيون الروس والعون الفنى الروسى الفراغ الذى كان قد أحدثه غياب الأمريكيين. خلال نفس الفترة، رغماً عن ذلك، واصلت الشيعة الموالية للمصريين تقبلها للدعم والتشجيع من القاهرة، وأدى إلى صعوبات وإنقسامات سياسية متزايدة. وعندما أعلنت الحكومة العسكرية سياسة للإتحاد الوطنى مع مصر، في ١٩٧٠، إندلعت محاولة لإنقلاب عسكرى إعتُقد أن الروس كانت لهم يد فيها. تحصيلاً لذلك إضمحل النفوذ الروسى بدوره في حدٍ أثناء الماضى القريب.

إندثار النوبيين السودانيين

النوبيون والسودانيون من سلف نوبى لعبوا دوراً نشطاً وأحياناً قيادياً في تطوير الأمة السودانية الحديثة. كما شاهدنا في الفصل السابع عشر، بدأ دخول الإسلام الإستيعاب التدريجى للنوبيين إلى باطن مجتمع سودانى جامع في العصور الوسطى إبان مراحلها المتأخرة. ومع بداية القرن العشرين لربما أن نصف الناطقين في مرة بالنوبية فقدوا أنفاً لغتهم القديمة وكل ذكرى لورثتهم الثقافية المنفصلة، بالغين حداً من التفكير عن انفسهم كعربٍ ببساطة. هذه العملية من التمثل العرقى ضاعفت منها على الإجمال أحداث القرن العشرين. أسهمت أربعة جوانب على الأقل من الحكم الإستعمارى البريطانى في إنهيار الحواجز الثقافية في السودان:

١ - زاد النقل والمواصلات المتحسنة من مساحة التلامس العرقى/ الثقافى - الداخلى، بتسهيل حركة الناس في نطاق السودان ومابين السودان ومصر على السواء. نتاجاً واحداً، زاد حجم هجرة العمل النوبى (قارن الفصل السابع عشر) بضخامةٍ في القرن العشرين. الغالبية العظمى من المهاجرين، كما في الماضى، ذكوراً مفردين، يعود معظمهم آخر المطاف إلى أرض أجدادهم وعائلاتهم. تواترت رغم ذلك هجرة معتبرة لعائلات بأكملها إلى الخرطوم وأم درمان: متى استوطنوا، يُبتلع القادمون الجدد في مجتمع الحضر السودانى الجامع [٣٦].

٢ - تطور نظام تعليمى للدولة، بدئ تحت الحكم الثنائى وتوسع بمقدار معتبر منذ الإستقلال، رحب به النوبيون على وجه الخصوص، بتقليدهم الطويل في إحترام التعلم والكتابة. منذ الخمسينات من عام ١٩٥٠. توجد مدارس أولية تديرها الدولة ليس في مدن النوبة وحدها إنما في أغلب القرى الكبيرة، وقد بُلغ أن نسبة الأطفال الذين يذهبون للمدرسة بالفعل كانت أعلى منها بأى جزء آخر من القطر. لأول مرة تدرس اللغة العربية بانتظام منهجى تحت رعاية الدولة ما للأولاد وحدهم ولكن للبنات بالمثل - تحديثاً جذرياً للتعليم السودانى ورُبما يُحدث مفعولاً زائداً ليزيل الإنفصالية اللغوية للنوبة أقوى من أى تطور آخر في القرن العشرين [٣٧].

٣ - خلق إدارة ديوانية وطنية مبتدأة للمرة الثانية تحت الحكم الإستعمارى وموسعة بدرجة كبيرة منذ الإستقلال،مكّن النوبيين من صنع إستخدام فاعل للتعليم الذى كان قد منح لهم في مدارس الدولة. في الخمسينات من عام ١٩٥٠ قدر أن ٤٠ في المائة من موظفى الخدمة العامة في السودان كانوا من سلف نوبى [٣٨]. ما جرى توظيفهم بمناطقهم الأصلية وحدها لكن في كل مديرية بالبلاد، وفى أعداد غفيرة في العاصمة. كثيرون كانو برفقة عائلاتهم. غير محتمل أن غالبية هولاء الأفراد ستؤوب إلى محافظتها القديمة أبداً؛ لقد توقفوا عن أن يكونوا نوبيين لكل الأغراض العملية والتحقوا بمراتب صفوة السودان الحضرية على صغرها ولو أنها متنامية.

٤ - الأيدولوجية الوطنية، التى نهضت في باكورة القرن العشرين بصورة رئيسة وسط طبقة المثقفين بتعليم الغرب وموظفى الخدمة العامة، أصابت النوبيين مقدار ما ألحقت بأى أناس في

السودان. وكرد فعلٍ على الوصاية الأبوية والقبلية التى رعت نموهما سياسة "التخويل" البريطانية، فإنها ترمى إلى تعويض الخصائص العرقية الإنفصالية التى تعلق بها تقليدياً النوبيون وكثيرٌ من الأقوام السودانية الأخرى بإحساسٍ من الهوية الوطنية. معيار لإنشغال النوبيين الراهن بالشؤون والحركات الوطنية يمكن العثور عليه في حقيقة أن معظم مجالس الوزراء السودانية منذ الإستقلال إحتوت أعضاء نوبيين، وكان رئيس الوزراء الثانى للسودان المستقل نوبياً.

النوبيون في مصر

ثبتت إتفاقية الحكم الثنائى سنة ١٨٩٩ الحدود بين مصر والسودان على خط الطول إثنين وعشرين درجة شمالاً، بضعة أميال في إتجاه النهر نحو مصبه من الشلال الثانى. مرة أخرى، كما كان دائماً في الماضى، وجد النوبيون في النوبة السُفلى أنفسهم تحت حكم مصرى مباشر مفصولين سياسياً من بنى جلدتهم إلى الجنوب. هذا التقسيم الإعتباطى، الذى لا يزال متشبثاً بالبقاء إلى اليوم الحاضر، لا يتسق مع أى تقسيم عرقى في دائرة السكان النوبيين: بدلاً من ذلك، يجزئ الجماعة الناطقة بالمحسية بالتساوى بين مصر والسودان بشكلٍ غير محدد. إن علائق لصيقة من الثقافة، واللغة، والعائلة تواصل توحيدها الناس في شمال الحدود وجنوبها، وحتى وقت الإخلاء في ١٩٦٤ (أنظر بأدناه) إستمر التزوار جيئة وذهاباً بينهما. جانباً عن ذلك، أثّر تهجير ١٨٩٩ ولا مناص في المصائر السياسية والإجتماعية للنوبيين المصريين والسودانيين بشكل مختلف. الجماعة الشمالية ـ التى تشمل حوالى ربع واحد من جملة السكان الناطقين بالنوبة في ١٩٦٤ ـ ما كانت خاضعةً لأى من التطورات الإستعمارية أو الوطنية التى وصفت في صفحات سالفة من هذا الفصل، ولا مرّت بنفْس عملية التمثل العرقى كما جرى للنوبيين الشماليين.

مع أنهم مواطنون مصريون إسمياً، خضع النوبيون الشماليون خلال أغلب فترة القرن العشرين لإستعمار من نوع خاص، ليس منبعثا من الخرطوم إنما من القاهرة. في مصر فؤاد وفاروق لم تكن هنالك حكُومة ذاتية محلية أعلى من مستوى القرية: المقاطعات والمحافظات كانت محكومة، كما السودان، من موظفين معينين للدولة ومساءلين للحكومة الوطنية وحدها. ما كان حتى عام ١٩٦٠ أن تدبيراً من الحكم الذاتى منح للمحافظات المصرية، رغم أن الحكام لا يزال تعيينهم يتم من القاهرة [٣٩]. طوال القرن العشرين كانت النوبة المصرية بأجمعها قد أدخلت ضمن محافظة أسوان، التى تشمل كذلك مساحةً معتبرة مأهولة إلى الشمال من الشلال الأول وسكانها غير نوبيين [٤٠]. حصاداً لذلك وجد النوبيون المصريين أنفسهم جماعةً أقلية حتى بين ظهرانى محافظتهم الأصلية [٤١].

بالرغم من أن النوبيين الذين هاجروا إلى الاسكندرية والقاهرة يشكلون عنصراً هاماً في سكان الحضر المصريين [٤٢]، ظل النوبيون الريفيون الذين مكثوا بين إقليمهم القديم أناساً متجَاهلين ومستغَلين خلال معظم القرن الحاضر، مثلما كانوا في أزمان سابقة. ومن أجل إنتاجية زراعية مضاعفة في الشمال دُمرت بلادهم قطعة فقطعة بالخزانات المتعاقبة في أسوان دونما أى جهد لكسب رضائهم. بذلت بعض محاولة لتعويض المقيمين عن فقدان مزارعهم وحدائق نخيلهم، ولخلق مصادر جديدة من المعيشة بين النوبة، لكن تنمية تسهيلات الحكومة وخدماتها إلى جنوب أسوان لم تواكب أبداً التنمية الجارية في بقية أنحاء القطر [٤٣]. في بعض الجوانب يمكن أن تقارن مكانة النوبة المصرية في القرن العشرين "بإحتياطى الأهالى" في إفريقيا الجنوبية: كانت متروكة بقدر الإمكان لوسائلها الذاتية، ينظر إليها حكامها المستعمرون في الغالب الأعم كمخزون إحتياطى للعمل المهاجر. تحت كاهل هذه الظروف لا يدعو للدهشة أن مؤسسات الحكم القبلية بقيت على قيد الحياة غير ممسوسة بالتقريب وسط النوبيين عما هى عليه بين جيرتهم المصرية [٤٤].

النوبيون في مصر، خلاف أقربائهم في السودان، أقلية شُلالية إضافية إلى أنها أقلية عرقية، تختلف بشكل مرئى في مظهرها عن الأغلبية القوقازية. لآلاف السنين كان "النوبى" و "العبد" مترادفين فعلياً في العقل المصرى [٤٥]. هذا الدمغ أذيب بلا شك لمدى معتبر في العصر الحديث [٤٦] ويتمتع النوبيون الآن بحراك إجتماعى وإقتصادى مقدر في إطار المجتمع المصرى الحضرى [٤٧]. إنهم، مع ذلك، لم يتمثلوا في جوف الأغلبية السكانية كما هم في السودان. وسواء جاءت هذه الحالة ناتجة عن بقاء الدمغ الموروث [٤٨]، أو أنها ترجع إلى الإنفصالية العرقية للنوبيين أنفسهم [٤٩]، فذلك من مواضع الجدل. جدير بالذكر أن السودان في تعبير أوسع عمومية، وكيفما جرى الأمر، كان وما انفك إناءاً للصهر، ذا تاريخ طويل من تمثل أقوام الأقليات، بينما العكس في مصر صحيح: الفوارق العرقية والدينية إنعطفت نحو التشبث بالبقاء من فوق فترات طويلة للغاية من الزمان لأى سببٍ كان، ما لعب النوبيون دوراً هاماً في الحياة الوطنية لمصر منذ زمن تهارقا، وما تمثُّلهم بجارٍ بطريقة ظاهرة في بوتقة أغلبية السكان.

برنامـــج التهجيـــر

ليس هناك جانب من حضارة القرن العشرين كان له أثَر أقرب مباشرة وفورية على النوبيين من تعاقب الخزانات التى توالى بناؤها في أسوان. بالرغم من أنها شيدت تحت رعاية مصرية (وفى وقت متأخر، روسية) فإن التصور الأصلى لخزانات أسوان كان بريطانيا [٥٠]، وآثارها الإجتماعية والسياسية لابد أنها في المدى الطويل تُحتوى في اطار تراث الحكم البريطانى للنيل. لفترة تعلو السبعين عاماً دُمر أو جُعل غير صالح للحياة السكنية حوالى ٦٠ في المائة من إقليم النوبة [٥١]، وألزم حوالى نصف الناس الناطقين بالنوبية من الباقين على قيد الحياة بإيجاد مساكن جديدة ما بين موطن ديارهم التقليدية أو خارجها. إنه لمما يدعو للريبة ما إذا كان أى من الفيضانات التى غشيت النوبيين في أزمان أولى يمكن مقارنته بما لحق بمجتمعهم وإقتصادهم من تدمير.

بُنى الخزان الأولى في أسوان عام ١٨٩٨، تابعاً بصورة مباشرة لحملة إعادة الفتح في السودان. مع هذا ، فإنه حتى مضى قرن لاحق. عندما أجرى توسيع الهيكل الأصلى، لم يزحزح إقتصاد النوبة ومجتمعها بشكل خطير بالمياه المحجوزة. كذلك كانت آثار التوسيع الثانى، الذى أكمل في ١٩٣٤، أعنف خطورة فقد احتجز الماء إلى مسافة التخوم السودانية وغمر معظم حدائق النخيل التجارية إضافة إلى أفضل المقاطعات المزروعة رخاءاً في النوبة السُفلى.

مع مراعاة نقلات السكان الكبرى التى جُعلت ضرورية بالغمرتين الإثنتين الأولين للنوبة السُفلى، ما أُنشئ مشروع مخطط في نظام للتهجير خارج المنطقة وإعادة التوطين [بمكانٍ آخر] في نفس الوقت. شجعت الحكومة المصرية النوبيين بأقصى ما في حوقها ليبقوا في نطاق مرتعهم الأصلى؛ نُصبت مشاريع رى جديدة لتجذب للفلاحة الأراضى الواقعة على طول هامش الخزان. علاوةً على ذلك كان السهل المغمور من قدم بالفيضانات قابلاً للفلاحة أثناء فترة منتصف الصيف القصيرة عندما يفرغ خزان أسوان (انظر الفصل الثانى). تحت هذه الظروف إختارت أغلبية النوبيين المصريين أن تعيد بناء قراها على طول شواطئ الخزان الجديد، أما في ضاحية أراضيهم السابقة أو بالقرب من مشاريع الرى [٥٢].

بالرغم من محاولات الحكومة لتخفيف عناء النوبيين، فإن الغمرات الفيضانية خلال عامى ١٩١٢ و١٩٣٤ خفضت بقدر عظيم القابلية الإنتاجية لبلادهم ونتجت عنها نقلات ديمغرافية ذات اعتبار. كانت هنالك بعض هجرة فيما بين النوبة، إلى المنطقة التى تقع مباشرة أسفل الشلال الثانى والتى لم تكن متأثرة بالغمرات الأولى. بهذه الطريقة وجدت مستوطنات النوبيين الكنوز دياراً جديدة وسط المحس،

في كل من النوبة المصرية والسودانية. أضف إلى هذا أن عدداً كبيراً من العائلات هاجر بأسلوب دائم إلى مدن مصر السُفلى (٥٣)، بينما في حالات قليلة حاولت عائلات نوبية مهاجرة أن تؤسس قرى زراعية جديدة على أراض قاموا بشرائها إلى شمال أسوان (٥٤). أياً كان ذلك، فإن أعلى أثر ديمغرافي يعادل أهمية الغمرات الأولى وقيمتها إلى مدىً بعيد كان زيادة هائلة في حجم هجرة العمال الذكور(٥٥). من حوالى ١٩١٠ حتى تدميرها النهائي في الستينات من عام ١٩٦٠ كانت قرى النوبة المصرية مأهولة بالنساء، والأطفال، والشيوخ بشكل رئيس؛ الغالبية العظمى من الرجال القادرين كانوا لجبرة الظروف مضطرين للبحث عن حياة في أجزاء أخرى من القطر (٥٦). إن أرقام التعداد لرقعة النوبة المتحدثة بالكنزية تعكس نسبة للجنس بما يتعدى امرأتين لكل رجل واحد طوال الفترة من ١٩٢٠ وما تلاها (٥٧).

دمر السد العالى نهائياً كل سعة إنتاجية تُركت من الغمرات السابقة للنوبة المصرية. في هذه اللحظة ما خطرت فكرة للسماح للسكان بالإقامة بين أرض أسلافهم؛ ٤٨,٠٠٠ إنسان ظلوا على ظهر الحياة عقب الغمرات الأوائل أعيد توطينهم جمعاً على أرض مستصلحة جديدة إلى شمال أسوان. وبالرغم من أن الأرض التى منحت لهم كانت قابلة لأن تكون أكثر إنتاجية من الأرض التى أخلوها آنفاً، رأى النوبيون في وضع مفهوم تجريد ملكياتهم النهائى من موطنهم بالقلق والإستياء. فرنيا وكنيدى، اللذين درسا عملية التسكين وآثارها الإجتماعية، كتبا في عام ١٩٦٦ أنه:

مواجهين بضرورة التخلى التام عن موطنهم، كانت سلوكيات النوبيين نوعاً ما متغايرة. لقد بينوا دائماً أن ارضهم الأصلية كانت "مباركة". إعتبروا المناخ، والأرض، والماء أرفع قيمة مما وجدوا بأى مكان آخر في وادى النيل، واعتقدوا أن قراهم، التى كانت حرة نسبياً من التدخل الخارجى، تملك أعلى مستويات للحياة المسالمة، والطهر، والأمانة، والأمان الشخصى في مصر. من الناحية الأخرى كانوا على وعى تام بالمساوئ المادية والإجتماعية التى نتجت عن عزلتهم وضجروا من عدم قدرتهم على المشاركة الكاملة في التغييرات الثورية التى تأخذ مكاناً في أمكنة أخرى في مصر. في حين وضح أن أغلب النوبيين يتقاسمون هذا التغاير إلى درجة ما، كان السلوك نحو إعادة التوطين متفاوتاً. كما قد يتوقع، كان الناس الذين تمتعوا بأشد أمنٍ إقتصادى أقل حماساً نحو التحرك؛ وبين هؤلاء قلة من المزارعين الموسرين إضافة إلى أصحاب حوانيت، وملاك مراكب، وموظفى الحكومة(٥٨).

عملية تهجير النوبيين المصريين أجريت بين أكتوبر ١٩٦٣ ومايو ١٩٦٤. كان الإخلاء قد وُصف على النحو التالى من الصحفى توم ليتل:

إخلاء النوبة المصرية كان [نسبياً] عملاً منظماً لأن مخططى الجمهورية العربية المتحدة، الذين افترضوا منذ البداية أن السد العالى سوف يُبنى وفقاً للجدول الزمنى المحدد ولم يبددوا وقتاً يمدون الفكر حوله، بدأوا عملهم في ١٩٦١. إختاروا موقع التوطين هلالاً من الأرض حوالى أربعين ميلاً في الطول على حدود النيل في منطقة كوم أومبو، التى تبلغ تقريباً خمساً وثلاثين ميلاً شمال أسوان. ما كان هناك كلام لا معنى له حول إستشارة النوبيين في الأمر ؛ إنه فقط عندما أعدت العملية بتفصيل عظيم دُعى أهل القرى ليناقشوا تصميم المساكن التى سيجرى بناؤها ولكيما يعاينوا إن كان هناك شئ أمضى من ذلك يمكن عمله ليقابل رغباتهم في حدود الإطار العام للخطة. كان الرسم التخطيطى للمساكن على النمط المستعمل في النوبة، كل دار لها مبان محاطة بأسوار عالية، يجعل جانباً واحداً منها للوصول إلى الغرف عبر أبواب منفصلة. وواحد منها بُنى كنمط للنوبيين ليختبروه. ما كان متطلباً سوى تعديلات بسيطة ليكون مناسباً لحاجاتهم.

منطقة التهجير سُمِيّت النوبة الجديدة وأُعطيت كل ثلاثة وثلاثين قرية إسم القرية القديمة التى سيأتى منها شاغلوها، مع إضافة صفة "جديدة" إليها. وانشئت القرى كذلك بنفس الترتيب كما كان الحال في النوبة، حتى تكون دابود الجديدة في الشمال الأقصى للهلال وفريج الجديدة في الجنوب

البعيد، بالضبط كما كانت فريج القديمة بالقرب من تخوم السودان.. بهذه الطريقة كانت العلاقات بين قرية وأخرى إضافة إلى تجمعات العائلات في القرى محفوظة. وفي بعض الأحيان كانت أقوى من ذلك بتلاصق كل قرية جديدة مع جيرانها.

شُيدت المنازل من حجر، دونما أي خشب بالسقوف حتى لا يخربها نمل الأرضة وحشرات أخرى، وبذا صارت أصلب تحملاً من بنايات اللّبن التي حلت محلها. تتكون من وحدات لغرفة واحدة إلى أربع غرف، كل واحدة في حمى دارها بنيت على الطراز النوبي، مواجهة للشمال لتتلقى النسيم البارد. ما كان ممكناً دائماً أن تجعل منازل الأقرباء في تلاصق حميم مع بعضها بعضاً لكن جهداً بذل لإجراء ذلك لأقصى حد ممكن. إقتلعت الحكومة أشجار النخيل وأعادت غرسها في الموقع الجديد كيما تحفظ بعض القيمة الإقتصادية من المساحة القديمة ولكيما تُضفي جواً من النضج على الجديد. لكنها كانت بالضرورة قرى المخططين، حيث كان أقصى إستعمال وأوفره قد تم بعناية فائقة منذ البداية للفضاء المتاح ذي الأهمية العظمى، والنتيجة النهائية ... تنظيم هندسي، ما كان رغم كل الجهود، يحمل تمثيلاً ظاهراً للنوبة.

كان المخططون، وقد بدأوا بصحراء عذراء قادرين على توفير خدمات لا تزال كثرة من القرى تفتقدها في مصر وكأنما افتقدها النوبيون كلية في وطنهم. زودت كل قرية بمدرسة أولية ووحدة للصحة العامة، وبيت ضيافتها، وسوقاً ومخبزاً، وميداناً للرياضة ومسجداً. أما الماء فمسير بأنابيب للقرى ووصلتهم الطرق بالدروب الرئيسة. هنالك، زيادة على ذلك، خدمات إقليمية موجهة من الرئاسة الإدارية للنوبة الجديدة، المعروفة بمدينة ناصر، شاملة لأربعة مراكز ريفية متعددة من النوع المائل في أماكن أخرى بمصر (فيها تدريب زراعي وفني، وإشراف صحي وخدمات ريفية أخرى موفرة تحت سقف واحد)، ومستشفى مركزية، ومدارس ثانوية ولتدريب المعلمين، ومراكز للشرطة. تعدت تكلفة تشييد النوبة الجديدة ١٣ مليوناً من الجنيهات المصرية بقليل ... [٥٩].

إشكال لم تضع حساباً له السلطات المصرية بشكل كافٍ كان تحطيم تجمعات القرابة الوروثة في عملية التهجير. ننقل للمرة الثانية من فرنيا وكنيدي:

كانت الجيرة في النوبة القديمة تتكون قسماً كبيراً من تجمعات طبيعية للقرابة الوثيقة. في النوبة الجديدة تجاهل تخصيص المساكن الجماعات الإجتماعية والقرابية الكائنة وكان مؤسساً فحسب على حجم وحدة الأسرة المقيمة الواردة في تعداد ١٩٦١. شيدت أربعة أحجام من المساكن الجديدة، ولتسهيل التشييد، جمعت المساكن من نفس الحجم مع بعضها بعضاً. تجمعات العائلات حسب الحجم لم تسبب إنهيار الجيرة والقرى القديمة بين كل مقاطعة فحسب لكنه كذلك عزل معظم الأعضاء القدامى للمجتمع. الأرامل أو الأزواج المسنين الذين امتلك أبناؤهم مساكنهم الخاصة خصص لهم قسم المنازل الصغيرة للمجتمع الجديد. هكذا صعب دائماً لأقاربهم الصغار، الذين يعيشون في قسم المنازل الكبيرة، أن يقوموا بتقديم المساعدة المستحقة للكبار عُرفياً. لا يزال هذا سبباً للجأر بالشكوى مع أنه، بالرغم من لوائح الحكومة التي تمنع بيع المنازل ونقل ملكيتها، أجريت الموازنات لإحضار الأقارب إلى بعضهم البعض في بعض الأماكن [٦٠].

لا جرم، أن العام الأول في محيطهم الجديد كان عاماً شاقاً للنوبيين المصريين. لم تكمل كل التسهيلات الموعودة في القرى الجديدة عندما تحرك إليها أول السكان، وشريحة لا غير من الأرض التي حددت لإستعمال النوبيين هي التي وُضعت تحت الري. التنمية الزراعية التامة لمقاطعة كوم أمبو كانت بالضرورة ملزمة بالإنتظار لإكمال السد العالي نفسه. في الوقت نفسه نفق عدد غفير من الحيوانات الأليفة التي استجلبت من المنطقة المغمورة لإنعدام العلف. تهجير النوبيين مصحوباً بتدفق ضخم للسكان الذين حضروا بناء السد العالي أثقل الإقتصاد المنتج لمصر الجنوبية وأدى إلى ارتفاع خاطف السرعة في الأسعار مما هدد بنفاذ مال التعويضات الذي دفع من قبل للنوبيين قبل أن يكون بإستطاعتهم النهوض على أقدامهم إقتصادياً. أخيراً، في الحالة المزاجية القلقة والغاضبة التي

شخصت الأشهر الأولى لتوطينهم تظلم النوبيون من كل شئ تقريباً في بيئتهم الجديدة التى افترقت من البيئة التى اعتادوا عليها [٦١].

بعد عام بدأ أن الصورة تتغير. وطَّن النوبيون المصريون أنفسهم بطاقتهم الحيوية في إمتلائها المعهود ليحققوا أفضل ما يمكن إنجازه لحالتهم الجديدة، معيدين حيثما كان ملائماً أحوال حياتهم الآنفة. واحد من همومهم الأولى كان تحويل مساكنهم الجديدة المنمطة على أساس إنتاج جمعى إلى شئ أوضح تعبيراً عن فردياتهم، على ما كان عليه البيت النوبى في الماضى تقليدياً. ونحو ما تمعن فرنيا وكنيدى:

وسط أظهر تحولات بادية للعيان مما حاكه النوبيون في مشروع التوطين الجديد [نسجل] ما وقع في مظهر المساكن جماعية الصنع وتركيبها بنفس القدر. قلما تكون في النوبة الجديدة جيرة بها بعض منازل لم تُغَير بشكل جذرى من خلال وضع صحون الصينى من فوق الأبواب، كما في النوبة القديمة، ودهن الخارج بالطين لخلق واجهة يمكن أن ترسم فوقها رسوم نوبية تقليدية. المصطبات المرتفعة، والمرتفعات الطينية في إنخفاض وقد كانت جارية على طول الجانب الأمامى لكل المساكن النوبية القديمة، أضيفت كذلك من آناس عديدين ممارسة تتكرر، يضع رجل مقياساً عاماً وسرعان ما يحذو حذوه ملاك البيوت الأخرى على امتداد نفس الشارع.

إن تغييرات هيكلية داخلية أقل ملاحظة لكنها أعلى تكلفة صُممت لتفصل أحياء سكن الإنسان من الحيوان لتزيد المساحة المسوَّرة، وتنظم مساحة المعيشة بفعالية ومتعة أعظم. مهم بصورة متفردة للنوبيين أن يوسع الفضاء لإراحة الضيوف [٦٢].

الحياة الإحتفالية الغنية للنوبة القديمة، بتأكيدها على الزيجات، والجنائز، والموالد (الإحتفالات بيوم الولى)[٦٣]، نقلت إلى داخل المستوطنات الجديدة، حيث تمخضت عنها إشكالات إجتماعية ومالية غير متوقعة. لننقل مرة إضافية من المصادر ذاتها:

فى النوبة الجديدة، بمسافة لم تعد حاجزاً، زاد المألوف الثقافى لحضور إجتماعى ـ عريض زيادة واسعة من حجم المناسبات الإحتفالية. إن الحدود الإجتماعية في نطاق المستوطنة لا تزال كذلك في عملية من التحديد، على أنه بسبب سهولة التنقل ووقت الفراغ الزائد، لم تعد المشاركة حتى من أشخاص يعيشون أميالاً من المناسبة أمراً غير عادى. لقد وضعت محاولة الوفاء بتطلبات الضيافة التقليدية مصحوبةً بهذه الأنشطة حملاً مالياً يكاد أن يكون مستحيلاً على المضيفين. أضف إلى هذا أنها خلقت مشكلات لاحقة. إنه لشئ واحد أن تقدم الشاى لـ ٢٠ أو ٣٠ شخصاً لكنه شئ مختلف للغاية أن تقدم منعشات لمئات الأشخاص [٦٤].

جرت إستجابة النوبيين لهذه المشكلة بتخفيض تعقيد الإحتفالات حجما ودرجة، علاوةً على عدد المناسبات الإحتفالية. هكذا أصبح من المقرر رسمياً أن إحتفال *الموالد* إلزام على مستوى المجتمع العريض بدلاً من أن يكون واحداً عادياً، بالإضافة إلى ذلك قيد عدد الموالد إلى واحد في العام لكل مجتمع [٦٥]. هذا التطور الأخير جزء من نمط عام للتغيير الإجتماعى صارت فيه الإلتزامات التى تقوم على الإقامة تدريجياً صاحبة السبق على الإلزامات المؤسسة على القرابة ـ ملمحاً شائعاً ومتوقع الحدوث في عملية التحضر [٦٦].

تهجير النوبيين المصريين ولد إشكالات إجتماعية أخرى لم تعالج معالجة كاملة بعد. بالنسبة للرجال، وبقدر اكبر للنساء، تشمل الحياة في النوبة الجديدة زيادةً غير منتظرة في وقت الفراغ، الذى لم يوجد له بعد مخرجاً هادفاً. ما عاد بها أى عدد من الحيوانات ورقع الحدائق لتحفظ فيها، والإمداد البسيط للماء المستهلك للمعيشة، الذى كان ذات مرة عملاً يومياً رتيباً بصفة رئيسة للنسوة النوبية، يتدبر الآن بعطف قفل لا غير. إن هذه الظروف هي التى قادت إلى الزيادة المذكورة سالفاً في حضور المناسبات الإحتفالية، ومثل ذلك زيادة في معاودة الشرب والسلوك غير اللائق وسط الرجال اليافعين[٦٧].

لقد كان توقع الحكومة المصرية أن النوبيين الذين أُعيد توطينهم سوف يتحولون في نهاية الأمر إلى مزارعين للسكر التجاري، مكرسين على الأقل ٤٠ في المائة من أرضهم لإنتاج قصب السكر للمصانع في كوم أمبو [٦٨]. رغم ذلك، فإن النوبيين ليس لهم تقليد في الفلاحة النقدية المكثفة، وقد أبانوا حتى هذا المدى ميلاً قليلاً لشغل الفتحة الإقتصادية التى خصصت لهم. قام العديدون منهم بتأجير أرضهم الجديدة على أساس مقاسمة المحصول لجيرانهم *الفلاحين* المصريين واستأنفوا نمط العمل المهاجر للكسب الذى كان صفة دالة على أزمان قديمة.

عن المستقبل المحتمل للنوبيين المصريين، تكتب فرنيا وكنيدى :

إذا كان النوبيون سيبقون بما يتعدى الإسم فإنهم يجب أن يسرمدوا القيم والأعراف الأساسية التى تشكل أرضية ذلك الجزء من الثقافة النوبية الفريدة. هذه القيم والموروثات العمادية هى نتاج لحياة القرية، مهما كانت معدلة بمعدل عالٍ بسبب تجارب المهاجرين الحضرية. بصفاء، ما عادت النوبة الجديدة مجموعة من القرى لكنها في تلاصق وثيق تشبه ضاحية كبيرة شبه حضرية في تجانس. فهل تستطيع قيم القرى أن تصمد تحت وطأة ظروف كهذه؟ يبدو ذلك غير محتمل. إلا أننا رأينا أن الخطوات الأولية قد اتخذت مسبقاً ليعاد دمج الإحتفالات والأنشطة الأخرى على أساس ترتيبات سكنية جديدة بدلاً عن وحدات القرية والقرابات القديمة. القيم الريفية التقليدية ربما أمكن الحفاظ عليها فقط إذا أضحت الجيرة الجديدة هى المعادلات الوظيفية للقرى القديمة. مع ذلك، فإن التشابهات المقارنة بين هذا الموقف وعمليات التحضر العامة تقودنا إلى افتراض أن القيم والعادات القديمة، لابد أن تفسح الطريق وأن نوعا ما من الحل المتوافق سوف يبرز إلى الوجود [٦٩].

تهجير النوبيين في السودان

على خلاف مشروعات خزان أسوان السابقة، أصاب السد العالى السودان كما أصاب مصر. مائة ميل من الإقليم السودانى سوف تدمر في نهاية الشوط، بما في ذلك وادى حلفا المدينة الميناء، وعدد لا حصر له من القرى الكبرى، جملة سكانها بعض من ٥٣,٠٠٠ إنسان [٧٠]. العدد الكلى للنوبيين الذين جُردت ممتلكاتهم بالسد العالى تصبح هكذا ما يزيد قليلاً على ١٠٠,٠٠٠ إنسان (٤٨,٠٠٠ بمصر و٥٣,٠٠٠ في السودان)، أو ما يقرب من نصف السكان الناطقين بالنوبية الباقين على قيد الحياة (قارن الفصل الثانى).

إن إقامة وطنٍ للسودانيين، التى صارت مسؤولية لحكومة السودان، كانت عملاً أعقد وأشد صعوبة من التهجيرِ في مصر. لم تُشاور السلطات السودانية في التخطيط الباكر للسد العالى، بذا كانت غير قادرة على مواجهة النوبيين بخطة مسبقة الإعداد لتوطينهم عندما أُعلن التدمير المحتوم لديارهم. كان واضحاً، مع ذلك، أن فقر منطقة النيل الأوسط أعاق عملية التوطين إجمالياً في أى مكان في الضاحية المباشرة للنوبة القديمة، وأن حركة طويلة جداً ربما تتطلبها [صعوبة الحالة]. وعلى أى حال، فإن تجريد ٥٣,٠٠٠ إنسان من أملاكهم كان حرياً به أن يخلِّف معقبات إجتماعية وسياسية خطيرة في قطر كانوا فيه خلال فترة ممتدة من القرن العشرين قوة سياسية خصبة. كانت مسألة التهجير النوبى موضوعاً سياسياً ساخناً في الستينيات الباكرة من عام ١٩٦٠، وواحداً أعان في آخر المسألة على قلب النظام العسكرى للجنرال عبود (أنظر "السودان منذ الإستقلال" بأعلاه) [٧١].

ما كان المراد من السد العالى في أسوان أن ينقل أى منفعة مباشرة للسودان، ولبعض السنين كان بناؤه معارضاً في نجاح من حكومة السودان [٧٢]. وفى ١٩٥٨، مع ذلك، وصل نظام الفريق عبود إلى إتفاقية مع مصر صدقت بتشييد السد العالى مقابل تعويض مقداره ١٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه، والأقيم أهمية، تحرير مخصصات لماء الرى بين القطرين. منذ ١٩٢٩ كانت مصر مستحقة بمقتضى إتفاق واحداً وعشرين مرة ما يأخذه السودان من مياه النيل [٧٣] ؛ في ظل إتفاقية ١٩٥٨ زيدت الحصة

السودانية إلى ربع واحد (٧٤). هذا المد الجديد وعد عياناً بياناً بنفع عظيم على المدى البعيد للسودانيين، مع أنه ليس عائداً للنوبيين بالتحديد. فهم، مثل قرابتهم المصرية، مالوا للإحساس بأن مصالحهم قد ضُحي بها، دون رضائهم من أجل آخرين.

توم ليتل في بلاغة شخَّص الصعوبات التى اكتنفت [تهجير] النوبيين السودانيين وتوطينهم:

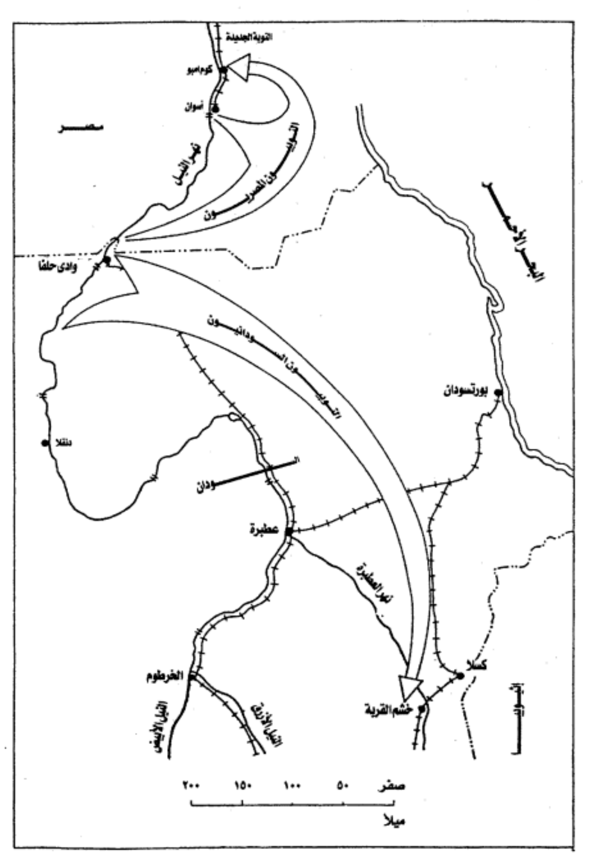
السودانيون سوف لا يقبلون حتمية مصيرهم، يعتقدون في عناد أنه حتى وقت متأخر سوف لا يُبنى الخزان أو إنه بمعجزة ما سوف يُنقذون في لحظة ما. "ماذا يجرى الآن، يا محمد؟" - "الجميع مع اللّه"؛ ومحمد يهز كتفية ويشير إلى التل الرملى في الوراء ليقترح أنه سوف يُتسلق ويُبنى. "ولكن ذلك التل سوف يكون تحت الماء، يا محمد!" - "اللّه رحيم". في الحقيقة، لا يؤمن محمد أن مدينته سوف تترك لتزوى تحت مياه نيله وكان منساقاً لأن يردد مع حلفاويين كُثر، إلى متأخر حتى ١٩٦٢، إنه بفيضان أو بلا فيضان، سوف يبقى إلى جانب النهر.

هؤلاء الحلفاويين الذين واجهوا واقعيات الموقف كان يتم التعرف عليهم في سهولة بسبب غضبهم، ولما كان هذا الغضب سوف يتضاعف في صفاء كلما كانت الحقيقة تدرك رويداً رويداً، سعت حكومة السودان لتهدئ من ثائرة الرأى [العام] مُقدماً بتشكيل لجنة لتحدد أين سيقام توطين النوبيين واعدة بأنهم سوف لا يُقسرون على الذهاب لأى مكان معاكس لرغبتهم. كان هذا خطأ، لأن كل واحد علم أنهم سوف يختارون التحرك لأقصر طريق على النيل ما أمكن ذلك، مما عنى، بالنسبة للمواقع ذات القابلية، إقامة للتوطين بالقرب من الخرطوم.

كانت للحكومة أنفاً خطط لتبنى خزاناً على نهر العطبرا، ٨٠٠ ميلاً جنوب حلفا، في مكان يسمى خشم القربة، ومن وجهة نظر الحكومة كان هذا سانحة طيبة لإستصلاح الأرض حول الخزان بفلاحين متمرسين. مقصرة بسبب منحهم موقعاً بعيداً عن أى نهر، كانت خشم القربة مكاناً أقل ما يكون إحتمالاً أن يختاره النوبيون لأنفسهم، لأنها لم تكن بعيدة المسافة وحسب عن أقاربهم الذين كانوا في مدن السودان ومصر [قارن الشكل رقم ٨٧] ولكنها كانت مختلفة إلى أى درجة ممكنة عن ديارهم. العطبرا نهر موسمى، جاف لجزء من العام، ثُم إنه عاصف بماء فيضان جارف نحو النيل، ومنطقة خشم القربة تجتاحها أمطار مدارية عنيفة. لقد كانوا معتادين على عواصف تهب على النيل وعلى رياح قوية، بيد أنه مقارنةً بالفراغ الموحش لأراضى العطبرا ذات الشجيرات المتناثرة بدت حلفا جنة. رغم هذه الإعتراضات، قررت الحكومة أنهم سوف يستقرون في خشم القربة (٧٥).

ألهب القرار بشأن خشم القربة إستياء النوبيين من حكومتهم لمدى أبعد، وأدى لوقت ما إلى إضطرابات سياسية في وادى حلفا والخرطوم (٧٦). إن هذه الإضطرابات سرعان ما سكتت، لكنها تلتها أشكال أشد عناداً من المقاومة السالبة التى تواصلت لعدة سنوات. كما رقب ليتل، رفض عديد من النوبيين ببساطة أن يقبلوا حتمية تجريدهم من أملاكهم. وبتفكير متوالٍ حافل بالأمانى تصوروا أن المصريين، ولو بعون الروس، سوف لا يمكنهم أبداً أن يكملوا مشروعاً طموحاً بهذا القدر مثل السد العالى؛ الماء المحجوز سوف يسرع بالتسرب خارجاً من خلال التربة النوبية ذات المسام الرملية الحجرية؛ معدل التبخر العالى سوف يمنع تراكم مخزون ضخم؛ أو على صعيد واحد، ببعض معنويات أقوى تخيلاً، الإسرائيليون سوف يحضرون ويفجرون الخزان حالة إكتماله (٧٧).

فى هذه الأثناء كان هؤلاء النوبيون الذين واجهوا المستقبل بواقعية أكثر منقسمين بحدة في تقديرهم له. في وجه من الوجوه أوّفت الحكومة بوعدها، ما من نوبى سيعاد توطينه، رغماً عن أنفه: وكل واحد يختار بديلاً لتهجيره في خشم القربة، له أن يقبل تعويضاً نقدياً عن [إغراق] داره وأرضه وما حوت. ثم يصير حراً في أن يعيد توطنه، على نفقته الخاصة، حيثما رغب؛ حتى لو أراد أن يمكث بين النوبة وأن يأخذ فرصة على طول الشواطئ الجرداء للبحيرة الجديدة إذا كان إلى ذلك مائلاً. نتيجة لهذه الخيرّة إنبعث إنقسام حاد بين "المتحالفين"، الذين رأوا أفضل أمل لهم في السير خُطيً واحدة مع خطة الحكومة للتهجير، و "المتطرفين - المتشددين" الذين كانوا حريصين على مقارعة الحكومة والبقاء في النوبة مما كان الثمن. في لحظات قليلة قبلت قرى بأكملها التوطين؛ في أغلب



شكل رقم ٨٧

تهجير النوبة في مصر والسودان

الحالات إنفجر إنقسام حاد وفى بعض الأحايين إنقسام مرير ما بين "المتحالفين" و "المتطرفين - المتشددين" بين ظهرانى نفس القرية. مركزان معنيان بدقة لمعارضة التهجير كانا قرى أرقين الكبيرة على الضفة الغربية ودغيم على الشرق (٧٨). أحس "المتطرفون - المتشددون" أنه إذا قدم النوبيون جبهة متحدة في مواجهة الحكومة فربما أمكنهم بذلك إجبارها على جب القرار الخاص بخشم القربة؛ لذا فقد مالوا لإعتبار "المتحالفين" خونةً للقضية النوبية. إن الصدوع التى أحدثت في مجتمع النوبيين ذاك الوقت لم تلتئم تماماً ولو من بعد.

فى عام ١٩٦٤ تظاهرت مياه النيل المحتجزة لأول مرة إلى داخل الاقليم السودانى، وما صار ممكناً تجاهل حتمية التهجير. غادر أول قطار وادى حلفا في رحلة الـ ٨٠٠ ميل إلى خشم القربة في يناير من ذلك العام، حاملاً كمسافرين ١.١٧٥ مقيماً من قرية التخوم فرس (٧٩). طوال العامين التاليين تابعت القطارات تدحرجها، أحياناً بما يصل إلى ثلاث مرات في الأسبوع (٨٠)، حتى نضبت المنطقة إلى الشمال من الشلال الثاني من الجميع عدا "المتطرفين - المتشددين". تباطات خطى التهجير بشكل معتبر بعد ١٩٦٦، جزئياً بسبب إرتفاع مياه النيل نفسها بسرعة أقل وجزءاً آخر مرده إلى عدد السكان الصغير الذى كان سينقل من *بطن الحجر*، على أنه بمجئ عام ١٩٧١ ما كانت سوى بضع قرى بالقرب من مدخل الخزان مأهولة لا تزال على التمام.

رغما عن أن حركة قطارات التهجير أصبحت حدثاً مألوفاً في وادى حلفا، لم تتوقف أبداً المناحات الدامعة والتوديعات الأخيرة التى صحبت الرحيل من أن تكون منظراً مؤثراً. إن عمق إحساس النوبيين تجاه وطنهم الخالد عبَّر عنه شاعر مجهول، قبل أن يغادر خشم القربة، زَيَّن جدران داره المهجورة بهذه المناحة:

مفارقاً أرض آبائى - ولنسمها عاشقْ؛

روائح للدار عبقاً من حدائق.

غادرتها والدمع ملء العين دافق؛

هجرت قلبى وما عندى واحداً غيره.

ما بإرادتى أنا تخليت عنه،

قضاء القدر؛

فما أتعسه مصيري.

وداعاً (٨١) .

تصميم مشروع خشم القربة له تمثلات سطحية عديدة "للنوبة الجديدة"، موطن النوبيين الذى أعيد موقعه في مصر، وربما استُلهم في جزء منه. المساحة الكلية التى خصصت لإستعمال النوبيين تغطى حوالى ١٨٠.٠٠٠ فداناً. في مركزها مدينة سوقاً ومركز إدارى يسمى وادى حلفا الجديدة، بينما على مسافات مختلفة منه القرى المنصوبة من جديد، كل واحدة تحمل إسمها الأصلى مع إضافة "الجديدة"، وتحمل بالتقريب نفس العلاقة الجغرافية لوادى حلفا كما النوبة القديمة. هذه القرى الجديدة، مثل مصر، هى قرى المخططين مكونة من كتل متراصة على سواء من مساكن مصنعة قطعاً بالإسمنت المصبوب (قارن الصورة ٢٤ - ب) (٨٢). وسعة كل قرية وفق رسمها البنائى حوالى ٢٥٠ عائلة (٨٣).

رد الفعل الإبتدائى للنوبيين السودانيين لمساكنهم الجديدة كان قريب الشبه جداً من أقربائهم في مصر :

أول منظر لمنطقة التوطين كان مواتاً غير مضياف للحلفاويين، وهم الذين اعتادوا حدائق النخيل الخضراء

الغنية والضفاف الصخرية، وجزر النيل الصغيرة والتلال الرملية تتدحرج قافلة عليهم عالمهم الخاص وقراهم التى تخرج من بعضها، كانما انشقت عنها الأرض. تركهم منظر اليابسة المسطحة في انبساطها بلا حماية والقرى المستطيلة النظامية، بشوارع مستقيمة، وبرج الماء والمربع المركزى، إفتقدت التعرج الحى الذى اعتادوا عليه. كانت قرية قديمة لخشم القربة مرئية بسكانها الأصليين، لكن منطقة توطين [النوبيين] كانت غير مأهولة، ومثل مقاطعة سكنية جديدة شاسعة حيث لم يجد شئ وقتاً لينمو، كانت غير إنسانية كئيبة المظهر (٨٤).

فى خشم القربة، كما في "النوبة الجديدة"، تُوقع أن النوبيين يصيرون مزارعين تجاريين. خصص لكل عائلة ١٥ فداناً لتزرع عليه قمحاً، وقطناً، وفولاً سودانياً في دورة سنوية، وكرست ٥ افدنة لكل محصول مدة أى سنة معينة (٨٥) مع ذلك خلال السنة الأولى بعد إقامة التوطين أبدى النوبيون إهتماماً حقيقياً بزراعة القمح وحده إذ أنهم عاملوه ليس كمحصول نقدى إنما كمحصول معيشى (٨٦). نصف المساحة المقصودة لا أكثر زُرعت قطناً، وترك العمل المضنى لرعايته ولقيطه بقدر كبير للعرب المحليين ومهاجرين عمالاً من غرب السودان. العُشر لا غير من المساحة المحددة زرع بمحصول الفول السودانى غير المألوف (٨٧). في سنوات تالية كانت هناك بعض الزيادة في حجم الزراعة وانتظامها؛ خلا أنه نشأ ميل متنامى بنفس القدر لدى النوبيين لتأجير أراضيهم الزراعية لمقاسمى المحصول المحليين، يلوون من ثم على أعقابهم في بحث عن العمل بالأجر في الخرطوم وغيرها. ليس من يقين في السودان يزيد عما في مصر أن النوبيين الذين أُقيم استيطانهم سوف يقنعون بقبول الفتحة الإقتصادية التى عينت لهم.

إلى الآن ما درس عالم الأصول الإنسانية تكيف النوبيين السودانيين مع محيطاتهم الجديدة. يبدو مما يمكن التنبؤ به أن بعض التكيفات المادية - في تعديل المساكن على وجه الدقة - الذى رُصد في "النوبة الجديدة" سوف يعاد في خشم القربة (٨٨). من الناحية الأخرى لم تشمل عملية تهجير النوبيين السودانيين (*) زيادة مواكبة لها في التحضر، كما في مصر. يضاف إلى ذلك، أن النوبيين في خشم القربة يجدون أنفسهم الآن في خضم أقوام أشد منهم بدائية وحياة تقليدية بدرجة مؤكدة بدلاً من أن يكون الحال أخف من ذلك (٨٩). لهذه الأسباب يبدو جائزاً أن التكيفات الإجتماعية والإحتفالية التى احتلت مكاناً وسط النوبيين المصريين سوف لا تكرر في السودان (٩٠).

النوبيون السودانيون، خلاف أبناء عمومتهم المصريين، لم يشاهدوا بالضرورة البقية الباقية من أرض أجدادهم. صوب إتجاه النهر جنوباً من دال يواصل المحس شغل قراهم الأصلية، كما يفعل كل الدنقلاويين إلى جنوبهم. بل إن منطقة الخزان ليست مهجورة على إطلاقها، لأن تواصل التجارة على طول النيل حيوى للمصالح التجارية في كل من مصر والسودان، وكمحصلة فإن الميناء والسكة الحديدية في وادى حلفا أعيد بناؤهما آنفاً على طول شواطئ الخزان الجديد. بدءاً بعام ١٩٧٠ كان المكان مدينة تلملم أكواخها في حركة دائبة تموج بما يتخطى ٢.٠٠٠ مقيم عدداً، يعملون جزئياً في تشييد ميناء جديد ومنشآت حكومية وجزئياً في تسيير حوانيت صغيرة متنوعة، وخدمات للنقل، وفندق يحشر نفسه حشراً بلا إعداد مسبق. أناس كثيرون، أيضاً، ينتظرون ببساطة إحياء التبادل السلعى (بما في ذلك التجارة الممنوعة) مع مصر - مصدراً رئيساً للحياة المعيشية للحلفاويين زمناً طويلاً. "المتطرفون - المتشددون" الذين رفضوا التهجير لخشم القربة أقاموا قرى جديدة بأكملها في أطراف ميناء المدينة الذى استنبت نواره، ويوجد إضافة لتلك عدد وفير من العائدين الذين قاموا بتأجير أرضهم الزراعية المخصصة لهم في خشم القربة لنوبيين آخرين أو لعرب، وعادوا إلى موطنهم. حتى هذا البعد إستقام إختلاط إجتماعى قليل بين "المتطرفين - المتشددين" والعائدين؛ والظاهر أن عداوات فترة التهجير وإقامة التوطين سوف لا تُنسى سريعاً.

نتيجة ما كان منها مناص للسد العالى والمشروع المخطط لإقامة التوطين تهجيراً هى إحياء

(*) أو ما تبعتها من توطين، وفقاً لدراسات متواصلة ومعارضة شعبية لم تتوقف من ناحية النوبيين أنفسهم - المترجم.

الإنفصالية النوبية [٩١]، ربما على دائرة أوسع مما كان كائناً منذ نهاية الفترة المسيحية. ذكر جيسّر أنه حتى النوبيون الذين هاجروا من قبل جيلاً أو جيلين آنفاً يصرون الآن "لولا الخزان، لما ترك رجل قريته"[٩٢]. أضحى خزان أسوان، رمزياً، سوء الحظ الجماعي للأمة النوبية، الذكرى التي ربما تعين على توحيدهم في المستقبل مثل ذكرى سوء الطالع التي وَحّدت اليهود بالمثل، والأرمن وأقليات مسلوبة أخرى. يحس النوبيون في كل من السودان ومصر بأنفسهم مختانة من حكوماتهم الوطنية، فتنصلوا بدرجة بالغة في كل من القطرين من القضايا الوطنية. كان النوبيون المصريون يأملون علناً، إن لم يكن بخيالٍ سقيم، في دعم إسرائيلي في حين تخلى النوبيون في السودان بقسط وافر عن عواطفهم السياسية الموالية للمصريين زمناً مضى، وتحدثوا برغبةٍ لا تتحقق عن عودة الوضع الإستعماري. هذه العواطف يحتمل أن تُنكس على الأقل في الوقت الراهن عملية التمثل الثقافي التي ظلت سارية منذ نهاية العصور الوسطى.

بمعنى أعرض، وبأى صورة كانت، لا يستطيع واحد أن يقول ما إذا كان النوبيون سوف يفلحون في صون هُوية عرقية ولغوية إنفصالية تحت الظروف المتغيرة للقرن العشرين. آخذاً للأثر المحقق للتوازن بشأن الإتصال الجماهيرى والحضارة الفنية الغربية، ربما يبدو خمودهم النهائى كأقوام منفصلة حتمياً - على الأقل للمراقبين الغربيين. إن "الحتميات" التاريخية، رغماً عن هذا، قابلة لأن تكون مضللة للفكر. إننى أرتاب أنه إبان زمنهم كان إتباع الحضارة الفرعونية، والمسيحية، والإسلام مما يعدونه أمراً محتوماً. وبقدر متكافئ سوف يذعن النوبيون تماماً ونهائياً لأيدولوجيات عالمهم. بطريقة ما، ولوقت ما، كانوا على حق إلا أن انتصاراتهم لم تعن خمود شعب نوبى منفصل ومدرك لذاته.

إن ثقافة القرن العشرين الكاسحة يمكن أن تفلح حيثما أخفقت أيدولوجيات سالفة، لكن هذه نتيجةً ما أُنجز بلوغها بَعْدُ. ولئن كان واجباً على النوبيين أن يستكينوا في النهاية، بشكل أو آخر، فإن راوى هذه الصفحات يُؤمل بإرتجاء في أنّ ماضي إنجازاتهم، بكل ما به من إعتبارٍ، سوف لا يُنسّي من خِلفتهم ووُراثهم.

الفصل العشرين

دروس النوبة(١)

لقد تعلمت، في معرض كتابة هذا المؤلف، درساً يحتمل أن يكون مألوفا لأغلب الزملاء: إن أفضل طريق لدراسة التاريخ هو أن نكتبه. بدأت هذا العمل قبل ثلاث سنوات مضت بإلتزام مفعم إننى فهمت التاريخ النوبى وعرفت ما أريد أن أقوله عنه؛ أجد الآن أننى قلت وفكرت في أشياء جمة لم تدخل رأسى أبداً عندما جلست أولاً لأكتب. ناظراً للوراء، يبدو كأنما ثلاثة أعوام من التفكير والكتابة وسعت من مداركى على الأقل بقدر ما فعلت بى عشر سنوات كانت سابقة لها من التنقيب الشاق. جزءاً من هذا أعزوه إلى ملاقاتى لمصادر جديدة وغير مألوفة مسبقاً، وجزءاً آخر بسبب إعادة التفكير بوعى في أفكار قديمة، وجزءاً للإستيحاءات غير المنتظرة التى تظهر مصاحبة دائماً لمحاولة وصل أفكار الآخرين.

يصعب أن تكون تجربتى واحدة فريدة؛ إننى ألاحظ أن كتاباً عديدين للتواريخ الشمولية قد ختموا بفصل - إن لم يكن كتاباً كاملاً - لأفكار بعدية تعبر أوضح من أى شئ آخر الحكمة المتراكمة في عملية الكتابة نفسها. مثالان متميزان يحضران على الفور ذهنى هما مؤلف جراهام كلارك *جوانب ما قبل التاريخ* (٢)، وهو فيما يقول "نتاج لكشفٍ لاحق لكتابه *عالم ما قبل التاريخ: فاصل عام*" (٣)، ومؤلف ويل وأريل ديورانت *دروس التاريخ* (٤)، وهو المقدمة ل *قصة الحضارة*، مجلداتهما العشر الصروحية. كل من هذه مجلدات كاملة من الأفكار البعدية. فإن كانت دروس النوبة لا تبرر معالجة ممتدة للغاية كهذه، فإنها على الأقل تستحق، فيما أؤمن به، فصلاً نهائياً في هذا الكتاب.

ما يأتى بعد هذا وثيقة شخصية أولاً وقبل كل شئ؛ إذ أن التاريخ، فيما أدركه، يقع في عين المراقب إلى حد كبير. من الصعب أن آمل أن أى قارئين سوف يتأملان الحقائق التى قدمتها ويأخذان منها نفس النتائج التى خلصت إليها. بيد أننى لم أكن لأكتب الكتاب إذا لم أكن قد اعتقدت أن بعض الدروس التى وانتنى بها النوبة هى على الأقل دروس ملائمة لهم بالمثل. يصدق هذا على سبيل الدقة في حالة زملائى دارسى ثقافات أصول الإنسان الثقافية (*)، الذين يخاطبهم هذا الفصل بصفة أساسية. إننى أُحس بمستوى كافٍ طبيعياً أنه أياً ما كان منطقياً لائق الدلالة بالنسبة لى فهو على الأقل بالنسبة لهم كذلك. وبإمكانى أن أتحدث في ثقة أقل حول ما يجب أن يتعلمه علماء آخرون من دراسة التاريخ النوبى. لربما يمكن لعلماء التاريخ والمصريات أن يجدوا بعضاً من دروسى "قبعة قديمة" [لا جدة فيها لهم، ولسوف يبتسمون من الفكرة الماثلة في أن علماء الأصول الإنسانية بدأوا أخيراً الإعتراف ببعض الحقائق التاريخية التى كانوا [هم] على علم بها ردحاً طويلاً. إننى آمل بغض النظر عن ذلك أن يّجدوا جميعاً، إضافة إلى العامة ذوى الإهتمام، بعض ما يغذى التفكير في مناقشة هذه الصفحات الختامية.

(*) أى الأنثروبولوجيين الثقافيين – المترجم.

تشوهات نظرية الهجرة

أول درس تعلمته في النوبة، وقد دفعني دفعاً متقدماً لأكتب هذا الكتاب، أن نظرية الهجرة لم تعد كافية كتفسير عام للتغيرات التي دارت في مسرح التاريخ النوبي بأكثر مما هي كافية لتاريخ معظم أجزاء العالم الأخرى. إنني أشير في نظرية الهجرة إلى تلك المدرسة من الشرح التاريخي التي تنسب بثبات حدوث تغيرات ثقافية واجتماعية كبرى، تقدمية كانت أم رجعية، إلى مجئ أقوام جديدة. مثل هذا الرأي بشأن التاريخ أعتقد أنه إرث لماضينا ما قبل العلمي وربما بقدر متساوٍ ماضينا القبلي. إنه يحتوي في كل الأحداث وجهة نظر بدائية معهودة عن العالم، فيها علاقة ثابتة غير متحولة بين الناس وثقافاتهم. بذا، يمكن للتغيير الثقافي المتعمق أن يأتي عندما يحل قوم محل آخرين وحسب.

تجوز المجادلة في أن نظرية الهجرة لم تتظاهر أبداً بوعي كنظرية عامة للشرح الخارجي. إلا أنها كانت لائقةً بوضوح صاف مع الرؤية العرقية في أواخر القرن التاسع عشر والقائلة بأن نظرية الهجرة باتت واحدة من مرتكزات علماء الآثار ومؤرخي ما قبل التاريخ الأوائل غير المسلم بها، وأن إرثها ما انفك باقياً معنا. ننظر حيث نشاء ـ لأمريكا الجنوبية، لأمريكا الوسطى، للجنوب الغربي الأمريكي، للصين، للهند، لبلاد ما بين النهرين، لمصر، أو لأوروبا ـ نجد أن تغيرات ثقافية مفاجئة وفيما تبدو عليه خاطفة أُرجع حدوثها في اللحظة الأولى إلى هجرات أو غزوات. وفي مساحات مثل الصين، والهند وبلاد بحر إيجه تدعم نظرية الجماعات السكانية المتعاقبة؛ إنه افتراض بدهي لعالم الآثار أو المؤرخ في ميادين كثيرة، مع ذلك. سوى أنه مع توفر المعرفة بدقة وتفصيل، عادة ما نجد أن التواصلات الثقافية بين فترات متعاقبة في التاريخ تبدأ في العلو من فوق الإنقطاع، حتى إنه في النهاية تُوّلد فرضية قابلة للإختبار العلمي عن الهجرة أو الغزو، مشكلات تتخطى ما تعالج. طوال القرن العشرين ظللنا نتراجع بالتدريج عن نظريات الهجرة في أجزاء كثيرة من العالم، وإنني لأقترح أنه حان الوقت فقمنا بذلك في النوبة سواءاً بسواء [٥].

إن رايزنر العظيم، الذي ربما سيبقى مشروع تسلسله الزمني للتاريخ النوبي ماثلاً لكل الزمن (قارن الفصل الثالث)، كان كذلك الرجل المسؤول لحد بعيد عن تقديم نظرية الهجرة كواحدة من مرتكزاته المركزية. وعندما اكتشف لأول مرة بقايا الإقامات المتعاقبة التي كان قد أعطاها توصيفات "المجموعة الأولى" و "المجموعة الثانية" و "المجموعة الثالثة"، وهلم جرا، عرّفها بشكل آلي كأقوام مختلفة [٦] ـ ليس على أساس أي معايير موضوعية، لكن بسبب أنه لم يحدث له أبداً أن يعلل الفوارق الثقافية بأي تعابير أخرى..هكذا على استعداد، ما وجد رفيقاه التشريحيان إليوت سميث ودوقلاس ديري أي صعوبة في إكتشاف الإختلافات السلالية بين الهياكل البشرية "للجماعات" النوبية المتنوعة[٧]، وبدا أن نظرية الجماعات السكانية المتعاقبة تجد تأييداً مستقلاً. لقد بقيت معنا منذ ذلك الوقت، وهي تُردد بوقار في الكتب الصادرة عن التاريخ النوبي متحدرة نحو مؤلف امري مصر في *النوبة* [٨]، وشاملة له، وهو واحد من أواخرهم ومن أجودهم.

رغما عن شعبيتها المتواصلة، وجُدت نظرية الهجرة بما لا يمكن الإرتكاز عليه كشرح عام لحقائق تاريخ النوبة الثقافي. هنا، كما هو مؤكد على قدم المساواة في أنحاء أخرى من العالم، ملأ تراكم بيّنة جوهرية بصفة عامة الفجوة في السّجل التاريخي شيئاً فشيئاً، وقد أرفدنا إنطباعاً كلياً بالتواصلات الثقافية من عصر لآخر وهي لدرجة عالية تزيد على الإنقطاعات التي تقع من فترة لأخرى. إن التغيرات التي فُكر ذات مرة أنها مفاجئة خاطفة وثورية بنفس القدر في طبيعتها يمكن أن ترى الآن كتطورات تدريجية وطبيعية، وبإحتمال أجلّ أنها محصلة لإنتشار ثقافي أو إرتقاء تطوري محلي أقوى من أي حركة عظيمة لجماعات سكّانية. إضافةً لذلك فإن إعادة الإختبار لمجموعات هيكلية بشرية نوبية باكرة، إلى جانب مادة جديدة بكمية وفيرة، قد أبان أن الإختلافات العرقية المفترضة بين سكان نوبيين متعاقبين أسطورية غالباً [٩].

ما عاد هنالك، اليوم، أى سبب مقنع للإعتقاد بأن النوبيين الحديثين كانوا أناساً مختلفين عن نوبيى القدم أو أى فترة متداخلة بينهما. على النقيض من ذلك، إننى أرى أن كل شئ يشير إلى أنهم نفس الناس. إن كون أعدادهم تضخمت بالهجرة الداخلية، قتالاً كانت أم سلماً، من الشمال ومن الجنوب، لمما هو مسلم به؛ أما أن الغرباء قاموا من مناسبة لأخرى وأحياناً جذرياً بخلخلة العمليات المنتظمة للتطور الإجتماعى والثقافى، فأمر ظاهر بالمثل. غير أن خيوط التواصل الثقافى من عصر لآخر ماكثة هناك ليراها الجميع. إنها تتيح سداة النسيج القائم من تحت الأساس لبُساطٍ من التاريخ النوبى يمتد من أزمان ما قبل التاريخ إلى الحاضر.

إنتمائية نموذج تطورى

يحضرنى هذا لدرسي الثانى الرئيس، وهو أن فواصل الخطوط الأساسية للتاريخ النوبى تُفهَم على أفضل وجه في محتوى إرتقاء تطورى ثقافى. وبينا توجد تحريفات محلية في نسبة مرتفعة، فإن المراحل المعممة التى أقررنا بها للتطور الثقافى لما قبل التاريخ والتطور التاريخى في كافة أرجاء العالم القديم أُعيد إخراجها بإخلاص في النيل الأوسط . إن صناعات حجرية غير متخصصة في العصر الحجرى القديم الأسفل وعصره الأوسط تفسح الطريق تدريجياً لصناعات ذات تخصص، متكيفة محلياً في العصر الحجرى القديم الأعلى، أدوات ومساحن للطعام مصغرةٌ تظهر في نهاية العصر الحجرى، وأخيراً (فى النوبة بعد فوات الأوان بمراحل) يجئ ظهور إنتاج الغذاء، والحياة الجلوسية، والفَخار. في هذه الأثناء تتنامى حضارة العصر المعدنى في مصر حوالى ٣٢٠٠ قبل الميلاد، وسرعان ما يسقط ظلها على المسرح النوبى. مدة ال ١.٥٠٠ عاماً التالية تقدم توليفة مأثورة من الإحتواء السياسى، والإقتصادى، والأيدولوجى، منتهيةً بضم النوبة كمستعمرة مصرية في ١٥٨٠ قبل الميلاد.

إن عملية إرتقاء التطور الثقافى لا تقف بإنشاء حضارة العصر البرونزى، مع أن الواحد يجوز أن يفكر في يسر على هذا النحو من قراءة المراجع الأولية لعلم الأصول الإنسانية. مثل هذه الكتب تحكى دائماً قصة الإنسان في تفصيل عظيم من العصر الحجرى القديم الأسفل حتى خروج الحضارات الأولى، ثم تنسحب كلية من فوق الـ ٥.٠٠٠ سنة الأخيرة كأنها تقول "لقد عشنا في سعادة مذاك". في مراجعتى للتاريخ النوبى، مع ذلك لاحظت آنفاً أن توجيهات معرفية كبرى شغلت مكاناً مُستعاداً بعد نهوض الحضارة - بصورة أبدى ملاحظة بين فترات حكم الأسرات والعصور الوسطى - هذه بدورها أعتقد أنها جزء من مجرى الإرتقاء التطورى الذى لا يمكن عكس مجراه. وسوف اعود إلى هذه النقطة فيما بعد، عند مناقشة أهمية الأيدولوجيا.

محددات النظرية الحتمية

إذا كان النمط الكلى للتاريخ النوبى، كما أعتقد، أفضل ما يدرك من زاوية رؤية ارتقائية، فإنه لمما يصدق كيفما مضى الحال أننى لا أستطيع أن أجد تأييداً لأى وجهة نظر مُضيِّقة لحتمية الإرتقاء التطورى. فليس التحدى والإستجابة لتوينبى [١٠]، ولا فرضية الرى من ويتفوقل [١١]، أو نظرية الطاقة لِيسلى هوايت [١٢]، أو حتمية تقنية البيئة الجارية هذه الأيام لعلماء بيئة الإنسان الثقافية [١٣](*)، يبدو أنها توفر تفسيراً يقرب من الكفاية لنشأة حضارة النوبة وتطورها اللاحق.

إعتراضاتى على نظريات الحتميين بشأن إرتقاء التطور من نوعين. الأول، إننى أرى تطورات

(*) أى علماء الإيكولوجى الأنثروبولوجيين - المترجم.

إرتقائية متعددة في المحيط المعرفي تظهر لي عالمية ، لا تنعكس للوراء، كما الدفعات المتقدمة في التقنية والثقافة المادية، إلا أنني غير قادر على إرجاعها إلى أي سببية خارجية. إنني أستطيع فقط أن أعللها بالنسبة لعملية ما غير متبدلة من النضج الفكري، مثل الذي كان يستبصر منذ وقت طويل من لدن بعض التطوريين الأوائل من علماء الأصول الإنسانية [١٤]. لسوف أعود إلى هذه النقطة لاحقاً. ثانياً، لقد وجدت أن مفهوم البيئة، كعامل محدد للمصير في التاريخ الإنساني، يصعب إجراؤه عملياً في حالات محددة نحو ما يعاني منه مفهوم الثقافة. في كل من الحالتين كان علماء الأصول الإنسانية قابلين لعزل قطاعات صغيرة من الواقع للتحليل مع أنها ليست ذات معنى كأنساق.

كيف يمكننا أن نعرّف البيئة التى حددت المصير الثقافي والإقتصادى للنوبيين. في البداية ما كانت أزيَد من صحراء قاحلة لا تهطل عليها الأمطار يقطعها شريط ضيق من الإخضرار، قادر على دعم بضعة مئات من الناس على تركيب ملائم من إنتاج الغذاء وجمع الطعام. لكن من اللحظة التي سلط فيها أول فرعون مصرى نظرة شبقة للإمتلاك في إتجاه الجنوب، مبكراً في الدولة القديمة، جاءت البيئة النوبية أيضاً لتشمل السكان والدولة المصريين. توسعت البيئة المتحكمة في مصير النوبيين بالإنعقاد الداخلى المتدرج للحضارات القديمة، حتى أنها بمضى الوقت إحتوت كل عالم البحر الأبيض المتوسط . بل إنه من قبل تسليم الشعوب الجنوبية لذاتيتها السياسية، إنداح الطلب على الذهب، والعبيد والعاج في أماكن نائية ليحرز أثراً أبلغ على الخطوط الإقتصادية والإجتماعية للنوبيين بأعلى مما كان للإرتفاع السنوى لنهر النيل أو نزوله.

فى وقت كأنه فجر التاريخ، في كلمات أخرى، توقف النوبيون عن الإنتماء إلى تلك التشكيلة من الأقوام المستقلة بذاتها إجتماعياً وإقتصادياً الذين ندعوهم "قبليين" والذين لهم وحدهم تصح تماماً نظرياتنا عن بيئة الإنسان الطبيعية. إلا أن النوبيين لم يصبحوا على الأقل بعد ١٫٥٠٠ عاماً أخرى، حضاريين بأصالة. وفى الفترة القصيرة التي أعقبت ذلك أصبحوا أعضاء لتلك الطبقة من الجنس البشرى التى لا يملك لها علم الأصول الإنسانية إسماً سليماً، لكنها كانت معروفةً للعالم القديم بأنها أدنى حضارة [١٥]. :ان هؤلاء اناساً، إسميا لا يكتبون، يحيون وراء تخوم الحضارات القديمة، لكنهم إلى درجة فائقة عاشوا في ظلها السياسى، والإقتصادى، والأيدولوجى. بمرور الزمن كانوا متأثرين بالمقدار نفسه "بالموروثات العظيمة" [١٦] للأمم الحضارية مثلما كان الفلاحون الذين أقاموا بينهم؛ وعندما حدث ذلك أصبحوا ما أطلق عليه توينبى إسم "البروليتاريا الخارجية" [١٧]. وإلى مدى ما تعنينا النوبة فإنه مفهوم نافع لأقصى حد. في حس أضيق لمدى ١٫٥٠٠ عام، وبمعنى أوسع لمدة ٤٫٠٠٠ سنة، كان النوبيون هم "البروليتاريا الخارجية" لمصر، وكان القطر الشمالى وسكانه أهم عوامل حتمية في بيئتهم. هكذا، يجب على أى نظرية تسعى لتفسير التاريخ الثقافى للنوبيين بالنظر إلى التغيرات الجارية للتكيف أن تكترث إكتراثاً بالغاً بتكيفهم ليس مع بيئتهم الطبيعية الخاصة إنما بالمارد الذي يحجبها من الشمال.

تماسك الإنتشار

هذه تنقلنى إلى الدرس الرابع للتاريخ النوبى، وهو أن ما يقرب من كل التطورات الثقافية العظمى خلال ٤٫٠٠٠ عام الأخيرة وصلت النوبة عن طريق مصر. فإذا لم يعد ضرورياً، كما جادلت من قبل، أن يجري تأويل التُحولات الواردة في التاريخ النوبى على أساس الغزوات، فإنه بصرف النظر عن هذا من غير الممكن أن يتم ذلك دونما رجوع متواصل للنفوذ الخارجى.

مارفن هاريس، عالم بيئة الإنسان الثقافية، نبذ في إحتقار الإنتشار على أنه "لا مبدأ له" [١٨]. إن

الواحد ربما يسعه بالمثل أن يدعوا في مشروعية التجارة بأنها "لا مبدأ لها" فكل من التجارة والإنتشار في الحقيقة ينموان بشكل متنبأ به للغاية في ظروف التلامس بين أنظمة إجتماعية وإقتصادية معقدة ومتمايزة. إن أى واحد لا يمكنه أن يتنبأ، *بداهةً*، بوجود التجارة والإنتشار بمستوى عال ما بين حضارة وجيرانها الأدنى حضارة لابد أن يكون جاهلاً بشكل غير عادى بحقائق التاريخ.

إننى أستطيع أن أجد تبريراً في التاريخ النوبي ليس فقط لمبدأ عام للإنتشار، إنما لنظرية للإنتشار محددة بمستوى عال: هى ***kulturkreis - lehre*** أو "نظرية دائرية الثقافة" للإثنولوجيين(*) الألمان والنمساويين [١٩]. التعديات التى ارتُكبت بإسم هذه النظرية من مؤيديها النَّظريين قادت إلى إبطالها العام في حقب زمنية قريبة، ولكننى أرى أنه في أثناء العملية ربما غاب عنا شئ هام [٢٠]. نظرية دائرية الثقافة ليست ملائمة في الحقيقة للعالم النقى لإنسان ما قبل الحضارة الذى هو عزيز لخيال علماء أصول الثقافات الإنسانية الأمريكيين منهم والبريطانيين مثل الألمان، لكنها لها مصداقية مقدرة لتفسير الإنتشار في عالم مقسم ما بين أناس حضاريين وجيرتهم الأدنى حضارة. مثل هذا العالم كان الكونية (**) القديمة التى انتمى لها النوبيون ومعظم أقوام العالم القديم الأخرى، في أعقاب تأسيس حضارة العصر البرونزى في مراكزها الأولى [٢١].

المتاعب التى تنطوى عليها دائرية الثقافة ونظريات إتفاقية أخرى في الإنتشار ليس في أنها عَرَّفت الإنتشار خطأ كمصدر رئيس للتغيير الثقافى، إنما لأنها لم توفر أى أساس حقيقى لتفسيره والتنبؤ به. هذا يرجع إلى أن نظريتنا التاريخية عن الإنتشار تجاهلت بشكل مُطَّرِد الأبعاد الإجتماعية والسياسية للتلامس الثقافى. لقد صَوَّر علماء الأصول الثقافية أفكاراً وتأثيرات ثقافية أنها تنتشر مثل مجموعة كثيرة جداً من الأمراض المعدية من قوم لآخرين [٢٢]، دونما اعتبار للإرادة الواعية للمانحين أو المتلقيين. غير أنها مفارقة تثير الغرابة أن دراستنا عن الإنتشار كعملية مستمرة في العالم الحديث - أى ما ندعوه بالتثقيف [التبني الثقافي] - قد منحت دائماً تنبهاً أولياً للمركز الإجتماعى والسياسى، والجبريات الرابضة، التى يقع التلامس الثقافى والإنتشار فيما بينها [٢٣]. "الثقافات لا تتلاقى، لكن الناس الذين هم حملتها يتلاقون" [٢٤]، كما ظل يؤكد دارسوا التبنى الثقافى، وإنه لمما جرى الإقرار به بمستوى عريض أن العلاقات الإجتماعية والسياسية بين الناس الذين يتلاقون بالفعل سوف تحدد إلى مدى كبير من له نفوذ على من، وبأى طرائق. كل علماء الأصول الإنسانية الذين شهدوا الذوبان التدريجي للمجتمعات القبلية في العالم الحديث تأتى لهم الإدراك أنه عندما تكون جبريات إقتصادية، سياسية أو أيدولوجية حاضرة - وهى نادراً ما تكون غائبة إذا ما احتك الإنسان الحضارى بالإنسان القبلى - فإن أنواعاً معينة وإتجاهات معينة من التغيير الثقافى ستكون قابلة للتنبؤ على وجه الإطلاق .

يبدو لى أن نفس النموذج من التحليل سوف يمكننا من فهم جملة من إنتظامات الإنتشار الثقافى في الماضى. راديكاليو اليوم ربما يودون أن يفكروا أن الظاهرة التى يطلقون عليها إسم "الإمبريالية الأيدولوجية"، و"الإستعمار الحديث"، وما شاكل ذلك، هى خطايا تتعلق في تفرد خاص بالحضارة الصناعية الغربية، لكن المؤرخ يعلم أفضل من ذلك. إن الكونية القديمة كان مسيطراً عليها لألف عام من قبلُ مراكز حضارية قليلة ذات ضغط عالٍ، إستأسدتها وأرهبت جيرتها الأدنى حضارة التى فرضت بدورها الطغيان والإرهاب على الأقوام التى كانت لا تزال أوغل بدائية في أراضى الهامش النائية. في ظل هذه الظروف بقى الإبداع الثقافى بالفعل محصوراً في حدود ضيقة في أمكنة قليلة طوال فترات طويلة جداً من الزمن، ومالت التأثيرات الحضارية لتشع نحو الخارج في إتجاهات قريرة على طول دروب بالية تماماً، كما هو متضمن في مفهوم دائرية الثقافة. قطعاً لا تبين منطقة في الكرة

(*) علماء أصول الثقافات وتحليلها - المترجم.

(**) الكونية القديمة تعني العالم المعروف فى فترة زمنية محدودة - المترجم.

الأرضية هذه الظاهرة أفضل مما تفعل النوبة، التي منذ زمن الدولة المصرية الجديدة عكست في إخلاص، عاجلاً أم آجلاً، كل ابتداع ثقافي تقريباً كان قد جرى إدخاله من الشمال الحضارى، في حين رفضت رفضاً واسعاً بواعث وافدةً من إتجاهات أخرى.

واقـــــع الـــدورات

درس آخر علمتني له النوبة هو أنه، مع مراعاة الإتجاه الإرتقائى التطورى العام للتاريخ، تقع أحداث دائرية متوالية الوقوع لا يستطيع أى قدر من النظرية الحتمية أن يُجلى عنها ما يشوبها من غموض. فالحقيقة القاضية بأن التاريخ يعيد نفسه حقاً من وقت لآخر سوف تأتي دونما عجب لعلماء التاريخ، برغم أن قلة منهم قد هيأت تفسيراً مرضياً لها. لعلماء الأصول الإنسانية، مع ذلك، بإيمانهم الذى لا تحده حدود في نظرية السببية المُطَّردة (*) كانت فكرة الدورات التاريخية دائماً غير مواكبة. أياً كان ذلك فإن الأحداث متوالية الوقوع في التاريخ النوبي متعددة للغاية وبادية للعيان بحيث لا يمكن تجاهلها. إن مثالاً إجمالياً يتمثل في ثقافات كرمة وبلانة، والأولى تُعلم عن الإنتقال بين عصور حكم الأسرات والعصور الوسطى. ومع أنها مفصولة بمدة ٢٠٠٠ عاماً من الزمان، فإنها تملك سمات مشتركة فيما بينها أعطَي مما تملك مع أى ثقافة في الفترة الداخلة بينهما. الأقل ظهوراً من ذلك، الإعادة الدورية لتصورات في الفن والأدب؛ والمقدمات والإختفاءات اللاحقة لإنجازاتٍ إستعماليةٍ نافعة مثل الكتابة وصنع الفَخار علي العجلة؛ وبقدرٍ متساوٍ الظهور المعاد بشكل غيبى، كل بضع مئات من السنين، لسمة محددة جداً ومتميزة مثل جنازة السرير. إنها مثبتة أولاً في فترة كرمة، حوالى ١٧٠٠ ق. م. ، ووجدت أخيراً في نهاية الفترة المسيحية ٣٠٠٠ عام بعدها [٢٥]، غير أن فترات زمنية طويلة بينها لا يعلم خلالها عن وجود جنائز بالأسرة.

ليس كل متواليات الأحداث في التاريخ النوبي عسيرة على الشرح. فمن عام ١٥٨٠ق. م. وما بعده إعتمد رخاء البلاد بدرجة عالية على تصدير السلع التفاخرية كما جرى بالنسبة لإنتاج الغذاء المحلى، وكان النوبيون لذلك تحت رحمة دورات العمل بنفس الطريقة التى نحن عليها اليوم. وعندما أرادت شعوب البحر الأبيض المتوسط الذهب، والعاج والعبيد، وكانت تستطيع أن تدفع أثمانها، ذاقت النوبة طعم الرخاء؛ ولما كان الأجانب فقراء للغاية أو آخرويين للغاية فلم يكترثوا بمثل هذه المباهج، أو عندما خربَت عصابات السلب والنهب خطوط الإمداد، عاني النوبة. فترات الرخاء موسومة بإنجازات صروحية في الفن والمعمار، والأدب، إضافةً إلى الإستقرار السياسى؛ أما فترات الإفقار فممثلة بالعصور المظلمة التى توالت على النوبة. تعيد الدورة نفسها كل بضعة قرون طوال الفترة التاريخية بأجمعها.

هنالك دورات إجمالية واسعة النطاق في المحيط السياسى والإقتصادى. إمتداد الإستعمار المصرى الناهض بين ٣٠٠٠ و١٥٠٠ قبل الميلاد، بادئاً بعصر من الإستطلاع تحت ظل الدولة القديمة، شارعاً في تأسيس إحتكار تجارى مسلح تحت الدولة الوسطى، وبالغاً ذروته في الإخضاع السياسى وإقامة الإقتصاد الزراعى تحت الدولة الجديدة، يمثل واحداً من تلك الدورات. خطوة فخطوة، سبق التوغل الإستعمارى في إفريقيا من القوى الأوروبية في العصر الحديث.

الدورات الإقتصادية يمكن أن تكون أمعن قابلية للشرح في الحال بالنسبة للطلب المتضارب لسلع بعينها. خلا أن الطلب المتضارب نفسه نادراً ما يفهم بمقتضى شروط منطقية بوجه كلى.

(*) بصفةٍ عامةٍ ترمز "السببية المطَّردة" إلي تطور المجتمع من مرحلة إلي أخري بما يشبه الخط المستقيم الذي يضم مجري التقدم في كل متصل – المترجم.

(**) بمعني أن أسباب نشأتها وتطورها تعتمد أساساً علي ظواهر أخري، فتتبع لها الدورات الإقتصادية – المترجم.

فدائماً ما يكون إنعكاساً لتغيرات أساسية وعميقة الجذور في توجه القيم. في هذه الحالات لا تعد الدورات الإقتصادية محض ظواهر تبعية (*) لكنها تجئ طبقاً لتحولات أيدولوجية أقيم منها أهمية.

علماء الأصول الإنسانية الذين كانت دراساتهم في الماضي نخبوية وعالية العقلنة معاً، كانوا قادرين عموماً على تجاهل الدورات الأيدولوجية في تأويلهم لما قبل التاريخ. مع هذا فإن أساتذة في كل عصر وفي كل جزء من العالم من الذين حاولوا أن يفهموا تاريخ الإنسان الحضاري كان عليهم أن يجدوا مكاناً ما في مشاريعهم لمعاودات التاريخ. النظريات الدائرية كانت شائعةً وسط فلاسفة الاغريق الأوائل (٢٦)؛ أعيد إحياؤها في العصور الوسطى من علماء مسلمين (٢٧)، وكثرة من نفس الأفكار جُعلت محبوبة في الغرب من فيكو (٢٨) وهيغل (٢٩) في الفترة الحديثة الباكرة. في عصرنا نحن إسبنغلر (٣٠)، وسوروكين(٣١)، وتوينبي(٣٢) طوروا جميعاً مشاريع تاريخية تلعب فيها دورات أيدولوجية متوالية الحدوث دوراً مركزياً. في هذه الأثناء، قام فلاسفة صينيين وهنود بتطوير نظرياتهم الدائرية الخاصة وواصلوا تطويرها (٣٣).

غيبية معينة تغمر كل النظريات التي تتعلق بدائرية التاريخ الكبرى. بوعي أو بدون وعي تبنى مؤلفوها في تنظيرهم للحضارة إستعارة العضو الحي، الذي نصبت له مقدماً دورة مستقلة عن أي سببية خارجية (٣٤). إن مثل هذا التصور يتسحيل أن يتوافق بصفاء مع وجهة النظر التقليدية لعلم الأصول الإنسانية التي ترى في الثقافة آليةً للتكيف. على أنه ليس هناك في دائرة علمنا بدرجه عالية من الموضوعية نموذج عام يمكننا أن نجده لتفسير تغيرات دائرية غير متكيفة؛ فلكي نفهم هذه بأي حال علينا أن نستدين وجهة نظر رفقائنا في العلوم الإنسانية.

من النظريات الدائرية التي ظلت مطروحة للنقاش من علماء القرن العشرين، أرى أن بيترم سوروكين هو الأقرب لتفسير المتواليات التي أدركتها في التاريخ النوبي. تصور سوروكين بفكره تضارباً ثابت الحدوث بين ما دعاه ثقافة "مثالية" وثقافة "حسية" في مراحل إنتقالية قصيرة الحياة أسماها "أيدولوجية" و "مختلطة" (٣٥). ودون جس في حشايا هذا المشروع، وبينما نحجم عن بعض عَنَتِه، أرى أن ما يجسمه سوروكين بالفعل تأرجحاً لبندول بين القيم المادية "الحسية" والمناهضة للمادية "المثالية". لهذا يمكنني أن أجد تأييداً كافياً في أنماط التاريخ النوبي. إنني أراها في التضاربات الراجعة من فترة لأخرى في حجم ومعروضات القبور، في الحجم المتضارب لتجارة الترف، وفي الإبدال المنتظم الذي يدعو للدهشة ما بين زخرفة بسيطة وأخرى دقيقة التفصيل في الفّخار (٣٦). أراها كذلك في الظهور الدوري للمسكن كرمز للمكانة، وقد جرى ذلك للمرة الأولى في الدولة الجديدة، للمرة الثانية في المّروية المتأخرة، وللمرة الثالثة في الفترة المسيحية الأخيرة، وللمرة الرابعة في القرن العشرين. في الفترات القصيرة عاش النوبيون دائماً في أبسط الأكواخ، لا تتطلب بيئتهم إلا قليلاً غير ذلك بحق.

الدور المركزي للأيدولوجية

ربما كان هنالك وقت فكرت فيه، كما يفعل ماديو الثقافة المحدثون "إننا ما نأكل" (كما وصفها الألمان في حصافة)؛ أي أن تلك الطرائق المتبعة لجعل الحياة تحدد بقدر كبير مساحات أخرى من السلوك الثقافي بل والإعتقاد الديني سواء بسواء. بأقل تقدير ممكن ربما أنني أجادل، مع علماء الاجتماع ومع علماء مدرسة الأصول الإنسانية البريطانية، "إننا ما نفعل". غير أن دراسة التاريخ النوبي كشفت لي بصفاء، إلى المدى الذي أُعنى فيه شخصياً، أن المهم في شأن الإنسان ليس هو ما يأكله أو يفعله، لكنه ما يتفكره. فوق ذلك، إنني غير قادر فوق ذلك علي أن أري فكراً يحدد لأي مدي

(*) بمعني أن أسباب نشأتها وتطورها تعتمد أساساً علي ظواهر أخري، فتتبع لها الدورات الإقتصادية - المترجم.

بحظٍ حسن أم سيئ ينشأ الإنسان، سواء كان ذلك بغذائه أو بالنظام الإجتماعي الذي فيه يولد.

بإعادة النظر في التاريخ الذى ضمته هذه الصفحات، يبدو لى أن ما كان يأكله النوبيون وما كانوا يفعلونه طوال تاريخهم تحدد مصيره لدرجة بعيدة بإلزاميات بيئتهم المقيدة وقد ظلت باقية على حالها ضرورة متشابهة جداً من القدم إلى أزمان حديثة. في فنهم، ومعمارهم، وقبورهم، وصيغ أخرى مختارة من تعبيرهم الذاتى أرى مع ذلك تغيرات متعمقة تنعكس فيما كانوا فيه يفكرون؛ تغيرات ليست لها أى علاقة بمعيشة يومية أو بأنشطة إجتماعية. قصة تلك التغيرات هى القصة الرئيسة في ذهنى لإرتقاء التطور الثقافى النوبى، القصة التى حاولت أن أحكيها في هذا الكتاب.

لأخذ سلسلة من الأمثلة الإيضاحية، يبدو صافياً لى أن التغيرات التى صاحبت إدخال المسيحية في القرن السادس الميلادى ما كانت ببساطة موضوع إبدال لنسق من الرموز بآخر. إنها شملت في نفس الوقت إعادة تعريف متعمق للكون ومكان الإنسان فيه. فلنعتبر بضع متباينات موحية:

منذ إدخال الحضارة حتى نهاية الفترة الوثنية شيد كل ملك نوبى قبراً ملكيا موسعاً كرمز لسلطته، إلا أننا لم نعثر على الصرح الجنائزى لملك واحد في الفترات المسيحية أو ما بعد المسيحية.

أعلن الملوك النوبيون من بعنخى إلى سلكو أعمالهم في نقوش ملأى بالمبالغة، واصلين أنفسهم مباشرة بالآلهة، ما من ملك في الفترات المسيحية أو المتأخرة ترك لنا مثل هذا النقش.

طوال فترة حكم الأُسرات إحتفلت النوبة فَنّها ومعمارها وأدبها بمجد ملوك دنيويين، مع إنزال الآلهة لمركز أقل منهم؛ وطوال القرون الوسطى إحتفل الفن النوبى ومعماره بملكٍ سماوى، مع ذكر نادر للحكام الموقوتين.

إلى وقت متأخر مثل ٤٥١ بعد الميلاد كان النوبيون غير راغبين في الخلوص إلى معاهدة مع الرومانيين تظل نافذة فيما بعد حياة مُوَقعيها [٣٧]، إذ كان صنع القانون الدائم هو الشأن المطلق حصراً على الآلهة. وبعد مائتى عام من دخول المسيحية إستنوا معاهدة بقيت نافذة لـ ٦٠٠ عام [٣٨].

أخيراً، من أزمان ما قبل التاريخ حتى مجئ المسيحية ما ذهب نوبى للدار الآخرة غير مصحوب بأجود ممتلكاته الدنيوية؛ ثم في خلال جيل إختفت ممارسة دفن المتاع الجنائزى مع الميت إلى الأبد.

ليس من الضرورى أن تُفحص مطولاً هذه التغيرات لنقترح أن إعادة توجه معرفى شاسع المساحة يفصل العصر الوسيط عن حكم الأُسرات. في الفترة السابقة كانت المتعلقات الإنسانية والإلهية معقودة عن قرب عبر شخص الملك، والكهنوت وأيدولوجية مشتركة، وبعد زمن المسيح (آخر فرد جُمع فيه الإنسان والإله) كان المحيطان مفصولين أيدولوجياً. قانون دنيوى، مجالس دنيوية، ديانة ما وراء المألوف والمعروف، والفصل ما بين الكنيسة والدولة تلا ذلك بما لا مهرب منه. ما من واحدة من هذه التغييرات أُطيح بها استثناءاً بأى تحول ذي مغزى في الظروف المادية للحياة.

الانتقال من حضارة الأُسرات إلى حضارة العصور الوسطى أفضل حالة مثبتة لإعادة التوجه المعرفى في التاريخ النوبى، لكنها يصعب أن تكون الوحيدة من نوعها. إحتل تغيير ثورى مساو لها إفتراضياً مكانه عندما تخطت أيدولوجية الفراعنة المعقدة إنقراض أزمان ما قبل التاريخ. لا تزال هُوة أيدولوجية أخرى تفصل الإيمان المباشر للعصر الوسيط عن الظنية العقلانية للغرب الحديث، لكن تلك الهوة لم يتخطها النوبيون عبوراً كاملاً بعد.

حقيقة الإرتقاء التطورى المعرفى كانت ظاهرة ردحاً مستغرقاً في الزمان للمؤرخين والإنسانيين[٣٩]. لقد أخذت على الضمان كذلك من قبل التطوريين الأوائل، ووجدت تعبيرها الأكمل في

نظريات ليفى برول [٤٠]. منذ زمن بُواس، مع ذلك، أصبح من غير السائد أن يقترح أن نظرة العالم للإنسان البدائى واحدة تشابه النظرة إلى الطفل بالمقارنة مع نظرتنا. بدلاً عن ذلك عانينا معاناة عظيمة لنبين أن معتقدات البدائيين عقلانية كمعتقداتنا، سواء كان ذلك بمعايير منطقهم الخاص أم بمعايير منطقنا. هذا التكريس للإتجاه المعرفى لنسبية الثقافة(*) تركنا بلا وسيلة هادفة لتأمل التغيير الأيدولوجى، يمكننا أن نراه كنوع من النزعة الأسلوبية وحسب، كما فعل لُوِىّ بطريقة واضحة [٤١].

توجد إستثناءات بالطبع للتعميم السابق. كان ماركس قادراً على وضع إرتقاء التطور الأيدولوجى وضعاً لائقاً في داخل إطار عقلانى يجعله خادماً مطيعاً للإستغلال الإقتصادى [٤٢]، وفى هذا يبدو أنه يرن صداه، على الأقل بنغم خافت، من أتباعه التطوريين الجدد. والأشد إستنارة، فيما أرى، تفسير إرتقاء التطور المعرفى الذى حاوله روبرت ردفيلد في مؤلفه *العالم البدائى وتحولاته* [٤٣]. إنه ينظر إلى التغييرات الارتقائية التطورية للفترة التاريخية في المقام الأول من خلال منظور عالمى متغير ينهض من بيئة فنية متزايدة صنعتها الحضارات، لكنه يتفادى الحتمية الضيقة للماركسيين. كذلك يعترف بأن الأيدولوجيات التى صنعتها شعوب حضارية - "موروثات عظيمة"، كما يدعوها في عمل آخر [٤٤] - لها قوة ذاتية على الحث بسحر جاذب بساطةً بفضل إرتباطها بجماعات صفوية، وهى في النهاية أقرب ما تكون للكفاية لتؤكد تغلبها على أيدولوجيات أكثر بدائية. الأفكار التطورية الإرتقائية الرئيسة لردفيلد تبدو لصيقة بأفكار ماكس فيبر، الذى تصور عالماً عقلانيا يسير في تقدم[٤٥]. أفكار مشابهة عبَّر عنها كذلك كلايد كلوكهوهن في مقالة مستبصرة عن "النظام الأخلاقى في المجتمع المتمدد" [٤٦]. هذه النظريات هى، في الوقت الراهن، بعيدة خارج النطاق المتفق عليه لعلم تأريخ الأصول الإنسانية، لكننى أرى أن علم الأصول الإنسانية سوف يلحق بها عندما يطبق مدخله الإرتقائى التطوري لدراسة المجتمعات التاريخية، كما ينبغى عليه أن يفعل في خاتمة المطاف.

أهميـــة الأســـلوب

الدرس السابع والأخير الذى كان علىَّ تعلمه في النوبة هو الأهمية التي تحدد مصير العنصر الأسلوبي في مجالات الثقافة. هذه في حس ما ليست أدًل من إعادة مكررة للدرس السابق، لأن الأيدولوجية والأسلوب موثوقان معاً عن قرب.

إلى المدى الذى أستطيع فيه تقسيم المسلسل المتواصل للتاريخ النوبى إلى بوتقة مراحل ذات معنى، فهو يقوم بصورة متزعمة على أساس تواصل الأسلوب وإنقطاعه عنه في الجوانب الوظيفية للثقافة. إننى أرى تواصلاً في الأسلوب مواضيع مثل أشكال وزخرف الفَخار، والتصرف في الميت، وأفضلية أنواع معينة من رموز المكانة، تجرى عبر كل الفترات ما قبل التاريخية الأخيرة من العصر الحجرى الجديد إلى ثقافة المجموعة الثالثة؛ أرى تصويراً مختلفاً وأوسع تفصيلاً للغاية لطرز أدخلت في وقت واحد مع الحضارة الفرعونية، وظلت ثابتة ٢٠٠٠ عاماً من بعد؛ أشاهد تعويضاً إجمالياً لطرز جديدة مرة ثانية في بداية الفترة المسيحية؛ وأخيراً، مع أن هذا بدرجةٍ أقل اصطخاباً، أرى إعادة توجيهية هامة في الأسلوب مع مجئ الإسلام. هذه "الأساليب الآفاقية" [٤٧]، كما اقترحت آنفاً، مرتبطة بموجهات أيدولوجية متميزة، لكنها ليست لصيقة الإرتباط بتطورات إجتماعية أو إقتصادية. وبصرف النظر عن ذلك فإننى أعتبر الإنتقالات الأسلوبية والمعرفية، التى حددتها آنفاً، نقاط تحول حقيقية في التاريخ النوبى.

لعلماء الأصول الإنسانية، يظل الأسلوب مساحةً غير واضحة المعالم للثقافة لمدى بعيد. إن المتفردة (**) مثل روث بنديكت سلموا بأهمية المركزية في الأنساق الثقافية [٤٨]، لكنهم مالوا لمعاملته

(*) نسبية الثقافة - تعني هنا النظرة المتساوية إلي الثقافة دون ربط لها بمحدودٍ أو مردودٍ حضاري مُعَيّن - المترجم.
(**) المُتَفَرِدة هم علماء ينحون إلي تفريد الثقافة في المجتمعات - المترجم.

كشئ غيبى لا يقبل التغيير ـ نوعاً من محور راسخ تدور حوله بقية الثقافة. إن أ. ل. كروبر وحده حاول أن يعالج الأسلوب كمتغير تقاس به الثقافة تجريبياً على سبيل المقارنة (٤٩).

إذا كنا قادرين إقتداراً كبيراً على تجاهل الأسلوب في التحليلات الأنثرَبولوجية، فذلك لأننا لا نحاول أن نُعرِّف الأنساق الثقافية بمفردات ثقافية. نجعلها متغيرات تابعة لأنساق إجتماعية. بدلاً عن ذلك، نضع تعريفاً لما نعتقد أنه وحدات إجتماعية مترابطة ـ عُصباً، قبائل، وما شابه ذلك ـ ونسمح لحدودها الإجتماعية لتقف أيضاً كحدود ثقافية إضافةً إلي ذلك. وعندما نتحدث عن "ثقافة نافاهو" لا نعتبر ما إذا كنا نشير لمعتقدات أو لسلوك تتفرد به نافاهو (*)؛ إننا ببساطة نقوم بتوصيف أى سلوك يكون ملائماً لأعضاء مجتمع نافاهو، سواء أكان ملائماً للهوبى أو للأوت، أو الأنجلو امريكيين أم لم يكن.

بين أوساط مجتمعات العالم المعقدة من النادر أن يكون ممكنا تحديد الأنساق الثقافية بحدود دقيقة للغاية لتصير مشاركة في عملية التمدد مع الأنساق الإجتماعية. لقد حاولنا أن نقوم بذلك التحديد في حالات قليلة بدراستنا "للشخصية الوطنية" (٥٠)، لكن المفهوم لم يكن له سوى نفع إستعمالى ضئيل فيما عدا دراسة مجتمعات مطوقة العزلة كاليابان (٥١)، أو تلك البلدان مثل فرنسا حيث تم التعبير عن الرؤية الذاتية الوطنية بمصطلحات ثقافية (٥٢). في الغالب الدائم نجد أن الأنساق الثقافية تتقاسم بشكل عريض في الزمن والمسافة في أواسط أناس من أصل متعدد. فإذا كان لمفهوم الثقافة أن يكون له نفعٌ متواصل الإستعمال في الفترة التاريخية فسوف لا يتأتى له ذلك، من ثم، إلا من خلال تطبيقه على تصورات معترف بها من الإعتقاد والسلوك اللذين يبقيان عبر الزمن، مستقلين من أى نسيج مثبت إجتماعياً كان أم سياسياً. وبإيجازٍ، لابد أن تعرِّف الثقافات بحساب عناصرها الخاصة المؤسسة لها، وليس بحق من تصادف تقاسمهم لها من أناس في أى وقت من الأوقات.

سوف يقر معظم المؤرخين بأن تصورات الإعتقاد والسلوك التى تتفق إلى أقرب درجة مع مفهوم علماء الأصول الإنسانية للثقافة في الفترة التاريخية هى تلك التصورات الإجمالية التى ندعوها حضارات. وإلى المدى الذى يُحمل فيه علمنا الطبيعى المقارن للإنسان نقلاً من العالم البدائى إلى الحضارى، فإنه يكون قد نُقل في طابع دراسات مقارنة للحضارات كأنساق ثقافية كلية. هذا الحقل ما طُرقَ ارتياده من علماء الأصول الإنسانية ولكن رواده كانوا علماء للتاريخ وفلاسفة، بيد أنهم جميعاً من إسبنغلر إلى توينبى أوجبوا ديناً ثقيلاً من المشاريع المخططة لعلم الأصول الإنسانية.

إلى هذا البون بذلت حوالى عشرة أو أكثر قليلاً من الجهود لكيما تُعَد وتقارن كل حضارات العالم، في الماضى والحاضر (٥٣). ما من اثنين منهما أعملا بالضبط نفس المعايير في تعريف الحضارات وتمييزها، غير أن هناك مساحات كبيرة من الإتفاق بين الجميع. جانباً عن هذه الجهود المتسقة في منهج المقارنة، أجريت مع ذلك مقارنات حدسية بين الحضارات وأدركت من كل واحدة تقريباً، تماماً كما المقارنات بين الثقافات البدائية. وعندما نلاقى، في مرجع لعلم الأصول الإنسانية، عبارة تشتمل على مقارنة للمتناقضات ما بين حضارة المصريين والسومريين، فإنها لا تدعو لإندهاش أشد مما تحدثه مقارنة للإختلاف بين أوماها واراباهو (**). على أنه في حالة الحضارات فإن ما نقارن فروقه ليس أنظمة للسلوك المحدد إجتماعياً، إنما تصورات معرفية وأيدولوجية أجلى ملامحها تميزاً أسلوبية ذات طراز. وهذا هو السبب في أن الأسلوب يشغل مكاناً مركزياً في كل مشروع مقارن للحضارات بالتقريب (٤٣).

(*) نافاهو Navajo والهوبي Hopis والأوت Utes من قبائل الهنود الأمريكيين في الولايات المتحدة الأمريكية؛ والبروفسور آدمز معروف بأبحاثه عن بعض تلك القبائل وإهتمامه بحقوقهم الحياتية – المترجم.

(**) قبائل من الهنود الأمريكيين في الولايات المتحدة – المترجم.

بكل ماله من أثر تحديدي فاصل ليس الأسلوب المتبطن للحضارة بمستديم أو غير قابل للتغيير. وتماماً مثلما أن كل تحليل وظيفى [سنكرونى] يصف الأحداث على عواهنها دون إكتراث لما سبقها من تاريخ لابد أن يفسح مكاناً للأسلوب عندما يطبق على الثقافة، لابد أيضاً لأى تحليل يتناول لتغيير الثقافة عبر الزمن أن يتأمل حتمية التغير في الأسلوب. دراستنا عن الديناميات الثقافية حتى الآن، على غرار مجموعة وفيرة من عملنا التحليلي، تُشخص بالعقلانية المتزايدة. وفى نماذجنا يجب أن يُنسَب التغيير إلى الأهداف سواء كان إنجازاً لأهداف جديدة أو الإنجاز الأفضل تجويداً لأهداف قديمة. مع هذا فإن تغير الأسلوب، مثل الأسلوب نفسه، لا ينتمى لأهداف خارجية. أنه تغيير يجرى لمصلحته الخاصة؛ تغيير سببه أن الإمتاع الجمالى لأى خبرة يتضاءل بالتكرار. لا يعلم أحد لمَا يسير الحال على هذا المنوال، خلا أنه واحد من أشهر الملامح وأقواها تمسكاً بعدم التغيير في عقليتنا. إن الذين يفسرون الأحداث بغاياتها وأسبابها النهائية ربما أنهم سيجادلون أنها قدرة مبنية من الداخل لتمنع الجمود عن حالة الإنسان.

بينما يمكن للأساليب ولابد لها أن تتغير برسم ما، فإنها على وجه العموم منحصرة بين حدود الإمكان الوظيفى والتقبل الأيدولوجي. هذا هو السببُ في أن تغير الأسلوب ندر أن يسير في إتجاه واحد بلا توقف أو نهايةٍ محددة في نفس الإتجاه. عاجلاً أم آجلا يُبلغ حداً من التحمل، يوقف تأرجح البندول، وتبدأ حركة في إتجاه آخر. هنا فيما يبدو لى، يمكن التفسير لعدد كبير من الدورات التى تبدو لا عقلانية ما في السلوك وحده إنما في الإعتقاد، فيما ألمحت إليه مسبقاً. التضاربات بين المادية واللامادية، بين الإهتمامات الدنيوية واللادنيوية، بين عصور من الإيمان وعصور من العقل، حتى بين النظام واللانظام، يمكن أن تشاهد في أوسع معنى على أنها تأرجحات لبندول أيدولوجى الطراز[٥٥]. القيم القديمة يصيبها الملل، ويُسعى لإتجاهات جديدة.

إن الدورات الأيدولوجية والأسلوبية يجب ألا تخلط مع مراحل الإرتقاء التطورى. إنها حرة خالية من التضاربات بين حدود دائمة نسبياً، وربما تعيد الحدوث تارةً أخرى أو ثالثةً ويأخذ التطور التلقائى مكاناً عندما تتبدل حدود التضارب نفسها جذرياً. تغير التطور الإرتقائى في الأيدولوجية يشمل ما أعتقده تغيرات دائمة وغير منعكسة للوراء في التوجه المعرفى: تعاريف معادة للكون تنهض من إمْرَةٍ ناجحة في تزايد على الكون. إنها مراحل نمو في النضج الجماعى للفكر الإنسانى.

تلخيــص وإســترجـاع

ترحالى القصير بإختراق التاريخ النوبى لابد أن يظهر لكثيرين، كما بدا لى، إشهاراً لبراءة خالية من الحكمة والمراس: قطعاً من ناحيتى، ومن ناحية علم الأصول الإنسانية فيما هو محتمل كذلك. لقد ذهبت إلى النوبة أبحث عن إنسان بدائى، لأن ذلك هو ما يبحث عنه عالم الأصول الإنسانية دائماً في أركان العالم البعيدة. وما وجدته عوضاً عن ذلك،كان طفولة الحضارة ومراهقتها. هذه مراحل لإرتقاء التطور الإنسانى، يوفر لها علم تأريخ الأصول الإنسانية فهماً قليلاً. وشائع من التعاطف والرؤية العقلية تربطنا بالشعوب الأصلية لمناطق العالم الهامشية، سوى أنها تبدو مستبعدةً لكل هؤلاء الأقوام البدائيين الذين لم يعودوا كذلك والذين عاشوا أو كانوا فيما أعتقد يعيشون في قبضةٍ ما، لا نزال نعدُها أنظمة طغيانٍ قديمة.

بطريق واحد أو بغيره، تكاتفت كل الدروس التى تعلمتها في النوبة لتبين محدودية النظرية التاريخية في علم الأصول الإنسانية. ما وجدت مكاناً في مدخلنا للديناميات الثقافية طويلة المدى لأى شئ يشرح بما فيه الكفاية التحولات التى طرأت على حالة الإنسان منذ ٣٠٠٠ قبل الميلاد - أى، منذ أن توقفت الثقافة عن أن تكون تلاؤماً بصفة أساسية مع الطبيعة، وأصبحت في صفة متزايدة تكيفاً للإنسان مع نفسه. ما نملكه نحن أصلاً وتقليداً هو علم طبيعى [٥٦]، ومعظمنا مُحبون للطبيعة بالميل

الشخصى فضلاً عن ذلك. إننا لا ندرك حقيقة الإنسان عندما لا يظل عائشاً في تظاهر قريب مع عالم الطبيعة، لأن هذا بالنسبة لنا حالة "غير طبيعية". بدلاً عن الترحاب بالفرصة السانحة لدراسة الحضارة لكونها الناتج الضرورى الذى لا غنى عنه للعمليات التطورية الإرتقائية التى تولينا تخطيطها نحن بأنفسنا، فإننا دائماً ما نتجاهلها أو حتى ندينها كتدخل صارخ يجئ بين الإنسان والطبيعة.

بينما علم الثقافات الإنسانية وعلم إجتماع الأصول الإنسانية، في القرن العشرين، صنعاً جهوداً واعية ليتحركا بعيداً عن إستغراق منحصر تماماً في البدائى، وأن يطورا نماذج لدراسة الفلاح والمجتمعات الحضرية على صعيد واحد، فإن علم تأريخ الأصول الإنسانية ظل باقياً مُنكَباً يكاد محصوراً في دراسة الإنسان الأصلى. لقد زاوجنا في خيالنا (وحاولنا أن نعيد التركيب من بَيِنتنا الأثَرية) نوعاً من ديمقراطية واضحة لقبائل: عالماً مشتركاً في تساوٍ بشكل أو آخر وسط أرتال من جماعات أصلية لا حصر لها، يعيشون جمعاً في إنسجام قريب مع الطبيعة، ومعظم الوقت، مع بعضهم بعضاً. فإذا كان مثل ذلك العالم قد برز حقيقة في الوجود أبداً، فقد جاء إلى نهاية في ٣٠٠٠ ق. م. بظهور الحضارات الأولى. إن ما خرج في مكانه كان سلسلة من هياكل القوة المتفرعة: عالماً مجزأ بين قلة من "الملاك "الحضاريين وعدد ضخم من "معدمين" أدنى حضارة. القوة الإقتصادية، والسياسية والأيدولوجية أضحت، ولاألفية بقيت، مُركَزة في أيد قليلة، في حين انتشر ظلها فوق نصف المعمورة. فقط في الأركان الأنأى عزلة في العالم القديم، وراء حدود الكونية المعلومة، بقى على قيد الحياة إنسان بدائى مستقل الذات في أصالة (٥٧).

المطلوب لفهم تاريخ ثقافة النوبة ومعظم ما تبقى من العالم القديم، إضافةً إلى جزء معتبر من العالم الجديد، علمٌ في الأصول الإنسانية للحضارات. ولسوء الطالع لم يوجد بعد ميدان منظم كهذا. أشار رواد شجعان مثل كروبر (٥٨)، ورفيلد (٥٩) وستيوارد (٦٠) إلى الطريق، لكن قلة من علماء الأصول الإنسانية إلى هذا الحين أحّسوا ميلاً لإتباعهم. إن تحدى إختيار الحضارات ومقارنتها كأنساق ثقافية كلية، يبدو أنه يقع وراء قدرة منهجيتنا التقليدية. تحصيلاً لذلك حصرنا فحصنا في قطاعات من الحضارات المصغرة التى اصطُنعت حدودها إصطناعاً مقَيداً الجاليات الحضرية، والقرى في الوسط الغربى، وما شاكل ذلك - في حين تركنا المقارنة الشمولية لأقران أقل تردداً مثل إسبنغلر، وسوروكين، وتوينبى، وهيئة متعاظمة من حُوارهم المتأخرة (٦١). وبإستعمال نفس منهج المقارنة الذى ندّعى بعض الأحيان أنه شأن مميز لنا (٦٢)، يندفعون أينما تخوفنا حتى الآن من الولوج إليه.

يدعو للتفكر إنه بمالا يزيد عن قرن مضى كانت هناك أنظمة معترف بها من علم الآثار وعلم أصول الثقافات وتحليلها، إلا أنه لم تُمضِ دراسة للأصول الإنسانية. إن أوصافاً جمة في إمتياز الثقافات البدائية وتفصيلها تمت كتابتها، لكنها افتقدت أى وجهة نظر متميزة نظرياً أو [مبنية على] مفاهيم منظمة. بدلاً عن ذلك، أخذ مؤرخون إجتماعيون من هيرودوتس إلى كومت الثقافة البدائية أخذ اليقين على أنها محض حضارة صُكت صغيرة. ما كان حتى اكتشاف قلة من الأنثولوجيين النظريين - باخوفن ومين، ومورقان وماكلينان (٦٣) - لمبدأ القرابة أن علم الأصول الإنسانية وُلد من رحم دراسة الأصول الثقافية. إن ما اكتشفوه حقاً هو أن الثقافة البدائية مختلفة معرفياً ومادياً على قدم المساواة عن الحضارات، تتبع قوانين من صنع نفسها ملائمة لعالم من صنع نفسه.

لفترة ١١٠ عاماً كنا في شُغُل نكتشف مؤشرات القياس للثقافة البدائية ونستطلعها، مضيفين في مضاء العملية مقداراً هائلاً لمستودع الفهم الإنسانى. إن العالم اليوم يتجه بلا تردد إلى علم الأصول الإنسانية ليمده بنظرات فريدة تستجلى عقل الإنسان البدائى. يبدو، مع هذا، أننا في خطر من استنفاد وجود الإنسان البدائى، وإننا نتجه بالضرورة نحو دراسة مجتمعات أشد تعقيداً. على أنه يبدو أننا نسينا درس طفولتنا: أن هناك فرق نوعى كما أنه كمى بين الثقافة البدائية والحضارة. فإن لم تكن الثقافة البدائية ببساطة حضارةً في صكٍ صغير، فإن الحضارة مؤكداً ليست في بساطة ثقافة

بدائية في صك كبير. وإلى الوقت الذى نعيد فيه تعلمنا لذلك الدرس سنكون ممتلكين لعلم آثار وعلماً لثقافة الأصول الإنسانية للحضارات، ولكننا سوف لا يكون لدينا علم للأصول الإنسانية للحضارات.

لئن كنا نحن علماء تاريخ الأصول الإنسانية سنحوز أبداً على علم طبيعى مقارن لكل البشر، ليس للإنسان البدائى وحده، فعلينا أن نمنح تنبهاً جاداً إلى مواضيع مثل إقتصاديات السوق، ومجتمعات الشرائح الطبقية، والمجتمعات السياسية ذات الإدارة الديوانية والإقطاعية، والمنشآت العسكرية، وأيدولوجيات الدولة، وكل وجوه الحضارة التعددية الأخرى التى صرفناها زمناً طويلاً للغاية كتأثيرات مفسدة تهدد وتدمر العالم البدائى الغالى في تخيلنا. علينا أن نضيف التاريخ إلى ما قبل التاريخ، وألا نأذن لقصة إرتقاء التطور الثقافى أن تنتهى في مولج الحضارة.

﴿ إنتهى الكتاب بحمد الله سبحانه وتعالى ﴾

المترجم

هوامش

المقدمة

١- قارن كيز، مصر القديمة

Ancient Egypt (Chicago, 1961), p. 316.

٢- المراجع الأساسية عن اثيوبيا Aethiopia (النوبة) توجد في :

Book II: 29-30-, 104, 137-40, 152; Book III: 17-25, 97, 114; Book VII: 69-70.

ولتعليقٍ حول رأى هيرودوتس عن الإثيوبيين أنظر ساف - سودر برج في :

Erani, Vol. XLIV (1946), pp. 68-80.

٣- الأوديسا .Odyssey I : v, 23

٤- الأوديسا II: 2-4

٥- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (آخر طبعة صدرت مؤخراً هي طبعة بيروت ، ١٩٥٦ - ١٩٦١؛ سبع مجلدات).

٦- أسفار في النوبة .(Travels in Nubia (London, 1819

٧- رحلة إلى مروي والنيل الأبيض

Voyage á Méroé et au Fleuve Blanc (Paris, 1826-7; 4 vols.)

٨- رحلات في إثيوبيا .(Travels in Ethiopia (London, 1835

٩- Denkmäler aus Ägypten und Äthiopien (Berlin, 1849-53; 12 vols.)

١٠- السودان المصرى

The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. I, pp. 511-12.

١١- أنظر رايزنر في : المسح الآثارى للنوبة

Archaeological Survey of Nubia, Bulletin No. 3 (Cairo, 1909), pp. 5-6.

١٢- قارن بردستد ، تاريخ مصر

A History of Egypt, 2nd ed. (New York, 1909), pp. 13-14.

١٣- المسح الآثارى للنوبة، تقرير الأعوام ١٩٠٧ - ١٩٠٨

Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907 - 1908 (Cairo, 1910) Vol. I, p. 348.

١٤- لتاريخ أكثر تفصيلا وقائمة شاملة للمصادر الخاصة بالعمل الاثرى في النوبة أنظر الفصل الثالث.

١٥- لندن ، ١٩٦٥.

١٦- يمثل كتاب تورجنى سودربرج، المصريون والنوبة، (Ägypten und Nubien (Lund, 1941 إستثناءاً ظاهراً لرأى علماء المصريات فى النوبة. ولسوء الحظ لم يترجم هذا العمل أبداً إلى الإنجليزية، وظل آمداً طويلاً نافد الطبع.

١٧- لمناقشةٍ ممتدة لهذا المدخل في التاريخ، أنظر آدمز في :

Antiquity, Vol. XLII (1968), pp. 194-315

وتريقر (Beyond History : The Methods of Prehistory (New York, 1968

١٨- قارن إليوت سميث في المسح الآثارى للنوبة :

Archaeological Survey of Nubia, Bulletin No. 3 (Cairo, 1909), pp. 21-7.

١٩- مطبوعات جامعة يل في الأنثروبولوجيا، أنظر خاصةً العدد ٦٩، ص ٤٦.

Yale University Publicaions in Anthropology, No. 69 (1965), p. 46.

٢٠- أنظر تقديم المحرر في مجلة الآثار المصرية :

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 59 (1973), p. 2; Vol. 60 (1974), pp. 1-2.

وأنظر بلملى وآدمز في نفس المجلة :

Vol. 60 (1974), pp. 212 - 38.

الفصل الأول

المصادر الأساسية : أقيم هذا الفصل بشكل موسع على الملاحظة والخبرة الشخصية. أما أهم مرجع كتابي لجأت إليه فهو بربور:

The Republic of the Sudan (London, 1961).

١- شيلى "Ozymandias of Egypt"

٢- المقصود أن الرسم الهيروغليفى الدال على كوش مسبوق في إنتظام برسم آخر يفترض، من السياق، أنه ينم عن الاحتقار أوالتهوين.

٣- يجب مع ذلك، ملاحظة أن المبالغ التى أُنفقت على الآثار لا ترقى إلا إلى جزئية فقط من نفقة تشييد السد العالى.

٤- إن الشلال الأول ليس حقيقةً بالحد الشمالى لتوطين النوبة . فهناك أعداد معتبرة من النوبيين تعيش الآن ، مثلما عاشت من قبل دائماً ، في وحول مدينة أسوان وفي المساحة التي تقع مباشرة شمالها. ومع هذا ، ظل هؤلاء الناس خلال معظم تاريخهم مغمورين ثقافيا وسياسيا بالمصريين المقيمين بين ظهرانيهم، ومن ثم فالأكثر معنىً أن يتحدث عن منطقة أسوان كجزء من مصر عنها جزءاً من النوبة.

٥- أُخذت المعلومات عن المناخ النوبى من بربور بصفة رئيسة:

The Republic of the Sudan (London, 1961), pp. 38-51;

أنظر كذلك كتاب جمهورية السودان :

Sudan Almana 1959 (Khartoum, 1959), pp. 82-3.

٦- بربور، نفسه (n. 5), p. 112

٧- في بتيرو، كسين ، وڤيركوتر، الشرق الأدنى: الحضارات الأولى

The Near East : The Early Civilizations (London, 1967), p. 279.

٨- باب "الخلق" Genesis xli.

٩- لوبو ، الموجز في نهر النيل

A Short Relation of the River Nile (trans. Wyche; London, 1791), pp. 36-7.

١٠- تريقر، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلي :

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publication in Anthropology, No. 69 (1965), p. 20.

١١- أُستقيت المعلومات عن النبات بشكل رئيس من بربور، نفسه، (الهامش رقم ٥) ص ٦٢-٧٣، ومن ليبون :

Land Use in the Sudan, World Land Use Survey, Regional Monograph No. 4 (London, 1965), pp. 19-42.

١٢- للحصول على معلومات مفصلة عن النمتى وأثره على الإنسان أنظر لويس:

Sudan Notes and Records, Vol. XXXV (1954), Part 2, pp. 76-89.

١٣- أنظر امري، مصر في النوبة

Egypt in Nubia (London, 1965), p. 127.

١٤- لوكاس، مواد المصريين القدماء وصناعاتهم

Ancient Egyptian Materials and Industries, 3rd ed. (London, 1948), p. 236;

وأنظر ساف - سودربرج :

Ägypten und Nubien (Lund, 1941), p. 87.

١٥- لخريطةٍ عنها أنظر فيركوتر في كوش
Kush VII (1959), p. 129.
١٦- لمناقشةٍ أبعد مدىً عن تعدين الذهب المصرى أنظر ساف - سودربرج، نفسه، (الهامش رقم ١٤) ص ٢١٠-٢١٤، وفيركوتر، نفسه (الهامش رقم ١٥).
١٧- قارن امرى ، نفسه .(n. 13), p. 129
١٨- أنظر بورخارت للنص المترجم للإتفاقية ، المسماة بالبقط :
Travels in Nubia (London, 1819), pp. 511-12.

الفصل الثانى

المصادر الأساسية : بُنى هذا الفصل في جزء معتبر منه على الملاحظة الشخصية. وتشمل مراجع كتابية هامة بربور (The Republic of the Sudan (London, 1961، توتهل، محرراً، الزراعة في السودان Agriculture in the Sudan (London, 1948)، تريقر، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى History and Settlement in Lower Nubia,
Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965)
ومقالات كروننبرج في كوش : Kush XI (1963), pp. 302-11
Kush XII (1964), pp. 282-90, Kush XIII (1965), pp. 205-12
ومساهماتٍ عديدة في فرنيا، محرراً،
Contemporary Egyptian Nubia (2 vols.; New Haven, 1966).
١- قارن الفصل الأول، هامش رقم ٤.
٢- قارن ما كمايكل، تاريخ العرب في السودان
A History of the Arabs in the Sudan (London, 1922), Vol. II, pp. 324-31.
٣- لوصفٍ للمقاييس السلالية للنوبيين الحديثين أنظر فرنيا، مساهمات لأنثروبولوجيا الفيوم، سيناء، السودان، وكينيا
Contributions to the Anthropology of the Faiyum, Sinai, Sudan, Kenya (Berkeley and Los Angeles, 1952), pp. 194-205.
لقد أُجريت مسوح أشد كثافة للمقاييس السلالية من طرف البعثة الشيكوسلوفاكية في النوبة خلال الأعوام ١٩٦٥ - ١٩٦٧، على أنه لم ينشر منها سوى تقارير أولية. أنظر بوجهٍ خاص إستروهال في مجلة
Current Anthropology, Vol. 9 (1968), pp. 540-41
وكذلك في البرنامج البيولوجى العالمى، بيولوجيا الإنسان في إفريقيا.
International Biological Programme, Biology of Man in Africa (Warsaw, 1968), pp. 179-90.
وفى مؤتمر الأنثروبولوجى المكرس لألس هردليكا
Anthropological Congress Dedicated to Ales Hrdlicka (Prague, 1971), pp. 465-71.
٤- لمناقشةٍ أكثر فنياً عن اللغات وعلاقاتها أنظر تريقر في مجلة التاريخ الإفريقى
Journal of African History, Vol. VII (1966), pp. 19-25.
٥- لوصفٍ تفصيلى للمساكن الحديثة، مكتملاً برسومٍ أرضية متعددة، أنظر جاريتز في فرنيا وجرستر، النوبيون في مصر
Nubians in Egypt (Austin and London, 1973), pp. 49-60.
٦- حول زينة المسكن النوبى أنظر خاصةً ونزل،
House Decoration in Nubia (London, 1972).

وطبقا لرأى المؤلف إن هذا الضرب من الزينة، الذى لا يوجد له شبيه وسط السكان غير النوبيين في السودان، كان مستعملاً إستعمالاً عاماً من عام ١٩٢٧ حتى تهجير النوبيين في الستينيات (المرجع نفسه، ص ٢٥). ويبدو أنه مشتق في مطاف الأمر من غرب إفريقيا، حيث توجد زينة مقوسة وملونة من الطين بمستوى أدق تفصيلا. أنظر إنقستروم.

Notes sur les Modes de Construction au Sudan, Statens Etnografiska Museum, Smärre Meddelanden, No. 26 (Stockholm, 1957),

وأنظر كيرك – قرين – مساكن مزخرفة في مدينة شمالية

Decorated Houses in a Northern City (Kaduna, 1963).

٧- لوصف مفصل لأقفال الأبواب المقوسة أنظر مريل في

Sudan Notes and Records, Vol. XLV (1964), pp. 29-34.

٨- للمزيد عن بيوت النوبيين والسودانيين الحديثة أنظر فتحى في فرنيا، محرراً، النوبة المصرية المعاصرة، روستم، ولي Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966), Vol. I, pp. 72-6; Rostem in Nubia, Cahiers d'Histoire Égyptienne, Vol. X (1917), pp. 201-8; and Lee in Landscape, Vol. 18 (1969), pp. 36-9.

٩- كل من الخطة العامة وطريقة البناء الموجودة في مساكن المحس والدناقلة تبدو مشتقة من غرب إفريقيا، التي عرفتها منذ وقت سابق بكثير؛ أنظر إنقستروم، نفسه (هامش رقم ٦).

١٠- ونزل ، المرجع نفسه (هامش رقم ٦) ص ٢٠-٢١.

١١- للمزيد عن تطور القرية، أنظر لي في مداولات جمعية الجغرافيين الأمريكيين

Proceedings of American Geographers, Vol. I (1969), pp. 80-84.

١٢- مطبوعات جامعة يل في الأنثروبولوجيا No. 69 (1965), pp. 19-21 . ولوصف اكثر تفصيلا عن فلاحة النوبيين الحديثة أنظر دفع الله في

Sudan Notes and Records, Vol. L (1969), pp. 63-74.

وتوجد معلومات إضافية منذ عام ١٩٣٧، بما في ذلك إحصاءات عن الفدادين المزروعة أنواعاً متنوعة من المحاصيل في فيلد، مرجع سابق (هامش رقم ٣)، من ١٦٩ – ١٨٠.

١٣- مقتطف من بورخارت، أسفار في النوبة (London, 1819), p. 137

١٤- المعلومة من بربور، جمهورية السودان (London, 1961), p. 141 ، وتوتهل ، محرراً ، الزراعة في السودان (London, 1948), pp. 627-31, 745-8

١٥- مقتطف من بربور، المرجع نفسه (هامش رقم ١٤)، p. 142.

١٦- دفع الله، المرجع السابق (هامش رقم ١٢)، p. 69 .

١٧- ما قبله ، pp. 73-4 ، وللمزيد من المعلومات الفنية عن إنتاج البلح أنظر فيلد، ما قبله (الهامش رقم ٣)، pp. 174- 9 .

١٨- قارن بربور ، نفسه (هامش رقم ١٤)، p. 140 .

١٩- ما قبله (هامش رقم ١٢) ، pp. 21-2 .

٢٠- جمهورية السودان، مسح وادي حلفا الإجتماعى والإقتصادى ، تقرير عن الدخل والمنصرف وتعداد للحيوان. Report on the Income and Expenditure Survey (Including Results of a Livestock Census) (Khartoum, 1963), p. 54.

٢١- لوصف تفصيلى لهذه المراكب وبنائها أنظر هورنل في

Sudan Notes and Records, Vol. XXV (1942), pp. 1-36.

٢٢- دنقلا الجديدة أو دنقلا العرضى، معروفة اليوم عادة بدنقلا، في بساطة، وهى تقع حوالى سبعين ميلا أسفل النهر من المدينة القديمة وعلى الضفة المقابلة للنهر. وليست لها علاقة تاريخية حقيقية مع دنقلا العجوز، التى آلت

إلى خرائب.

٢٣- أنظر جمهورية السودان ، تعداد السكان في ريفي وادي حلفا والمدينة
Population Census in Wadi Halfa Rural Area and Town (Khartoum, 1960), pp. 36, 85.

٢٤- لوصف تمثل الأقليات في النوبة الحديثة أنظر كروننبرج في كوش
Kush XII (1964), pp. 282-5.

وأنظر رياض في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٨)، Vol. II, pp. 335-8

٢٥- قارن ساف - سودربرج : Ägypten und Nubien (Lund, 1941), p. 18

وأركيل، A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 42

٢٦- في نحت الفرعون مرنر بالقرب من أسوان؛ أنظر قاردنر، مصر الفراعنة
Egypt of the Pharaohs (New York, 1961) p. 99.

٢٧- تريمنغهام ، الاسلام في السودان
Islam in the Sudan (London, 1949), p. 11.

٢٨- للمزيد حول تاريخ البجا أنظر بول
A History of the Beja Tribes of the Sudan (Cambridge, 1954).

٢٩- أنظر رياض في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٨) Vol. II, pp. 325-39 .

٣٠- ما قبله، pp. 326-31 ؛ تريمنغهام ، نفسه (هامش رقم ٢٧)، p. 15 .

٣١- تريمنغهام، نفسه (هامش رقم ٢٧) p. 17.

٣٢- أنظر رياض في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٨) Vol. II, pp. 327-8

٣٣- أنظر كروننبرج في كوش Kush XIII (1965), p. 212

٣٤- أنظر جمهورية السودان، المرجع نفسه (هامش رقم ٢٣) p. 50

٣٥- أنظر عبد الرسول في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٨) Vol. II, pp. 340-51

٣٦- الشاهي في كنيسون وجيمس ، محررين ، مقالات في إثنوغرافيا السودان .
Essays in Sudan Ethnography (London, 1972), pp. 87-104.

٣٧- قارن ساف - سودربرج، المرجع نفسه (هامش رقم ٢٥) ، pp. 26 - 7.

٣٨- فرنيا، نفسه (هامش رقم ٨) ، pp. 8-9 ، بير
Egyptian Guilds in Modern Times, Israel Oriental Society, Oriental Notes and Studies, No. 8 (1964), pp. 2-15.

٣٩- المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ٨) ، p. 2 . وللمزيد عن هجرة النوبيين المصريين للعمل أنظر إسْكَدر في فرنيا ، نفسه (هامش رقم ٨) ، pp. 100-142 .

٤٠- أنظر جمهورية السودان ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) ، p. 85.

٤١- ما قبله (هامش رقم ٢٤) ، pp. 287-8 . ولوصف مقارن لمجتمع الهجرة النوبي في مصر، أنظر فرنيا وقرستر ، المرجع السابق (هامش رقم ٥) ، pp. 36-44.

٤٢- أنظر ما كمايكل ، المرجع المذكور سابقا (هامش رقم ٢)، Vol. I, pp. 341-2.

الفصل الثالث

المصادر الأساسية : لكيما أجرى مسحاً للمصادر التاريخية الخاصة بكل الأزمان إعتمدت إعتماداً ثقيلا على واليس بدج ، السودان المصرى The Egyptian Sudan (London, 1907). هنالك ، مع ذلك ، مراجع أكثر كمالاً لأزمان بمفردها . والأشد تمحيصاً من المسوح عن المواد المكتوبة بالهيروغليفية المصرية القديمة حول النوبة يوجد

في ساف – سودربرج (Ägypten und Nubien (Lund, 1941 . أما وولى وراندال – ماك إيفر ، كارانوق المقبرة الرومانية – النوبية ,Karanog, The Romano - Nubian Cemetery

University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vol. III (1910), pp. 99-105.

فهو كتاب يحتوى كثيراً من أهم الفقرات التى خطها مؤلفون مأثورون فيما يتعلق بالنوبة . وأما كتاب فانتينى ، حفريات فرس ، مساهمة في تأريخ النوبة المسيحية،

The Excavations at Faras, a Contribution to the History of Christian Nubia (Bologna, 1970), pp. 49-143,

فيشتمل على أفضل مسح لمصادر القرون الوسيطة ، أوروبية وعربية على السواء. ولملخص للعمل الأثرى إرتكزت كثيراً على امرى، مصر في النوبة ،

Eygpt in Nubia (London, 1965), pp. 35-120.

أنظر كذلك كيتنق إسترجاع النوبة

Nubian Rescue (London and New York, 1975).

١- .(London, 1907 (2 vols.

٢- للإطلاع على مسح ممحص للنصوص الهيروغليفية الخاصة بالنوبة أنظر بريستد، مدونات مصر القديمة، قارن الفهرست الجغرافى، المجلد الخامس، ص ٧١-١٠٤ (Ancient Records of Egypt (5 Vols.; New York, 196

أنظر ايضا بورتر وموس في شأن النصوص والنحوت والرسوم الهيروغليفية المصرية القديمة

Topographical Bibiliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs, and Paintings, Vol. II (Oxford, 1952).

٣- لتوضيح عن منحوت جير، طالع أركيل في تاريخ السودان

A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 39.

ولتفسير للأمر أنظر تريقر، التاريخ والاستيطان في النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), p. 73.

إن نحتاً أقدم يعود إلى عهد حكم حور – أها ، سلف جير، ربما يتعلق بالنوبة ، غير أن ذلك غير محقق. أنظر ساف – سودربرج، المصريون والنوبيون

Ägypten und Nubien (Lund, 1941), p. 7.

٤- لكن فلتنظر الى ساف – سودربرج، المرجع السابق (هامش رقم ٣) ، pp. 42-53 ، وفيشر في كوش

Kush IX (1961), pp. 44-80

٥- قارن ساف – سودربرج، المرجع السابق (هامش رقم ٣)، pp. 141-75 يعتبر المؤلف أن مدونات الحملات في النوبة بعد زمن تحتمس الثالث لا يمكن أخذها على عواهنها ، ولكنها مجرد إدعاءات تقليدية كان كل فرعون يحس بأنه لزام عليه القيام بها .

٦- هذه النحوت واردة بلهجة الكارى الإغريقية. ويأتى أكثر الأمثلة شيوعاً في الجنوب من برونز صغير بجوار الشلال الثاني ؛ أنظر سايس في مداولات جمعية آثار الكتاب المقدس

Proceedings of the Society for Biblical Archaeology, 40th Series, 6th Meeting (1910), pp. 262-3.

٧- أنظر خاصةً الكتاب الثانى، والثالث، والسابع

Book II: 29-30,

III: 17-25, VII: 69-70.

٨- .VII: 1,2

٩- I: 33, III: 2-8, 15-35.

١٠- VI : 35.

١١- في ديندورفيوس Historical Graeci Minores (Leipzig, 1870) pp. 332f

١٢- تحرير نيبوهر (Bonn, 1829) p. 466

١٣- I : 19-20 .

١٤- النص الأصلى وترجمة له في بدج ، السودان المصري ، المجلد الثانى
The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. II, pp. 308-11.

١٥- التاريخ المسيحى Ecclesiastical History (Trans. Payne - Smith; London, 1860), pp. 325f.

١٦- مجلة Chronicle (ed. Mommsen; Berlin, 1894), pp. 207-20

١٧- مجلة Annals (Patrologiae Greco - Latina, ed. Migne, Paris, 1863, Vol. CXL), pp. 1122-3.

١٨- التاريخ المسيحى Ecclesiastical History
(trans. Chabot; Paris, 1905), Vol. II, p. 300; Vol. III, p. 226.

١٩- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المجلد الخامس ، ص ٤٢٩ .

٢٠- لترجمة للنص انظر بورخارت Travels in Nubia (London, 1819), pp. 498-521.

٢١- Prairies d'Or (trans. Meynard and Courteille; Paris, 1863).

٢٢- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
(trans. Gaudefroy - Demombynes; Paris, 1927).

٢٣- ترجمة Evetts and Butler (Oxford, 1895)

٢٤- جيوفانى فانتينى، من ملة كمبونى في الخرطوم ، مستغرق حاليا في بحث عويص عن المراجع المتأخرة عن النوبة في القرون الوسيطة . وإلى الآن تمخضت عملية فحص الأرشيف الفرانسيسكى في القاهرة ومجموعات الفاتيكان عن أكثر من مائة رسالة ووثائق أخرى تتناول بشكل أو آخر النوبة . إن بعض أول ما جنى من هذا البحث نشرت في فانتينى ، حفريات فرس ، مساهمة في تأريخ النوبة المسيحية The Excavations at Faras, a Contribvtion to the History of Christian Nubia (Bologna, 1970) pp. 125-43.

٢٥- ألفارس ، سيرة البعثة البرتغالية للحبشة
Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia (trans. Lord Stanley ; London, 1881)
لوبو ، رحلة إلى إثيوبيا
A Voyage to Ethiopia (trans. Johnson; London, 1735)
بايز ، تاريخ إثيوبيا Historia da Etiopia (Oporto, 1945)

٢٦- رحلة إلى إثيوبيا خلال السنوات ١٦٩٨ ، ١٦٩٩ ، ١٧٠٠
A Voyage to Ethiopia Made in the Years 1689, 1698, and 1700 (London, 1709).

٢٧- Höher und Fruchtbärer Palm - Baum des Heiligen Evangelij (Augsburg, 1710).

٢٨- رحلات لإكتشاف منبع النيل
Travels to Discover the Source of the Nile (Edinburgh, 1790).

٢٩- أسفار في النوبة Travels in Nubia (London, 1819)

٣٠- سرد لزيارة بعض أنحاء إثيوبيا
Journal of A Visit to Some Parts of Aethiopia (London, 1822).

٣١- رحلة إلى مروي والنيل الأبيض
Voyage à Méroé et au Fleuve Blanc (Paris, 1826)

٣٢- سرد لرحلة إلى مروي Journal d'un Voyage à Méroé

مرجريت شيني ، محررة ، .Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 4 (1958)

٢٣- رحلات في إثيوبيا (London, 1835)

٢٤- Denkmäler aus Ägypten und Äthiopien (Berlin, 1849-53)

٢٥- لعرضٍ مفّصل لها أنظر بدج، المرجع نفسه (هامش رقم ١٤) Vol. I, pp. 55-504

٢٦- أنظر رو في مجلة الأنثروبولوجيا الأمريكية

American Anthropologist, Vol. 63 (1961), p. 1380.

٢٧- قارن المسح الآثارى للنوبة ، تقرير ١٩١٠ - ١٩١١

Archaeological Survey of Nubia, Report for 1910-1911 (Cairo, 1927), pp. 176-7.

٢٨- أنظر رايزنر ، المسح الآثارى للنوبة ، تقرير ١٩٠٧ - ١٩٠٨.

(Cairo, 1910), Vol. I, pp. 96-102.

٣٩- أنظر ما قبله : pp. 14, 17-73

٤٠- رايزنر ، المسح الاثارى للنوبة Bulletin No. 3 (Cairo 1909), pp. 5-6

٤١- نفس المرجع (هامش رقم ٣٨) pp. 313-48

٤٢- المطبوعات الرئيسة عنها وعن غيرها من البعثات النوبية مضمنة في هوامش الفصول ٤-١٩.

٤٣- أنظر الهامش رقم ٤٢.

٤٤- أكسفورد Oxford, 1912

٤٥- Vols. V-VI, 1923

٤٦- بترخيص من دوز دنهام : Boston, 1960 and 1967

٤٧- بوسطن ١٩٥٠ ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٧ و ١٩٦٣ . أنظر كذلك المجلد المعنى تأليف دنهام ، معابد البركل (The Barkal Temples (Boston, 1970

٤٨- لموجز عن عمل البعثة فى السودان وقائمة بالمراجع للنتائج المنشورة أنظر دنهام في كوش

Kush III (1955), pp. 70 - 74

٤٩- امرى ، المدافن التلية الملكية في بلانه وقسطل

The Royal Tombs of Ballana and Qustul (Cairo, 1938).

٥٠- امرى وكيروان ، الحفريات والمسح بين وادي السُبوع وأدبندان

The Excavations and Survey between Wadi es-Sebua and Adindan (Cairo, 1953).

٥١- عنيبة (Aniba (Cairo and Glückstadt, 1935, 1937

٥٢- القاهرة ، ١٩٣٥ ، ١٩٥٣ .

٥٣- للاطلاع على المطبوعات الرئسة لهذه البعثات ، أنظر هوامش الفصول ٧ - ١١ .

٥٤- التقارير الأولية نشرت في كوش

Kush IX (1961), pp. 17 - 43 ; X (1962), pp. 10 - 75 ; XI (1963), pp. 10 - 46 ; XII (1964), 216 - 50; XIII (1965), pp. 145 - 76; XIV (1966), pp. 1 - 15.

٥٥- أنظر هوامش الفصول ٩ - ١٥ حول نتائج هذه البعثات التى نشرت إلى تاريخه .

٥٦- لمناقشةٍ أكمل عن المضامين المتعلقة بدور الآثار الإنقاذى في دراسة التاريخ أنظر أدمز في آكرمان هوايت و ورثينقتون ، محررين ، البحيرات الاصطناعية ، مشكلاتها وآثارها البيئية

Man - Made Lakes, Their Problems and Environmental Effects, American Geophysical Union, Geophysical Monograph Series, Vol. 17 (1973), PP. 826 - 35.

٥٧- في ١٩٧٠ شرعت مصلحة آثار السودان ، بعون من فريق من علماء الآثار الذين وفرتهم الحكومة الفرنسية ،

في إستطلاع منظم للمنطقة الواقعة جنوب دال – وكان ذلك بالضرورة مواصلة فى إتجاه الجنوب للمسح الذى كان قد بدأ مع مشروع الانقاذ من السد العالى . ولم تنشر بعد نتائج هذا العمل.

٥٨– كُرس مجلد منفصل (المجلد الثانى) ، مع مجلد مصاحب بالبيانات ، للبقايا التشريحية .

٥٩– إليوت سميث ، المسح الأثارى للنوبة Bulletin No. 3 (Cairo, 1909), p. 25

٦٠– لمناقشة عن المكانة التى تحتلها العنصرية فى نظرية القرن التاسع عشر الإجتماعية والتاريخية أنظر إستكونق، العنصر، الثقافة والتطور

Race, Culture, and Evolution (New York, 1968)

وهاريس ، نهوض النظرية الأنثروبولوجية

The Rise of Anthropological Theory (New York, 1968), pp. 80 - 107

٦١– بطراوي ، تقرير عن البقايا الآدمية

Report on the Human Remains (Cairo, 1935), p. 160

٦٢– المجلدات Vol. LXXV (1946), pp. 81 - 101 ; Vol. LXXVI (1946), pp. 131 - 56.

٦٣– مجلة المعهد الملكى للانثروبولوجى Journal of the Royal Anthropological Institute, Vol. LXXVI (1946), p. 131

٦٤– مخرجى ، راو ، وتريفور ، سكان جبل مويه القدماء (السودان)

The Ancient Inhabitants of Jebel Moya (Sudan) (Cambridge, 1955), p. 85

٦٥– قرين

Dentition of Meroitic. X - Group, and Christian Populations from Wadi Halfa, Sudan, University of Utah Anthropological Papers, NO.85 (1967);

أيضاً قرين في مجلة التطور الإنسانى

Journal of Human Evolution, Vol. I (1972), pp. 315 - 24.

٦٦– فاقن نيلسن ، البقايا الآدمية ، مطبوعات البعثة الإسكندنافية المشتركة للنوبة السودانية

Human Remains, Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications, Vol. 9 (1970).

أُسست هذه الدراسة على رسالة دكتوراة المؤلف وهى أكثر تُفصيلاً عن الهيكل البشرى النوبى عبر ٤,٠٠٠ عام

The Nubian Skeleton through 4,000 Years (Odense, 1970).

٦٧– فاقن نيلسن ، البقايا الآدمية (المرجع السابق ، هامش رقم ٦٦) ، ص ٨١ .

من ناحية أخرى يشخص إستروهال الهياكل البشرية لثقافة المجموعة المجهولة التى تم حفرها منذ وقت قريب بواسطة البعثة الشيكوسلوفاكية للنوبة على أنها "شديدة الزنجية"، بالرغم من أنه ينظر إلى ذلك بإعتباره متواصلاً منذ الأزمان المروية . أنظر

Festschrift eür Professor Dr. Sallr (Stuttgart, 1968), pp. 84 - 92

والمؤتمر الأنثروبولوجى المكرس لألس هردليكا (Prague, 1971), pp. 541 - 7.

ولنقد عام للمدخل العنصرى لتاريخ السكان النوبيين ، أنظر ڤان جرفن ، كارلسون و أرميلاقوس في مجلة التاريخ الافريقى

Joumal of African History, Vol. (1973), pp. 555 - 64.

٦٨– فاقن نيلسن ، البقايا الآدمية (المرجع السابق ، هامش رقم ٦٦) P. 81

٦٩– نيبس في Koninglijke Nederlands Akademie van Wetenschappen, Proceedings Series C,73 NO. 5 (1970), PP. 433 - 68

٧٠– المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ٦٣).

٧١- توجد مناقشة أكثر تفصيلا عن هذا الموضوع فى الفصل ١٢ .

٧٢- مولد بريطانيا The Birth of Britain (New York, 1956), p. 47

٧٣- لنقاش أبعد مدىً عن هذا التمييز الهام ، أنظر تريقر ، ما وراء التاريخ : مناهج ما قبل التاريخ

Beyond History: the Methods of Prehistory (New York, 1968).

الفصل الرابع

المصادر الأساسية : إعتمدت فى هذا الفصل إعتماداً كبيراً للغاية على فرد وندورف ، محرراً ، ما قبل تاريخ النوبة، مجلدين The Prehistory of Nubia (2 vols ; Dallas, 1968)

وبدرجة أقل إعتمدت على أ . ج . اركيل ، الخرطوم القديمة

Early khartoum (London, 1949)

والشهيناب Shaheinab (London, 1953)

١- سانفورد وأركيل ، إنسان العصر الحجرى القديم ووادى النيل في النوبة ومصر العليا

Paleolithic Man and Nile valley in Nubia and upper Egypt, chicago Oriental Institute Publications, NO. 17 (1933).

٢- كانت البعثة المشتركة لما قبل التاريخ هى المجموعة الرئيسة ، وهى ممولة إبتدائيا من جامعة كولومبيا وفيما بعد من قبل متحف نيومكسيكو وجامعة ساوثرن ميثوديست ، وشملت أساتذة من مؤسسات أوروبية عديدة بالمثل . أما البعثات الأخرى التي عملت في مواقع نوبية ما قبل التاريخ فهى بعثة النوبة من جامعة كلورادو ، وبعثة المتحف القومى لكندا ، والبعثة الإسكندنافية المشتركة ، وبعثة يل لما قبل التاريخ .

٣- ظل هناك تحقيق أشد إتقاناً عن بقايا العصر الحجرى في مصر ؛ أنظر هايس ، مصر الأوغل قدما

Most Ancient Egypt (Chicago, 1964), esp. pp. 43 - 146

ومع ذلك ، وجد وندورف ورفاقه تواصلاً قليلاً ما بين صناعات ما قبل التاريخ في مصر ونظيرها في السودان ؛ أنظر Science, Vol. 196 (1970), p. 1168

٤- فى ١٩٦٦ - ١٩٦٧ قامت البعثة المشتركة لما قبل التاريخ ، التى اضطلعت بأكبر مسح لما قبل التاريخ في منطقة خزان أسوان ، بعمل ميدانى ممتد في أرض دنقلا النهرية . ومع ذلك ، وُجدت مواقع قليلة جداً ومقارنة للمواقع التى عثر عليها في أرض وادى حلفا . أنظر ماركز ، شاينر وهايس في مجلة الأنثروبولوجيا الراهنة

Current Anthropology, Vol. 9 (1968), pp. 319 - 23 .

٥- حرره فرد وندورف (Dallas, 1968). ولتقرير إضافي عن العمل الذى اجرته البعثة المشتركة لما قبل التاريخ ، انظر ماركز ، المواقع ما قبل الفَخار الملون

Preceramic Sites, Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications, Vol. 2 (1970).

٦- المتبني الرئيس لهذا الرأى هو كارل بتزر ؛ أنظر بتزر و هانسن ، الصحراء والنهر في النوبة

Desert and River in Nubia (Madison, 1968), pp. 436 - 43.

٧- قارن ماك بيرنى ، العصر الحجرى فى شمال إفريقيا

The Stone Age of Northern Africa (Harmondsworth, 1960), pp. 70 - 81.

٨- بتزر و هانسن ، المرجع نفسه (هامش رقم ٦) pp. 453 - 7 .دى هينزلن و بيبى في وندورف ، محرراً ، مساهمات في تاريخ ماقبل النوبة

Contribntions to the Prehistory of Nubia (Dallas, 1965), pp. 53 - 5.

٩- قارن بيرى و هوايتمان في المجلة الجغرافية

Geographical Journal, Vol. 134 (1968), p. 1

١٠- أنظر ماك بيرنى ، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ٧) pp. 94 - 128

١١- ما قبله .

١٢- معلومة شخصية من روى ل . كارلسون . وللإطلاع على أوصاف مفردة للصناعات النوبية في العصر الحجرى الأوسط أنظر وندورف ، محررا ، ما قبل تاريخ النوبة ،

The Prehistory of Nubia (Dallas, 1968), Vol. II, pp. 1043 - 4.

وإروين ، ويت و إروين ، تحقيقات جامعة كولورادو عن مواقع العصر الحجرى القديم في السودان ، إفريقيا

University of Colorado Investigations of Paleolithic and Epipaleolithic

Sites in the Sudan, Africa, University of Utah Anthropological Papers, No. 90 (1968), pp. 56 - 73.

١٣- قارن وندورف ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) pp. 1044 - 54

١٤- ما قبله pp. 1041 - 59

١٥- لمناقشة حول هذه المسألة أنظر ملارز في أنثروبولوجيا العالم

World Anthropology, Vol II (1970), pp. 84 - 6.

١٦- قارن 'الفَخار والتاريخ ، ، في الفصل الخامس من هذا المؤلف .

١٧- وندورف ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) pp. 1054 - 7.

ومع ذلك ، لاحظ فيليبس منذ وقت قريب تشابهاً شديداً بين مواقع معينة للعصر الحجرى المتأخر في مصر العليا وليبيا . أنظر الأنثروبولوجيا الراهنة

Current Anthropology, Vol. 13 (1972), pp. 587 - 90.

١٨- أنظر ساندفورد و أركيل ، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ١) pp. 37 - 43.

١٩- وندورف ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) pp. 940 - 46.

وقد أفاد ريد قبل مدة قليلة عن وجود حجارة للطحن ذات عمر مقارن في كوم أمبو بمصر العليا : أنظر أوكو و ديمبلبى ، تأليف النبات والحيوان وإستغلالهم

The Domestication and Exploitation of Plants and Animals (Chicago, 1969), p. 363.

٢٠- وندورف ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) pp. 1048 - 53.

٢١- أنظر ماقبله pp. 954 - 95 ؛ هوز وآخرين في مجلة الطبيعة ، المجلد ٢٠٣

Nature, Vol. 203 (1964), pp. 341 - 3.

و ساكس في براون ، محرراً ، مداخل للأبعاد الإجتماعية في الممارسات الجنائزية

Approaches to the Social Dimensions of Mortuary Practices, Memoirs of the Society for American Archaeology, No. 25 (1971), pp. 39 - 57.

٢٢- قارن وندورف ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) pp. 991 - 4.

٢٣- ما قبله pp. 1028 - 35 ؛ أنظر كذلك هوز وآخرين ، المرجع السابق (هامش رقم ٢١) وقرين و أريملاقوس ، سكان وادي حلفا في العصر الحجرى الوسيط

The Wadi Halfa Mesolithic Population, Research Report No. 11, Department of Anthropology, University of Massachusetts, 1972.

٢٤- شايلد ، ماذا حدث في التاريخ

What Happened in History (Harmondsworth, 1942).

٢٥- قارن ريد ، المرجع السابق (هامش رقم ١٩) pp. 362 - 4.

٢٦- قارن ماقبله p. 361.

٢٧- أنظر كلارك في بريدوود و ويلى ، محررين ، عروض في إتجاه الحياة العنصرية
Courses toward Urban Life, Viking Fund Publications in Anthropology,
No. 32 (1962), pp. 11 - 16.

٢٨- قارن تريقر في ماكول ، بينيت ، و بتلر ، محررين ، تاريخ شرق إفريقيا
Eastern African History, Boston University Papers on Africa, Vol. III (1969), pp. 84 - 5 ;
هورد و ليكلانت في مقالات علمية
´Etudes Scintifiques, September - December 1972, pp. 41 - 56.

٢٩- قارن ماك بيرنى ، المرجع السابق (هامش رقم ٧) pp. 230 - 47

٣٠- قارن كلارك ، المرجع نفسه (هامش رقم ٢٧) p. 15. هورد و ليكلانت المرجع نفسه (هامش رقم ٢٨) pp. 43 - 5.

٣١- التقرير المحدد عن هذه الإكتشافات هو أركيل ، الخرطوم القديمة
Early Khartoum (London, 1949).

٣٢- يذهب أ . ج . أركيل مدى أبعد من ذلك ، فيقترح أن الفَخار لربما انه قد أُخترع لأول مرة وآخرها من سكان الخرطوم القديمة ، ومنهم انتشر إلى أنحاء العالم الأخرى .
أنظر كوش Kush V (1957), p. 11

٣٣- أركيل ، نفسه (هامش رقم ٣١) pp. 31 - 5.

٣٤- ماك بيرنى ، المرجع نفسه (هامش رقم ٧) p. 242.

٣٥- قارن أركيل ، تاريخ السودان A History of Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 28.

٣٦- كلارك ، نفسه (هامش رقم ٢٧) p. 14.

٣٧- ما قبله pp. 11 - 14.

٣٨- قارن ماك بيرنى ، المرجع السابق (هامش رقم ٧) p. 244.

٣٩- التقرير المحدد عن العصر الحجرى الجديد في الخرطوم هو أركيل ، الشهيناب
Shaheinab (London, 1953).

٤٠- ماقبله pp. 70 - 72.

٤١- قارن تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٨) pp. 87 - 8.

٤٢- أركيل ، المرجع السابق (هامش رقم ٣٩) pp. 20 - 77

٤٣- ماقبله ، pp. 106 - 7 ؛ أوتو في كوش Kush XI (1963), pp. 108 - 15

٤٤- وندورف ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) p. 1054.

٤٥- ما قبله pp. 768 - 90. إن مواقع إضافية عن العصر الحجرى الجديد فى الخرطوم مما قامت بحفرها البعثة الإسكندنافية المشتركة مضمنة في نوردستروم ، مواقع العصر الحجرى الجديد والجماعة - أ
Neolithic and Group - A Sites,
Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications,
Vol. 3 (1972), pp. 136 - 9, 212 - 20

٤٦- ما قبله p. 777.

٤٧- نفسه p. 768.

٤٨- نفسه pp. 611 - 27. قام بالكشف الأصلى لثقافة عبكة ووصفها و . هـ . مايرز ؛ أنظر مجلات Illustrated London News, 13 November 1948, pp. 566 - 7 ;
Sudan Notes and Records, Vol. XXIX (1948), p. 129 ;

Kush VI (1958), pp. 131 - 41, and Kush VIII (1960), pp. 174 - 81.

أنظر كذلك ڤوفرى فى كوش Kush VI (1958), pp. 142 - 3 ,

وبالما دى سيسنولا فى كوش Kush VIII (1960), pp. 182 - 237 . وللمزيد عن مواقع عبكية أنظر نوردستروم ، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ٤٥) pp. 220 - 22.

٤٩- وندورف ، نفسه (هامش رقم ١٢) p. 1053.

٥٠- نفسه p. 627.

٥١- نوردستروم ، المرجع السابق (هامش رقم ٤٥) p. 16 عثر فى أرض دنقلا النهرية عامى ١٩٦٦ - ٦٧ على صناعات يحتمل أن تكون ذات صلة ، بالرغم من أنها لم تعرف على انها عبكية من ناحية المكتشفين . أنظر ماركز ، شاينر و هايس ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) .

٥٢- لمناقشة عن فن الصخر الصحراوى ومنتسباته انظر بخاصة ماك بيرنى ، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 72 - 258 ، وهورد و ليكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 19 - 78.

٥٣- هذه كانت البعثة المختصة بالصك من أكاديمية برلين للعلوم . وللاطلاع على سرود مبدئية لأعمالها أنظر هينتز فى كوش Kush XI (1963), 93 - 5 ;

Kush XII (1964), pp. 40 - 42, Kush XIII (1965), pp. 13 - 16

وقد صارت الرسوم الصخرية النوبية منذ وقت قريب موضوعا لعدد غير عادى من الدراسات الأخرى؛ قارن بايتاك و إنجلماير

Eine Frühdynastische Abri - Siedlung mit Felsbildern aus Sayala - Nubien, Österreichische Akademie der Wissenschaften, Philosophisch Historische Klasse Denkschriften, 82 (1963); Engelmayer, Die Felsgravierungen im Distrikt Sayala - Nubien, Teil I, Die Schiffsdarstellungen, Österreichische Akademie der Wissenschaften, Philosophisch - Historische klasse Denkschriften, 90 (1965) ;

أنظر أيضاً هلستروم و لانقبل ، رسومات الصخر

The Rock Drawings, Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications, Vol. I (1970) ;

و ألمارقو و ألمارقو

Estudios de Arte Rupestre Nubio, Comite Español de Excavaciones en ExtranJero, Memorias de La Misión Arqulológica en Egipto, X (1968).

وكل ما ذكر آنفا مؤسس على دراسات ميدانية تجرى لأول مرة . وتوجد تشكيلة من المصادر الثانوية في ريش Die Felsbilder Nubiens (Graz, 1967)

أما دنبار فهو مرجع أقدم عن الرسومات الصخرية في النوبة السفلى

The Rock - Pictures of Lower Nubia (Cairo, 1941) .

٥٤- أنظر تريقر ، التاريخ والاستيطان في النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), p. 63.

لإيضاحات عن العديد منها أنظر إنقلماير ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٣) .

٥٥- لايضاحات وبعض الوصف ، طالع مايرز في مجلتى

Illustrated London News, 13 November 1948, pp. 556 - 7, Kush VI (1958), pp. 131 - 41.

٥٦- قارن ماك بيرني ، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 263 - 4.

٥٧- أنظر مايزر في Kush VI (1958), pl. XXXIV

٥٨- مايرز في كوش Kush VIII (1960) p. 177 وبالنظر إلى النتائج المستحصلة من وندورف (مرجع سابق ، هامش رقم ١٢ ، p. 1053)

يبدو محتملاً أن التواريخ تقترب كثيراً من ال ٤٠٠٠ عنها في ٧٠٠٠ عام قبل الميلاد .

الفصل الخامس

المصادر الأساسية : عن الأوصاف الثقافية للمجموعة الأولى (الأفق أ) كان إستنادى الكبير على أركيل ، تاريخ السودان

A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), pp. 37 - 45,

امرى ، مصر في النوبة Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 123 - 34 وتريقر ، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), pp. 70 - 79 .

وهنالك توليفة هامة ظهرت منذ كتابة هذا الكتاب فى نوردستروم ، مواقع العصر الحجرى الجديد والجماعة - أ Neolithic and A - Group Sites, Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications Vol. 3 (1972), pp. 17 - 32 .

١- رايزنر في المسح الأثارى للنوبة Archaeological Survey of Nubia, Bulletin No. 3 (Cairo, 1909), p. 5

ورايزنر في Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907 - 1908 (Cairo, 1910), Vol. I, p. 319 .

٢- قارن وندورف ، محررا ، ما قبل تاريخ النوبة The Prehistory of Nubia (Dallas, 1968), Vol. II, p. 1053 .

٣- امرى ، مصر في النوبة Egypt in Nubia (London, 1965)

٤- قارن تريقر ، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), pp. 169 - 74 .

٥- ميلز في كوش Kush XIII (1965), pp. 1 - 10

وأيضاً ميلز في تبادل شخصى للمعلومات .

٦- تبادل شخصى من ج . فيركوتر .

٧- أنظر الهامش رقم ١ .

٨- ويلر ، حضارات وادى الاندوز وما وراءه Civilizations of the Indus Valley and Beyond (London, 1966), p. 61 .

٩- وندورف ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) .

١٠- أركيل ، تاريخ السودان A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 35

وللإطلاع على وصف لانتاج الفَخار ذى الرأس الأسود فى الأزمان الحديثة أنظر رايزنر في مجلة مركز البحوث الأمريكى في مصر

Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. V (1966), pp. 7 - 10 .

١١- أنظر بومقارتل في Cambridge Ancient History
Revised Edition of Volumes I and II, Fascicle 38 (Cambridge, 1965), pp. 11 - 17.

١٢- رايزنر ، المسح الآثاري للنوبة
Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907 - 1908 (Cairo, 1910), Vol. I, p. 320.

١٣- يجب أن يُشار أيا كان الأمر إلى أن أقدم قبور لثقافة المجموعة الأولى تحتوى دائما أوانى سوداء الرأس من النوع المصرى إلى جانب النوع النوبى . أما المذكورة أولاً فالمفترض أنها تحصل عليها في التجارة مع حاجيات أخرى من صنع مصرى وجدت في نفس القبور .

١٤- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 160 .

١٥- ماقبله ، pp. 71 - 2 . ويعتقد تريقر أن هذه ربما كانت مستوطنة ثرية بشكلٍ غير عادى ؛ ولربما أنها كانت مقراً لإقامة ، "زعيم" ، (معلومة فى تبادل شخصى) .

والوصف الأصلى المنشور عن الموقع لرايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢)، pp. 215 - 18 .

١٦- لقائمةٍ جزئية عنها وقائمة بالمراجع الخاصة بالمصادر المنشورة أنظر تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 169 - 74 . وقد اكتُشفت مواقع إضافية عديدة من قبل مصلحة آثار السودان ومسوح البعثة الإسكندنافية المشتركة في النوبة السودانية ؛ أنظر التقارير الأولية لآدمز و ساف - سودبرج فى كوش
Kush IX (1961), pp. 7 - 10 ; Kush X (1962), pp. 10 - 18, 76 - 105 ; Kush XI (1963), pp. 10 - 69 ; Kush XII (1964), pp. 19 - 39 ; Kush XV (1973), pp. 225 - 9.

أنظر كذلك بايتاك و إنقلماير
Eine Fruhdynastische Abri - Siedlung mit Felsbildern aus Sayala - Nubien, Osterreichische Akademie der Wissenschaften, Philosophisch - Historische Klasse Denkschriften, 82 (1963), pp. 14 - 17.

وأنظر نوردستروم ، Neolithic and A - Group Sites, Scandinavian
Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications, Vol. 3
(1972), pp. 17-32, 134-6, 140-58, 172-80, 183-9, 190-212, 230-33, 235-9.

١٧- مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 77 . إن وصفا أطول للموقع يعود إلى لال في
Fouilles Nubie (1961 - 1963) (Cairo, 1967), pp. 104 - 9

١٨- قارن جريفيث في الإصدارية السنوية لجامعة ليڤربول في الآثار والأنثروبولوجى
University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. VIII (1921), p. 4.

تجدر إضافة بأن الغالبية العظمى لمواقع السكن فى ثقافة المجموعة الأولى ربما أنها دُمرت بفعل التعرية أو طمرها الطمى ، وبذلك فسوف لن نعلم ما إذا كانت المواقع القليلة الباقية مماثلة لتلك الفترة الزمنية ككل .

١٩- لال ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) p. 106 .

٢٠- أركيل الشهيناب Shaheinab (London, 1953), pp. 15 - 18

٢١- قارن تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 67 - 8 .

٢٢- أقدم ذكرٍ مكتوب للحيوان الفلاحى وارد في حجر باليرمو الشهير ، الذى إدعى فيه أن الفرعون سنفرو عاد من حملة فى الجنوب بصحبة ٧,٠٠٠ سجين و ٢٠٠,٠٠٠ " أبقاراً كبيرة وصغيرة " . (بريستد ، مدونات مصر القديمة Ancient Records of Egypt, New York, 1962,Vol. I, p. 66).

ومع ، ذلك يشير النص إلى زمن متأخر بشكل معتبر أكثر من أى بقايا معروفة عن ثقافة المجموعة الأولى ، وربما أن ذلك يعود فيما هو مفترض إلى جماعة مختلفة من النوبيين .

٢٣- بيتروفسكى Fouilles en Nubie (1961 - 1963) (Cairo, 1967), p. 131

٢٤- ما قبله p. 130 .

٢٥- دراسات بتزر عن الفترة شبه الغرينية فى الصحراء لا تدل على أنه كان هنالك اى سقوط للأمطار بدرجة هامة فى النوبة السفلى بين ٥٠٠٠ و ٢٣٥٠ قبل الميلاد "إن أغلب الصحراء الليبية ربما كانت بلا حياة كما هى اليوم".
(Environment and Archaeology, Chicago, 1964, p. 452 ;

قارن كذلك خريطة الأمطار p. 451) .

٢٦- قارن نوردستروم ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) pp. 23 - 4 .

٢٧- كارلسون في كوش Kush XIV (1966), p. 61

لقد شخص المؤلف الموقع بوصفه من العصر الحجرى الجديد ، ولكنه يعده معاصراً لثقافة المجموعة الأولى فى ناحية الشمال ؛ قارن p. 62 .

٢٨- أنظر تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) .

٢٩- ورد في رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) pp. 18 - 52 .

٣٠- فى الجبانة رقم ٧٩ بجوار جرف حسين ، فيما يذكره فيرث ، المسح الآثارى للنوبة ،
Archaeological Survey of Nubia, Report for 1908 - 1909 (Cairo, 1912), Vol. I, pp. 127 - 52 .

٣١- مرجع سابق (هامش رقم ٣) p. 125 . ولمناقشة أطول عن عادات الدفن فى ثقافة المجموعة الأولى أنظر نوردستروم ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) pp. 27 - 8

٣٢- كوش Kush XIV (1966), p. 124

٣٣- مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 74 - 5 . الوصف الأصلى لهذه القبور يوجد في فيرث ، المسح الآثارى للنوبة Archaeological Survey of Nubia, Report for 1910 - 1911 (Cairo, 1927), pp. 204 - 12

٣٤- في مجلة الآثار المصرية . Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 30 (1944), p. 129

٣٥- قارن إيفانز - بريتشارد ، النوير The Nuer (Oxford, 1940) pp. 172 - 6

هامبلى ، مرجع للأنثروبولوجيا الافريقية Source Book for African
Anthropology, Part II, Field Museum of Natural History,
Anthropological Series, Vol. XXVI (1937), pp. 552 - 4 .

٣٦- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) ، pp. 67 - 83 .

٣٧- اقْتُرحت الطريقة أصلاً من بترى في Diospolis Parva
Egypt Exploration Fund, Excavation Memoir No. XX (1901), pp. 4ff .

٣٨- قارن قاردنر ، مصر الفراعنة Egypt of Pharaohs
(New York, 1966), pp. 389 - 90 .

إقْتُرحت مراجعات ضافية في منهج التأريخ المسلسل من كيصر في
Archaeologia Geographica, Vol. 6 (1957), pp. 69 - 78 .

٣٩- قارن نوردستروم في كوش Kush X (1962), p. 52

لدراسةٍ ممحصة فنيا وطوبغرافيا عن فُخار "ثقافة المجموعة الأولى" أنظر نوردستروم ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) pp. 33 - 94 .

٤٠- قارن تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 75 .

٤١- بالرجوع إلى الجدول الثانى ، يتضح أن كل إرجاع للقبور إلى "ثقافة المجموعة الثانية" تقريباً أجرى فى الحقيقة خلال الموسمين الاولين للمسح الآثارى الأول .

٤٢- Akademie der Wissenschaften in Wien, Philosophisch - Historische
Klasse Denkschriften, 62, Band 3 (1919) .

٤٣- قارن ساف سودربرج فى كوش Kush XII (1964), p. 29

٤٤- كوش Kush XIV (1966), pp. 69 - 124

٤٥- ما قبله pp. 95 - 6 .

٤٦- قارن تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 79 .

كرايلنق و آدمز ، محررين ، City Invincible (Chicago, 1960), p. 142

٤٧- هذا الرأى هو رائى الشخصى وهو خلاف ذلك الرأى الذى طرحه سميث فى إعادة تقويمة "لثقافة المجموعة الثانية" (مرجع سابق ، هامش رقم ٤٤) . إن ما خلص إليه هو أنه ليست هناك قبور نوبية يمكن تأريخها يقينا إلى الفترة ما بين الأسرة الأولى والأسرة السادسة ، وأن ما يسمى بقبور "ثقافة المجموعة الثانية" يحتمل أنها تنتمى إلى فترة ما قبل الأُسرات (معلومات فى تبادل شخصى) .

٤٨- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) pp. 331 - 2 .

٤٩- للبينة المتعلقة بهذه المسألة أنظر ادمز في

Sudan Notes and Records, Vol. XLVIII (1967), p. 17

٥٠- بالرغم من ذلك ، عثر امرى على نسب قليلة من الفَخار النوبى (ثقافة المجموعة الثانية) في موقع المدينة المصرية فى بوهين ، وهى تعود بتقدير مأمون إلى الأسرتين الرابعة والخامسة . أنظر امرى، مرجع سابق (هامش رقم ٣) p. 114 .

٥١- يعتقد نوردسترم الآن أنه قد وجد صلة إنتقالية في الفَخار القادم من بطن الحجَر ؛ أنظر كوش Kush XIV (1966), pp. 67 - 8 . وأيا كان الحال إعتمد نوردستروم الرأى التقليدى القائل بأن "ثقافة المجموعة الأولى" في النوبة السفلى إختفت فى زمن الأسرة المصرية الأولى ؛ أنظر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) p. 31 .

٥٢- هذا ما يؤمن به الآن نوردستروم (ما قبله) وساف – سودربرج (تبادل شخصى) .

٥٣- اقُترح هذا من ناحية تريقر (تبادل شخصى) ؛ قارن كذلك نوردستروم المرجع السابق (هامش رقم ١٦) p. 32 .

٥٤- ساف – سودربرج Ägypten und Nubien (Lund, 1941), pp. 19 - 20

٥٥- بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) Vol. I, pp. 149 - 50

٥٦- ساف – سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٤) p. 21 .

٥٧- تريقر ، تبادل شخصى .

٥٨- أنظر آدمز في مجلة التاريخ الافريقى Journal of African History (in press)

٥٩- قارن تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 79 .

٦٠- وينيفرد نيدلر تعتقد أنها قد عثرت مع ذلك على نحوت مصرية سابقة – خطوط تصويرية خاصة "بالملك العقرب" الذى لم يكشف سره بعد ، فى الزمن المتأخر ما قبل الأسر – في نفس الضاحية ، إلاّ أن ذلك الأمر شديد الصعوبة . أنظر مجلة مركز البحوث الأمريكى فى مصر

Journal of American Research Center in Egypt, Vol. VI (1967), pp. 87 - 91 .

ولتعقيبٍ معاكس من إنج هوفمان أنظر

Bibliotheca Orientalis, Vol. XXVII (1971), pp. 308 - 9 .

٦١- نقل "منحوت" الملك جير في معرض سير حملة الإنقاذ بالسد العالى وهو الآن في المتحف القومى في الخرطوم.

٦٢- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 73 . لتوضيحات عن "منحوت" جير ، أنظر أركيل فى مجلة الآثار المصرية Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 36 (1950), p. 28

وأركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) p. 39 . إن نسبة النص إلى الملك جير غير مستيقن منه تماما ؛ أنظر نوردستروم ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) p. 32 .

هيلك في : Mitteilungen des Deutschen Archäologischen instituts, Abteilung Kairo,

و باند 26 (1970) pp. 83 - 5 ، و هوفمان ، مرجع سابق (هامش رقم ٦٠) . ومع هذا ، فمن المقبول نسبة الأمر إلى تاريخ أُسرات قديم .

٦٣- تريقر (مرجع سابق ، هامش رقم ٤ ، p. 160) يقدر أن أقصى حجم للسكان في النوبة السفلى في ثقافة المجموعة الأولى يبلغ ٨,٠٠٠ نسمة .

٦٤- طالع ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٤) pp. 7 - 8 ، سميث ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٤) . p. 119

٦٥- لموجز سريع عن النص أنظر بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢)

Vol. I, pp. 65 - 6 .

ولمناقشة ، أنظر ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٤) pp. 9 - 10

وأنظر سميث ، مرجع سابق ، (هامش رقم ٤٤) p. 119 .

٦٦- موصوف في امرى ، مرجع مذكور آنفا (هامش رقم ٣) pp. 111 - 14 .

٦٧- تبادل شخصي من طرف ى . ب . امرى .

٦٨- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٣) p. 111 . لقد أخطرني دايفيد أوكونور الذى يدرس فَخار مدينة المملكة القديمة أن "إختبارى المبدئي ، غير المتعمق بعد ، ينبئني أن المادة يوجد لها نظير في ثقافة المجموعة الأولى ، على أفضل الوجوه ، وحتماً لا يوجد شيء من الأشطار "الباكرة" المعلومة عن ثقافة المجموعة الثالثة" (تبادل شخصي)

٦٩- أنظر امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٣) p. 129 و تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 80 - 81 .

٧٠- أنظر سمبسون ، حيكا - نفر ومادة الأُسرات من توشكى وأرمنا

Heka - Nefer and the Dynastic Material from Toshka and Arminna,

Publications of the Pennsylvania - Yale Expedition to Egypt, No. 1 (1963), pp. 49 - 50 . أنظر كذلك

إنقلباك في Annales du Service des Antiquités des l' Égypte, Vol. XXXVIII (1938), pp. 369 - 90,

و مرى في المجلة الجغرافية Geographical Journal, Vol 94 (1939), pp. 97 - 114

٧١- لمناقشة عن هذا النص ذى الأهمية البالغة ومعانيه المحتملة انظر بدج

The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. I, pp. 519 - 26,

ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٤) pp. 11 - 30 ،

إدل Inschriften des Alten Reiches, V (Ägyptologische Studien Ed. Otto Firchow, 1955),

و كاديش في مجلة الآثار المصرية

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 52 (1966), pp. 22 - 33,

و ديكسون في مجلة الآثار المصرية

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 44 (1958), pp. 40 - 55

الفصل السادس

المصادر الأساسية : للحصول على أوصاف ثقافية إعتمدت ، كما هو معتاد ، بصفة رئيسة على أركيل، تاريخ السودان، AHistory of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), pp. 46 - 54

امرى ، مصر في النوبة Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 133 - 71 ،

وتريقر ، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 6 (1965), pp. 84 - 99 .

ولمناقشة حول المسائل المتعلقة بالتسلسل الزمنى أحس بالعرفان خاصةً نحو

مانفرد بايتاك Studien zur Chronologie der Nubischen C - Gruppe, Österreichische Akademie der

Wissenschaften, Philosophisch - Historische Klasse Denkschriften, 97 Band (1968),

ونحـو دايفيد أوكونور لرسالته الدكتوراه غير المنشـورة ، المادة النوبية الأثرية منذ الأزمان الأولى إلى الثانية الوسيطة : دراسة تحليلية

Nubian Archaeological Material of the First to the Second Intermediate Periods : an Analytical Study (Cambridge University, 1969) .

١- المسح الأثارى للنوبة Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907 - 1908 (Cairo, 1910), Vol. I, p. 335 .

٢- قارن أركيل ، تاريخ السودان . A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 46

٣- أنظر ، مثالاً ، بيتس ، الليبيون الشرقيون

The Eastern Libyans (London, 1914),

امرى و كيروان ، الحفريات والمسح بين وادى السبوع وأدينذان

The Excavations and Survey between Wadi es-Sebua and Adindan (Cairo, 1935), Vol. I, p. 4,

أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 49 - 50 ، و بايتاك

Ausgrabungen in Sayala-Nubian 1961 - 1965, Österreichische Akademie der Wissenschaften, Philosophisch - Historische Klasse Denkschriften, 92 Band (1966), pp. 38 - 42 .

٤- فيرسيرفس ، الممالك القديمة في النيل

The Ancient Kingdoms of the Nile (New York, 1962), pp. 100 - 102 .

٥- قارن نوردستروم فى كوش Kush XIV (1966), pp. 63 - 8

٦- قارن تريقر ، التاريخ والاستيطان في النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), p. 87 .

٧- ما قبله .

٨- لمناقشة مطولة عن نصوص أونى و حركوف وما تحمل من مضامين لدراسة التاريخ النوبى أنظر خاصة ساف - سودربرج ،

Ägypten and Nubien (Lund, 1941), pp. 11 - 30,

يويوت في نشرة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية

Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Vol. LII (1953), pp. 173 - 8,

إيدل في فيرشو ، محرراً ، دراسة المصريات Ägyptologische Studien,

Institut für Orientforschung, Veroffentlichung No. 29 (1955) pp. 51 - 75,

كـاديش في مـجلة الآثار المـصـرية Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 52 (1966), pp. 22 - 23,

إيدل في ، الشرق Orientalia, Vol. 36 (1967), pp. 133 - 58

بايتاك ، دراسة التسلسل الزمنى للجماعة - س النوبية

Studien zur Chronologie der Nubischen C-Gruppe, Österreichische Akademie der Wissenschaften, Philosophisch - Historische Klasse Denkschriften, 97 Band (1968), pp. 144 - 8,

و اوكونور ، المادة النوبية الأثرية منذ الأزمان الأولى إلى الثانية الوسيطة :

دراسة تحليلية (رسالة دكتوراه غير منشورة Cambridge University, 1969, pp. 207 - 11)

٩- يبدو مؤسساً بشكل جيد أنه في الغالب ، ولكن ليس جميعاً بالضرورة ، كانت الأراضى التى زارها أونى و حركوف في النوبة السفلى . ولمناقشة حول مواقعها المحتملة أنظر ساف - سودربرج، مرجع مذكور انفا (هامش رقم ٨) .

إيدل في مجلة الشرق Orientalia, Vol. 36 (1967), pp. 133 - 58

وديكسون في مجلة الآثار المصرية Journal of Egyptian Archaeology,

Vol. 44 (1958), pp. 40 - 55 .

١٠- تريقر مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 81 .

١١- أنظر الهامش رقم ١ .

١٢- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 79 .

١٣- قارن امرى ، مصر في النوبة Egyptin Nubia (London, 1965), pp. 112-14, 129

١٤- لدراسات عن التسلسل الزمنى الداخلى لثقافة المجموعة الثالثة أنظر فيرث

Archaeological Survey of Nubia, Report for 1909 - 1910 (Cairo, 1915), pp. 13 - 20,

إشتايندورف ، عنيبة Aniba I (Cairo and Glückstadt, 1935), pp. 5 - 10

تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 90 - 106 .

بايتاك ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) ، و أوكونور ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) .

١٥- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 97 - 8 .

١٦- ساف - سودربرج في كوش Kush XI (1963), p. 58

١٧- سونيرون في نشرة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية

Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Vol. LXIII (1965), pp. 161 - 7 .

١٨- راندال - ماك إيفر و وولى في مجلة أريكا

Areika, University of Pennsylvania Museum, Eckley B . Coxe Junior Expedition to Nubia, Vol. I (1909), pp. 1 - 18 .

١٩- ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 130 - 32

سونيرون ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) p. 165 .

٢٠- ساف - سودربرج ، مرجع مذكور آنفا (هامش رقم ١٦) .

٢١- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 97 - 8 .

٢٢- قارن إشتايندورف ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) ، pls. 56,57,65 .

٢٣- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 97 .

٢٤- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) p. 137 .

٢٥- إيفانز - بريتشارد ، النوير The Nuer (Oxford, 1940), p. 16

٢٦- قارن ماك بيرنى ، The Stone Age of Northern Africa (Hammondsworth, 1960), p. 243 .

وكذلك بتزر ، البيئة وعلم الآثار Environment and Archaeology (Chicago, 1964), pp. 449 - 53 .

٢٧- تبادل شخصى من روى ل . كارلسون .

٢٨- قارن إيفانز - بريتشارد ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومقالات أخرى

Social Anthropology and Other Essays (Glencoe, I11., 1964), p. 193 .

٢٩- قارن أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 48 - 9 .

٣٠- قارن الهامش رقم ٢٤ .

٣١- لدراسات عن التطور الزمنى لقبر "ثقافة المجموعة الثالثة" أنظر إشتايندورف ، المرجع المشار إليه آنفا (هامش رقم ١٤) ؛ امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) pp. 135 - 68 ؛ تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 90 - 106 ؛ بايتاك ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) ؛ و أوكونور ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 102 - 42 .

٣٢- توجد رؤوس البقر فى أكثر الحالات مقرونة "بالقبر الجامع" ، وهو ، على الرغم من أنه مماثل فى نوعيته لقبور ثقافة المجموعة الثالثة ، فإنه فيما يبدو من فعل أجانب دخلاء فى النوبة السفلى خلال الفترة الوسيطة الثانية (أنظر

الفصل الثامن) .

ومع هذا ، فإن بعض قبور ثقافة المجموعة الثالثة التى لايرقى إليها شك هى ايضاً مصحوبة برؤوس بقرية .

٣٣- لأمثلة عنها أنظر على وجه الخصوص إشتايندورف ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) ، pls. 8 - 14 .

٣٤- قارن آوكونور ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 219 - 20 .

٣٥- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) p. 137 .

٣٦- لصياغة مبسطة للنص أنظر بدج ، السودان المصرى

The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. I, pp. 518 - 19 .

٣٧- ما قبله p. 520 .

٣٨- نفسه pp. 521 - 2 .

٣٩- قاردنر ، مصر الفراعنة Egypt of the Pharaohs (New York, 1966), p. 99

٤٠- أنظر الهامش رقم ٩ .

٤١- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 160 .

٤٢- قارن سيرفس ، وجوه جانبية في الاثنولوجيا

Profiles in Ethnology (New York, 1963), pp. xxiv - xxix .

٤٣- لمناقشة عن الأنظمة العشائرية القطاعية أنظر خاصة المرجع نفسه ، pp. xxi - xxiv ،

ميدلتون و تيت ، محررين ، قبائل بلا حكام

Tribes without Rulers (London, 1958), pp. 1 - 31 .

و أوتنبرج ، ثقافات و مجتمعات إفريقيا

Cultures and Societies of Africa (New York, 1960), pp. 51 - 2 .

٤٤- هذا المصطلح الموحي صاغه ماير فورتز ؛ قارن

The Web of Kinship among the Tallensi (London, 1949) .

٤٥- أنظر ميدلتون و تيت ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٣) pp. 16 - 18 .

٤٦- إيفانز - بريتشارد ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٨) pp. 193 - 4 .

٤٧- ماقبله p. 203 .

٤٨- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) p. 139 .

٤٩- فيشر في كوش Kush IX (1961), pp. 44 - 80

٥٠- عن هذا الجزء من النص طالع بدج ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٦) ، pp. 520 - 22 .

٥١- مثال ذلك أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 60 ، ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) ، pp. 83 - 7 .

٥٢- لسرود مفصلة طالع ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 54 - 80 .

٥٣- قارن أوكونور ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 216 - 17 .

الفصل السابع

المصادر الأساسية : لوصف للمخلفات الاثرية للنشاط المصرى في النوبة إعتمدت جلّ الاعتماد على امرى ، مصر في النوبة Egypt in Nubia (London, 1965) ،

وبخاصة pp. 101 - 14, pp. 141 - 58 . وحول النصوص التاريخية وتفسير البقايا الاثرية كان مصدرى الأساسى ساف - سودربرج ، المصريون و النوبيون

Ägypten and Nubien (Lund, 1941), pp. 63 - 116 .

ورسمت صورتى للمملكة المصرية الوسطى أساسا من جون ويلسن ،

The Culture of Ancient Egypt (Chicago, 1951), pp. 125 - 53 .

ويوجد مرجع جديد تم طبعه تأليف تريقر ، النوبة فى ظل الفراعنة

Nubia under the Pharaohs (London, 1976), pp. 40 - 81 .

١- لمناقشة ثقافات مصر ما قبل الأُسرات أنظر بوجهٍ خاص هيز ،

مصر الأوغل قدماً Most Ancient Egypt (Chicago, 1964)

بومقارتل ، مصر ما قبل الأُسرات

Predynastic Egypt, Cambridge Ancient History, Revised Edition of Volumes I and II, Fascicle 38 (1965) .

٢- يقول التاريخ المصرى التقليدى أن القطر تم توحيده أولاً بمن يدعى الملك مينس ؛ أنظر بخاصة امرى ، Archaic Egypt (Hammondsworth, 1961), pp. 21 - 37 ، ولمناقشة لما كان على أكثر إحتمال المجرى الحقيقى للأحداث أنظر بخاصة كيصر في

Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 81 (1956), pp. 87 - 109 .

٣- قارن ويلسن ، وأخرين ، في كارلنق و آدمز ، محررين ،

City Invincible (Chicago, 1960), pp. 124 - 64 .

٤- قارن تريقر ، التاريخ والإستيطان فى النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), p. 79 .

٥- دراسة التاريخ A Study of History, Vol. 5 (New York, 1962), pp. 194-337

٦- بروس تريقر (تبادل شخصى) يقترح أن فراعنة المملكة القديمة ، بدءاً بسنفرو ، ربما ثابروا على سياسة متعمدة لطرد أو إستعباد السكان الأصليين للنوبة السفلى لكيما يقوموا بأعمالهم التعدينية في أمان ، ولكن الدليل على هذه المسألة غير كامل . والذى يبدو من وجوه كثيرة هو أن غياب سكان أصليين – كسوق للبضائع المصرية وكمصدر للعمل على السواء – سيشكل خسارة أكثر منه نفعاً للمصريين .

٧- مصر الفراعنة Egypt of the Pharaohs (New York, 1966), p. 100 .

٨- نشرة متحف (بوسطن) للفنون الجميلة

Bulletin of (Boston) Museum of Fine Arts, Vol. XXVII (1929), pp. 66 .

٩- أنظر "السجل النصى"، الفصل الخامس .

١٠- للنصوص الملائمة أنظر بريستد ، مدونات مصر القديمة

Ancient Records of Egypt (New York, 1962), Vol. I, pp. 161 - 7, 204, 296 ; Vol. II, pp. 5, 27 - 35, 50, 327 - 9, 334 - 6 ; Vol. III, pp. 169 - 8 ; Vol. IV, pp. 80 - 81, 357 - 8 .

ولمناقشةٍ ، أنظر على وجه الخصوص ساف – سودربرج ،

Ägypten und Nubien (Lund, 1941), pp. 7 - 10, 57 - 79, 141 - 75 .

١١- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 160 .

١٢- لمناقشةٍ ممدودة أنظر بخاصةٍ ساف – سودربرج ، مرجع سابق ،

(هامش رقم ١٠) pp. 230 - 34 .

١٣- أنظر خصوصاً المرجع نفسه pp. 210 - 13 ، و فيركوتر في كوش :

Kush VII (1959), pp. 133 - 53 .

١٤- قارن امرى ، مصر في النوبة Egypt in Nubie (London, 1965), p. 129 .

هينتز في كوش Kush XIII (1965), pp. 13 - 14 .

بتروفسكى في حفريات النوبة Fouilles en Nubie (1961 - 1963) (Cairo, 1967), pp. 134 - 40

سمبسون Heka - Nefer and the Dynastic Material from Toshka and Arminna, Publications of Pennsylvania - Yale Expedition to Egypt No. 1 (1963), pp. 50 - 53 .

١٥- قارن ويلسن ، ثقافة مصر القديمة

The Culture of Ancient Egypt (Chicago, 1951), pp. 143 - 4, 215 - 18 .

١٦- كيز ، مصر القديمة Ancient Egypt (Chicago, 1961), pp. 313 - 14 .

للمزيد عن المناقب أنظر إنقلباك في

Annales du Service des Antiquités de L'Égypte, Vol. XXXIII (1933), pp. 65-74 and Vol. XXXVIII (1938),pp. 369 - 90 .

ليتل في Annales du Service des Antiquités de L'Égypte, Vol. XXXIII (1933), pp. 75 - 80 .

موراى في المجلة الجغرافية Geographical Journal, Vol. 94 (1939), pp. 97 - 114

رو في Annales du Service des Antiquités de L'´Egypte, Vol. XXXVIII (1938), pp. 391 - 6, 678 - 88 .

١٧- أنظر سمبسون (هامش رقم ١٤) op. cit. , pp. 48 - 50 .

١٨- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 112 - 13 .

١٩- امرى في كوش Kush XI (1963), pp. 116 - 17 .

٢٠- قارن أدمز في كوش Kush IX (1961), pp. 33 - 8, Kush X (1962), pp. 62-75

لقد اقْتُرح في حقيقة الأمر أن الهياكل الماثلة فى بوهين هى على الأرجح قمائن لصنع الفَخار أكثر منها أفران لصهر المعادن (شينى ، تبادل شخصى) .

٢١- كان هذا فيما هو واضح إنطباع المُنَقِب ، وهو ليس مما يظهره عَدُّ الشظايا الحقيقى . وطبقا لدايفيد أوكونور (فى تبادل شخصى) ، الذى يدرس فَخار بوهين للنشر ، فإن شظايا ما يسمى بشقوق "ثقافة المجموعة الثانية" من مدينة المملكة القديمة تمثل عينة مشابهة تماما لأنواع "ثقافة المجموعة الأولى"، بدون أن تكون محتوية على "الأوانى المبرقشة ، بزخرفها (قارن الفصل الخامس).

٢٢- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 120 .

٢٣- فيرث ، المسح الآثارى للنوبة Archaeological Survey of Nubia, Report for 1908 - 1909 (Cairo, 1912), Vol. I, p. 24 .

لوكاس، Ancient Egyptian Materials and Industries, 3rd ed. (London, 1948), pp. 236 - 239 .

يعتقد دايفيد أوكونور أن المستوطنة الأصلية في كوبان أُنشئت اثناء المملكة القديمة ، إفتراضاً من أجل الحصول على ترسبات النحاس والذهب في وادى العلاقي ، أنظر

Nubian Archaeological Material of the First to the Second Intermediate Periods : an Analytical Study (Unpublished doctoral dissertation, Cambridge University, 1969), p. 207 .

٢٤- هينتز ، مشار إليه آنفا (هامش رقم ١٤) .

٢٥- بتروفسكى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 134 - 5 .

٢٦- قارن امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 114 ، رو ، مذكور آنفا (هامش رقم ١٦) .

٢٧- لمناقشة عنها أنظر ڤانديز La Famine dans L'Egypte Ancienne (Cairo, 1936)

و بل فى المجلة الأمريكية للآثار

American Journal of Archaeology, Vol. 75 (1971), pp. 1 - 26 .

٢٨- أنظر ويلسن ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 112 .

٢٩- أنظر فيشر في كوش Kush IX (1961), pp. 44 - 80 .

٣٠- قارن ويلسن ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 126 .

٣١- لمناقشة أنظر ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 57 - 61 .

٣٢- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 141 - 2 .

٣٣- كل قلاع الشلال الثانى ، عدا إثنين ، نُقبت في الجزء الباكر من القرن العشرين بواسطة متحف بوسطن للفنون الجميلة . ولملخصات عن هذا العمل أنظر دنهام في كوش :

Kush III (1955), pp. 70 - 74

وورايزنر في Kush VIII (1960), pp. 11 - 24 .

ولتقارير محددة أنظر دنهام و جنسن ، سمنة كومة ، قلاع الشلال الثانى

Semna Kumma, Second Cataract Forts, Vol. I (Boston, 1960)

ودنهام ، أدونارتى ، شلفاك ، مرقسة

Uronarti Shalfak Mirgissa, Secod Cataract Forts, Vol. II (Boston, 1967) .

٣٤- قارن ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 84 - 5 ،

سميث في كوش Kush XIV (1966), pp. 228 - 9

و فيركوتر ، مرقسة Mirgissa I (Paris, 1970), pp. 20 - 22

٣٥- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 148 - 9 .

٣٦- ما قبله ، p. 143 .

٣٧- أنظر قائمة الرمسيسيوم في قاردنر ، على وجه الأخص

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. III (1916), pp. 184 - 92

و بورخارت Altägyptische Festungen an der Zweiten Nilschnelle, Leipzig, Veröffentlichungen der Ernst von Sieglin - Expedition, No. 3 (1932) .

٣٨- هذا الإسم ، وهو غير مكتمل الذكر فى قائمة رمسيسيوم ، برز فى السطح فى معرض حفريات مستجدة فى جنوب سمنة ، أقصى القلاع المصرية موقعاً في الجنوب . أنظر زيكار في مجلة الآثار المصرية

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 58 (1972), pp. 83 - 91 .

٣٩- لتعريف بأسماء قلاع الشلال الثانى المختلفة ، أنظر خاصة ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 80 - 98 .

فيركوتر في كوش Kush VIII (1965), p. 66 وتودستد فى كوش

Kush XIV (1966), pp. 174 - 6 وانظر سميث ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٤) p. 230 .

٤٠- أنظر امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 148 - 9 .

٤١- أنظر راندال - ماك إيفر و وولى ، بوهين

Buhen, University of Pennsylvania Museum, Eckley B . Coxe Junior Expedition to Nubia, Vols. VII - VIII (1911) .

٤٢- من المحتمل أن يتأخر مجيء التقرير المحدد عن هذه الحفريات بسبب الوفاة المفاجئة للبروفسور امرى في مارس ١٩٧١ . أما التقارير الأولية فتوجد في كوش

Kush VII (1959), pp. 7 - 14 ; VIII (1960), pp. 7 - 10 ; IX (1961), pp. 81 - 6 ; X (1962), pp. 106 - 8 ; XI (1963), pp. 116 - 20 ; XII (1964), pp. 43 - 6 ;

وفي مجلة الآثار المصرية Journal of Egyptian Archaeology,

Vol. 44 (1958), pp. vii - viii ; 45 (1959), pp. 1 - 2 ; 47 (1961), pp. 1 - 3 ; 48 (1962), pp. 1 - 3 ; 49

(1963), pp. 2 - 3 .

٤٣– امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 149 .

٤٤– لأوصاف مختصرة شائعة و برسومها التخطيطية عن قلاع الشلال الثانى في غالبيتها أنظر المرجع نفسه pp. 9 - 143 . ولإعتبار أكثر تفصيلا عن قواعد الهندسة المصرية العسكرية كما تمثلها القلاع أنظر لورنس في مجلة الآثار المصرية

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 51 (1965), pp. 69 - 94 .

أنظر كذلك كمب فى أوكو ، ترينقهام و دمبلبى ، محررين ،

Man, Settlement and Urbanism (London, 1972), pp. 651 - 6 .

٤٥– كُتب وصف امرى لبوهين كاكبر قلاع الشلال الثانى (مرجع سابق ، هامش رقم ١٤ ، p. 148) قبل ان يكشف الحفر عن الحد الكامل لقلعة مرقسة .

٤٦– لسرود أولية عن الحفريات في مرقسة أنظر ويلر Kush IX (1961), pp. 87 - 179

ومقالات كتبها فيركوتر في كوش Kush XII (1964), pp. 57 - 62

Kush XIII (1965), pp. 62 - 73 ; Bulletin de la Sociéte Française d'Égyptologie, No. 37 - 8 (1963), pp. 23 - 30 ; No. 40 (1964), pp. 4 - 12 ; No. 43 (1965), pp. 7 - 13 ; No. 49 (1967), pp. 5 - 11 ; No. 52 (1968), pp. 7 - 14 ; Revue d' Egyptologie, Vol. 15 (1963), pp. 69 - 75 ; and Vol. 16 (1964), pp. 179 - 91 .

أما الأول من بين تقارير عديدة يعمل على أن تصدر محددة فهو فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٤) .

٤٧– لتقرير ، أنظر روبى في كوش Kush XII (1964), pp. 54 - 6

٤٨– أنظر بدوى في كوش Kush XII (1964), pp. 47 - 53

وفي مجلة الآثار Archaeology, Vol. 18 (1965), pp. 124 - 31

وفي مجلة مركز البحوث الأمريكى في مصر Journal of American Research Center in Egypt, Vol. V (1966), pp. 23 - 7 .

٤٩– أنظر دنهام ، Uronarti Shalfak Mirgissa, Second Cataract Forts, Vol. II (Boston, 1967), pp. 115 - 40 .

٥٠– للتقرير المحدد عن هاتين القلعتين أنظر دنهام و جنسن ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٣) .

٥١– لتقرير عن الحفريات التجريبية في هذا الموقع أنظر فيركوتر في كوش Kush XIV (1966), pp. 125 - 34 .

ولم تُرفع التقارير بعد عن حفريات أشد تكثيفا من قبل المعهد الشرقى بشيكاغو .

٥٢– للتقرير المحدد ، أنظر دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٩) pp. 3 - 114 .

٥٣– لأوصاف موجزة شائعة ورسوماتها أنظر امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 150 - 52 .

٥٤– للتقرير الخاص بالتنقيب في هذه القلعة أنظر امرى و كيروان

The Excavations and Survey between Wadi es-Sebua and Adindan (Cairo, 1935), Vol. I, pp. 26-44 .

٥٥– قارن امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 107 - 10 .

٥٦– أنظر فيركوتر في Bulletin de la Société Française d'Égyptologie, No. 43 (1965), pp. 10 - 11.

وخاصة فيلا في عرض المصريات

Revue d'Égyptologie, Vol. 22 (1970), pp. 171 - 99 .

٥٧– مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 153 .

٥٨– ما قبله

٥٩- ساف - سودربرج ، تبادل شخصى .

٦٠- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) p. 68

٦١- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 153

٦٢- لمناقشة مطولة فى هذا الموضوع أنظر فيلا ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٦) ، 9 - pp. 198 .

٦٣- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 175 .

٦٤- قارن رايزنر في كوش Kush III (1955), pp. 26 - 69

٦٥- أنظر آدمز و نوردستروم في كوش Kush XI (1963), p. 23

٦٦- أنظر هينتز في كوش Kush XII (1964), pp. 40 - 41

٦٧- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 149 .

٦٨- كما يقترح أركيل ؛ أنظر

A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961). p. 60 .

٦٩- كل من ساف - سودربرج (مرجع سابق ، هامش رقم ١٠ ، 91 - pp. 89)

و فيركوتر (مرجع سابق ، هامش رقم ٣٤ ، 3 - pp. 171) يعارضان بشدة هذا الرأى ، معتقدين أن قلاع الشلال الثانى لعبت دوراً هاماً في الدفاع عن حدود مصر الجنوبية وحماية التجارة النهرية على قدم المساواة .

٧٠- إقتراح سبق أن طرحه رايزنر في

Sudan Notes and Records, Vol. XII (1929), pp. 150 - 51

و ساف - سودربرج في المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ١٠) p. 91 .

٧١- غير وارد كتقرير كامل مطبوع بعد ؛ لتقارير أولية أنظر فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٩) 8 - pp. 67 وفي Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Comptes Rendus des Séances de L'Année 1966, pp. 278 - 9 .

٧٢- المرفأ الرئيس ومنطقة التخزين فى بوهين يبدو أنها كانت في كور ، ثلاثة أميال جنوبا . لتقرير عن الحفريات هنا ، أنظر سميث ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٤) .

٧٣- أنظر فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٩) 9 - pp. 68 و فيلا في فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٤) pp. 204 - 14 .

٧٤- إفتُرض في العادة من المحتوى أن هيح إسم آخر لسمنة ؛ قارن بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) ، Vol. I, p. 294 ، ويلسن ، مرجع سابق ، (هامش رقم ١٥) p. 137 ، و امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 157 . ومع هذا يجادل ذلك التفسير من ناحية فيركوتر الذى يصور هيح فى مكان ما بين مرقسة و بوهين . أنظر Revue d' Egyptologie, Vol. 16 (1964), pp. 187 - 8

٧٥- مأخوذ من امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 157 .

٧٦- سنوات قليلة لاحقة شيد سنوسرت "مسلة حدودية" اشد عنفاً ؛ أنظر لترجمتها المرجع المذكور من قبل ، pp. 157 - 8 .

٧٧- قارن مبادئ الاقتصاد السياسى

Principles of Political Economy, 5thed. (New York, 1923), Vol. I, pp. 258 - 9 .

٧٨- أنظر سميثر في مجلة الآثار المصرية

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXXI (1945), pp. 3 - 10 .

٧٩- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 95 .

٨٠- لمناقشة عن هذه المسألة أنظر ، بين مراجع اخرى ، ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 14 - 20 ، ديكسون في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 44 (1958), pp. 40 - 55

و إيدل فى الشرق Orientalia, Vol. 36 (1967), pp. 133 - 58

٨١- أثار هينتز جدلاً حول هذه النقطة ؛ أنظر
Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 91 (1964). pp. 79 - 86 .
أما بريز ، مع ذلك ، فقد بيّن صلةً لغوية محتملة بين إسم "يام" القديم وإسم "كرمة" الحديث ؛ أنظر
Altorientalische Forschungen, Vol. I (in press)

وتوجد مناقشة أكمل حول موضوع كرمة في الفصل القادم .

٨٢- إعتبر رايزنر أن بدو الصحراء الغربية كانوا يشكلون أقوى مهدد تجارة مصرالنهرية ، أنظر المرجع المذكور انفا (هامش رقم ٧٠) p. 146 .

٨٣- أنظر الفصل السادس .

٨٤- للمناقشة أنظر ساف – سودربرج ، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) pp. 83 - 5 ، ولتقرير المُنَقب كاملاً طالع إشتايندورف ،
Aniba II (Cairo and Glückstadt, 1937), pp. 6 - 16 .

٨٥- للمناقشة أنظر ساف – سودربرج ، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) pp. 85 - 9 ، ولتقرير المُنَقب أنظر امرى و كيروان ، المذكور أنفا (هامش رقم ٥٤) .

٨٦- أنظر قريفيث في University of Liverpool Annals of
Archaeology and Anthropology, Vol. VIII (1921), pp. 80 - 82 and pl. XVI

٨٧- أنظر بخاصة نودستد ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٩) pp. 172 - 8 .

٨٨- يعتقد ساف – سودربرج آن قلاع فرس وسرة قصد منها إدارة شئون السكان النوبيين لأنه لا يستطيع أن يرى أى سبب ظاهر آخر لوجودها (مرجع سابق ، هامش رقم ١٠ ، p. 85) ، على أن هذا الإعتقاد لاتدعمه بَينة أثارية صلبة . وهنالك جَبانة ذات حجم "لثقافة المجموعة الثالثة" تجاور فرس ، وجَبانة أصغر كثيراً فى ضاحية سَرة ، ولكن ، فى كل حالة ، كانت هناك تركزات سكانية اكبر حجماً ، أميالاً قليلة نحو الجنوب .

٨٩- قارن بوجهٍ خاص لورنس ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٤) .

٩٠- فى هذا التفسير ، أدين فى الأساس ل جون ويلسن ؛ أنظر خصوصاً المرجع السابق (هامش رقم ١٥) pp. 141 - 4 . ويأخذ علماء كثيرون في المصريات وجهة نظر مختلفة تماماً عن المملكة الوسطى.

٩١- أنظر إنقلباك ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) و رو ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) .

٩٢- ليتل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) ، موراى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) .

٩٣- سمبسون ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 50 - 53 . لقد إقترح أن الأرقام ربما تمثل عدد الساعات التى عملها الرجال اكثر منها عدداً للرجال والحيوانات (تربقر في تبادل شخصى) .

٩٤- رو في . Annales du Service des Antiquités de l'Égypte, Vol. XXXIX (1939), pp. 188 - 91
ولوكاس ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) pp. 240 - 41 .

٩٥- لوكاس ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) p. 239 .

٩٦- ما قبله ، p. 236 .

٩٧- قارن كيرنى في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 33 (1947), p. 56
بتروفسكى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) ، p. 135

٩٨- أنظر جُن في Annales du Service des Antiquités de l'Égypte, Vol. XXIX (1929), p. 11 .

٩٩- قارن ساف – سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 86 - 9 .

١٠٠- أنظر فيركوتر في كوش Kush VII (1959), pp. 133 - 4

١٠١- أنظر شينيك في كوش Kush V (1957), pp. 47 - 8

إن مناجم الذهب فى دويشات قامت مصلحة آثار السودان بالتحقيق فى شأنها بشكل أكثر إكتمالاً عام ١٩٦٦ ، ولكن لم يظهر تقرير بعد عن هذا العمل .

١٠٢- مأخوذ من قاردنر ، المرجع السابق (هامش رقم ٧) p. 166 . وفى هذا المحتوى لابد أن "مصر" تشير إلى كل الاقليم الذى يعده الفرعون مشروعاً له ، بما فى ذلك النوبة السفلى إفتراضا . وليس هناك إقتراح أن النوبيين حكموا أى جزء من مصر المعلومة خلال الفترة الوسيطة الثانية .

١٠٣- قارن ساف – سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 128 - 9 ؛

ساف – سودربرج فى كوش Kush IV (1956), pp. 59 - 60

١٠٤- أنظر هامش رقم ٧٨ .

١٠٥- قارن ساف – سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 126 - 8 .

١٠٦- أنظر خصوصاً امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 102 , 167 .

١٠٧- أنظر آدمز في Antiquity, Vol. XLII (1968), pp. 207 - 8

١٠٨- عن البيّنة المتعلقة بالحرق فى سمنة ، أنظر دونهام و جنسن ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٢) p. 6 .

١٠٩- لا يعتقد ساف – سودربرج أن الحاميات سُحبت ، ولكنها إمتلئت بالتدريج بعد أن قطع عنها الإمداد من مصر ، أنظر المرجع السابق (هامش رقم ١٠) pp. 126 - 7 .

١١٠- قارن نودستد ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٩) p. 183 . ويؤمن المنَقِب بأن قلعة دور جنارتى شُيدت وشُغلت تماما فى المملكة الجديدة (نفسه ، p. 186) ، ولكننى أعتبر خصائصها الهندسية مع البّينة المشار إليها فى التو موحية بأنها في الأصل بنيت فى المملكة الوسطى ، ثم أُعيد إنشاؤها بقدر كبير (بعد مضى فترة من الاحتلال النوبى المطوق لها) فى المملكة الجديدة .

١١١- أنظر بدوى في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. V (1966), pp. 23 - 4

١١٢- ساف – سودربرج في مجلة الآثار المصرية Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 35 (1949), pp. 50 - 58

بارنز في كوش Kush II (1954), pp. 19 - 22

١١٣- ساف – سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١١٢) p. 55 .

١١٤- قارن ، المرجع نفسه ، pp. 52 , 56 .

الفصل الثامن

المصادر الأساسية : العمل الرئيس فى وصف كرمة لايزال هو المجلدان "حفريات في كرمة" "Excavations at Kerma", Harvard African Studies, Vols. V - VI (1923)

وهما لجورج أ. رايزنر . ومنذ وقت قريب وقع فى اليد وصف تاليفى لمبارك الريح عن مشكلات ثقافة كرمة في تاريخ السودان القديم مراجعةً في ضوء حضارة السودان القديمة كعملية متواصلة ،

The Problems of Kerma Culture of Ancient Sudan Reconsidered in the Light of Ancient Sudan Civilization as Continuous Process (unpublished doctoral dissertation, Humboldt-Universität zu Berlin).

ولإعتبار الأهمية العظيمة تاريخا لكرمة إعتمدت أيضا على ساف – سودربرج Ägypten und Nubien (Lund, 1941), pp. 103 - 16,

بايتاك Studien zur chronologie der Nubischen C-Gruppe, Österreichische Akademie der Wissenschaften, Philosophisch

-Historische Klasse Denkschriften, 97 (1968), pp. 117 - 26,

و أوكونور

Nubian Archaeological Material of the First to the Second Intermediate Periods : an Analytical Study (unpublished doctoral dissertation, Cambridge University, 1969) .

١- بريز يعتقد الآن أنه قد بيّن علاقة لغوية بين "كرمة" الإسم الحديث ، و "يام" الإسم القديم ؛ أنظر Altorientalische Forschungen, Vol. I (in press) .

٢- رايزنر ، "حفريات فى كرمة" "Excavations at Kerma" , IV, Harvard African Studies, Vol. VI (1923), pp. 323 - 5 .

٣- المرجع نفسه ، pp. 329 - 30 ؛ فيركوتر في Mélanges offerts á Kazimierz Michalowski (Warsaw, 1966), pp. 209 - 10 .

٤- أنظر أوكونور Nubian Archaeological Materil of the First to the Second Intermediate Periods : an Analytical Study (unpublished doctoral dissertation, Cambridge university, 1969) p. 139 .

٥- "حفريات في كرمة" "Excavations at Kerma", III, Harvard African Studies, Vol. V (1923), p. 71

٦- قارن جنكر Bericht über die Grabungen der Akademie der Wissenschaften in Wien auf den Friedhöfen von EL-Kubanieh-Nord, Winter 1910 - 1911, Akademie der Wissenschaften in Wien, Philosophisch-Historische Klasse Denkschriften, 64, Band 3 (1920), p. 29.

٧- "حفريات في كرمة" "Excavations at Kerma", Harvard African Studies, Vols. V and VI (1923) .

٨- قارن ساف – سودربرج ، Ägypten und Nubien (Lund, 1941), p. 103 .

٩- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 32 .

١٠- نفسه ، p. 39 .

١١- هذا بالضرورة هو موقف ساف – سودربرج (مرجع سابق ، هامش رقم ٨، pp. 103 - 16) .

ومع هذا ، يؤمن هينتز أن كرمة كانت فى المقام الأول إقامة نوبية ملكية أكثر منها نقطة تجارية ؛ أنظر Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol 91 (1964), pp. 82 - 5 .

١٢- قارن رايزنر ، المرجع السابق (هامش رقم ٥) pp. 24 - 5 ؛ ساف – سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 115 - 16 ؛ اركيل ، تاريخ السودان A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 68 .

١٣- طالع تريقر ، History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), p. 95 .

١٤- إقترح هذه الوظيفة أنفا ساف – سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) ، p. 105 .

١٥- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٥) pp. 61 - 528 .

١٦- نفسه ، p. 65 .

١٧- نفسه ، p. 69 .

١٨- نفسه ، p. 66 .

١٩- في المدفن التلى ؛ أنظر المرجع نفسه ، p. 81 .

٢٠- نفسه ، p. 79 .

٢١- هذا مناقض لإفتراض رايزنر (نفسه pp. 116 - 17) ، ولكنه يبدو أكثر منطقية على أساس بدهى.

٢٢- نفسه ، p. 265 .

٢٣- يشير ساف - سودربرج إلى أن رايزنر كان يعتبر فى الأصل قوم كرمة نوبيين
(Bulletin of the Museum of Fine Arts, Vol. XIII, 1915, pp. 29-36, 71-83)
ولم يقم بتبنى نظرية هويتهم المصرية إلا مؤخرا . وللتعرف على التعبير الكامل للرأى المذكور أخيراً أنظر رايزنر ، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 554 - 9 .

٢٤- جنكر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) ؛
جـنـكـر Die Nubishe Ursprung der Sogennanten Tell el-Jahudiye-Vasen, Akademie der Wissenschaften in Wien, Philosophisch-Historische Klasse Sitzungsberichte, 198, Part 3 (1921)
ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) ، pp. 111 - 13 .

٢٥- اكثر من مائة تمثال كامل او كقطع مكسورة عُثر عليها وسط القبور "الملكية" في كرمة : أنظر رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 554 - 9 .

٢٦- للجديد حول الجدل الدائر عن كرمة أنظر هينتز ، المرجع السابق (هامش رقم ١١) ؛
الريح ، The problems of Kerma Culture of Ancient Sudan Reconsidered in the Light of Ancient Sudan Civilization as a Continuous Process (unpublished doctorzl dissertation, Humboldt-Universität zu Berlin) ,

و أدمز في :
Ägypten und Kusch, Schriften zur Geschichte and Kultur des Alten Orients, Zentralinstituts für Alte Geschichte und Archaologie der Akademie der Wissenschaften der DDR, Vol. 13 (1976), pp. 38 - 48 .

٢٧- أنظر الهامش رقم ٢ .

٢٨- أنظر الهامش رقم ٢٤ ؛ كذلك هينتز ، المرجع المشار إليه أنفا (هامش رقم ١١) .

٢٩- فى النوبة تجد الأسوار في بناء مستقيم بشكل غير عادى والزوايا قائمة فى صحة ملامح دالة على الهندسة الفرعونية ؛ وهى بوضوح مفتقرة إلى البناء الطوبى كما يمارسه أهالى النوبة .

٣٠- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) p. 130 . لقد عبر عن هذه الافكار أصلاً جنكر في
Studies Presented to F. Ll Griffith (London, 1932), pp. 297 - 303

٣١- هينتز (مرجع سابق ، هامش رقم ١١) يذهب إلى أبعد من ذلك ، منكراً وجود أى من الأعمال المصرية التجارية فى كرمة . وفى رأيه أن المصريين الوحيدين الذين ربما كانوا مقيمين فى كرمة هم صناع فى خدمة الحاكم النوبى .

٣٢- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 126 .

٣٣- اقُترحت هذه الامكانية أولاً من ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) p. 115 ، ثم من هينتز بتشدد اكثر ، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 84 .
ويعتقد أوكونور (مرجع سابق ، هامش رقم ٤ ، p. 79) أن الترميمات الموصوفة فى لوح إنتف ربما أنها نفذت فى قلعة الحدود المصرية في إلفانتين (أسوان) .

٣٤- إن وصف رايزنر بتفاصيله الدقيقة الذى أعاد فيه صياغة التسلسل التطورى للمدفن التلى العظيم (مرجع سابق ، هامش رقم ٥ ، pp. 116 - 21) مفتوح للمقارعة على عدد من الحجج التي لا يمكن التوسع فيها هنا . أنظر أدمز ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٦) pp. 45 - 7 .

٣٥- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 86 .

٣٦- دفُعت هذه الفكرة من قبل بواسطة ساف - سودربرج ، مرجع سابق ، (هامش رقم ٨) pp. 110 - 16 ، وفى كوش Kush IV (1956), pp. 59 - 61 ،
وهينتز المرجع السابق (هامش رقم ١١) .

٣٧- في تقريره ، أشار في تماسك إلى الجزء الجنوبي من الجّبانة على أنه الجّبانة "المصرية" وإلى الجزء الشمالي أنه الجّبانة "النوبية"، مع التسليم بأنه لا يمكن رسم خط فاصل محدد بينهما .

رايزنر مرجع سابق (هامش رقم ٥) ، pp. 61 - 121 .

٣٨- قارن بوسنر في كوش Kush VI (1958), p. 55

٣٩- أنظر ميلز و نوردستروم في كوش Kush XIV (1966), pp. 8 - 10

٤٠- إكّتشفت من مصلحة آثار السودان بين ١٩٦٦ ، ١٩٦٩ ، وهي مواقع لم يعلم عنها بعد في تقرير منشور .

٤١- بوسنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٨) pp. 39 - 68 ؛

هينتز ، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 83 - 5 .

٤٢- أنظر قراتين في فيركوتر وآخرين ، مقالات فى مصر والسودان القديم

Études sur l'Égypte et le Soudan Anciens, Cahier de Recherches de l'Institut de Papyrologie et d'Egyptologie de Lille (1973), pp. 143 - 84 .

ولتقرير مبدئي سابق أنظر فيركوتر في كوش Kush VI (1958), pp. 148 - 51

٤٣- أتيحت لي سانحة لفحص كثير من المادة المجلوبة من آكمة ، ميدانياً عام ١٩٦٩ .

٤٤- تبادل شخصي مع أندريه فيلا .

٤٥- ميلز و نوردستروم ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٩) ، pp. 10 - 11 .

٤٦- ساف - سودربرج في كوش Kush XV (1973), pp. 230 - 31

٤٧- فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣) ؛ فيلا في فيركوتر ،

Mirgissa I (Paris, 1970), pp. 223 - 305 .

٤٨- أدمز و نوردستروم في كوش Kush XI (1963), pp. 19 - 21

٤٩- راندال - ماك إيفر و وولي ، بوهين

Buhen, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vols. VII-VIII (1911), pp. 133 - 5 and pls. 49 - 52.

٥٠- إشتايندورف ، Aniba I (Cairo and Glückstadt, 1935), pp. 196 - 201

٥١- فيرث ، Archaeological Survey of Nubia, Report for 1910 - 1911 (Cairo, 1927), pp. 50 - 98, 128 - 9 .

٥٢- أنظر هامش رقم ٤٧ للمراجع .

٥٣- أنظرالهامش رقم ٤٨ للمراجع .

٥٤- أنظر ساف - سودربرج ، مجلة الآثار المصرية

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 35 (1949), p. 55 .

٥٥- قارن بخاصة ساف - سودربرج فى كوش Kush IV (1956), pp. 54 - 61

٥٦- قاردنر ، Egypt of the Pharaohs (New York, 1966) p. 166 .

وأنظر الفصل السابع ، الهامش رقم ١٠٢ .

٥٧- لقائمة بالمواقع التي وجدت بها القبور الجامعة في مصر نفسها أنظر ساف - سودربرج ، المرجع السابق (هامش رقم ٨) pp. 136 - 7 .

٥٨- عن القبور الجامعة في النوبة السفلى أنظر بايتاك

Studien zur Chronologie der Nubischen C-Gruppe, Österreichische Akademie der Wissenschaften, Philosophisch-Historische Klasse Denkschriften, 97 (1968), pp. 117 - 23, 179 .

٥٩- جنكر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 33 ، امرى و كيروان

Excavatios and Survey between Wadi es-Sebua and Adindan (Cairo, 1935), Vol. I, p. 5 ,

كيروان Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXV (1939), pp. 107 - 9

امرى Egypt in Nubia (London, 1965), p. 135

٦٠- أنظر وينرايت ،

Balabish, Egypt Exploration Society, Excavation Memoir 37 (1920), pp. 42 - 52 ,

ساف – سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 138 - 40 .

بايتاك ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) .

أوكونور ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 37 - 42 .

٦١- ساف – سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) ، p. 139 .

٦٢- أوكونور ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 28 - 9 .

٦٣- أنظر بخاصة بولاني ، داهومي وتجارة الرقيق

Dahomey and the Slave Trade (Seattle, 1966) .

الفصل التاسع

المصادر الأساسية : أهم مصدر مُنفرد لفترة حكم المملكة الجديدة في النوبة لايزال

ساف – سودربرج Ägypten und Nubien (Lund, 1941), pp. 141 - 245

ولقد إعتمدت أيضاً ، كما فعلت في سابقة ، على أركيل

A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), pp. 80 - 109 .

امرى Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 172 - 207

وتريقر History and Settlement in Lower Nubia,

Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), pp. 106-14 .

ومطبوع حديث ، تريقر Nubia under the Pharaohs (London, 1976)

١- ويلسن ، ثقافة مصر القديمة The Culture of Ancient Egypt (Chicago, 1951) Ch. VII

إن أصل الهكسوس وطبيعة حكمهم في مصر كان أمراً يظل مثاراً للجدل . ولعرض لأكثر نظرية مقبولة عموما اليوم أنظر ساف – سودربرج

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 37 (1951), pp. 53 - 71 .

ولوجهات نظر أخرى ، طالع ڤان ستترز The Hyksos (New Haven, 1966)

وعروض من أبهل و بوريو في

Journal of Near Eastern Studies, Vol. 28 (1969), pp. 127 - 33

٢- ساف – سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١) ، p. 68 . يشير المؤلف إلى أن هذا النص ليس عائدا إلى نص أصلي ولكنه محفوظ في قصة شعبية ترجع إلى أزمان متأخرة وتحمل نغمة شديدة العداء للهكسوس . أما النصوص المعاصرة فهى لاتفيد بأن الجفوة بين المصريين والهكسوس كانت من الشدة بمثلما توحي به الدعاية المتأخرة .

٣- نفسه p. 71 .

٤- قارن امرى Egypt in Nubia (London, 1965), p. 173

٥- أنظر أركيل في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 36 (1950), pp. 36 - 9

و أركيل A History of the Sudan, Znd ed. (London, 1961), p. 89

٦- قارن ساف – سودربرج Ägypten and Nubien (Lund, 1941), pp. 155 - 75

٧- لمناقشة عن مدن – المعابد المصرية في النوبة أنظر كمب في أوكو، تريمنغام، وديمبلبي، محررين،
Man, Settlement and Urbanism (London, 1972), pp. 651 - 6, 666 - 7 .

٨- تبادل شخصي من ريكاردو كامينوس .

٩- لم يكن رمسيس أول فرعون مصري يمثل نفسه بهذه الضخامة الباذخة ؛ فقد سبقه (دون أن يماثله في نفس المستوى بحق) أمنحتب الثالث في الأسرة الثامنة عشرة .

١٠- امري ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 194 - 5 .

١١- بورخارت Travels in Nubia (London, 1819), pp. 90 - 91

١٢- امري ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 198 - 9 .

١٣- لتحليل أكثر تفصيلا عن توزيع الاستيطان في النوبة السفلى أنظر تريقر
History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), pp. 152 - 4 .

١٤- لمناقشة العلاقة بين المعبد والمدينة في مصر والنوبة القدماء أنظر كمب ، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 657 - 76 .

١٥- قارن كيز ، Ancient Egypt (Chicago, 1961), p. 325

يبدو محتملاً مع ذلك أن عنيبة كانت بشكل معتاد مقراً لإقامة نائب الوالي في النوبة السفلى. أنظر رايزنر
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. VI (1920), pp. 84 - 5

١٦- رايزنر في . Bulletin of the (Boston) Museum of Fine Arts, XXVII (1929), p. 74

١٧- هينتز في كوش Kush XIII (1965), p. 13

١٨- فيركوتر في Kush VI (1958), p. 155

ولسرد لمخلفات المملكة الجديدة في صاي أنظر فيركوتر وآخرين
Études sur l'Égypte et le Soudan Anciens, Anciens, Cahiers de Recherches de l'Institut de Paprologie et d'É gyptologie de Lille (1973), pp. 9 - 38

١٩- أنظر فيرمان في
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXIV (1938), p. 153

شيف جيورجيني في كوش
Kush IX (1961), pp. 183 - 5, 197 .

٢٠- قارن فيرمان في
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXV (1939), p. 143 .

٢١- هذان الموقعان ظلا تحت التنقيب سنوات عديدة من ناحية بعثة من جامعة بيزا .

للتقارير الأولية أنظر شيف جيورجيني في كوش
Kush IX (1961), pp. 181 - 209, Kush X (1962), pp. 152 - 69, Kush XII (1964), pp. 87 - 95, Kush XIII (1965), pp. 112 - 30, and Kush XIV (1966), p. 244 - 61 .

وقد صدر الآن مجلدان محددان عن معبد صلب : شيف جيورجيني ،
Soleb I (Florence, 1965), and Soleb II (Florence, 1972) .

٢٢- فيرمان ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 153 .

٢٣- للمزيد عن الرسومات التخطيطية وملامح هذه المدن أنظر كمب ، مرجع سابق ، (هامش رقم ٧) pp. 651 - 5 .

٢٤- أنظر شيف جيورجيني في كوش Kush X (1962), pp. 152 - 61

٢٥- قارن أركيل A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), pp. 91 - 3

٢٦- لتقارير أولية أنظر فيرمان في
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXIV (1938), pp. 151 - 6,
Vol. XXV (1939), pp. 139 - 44, Vol. 34 (1948), pp. 3 - 11,
و شيني في . Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 37 (1951), pp. 5 - 11
٢٧- فيرمان في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 34 (1948), p. 11
٢٨- رايزنر في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. V (1918), pp. 90 - 100
and in Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 66 (1931), pp. 76 - 81.
٢٩- رايزنر في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. IV (1917), pp. 215 - 27.
٣٠- لتقارير محددة عن موقع كاوة أنظر ماكادام
The Temples of Kawa, Vol. I (Oxford, 1949) and Vol. II (Oxford, 1955).
٣١- أنظر جاكيه - قوردون وآخرين في
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 55 (1969), p. 106 and pl. XXIII.
٣٢- لربما أن ثووري سبقه في تولى منصب الوالى أبوه سا - تايت ؛ أنظر حبشى في كوش
Kush VII (1959), pp. 45 - 62
٣٣- لقائمة شاملة ومناقشة عن ولاة كوش أنظر رايزنر في
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. VI (1920), pp. 28 - 55, 73 - 8.
٣٤- توينبى A Study of History, Vol. 2 (New York, 1962), pp. 112 - 18
٣٥- سمبسون يفسر هذه الفقرة لتعنى "صانع الصندل" ؛ أنظر
Heka-Nefer and the Dynastic Material from Toshka and Arminna, Publications of the
Pennsylvania-Yale Expedition to Egypt, No. 1 (1963), p. 5.
٣٦- أركيل مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) pp. 98 - 100 . ولمناقشة أكمل حول إدارة الولاية أنظر رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٣)، pp. 84 - 8 ، وساف سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦)، pp. 177 - 84 .
٣٧- في النص المقتطف من أركيل (هامش رقم ٣٦) .
٣٨- أنظر دايفيز و قاردنر ،
٣٩- سمبسون ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) pp. 2 - 18 .
٤٠- ساف - سودربرج فى كوش Kush VIII (1960), pp. 25 - 44
Kush XI (1963), pp. 159 - 74
٤١- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 205 - 6 .
لتقرير المُنَقِب عن هذه المقبرة أنظر إشتايندورف
Aniba II (Cairo and Glückstadt, 1937) pp. 242 - 7.
٤٢- مرجع سابق (هامش رقم ١٣) pp. 111 - 12 .
٤٣- ساف - سودربرج فى كوش Kush VIII (1960), pp. 38 - 44
لمناقشة أكمل عن خبراء النوبة خلال فترة المملكة الجديدة أنظر ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 206 - 30 .
٤٤- ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 200 .
٤٥- طبقا لساف - سودربرج (تبادل شخصى) فإن دخول الشادوف غير مؤكد ببرهان محدد حتى فى مصر قبل الأسرة الثامنة عشرة المتأخرة .
٤٦- كيز ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 208 .

٤٧- للمزيد حول الدور الإقتصادى وأنشطة المعابد المصرية أنظر كمب ، مرجع سابق ، (هامش رقم ٧) pp. 657 - 76 .

٤٨- دايفيز و قاردنر ، مشار إليهما سابقا (هامش رقم ٣٨) .

٤٩- قاردنر Egypt of the Pharaohs (New York, 1966), p. 270

٥٠- ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 168 .

٥١- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) p. 95 .

٥٢- قارن ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 226 - 30 .

٥٣- مقتطف من امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 184 . ولمناقشة أكمل أنظر ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 206 - 11 .

٥٤- لوكاس ، . Ancient Egyptian Materials and Industries, 3rd ed. (London, 1948), p. 258

٥٥- أنظر فيركوتر في كوش Kush VII (1959), p. 130
ولمناقشة أكمل أنظر ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 210 - 66 .

٥٦- فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٥) .

٥٧- أنظر المرجع نفسه pp. 147 - 8 .

٥٨- مقتطف من امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 193 .

٥٩- بيتروفسكى في Fouilles en Nubie (1961-1963) (Cairo, 1967), pp. 136-40.

٦٠- نفسه .

٦١- لوكاس ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٤) pp. 261 - 2 .

٦٢- فيركوتور ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٥) p. 140 .

٦٣- لتقرير أولى أنظر ميلز في كوش Kush XIII (1965), p. 7
أنظر كذلك دون ،
Notes on Mineral Deposits of the Anglo-Egyptian Sudan (Khartoum, 1911), p. 17 .

٦٤- راندال - ماك إيفر و وولى ،
Areika, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vol. I (1909), p. 13 .

٦٥- كوش Kush XII (1964), p. 31

٦٦- أنظر ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 187 - 9 ؛
جنكر Ermenne, Akademie der Wissenschaften in Wien, Philosophisch- Historische Klasse Denkschriften, 67, Band I (1925), p. 37 .

٦٧- ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦٥) .

٦٨- أنظر الشكل رقم ١٢ ؛ أنظر كذلك موخرجى ، رو و تريفور
The Ancient Inhabitants of Jebel Moya (Sudan) (Cambridge, 1955), p. 85.

٦٩- لقد راجعت هذه المسألة بإستطالة اكثر في
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 105 - 8 .
وللدفوع التى رفعها ساف - سودربرج ، ملخصا الحجج المحبذة "لفرضية التمثل الثقافى"، أنظر
Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, XVII, Supplementa I (1969), pp. 12-20
وفي كوش
Kush XV (1973), pp. 237 - 42

٧٠- للتوثيق الخاص بهذه المسأله أنظر آدمز ، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) ، p. 106 ،

هامش رقم ١ .

٧١- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 178 - 9 .

٧٢- قارن بوجه خاص ساف - سودربرج فى كوش

Kush XI (1963), pp. 59 - 64 and Kush XII (1964), pp. 31 - 7 .

وعلى سبيل المقارنة يفترض فيركوتر أن "جَبّانة المملكة الجديدة فى مرقسة التى تحتوى على أكثر من ٥٠٠ قبر - حفر منها ٢٣٧ قبرا - كانت فقيرة للغاية بالتأكيد .

فأحيانا لايضع بين القبر سوى إناء واحد !" (تبادل شخصي مع فيركوتر) .

٧٣- أنظر آدمز في Antiquity, Vol. XLII (1968), p. 203

كروبر في American Anthropologist, Vol. 29 (1927), pp. 808 - 15 .

٧٤- أنظر هامش رقم ٦٥ .

٧٥- أنظر تريقر قريفيث عن جَبّانة صنم في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. X (1923), esp. pp. 73 - 90

٧٦- البعثة الإسكندنافية المشتركة ، الجَبّانة رقم ١٨٥ . ولتقارير مطبوعة انظر الهامش رقم ٧٢.

٧٧- أنظر الهامش رقم ٦٨.

٧٨- فاقن نيلسن، Human Remains, Scandinavian Joint

Expedition to Sudanese Nubia Publications, Vol. 9 (1970), pp. 86-7.

٧٩- ما قبله ، P. 86 .

٨٠- نفسه، P. 87 .

٨١- لربما يذكر انه لا توجد بَيّنة دالة على الإستعمار المصرى بين كاوة ، بالقرب من الشلال الثالث، وجبل البركل بالقرب من الشلال الرابع مباشرة.

٨٢- المسح الآثارى للنوبة Archaeological Survey of Nubia,

Report for 1910- 1911 (Cairo, 1927), p. 28 .

٨٣- أنظر الهامش رقم ٧٠ .

٨٤- هذه الفجوة الظاهرة في السجل الآثارى أشار إليها أول الأمر فيرث

Archaeological Survery of Nubia, Report for 1909 - 1910 (Cairo, 1915), pp. 21-3.

ثم ايدها قريفيث

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XI (1924), pp. 115-17.

ولربما كان مفترضًا في البداية أن غياب بقايا أثرية من الألفية الأخيرة قبل الميلاد يمكن أن يرجع إلى إستطلاع غير منظم منهجيا، إلاّ أن المسوح المكثفة في الحقبة الأخيرة لم توفق في إيجاد أي مخلفات من نفس الفترة. ولمناقشة أنظر آدمز في

Mélanges Offerts à Kazimierz Michalowski (Warsaw, 1966), pp. 21-2,

وفي Sudan Notes and Records, Vol. XLVIII (1967), pp. 10-11

٨٥- فيرث ، مرجع سابق (هامش رقم ٨٢).

٨٦- أنظر رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) pp, 68-9 .

بورتر وموس, Nubia, the Deserts, and outside Egypt,

Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs and Paintings, VII (1962), pp. 150-51.

ولمناقشة أنظر فيركوتر في كوش Kush XIV (1966), pp. 132-9

٨٧- فيركوتر في كوش Kush XI (1963), pp. 133-4

دى هينزلين في كوش Kush XII (1964), pp. 102 - 10

تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) p. 31 .

بل في American Journal of Archaeology, Vol. 79 (1975), pp. 260-65.

٨٨- لمناقشة حول هذه النقطة أنظر بتزر في

(Mainz) Akademie der Wissenschaftlichen und der Literatur, Abhandlungen der Mathematisch - Naturwissenschaftlichen Klasse, No. 2(1959),

وفي Bulletin de la Société de Géographie d'Égypte, Vol. XXXII (1959), pp. 43-87

وفي Science, Vol. 175 (1972), pp. 1073-4

انظر كذلك تريقر في دنكلر، محرراً ،

Kunst und Geshichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), p. 355.

٨٩- قارن رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) p. 53.

٩٠- انظر آركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) P. 108 .

٩١- تويبنى ، مرجع مذكور آنفا (هامش رقم ٣٤) .

٩٢- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) pp. 53-5 ،

امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 206-7 . ومن الناحية الأخرى ، يرتاب ديكسون فيما لو كان هناك أي مصريين في النوبة العليا بعد الأسرة العشرين . أنظر

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), p. 131.

٩٣- لربما أن معبداً سابقاً لآمون شيده تحتمس الثالث أو الربع ، أنظر رايزنر ، مذكور آنفا (هامش رقم ٢٨) .

الفصل العاشر

المصادر الأساسية: الإطار التاريخى الأساسى للفترة النبتية لا يزال هو التسلسل الزمنى للحكام الذى أعده رايزنر منذ خمسين عاما ماضية ، وقام بنشره في

Harvard African Studies, Vol. II (1918), pp. 1-64

Sudan Notes and Records, Vol. II (1919), pp. 237-54,

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. IX (1923), pp. 34-77, 157-60.

وتشمل مراجعات وتعقيبات لاحقة هامة أعمال دنهام ومكادام في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 35 (1949), pp. 139-49,

هينتز Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften Zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, und Kunst, No. 2 (1959),

وهايكوك في Sudan Notes and Records, Vol. XLIX (1969), pp. 1-16.

ولتأريخ شعبى أنظر بخاصة آركيل

A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), pp. 110-56

امرى Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 208-21

وشينى Meroe (New Yark, 1967), pp. 29-39

١- ٢ الملوك 2 Kings xvii; 21 . وتعود الترجمة إلى جون ولسن

The Culture of Ancient Egypt (Chicago, 1951), p. 294 .

٢- تبعاً لهايكوك (في تبادل شخصى) إن الفقرة تعد في الواقع جناساً في معنى كلمة "كوش" التي تجوز قراءتها لتعنى "قصبة" أو الموطن الأصلى لحكام الأسرة الخامسة والعشرين .

٣- قارن قاردنر .Egypt of the Pharaohs (New York, 1966), pp. 305-6, 317

٤- فيما عدا الملكة نسيخونسو الغامضة نوعاً ما أجيالاً عديدة لاحقة. "مرة واحدة وحسب أُستعيد اللقب وأنذاك كان الغرض إشباع إعتداد إمرأة بنفسها ... ، لمنحها منصباً تشريفياً ما كان بوسعها إدعاءه بالميلاد ؛ (رايزنر في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. VI, 1920, p. 53)

٥- نفسه .

٦- قارن ديكسون في .Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), p. 131

٧- وفقاً لحساب رايزنر ؛ أنظر

Sudan Notes and records, Vol. II (1919), p. 246

٨- توينبي A study of History, Vol. 8 (New York, 1963), p. 1

٩- نفسه .

١٠- المرجع السابق (هامش رقم ٨) Vol. 5, pp. 268-70

١١- قارن بريستد A History of Egypt, 2nd ed. (London, 1909), p. 545

١٢- هيرودوتس Herodotus II: 137-40

قائمة الفراعنة جمعها أصلاً منثو وهى محفوظة فى عدد من النسخ التى أعدها مؤرخون بعده؛ أنظر بدج

A History of Egypt (London, 1902), Vol. I, pp. 126-46.

ولموجزٍ بالنصوص الهيروغليفية بدءاً بالأسرة الخامسة والعشرين أنظر بريستد

Ancient Records of Egypt, Vol. IV (New York, 1962), pp. 885-934.

١٣- الإنجيل 2 Kings xix, 9

١٤- Harvard African Studies, Vol. II (1918), pp. 1-64, Sudan Notes and Records, Vol. II (1919), pp. 237-54, Journal of Egyptian Archaeology, Vol. IX (1923), pp. 34-77, 157-60.

١٥- قارن دنهام و ماكادام فى

ماكادام Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 35 (Oxford 1949), pp. 139-49,

The Temples of Kawa, Vol. I (Oxford 1949), pp. 119-30,

هـ . ف . س . سميث في كوش Kush III (1955), pp. 20-25

هينتز

Studien zur Meroitischen Chronologie und zu den Opfertafeln aus den Pyramiden von Meroe, Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse fur Sprachen, Literatur, und Kunst, No. 2 (1959),

شينى ، مروي Meroe (New York, 1967), pp. 35-6, 58-61

وللمزيد من المناقشة الأكثر معاصرةً أنظر هينتز في

Meroitica 1 (1973), pp. 147-74.

١٦- هذا الإسم ، بالرغم من أنه كان مستخدماً إستخداما منتظما أثناء فترة المملكة الجديدة، قلما يظهر في النصوص النوبية الخاصة بفترة ما بعد العهود المصرية قبل المرحلة (المروية) المتأخرة .

١٧- يظهر هذا الإسم في كل أعمال رايزنر التى نُشرت في حياته .

١٨- أنظر مناقشة لدنهام في

American Journal of Archaeology, Vol. L (1946), p. 380

وكذلك أنظر دنهام Sudan Notes and Records, Vol. XXVIII (1947), pp. 3-4

١٩- أنظر رايزنر في Sudan Notes and Records, Vol. II (1919), pp. 35-67

دنهام Sudan Notes and Records, Vol. XXVIII (1947), pp. 7-9

و ينرايت في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 38 (1952), pp. 75-7

ه . ف . س . سميث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) ؛

أركيل A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), pp. 145-51

شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp 31-3.

ويذهب علّي إلى حد يقترح فيه أن مروي كانت هي العاصمة الملكية لكوش منذ البداية ، في حين كانت نبتة مجرد عاصمة دينية ؛ أنظر "مدينة مروي وأسطورة نبتة" ، ورقة قُرئت أمام المؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الفلسفية السودانية ، الخرطوم ، ٢ أغسطس ١٩٧٢ . وفي الوقت الراهن لاتبدو البيّنة المؤيدة لهذا الرأي مُقْنِعَةً تماماً .

٢٠- ويلسن ، مرجع سابق (هامش رقم ١) p. 292.

٢١- هينتز (تبادل شخصي) يشير ، مع هذا ، إلى أن المستوى الكتابي الرفيع الذي تعرضه لوحة بعنخي يمثل إنجازاً ثقافيا معتبراً . ولمناقشةٍ أوسع أنظر "فتح مصر" ، بأدناه .

٢٢- هايكوك (في تبادل شخصي) يعتقد أن إحياء الثقافة المروية بدأ في وقت أسبق من ذلك بمدةٍ طويلة ، ولكن تأريخ معظم المخلفات الأثارية المروية تخميني إلى الحد الذي لابد أن تظل فيه هذه المسألة باقيةً بلا قرار . ولمناقشةٍ أطول أنظر الفصل الحادي عشر

٢٣- أنظر امرى Egypt in Nubia (London, 1965), p. 187

٢٤- إن لوحة لأمنحتب الثاني ، تحكي عن عَدوٍ سجين "كان معلقا على سور نبتة" ، يبدو أنها تشير إلى انه كانت هنالك مدينة بعينها هي نبتة في عهد الأسرة الثامنة عشرة ؛ أنظر بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) .Vol. II, p. 313

إفتراضاً ، كانت تلك هي المستوطنة المصرية الواقعة تماماً تحت جبل البركل . ومع ذلك ، يبدو أقوى إحتمالاً أنه في أزمانٍ ما بعد العهود المصرية إستُعمل إسم نبتة لكل المقاطعة التي عُثر بينها على الصروح النوبية الملكية .

٢٥- هذه ترجمة حرفية للتوصيف الهيروغليفي لجبل البركل ؛ أنظر دنهام

El Kurru, Royal Cemeteries of Kush, Vol. I (1950), p. 5.

٢٦- Sudan Notes and Records, Vol. II (1919), pp. 237-54

٢٧- نفسه p 246.

٢٨- تقدير رايزنر (المرجع نفسه) كان ثلاثين عاما لكل عهد ، ولكن هذا التقدير يبدو بشكلٍ غير واقعي مرتفعا ؛ وبخاصة لأن الخلافة الكوشية كانت دائما ما تنتقل من اخ لأخ اكثر من إنتقالها من أبٍ لإبن .

٢٩- لمراجعةٍ ونقدٍ لهذه النظريات المتنوعة انظر ديكسون ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) .

٣٠- Sudan Notes and Records, Vol. II (1919), pp. 246-8

أنظر كذلك Journal of Egyptian Archaeology, Vol. IX (1923), p. 34

وفيها لم تعد النظرية مطروحة على سبيل مبدئي ولكنها موضوعةً كحقيقةٍ معلنة .

٣١- أنظر دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) ، p. 3 ؛ أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) pp. 114-15 ؛ امرى مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) p. 208 ؛ شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) .p. 30

٣٢- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 114.

٣٣- نفسه ، pp. 112-15 ؛ رايزنر مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 53-5 ؛ امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) . pp. 206-7

٣٤- درايتون و فندير ،

L' Égypte (Les Peuples de l'Orient Mediterranéen, 4th ed. Paris, 1962, Vol. II), p. 675

ومع هذا، يقترح باركر (Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 93, 1966, pp. 111-14)

ويريز (Mitteilungen des Instituts für Orientforschung, Vol. XIV, 1968, pp. 166-75)
أن إسم الحاكم النوبى ربما كان باى أو بايي ، حيث يَكون العنصر المتبقى صفةً أضافها النُسّاخ المصريون .
٣٥- قارن المراجع المشار إليها فى الهامش رقم ٣١ .
٣٦- بحوث عن صروح طيبة للأسرة الخامسة والعشرين الإثيوبية
Recherches sur les Monuments Thébains de la XXVe Dynastie dite Éthiopienne, Institut Français d'Archéologie Orientale, Bibliothéque d'Étude, Vol. XXXVI (1965), pp. 322-9.
٣٧- أنظر بريستد The Development of Religion land Thought in Ancient Egypt (New York, 1959), p. 318.
٣٨- مكتبة التاريخ Library of History III: 5-7
٣٩- أنظر بوسنر ، A Dictionary of Egyptian Civilization (London, 1962), pp. 85-6.
٤٠- قارن هايكوك في Sudan Notes and Records, Vol. XLIX (1968), p. 12.
٤١- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p.126.
٤٢- قارن هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 11-14.
٤٣- أنظر ماكادام ، مشار إليه آنفا (هامش رقم ١٥) ؛ هايكوك في
Comparative Studies in Society and History, Vol. VII (1965), pp. 466-70,
شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 153 . وتوجد مناقشة مطولة عن هذا الموضوع في بريز
'Matrilineare Erbfolge im Reich von Napata' (Meroitica 4, in press),
هينتز 'Meroitische Verwandtschaftsbezeichnungen' (MS)
٤٤- لمناقشة أنظر ماكادام في
Allen Memorial Art Museum Bulletin (Oberlin College), Vol. XXIII (1966), pp.46-7;
ديسانجس في
Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Vol. XLVI (1968), pp. 89-104,
وشيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 153.
٤٥- أنظر ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 28 .
أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 127.
٤٦- إسترابو Geography XVII, 1 : 54 ، بليني Natural History VI:xxv, 8
أنظر كذلك أعمال الرسل Acts of the Apostles viii, 28
و ديسجانجس ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٤) .
٤٧- أنظر قريفيث Journal of Egyptian Archaeology, Vol. IV (1971), pp. 159-73
و رايزنر في Sudan Notes and Records, Vol. V (1922), p. 188-94
٤٨- لمناقشة أشمل عن المؤسسات الملكية لكوش أنظر هوفمان
Studien zur Meroitischen Königtum, Fondation Egyptologique Reine Élisabeth, Monographies Reine Elisabeth 2 (1971).
٤٩- تشير النصوص الموجودة في كاوة إلى من يُدّعَى بـ آلارا على أنه سلف كاشتا ، ولكن لا يوجد شيء معروف عن عهده أو قبره الملكى . أنظر ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 121-3 ، وبرايز في
Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 98 (1970), pp. 21-3.
٥٠- للبيّنة المتوفرة عن كاشتا أنظر بريز ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٩) ، pp. 16-23 ،
وليكلانت في Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 90 (1963), pp. 74-81.
٥١- اركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 121 .

٥٢- هذا التحالف ، متضمناً لنفس "الأخت" الملكية، منسوب أيضاً إلى كثير من فراعنة الأسرة الخامسة والعشرين المتأخرة؛ أنظر بريستد، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 555-8 .

ولمناقشةٍ أطول أنظر ليكلانت ، المرجع السابق (هامش رقم ٣٦) p 354-85.

٥٣- قارن هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٣) p 464.

٥٤- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p 121 .

٥٥- برايز (مرجع سابق ، هامش رقم ٤٩ ، p. 21) يعتبر أن كاشتا حكم منذ البداية كفرعون في طيبة ، مُوّحداً للنوبة ومصر العليا تحت حكمه الشخصي .

٥٦- سوف أحتفظ طوال هذا النص بالصيغة المعتادة للإسم ، بالرغم من الإقتراح الراهن ، ولعله صحيح لباركر و برايز أنه تجب قراءته على أنه باى أو بايي . أنظر الهامش رقم ٣٤ .

٥٧- لترجمةٍ سابقة أنظر بدج

The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. II, p. 11-26.

ولترجمةٍ مصحوبة بتعليق انظر بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) ، Vol. IV, pp. 406-44 ولتعقيبٍ متأخرٍ أنظر رايزنرفي

Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol 66 (1931), pp. 89-100.

٥٨- بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 541.

٥٩- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 124.

٦٠- بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 545.

٦١- ويلسن ، مرجع سابق (هامش رقم ١) p. 293.

٦٢- لمثالٍ أخر عن فروسية بعنخى المبالغ فى شأنها أنظر قاردنر في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXI (1935), pp. 219-23.

٦٣- أنظر كمثالٍ عنتر في Aramco World Magazine, Vol. 21 (1970), pp. 26-31

٦٤- قاردنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣) p. 342 . ويعطى مؤلفون آخرون تواريخ مختلفة إختلافاً يسيراً . ولمناقشةٍ أطول عن التسلسل الزمنى للفراعنة "الإثيوبيين" وعلاقاتهم انظر بيِّر في

Journal of Near Eastern Studies, Vol. 32 (1973), pp. 24-5.

٦٥- بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 551.

٦٦- الإنجيل 2 Kings xix, 9 ويعتبر ماكادام (مرجع سابق ، هامش رقم ١٥ ، pp. 19-20) إن السرد الإنجيلى "خطأ واضح" بسبب شباب تهراقا ولأن الفقرة تدل على أنه كان آنفا ملكاً على مصر في هذا الوقت .

٦٧- بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 553.

٦٨- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) pp. 219-20. ولدراسةٍ مفصلة عن الأسرة الخامسة والعشرين بالنسبة لأنشطتها العمرانية في مصر، أنظر ليكلانت، مرجع سابق (هامش رقم ٣٦) .

٦٩- أنظر دنهام و جنسن ،

Semna Kumma, Second Cataract Forts, Vol. I (1966), esp. pp. 12-13.

٧٠- راندال ماك ـ إيفر و وولى ، بوهين

Buhen, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia , Vol. VII (1911), p. 17.

٧١- برز معبد تهارقا في قصر إبريم أول ظهوره في معرض الحفريات التى كانت قائمة في عام ١٩٧٢ ؛ أنظر بلملى و آدمز في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pp. 228-36

ويلملى في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 61 (1975), pp. 19-20.

٧٢- في جزيرة دبروسة (فيروز في كوش Kush X, 1962, p. 33) ؛
في فرس (ميخالوفسكى في Kush XIII, 1965, pp. 179-80) ؛
بالقرب من عنيبة ليكلانت في
Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Comptes Rendus des Séances de l'Année 1970, p. 253
هامش رقم ١ .
وفي كلابشة هينتز في Mitteilungen des Instituts für Orientforschung, Vol. VII, 1960, pp. 330-33.

٧٣- أنظر ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 4-43 .

٧٤- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) p. 218 وللنص الكامل وتعقيب أنظر بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. IV, pp. 455-7 .

٧٥- بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. IV, pp. 458-65 .

٧٦- أنظر امرى Arabic Egypt (Hammondsworth, 1961) pp. 38-104

٧٧- أنظر رايزنر في Harvard African Studies, Vol. II (1918), pp. 45-6

٧٨- شيف جيورجيني في كوش Kush XIII (1965), pp. 116-30
ليكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٧٢) pp. 249-52 . ويؤمن هايكوك (فى تبادل شخصى) أن تهارقا ربما خلعه عن العرش تنوتامون ثم نفى إلى صندقا ، ومن ثم كان عليه أن يقنع بالمقبرة التى تبدو متواضعة مقيماً لها وفق إستطاعته هنا بدلاً عن بنائها مع الهرم الذى يكبر عنها كثيراً وقد كان أعده لنفسه في نورى . وأساس هذا الإعتقاد هو ما يُدْعَى "باللوحة الحالمة" لتنوتامون ؛ أنظر هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 8 .

٧٩- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) pp. 220-21 .

٨٠- ناحوم Nahum iii, 8-10 .

٨١- فيما عدا ملكاً غامضا لايزال دون إسمٍ من الفترة النبتية المتأخرة (؟) ؛ أنظر دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) p. 3 .

٨٢- لمناقشةٍ تفصيلية لانشطتهم العمرانية أنظر يكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٦) . ولمناقشةٍ أكمل عن التفاصيل التاريخية للحكم النوبى في مصر أنظر فون زيسل ، الأثيوبيون والأشوريون في مصر
'Äthiopen und Assyrer in Ägypten', Ägyptologische Forschungen, Ed. Alexander Scharff, Vol. 14 (1944).

٨٣- هذا الإيضاح المأثور للنصوص شبه ـ المفهومة للفترة النبتية المتأخرة ؛ قارن أركيل، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 153 ؛ هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 9 ؛ وهايكوك، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) p. 476 .
إن هينتز ، مع ذلك ، يعتقد أن النُسّاخ النبتيين نجحوا في إستعادة اللغة المصرية الأصلية إلى درجةٍ من النقاء تجعلنا في صعوبة من إدراكها ، نظراً لغياب أمثلة مقابلة (تبادل شخصى) .

٨٤- هايكوك (تبادل شخصى) يُعّين له فترة حكم قصيرة ، تبدأ حوالى ٦١٠ قبل الميلاد .

٨٥- لموجزٍ أكثر تفصيلا أنظر أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 143.
وللأصل طالع ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp 44-50.

٨٦- رايزنر (مرجع سابق ، هامش رقم ٧٧ ، pp. 22-3) يعتقد أن أسبلطه كان إبناً لأنلامانى ، ولكن العلاقة الأخوية مقبولة الآن عموما . أنظر دنهام و ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 142 .

٨٧- أو يحتمل "الأخت ـ الزوجة" لأسبلطة ؛ أنظر هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 12.

٨٨- نفسه ؛ أنظر كذلك أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 144 .

٨٩- الجزء الثانى II: 161 ولمناقشةٍ مفصلة عن الحملة أنظر سونرون و يويوت في
Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Vol. L (1952), pp. 157-207.

٩٠- قارن سيس في

Proceedings of the Society for Biblical Archaeology, 40th Session, 6th Meeting, 14 Dec. 1910, pp. 261-3.

٩١- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) pp. 145-6 ؛ شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 32-3 ؛ سونرون و بويوت ، مرجع سابق (هامش رقم ٨٩) p. 203.

٩٢- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 146 ؛ شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) ، p. 31 ؛ هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 8 .

وقد عُثر على رسوم مزخرفة لكاشتا ، وشبكتو ، و تنوتامون فى أشياء صغيرة فى جَبانات مروي ، ولكن هذه بالطبع لا تقدم بَيِّنةً على الحُضور الحقيقى للملوك . أنظر دنهام

The West and South Cemeteries at Meroë, Cemeteries of Kush, Vol. V (1963), pp. 304, 362, 431, 441.

٩٣- أنظر قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and anthropology, Vol. IX (1922), pp. 78-9.

٩٤- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 145 ؛ امرى ، مرجع سابق ، (هامش رقم ٢٣) p. 223 ؛ شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 33 .

٩٥- ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 50-72.

٩٦- طبقا لهايكوك (فى تبادل شخصى) لايُعَد ذلك صحيحاً من الناحية الفنية : إن النص يقرر أن أمان ـ نتى ـ يركى كان فى الحادية والأربعين من العمر عندما أصبح ملكا ، ولكن ذلك لم يكن بالضرورة منحوتا فى العام الأول من حكمه .

٩٧- شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 37 .

٩٨- للنصوص والمناقشة أنظر بدج ، المرجع السابق (هامش رقم ٥٧) pp. 75-103 .

٩٩- شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 17 . ولمناقشةٍ أكثر تفصيلاً عن الصحراء أنظر وينرايت في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 33 (1947), pp. 58-62.

١٠٠- الثالث III: 17-25

١٠١- قارن هينتز ، المرجع السابق (هامش رقم ١٥) pp. 17-20 ؛ شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 39 .

١٠٢- أنظر هامش رقم ١٩ للمراجع .

١٠٣- أنظر هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 8 لمناقشةٍ أطول في هذه المسألة .

١٠٤- واردة في

Journal of Egyptian Archeology, Vol. IV (1917), pp. 213-27; Vol. V (1918), pp. 99-112; and Vol. VI (1920), pp. 247-64.

إن التقرير المحدد ظهر منذ وقت قريب وحسب ؛ أنظر دنهام

The Barkal Temples (Boston, 1970).

١٠٥- التوجهات الخاصة بالإتجاه فى مقاطعة نبتة تسبب قدراً عظيماً من الصعوبة لأن النيل هنا ينساب من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ـ تقريباً عكس سيره الطبيعى . وبما أن المصريين والنوبيين القدماء كانوا على وجه العموم يتخذون النهر نقطة إتجاههم الرئيسة ، تنحرف صفوف المبانى والمقبرات فى نبتة دائما عن الممارسة المعتادة بشكل ملحوظ . وبالمثل فإن ما يعرف إسمياً بالضفة "الغربية" للنيل ـ المكان المصرى للدفن تقليديا ـ يعادل هنا الضفة الشرقية من الناحية الفنية .

١٠٦- معابد أخناتون في طيبة وتل العمارنة ، التى دُمرت فوراً عقب إنتهاء حكمه ، كانت لاتزال أكبر ، مثلما كان عليه حال المعبد الجنائزى لرمسيس الثانى (الرمسيسيوم) .

١٠٧- قارن Journal of Egyptian Archeology, Vol. IV (1917), pp. 215-27

١٠٨- وارد في Journal of Egyptian Archeology, Vol. V (1918), pp. 99-112

وفي المجلد الخامس Vol. VI (1920), n. 247-64

أنظر كذلك دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٤) pp 7-13, 63-81.

١٠٩- قارن هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 10 .

١١٠- قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ٩٣) p. 75 . بما أن تماثيل النذور *الأشبتى* كانت تُصنع فقط للموتى الملكيين ، يقترح هايكوك (فى تبادل شخصى) أنه ربما أن معبد صنم تم تحويله إلى غرفة جنائزية لمن يدفنون فى الجّبانة الملكية القريبة من نورى .

١١١- جريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ٩٣) pp. 75-6 .

١١٢- نفسه p. 115 .

١١٣- نفسه p. 117.

١١٤- أنظر دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) p. 5 ؛ شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 73 .

١١٥- جريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ٩٣) pp. 78-9. سوترون و بويوت يجادلان مع ذلك أن ذلك كان عملاً للغزاة المصريين فى عهد حكم بسمتيك الثانى ؛ أنظر المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) ، p. 203 .

١١٦- ماكادام The Temples of Kawa, Vol. II (Oxford), p. 15

١١٧- نفسه ، p. 208 .

١١٨- أنظر ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) .

١١٩- أنظر جاكيه - قوردون وآخرين في

Journal of Egyptian Archeology, Vol. 55 (1969), pp. 109-12.

١٢٠- نفسه ، pp. 103-12.

١٢١- أنظر هامش رقم ٧٨ .

١٢٢- شينى في Meroitic Newsletter No. 5 (1970), pp. 17-19

١٢٣- أنظر شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 81 .

١٢٤- نفسه ، p. 37 .

١٢٥- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) pp. 136-7 ؛

فيركوتر في

Mélanges Mariette, Institut Français d'Archéologie Orientale, Bibliothéque d'Étude, Vol. XXXII (1961), pp. 97-104.

١٢٦- أُقترح هذا من هينتز (فى تبادل شخصى) .

١٢٧- لموجزٍ عن الحفريات أنظر دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) pp. 7-10 ؛

لقائمةٍ بالمراجع أنظر دنهام في Kush III (1955), pp. 70-74

١٢٨- أنظر رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٧٧) p. 24 .

١٢٩- قارن جيمس The Archaeology of Ancient Egypt (London, 1972), p. 92

١٣٠- يوجد موجز بليغ عن تطور الهرم الملكى الكوشى في ترتيب زمني في دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) pp. 121-32 .

١٣١- أنظر بخاصةٍ شابمان و دنهام ،

Decorated Chapels of the Meroitic Pyramids at Meroë and Barkal, Royal Cemeteries of Kush, Vol. III (1952).

١٣٢- بعد زمن بعنخى ؛ وفى قبور المدافن التلية السابقة يبدو أنه ما كان هناك فصل بين الذكور والإناث .

١٣٣- للمصادر الأصلية أنظر الهامش رقم ١٤ .

١٣٤- قارن دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) ، pp. 121-32 وخصوصاً الرسوم Charts I-III .

١٣٥- لمناقشةٍ فى هذه المسألة انظر مقالتى في

Journal of Egyptian Archeology, Vol. 50 (1964), pp. 113-16

وردود من هايكوك في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 53 (1967), pp. 107-20, and Sudan Notes and Records, Vol. XLIX (1968), pp. 1-16.

١٣٦- المسطبة كتلة مستطيلة من البناء ذات جوانب مائلة ميلا خفيفا .

١٣٧- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) pp. 115-16 . والتقرير المحدد عن هذه الجبّانة هو دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥)

١٣٨- هذه موضحة فى دنهام مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) ، pls. IX-XX

ولكن لم يبدو أنها لم يجر وصفها فى عمل مطبوع ، وأن النصوص لم تترجم أبداً .

١٣٩- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) pp. 122-4.

١٤٠- بالرغم من أنها في هذه المنطقة فهى فنياً الضفة الشرقية ؛ أنظر الهامش رقم ١٠٥ .

١٤١- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 117.

١٤٢- التقارير المحددة لرايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٧٧) pp. 1-64 ، ودنهام

Nuri, Royal Cemeteries of Kush, Vol. II (1955).

١٤٣- شيف جيورجيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٧٨) p. 129 .

١٤٤- ما قبله ، p. 123 ؛ ليكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٧٢) p. 252 .

١٤٥- كما اقترح هايكوك ، أنظر الهامش رقم ٧٨ .

١٤٦- شيف جيورجيني في كوش Kush XIV (1966), p. 259

١٤٧- شيني (مرجع سابق ، هامش رقم ١٢٢) عثر على بناء مشيد من اللبن فى مستويات هى الأكثر إنخفاضاً في مروي ، ولكنه وجد أيضاً حفراً ـ يفترض أنها معينة على هياكل بنائية من العشب أو لأعمال النظافة ـ فى التربة التى شيدت عليها المدينة فى البدء .

١٤٨- رايزنر في Journal of Egyptian Archeology, Vol. IX (1923), p. 37

والتقرير المحدد لدنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٩٢) pp. 357-449 .

١٤٩- شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 148-50 .

١٥٠- مرجع سابق (هامش رقم ١٤٨) .

١٥١- قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. X (1923), pp. 75-6.

١٥٢- نفسه ، p. 87 .

١٥٣- نفسه ، p. 88.

١٥٤- نفسه ، p. 89 .

١٥٥- هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 13.

١٥٦- هذه معبرٌ عنها في صفاء في

Sudan Notes and Records, Vol. II (1919), pp. 35-67,

و دنهام في Sudan Notes and Records, Vol. XXVIII (1947), pp. 1-10

١٥٧- قارن قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥١) pp. 73-90.

١٥٨- دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥٦) pp. 5-6 ، وفي

American Journal of Archaeology, Vol. L (1946), p. 385.

١٥٩- I: 29-30

١٦٠- أنظر الهامش رقم ١٥٨ .

١٦١- لقد اقترح كمب أن هذا كان صحيحاً بالنسبة لمصر كذلك ؛ وكانت أملاك المعبد نوعاً من "المصرف" الذى يوسع الفرعون أن يودع فيه "ودائع" ، ثم ليسحبها كما يشاء . أنظر أوكو ، تريمنغهام و ديمبلبى ، محررين ،
Man, Settlement and Urbanism (London, 1972), pp. 657-76.

الفصل الحادى عشر

المصادر الأساسية : أهم عمل شائع حول المواقع المروية والثقافة المروية ، وهو ما اعتمدت بشدة عليه طوال الفصل ، هو شينى
Meroe (new York, 1967)

ومما لايزال هاماً لإعادة البناء التاريخى والتسلسل الزمنى المقالات الأصلية لرايزنر في
Sudan Notes and Records, Vol. V (1922), pp. 173-96

وفي Journal of Egyptian Archeology, Vol. IX (1923), pp. 34-77, 157-60

ومن الأعمال الدراسية الراهنة ذات الأهمية هينتز
Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, and Kunst, 1959, No. 2,

وهايكوك في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 53 (1967), pp. 107-20.

١- الكتاب الثانى Book II: 89

٢- الثالث III: 18

٣- I: 33, III: passim

٤- I: 2; XVII: 53-4

٥- VI: 35

٦- لملخصات موجزة للمصادر المأثورة حول مروي أنظر جاد الله في كوش
Kush XI (1963), pp. 207-8,

وشينى في Meroe (New York, 1967), pp. 13-22

٧- لذكر لزيارات فعلية لمروي قام بها إغريق ورومان رحالة أنظر تومبسون و فيرجسون ، محررين
Africa in Classical Antiquity (Ibadan, 1969), pp. 42-4

و هايكوك Lanmarks in Cushite History (MS), pp. 8-9

٨- «أطلق الإغريق إسم Oikoumène "المعمور" على مجمل عالمهم الذى كانوا يحسبونه مأهولا على امتداد أعمدة هرقل إلى الهنود و السيريين»

كروبر The Nature of Culture (Chicago, 1952), p. 379

٩- للمزيد عن تحويل مصر إلى الإغريقية أنظر توينبى
A Study of History, Vol. 8 (New York, 1963), pp. 407-8.

١٠- بروس
Travels to Discover the Sources of the Nile (Edinburgh, 1790), Vol. IV, pp. 538-9

١١- أنظر قارستنق ، سيس و فريفيث
Meroë, the City of the Ethiopians (Oxford, 1911), p. 26.

١٢- لترجمة لسرد فرلينى نفسه أنظر بدج
The Egyptian Sudan (London, 1907), Col. I, pp. 307-20

إن الأصل مطبوع في فيرلينى

Cenni Sugli Scavidi Nubia (Bologna, 1837).

١٣- للإطلاع على سرد بدج لعمله أنظر

The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. I, pp. 337-56,

ولتعقيبٍ ناقدٍ أنظر ماكادام في

Allen Memorial Art Museum Bulletin (Oberlin College), Vol. XXIII (1966), pp. 54-5.

١٤- University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. III (1910), pp. 53-70; Vol. IV (1911), pp. 45-71; Vol. V (1912), pp. 73-88; Vol. VI (1913), pp. 1-21; Vol. VII (1914), pp. 1-24.

وهناك تقرير أطول نوعا ما (مشار إليه في هامش رقم ١١) صدر في نهاية الموسم الأول .

١٥- شيني مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 77 .

١٦- أنظر المرجع نفسه p. 28 . إن تقريراً أكثر معاصرةً بالرغم من أنه مختصر للغاية حول حفريات مروي ظهر أيضاً في

Meroitic Newsletter No. 5 (1970), pp. 17-19

١٧- شابمان و دنهام Royal Cemeteries of Kush, Vol. III (Boston, 1952)

دنهام

Royal Cemeteries of Kush, Vol. IV (Boston, 1957) and Vol. V (Boston, 1963).

١٨- أنظر تقارير أولية لهينتز في كوش

Kush VII (1959), pp. 173-88; Kush X (1962), pp. 170-202; Kush XI (1963), pp. 217-26; in Wissenschaftliche Zeitschrift der Humboldt-Universität zu Berlin, Gesellschafts – und Sprachwissenschaftliche Reihe, Vol. XI (1962), pp. 441-88; Vol. XII (1963), pp. 63-77; Vol. XVII (1968), pp. 667-84; Vol. XX (1971), pp. 227-46;

ومؤلف هينتز

Die Inschriften des Löwentempels von Musawwarat es Sufra, Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, and Kunst, 1962, No. 1;

هنتز و هنتز في دنكلر ، محرراً ،

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 49-70,

و بريز في

Wissenschaftliche Zeitschrift der Humboldt-Universitat zu Berlin, Gesellschafts – und Sprachwissenschaftliche Reche, Vol. XXI (1971), pp. 247-56.

كذلك صدر المجلد الأول من سلسلةٍ من التقارير المجددة ، منذ وقتٍ قريب : أنظر هينتز

Der Lowentempel, Musawwarat es Sufra, Vol. !, Part 2 (Berlin, 1971).

١٩- لقائمةٍ تفصيليةٍ عن جزء من المواقع المروية في النوبة السفلى أنظر تريقر

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), pp. 186-97.

٢٠- جاد الله ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 196 .

٢١- لمناقشةٍ شائعةٍ عن اللغة المروية وكتابتها انظر شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 132-40 .

٢٢- بصفةٍ رئيسةٍ من خلال دراسة نصوص قليلة مكتوبة بلغتين ، وبسبب موازيات المنهج المصرى فى الكتابة .

٢٣- أنظر قرينبرج

Studies in African Linguistic Classification (New Haven, 1955), p. 98

و تريقر في Journal of African History, Vol. VII (1966), pp. 19-25

ولمناقشة ممتدة للتاريخ والحالة الراهنة لدراسات اللغة المروية أنظر جاد الله ، مشار إليه سابقا (هامش رقم ٦) ؛

هايكوك The Problem of the Meroitic Language (MS)

و تريقر في Meroitica I (1973), pp. 243-349

ولقد صدرت نشرة بعنوان Meroitic Newsletter

منذ وقت قريب لتعين على مواكبة الدارسين المهتمين بالتطورات الجارية في مضمار دراسات اللغة المروية .

٢٤- شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 132-3 .

٢٥- ديودورس سايكلوس I: 33

إسترابو I: 2 و بليني VI: 36

٢٦- قارن شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 16 .

٢٧- American Journal of Archaeology, Vol. L (1946), p. 385

قارن كذلك جاد الله ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 198-9 .

٢٨- XVII: 1,2

٢٩- لقوائم تفصيلية ووصف لمواقع البطانة أنظر كروفوت و جريفيث

The Island of Meroë and Meroitic Inscriptions, Part I, Archaeological Survey of Egypt, Memoir 19 (1911), pp. 6-29,

هوايتهد و أديسون في Sudan Notes and Records, Vol. IX, No. 2 (1926), pp. 51-8,

و هينتز في كوش Kush VII (1959), pp. 171-96

٣٠- في أوكو ، تريمنغهام و ديمبلبي ، محررين ،

Man, Settlement and Urbanism (London, 1972) pp. 639-45

٣١- تبادل شخصي .

٣٢- University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. IV (1911), p. 55.

٣٣- قارن تريقر في African Historical Studies, Vol. II (1969), p. 44

٣٤- دنهام (مرجع سابق ، هامش رقم ٢٧) يشير إلى توفر الخشب كميزة ظاهرة في مروي على نبتة ، ولكن في الحقيقة لا تنمو الأشجار في كثافة بكل من المنطقتين فيما عدا ضفاف النهر .

٣٥- كورفورد

Castles and Churches in the Middle Nile Region, Sudan Antiquities Service Occasional Paper No. 2 (1953) pp. 36-9

٣٦- قارن شيتيك في كوش Kush II (1954), pp. 94-5

٣٧- موصوفٌ وصفاً خلاباً من بورخارت في مؤلفه Travels in Nubia (London, 1819) pp. 277-361

أنظر أيضاً مورهيد The Blue Nile (New York, 1962) pp. 154-66

٣٨- أنظر فيركوتر في كوش Kush VII (1959), p. 129, Map 2

٣٩- لمناقشة عن إستئناس الجمل وإستخدامه في تجارة القوافل أنظر روبنسون في

Sudan Notes and Records, Vol. XIX (1936), pp. 47-69

زونر A History of Domesticated Animals (New York, 1963), p. 353

هورد وليكلانت في Étude Scientifiques, September-December 1972, pp. 85-9

٤٠- قارن بوفيل

The Golden Trade of the Moors, 2nd. Ed. (London, 1970), p. 17

٤١- نفسه pp. 13-27

٤٢- ڤارن تريقر في ماكول ، بنيت ، و بتلر ، محررين
Eastern African History, Boston University Papers on Africa, Vol. III (1969), pp. 92-3,
وميليت Meroitic Nubia (New Haven, n.d.), pp. 31-2
٤٣- دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٧) ،
آركيل A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), pp. 148-9
جاد الله ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 198-9 .
٤٤- ڤارن شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 31 . وعلى نفس الصعيد يقترح عَلّى أن مروي كانت أنفا العاصمة الملكية في زمن بعنخي ، وإنها كانت دائماً أكثر أهمية سياسيا وتجاريا من نبتة . أنظر الفصل العاشر ، الهامش رقم ١٩ .
٤٥- نفسه .
٤٦- Journal of Egyptian Archaeology, Vol. IX (1923), pp. 75-6
٤٧- ڤارن المرجع نفسه p. 36 .
٤٨- نفسه p. 37 .
٤٩- نفسه p. 35 .
٥٠- فيما عدا تقارير الحفر الأولية ودون أى عناء لتفصيل الأمر ؛ وللإطلاع على مراجع أنظر الهامش رقم ١٤ . ولنقاش أحدث تلخيصاً للجبّانات غير الملكية في مروي أنظر شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 85-6.
٥١- لموجزٍ عن هذا التطور أنظر دنهام
Royal Cemeteries of Kush, Vol. I (Boston, 1950), pp. 121-32.
٥٢- رايزنر في Sudan Notes and Records, Vol. V (1922), p. 185
٥٣- أنظر رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) pl. IV .
ودنهام
Royal Cemeteries of Kush, Vol. IV (Boston, 1957), pls. IX, XII, XIII, XV, XXIII
٥٤- لموجزٍ مفصل أنظر دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٥١) .
٥٥- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٣) P. 136 .
٥٦- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) P. 181 .
٥٧- المقبرة رقم ى - ١٢٢ في الجّبانة الغربية ؛ أنظر دنهام
Royal Cemeteries of Kush, Vol. IV (Boston, 1957), pp. 203-4.
٥٨- أنظر تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 117 .
٥٩- مرجع سابق (هامش رقم ٤٦) p. 34 .
٦٠- نوعية أهرامات البركل موصوفةٌ في المرجع نفسه pp. 56-63 .
والتقرير المحدد عن الجّبانة في دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٣) .
٦١- أو نالدا ماك ، كما تدعى فى أكثر الأحيان ؛ ڤارن شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 74 . ولمناقشةٍ عن هذه السيدة وموقعها في التاريخ المروي أنظر خاصةً ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) pp. 42-72 .
٦٢- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٦) pp 63-7, 75-6 .
٦٣- أنظر ماكادام
The Temples of Kawa, Vol. I (Oxford, 1949), pp. 74-5; Vol II (Oxford, 1955), pp. 19-20.
٦٤- نفسه ، Vol. II (1955), p. 20
٦٥- دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٣) pp. 2-8 . والآن يرفض ماكادام أيضاً الأسرة المستقلة الثانية في نبتة ؛ أنظر المرجع السابق (هامش رقم ١٣) ، pp. 61-6 .

٦٦- Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, and Kunst, 1959, No. 2;

٦٧- قارن خصوصاً ونيق في

Mitteilungen des Instituts für Orientforschung der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Vol. XIII (1967), pp. 1-44, Meroitica 1 (1973), pp. 127-44 وهينتز في

٦٨- مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 205 .

٦٩- لموجزٍ عن الحالة الراهنة للنظرية وأهم المشكلات المتبقية فيما يتعلق بالخلافة المروية الملكية أنظر هينتز ، مرجع سابق (هامش رقم ٦٧) .

٧٠- XVII: 53-4

٧١- LIV: 5-6

٧٢- مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) pp. 33-42, 173a .

٧٣- III: 6 . إن هينتز مع ذلك يعتقد أن إرقامنز يجب أن يُعامل على أنه أركا كا ماني ، الذى سبق أركامانى بنصف قرن . أنظر

Die Inschriften des Löwentempels von Musawwarat es Sufra, Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, and Kunst, 1962, No. 1, pp. 14-18

وهينتز ، مرجع سابق (هامش رقم ٦٧) .

٧٤- لعله كان يسبقه ملك معين يدعى أدكر آمون (أديخا لامانى) ، الذى لم ينشأ موقعه فى الخلافة الملكية بعد : أنظر تريقر ، مرجع سابق ، (هامش رقم ١٩) pp. 120-21 .

٧٥- أنظر شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 41-2 ، و هايكوك في Kush XIII (1965), pp. 264-6

٧٦- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٣) pp. 159-60 . ومع ذلك لايزال الحكام المتأخرين ناتاكماني و آماني تيري يستخدمون الهيروغليفية المصرية فى بعض نقوشهم غير الجنائزية : قارن كروفوت و قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) p. 67-8 .

٧٧- مُفَسراً من فيثيان ـ آدمز في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. VII (1914), pp. 15-21, وقريفيث في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. IV (1917), pp. 159-73.

٧٨- أنظر هوايتهد و أديسون ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 51-2 . و pls. x-xi ، وهينتز في كوش Kush VII (1959), pp. 189-90

٧٩- شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 96 . يلاحظ "أن تصوير إله الشمس يبين تماثلاً ظاهراً للغاية لجنس من تمثلات عبادة الشمس فى هترا وغيرها من المواقع في غرب آسيا ، التى تعتبر Parthian وتؤرخ منذ القرنين الأولين بعد الميلاد" .

٨٠- أنظر ميليت ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) pp. vi-vii, 1-28 .

هايكوك في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 53 (1967), pp. 107-20,

وبخاصة قريفيث

Catalogue of the Demotic Graffiti of the Dodecaschoenus (Oxford, 1937), 2 vols.

٨١- مشار إليه في الهامش السابق رقم ١٤ .

٨٢- قارستنق في

University of Liverpool Annals of Archeology and Anhropology, Vol. IV (1911), p. 51

٨٣- شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 80 ،
أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٣) p. 162 .
٨٤- شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 79 .
٨٥- نفسه ، p. 77 .
٨٦- نفسه ، pp. 81-3 .
٨٧- أنظر هامش رقم ٢٧ .
٨٨- قارن هورد و ليكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٩) pp 80-83 .
٨٩- المرجع المشار إليه آنفا (هامش رقم ٣٢) .
٩٠- مع هذا ، برزت فى دائرة الضوء تفاصيل كثيرة عن المصنوعات المروية الحديدية نتيجةً لحفريات شينى حديثا في مروى . أنظر شينى في Meroitic Newsletter No. 5 (1970), p. 19
تايليكوت في
Bulletin of the Historical Metallurgy Group Vol. 4 (1970), pp. 67-72
ويليامز في تومبسون و فيرجسون ، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 67-72 .
٩١- قارن تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٣) p. 45 .
٩٢- تقترح بَينة شينى الآن أن صنع الحديد في مروي ربما يعود تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ أنظر المرجع السابق (هامش رقم ٩٠) p. 17 .
٩٣- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٣) p. 49 . انظر كذلك شينى The African Iron Age (Oxford, 1971), p. 97
٩٤- للوصف أنظر بدج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) ، Vol. II, pp. 126-46
هوايتهد في Sudan Notes and Records, Vol. IX, No.2 (1926), pp. 62-4
هينتز في كوش Kush VII (1959), pp. 183-7
وشينى مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 88-92 .
٩٥- لوصفٍ مطول لهذا الهيكل أنظر كروس في
Archaologischer Anzeiger, Jahrbuch des Deutschen Archäologischen Instituts (1964), pp. 834-68.
٩٦- لوصفٍ عام أنظر بدج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. II, pp. 146-51 ،
هوايتهد ، مرجع سابق (هامش رقم ٩٤) pp. 64-6 ، هينتز في Kush VII (1959), pp. 183-7
وشينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 92-5 .
٩٧- لقائمةٍ بالتقارير المطبوعة إلى تاريخه أنظر الهامش رقم ١٨ . ويبن هذه يعد التقرير في
Kunst und Geschichte Nubiens in Chrislicher Zeit
قيماً على وجه الخصوص .
٩٨- يؤرخ هينتز مع ذلك مبنى المعبد المركزى إلى عهد أرناخ أمانى (تقريباً ٢٣٥-٢١٨ ق . م .) أو ما قبل ذلك . أنظر دنكلر ، محرراً ،
Kunst und Geschichte Nubiens in Chrislicher Zeit (Recklinghausen, 1970), p. 62
٩٩- شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp 93-4 .
١٠٠- بيفان The House of Ptolemy (Chicago, 1968), p. 175
لمناقشةٍ عن صيد ـ الأفيال البطلمى أنظر موراى في
Geographical Journal, Vol. 133 (1967), pp. 24-33,
ديسانجس في Actes du Quatre-Vingt-Douzième
Congrès National des Sociétés Savantes, 1967, Section d'Archéologie (Paris, 1970), pp. 31-50,
وهايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 5-6 .

١٠١- قارن كذلك هايكوك في Sudan Notes and Records, Vol. XLIX (1968), p. 3

١٠٢- هينتز في كوش Kush VII (1959), p. 181

شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 94 .

١٠٣- لمناقشة أشمل تفصيلاً أنظر هينتز في كوش Kush XI (1963), pp. 221-4

١٠٤- أنظر الهامش رقم ٢٩ .

١٠٥- شيني، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 95 ؛ وللتوضيح أنظر هينتز في كوش Kush VII (1959), pls. XLII-XLIII

إن وصفا مطولاً للموقع يوجد فى كروفوت و قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 13-18 .

١٠٦- قارن أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٣) pp. 166-8 ، علي، مرجع سابق (هامش رقم ٣٠) .

١٠٧- قارن هينتز في كوش Kush VII (1959), p. 196

قارن أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٣) p. 164 .

١٠٩- التقرير الوحيد المطبوع حتى اللحظة اعده فيركوتر في Syria, Vol. XXXIX (1962), pp. 263-99

وللمزيد من الوصف أنظر شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 87 .

١١٠- فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٩) p. 295 .

١١١- أنظر شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 97 ، وشيني Excavations at Soba, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 3 (1955), pp. 16-17.

١١٢- أنظر ديكسون في كوش Kush XI (1963), pp. 227-34

١١٣- كروفورد و أديسون

Abu Geili and Saqadi & Dar el Mek, The Wellcome Excavations in the Sudan, Vol. III (1951), pp. 1-110.

١١٤- يعتقد هينتز مع ذلك أن المستوطنة والجّبانة فى سنار تنتمى إلى قبيلة النوبة ، والتى تأثرت ثقافياً بمروي ولكنها لم تكن تابعةً لها سياسيا ؛ أنظر

Zeitschrift für Ägytptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 94 (1967), p. 82.

وللمزيد من المناقشة عن النوبة وعلاقاتهم بمروي أنظر الفصل الثالث عشر .

١١٥- مرجع سابق (هامش رقم ١٠٩) ، p. 265 ، وأنظر بالمثل ديكسون ، مرجع سابق (هامش رقم ١١٢) p. 234 .

١١٦- أنظر بصفةٍ مبدئية أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٣) pp. 136-7, 173-6 . وكذلك هوفمان في Meroitic Newsletter No. 9 (1972), pp. 14-17.

١١٧- قارن هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠١) p. 4 ، وتريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٣) p. 25 .

١١٨- قارن شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 96 .

١١٩- أنظر ما قبله p. 98 . لقد ظل موقع جبل مويه مركزاً للجدل منذ لحظة حفره تقريبا ؛ وللمناقشة أنظر كول The Prehistory of East Africa (Harmondsworth, 1954), pp. 221-2.

أما التقارير المحددة فهى التى أعدها أديسون ،

Jebel Moya, The Wellcome Excavations in the Sudan, Vols.. I-II (1949)

ومراجعاتٍ لاحقة من نفس المؤلف في كوش

Kush IV (1956), pp. 4-18.

١٢٠- IV: 5

١٢١- أنظر شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 75 ، وكروفوت و قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 7-8, 89 .

١٢٢- مرجع سابق (هامش رقم ١٠١) p. 15 .

١٢٣- أورده رايزنر في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. V (1918), pp. 99-112 and Vol. VI (1920), pp. 247-64,

أنظر كذلك رايزنر في

Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Attertumskunde, Vol. 66 (1931), pp. 76-100.

١٢٤- قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. IX (1922), pp. 75-6

١٢٥- أنظر ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣) Vol. II, pp. 114-15 and 231-7

١٢٦- الأهمية الكبيرة لهذا الفصل بناء على طبقات الأرض ، وهو أصلاً مقترح من ناحيتى في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 115-17

جادله مكرراً هايكوك (مرجع سابق ، هامش رقم ٧ ، pp. 3-4 ؛ مرجع سابق ، هامش رقم ٨٠ ، pp 108-10 : مرجع سابق ، هامش رقم ١٠١ ، pp. 5-10) .

١٢٧- لوصف هذه الأشكال ومناقشتها أنظر دنهام في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 33 (1947), pp. 63-5.

١٢٨- أنظر مايستر في

Bulletin de la Société Française d'Égyptologie, No. 55 (1969), p. 10,

ودنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٧) p. 388 .

١٢٩- قارن ميليت ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) p. 59 .

١٣٠- أورده شيف جيورجيني في كوش

Kush XIII (1965), pp. 116-30 and Kush XIV (1966), pp. 259-60,

وليكلانت في

Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Comptes Rendus des Séances de l'Année 1970, pp. 246-76.

١٣١- أنظر شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 67-8 . وقد أفادنى هايكوك (فى تبادل شخصى) أن المعبد دُمّر أثناء بناء خط السكة الحديدية العسكرى فى ١٨٩٦-١٨٩٧ . واكتُشفت آثاراً قليلةً متآكلة بفعل التعرية من قبل فيلا في معرض مسح أثارى أجرى عام ١٩٧٢ ؛ أنظر تقريره في Meroitic 3 (in press)

١٣٢- قارن هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٨٠) p. 111 .

١٣٣- أنظر ميلز في كوش Kush XIII (1965), pp. 3-12

إن جَبّانةً مروية كبيرة فى سمنة غرب ، حفرها المعهد الشرقى بشيكاغو ، لم يُصدر تقريرها بعد . ولذكرٍ يسير لها أنظر ليكلانت في

Orientalia, Vol. 37 (1968)., 120 and Figs. 34-5.

١٣٤- أنظر تريقر ، مشار إليه آنفا (هامش رقم ١٩) ، و ميليت ، مرجع سابق ، (هامش رقم ٤٢) p. 190 و Fig. 3

١٣٥- ميليت ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) p. vii ،

أدمز Meroitic North and South : a Study on Cultural Contrasts, Meroitica 2 (1976).

١٣٦- شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 141-2 .

١٣٧- نفسه ، p. 145 .

١٣٨- دنهام The Egyptian Department and its Excavations (Boston, 1958), p. 135.

١٣٩- أنظر بدج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. II, p. 149 .

١٤٠- لترجمةٍ كاملة أنظر هينتز

Die Inschriften des Löwentempels von Musawwarat es Sufra, Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, and Kunst, 1962, No. 1, pp. 25-32.

١٤١- مقتطف من شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 143 .

١٤٢- للمزيد حول تقديس أبادماك أنظر ليكلانت في

Les Syncrétismes dans les Religions Grecque et Romaine, Bibliothèque des Centres d'Études Supérieures Spécialisés, Travau du Centre d'Études Supérieures Spécialise d'Hostoire des Religions de Strasbourg (1973), pp. 139-45,

وانظر خاصة زابكاف ، أبادماك

Apedemak, Lion God of Meroe (Warminster, 1975).

١٤٣- شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 145 .

١٤٤- نفسه ، p. 146 .

١٤٥- هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٨٠) p. 111 .

١٤٦- قارن ديكسون ، مرجع سابق (هامش رقم ١١٢) .

١٤٧- لمناقشة عن التجارة المروية مع مصر أنظر روستوفزيف ،

The Social and Economic History of the Roman Emopire, 2nd ed. (Oxford, 1957), Vol. I, esp. pp. 306-7.

١٤٨- XVII: 1 ؛ قارن كذلك شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 159 .

١٤٩- قارن كمب في أوكو ، تريمنغهام و ديمبلبي ، محررين ،

Man, Settlement and Urbanism (London, 1972), pp. 657-61.

١٥٠- XVII: 1,2

١٥١- شيني ، تبادل شخصي .

١٥٢- لا أملك الموافقة على مايتضمنه رأى هينتز (في دنكلر ، محرراً ،

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit, Recklinghausen, 1970, pp. 49-65),

ولا أوافق على الإفتراضات التى تؤكد مباشرةً رأى هايكوك (في Meroitica 2, 1976, p. 37)

و محمد على (مرجع سابق ، هامش رقم ٣٠) والقائلة بأن المواقع المروية في البطانة مختلفة بشكل ملحوظ عن المواقع الكائنة في شواطئ النهر ، ومن ثم لابد أنها شيدت بواسطة الرعاة أو لهم . فبعيداً عن إستبعاد أى إحتمال إيكولوجى فيما يتعلق بالبيئة لا أعتقد أن المعلومة الأثرية الضئيلة والمتوفرة فى البطانة ستؤيد هذا النوع من التعميم . ولمناقشة أطول أنظر مقالتى والمناقشة الدائرة حولها فى

Meroitica 3 (in press)

١٥٣- مرجع سابق (هامش رقم ١٤٨) .

١٥٤- VI: 35

١٥٥- أنظر بالمثل ، الآن ، الرسوم الجانبية لمعبد الأسد في المصورات .

هينتز Der Löwentempel, Musawwarat es Sufra, Vol. I, Part 2 (1971), pls. 53-69.

١٥٦- وولى و راندال ـ ماك إيفر

Karanog, the Riomano-Nubian Cemetery, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junir Expedition to Nubia, Vols. III-IV (1910), pp. 59-60 and pls. 26-8,

أنظر أيضاً شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 159 .

١٥٧- كارتر

A Preliminary Report on the Fauna from the Excavations at Meroë in 1967, 1968 and 1969 (MS)

١٥٨- قارن ميليت ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) pp. 39-40 .

١٥٩- ما ورد آنفا مذكور في شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 111-13, 145-6 .

١٦٠- نقلاً عن أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) p. 166 .

١٦١- نقلاً عن فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٩) p. 299 .

١٦٢- شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 113 . والنص منقول من فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٩)، p. 293 .

١٦٣- أنظر هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠١) p. 3 .

الفصل الثاني عشر

المصادر الأساسية : في هذا الفصل إعتمدت ، بمستوىً أعلى ، على ن . ب . ميليت في رسالته غير المنشورة (النوبة المروية Yale University, 1968 وهي متوفرة في مايكروفيلم الجامعة) من أي مصدر آخر بمفرده . وفي حين أظل على غير إستيقانٍ من بعض قراءات المؤلف التخمينية للنصوص المروية ، أحس بأنه قام بأول محاولةٍ ذات معنى ليرى النوبة السفلى المروية في منظورها الصحيح كياناً سياسياً وثقافيا شبه مستقل أكثر من النظر إليها كإمتدادٍ شمالي لحضارة السهول ليس إلا . أما المصادر الهامة الأخرى مما نشر ، نحو ما أشير إليه في فصول سابقة ، فتشمل شيني ، مروي (New York, 1967) ؛ تريقر ، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى ، منشورات جامعة يل في الأنثروبولوجيا Vol. 69 (1965), pp. 120-31 ؛ ومقالة هايكوك في مجلة الآثار المصرية Vol. 53 (1967) pp. 107-20 وقد أرسل لي هايكوك في عطفٍ عدداً من المخطوطات التي لم تنشر بعد ؛ إن أحدها (Landmarks in Cushite History) كان على وجه الخصوص قيماً لإدراكي نشاط البطالمة في النوبة . ويبقى مؤلف مونير دي فيلار

La Nubia Romana (Rome, 1941) المصدر القياسي عن النوبة الرومانية . ولتفاصيل ثقافة مروي المادية وممارستها الجنائزية في الشمال أخذت بتوسعٍ عن التقارير المنشورة في شأن جَبّانتي كارنوق و فرس المرويتين العظيمتين

Woolley and Randall-MacIver, The Romano-Nubian Cemetery, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vols. III-IV (1910). Griffith, University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XI (1924), pp. 141-78; Vol. XII (1925), pp. 52-172.

١- توينبي A Study of History, Vol. 8 (New York, 1963), pp. 407-8

٢- لمناقشة حول امتداد البطالمة الزراعي أنظر روستوفزيف

Rostovtzeff, A Large Estate in Egypt in the Third Century BC (Madison, 1922), pp. 3-5.

وأنظر بتزر في الجمعية الجغرافية المصرية

Butzer, Bulletin de la Société de Geographie d'Égypte, Vol. XXXIII (1960), pp. 6-17.

٣- أنظر بيفان

Bevan, The House of Ptolemy (Chicago, 1968), pp. 186-7.

٤- أنظر خاصة هايكوك

Landmarks in Cushite History (MS), pp. 4-12.

٥- ديسانجس في

Actes du Quatre-Vingt-Douzièume Congrès National des Sociétés Savantes, 1967, Section

d'Archéologie (Paris, 1970), pp/ 31-50.

٦- أنظر لوكاس ،

Ancient Egyptian Materials and Industries, 3rd ed. (London, 1948), pp. 261-2.

٧- لمناقشة حول التعرف على أرقامينس على أنه أرقاماني ، أنظر الفصل الحادي عشر ، هامش رقم ٧٣ .

٨- قريفيث ، النقوش المروية ، الجزء الثاني

Meroitic Inscriptions, Part II, Archaeological Survey of Egypt, Memoir 20 (1912), p. 32.

و تريقر ، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), pp. 120-21.

وكُتب اسم الملك على اختلاف على انه أرَاخر أماني (قريفيث) وأديخا لاماني (هايكوك) .

٩- أنظر أركيل A History of Sudan, 2nd ed. (London, 1965), pp. 158-9

تريقر ، ما قبله (هامش رقم ٨) ؛ إمُرى Egypt in Nubia (London, 1965), p. 225

شيني Meroe (New York, 1967), p. 41 و ميليه Meroitic Nubia (New Haven, n. d.), pp. 4-6.

١٠- أنظر اركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) ، p. 159

١١- (في تبادل شخصي) إعتقد هايكوك أن حارسيتف قادته مغامرته حتى شمال أسوان في إحدى حملاته العسكرية (حوالى ٤٠٠ ق. م.) ، إلا أن هذا الفرض غير واضح من لغة لوحه التذكاري . أنظر بدج

The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. II, pp. 76-82.

١٢- قارن راندال - ماك إيفر و وولي

Buhen, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vol. XII (1911), pp. 125-8.

وقريفيث University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XI (1924), p. 118.

١٣- ديسانجس ، مرجع سابق (هامش رقم ٥) ؛

فيركوتر Mirgissa I (Paris, 1970), pp. 23, 171, 189

١٤- مونير دى فيلار (La Nubia Romana, Rome, 1941, pp. 34-5) رأى أن أعمال التحصن في جبل عَدًا وقصر إبريم ذات أصل بطلمى ، ويبدو هذا الآن غير محتمل للغاية . أنظر مناقشةً تحت عنوان " المحافظة المروية " بأدناه .

إن البّينة التجريبية الوحيدة على الإحتلال البطلمي خرجت إلي النور حتى الآن في قصر إبريم هى كتلة حجرية محفور عليها إسم "بطليموس" بشكلٍ غير مصقول . أنظر بلملي

Études et Travaux du Centre d'Archéologie Mediterranéenne de L'Académie Polonaise des Sciences, V (1972), p. 19.

١٥- قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) . يطابق ثلاثون سخوناً بمستوى مقارب المسافة من الشلال الأول إلى الشلال الثاني (حوالى ٢٠٠ ميلاً) .

١٦- هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) ، pp. 12-16 .

١٧- المرجع نفسه pp. 17-18 .

١٨- نفسه p. 17 .

١٩- هذه لم تأخذ مكانة فيلة كمركز تجاري وسياسي حتى مقدم الأزمان الوسيطة . وفى عهد البطالمة كانت قريةً صغيرة تدعى ساينى ("السوق") .

٢٠- أنظر على وجه الخصوص بوسنر

A Dictionary of Egyptian Civilization (London, 1962), pp. 138.

٢١- أنظر بدج

The Nile, Notes for Travellers (London, 1902), pp. 456-65.

٢٢- ميليه ، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ٩) ، p. 5 .

٢٣- نفس المرجع p. 26 .

٢٤- نفسه pp. 26, 34 .

٢٥- أنظر خاصة مونير دي فيلار

Storia della Nubia Cristiana, Pontificio Institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana Analecta 118, (1938), pp. 19-22.

٢٦- قارن كيروان في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XXIV (1937), p. 97.

٢٧- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) p. 159 .

٢٨- قارن بلملي ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 8-24 . إن القصة الكاملة لقصر إبريم يجب أن تنتظر سنوات عديدة لمزيد من التنقيب . لمناقشة عن البقايا المروية الأثرية على نحو ما هو متعرف عليه في الوقت الراهن ، أنظر " المحافظة المروية " ، بأدناه .

٢٩- أنظر ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) ، pp. 12-13 .

٣٠- أنظر بوجه خاص بوورسوك

Augustus and the Greek World (Oxford, 1965), pp. 42-61

و ديسانجس في Chronique d'Égypte, Vol. XLIV (1969), pp. 143-4.

٣١- أنظر مونير دى فيلار ، المرجع السابق ذكره (هامش رقم ١٤) ، p. 2 .

٣٢- أنظر ما قبله ، pp. 2-4 و كيروان في Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), p. 24.

٣٣- إسترابو XVII: 53-4 .

٣٤- وصف في الفصل الحادى عشر . وللإطلاع على الوصف الأصلي وإيضاحات ما تم العثور عليه أنظر بوسانكيه في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. IV (1911), pp. 66-71 and pls. XII-XVI.

٣٥- ورد آنفا (هامش رقم ٢٣) .

٣٦- VI: 35 .

٣٧- كيروان ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٢) pp. 24-5 .

٣٨- يُعبِّر عن وجهة نظر أخرى جامسون في

Journal of Roman Studies, Vol. LVIII (1968), pp. 74-5.

وقد إعتبرتْ أن طرد النوبيين من بسلشيس شكل تدبيراً كافياً للثأر ، وأن تقدم بترونيوس كان مدفوعاً بإعتبارات إقتصادية .

٣٩- كيروان في Geographical Journal, Vol. CXXIII (1957), p. 16

وأمُري ، مذكور آنفا (هامش رقم ٩) p. 227 .

٤٠- راجع ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 24-6 .

٤١- كيروان ، المرجع السابق (هامش رقم ٣٩) pp. 16-17 . ولمحاولة جرت لإستعادة تفاصيل بعثة نيرو ، أنظر بريس في Meroitica I (1973), pp. 123-5.

٤٢- VI: 8, 3 .

٤٣- VI: 35 .

٤٤- من ناحية أخرى ، حاول هينتز أن يجد حلاً للإختلافات القائمة ما بين السردين بإقتراح مفاده أنه في الواقع

كانت هنالك بعثتان فى عهد حكم نيرو ؛ واحدة في عام ٦٢ بعد الميلاد (قدم تقريراً عنها سنيكا) وواحدة أخرى في عام ٦٦ أو ٦٧ بعد الميلاد (بلغ عنها بليني). أنظر

Studien zur Meroitischen Chronologie und zu den opfertafeln aus Pyramiden von Meroe, Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, and Kunst, 1962, No. 2, pp. 27-9.

أنظر أيضاً هينتز و ديسانجس في Meroitica 1 (1973), pp. 140-41, 145.

٤٥- أنظر بوويرسوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٠) p. 42 .

٤٦- طالع بوجه خاص مونير فيلار ، مذكور آنفا (هامش رقم ١٤) pp. 4-5 .

٤٧- كيروان ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٢) p. 25 .

٤٨- ما قبله .

٤٩- ميليه ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) p. 26 .

٥٠- قارن ما قبله p. 27 ، هامش رقم ٢ .

٥١- تريقر ، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ٨) p. 124 .

٥٢- منذ كتابة ما سبق تم حفر عدد من المنازل الرومانية فى طايفا بواسطة معهد شيكاغو Oriental Institute of Chicago لكنها لم يُبلغ عنها بعد بتفصيل . لتلخيصٍ موجز للغاية عن التقارير الأولية أنظر سيِّل في

Fouilles en Nubie (1959-1961) (Cairo, 1963), pp. 83-4.

٥٣- آثار النوبة السفلي ١٩٠٦ - ١٩٠٧

Antiquities of Lower Nubia in 1906-1907 (Oxford, 1907), pp. 64-7.

٥٤- تريقر ، المرجع السابق (هامش رقم ٨) p. 126 .

٥٥- ما قبله p. 124 .

٥٦- قارن بما قبله ؛ كذلك أنظر ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 27 ، هامش رقم ٢ .

٥٧- لوصفٍ تفصيلي أنظر مونير دى فيلار ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 5-32 .

٥٨- تريقر ، المرجع السابق (هامش رقم ٨) pp. 124-5 . ويعود الوصف الأصلى لرايزنر في

Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907-1908 (Cairo, 1910), Vol. 1, pp. 72-3.

وللإطلاع على التقارير الأولية عن الحفريات فى القلاع الرومانية في طايفا و كرتسي أنظر زابا في

Foullies en Nubie (1959-1961) (Cairo, 1963), pp. 46-51.

وفي Foullies en Nubie (1961-1963) (Cairo, 1967), pp. 212-15.

٥٩- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) p. 160 .

٦٠- ما قبله pp. 123-4 .

٦١- أنظر قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 122 .

وميليه ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) p. 31 .

٦٢- أنظر ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 29, 40 .

٦٣- قارن آدم في Kush XII (1964), p. 164.

٦٤- قارن ميليه ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) p. 29 .

و هايكوك في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 53 (1967), pp. 109-10.

٦٥- أنظر بلملي و آدمز في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pp. 228-36.

٦٦- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 12, 17-18 .

٦٧- قارن بما قبله ، p. 18 .

ولمحاولة بذلت للتعرف على المدن التى ذكرها بلينى أنظر بريس ، المرجع السابق (هامش رقم ٤١) .

٦٨- ميليه ، مرجع مذكور أنفا (هامش رقم ٩) p. 29 .
وهايكوك ، نفسه (هامش ٦٤) .
٦٩- حسبما أعلم طُرح هذا الفرض أولاً فيرث في
Archaeological Survey of Nubia, Report for 1909-1910 (Cairo, 1915), p. 23.
أنظر كذلك تريقر ، المرجع السابق ، (هامش رقم ٨) p. 123 .
وآدمز في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 119-20.
٧٠- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) p. 160 .
٧١- ليكلانت ، مع ذلك ، يعتقد أن الإحتلال المروي للنوبة السفلى لم يكن " أبداً غامراً " - أنظر
Actes du Premier Colloque International d'Archéologie Africaine, Études et Documents Tchacdiens, Memoire I (1969), p. 250.

٧٢- أنظر سينجر وآخرين
A History of Technology, Vol. II (Oxford, 1956), p. 676.
ويفترض ديودورس (I: 34) أن الساقية كانت مستعملةً في كل مكان في دلتا النيل خلال ٦٠ - ٥٩ ق. م. ولكنه لا يذكر لها وجوداً في مصر العليا .
٧٣- أنظر مونير دي فيلار ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 43-6 .
٧٤- أنظر هامش رقم ٦٨ .
٧٥- قارن أدمز ، المرجع المذكور أنفا نفسه (هامش رقم ٦٩) .
٧٦- لقائمةٍ شبه كاملة للمواقع المروية في النوبة المصرية أنظر تريقر ، المرجع السابق (هامش رقم ٨) pp. 190-97 ؛ إن هذه القائمة مع ذلك ناقصة لمدىً بعيد بالنسبة للجزء السوداني من النوبة السفلى .
٧٧- ميليه ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) pp. 30-31 .
٧٨- قارن مونير دي فيلار ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 36 .
٧٩- قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 121 .
٨٠- تُرك وصف لها من طرف الكاتب المأثور فيلوستروس ؛
أنظر كيروان ، المرجع السابق (هامش رقم ٣٢) p. 26 .
٨١- إن الحفريات ، مع ذلك ، تواصل في قصر إبريم التى تظل باقية فوق مستوى الأماكن التى غمرتها بحيرة ناصر . وإلى هذا الوقت لم تسفر الحفريات عن تفاصيل كثيرة حول الإحتلال المروي للموقع .
٨٢- أنظر بلملي للإيضاحات ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) pp. 16-17 ، في .
Illustrated London News, 11 July 1964, p. 52.
و فرند في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pl. viii.
٨٣- أنظر هامش رقم ١٤ .
٨٤- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 47-50 .
٨٥- قريفيث في
University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), pp. 25-8.
٨٦- ما قبله p. 24 .
٨٧- طالع ميخالوفسكي Faras, Fouilles Polonaises 1961 (Warsaw, 1962), pp. 74-9
وكذلك Faras, Fouilles Polonaises 1961-1962 (Warsaw, 1965), pp. 39-45.
٨٨- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 46 .
٨٩- ما قبله pp. 50-52 .
٩٠- أنظر بلملي و أدمز ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٦٥) .

٩١- أنظر بلملي في Illustrated London News, 11 July 1964, p. 53, Fig. 8.

٩٢- قارن بلملي ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) pp. 18-19 . إن سرداً متخيلاً نوعاً ما للمنصة وأهميتها المحتملة يعود لفرند في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pp. 30-59.

ولإيضاحاتٍ عن المنَّصة أنظر ما قبله ، الصور رقم VII, XIII .

٩٣- أنظر وولي

Karanog, the Town, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vol. V (1911), pp. 41-4.

٩٤- تحمل إسم أماني - يا شيباهي (أو يا سباخي اماني) ، الذي يُعتقد انه كان واحداً من آخر ملوك الأسرة الكوشية الحاكمة (تقريباً ٢٨٣ - ٣٠٠ بعد الميلاد) . أنظر بلملي في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 52 (1966), p. 12 and pl. IV, no. 3.

٩٥- حاملةً أسماء أماني ريناس و آكينيداد الشهيرة ، التي تظهر أيضاً فى لوح مشهور من مروي ("النقوش الملكية"، الفصل الحادي عشر) . إن اللوح المكسور في قصر إبريم إستُعمل مرةً ثانية كغطاءٍ حجري على أرضية الكاتدرائية . ولم تتم ترجمته إلي الآن ترجمةً كاملة ، على أن وصفاً مختصرا له بإيضاحٍ يوجد في بلملي ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) ، pp. 19-20 .

٩٦- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 51 .

٩٧- تم التعرف على معابد مروية فيما يحتمل أنها كذلك في النوبة السفلى ، بوهين و مينارتي . وقد دُمر كلٌّ منهما تماماً في أزمانٍ بعد العصر المروي بحيث لايمكن التاكد من طبيعتهم الأصلية ووظائفهم على وجهٍ يقين ، وللإطلاع على وصفهم أنظر راندال - ماك إيفر و وولي

Buhen, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vol. VII (1911), pp. 125-6,

وأنظر أدمز في Kush XIII (1965), p. 162

٩٨- للبّينة المتوفرة عليها أنظر بخاصةٍ قريفيث

Catalogue of the Demotic Graffiti of the Dodecaschoenos, Vol. I (Oxford, 1937), pp. 26-31, 112-22.

٩٩- المرجع نفسه (هامش رقم ٩) p. 29 .

١٠٠- قارن تريقر

The Meroitic Funerary Inscriptions from Arminna West, Publications of the Pennsylvania – Yale Expedition to Egypt, No. 4 (1970), pp. 50-51.

١٠١- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) . لقد قام توروك منذ وقت قريب بتحليلٍ اكثر تفصيلاً لبعض جوانب من نفس البّينة . إن ما خلص إليه يتفق بوجه عام مع النتائج التي خلص إليها ميليه ، بالرغم من أنه عَرّف كثيراً من الوظائف على أنها للكهنة اكثر من كونها وظائف مدنية . أنظر

Ágypten und Kusch, Zentralinstituts für Alte Geschichte und Archäologie der Akademie der Wissenschaften der DDR, Schriften zur Geschichte und Kultur des Atten Orients (in press).

١٠٢- ما قبله p. 37 .

١٠٣- نفسه p. 52 .

١٠٤- يقترح ماكادام أن العلاقة موضع الإدعاء ربما أنها وصائيةٌ أكثر منها قرابية ، وهي ما يضعف من حُجة ميليه في هذه الناحية . أنظر

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 36 (1950), p. 45.

١٠٥- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 39-40 .

١٠٦- Philology and the Use of Written Sources in Reconstructing Early Sudanese History; Reflections on the Administration of Lower Nubia in Meroitic Times (MS), pp. 5-12.

١٠٧- تبادل شخصي .

١٠٨- نفسه .

١٠٩- أنظر قريفيث " نقوش جنائزية مروية من فرس ، النوبة " في

Recueil d'Études Egyptologiques Dediées a la Mémoire de Jean-Francis Champollion No. 21 (Paris, 1922), pp. 565-600.

١١٠- تريقر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٠٠) pp. 26-30 .

١١١- هايكوك ، المرجع السابق (هامش رقم ٦٤) p. 117 .

تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٠) p. 51 .

١١٢- ميليه ، المرجع المذكور سابقا (هامش رقم ٩) p. 46 .

١١٣- ما قبله pp. 44-5 .

١١٤- لتفسير مماثل على الأرجح عن الأصول والوظائف التى تتعلق بمركز البلمي أنظر هايكوك ، المرجع السابق (هامش رقم ١٠٦)

pp. 9-12 .

١١٥- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 57-8 .

وتريقر ، المرجع نفسه (هامش رقم ١٠٠) p. 50 .

١١٦- على وجه الخصوص قصر إبريم (بلملي ، مرجع سابق ، هامش رقم ٩١) ، جبل عَدّا

(ميليه في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol III, 1964, p. 12) .

وميناريني (Adams, op. cit., n. 97, pp. 174-6)

١١٧- لمناقشة أكثر فى هذه الرسالة أنظر ميليه في

Fernea, Ed., Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966), Vol. I, pp. 59-77.

١١٨- قارن تريقر في Anthropologica, Vol. X (1968), pp. 96-7.

١١٩- وولي ، مرجع سابق (هامش رقم ٩٣) ، p. 6 .

١٢٠- تريقر (في تبادلٍ شخصي) يعتقد مع ذلك أن المساكن الكبيرة ذات البناء الراسخ معلم عام على المستوطنات المتأخرة والأوسع مساحة ، وأن الفرق بينها والمنازل البسيطة العادية ربما يعكس إنقساما على أساس الريف والحضر أرجح منه تمايزا طبقياً .

١٢١- امرى و كيروان

The Excavations and Survey between Wadi es-Sebua and Adindan, 1929-1931 (Cairo, 1935), Vol. I, pp. 180-22 and Vol. II, pl. 17.

١٢٢- أنظر خاصة تريقر

The Late Nubian Settlement at Arminna West, Publications of the Pennsylvania – Yale Expedition to Egypt, no. 2 (1967), pp. 35-70 and Fig. 23.

١٢٣- أنظر كلاسنس في

Fouilles en Nubie (1961-1963) (Cairo, 1967), pp. 80-82

و جاكيه في

Beiträge zur Ägyptischen Bauforschung und Altertumskunde, Vol. 12 (1971), pp. 121-31.

١٢٤- أُجرى الحفر بواسطة بعثة جامعة كلورادو للنوبة عام ١٩٦٣ ؛ ولم تُنشر بعد .

١٢٥- أنظر ادمز ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٩٧) ، pp. 151-2 . وفي
Chang, Ed., Settlement Archaeology (Palo Alto, 1968), pp. 182-4, 200

١٢٦- بالرغم من ذلك ، يعتقد تريقر (في تبادل شخصي) أن كل المساكن " الفخمة " في أرمينا كانت متأخرة فى زمانها أكثر من المنازل الأخرى قاطبةً . وفي مكان آخر (مرجع سابق ، هامش رقم ٨ ، p. 129 وهامش رقم ١١٨ ، مرجع سابق p.97)

يصف المساكن " الفخمة " بأنها مشابهة لأماكن الإقامة المروية على وجه العموم ، ولكنها في الحقيقة اقل عدداً من المنازل العادية ، هشة البناء فى مواقع عديدة في النوبة السفلى .

١٢٧- ربما يوجد بعض التأكيد على هذه النظرية في الحقيقة التي مؤداها أن الشوكان وُجدت بها مجموعة مسلات نُقش عليها ما يدل بوضوح على خطط المساكن " الفخمة " . أنظر جاكيه ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢٣) pp. 130-131 والصور 19-20 .

١٢٨- لوصفٍ أكثر تفصيلاً عن هندسة المساكن المروية " الفخمة " أنظر ما قبله ، pp. 121-30 .

١٢٩- راجع أدمز و نوردستروم في Kush XI (1963), p. 26

١٣٠- قارن كروفورد و أديسون
Abu Geili and Saqadi & Der el Mek, The Wellcome Excavations in the Sudan, Vol. III (1951), p. 10.
لقد تمت ملاحظة هذا الوجه ايضا في مروي (تبادل شخصي من ب. ل. شيني) .

١٣١- كروفورد و أديسون ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣٠) : أنظر بخاصةٍ
Plan of Excavations (end paper).

١٣٢- أدمز و نوردستروم ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ١٢٩) pp. 26-8 .

١٣٣- ما قبله .

١٣٤- نفسه ، pp. 29, 41 .

١٣٥- قارن وولي ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٩٣) pp. 26-40 والصور 26-9 ؛ ادمز ، المرجع السابق (هامش رقم ٩٧) ، pp. 164-5 ؛ وتريقر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٢) ، Fig 23 .

١٣٦- أنظر هامش رقم ١٢٥ .

١٣٧- أدمز ، المرجع السابق (هامش رقم ٩٧) ، pp. 162-3 .

١٣٨- قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ٨٥) ، pp. 21-3 . والصورة XIII

١٣٩- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 129-30 .

١٤٠- أدمز ، المرجع السابق (هامش رقم ٩٧) ، pp. 163-4 والصورة XXXIV

١٤١- لمناقشةٍ طويلة أنظر أدمز في Kush XIV (1966), pp. 262-83.

١٤٢- قارن امري و كيروان ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢١)
Vol. I, pp. 108-13 and Vol. II, pls. 15-16.

١٤٣- لتفاصيل مقارنة أنظر أدمز ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤١) pp. 264-5 .

١٤٤- أنظر فيركوتر في Kush VII (1959), p. 127

١٤٥- توجد معلومات وافية عن زراعة العنب في مصر البطلمية والرومانية أعدّها بليني (بلينوس) و أثينوس . انظر ويلكنسون
The Manners and Customs of the Ancient Egyptians (New York, 1878), Vol. I, pp. 382-93.
ولوكاس ، المرجع السابق (هامش رقم ٦) pp. 27-31 .

١٤٦- قارن أدمز ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤١) p. 268 و مونير دي فيلار (هامش رقم ١٤) pp. 40-43 .

١٤٧- ادمز ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤١) pp. 277-8 .

١٤٨- أنظر ديرمبرق ، و ساقليو

Dictionnaire des Antiquités Graeco-Romaines, Vol. III (Paris, 1900), p. 2093 .

١٤٩- إمري و كيروان ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢١) Vol. I, p. 110 .

آدمز ، المرجع السابق (هامش رقم ٩٧) ، p 151.

١٥٠- أنظر بورخارت Travels in Nubia (London, 1819), p. 512.

إن حجم الكنير غير معروف .

١٥١- كرومر

Römische Weinstuben in Sayala (Unternubien), Österreichische Akademie der Wissenschaften, Philosophisch-Historische Klasse Denkschriften, 95 (1967).

١٥٢- تريقر في Bibliotheca Orientalis, Vol. XXV (1968), p. 192.

١٥٣- كرومر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٥١) ، pp. 114-17 .

١٥٤- قارن تريقر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٢) pp. 192-3 .

١٥٥- آدمز و نوردستروم ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٩) p. 39, p. 37 والشكل 6,b .

١٥٦- فيما يبدو بُدئ في بناء المبنى في الفترة المروية ولم يكتمل البناء حتى السنوات الباكرة من فترة بلانة . وهكذا ، تكون كل الآثار المترسبة حوله من فخار " ثقافة المجموعة المجهولة ". أنظر بلملي و آدمز ، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ٦٥) pp. 217-19 .

١٥٧- للتوضيح أنظر المرجع نفسه ، pl. XLIV, no. 1

وبلملي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 56 (1970), pl. XXII, no. 2.

وبالإمكان مشاهدة غصون العنب المتشابكة زخرفاً على أسفل الركن الشمالي ، المجاور لأرضية الحائط .

١٥٨- بلملي ، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) pl. XXIII, no. 4

١٥٩- ما قبله ، pp. 14-16 . "تقديم المحرر" في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 55 (1969), p. 1.

١٦٠- قارن بلملي و آدمز ، مرجع سابق (هامش رقم ٦٥) pp. 218-19 .

١٦١- أنظر فيرورس في Kush X (1962), pp. 19-21.

١٦٢- إضافة إلي " الحمامات الملكية " الشهيرة الموصوفة بتفصيل في الفصل الحادي عشر ، تم إكتشاف حمامين صغيرين في مروي. ومن الأوصاف النذيرة التى نشرت عنها لايبدو أنها قريبة الشبه بالهياكل التى عُثر عليها في فرس. أنظر قارستنق في

Universirty of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. VII (1914), p. 11.

١٦٣- مترجماً عن مونير دى فيلار ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) p. 36 .

١٦٤- سايك في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. IV (1911), p. 55; Dunham

دونهام في American Journal of Archaeology, vol. L (1946), p. 385;

جاد الله في Kusch XL (1963), pp. 198-9.

١٦٥- تريقر في African Historical Studies, Vol. II (1969), p. 45.

١٦٦- نفسه p. 46 .

١٦٧- وينرايت في Sudan Notes and Records, Vol. XXVI (1945), p. 24.

١٦٨- إعتقد هايكوك على أساس إختبار شخصي قام بإجرائه أن البقايا المنصهرة في كاوة من النحاس أكثر منها بقايا لصناعة الحديد (تبادل شخصي) .

١٦٩- تريقر ، نفس المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ١٦٥) p. 47 .

١٧٠- قارن سينقر وآخرين ، مرجع سابق (هامش رقم ٧٢) pp. 56, 72 .

١٧١- أنظر أركيل في
Current Anthropology, Vol. VII (1956), p. 478
ويليامز في تومسون و فيرجسون ، Africa in Classical Antiquity (Ibadan, 1969) pp. 62-72,
وتايلكوت في Bulletin of the Historical Metallurgy Group, Vol. 4 (1970), pp. 67-72.
يقترح دايفز ، من الناحية الأخري ، أن آلة الصهر المروية ربما كانت علي الأرجح فرناً
أنظر West Africa before the Europeans (London, 1967), p. 239.
١٧٢- قارن شارلستون Roman Pottery (London, 1955), pp. 36-7 and pls. 78-80.
١٧٣- في دراستين سابقتين (Kush XII, 1964, pp. 170-71
ودينكلر وآخرين في
Kunst and Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit [Recklinghausen, 1970], p. 121)
كتبت أن المواقع النبتية المتأخرة والمروية الأولي في النوبة العليا مشخصة تكاد علي وجه كلي بمصنوعات يدوية ، إذ أن عجلة صانع الفّخار يبدو أنها توقفت إستعمالها فى أزمان نبتية متأخرة . لقد كان هذا خطأ يقوم علي فهم غير صحيح للموقع الذي شغلته الجّبانات الخاصة " بالنوبه " (فيما بعد المروية) فى مروي والمصورات من حيث التسلسل الزماني ، وهى الجّبانات التى ما عُثر بها على غير الفّخار اليدوي . ولقد واتتنى الفرصة مذاك لأفحص بنفسي مجموعةً كبيرة من الفّخار الذى وُجد فى المصورات ، ولأرى وصف الفّخار الذي قام بنشره البروفسور أوتو (Zeitschrift für Archäologie, Vol. I, 1967, pp. 1-32) ولقد تعرفت على أن معظم المواد تتكون من مصنوعات بالعجلة وغير مزخرفة وهي بالضرورة تواصل تقاليد لأزمان فرعونية . لمزيد من التفاصيل الشاملة لهذا الموضوع أنظر آدمز و أوتو في Meroitica 1 (1973), pp. 177-240.
١٧٤- بالنسبه للفّخار الخاص بالمصورات أنظر على وجه الخصوص أوتو في
Zeitschrift für Archäologie, Vol. I (1967), pp. 1-32.
١٧٥- قارن آدمز ، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣) ، p. 171 في
Meroitica 1 (1973), pp. 177-219, 227-40.
وكذلك في Meroitica 2 (1976), p. 19.
ومع ذلك ، عُثر على مصنوعات مشابهة للمصنوعات الخاصة بمروي والمصورات في المستويات الأسفل بقصر إبريم ، وهى لا تشبه بحق الفّخار المروي من النوبة السفلى ، أنظر " المحافظة المروية "، بأعلاه .
١٧٦- إن بعض التمثلات شديدة العمومية ربما تلاحظ بين الفّخار المروي المزخرف وما يسمي بأصيص "الحدره" المصنوعة في الأسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد (قارن جوريني
Vasi di Hadra, Seminario di Archeologia e Storia dell'Arte Grecae Romana dell'Universsità di Roma, Studi Miscellaniei, 8, 1964)
ومثل ذلك تماماً بعض الآنية الإغريقية - المصرية من نوكراتيس
(Petrie, Nukratis, Part I, Egypt Exploration Fund, Memoir No. 3, 1888).
وبالرغم من ذلك ، تعرض المصنوعات المصرية جزءاً صغيراً ليس إلا من التنويعة المزخرفة التى وُجدت في الفّخار المروي .
١٧٧- لدراسات مطولة فى طبقات الأرض والتاريخ المتعلق بالفّخار المروي فى النوبة السفلى ، أنظر آدمز ، المرجع السابق (هامش رقم ٦٣) ، وفي Kush XV (1973), pp. 1-50,
وفى دنكلر ، محرراً ،
Kunst and Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 111-22.
أنظر كذلك شيني ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 114-22 .
١٧٨- لتوضيحات مصوّرة بالألوان أنظر بخاصة وولى و راندال - ماك إيفر في

Karanog, the Roman-Nubian Cemetery, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vols. III-IV (1910), pls. 41-52;

الماقرو في

La Necropolis Meroitica de Nag Gamus (Masmas, Nubia Egipicia), Comité Espanol de la Unesco para Nubia, Memorias de la Misión Arqueológica en Nubia, VIII (1965), pls. XXIII-XXVII ;

وتوجد توضيحات كثيرة أخرى في قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) الصور رقم XLI-LII .

١٧٩- أنظر الرسوم فى أدمز خاصة، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣) ، pp. 147-52 وشينى (هامش رقم ٩)، مرجع سابق، p. 121 .

١٨٠- قارن أدمز في

Kush X (1962), p. 276, Kush XV (1973), p. 4, and Kush XVI (تحت الطبع)

١٨١- أدمز و نوردستروم ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٩) p 26 .

١٨٢- أدمز في Kush X (1962), p. 64

عُثر على قمائن في المستوطنة المروية في وادي العرب ، على أن الحفارين اعتبروا أنهم ربما يعود وجودهم إلى تاريخ مسيحي. ومن التوضيح المنشور ، مع ذلك ، يبدو أنهم يتماثلون للغاية مع القمينة المروية في أرقين . أنظر امري و كيروان ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢١) ، Vol. I, p. 110 and Vol. II, pl. 15.

ومن البّين في ضوء العثور على عدد من الآنية التى لم يُحسّن حرقها في قصر إبريم أن الفّخار المروي كان يُصنع هنا سواءً بسواء (مذكرات المؤلف الميدانية غير المنشورة) .

١٨٣- تبادل شخصي من ب . ل . شيني .

١٨٤- قارن كراوفورد و أديسون ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣٠) pp. 50-51 .

١٨٥- ديكسون في Kush XI (1963), pp. 232-4

١٨٦- قارن أدمز في Kush XVI (in press).

١٨٧- مذكرات المؤلف الميدانية ، غير المنشورة . ولوصف عن الموقع أنظر Kush XI (1963), p. 28.

ولقد بّلغ هايكوك (في تبادل شخصي) أن أعداد كبيرة من مثل هذه الأوزان عُثر عليها في مروي .

١٨٨- سنقر وآخرين في A History of Technology, Vol. I (Oxford, 1954), pp. 426-8, 443-5.

١٨٩- لوكاس ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 170 .

١٩٠- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) p. 166 .

١٩١- XIII: 28 .

١٩٢- لوكاس ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 170 .

١٩٣- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) p. 166 .

١٩٤- قارن وولي و راندال ـ ماك إيفر ، المر جع السابق (هامش رقم ١٧٨) ، pp. 27-8, 245; pl. 108.

١٩٥- شيني ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) ، p. 129 .

١٦٩- قارن أدمز و نوردستروم ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٩) p. 30

والصورة رقم III .

١٩٧- وولي و راندال ـ ماك إيفر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٨) p. 28 .

١٩٨- ما قبله ، p. 109 .

١٩٩- قارن ما قبله ، p. 61 وشيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) pp. 122-31.

٢٠٠- أنظر بخاصة وولي و راندال ـ ماك إيفر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٨) ، الصورة رقم 40-21 .

٢٠١- أنظر قريفيث ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) ، الصور رقم LIII-LXIV .

٢٠٢- مذكرات المؤلف الميدانية ، غير المنشورة .

٢٠٣- أنظر بخاصة وولي و راندال - ماك إيفر .

٢٠٤- قارن قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 144 والصورة XL ؛

ساف - سودربرج في Kush XI (1963), p. 65;

بيلليسر و للنقوراس في

Las Necropolis Meroiticas del Grupo 'X' y Cristianas de Nag-el-Arab, Comité Espanol de la Unesco para Nubia, Memorias de las Misión Arqueológic en Nubia, V (1965), pl. XVIII.

٢٠٥- وولي و راندال - ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) ، الصورة رقم 35 .

٢٠٦- هايكوك (تبادل شخصي) يبلغ أن مثل هذه الحُجول لا تزال مستخدمةً فى المناسبات من النساء فى وسط السودان .

٢٠٧- قارن شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) ، p. 130 .

٢٠٨- وولي و راندال - ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) ، p. 74 .

لتوضيحات عن آنية الزجاج التى وُجدت في مواقع مروية أنظر ما قبله ، الصور رقم 9-37 ؛

وقريفيث ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) الصورة LI ؛

وساف سودربرج ، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠٤) ، الصورة XII ؛

وليكلانت في

Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Comptes Rendus des Séances de l'Année 1970, pp. 269-74, Figs. 13-18.

٢٠٩- أنظر ليكلانت ، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠٨) pp. 269-73 ، وفي

Les Sycrétismes dans les Religions Grecque et Romine, Bibliothèque des Centres d'Études Supérieures Spécialisées, Travaux du Centre d'Études Supérieures Spécialisées d'Histoire des Religions de Strasbourg (1973), pp. 135-9.

٢١٠- ليكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠٨) p. 273 ، الشكل رقم 17 .

٢١١- بإستثناء بلورات طينية صغيرة تُستعمل فى صنع حبات العقود ، وهي واسعة الإنتشار في مواقع نوبية مسيحية .

٢١٢- وولي و راندال - ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) pp. 74-5 .

ولإيضاحات ملونة أنظر المرجع نفسه ، الصورة 40 .

٢١٣- قريفيث ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) ، الصورة رقم LXI .

٢١٤- أنظر وولي و راندال - ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) pp. 69-72 والصور 5-21 .

٢١٥- قارن تريقر ، المرجع السابق (هامش رقم ٨) pp. 186-97 .

٢١٦- وولي و راندال - ماك إيفر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٨) p. 81.

٢١٧- نفسه p. 3 .

٢١٨- أنظر بخاصة ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 52 و في

Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. II (1963), pp. 154-64.

٢١٩- قارن قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XII (1925), p. 64;

ميليه في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. II (1963), p. 161;

و ليكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠٨) pp. 247-57 .

٢٢٠- ميليه ، في النص المنقول ، الهامش رقم ٢١٩ .

٢٢١- شيف جيورجيني في Kush XIII (1965), pp. 129-30;

ليكلانت ، المرجع الوارد آنفا (هامش رقم ٢٠٨) ، p. 253 .

٢٢٢- وولي و راندال ـ ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) p.14 .

٢٢٣- قارن ليكلانت ، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠٨) p. 249 .

٢٢٤- وولي و راندال ـ ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) p. 81 .

٢٢٥- قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) pp. 144-6 .

٢٢٦- آدمز و نوردستروم ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٩) p. 29 ؛

آدمز ، في النص المنقول (هامش رقم ٦٣) وفي المرجع السابق (هامش رقم ٦٣) ،

والمرجع السابق (هامش رقم ٦٩) p. 118 .

٢٢٧- قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. X (1923), pp. 73-171.

٢٢٨- قارن وولي و راندال ـ ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) ، p. 81 .

٢٢٩- قارن قريفيث ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) ، p. 146 والصورة XXXV ؛

شيني ، مرجع سابق ، (هامش رقم ٩) p. 155 .

٢٣٠- تريقر ، المرجع السابق (هامش رقم ٨) p. 127 .

٢٣١- وولي و راندال ـ ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) p. 27 ؛

ڤيلا في Aksha II (Paris, 1967), pp. 332-3.

٢٣٢- قارن امري ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 228 والشكل رقم 42 .

٢٣٣- وولي و راندال ـ ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) p. 29 .

٢٣٤- نفسه p. 30 .

٢٣٥- آدمز و نوردستروم ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢٩) pp. 26-8 .

٢٣٦- وولي و راندال ـ ماك إيفر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٨) pp. 9-11 .

٢٣٧- للإيضاحات أنظر ما قبله ، الصور 14-11 ؛ و قريفيث ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) ، والصور رقم LXV .

٢٣٨- وولي و راندال ـ ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) pp. 9-10 .

٢٣٩- للإيضاحات أنظر ما قبله ، الصور 17-15 .

٢٤٠- نفسه . p. 8 .

٢٤١- أنظر ما قبله ، الصورة رقم ١ .

٢٤٢- للإيضاحات أنظر خاصة ماقبله ، الصور 10-1 ؛ و قريفيث ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) الصور . LXVI-LXVII

٢٤٣- بوسنر ، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠) p. 266.

٢٤٤- وولي و راندال ـ ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) p. 46.

٢٤٥- نفسه pp. 10-11.

٢٤٦- الأمثلة المعروفة من الجنوب على الأشهر تُنسب إلي الجّبانة المروية في صدنقا (ليكلانت، مرجع سابق، هامش رقم ٢٠٨، 259).

ويعتقد المؤلف أن تماثيل "با" الوارد ذكرها هنا كانت في الأصل موضوعةً في دهليز خاص (سرداب) فيما بين هرم المدفنة .

٢٤٧- على الأقل فى نقوشهم المنحوتة بالهيروغليفية المصرية . إن النقوش الملكية باللغة المروية، إلى الحد الذى بوسعنا فك طلاسمها، يبدو أنها تُوَظِّف ألقاباً مختلفة على الأرجح .

الفصل الثالث عشر

المصادر الأساسية : بالنسبة للآثار الخاصة بثقافة بلانة أُخذت غالباً من امرى
The Royal Tombs of Ballana and Qustul (Cairo, 1938; مجلدان)
ومن مؤلفه المتأخر Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 57-90, 232-47
ولتفسير إضافي للآثار الباقية من ثقافة بلانة أدين على وجه الخصوص لتريقر
History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), pp. 131-40,

ولمقالين لنفس المؤلف في
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 55 (1969), pp. 171-28
وفي Journal of Near Eastern Studies, Vol. 28 (1969), pp. 255-61.
وفي معالجتي للنصوص التاريخية إعتمدت بشكل مُركز على عدد من المقالات نشرها ل . ب . كيروان ، وبشكلٍ بارز في :
University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XXIV (1937), pp. 69-105; Sudan Notes and Records, Vol. XX (1937), pp. 47-62; Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), pp. 23-37; The Geographical Journal, Vol. 138 (1972), pp. 457-65.

١- شيني Meroe (New York, 1967), p. 52
٢- نفسه ، p. 52 :
ميليه Meroitic Nubia (New Haven, nd.), pp. 35-6
٣- Studien zur Meroitischen Chronologie und zu den Opfertafeln aus den Pyramiden von Meroe, Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, und Kunst, 1959, No. 2, p. 31.
٤- جَبانات كوش الملكية The Royal Cemeteries of Kush, Vol. IV (Boston, 1957), p. 7
٥- قارن كيروان في Sudan Notes and Records, Vol. XX (1937), p. 53
و تريقر
History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), p. 131.
٦- المرجع السابق (هامش رقم ٥) .
٧- جونز و مونروي A History of Ethiopia (Oxford, 1955), p. 22
٨- أنظر كيروان في
University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XXIV (1937), p. 70 and in the Geographical Journal, Vol. 138 (1972), pp. 171-2.
ومع ذلك ، ليس هناك إلى الآن تاكيد اثارى يدل على وجود آدوليس فى الازمان ما قبل آكسوم .
٩- للترجمة ، أنظر شوف
The Periplus of the Erthraean Sea (New Yew York, 1912).
١٠- للترجمة ، أنظر ماك كريندل
Christian Topography of Cosmas, an Egyptian Monk (London, 1897).
١١- كيروان في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XXIV (1937), p. 69, and in the Geographical Journal, Vol. 138 (1972), pp. 169-71;

جونز و مونروي ، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 22-3 .

١٢- أركيل A History of the Sudan, 2nd. Ed. (London, 1961), p. 180.

١٣- ماك كريندل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) p. 371 .

١٤- منحوت عيزانا (أنظر بأدناه) يبين انه في أوج قوتهم كان للاكسوميين نفوذ معتبر على جيرتهم البجا، بالرغم من أنهم في أزمانٍ سابقة وأخرى لاحقةً كانوا فى حربٍ متواصلة تكاد مع القبائل البدوية أو أحدها. أنظر خاصة كيروان في University of Liverpool Annals of Archaeology, Vol. XXIV (1937), pp. 70-71,

و بول A History of the Beja Tribes of the Sudan (Cambridge, 1954), pp. 45-6.

١٥- أنظر جونز و مونروي ، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 24 .

١٦- مأخوذاً من ترجمة بدج في A History of Ethiopia (London, 1928), Vol. I, pp. 252-8.

لقد اخترت هذه الترجمة أساساً بسبب إيجازها. إن ترجمةً إنجليزية اكمل وافضل من النواحى الفنية توجد في كيروان

Kush VIII (1960), pp. 163-5

وقد أخذت عن الأصل الألماني تأليف ليتمان في

Miscellanea Academica Berloinensa, Vol. II, Part 2 (1950), pp. 97-127.

١٧- أنظر كيروان ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) p. 163 وفي

The Geographical Journal, Vol. 138 (1972), p. 461.

١٨- خرج إلي النور لوح آخر لعيزانا يحمل شعائر مسيحية فى اكسوم ١٩٦٩ ؛ أنظر كيروان في

The Geographical Journal, Vol. 138 (1972), pp. 460-62.

ومن الظاهر أنه سرد جزئي لنفس الحملة التى وصِفت فى اللوح الأشهر .

١٩- XVII: 1, 2 .

٢٠- IV: 5 .

٢١- كما هو متضمن في أعمال مؤلفين مأثورين آخرين .

٢٢- لتعليقٍ طويلٍ عن نحت إيزانا وأهميته الطوبوغرافية والتاريخية أنظر هينتز في

Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 94 (1967), pp. 79-86

و كيروان ، مرجع سابق (هامش رقم ١٨) .

٢٣- قارن شينى في Kush III (1955), pp. 82-3

٢٤- في كوش VII (1959), p. 190

٢٥- كيروان ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) pp.171-2.

ويعتقد كيروان الآن أن مؤلف منحوت أدوليس لربما يكون ملك عربى ؛ أنظر

The Geographical Journal, Vol. 138 (1972), pp. 175-6

٢٦- أنظر ألدورف The Ethiopians (London, 1960), pp. 55-7

٢٧- لمناقشة هذه النقطة أنظر "الأيدولوجيا والدين فى العهد ما بعد المروي"، بأدناه .

٢٨- أنظر كيروان في Mélanges offerts à Kazimierz Michalowski (Warsaw, 1966), p. 121.

٢٩- إمري Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 232-4

لمناقشةٍ عن البلميين تأسيساً علي مصادرٍ معاصرة أنظر ريفيلو

Mémoire sur les Blemmyes, à propos d'une Insciption Copte, Mémoires Présentés par Divers Savants à l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Vol. VIII, Part 2, Series 1 (1874), and in

Revue Égyptologique, Vol. V (1887), pp. 1-47

٣٠- لقد تم تأييد ذلك الآن بكل تأكيد بالعثور على سند نَصي من قصر إبريم (يتم وصفه في الفصل الرابع عشر)، وفيه يتم الحديث عن البجا والبليميين كشيء متبادل .

أنظر كذلك كيروان ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 69-76 .

٣١- قارن ما قبله : pp. 70-71 . وهامش رقم ٥ .

٣٢- دي بلو برسيكو : I :xix . ولترجمة الفقرة المتعلقة بإنسحاب الرومان من الدوديكاسخون أنظر امري، المرجع المذكور انفا (هامش رقم ٢٩) p. 235 .

٣٣- كيروان ، المرجع السابق (هامش رقم ٢٨)، p. 122 .

٣٤- هايكوك في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 53 (1967), p. 119

تريقر في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 55 (1969), p. 126

٣٥- الوصف مُبتدر من رايزنر في

Archaeological Survey of Nubia, Bulletin No. 3 (Cairo, 1909), p. 6

٣٦- Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907-1908 (Cairo, 1910), Vol. 1, p. 345.

٣٧- Archaeological Survey of Nubia, Bulletin No. 5 (Cairo, 1910), p. 12

٣٨- بطراوي في

Journal of the Royal Anthropological Institute, Vol. LXXV (1946), Part II, pp. 81-101 and Vol. LXXVI (1946), Part II, pp. 131-56,

مخرجي، راو و تريفور

The Ancient Inhabitants of Jebel Moya (Sudan) (Cambridge, 1955), p. 85

جرين في

Detention of Meroitic, X Group, and Christian Populations from Wadi Halfa, Sudan, University of Utah Anthropological Papers, No. 85 (1967);

ميليه، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 193 ؛

دوين برنور في تبادل شخصي .

٣٩- كيفما كان الحال، لايزال غير واضح إلى حد بعيد للغاية ماذا تعنى الزنجية"Negroid" فيما يختص بالتشريح الهيكلي للإنسان .

٤٠- قارن فاقن نيلسن

Human Remains, The Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubian Publications, Vol. 9 (1970), p. 81;

إستروهال في

Anthropologie und Human-genetik; Festschrift zum 65. Geburtstag von Prof. Dr K. Saller (Stuttgart, 1968), pp. 84-92; and Strouhal in Anthropological Congress Dedicated to Ales Hrdlicka, 30th August-5th September 1969 (Prague, 1971), pp. 541-7.

٤١- بطراوي في

Journal of the Royal Anthropological Institute, Vol. LXXVI (1946), Part II, p. 145.

٤٢- قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XII (1925), p. 70.

٤٣- جنكر في

Ermenne, Bericht über die Graungen der Akademie der Wissenschaften in Wien auf den Friedhöfen von Ermenne (Nubien), Akademie der Wissenschaften in Wien, Philosophisch-Historische Klasse Denkschriften, 67, Part 1 (1925), p. 85;

مترجما في تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 133 .

٤٤- أنظر آدمز في Kush XII (1964), p. 172;

٤٥- آدمز في Kush XIII (1965), p. 176

وتريقر

The Late Nubian Settlement at Arminna West, Publications of the Pennsylvania-Yale Expedition in Egypt, No. 2 (1967), pp. 79-83;

ميليه، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 193 .

٤٦- تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 132 .

إستخدم كيروان مصطلح " حضارة بلانة " لأكثر من عشر سنوات من قبل

(Bulletin de la Société de Géographie d'Égypte, Vol. XXV, 1953, pp. 103-10)

لكنه لم يقترح ذلك المصطلح ليدل على " جماعة الثقافة المجهولة ".

٤٧- تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) pp. 136-7 .

٤٨- مثالاً ما نقل عن كيروان فى الهامش رقم ٥، و ٨، و ١٦، وما نقل عن امري

في Egypt in Nubia (op. cit., no. 29), pp. 232-45

The Royal Tombs of Ballana and Qustul (Cairo, 1938), Vol. 1, pp. 5-24.

٤٩- أنظر الهامش رقم ٣٢ .

٥٠- ظل عمله على قيد الحياة فى موجزٍ أعده فوتيوس، لاغير . أنظر النص الأصلي لهذا العمل في وولي و راندال - ماك إيفر

Karanog, the Romano-Nubian Cemetery, University of Pennsylvania Musuem, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vol. III (1910), p. 103;

ولترجمةٍ جزئية أنظر امري، المرجع السابق (هامش رقم ٢٩) p. 236 .

٥١- للنسخة الأصلية للنص انظر وولي و راندال - ماك إيفر، مرجع سابق (هامش رقم ٥٠) pp. 103-4 .

ولمناقشةٍ انظر كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) pp. 103-4 .

٥٢- قارن تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 53 .

٥٣- لقائمةٍ كاملة عن مواقع بلانة في النوبة المصرية أنظر ما قبله، pp. 186-7 .

وللإلمام بموجزٍ لعلامات المواقع فى النوبة السودانية أنظر آدمز في كوش Kush X (1962), p. 12.

و آدمز و نوردستروم في Kush XI (1963), pp. 13-16

و ملز في Kush XIII (1965), pp. 3-12.

٥٤- قارن ملز، المرجع السابق (هامش رقم ٥٣) .

٥٥- أنظر بيلسر و للنقوراس

Las Necópolis Meroiticas del Grupo "X" y Christianas de Nag-el-Arab, Comité Espanol de la Unesco para Nubia, V (1965), p. 35.

٥٦- مثالاً الجّبانات الكبرى في بلانة وقسطل، وسيجرى وصفها الآن، والجّبانة في جزيرة صاي

(فيركوتر في Kush VI, 1958, pls. XLIX-L)

٥٧- إستناداً على وثائق غير منشورة للمسح الآثاري للنوبة السودانية .

قارن كذلك آدمز في

Sudan Notes and Records, Vol. XLVIII (1967), p. 17, and in Antiquity, Vol. KLII (1968), p. 207.

٥٨- لم تتضح مساحة المستوطنة البلانية فيما بين الحدود السودانية ـ المصرية والشلال الثاني حتى تم مسح الأرض فى ١٩٦٠-١٩٦٥ . وفي وقت سابق، كتب امرى أن "التركيز الأعظم للمدافن يقع حول مقاطعة إبريم." أنظر
The Royal Tombs of Ballana and Qustul (Cairo, 1938), Vol. I, p. 18.

٥٩- فيما تم إيضاحه بحفريات ١٩٧٢-١٩٧٤ ؛ أنظر بلملي و آدمز في
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pp. 212-38.

وصف قصر إبريم أوليمبودوروس في القرن الخامس الباكر باعتباره موقعا منيعا للبليميين ؛ أنظر
كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) pp. 77-80 .

٦٠- أنظر الفصل الثالث .

٦١- قارن ميلز، المرجع السابق (هامش رقم ٥٣) .

٦٢- بمثلما تشهد عليه مدافن بلانة التلية باذخة الثراء والحجم في فركة ؛ أنظر كيروان في
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXI (1935), pp. 191-8, and The Oxford University Excavations at Firka (Oxford, 1939).

٦٣- أنظر فيركوتر، في النص المنقول (هامش رقم ٥٦) ؛ باتس و دونهام في
Harvard African Studies, Vol. viii (1927), P. 117;
وكيروان The Oxford University Excavations at Firka (Oxford, 1939), pp. 28-9.
ربما تكون هناك جَبانة بلانية صغيرة على بعد أميالٍ قليلة صوب الجنوب البعيد في واوا ؛ أنظر كيروان، مرجع سابق (بأعلاه) p. 29 .

٦٤- قارن كيروان في Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), p. 30;
وتريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 133 .

٦٥- قارستنق وآخرين Meroë, the City of the Ethiopians (Oxford, 1911), p. 30;
دونهام في Archaeology, Vol. 6 (1953), p. 94

٦٦- قارن تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٣٤)، p. 120 .

٦٧- نفسه .

٦٨- أنظر ميليه لأفضل إيضاحٍ عن واحدٍ من هذه الجعاب في
Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. II (1963), p. 155.

٦٩- قارن امري و كيروان .
The Excavations and Survey between Wadi es-Sabua and Adindan (Cairo, 1935), Vol. I, pp. 268-77.

٧٠- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) .

٧١- باتس و دونهام، مرجع مذكور آنفا (هامش رقم ٦٣) pp. 69-96 .

٧٢- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣) .

٧٣- ميليه، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 193-4 ؛
و ادمز، مرجع سابق (هامش رقم ٤٤) .

٧٤- للوصف والتوثيق أنظر " حياة المدينة والقرية "، الفصل الثانى عشر .

٧٥- امري و كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) pl. 17, pp. 108-22 .

٧٦- ادمز، مرجع سابق (هامش رقم ٤٥) pp. 153-5.

٧٧- فيرورس في Kush X (1962), p. 30.
هوز في Kush XII (1964), pp. 180-83.

٧٨- الموقع 24-S-5 ؛ أنظر ادمز و نوردستروم، مرجع سابق (هامش رقم ٥٣ ، p. 30 and p. 27, Fig. 4.

٧٩- الموقع 5-S-23 وهو غير مذكور فيما تم نشره .

٨٠- أنظر داندال ـ ماك إيفر و وولي
Buhen, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vols. VII-VIII (1911), p. 125 and pl. 68.

٨١- تعرف ميليه على منازل مشابهة في جبل عَدّا على أنها تنتسب إلى الفترة المروية، ولكن هذا الأمر موضعٌ للجدال . أنظر هامش رقم ٨٤ بأدناه .

٨٢- في أزمان ما بعد بلانة كانت البضائع تُخَزن، ليس في منازلٍ مبنيةٍ بشكل خاص للتخزين، وإنما في حفرٍ عميقة محفورة في الرواسب المتراكمة لأزمان سالفة .

إن عشرات من هذه الحفر وُجدت في كل مكان بالموقع ؛ وقد اضطربت من جرائها حقيقةُ الطبقات الصخرية بالتقريب في كل الأمكنة. وفيما تبدو يعود منشؤها إلى كل فترات الإحتلال من المسيحية الأولى إلى الوسيطة المتأخرة. أنظر بلملي و أدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٥٩) .

٨٣- لمناقشةٍ أكثر تفصيلا أنظر "الأيدولوجيا والديانة في العصر ما بعد المروي"، بأدناه .

٨٤- نُسبت منازل كثيرة عثر عليها ميليه في جبل عَدّا إلي الفترة المروية أكثر منها إلي فترة بلانة فيما ارتأى ميليه نفسه، ولكنني أرى أن ذلك الأمر ربما يرجع إلي تأويلٍ غير صحيح للطبقات الفّخارية. أنظر ميليه في
Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. XI (1967), p. 58.

٨٥- لمناقشةٍ أطول حول فَخار بلانة أنظر أدمز في Kush XV (1973), pp. 1-50.

٨٦- أنظر أدمز في Kush X (1962) pp. 66-70.

٨٧- لمناقشةٍ حول تطور الفَخار النوبي اليدوي، أنظر ادمز في دنكلر
Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 114-15, and op. cit.
مرجع سابق (هامش رقم ٨٥) pp. 35-6 .

٨٨- تريقر في African Historical Studies, Vol. II (1969), pi 49.

٨٩- قارن امري، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) p. 69 .

٩٠- أنظر أدمز و نوردستروم، مرجع سابق (هامش رقم ٥٣) p. 31 .
والصورة رقم IVb .

٩١- الوصف قائم علي ملاحظات المؤلف الميدانية غير المنشورة. وللتقرير الأولى أنظر بلملي و أدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٥٩) .

٩٢- للتوثيق أنظر هامش رقم ٦٩-٧٢ .

٩٣- التقرير المحدد لامرى، المرجع السابق (هامش رقم ٥٨) ؛
أنظر كذلك امري
Nubian Treasure (London, 1948).

٩٤- امري، المرجع السابق (هامش رقم ٢٩) pp. 58-9 . والمرجع المشار إليه هو
ويقال Antiquities of Lower Nubia in 1906-1907 (Oxford, 1907)

٩٥- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 63-7 .

٩٦- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) pp. 25-6 .

٩٧- قارن المرجع نفسه pp. 182-399 . أنظر كذلك امري Nubian Treasure (London, 1948)
و كيروان في باكون في Vanished Civilizations (New York, 1963), p. 77

٩٨- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨)، p. 180 . كيروان (في تبادلٍ شخصي) يفضل الآن تأريخا ما بين القرنين الرابع والسادس الباكر .

٩٩- لأوصافٍ وإيضاحاتٍ مُفَصلة أنظر امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) pp. 182-6 . والصور 32-6 .

ولإيضاحات ملونة أنظر كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣) pp. 62-3 .

ولمناقشة الأهمية التصويرية والثقافية لتيجان بلانة أنظر تريقر في

Journal of Near Eastern Studies, Vol. 28 (1969), pp. 225-61.

١٠٠- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) p. 182 .

١٠١- نفسه p. 26 .

١٠٢- قارن دونهام، مرجع سابق (هامش رقم ٦٥) pp. 93-4 .

١٠٣- المدفن التلي رقم ٣ في بلانة ؛ أنظر امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) p. 78 .

١٠٤- الجّبانة الكبرى رقم III : أنظر رايزنر في Harvard African Studies, Vol. V (1923), p. 81.

١٠٥- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) p. 26 .

١٠٦- أنظر خاصة تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٣٤) pp. 121-2 . والصورة XXIX .

١٠٧- نفسه ، p. 122 .

١٠٨- ما قبله ، p. 123 والهامش رقم ١ .

١٠٩- لمزيد من النقاش في هذه المسألة أنظر ما قبله ؛ وكذلك تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٩٩) .

١١٠- مرجع مذكور آنفا (هامش رقم ٣٤) p. 128 .

١١١- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) pp. 180-81 .

١١٢- مرجع سابق (هامش رقم ٣٤) p. 125 .

١١٣- تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٩٩) pp. 258-61 .

١١٤- قارن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 56 .

١١٥- المرجع السابق (هامش رقم ٣٤) p. 125 .

١١٦- قارن كيروان في باكون، Vanished Civilizations (New York, 1963), p. 77

١١٧- يؤمن ميليه مع ذلك أن الحفريات في جبل غدًا كانت كافيةً للتوصل إلى أن الاقامة الملكية لم تكن قائمةً هنا ؛ أنظر النص المنقول (هامش رقم ٨٤).

١١٨- أنظر " آثار الثقافة البلانية "، بأعلاه .

١١٩- أنظر كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٥) pp. 59-60 .

١٢٠- للتوثيق أنظر هامش رقم ٦٩، ٧١، و ٧٢ .

١٢١- مرجع سابق (هامش رقم ٣٤) p. 128 .

١٢٢- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) pp. 22-3 ؛ و كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 60 .

١٢٣- امري، المرجع السابق (هامش رقم ٥٨)، p. 25 والصورة 27, B, D .

١٢٤- نفسه ، الصورة 27, B

١٢٥- ما قبله pp. 182-6 والصور 32-6 .

١٢٦- نفسه ، الصور 42, 48, 63, 67, 69, 86, 109

١٢٧- نفسه ، الصور 57, 62, 65, 68, 98, 102

١٢٨- قارن بلملي و آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩) p. 226 .

١٢٩- قريفيث ،

The Nubian Texts of the Christian Period, Abhandlungen der Königlichen Preussischen Akademie der Wissenschaften (1913), p. 73.

أنظر كذلك ميليه في فرنيا

Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966), Vol. 1, pp. 5-6.

١٣٠- قارن كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) pp. 84-5 .

١٣١- رسم صخرى آخر في معبد كلابشة، وإعلان باللغة المروية من ملك إسمه خراما داى، يعتقد ميليه أنهما يعود تاريخهما إلى الفترة ما بعد المروية المباشرة، على أن ذلك الإعتقاد يكاد بكليتة أن يكون تخميناً .
أنظر ميليه، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 203-12, 269-304 .
١٣٢- نقلاً عن امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) p. 239 .
١٣٣- قارن أركيل، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ١٢) pp. 170-71 :
كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 60 .
١٣٤- تريڤر، المرجع السابق (هامش رقم ٣٤) p. 120 .
١٣٥- ميليه، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 193-4 .
١٣٦- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٤٥) .
١٣٧- راندال - ماك إيفر و وولي، مرجع سابق (هامش رقم ٨٠) pp. 125-6 .
والصور 68, a .
١٣٨- مذكرات المؤلف الميدانية، غير المنشورة .
١٣٩- قارن توينبي A Study of History, Vol. 6 (New York, 1962) pp. 49-97.
١٤٠- أنظر هامش رقم ٦٥ .
١٤١- قارن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 76 .
١٤٢- نقلاً عن امري، المرجع السابق (هامش رقم ٢٩) p.238 .
١٤٣- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 89-90 .
١٤٤- قريفيث في
University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), pp. 49-50 and pl. XXXVII;
امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) p. 136 والصورة 27, D .
١٤٥- لم ينشر وصف كامل أو إيضاح لهذه المواد بعد، حسبما أعلم . ولذكرٍ مختصرٍ أنظر هيوز، المرجع السابق (هامش رقم ٧٧) p. 181 . ؛ ولإيضاحٍ لنوعٍ يماثله على الأرجح أنظر وولي و راندال - ماك إيفر، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) الصورة 109 .
١٤٦- آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٤٥)، p. 155 . لابد من ذكر شاهدٍ لقبر مكتوب في صورة أولية بالإغريقية وقد وُجد في جبل البركل عام ١٩١٦ . إعتقد رايزنر أنه جاء من جَبانة قريبة من العصر المسيحي، بالرغم من أنه لم يُعثر عليه بالفعل في الموقع . وللحظ العاثر لم يُنشر أبداً بيان رسمي عن الشاهد أو الجَبانة . أنظر لتقرير أولي رايزنر في Harvard African Studies, Vol. I (1917), pp. 197-8 ;
ولإيضاحٍ أنظر كذلك دونهام The Barkal Temples (Boston, 1970), pl. LIX, A.
ولبيّنةٍ أخرى على المسيحية في أزمان بلانة أنظر دونا دوني في
Mémoires de l'Institut d'Égypte, Vol. LIX (1969), pp. 26-7
١٤٧- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٢٨) p. 127 . وَصَف الأحجبة بارب في
Momigliano, Ed., The Conflict between Paganism land Chsitianity in the Fourth Century (Oxford, 1963), p. 121
١٤٨- أنظر الفصل الثاني عشر، هامش رقم ١٥١ وهامش رقم ١٦٠ .
١٤٩- قارن آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٤٥) p. 150 .
١٥٠- مذكرات المؤلف الميدانية غير المنشورة .
١٥١- كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٥) p. 60 .
١٥٢-لموجزٍ عن الفقرات المأثورة التى تتعلق بالنوبة أنظر وولي و راندال - ماك إيفر، المرجع السابق (هامش رقم

٥٠) pp. 99-103 .
النقل الكامل للمصادر الرئيسة توجد في هذا العمل . وللمزيد من المصادر والتعليقات انظر بصفة خاصة كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) .

١٥٣- قارن كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) pp. 69-76 ؛ و مونير دي فيلار
Storia Della Nubia Cristiana, Pontificium Institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana Analecta 118 (1938), pp. 25-6;
و بول، المرجع المذكور انفا (هامش رقم ١٤) . قارن أيضاً هامش رقم ٣٠ .

١٥٤- امري، المرجع السابق (هامش رقم ٥٨) p. 23 .

١٥٥- زايلارز في Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, Vol. XXXV (1928) ;
ومناقشة أجراها هيللسون في Sudan Notes and Records, Vol. XIII (1930), pp. 137-48
و كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٥) pp. 55-60 .

١٥٦- مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٣) pp. 39, 89-91 .

١٥٧- دي بللو بريسكو I: xix .

١٥٨- قارن كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٥) pp. 61-2 و Kush VI (1958), pp. 70-71
كتب نفس هذا المؤلف في تبادلٍ شخصي أكثر مما كتب قائلاً "إن بروكبيوس يمكن أن يكون مؤرخاً غير موثوق به . فسرده مفتات . ولربما قام ديوكلتيان بإنسحابٍ جزئي بصورةٍ رسمية من الحدود مثلما أجرى ذلك في أمكنة أخرى . إلاّ أن تقدم قبائل أقل حضارة بزعامة قادتهم لحماية الحدود . وهي عملية مخاطرة . ربما يعود تاريخها إلى القرن الرابع المتأخر أو حتى الخامس ... إنها لم تكن لتصدر إلا كقرار مركزي ..."

١٥٩- ى. ب. امري هو المبتدع الرئيس لنظرية البلميين ؛ قارن المرجع السابق (هامش رقم ٥٨)، pp. 5-24 والمرجع السابق (هامش رقم ٢٩) pp. 244-5 . إن معظم الأساتذة الآخرين يذهبون نحو نوبادة في رأيهم . الحالة عندهم تناولها على أعلى درجة من التفصيل ل. ب. كيروان في مقالاتٍ متعددة (المرجع السابق، هامش رقم ٥، ٨، ٢٨، ٤٦، ٦٣ و ٦٤) .

١٦٠- قارن امري، المرجع السابق (هامش رقم ٢٩)، p. 231 ؛
كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 55 .

١٦٠- قارن امري، المرجع السابق (هامش رقم ٢٩) p. 231 ؛
كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 55 .

١٦١- قارن على وجه الخصوص كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) pp. 56-62 .

١٦٢- هذا الفرض لم ينشأ من ناحيتي . لقد إقتُرح بشكلٍ مختلف نوعاً ما بواسطة ميليه، مرجع سابق (هامش رقم ١٢٩) pp. 59-71 .

١٦٣- قارن هيللسون، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ١٥٥) .

١٦٤- قارن بريز في
Études et Travaux du Centre d'Archéologie Méditerranéenne de l'Académie Polonaise des Sciences, Vol. VIII (1973), pp. 156-62.

١٦٥- قارن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 53 .

١٦٦- قارن ميليه، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 58-61 .

١٦٧- قارن رديفلد
The Primitive World and its Transformations (Ithaca, 1953)
وبخاصة الفصل الثالث .

١٦٨- مثالاً، ما اجراه رايزنر و إليوت سميث ؛ أنظر هامش رقم ٣٦ .

١٦٩- قارن كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٥) p. 60 .

١٧٠- قارن بطراوي

Report on the Human Remains (Cairo, 1935), pp. 174-5.

إن من الضروري أن يُؤكد، مع ذلك، أن الصفات التى افتُرض أنها زنجية لجنائز قسطل كانت إلى حد بعيد إنطباعاً ذاتياً، ذلك أن الحفظ الضعيف للبقايا الهيكلية حال دون القيام بتحليلٍ متري دقيق (كيروان في تبادلٍ شخصي) .

١٧١- نقلاً عن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 83-4 ؛ أنظر كذلك امري، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) p. 239 .

وللحصول على النص الأصلي أنظر وولي و راندال - ماك إيفر، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠)، pp. 104-5 .

١٧٢- كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) p. 85 .

١٧٣- نفسه ، هامش رقم ٥ .

١٧٤- قارن ما قبله ، p. 96 . إن كُتاباً آخرين، بمن فيهم امري (المرجع السابق، هامش رقم ٢٩ ، p. 239) إفترضوا أن سيلكو كان مسيحياً .

ولمناقشةٍ أطول لهذا السؤال، انظر كروس

Die Anfänge des Christentums in Nubien (Vienna, 1930), pp. 100-109.

١٧٥- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) p. 17 .

١٧٦- إسترابو XVII: 1, 2 ؛ بطلمي IV: 5 ؛ بليني (بلينوس) VI: 35 .

١٧٧- أنظر تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 136 ، وشيني في

Kush II (1954), p. 84.

١٧٨- شيتيك في

Kush V (1957), p. 73

أنظر أيضاً كيروان في نفس المجلد pp. 37-41 .

١٧٩- قارن تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 136 .

١٨٠- قارن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣ ، pp. 42-3 ، وتريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) pp. 136-7 .

١٨١- انظر قارستنق في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. III (1910), pp. 60-70.

و قارستنق وأخرين (هامش رقم ٦٥) pp. 29-33 .

١٨٢- قارن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣) pp. 42-3

والمرجع المشار إليه آنفا (هامش رقم ١٧٨)، p. 39 ؛ و شيني، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣)، p. 84 .

١٨٣- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣) p. 42 .

١٨٤- لتقرير أولي عن جَبّانة صغيرة في العهد ما بعد المروي في المصورات الصفراء أنظر هينتز في

Wissenschaftliche Zeitschrift der Humboldt-Universität zu Berlin, Gesellschafts-und Sprachwissenschaftliche Reihe, Vol. XVII (1968), p. 681.

ولتحليلٍ للبقايا الهيكلية أنظر إستروهول في نفس المجلة Vol. XX (1971), pp. 257-66

إن الهياكل البشرية يقال إنها تعرض ملامح " زنجية ملحوظة " (نفسه p. 266) .

١٨٥- شيني، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٧) p. 68 .

١٦٨- ما قبله p. 73 .

١٨٧- أنظر شتيك، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٨) pp. 73-7 .

١٨٨- مارشال وعبد الرحمن في Kush I (1953), pp. 40-46.

١٨٩- قارن شيني، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٧) p. 84 .

١٩٠- نفسه .

١٩١- أنظر كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٦٣) p. 42 :

بنتلي و كراوفورد في Sudan Notes and Records, Vol. VII (1924), No. 2, pp. 18-28.

١٩٢- قارن دونهام، المرجع السابق (هامش رقم ٦٥) pp. 93-4 .

الفصل الرابع عشر

المصادر الأساسية : المصدر الرئيس لتاريخ النوبة المسيحية، الذي ثَقُل عليه إعتمادي في هذا الفصل وفصولٍ تالية هو مونير دي فيلار

Storia della Nubia Christiana, Pontifico Institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana Analecta 118 (1938).

أما عملية تنصير النوبة فهي تناقش مناقشة مطولة في عملٍ سابق أعده كروس

Die Anfänge des Chritentums in Nubien (Vienna, 1930),

وفي مقالات لكيروان في

University of Liverpool Annals of Archaeology land Anthropology, Vol. XXIV (1937), pp. 69-105,

و دونادوني في Mémories de l'Institut d'Égypte, Vol. LIX (1969), pp. 25-33.

ولنقاشٍ حول إتفاقية البقط وشأنها أُدين لمقالٍ كتبه فوراند في Der Islam, Vol. 48 (1971), pp. 111-21.

١- كروبر The Nature of Culture (Chicago, 1952), pp. 381-2.

٢- قارن موميقليانو في المؤلف الذي حرره

The Conflict between Paganism and Christianity in the Fourth Century (Oxford, 1963), pp. 18-19.

٣- كراوفوت في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XIII (1927), p. 14.

٤- قارن أولميستد History of the Persian Empire (Chicago, 1948), pp. 119-28.

٥- قارن كيروان في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XXIV (1937), pp. 82-3.

٦- هنالك عدد من النسخ العربية في هذا الأمر . إن الاكمل هى نسخة المسعودي Les Prairies d' Or وهى نسخة مترجمة . وكذلك مينارد و كورتيل (Paris, 1863), Vol. II, pp. 22-3.

ولمناقشة بالإنجليزية أنظر فوراند في Der Islam, Vol. 48 (1971), n. 117-18

٧- أنظر ادمز في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. IV (1965), pp. 126-33.

٨- أنظر بل Cults and Creeds in Graeco-Roman Egypt (Liverpool,1953), pp. 78-84.

و شور في Harris, Ed., The Legacy of Egypt, 2nd ed. (Oxford, 1971), pp. 396-7.

٩- موميقليانو، المرجع السابق (هامش رقم٢) p. 19 .

١٠- بل Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest (Oxford, 1948), pp. 112-16.

١١- نفسه p. 114 .

١٢- ما قبله p. 115 .

١٣- شور، المرجع السابق (هامش رقم ٨) p. 415 :

قارن كذلك بتشر The Story of the Church of Egypt (London, 1897), p. 301.

١٤- بل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) p. 116 .

١٥- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 97 .

١٦- بروكبيوس .De Bello Persico I: xix, 27-36

١٧- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 96 .

١٨- قارن كيروان في .Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), p. 31

١٩- .Eccelsiastical History, trans. Payne-Smith (London, 1860), Part III

٢٠- جاد الله في .Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), pp. 39-40

٢١- IV: II, 19

٢٢- انظر مومسن في

Monumenta Germaniae Historica, Auctores Antiquissimi, Vol. XI (Berlin, 1894), pp. 207-20.

٢٣- قارن كذلك ميناردوس في

Nubie, Cahiers d'Histoire Egyptienne, Vol. X (1967), pp. 137-41.

٢٤- لمناقشة مستبصرة المضامين السياسية لعملية تنصير النوبة أنظر دونادوني في

Mémoires de l'Institut d'Égypte, Vol. LIX (1969), pp. 25-33

٢٥- كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٥) p. 103 .

٢٦- تشخيص كيروان للتغيير في عادات الدفن باعتباره تدريجي وتطوري (ماقبله ، p. 103) غير مثبت بالبيّنة المستحصلة من مسوح أثارية معاصرة في النوبة .

٢٧- لمناقشة أكثر في نفس النطاق أنظر ميخالوفسكي

Faras, Centre Artistique de la Nubie Chrétienne (Leiden, 1966), pp. 7-9.

٢٨- أنظر كيروان .The Oxford University Excavations at Firka (Oxford, 1939), pp. 49-50

٢٩- قارن ميخالوفسكي في دنكلر، محرراً

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 14-17

و كروس في نفس المجلد pp. 71-86 ، و جاكوبلسكي .Faras III (Warsaw, 1972), pp. 35-6

٣٠- قارن أدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 121 .

٣١- ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) p. 14 ؛ ويسل

Chistentum am Nil (Recklinghausen, 1964), p. 234

و جاكوبلسكي ، المرجع السابق (هامش رقم ٢٩) ، pp. 140-43 .

٣٢- جنكر في

Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Lterertumskunde, Vol. 60 (1925), pp. 124-48;

مونير دي فيلار في ;Aegyptus, vol. XII (1932), pp. 309-16

جاكوبلسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) ، pp. 143-5 .

٣٣- أنظر كروس، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) ؛ ساف ـ سودربرج في نفس المجلد ، pp. 238-9 ؛ و فان مورسل في نفس المجلد، pp. 281-90 .

٣٤- أنظر جاد الله، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) p. 41 .

٣٥- قارن شور، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 422-33 .

٣٦- جاد الله، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) p. 41 ؛ قارن كيروان على نفس الصعيد، مرجع سابق (هامش رقم ٢٨)، p. 51 .

٣٧- جاد اللّه، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠)، pp. 41-2 ؛ جاكوبلسكى، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 14-15 .

٣٨- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٢٨) p. 50 .

٣٩- ميخالوفسكي، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ٢٩) pp. 14-17 ؛ جاكوبلسكى، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 140-68 .

٤٠- ساف ـ سودربرج، مرجع سابق (هامش رقم ٣٢) p. 239 .

٤١- قارن ما قبله ؛ كذلك جاكوبلسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 140-68 .

٤٢- قارن ألفاريس

The Prester John of the Indies, trans. Lord Stanely (Cambridge, 1961), 461.

٤٣- أنظر الفصل الخامس عشر .

٤٤- لتقارير أولية أنظر بلملى في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 3-4; Vol. 52 (1966), pp. 9-11; Vol. 56 (1970), pp. 12-17; and in Illustrated London News, 11 July 1964, pp. 50-52; Plumley and Adams in Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1964), pp. 212-38;

فرند في Byzantinoslavica, Vol. XXXIII (1972), pp. 224-9

وفي Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pp. 30-59

٤٥- بدج The Egyptian Sudan (London, 1907). Vol. II, pp. 288-308.

٤٦- عندما شُرع في المسح الآثاري الأول في عام ١٩٠٧ ، حفر رايزنر أكثر من ١,٦٠٠ قبر مسيحي في جَبّانة بالقرب من شلال

(Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907-1908, Cairo, 1910, Vol. I, p. 96).

إن هذا العدد ربما يتعدى جملة القبور المسيحية التى حُفرت في كل السنين مذاك الوقت .

٤٧- لتعليقٍ عن مسلك كثيرٍ من علماء المصريات تجاه البقايا " القبطية " أنظر دونادوني، مرجع سابق (هامش رقم ٢٤) p. 29 .

٤٨- مدوناً في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), pp. 50-93; Vol. XIV (1927), pp. 57-116; and Vol. XV (1928), pp. 63-88.

إن الحفريات الفعلية أُجريت في ١٩١٠-١٩١٢ .

٤٩- في Journal of Theological Studies, Vol. X (1909), p. 545 ff., and The Nubian Texts of the Christian Period, Abhandlungen der Könglichen Preussischen Akademie der Wissenschaften, 1913.

٥٠- La Nubia Medioevale, Vols. I-II (Cairo, 1935).

٥١- قارن امري Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 55-6.

٥٢- Pontificio Institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana Analecta 118 (1938).

٥٣- قارن ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 17-18 .

٥٤- مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) p. 70 .

٥٥- لسردٍ أشد تفصيلاً أنظر لاين ـ بوول

A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1901), pp. 1-15.

٥٦- وصف رماة السهام النوبيين "برماة الحدق"؛ أنظر شيني

Medieval Nubia, Sudan Antiquities Service Museum Pamplet No. 2 (1954), p. 4.

٥٧- أنظر ما قبله .

٥٨- قارن كراوفورد The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester, 1951), pp. 51-3.

٥٩- نص من القرآن X: 109 .

٦٠- تتفاوت النسخ المترجمة تفاوتاً خفيفاً . والنص المشار إليه بأعلاه منقول من فوراند، المرجع السابق (هامش رقم ٦)

pp. 114-15 . إن الترجمة الإنجليزية الأسبق تعود إلى بوركهارت

Travels in Nubia (London, 1819), pp. 511-12.

٦١- بروكبيوس De Bello Perscico I: xix.

٦٢- ن. ب. ميليه أفادني أنه "وجدنا قطعة من القطن عليها إسم البقط بالعربية في [جبل] عَدّا، في إحدى المقابر التي يُعتقد أنها ترجع إلى نهاية القرن الثالث عشر" (تبادل شخصي) .

٦٣- بوركهارت، مرجع سابق (هامش رقم ٦٠) p. 512 . يساوى الأردب اليوم حوالى ست وحدات قياس أمريكية ؛ أما حجم الكثير من النبيذ فلم يتحدد مقداره أبداً .

٦٤- أنظر فوراند، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 121 .

٦٥- نفسه p. 113 .

٦٦- ما قبله pp. 113, 116 .

٦٧- كانت دنقلا العجوز، عاصمة النوبة طوال العصور الوسطى، واقعةً على الضفة الشرقية من النيل في حوالى نصف المسافة بين الشلالين الثالث والرابع . ولايجب الخلط بينها وبين دنقلا " الجديدة " (دنقلا العرضي)، المركز الإداري الحديث الذى يقع حوالى سبعين ميلاً من المسرى على الجانب الآخر من النهر . وقد هجرت دنقلا العجوز في القرن التاسع عشر، بعد إنشاء المجتمع الجديد .

٦٨- على نحو ما هو وارد في الفقرة الأولى من المعاهدة، المنقولة آنفا .

٦٩- كما جادل كيروان في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXI (1935), p. 61.

٧٠- مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) pp. 81-3 .

٧١- مثال ذلك ميخالوفسكي في

Kush XII (1964), p. 199 and n. 12 (هامش رقم ١٢) ؛

جاكوبليسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩)، pp. 35-6 .

٧٢- ميخالوفسكي، النص المنقول انفا (هامش رقم ٧١) ؛

جاكوبلسكى، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) p. 35-6 .

٧٣- قارن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) p. 62 .

٧٤- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) p. 62 . مع ذلك، لا يُعَد أصل الكلمات نوباديا و ماريس موضعاً للتبادل كشيءٍ واحد ؛ وللمناقشة أنظر " تنظيم الدول في العصور الوسيطة "، الفصل الخامس عشر .

٧٥- أعيد ذكراً في أبو صالح

The Churches and Monasteries of Egypt and Some Neighbouring Countries trans. Evetts and Butler (London, 1895), pp. 267-8.

٧٦- قارن ميناردوس، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) p. 147 ، هامش رقم ٥٩ .

٧٧- قارن حسن The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967), pp. 92-3.

٧٨- للنص الكامل والتعليق أنظر بلملي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 61 (1975), pp. 241-5.

٧٩- لمناقشةٍ مطولة أنظر فانتيني في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 41-8 .

٨٠- نفسه ، p. 47 .

٨١- فوراند، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 120 .

٨٢- ما قبله p. 119 .

٨٣- قارن فانتيني في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم٢٩) pp. 41-8 .

٨٤- لتسلسلٍ زمني لهذه الأحداث أنظر مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٥٢) pp. 122-9 .

٨٥- ميناردوس، المرجع السابق (هامش رقم ٢٣) p. 150 .

٨٦- قارن لاين - بوول، مرجع سابق (هامش رقم٥٥) p. 197 .

٨٧- قصة الغزو حكاها أبو صالح، المرجع السابق (هامش رقم ٧٥) pp. 266-7 .
ولمناقشةٍ أشد تفصيلاً أنظر مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٥٢) pp. 196-8 .

الفصل الخامس عشر

المصادر الأساسية : كان إعتمادى كبيراً، كما أنفا، بشأن المعطيات التاريخية على مونير دي فيلار
Storia Della Nubia Cristiana, Pontificio Instiutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana Analecta 118 (1938).

وعلى قيمةٍ عالية، كانت الفقرات التي سجلها المقريزي وتُرجمت إيجازاً في بورخارت
Travels in Nubia (London, 1819), pp. 493-543.

إن معظم الكشوف الأثرية التى تتعلق بالنوبة المسيحية من الحداثة بحيث أنها لم تُضمَّن أى عمل عام ؛ وبالتالي صرت ملزماً لأستند على عدد كبير جداً من تقارير الحفريات الأوليةالمشار إليها في المذكرات الشخصية . إن كثيراً من التقارير الأولية التى أُعدت مؤخراً جمعها دنكلر، محرراً، في
Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970).

المؤلفات الخاصة بالتطور الثقافي في النوبة المسيحية وصناعة فَخارها توجد في مونير دي فيلار
La Nubia Medioevale (Cairo, 1935 and 1953).

وتوجد في عدد من مقالاتي :
Kush X (1962), pp. 245-88 ; Kush XV (1973), pp. 1-50; Kush XVI (in press); Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. IV (1965), pp. 87-140;

و دنكلر، محرراً، في Kunst und Geschichte Nubiens (مذكور انفا), pp. 111-28.

وفي مقالتي في Kush XII (1964), pp. 241-7

مقترح لتسلسل زمني شامل للفترة المسيحية .

١- للجداول أنظر تريقر
History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications Anthropology, Vol. 69 (1965), pp. 186-97;

ادمز في Kush X (1962), p. 12;

و ادمز و نوردستروم في Kush XI (1963), p. 15;

و ميلز في Kush XIII (1965), pp. 3-12.

٢- قارن دنكلر، محرراً
Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 7-10.

٣- لقائمةٍ عنها انظر مونير دي فيلار
La Nubia Medioevale, vol. I (Chicago, 1935), p. 285.

٤- معظم الدراسات لى . وقد رفعت تقارير عنها بصورةٍ جزئية في
Kush X (1962), pp. 245-88; Kush XV (1973), pp. 1-50; Kush XVI (in press);
وفي دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 111-28 . وعلى قدم الإستعداد، يجري الإعداد لمجلدين يحويان عملاً محدداً عن فَخار النوبة المسيحية .

٥- ادمز في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. IV (1965), pp. 87-140.
والإعداد جارٍ في عملٍ محدد عن هندسة الكنيسة النوبية .

٦- قارن ميخالوفسكي في ويسل، محرراً

Christentum am Nil (Recklinghausen, 1964), pp. 79-92;

و ميخالوفسكي ;Faras, Centre Artistique de la Nubie Chràtiénnne (Leiden, 1966)

و ميخالوفسكي في دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 11-28 .

٧- لمناقشةٍ حول خصائص الفترات الزمنية، كلاً على حدة، أنظر آدمز في Kush (1964), pp. 241-7

و ساف ـ سودبريرج في قاردبرج

Late Nubian Sites, The Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications, Vol. 7 (1970), pp. 14-21.

٨- أنظر بوجه خاص آدمز في جانق، محرراً،

Settlement Archaeology (Palo Alto, 1968), pp. 174-207.

أنظر أيضاً تريقر، المرجع السابق (هامش رقم ١) pp. 143-50 .

٩- كتاب المواعظ الاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحرير الضوى (القاهرة، ١٨٥٣-١٨٥٤) .

الفقرات من إبن سليم مترجمة في بورخارت

Travels in Nubia (London, 1819), pp. 493-521.

١٠- مترجمة بواسطة ايفيت و بتلر (Oxford, 1895) .

ولتعليق عن التاريخ المتعلق بالأديرة الباقية ومصداقيتها أنظر ما قبله pp. ix-xiii .

١١- أنظر مونير دي فيلار

Storia della Nubia Cristiana, Pontificio Institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana Analecta 118 (1938), pp. 109-15.

ولسرود بالإنجليزية أنظر ميناردوس في

Nubie, Cahiers d'Historie Égyptienne, Vol. X (1967), pp. 148-9 ;

و حسن The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967), pp. 52-6.

١٢- نقلاً عن تريمنغهام Islam in the Sudan (London, 1949), p. 65

١٣- أركيل A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 194.

١٤- قارن شيني .Excavations at Soba, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 3 (1955)

١٥- أبوصالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. ix-x .

١٦- نفسه ، pp. 260-77 .

١٧- المدى بالكامل الذى بلغه السجل الأثري غير معروف بعد، إذ أن الحفريات ما بدأت إلا منذ وقت قريب في دنقلا العجوز، العاصمة المدنية للنوبة في العصور الوسطى . وهنا قد تظهر إلى النور قصور ملكية، ونقوش ملكية، وحتى مدافن ملكية .

١٨- أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 169 .

١٩- أبوصالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) p. 272 .

٢٠- قارن مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 172-4 .

٢١- ما قبله ، pp. 177-80 .

٢٢- أنظر خاصةً ميخالوفسكي

Faras, Die Kathedrale aus dem Wustensand (Zurich and Cologne, 1967), pls. 38, 70, 94-5.

٢٣- أسس وصف أبوصالح لتاج الملك جورج (مرجع سابق، هامش رقم ١٠ ، p. 273) .

على مثل ذلك الرسم الحائطي للملك وليس على ملاحظة مباشرة .

٢٤- مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 175-7 .

٢٥- أبوصالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 271-2 .

٢٦- للمناقشة أنظر تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) pp. 71-2 .
٢٧- لتقارير أولية أنظر ميخالوفسكي في Kush XIV (1966), pp. 289-99
وفي دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 163-70 ،
و جاكوبلسكي في دنكلر، مرجع مذكور أنفا (هامش رقم ٢) pp. 171-80 .
٢٨- ميخالوفسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 165 .
٢٩- قارن كراوفورد The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester, 1951) p. 35
ولإيضاح أنظر آركيل، المرجع السابق (هامش رقم ١٣) الصورة رقم 22, b .
٣٠- أبوصالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) p. 272 .
٣١- بما يعني بالطبع جنوب مصر ؛ إن ماريس كانت أبعد مقاطعة نوبية في الشمال .
٣٢- أسبق ذكر ورد عن الإبارش أُودع نصاً تذكارياً وجد في كاتدرائية فرس، ويعود إلي ٧٠٧ م .
أنظر جاكوبلسكي في KLIO, Vol. 51 (1969), p. 500.
٣٣- بلملي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 56 (1970), p. 14.
٣٤- للإيضاحات أنظر قريفيث في
University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XV (1928), pl. XXXII,
و شيني Medieval Nubia, Sudan Antiquities Service Museum Pamphlet No. 2 (1954), p. 12.
٣٥- مترجماً في بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٩) p. 494 .
٣٦- بلملي في ميخالوفسكي، محررا، Nubia Récentes Recherches (Warsaw, 1975), p. 106.
٣٧- أركيل، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) p. 191 .
٣٨- أنظر قريفيث، مرجع مذكور سابقا (هامش رقم ٣٤) وفي
University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), pl. LXI
و ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) الصور 13, 92, 93, 95 b .
٣٩- قارن مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 184-7 ،
و أركيل، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) pp. 210-11 .
٤٠- مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) p. 44 .
٤١- نفسه .
٤٢- قارن ماكمايكل A History of the Arabs in the Sudan (London, 1922), Vol. I, pp. 248-9;
وكراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 325-7 .
٤٣- قريفيث، مرجع مذكور أنفا (هامش رقم ٣٤) .
٤٤- إكتشفت الوثائق في جَرّة مدفونة أثناء قيام المؤلف بحفريات في قصر إبريم عام ١٩٧٤ ؛
أنظر بلملي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 61 (1975), pp. 6-7.
ولقد توفرت ترجمة أولية بتعطف من البرفسور ج. م. بلملي، pp. 6-7 .
٤٥- لمناقشة حول أصل الإسم من النواحي اللغوية أنظر " خلفاء المقرة "، الفصل السادس عشر .
٤٦- قارن مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp 187-8 ؛ ميليه في
Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. VI (1967), p. 62.
٤٧- مع ذلك، تذكر الوثائق التى اكتُشفت حديثاً في قصر إبريم (قارن هامش رقم ٤٤) مسؤلين آخرين يحملون القابا نوبية تماما : نونن و بابسا .
٤٨- لمناقشة في الأمر، أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp. 189-91 .
٤٩- كيروان في Sudan Notes and Records, Vol. XX (1937), p. 60.
٥٠- إقتُرح ذلك من ميخالوفسكي، حفار " قصر الأسقف ". أنظر

Kush XII (1964), p. 196 and pl. XXXVIII, a.

٥١- أنظر بلملي، مذكور انفا (هامش رقم ٣٣) ؛ أيضاً بلملي، مرجع سابق (هامش رقم ٣٦) .

٥٢- ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢)، p. 45 .

٥٣- ميليه، المرجع السابق (هامش رقم ٤٦)، p. 59 .

٥٤- مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، p. 140 .

٥٥- أبوصالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠)، p. 262 .

٥٦- قارن بلملي في Illustrated London News, 11 July 1964, pp. 50-52, and op. cit.
(هامش رقم ٣٣)، pp. 13-14 .

٥٧- هذا الأمر وصفه مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp. 169-70 ،
وفوراند في Der Islam, Vol. 48 (1971), pp. 117-18

٥٨- أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، p. 118 ؛
أدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٧)، p. 236 ؛ وشريف في Kush XII (1964), pp. 249-50;
هولثور وآخرين في Studia Orientalia, Vol. XXVIII, No. 15 (1964), pp. 10-13;
و حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، p. 238, p. 43

٥٩- قارن حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، p. 93 .

٦٠- نقلاً من بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٩)، pp. 494-5 .

٦١- أبوصالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠)، p. 263 .

٦٢- مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp. 136-7 .

٦٣- أبوصالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠)، pp. 262-3 .

٦٤- بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٩)، p. 494 .

٦٥- امري ، Egypt in Nubia (London, 1965), p. 157

٦٦- صادف إبن سليم بعض التجار المسلمين في دنقلا، ولكن دخولهم كان محدداً بشكلٍ دقيق . أنظر كاتريمير
Mémoires sur L'Égypte (Paris, 1811), Vol. II, pp. 81-4.

٦٧- لمناقشةٍ، أنظر كيروان في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXI (1935), p. 60.

٦٨- أنظر بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٩)، p. 497 .

٦٩- قارن كيروان، مرجع مذكور آنفا (هامش رقم ٧٦) .

٧٠- مونير دي فيلار (مرجع سابق، هامش رقم ١١، pp. 135-9) أخفق في إدراك هذا الفرق لقيامه بوصف مقس العليا، الحدود السياسية " للمقاطعة المقفولة " للنوبيين في النوبة العليا، حدوداً بين نويادة والمقرة .

٧١- قارن كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٦٧)، p. 62 .

٧٢- قارن بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٩)، pp. 497-503 .

٧٣- المرجع السابق (هامش رقم ١٠)، pp. 263-5 .

٧٤- بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٩)، p. 496 .

٧٥- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٧)، p. 61 .

٧٦- أركيل، مرجع سابق (هامش رقم ١٣)، p. 194 .

٧٧- إن الوثائق النوبية القليلة التي استُعيدت من ضاحية سوبا توحي بأن اللهجة التي تحدثوا بها كانت مختلفة من اللغة التي عُثر عليها في النصوص النوبية القديمة للنوبة السفلى . أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp. 156-7 ، وهايكوك في Sudan Notes and Records, Vol. LIII (1972), p. 27.

٧٨- بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٩)، p. 500 .

٧٩- قارن مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٣) : Vol. I, pp. 269-79

وأركيل في .Kush VII (1959), pp. 115-19

٨٠- قارن مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp. 152-6 .

٨١- بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٩)، p. 500 .

٨٢- ليس على وجه التحديد ملوك علوة وإنما ملوك الأبواب، التى شكلت مقاطعة الحدود الشمالية لعلوة . قارن الفصل السادس عشر .

٨٣- إسم المدينة دَوّنه إبن سليم على ذلك النحو . أما أبو صالح (مرجع سابق، هامش رقم ١٠، pp. 263-4) فدعاها في بساطة " مدينة علوة ".

٨٤- أنظر شيني، مرجع سابق (هامش رقم ١٤)، p. 10 .

٨٥- نفسه ، pp. 18-27 .

٨٦- المرجع السابق (هامش رقم ١٠)، p. 263 .

٨٧- قدمت كمعلومة بالصدفة في السيرة الخاصة بكبير الأساقفة القبطي، البطريق مايكل، وقد كتبها المدعو "القسيس جون".

أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp. 96, 160 .

٨٨- نفسه ، pp. 160-61 ؛ ميخالوفسكي

Faras, Centre Arabistique de la Nubie Chrétienne (Leiden, 1966), p. 6 ;

و جاكوبلسكي في .Faras III (Warsaw, 1972), pp. 74, 84-99

٨٩- قارن بخاصةٍ جونز و مونروي .A History of Ethiopia (Oxford, 1955), pp. 35-6

٩٠- قارن ميخالوفسكي في دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢)، p. 13 .

٩١- قارن المصادر المشار إليها في هامش رقم ٨٨ ؛ وعلى نفس الصعيد قارن تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ١٢)، p. 64 ؛

كيروان ;The Oxford University Excavations at Firka (Oxford, 1939), pp. 49-51

وأبوصالح، المرجع السابق (هامش رقم ١٠)، p. 272 .

٩٢- جونز و مونروي، مشار إليه آنفا في النص (هامش رقم ٨٩) .

٩٣- فانسلب .Historie de L'Église de L'Alexandrie (Paris, 1677), pp. 29-30

أنظر الهامش رقم ١٥ في كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩)، p. 25 .

٩٤- مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp. 162-5 .

٩٥- طبقاً لبعض النصوص كانت أهم أسقفيات في النوبة قائمةً في قصر إبريم، فرس، صاي، ودنقلا . أنظر فيركوتر في Bulletin de la Société Française de'Égyptologie, No. 58 (1970), p. 23

٩٦- لموجزٍ كامل عن معرفتنا الراهنة لأساقفة فرس أنظر جاكوبلسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٨٨) .

٩٧- السرود الأولية لحفريات فرس التى نُشرت إلى الآن تحوى سرود ميخالوفسكي في

Kush X (1962), pp. 220-44 ; Kush XI (1963), pp. 235-56; Kush XII (1964), pp. 195-207; Kush XIII (1965), pp. 177-89; Faras, Fouilles Polonaises 1961 (Warsaw, 1962); Faras, Fouilles Polonaises 1961-1962 (Warsaw, 1965); op. cit

؛ (هامش رقم ٣٢)

ومصادر إضافية مشار إليها في كامش رقم ٦ ؛ و جاكوبلسكي في

Études et Travaux du Centre d'Archéologie Mediterranéenne de l'Académie Polonaise des Sciences, Vol. III (1966), pp. 151-70 ; in Mélonges offers à Kazimierz Michalowski (Warsaw, 1966), pp. 101-8; op. cit

؛ (هامش رقم ٣٢) وفي دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 29-38 ؛ وجاكوبلسكي، المرجع السابق (هامش

رقم ٨٨) .

٩٨- أنظر ميخالوفسكي في Kush XI (1963), pp. 238-40 and pl. LVI

بلملي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 3-4

٩٩- لمناقشة وإيضاحات مفصّلة عن عباءة الأساقفة أنظر ميخالوفسكي، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) pp. 45-6 والصور 37, 57-9, 80-82, 86 ؛ و مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ١١) p. 166 ؛ و شيني، المرجع السابق (هامش رقم ٣٤) pp. 11-12 .

١٠٠- مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 166-7 .

١٠١- Eccelesiastical History, trans. Payne-Smith (London, 1860), Part III, p. 257.

١٠٢- أنظر أدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٥) pp. 101-2 .

١٠٣- قارن كيروان في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XXIV (1937), p. 101.

للإيضاحات أنظر بلملي في Illustrated London News, 11 July 1964, pp. 52-3,

و مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٣) Vol II ، الصور LVI-LX .

إن حفريات أُجريت منذ وقت قريب عكست ما يفيد أن كاتدرائية قصر إبريم وُجدت قبلها كنيسة شُيدت في نطاق الأسوار المتساقطة في بعض الأجزاء ضمن المعبد المروي (قارن الفصل الثاني عشر) . ولتقرير أولي أنظر بلملي و أدمز في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pp. 228-36.

١٠٤- المناقشة التى تلي حول هندسة الكنيسة النوبية أُخذت كلها بالتقريب من مقالي "التطور الهندسي للكنيسة النوبية، ٥٠٠-١٤٠٠م (المرجع السابق، هامش رقم ٥) . وتوجد بنفس المرجع قائمة شاملة ومسرد للكنائس النوبية، pp. 126-38 .

١٠٥- أنظر فنيقان Light from the Ancient Past (Princeton, 1946), pp. 506-8.

١٠٦- لمناقشة مفصّلة للتقنية الهندسية للسقف النوبى أنظر سومرس كلارك

Christian Antiquities in the Nile Valley (Oxford), 1912, pp. 24-7.

١٠٧- قارن مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٣) Vol. III, pp. 3-8 .

١٠٨- قارن كلاسنس في Fouilles en Nubie (1961-1963) (Cairo, 1967), pp. 83-4 ;

فان مورسل في Spiegel Historiael, Vol. 2 (1967), pp. 387-92 ;

وبخاصة شنيدر في دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 87-98 .

١٠٩- أنظر أدمز في Kush XIII (1965), p. 167.

١١٠- بينما هنالك سبب مقنع لتأريخ أغلبية كنائس الكبولا في نطاق القرن الثالث عشر أو ما بعده (قارن أدمز، المرجع السابق، هامش رقم ٥ ، p. 138)، ربما يبدو أنه على الأقل في مثال واحد، في سونقى تينو، يعود تأريخها إلى بداية القرن العاشر . أنظر فانتيني و دونادوني في

Reniconti della Pontificia Academia di Archeologia, Vol. XL (1967-1968), pp. 256-9 ;

دونادوني في Cultura e Scuola, No. 36 (1970), p. 149 ;

و دونادوني في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، p. 215 .

١١١- أنظر ميناردوس، المرجع السابق (هامش رقم ١١) pp. 159-64 .

١١٢- أكبر عدد للكنائس في أى مجتمع بمفرده كان في فرس غرب، التى كانت في يوم ما تشمل ما لايقل عن عشرة مبانى (قارن ادمز، مرجع سابق، هامش رقم ٥ ، p. 129) .

إن ثاني أكبر عدد، ويبلغ ثمانية من الكنائس، عُثر عليهم في تاميت وهى مجتمع يقل أهمية نسبياً، ويقع حوالى ١٥ ميلا شمال فرس . أنظر بريسكيانى في

Missione Archeologica in Egitto dell'Università di Roma, Tamit (1964) (Rome, 1967), pp. 27-38.

١١٣- قارن بخاصة بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 496 .

١١٤- مرجع سابق (هامش رقم ١٠) . يذكر المؤلف ستاً من الأديرة النوبية بالإسم، ولكن واحداً منها لاغير (في وادي غزالي، بالقرب من الشلال الرابع) يمكن التعرف عليه في موقع أثري معروف .

١١٥- قارن مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٣) Vol. III, pp. 61-2 .

١١٦- نفسه ، Vol. I, pp. 132-42 .

١١٧- إسكتالون في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 56 (1970), pp. 29-57, and Vol. 58 (1972), pp. 7-42.

١١٨- شيني و شيتيك

Ghazali –A Monastery in the Northern Sudan, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 5 (1961).

١١٩- قارن خاصة إسكتالون في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 58 (1972), pp. 7-42.

١٢٠- لسرور أولية انظر ميلز، مرجع سابق (هامش رقم ١) pp. 10-11 ؛ دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 267-71 ؛

و مايستر في دنكلر، المرجع السابق، (هامش رقم ٢)، pp. 181-8 .

١٢١- قارن مايستر، النص المذكور آنفا (هامش رقم ١٢٠) . إن الموقع الثاني الذي شمل كنيسةً حفره جيمس كنوستاد عام ١٩٦٩، ولكنه لم يُنشر بعد .

١٢٢- قارن خاصةً ميناردوس

Monks and Monasteries of the Egyptian Deserts (Cairo, 1961).

١٢٣- قارن شينى و شيتيك، المرجع السابق (هامش رقم ١١٨) pp., 69-94 .

١٢٤- تظهر الشواهد القبطية بشكل غير منتظم في كثيرٍ من الجّبانات النوبية، ولكنها في العادة تزيد عليها غالباً الشواهد الإغريقية .

١٢٥- هو "الناسك قروتو" الشهير في فرس ؛ أنظر قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIV (1927), pp. 81-91.

ويبدو من آثارٍ بها أن واحداً على الأقل منها أو ربما كل القبور الصخرية الثلاثية في توشكا غرب كانت كذلك سكناً يمتلكه نساك مسيحيون ؛ أنظر سيمبسون

Heka a-Nefer and the Dynastic Material from Toshka and Arminna, Publications of the Pennsylvania-Yale Expedition to Egypt, No. 1 (1963), pp. 13, 18-21.

ولا تزال هنالك صومعة صخرية بُلّغ عنها في الزومة، بالقرب من كريمة (مونير دي فيلار، المرجع السابق، هامش رقم ٣ ، p. 251) .

١٢٦- آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٧) pp. 228-31 .

١٢٧- إقترح هذا بسبب التركز غير العادي للكنائس في تاميت. أنظر بريسكياني، مرجع سابق (هامش رقم ١١٢)، وخاصةً الشكل رقم 2 .

١٢٨- وثائق غير منشورة للمسح الآثاري للنوبة السودانية .

١٢٩- انظر ميخالوفسكي في

Kush X (1962), pp. 234-5; Kush XI (1963), pp. 238-40

واللوحة رقم LVI ؛ بلملي، النص المنقول (هامش رقم ٩٨) ؛ و ميليه، المرجع السابق (هامش رقم ٤٦)، p 60 .

١٣٠- أنظر آدمز في دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 149 .

١٣١- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٦٥) p. 203 .

١٣٢- لمناقشةٍ أطول حول المدافن النوبية المسيحية أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٣)

Vol. III, pp. 63-78.

١٣٣– حدث ذلك في مينارتي ؛ أنظر آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٩) 70-169 .pp .

١٣٤– مناقشة زينة الكنيسة اللاحقة أُخذت أساساً من آدمز للمرة الثانية، المرجع السابق (هامش رقم ٥)، وبخاصة p. 100 .

إن قاموساً خاصاً بفن التصوير النوبي المسيحي تحت الإعداد حالياً من جماعة من الأساتذة البولنديين .

١٣٥– لإيضاحات الترويسات النوبية المنحوتة وأشياء غيرها،

أنظر قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), pls.

قريفيث، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٥) . XXXVII-XXXIX, LI-LIII, LXII; pl. LXXVII

و مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٣)

Vol. II, pls. II-V, XII, XXI, XXIV, XXXII, XLII, LX, LXXVI, LXXXIII, LXXXV,-LXXXVIII, XCII, XCIV, XCVII;

ميخالوفسكي Faras, Fouilles Polonaises 1961 (Warsaw, 1965), pls. XIX-XXV;

دي كوننسون Aksha I (Paris, 1966), pls. I, IV ;

تريقر

The Late Nubian Settlement at Arminna West, Publications of the Pennsylvania-Yale Expedition to Egypt, No. 2 (1967), pls. X-XI;

قاردبرج، المرجع السابق (هامش رقم ٧) ، pls. 38, 44, 57 ؛

دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢)

pls. 29, 36, 37, 73-112, 125-8, 130-33, 148-50, 196-7

١٣٦– الأمثلة الأشهر هي التي عثر عليها قريفيث في كنيسة Rivergate في فرس

(University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII, 1926, pp. 73-93 and pls. LIV-LXI)

وفي عبدالقادر (قريفيث، المرجع السابق، هامش رقم ٣٤ ، 80-63 .pp والصور بالأرقام XXXI-XLVI) .

١٣٧– أكمل معاملة وإيضاح لرسومات فرس التى نُشرت إلى اليوم تنتسب إلى ميخالوفسكي، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) .

أنظر على نفس الصعيد المصادر المشار إليها في الهامش رقم ٩٧ .

١٣٨– فان مورسيل، جاكيه و شنيدر

The Central Church of Abdallah Nirqi (Leiden, 1975);

أنظر أيضا مقالات شنيدر و فان مورسيل في دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢) 107-87 .pp .

١٣٩– أنظر هامش رقم ١١٠ كمرجع .

١٤٠– لأوصاف فنية وإيضاحات لعملية نزع الرسومات والحفاظ عليها أنظر جرزفسكي في

Bulletin du Musée National de Varsovie, Vol. VII (1966), pp. 81-9,

قرستر في

Unesco Courier, December 1964, pp. 19-22.

١٤١– مثالاً ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢)، مرجع سابق (هامش رقم ٨٨)، وفي دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) 16-1 .pp ؛

قرستر Nubien-Goldland am Nil (Zurich and Stuttgart, 1964), pp. 129-38;

هينتز

Civilizations of the Old Sudan (Leipzig and Amsterdam, 1968), pls. 138-45; Das Womnder aus Faras (Essen, 1969), pls. 1-21.

١٤٢- ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) .

١٤٣- دانيال iii, 28 .

١٤٤- قُدمت أسماؤهم على أنها أرنياس و لكوتس ؛ أنظر ميخالوفسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، p. 15 .
إن إسم أرنياس وُجد لاحقاً فيَ مشهد للميلاد في كولبنارتي (ملاحظات المؤلف غير المنشورة بشأن الحفر) .

١٤٥- قارن ويتزمان في دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 335 .

١٤٦- للأمثلة أنظر قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), pl. XXXIV,

و ميخالوفسكي، مرجع مذكور آنفا (هامش رقم ٢٢)، pls. 40-42 .

١٤٧- وُجد مثال في حالة جيدة في سونقي، لكنه لم ينشر بعد (قارن فانتيني و دونادوني، مرجع سابق، هامش رقم ١١٠ ، p. 254) .

وفي كنيسة في دبيرة غرب مثال آخر ظلت بقاياه حية إلى وقت قريب (مونير دي فيلار، مرجع سابق، هامش رقم ٣، المجلد الأول p. 206) . ولسوء الحظ يبدو أنه لم يُصوّر فوتغرافيا أو تؤخذ منه نسخة أبداً .

١٤٨- تشمل الأمثلة التوضيحية قريفيث، المرجع السابق (هامش رقم ٣٤) pl. XLV ؛
ميخالوفسكي مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) pls. 63-9 ؛ ميخالوفسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)pl. 1 .
وفان مورسل في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، pl. 48 .

١٤٩- أفضل مثال توضيحي لميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢)، pl. 71 .

١٥٠- أمثلة هذا الرسم متعددة ومختلفة للغاية على وجه الخصوص . أنظر قريفيث، مرجع سابق (هامش رقم ٣٤)، pl. xxxix؛

ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) pl. 87-9 ؛ فان مورسل في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، pl. 40
؛ آدمز في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pl. 121 ؛
ودونادوني في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pl. 192 .

١٥١- أنظر قريفيث، المرجع السابق (هامش رقم ١٤٦) pl. LVIII ؛ قريفيث، المرجع السابق (هامش رقم ٣٤)
ميخالوفسكي ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) pl. 48 ؛

pls. XXXIV-XXVI, XLII-XLIII

؛ فان مورسل في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pls. 42, 46 .

١٥٢- ميخالوفسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 15 .

١٥٣- ويتزمان في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 327 .

١٥٤- قارن قريفيث، مرجع سابق (هامش رقم ٣٤) pls. XXXI-XLVII .

١٥٥- لمناقشةٍ مطولة أنظر ويتزمان في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، خاصة pp. 325-9 .

١٥٦- أنظر على سبيل المثال، ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢)، pls. 57,59, 77, 79, 94, 95 .

١٥٧- لمناقشةٍ عامة أنظر جاكوبلسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، pp. 29-98 ، وشيني في عبدالله، محرراً،

Studies in Ancient Languages of the Sudan, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 3 (1975), pp. 41-7.

١٥٨- قارن آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٣٠)، p. 149 . لاحظ أن النقوش في كنيسة عبدالقادر الاكثر تأخراً وُضعت بالإغريقية في مجملها (قريفيث، مرجع سابق، هامش رقم ٣٤ ، p. 67) .

١٥٩- تشمل أيضا حرفين غير موجودين في القبطية أو الإغريقية، وربما اشتقا من الأبجدية المروية . أنظر قريفيث

The Nubian Texts of the Christian Period, Abhandlungen der Königlichen Preassischen Akademie der Wissenschaften (1913), p. 73.

١٦٠- مرجع سابق (هامش رقم ١٥٧) pp. 31-2 ؛ مرجع سابق (هامش رقم ٨٨) pp. 14-16 .

١٦١- لمناقشة إضافية في هذا الشأن أنظر بلملي، مرجع سابق (هامش رقم ٣٦)، و أوتس في
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 49 (1963), pp. 161-71.

إن المؤلف الأخير يرى (p. 164) "... إن مستوى الإغريقية في الحجارة [النوبية] رفيع جداً و [بعضه] يمثل بحق أرقى الأزمنة في تأريخ النقش الإغريقي . وبنفس القدر ... يمكن مقارنة الأخطاء اللغوية للمجموعة بحجارة من نفس الفترة وُجدت في اسيا الصغرى، وسوريا، واليونان، أو مصر." بالمقابل، مع ذلك، أنظر زيلياكوس في
: Holthoer et al., op. cit. (n. 58), p. 14

"... لغة النصوص الإغريقية معوّجة و ركيكة، متأثرة بالهجاء القبطي والنوبي ... وما يستبان من ذلك هو أن قاطعي الحجارة أو ناقشيها النوبيين لم يمتلكوا ناصية الإغريقية بشكل حقيقي." والأكثر من ذلك تعقيداً ما أحدثته سلسلة من الرسوم الصخرية وُجدت بالقرب من قصر إبريم عام ١٩٧٢ من أثر (قارن بلملي و آدمز، مرجع سابق، هامش رقم ١٠٢) إذ يبدو أنها مزيج من القبطية والنوبية القديمة في حالة أقل تحضراً . وإلى الحد الذى أعلمه لم تُصادف مثل هذه الخلطة آنفاً .

١٦٢- قارن جاكوبلسكي في
Mélanges offerts à Kazimierz Michalowski (Warsaw, 1966), pp. 103-8, in KLIO, Vol. 51 (1969), p. 500,

والمرجع السابق (هامش رقم ٨٨) pp. 37-47 .

١٦٣- أنظر جنكر في
Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Attertumskunde, Vol. 60 (1925), pp. 124-48

و مونير دي فيلار في
Aegyptus, vol. XII (1932), pp. 309-16

١٦٤- جاكوبلسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 31-2 ؛ فرند في
Byzantinoslavica, Vol. XXXIII (1972)., pp. 224-9.

١٦٥- ثلاثة منهم نُشروا في قريفيث، مرجع مذكور آنفا (هامش رقم ١٥٩) . وقد اكتُشف منذ وقت قريب كتابان أخريان من سَرة شرق وقصر الوز ولكنهما لم يتم وصفهما بعد بتفصيل . أنظر ملاحظات عن الإكتشاف في إسكانلون African Arts, Vol. II (1968), p. 65 and Fig. 4

و نودستاد في Kush XIV (1966), P. 171

١٦٦- جاكوبلسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) PP. 29-30 ؛
أنظر كذلك المصادر المشار إليها في هامش رقم ١٦٢ .

١٦٧- نودستاد، النص المنقول (هامش رقم ١٦٥) .

١٦٨- إسكانلون، النص المنقول (هامش رقم ١١٧) .

١٦٩- بلملي في
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 4-5; Vol. 52 (1966), pp. 11-12; Vol. 61 (1975), pp. 6-7;

والمرجع السابق (هامش رقم ٣٦) ؛ فرند، مرجع سابق (هامش رقم ٧٧) .

١٧٠- لمناقشة أطول عن الأدب النوبي في القرون الوسطى أنظر هايكوك، مرجع سابق (هامش رقم ٧٧) .

١٧١- قريفيث، مرجع سابق (هامش رقم ١٢٥)، pp. 82-3 .

١٧٢- لمناقشة حول هذه الصيغة وتفريعاتها النوبية أنظر خاصة جنكر، المرجع السابق (هامش رقم ١٦٣) و أوتس،

المرجع السابق (هامش رقم ١٦١) .

١٧٣- يجرى حساب عصرنا من قبل الكنيسة القبطية ومعظم الكنائس الشرقية منذ وقوع الإضطهادات في حكم دقلتيان، ٢٨٠ بعد الميلاد، بدلاً عن ميلاد المسيح . وبناء عليه تؤرخ وفاة بطرس الرسول في عام ١٠٢٥ بعد الميلاد طبقاً لسردنا الزمني .

١٧٤- نقلاً عن مايلهام

Churches in Lower Nubia, University of Pennsylvania Musuem, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vol. II (1910), p. 19.

١٧٥- قصر إبريم لم يُغمر تماماً، ولا تزال الحفريات متواصلة هنا .

١٧٦- أنظر هامش رقم ٦٠ .

١٧٧- تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ١٣٥) ؛ ويكس

The Classic Christian Townsite at Arminna West, Publications of the Pennsylvania-Yale Expedition to Egypt, No. 3 (1967).

١٧٨- Missions Archeologica in Egitto dell'Universita di Romà,

المرجع السابق (هامش رقم ١٢٧) .

١٧٩- شيني في

Kush XI (1963), pp. 257-63; Kush XII (1964), pp. 208-15; and Kush XIII (1965), pp. 190-94.

١٨٠- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 2?8-40 ، والمرجع السابق (هامش رقم ١٠٩) .

١٨١- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 218-40 .

١٨٢- أنظر ويكس، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٧)، pp. 17-21 .

إن هذا الإقتراح غير مؤيد من تريقر (تبادل شخصي) .

١٨٣- أنظر آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٨)، p. 187 .

١٨٤- ما قبله ، p. 188 .

١٨٥- يعنى ذلك أنه في العصر المسيحي . والعدد الإجمالي للطبقات السطحية في الموقع كانت ثمانية عشرة . ولنبذةٍ بالتسلسل الزمني أنظر آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٩) p. 150 .

١٨٦- قارن مؤلفي " نمط الإقامة في هيئة مصغرة : الوجه المتغير لقرية نوبية خلال إثنى عشر قرناً " (آدمز، مرجع سابق، هامش رقم ٨). إن المناقشة التالية مرْكزة إلى حد بعيد بناء على هذا المصدر .

١٨٧- هذه مثبتة بسجلات الفيضان السنوى ومستوياته المحفوظة في رودس، بالقرب من القاهرة، منذ عام ٦٢٢ بعد الميلاد وما تلاها .

أنظر جارفيس في Journal of Cycle Research, Vol. 2 (1953), pp. 96-100.

١٨٨- أنظر آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 219 ، الشكل رقم ٣ .

١٨٩- أنظر خاصة شيني في Kush XII (1964) ، p.211 ، Fig 3

١٩٠- قارن ويكس، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٧)، الشكل رقم ١ .

١٩١- لمناقشةٍ عن هذه المواقع أنظر بشكلٍ خاص آدمز و نوردستروم، المرجع السابق (هامش رقم ١) pp. 42-4 ؛ بريزيدو فيلو

El Poblado Cristiano de la Isla de Abkanarti, Comité Espanol de la Unesco para Nubia, Memorias de la Misión Arqueológica en Nubia, VII (1965); and Gardberg

المرجع السابق هامش رقم (٧) pp. 47-52

١٩٢- آدمز و نوردستروم، مرجع سابق (هامش رقم ١) p. 43-4 .

١٩٣- جارفيس، نقلاً عن النص (هامش رقم ١٨٧) .

١٩٤- كورتو وآخرين

Kalabsha, Centro per le Antichità e la Storia dell'Arte del Vicino Oriente, Orientis Antiqui Collectio, V (1965).

١٩٥- بريسكياني وآخرين

Sabagura, Centro per le Antichità e la Storia dell'Arte del Vicino Oriente, Orientis Antiqui Collectio, I (1962).

١٩٦- بريزيدو فيلو،

La Fortaleza Nubia de Chiekh-Daud, Comité Espanol de la Unesco para Nubia, Memorias de la Misión Arqueológica en Nubia, IV (1964).

١٩٧- إستنكو في .Acme, Vol. XIII (1960), pp. 31-76

١٩٨- نفسه ، الشكل رقم ٢ (فيما يلى p. 32) .

١٩٩- بريزيدو فيلو، مرجع سابق (هامش رقم ١٩٦)، الرسم اللاحق p. 10 .

٢٠٠- المعبد الروماني الكبير في كلابشة، وقد حُول إلى كنيسة في العصر المسيحي الباكر، وشغل مكاناً بارزاً ما بين مساحته المسّورة . أنظر كورتو وآخرين، مرجع سابق (هامش رقم ١٩٤) pp. 44-5 .

٢٠١- إستنكو، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ١٩٧) pp. 67-76 ؛

دونادوني في .Mémoires de l'Institut dé Égypte, Vol. LIX (1969), p. 30

٢٠٢- قارن دونادوني، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠١) pp. 29-30 ،

وفي .la Parola del Passato, Vol. 69 (1959), pp. 458-69

٢٠٣- تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ١) p. 146 .

٢٠٤- أنظر، مثالاً، رايزنر

Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907-1908 (Cairo, 1910), Vol. I, pp. 346-7;

فيرث .Archaeological Survey of Nubia., Report for 1910-1911 (Cairo, 1927), p. 33

٢٠٥- أنظر بخاصةٍ آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٧) pp. 236-8 .

٢٠٦- للمزيد من النقاش المطول عن التطور اللوني للفّخار النوبي المسيحي أنظر المصادر المختلفة الواردة في الهامش رقم ٤ .

٢٠٧- قارن ويتزمان في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 338 ؛

وجانسما .Ornements des Manuscrits Coptes du Monastère Blanc

رسالة دكتوراه لم تنشر بعد).Rijksuniversiteit te Groningen, 1973)

ومع ذلك، يشير ميليه (في تبادل شخصي) أن حواشى " الضفيرة " لأشد تطوراً كلونيةٍ زخرفية في النوبة من بيزنطة أو أى مكان آخر .

٢٠٨- أنظر قريفيث، المرجع السابق (هامش رقم ١٤٦) pp. 63-5 . والصور XLI-XLV .

٢٠٩- ادمز في كوش Kush IX (1961), pp. 30-43

إن المناقشة التالية مأخوذة في تركيزٍ من هذا المصدر .

٢١٠- للمناقشة أنظر خاصة لاين .Early Islamic Pottery (London, 1947) pp. 10-24

٢١١- أطول مناقشةٍ ممدودة حول فّخار الفسطاط المصقول تعود إلى بهجت و ماسول

La Céramique Musulman de l'Égypte (Cairo, 1930);

قارن كذلك إسكانلون في ريتشارس، محررا

Islam and the Trade of Asia (Philadelphia, 1970), pp. 81-95,

وكذلك في .Archaeology, Vol. 24 (1971), pp. 220-33

٢١٢- ليس شائعاً قبل أواسط القرن الحادي عشر ؛ وعلى أية حال، بيّن إسكانلون (مرجع سابق، هامش رقم ١١٧ ، p. 43)
إن أول قطَع مصقولة في النوبة يمكن أن تؤول إلى القرن العاشر .
٢١٣- للمناقشة أنظر هاينز Glass through the Ages (Harmondswoth, 1948), pp. 52-4
و سميث Glass from the Ancient World (Corning, N. Y., 1957), pp. 227-32.
٢١٤- أجرى الفحص الإبتدائي وتحديد الخواص للزجاج الموجود في مينارتي السيد راى واينفيلد إسميث . وتجرى دراسة مفصلة لهذه المادة في الوقت الحاضر . ولتحليل منشور لشظايا الزجاج من موقع نوبي آخر في العصور الوسطى أنظر هاردن في شيني، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 60-76 .
٢١٥- بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 512 .
٢١٦- حُدد النسيج عن طريق الخطأ على انه قطن في تقرير أولى ؛ أنظر ادمز، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 238 . وُجدت كذلك معثورات مماثلة من قبل البعثة الإسكندنافية المشتركة على أنها منسوجة أساساً من وبر الجمال . أنظر برجمان
Late Nubian Textile, Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications,Vol. 8 (1975), pp. 10-12.

٢١٧- قارن أدمز في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 149 .
٢١٨- تريقر في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p 347 .
٢١٩- أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 169-70 ، و فوراند، مرجع سابق (هامش رقم ٥٧) pp. 117-18 .

٢٢٠- أنظر بخاصة تريقر في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 354-5 .
٢٢١- نفسه ، p. 355 ؛ أدمز و نوردستروم، مرجع سابق (هامش رقم ١)، pp. 42-4 .
٢٢٢- قارن تريقر في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 355 .
٢٢٣- قارن هنتينقفورد
The Land Charters of Northern Ethiopia, monographs in Ethiopian Land Tenure, No. (1965).
٢٢٤- هذا مفترض من جاكوبلسكي ؛ أنظر المرجع السابق (هامش رقم ٨٨) p. 73 .
٢٢٥- لبّينة على إنتاج النبيذ بأديرة مصر أنظر خاصة وينلوك و كروم
The Monastery of Epiphanius at Thebes, Part I, Metropolitan Musuem of Art Egyptian Expedition Publ;ications, Vol. III (1926), pp. 1612.

٢٢٦- أنظر أدمز في كوش Kush X (1962), pp. 72-4
و أدمز و نوردستروم، مرجع سابق (هامش رقم ١) p. 42 .
٢٢٧- لمناقشة أنظر أدمز في Kush XIV (1966), pp. 279-82.
٢٢٨- فوراند، مرجع سابق (هامش رقم ٥٧) p. 120 .
٢٢٩- أدمز، النص المنقول (هامش رقم ٢٢٧) .
٢٣٠- لمناقشة عن التجارة في الفّخار المستورد أنظر ادمز في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 118-21 .
٢٣١- "تنظيم دول القرون الوسطى" بعاليه .
٢٣٢- قارن على وجه الخصوص بلملي، مرجع سابق (هامش رقم ٣٦) .
٢٣٣- أنظر فوراند، المرجع المذكور سابقا (هامش رقم ٥٧) p. 116 .
٢٣٤- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 45-7 .
٢٣٥- فرنيا Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966) Vol. I, p. 9
٢٣٦- تريمنغهام، نقلاً عن النص (هامش رقم ١٢) .
٢٣٧- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١١) pp. 42-50 .

الفصل السادس عشر

المصادر الأساسية : هنالك عدد من المختصرات لمعلومات تاريخية عن الفترة المتأخرة من المسيحية النوبية ؛ ومن بينها مونير دي فيلار

Storia della Nubia Cristiana, Pontificio Institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana Analecta 118 (1938), Ch. XXII,

وأركيل في A History of the Sudan,. 2nd ed. (London, 1961), Ch. IX

وكلاهما جدير بالذكر . أما المعلومات التى قدمها الكتاب العرب في القرون الوسطى فهى ملخصة تلخيصاً جيداً في حسن Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967), Ch. 4 and Appendix

وفي فانتيني

The Excavations at Faras, a Contribution to the History of Christian Nubia (Bologna, 1976), pp. 59-143.

وتوجد معلومات إضافية في بدج The Egyptian Sudan (London, 1907), Col. II, Ch. XII.

وبالنسبة لنظام المماليك في مصر ، إعتمدت في غالب الأمر على لاين ـ بول

A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1968), Ch. IX-X.

١- إبن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت، ١٩٥٦-١٩٦١)، المجلد الخامس، ص ٤٢٩ . والترجمة مأخوذة من كراوفوت في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XIII (1927), p. 148.

٢- قارن كراوفوت، النص المنقول (هامش رقم ١) .

٣- قارن أركيل A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 196.

٤- أنظر قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIV (1927), pp. 102-3.

٥- قارن بلملي في Illustrated London News, 11 July 1964, p. 51.

٦- لتقرير عن الحفر الأولي أنظر نوبستاد في Kush XIV (1966) pp. 165-78.

٧- قارن ميليه في Journal of the American Research Center in Egypt , Vol. VI (1967), pp. 60-61.

٨- هناك كنيستان فقط موصوفتان في مونير دي فيلار

La Nubia Medioevale, Vol. I (Cairo, 1935), pp. 108-20

إن الكنيستان الأخريتان إكتُشفا في معرض الحفر الجارى عام ١٩٦٦ و ١٩٧٢ :

أنظر بلملي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 52 (1966), pp. 10-11,

و بلملي و آدمز في Journal of Egyptian Archaeology,Vol. 60 (1964), pp. 228-36.

إن من الممكن تماماً أن حفراً متواصلاً يكشف النقاب عن كنائس إضافية في قصر إبريم .

٩- قارن آدمز في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. IV (1965), pp. 137-8.

١٠- ميلز في Kush XIII (1965), pp. 3-10.

١١- حُفر الموقع بواسطة اليونسكو- مصلحة آثار السودان في ١٩٦٦ ، لكنه لم يُبلغ عنه في عملٍ منشور . وعن الكنيسة أنظر مونير دي فيلار La Nubia Medioevale, vol. I (Cairo, 1935), n. 230-31,

وآدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٩)، pp. 119-20.

١٢- مبين في خرائط عديدة على أنه سوسينارتي . ولسرودٍ أطول عن الموقع أنظر شينيك في

Kush V (1957), pp. 45-7 ;

قروسمان في

Archäologischer Anzeiger, Jahrbuch des Deutschen Archäologischen Instituts (1968), pp. 721-32 ;

و دنكلر، محررا،

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghasuen, 1970), pp. 265-6.

١٣- كان ذلك مُدوناً في أثناء حفرياتى في كولبنارتي عام ١٩٦٩ ، التى لم تُنشر بعد . لتقرير مختصر للغاية وأولى أنظر آدمز في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، p. 143 .

إن المواقع موصوفة هنا في الفعل الحاضر لأنها سوف لا يغمرها فيضان السد العالي .

١٤- بلملي، المرجع السابق (هامش رقم ٨) pp. 9-10 .

١٥- قارن أركيل، النص المنقول (هامش رقم ٣)

١٦- نودستاد، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 169-70 .

١٧- آدمز في كوش Kush XII (1964), pp. 169-70.

١٨- بريزيدو فيلو،

El Poblado Cristiano de la Isla de Abkanarti, Comité Espanol de la Unesco para Nubia, Memorias de La Misión Arqueológica en Nubia, VII (1965), pp. 12-13.

١٩- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) p. 222 .

٢٠- مثال ذلك جزيرة تورموكى ؛ أنظر قروسمان في

Archäologischer Anzeiger, Jahrbuch des Deutschen Archäologischen Instituts (1971), pp. 140-43.

٢١- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) p. 232, Fig. 4 .

٢٢- قارن ميخالوفسكي

Faras, Fouilles Polonaises 1961 (Warsaw, 1952), pp. 173-81; Kush X (1962), pp. 242-4 ;

وفانتيني

The Excavations at Faras, a Contribution to the History of Christian Nubia (Bologna, 1970), pp. 259-62.

٢٣- أنظر آدمز في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) pp. 144-6 .

٢٤- نفسه ، p. 150 ؛ أركيل، النص المنقول أنفا (هامش رقم ٣) .

٢٥- أنظر التقرير عن هذه القلاع الثلاثة وغيرها في منطقتها في كراوفورد

The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester, 1951), pp. 30-52.

٢٦- حول هاتين القلعتين وغيرهما في المنطقة ما بين الشلالين الرابع والخامس أنظر

Castles and Churches in the Middle Nile Region, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 2 (1953).

٢٧- نفسه pp. 20-21, 31-4 .

٢٨- ألفا رس The Prester John of the Indies, trans. Lord Stanley (Cambridge, 1961), p. 461.

٢٩- أنظر آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 116-20 .

٣٠- نفسه pp. 119-20 . تم توسيع الكنيسة في عبدالقادر نوعاً ما مؤخراً بإضافة غرفةٍ في كل جانب . وللإطلاع على خطة التوسعة أنظر قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XV (1928), pl. XXV.

٣١- قارن آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٩) pp. 119-20 .

٣٢- قارن ميليت في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. III (1964), p. 10.

(كذلك الهامش رقم ٧) pp. 59-61 في المرجع السابق

٣٣- لربما أن الكنيسة الأسبق في جزيرة مينارتي (أنظر آدمز في Kush XIII, 1965, pp. 165-8)

تم هجرها قبل نهاية العصر المسيحي . إننى افترض ان الكنيسة في عبد القادر، حوالى نصف ميل بعيداً عن الضفة الغربية، شُيدت أساساً لمنفعة الاتباع في مينارتي، حيث أنه لا توجد مستوطنات لأميالٍ بعيدة في أى إتجاه .

٣٤- قارن آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ١٧) p. 222 .

٣٥- آدمز في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 146 .

٣٦- كلاً من هذين الموقعين جرى حفرهما بواسطة فريق اليونسكو ومصلحة آثار السودان بين الأعوام ١٩٦٦ و ١٩٨٦، ولكنهما لم يُنشر عنهما شيءٌ بعد . ولوصفٍ عن ديفنارتي سابق لحفرهما أنظر مونير دي فيلار، النص المنقول آنفا (هامش رقم ١١) . إن الكنيسة في أتيري لم يكن متعرفاً عليها على هذا النحو حتى الوقت الذى تحقق فيه الحفر بالفعل .

٣٧- أنظر الهامش رقم ٢٢ .

٣٨- أنظر آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ١٧) p. 232 .

٣٩- الشعبية البادية للقديسين الفرسان كرسمٍ للزينة في الكنائس النوبية المتأخرة ربما يشار إليهما كبّينةٍ إضافية على روح الإقطاع المتنامية . انظر قريفيث، المرجع السابق (هامش رقم ٣٠)، اللوحات رقم XXXIV-XXXVI, XLII-XLIV

و ميليت، المرجع السابق (هامش رقم ٧) p. 61 .

٤٠- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) pp. 237-8 .

٤١- قارن المرجع نفسه ، p. 247 .

٤٢- تطور الفّخار المسيحي المتأخر قمت بوصفه بتفصيلٍ أكثر في Kush XV (1973), pp. 1-50.

٤٣- فيما عدا الإنتاج الواسع للأواني التى تُستعمل في الساقية، والذي يبدو أنه تواصل حتى أزمانٍ حديثة .

٤٤- أنظر آدمز في دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) p. 115 ، واللوحات 49-50 .

٤٥- مذكرات المؤلف الميدانية غير المنشورة عن الحفر .

٤٦- قارن شيني في حسن، محرراً،
Sudan in Africa, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 2 (1971), p. 46.

٤٧- لاين - بول A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1968), p. 244.

٤٨- نفسه p. 245 .

٤٩- لمناقشةٍ عن هذا الجانب من سياسة المماليك أنظر عابدين في
Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), pp. 59-60;
حسن في Arabia, Vol. XIV (1967), pp. 27-8;
وخاصةً حسن The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967), pp. 100-106.

٥٠- حول أصول بني كنز وتاريخهم الباكر أنظر ماكمايكل
A History of the Arabs in the Sudan (London, 1922), vol. I, pp. 148-51;
تريمنغهام Islam in the Sudan (London, 1949), p. 68;
و حسن The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967), pp. 58-60.

٥١- قارن حسن في Arabica, Vol. XIV (1967), pp. 23-4.

٥٢- إن المعلومة الخاصة بأن بعض بنى كنز كانوا نشطاء انفاً في النوبة السفلى قبل تدفق السكان العام في ١١٧٤ تشهد عليها مجموعة من الرسائل التى يعود تاريخها إلى الفترة الفاطمية المتأخرة وهى ما أُلقى الضوء عليها منذ وقت قريب في قصر إبريم . إن الرسائل معنونةً إلى الإبارش من مجموعةٍ من أمراء بنى كنز، وهى تتعلق بمستوطناتهم وأنشطتهم العملية في النوبة السفلى . أنظر بلملي و ميخالوفسكي، محررين، في
Nubia, Récentes Recherches (Warsaw, 1975), p. 106.

٥٣- قارن تريمنغهام، النص المنقول آنفا (هامش رقم ٥٠) ومسعد في

Nubie, Cahiers d'Histoire Égyptienne, Vol. X (1967), p. 170.

٥٤- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) p. 150 ؛ مسعد، النص المنقول أنفا (هامش رقم ٥٣) ؛ حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥١) p. 24 .

٥٥- أو "رب الخيول" طبقاً لقراءة بلملي للقب الإبارش العربي .

أنظر بلملي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 56 (1970), p. 14.

٥٦- قارن فانتيني، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) p. 261 .

٥٧- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) p. 150 .

٥٨- قارن نفس المرجع السابق .

٥٩- نهاية العرب في فنون الأدب (القاهرة، ١٩٢٣) المجلد الأول .

ولتعقيبٍ عليه، أنظر حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) pp. 197-8 ؛

و فانتيني، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) p. 103 .

٦٠- النهج السديد والدر الفريد، تحرير أ. بلوخت (ثلاث مجلدات، باريس ١٩٢٨-١٩١٩) . ولتعقيبٍ عليه أنظر حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) pp. 198-9 . وفانتيني، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢)، p. 104 .

٦١- أنظر هامش رقم ١ . ولتعقيبٍ أنظر حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٥٠)، p. 199 ، وفانتيني، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٢٢)، pp. 106-10 .

٦٢- عمله الرئيس عن فترة المماليك هو كتاب السلوك في معرفة دول المملوك (مجلدان، القاهرة، ١٩٣٤) . ولتعليقٍ أنظر حسن المرجع السابق (هامش رقم ٥٠)، p. 201 ؛ و فانتيني، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) pp. 112-19 .

٦٣- أُعيد سرد هذه القصة من عددٍ من المؤلفين المحدثين، بمن فيهم بدج

The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. II, 193-9;

تريمنغهام، المرجع السابق هامش رقم ٥٠) pp. 69-72 ؛ أركيل، المرجع السابق (هامش رقم ٣) pp. 196-200 ؛

ومسعد في Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), pp. 124-6.

أما أكثر نسخةٍ مفصلة وربما الأكثر دقة باللغة الإنجليزية، والتى اعتمدت عليها في الأساس، فهى لحسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) pp. 106-23 .

٦٤- النص الكامل للإتفاقية التى وقع عليها شكنده مُضّمنة في نويري، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩)، ما يلى ص ٢٥٩ .

ولموجزٍ عن البنود بالإنجليزية أنظر حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠)، pp. 109-10 .

٦٥- هذا هو الهجاء المعتاد للإسم كما يظهر في النصوص العربية . وفي النصوص النوبية القديمة يظهر على أنه كُدانباس أو كُدانبِس .

٦٦- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم٥٠) p. 119 .

٦٧- نفسه ، p. 120 .

٦٨- ما قبله ، p. 121 .

٦٩- على سبيل المثال آركيل، المرجع السابق (هامش رقم ٣) p. 200 ؛ مسعد، النص المنقول أنفا (هامش رقم ٦٣) ؛ شيني Medieval Nubia, Sudan Antiquities Service Museum Pamphlets, No. 2 (1954), p. 7.

٧٠- مع ذلك، وفي نقشٍ غامضٍ للغاية شبه إغريقي في أسوان يبدو إسم كرنبس موصولاً بالحكام السابقين والقديسين في نفس الوقت. أنظر قريفيث

Christian Documents from Nubia, Proceedings of the British Academy, Vol. XIV (1928), p. 134,

و مونير دي فيلار

Storia della Nubia Cristiana, Pontificio institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Chrisiana Analecta 118 (1938), p. 164.

٧١- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مترجماً، Gaudefroy-Demombynes (Paris, 1927), pp. 48-9.
ولتعليقٍ أنظر فانتيني، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) pp. 104-5 .
٧٢- تعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة، ١٨٩٤) ص ١٢١-١٢٣ .
٧٣- مرجع سابق (هامش رقم ٦٢) . ولفقراتٍ مختارة مطولة بالإنجليزية انظر بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٦٣) Vol. II, pp. 197-8 ، و حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) pp. 121-3 .
٧٤- المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) p. 122 .
٧٥- بلغ عن هذا المدعو توماس Brother Thomas of Ganget والذى عمل مع البعثة البرتغالية إلى إثيوبيا في العشرينات من عام ١٥٠٠ أنظر كراوفورد
Ethiopian Itineraries, c. 1400-1524 (Cambridge, 1958), pp. 180-81.
٧٦- قارن بدج، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣) Vol. II, p. 198 ، وحسن، مرجع سابق (هامش رقم ٥٠) p. 123 .
٧٧- قارن توينبي
A Study of History, Vol. 8 (New York, 1963)
وبخاصةٍ pp. 1-73 .
٧٨- لتفاصيلٍ عن هذه المرحلة من تاريخ بني كنز انظر بخاصةٍ بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٦٣) Vol. II, pp. 197-9؛
كذلك ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ٥٠) Vol. I, pp. 188-9 .
٧٩- يعتقد هايكوك أن هناك بّينة أيضاً على بقاء المسيحية لفترةٍ متأخرة جداً في المنطقة ما بين الشلالين الرابع والخامس (إفتراضياً مقاطعة الأبواب القديمة) . أنظر
Sudan Notes and Records, vol. LIII (1972), p. 20.
٨٠- قريفيث
The Nubian Texts of the Christian Period Abhandlungen der Königlichen Preussischen Akademie der Wissenschaften, 1913, p. 52;
و مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٧٠) p. 141 .
ولقد ظهر إسم يماثل آلتيت في واحدٍ من النصوص التى عُثر عليها في قصر إبريم عام ١٩٧٤، ويعرض لوصفة في فقرةٍ لاحقة . وفي هذه الحالة يبدو أنه إسم العائلة الخاص بحاكمٍ إسمه الأساسى جورج .
٨١- مرنير دي فيلار، النص المنقول آنفا (هامش رقم ٧٠) .
٨٢- قريفيث، المرجع السابق هامش رقم ٨٠) pp. 64-5 ؛ مونير دي فيلار، مرجع مذكور آنفا (هامش رقم ١١) . Vol. I, p. 174
٨٣- قريفيث، مرجع سابق (هامش رقم ٨٠)، pp. 166 ؛
مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) Vol. I, pp. 174-5 .
٨٤- ميليه، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 62 .
٨٥- تبادل شخصي مع ن. ب. ميليه .
٨٦- هذا هو بالتأكيد مركى الوارد في نص جبل عَدّا (أنظر الهامش رقم ٨٤) .
٨٧- بلملي، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) .
٨٨- وُجدت الوثائق في جُرّة مختومة ومدفونة تحت أرضية أحد المنازل خلال حفريات عام ١٩٧٤ . أنظر بلملي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 61 (1975), pp. 6-7.
إننى شديد الإمتنان للبروفسور ج. م. بلملي لكل جهدٍ بذل لإخراج ترجمةٍ أولية في الوقت المطلوب لإيداعها في هذه الطبعة .
٨٩- دونادوني في

Missione Archeologica in Egitto dell'Università di Roma, Tamit (1964) (Rome, 1967), pp. 62-4.

وللحصول على مراجع نَصية أكثر غموضاً عن الملك جول، أنظر ما قبله p. 63, n-9 .

٩٠- تبادل شخصي من إستيفان جاكويلسكي . ويبدو التشخيص مريباً في ضوء الإحتمال القاضي بأن كاتدرائية فرس كانت قد اجتاحتها الرمال في القرن الثالث عشر (أنظر الفصل الخامس عشر) .

٩١- قارن هولت

Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922 (Ithaca, 1966), p. 15, no. 1.

٩٢- انظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٧٠) p. 221 .

٩٣- نفسه .

٩٤- انظر ماركهام، محرراً

Book of the Knowledge of all the Kingdoms, etc. (London, 1912) p. 32 and pl. 14.

٩٥- قارن ما قبله، pp. ix-xii ؛

كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) p. 134 .

٩٦- قارن كرونتبرج في Kush XI (1963), pp. 304-311;

وفي كوش Kush XII (1964), pp. 285-6

وأدمز في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 150 .

٩٧- ميليه، المرجع السابق (هامش رقم ٧) pp. 61-2 .

٩٨- قريفيث، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 103 .

مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٧٠) p. 141 .

٩٩- إن هذا على أرجح إحتمالٍ تعريب للإسم القديم عن طريق وضع لام التعريف المألوفة : الداو . مع ذلك، يشير بروس تريقر (في تبادل شخصي) أن المعّين المروى أدا كان شيئاً مثل أدو، وهو ما يوحى بإشتقاقٍ مباشر من الإسم الحديث . وإذا كان لآدا أن تُقرن معرّفتُها بداو، فإن فقدان الحرف أو إعادة ظهوره في وقتٍ لاحق يظل غير معروف .

١٠٠- فيما اقترح قريفيث، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 103-4 .

١٠١- قارن مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٧٠) p. 140 .

١٠٢- نفسه ، p. 141 .

١٠٣- أركيل، مرجع سابق (هامش رقم ٣) pp. 190, 197, 200 .

١٠٤- مرجع سابق (هامش رقم ٧٠) p. 188 .

١٠٥- Faras, die Kathedrale aus dem Wüstensand (Zurich and Cologne, 1967), p. 44.

١٠٦- قارن بلملي، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) .

١٠٧- قارن بدج، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣) Vol. II, p. 197 .

١٠٨- أياً كان الأمر، هنالك تقليد أن المسيحية عاشت حتى وقتٍ متأخر في طايفا بالنوبة السفلى ؛ وظل المكان معروفاً "بقرية المسيحيين" في الماضي القريب (تبادل شخصي مع بروس تريقر) .

١٠٩- نقلاً عن كراوفوت، النص المشار إليه منقولاً (هامش رقم ١) .

١١٠- قارن مسعد، المرجع السابق (هامش رقم ٦٣) p. 127 .

١١١- في Journal of African History, Vol. XIII (1972), p. 40

١١٢- شيني

Excavations at Soba, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 3 (1961), p. 76

١١٣- الحّراني

Monumenta Catographica Africae et Aegyptii, ed. Prince Youssouf Kamal (Leiden, 1926-53),

Vol. IV, Fall 1.

١١٤- عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور (القاهرة، ١٩٦١) pp. 144-5 .

١١٥- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٥٠) pp. 128-9 .

١١٦- نفسه ، pp. 130-31 .

١١٧- ما قبله .

١١٨- قارن مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٧٠) pp. 154-5, 200.

كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) pp. 27-8 ;

و حسن ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٠) p. 198 .

١١٩- لمناقشةٍ ناقدةٍ وترجمة كاملة أنظر ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) Vol. II, pp. 354-434 .

١٢٠- قارن ما قبله p. 358 .

١٢١- نفسه ، pp. 358-9 ;

تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم٥٠) p. 74, n. 3 .

١٢٢- أنظر على وجه الخصوص ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠)، Vol. II, pp. 431-3 ;

و كرافورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢٥) pp. 163-4 .

١٢٣- أنظر هولت في

Bulletin of the School of Oriental and African Studies, Vol. XXIII (1960), pp. 1-12;

وفي Journal of African History, Vol. IV (1963), pp. 39-55;

و حسن، المرجع السابق (هامش رقم٥٠) p. 132 .

١٢٤- مترجمةٌ من بَن في Sudan Notes and Records, Vol. XVII (1934), pp. 59-83.

١٢٥- Kush XI (1963), pp. 264-72.

١٢٦- أنظر كراوفورد، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ٢٥) p., 137 .

١٢٧- نفسه p. 152 .

١٢٨- نفسه ؛ جاتاواى في Sudan Notes and Records, Vol. XIII (1930), p. 256.

١٢٩- حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) p. 126 ;

تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) p. 78 ;

شيني، المرجع السابق (هامش رقم ٦٩) p. 7 .

١٣٠- على سبيل المثال، راجع بورخارت Travels in Nubia (London, 1819), p. 78;

كاليود Voyage à Méroé et au Fleuve Blanc (Paris, 1926), Vol. III, pp. 258-61 ;

لينان دي بلفوند

Journal d'un Voyage à Méroé dans les Années 1821 et 1822, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 4 (1958), pp. 3, 10-11.

١٣١- ادمز، مرجع سابق (هامش رقم ٩) pp. 126-33 .

١٣٢- إن الأسباب الكامنة وراء إضمحلال المسيحية النوبية وإندثارها مناقشة بتفصيلٍ أكثر في تريمنغهام، المرجع السابق، (هامش رقم ٥٠)، pp. 75-80 ؛ و حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) pp. 124-8 ;

و فانتيني، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ٢٢) pp. 274-8 .

١٣٣- بدج، المرجع السابق (هامش رقم٦٣)، Vol. II, p. 306 ;

حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) p. 126 .

١٣٤- بلملي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 3-4;

ولترجمةٍ كاملة وتعليقٍ عليه أنظر بلملي

The Scrolls of Bishop Timotheos, Egypt Exploration Society, Texts from Excavations, Memoir 1, 1975.

١٣٥- مثالاً العمري، المرجع السابق (هامش رقم ٧١) ؛ إبن بطوطة

Travels in Asia and Africa, trans. Gibb (London, 1929), p. 323;

البكّوي، كتاب تلخيص الآثار وعجب الملك القهار (أنظر فانتيني، المرجع السابق، هامش ٢٢ ، pp. 110-11) .

١٣٦- أنظر بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٦٣) Vol. II, p. 307 .

١٣٧- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) Vol. II, p. 35 ؛

كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) p. 27 .

١٣٨- ألفاريس، النص المنقول (هامش رقم ٢٨) .

١٣٩- نفسه .

١٤٠- قارن مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٧٠) pp. 124-5 .

١٤١- فانتيني، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) p., 141 .

١٤٢- بروس

Travels to Discover the Source of the Nile, in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772, and 1773 (Edinburgh, 1790), Vol. I, p. 98.

والتّشديد وارد في النص الأصلي .

١٤٣- راهب إثيوبي إجتاز دنقلا عام ١٥٩٦ لا يزال يميز ما بين العناصر " النوبية " و " المسلمين " وسط السكان . أنظر تريمنغهام

The Influence of Islam upon Africa (London, 1968), pp. 23-4.

١٤٤- هنالك مسجد مهجور في أتيري، ولكن صفته الهندسية توحي بأنه بُنّي في وقت متأخر للغاية عن الكنيسة التى شُيدت في نفس الموقع من قبل .

١٤٥- أنظر الهامش رقم ١٣٠ .

١٤٦- وسطهم كنائس في أرمينا غرب (تريقر

The Late Nubian Settlement at Arminna West, Publications of the Pennsylvania-Yale Expedition to Egypt, No. 2, 1967, pp. 15-17);

جبل عَدّا (ميليه، المرجع السابق، هامش ٧ ، p. 61) ؛

جزيرة ميلي (آدمز و نوردستروم في Kush XI, 1963, p. 34) ؛

و كولبنارتي (آدمز في دنكلر، المرجع السابق، هامش ١٢ ، p. 146) .

١٤٧- قارن تريقر، المرجع السابق (هامش رقم ١٤٦)، p. 115 and n. 26 .

١٤٨- قارن ميليه، المرجع السابق (هامش رقم ٧) p. 61 .

الفصل السابع عشر

المصادر الأساسية : المادة الرئيسة لهذا الفصل مأخوذة من ثلاثة أعمال أخاذة ومتعادلة القيمة تقريبا : ماكمايكل

A History of the Arabs in the Sudan (2 vols., London, 1922);

حسن The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967)

وتريمنغهام Islam in the Sudan (London, 1949)

إن المرجعين الأولين لهما فائدة خاصة عن الهجرات العربية، والمرجع الثالث بالنسبة لإنتشار أخذ السودانيين بالإسلام وطبيعته . وفي شأن ما ذُكر في النقطة السالفة إستُفدت للغاية من تعليق هيللسون عن الطبقات لود ضيف

الله في Sudan Notes and Records, Vol. VI (1923), pp. 191-231

إن الفقرات الممدودة للوصف الإثنوغرافي في نهاية الفصل منقولة من بوركهارت

Travel in Nubia (London, 1819)

ومن بين كل الأوربيين المختلفين الذين زاروا النوبة وكتبوا عنها في بداية العصر الحديث، تُعَد وقفات بوركهارت الحساسة والرقيبة بمفردها بمثابة رصيد إثنوغرافي ؛ وهو يستحق أن يُعَد من بين أعظم الدارسين لثقافة الشعوب في كل العصور .

١- Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907-1908 (Cairo, 1910), Vol. I, p. 348

٢- لمناقشةٍ عن هذه النقطة، أنظر تريمنغهام Islam in the Sudan (London, 1949), pp. 81-3,

و حسن The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967, pp. 174-6.

٣- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 177 .

٤- لعرضٍ عام لدخول الحزام الإفريقي السوداني في الإسلام، أنظر ا. م. لويس، محرراً،

Islam in Tropical Africa (Oxford, 1966) pp. 4-96.

٥- لتاريخٍ شعبي مختصر عن هذه الإمبراطوريات أنظر مرجريت شيني

Ancient African Kingdoms (London, 1965).

وهنالك سرودٌ تاريخية أكثر شمولاً لعدة إمبراطوريات كلاً على حدة .

٦- قارن تريمنغهام في لويس، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 128 .

٧- لمزيدٍ من التفصيل أنظر ما قبله pp. 127-9 .

٨- تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 99 .

٩- لويس، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 5 .

١٠- قارن أدمز في Ethnohistory, Vol. 16 (1969), pp. 280-82

١١- قارن حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 135-6 ، و كنيسون في حسن، محرراً،

Sudan in Africa, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 2 (1971), pp. 186-96.

١٢- ماكمايكل A History of the Arabs in the Sudan (2 vols., London, 1922).

لمزيدٍ من المعالجة المختصرة للهجرات العربية أنظر تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 81-9 ؛

حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 135-81 .

هولت A Modern History of the Sudan (New York, 1961), pp. 5-25

و عابدين في Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), pp. 48-74

١٣- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢)، Vol. I, pp. 145, 162 ؛

حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 137-8, 161 ؛ و عابدين، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) p. 58 .

١٤- من الممكن أن أى هجرةٍ لقريش لم تقع على الاطلاق . وبما أن سلف قريش (أي العضوية لقبيلة النبي نفسه) تتمتع بمرتبةٍ رفيعة لامثيل لها في العالم الإسلامي، دائما ما يدّعيها أفراد بل قبائل باكملها لا تربطهم بقريش صلة تأريخ .

١٥- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 155 .

١٦- نفسه ، p. 156 .

١٧- نفسه ، p. 159 .

١٨- قارن ما قبله ، pp. 142-3, 160 .

١٩- نفسه ، p. 157 .

٢٠- قارن لويس The Arabs in History (New York, 1960), pp. 80, 84, 92-3

٢١- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 36 .

٢٢- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 174 .

٢٣- تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 58-9 ، وبخاصة هامش رقم ٥ :
حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 10-40 .

٢٤- المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٢) p. 40 .

٢٥- لموجزٍ عن بنودها، أنظر حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 39-40 .

٢٦- نفسه ، p. 40 .

٢٧- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 167 .

٢٨- حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 40-41, 50-62 .

٢٩- لنبذٍ تاريخية عن قبائلهم، أنظر ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢)، Vol. I, pp. 138-9, 148-51.

٣٠- نفسه ، p. 167 .

٣١- لتاريخ قبائل المجموعات الأخيرة، أنظر ما قبله، pp. 145, 187-8 .

٣٢- "كانت مملكتهم ممزقة إرباً واستولى عرب جهينة على بلادهم" :
كراوفوت في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XIII (1927), p. 148.

٣٣- لشيءٍ عن تاريخها وجغرافيتها أنظر شو في
Sudan Notes and Records, Vol. XII (1929), Part I, pp. 63-72.

٣٤- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 176 .

٣٥- نفسه ، p. 175 .

٣٦- قارن المرجع نفسه، pp. 135-6 ؛ كذلك أدمز، النص المنقول (هامش رقم ١٠) .

٣٧- تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 82 .

٣٨- أي، الجزء الشمالي من القطر بإستثناء الجنوب [بدياناته الخاصة به ـ المترجم] الوثني (المسيحي مؤخراً) .

٣٩- يوجد عدهم في ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) Vol. I ؛
أنظر بخاصةٍ قائمة المحتويات .

٤٠- تريمنغهام ، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 11 .

٤١- لمعرفة تقاليدهم النَّسبية أنظر ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢)، Vol. I, pp. 197-236.

٤٢- ترمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 17 .

٤٣- لخرائط تُبَيِّن مسالك هجرة القبائل في غرب السودان أنظر بربور
The Republic of the Sudan (London, 1961), p. 150
و هالاند في بارث، محرراً، Ethnic Groups and Boundaries (London, 1969), p. 60.

٤٤- لمناقشةٍ مطولة عن سلف البقارة أنظر كنيسون، المرجع السابق (هامش رقم ١١) .
ولإثنوغرافيا حديثة [في وصف ثقافة البقارة ـ المترجم] ، أنظر كنيسون Baggara Arabs (Oxford, 1966).

٤٥- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 136 ؛ هولت، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) p. 6 .

٤٦- هنالك عدد من التواريخ العامة عن السودان، بما فيها أركيل
A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961);
هولت، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) ؛
والمهدي A Short History of the Sudan (London, 1965)

٤٧- نقلاً عن حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 127 .

٤٨- قارن رياض في فرنيا، محرراً،
Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966), vol. II, pp. 325-39.

٤٩- أنظر حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 249, n. 42 .

٥٠- أنظر ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, pp. 99-100 .

٥١- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 143 .

٥٢- أنظر كروننبرج في Kush XI (1963), pp. 304-311

وفي كوش Kush XII (1964), pp. 285-6.

٥٣- تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 84 .

٥٤- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 143-4 .

٥٥- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 341 .

٥٦- تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 8 .

٥٧- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 342 .

٥٨- نفسه ، pp. 342-3 .

٥٩- نفسه ، pp. 198-200 .

٦٠- المرجع السابق (هامش رقم ١٢) p. 7 .

٦١- لنسبهم وتأريخهم أنظر ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢)، Vol. I, pp. 307-16.

ولوصف إثنوغرافي حديث انظر أسَد The Kababish Arabs (London, 1970).

٦٢- لنَسَبهم وتاريخهم أنظر ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, pp. 335-7.

٦٣- نفسه ، p. 199 .

٦٤- نفسه ، p. 203 ؛ تريمنغهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 9 .

٦٥- تحريف سوداني لـ "ملك" العربية وهي مستخدمة بشكلٍ واسعٍ لرؤساء القبائل الجلوسية [غير البدوية - المترجم] . ولمزيد من التفاصيل أنظر الفصل الثامن عشر .

٦٦- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 201 .

٦٧- أنظر ما قبله، pp. 201-3, 212-13 .

٦٨- طبقاً لحسن، مرجع سابق هامش رقم ٢) pp. 144 .

٦٩- قارن بورخارت Travels in Nubia (London, 1819), pp. 133-4

٧٠- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 197 .

٧١- انظر ادمز في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 52 (1966), p. 154.

٧٢- تريقر في Journal of African History, Vol. VII (1966), p. 21.

٧٣- ميليه في فرنيا، مرجع سابق (هامش رقم ٤٨) Vol. I, pp. 59-60 .

٧٤- أنظر بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) p. 497 .

٧٥- لعرض نقدي للنظريات موضع الذاكر عن اللهجات النوبية، أنظر تريقر، المرجع السابق (هامش رقم ٧٢) .

٧٦- قارن ماكمايكل، المرجع المذكور انفا (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 200 .

٧٧- تُستخدم كلمة الجعليين لتدل على نوع كل القبائل النوبية المستعربة وكذلك كمصطلحٍ معين للقبيلة التى تشغل مقاطعة شندي الحديثة . أنظر حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 146 .

٧٨- أنظر ما قبله، pp. 146-52 .

٧٩-نفسه ، p. 152 .

٨٠- أنظر ما قبله، pp. 145-6 .

ويعتقد هايكوك من ناحيةٍ أخرى أن مقاطعة أبو حمد النهرية كانت واحدة من آخر ملاجئ النوبة المسيحية ؛ أنظر Sudan Notes and Records, No. LIII) (1952), p. 20.

٨١- قارن تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 89 ، وماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 216 .

٨٢- تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 88 ؛ ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 234 .

٨٣- قارن هولت، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 18 .

٨٤- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, pp. 221-2 .

٨٥- بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) p. 133 .

٨٦- هذا الرأى المتطرف تعّدل نوعاً ما منذ نشر مجموعة من الأعمال الحديثة التى أشارت إلى أمجاد ما قبل الإسلام . وهكذا، يبدأ مخطوط عن تأريخ النوبيين خطّه داؤد كُبارا من وادي حلفا بذكر لتهارقا وشباكا، ولكنه يدور مباشرة لإعادة الإدعاء المألوف بالسلف العربي . أنظر ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢)، Vol. II, p. 325 .

٨٧- تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 17 .

٨٨- لهذا الإستعمال قارن كنيسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، p. 192 . أنظر كذلك عبدالرحيم في حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp. 228-32 .

٨٩- هاستينقز، محرراً،
Encyclopedia of Religion and Ethics (New York, 1914), Vol. IV, p. 108.

٩٠- تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 105 .

٩١- قارن ليفي The Social Structure of Islam (Cambridge, 1965), p. 461.

٩٢- نفسه ، pp. 53-7 .

٩٣- أنظر خصوصاً روبرتسون سميث Kinship and Marriage in Early Arabia (London, 1903).

٩٤- للمزيد من المناقشة المرسلة أنظر قلنر Saints of the Atlas (Chicago, 1969), pp. 41-9.

٩٥- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 131, n. 2 .

٩٦- أنظر على وجه الخصوص حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 57-68 .

٩٧- لمناقشةٍ مفصلة أنظر ليفي، مرجع سابق (هامش رقم ٩١) pp. 57-68 .

٩٨- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. II, pp. 16-18 .

٩٩- ليفي، المرجع السابق (هامش رقم ٩١) p. 56 .

١٠٠- أنظر حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p., 205 .

١٠١- لمناقشةٍ أكثر طولاً أنظر آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 277-88 .

١٠٢- قارن ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) pp. 211-12 .

١٠٣- أنظر حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 211-12 .

١٠٤- أنظر ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, pp. 198-9 .

١٠٥- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 211-12 ؛
أنظر أيضاً حسن في Sudan Notes and Records, Vol. XLVI (1965), pp. 27-32.

١٠٦- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 211 .

١٠٧- لمناقشةٍ عامة جيدة عن ذلك النمط من "تجار النَسَب" وسط السكان غير المتعلمين أنظر قودي، محرراً،
Literacy in Traditional Societies (Cambridge, 1968),
وبخاصة pp. 11-20 .

١٠٨- أنظر ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. v. .

١٠٩- لوصفٍ سلس والمعي في تحليل النظام القبلي البدوي كما يجري يوماً بيوم، أنظر بارث
Nomads of South Persia (Boston, 1961).

١١٠- كنيسون Baggara Arabs (Oxford, 1966), pp. 11-12.
العمودية والصُرة أسماء شائعة للتفريعات المصّغرة للقبائل السودانية . أنظر على نفس الصعيد كنيسون، المرجع السابق (هامش رقم ١١)، وحسن، المرجع السابق (هامش رقم ٤٣) .

١١١– ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I ؛ أنظر بخاصة قائمة المحتويات .

١١٢– قارن عبدالرحيم، مرجع سابق (هامش رقم ٨٨) p. 231 .

١١٣– لسرودر عن نظام العُصْبَة بين النوبيين المعاصرين أنظر هرزوق Die Nubier (Berlin, 1957), pp. 106-7; كروننبرج في Kush XI (1963), pp. 306-9.

كالندار في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٤٨) pp. 181-217 ؛

و فرنيا و فيرستر Nubians in Egypt (Austin and London, 1973), pp. 17-26.

١١٤– تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 105 .

١١٥– هيللسون في Sudan Notes and Records, Vol. VI (1923), p. 195.

١١٦– قارن قودي، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٧) pp. 13-14 .

١١٧– هيللسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥) p. 197 .

١١٨– تعنى حرفياً "كتاب الطبقات"، وهو عنوان متفق عليه للأعمال من هذا القبيل لأن السير الحياتية تُصنّف في العادة وفقاً لمجال الممارسة الذى تمثله السيرة، مثال ذلك، الوزراء، القضاة، الفلاسفة، الشعراء، إلخ. بالرغم من أن هذا التقليد متّبعاً بالذات من ود ضيف الله . أنظر هيللسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥)، p. 191 .

١١٩– لتعليقٍ وترجمةٍ في أجزاء مُعتبرة للطبقات، أنظر ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢)، Vol. III, pp. 217-323 .

إن الاكثر فائدة تعليق هيللسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥) .

١٢٠– ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢)، Vol. II, p. 218 .

١٢١– هيللسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥)، p. 194 .

١٢٢– لمناقشةٍ عن هذه النقطة أنظر المرجع نفسه، p. 193 ،

و ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. II, p. 218 .

١٢٣– ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. II, p. 217 .

١٢٤– نفسه ، p. 217 .

تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 100 ؛

حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 178 .

١٢٥– تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 96, 223 .

١٢٦– قارن حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 178 .

١٢٧– نقلاً عن المرجع نفسه ، p. 179 .

١٢٨– في عالم الغرب يُعتقد عادةً أن هذه الكلمة تُكني لزعيمٍ قبلي، ولكنها في الحقيقة تفيد عن أى نوع من القادة، مدنيين أم دينيين، يملك سلطة رسمية . وفي السودان تُطبق دائماً على الأولياء وقادة الطوائف الدينية أكثر من أى محتوى آخر .

١٢٩– ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢)، Vol. II, p. 220 ؛

حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 179 .

١٣٠– ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم١٢) p. 220 ؛

حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 180 .

١٣١– ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. II, p. 220 ؛

حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 180 .

١٣٢– ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. II, p. 220 ؛

هولت، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 30 .

١٣٣– قارن جب ، Mohammedanism (New York, 1962), p. 162.

١٣٤- لمناقشة عامة حول حركة الصوفية، أنظر ما قبله pp. 127-64 ؛
قوليوم Islam (Harmondsworth, 1954), pp. 143-54
وبخاصة تريمنغهام .The Sufi Orders in Islam (Oxford, 1971)
١٣٥- قارن هيللسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥) p. 228 .
١٣٦- قارن تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 191-5 ؛
عبدالرحيم، مرجع سابق (هامش رقم ٨٨) p. 232 .
١٣٧- لتفاصيل عن إنشاء الطرق الصوفية في السودان، أنظر تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 195-202،
وحسن، محرراً، Sudan in Africa, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 2 (1971), pp. 79-82.
١٣٨- هيللسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥) p. 195 .
١٣٩- نفسه ، p. 199 .
١٤٠- تريمنغهام في لويس، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 137 .
١٤١- تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 100-101 ؛ عابدين، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 63 .
١٤٢- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 180-81 ؛ هولت، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) pp. 29-30 ؛ عابدين، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 63 .
١٤٣- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 29 .
١٤٤- الإشارة هنا تعود إلى وصف الدامر (بالقرب من مصب نهر عطبره) الذى قدمه بورخارت عام ١٨١٣ ؛ أنظر بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٦٩) pp. 265-70 .
١٤٥- هيللسون، المرجع السابق (هامش رقم ١١٥) p. 227 ؛ قارن كذلك جب، المرجع السابق (هامش رقم ١٣٣) pp. 151-2 .
١٤٦- تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 101 .
١٤٧- أنظر بلملي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 4-5
وفي ميخالوفسكي، محرراً، Nubia, Recentes Re´cherches (Warsaw, 1975), pp. 106-7.
١٤٨- قارن لويس، المرجع السابق (هامش رقم ٤) p. 28 .
١٤٩- لمناقشة عامة عن تقديس الأولياء وجوانبه المختلفة أنظر تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 126-41 .
١٥٠- هيللسون، المرجع السابق (هامش رقم ١١٥) pp. 218-19 .
١٥١- قارن، المرجع نفسه، p. 218 .
١٥٢- نفسه .
١٥٣- نفسه ، p. 219 .
١٥٤- نفسه ، pp. 219-20 .
١٥٥- نفسه ، p. 219 .
١٥٦- تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 141 .
١٥٧- لمناقشة عامة عن الأنواع المختلفة من القباب والضرائح أنظر ما قبله pp. 142-4 .
١٥٨- نفسه ، pp. 143-4 .
١٥٩- لمناقشة مفصّلة عن طقوس تقديس الأولياء في القباب، أنظر pp. 144-8 ، و فرنيا و قرستر، المرجع السابق (هامش رقم ١١٣)، pp. 33-4 .
١٦٠- فرنيا و قرستر، مرجع سابق (هامش رقم ١١٣) p. 33 . وللدراسة الأصلية، أنظر نديم في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٤٨). Vol. II, pp. 219-37.
١٦١- تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 122-3 .

١٦٢- لمناقشة عامة عن المهدية في السودان وغيره، أنظر ما قبله pp. 148-63 .

١٦٣- قارن تريمنغهام في لويس، المرجع السابق (هامش رقم ٤)، pp. 128-9 ،
و هودجكن في حسن، محرراً،
Sudan in Africa, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 2 (1971), pp. 109-27.

١٦٤- تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 150 .

١٦٥- هيللسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥) p. 228 .

١٦٦- قارن تريمنغهام، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ٢)، pp. 217-41 .

١٦٧- نفسه ، pp. 232-4 .

١٦٨- نفسه ، p. 234 .

١٦٩- أنظر ما قبله، pp. 166-78 ، و كالندر و الجندي
Life-Crisis Rituals among the Kenuz, Case Western Reserve University Studies in Anthropology, No. 3 (1971), pp. 11-16.

١٧٠- الجندي في فرنيا، مرجع سابق (هامش رقم ٤٨)، Vol. II, pp. 239-56.

١٧١- لمناقشة مُطَوَّلة أنظر تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢)، pp. 180-84,
وعلى وجه الخصوص كالندار والجندي، مرجع سابق (هامش رقم ١٦٩) .

١٧٢- لمناقشة عن الدين الأرثوذكسي [المحافظ ـ المترجم] في السودان، أنظر تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 115-25

١٧٣- نفسه ، p. 123 .

١٧٤- نفسه ، p. 117 .

١٧٥- نفسه ، pp. 121-2 .

١٧٦- قارن المرجع نفسه ، pp. 111-12, 122 .

١٧٧- نفسه ، pp. 123-4 .

١٧٨- نفسه ، p. 123 .

١٧٩- نفسه ، p. 9 .

١٨٠- رايزنر، المرجع السابق (هامش رقم ١) p. 347 .

١٨١- أنظر Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 52 (1966), pp. 152-5.

١٨٢- قارن ميليه في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. III (1964), p. 11;
بلملي في Illustrated London News, 11 July 1964, pp. 51 and 53, Fig. 9.

١٨٣- قارن بلملي، المرجع السابق (هامش رقم ١٨٢) p. 53 .

١٨٤- أنظر ميخالوفسكي Faras, Fouilles Polonaises 1961 (Warsaw, 1962), pp. 173-81 ;
فانتيني
The Excavations at Faras, a Contribution to the History of Christian Nubia (Bologna, 1970), pp. 257-62.

١٨٥- قارن فانتيني، مرجع سابق (هامش رقم ١٨٤) p. 257 .

١٨٦- University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), p. 57.

١٨٧- ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ١٨٤) p. 173 .

١٨٨- فانتيني، مرجع سابق (هامش رقم ١٨٤) p. 257 .

١٨٩- أنظر ميخالوفسكي في الشكل رقم ١ ، ما يلي p. 222 في Kush X (1962)

١٩٠- لتقرير عن هذه الحفريات أنظر آدمز في دنكلر، محرراً،

Kunst und Geschichte Nübiens in Chrislicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 141-54.

١٩١- لتسلسلٍ زمني عن شغل هذه المواقع أنظر ما قبله p. 151 .

١٩٢- أنظر آدمز في Kush XII (1965), p. 233

١٩٣- يشهد على صحة ذلك الأمر الحقيقة القائلة بأن أخر مساكن الوحدة إشتمل علي نصوصٍ بالدعاء المسيحي، مكتوبة بالإغريقية .

أنظر آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ١٩٠) p. 149 .

١٩٤- ما قبله ، pp. 145-6 .

١٩٥- بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٦٩)، p. 140 .

١٩٦- آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ١٩٠) pp. 146-7 ، وهامش ١٢ .

١٩٧- قارن إنقستروم

Notes sur les Modes de Construction au Soudan. Statens Etnografiska Musuem, Samarre Meddelanden No. 26 (Stockholm, 1957).

١٩٨- أنظر ما قبله p. 148 .

١٩٩- كلاً من الرسم العام وفن الديكور الموجود في المنازل النوبية الحديثة يبدو مشتّقاً من غرب إفريقيا، حيث عُرفا منذ تاريخ أسبق بكثير ؛ قارن إنقستروم، المرجع السابق (هامش رقم ١٩٧) . ولمزيدٍ من التفاصيل عن بناء المسكن السوداني الحديث وأنماطه أنظر لي في

The Professional Geographer, Vol. XXI (1969), pp. 393-7

وفي Landscape, Vol. 18 (1969), pp. 36-9;

جارفنتر في فرنيا و فرستر، المرجع السابق (هامش رقم ١١٣) pp. 49-60 .

٢٠٠- أنظر آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٩٠) p. 151 .

٢٠١- بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) pp. 137-8 .

٢٠٢- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٩٠) p. 149 .

٢٠٣- بونسيه

A Voyage to Aethiopia Made in the Years 1698, 1699, and 1700 (London, 1709), p. 14.

٢٠٤- أنظر ميخالوفسكي في Kush XIV (1966), pp. 289-99,

و دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ١٩٠) pp. 163-70 ؛

و جاكوبلسكي في دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ١٩٠) pp. 171-80 .

٢٠٥- بالرغم من ذلك، فإننا حتى الآن غير قادرين على تتبع أى صلةٍ ما بين فناء المسكن السوداني وحُصون القرون الوسطى المتأخرة.

٢٠٦- كراوفوت The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester, 1951), p. 44.

هايكوك، مع ذلك، إعتقد أن كل الحصون الكبيرة تقريباً شُيدت أساساً في الأزمان المسيحية ؛ أنظر

Adab, Journal of the Faculty of Arts (Khartoum University), Vol. I (1973), pp. 1-12.

٢٠٧- يشمل الآخرون وادنغتون و هانبري

Journal of a Visit to some Parts of Aethiopia (London, 1822), Cailliaud, Voyage à Méroé et au Fleuve Blanc (Paris, 1826-7; 4 vols.)

و هوسكنز Travels in Ethiopia (London, 1835).

إن مجلة Linant de Bellefonds ، مع أنها كُتبت في ١٨٢١ و ١٨٢٢ ، لم تُنشر حتى عام ١٩٥٨

(Journal d'un Voyage à Méroé dans les Années 1821 et 1822, Ed. Margaret Shinnie, Khartoum, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 4, 1958).

أما تفاصيل رحلة إلى مصر والبلاد ما وراء الشلالات

Narrative of Journey in Egypt and the Country beyond the Cataracts

التى خَطّها توماس لي (London, 1817) وقد بلغ قصر إبريم في عامى ١٨١٢-١٨١٣ ، فهى سبقت بالفعل رحلة بورخارت بأشهر قليلة، لكنها كانت معينةً في الغالب بالقطر وآثاره أكثر من النوبيين .

٢٠٨- لسردٍ خاص بالظروف المعثرة التى أحاطت برحلة بورخارت أنظر مورهيد

The Blue Nile (New York, 1962), pp. 141-66

٢٠٩- الفقرة التي تلي مأخوذة من أماكن مختلفة من بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٦٩)، pp. 132-48 . إن أجزاء كثيرة تناولت الإدارة الحكومية حُذفت، لكنها سوف يشار إليها في الفصل القادم . وقد تمت مراجعة الهجاء والفواصل بقدرٍ خفيف .

٢١٠- ممارسات الفلاحة بين النوبيين الحديثين تختلف قليلاً من وصف بورخارت ؛ أنظر الفصل الثاني .

٢١١- التسلح الموصوف هنا مماثل بالفعل لما يزال محمولاً من أفراد بعض قبائل البجاء، بالرغم من أن النوبيين تخلوا عنه منذ فترة طويلة .

٢١٢- وجد بورخارت فيما بعد أن هذه الممارسة شائعة في النوبة العليا على نفس الصعيد ؛ أنظر المرجع السابق (هامش رقم ٦٩)، pp. 217-19, 269, 280.

٢١٣- ما انفك النوبيون يعتزون بفضيلة نسائهم . إن إكتراثهم بهذا المستوى يُعطى عادةً كسببٍ لمفارقتهم زوجاتهم وبناتهم بالبيت عندما يغادر الرجال للعمل في الخارج حتى لا يفسدن بعادات القاهرة والخرطوم، المنطلقة بلا قيد .

٢١٤- بأسعار التبادل الجارية اليوم يساوى ذلك ما يقارب الدولار الأمريكى الواحد، ولكن في زمن بورخارت لابد أن قيمتها كانت أعلى بكثير من ذلك . ويتراوح مهر الفتاة القروية اليوم إلى ما قيمته ٢٠٠ جنيهاً سودانياً .

٢١٥- وقعت حادثة من هذا النوع في فرس في الستينات (تبادل شخصي مع أندرياس كرونتبرج) .

٢١٦- لايزال الطمبور الآلة الموسيقية الوحيدة الشائعة في النوبة .

٢١٧- معظم الأوروبيين يرونها على هذا المنوال ولاسيما بالمقارنة مع موسيقى مصر الرتيبة .

٢١٨- تظل هذه الصفة مصدراً لفَخر النوبيين الحديثين، وهى تبين إستخدامهم المرغوب في مصر السودان .

٢١٩- جديرٌ بالإشارة أيضاً أن بورخارت سافر دون أي صلاحية رسمية أو مرافق عسكري من أى طرف .

٢٢٠- يبلغ هذا حوالي نصف تقدير السكان الحديثين ؛ أنظر الفصل الثاني .

٢٢١- بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٦٩) pp. 277-361 .

٢٢٢- مورهيد، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠٨) pp. 157-60 ، قطوف من أماكن مختلفة .

٢٢٣- معظم الأسر النوبية في الستينات كانت تمتلك واحداً أو أكثر من هذه المواعين .

٢٢٤- قارن كذلك هايكوك، المرجع السابق (هامش رقم ٨٠) .

الفصل الثامن عشر

المصادر الأساسية : المصدر المحدد لسلطنة الفونج هو كراوفورد

The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester, 1951) –

عمل ذو قيمة تاريخية عظيمة بحيث يصعب إدراك أن المؤلف كان مدفوعاً لطبعه طبعةً خاصة، لعدم وجود إهتمام عام به، لعشرين عاماً خلت . إن مصدراً أقرب معاصرةً هو أوفاهي و إسبولدنق

Kingdoms of the Sudan (London, 1974), Part I.

وتوجد معلومات طازجة في جيمس بروس

Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772, and 1773 (Edinburgh, 1790), Vol. IV, pp. 429-561.

تاريخ الشايقية على الأفضل يوجد في كراوفورد، المرجع السابق،

pp. 43-52, 193-5;

هنالك كتاب أيضاً عن الشايقية (Nicholls, The Shaikiya; Dublin 1915)

ولم أجد سانحةً للاطلاع عليه . أما المصدر الأساسي للمعلومات عن النوبة السفلى تحت الحكم العثماني فهو سرد بوركهارت Travels in Nubia (London, 1819), pp. 132-48

ومنه اقتطفت فقرات كثيرة في الفصل السابق . وعن الإستعمار العثماني ـ المصري هنالك ثلاثة مصادر : دهرين Le Soudan Égyptien sous Mehmet Ali (Paris, 1898); Hill, Egypt in the Sudan 1820-1881 (London, 1959);

وهولت A Modern History of the Sudan (New York, 1961), pp. 35-108.

وعن المهدية، أفضل المصادر تشمل ثيوبولد

The Mahdiya (London, 1951),

و هولت The Mahdist State in the Sudan 1881-1898 (2nd ed., Oxford, 1970).

١- أُسندت في صيغٍ مختلفة إختلافاً يسيراً إلى كارلايل و إمرسون . أنظر بارلت

Familiar Quotations, 14th ed. (Boston, 1968), pp. 577a, 605b.

٢- قارن كراوفورد The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester, 1951), p. 186,

و هولت A Modern History of the Sudan (New York, 1961), p. 18.

٣- أنظر كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 134-42 ؛

هيلسون في Sudan Notes and Records, Vol. XVI (1933), pp. 55-66.

٤- لتسلسلٍ زمنى عن زوار النوبة في بواكير العصر الحديث، أنظر الجدول السابع .

٥- قارن بدج The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. I, p. 22,

و شو في Sudan Notes and Records, vol. XII (1929), Part I, p. 64.

٦- Travels in Nubia (London, 1819).

ولإحياءٍ ملموس لأسفار بوركهارت ومغامراته أنظر مورهيد The Blue Nile (New York, 1962), pp. 141-66.

٧- المهدي A Short History of the Sudan (London, 1965), p. 35.

٨- بوركهارت، المرجع السابق (هامش رقم ٦) p. 133 .

٩- كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 65 .

١٠- للمدونة الكاملة عن التسلسل الزمني للفونج "مُدَّونة الفونج" أنظر ماكمايكل

A History of the Arabs in the Sudan (London, 1922), Vol. II, pp. 354-438

١١- قارن هولت في

Bulletin of the School of Oriental and African Studies, Vol. XXIII (1960), pp. 1-12,

وفي Journal of African History, Vol. IV (1963), pp. 39-55;

أيضاً حسن The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967), pp. 132-3.

١٢- قارن هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 18 ؛

وحسن، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p 132 .

١٣- أب، في آخر الكلمة، مضافاً إلى إسم جدٍ مؤسس أو جماعةٍ قبلية، تدل على "سليل (هذا الفرد أو تلك الجماعة)." وبالرغم من أن أب من أصلٍ بجاوى، تستخدم من معظم القبائل العربية والجعليين في وادي النيل وشرقه . أنظر حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١١) . p. 142 .

١٤- مترجمة من بّن في Sudan Notes and Records, Vol. XVII (1934), pp. 59-83.

١٥- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١١)، p. 133 .

١٦- قارن المرجع نفسه .

١٧- كراوفورد (مرجع سابق، هامش ٢ ، pp. 164-6, 332-4) يقترح تاريخاً أسبق في القرن السادس عشر لحكم عبدالله جماع على أساس ما يجوز إعتباره نسباً قبلياً غير مكتمل للعبدلاب . أنظر هامش رقم ٣٣ فيما يلي .

١٨- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 19 ؛

حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 134 .

١٩- حسن، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ١١) p. 134 .

٢٠- قارن تريمنغهام Islam in the Sudan (London, 1949), p. 85

٢١- كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 154 ؛

هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 22 .

٢٢- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 19 ؛

اركيل A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 208

٢٣- بروس

Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772, and 1773, 2nd ed. (Edinburgh, 1805), Vol. VI. P. 370.

ومنذ وقت قريب إستعاد إسبولدنق النظرية القائلة بأن الفونج في الأصل جاءوا من أعالي النيل، ولكنه يعتقد أنهم كانوا أسبق من الشلك وجوداً في تلك المنطقة . أنظر

Journal of African History, Vol. XVIII (1972), pp. 39-53.

٢٤- أركيل في Sudan Notes and Records, Vol. XXVII (1946), pp. 87-98;

و أركيل، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) pp. 206-9 .

٢٥- شاتاواي في Sudan Notes and Records, Vol. XIII (1930), pp. 247-58;

نادلر في Sudan Notes and Records, Col. XIV (1931), pp. 61-6;

كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، pp. 143-55 .

٢٦- قارن حسن في Sudan Notes and Records, Vol. XLVI (1965), pp. 27-32;

حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١١) p. 246 .

٢٧- كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 154 ؛

تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) p. 75 .

٢٨- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٠)، Vol. II, pp. 358-60 .

٢٩- قارن كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 136-7 .

٣٠- ما قبله، pp. 172, 174 ؛ ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٠)، Vol. II, pp. 431-3 .

٣١- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) Vol. II, p. 360 .

٣٢- قارن هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 19 ؛

حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١١) p. 134 .

٣٣- إن مأثور العبدلاب الذي يجعل منه إبناً لعبدالله جماع، مؤسس القبيلة، لابد أنه يعود إلى حذف أجيال عديدة من نسب العبدلاب .

أنظر كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 174 ، و ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠)، Vol. I, pp. 245-6.

٣٤- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢)، pp. 19-20 .

٣٥- تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) p. 87 .

٣٦- كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 179 .
٣٧- بروس، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) Vol. VII, Ch. 9 .
٣٨- قارن كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 30 .
٣٩- بروس، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) Vol. VI, p. 391 .
هذا الإفتراض موضع للتحدي ؛ أنظر نيكولس The Shaikiya (Dublin, 1913), pp. 17-18.
٤٠- بروس، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) Vol. VI, pp. 370, 423, 428-9 .
٤١- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 21 .
٤٢- مقعد في الحقيقة، ويكاد مستيقناً أن إستلهامه من غرب إفريقيا .
أنظر أركيل، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) p. 211 and Fig. 27 .
٤٣- يُعتقد أن تاج الفونج ذا القرون الشهيرة مأخوذ من غطاء رأس الإبارشة النوبة المسيحيين، بالرغم من أن أي علاقة مباشرة لم تثبت أبداً . أنظر أركيل، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) p. 210, Fig. 26, p. 211 ؛
ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, pp. 248-9 ؛
و كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 325-7 .
٤٤- نعوم شقير، تأريخ السودان (القاهرة، ١٩٠٣)، المجلد الثانى pp. 100-101 .
٤٥- بروس، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) Vol. VI, pp. 372-3 .
٤٦- تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠) pp. 86-7 .
٤٧- قارن كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 136 ؛
حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١١) p. 174 .
٤٨- بروس، المرجع السابق (هامش رقم٢٣)، Vol. VI, pp. 371-2 .
٤٩- تريمنغهام في لويس (هامش رقم ٢٠) p. 85 . إن هولت، مع ذلك، وضّح أن غزو النوبة من قبل سليم الأول خيال تأريخي ؛ أنظر Journal of African History, Vol. VIII (1967), pp. 19-23.
٥٠- قارن تريمنغهام في لويس، محرراً، Islam in Tropical Africa (London, 1966), p. 128.
٥١- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, pp. 213-15 .
٥٢- وادينغتون و هانبري Journal of A visit to Some Parts of Ethiopia (London, 1822), p. 122.
٥٣- تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠) p. 88 .
٥٤- كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 44 ؛
هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 7 ؛ و مورهيد، المرجع السابق (هامش رقم ٦) p. 151 .
٥٥- مورهيد، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 151 .
٥٦- بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 70-71 .
٥٧- وادينغتون و هانبري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) pp. 98-9 .
٥٨- قارن هيك، محرراً
The Journals of Major-General C. G. Gordon at Khartoum (London, 1885), pp. 30, 68, 78, 130, 166, 185, 208, 241, 259, 266-7, 314, 342, 347, 351.

٥٩- نفسه ، p. 166 .
٦٠- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, p. 213 .
٦١- أيد كراوفورد هذه النظرة (مرجع سابق، هامش رقم ٢ ، p. 44) ،
وفقاً لهارتمان في Zeitschrift für Allgemeine Erdkunde, Vol. XIV (1863), p. 167.
وينكر هذه النظرة ماكمايكل (المرجع السابق، هامش ١٠ ، Vol. 1, p. 213, no. 4)
بناء على البّينة التى قدمها بورخارت (مرجع سابق، هامش ٦ ، p. 70) و شوينفيرث

(The Heart of Africa, London, 1868, Vol. II, p. 194).

٦٢- قارن كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 193 .

٦٣- قارن ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, p. 216 .

٦٤- أنظر كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 194 .

٦٥- نفسه ، pp. 193-5 .

٦٦- تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) pp. 88-9 .

٦٧- لا يجب أن يُخلط هذا الإسم مع إسم مروي القديمة، بالرغم من أنه يُنطق مثله . فمروي الحديثة قريةً تقع بالضبط تحت الشلال الرابع، في مقاطعة نبتة القديمة . وليس مؤكداً ما إذا كان الإسم قد أُطلق عليها من الأوربيين الرحالة الأوائل الذين افترضوا لدى مشاهدتهم آثار الأهرامات البارزة في الناحية (قارن الفصل العاشر) أن هذه هي مروي القديمة، أم أنه بمحض صدفة إسمٌ ذو أصل عربي . إن قرب مروي من خرائب نبتة - أكثر من خرائب مروي التى تبعد عنها بمسافة ١٥٠ ميلاً جنوب النهر - تظل إلى اليوم مصدراً لربكةٍ لاحد لها .

٦٨- مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 195 .

٦٩- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, p. 216 ؛

تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠)، p. 89 .

٧٠- كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 195 .

٧١- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, p. 217 .

٧٢- كاليود Voyage à Méroé et au Fleuve Blanc (Paris, 1826)l Vol. II, pp. 40-41.

٧٣- لأوصافٍ مفصلة لكثيرٍ منها، أنظر كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 43-9 .

٧٤- نفسه ، p. 44 . إعتقد هايكوك، مع ذلك، أن أكبر القلاع بُنيت أصلاً في الأزمان المسيحية . أنظر

Adab : Journal of the Faculty of Arts (Khartoum University), Vol., I (1973), p. 2.

٧٥- نقلاً عن كراوفورد Ethiopian Itineraries, c. 1400-1524 (Cambridge, 1958), pp. 180-81.

٧٦- بروس، المرجع السابق (هامش رقم ٢٣) Vol. VI, p. 418 ؛

قارن أيضاً برواني

Travels in Africa, Egypt, and Syria from the Year 1792 to 1798 (London, 1799), p. 182.

٧٧- وادينغتون و هانبري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) p. 103 .

٧٨- تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) p. 89 .

٧٩- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 22-3 .

٨٠- نقلاً من أجزاء مختلفة من بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٦)، pp. 133-5 .

مع مراجعة الهجاء، وفواصل العبارات .

٨١- قارن بدج، مرجع سابق (هامش رقم ٥) Vol. II, p. 207 ؛

كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم٢) p. 171, n. 16 ؛

تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) 84 ؛ هيرزوق Die Nubier (Berlin, 1957), p. 74.

٨٢- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 23-4 ، والمرجع المنقول في النص (هامش رقم ٤٩) . إن المؤلف يقترح تأريخاً بعد ١٥٥٠ بعد الإحتلال العُثماني ؛ ومن ناحية أخرى، بلملي، الذي حفر قصر إبريم، يعتقد أن الإحتلال العثماني بدأ هنالك في عام ١٥٢٨ (تبادل شخصي) .

٨٣- قارن بدج، مرجع سابق (هامش رقم ٥) Vol. I, pp. 207-8 ؛

تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) p. 84 ؛ كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 168-71 ؛

هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 24 .

٨٤- قارن كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 169-70 ؛

هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٤٩) .

٨٥- لعرضٍ عن مصر تحت الحكم العثماني أنظر هولت

Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922 (Ithaca, 1966).

٨٦- المرجع السابق (هامش رقم ٦) p. 146 .

٨٧- نفسه ، p. 135 .

٨٨- أنظر هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 24 .

٨٩- لمزيدٍ من المعلومات عن الكُشاف وواجباتهم أنظر فانسلب

The Present State of Egypt (London, 1678), pp. 16-19;

ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) Vol. II, p. 331 ؛

و هيل On the Frontiers of Islam (Oxford, 1970), p. xvii.

٩٠- هيرزوق، مرجع سابق (هامش رقم ٨١) p. 76 .

٩١- نفسه ، pp. 76-7 ؛ فيلد

Contributions to the Anthropology of the Faiyum, Sinai, Sudan, Kenya (Berkeley and Los Angeles, 1952), p. 165.

٩٢- قارن ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, p. 166, n. 1 .

٩٣- تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) p. 84 .

٩٤- ميليه في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. III (1964), p. 11.

٩٥- فانتيني

The Excavations at Faras, a Contribution to the History of Christian Nubia (Bologna, 1970), p. 262

٩٦- آدمز في دنكلر، محرراً،

Kunst und Geschichte Nubiens in Chrislicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 144-5.

٩٧- أنظر حول سرد نوردن الخاص مؤلفه

Travels in Egypt and Nubia, trans. Tempelmann (London, 1757).

ولموجزٍ له أنظر بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٥) Vol. I, pp. 13-17 .

٩٨- بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٥) Vol. I, pp. 15 .

٩٩- نفسه ، p. 18 .

١٠٠- أنظر براوني، المرجع السابق (هامش رقم ٧٦) لسرده الخاص . ولموجزٍ لخط رحلاته أنظر بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٥) Vol. I, pp. 22-5 .

١٠١- قارن شو في Sudan Notes and Records, Vol. XII (1929), Part I, p. 64.

١٠٢- نفسه .

١٠٣- نفسه .

١٠٤- قارن بَيْر

Egyptian Guilds in Modern Times, Israel Oriental Society, Oriental Notes and Studies, No. 8 (1964), pp. 2-15;

فرنيا، محرراً Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966), Vol. I, pp. 8-9.

١٠٥- بورخارت، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ٦) p. 147 .

١٠٦- بَيْر، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٤) p. 135 .

١٠٧- لمذكرةٍ عن السيرة الحياتية للثلاثة أفراد موضع الحديث أنظر جنقفليش في

Sudan Notes and Records, Vol. XXVII (1946), pp. 239-40.

١٠٨- بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 135-9 ، نقلاً عن أماكن مختلفة، مع مراجعة طفيفة للهجاء وفواصل العبارات .

١٠٩- أنظر نتينق The Arabs (New York, 1964), p. 212.

١١٠- أنظر مورهيد، المرجع السابق (هامش رقم ٦) pp. 47-132 ، لوصف أخاذ وقراءة جيدة للبعثة الفرنسية لمصر .

١١١- يجادل ديتشارد هيل في نسبة محمد علي ذائعة الصيت إلى أصل ألباني (قارن Holt, op. cit, n. 85, p. 13) ؛ أنظر

A Biographical Dictionary of the Sudan, 2nd ed. (London, 1967), p. 249 and Egypt in the Sudan, 2nd ed. (London, 1967), p. 249 and Egypt in the Sudan (London, 1959), p. 4.

١١٢- السرد الماضي مأخوذ في الأساس من مورهيد، المرجع السابق (هامش رقم ٦) pp. 133-40 ؛ أنظر أيضاً هيل، مرجع سابق (هامش رقم ٨٥) pp. 176-80 .

١١٣- أنظر هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 36 .

١١٤- مورهيد، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 135 .

١١٥- قارن هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 37 .

١١٦- لمناقشة أبعد مدى في هذه النقطة، أنظر هولت، المرجع السابق (هامش رقم pp. 35-7 ؛ وهيل

Egypt in the Sudan 1820-1881 (London, 1959), pp. 1-4.

١١٧- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 37, 39 .

١١٨- إفتراض أركيل القاضي بأن امتلاك الأسلحة النارية لعب دوراً هاماً في نهوض سلطنات الفونج و دارفور (المرجع السابق، هامش ٢٢ pp. 203-16) غير مثبت بالبيّنة التاريخية .

١١٩- قارن هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 38 .

١٢٠- لعرض عن الفترة العابرة لإقامة المماليك في السودان أنظر روبنسون في

Sudan Notes and Records, Vol. V (1922), pp. 88-94.

١٢١- أخذ المرجز الماضي عن حملة إسماعيل من هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 39-41 . ولوصف متعدد وأكثر تفصيلاً أنظر مورهيد، المرجع السابق (هامش رقم ٦) pp. 166-86 . اما السرود الميدانية للحملة فتعود إلى وادينغتون و هانبرى (مرجع سابق، هامش رقم ٥٢) و كاليود (المرجع السابق، هامش رقم ٧٢) .

١٢٢- قارن هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 42 .

١٢٣- نفسه pp. 43-4 .

١٢٤- نفسه (هامش رقم ٦) p. 186 .

١٢٥- نفسه .

١٢٦- أُخذ هذا الوصف للإدارة الإستعمارية في غالبه من هيل، المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) . p. 43 ؛ أنظر كذلك هيل، المرجع السابق (هامش رقم ١١٦) pp. 22-4 . ومما تجدر الإشارة إليه، مع ذلك، انه كانت هنالك إعادات تنظيمية متعددة خلال الحكم التركي ـ المصري . ولفترة قصيرة أُلغيت الحكومة المركزية مرة واحدة وجُعل حكام المحافظات مسئولين مباشرة للقاهرة .

١٢٧- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) p. 46 .

١٢٨- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ١١٦) p. 25 .

١٢٩- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) p. 43 .

١٣٠- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ١١٦) pp. 46-7 .

١٣١- نفسه ، pp. 27-8 .

١٣٢- نفسه ، p. 1 .

١٣٣- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) pp. xvii, 48-51 .

١٣٤- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ١١٦) p. 43 . ولمناقشة عن قانون الشرع الإسلامي ومكانه في النظام القانوني السوداني انظر أكولاوين في حسن، محرراً،
Sudan in Africa, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 2 (1971), pp. 279-301.

١٣٥- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ١١٦) pp. 43-5 .

١٣٦- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) pp. 43-50 .

١٣٧- بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٥) Vol. II, p. 223 .

١٣٨- بيكر The Albert N'yunza and the Great Basin of the Nile (London, 1866), Vol. I, p. 11.

١٣٩- قارن هيل، المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) p. xv. .

١٤٠- نفسه ، pp. xviii-xix .

١٤١- أنظر هيل، مرجع سابق (هامش رقم ١١٦) pp. 70-72 .

١٤٢- أنظر خاصةً ما قبله، pp. 134-42 و هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 62-71 .

١٤٣- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 58-69 .

١٤٤- نفسه ، p. 33 .

١٤٥- أنظر على وجه الخصوص، المرجع السابق (هامش رقم ١١٦)، pp. 62-4 .

١٤٦- نفسه ، pp. 101-2 .

١٤٧- نفسه ، pp. 73-4, 78-9 .
هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 61 .

١٤٨- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 63-4 .

١٤٩- نفسه ، pp. 64-6 .

١٥٠- ما قبله ، p. 68 .

١٥١- قارن ما قبله ، p. 66-71 .

١٥٢- قارن ما قبله ، pp. 75-9 .

١٥٣- قارن بيّر، المرجع السابق (هامش رقم ١٠٤) pp. 135 .

١٥٤- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 79 .

١٥٥- نفسه ، p. 78 .

١٥٦- أنظر لويس، محرراً، Islam in Tropical Africa (London, 1966), pp. 38-44
و هودجكن في حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١٣٤) pp. 109-27 .

١٥٧- هنالك ثلاثة عروض تصويرية (وأحياناً جامحة الخيال) مباشرة للمهدية : ونجت
Mahdism and the Egyptian Sudan (London, 1891);
اوهروالدر وونجت Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp, 1882-1892 (London, 1892);
وسلاطين Fire and Sword in the Sudan (London, 1896).
إن معالجات حديثة اكثر إتزانا ودراسة أخرجها ثيوبولد
The Mahdiya (London, 1951), pp. 27-122
و هولت The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, 2nd ed. (London, 1970), pp. 45-1132.
ولعرض شائع انظر شرشل The River War (London, 1899), pp. 1-34
و مورهيد The White Nile (London, 1960), pp. 207-75.

١٥٨- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ١١١) p. 247 .

١٥٩- هذا السرد عن بزوغ المهدية وإسقاط النظام التركي ـ المصرى يتبع هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) .
pp. 75-8

و ثيوبولد، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧)، pp. 27-122 .

١٦٠- لمزيد من المعلومات عن هذا الفصل وأثره على الأحداث في السودان، أنظر هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٨٥) pp. 211-30 .

١٦١- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 82 .

١٦٢- نفسه ، p. 85 .

١٦٣- أنظر المرجع نفسه، p. 89 و مورهيد، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) p. 228 .

١٦٤- هيك، المرجع السابق (هامش رقم ٥٨) .

١٦٥- المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) pp. 35-68 .

١٦٦- المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) pp. 233-75 .

١٦٧- ثيوبولد، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) p. 140 .

١٦٨- لتحليل عن الصفة القيادية الكارزمية [أى الصفات الكامنة في الشخص ـ المترجم] للمهدي، أنظر دكميجيان و ويزومرسكي في Comparative Studies in Society and History, Vol. 14 (1972), pp. 193-214.

١٦٩- هذا العرض عن دولة المهدية أُخذ أساساً من هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 86-9 .ولمزيد من التفاصيل أنظر ثيوبولد، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧)، pp. 172-88 ؛ وهولت، مرجع سابق (هامش رقم ١٥٧)
pp. 105-222

١٧٠- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 100 .

١٧١- لمزيد من السرود المفصلة لحملة غزو السودان من جديد، أنظر ثيوبولد، مرجع سابق (هامش رقم ١٥٧)، pp. 189-262؛

هولت، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) pp. 232-42 ؛ مورهيد، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) pp. 332-47؛

وبخاصة شرشل، مرجع سابق (هامش رقم ١٥٧)، pp. 107-364 .

١٧٢- أنظر Life ، عدد ٤ أبريل ١٩٥٥ ، p. 31 .

وللإطلاع على وصف شرشل الكامل لمعركة أم درمان، أنظر المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧)، pp. 257-300 .

١٧٣- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 77 .

الفصل التاسع عشر

المصادر الأساسية : إعتمدت بالنسبة للتاريخ السوداني في القرن العشرين إعتماداً مكثفاً على هولت
A Modern History of the Sudan (New York, 1961), Parts III-IV.

ولتهجير النوبيين المصريين إرتكزت على مقالة فرنيا و وكنيدى في
Current Anthropology, Vol. 7 (1966), pp. 349-54,

وعدة مساهمات في فرنيا، محرراً، Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966).

إن تهجير النوبيين السودانيين موصوف في الغالب على أساس معرفة ميدانية مباشرة ؛ وقد تحصل على معلومات قيمة عن التوطين في كل من السودان ومصر من ليتل High Dam at Aswan (London, 1965), pp. 134-45.

١- بمقتضى قرض مقداره ٨٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني للحكومة المصرية، وقد تعدل مؤخراً إلى منحة تامة . أنظر ثيوبولد، The Mahdiya (London, 1951), pp. 195-6.

٢- قارن بوجه خاص كرومر Modern Egypt (New York, 1909), Vol. II, pp. 112-15,

و هولت A Modern History of the Sudan (New York, 1961), pp. 109-10.

٣- قارن هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 109 .

٤- كرومر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) Vol. II, p. 110 .

٥- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 111 .

٦- نفسه ، pp. 111-12 .

٧- نفسه ، p. 117 .

٨- أنظر هولت The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, 2nd ed. (Oxford, 1970), p. 14.

٩- أنظر خاصةً هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 113 .

١٠- أنظر على وجه الخصوص ما قبله، p. 127-9 ؛

كذلك عبدالرحيم في حسن، محرراً،

Sudan in Africa, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 2 (1971) , pp. 232-3.

١١- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 129 .

١٢- لمناقشةٍ أزيد، أنظر بخيت في حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 256-78 .

١٣- نقلاً عن هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 133 .

١٤- كوري في Journal of the African Society, Vol. XXXIV (1935), p. 49.

١٥- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 133 .

١٦- نفسه ، pp. 142-3 .

١٧- لمزيدٍ من التفصيل عن خلفية الأحزاب السياسية السودانية وتطورها، أنظر المرجع نفسه، pp. 143-6 ، وعبدالرحيم في حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) pp. 232-3 .

١٨- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 151-2 .

١٩- إتَّخذ خلفاء محمد على لقب "الملك" بعد عام ١٩٢٢ ؛ أنظر ما قبله، p. 125 .

٢٠- نفسه ، p. 162 .

٢١- نفسه ، pp. 165-6 .

٢٢- نفسه pp. 160, 166 .

٢٣- أنظر جمهورية السودان Sudan Almanac 1959 (Khartoum, 1959), pp. 135-7.

٢٤- قارن عبدالرحيم في حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١٠)، pp. 230-31 .

٢٥- بريور The Republic of the Sudan (London, 1961), p. 108.

٢٦- بقيت دارفور مستقلة حتى تم غزوها عام ١٩١٦ .

٢٧- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 147-50, 153 .

٢٨- ليس في دماء السودانيين الجنوبيين خلطة قوقازية، ومن ثَم تجدهم أشد حلكةً في لونهم من المسلمين الشماليين . إن هذا الفرق الواضح يجعلهم مُعَرضين للتفرقة العنصرية إلى حدٍ مقدرٍ في الشمال .

٢٩- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 146 .

٣٠- لتقريرٍ ممتد عن مؤتمر جوبا أنظر سعيد

The Sudan, Crossroads of Africa (London, 1965), pp. 46-71.

٣١- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 152-3 .

٣٢- نفسه ، pp. 166-7 .

٣٣- لمزيدٍ من المناقشة المفصلة عن سياسة حكومة السودان تجاه البعثات التبشيرية، أنظر سعيد، المرجع السابق، (هامش رقم ٣٠)، pp. 85-114 .

٣٤- لآراء السودانيين الشماليين عن مشكلة الجنوب أنظر المرجع السابق، وبشير

٥٤- أنظر كنيدي في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٤٤) Vol. II, pp. 356-7 .

٥٥- أنظر خاصةً إسكدر في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٤٤) Vol. I, p. 125 .

٥٦- قارن تريفر، المرجع السابق (هامش رقم ٥٢) p. 19 .

٥٧- أنظر على وجه الخصوص إسكدر في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٤٤) Vol. I, p. 125 .

٥٨- فرنيا و كنيدي، المرجع السابق (هامش رقم ٤٣) pp. 349-50 .

٥٩- ليتل High Dam at Aswan (London, 1965), pp. 140-42.

٦٠- فرنيا و كنيدي، المرجع السابق (هامش رقم ٤٣) p. 352 .

٦١- لمزيد من التفاصيل أنظر ما قبله ، pp. 350-51 ، وليتل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩)، pp. 142-4 .

٦٢- فرنيا و كنيدي، المرجع السابق (هامش رقم ٤٣) p. 351 .

٦٣- قارن كالندار و الجندى

Life Crisis Rituals among the Kenuz, Case Western Reserve University Studies in Anthropology, No. 3 (1971).

٦٤- فرنيا و كنيدي، المرجع السابق (هامش رقم ٤٣) p. 352 .

٦٥- نفسه ، pp. 352-3 .

٦٦- نفسه ، p. 354 .

٦٧- نفسه ، pp. 351-2 .

٦٨- ما قبله ، p. 353 .

٦٩- نفسه ، p. 354 . ولمذكرةٍ عن الدراسات الأنثروبولوجية المتواصلة وسط النوبة المصرية التى أُعيد توطينها أنظر فهيم في Current Anthropology, Vol. 14 (1973), pp. 483-5.

٧٠- قارن جمهورية السودان

Population Census in Wadi Halfa Rural Area and Town (Khartoum, 1960), pp. 36, 85.

٧١- قارن ليتل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩) pp. 135-6 .

٧٢- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 176, 187 .

٧٣- نفسه ، p. 130 .

٧٤- نفسه p. 187 .

٧٥- ليتل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩) pp. 134-5 . ولموجزٍ تفصيلى للتعقيدات السياسية والمناورات التى أدت إلى إتخاذ القرار الخاص بخشم القربة، أنظر عبدالله في

Sudan Notes and Records, Vol. II (1970), pp. 56-74.

ولسردٍ مؤثرٍ عن برنامج التوطين بأكمله في السودان أنظر دفع الله The Nubian Exodus (London, 1975).

٧٦- ليتل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩) pp. 135-6 .

٧٧- كان هذا التفاؤل شائعاً بهذه السذاجة لدرجة أن زوجتي وشخصي، عشنا بصفةٍ مستمرةٍ في وادي حلفا من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٤ ، دُفعنا إلى نفس الإعتقاد الخاطئ أنه لن نُجبَّر أبداً على مفارقة دارنا المريحة . وظللنا على هذا الإعتقاد حتى عام ١٩٦٤ عندما تقبّلنا في النهاية على مضضٍ حتمية الرحيل .

٧٨- قارن ليتل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩) pp., 136-7 .

٧٩- نفسه ، p. 139 .

٨٠- نفسه ، p. 140 .

٨١- نقلاً عن وينزل House Decoration in Nubia (London, 1972), p. I.

ولصورةٍ فوتغرافية عن النقش أنظر الصفحة المقابلة .

٨٢- للمزيد عن المساكن النوبية في خشم القربة، أنظر لي في Landscape, Vol. 18 (1969), pp. 38-9.

٨٣- ليتل، مرجع سابق (هامش رقم ٥٩) p. 137 .
٨٤- نفسه .
٨٥- أنظر سيد أحمد في Sudan Notes and Records, Vol. XLVIII (1967), p. 161.
٨٦- نفسه ، p. 162 .
٨٧- نفسه ، p. 161 .
٨٨- قارن ليتل، مرجع سابق (هامش رقم ٥٩) p. 137 .
٨٩- بصفةٍ أساسية قبائل العرب من جماعة الشكرية، والبجا من قبيلة الهندوة .
٩٠- لتقريرٍ موجز للغاية عن وضعية النوبيين في خسم القربة من بعد خمس سنوات أنظر فهيم
Nubian Resettlement in the Sudan, Field Research Projects, Miami (1972).
٩١- قارن فرنيا و كنيدي، المرجع السابق (هامش رقم ٤٣)، p. 354 .
٩٢- جيسر، المرجع السابق (هامش رقم ٤٢) p. 189 .
ويعتقد جيسر أن الخزانات ما أعطت سوى حافزٍ لعملية الهجرة إلى الخارج والتى كانت جاريةً آنفا . وفي رأيه أن "أسطورة الخزان" سمحت للنوبيين للتمسك بأسطورة التشبث بأرض الأجداد في الوقت الذى خلصتهم فيه من الإلتزام بالحياة فيها .

الفصل العشرون

١- المادة الرئيسة لهذا الفصل قُرئيت كورقةٍ للمساهمة في ندوة متعددة الإختصاص عن وادي النيل تحت رعاية برنامج جامعة كولورادو في الدراسات الإفريقية والشرق أوسطية، ٢٩ أبريل - ١ مايو ١٩٧١ .
٢- بركلي و لوس أنجلس، ١٩٧٠ .
٣- ما قبله ، p. xii .
٤- نيويورك ، ١٩٦٨ .
٥- للمزيد من المناقشة المطولة في هذا الشأن، أنظر آدمز في Antiquity, Vol. XLII (1968), pp. 194-215.
٦- أصلاً في
Archaeological Survey of Nubia, Bulletin No. 3 (Cairo, 1909), pp. 5-6.
٧- قارن المرجع نفسه ، pp. 21-52 .
٨- لندن، ١٩٦٥ . وتشمل تواريخ النوبة التى استمرت في تكرار نظريات رايزنر في الهجرة، أركيل
A History of the Sudan , 2nd ed. (London, 1961),
و فيرسيرفس The Ancient Kingdoms of the Nile (New York, 1962).
٩- لمناقشةٍ ومراجع إضافية أنظر الفصل الأول .
١٠- أنظر بصفة خاصة A Study of History (New York, 1962) Vols. 1-2
١١- على نحو ما هو مرسوم كخطوطٍ عريضة في Oriental Despotism (New Haven, 1957).
١٢- أنظر على وجه الخصوص The Science of Culture (New York, 1949), pp. 363-98.
١٣- أنظر خصوصاً هاريس The Rise of Anthropological Theory (New York, 1968), pp. 643-87.
١٤- من بين أولئك الذين يبدو لي أنهم عَبّروا عن هذه النظرة هنري سمنر مَيْن، أ. ب تايلور، اميل دوركهايم و لوسن ليفي - برول في
Äncient Law (London, 1861), E. B. Taylor in Primitive Culture (London, 1871), Emile Durkheim in Les Formes Élémentaires de la Vie Religieuse (Paris, 1912), Lucien Lévy-Bruhl in Les Fonctions mentales dans les Sociétés Inferieures (Paris, 1910) and la Mentalité Primitive (Paris,

1912).

١٥- لمناقشة مرأى الأشخاص أقل حضارةً في الأزمان القديمة والعصور الوسيطة أنظر جونز و ثابار في
Comparative Studies in Society and History, Vol. 13 (1971), pp. 376-436.

١٦- للأهمية البالغة المتعلقة بهذا المصطلح، أنظر على وجه الخصوص ردفيلد
The Little Community and Peasant Society and Culture (Chicago, 1960), pp. 40-59.

١٧- قارن توينبي، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) Vol. 8, pp. 1-72 .

١٨- هاريس، المرجع المذكور آنفا (هامش رقم ١٣) pp. 377-8 .

١٩- أنظر خاصة فرانبر Methods der Ethnologie (Heidelberg, 1911),
وشميدت The Culture Historical Method of Ethnology, trans. Sieber (New York, 1939).

٢٠- أنظر كلوكهولن في American Anthropologist, Vol. 38 (1936), pp. 157-96.

٢١- لتطور أكثر لهذه الرسالة، أنظر كروبر The Nature of Culture (Chicago, 1952), pp. 379-95.

٢٢- لشرحٍ حول "عدوى" الثقافة، أنظر كلوكهولن، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠) p. 165 .

٢٣- قارن على وجه الخصوص ردفيلد، لينتون و هيرسكوفتش في
American Anthropologist, Vol. 38 (1936), pp. 149-52;
و لينتون، محرراً، Acculturation in Severn American Indian Tribes (New York, 1940), pp. 463-520;
بارنت Innovation: The Basis of Cultural Change (New York, 1953);
و بارنت وآخرين في American Anthropologist, Vol. 56 (1954), pp. 973-1002.

٢٤- بارنت وآخرين، المرجع السابق (هامش رقم ٢٣) p. 980 .

٢٥- على النحو الذي يمثله الدفن بالسرير الذي وُجد منذ وقت قريب في كولبنارتي ؛ أنظر أدمز في دنكلر، محرراً
Kunst und Geschichte Nubiens in Chrislicher Zeit (Recklinghausen, 1970), p. 149.

٢٦- أنظر خاصة كيرنز Philosophies of History (New York, 1962), pp. 204-30.

٢٧- قارن ما قبله، pp. 256-76, 322-36 ومهدي
Ibn Khaldun's Philosophy of History (Chicago, 1964), pp. 255-7.

٢٨- في The New Science, trans. Bergin and Fisch (New York, 1961), esp. Books Four and Five.
(First published 1725.)

٢٩- في The Philosophy of History, trans. Sibree (New York, 1944). (First published 1837.)

٣٠- The Decline of the West, trans. Atkinson (2 vols., New York, 1932). (First published 1918).

٣١- Social and Cultural Dynamics (4 vols. New York, 1937); The Crisis of our Age (New York, 1941).

٣٢- A Study of History (12 vols. New York, 1962-1963). (Vols. 1-3 first published 1934; Vol. 4-6 first published 1939; Vols. 7-11 first published 1954; Vol. 12 first published 1961.)

٣٣- لمناقشةٍ عن بعض هذه النقاط، أنظر كارنز، المرجع السابق (هامش رقم ٢٦)، pp. 35-195, 299-319 .

٣٤- لمناقشةٍ في هذا الموضوع، أنظر نيسبه على وجه الخصوص
Social Change and History (New York, 1969).

٣٥- Social and Cultural Dynamics (New York, 1937), esp. Vol. IV.

٣٦- لمناقشةٍ إضافية أنظر أدمز في دنكلر، محرراً
Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 111-28.

٣٧- أي، المعاهدة التى مهرها الجنرال الروماني فلورّس في أسوان ؛ أنظر الفصل الثالث عشر .

٣٨- معاهدة البقط ؛ أنظر الفصل الرابع عشر .

٣٩- أنظر، كمثال، كاسيرر

The Philosophy of Symbolic Forms, trans. Manheim (New Haven, 1953), Vol. II (first published 1925);

كولينقوود ;The Idea of History (New York, 1956)

فرانكفورت وأخرين (Before Philosophy (Harmondsworth, 1949

وبخاصة p. 11-38, 237-63 .

٤٠- مرجع سابق (هامش رقم ١٤) .

٤١- مثالاً على ذلك Primitive Society (New York, 1920), p. 441.

٤٢- أوضح ما يكون في (Zur Kritik der Politischen Ökonomie (Berlin, 1859

٤٣- Ithaca, 1953 .

٤٤- أنظر الهامش رقم ١٦ .

٤٥- قارن ڤيرث و ميلز From Max Weber: Essays in Sociology (New York, 1946), pp. 51-5.

٤٦- في كرايلنق و آدمز، محررين City Invincible (Chicago, 1960), pp. 391-404.

٤٧- لمناقشةٍ عن مفهوم " الأساليب الآفاقية " أنظر ويلي في بَيْنْت، محرراً

A Reappraisal of Peruvian Archaeology, Memoirs of the Society for American Archaeology No. 4 (1948), pp. 8-19.

٤٨- أوضح ما هو عليه في Patterns of Culture (New York, 1946), pp. 41-51.

٤٩- قارن

Configurations of Culture Growth (Berkeley and Los Angeles, 1944), and the Nature of Culture (Chicago, 1952), pp. 358-72.

٥٠- قارن ميد في ليرنر و هاسول، محررين، The Policy Sciences (Stanford, 1951), pp. 70-85,

وفي كروبر، محرراً Anthropology Today (Chicago, 1953), pp. 358-72.

٥١- بندكت The Chrysanthemum and the Sword (Boston 1946).

٥٢- قارن مَتْرو Métraux في

Themes in French Culture (Stanford University Hoover Institute Studies, Series D, No. 1, 1954).

٥٣- لمراجعةٍ لهذه الجهود أنظر سوروكين ;Social Philosophies in an Age of Crisis (Boston, 1950)

كروبر ;Style and Civilizations (Berkeley and Los Angeles, 1963),k pp. 83-160

ميلكو (The Nature of Civilizations (Boston, 1969

و ويسكوت The Enumeration of Civilizations (MS).

٥٤- للمناقشة، قارن على وجه الأخص كروبر، المرجع السابق (هامش رقم ٥٣) وميلكو، مرجع سابق (هامش رقم ٥٣) .

٥٥- طُورت هذه الفكرة على وجه التمام في سوروكين، المرجع السابق (هامش رقم٣٥) . أنظر كذلك كروبر في

Current Anthropology, Vol. 3 (1962), pp. 79-97.

٥٦- أنظر في شأن خلفية العلوم الطبيعية في علم أصول الأجناس بنيمان على الخصوص

A Hundred Years of Anthropology, 3rd. ed. (London, 1965), pp. 49-180.

٥٧- قارن بالذات كروبر، المرجع السابق (هامش رقم ٢١) pp. 379-95 .

٥٨- أشد ملاحظةً في

Configurations of Culture Growth (Berkeley and Los Angeles, 1944); An Anthropologist Looks at History (Berkeley and Los Angeles, 1963);

المرجع السابق (هامش رقم ٥٣) ؛ والمرجع السابق (هامش رقم ٥٥) .

٥٩- المرجع السابق (هامش رقم ١٦) و .The primitive World and its transformations (Ithaca, 1953)

٦٠- خصوصاً في المقالات المتنوعة المجموعة في .Theory of Culture Change (Urbana, 1955)

٦١- مثالاً على ذلك هربرت مولر

(The Uses of the Past; New York, 1952, and Freedom in the Ancient World; New York, 1961);

روشتون كولبورن (The Origin of Civilized Societies, Princeton, 1959);

كارول كويقلي (The Evolution of Civilizations; New York, 1961);

فيليب باقبي (Culture and History; Berkeley and Los Angeles, 1963);

و ماثيو ميلكو (مرجع سابق، هامش رقم ٥٣) .

٦٢- لمناقشة المنهج المقارن أنظر، بين مصادر عديدة أخرى، أكيركنشت في سبنسر، محرراً

Method and Perspectives in Anthropology (Minneapolis, 1954), pp. 117-25;

إيقان في إسبيرو، محرراً

Context and Meaning in cultural Anthropology (New York, 1965), pp. 357-72;

و هاريس، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) pp 150-62.

٦٣- لتثمين لأعمالهم أنظر على الخصوص لوي

The History of Ethnological Theory (New York, 1937), pp. 39-67;

هيس From Ape to Angel (New York, 1964), pp. 32-49;

وهاريس، المرجع السابق (هامش رقم ١٣)، pp. 180-200 .



محجوب التجانى محمود

- أستاذ علم الإجتماع في جامعة ولاية تنسى بالولايات المتحدة ، وأحد المختارين ضمن أبرز معلمى أمريكا عام ٢٠٠٢ من هيئة Who is who's America's Teachers
- وُلد في أم درمان ، درس بالسودان ، وحصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة براون بولاية رود آيلند ، ١٩٨٣ .
- رئيس الأبحاث في المركز الإفريقى للديمقراطية وحقوق الإنسان في جمهورية القامبيا ، ٩٢ - ١٩٩٤ .
- رئيس المنظمة السودانية لحقوق الإنسان - القاهرة .
- مستشار الشئون الإجتماعية في حكومة السودان المنتخبة ديمقراطيا (٨٦ - ١٩٨٨) .
- عميد كلية السجون - الخرطوم ، ٨٤ - ١٩٨٦ .
- رئيس إتحاد الإخصائيين الإجتماعيين ، المقرر الثقافى لجمعية تنظيم الأسرة ، أحد مؤسسى إتحاد الكتاب السودانيين ، ورئيس تحرير دورية حقوق الإنسان السودانى .
- من مؤلفاته بالإنجليزية قوانين السودان والقانون الدولى لحقوق الإنسان ، مفكرون سودانيون ، حقوق الإنسان في إفريقيا ، والبيروقراطية والتغيير الإجتماعى ؛ وشارك في مؤلف الأمم المتحدة عن نماذج التنمية الإفريقية ومؤلفات أخرى .
- من مؤلفاته بالعربية حقوق المرأة الإفريقية ، الدين والدولة في السودان ، إدارة ما... الديكتاتورية ، ومجموعة كتبه العقاب ومعاملة الجانحين في دولة المهدية ، تط... الجريمة والعقاب في السودان ، إنحراف الأحداث ، وقضايا معاصرة للعدالة الجنائ... في موسوعة سودانية .
- من تراجمه الأصول الفكرية للوطنية المصرية للكاتب السودانى جمال محمد أحمد ، الشرع الإسلامى والمجتمع في السودان للباحثة الأمريكية كارولين فلوهر - لوبا... سجين الخليفة للألمانى شارلس نيوفلد ، والصحراء والقفر ، قصة عن المهدية ، للكات... البولندى هنريك شنكافتش الحائز على جائزة نوبل في الآداب .
- يعمل على إصدار موسوعة للعدل الجنائى الإسلامى .
- النوبة أكبر تراجمه المنشورة .